معجم الفردوس

قاموس الكلمات الإنجليزية ذوات الأصول العربية

مع

مُقَدّمة الفردوس

مُغامرات اللغة العربية وجهادها عَبْرَ التاريخ

(مقدمة شاملة للتأثير العربي في اللغة الإنجليزية)

الجزء الأول

أ. د. مُهنّد عبد الرزّاق الفلوجيّ الحُسينيّ الهاشميّ
استاذٌ في علوم الجراحة ودكتوراه في فلسفة الطبّ
دكتوراه في الطب من جامعة لندن وزميل كلّيات الجراحين الملكية البريطانيّة في ادنبرة وگلاسكو
وإيرلندة مع الشهادة العاليّة في القانون



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهاشمي، مهند عبدالرازق الفلوجي

معجم الفردوس / مهند عبدالرازق الفلوجي الهاشمي - ط١ - الرياض، ١٤٣٣هـ

٨٠٠ص، ٢٠×٢٨سم

ردمك: ٨-٧٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- اللغة الإنجليزية - معاجم - اللغة العربية أ. العنوان

ديوي: ٤٢٣.١ ١٤٣٠/٤٥٨٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٥٨٩

ردمك: ٨-٧٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤، فاكس: ٢٥٤٣٣١٤

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا

تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

استغرق إنجاز معجم الفردوس ٢٠ عاماً، وسُمِّيَ بالفردوس؛ لأنّ هذه الكلمة الإنجليزية ذات أصل عربيّ، ولها المعنى نفسه عربياً وإنجليزياً. ثم إن الفردوس هي أعلى وأوسط وأفضل جنّات عدن، حيث العربية هي لُغة التواصل.

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح الإفادة من هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير والنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾

[يوسف: ٦٥]



مُعجم الفردوس

الحمـــد للّه توفيقــاً عــلى إتمامـــه   إنّـي لـه أفقـرُ الفُقـراء شكّـارٌ مُنيـبُ

أنـا الآسـي[1] وللتشـخيص عنـدي قـدرة   أنـا لكـلِّ جـراح الآدمـيين طبيـبُ

ويَراعــي[2] كســكيني دومــاً ناقــدٌ   وكُـلٌّ مـن يَراعــي نسـكينيْ ربيـبُ

قـد كُنـتُ ارعـى المفـردات كـأنني   علـى كُـلّ كـلام الإنجليـز رقيـبُ

يُدهش العقلُ من هـذي اللغات تَشابهاً   فكـلامُ العُـرْب للإنجليْـز جِـدُّ قريـبُ

والقـاموسُ هـــذا جـاءَ موثّقــاً   لقُــربِ تأصـــيل اللغــات لبيــبُ

عســـى اللّه جَمْــعَ المشــرفين لـــه   بفـردوسِ رحمـانٍ والـنبي فيهـا حبيـبُ

المؤلّف

---

[1] الآسي: هو الطبيب.

[2] يَراع يراعة: القصبة التي يُكتب بها، تستخدم كالقلم.



المحتويات

القسم الثاني

معجم الفردوس

قاموس الكلمات الإنجليزية ذوات الأصول العربية



شكرٌ وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

في أثناء السنوات القليلة الماضية، أشغلتُ وقتي بكتابة ما سوّدته قبل ٢٠ عاماً، ولكنني لم أستطع إنهاء العمل، ولا خطر ببالي أنه سيكون مشروعاً بهذه الضخامة، ولكن الدعم والرغبة المستمرين من صديقاي الشخصيين هما اللذان كانا يغذيان «بطّاريتي» باستمرار عندما كانت قُدراتي تتلكأ عن العمل، وهما اللذان أوقدا همتي واهتمامي عندما كنتُ أفقد المَلكة والحافز للاستمرار. ثم إن الدعم غير المحدود من زوجتي الدكتورة **نجلاء القيسي**، استحثني للتركيز كلما تاه مساري أو افتقدت الاهتمام، وهو الذي ساعدني على المثابرة لملء وقت الفراغ، حتى إن كنتُ مريضاً، من أجل إكمال هذا المشروع الضني نهائياً وإلى الأبد على نحو يلبي طموحي ورغبتي.

وأود في معرض ذلك أن أشكر أيضاً الأستاذ **محمد العُبيكان** الرئيس التنفيذي لشركة مكتبة العُبيكان، على صبره وتشجيعه لي في أثناء كتابة «مُعجم الفردوس».

كما أُقرّ بالعرفان للدكتور **محمد الأحمري** المُستشار الثقافي في شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، لنصائحه القيمة، ولتزويدي بنسخة من كتاب «مغامرات لغوية» لمؤلفه عبد الحق فاضل.

شكري الخاص كذلك لكلٍّ من:

الدكتور **طلال كامل خويطر** مُصمّم الحاسوب، وذلك لتصميمه اللوحات الملوّنة لهذا المعجم.

والسيد صالح عبد الله **الغامدي** خبير الحاسوب، ولابنه أحمد: لدعمهما غير المحدود في إخراج الأدوار النهائية لمقدمة الفردوس.

والدكتور **ياسين الزهدي** والسيد **عامر العُكيدي** المُدرسان والمربان المُتميزان.

والسيد **عبد الرحمن القرشي** مُدير تطوير الموظفين لمساعدته في تاريخ اللغة العربيّة لمقدمة الفردوس.

والعقيد الطبيب دكتور **عطيه بن محمد بن عطيه الزهراني**، الاستشاري في جراحه الغدد وامراض الثدي، لمساعدته لي بجدول أسماء الرُتب العسكرية المقارنة في مختلف لغات العالم.

وأخيراً فأنا مُدرك أنني قد تركتُ عدداً كبيراً من الأصحاب دون أن أسميهم، وأن بعضهم طلب عدم ذكر اسمه، من الذين أسهموا مباشرةً أو على نحوٍ غير مباشر: لاستكمال «**معجم الفردوس**»: فلهم مني جميعاً شكري الجزيل.

أ. د. مهند الفلوجي

لندن، الجمعة ٢٦ شباط ٢٠١٠ م

١٢ ربيع الأول ١٤٣١ هـ

alfallouji@hotmail.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

الحاجة اللغوية لهذا المعجم

هناك حاجة للتواصل اللغوي بسبب التدفق المتزايد للطلبة والعُمّال ورجال الأعمال، والمهنيّين (مثل: الأطباء والمهندسين) المتكلمين بالعربيّة والمسافرين من العالم العربي والإسلامي إلى نصف الكرة الأرضية الغربي (أمريكا وأوروبا). وبالعكس، فإنّ هناك حاجةً مشابهةً لمثل هذا التواصل اللغوي للعدد المتنامي من العُمّال ورجال الأعمال والتقنيّين والمهنيّين الناطقين بالإنجليزية والمسافرين من النصف الغربي إلى الشرق الأوسط العربي والعالم الإسلامي ذي الاعتمادات التجارية والغني بالنفط. لذلك فهناك حاجة متبادلة للتواصل اللغوي الإنجليزي/ العربي، خصوصاً في عصرنا الحالي عصر العولمة (أو العولمة الإنجليزية كما يُسمّيها بعضهم). لذا فإن إدراك الأصول المتشابهة للكلمات شائعة الاستعمال، يزوّد إدراكاً أفضل للغة الأجنبيّة، ويُيسّر تواصلاً سهلاً، ويحقق الأهداف المرجوة، سواء في الدراسات وسلسلة المحاضرات المكرسة، ودرجات الأقدميّة (الأكاديميّة)، أو في توليد الدخل وجني الأرباح في عالم التجارة والأعمال. والحقيقة أنه لما كانت اللغة هي خصيصة للأُمّة، فلقد أُدرك منذ زمن بعيد أن التواصل بلغة قوم يعني التطبيع والانسجام مع تلك الأمّة؛ ومن هنا كانت المقولة العربيّة: «**مَنْ تعلّمَ لغة قوم أمنَ شرَّهم**».

رُبّما النتيجة المُثمرة لهذا المُعجم الفريد مُزدوجة: التلاقح اللغوي (العربي/الإنجليزي) مع الحوار الثقافي والإدراك الثقافي المتبادل ضروري في تقليص الفروق الثقافية بين الشرق والغرب؛ والحقيقة إن النصارى واليهود والمسلمين يشتركون جميعاً في دين إبراهيم؛ بل يشتركون في دمه أيضاً. وعبّر عن ذلك بوضوح الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» في كتابه «دمُ إبراهيم» (١٩٨٥)، كما عبَّر عنه أيضا «كريس لوني» المدير الإداري الناجح لشركة «مورجان وشركاه» (الممتدة على ثلاث قارات) في كتابه الرائع «عالمٌ مُندثر–المسلمون والنصارى واليهود في إسبانية العصور الوسطى»، ليعني عالم الأندلس المندثر! (٢٠٠٦).

قال سمو الأمير شارلس، أمير ويلز وولي العهد في المملكة المتحدة (بريطانيا وإيرلندا الشمالية) وراعي مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في محاضرة عنوانها (وحدة العقيدة) ألقاها في جامعة الأزهر بالقاهرة في ٢١ آذار ٢٠٠٦: (إن جذور الاعتقاد الذي نشترك فيه بوحدانية الله، إله إبراهيم، قد زودنا بقيم ثابتة... والقاعدة الأكثر أهمية التي توحّد الاعتقادات الإبراهيمية هي: في اليهودية: «أحبَّ جيرانك كحبّك لنفسك»؛ وفي النصرانية: «**عامل الناس بمثل ما تحبّ أن يعاملوك به**»؛ وفي الإسلام: (**لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**).

ومن ناحية أخرى، فإن الإدراك الثقافي المتبادل قد بُحِثَ بتخصّص، ووُثِّق أكثر في الكتاب الممتاز للأستاذ «ريتشارد بوليبيت» «الدعوة إلى حضارة إسلامية نصرانية» (٢٠٠٤). وإن هذا المفهوم لا يمثل الحقَّ المحضَ فقط؛ لكنه أكثر تسبيباً للسلام والوحدة العالمية، بالرغم من التنوعات الثقافية المختلفة في هذه القرية العالمية التي نعيش كلُّنا فيها؛ بل إن هذا المفهوم بالمقارنة، أكثر اتفاقاً مع الطبيعة البشرية من المفهوم الخاطئ القادح والعبارة المُلهبة (المُثيرة للشغب) «صدام الحضارات»، التي استحدثها وأدخلها الأستاذ صاموئيل هنتينجتون في كتابه المُسمّى بها (٢٠٠٢)، التي لم تؤدِ إلا إلى الاستقطابات والتنافر المتبادل؛ مع حروبٍ ومعاناةٍ وضغائنٍ متبادلة.

إن الكلمات الإنجليزية ذوات الأصول العربيّة هي حصيلة ناتجة من التفاعل بين الشرق والغرب لأجيال عدة وعبر قرون عديدة، وفي مختلف نواحي الحياة؛ من هنا كان الزمن المستغرق في بحث هذا الموضوع متناسباً بطوله، حيث يبلغ قرابة (٢٠) عاماً أو يزيد.

لذلك فإن هناك سوقاً عالمياً واسعاً لمشروع المُعجم المؤصّل الإنجليزي/العربي لجميع الطلاب والعمال ورجال الأعمال والمهنيّين في المملكة المتحدة والأقطار الناطقة بالإنجليزية؛ ليخدم حاجاتهم اللغوية. ثم إن هناك من ٣ إلى ٥ ملايين مواطنٍ بريطاني مسلمٍ ناطق بالإنجليزية، وهم حريصون على تعليم أولادهم اللغة العربية لأسباب دينيّة (**العربية هي اللغة الإسلامية**). والأهم إن السوق في ما وراء البحار هي الأكبر في كلٍّ من الشرق الأوسط (٣٠٠ مليون عربي)، وفي العالم الإسلامي (١.٥ بليون مسلم غير عربي)، وهم حريصون جميعاً على التواصل باللغة العربية.

هذا المُعجم يُمثل مرجعاً شاملاً أكيداً (بالرغم من أنه غير مُستنفد تماماً) للكلمات الإنجليزية ذات الأصل العربي أو الأصل العربي الكامن المُحتمل، لذلك فهو يُشكل عملاً أصيلاً وبحثاً أكاديمياً دقيقاً منظماً وضخماً في تجهيز كتاب مرجعي فريد من نوعه لأجيال قادمة.

إن الحاجة لهذا المعجم عاجلة؛ لأنه يؤدي الوظائف الآتية:

١. إنه مرجع أكاديمي (أقدمي) أصيلٌ مُختصٌ بالكلمات الإنجليزية ذوات الأصل العربي ليكون كتاباً مرجعياً رائداً للمهنيّين خصوصاً الأطباء والباحثين العلميين والمستشرقين واللغويين وفقهاء اللغة المقارنة جميعاً.

٢. هو لرفيق اللغوي العلميّ للناطقين باللغة الإنجليزية من رجال الأعمال والتقنيّين والمهنيّين العاملين في الشرق الأوسط العربي والعالم الإسلامي.

٣. إنه الرفيق اللغوي الفريد للناطقين باللغة العربية من الطلاب والعاملين ورجال الأعمال والمهنيّين القاطنين في الغرب الناطق باللغة الإنجليزية، في أثناء دراستهم أو/ مع تواصلهم في البيئة (المحيط) الإنجليزية.

٤. هو مصدر مثالي للكلمات والعبارات الشائعة للأزواج المختلطين، مثلاً الزوجة الناطقة بالإنجليزية مع زوجها الناطق بالعربية، خصوصاً عندما ينوون تسمية أبنائهم بأسماء مقبولة لهما معاً.

٥. إنه ملخصٌ موثق، معتدل يتوسط بين الإفراط والتفريط: إفراط المصادر التي تلوي عنق الكلمات لتكوين قوائم من كلمات عربية تكاد تكون مهجورةً (أثرية) غير عملية للاستخدام؛ بل غير واقعية، وأحياناً غير مدعومة بتوثيق جيّد؛ وبين التفريط في المصادر الشحيحة بتأصيل الكلمات الإنجليزية ذوات الأصل العربي التي تشمل العديد من المعاجم الإنجليزية التقليدية والتأصيلية.

ويستطيع المرء أن يستنتج في أثناء قراءة هذا المعجم أن البشرية ليست إلاّ أسرة عالمية كبيرة واحدة، تقطن هذه القرية العالمية. والحقيقة أن المعجم بذاته هو دليلٌ على وحدة الجنس البشري بلغة أصليّة واحدة... وعلى نحوٍ غير مباشر هو شهادةٌ لوحدانية المصدر الأول؛ خالق هذه البشرية سبحانه وتعالى.

❊



المؤلِّف في سطور

المؤلف أ. د. مُهنّد الفلوجي مواطن بريطاني مُسلم من أصل شرق أوسطي، وينحدر نسبُ أسرته من نسب آل بيت النبي محمد ﷺ. وهو ناطقٌ مزدوجُ اللغة بتمكّن للعربية والإنجليزية.

وقد أسهم في تأليف ثلاثة مراجع مطبوعة باللغة الإنجليزية وهي: أُطروحة دكتوراه في جراحة القولون والمستقيم؛ وكتابٌ بعنوان «الجراحة المتقدمة»، وكتابٌ بعنوان «علم الأشعة السريري في الجراحة المتقدمة» وجرت طباعة الكتابين الأخيرين بوساطة بترورث – هاينمان للكتب الطبية العالمية. ثم إن للمؤلف أكثر من (٧٠) بحثاً علمياً منشوراً، جميعها باللغة الإنجليزية، مع بحوث أخرى باللغة العربية.

والمؤلّف يحمل درجة الدكتوراه بالطب، وهي أعلى درجة أكاديمية في الطب (دكتوراه فلسفة الطب) من جامعة لندن، وكان عنوان أطروحته في الدكتوراه: «أنماط الأوعية الدموية للقولون والمستقيم في الصحة والمرض – دراسة تطبيقية في التشريح والفلسجة وعلم الأدوية على مستوى الدورة الدموية المجهرية». وقد عرض في أطروحته فصلاً واسعاً في تاريخ الجراحة العربية. كما يحمل بكلوريوس طب وجراحة مع زمالات كليات الجراحين الملكية البريطانية والإيرلندية.

وهو يحمل أيضاً شهادة (دبلوما) متقدمة في القانون، من جامعة هدرسفيد في المملكة المتحدة، إضافةً إلى شهادة هيئة الاختبارات الوطنية في إدارة الإشراف من كلية ديوسبري - مدرسة الأعمال والدراسات الإنسانية، مع درجة في التاريخ البريطاني، وهذا إلى جانب اهتمامه الخاص المستمر في تاريخ الطب والجراحة العربية. وفي الحقيقة فإن إسهامات الدكتور الفلوجي الأخيرة شملت تقديم بحوث «للمجمع البريطاني في تاريخ الطب» عام ٢٠٠٧ في جامعة داندي؛ وكانت عناوين بحوثه:

- «التأثيرات العربية في تسمية المصطلحات الطبيّة».
- «الجروح البطنية في تاريخ العسكرية العربية».
- «التخدير الشمي (العام) في تاريخ الطب العربي».

والدكتور الفلوجي هو جرّاحٌ بالمهنة، وتدرّب كمقيم أقدم (مُسجّل)، وزميل باحث في مستشفى «هامرسميث» في لندن، و(مُسجّل أقدم) في مستشفيات «بلفاست التعليمية»، وأصبح أستاذاً مساعداً في جامعة العين (الإمارات العربية المتحدة)، ثم أستاذاً في الجراحة في بنغازي، ومن ثمّ أصبح أستاذاً زائراً في

بلدان عدة. ومنذ أوائل التسعينيات عُيِّن جرّاحاً استشارياً متخصصاً في جراحة القولون والمستقيم مع جراحة الناظور في المملكة المتحدة.

وقد جال الدكتور الفلوجي العالمَ ترحالاً لاسيما الأقطار ذوات الصلات الثقافية «بين الشرق والغرب»، وقد زار في الشرق الأوسط كلاً من (القاهرة، ودمشق، وطنجة، وبغداد) وزار في أوروبا الأندلس (إسبانية)، وفرنسا، وتركية (إسطنبول)، والهند والصين وأمريكا... وهو يحاضر باستمرار خارجياً بوصفه أُستاذاً زائراً للشرق الأوسط في بلدان عدة: مثل: المملكة العربيّة السعوديّة، والإمرات العربية المتحدة، وسورية، والعراق، وليبية.

ومن منطلق اهتمامات المؤلِّف في تاريخ الطب العربي فإنه يملك ثروةً نادرةً من الكتب التي جمعها من شتى بلدان العالم: وهي تشمل تاريخ العصور الوسطى في الطب، تاريخ الطب والعلوم عند العرب، مع كتب حول أصول المصطلحات الطبية والأصول العربية لكلمات الانجليزية على نحوٍ عام مما أسهم في إغناء "معجم الفردوس" وتأصيله.

❦

القسم الأول

مُقَدِّمة الفردوس

مُغامرات اللغة العربية وجهادها عبر التاريخ

(مُقدّمة شاملة للتأثير العربيّ في اللغة الإنجليزية)

الفصل الأول:

العربية: لغة الفردوس واللسان الأمُّ لآدم على الأرض

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ – وهو في جنّة الفردوس – القرآن[1] [البقرة: ٣١].

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١–٤].

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ – أمة واحدة على دين الإسلام – [يونس: ١٩].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢–١٩٥].

مكانة اللغة العربية وانتشارها:

من المهم قبل المباشرة بأي من موضوعات اللغة العربية تمييز موضعها بين لغات العالم حالياً، حيث تُعد اللغة الإنجليزية اللغة الأكثر مرونةً وانتشاراً، والأكثر تكلماً في القرن العشرين والحادي والعشرين.

وتُعدُّ اللغة الإنجليزية كذلك الذهب الأسود لبريطانيا مع بليون جنيه إسترليني سنوياً محصلاً من تعليم اللغة الإنجليزية في المملكة المتحدة[2][3]. لكن هذا الدخل حقيقةً يجب أن يكون أكثر من ذلك لوجود مؤسسات عدة بالخارج وعدة سفاراتٍ تعلّم دورات اللغة الإنجليزية.

واللغة الإنجليزية – اللسان الوطني لنحو ٣٠٠ مليون نسمة – أكبر مجموعة لغوية بالعالم باستثناء الصينيّة المندرينيّة (الصينيّون الكانتونيون في جنوب الصين وهونغ كونغ يتكلمون الإنجليزية أيضاً)، وهي اللغة السائدة لسكان اثنتين من ٦ قارات (أمريكا الشمالية وأسترالية)، وتمتلك جزءاً كبيراً من المتكلمين في القارة الثالثة (أوروبا)، وحجماً آخر في القارة الرابعة (إفريقية). والإنجليزية أيضاً هي أهم لغة ثانوية في العالم[4].

وأن الإنجليزية هي اللسان الأم لـ ٣٠٠ مليون من البشر، فإنها تعد اللغة الثانية لـ ٣٠٠ مليون آخرين. وكذلك فإن عدد الناس الذين يتعلمون الإنجليزية بوصفها لغةً أجنبيةً في الأقطار التي لا تعد فيها لغةً رسميةً هم نحو ١٠٠٠ مليون نسمة، وتكاد اللغة الإنجليزية تصل إلى أن تكون لغةً كونيةً. وفي الحقيقة يشار إلى اللغة الإنجليزية على أنها قارة لغوية لا تحدها حدود. ففي الوقت التي تعد الصينية أكبر قارة من ناحية اللغة الأولى، فإن الإنجليزية هي ثاني أكبر قارة لغوية.

ويدعي المجلس البريطاني أن بليوناً من البشر يتكلمون أو يحاولون أن يتكلموا الإنجليزية، وبأن تسعة أعشار (١٠/٩) معلومات العالم المخزّنة اليكترونياً هي بالإنجليزية، وأن غالبية الـ (٥٠) مليوناً من مُستخدمي الشبكة البينيّة (الإنترنت) يتواصلون باللغة الإنجليزية[1].

كذلك، هي اللغة الثانية الشائعة عند تخاطب الأمم بعضها بعضاً؛ ففي معاهدة سياسيّة بين باريس وبون، اختار المستشار هيلموت شميت والرئيس فاليري جيسكارد ديستنج أن يتواصلا بالإنجليزية!!!

وقد رأى الناشر (كولن) الفرصة التجارية الكامنة في أوائل ١٩٨٠م، وباشر بشراكة مع جامعة بيرمنغهام على مشروع مُعجم إنجليزي جديد كليًا مُصمم خصوصاً ليلبي احتياجات الطلبة الأجانب. وسُمي (كوبولد) اختصاراً لـ كولن – معلوماتي اللغة العالمية لجامعة بيرمنغهام، وقد كلّف المشروع ١٠٥ ملايين جنيه إسترليني ونشر المعجم في ١٩٨٧م، وبيع منه عدداً هائلاً تجاوز أكثر من نصف مليون نسخة للآسيويين والأتراك والإسبان والإيطاليين!

وتعد اللغة الإنجليزية حالياً اللغة الرسمية أو شبه الرسمية لأكثر من ٧٠ قُطراً ودولة حول العالم، وتتبعها اللغة الفرنسية[3][4] ثم تأتي اللغة العربية[2] بينما تتخلف اللغات الإسبانية والبرتغالية والألمانية للوراء مسافة طويلة[4][2].

وإن أخذنا الإحصائيات السابقة بعين الحسبان، فالعربية تحتل موقع اللغة العالمية الثالثة. لكن كثيرين يعدّون هذه الأرقام زائفة، وذات قيمة أكاديمية هزيلة؛ لأن اللغة العربية على نحو خاص يتكلمها ما لا يقل عن ١,٥–٢ بليون إنسان في هذا الكون. وعلى اعتبار عدد الشعوب المتكلمة، تأتي العربية أيضاً بالموقع الثالث بعد اللغتين الصينية والهندية.

والعربية هي اللسان الوطني لـ ٣٠٠ مليون عربي مقيم (يشمل العرب المسلمين وغير المسلمين) في العالم العربي والشرق الأوسط (الجزيرة العربية، الهلال الخصيب وشمال إفريقيا). ثم إن العربية اللغة الثانية لـ ١,٥ بليون مسلم غير عربي في العالم الإسلامي (في أوروبا الشرقية، وجنوب شرق آسية، وشبه القارة الهندية، وآسية الصغرى، وفارس، والسكان حول البحر الأسود، وبحر قزوين، وأجزاء من الصين وإفريقية وأمريكا)؛ كما أن الإسلام هو الدين الأسرع نمواً في العالم مما ينعكس أيضاً على مكانة اللغة العربية:

فواحدٌ من كل خمسة من البشر على الأرض، يؤمنُ يقيناً بالإسلام. وهناك (٥٤) دولة مسلمة اليوم، تتفاوت بين كبيرة كإندونيسية وبنغلادش وصغيرة مثل مالديف وبروناي. حتى في الأقطار غير المسلمة فإن الجالية الإسلامية كبيرة وتشكّل أقليّة ملحوظة: مثل الـ (١٢٠) مليون مسلم في الهند، و(٢٠) مليون مسلم في الصين. وقد أصبح الإسلام في نصف القرن الأخير حقاً ثاني أكبر دين في معظم الأقطار الأوروبية، وفي أمريكا وكندا كذلك. كشفت دراسة أجريت في ألمانيا أخيراً أنّ عدد المسلمين المقيمين في أوروبا يصل حاليًا إلى نحو ٥٣ مليون نسمة (المصدر: موقع مفكرة الإسلام على الشبكة البينية أي الإنترنيت). وحسبما نشره موقع المجلس الأعلى للمسلمين بألمانيا: قام مركز الأرشيف الإسلامي بعمل إحصائية حول عدد المسلمين في أوروبا جاء فيها أن عددهم يبلغ ٥٢,٧١٣,٩٥٣ من بينهم ١٥,٨٩٠,٤٢٨ مسلم يسكنون في دول الاتحاد الأوروبي، ومنهم أكثر من ٧,٠٠٠,٠٠٠ من خلفية عربية. وقد أسهم ذلك في تعزيز التواصل باللغة العربية للأسباب الآتية:

١. يجب على هؤلاء المسلمين أن يتكلموا اللغة العربية؛ لأن ذلك ضرورة إسلامية في أثناء تأديتهم الواجبات الدينية اليومية؛ لاسيما الصلوات الخمس في اليوم والليلة، فضلاً على مناسك الحج.

٢. كذلك من أسباب التواصل بالعربية التجارة المزدهرة مع العالم العربي الغني؛ والرحلات التقليدية، والعلاقات التجارية قد وُجدت لأكثر من ١٤ قرناً، كما أخبر بذلك الرحّالة والمكتشفون المشهورون كابن بطوطة وابن ماجد والإدريسي. لقد قيل: (إن معرفة اللغة الأجنبية لها أفضلية تنافسيّة، فاللغات كالزيت الذي يُسهل حركة التجارة).

٣. والسبب الثالث للتواصل بالعربيّة هو التوظيف الكبير في العالم العربي للمسلمين غير العرب المستوطنين من العالم الإسلامي لمختلف الأعمال (الدينية وغير الدينية) لتشكّل قوة عمل إضافية في العالم العربي.

وتعد العربيّة حقاً أغنى لغة، بأكبر مخزون كلمات في العالم. فبينما يحتوي المعجم العربي لـ ١٢٠٠٣٠٢٩١٢ كلمة كما وثّقها (الخليل بن أحمد في كتابه «العين»)؛ وإن عدد الكلمات الإنجليزية الراهنة جميعها تقع بين ٤٠٠،٠٠٠–٦٠٠،٠٠٠ كلمة في أكبر المعاجم الإنجليزية؛ لذا فالمفردات العربية هي أكثر ٢٥ مرة من اللغة الإنجليزية!!! وبالمقارنة، فإن أكبر المعاجم الفرنسية يحتوي على ١٥٠،٠٠٠ كلمة فقط؛ وأكبر المعاجم الروسيّة يحتوي على مجرد ١٣٠،٠٠٠ كلمة[٤].

تاريخ اللغة العربية:

يفخر المتكلمون باللغة العربية: لأنها لغة أهل الفردوس (في الجنّة). ولذلك فإن الله تعالى علّم آدم الأسماء كلّها بالعربية (انظر نصوص القرآن في مقدمة هذا الفصل)[٣].

فقد روى أبو جعفر محمد بن عبد الله الحافظ الكوفي المعروف بمطين، حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي، حدثنا يحيى بن زيد الأشعري، حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبّ العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي**» قال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكر الحديث، وقال: فما أدري أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح العام. وأبو الفرج ابن الجوزي ذكر هذا الحديث في الموضوعات... والله أعلم. انتهى. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٥٨/١).

روى الطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**».

كما روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي**». قال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٦١: موضوع. والحديث وإن كان ضعيفاً فإنه يؤخذ به في صالح الأعمال، ولكن لا يُؤخذ به في العقيدة.

هبط آدم عليه السلام بعد ذنبه وإخراجه مع زوجه حوّاء من الفردوس إلى الأرض، هبط بالهند، وبإرشاد الله عز وجل التقى بحواء في مكة، وفي موقع عرفة (حرفيّاً) كان التعارف؛ لأن آدم وحواء تعارفا فيها أول مرة بعد إخراجهما من جنة الفردوس. بل يقال إن آدم أنشأ قصيدة عربيّة بعد مقتل ابنه (هابيل عندما قتله أخوه قابيل وهما على الأرض) قال فيها[٥]:

تغيّرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مُغبرّ قبيح
تغيّر كلُّ ذي حُسنٍ وطيب	وقلّ بشاشة الوجه المليح

مع ذلك فإن الذرية من (آدم وحواء) كثرت عدداً لعدة أجيال قبل الطوفان الكبير في وقت نوح ﷺ. بعد ذلك وبعد رسوّ سفينة نوح على الجودي وهو جبل (في تركية اليوم)، فإن ذرية نوح من المؤمنين أعادوا استعمار الأرض ثانية. ثم تكاثر الناس وتعددوا وانتشروا في مواضع جغرافية مختلفة من هذه الكرة (الأرضية)، وبناء على ذلك، فإن كل أمة تكلمت لغة وعلى الرغم من تحويرها واختلافها البسيط عن الأخرى فإنها أصلاً متداخلة، ومن أصل جذري واحد، ومن هنا كان ظهور أسرة اللغات الهندوأوروبية حول البحر الأسود.

وبعد ذلك أرسل الله رُسُله، كلٌ يتواصل بلغة قومه. لكن ابن إبراهيم وهو النبي إسماعيل (الجد الأكبر للنبي محمد ﷺ، وفي الحقيقة هو الجد الأكبر لكل العرب) استمر بتكلم العربية الصافية في مكة (التي تعلمها من قبيلة العرب المحلية جُرهُم). روى أحمد في مسنده حديثاً، ورد فيه: «إن عدد الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاث مئة وخمسة عشر، وكل أسمائهم وذواتهم أعجمية، إلا محمداً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، فأسماؤهم وذواتهم عربية، وأما إسماعيل فذاته عربيةٌ واسمه أعجمي»[1].

ربما كان أعظم فخر أن الله عز وجل اختار أن يتكلم بالعربية مرة أخرى مع النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء (كما تكلمها أولاً مع آدم ومع هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام)، وأن ينزّل وحيه الكامل الأخير ونظام الحياة في الكتاب المقدس (القرآن) باللغة العربية؛ لكونها كلمات الله الصافية للتواصل. عند قراءة النصوص المذكورة من سورة الشعراء (١٩٢-١٩٥) نتأكد أن اللغة العربية هي الأفضل والأوسع بين كل اللغات، وهي اللغة الأوضح بياناً والأكثر بلاغة[2].

وقيل إن قحطان ابن النبي هود قال قصيدة عربية للتنفيس عن أبيه المكروب بعد حزنه على النازلة التي أنزلها الله عز وجل على أهل عاد، بعد عصيانهم لنبيهم هود، يقول فيها[3]:

إني رأيت أبي هوداً يؤرّقه	حُزنٌ دخيلٌ وبلبالٌ وإسهادُ
لا يُحزننك أن طاحت بداهيةٍ	عادُ بن لاوي فعادٌ بئسما عادُ

وأخيراً فإن المعجزة الكبرى للنبي الأميّ محمد ﷺ، كانت بالتأكيد القرآن الكتاب المقدس، والكتاب الأعظم بياناً بين الكتب التي أنزلها الله، التي جمعت في أعظم كتاب رباني كتب بأوضح لغة وأصفاها وأجملها ألا وهي (اللغة العربية).

قال الله تعالى موثقاً ذلك في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النحل ١٠٢ - ١٠٥].

إن اللغة العربية قد رُفعت بالإسلام لأعلى مكانة كونية بوصفها لغةً حية؛ فالعربية هي الوسط اللغوي الوحيد لإعلان الإسلام (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ولأداء صلوات المسلم الخمس في اليوم والليلة، ولأداء مناسك

الحج، ولقراءة القرآن. وذلك في جميع أنحاء العالم الإسلامي: وهي كذلك اللغة المشتركة للعلماء، والفيزيائيين، وللرياضيين (علماء الرياضيات)، والفلكيين، وللرحّالة والتجّار في العصور الوسطى.

يقول الامام الثعالبي في مقدمة «فقه اللغة وسرّ العربية»:

«من أحبّ الله تعالى، أحب رسوله محمداً ﷺ؛ ومن أحبّ الرسول العربي، أحبّ العرب؛ ومن أحبّ العرب، أحبّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب؛ ومن أحبّ العربية، عُني بها، وثابر عليها، وصرف همّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء والزند للنار».

وقد حُفظت مفردات اللغة العربية الجوهرية عبر الحماية الإلهية من قبل الله عز وجل للقرآن العربي من كل تحريف وتغيير (إن كان إضافةً، أو حذفاً، أو إعادة بناء النص أو تحويره) عبر التاريخ. لدرجة أن الكتاب الأصلي المُوحى للنبي محمد ﷺ قبل ١٤ قرناً يطابق تماماً أي نسخة للقرآن متوافرة حالياً. وحقيقةً إن نُسخ القرآن غير المنقطة المكتوبة على ورق الرقّ، لا تزال موجودةً بالمتاحف: كالمتحف البريطاني.

إن صفاء النص العربي للقرآن في أثناء ١٤ قرناً هو دليلٌ للعناية الأبدية التي أولاها الله عز وجل لهذا الحق عبر القرون كلها ضد كل التحريف، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وإن معجزة النبي محمد ﷺ الثانية هي مهارته اللغوية في الفصاحة العربية التي تجلت في (الحديث النبوي الشريف) التي بزّت كل اللغويين العرب عبر التاريخ. وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، وقد كان الحديث نقطة بؤرية لاهتمام كبار العلماء عبر التاريخ لتوثيق أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريراته في أدق شكل موثّق أصيل (الحديث الصحيح).

والقرآن والحديث قدّما موسوعتين مرجعيتين للغة المفردات والنحو العربي، وكانا أهم سببين لحفظ اللغة العربية وصيانتها؛ لتكون أكثر اللغات حيويةً في العالم مدة ١٤ قرناً. ثم إن هذين المصدرين فتحا عيون العرب وعقولهم للمعرفة الهائلة وعلوم الحضارات البائدة، فوسّع مداركهم، وأغنى لغتهم.

قال الله تعالى عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] معناه: لشرفٌ لك ولقومك لأنه نزل بلغتهم (العربية) فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلّص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي فيه شرفكم.

حوّل الإسلامُ العربَ الأجلاف والبدو إلى أمةٍ داعيةٍ لها هدفٌ أسمى في الحياة. وقد اكتسبت بعد الإسلام كلماتٌ كثيرة معانيَ دينيّةً جديدةً؛ ومن ذلك مثلاً: الصلاة، والصوم، والحجّ، والزكاة. وكلماتٌ مثل: المؤمن، والمسلم، والكافر، والفاسق والمنافق. كما ولّدت القيادة الإسلامية مصطلحاتٍ إداريةً مثل: الخلافة، والولاية، والوزارة، والحجابة، والقضاء، والحسبة.

وبمساعدة القرآن الكريم وحديث النبي محمد ﷺ حول الحضارات البائدة، والمدن، والأنبياء.. موسعت اللغة العربية كثيراً لتشمل أسماء شخوص، وأسماء بلدان. وكذلك فإن العربية كانت الوسط اللغوي للتعبير في زهاء ٣٢ حقلاً من حقول المعرفة والعلوم المُمارسة في الإسلام[١١].

يقول العلامة الشيخ محمد بن الطاهر عاشور رحمه الله لعن الدور العلمي والعالمي للغة العربية]:

«ومما تقدم إلى هنا: تعلم أن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ تنتهي إلى اثنين وثلاثين علماً اتُدرّس بالعربية] هي: التفسير، والحديث، والسيرة، واللغة، والنحو، والصرف، والتصوف، والعروض، والفقه وأصوله، والتاريخ، والطب، وآداب العرب، والبلاغة، والفلك، والمنطق، والفلسفة، والهندسة، والحساب، والهيئة، والجغرافيا، والموسيقى، وعلم الحيوان، والطبيعة، والرواية والقصص، والكلام، والصيدلة، والكيمياء، والفلاحة، والمساحة، والجبر، وجرّ الأثقال والتحرك، وتتبعها علوم تتفرع عن بعضها مثل: مصطلح الحديث، والجدل، وآداب البحث، ونقد الشعر».

فمثلاً: علم الهيئة المشار إليه آنفاً، كان علماً عربياً صرفاً ابتكره المسلمون، وهو يختلف عن علم الفلك في أنه يبحث أحوال الأجرام السماوية من أجل معرفة الجهات، من أجل تحديد موقع مكة (جهة القبلة) لإقامة الصلاة في تلك البلاد، ومن أجل تعيين مواقيت الصلاة اليومية، مع تقدير الأيام والشهور والسنوات واستخراج التقاويم السنوية، إضافةً إلى رصد هلال رمضان من أجل الصيام، وتعيين الأهلة وأحوال الشمس والقمر والنجوم، ومعرفة الكسوف والخسوف.

وللغة العربية قابلية للتوسع الهائل مع توسع رسالة الإسلام العالمية، لتحتوي مخزوناً إضافياً من عدد هائل للكلمات الجديدة المُعربة من الفارسية والآرامية والهندية والعبرية (مثلاً جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل، عزرائيل، إسماعيل، بابل).

ومن مزايا اللغة العربية أيضاً أن الجُمَل العربية تتكون بسهولة وتنطق بالسليقة (ابتداءً دون الحجة للنحو): فالنحو أصلاً استهدف الأعاجم غير العرب، وأضيف لاحقاً بوصفه علماً مستقلاً. وقد قوّى القرآن وجُمَل النحو العربي، مما أدى إلى وفرة في الكتب المكتوبة عن النحو العربي لكُتّاب عرب وغير عرب.

وقد خضعت أصالة اللغة العربية لجدل فيما إذا كانت توقيفية (مُعلّمة لآدم عليه السلام) من الله عز وجل منذ البداية، أم هي تطويرية: ابتكرها الناس بسبب الحاجة؟! هناك مؤيدون لكلتا النظريتين، لكن المفردات الجوهرية موصلةٌ بالوحي الإلهي لآدم (ومن ثمّ لذرية آدم) وممتزجةٌ بمفردات إضافية ابتكرها الناس عبر التاريخ[١١][٧].

احتج أهل القول في شأن اللغة إذا كانت اللغة العربيّة توقيفيّة (من الله فهي أزليّة) أو هي مُواضَعة من وضع البشر (فهي متطورة بتطورهم واحتياجاتهم)، فذلك على وجوه[١١]:

الوجه الأول: قوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] دلَّ هذا على أن الأسماء توقيفية، وإذا ثبت ذلك في الأسماء ثبت أيضاً في الأفعال.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه ذمّ قوماً على تسميتهم بعض الأشياء دون توقيف بقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم.

الوجه الثالث: قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢] فالمراد اختلاف اللغات لا اختلافات الألسن.

وأجيبَ عن الاستدلال بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أن المراد بالتعليم الإلهام؛ كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾[الأنبياء: ٨٠] أو تعليم ما سبق وضعه من خلق آخر، أو المراد بالأسماء المسمّيات؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[البقرة: ٣١]. ويجاب عن الاستدلال بقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أن المراد ما اخترعوه من الأسماء للأصنام من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام. ووجه الذم مخالفة ذلك لما شرعه الله.

وأجيب عن الاستدلال بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ المراد التوقيف عليها بعد الوضع وإقرار الخلق على وضعها.

ومما يدفع هذا القول أن حصول اللغات لو كان بالتوقيف من الله عز وجل، لكان ذلك بإرسال رسول لتعليم الناس لغتهم لأنه الطريق المعتاد في التعليم للعباد ولم يثبت ذلك، ويمكن أن يقال إن آدم عليه السلام علّمها غيره، وأيضاً يمكن أن يقال إن التعليم لا ينحصر في الإرسال لجواز حصوله بالإلهام. وفيه أن مجرد الإلهام لا يوجب كون اللغة توقيفية؛ بل هي من وضع الناس بإلهام الله سبحانه لهم كسائر الصنائع.

واُحتجّ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[إبراهيم: ٤] أي بلغتهم؛ فهذا يقتضي تقدم اللغة على بعثة الرسل، فلو كانت اللغة توقيفية لم يتصور ذلك إلا بالإرسال، فيلزم الدور لأن الآية تدل على سبق اللغات للإرسال والتوقيف يدل على سبق الإرسال لها.

لذا فاللغة العربيّة هي مزيج من ألفاظ أزليّة توقيفيّة، وأخرى موضوعة مُستحدثة؛ جاءت لتواكب تطورات الزمان والمكان والإنسان (موضوعة من علم الإنسان بما علّمه الله من العلم المكتوب في كتبه المُنزّلة ومن وحيّه لأنبيائه).

مواصفات اللغة العربية:

- **تتألف الأبجدية العربية من ٢٨ حرفاً**، بينما تتألف الأبجدية الإنجليزية من ٢٦ حرفاً؛ فزيادة المبنى يؤدي إلى زيادة في المعنى، لذا كانت مفردات اللغة العربية أكثر من مفردات اللغة الإنجليزية!
- **تمسك اللغة العربية أغنى رصيد مفردات في العالم**. فهي تحتوي على نحو ١٢,٩١٢,٣٠٢ كلمة (موثّقة من قبل الخليل بن أحمد في كتابه العين)، وهي تعدل ٢٥ ضعفاً على مفردات اللغة الإنجليزية؛ و٨٢ ضعفاً على مفردات اللغة الفرنسية؛ و٩٤ ضعفاً على مفردات اللغة الروسية.
- **لغة الإسلام لغة عالمية**: إن غنى مفردات اللغة العربية يفسر لماذا اختار الله تعالى التواصل بالعربية مع آدم عليه السلام ومحمد ﷺ (أول الأنبياء وآخرهم). بينما تواصل الله عز وجل مع الكثير من الأنبياء والرسل بلسان قومه المحلّي، لكن علم الله الواسع غير المحدود يحتاج إلى وسط لغوي ذي مفردات هائلة للتعبير لأبناء البشرية في الرسالة الأخيرة الشاملة والكاملة للقرآن؛ وهذا الوسط اللغوي الوحيد هو اللغة العربية؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة: ٤٨].

وقد لحظ الشاعر حافظ إبراهيم ذلك في قصيدته عن العربية وهي تصف نفسها؛ فقال على لسانها[٩]:

وسِعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً ... وما ضِقتُ عن آيٍ بهِ وعظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمُخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائهِ الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاصَ عن صَدَفاتي

- **إن اللغة العربية لغةٌ أصيلة حيّة منذ انبثاق التاريخ؛** بخلاف اللغة الإنجليزية (بوتقة انصهار اللغات الأوروبية والعالمية: فهي في جوهرها لغة هجينة بسبب التلاقح اللغوي)، لذا لا يوجد في تاريخ اللغة العربية ما يقابل العربية في الإنجليزية من الإنجليزية القديمة والوسيطة والحديثة. فالعربية هي قطعةٌ واحدةٌ متصلةٌ حيّةٌ، حيث كل كلمة (بغض النظر عن تاريخها) محمودة ومُستعملة في الكتابة، خصوصاً لغة الجيل الأول من الكُتّاب العرب، حيث ما زالت تُستعمل وتُعلّم في الدوائر الأقدميّة (الأكاديمية)، (بالرغم من أن بعض الكلمات لا تُستعمل بشيوع في أثناء المخاطبة). لذا لا يمكن للغة العربية أن تكون لغةً ميّتةً؛ لأنها لغة القرآن الذي تكفّل الله حفظه وحُفظت بحفظه؛ لذا فلا توجد كلماتٌ عربيةٌ ميّتةٌ بخلاف أكثر كلمات اللغة الإنجليزية القديمة والوسيطة (التي تُعد ميّتة وغير مُستعملة).

يقول دافيد كريستال في كتابه «موت اللغة» لنشرته مطبعة جامعة كامبردج، الطبعة السادسة، ٢٠٠٥ في الصفحات ١، ٢٤، ٤٥ على التوالي: (تموت اللغة عندما لا يتكلمها أحدٌ أبداً. ولكي تبقى «اللغةُ حيةً»، يجب أن يكون عدد أفراد المجتمع الناطق بها لا يقل عن ٥٠٠ متكلماً. وحسب بعض الإحصائيات، فإنّ هناك ٦٠٠ لغة فقط – من مجموع ٦٠٠٠ لغة تقريباً في العالم – هي وحدها «الآمنة» من خطر الانقراض – عندما لا يبقى أحدٌ يتكلمها)... (كل لغات آراواك والكاريبي التي كان ينطق بها أصلاً في جزر الكاريبي تعدّ الآن مُنقرضةً).

كان هذا بسبب إبادة الغزاة الأسبان للسكان الأصليين. وهذا بالمفارقة مع الإسلام واللغة العربية:

(تكلم جورج رزكاله، الناطق بالآرامية من مالولة في سوريا، عن الطريقة التدريجية التي استبدلت بها اللغة الآرامية (ينطق بها اليوم نحو ٦٠٠٠ شخصاً في ٣ قرى قرب دمشق) باللغة العربية، فقال: «قبل ٥٠ سنة، كان كلّ طلاب مالولة يتكلمون الآرامية، وبعضهم لا يستطيع النطق بالعربية إلا بصعوبة. ولكن الآن، الكلّ يتكلم العربية، وبعضهم بالكاد يستطيع النطق بالآرامية»).

(من الجدير بالذكر أنّ الأمم التي يغلب عليها أحادية اللغة في قدرتها ومنحاها، هي الأمم ذوات تاريخ يغلبُ عليه التوسع الاستعماري والديني – وأدوارها في الشرق، تنعكس بوضوح بالانتشار الماضي أو الحاضر لاستعمال كلّ من اللغة العربية، والهولندية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والبرتغالية، والأسبانية).

- **تُعدُّ اللغة العربية لغةً فريدة:** لأنها اللغة الوحيدة التي يمكن فيها تشكيل جملة متكاملة وصحيحة نحوياً من حرفٍ واحد: مثلاً قولك: كِ (فعل أمر والفاعل مستتر تقديره (أنت) للفعل يكوي)، وقولك: رِ (فعل أمر ليُري)، فِ (فعل أمر ليفي في العهد)، عِ (فعل أمر ليعي المقابل ويستمع)، قِ (فعل أمر من الوقاية).

- **العربية معروفة بالإيجاز: إيجاز الكلمات، وإيجاز العبارات:** من إيجاز الكلمات يمكن تكوين كلمة واحدة موجزةً ودقيقةً عند وصف أشياء أو حوادث كبيرة، فمثلاً في القرآن كلمة: المجادلة (كلمة واحدة) تعني بالإنجليزية: هذه المرأة التي جادلت، (٤ كلمات بالإنجليزية)؛ المُمتحنة (كلمة واحدة) وبالإنجليزية هذه المرأة التي يجب امتحانها، (٥ كلمات بالإنجليزية)؛ المُدثّر: الذي دثّر نفسه؛ المرسلات: هؤلاء المرسلون

نحوها: المطففين: هؤلاء المتعاملون في الاحتيال: الأعلى: هو الأكثر علواً: العصر: الزمن في هذه العصور: فاطر: هو الخالق لهذه الخليقة: الأحقاف: مسارات الرياح الملتوية: الصافات: هؤلاء المنتظمون في صفوف: الذاريات: هذه الرياح التي تذرو: الأنفال: هذه الغنائم من الحرب.

ثم إن الإيجاز يكمن في العبارات العربية[10]: حيث تستطيع العربية التعبير عن الحوادث الزمنية المفصلة بأقل كلمات مُستعملة. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. هذه الآية الواحدة من القرآن تشير لظواهر طبيعية عدة بكلمات قليلة. حتى إن فيلماً يمكن إنتاجه لتغطية كل هذه الأحداث. حُكي أن ابن المقفع طلب أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً وجعله مفصّلاً، وسمّاه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فرجع، ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً، وما هو من كلام البشر. وكان ابن المقفع فصيح أهل عصره.

- **إعجاز (عربيّة) القرآن**: يمكن ذكر ما يأتي للدلالة على ذلك[11]:

أحدها: إن وجه إعجاز (اللغة العربية) في القرآن هو الإعجاز والبلاغة، حتى يشتمل يسير لفظه على كثير المعاني، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] فجمع في كلمتين، عدد حروفهما عشرة أحرف، معاني كلام كثير.

والثاني: إن وجه إعجازه هو البيان والفصاحة، التي عجز عنها الفصحاء، وقصّر فيها البلغاء، كالذي حكاه أبو عبيد (القاسم بن سلام)، أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي قال: رأيت بالبادية جاريةً... وهي تقول:

أستغفرُ الله لذنبي كلّه	قتلتُ إنساناً لغير حِلّه
مثل غزال ناعم في دلّه	فانتصف الليل ولم أُصلّه

فقلتُ لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالتْ: أتعدُ فصاحةً بعد قول الله عز وجل: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة، بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وإنشاءين!

والثالث: إن وجه إعجازه هو الوصف الذي تنقضي به العادة، حتى صار خارجاً عن جنس كلام العرب: من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، والرجز، والسجع، والمزدوج، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها، مع كون ألفاظه وحروفه في كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم. وقد وردت معنا قصة ابن المقفع مع الصبي الذي يقرأ كلام الله، فلتُنظر.

والرابع إن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يكل، وسامعه لا يمل، وإكثار تلاوته تزيده حلاوةً في النفوس، وميلاً الى القلوب، وغيره من الكلام وإن كان مستحسن النظم، ومستعذب النثر، إلا أنه يُملّ إذا أُعيد ويُستثقل إذا رُدد.

- **تمتاز اللغة العربية بكونها لغة اشتقاقية:** بعكس اللغة الإنجليزية التصريفية (مثلاً يحبُّ، أحبَّ، محبوب، بلا حبّ، يحبّ، محب، يحبّ: انظر النص الإنجليزي) فإن اللغة العربية اشتقاقية[11]، مبنيّة على الفعل الثلاثي، ومنه يشتق عدد هائل من الكلمات مثلاً:

عَلِمَ: علمنا، أعلمُ، نعلم، اعلمْ، اعلمي، علّمَ، علّموا، يُعلّم، نُعلّم، تعلّم، تعلّموا، تعالمَ، تسالموا، عُلِمَ، يُعلم، عِلْمٌ، علَمٌ، علامة، معالم، أعلام، علامات، عالِم، عليم، علاّمة، علماء، عالمون، عـوم، متعلّم، متعلّم، مُعلِّم، مُعلَّم، مُعلَّم، معلوم، عالَم، عالَمون... وهلم جرا.

- **تمتاز اللغة العربية بإمكانية اشتقاق الأسماء بمحاكاة أصواتها:** تكوين الكلمة بمشابهة أصوت الذي تخرجه: مثلاً: طقطق Click وكوكو Cuckoo، تكوين الكلمات بمحاكاة الصوت هو جزءٌ من الاشتقاق الخاص بمحاكاة أصوات الحيوانات[12]. وهذا يدفعنا للبحث في:

العلاقة بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها:

محاكاة الأصوات (الاشتقاق وأنواعه):

تبدو في اللغة العربية بعض روابط بين أصوات كثير من الكلمات، أساسها محاكاة الأصو ت، فكثيرٌ من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء، وبعض الكلمات الدالة على لأفعال التي يحدثها الإ نسان أو غيره، تحاكي أصواتها في صورة ما، أصوات الظواهر التي تعبّر عنها.

(أ) فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان: القهقهة، والتمطق: حكاية صوت المتذوق إذا صوّت باللسان؛ والدندنة: كلامٌ تسمع نغمه ولا تفهمه؛ والتغمغم: الصوت بالكلام الذي لا يبين؛ والضوضاء: اختلاط الأصوات، والصراخ، والزعقة، والنحنحة، والتنحنح، والهمهمة: صوت يخرجه تردد الزفير؛ والأنين: الصوت الرقيق يخرجه المريض، والزفير، والشهيق، والتأوه، والحشرجة؛ والفحيح: الصوت الضعيف للنائم؛ والغطيط: صوته القوي، والشخير، والاصطكاك، والفرقعة، والكرير: صوت يخرجه المجهود والمختنق؛ والقرقرة: صوت يخرج من الأمعاء. ما تصرف من هذه الكلمات وما إليها، مثل: قهقه ودندن وتنحنح وزفر وشهق وتأوه وغطـ... وهلمّ جرّا.

(ب) ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان: رغاء الناقة وبغامها، وهدير الجمل وقرقرمه، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا، وحمحمته عند الجوع والاستئناس، وشحيج البغل، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وضباح الثعلب، ومواء الهرة، وصرصرة البازي، وقعقعة الصقر، وهدير وهديل الحمام، وسجع القمري، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيّات بفيها، وكشيشها بجلدها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت، ونقيق الضفدع، وطنين الذباب والبعوض.. وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها، مثل: هدر وقرقر وصهل وحمحم ونهق وزأر وعوى وتلعلع ونبح وزقزق ونعق.. وهلمّ جرا.

(ج) ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء: الخرير للماء، والقرقرة: صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب؛ والنشيش: صوت غليان الشراب؛ والشخب: صوت اللبن عند حلبه؛ والحسيس والمغمغة: صوت النار، والأزيز: صوت المرجل عند الغليان، وهزيز الريح، وهزيم الرعد، وجعجعة الرحى، وصرير القلم والباب، وقلقلة القفل، وخفق النعل... وما تصرف من هذه الكلمات، مثل: خرّ وقرقر وجعجع وخفق... وهلمّ جرّاً.

(د) ومن الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره: القطع، والقطف، والقطم، والقضم، والقط، والقد، والفري، والفرز، والكسر، والدق، والقرع، والهد... وما تصرف من هذه الكلمات، مثل: قطع وقطف وقضم وقطم ودقّ وكسر وقرع وهدّ... وهلمّ جرّاً.

- **تمتـاز العربيـة باسـتحداث ألفـاظ جديـدة**[١١٠]: القابليـة لاسـتحداث كلمـات أو اسـتخدامها بمعنـى جديـد للضـرورة والمعاصـرة؛ وتُسـتخرج هـذه الكلمـات بواحـدة مـن طريقتين لغويتين: الاشـتقاق (كمـا رأينـا في الاشتقاق العام والاشتقاق الخاص من الأصوات)، لكن معظمها **بالقياس** بحكم كلمة مجهولة بمثيلتها الشّخَمَة وتسميتها طبقاً لذلك. وهذا وسّع اللغة العربية جداً، إضافة إلى المفردات الأصلية.

لـذا فالعربيـة لهـا القابليـة أن تحـوي وتتبنـى جديـد الكلمـات والآلات، والاكتشـافات، والفلسـفات، والاختراعات، والأمراض، بتكوين كلمات خاصة: مثل كلمة: سيّارة، محاكاةً للاسم القديم للقافلة المتحركة: سيّارة. لذا كانت قرارت المجامع اللغوية تصب في هذا المنحى، ومن ذلك ما ورد في:

قرارات المجمع اللغوي العربي[١١١]:

١. **جعـل المصدر الصناعي** -وهـو مـا ختم بياء مشـددة بعدهـا تـاء لغير المـاعلة كالجاهلية والرهبانيـة- **مصدراً قياسياً**: ومثله: اشتراكيّة، جمهوريّة.

٢. صياغة **(فعالة) للحرفة**: مثل: جزارة، برادة، نحاتة.

٣. صياغة **(فُعال) للمرض**: زُكام، صُداع، فأي مرض يجوز أن يُصاغ على **فُعال**، كما صاغت العرب ما كانت تعرفه.

٤. صياغة **(تفعال)** للدلالة على المبالغة **في الشيء والكثرة**: ترحال، تجوال.

٥. صياغة **(مفعَلة)** مثل: مأسدة، منحلة.

والاستحداث المبنيُّ على القياس يشكل آليةً مرنةً في اللغة العربية لمواكبة مصطلحات المعاصرة. لذا فاللغة العربية قادرةٌ على تسمية الأمراض والآلات بصورة منطقية. ثم إن الكثير من الآلات المُخترعة العصرية مثل: الكاميرا والراديو، فإن تسميتها اقتضت مصطلحات عربية الأصل، على الرغم من أنها نتاج الغرب: (انظر مُعجم الفردوس تحت كلمتي: Camera وRadio).

ويشكّل التعريب المباشر للكلمات الأجنبية (وخصوصاً الكلمات الفارسيّة) آليةً مَرنةً للتوسع اللغوي. يُقال إنّ أعرابياً قد ذكر للنبي ﷺ أربع كلمات في القرآن ليست من العربية الفصيحة: (أتستهزئ، قسورة، كُبّار، عُجاب)، فسأله النبي ﷺ عمّن يرتضيه فصيحاً في العربية لجلبه فأحضروا الوليد بن المغيرة، فقال له رسول الله ﷺ: **(اقعد يا وليد)** فقعد، ثم قال له: **(قم)** فقام، وكرر طلب القعود والقيام منه مراراً، فاغتاظ الوليد قائلاً: (أتستهزئ بي يا ابن قسورة العرب، وأنا من كُبّار قريش؛ إنّ هذا لشيء عجاب). لكن هذا الحديث موضوع، لاتفاق أرباب الفصاحة

والبيان أن هذه الكلمات معروفة عند العرب، وإن كانت مشتركة مع الحبشية أو الفارسية فلربّما عرّبها العرب واستعملوها في لغتهم كغيرها من الكلمات المُعرّبة. لذا فإنه قد يُنظر إلى الاستحداث على أنه مجموعة لغوية واسعة باستعمال آليات عدة مرنة، مثل:

أ) القياس

ب) التعريب

جـ) النحت.

- **نحت الكلمات**[11]: وهي تكوين كلمات جديدة في اللغة العربية منحوتة ومشتقّة من الحروف الأولى لكلمات الجملة؛ لإيجاز جملة شائعة طويلة في كلمة واحدة، (ربما كان ذلك مشابها للكلمة المركب acronym بالإنجليزية)، ومن ذلك في العربية مثلاً:

1. **حيْعلة**: حكاية عن قول المؤذن: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.
2. **دمْعزة**: حكاية قوله: أدام الله عزك.
3. **حمْدلة**: أي من: الحمد لله.
4. **سبْحلة**: من قول: سبحان الله.
5. **حسْبلة**: من قول: حسبي الله.
6. **مشْألة**: من قول: ما شاء الله.
7. **حيْهلة**: من قول: حيهلا بالشيء.
8. **سمْعلة**: من قول: سمع الله لمن حمده.
9. **طلْبقة**: من قول: أطال الله بقاءك.
10. **هيْلله**: من (هلّل): من قال: لا إله إلا الله.
11. **ويْلمه**: من: ويْلم، أي قال: ويلٌ لأمه.
12. **صلْعمة**: من القول: صلى الله عليه وسلم، بعد ذكر اسم النبي ﷺ.

- **وتمتاز العربية بالأضداد أو الكلمات ذوات المعاني المتعاكسة**: ربما كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي تحوي كلمات ذوات معنيين متعاكسين تماماً في كلمة واحدة (لذا سُميت أضداد الكلمات أي كلمات ذوات معانٍ يعاكس أحدها الآخر). لقد وُثّقت في اللغة العربية قائمةٌ طويلةٌ تحوي (٣٥٧) كلمة ضد عربية، بمعنيين متعاكسين تعرف حسب سياق الكلمة وموضعها في الجملة[12]، ومن ذلك مثلاً:

جون: يطلق على الأبيض أو الأسود.

جلل: جليل عظيم أو هيّن.

أسرّ: للإخفاء أو الإعلان.

مولى: السيّد والخادم.

عسعس الليل: إذا أدبر أو إذا أقبل.

بسل: حلال أو حرام.

طرب: إذا فرح أو إذا حزن.

باع: باع أو اشترى.

اشترى: اشترى أو باع.

ناهِل: للعطشان أو الريّان.

صريم: يُقال لليل أو للنهار.

دائم: للساكن أو للمتحرك.

حميم: للحار أو للبارد.

غريم: تُقال للدائن والمدين.

أفاد الرجل مالاً إذا استفاده هو أو إذا كسبه غيره، فهو مفيد في المعنيين.

ملهاء: امرأة ناقصة العقل أو كاملة العقل لا تعرف الريب.

صريخ وصارخ: للمغيث وللمستغيث.

زوج: للزوج والفرد، كما تُقال: للرجل الزوج، أو للمرأة الزوجة.

- **تمتاز اللغة العربية بالوصفيّة**: فاللغة العربية وصفيّة لدرجة وجود كلمات دقيقة تصف أدقّ وصف تفصيلي وَوثَّقه لأفعال البشر (انظر فيما يأتي الأمثلة الأربعة: النوم، والنكاح، والقطع، والموت). والحقيقة أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي لا توازيها لغة أخرى بمصطلحات مراحل الأفعال البشرية المختلفة، الموصوفة في اللغة العربية بدقة متناهية. ونضرب لذلك أربعة أمثلة:

١. **النوم**: يوجد للنوم خمسة عشر اسماً تعكس عشر مراحل[١٢]:
   - أول النوم: **النعاس**، وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم.
   - ثم **الوسَن**، وهو ثقل النعاس.
   - ثم **الترنيق**: وهو مخالطة النعاس العين.
   - ثم **الكرى والغمضُ**، وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان.
   - ثم **التغفيق**، وهوالنوم وأنت تسمع كلام القوم.
   - ثم **الإغفاء**، وهو النوم الخفيف.
   - ثم **التهويم والغرار والتّهجاع**، وهو النوم القليل.
   - ثم **الرُّقاد**: وهو النوم الطويل.
   - ثم **الهُجود، والهُجوع، والهُبوع**، وهو النوم الغرِقُ.
   - ثم **التسبيخ**، وهو أشد النوم.

   (وقد يُضاف لها **السُّبات** وهو النوم العميق الطويل بلا حراك كالميّت).

٢. **النكاح أو الجماع**: حيث يوجد للنكاح نحو مئة اسم، لوصف مختلف أنواعه، حسب قوة الاتصال، ووضع النكاح[١٣]. وقد كتب الإمام الثعالبي فصلاً فيما يختصّ به الإنسان من ضروب النكاح، فقال: (لعل أسماء النكاح تبلغ مئة كلمة عن ثقات الأئمة، بعضها أصلي وبعضها مُكنّى):
   - **المحْتُ والمَسْغُ**: النكاح الشديد.
   - **الدَّعْظُ والزَّعْبُ**: الملء والإيعاب.
   - **الدَّعس والعزْدُ**: النكاح بشدة وعنف.

- **الهكُّ والهقُّ والإجهادُ**: شدة النكاح.
- **الرّصاعُ**: أن يحاكي العصفور في كثرة السفاد.
- **السّغمُ**: أن يدخل الادخالة ثم يخرج، ولا يُحب أن يُنزل معها.
- **الخُوقُ**: أن يباضعَ الجارية، فتسمع للمخالطة صوتاً، ويقال لذلك الصوت: خاقْ باقْ.
- **الدّحب والهرجُ**: كثرة النكاح.
- **الرّهزُ والارتهازُ**: اجتماع الحركتين في النكاح.
- **القهرُ**: أن ينكح جارية في بيت وأخرى معه تسمع حسّهُ، وقد جاء في الحديث النهي عن ذلك.
- **الإقهار**: أن يُباضع جاريةً وينزل مع أخرى.
- **التّدليص**: النكاح خارج الفرْج.
- **الإكسال**: أن يدرك الناكح فتورٌ فلا ينزل.
- **الفخفخة**: مطاولة الإنزال.
- **الغيل**: أن ينكحها وهي مُرضعة أو حامل.
- **الشّرح**: أن يطأها وهي مستلقية على قفاها، ولا يأتيها على حَرف. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً».
- **الحارقة**: النكاح على الجنب، ويقال: هو **الإبراك**. او في حديث عليّ ﷺ: «خير النساء الحارقة».

٣. **القطع**: في اللغة العربية على خلاف الانجليزية التي تستعمل كلمات قليلة للقطع، لكن اللغة العربية تحتشد بكمٍّ هائلٍ من الكلمات لوصف مختلف أنواع القطع حسب العضو المقطوع، وطبيعة الأنسجة المقطوعة، والآلة المستخدمة[٢].

قال الإمام الثعالبي في «فقه اللغة» في الباب الثاني والعشرين في القطْع والانقطاع والقطع

- فصل (**في قطع الأعضاء وتقسيم ذلك عليها**):

جدَعَ أنفَهُ. صلمَ أذنهُ. شترَ جفنَه. شرمَ شفتَه. جذمَ يده. جبَّ ذكره.

- فصل (**في تقسيم قطع الأطراف**):

قصَّ جناحَ الطائر. **حذفَ** ذنبَ الفرس. **قدَّ** ريشَ السّهم. **قلَمَ** الظُفُرَ. **قط** القلمَ. **عصَفَ** الزرْع. **خرَمَ** الأنف (وهو دون الجدْع).

- فصل (**في تقسيم القطع على أشياء مختلفة**)

حزَّ اللحم. **جزَّ** الصُّوف. **قصَّ** الشّعر. **عضَدَ** الشجرَ. **قضَبَ** الكرْم. **قطفَ** العنب. **جرَمَ** النخل. **برى** القلمَ. **فلحَ** الحديدَ. **خضَدَ** النبات الرّطب. **حصَدَ** النبات اليابس. **قطعَ** الثوبَ. **جابَ** الجيْبَ. **قدّ** السّيْر (قطعة من الجلد مستطيلة). **حذا** النّعل. **حذق** الحبل.

- فصل (**في القطع بآلات له مشتقة أسماؤها منه**):

وشرَ الخشبةَ بالميشار. **نشرها** بالمنشار. **قرَضَ** الفضّة بالمقراض. **قرَضَ** الثوب بالمقراض. **جلَم** الشّعر بالجلَمين. **نجل** الزرع بالمنجل. كذلك: **جزّ** الضأن. **حلق** المعزى. **جلَدَ** الإبل. لا تقول العرب غير ذلك.

- فصل (**في القطع الجاري مجرى الاستعارة**):

صَرَم الصَّديق. **هجر** الحبيب. **قطعَ** الأمر. جابَ البلاد. عبرَ النهر. بلت الحديث (أو بتك). بتَّ العقد. **فصل** الحُكمَ.

- **فصل (في تفصيل ضروب من القطع):**

البَضعُ، والهبرُ، **واللّحبُ**: قطع اللحم. **التشريح**: تعريض القطعة من اللحم حتى ترقّ، فتراها تشفّ من الرِّقَّة. **الحَسْمُ**: قطعُ العرق وكيُّه بالنار كيلا يسيل دمه. **العَرْقَبة**: قطعُ العُرْقوب. **الحَلْقمة**: قطع الحلقوم. **الذّبح**: قطع الحُلقوم من داخل. **القَصْبُ**: قطع القصّاب الشاة عُضواً عُضواً. **الخضرمة**: قطعُ إحدى الأذنين. **الخردلة** (بالدال والذال): القطعُ قطعاً، وكذلك **الشرشرة والخَريقة**. **القَرْضبة**: القطع بشدّة. **الجزْمُ والحدم**: القطع الوحي، وكذلك **الخذم**. **الهذُّ والهذمُ**: القطع بالسيف، وكذلك **الكَعْبَرة**. **الجدُّ**: قطع التمر، وجاء في الحديث «**النهي عن جداد الليل** فراراً من الصدقة». **الجذُّ**: القطعُ المستأصلُ الوحي. **الجثُّ**: قطعك الشيء من أصله (**والاجتثاث** أوحى منه). **الإيكاح**: قطع العطية. **الإزرام**: قطع البول على الصبي، وفي الحديث «**لا تُزرموا ابني**» أي: لا تقطعوا عليه بوله، **والإزرام**: القطع. ورواية الحديث أن النبي ﷺ بال عليه الحسن عليه السلام، فأخذ من حجره، فقال: «**لا تُزرموا ابني**، ثم دعا بماء وصبّه» (غريب الحديث لابن الجوزي ١/٤٣٥)). **البتْك**: قطعُ الأذن. **البتر**: قطعُ الذنب. **المسحُ**: قطعُ الأعضاء، من قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٣]، ومنه قولهم للخصيِّ ممسوحُ. **القصل**: قطعُ الرِّقاب. **الخَزْلُ والجزْلُ** (بالخاء والجيم): قطع اللحم. **واللهزمةُ والقطلُ**: من أنواع القطع.

٤. **لموت**: كذلك له كلماتٌ عربيةٌ عديدةٌ تعكس أسباب الوفاة ووقتها، وحالة الجسد الميِّت فيما إذا كان إنساناً أو حيواناً (بعكس الكلمات الإنجليزية القليلة لوصف الموت)[٢].

في تفصيل أسباب الموت وأحواله وضروبه قال الثعالبي:

- **فصل في أحوال الموت**: إذا مات الإنسان عن علة شديدة، قيل: أراح. فإذا مات بعلة، قيل: **فاضت نفسه** (بالضاد)، فإذا مات فجأة، قيل: **فاظت نفسه** (بالظاء). فإذا مات من غير داء قيل: **فطس**، **وفقس**. وإذا مات في شبابه، قيل: مات **عَبطة**، **واحتُضر**. فإذا مات من غير قتل، قيل: مات **حتف أنفه**، وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ. فإذا مات بعد الهرَم، قيل: **قضى نحبَه**. أو مات مسافراً، قيل: **ركب ردعه**. فإذا مات نزفاً، قيل: **صفرَت وطابُهُ** (أي خرج دمُه من عروقه).
- **فصل في تقسيم الموت**: مات الانسان. نَفق الحمار. طَفس البرذون. **تنبّل** البعير. **همدَت** النار. قَرت الجرحُ (إذا مات الدمُ فيه).
- **فصل في تقسيم القَتْل**: قتل الإنسان. **جَزر البعير ونحَرهُ**. **ذبحَ** البقرة والشاة. **أصمى** الصّيد. **فَرك** البرغوث. **قصَع** القملة. **صدغ** النملة (وحطم النملة أحسن وأفصح: لأن القرآن نطق بذلك في قصة سليمان عليه السلام). **أطفأ** السّراج. **أخمدَ** النار. **أجهز** على الجريح.

- **اللغة العربية الإنسانية وغير عنصرية:**

تُعد العربية بخلاف اللغة الإنجليزية ومعظم اللغات الأوروبية (انظر الفصل الثالث) لغة العواطف الإنسانية، كالرحمة، والمساواة، وفيها كلمات مهذبة لجميع مراتب الحب والجمال. واللغة العربية لا تعرف العنصرية أو لتنفّج (التفج المتكبّر) بسبب المشاعر الإسلامية الأخويّة الحارة المُتأصلة في اللغة العربية، التي محَت كل نزوة للاحتقار، وعدم المساواة العنصرية. فالإسلام قد صحّح السلوك العربي ومعه لغتهم لدرجة أن

القيم الإنسانية الأخلاقية الإسلامية متجذّرة بعمق في اللغة العربية؛ لأنها لغة الرسالة الإسلامية التي يرددها المسلمون في صلواتهم اليوميّة، ولكن أيضاً لغة الرسالة الربّانيّة التي اعتنقتها الأمة المسلمة حاملة رسالة الله الإسلامية عالمياً وناشرة لها. ويستطيع المرء رؤية ذلك بوضوح في (خطبة الوداع) للنبي محمد ﷺ قبيل وفاته وهو يخاطب ١٢٠٠٠٠ ألفاً من أتباعه بقوله ﷺ: «**أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقّاً ولهن عليكم حقّاً... واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً... كلُّ الناس من آدم وحواء؛ لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض؛ إلا بالتقوى والعمل الصالح...**» هذه كلماتٌ أُلقيت بالعربية قد يُظنُّ أنها تعود لعصر حركة الحقوق المدنيّة لكنها قيلت قبل ١٤٠٠ سنة.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذه الرجل فما بال هؤلاء؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره مقالته. فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي «الصلاة جامعة»، وقال: «**أيها الناس إن الربَّ واحد والأب أبٌ واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلّم العربية فهو عربي**» فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه قال: فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: «**دعه، إلى النار**» فكان قيس ممن ارتدّ في الردة فقتل. قال الألباني في «الضعيفة» (٩٢٦): ضعيف جداً.

وتنفرد اللغة العربية عن لغات العالم كلها بمزاياها الإنسانية التي تنعكس في مُفرداتها العملية الثريّة لتكريم الإنسان وللتنفيس عن المكروبين بقلب معاناتهم إلى مواساة خير وتربية على الصبر، فمثلاً:

من الفأل الحسن لكي يكون المرء لله راجياً حسن الظنّ به، مؤمناً بالقدر خيره وشره، سمّت العرب المنهوش بالسليم (أي أنّ اللديغ أو الجريح الذي أشرف على الهلاك يُسمّى سليماً، لرفع معنوياته)؛ والبرّيّة بالمفازة (البرية هي الصحراء لا ماء بها، بينما المفازة هي المنجاة)، وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء (مراعاة لأحاسيسهم)، وسمّوا الغراب بحاتم (أي القاضي، بدلاً من التشاؤم به، إذ كان يتمّ الزجر به على الأمور – انظر كتاب الحيوان للجاحظ)؛ والمجنون يُسمّى مطبوباً (لدفع السوء عنه كأنه تحت العلاج أو تحت تأثير السحر)؛ والخادم يُسمّى مولى، ثم إن السيد يُسمّى مولى (تأدباً، لأن المولى هو الخادم وهو السيد؛ لأنه من الأضداد الجميلة التي يُعرف معناها من سياق الجملة)؛

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكلّ نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي**» صحيح مسلم، رقم (٢٢٤٩).

كما أنّ المصاب يُسمّى جللاً (لتحويله من عظيم إلى هيّن؛ لأنّ لفظة الجلل من الأضداد) وفرج المرأة يُدعى حياها أو عورتها (تأدباً)؛ والشمال يسمّى يساراً (لتيسير الأمور ولكره أصحاب الشمال يوم القيامة)؛ والنكبة أو الفشل تُسمّى امتحاناً مأجوراً عليه؛ والمعاناة فتنة (لتمييز المؤمنين من المنافقين، مشتقة من فتن الفضّة؛ وهو إذابة الفضة واستخلاصها من شوائبها)؛ والابتلاء تمحيصاً (لتمييز المؤمنين الصابرين من غيرهم، مشتقة من تمحيص الذهب؛ وهو استخلاص الذهب بالنار من شوائبه)؛ والمحنة مُنحة ربّانية؛ والميت في أثناء القتال يُسمّى الشهيد الحيّ؛ بل يمتد مُسمّى حياة الشهادة التكريميّ ليشمل ٧ أصناف أخرى من موتى الأمراض والمنكوبين. فقد ثبت من حديث جابر بن عتيك في الموطأ والمسند وغيرهما بسند صحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المقتول في سبيل الله شهيد، والمطعون الميت**

بمرض الطاعون) شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب (الميت بمرضٍ صدريٍّ رئويٍّ) شهيد، **والمبطون** (الميت بأحد أمراض البطن) شهيد، **وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمْع** (المرأة الميتة وهي حامل) شهيدة».

كما وتنعكس مزايا التفاؤل الإنساني لقلب الضرر نفعاً، وترهيب الضارّين المُضرّين وتصبير المضرورين، عبر الأقوال العربية (وبعضها مشتقّ من القرآن والحديث) مثلاً: رُبّ ضارّةٍ نافعة؛ الكربةُ عدلٌ من الله وفضلٌ؛ تفاءلوا بالخير تجدوه؛ العلم بالتعلم والحلم بالتحلم؛ يسّروا ولا تعسّروا وبشروا ولا تنفّروا (أحاديث نبوية)؛ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]؛ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها؛ الله يُمهل ولا يُهمل؛ الجزاء من جنس العمل؛ إنّ مع العسر يُسراً [الشرح ٦]؛ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. (انظر الفصل الثالث: العنصرية بين لغتين – عرضٌ ونقد).

- **العربية لغة الجمال والحب البشري:**

يمكن عدُّ اللغة العربية بناءً على ما سبق لغة الجمال والمحبّة، فالله سبحانه وتعالى له ١٠٠ من الأسماء الحُسنى يرددها المؤمنون، ومن أكثرها شيوعاً وجمالاً: الرحمن والرحيم والودود.

وتكثر كلمات الجمال في الأدب العربي، ومن ذلك مثلاً ما وصف به جمال المرأة؛ فقد وصفته كلمات عربية مختلفة تعكس مدى جمالها[١٢] ومن ذلك قول الثعالبي:

– **فصل في ترتيب حُسن المرأة:**

إذا كانت بها مسحةٌ من جمال فهي: **وضيئةٌ وجميلة.**

فإذا أشبه بعضها بَعضاً في الحسن فهي: **حُسّانة.**

فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: **غانية.**

فإذا كانت لا تبالي أن لا تلبس ثوباً حسناً، ولا تتقلد قلادةً فاخرةً فهي: **معطال.**

فإذا كان حسنها ثابتاً كأنّه قد وُسم فهي: **وسيمة.**

فإذا قُسِمَ لها حظٌ وافرٌ من الحسن فهي: **قسيمة.**

فإذا كان النظر إليها يسرُّ الرُّوع فهي: **رائعة.**

فإذا غلبَت النساء بحُسنها فهي: **باهرة.**

فإذا فاقت النساء بحسنها وجمالها فهي: **فائقة.**

وكذلك الحُب البشري له أسماء عربية مختلفة؛ لوصف مراحل علاقة الحب ومستوياتها (دون ممارسة الجنس؛ لأنّ ممارسة الجنس خارج الزواج مُحرّمة في الإسلام)؛ فبينما التعبير الإنجليزي للحب يتكون من كلمة واحدة: Love حب، أو يقع في الحبّ مع أو دون المدلول الجنسي)، بخلاف اللغة العربية التي تمتلك ١٣ اسماً لتعكس عمق علاقة الحب ومراحله[١٣]:

١. أول مراتب الحب: **الهوى.**
٢. ثم **العلاقة**: وهي بداية ارتباط قلبين.
٣. **الصّبابة**: وهي الميل للحبيب وانشداد التفكير. مُشتق من صبّ: وهو السائل المتحرك من الطعام.

٤. **الكلف**: وهو شدة الحب، أشتداد التفكير وذكرى الحبيب.

٥. **العشق**: وهو الحب المفرط، واستمرار اشتداد التفكير، وملاحقة الحبيب أينما جاء، مشتق من عشيقي وهو نبات متسلق يحوط الشجرة.

٦. **شعفٌ ولوعةٌ ولاعجٌ**: وهو الهوى المُحرق.

٧. **الشغف**: وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب ويخترقه.

٨. **الجوى**: وهو الحب الذي يخترق داخل الإنسان.

٩. **الغرام**: وهو الحب الملازم مع الألم.

١٠. **التتيم**: وهو حب العبودية مع الطاعة التامة والانصياع، ومنه: تيم الله: أي: عبد الله.

١١. **التَّبْل**: وهو أن يسقمه الحب، فهو: متبول.

١٢. **تدْليه**: وهو ذهاب العقل من الهوى، ومنه رجلٌ مُدلّهٌ.

١٣. **ثم الهُيُوم والهيام**: وهو أن يذهب على وجهه كالمجنون: لغلبة الهوى عليه، ومنه: رجلٌ هائم.

- **كلمات عربية لا نظير لها:**

تمتلك اللغة العربية كمّاً هائلاً من الكلمات العربية بلا مُكافئ أو كلمات مُقابلة لها في أي لغة اخرى لأن اللغة العربية هي وسط التعاليم الإسلامية مما أكسبها وأغناها بمفردات فريدة، ومن ذلك مثلاً:

الزكاة. المسلم. المؤمن. الكافر. المنافق. الفاسق. الحنث. الخبيث. القرآن. الإقامة. التيمم. المتعة. الظهار الإيلاء. القبلة. المحراب. المنارة. الجبت. الطاغوت. إبليس. سجين. غسلين. الضريع. الزقوم. التسنيم. السلسبيل. هاروت وماروت. يأجوج ومأجوج. مُنكر ونكير.

(ويُضاف هنا أيضاً العديد من الكلمات العربيّة الشرعيّة الأخرى كالفقه، العورة، العرض، الشرف، الحياء، الطهارة (ليست النظافة)، الوضوء، حسنة، سيّئة، أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، صيام رمضان، جرح وتعديل، الحسبة، المستحب، المكروه، المندوب... والكثير من المصطلحات الشرعيّة الإسلاميّة كالحلال، والحرام (المباح ما أباحه الشارع وهو الله عز وجل، والحرام ما حرّمه سبحانه، وليس المسموح والممنوع ما يستحسنه المجتمع ديمقراطياً حسب النظام الوضعي، حيث يُبيح القانون الوضعي الربا والزنا وفعلة قوم لوط: وهي من المُحرّمات شرعاً، وكذلك القانون الوضعي يمنع الحجاب والطلاق والزواج المتعدد مثلاً، وهي أمور منصوصةٌ شرعاً).

- **العربية صاحبة أكبر مخزون من الكلمات المترادفة في العالم**، وهذا المخزون للمترادفات ليس له مقابل في أي لغة أخرى. ومن ذلك مثلاً: العسل: حيث يوجد له نحو (٨٠) اسماً: وكذلك السيف: يقال إن له نحو (١٠٠٠) اسم: والأسد له نحو (٥٠٠) اسم: والكلب له نحو ٦٠-٧٠ اسماً.

  - **فمن أسماء العسل**: كما أوردها العلامة مجد الدين الفيروزآبادي (صاحب القاموس) ٨٠ اسماً للعسل، في كتابه الذي سمّاه: (ترقيق الأسل لتصفيق العسل)، ومن تلك الأسماء: العسل، والضَّرَب، والضَّرْبة، والضريب، والشوب، والذوب، والحميت، والتحموت، والجلس، والورس، والشهد، والشهد، والماذي، ولعاب النحل، والرحيق... وغيرها.

  - **ومن أسماء السيف عند العرب**: إبْريق، أبهر، أثير، إزار، إزارة، إصْليت، أصْمعي، إفرِنْد، أنيث، باتر، باتك، بارقة، بتّار، بُتوك، جُنْثيّ، حنْيِم، حُسام، خدب، خشيب، خليل، براق، بسطام، ديسق، ذو

فقار، سطام، ددان، دُرّيّ، ذكر، ذو النُّون، رهيف، سُراط، سَريجيّ، شلْحاء، صارم، صُراط، صفيحة، صبلّ، صَلْت، صمصام، عطاف، غدير، فاروق، فرنْد، فيصل، فشْماش، قاطع، قرْضاب، قُرْضوب، قُرْطبى، كهام، كهيم، كوكب، لُخّ، لياح، ماضي، مثْنات، مثناثة، مَخّ، مُتْن، مخشوب، مُصفح، مُصفح، مضرب، مُنْصلت، مُهنّد، نجم، نُون، هبار، هذاء، هنْدي، وشاح، وشاحة، وقام، والمخفق، والصارم، والرّداء، والخليل، والقضيب، والصّفيحة، والمُفقّر، والصّمْصامة، والمأثور، والمقْضب، والكهام، والأنيث، والمعْضد، والجُراز، واللّدْن، والقُطار، وذو الكريهة، والمشْرفي، والقُساسيّ، والعضْب، والحُسام، والمُذكّر، والهُذام، والهذوم، والمُنْصل، والهذّاذ، والهذهاذ، والهُذاهد، والمخْصل، والمهْذم، والقاضب، والمُصمم، والمُطبّق، والضّريبة، والصّقيل، والأبْيض، والغمْر، والعقيقة، والمتين وهو الذي لا يقطع، والهُنْدكيّ، والماضي، والوقام، وكذلك المهند، والهندواني، واليماني، والمشرفي، والدمشقي؛ وهي أماكن صناعتها من حديد الهند (مهند وهندواني)، أو من حديد اليمن (اليماني)، أو يصنع في مشارف الشام (قرى من أرض العرب تدنو من الريف، ومنها السيوف المشرفيّة)، أما السيف الدمشقي فهو من أجود السيوف حاليا، ويصنع من حديد الفولاذ مع بعض المعادن غير المعروفة إلا عند صُنّاعها، وقد بقيت صناعته سرا حتى قبل سنوات قريبة جدا، ويقال: إن من أسباب انتصار المسلمين على الصليبيين بعد توفيق الله استخدامهم للسيف الدمشقي، وكان من أمضى السيوف وأقواها، ويتميز السيف الدمشقي بوجود ثلاثة خطوط متوازية على طول النصل، ينتهي أحدها مع نهاية النصل، كما يتميز السيف الدمشقي بالمرونة العالية حيث بإمكانك ثني رأس السيف حتى يلتقي بالمقبض دون أن ينكسر؛ بل يعود كما كان مستقيما. ويقال: إن صلاح الدين الأيوبي التقى يوما بأحد فرسان الصليبيين، فما كان من الصليبي إلا أن ضرب بسيفه إحدى الأشجار فقطعها نصفين، وكان يريد أن يظهر لصلاح الدين أن سيفه ماض، فما كان من صلاح الدين إلا أن قذف بمنديله في الهواء والتقاه بسيفه فقسمه إلى نصفين! وهذا يدل على شدة مضاء سيف صلاح الدين، رحمه الله.

يقول ابن سنان في مدحه للغة العربية: وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف، والأسد في لغة العرب فكانت أوراقا عدة، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها يبين ذلك، فليس كلام ينقل إلى لغة العرب إلا ويجيء الثاني أخصر من الأول، مع سلامة المعاني، وبقائها على حالها، وهذه بلا شك فضيلة مشهورة، وميزة كبيرة؛ لأن الغرض في الكلام ووضع اللغات، بيان المعاني وكشفها، فإذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار، فهي أولى بالاستعمال، وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والإطالة.

- **ومن أسماء الأسد:** قال ابن خالَوَيْه: وهي زهاءُ خمسُ مئة اسم وصفة، مثلاً: الضِّرْضِمُ، والدُّبَخْسُ، يقال: رجل دُبَخْسٌ، وجملٌ دُبَخْسٌ، للضخم الشديد، شبّه بالأسد. والأسد يقال له: الضِّرْضِمُ، والدُّبَخْسُ، والأفضعُ، وساعدةُ، والهصور، والمُهاصرُ، والمُهَصِّرُ، والهاصرةُ، والهُصَرةُ، والقَسْوَرُ، والقَسْوَرةُ، والبَسُورُ، والأغْضَفُ، والأغْلبُ، والفرْناسُ، والقرْقوسُ، والضَّمْضَمُ، والضُّبارمُ، والضُّبارمةُ، والهرْماسُ، والدَّلْهمسُ، والعَنْبسُ، والأسْجرُ، والعُنابسُ، والباسلُ، والمُخْدرُ، والخادرُ، والخَدْرُ، وحبيلُ براح، والصَّلْدمُ، والشّتيمُ، والغضوبُ، والغشْومُ، والعشرةُ، والغشمشمُ، والقَمُوصُ، والقمْقامُ، والعاديُ، والعزّامُ، والمُرْغضُ، والشّرْنبثُ، والمُدلفُ، والقَهمُ، والجهمُ، والنَّحّامُ، والبَهوَرُ، والبهْوَرُ، والحطّامُ، والقطُوبُ، والكريهُ، والهضّامُ، والشّدقمُ، والقسْقسُ، والمُصبرُ، والضّيْطرُ، والدّرْواسُ، والدّوّاسُ، والدّرْباسُ، والضّيْنطرُ، والأشجعُ، والداهي، والمُتزَنْجرُ، والأغمُّ، والعشمشمُ،

والرِّئبالُ، بالهمز، والرِّيبالُ، بلا همز، والفدَغْمُ، والصُّمُلُ، والبيْصَمُ، والشَّجْعَمُ، والعفرْنى، والعفريةُ، والنِّفريةُ، والعفريتُ، والنِّفريتُ، وليثُ عفرِّين، وليثُ اللُّيوث، وضُبَاث، والأصبخ، والأهْزَمُ، والصَّمُوتُ، والضَّمُوزُ، والمُصلخِدُ، والصِّلْخادُ، والعفرنسُ، والهُراهِزُ، والضِّرغامُ، والضِّرغامةُ، والفضنفرُ، والعوّاسُ، والهزبرُ، والقصنقصُ، والقصاقصُ، والقُصاقصةُ، والمُقرفِصُ، والهُزابرُ، والهبّاشُ، والهرهارُ، والفُرافِرُ، والمضعمُ، والقصموصُ، والنَّسورُ، والهقمُّ، والفصنفاصُ، والفُصافصةُ، والمِكتامُ، والنّهاتُ، وحمزةُ، والزُّبْرُ، والزَّبورُ، والعنبسةُ، والمُنهتُ، والمُكفهرُّ، وفُرانسُ، وقُصنقاصُ، والمُدلفُ، والسِّرحانُ (والسِّرحانُ أيضاً: الذِّئبُ) والعفورُ، والسَّبطرُ، والهُمهامُ، والهُموهُ، والهُمهومُ، والنّهامُ، والمُزدلِفُ، والهبّارُ، والمُهتهتُ، والرَّصيدُ، والدّامِرُ والدِّلفْرُ، والقسقسُ، والمُقرنفِصُ، والشَّهمُ، والمُقرنصِفُ، والمِطحَرُ، والشَّيخُ، والطَّيّارُ، والشُّداقمُ، والطَّيثارُ، والجواليقُ أيضاً، والعثمثمُ، (وهو الجملُ أيضاً)، والقهْدُ، والدّلهاثُ، وفي الناقةِ أيضاً. والقِرضابُ (وهو السيفُ أيضاً)، والسِّرطمُ، (بفتح السين والطاء، فأمّا السِّرْطِمُ: فالخطيبُ الفصيحُ). والوهّاسُ، والخنقْنُ والمُفرفِرُ، والأشرسُ، والأحولُ، والأشدقُ، والأنكبُ، والمِرقاشُ. والصَّمصامةُ (وهو السيف أيضاً)، والخُنابسُ، والورْدُ، والعفرْزُ، والعرُوسُ، والضّيْغمُ، وأُسامةُ. والهريتُ، (وهي المرأة المُفضاةُ أيضاً)، والهرتُ. والهوّاسُ، (وهو اسم لص أيضاً). وذو اللِّبدة، والزِّبرانيُّ، والقاني، (وهو الشديدُ الحُمرة أيضاً). والمِقدامُ، والضمضامُ، والخُبعثِنُ، والخُبعثِنةُ، والقلوبُ، والقليبُ، (وهو الذئبُ أيضاً). وكذلك السِّيدُ، والأهتَرُ، والهيْصَلُ، بالصاد، (فأمّا الهيضلُ، بالضاد: فالجيشُ). والعدبّسُ، (وهي الكتلةُ من التمر أيضاً). والشمشمةُ، والمُعتزِمُ. والحادرُ، بالحاء غير معجمة، (وهو السمينُ أيضاً). والنّهلُ والمُرزِمُ، والهدِبُ. والاخثمُ، (وهو العريضُ الأنفِ أيضاً من الرِّجال). والخثعمُ، (وهي أيضاً قبيلة). والجلنبِطُ، والمرهوبُ، والمهيبُ، والمهوبُ، والمُصمعِدُ، والرّاسبُ، والقارحُ، والجنْوزُ، والمُشبلُ، والمنهسُ، والرّتّاسُ. والجحدبُ، (وهو الجرادُ أيضاً). والعجنّسُ، (وهو الجملُ أيضاً). والسّبندى، والسّبنتى، (وهو النمرُ أيضاً . والغضنبُ، (وهو شدّةُ الحُمرة أيضاً). البيئسُ، وهو الشديد من كل شيء، قال الله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. والمهيسُ، والأزقبُ، والمغبُّ، والخبوسُ، والهادي، واللّحِمُ، والشّرسُ، والأغبسُ، والجهضمُ، والدّغفرُ، والكروّسُ، والبرْبرُ، والنّابُ، والكهمسُ، والهموسُ، والأزمُ، والقصّمُ، والعوفُ، والحيدرةُ، والخيتعورُ، والكلبُ، والسّبعُ، والسّبْعُ، والعميثلُ والزّأرُ والأشدخُ، والشدّيخُ والشّندخُ، والشّموخُ، والدِّرهاسُ، والجرهاسُ، والعفراسُ والصّلقامُ، والجرهامُ.

ولعل أشهر أسماء الأسد هو ما ورد في الجدول الآتي:

آساد	أبو الأبطال	أبو الحارث	أبو الزعفران
أبو العباس	أبو شبل	أبو فراس	أبو ليد
أزهر	أسد	أسدة (أنثى الأسد)	أسود
أسيد	أشدخ	ابن آجلى	الحفص
الفارس	المحمى	الهيزم	باسل
بريار	بهنس	بهور	جرفاس
جرهم	جيفر	حمارس	حمزة
حيدر	حيدرة	خزرج	خطار
درباس	درغام	رئبال	راصد

رزيم	زاهر	زياف	سبع
سبيع	سبيعي	سندري	شابل
شبل	شيظم	صهيب	ضرغام
ضماضم	ضيغم	عباس	عدوة
عرندس	عوف	غضافر	غضنفر
فرانق	فرناس	فرهد	فرهود
قسورة	قموص	لبوة (أنثى الأسد)	ليث
متبسل	متمهر	متهيب	مخشف
مهتصر	مياس	نجيد	هادي
هبرزي	هترك	هرامس	هزبر
همام	هيثم	هيصم	وهاس

أما الكلب فله نحو ٧٠ اسماً؛ فائدة: ورد في معنى اسم كتاب السيوطي «التبرّي من معرّة المعرّي» أن السيوطي قال: دخل أبو العلاء المعري على الشريف المرتضى فعثر برجل الشريف، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلبُ من لا يعرفُ للكلب سبعين اسماً! وقد نظمتها في أُرجوزة «التبرّي من معرة المعرّي».

قلت: وقد تتبعتُ كتب اللغة، فحصّلتُها أكثر من ستّين اسماً ومن ذلك مثلاً: الوعوع، الشنجر، الوأدأ، براقش: اسم كلبة، سلهب: كلب، جدلاء، ديوان، الدرواس، زنبور، سرحان، ضبار، عليق، مقلاء، القنيص، سرياح، الأرشم: وهو الكلب والذئب الذي يتشمّم، النهيم.

ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من ٤٠٠ اسم للداهية، ويوجد لكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء تبلغ نحو ٢٠ اسماً عند بعضها، وتصل إلى ٣٠٠ اسم في بعضها الآخر.

وقد جمع الأستاذ (دو هامر) المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه فوصلت إلى أكثر من ٥٦٤٤[١٠].

- **الانتشار العالمي للغة العربية**[١١]:

وأخيراً، فقد قيل إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي أقرضت كلماتها العربية لكل لغات العالم، أي أن كل لغة في العالم قد اقترضت بعض الكلمات العربية من اللغة العربية.

وبالرغم من المحاولات العديدة لاستبدال اللغة العربية الأصيلة للقرآن أي الفُصحى (أو العربية الصحيحة) باللغات العاميّة الدّارجة مع/ أو اللغات الأجنبيّة، فقد نجحت العربية مجتازةً اختبار الزمن، وظلّت صامدة لغةً حيّةً رصينةً لجميع أنواع التواصل الرسمي وشبه الرسمي، في العلم والآداب والتجارة؛ فالعربية كانت ولا تزال اللغة الوحيدة للتعبير والأداء الإسلامي.

- **اللغة الحيّة الجذّابة**

وأخيراً ظلّت اللغة العربية محتفظةً بموقعها العالمي كآصرة الوحدة للأخوة العالمية في هذا العالم (أو ما يسمّى بالقرية العالمية).

ومما يثير الانتباه هنا مقولة جويل كارمايكل في كتابه «تكوين العرب»[١٨]: (المدافعون عن تفرّد العربية الاستثنائي يشيرون إلى أن:

- الإغريقية غالباً ما يكون لها كلمة واحدة للعديد من الأشياء، بينما العربية لها عدة كلمات للشيء الواحد.
- جمال النطق الأخّاذ للغة لا يُضارع بما يُقال عن كنوزها المذهلة للمترادفات.
- الاحتمالات العربية لاستخدام اللغة المجازية الرمزية لا تنتهي: فالتلميح والتعابير المجازية وصور الكلام تضعها في موضع لا تطوله أي لغة أخرى.
- للعربية العديد من المزايا الأسلوبية والنحوية الفريدة جداً، لذلك لا يمكن الترجمة من العربية بصورة مرضية.
- النصّ العربي المترجم لنظيره الأجنبي يكون موجزاً مختصراً للأصل دوماً.
- العربية تخسر عند الترجمة، لكن جميع اللغات الأخرى تربح عند ترجمتها إلى العربية.
- لذلك يقول كاتبٌ معروف أنه من المفهوم الواضح أن آدم عند طرده من جنّة الفردوس فإنه مُنع طبيعيا من تكلم العربية، واضطر لتكلم السريانية بدلاً منها؛ وعندما رجع إلى ربِّه وتاب إليه سَمَحَ له بالنطق والتكلم بالعربية ثانية).

وهكذا، فإن اللغة العربية هي اللغة التي استخدمها الله (الواحد الأحد) لتعليم آدم والتواصل معه في الفردوس، ومن ثَمّ صارت العربيةُ لغةَ آدم على الأرض (بعد توبته). ومن لغة آدم العربية الأصيلة التي تعلمها في الفردوس، **انبثقت كلُّ لغات العالم ونبعت.** وقد حافظت في الجزيرة العربية قبيلة يمنية واحدة هي «جُرهُم» على هذه اللغة العربية بعينها منذ تاريخ آدم (والنبي هود)؛ ومن قبيلة جُرهُم تعلّم إسماعيل (ابن النبي إبراهيم) اللغةَ العربية، وتزوج منهم (فكانت زوجته من جُرهُم). وأخيراً، فإن محمّداً ﷺ نبي الإسلام، وأتباعه العرب، حملة رسالة الإسلام العالمية، هم كلُّهم منحدرون من سُلالة النبي إسماعيل عليه السلام (أبو العرب كلهم).

ذكر إمام اللغة الزبيدي في "تاج العروس" الجزء ١ صفحة ٨ فقرة ممتعة عن أسبقية اللغة العربية وأمومتها للغات العالم:

"ونقل عن الزركشي في "البحر المحيط": قال: وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن أول مَن تكلّم بالعربية المحضة إسماعيل. وأراد به عربية قريش التي نزل بها القرآن، وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل عليه السلام)... فمنهم من قال: هي أول اللغات، وكل لغة سواها حدثت فيما بعد إما توقيفاً أو اصطلاحاً، واستدلوا بأن القرآن كلام الله تعالى، وهو عربي. وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً. ومنهم من قال: لغة العرب نوعان: أحدهما عربية حمير، وهي التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبله. وبقي بعضها" إلى وقتنا، والثانية العربية المحضة، التي بها نزل القرآن، وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل. قال السيوطي: وأخرج ابن عساكر في التاريخ، عن ابن عباس، أن آدم عليه السلام كان لغته في الجنة "العربية"، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية، فلما تاب لله، ردَّ الله عليه العربية.

وأخرج عبد الملك بن حبيب: كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً إلى أن بعد العهد وطال حرِّف وصار سريانياً، وهو منسوب إلى سورية، وهي أرض الجزيرة، بها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق. قال:

وكان يشاكل اللسان العربي، إلا أنه محرّف، وهو كان لسان جميع من في السفينة إلا رجلاً واحداً يقال له جُرهم، فكان لسانه لسان العربي الأول، فلما خرجوا من السفينة تزوج إرم بن سام بعض بناته، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص أبي عاد، وعبيل، وجاثر أبي جديس وثمود، وسميت عاد باسم جُرهم؛ لأنه كان جدهم من الأم، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريته، وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي.

وقال ابن دحية: العرب أقسام: **الأول عاربة عرباء**، وهم الخُلّص، وهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهي: عاد، وثمود، وأميم، وعبيل، وطسم، وجديس، وعمليق، وجُرهم، ووبار، ومنهم تعلم إسماعيل عليه السلام العربية. **والثاني المتعربة**، وهم الذين ليسوا بخُلّص وهم بنو قحطان. **والثالث المستعربة**: وهم بنو إسماعيل وهم ولد معد بن عدنان. انتهى.

وقال أبو بكر بن دريد في "الجمهرة": العرب العاربة سبع قبائل: عاد، وثمود، وعمليق، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وقد انقرض أكثرهم إلا بقايا متفرقين في القبائل. قال: وسمي يعرب بن قحطان لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية، وهذا معنى قول الجوهري في "الصحاح": أول من تكلّم العربية يعرب بن قحطان. وقال الحاكم في "المستدرك"، وصححه، والبيهقي في "شعب الإيمان": عن بريدة رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] قال: بلسان جرهم.

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في "تاريخه": قيل إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل وهم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجُرهم، والعماليق، وأمم آخرون كانوا قبل الخليل عليه السلام، وفي زمانه أيضاً. فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل عليه السلام، وأما عرب اليمن، وهم حمير، فالمشهور أنهم من قحطان، واسمه مهزم.. وقال الشيرازي في "كتاب الألقاب": بسنده إلى مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، عن النبي ﷺ قال: «**أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة**». وفي جزء الغطريف بسنده إلى عمر بن الخطاب أنه قال: يا رسول الله، مالك أفصحنا؟ أولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: «**كانت لغة إسماعيل قد درست، فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها فحفظتها**». أخرجه ابن عساكر في "تاريخه".

وأخرج الديلمي في "مسند الفردوس" عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها**».

قال المؤرخ علي بن الحسين المسعودي (توفي ٣٤٦هـ) في كتابه "أخبار الزمان" (طبعة دار الأندلس– بيروت ١٩٩٦م) صفحة ٧٢:

(فاهبط الله آدمَ على جبل سرنديب وعليه الورق المخصوف من الجنة.. وسمّى الله آدم عبدَ الله، وكناه أبا محمد، وكان طويلاً... وكان يتكلم بالعربية فحوّل الله عزّ وجل لسانه إلى السريانية، وانتزع منه ما علمه، ثم ردّه الله سبحانه وتعالى بعد توبته إليه).

وأخيراً، وبعد هذه السيرة الذاتية المقتضبة للغة العربية، فإنّ للعربية جهاداً وتاريخاً طويلاً لا ينفصل عن تاريخ الإسلام نفسه: فللعربية مغامراتٌ عظيمة مع صولات وجولات جهادية عزّزت فيها دعوةَ الإسلام وفتوحاته في العالم، كما تعزّزت هي كذلك بالإسلام (انظر الفصلين: الثالث والرابع).

المراجع

1. (a) **The Holy Qur'an (English translation of the meanings and Commentary).** The Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. **Mushaf Al-Madinah Al-Munawarah** under The Auspices of The Ministry of Hajj and Endowments. The Kingdom of Saudi Arabia. 1413 H. pages according to specified verses as mentioned.
   (b) **The Glorious Qur'an-Text & Explanatory Translation. By Marmaduke Pickthall.** Karachi: Taj company Ltd. (undated).
   (c) **The Holy Qur'an-Text, Translation and Commentary. By Yusuf Ali.** Compliments of Al Rajhi Company For Currency exchange and Commerce. Published by Amana Corporation, Maryland USA. 1983.
   (d) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث. القاهرة. ط١، ١٩٩٦ م.
   (e) اللغة العربية أمّ اللغات ولغة البشرية: إسماعيل العرفي. المطبعة العلمية. دمشق. ط ١٩٨٥م.
2. **Binyon M: Europe Takes A Tongue – Lashing.** Part 1: How Europe Fell. Spectrum. Section .**The Times** .Monday October 23 1989.
3. **Greaves W: Selling English By The Pound.** Part 2: The Linguistic Continent. Spectrum Section .**The Times** .Tuesday October 24 1989.
4. **(a) مُعجم عجائب اللغة**: (نوادرُ ودقائقُ ومدهشاتٌ علميّة، ويتضمن الألفاظ الدخيلة على اللغة العربيّة) شوقي حمادة. دار صادر. بيروت. ط١، ٢٠٠٠م.
   (b) Claiborne R. The Life and Times of the English Language. London: Bloomsbury. 1990. Pp. 1 and 3.
   (c) Susan Griffith (on behalf of British Council). Teaching English Abroad. Revised 8th edition (revised by Deborah Penrith). Vacation work Publication 2006.
5. **الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع**: أحمد بن الأمين الشنقيطي. ج٢، ص٥٠٢ (٣ مُجلدات). دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط ١٩٩٩م.
6. حديث مسند جاء في **شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية** للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي، شرح الإمام ابن دقيق العيد. دار ابن حزم. بيروت، لبنان. ط ١٩٩٧م.
7. **الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**: أحمد بن فارس الرازي اللغوي. حققه: د. عمر فاروق الطباع. مكتبة المعارف. بيروت. ط ١٩٩٣م.
8. **تاريخ العرب قبل الإسلام**: للأصمعيّ ج ٤. ذكر التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه) للدكتور رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط٢، ١٩٩٥م.
9. **ديوان حافظ إبراهيم**: اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها. ضبطه: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري. ج١، ص٢٥٢. (جزءان). دار العودة، بيروت، لبنان. ط ١٩٣٧م.
10. **النكت والعيون تفسير الماوردي**. المجلد الأول (٦ مجلدات). مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. ط ١٩٩٢م.
11. **فقه اللغة: مفهومه. موضوعاته. قضاياه**: محمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة. الرياض. ط١، ٢٠٠٥م.
12. **فقه اللغة وسرّ العربية**. لأبي منصور الثعالبي. حق: د. فائز محمد. مراجعة وفهرسة: د. إميل يعقوب و. محمد الإسكندراني. دار الكتاب العربي. بيروت. ط١، ٢٠٠٦م.
13. **فقه اللغة**: د. علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر. القاهرة. ط٧، ١٩٧٢م.
14. **مغامرات لغوية** (ملكة اللغات): د. عبد الحق فاضل. دار العلم للملايين. بيروت. (غير مؤرخ لكنه ربما نشر ١٩٦٨م).
15. **Carmichael Joel: The Shaping of the Arabs.** New York: Macmillan. 1967.

❦

الفصل الثاني:

الإنجليزية: بوتقة انصهار اللغات الأوروبية

الإنجليزية هي الذهب الأسود لبريطانيا مع أكثر من بليون جنيه إسترليني كدخل سنوي مستحصل من تعليم اللغة الإنجليزية في المملكة المتحدة. وهي اللسان الوطني لنحو ٣٠٠ مليون إنسان. وهي اللغة السائدة لسكان اثنتين من ٦ قارات هي (أمريكا الشمالية وأسترالية)، وتمتلك جزءً كبيراً من المتكلمين في القارة الثالثة وهي (أوروبا). وتمتلك عدداً كبيراً آخر من المتكلمين بها في القارة الرابعة وهي (إفريقية). لذا تُعد اللغة الإنجليزية أهم لغة ثانوية في العالم. فالإنجليزية هي اللسان الأم لـ ٣٠٠ مليون من البشر، بينما يستعملها ٣٠٠ مليون إنسان آخرين لغةً ثانيةً. والإنجليزية حالياً هي اللغة الرسمية أو شبه الرسمية لأكثر من ٧٠ قطرا ودولة حول العالم، تتبعها الفرنسية ثم العربية، وبينما تتخلف الإسبانية والبرتغالية والألمانية للوراء بمسافة طويلة[*].

بالرغم من أن اللغة الإنجليزية لغة تصريفية، لكن الإنجليز غير صبورين للتفاصيل غير النافعة، ولهم موهبة فطرية في الارتجال والخلط. وهذه المواصفات هي ما تدين له بالاختفاء شبه الكامل من اللغة الإنجليزية لجميع الآليات التصريفية التي تثقل كاهل اللغات الأوروبية الأخرى، والاستعاضة عن الجنس النحوي بجنس طبيعي، والحرية والليونة في الإعراب، والاحتفاظ العنيد بالتهجية الصناعية الذي يخفق أحياناً وعلى نحو كبير في التعبير عن صوت الكلمة المنطوقة.

منذ عصر النهضة والاكتشافات الجغرافية الكبيرة، أُستعيرت الكلمات من كل لغات العالم، مما أدى إلى عمل قومي، كمعجم أكسفورد الإنجليزي الكبير الذي يحوي عدداً من الكلمات أكبر مما سجلته اللغات الأوروبية الأخرى. فال ٢٠,٠٠٠ كلمة الموروثة من الأنجلوساكسون قد زادت إلى قرابة نصف مليون. بالرغم من أن القليل من الناس لا يحتاجون لاستعمال أكثر من جزء من العشرين جزءاً من المفردات الكثيرة. حالياً، مفردات العامل الزراعي هي أكثر من المفردات التي استعملها شيكسبير في كلِّ رواياته وأكثر ثلاث مرات مما استعمله ميلتون (أديب وشاعر إنجليزي) في كلِّ قصائده.

تاريخ وجيز للغة الإنجليزية[٧][٥]

١. **الإنجليزية القديمة ما قبل التاريخ**: هي المرحلة التي سبقت كتابة الوثائق بنحو ٤٥٠—٧٠٠ بعد الميلاد. في هذه المرحلة، انحرفت الإنجليزية عن زميلاتها الأخريات للغات الجرمانية لتصبح لغة منفصلة.

فعندما حلَّ الرومان في بريطانيا في السنة ٥٥ قبل الميلاد، كان المواطنون البريطانيون يتكلمون لغةً عاشت حتى اليوم في الألسن السلتيّة: الغيليّة (اللغة الممثلة في الإيرلنديين العصريين)، الاسكتلندية الغيلية (التي ينطقها سكان جزيرة الرجل)، وكيمري (اللغة الممثلة في الويلز، كورن والفرنسيين البريطانيين). هذه اللغات السلتيّة منفصلة عن الإنجليزية، والكلمات الوحيدة التي بقيت في الاستعمال أنجلترا توجد في أسماء المواضع القديمة مثل: (آفون) بمعنى نهر، و(آبر) بمعنى فتحة النهر، اثنان من البقايا البعيدة.

احتل الرومان بريطانيا في السنة ٤٣ بعد الميلاد، وخرجوا منها نهائياً نحو ٤١٠ بعد الميلاد، وبين هذين التاريخين بنوا عدة مدن، بنيت على مواقع مخيّماتهم (العسكرية) الأصلية، وكان الأصل اللاتيني للمخيم هو (كاستر)، وما تزال حتى اليوم هناك عدة مُدن بأسماء تنتهي بـ (كاستر) أو (شيستر)، لتذكر بالاحتلال الروماني: فمثلاً: مانشيستر، دورشيستر، لانكاستر، شيشيستر لكن لا توجد كلمات رومانية أخرى في الإنجليزية من تلك المرحلة (عدا أسماء المدن).

٢. **الإنجليزية القديمة**: مؤرخو اللغة يسمون لغة الأنجلوساكسون بالإنجليزية القديمة، نسبة للقبائل الجرمانية التي استعملتها؛ وهي المرحلة الممتدة من ظهور الوثائق المكتوبة بالإنجليزية إلى الغزو النورماندي في عام ١٠٦٦م وتمتد أحياناً إلى ١١٥٠ بعد الميلاد؛ وتختصر في المعاجم بـ (O. E.).

عندما تركت آخر سفينة رومانية الشواطئ البريطانية نحو عام ٤١٠ بعد الميلاد، كانت ذلك إشارة لنزول رجال القبائل الجوعى من شمال أوروبا الذين يبتغون كنوز الجزر البريطانية، جاءت قواربٌ بأحمالها من المهاجرين المتشوقين تترى من: الإنجلز، الساكسون، الجوتز، الفريسيون، والإفرنج. وهكذا بدأ الاجتياح الانجلوساكسوني والبريطانيون المحليون أو السلت قد دُفعوا للأطراف إلى كورنويل، وويلز، واسكوتلندة.

وأثناء ذلك كان هناك نوع من الغزاة الساكسون المسعورين لاحتلال كل قطعة من الأرض المجانية للجميع. وكانت اللغة التي جلبوها معهم تسمى الأنجلوساكسونية أو الإنجليزية القديمة. وقد جاءت أقدم كلمات الإنجليزية من هذه الحقبة. وهي كلمات قصيرة قويّة وأرضيّة. فأسماء الحيوانات والطيور والأشجار وعناصر الحياة هي أنجلوساكسونية الأصل. الخنزير، البقرة، الغنم، الشمس، القمر، النجمة، أم، أب، ماء، أرض، حياة، موت، كل هذه كلمات إنجليزية قديمة. وهناك أسماء مدن لا تحصى ترجع للغزو الأنجلوساكسوني.

نموذجياً، المحمولون حمل قارب من الساكسون كان ولاؤهم لقائدهم، واسمه ما زال مقترناً بأسماء المواضع التي قطنوها. الكلمة الساكسونية (اجناس) تعني الأسرة أو التابعون. لذا فحين هبط حملُ قارب وقائدهم اسمه (توتا، ووكا، هيفر، او بادا) خُلِّدوا في أسماء البقعة التي قطنوها كمملكة صغيرة، وهذا الاسم يتبعه (انج) لتُري أن أسرة «توتا» او اتباع «ووكا» قد استقروا معه هناك. تُوتينج، ووكنج، هيفرنج، وبادنجتون. هي أمثلة نموذجية.

«هام» تعني «هوم» أي (بيت من العربية حام حمى أو حومة) أو «هومستيد» (بيت الأجداد)، «تون» تعني حظيرة مُسيّجة، ومن ثم صبحت تعني قرية أو بلدة. لذا فالقرية باسم دونينجتون تعني «البلدة لتي يقطنها اتباع دونا».

٣. **الإنجليزية الوسيطة**: تمثل المرحلة من الغلبة النورماندية لدخول المطابع البريطانية في ١٤٧٦. وقد شهدت الغلبة استعاضة الإنجلوساكسونيّة القديمة الأرستقراطية بلغة الفرنسيين الأوروبيين العلية. وبالرغم من بقاء استعمال اللغة الانجليزية على نحو واسع في الكلام، إلا أنها فقدت موقعها القومي؛ فقد استخدمت وظائف التوثيق اللغة اللاتينية، التي كانت تنتعش في غرب اوروبا، بينما استخدمت الوظائف الأدبية أنواع الفرنسية.

قد يكون أشهر كاتب في العصور الوسطى هو: شوسر (١٣٤٠–١٤٠٠) الذي كتب (حكايات كانتربري) عام ١٣٨٠م. وهذا كُتب بالإنجليزية الوسيطة، وبالرغم من شكلها الغريب لأول وهلة، فالقُرّاء المعاصرون يستطيعوا قراءته وفهمه دون صعوبة، بينما الإنجليزية القديمة تحتاج إلى خبير لفهمها.

وفي نحو عام ١٥٠٠ بعد الميلاد أصبحت الإنجليزية (معاصرة) بالرغم من أن التهجية مختلفة غالباً، والمفردات طبعاً أصغر من إنجليزية الأيام الحالية؛ لأنها كانت تتعامل مع نمط حياة بسيط.

وبهذا التاريخ بدأ التحام الساكسوني بالفرنسي النورماندي ليكوّن لغة جديدة: وقد نُطق بها وكُتبت بين عامي ١١٥٠ إلى ١٥٠٠م، وسُميت بالإنجليزية الوسيطة – وغالباً ما تختصر في المعجم إلى (M. E.).

٤. **الإنجليزية العصرية المُبكرة:** هي المرحلة من عام ١٤٧٦م، حتى بداية القرن الثامن عشر. وبإدخال كاكستون للطباعة إلى إنجلترا نهاية القرن الخامس عشر أصبحت الإنجليزية لغةً دارجةً تستعمل كلّ الوظائف اللغوية. وبتأسيس الدولة البريطانية الحديثة بعد عقد الاتحاد بين إنجلترا، ويلز، واسكوتلندة عام ١٧٠٧م، يمكن عدُّ ذلك مؤشراً لانتهاء المرحلة العصرية المُبكرة[٥].

٥. **الإنجليزية العصرية المتأخرة:** مدتها من بداية القرن الثامن عشر إلى اليوم.

عناصر اللغة الإنجليزية[١][٣]

الإنجليزية القديمة (الأنجلوساكسونية والإسكندنافية النرويجية القديمة)

الأنجلوساكسونية: منذ مجيء الدنماركيين، كانت الإنجليزية تُلقي قواعدها النحوية، بسبب الكسل اللغوي جزئياً، وبسبب الاتصال بالنرويجية القديمة والفرنسية القديمة أيضاً. وقد صرح برناردشو: (إن النحو غير مفيد هو طاعونٌ مُدمّر). ولا سيما صفة التعويض التدريجي للجنس النحوي بالجنس الطبيعي، فهذه قطعة من الفطرة السليمة العلمية التي تقف فيها الإنجليزية وحدها بين اللغات الأوروبية. ففي الأنجلوساكسونية «موث» أي: الفم هو مذكر؛ و«نوسو» أي: الأنف مؤنث؛ و«ايج» أي: عين، مُحايد (لا مذكر ولا مؤنث): الجنس الذي مازال موجوداً فيما يقابله من الكلمات الألمانية. فالأنجلوساكسونية هي لغة عوام الناس. والأسماء المؤنثة ليست لها مقاطع في نهاية الكلمات في الأنجلوساكسونية. ولكن تدريجياً تبنّتها في الإنجليزية الوسيطة: «ثورس – داي» من الإله ثور، لكن «فراي – داي» من الآلهة فريا. هناك نهايات الجمع المختلفة التي أصبحت في الإنجليزية الوسيطة: es ـ en ▪ s –. والنجاح الأخير ساعدته الفرنسية دون شك بالجمع بـ s. ومن الجمع بـ en بقيت فقط oxen (أي: ثيران، جمع OX): لأنّ brothern (أخوان) وChildren (أطفال) ليستا بهذه البساطة.

تنصير بريطانيا: جاء أوغسطين من روما في عام ٥٩٧ بعد الميلاد، وحَلّ في كينت مع أربعين من الرهبان المبشّرين بنيّة أكيدة على تحويل بريطانيا إلى النصرانية. لحُسن حظه، استقبله اثيلبيرت ملك كينت بحفاوة؛ وبعد هذا فإن زوجة اثيلبيرت الملكة بيرثا كانت في ذلك الحين نصرانية. وعُمّد اثيلبيرت نفسه، وأصبح أوغسطين رئيس أساقفة كانتربري. وبمرور الزمن توفي أوغسطين بعد سبع سنوات، وأصبحت كل مملكة كينت نصرانية، وبمرور قرن تحوّل الأنجلوساكسون إلى النصرانية.

أهمية هذا في اللغة الإنجليزية هو أن عدة كلمات لاتينية كان جُلّها في البداية مرتبطاً بالكنيسة، ودخلت بعد ذلك مفردات لاتينية عامة إلى الاستعمال. ومن كلمات الكنيسة من ذلك الزمن هناك: عابد (رئيس الرهبان)، صدقة، مذبح، شمعة، حواري، ترتيلة، أثر، قاعدة، مقام، معبد. ومن الكلمات اللاتينية العامة التي أُضيفت إلى

اللغة الإنجليزية هناك: قلنسوة، جوارب، ثوب أرجواني (رمز الرفعة لرتبة الكاردينال)، مدرسة، بيلاكي (لون الزنبق الأرجواني)، نبات، انجر، حمّى.

النرويجية القديمة: الغزوات الإسكندنافية (الفايكنج والدنماركيون): بدأت موجات الهجوم الإسكندنافية على إنجلترا في عام ٧٨٧م، بالرغم من أن لغتهم (النرويجية القديمة) كانت مشابهة للساكسون، وكانت هناك مثلاً فروق في اللفظ. فالإنجليزية القديمة لها غالباً صوت (شين) الليّن، بينما الإسكندنافيون لهم صوت (سك) المغلّظ، لذا في الإنجليزية القديمة شيب (سفينة)، شل (سوف)، فيش (سمك)، لكن الكلمات الإسكندنافية تستبقي غلظة سكاي (سماء)، سكنْ (جلد)، سكيل (مهارة)، سكريب (يكشّط)، وسكرب (يفرك) باستمتاع. فالإنجليزية القديمة أعطتنا شيرت (قميص) بينما النرويجية القديمة المقابلة جاءتنا بـ: سكيرت (تنّورة)، وفي الحقيقة هما نسختان معدلتان لكلمة واحدة.

لقد كان ما نطلق عليه بالدنماركيين جنساً من أصل واحد، على الرغم من مجيئهم من الدول الإسكندنافية الثلاث. وكان النزاع بين الانجليز وهؤلاء الغزاة الذين نسمّيهم بالفايكنج دينياً لحدّ ما؛ لأن الدنماركيين كانوا ما زالوا وثنيين.

ربما أوضح دليل للغزاة الفايكنج يوجد في أسماء المواضع المنتهية بـ (بي، by)، وهي كلمة دنماركية تعني: حقلاً أو بلدة. وعندنا أكثر من (٦٠٠) من هذه مثل (دربي، ركبي، كرمسبي، وثبي). وعناصر أسماء المواضع الاسكندنافية الأخرى هي (ثورب) وتعني قرية: و(توفت) وتعني مباني الحقل. لذا فأسماء المواضع المنتهية بـ (بي - by)، (ثورب - thorpe)، (ديل - dale) دوما تعني مقرّات دنماركية.

نهاية التلاحم بين اللغتين (النرويجية القديمة والأنجلوساكسونية) انعكست في مفردات البيت، ويوميات الشخوص، وإسهامات النرويجية القديمة. فلها تنتمي الأسماء الشائعة مثل: غضب، بيضة، تابع، زوج، ساق، يحرث، جذر، مهارة، سماء، ائتمان، شباك، جناح، وحتى كلمات القربى مثل: أخت، والأوصاف مثل: العليل، وفضفاض، وواطئ، وحليم، ومفرد، ونتن، وضئيل، وقبيح، وخطأ، ومثل الأفعال: (صرخ، يسبك، يغرق، يضع، يأخذ، يزدهر). كذلك جاءت الضمائر من النرويجية القديمة مثل: هم، لهم، وحروف الجر مثل: إلى، ومن، والأخير بقي كظرف (غادٍ رائح)، وأدخل الفايكنج عدداً من الكلمات الإدارية مثل: قانون، ولكن أستعيض عن أكثرها بمصطلحات الفتح الفرنسي.

في نهاية الحقبة الأنجلوساكسونية أي نحو عام ١١٥٠م، كانت لغة المخاطبة للرجل الإنجليزي مزيجاً من لسانين جرمانيين متقاربين، والمفردات الأصلية اغتنت جداً، ونظام الصرف المعقد للأنجلوساكسونية قد بُسّط لدرجة لا مثيل لها بين اللغات الجرمانية الأخرى.

والحديث اليومي لا يزال مبنياً ومغذى بالإنجليزية القديمة. كل الكلمات الآتية هي من الإنجليزية القديمة: هو، أنت، رجل، ابن، ابنة، صديق، بيت، شراب، هنا، هناك، الـ، في، على، داخل، بـ، من، جاء، يذهبُ، غنم، راع، ثور، أرض، حوش، حصان، أرضيّة، يحرث، خنزير، فأر، كلب، غابة، حقل، يعمل، عيون، آذان، فم، أنف، مرق، سمك، دجاج، رنكه (سمك من جنس السردين)، حبٌ، شهوة، يشبه، يغني، طربٌ، مَرَحٌ، ليلة، يوم، شمس، كلمة. هذه الكلمات هي قاعدة الإنجليزية. تستطيع المحادثة بذكاء بالإنجليزية القديمة، ونادراً ما نحتاج أن ننحرف عنها. تقريباً كلّ الـ (١٠٠) كلمة الشائعة في اللغة الإنجليزية عالمياً جاءت من الإنجليزية القديمة. هناك ٣ من النرويجية القديمة (هم، لهم، بهم)، وهناك كلمة فرنسية واحدة (عدد) في المرتبة الـ ٧٦[٣].

مئة الكلمة: هي ١. الـ: ٢. من: ٣. و: ٤. مفرد: ٥. إلى: ٦. في: ٧. هو: ٨. أنت: ٩. ذلك: ١٠. هي: ١١. هو: ١٢. كان: ١٣. له: ١٤. على: ١٥. هم: ١٦. كـ: ١٧. مع: ١٨. له: ١٩. هم: ٢٠. أنا: ١٢. في: ٢٢. يكون: ٢٣. هذا: ٢٤. عندهم: ٢٥. من: ٢٦. أو: ٢٧. واحد: ٢٨. عنده: ٢٩. بـ: ٣٠. كلمة: ٣١. لكن: ٢٢. بلا: ٣٣. ماذا: ٣٤. كل: ٥٣. كانوا: ٣٦. نحن: ٣٧. متى: ٣٨. لكم: ٣٩. يستطيع: ٤٠. قال: ٤١. هناك: ٤٢. يستعمل: ٤٣. ما: ٤٤. كلّ واحد: ٤٥. الذي: ٤٦. هي: ٤٧. يعمل: ٤٨. كيف: ٤٩. بهم: ٥٠. إذا: ٥١. سوف: ٥٢. فوق: ٥٢. الآخر: ٥٤. حول: ٥٥. خارج: ٥٦. عدة: ٥٧. ثم: ٥٨. مهم: ٥٩. هؤلاء: ٦٠. لذا: ٦١. بعض: ٦٢. لها: ٦٣. ودّ: ٦٤. يصنع: ٦٥. يشبه: ٦٦. ـه: ٦٧. داخل: ٦٨. وقت: ٦٩. عنده: ٧٠. شاهد: ٧١. اثنين: ٧٢. أكثر: ٧٣. يكتب: ٧٤. يذهب: ٧٥. يرى: ٧٦. عدد: ٧٧. لا: ٧٨. طريقة: ٧٩. استطاع: ٨٠. ناس: ٨١. لي: ٨٢. من: ٨٣. أول: ٨٤. ماء: ٨٥. كائن: ٨٦. صرخ: ٨٧. منْ: ٨٨. زيت: ٨٩. لها: ٩٠. الآن: ٩١. وجد: ٩٢. طويل: ٩٣. تحت: ٩٤. يوم: ٩٥. فعل: ٩٦. يحصل: ٩٧. يجيء: ٩٨. عمل: ٩٩. قد: ١٠٠. جزء[٣].

التأثير الفرنسي: عام ١٠٦٦ بعد الميلاد، هو تاريخ خطير في التاريخ الإنجليزي عندما قهر الدوق وليام النورماندي الملك هارولد في معركة هيستنجز، وتربّع على عرش إنجلترا ملكاً وليام الأول. ثم إن لاحتلال الجزر البريطانية من قبل النورمانديين تأثيراً مُزلزلاً على اللغة، وكان الذي حصل بمنزلة تطعيم لغة واحدة كاملة بأخرى. وكانت فرنسا النورماندية نفسها مبنيّة كثيراً على اللاتينية، وقد أخذت اللغتان قروناً لتلتحم كليّاً بعضها إلى بعض. لكن النتيجة النهائية كانت لغة اليوم بمفردات هائلة — حرفياً تعد ضعف اللغات الأخرى حجماً. والإنجليزية استثنائياً من بين اللغات الأوروبية تمتلك اعتيادياً اختياراً كبيراً من المرادفات: منظومة كلمات مبنيّة على الميراث الأنجلوساكسوني، وأخرى مبنيّة على الفرنسية اللاتينية/ النورماندية.

حتى تلك الكلمات الأوليّة: خنزير، بقرة، غنم، لها مترادفات. لقد لوحظ بسخرية أن هذه الحيوانات تحتفظ بسمائها الساكسونية عندما تكون في الحقل، وهي بعناية الفلاحين الساكسون؛ لكنها تكتسب أسماء نورمانديّة عندما تُطبخ وتُقدّم للأسياد النورمان[٤]؛

لذا:

الخنزير يتحول إلى پورك	العجل إلى ڤيل
البقرة إلى بيف	الغزال إلى ڤينيسن
الغنم إلى مَتْن	

ثم إن كلمات الساكسون القصيرة ترادفها اللاتينية (انظر تحت **التأثير اللاتيني**) مع فروق دقيقة[٥]؛ لذا في الإنجليزية القديمة:

شمس لها صفة لاتينية **سولار**	مائيّ تصبح **أكواتيك**
قمر له **لونار**	أرضيّ تصبح **تيريستيال**
نجمة لها **ستيلا**	حيويّ تصبح **فايتال**
أمويّ ليست تماماً مثل **ماتيرنال**	مميت تصبح **مورتال**
أبويّ تصبح **باتيرنال**	

بدأت مع الفتح النورماندي واحدة من الظواهر المدهشة والشائقة في التاريخ اللغوي: وهي التوحد الكامل بين لغتين، إحداهما جيرمانية صافية (النرويجية القديمة المندمجة بالأنجلوساكسونية)، والأخرى لاتينية المنشأ (الفرنسية النورماندية). قبيل ١٠٦٦م حتى ١١٥٠م، عندما بدأت ملامح الإنجليزية الوسيطة، فإن الكلام كان خليطاً من الأنجلوساكسوني الأصيل مع النرويجية القديمة، لذا فمنذ الفتح، أصبحت بالتدريج، مندمجة مع الفرنسية القديمة، ولكنها حرّفت كثيراً بالشكل والصوت.

وفي الحفل المسخّر لـ (ميلاد المسيح) عام ١٠٦٦م، تُوّج وليام في كنيسة ويستمينستر الكبيرة. وتمّت المراسيم بالإنجليزية واللاتينية. تكلّم وليم الفرنسيّة في تلك المراسيم. الفرنسيون حكموا ولغة الحكم الفرنسيّة لغة القوة والسلطة والاستعلاء دفنت الإنجليزية، إن إشباع الفرنسية الوسيطة بالكلمات الفرنسية لم يكن نتيجة مباشرة للفتح النورماندي. فالغزاة لم يشكلوا أغلبية، وإذا لم تدعم لغتهم، فسوف تتبنى تدريجياً لغة المقهورين مثل أسلافهم الفايكنج الذين تبنّوا الفرنسيّة عندما حوّلوا نيوستريا إلى نورماندي. بعد الفتح بقرون طويلة كانت انجلترا وفرنسا في اتصال مستمر. وكان وليم وأولاده دوقات النورماندي، ثم إن ملوك بلانتاجينيت حكموا مقاطعات كبرة في فرنسا، وكان جزء من القطر محكوماً من التاج الإنجليزي في أثناء حرب المئة عام، التي بدأت عام ١٣٣٧م.

وكانت هذه القرون مرحلة عقيمة للأدب الإنجليزي؛ لأن الفرنسية في ذلك الوقت كانت اللغة السائدة للتجارة، لذلك مثّلت قناة مباشرة أو غير مباشرة (عبر اللاتيني) للكلمات من أسواق الشرق. كالكلمات العربية التي غذّت الإنجليزية بكلمات مثل: زعفران، مطرح، هزار أي خطر، كافور، الكيمياء، عود، عنبر، شراب، وكلمة (شيك مات) جاءت عن طريق الفرنسية (اشيك مات) التي جاءت بدورها من العربية (شاه مات) بمعنى مات الملك[1].

ولم تكن الفرنسية حتى عام ١٣٦٢م، لغة القانون والإدارة فقط بل لغة المجتمع المهذب أيضاً، صيحة البلدة (أويز!) هي فرنسية قديمة: اسمعوا (من البقايا الشائقة)، وفي نهاية القرن الرابع عشر كان طلاب المدارس يفسرون اللاتينية بالفرنسية، وكلّ الذين يتطلعون للأناقة الاجتماعية كانوا يمزحون بتعليقات بالكلمات والعبارات الفرنسية، فصديق شوسر (مورال كور) الشاعر والفيلسوف الذي مات عام ١٤٠٨م، كتب كتاباً واحداً بالفرنسية، وواحداً باللاتينية، وواحداً بالإنجليزية، فالإنتاجات الفكرية كانت ثلاثية اللغة.

قدمّت الفرنسية كلمات الطبقة الحاكمة، الملك والملكة، أما الكلمات المحلية فبقيت كما هي، لكنها استعارت العرش والتاج والصولجان من الفرنسية القديمة. ألقاب رؤساء ضبّاط التاج فرنسية مثل: المستشار المارشال (قيّم المراسيم)، والمأمور (شرطي الأمن)، والشيء نفسه ينطبق على معظم كلمات إدارة العدالة مثلاً: القاضي، المحلّفون، قانون الموازين، السجن، الهدف. والأسماء الرسمية للجرائم مثلاً: جناية، الحرق عمداً لصوصية (سرقة). هذه المصطلحات تنتمي للفرنسية القانونية، شكل غير فصيح من الأنجلو فرنسية التي لم تُلغ رسمياً حتى ١٧٣١م، كذلك كلمات المباني وتشمل عقد استئجار، والمستأجر، والوارث. كلمات السلام والحرب فرنسيّة أيضاً مثلاً: حشد أُستبدلت بالجيش، درع، راية، معركة، قلعة، حصار، برج. السيد والسيدة، مدرّس مدرّسة، الخادم، وهي مفردات الطبقة المهيمنة، وهي فرنسيّة.

كلمات الكنيسة تشير إلى تأثير رجال الكنيسة النورمان وهي: دير الرهبان، مذبح، رجال الدين، رواق الدير، مقاطعة إدارة الكنيسة، قدّيس، خطبة. ومن الأفعال نحو: يصلي ويدعو، بينما أسماء الحيوانات المنزلية انجليزية، لكن اللحم الذي يزودونه له أسماء فرنسية مثل: البيف، المتّن، بورك، والفيل، وذلك بسبب أفضلية الطبخ الفرنسي على الإنجليزي، ويمكن القول أن الوجبة الرئيسة لليوم (دينير) فرنسية الاسم، والذوّاقون يحبّون توظيف رئيس طُهاة قائداً لمطبخهم، ثم إن الرياضة الأرستقراطية أعطت الإنجليزية كلمات مثل: المطاردة، أرض الصيد المسيحية، الترشيح، المطاردة بالمقلاع، اقتفاء أثر الطريدة بالشمّ، تدريب الصقر. ومن تمرين الفُرسان المباراة، المقارعة بالسيوف، المصارعة. وتُشاهد أفضلية المهندسين المعماريين الأجانب في المشى (بين الكراسي) في كلمات مثل: (القوس، العمود، صحن الكنيسة، برج محصن، قصر، دعامة، رواق، القبّة) وأسماء العلاقات خارج دائرة الأُسرة: عمّ، خالة (أو عمّة)، ابن أو ابنة العم (أو العمّة أو الخال أو الخالة)، ابن الأخ أو الأخت، ابنة الأخ أو الأخت، كلها أسماء فرنسية.

بينما الحرف المتواضعة بقيت إنجليزية، مثل: (الخبّاز، الطحّان، الحدّاد، الحائك)، لكن الحرف المُترفة أخذت أسماء فرنسية، مثل: تاجر الجوخ والملابس، مصنّع التوابل، الخيّاط، وربما في بداية المرحلة عندما وُجدت اللغتان جنباً إلى جنب من دون التحامهما بوصفهما لغة واحدة، أصبح من المناسب إضافة كلمة فرنسية مُفسِّرة للكلمة الإنجليزية. ومن الأمثلة الشائعة كلمات مثل:

الأثاث والملك المنقول، القانون والانضباط، الطرق والوسائل، السيد والرب. بعد ذلك أصبح هذا تكلّفاً أدبياً.

كان الالتحام كاملاً في أثناء أيام جيفري شوسر (١٣٤٠–١٤٠٠م)، الأمة واللغة كلتاهما توحّدتا، ونبلاء النورمانديين النسل بعد أن كان أجدادهم يحتقرون الإنجليز المهزومين، أصبحوا الآن يتمجدون تحت اسم الرجل الإنجليزي. والطبقة العليا لم تعد فرنسية، ولا طبقة الفلاحين هي الأنجلوساكسونية: فالجميع إنجليز. واكتمل التحام اللغتين لدرجة أننا لا نشعر عند استعمال الإنجليزية بأي لكنة أجنبية عند رصف الكلمات الشائعة، مثل: بيع الجملة والأجزاء، المس واخرج (انتقال سريع)، تحرير مخطوط، بركة مقنّعة، وفي عبارات تجانسية تشبه (دون خوف أو مُحاباة، بطئ وأكيد، خراب ودمار)، أو في مركبات مثل: (شارد الذهن، فقير معدم). الإنجليز يستطيعون إضافة مقطع إنجليزي لكلمة فرنسية كما في الدوقيّة، غير بارع. أو مقطع فرنسي لكلمة إنجليزية كما في: تخليص، مأكول (صالح للأكل). والكثير من الأسماء المركبّة مثل: كرسي ذو ذراعين، جدول المواعيد، رجلٌ نبيل (ذو مروءة وشهامة)، الجدّ (الأب الأكبر)، كومنولث (رابطة الشعوب البريطانية بمعنى الغنى المشترك)، هي تشكيلات هجينيّة.

استمرت استعارة الكلمات الفرنسية بثبات عبر القرون، ففي العهد الطويل للملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣–١٧١٥م)، أصبحت فرنسا القوة السائدة في أوروبا، وصارت أساليب السلوك، والأدب، والأزياء الفرنسية تُقلّد في كل مكان. منذ هذه المدة تقريباً تؤرخ أكثر المفردات العسكرية، كلماتٌ مثل: عقيد (كولونيل)، ملازم (ليوتينانت)، لواء (مجموعة من الجيش أي بريجيد)، يستطلع (يستكشف عسكريا)، غارة (أو هجمة عسكرية). ومنذ سلام نيمويجين (١٦٧٨م)، عُدّت الفرنسية اللغة الدبلوماسية لأوروبا، من هنا جاءت الكلمات والتعبيرات مثل: بالون تجريبي (أو مجسّ لمعرفة آراء الآخرين)، القائم بالأعمال (القائم بأعمال السفارة عند غياب السفير)، مسعى تمهيدي، إنكار ومعاكسة، اتفاق دولي. وفي التاريخ الحديث الكثير من الكلمات والعبارات الفرنسية أصبحت إنجليزية متداولة، أنصاف لأن الإنجليزية لا تملك مرادفاً مطابقاً مثلاً: العميل المحرّض، تمويه، إشاعة كاذبة (تطلق لتضليل الجمهور)، كليشة (أي وشم الطبع)، انقلاب مضاد، سياسة عدم التدخل الحكومي، غير مبال، عمل تخريبي يقوم به أحد عملاء العدو لتقويض الدفاع، نجاحٌ فخريّ (من دون ربح).

حكم الفرنسيون النورمان مدة ٣٠٠ سنة، جاعلين الإنجليزية اللسان الثالث (اللاتينية كانت لغة الكنيسة القوية) على أرضها. القصة العجيبة هنا هي أن لغة المقهور تبنّت حرفياً قاهرها (في هذه السنين امتصّت الإنجليزية أكثر من ١٢٠٠٠ كلمة فرنسية)، مُحوِّلةً لسان قاهرها إلى لسانها هي[١٤].

انظر جدول المقارنة بين أسماء الرُتب العسكرية بين الفرنسية والأنجلو أمريكية والباكستانية والعربية (السعودية المعاصرة)، تلحظ أن أسماء الرُتب العسكرية بالفرنسية هي الأصل للأنجلو أمريكية، وأن الفرنسية هذه أصلها عربي. فالرتب العسكرية: مارشال (صقّال مهرة)، وجنرال (كُلّيّ أي كلّ الجنس، أي قائد كُلّي للجيش)، وكولونيل (قالون وقمين ومَقْلَم، أي مُعظّم). وكابتن (قطّان أو قبّان، أي الأمين)، وسارجينت (سارج الحصن من الشرطة والجيش أو صَرف: مُدبّر الأمور)، وكوربورال أو كابورال (قُبْعاتي أي قائد ذوي القُبعات)، وسولدات (أي سُلطة أو جندي بالفرنسي) إذاً أصل الرتب العسكرية الفرنسية (عربي)، والفرنسية هي أصل

للأنجلوامريكية (هذا بغض النظر عن المسميات العربية المعاصرة لهذه الرتب في الجدول: لأنها مُقدَّرة حسب المشابه المقارنة كما في المملكة السعودية وباكستان).

FRENCH	ANGALO – AMERICAN	PAKISTANI	ARABIC
MARSHAL	FIELD – MARSHAL	MARSHAL	مُشير (مهيب) (تاج وسيفان و ٣ نجوم)
GENERAL D''ARMEE	GENERAL	GENERAL	فريق أول (تاج وسيفان ونجمتان)
GENERAL DE CORPS – D''ARMEE	LIEUTENANT GENERAL	LIEUTENANT GENERAL	فريق (تاج وسيفان ونجمة)
GENERAL DE DIVISION	MAJOR GENERAL	MAJOR GENERAL	لواء (تاج وسيفان)
GENERAL DE BRIGADE	BRIGADIER GENERAL	BRIGADIER	عميد (تاج و٣ نجوم)
COLONEL	COLONEL	COLONEL	عقيد (تاج ونجمتان)
LIEUTENANT COLONEL	LIEUTENANT COLONEL	LIEUTENANT COLONEL	مقدم (تاج ونجمة)
COMMANDANT	MAJOR	MAJOR	رائد (تاج)
CAPITAINE	CAPTAIN	CAPTAIN	نقيب (٣ نجوم)
LIEUTENANT	FIRST LIEUTENANT	LIEUTENANT	ملازم أول (نجمتان)
SOUS – LIEUTENANT	SECOND LIEUTENANT	SECOND LIEUTENANT	ملازم (نجمة)
ADJUDANT CHEF	SERGEANT MAJOR Of the army	SUBEDAR MAJOR	رئيس رقباء
ADJUDANT	SERGEANT MAJOR	SUBEDER	رقيب أول
SERGENT – CHEF	MASTER SERGEANT	NAIB / SUBEDAR	رقيب
SERGENT	SERGEANT	HAVILDAR	وكيل رقيب
CAPORAL – CHEF	CORPORAL	NAIK	عريف
CAPORAL	PRIVATE FIRST CLASS	LANCE NAIK	جندي أول
SOLDAT	PRIVATE	SEPOY	جندي

وفي عام ١٣٩٩، خُلِعَ الملك ريتشارد الثاني من قبل دوق لانكاستر هنري. وثيقة خلعه وكلامه عن التنازل هي بالإنجليزية. استدعي البرلمان إلى القاعة الكبرى في ويستمنستر. الدوقات واللوردات، الدينيّون اجتمعوا كلهم، وكان العرش الملكي مكسوا بثياب الذهب فارغاً. تقدم هنري إلى الأمام، وتوّج نفسه وادعى التاج (الملك هنري الرابع). في حفلة رمزية كبيرة لم يُلقِ خطابه باللاتينية لغة أعمال الدولة، ولا بالفرنسية لغة القصر الملكي، ولكن حسب التاريخ الرسمي ألقاهُ بقوة بالإنجليزية اللسان الأمّ (**باسم الأب والابن وروح القدس، انا، هنري من لانكاستر، أطالب بعالم إنجلترا وادعي التاج مع ممتلكاته ومستحقاته – لانني شرعيا انحدر من دم اللورد الجيد الملك هنري الثالث – وبهذا الحق الذي وهبتني اياه عناية الرب، وبمساعدة كلٍّ من أسرتي واصحابي ارجعه – فالمملكة كانت في خطر التدمير من قبل الحكومة وتعطّل القوانين الصالحة**) هنري، دوق لانكاستر أصبح الملك الرابع. وكانت الإنجليزية مرة أخرى لغة ملوكية. لقد كانت لسانا سريعة الانتقال عدة مرات، ولم تفقد اللاتينية والفرنسية سيطرتهما كلغتيّ الأعمال الرسمية والكنيسة، لكنّ الإنجليزية أبدت اشجع كسب علنيّ لثلاثة قرون وتربعَت مرة أخرى على العرش. وأخيراً بدا التيار يتحوّل في صالحها، بالرغم من كل الدماء التي أريقت قبل أن تكتسب موقعها لتكون لغة في كل المناحي ذات العلاقة بالحياة الإنجليزية.

التأثير اللاتيني: العنصر الأجنبي الكبير الآخر في اللغة الإنجليزية هو اللاتين. فقد أثرت اللغة اللاتينة في الإنجليزية في مرّات أربع:

- بعد الاحتلال الروماني.
- وفي أثناء تنصير بريطانيا.
- وفي أثناء الغزو النورماندي.
- وربّما من إنجيل وايكليف الإنجليزي (الذي كان مُترجماً من اللاتينية).

كان أهم تأثير فاعل في حضارة أوروبا الغربية التأثير الروماني. فقد جاءت من اللاتينية الإيطالية، والفرنسية، والإسبانية ولغات الرومانس الأخرى، مع إسهامات طفيفة من المصادر الأخرى، وأخذت الأجناس الجرمانية (التيوتونية) من اللاتينية فقط الكلمات التي قد تكون مفيدة طبيعياً عند التقاء العرقين. وكانت أوائل الكلمات (عدا العنصر الديني) في معظم الأحيان كلمات قصيرة ذات خصيصة ماديّة بحتة، وصفيّة لتحسين مستوى الحياة نظراً لأفضلية الرومان في الفنون المفيدة. وجاءت أسماء الفاكهة (عدا التفاح وثمر العلّيق المحلي) إما مباشرة من اللاتينية أو على نحو غير مباشر عبْر الفرنسية، والشيء نفسه ينطبق على الخضراوات أيضاً التي منها البقل المنزلي فقط هو من أصل إنجليزي. ومن اللاتينية جاءت أيضاً كلمات: الخمرة، الطبّاخ، الصحن، الزبدة، والجبنة، ولأفضلية الرومان في البناء انعكست في كلمات مثل: آجُرّ، والجدار. وفي مجال التجارة والإدارة أعطت: الميل، الفنج، سك النقد، الرطل (باون وزن بريطاني).

وكانت كلمات الكنيسة المُبكِّرة هي غالباً إغريقيّة – لاتينية، وبعضها مثل: الملائكة، شيطان، كتدرائية الكنيسة ديرا، كنيسة، كانت معروفة للأنجلوساكسون قبل أن تصل بريطانيا؛ لأنهم وإن كانوا لا يتعبدون في الكنائس النصرانية – كانوا في معظم الأحيان يسلبوها ويحرقوها – لكن العدد الأكبر من كلمات الكنيسة جاءت مع القديس أغسطين وخلفائه. واقتبس الأنجلوساكسون ألقاب الكنيسة الرئيسة مثل: أسقف (مُطران) رئيس دير الرهبان، راهب أو ناسك... إلخ. لكنهم في معظم الأحيان ترجموا كلمات الكنيسة الأخرى. الإنجيل الإغريقي – اللاتينيّ، الأنباء الجيدة، أصبح god - spel أي مدد الرب (الآن كوزبيل)؛ لكن في إنجيل وايكليف معظم هذه المفردات استُعيضت بكلمات لاتينية الأصل، مثلاً: التثليث بدل الثالوث الأنجلوساكسوني، والبعث بدل الروحانيّ.

كانت اللاتينية حقيقةً في العصور الأنجلوساكسونيّة والوسطى مادة التعليم الوحيدة في المدارس، والأدب الجدي، من زمن السيد المحترم بيد (٦٧٥-٧٣٥) نزولاً إلى فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) كانت تكتب عموماً باللغة اللاتينية.

الهيبة الكبيرة للأدب الفرنسي في أثناء العصور الوسطى ومجموعة مفردات ذات الأصل اللاتيني وترجمة وايكليف للانجيل، المعولة من النصوص اللاتينية، جلبت تعزيزاً آخر، وكانت النتائج أن الإنجليزية مُنفردة بين اللغات الجرمانية (التيوتونية) مشبّعة باللاتيني، وإجماع المفردات الانجليزية يُظهر أن العنصر اللاتيني هو الأكبر من الجميع.

نما التأثير اللاتينيّ جداً في القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ لكن الآراء تختلف حول هذا الاستيراد الكبير للاتينيّة في الإنجليزية. كُتّاب العلم من (ت. هـ. هوكسلي) حتى (هـ. ج. ويلز) كانوا عدائيين للدراسات التقليدية. الأخير (هـ. ج. ويلز) انتقد نحو اللاتينيّة المُملّ؛ لكن في كتابه (فينكس أو العنقاء) (وهو طائر خرافي زعم قدماء المصريين أنّه يعمر ٥-٦ قرون وبعد أن يحرق نفسه ينبعثُ من رماده وهو أتمّ ما يكون شباباً وجمالاً) استعمل (هـ. ج. ويلز) بنفسه تعبيرات لاتينية مثل: الإنسان الباقي (على ما هو الآن)، استنتاجي (من العام إلى الخاص)، تعويض (المقابل)، استرجالٌ لأسباب خاصة، شيء لا بُدّ منه (ضروري): هذه الكلمات المذكّرة بعلماء الدين وفلاسفة العصور الوسطى، حيث كانت اللاتينيّة نوعاً من لسانهم الوطني.

القليل من الناس يدرك العدد الهائل للعبارات والكلمات اللاتينية التي تستعملها في شكل غير محوّر مثلاً الأسماء: عبقريّ، مؤشر، شؤم، محكمة؛ أو كعبارات كثير منها في اللاتيني القديم مثل: على ظاهره أصلي غير مزيف، بعد الوفاة. أو كأسماء عُملت من الظروف مثل: البيّنة، مدة بينية، مادّة، ترادف؛ ومن تشكيلات الفعل: تذكرة، مُذكّرة، آمر، النِّصاب الظرف (سابق) زوّدنا بصفة، نحن بالكاد ندرك استعمال الكلمات اللاتينية عندما نقول: الأصغر (الحدث) والأكبر (البالغ)، الأقصى (الحد الأعلى) والأدنى (الحد الأسفل)؛ غالباً الناس ينغمسون بحُبهم للمختصرات كما في: (ذيل مُلحق، حاطٌ من قدر المرء، مؤقتاً، بلا مُعارضة) أو الانغماس بحذف كلمة (يمكن تقديرها) كما في الوضع الراهن (من قبل).

نتيجة واحدة من التبنّي بالجملة للكلمات اللاتينية هو أن الصفة التابعة للاسم تكون غالباً بعيدة عن في أصل الكلمة. لذا فالذي يُقابل الأسماء: فم، أنف، عين، تحصل على أوصاف: ثغري، مُنخري، بصري. الثور يصبح بقريّ، الكلب هو نابيّ، القط هو سنّوري، بينما في اللغة الشقيقة مثل الألمانية تكون الصفة مكوّنة من الاسم نفسه. ويعدّ بعضهم هذا عيباً في اللغة الانجليزية.

نتيجة أخرى للغة هو أن عدة كلمات تتشكل طبقاً لاشتقاقاتها، الـ (بارفيت) من الفرنسية القديمة أصبحت (بيرفيكت) أي كامل، مع تغير في اللفظ. لكن (فيكتوال) للفرنسية (فيتل) أي مؤونة الطعام تلفظ بالصوت نفسه (فيتل) على لسان أسلافها، هناك أيضاً أزواج كلمات، غالباً بمعانٍ مختلفة مثل: ضعيفٌ، سمٌّ، ولاء، حقير من الفرنسية القديمة التي تقابل: (رقيق، دواء، فضيلة، أسير) من اللاتينية.

بالرغم من حقيقة أن اللغة الانجليزية الآن هي كاملة الالتحام بين الإنجليزية القديمة (أنجلوساكسونية ونرويجية قديمة)، والفرنسية مع اللاتينيّة، لكنها ما زالت بمفرداتها الأساسية، وتركيبها النحوي، وبما نسمّيه آلياتها، لساناً جرمانياً تيوتونياً. لكثير من الأفكار نحن نملك الآن ٣ كلمات: الوطنيّة، الفرنسية واللاتينيّة مثلاً مَلَكي kingly, royal, regal، كلٌّ بلياقتها الخاصة، لكن عموماً نجد الكلمة الوطنية هي الأغنى عاطفة والأجمل محتوى.

العنصر الإغريقي في اللغة الإنجليزية[1]:

تُعدُّ الكلمات المُبكِّرة من هذا المصدر غير مهمة حتى زمن قريب، مثل: حواريّ، والأسقف. وقد وصلتنا في شكل لاتيني من طريق المبشرين الرومان. عرف قليلٌ من الرجال الإغريقية في العصور الوسطى. لكن بعض الكلمات الأساسية مثل: الحساب، الفلك، رياضيات، كوميدي (هزلي)، تراجيدي (مأساوي)، فيزيائي (طبيعي)، قد وُثقت، وهذه جاءت اعتيادياً من طريق الفرنسية القديمة مع تهجية صوتية مثلاً: (فيسين) الآن أُعيدت إلى (فيزيشن) أي طبيب، كذلك (فانتايسي) الفرنسية أعطت (فانتزي) أي خيال. التي أُختُزلت عاجلاً إلى (فانسي) أي هوى أو نزوة، ثم صاحبت نمطاً تعليمياً (فانتزي).

عند النهضة، بدأ تبنّي الكلمات الإغريقية بحرية، في معظم الأحيان على نحو غير مُحَوَّر مثلاً: التحليل، التركيب، ذروة الإثارة، النظرية، انتقام، شفقة، كلُّها وُثِقت في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

مركبات المقاطع مثل: (ميتا) أي ما بعد ووراء،(بارا) أي بمحاذاة وبجانب، (هايبر) أي بإفراط، (هايبو) أي أقل من السويّ تسري بالمئات والشيء نفسه ينطبق على كلمات تبدأ بـ (أوتو) أي ذاتي، (هيتيرو) أي مُتغاير، (هايدرو) أي مائي، (فينول) أي حامض الكربوليك، أو تنتهي بـ (أولوجي) أي علم، و(إزم) نظام أو حالة. هذه المفردات هي جبرية أكثر منها لغوية، لكنها ذات قيمة كبيرة في التداول العالمي. الإغريقية يناسب اللغة العملية بغرابة بسبب غناه بمقاطع اللصق وتكيّفها لتشكيلات جديدة. مثلاً: (افتراض) هي الترجمة اللاتينيّة الدقيقة للإغريقيّة (نظرية). لكن ما من أحد يجادل أنه للأغراض العلميّة (نظرية) هي الكلمة الأفضل.

العنصر العربي في اللغة الإنجليزية:

التأثير العربي عميق الجذور في اللغة الإنجليزية، لكن لسوء الحظ إمّا يُهمّش بقصد أو يُتجاهل بلا قصد. لتفاصيل انظر الفصل الثالث من (مقدمة الفردوس) إضافةً إلى النظر إلى (معجم الفردوس) بكليّته: مصادر الكلمات العربية في اللغة الإنجليزية تشمل:

- لتفاعل العربي مع الاسكندنافيين الفايكنج ذو جذور عميقة في التاريخ[2]. فالرحّالة العربي أحمد بن فضلان، كان مؤرخاً إخبارياً وقد كتب وثائق السفارة إلى ملك البُلغار لأواسط الفولغا في عام ٩١٢م. وقد وصف كيف يتصرف الفايكنج وماذا يشبهون عند المتاجرة في عاصمة البُلغار. هذه السفارة قدّمت مصدراً لا نظير له لكل الدراسات الأكاديمية عن الفايكنج؛ وتُظهر مشهداً كُليّاً جيداً عن كيفية الحياة ومعيشة الفايكنج وتفاصيل المواصفات الشخصية للاسكندنافيين، متاجراتهم، وثقافتهم، ومراسيم وفيّاتهم (رحلة ابن فضلان صورت في فيلم شهير اسمه: «المحارب الثالث عشر»).

ثم إن الكثير من المؤلفين العرب مثل: ابن خرداذبة (توفي ٩١٢) وابن رسته (توفي بعد عام ٩٢٣) وصفوا التجار النرويجيين و لاسكندنافيين في روسية. وبالعكس، الكثير من الفايكنج مثل: (اورم) و(انجفار) قد زاروا بغداد (عاصمة الخلافة الإسلامية) نحو ١٠٢٠م. لعل التجارة الكبيرة للفرو الاسكندنافي وحديد الصبّ قد استوردتها الأقطار الإسلامية من الشمال، كما أن عالم الآثار لا يجد صعوبةً في تمييز الأشياء العربية الموجودة في مقابر الفايكنج مثل: عُملة نقد من بغداد مثلاً.

وحقيقةً فإن الفايكنج استعملوا عُملات النقد من أوروبا الغربيّة والعالم العربي كما هو موضّح في الجدول الآتي، الذي يوثّق للعدد التقريبي للعُملة ما بين ٨٠٠–١١٠٠ الموجودة في اسكندنافية. هذا الجدول يحذف العُملة التي سُكّت في اسكندنافية في أواخر زمن الفايكنج، التي منها عدد كبير بقي (مثلاً ٦٦٠٠ في الدنمارك):

	العملات العربية	العملات الأنجلوساكسونية	العملات الفرنسية والألمانية
نرويج	٤٠٠	٢٫٦٠٠ وأكثر	٢٫٥٠٠ وأكثر
سويد	٥٢٫٠٠٠	٣٠٫٠٠٠	٥٨٫٥٠٠
دنمارك	٣٫٥٠٠	٥٫٣٠٠	٩٫٠٠٠

وعموماً تُعدُّ العملات الإسلامية (دراهم الفضة) هي أول ما ظهر من العناصر (ظهرت أولاً في الشمال نحو نهاية القرن التاسع)، وفي ٩٧٠ م يبدو أنه كانت هناك أزمة، ربّما بسبب ما حدث في منتصف القرن العاشر لمناجم الفضة في جبال (هارز) حيث إن العملات الغربية وعُملات الجزء الغربي للخلافة الإسلامية بدأت تسود في مُدّخرات المخازن الاسكندنافية.

هذا الحجم الهائل للتجارة المتبادلة بين الفايكنغ والعرب، مع الصلات المستفيضة مع الحضارة الإسلامية لابد من انعكاسه لغوياً في التأثير العربي في اللغة النرويجيّة والاسكندنافية (وهم أصل مهم من أصول اللغة الإنجليزية القديمة).

- استعارت الإنجليزية من العربية على نحو غير مباشر عَبْر التفاعل مع البرتغال وإسبانية، أي شبه الجزيرة الأيبيريّة، حيث فتح المسلمون والعرب الأندلس واستقروا فيها وانتعشت حضارتهم قرابة ٨ قرون من ٧١١ وحتى ١٤٩٢ ميلادي، عندما طُردوا بالاسترجاع الإسباني (انظر الفصل الثالث).
- دخلت الكلمات العربية الإنجليزية عَبْر الوسط الفرنسيّ النورمانديّ. الفرنسيون النورمان احتلوا إنجلترا واحتلوا صقلية العربية وفي الحروب الصليبيّة: احتلوا الساحل المتوسط العربي كذلك. والكلمات العربية دخلت إلى اللاتينية ثم الفرنسية، ثم عبر الوسط الفرنسي دخلت الإنجليزية. لذا فالفرنسيون النورمان كانوا وسيطاً لعبور الكلمات العربيّة مرتين.
- استعارت الإنجليزية من العربية مباشرةً في أثناء الاحتلال الطويل للجيوش الإنجليزية لساحل المتوسط العربي في الحروب الصليبيّة. ومراسلات الملك ريتشارد قلب الأسد مع السلطان صلاح الدين تمثّل نموذجة للاتصال والتأثير العربي في اللغة الإنجليزية (انظر الفصل الثالث).
- الترجمة المعاكسة من الكتب المرجعية العربية إلى اللاتينية في أثناء مرحلة النهضة: إن هذه المراجع العربية المترجمة إلى اللاتينية، أثبتت أنها مصدر مهم للنهضة الأوروبية، نسخ الترجمة اللاتينية للكلمات العربية في العلم والطب استعارت إمّا الشكل العربي نفسه (مثلاً قانون من العربية قانون) أو لفظة لاتينية تتبنّى كلمة مستعارة مع ترجمة حرفية للتعبير الأجنبي (العربي) (فمثلاً كلمة (بيا – ماتر) أي الأم الملاصقة للدماغ هي من العربية الأمّ الحنون).
- أُستعيرت الكلمات العربية في الإنجليزية في أثناء الكشوف الجغرافية والتواصل التجاري مباشرةً أو على نحو غير مباشر عَبْر اللغات الإسبانية والفرنسية والإيطالية.
- دخلت الكلمات العربية الإنجليزية مباشرة في أثناء الاستعمار البريطاني للشرق الأوسط ولا سيّما مصر.

وإضافةً إلى مصر فإن الكلمات العربية دخلت الإنجليزية على نحو غير مباشر عَبْر استعمار الهند (من العربية إلى الهندية ومن ثمّ إلى الإنجليزية). لذا فالمستعمرات البريطانية جهّزت وَسَطاً لعبور الكلمات العربية مرتين.

لأمثلة الكلمات العربية في الإنجليزية راجع الفصل الثالث من (مقدمة الفردوس) ولا سيّما (معجم الفردوس) عموماً.

- والأهم من ذلك، فإنّ اللغة السومرية – الفينيقية (ذات العلاقة الوثيقة باللغة العربية)، لها تأثير هائل على بريطانيا قبل العصر الروماني، وعلى أوروبا ما قبل التاريخ. وقد أسهم الدكتور (ل. أوستن واديل) في بحث رائد متميّز ومدوّن في كتابه المرجعيّ وعنوانه: "الأصل الفينيقي للبريطانيين والاسكتلنديين والأنجلوساكسونيين حسب النقوش الفينيقية والسومرية المكتشفة في بريطانيا، وحسب النقود البريطانية قبل عصر الرومان، مع الكثير من تاريخ جديد الاكتشاف" (طبعة وليمس ونورجيت، ١٩٢٤، الطبعة الثانية، ١٩٢٥ – الناشر كيسنجر لإعادة طبع الكتب النادرة www.kessinger.net) وكشف فيه عن لوحة تظهر: نقوش فينيقية على حجر نيوتن لـ «بارت – ولون، ملك الاسكتلنديين نحو ٤٠٠ سنة قبل الميلاد» مُسمياً نفسه «البريطاني»، «الحثيّ»، و«الفينيقيّ». ثم يستطرد الدكتور "واديل" قائلاً في المقدمة صفحة ٧:

(ذلك الأصل المفقود منذ زمن طويل مع التاريخ المبكر لأسلافنا، البريطانيين والاسكتلنديين والأنجلوساكسونيين «ما قبل التاريخ» و«العصور قبل العصر الروماني»، ورجوعاً للوراء لنحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قد استعدناه الآن، ولحد كبير كما هو مدّونٌ في هذا الكتاب، مستعيناً بالأدلة التاريخية المكتشفة حديثاً).

ثم قام الدكتور ل. أوستن واديل بكتابة كتاب بعنوان: "المعجم السومري – الآريّ – قاموس أصل الإنجليزية واللغات الآرية الأخرى القديمة والحديثة مع الأصل السومريّ للغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية" مزوداً باللوحات (طبعة لوزاك وشركاه، لندن ١٩٢٧– الناشر كيسنجر لإعادة طبع الكتب النادرة www.kessinger.net) ويقول فيه في المقدمة صفحة ix-x:

(لقد قادتني الحقائق لأدرك أنّ السومريين هم الآريون الأوائل... وأنّ «أسرة اللغات الآرية كلها مع حروفها المكتوبة مُشتقة من اللغة الفينيقية وكتابتها، ومن لغتها السومرية الأمّ. وأنّ نحو خمسين بالمئة من الكلمات الشائعة الاستعمال في اللغة الانجليزية اليوم قد أُكتشف أنها سومرية الأصل بتركيب الكلمة نفسه، والصوت نفسه، والمعنى").

وكتب الدكتور ل. أوستن واديل أيضا كتاباً بعنوان: "الأصل الآريّ للألف باء: الكشف عن الأبوة السومرية – الفينيقية لحروفنا القديمة والحديثة" مزوداً بلوحات ورسوم إيضاح (طبعة لوزاك وشركاه، لندن ١٩٢٧– الناشر كيسنجر لإعادة طبع الكتب النادرة www.kessinger.net) يقول في الصفحة الثالثة منه:

(إنّ «الفينيقيّة الكادميّة» هي الأصل المباشر لحروف ألف – باء الإنجليزية والأوروبية الحديثة، والكلمة «الكادمية» قد أُضيفت لها من قبل قدماء الإغريق نسبةً للذي أدخلها: كادموس، الملك الفينيقيّ من صور).

لكن فيما إذا كانت السومرية – الفينيقية هي لغة آرية (كما ظنّ الدكتور واديل) أو ساميّة أو حاميّة (كما اعتقد الآخرون) هي قضية تخمينية. وفي الواقع فإنّ الدكتور واديل نفسه قد قال في صفحة الاستشهاد الأخيرة نفسها: (إنّ أقدم ما عرف من شواهد (اللغة الفينيقية) المعكوسة أو الساميّة (أو بالأحرى الحامية حسب تسمية المصطلحات العبرية). وبما قرب اللغة السومرية – الفينيقية وعلاقتها الوثيقة باللغة العربية هو الذي حدا ببعض الغربيين المتحيّزين ذوي الرؤية الضيقة بمركزية أوروبا للعالم في الامتناع عن نسبة لغتهم للغة العربية الآسيوية السامية الأصل (نسبة إلى سام أو حام، ابن نوح). ولكن هؤلاء الأوروبيين سيجدوا بعض السلوى في الفصل الأول لهذا الكتاب، الذي أوضح أنّ اللغة العربية هي حقيقة لغة آدم على الأرض ومنذ البداية، بل وبزمن طويل قبل مجيء نوح وأولاده: أي أنّ العربية كانت اللسان الأمّ لأول قرية عالمية.

الحب الإنجليزي للمختصرات والكلمات المركبة[1]

التلفظ الرخو يجعل الرجل الانجليزي يتكلم بحرية حتى لو كان «البايب» (الغليون أنبوبة التدخين) في فمه، بينما الأجنبي ينبغي له أن يزيل أولاً كل ما يسدّ مجهوداته الصوتية. في كلمة مثل (باردونابل) أي قابل للصفح، يلفظ المقطع الأول فقط بوضوح، وباقي الكلمة يتلاشى بهمهمة غامضة؛ لذا فاختزال الكلمات الطويلة شائع، مثلاً (يعمل ما يساوي نصف بيني) تصبح (هابورث) و(يكون الرب معك) إلى (جودباي) أو قطع المقاطع غير المؤكدة، مثلاً (ديسبورت) القديمة تصبح (سبورت) أي رياضة، أو (إرايمنت) القديمة إلى (رايمنت) أي ثياب، كذلك الاستعمال المتقصّد أول أو آخر الكلمة فقط هو شائع، مثلاً (فان) أي عربة لكل من الكلمتين (فان جارد) و(كاراڤان): (مايك) الحديثة لمكبّر الصوت (ميكروفون) و(توت) لكلمة (توتاليزر) أي آلة حاسبة، وعندما لا تُختزل كلمة طويلة بسهولة فالإنجليزية تستعيض عنها بكلمة قصيرة، مثلاً معظم الناس يسمون التليغرام (واير) وكلمة (هانش) تعوّض عن كلمة ارتفاع ناتئ أو موهبة. والانجليز يتركون الجُمل غير منتهية شعرين أن ذلك كافٍ للمستمع الذكي، مثلاً: للمدة، ذاك يعتمد، ليس أرضياً، حسناً ا، أنا أبداً، أو يخلّف بقيّه.

أما فيما يخص الكلمات المركّبة فهي كلماتٌ مختصرةٌ من أوائل حروف الكلمات لجملة طويلة مثلاً:

LORAN هي معونة المدى الطويل للملاحة، أو

LASER (ليزر) هي تكبير الضوء بالانبعاث المحفّز للإشعاع، أو

RADAR (رادار) هي كشف مدى الراديو (المذياع).

أكثر الأسماء الإنجليزية يُمكن أن تستعمل صفات، كما في الساعة الذهب، جدار الصخر، رياضات الحقل، أرض الاستجمام. غالباً تتفرد الإنجليزية بمركبات نعتيّة مثلاً: رجل مادة الحقيقة، فكرة حديثة الزمن، رفق لا يمكن أن يُنسى.

صناعة الكلمات وصُنّاعها:

عندما بدأ وليم كاكستون بالطباعة في إنجلترا عام ١٤٧٦م، كان عليه أن يتعامل مع لغة مُركبّة من ثلاثة عناصر، وطنيّة، وفرنسيّة، ولاتينية. وكانت لهجة (شرق ميدلاند) التي ينطقها سُكان كامبردج ولندن ولحدّ ما أكسفورد هي بالإنجليزية القياسيّة. واستمر التعليم مبنياً بالكليّة تقريباً على اللاتينيّة وكان انتشار الكتب بالإنجليزية بطيئاً ونادراً. وما زال الباحثون يستعملون اللاتينية أداة نقل مناسبة للأدب، عمل يوتوبيا (أي طُوبى) للسيّد (توماس مور) طُبِعَ باللاتينية عام ١٥١٦م، ولم يُوضع بالإنجليزية حتى ١٥٥١م وفي ١٦٢٠م، أي بعد أربع سنوات من موت (شكسبير)، كانت ثقة (بيكون) باللغة الإنجليزية واهية لدرجة أنه كتب (نوفوم ورجانوم) أي العضوية الجديدة – باللاتينية والسيد (إسحاق نيوتن) الشهير تَبِعَ أثره في نهاية القرن. الاستثناء كان في توزيع الإنجيل بالإنجليزية.

هنالك بالتأكيد كمٌّ مُعيّنٌ من صناعة الكلمات في العصور الوسطى، لكنه يبقى مجهولاً، بينما ابتداءً من مرحلة النهضة والإصلاح نستطيع مراقبة صُنّاع الكلمات في عملهم، كإنجيل (كوفيرديل) و(تيندل): ومن بعد ذلك.

(كوفيرديل) أعطانا مركبّات تعبيرية مثل: سفك الدماء، رقيق القلب، شفقة الحب، رحمةُ حنون. (تيندل) أعطانا: مُعاناة طويلة، كسير القلب، حجر عثرة، ربح فاحش، عرش الرحمن، حتى الكلمات الضرورية مثل: وسيم، بينما كبش الفداء، بالرغم من أنه خطأ في الترجمة، لكنه الآن لا يُستغنى عنه.

المسهم الكبير الآخر بمفردات الإنجليزية وتعابيرها هو (شكسبير)، وتأثيره في الإنجليزية كبير بين الإنجيل الإنجليزي وشكسبير جاء (سبنسر) شاعر الشعراء. لغته هي خليط موسيقا صناعي وكان مُعجباً ومتحمساً لـ(شوسر) (بئر الإنجليزية غيرُ المشوهة)، لكنه كان متأثراً أيضاً بالشعراء الإيطاليين والفرنسيين الشهيرين للنهضة. وقد شكّل مُفردات تزيينيّة صوريّة التي يتطلع شعراء المرحلة الرومانسيّة لها. وقد اخترع الكلمات: (سمح وَقح)، (مبتهج)، واحتمال (جنّي صغير) أيضاً؛ وكان أوّل من قلّد الإغريق بتسمية الفجر الأصابع المشرقة الوردية (يشبه قول العربية: خيوط الفجر البيضاء).

الصياغات الحديثة الأخرى هي اللاأدرية (عن وجود الله وطبيعته وأصل الكون) لـ (هكسلي)، تحسين النسل لـ (كالتن) والرجل الخارق (سوبرمان) لـ (شو)، واضطرت الاختراعات العلمية والاكتشافات إلى تصنيع كلمات من المواد الإغريقية. فكلماتٌ مثل: فوتوغراف، دايناميت، سينيماتوغراف، تيوليثك... إلخ تشرح نفسها مباشرة لأي إنسان له معرفة سطحية بالإغريق.

ومع ذلك، كان على إنجلترا الانتظار حتى فجر القرن السابع عشر، ١٦٠٤م لتحصل على مُعجمها. هذا يُمثل المؤشر الأول لتحدي باقي أوروبا لأنه كان أسبق بثماني سنوات قبل أول معجم إيطالي، وبـ ٣٥ سنة قبل أول معجم فرنسي. لكن لوضعه في الصورة الكبرى العالمية تأخر كثيرا فقد تأخر المعجم الإنجليزي بـ ٨٠٠ سنة عن المعجم العربي و١٠٠٠ سنة بعد أول معجم سنسكريتي في الهند، وكلمة (معجم) كلمة لاتينية هي: (ديكشنيريوس) استخدمت أول مرة نحو ١٢٢٥م. والمعجم يناسب اللغة الإنجليزية خاصة التي امتصت العديد من كلمات غيرها.

أول معجم إنجليزي وضعه (روبرت كاودري) عام ١٦٠٤م، وسمّاه (الجدول الألف بائي) والنسخة الوحيدة الباقية هي في مكتبة (بودليان) بأكسفورد. وكان صغيراً هزيل الحجم يقارب حجم راحة اليد المتوسطة. وهو قائمة بالكلمات الإنجليزية التي هي غالباً لا كلياً من أصل لاتيني مع شرح وجيز لمعنى كل منها. وأول كلمة في هذا المعجم الأول في (أوروبا) هي (أباندون) أي يتخلى عن، يستسلم لـ، يترك، يتخلى. (مالادي) أي مرض، (سومرلي) أي باختصار أو بكلمات قليلة (أركو) أي يجادل، و(جيومتيري) هو فن قياس الأرض. (اليكاتس) هو فن الكلام، و(إيمباير) هي الحكومة أو المملكة. (كوادرنكل) هو أربع زوايا، و(راديانت) هو مُشرق أو برّاق. وكان هناك ٢٥٤٣ كلمة فقط في هذا المعجم. كان تخزين كلمات هزيلة لكنه المحاولة الأولى للتجميع، وأكثر من ذلك، كان هذا الكتاب الصغير إدراكاً للموقع الجديد للغة الإنجليزية. (كاودري) أراد بمعجمه أن يستعمله من لا يفهم الكلمات (التي يسمعها أو يقرؤها في الكتب المقدّسة والمراسيم أو غيرها). لم يكن هذا الكتاب للباحثين.

٠.١ الإصلاح البروتستانتي وقصة الإنجيل الإنجليزي[٣]

إن استعاضة اللاتينية بالإنجليزية اقتضى كفاحاً جبّاراً لانتزاع السلطان من القساوسة. هذا وقت الشهادة وعلو الخطر، والمخاطرة، والبحث التعليمي، وفوق ذلك كله الإيمان الشامل والكريم أن كلمة الرب يجب أن تكون بلغة الناس. والمعركة ستمزق الكنيسة أخيراً إلى اثنتين. النتيجة غير المتصوّرة عندما تبدأ القعقعة الأولى في النصف الثاني للقرن الرابع عشر. وتودي بأرواح كثيرة. لكنّ الكثير كان مُستعداً للموت دونها، لجعل الإنجليزية لغة عقيدتهم. لذا فإن دور الإنجليزية أُعطي دفعةً بالإصلاح البروتستانتي: الذي وضع واجباً دينياً لمعرفة القراءة والكتابة على الجميع، وزوّد نصوصاً قوميّة بهذا الغرض: الإنجيل باللغة الدارجة وكتاب الصلاة[٥].

المُحرّك الأساسي في القرن الرابع عشر كان الباحث المؤيد للبروتستانتية: (جون وايكليف)، الذي وُلِدَ قرب (ريشموند) في (يوركشاير)، أُدخل لكلية (ميرتون) في أكسفورد عندما كان يبلغ ١٧ سنة، وكان ذا جاذبية

وسلاسة باللاتينية، وكان فيلسوفاً وعالم دين كبيراً، وقد آمن بصدق أن معرفته يجب أن يشاركه فيها الجميع من داخل جدران أُكسفورد المُقنّنة الدينيّة التقليدية والمعسولة، شنّ الباحث (وايكليف) هجوماً غاضباً على سلطة وثروة الكنيسة، هجوماً قبل شخوص (مارتن لوثر) بأكثر من ١٠٠ سنة، وكانت مناظرته هي تمييز كنيسة الرب المثالية الأبدية من تلك المادية في روما. باختصار، أكّد أن الشيء الذي ليس في الإنجيل ليس حقاً، ولما كان الإنجيل لا يقول شيئاً في موضوع منصب البابا، فإن هذا المنصب ليس شرعياً – وفي الحقيقة الإنجيل لا يقول شيئاً عن وجود البابا – كان هذا الكلام ثورياً وقطّع كلّ جذور السلطة القائمة.

لا سيّما أنه وأتباعه مثل (جون بول) دعموا ذلك بطلب مقاضاة الكنيسة، بسبب منع ثروتها عن الفقراء وطالبوا بتوزيع ثروة الكنيسة على المحتاجين. الكنيسة لم تر خياراً سوى سحقه. وفيما يخص (وايكليف) فإنه ذهب أكثر من ذلك، فهو وأتباعه هاجموا مبدأ الاستحالة، وهو الاعتقاد الذي يقول به القساوسة، أن الخمر والخبز يتحول بمعجزة إلى دم وجسد المسيح، كما أنه هاجم رهبنة القساوسة (عزوفهم وامتناعهم عن الزواج) واعتقد أنه نظام سيطرة مؤسساتي على جيش القساوسة؛ وهاجم الاعتراف بالقوة، وهي طريقة القساوسة، بناء على رأي (وايكليف) أنها لتصيّد المعارضين، ورصد أخطائهم في العقيدة، كما وحارب صكوك الغفران، التي يجلب شراؤها الخلاص من العقاب، ولكنه يجلب ثروةً للكنيسة كما قال، وهاجم حجّهم الذي هو نوع من الشرك؛ والتمثيليّات اللغزية الغامضة؛ لأنها ليست من كلام الربّ، وايكليف لم يأخذ أسرى (بل قتل جميع المبادئ).

كانت مناظرته الأساسية والثورية التي إذا قُبلت بأي شكل أو صورة سوف تُسقط الكنيسة كليّاً، ليصبح الإنجيل هو السلطة الوحيدة للاعتقاد الديني والممارسة، وبأن الجميع لهم حق قراءة الكتاب المقدس وتفسيره. كان هذا سيغير العالم، والذين يحكمون يعلمون ذلك. فأصبح هو العدو الرئيس. لكن من السخرية أن مناظراته الرئيسة كان يجب أن تُكتب باللاتينية – اللغة العالمية للباحثين وعلماء الدين – على الرغم من أن المناسك كانت تُقام بالإنجليزية من قبله وأتباعه.

إنجيلٌ كامل بالإنجليزية غير مُصرّح به من قبل الكنيسة وذو هرطقة كامنة، بل تحريضي أيضاً، ويقتضي عقوبات همجيّة تشمل الموت بوصفه جرائم ضد الكنيسة الحقّة الواحدة؛ أي ترجمة كانت تعد عالية الخطر ووجب عملها في الخفاء، في كليّات أكسفورد.

«الإنجيل عبر الإنجليزية» الآن استصرخ واستنجد بالناس. وهذا لا يُتسامح به. ففي ١٣٨٢/٥/١٧، في (بلاكفرايرز) بلندن، في موقع الآن يفخر به في بيت فيكتوري علني وآجرّه المُزين يذكّر بأيام (وايكليف)، اجتمع مجلس الكنيسة لفحص أعمال (وايكليف). كان هناك (٨) قساوسة وعددٌ من رجال الدين ودكترة في القانون العام والمدني مع (١٥) راهباً. كانت محاكمة استعراضيّة. الاستنتاجات كانت مُقدّرة سلفاً، وفي اليوم الثاني للاجتماع كتبوا مسوّدة القرار المُدين لآراء (وايكليف) كهرطقة واضحة. أتباع (وايكليف) أُدينوا أيضاً فالمجلس أمر بإيقاف (وايكليف) ومُقاضاة الدّعاة المتجولين في البلاد. والكثير من هؤلاء قبض عليهم وعُذّبوا وقُتلوا. وبما الأهمّ من هذا كلّه كان ما يتعلق باللغة الإنجليزية؛ فقد تسبّب المجلس بمنع برلماني لجميع أناجيل اللغة الإنجليزية، وكانت لديهم السُلطات لتفعيل ذلك. وهُزم مجهود (وايكليف) الكبير في التطاول على سُلطة الكنيسة هزيمة منكرة. ومُنعت أناجيله قانونيّاً. إلا أن أبواب الكنيسة من الكاتدرائيات الكبيرة إلى كنائس المقاطعات الصغيرة، ما زالت مُحتكرة لاتينياً. في ٣٠ آيار أرشدت كلّ أسقفيّة في البلاد لإعلان الحُكم، وأصبح (وايكليف) مريضاً، لقد كان مشلولاً بسكتة دماغية. وبعد سنتين توفي في آخر يوم من عام ١٣٨٤م.

بعد موت (وايكليف)، وبالرغم من إدانة وقساوة الكنيسة، فإن نُسخ إنجيل (وايكليف) استمرت بالطباعة

والتوزيع – حتى لو كانت حيازة أحد أعمال (وايكليف) جريمة يُعاقب عليها بالموت، وبجرأة مُدهشة فإن الكاثوليك الذين نشروا اللغة الانجليزية كانوا مُستعدين لتحدّي البابا، والمراهنة بحياتهم وبأرواحهم الأبدية من أجل قراءة كلمة الربّ بالإنجليزية لغتهم الخاصة. لكن السلطة الكهنوتيّة لم تتحمل ذلك. وفي ١٤١٢ أي بعد ٢٨ سنة من موت (وايكليف)، أمرَ رئيس أساقفة (كانتربري) بحرق جميع أعمال (وايكليف)، وأدخل في رسالة إلى البابا قائمة لـ (٢٦٧) هرطقة (تستحق النار)، التي ادعى أنها أُنتُخبت من صفحات إنجيل (وايكليف). ويُقال إنه قال: (هذا العضو الخسيس والمُهلك، ابنُ الأفعى، نذير الشؤم، وابنُ المسيح الدجّال، جون (وايكليف)، طفح كيلُه بالخبث بسقوطه بذريعة الترجمة الحديثة للكتاب المقدس في اللغة الأمّ).

لأسباب مخلصة ساخرة، بقيت اللاتينية لغة الكتاب المقدس، وفوق ذلك كان يجب إبقاؤها غير منتهكة. (وايكليف) هدد صوت الكنيسة الكونية للربّ الواحد الذي لا ينقسم. هذا مثالٌ رهيب لقوة اللغة.

إلا أن الكنيسة لم تنته منه تماماً. فقد دعا الإمبراطور (سيجيسموند) ملك هنغاريا (المجر) مجلس الثبات عام ١٤١٤م، وكان أهم مجلس مهيب دُعي بالكنيسة الكاثوليكية، وأُدين وايكليف بوصفه هرطقياً في ١٤١٥م، وفي ربيع ١٤٢٨ أُمرَ بنبش عظامه وإزالتها من أرض الدفن المقدسة. وبقي الإنجيل باللاتينيّة. وأما محاولة وايكليف الثانية فكانت درساً قاسياً ملعوناً لكل من تسوّل له نفسه أن يشنّ حملة غير مقدسة إلى جانب الإنجليزية. بقايا (وايكليف) حرقت على جسر صغير على نهر (سويفت) متفرع من نهر (آيفون).

إنجيل وليم تيندل:

الاسمان الشهيران المرتبطان بالإنجيل الإنجليزي هما (وليم تيندل) و(مايلز كوفرديل)، وكلٌ منهما عمل في المنفى في ألمانية. ترجم (تيندل) من الإغريقية ومن النصوص العبرية، وترجم (كوفرديل) من اللاتينية ومن نسخة (لوثر) الألمانية وبَرَعَ (تيندل) بالدقّة والحماس، بينما كان (كوفرديل) أكثر رشاقةً وموسيقيةً. وتكاد النسخة المأثورة تعتمد كلياً على تيندل، بينما ترجمة (كوفرديل) تدين الإنجيل الإنجليزي في كتاب الصلاة (الذي هو نسخة المزامير).

في باكورة عهد هنري الثامن، كان الملك الجديد لا يزال يَعدُّ البابا أنه سيحرق أيَّ (ترجمة غير صحيحة)، وكان يعني بذلك إنجيل (وايكليف)، الذي بالرغم من كل مجهودات المحكمة والكنيسة، ما زال يوزّع باستمرار في البلاد بنسخ يدوي.

وضع هنري الثامن مستشاره اللورد كاردينال (وُلسي) القوي الفاعل لمصادرة كُتب الهرطقة، أدرك (وُلسي) أن مارتن لوثر قد هزّ الكنيسة الكاثوليكية الرومانيّة عام ١٥١٧ بمطالبيه التي سمّرها (دقّها) على باب كنيسة (وتنبرج)، كان (وُلسي) قلقاً كسيده (الملك هنري الثامن) لإرضاء البابا، فأقام بحثاً في كل البلاد عن أعمال الهرطقة. وفي عام ١٥٢١/٥/١٢، أُضرمت نارٌ هائلة لحرق أعمال الهرطقة المُصادرة خارج كاتدرائية (سانت بول) الأصليّة. يُقال إن لهب النار استمر مدة يومين. وكان حرق الكتب الكبير إنذاراً لما قد يحدث لمن يُصرّ على تحدّي سلطة البابا.

كانت هذه هي السنة التي بدأ فيها (وليم تيندل) دعوته العلنية على ساحة (القديس أُغسطين الخضراء) وخطّ الطريق المؤدي إلى تغيير جذري في اللغة الإنجليزية وفي المجتمع الإنجليزي على السواء.

ليس من السهل دوماً الإدراك الكلّي أو حتى تصوّر ما يُراهن عليه. كانت معركة السلطة الكبيرة. كان تأثير الكنيسة الكاثوليكية الرومانيّة عبر الأقطار، والدول، والإمارات، والناس فريداً. وكانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانيّة غنيّة، وكانت الحليف المرغوب في الحرب، وطالبت هي بالطاعة عبر احتكارها للعقيدة

الصحيحة الواحدة. وغطّى قساوسة مُقاطعاتها كلّ فدان من الأرض تقريباً. كانت تستمع إلى الاعترافات، وكان لها القدرة على غفران الذنوب، وإجبار الناس على الحضور إلى الكنيسة، وكان الناس يدفعون ضرائب للكنيسة، امتثالاً لأحكامها في المسائل العلنية والأخلاق الشخصية: حتى مُمارسة الجنس كان قضية كنسية. وسبب ذلك كله أن الكنيسة تملك الوصول الفريد للربّ أي للحياة الأبدية. وعبر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فقط يستطيع الإنسان الاتصال بالربّ وله الخيار في البعث.

تحدى كلٌّ من (وايكليف) و(لوثر) و(تينديل) ذلك. لقد أرادوا لعوام الناس الاتصال المباشر مع الربّ. وكان جعل الإنجيل بلغة الناس الوسيلة لجعل ذلك قابلاً للحدوث. وكانت المعركة حول اللغة تمرداً واضحاً ضد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي نصبت نفسها بوّاباً للربّ، والادعاء أنها الممثل الوحيد للربّ على الأرض. وعلى النصارى الطاعة لقوانينه الأرضية بكل حذافيرها كقوانينه في الجنة. وهذا أثبت أنه لا يُطاق بالنسبة لمجاميع مختلفة عبر القرون، والآن انتفخ نهر المعارضة وامتدّ. وقاد التمرد رجالٌ ونساء متديّنون جداً. هم كذلك آمنوا بالولادة العذراء، وبقدسية المسيح، وفوق ذلك آمنوا بالبعث. كانت سنوات مُضنية قبيل الإلحاد حتى اللاأدرية.

هم أرادوا إنقاذ أرواح الناس، ولكن ليس بالأوامر والمراسيم الصادرة من السلطة المركزية اللاتينية في روما، التي ليس لسُلطتها أي دليل في الإنجيل. وبالنسبة للمتمردين كانت نهاية الروح القضية العُظمى في الحياة: وكانت تستحق الموت من أجلها.

وبعد قرون كان هناك من يشعر بالشيء نفسه حول الحريّة، لكن لم يكن هناك من هو أكثر منهم حماسة وحتى تطرفاً وأكثر اقتناعاً بهدفهم بوصفهم رجالاً مؤمنين تماماً كما كان (وليم تينديل) مقتنعاً بهدفهم. بعد هذا كله، لم يعمل (تينديل) أكثر من خدمة الربّ الصحيح الواحد، صانع كل شيء، الخالق، العظيم، واهب الحياة وآخذها، وحاكم كل الرجال والنساء. وليس في الحياة أعظم من خدمته.

وبالنسبة لـ (تينديل) كانت الإنجليزية فعلاً الطريقة المثلى لاتصال الربّ بأهل هذه اللغة، والطريقة الأفضل لاتصالهم به. وكانت معركة الإنجيل الإنجليزي معركة الخلاص عبر الكتب المقدسة.

كان (تينديل) مثل (وايكليف)، باحثاً تقليدياً في أكسفورد، وعارض مثل (وايكليف) كليّاً الفكرة أنه القسيس المقدّر عليه أن يكون هادئاً وممتثلاً. وباحثاً عن المناصب. اخذ (تينديل) الخطورة وعاش حياةً تُقرن بأحد أبطال القرن العشرين الثوريين، وواجه نهايةً أسوأ من أغلبهم. ومن الممتع أن بيتاً كبيراً في (كلوسترشاير)، كانوا فرحين بدعم خُطط (تينديل) سراً، وهو بيت كان يحاضر فيه، وتملكه أسرة غنيّة من تجّار الصوف الجُدد، سمّتْ نفسها (الإخوان النصارى)، وهو اسم آمنٌ سياسياً - وأعطت ميزة الدعم المبكّر في حياة (تينديل) تشجيعاً إضافياً لما يحتاجه.

ولكن مثل (وايكليف)، ظهر أنه رجلٌ مدفوعٌ كليّاً بفكره. ففي عام ١٥٢٤م، وكان في عمر الثلاثين، ترك (وليم تينديل) إنجلترا ليواصل عمله خارج دولة الجواسيس القامعة والموضوعة من قبل هنري الثامن والكاردينال وُلسي، ولم يرجع، قابل (إيرازموس) ثم (لوثر)، الرجلين الأساسيين في الحركة التي سُميت فيما بعد بـ «البروتستانتيّة» واستقر في (كولون)، وبدأ وحده يترجم (العهد الجديد)، ليس من اللاتينية بل من الأصول الإغريقية والعبرية. وكان هذا يدل على عبقرية (تينديل) اللغوية، التي جعلت ترجمته مُعبّرة وقوية في الذاكرة.

وبعد سنتين، طُبعت ٦٠٠٠ نسخة في الخارج، وهذا دليلٌ على طبيعة المناصرة الكبيرة التي حصل عليها (تينديل) من تُجّار الصوف في (كلوسترشاير)، وسرعة الطباعة وكفايتها. غُلّفت الأناجيل الجديدة وأُرسلت إلى الساحل جاهزةً للتهريب إلى إنجلترا. مرة أُخرى جاءت الإنجليزية إلى إنجلترا من وراء البحر. لكن هذه المرّة

مكتوبة بالإنجليزية، وكان من أحسن ما صقل وكُتب على الورق، لكن جواسيس هنري الثامن وولسي أخبروهما بهذا الغزو، وفي هذه الأثناء بدت الحالة غير طبيعيّة، ووُضعت جميع البلاد في حالة إنذار من أجل منع كلمة الربّ بالإنجليزية، فحرست السفن الحربية مياه الساحل، وأوقفت القوارب وفُتّشت، وأوقف رجالٌ، وكثير من الأناجيل اعترض سبيلها، عُدّ العمل مشابهاً لحالة حرب، وكان ذلك بالفعل بالنسبة لهنري الثامن وولسي. فاللاتينية هي كلمة الربّ الوحيدة والمسموح بها في الدولة، وقد خرجت الدولة بقوتها المُسلّحة كلها للدفاع عن حليفها الأكثر إخلاصاً ألا وهي الكنيسة.

في البداية دخلت العشرات ثم المئات عبر الخطوط، فقد حاول رئيس دير لندن آنذاك حيلةً: أن يشتري جميع النسخ العابرة عبر وسيط.

(أوه هو سيحرقها) هكذا قال (تيندل) افتراضاً عندما سمع بذلك. (أنا الأكثر فرحاً) هكذا استرسل قائلاً: (لمنفعتين من ذلك، سوف أحصل على المال منه على هذه الكتب لإخراجي من الديون، ثم إن العالم كله سيبكي على إحراق كلمة الربّ) وهذا ما حصل، فقد اشترى رئيس الدير الكتب وأحرقها، واستخدم (تيندل) المال لإعادة العمل والتحضير لطبعة أفضل؛ لأنها على حساب الكنيسة.

ولم يمضِ وقت طويل على إنجلترا المتشوقة إلى إنجيل (تيندل) فهذه المرّة هي على نار لقراءته، فآلاف النسخ قد هُرّبت. في تعبير (تيندل) الخاص الفرح: (ضجّة الإنجيل الجديد له صدى في كل البلاد). طُبع الإنجيل في حجم الجيب الصغير، فكان إخفاؤه سهلاً. قضى (تيندل) حياته في الهرب، فقد كان على الدوام مُطارداً من قبل الجواسيس الكاثوليك، وكان (تيندل) يتحرك بسريّة بين أراضي شمال أوروبا المتعاطفة مع البروتستانت. وفي ١٥٣٠م، تُرجم (العهد القديم) وطُبع في (انتويرب) في بلجيكا. وفي انتويرب قابل (تيندل) رجلين إنجليزيين كانا مقاتلين مأجورين، فاصطادوه وأودعوه في قلعة (فيلفورد)، حيث سُجن في بُرجها المحصّن، لكنه استمر بكتابة عبارات بتأثر وقلب كسير مثل: (النبي ليس له فخر في بلده)، (غريبٌ في أرضٍ غريبة)، و(دع قومي يذهبوا). وفي نيسان ١٥٣٦م وجدت محكمة في بلجيكا (تيندل) مذنباً بالهرطقة، وكانت الطريقة التي اختاروها لقتله خنقاً لقطع صوته، وهكذا كان في ١٥٣٦/١٠/٦م. وأخيراً أحرقوا جسده على محرقة. يقال إن آخر كلماته: (ربِّ، افتح عينيّ ملك إنجلترا)!

قبيل إعدام (تيندل) بسنتين أُعطي هنري الثامن لقب (المدافع عن العقيدة) من قبل البابا ليو العاشر لنبذه أفكار (لوثر)، ثم ترك زوجته كاثرين وتزوج سرّاً عشيقته الحامل (آن بولين). فهدد البابا الجديد (كليمنت السابع) بفصله (وحرمانه من عضوية الكنيسة). وفي عام ١٥٣٥م قام (مايلز كوفرديل) باستعمال نصوص (تيندل) قدر المستطاع، طبع الإنجيل كاملاً، مهدياً إياه إلى الملك، وكان هذا أول إنجيل قانوني بالإنجليزية. وكان ذلك قبيل سنة من إعدام (تيندل).

ودخل هنري في مباحثات مع بعض الأُمراء اللوثريين في ألمانيا في عام ١٥٣٦م بحثاً عن حلفاء، وكان ذلك سنة إعدام (تيندل)، ولكن لا توجد وثائق عنه، وهو يفكر في الرجل الذي ساعدت كلماته بصياغة إنجلترا البروتستانتيّة الجديدة. في عام ١٥٣٧م، ظهر إنجيل ماثيو (وهو خليط من إنجيل كوفرديل وإنجيل تيندل) وسُمح له بالطباعة في إنجلترا.

وفي عام ١٥٣٩م أصبح لدينا الإنجيل الشهير بنسخته الرسمية. وفي هذه الأثناء ومع الانشقاق من روما، قهرت الإنجليزية آخر معقل وأعلاه: ألا وهو الكنيسة. وهكذا تدفقت اللغة الإنجليزية للدين. وكان من مبادئ البروتستانتية أن يتوافر الإنجيل للجميع.

ومع بداية القرن السابع عشر كانت هناك عدة نُسخ متنافسة للإنجيل، مما حدا بـ ٧٥٠ مُصلحاً من داخل كنيسة إنجلترا يحثّ الملك جيمس السادس ملك اسكوتلندة الذي أصبح الملك جيمس الأول لإنجلترا ليُجيز ترجمة جديدة للإنجيل. وقد اختير لذلك (٥٤) مترجماً من الكنيسة والجامعات لإخراج الطبعة التي احتاجت ٥ سنوات. ويُقال إنّ كلمات (تينديل) وتعابيره أثرت في ٦٠ إلى ٨٠٪ من إنجيل الملك جيمس. وكان ذلك في عام ١٦١١م، وفي تلك الحياة الثانية دارت كلمات (تينديل) وتعبيراته حول العالم. فقد كان هذا الإنجيل الرسمي محاولة عظيمة جعلت إنجاز (تينديل) يبدو كله عملاً إنسانياً استثنائياً.

٢. إسهام شكسبير في اللغة الإنجليزية[٣]

ولد شكسبير في (ستراتفورد — أبون — إيفون) عام ١٥٦٤م، وكان والده جون صانع قفافيز؛ وجاءت أمه (ماري أردن) من أسرة مُزارعة. وكان شكسبير الأكبر بين ثلاثة أبناء وأربع بنات. وقد تعلّم محليّاً حتى بلغ ١٥ أو ١٦ من عمره. لكن ماذا حدث له حتى حلّ في لندن نحو ١٥٩١م. لم يكن ذلك واضحاً سوى أنه في عام ١٥٨٢م تزوج (آن هاثواي) (وكان عمره ١٨ سنة)، وأصبح لديه ثلاثة أولاد.

هل عمل مع والده؟ هل كان والده كاثوليكيّاً سرّاً حيث كان ذلك خطراً جداً تحت حكم الملكة إليزابيث البروتستانتيّة، مع أن كل مخططات البابا ضدها؟ كل هذا غير واضح. حقاً هناك جوانب كثيرة من حياة شكسبير وأسرته غير معروفة. لكننا نعرف أن أستاذه الرئيس في المدرسة الثانوية المحلية كان جزءاً من الدائرة الكاثوليكية التي ألقت ظلالها على (ستراتفورد). وفي بدايات عام ١٥٩٠ وصل شكسبير إلى لندن، وعمل كاتباً روائياً. كان شكسبير حلو اللسان. وأغلب الباحثين اليوم ينسبون إلى شكسبير ٣٨ تمثيلية و١٥٤ قصيدة غنائية مع قصائد أُخرى كثيرة. وقد جلب لنا شخصيات مثل: (فولستاف، كيت، بولونيوس، لاجو)؛ وشخوصاً من التاريخ، نذكرها أكثر من مثيلاتها التاريخية الحقيقية: (ريشارد الثالث، الملك لير)؛ مسرحيّات وحبكات روائية لا تزال تُمتع ولا تقلّ إثارة: (مكبث، عُطيل، هامليت). وتستطيع تقدير شكسبير بعدة طرق؛ وهنا نحن نركز على إسهامه في الإنجليزية نجد أن أكثر من ٢٠٠٠ كلمة من كلماتنا اليوم وُثّقت به أولاً، إمّا نُزعت من مكان ما أو اخترعت من قِبَله.

وبالرغم من أنه قد لا يكون من اخترعها، فكلمات مثل: (فاحش، تكييف المبيت، سافر الوجه، قفزة الضفدع (وثبة متجاوزاً رئيسك)، وبريق باهت)، أمثلة بسيطة للكلمات التي ظهرت أولاً في أعماله. وكلمات أخرى وجدت ظهورها الأول: (مغازلة، بحذاقة، يتعذر تمييزه (غامض)، متعمد، واتكال).

وبعد ٤٠٠ سنة، كانت مفردات شكسبير لا تقل عن ٢١,٠٠٠ كلمة مختلفة؛ بعضهم قدّرها مع مركبات الكلمات بما يصل ٣٠,٠٠٠ كلمة.

ومن المقارنة المُمتعة: أن إنجيل الملك جيمس في ١٦١١م استعمل نحو ١٠,٠٠٠ كلمة مختلفة. والرجل المتعلم الوسط اليوم (وبعد أكثر من ٤٠٠ سنة من شكسبير) بالرغم من فائدة مجيء مئات الآلاف من الكلمات الجديدة منذ ذلك الوقت حتى الآن، لا تتعدى مفرداته المستعملة نصف مفردات شكسبير!!

فقد سجلت أعمال شكسبير كمّاً هائل من الكلمات؛ ومن أمثلة ذلك كلمات نحو: هوائي، خبطة (ارتطام)، لا يُحصى، يتضاءل، مُفعم بالأحداث، مُتشنّج، مُعقّد، يستعجل، منعزل (وحداني)، ضخم (كالنُصب البارز).

بل إنه المرجع المبكر لكلمة «مُلطّخ بالدماء». ومن صناعته النعوت المدهشة مثل: خالي البال، سيئ الطالع (منحوس)، ملوّن بهيج (استعملها لوصف شهر نيسان)، ناطح السحاب (للأبراج)، مُقبّلة السماء (لتلال)، بريء

باهت (للعين)، بينما تشكّل تعبيرات شكسبير اليوم جزءاً متمّماً لمفردات كل يوم مثل: (عين العقل (أي الخيال)، خيار للجميع، رطلُ لحم (تقال لدقة الضبط وإلاّ فالعقوبة — من مسرحية تاجر البندقية)، شُهرة الفقاعة (للبهرج الكاذب)، بُرج القوة (تقال للشخص الثابت الموثوق)، المساعد القوي، تعوُّد الشيء منذ الولادة، بلا حكمة لكن ذو جدوى، بالقيضان والحقل (أي بكل شيء)، يصرّح بالحبّ علناً.

ومن (هاملت) وحدها من الممكن تعداد نحو (٥٠) تعبيرا من هذه التعابير، حتى الرجل الذي لم يقرأ سطرا لشكسبير يستعمل تعابيره دون شعور كل يوم. فقد استخدم شكسبير الكلمات المركّبة مثل: مختلّ التوازن، عيون الطفل، وسيم الوجه (بلا تجاعيد). إذا كان مقامُ الكاتب يعتمد على استعماله تعابير شكسبير، يبدو إذاً شكسبير دون منافس. وتعبير (تكون أو لا تكون هذا هو السؤال) معروف حول العالم. ربما هذا هو التعبير الأشهر، والمستخدم في كل لغة أبداً.

استعارة الكلمات

١ـ نهضة الكلمات[٣]

حصلت إنجلترا حقّاً على نصر شهير (ضد الأسطول الإسباني)، وبوركت ببعض الحظ. بنصرها على جيش متفوّق جداً. وحصلت اللغة الإنجليزية على خلاص كبير؛ لأن اللغة الإسبانية كانت لغة قاهرة وغازية.

فبعد عام ١٥٨٨م، نمت كفاءة البحرية في جزيرة بريطانيا الصغيرة بقوتها وفتحت العالم للتجارة. وهذا استجلب كمية هائلة من البضائع، كذلك فإن اللغة الإنجليزية استوردت حمولة هائلة من المفردات. ودخلت إلى اللغة الإنجليزية ١٠,٠٠٠ـ١٢,٠٠٠ كلمة جديدة أخرى في عهد اليزابيث وجاكوب. وولدت خريطة العالم الجديدة مع أفكار جديدة.

كانت إنجلترا في أيام الأسطول الإسباني متخلّفة عن القوى الأوروبية الأخرى في حصولها على الفتوح الاستعمارية، وتخلّفت اللغة الإنجليزية جداً في تأثيرها في الخارج. وكانت اللغة البرتغالية آنذاك قد تركت بصمتها في البرازيل. وكانت تعضّ داخل أعماق أمريكا الجنوبية؛ فقد نُطقت اللغة الإسبانية في كوبا والمكسيك أكثر من نصف قرن. وكانت إسبانية آخذة بتجارتها، ودينها، وثقافتها مع لغتها في أنحاء العالم الجديد كلها.

قبل ٨٠٠ سنة مضت، سارعت اللغة العربية عبْر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وكانت ما تزال تُسمى باللغة الإمبراطورية، بينما وطّدت اللغة الهندية نفسها وبسهولة لغة تداول إن لم يكن لغة الآداب في كل منطقة الهند المأهولة بالسكان (بينما كانت العربية لغة الآداب). وعلى مقياس صغير نسبياً في القرن السادس عشر، بدأت الإنجليزية تنتشر بتوسع إلى أجزاء من ويلز واسكتلندة وإيرلندة، على الرغم محدوديتها، وأظهرت اللغة الإنجليزية نهمها لكلمات جديدة، وقابليتها لاحتوائها مباشرة في اللغة الأم. فعندما صادف البحارة الإنجليز طعاماً وفاكهة جديدة وعبؤوها في البراميل ليجرّبوا حظّهم في الأسواق جانب النهر في إنجلترا، جلبوا معهم الأسماء أو أنجلزة الأسماء الأصلية تجعلها إنجليزية معهم مثل: البرقوق، وسمك الأنشوفة، من أو عبْر إسبانية والبرتغال. لذلك فإن كلمات مثل: شوكولاته وطماطم جاءت من الفرنسية، وهما مثالان جيدان لبوتقة انصهار اللغة، (وكلمة طماطم قد يكون مصدرها أيضاً الإسبانية). نحو خمسين لغة أخرى التحقت بحمولة الكلمات الجديدة التي أُدخلت في هذه المرحلة وبرشاقة اندمجت في الإنجليزية. وفي بعض الحالات كانت هناك لغة وسيطة. وانتصبت لغة النهضة بالكلمات المستوردة. قصب (بامبو) من ملاي؛ سوق (بازار) عبر الإيطالية، وقافلة (كارافان) عبر الفرنسية، وكلاهما من أصل فارسيّ؛ قهوة وكُشك (تركية جاءت عبر الفرنسيّة)؛ كاري (بهار هندي) من التاميل، فلانيل (نسيج صوفي ناعم) من ويلز، المعلّم الروحي

(غورو) من الهندية؛ بعد ذلك كانت كلمات مثل: حريم وشيخ والكحول قد جاءت من العربيّة؛ وشيكل «شاقل» من العبرية؛ وبنطلون من الإيرلندية الكاليك. وخرجت السفن الإنجليزية إلى كلّ أنحاء العالم، تُتاجر بالبضائع وتنهب اللغة. لكن هذه اللعبة أو الإدمان لم يكن مُقتصراً على الرجال في السُفن. كان هذا هو الوقت الذي بدأ فيه الفنيون والباحثون والارستقراطيّون الإنجليز باستكشاف أوروبا.

كان المكان المقصود المُفضل هو إيطالية صاحبة الثقافة المهيمنة في ذلك الوقت، التي امتلأت روعةً بالبناء المعماري، وبالفن، وبالموسيقا، وجلب الإنجليز معهم كلمات وصَفت ما رأوا، ومرةً أخرى جهزت منصة لأفكار جديدة.

في هذه الحالة كانت هناك أفكار حول الانفجار الثقافي الذي سمعت به إنجلترا غالباً من مسافة جزيرتها. وعند عادوا جاؤوا مندفعين بمشترياتهم من الكلمات من الخارج نحو: شرفة (بلقونة)، وتصوير جُصّي (فريسكو)، ودار ريفي (فيلا) من اللاتينية، وقُبّة (كوبولا)، ومدخل ذو أعمدة (بوتيكو)، ومساحة (بيازا)، ومُصغرة منمنمة (ميناجر)، وتصميم (ديزاين)، وجميعها من اللغة الإيطالية كما هي الحال مع كلمات مثل: مسرحية موسيقية غنائية (أوبرا)، وكمان (فيولين)، ولحنٌ يؤديه مغنٍّ واحد أو بآلة واحدة (سولو)، ولحن موسيقي لآلة أو اثنين (سوناتا)، وعزف سريع (تريل)، وحجر كريم ذو نقش (كاميو)، وصاروخ ناري (رووكت) (وقد تكون أيضاً فرنسية)، وبركان (فولكانو)، وصوت النساء والأولاد في الموسيقا (سوبرانو)، والعزف على آلة بمصاحبة الأوركسترا (كونشيرتو) جاءت لاحقاً.

وكانت النهضة مسرحاً للبحوث والتدارس، أُعيد تنشيط الفنون والمساعي التفكيرية في حقول عدة بإعادة الكشوف للماضي التقليدي، والكثير منه انتقل لأوروبا الغربية عن طريق الباحثين العرب العباقرة عبر أعمالهم ومراجعهم العربية الأصيلة كما يشمل ذلك التراجم العربية للكتب الإغريقية أيضاً. حَقَن العرب الإنجيزية بكلمات جديدة ذات علاقة بالعلوم، والطب، والتعليم، والتجارة، وجوانب الحياة المُرفّهة مع كلمات ذات علاقة بالطعام والطبخ والمطعم العربي. حقيقةً لولا العرب ما كانت نهضة أوروبا لتحدث أصلاً، ولو حدثت جدلاً لجاءت مجوّفة أو مقوّضة الأساس. أصبح العلم أكثر من اهتمام مشروع حول الأرض واكتشاف العوالم الجديدة. والطبّ كذلك أفاق في أوروبا من نوم دام أكثر من ١٠٠٠ سنة. وكانت اللاتينية والإغريقية اللغتين اللتين يلجأ إليهما الباحثون في دراساتهم؛ وعبر تلك اللغة القديمة وصفوا ما وجدوا من نتائج، فعبر اللاتينية استعرنا كلمة مفهوم (من المفاهيم) أي (كونسيبت) واختراع (إنفنشن) وطريقة تقنية (تكنيك).

تعطينا نظرة فاحصة للكلمات المستعارة من اللاتينية والإغريقية في الحقل المتطور للطب لقطةً فوتوغرافيةً لذلك الوقت. وكان الوسم التقليدي لمصطلحات الطب ناجحاً جداً في أثناء النهضة لدرجة أنه استمر منذ ذلك الحين حتى اليوم. ضمن مئات الكلمات التي وصلت من الإغريقية عبر اللاتينية وهي: هيكل، ووتر، وحنجرة، ومزمار، ومُعثكلة (بنكرياس) من اللاتينية، كما أخذت الإنجليزية: ظُنبوب (عظم الساق تيبيا)، وجيوب، ودرجة الحرارة وحُمات (فيروسات جمع فيروس أو حُمّة) وهذيان وصرع. كذلك طُفيليات، وذات الرئة (التهاب رئوي) حتى مقياس الحرارة، والمقويّات، ومحفظة (أو جَفْنة بالكيمياء أي كبسول) كلها كلمات من الأصل التقليدي. نحن نتكلم عن أجسامنا بألسن قديمة.

٢. استعارة الكلمات من العالم كلّه (الاستكشافات والاستعمار)[1]

استعارت اللغة الإنجليزية كلماتٍ من كل أنحاء العالم بالإضافة إلى المصادر الأساسية الثلاثة التي عالجناها، ابتداءً من الإسهامات العبرية للإنجيل، مثلاً ملاك أو طفل وديع (شيروب)، وسبت، وشيبوليث (شعار أو كلام مُميز)، والمصطلحات العلمية التي نحن مدينون بها للعرب الذين كانوا أعظم حُفّاظ للعلم في العصور الوسطى، مثل الكيمياء، والجبر، وسمت (ذروة)، وصفر.

كانت ضيافة الإنجليزية للكلمات الأجنبية غالباً مدار تعليق؛ وإن الاستعارة هي الطريقة الخاصة، التي بها توسّع الإنجليزية مفرداتها، وهذا ما يميّز الإنجليزية عن أقاربها الحميمين كالألمانية[1]. منذ أيام النهضة، الترحال إلى أوروبا أصبح شائعاً وأهم قُطر في التجوال الكبير كان إيطالية، التي منها أخذت الإنجليزية حشداً من الكلمات المتعلقة بالموسيقا، الفن والبناء المعماري. يُعطي العنصر الإسباني للإنجليزية دلالة للصراع الإنجليزي مع إسبانية، ونزاع الثروات في العالم الجديد، في حين أخذت الإنجليزية من هولندة، كما هو متوقع، كلمات الإبحار وجزءاً من المفردات الإنجليزية. وبعض الاستعارات الأوروبية قطعت رحلات طويلة لتصلنا مثل بوص (أي رئيس أو حاكم) التي عبرت الأطلسي مرتين في طريقها من هولندة إلى انجلترا، وكوبرا (أفعى سامّة جداً) وبادري (قسيس الأسطول) أُصطفيت في الهند.

المُصادفة أعطت شيوعاً فجائياً للكلمة، مثلاً بوش (لا شيء)، كلمة تركية في الاستخدام الشائع، جاءت مكررةً في القصة الشرقيّة (مغامرات حاجّي بابا من أصفهان) لـ (موريير ١٨٣٤): جالب الحظ (ماسكوت) ترجع لمسرحية (أُدرين «لا ماسكوت» في ١٨٨٠)؛ وكلمة رُبوط (أي إنسان آلي أو روبوت) الشيكيّة من تمثيلية كارل كابيك «ربوطات رسوم الجامعية» المُنتجة في لندن عام ١٩٢٣م.

قصة الإنجليزية من عام ١٥٠٠ بعد الميلاد، وبعد ذلك هي واحدة من قصص النمو المستمر.

اكتشف المكتشفون الأراضي الجديدة، الحاوية نباتات جديدةً (البطاطا، والطماطم، والتوليب من الفصيلة الزنبقية)، حيوانات جديدة (جاموس البحر «هيبوبوتاموس»، زرافة، كنغر)، طعاماً ومشروبات جديدة (شاي، قهوة، رَمْ «شراب مُسكر»). أعاد المفكرون اكتشاف كلمات وأفكار إغريقية (ديمقراطية، أرستقراطيّة، خط الاستواء). احتاج المصلحون الدينيون إلى كلمات جديدة ولمفاهيم جديدة (استحالة، أي تحوّل الخبز مع الخمر إلى دم وجسد المسيح)، سرّي غامض: اللا إرادية). وأخيراً، أضاف كبارُ الفنانين والعلماء كلمة إثر كلمة، بما استهدتهم تجاربهم نحو الآفاق الجديدة للتفكير. ومن الشائق لحظ أوائل استخدامات الكلمات بما وثقت النمو الكبير للإدراك الإنساني. (تبخّر) استخدمت ابتداءً في ١٥٤٥، (فراغ) في ١٥٥٠، والقطع المكافئ (بالهندسة) ١٥٧٩، وهيكل ١٥٧٨، ومعوضة ١٥٨٣ ومختبر ١٦٠٥، وغلاف جوّي ١٦٣٨، ومجهر ١٦٥٦، وستالاكمايت (الصواعد أو الحُليمات السُفلى — رواسب كلسيّ في أراضي المغارات) ١٦٨١. أعطى المُعجم الإنجليزي الكبير لأكسفورد آلاف الأوائل كهذه. هنالك مفاجآت كثيرة، مثلاً: الكلمة أكنوستيك (أي لا إرادي) اختُرعت في إحدى الأمسيات في ١٨٦٩، من قبل المفكر الفيكتوري العصري ت. هـ. هُكسلي[2].

اكتسبت الإنجليزية مخزوناً كبيراً من الكلمات مع اكتشاف العالم أغلبها أسماء حيوانات ومنتوجات غريبة، وبعكس الهولندية جنوب الإفريقيّة، التي اصطنعت أسماء منها للحيوانات والأزهار (لذلك كلمات مثل سبرنغ بوك أي ظبّي رشيق القفز)، أخذت الإنجليزية هذه الكلمات جاهزة الصنع من أهالي البلد.

كانت النتيجة أن المعاجم الإنجليزية تحوي عدداً هائلاً من الكلمات الدخيلة أكثر من الأقطار الأخرى. المخزون الإنجيزي للكلمات، كبير جداً الهندية تحديداً، ويحوي عدة مصطلحات شائعة لدرجة أن الإنجليز بالكاد يظنّونها أجنبية، مثلاً: بنغل (بيت من طابق واحد بالريف أو على الشاطئ)، كوخ، وغنيمة نهب، ومنامة (بيجامة)، وتودي (عصارة النخيل المُخمّرة). كلمة الهنود الحمر (طوطم) وجزيرة البحر الجنوبي (تابو أي رجسٌ محظور) وزوّدنا مصطلحات مُفيدة لعُلماء الجنس البشري: اليَمْرنغ الأسترالي (قطعة خشب ملويّة تُقذف وترجع لصاحبها) أعطانا كلمة مكافئة مجازياً (الأذى يرجع لنحر صاحبه)؛ ترجمنا من الصينية العبارة «لحفظ ماء الوجه»، و«نرفانا» (السعادة القصوى بقتل شهوات النفس فيُنسى الألم من البوذية)؛ ومن التعابير الهندية التي لا يمكن التعبير عنها بغيرها.

حصلنا مع الاستكشافات الجغرافية، على ذُرة (ميز)، بطاطس، (كانيبالز) أي آكلة لحوم البشر من اللغات الهندية، و(كانيبالز) جاءت من نسخ بديل لاسم قوم الكاريب. ويسمون أيضاً (كانيبيلز) وهم أسطورة لشراستهم ووحشية معاملة أسراهم. قوم الكاريب (أو الكاريبي) أعطوا الإنجليزية: كيْمن (أي تمساح أمريكي استوائي) كورار (يستخرج من نباتات استوائية يستخلصها هنود حمر أمريكا الجنوبية لتسميم سهامهم التي تُشلّ الضحية)، وبقري (حيوان أمريكي شبيه بالخنازير) ضمن كلمات أخرى. واخذت الإنجليزية من الأقوام المحليين الآخرين الأساسيين الآراواكس، هوريكان (أي حركان وهو إعصارٌ مصحوبٌ بمطر ورعد وبرق) (كذلك ميْز اي ذُرة)، جوافة، هاموك (أي أرجوحة شبكية)، إكوانا (وهي عضاية أمريكية استوائية ضخمة آكلة للأعشاب)، وسفانا (بطحاء لا شجر فيها). ومن الهايتي: كنُو (زورق طويل خفيف) وبطاطا (بطاطس). ولكن بمجرّد الخروج من بحار الغرب، فإن الإنجليزية سلبت وغنمت لسان كلّ سفينة اعترضتها.

جاءت شوكولاتة من نواتل وأزتك والمكسيكيّة، چيلي (فلفل أحمر صغير حار)، افوكاتة (ثمرة كالإجاص الكبير)، كاكاو، كواكومول (طبق من افوكاتة مهروسة مع طماطم وبصل وتوابل)، وتامالي (طبق مكسيكي من دقيق الذرة واللحم المفروم وصلصة الفلفل الأحمر يعجن ويُغلّف بقشور الذرة ويُطبخ بالبخار او يُشوى)، طماطم، قيوط (ذئب شمال أمريكي صغير)، أسلوت (حيوان أمريكي يشبه النمر)، مسكل (نوع من الصبّار أو مُسكر يُستقطر من صبّار المسكل المكسيكي)، بيْوت (صبّار امريكي يحوي مادة مخدّرة). جاءت الكثير من هذه الكلمات على نحو غير مباشر عبر اللغات الأوروبية الأخرى.

لقد قهر الإسبان البيرو، ولكن الإنجليزية كانت هناك بسرعة لتقتنص كوندور (نسر أمريكي ضخم)، لاما (حيوان أصغر من الجمل في جنوب أمريكا وليس له حدبة)، بوما (الكوجر أو أسد أمريكي)، كوكايين (مادة مخدرة تُستخرج من أوراق الكوكا المُجففة)، كينين (مادة قلوية مُرّة تُستخدم لعلاج الملاريا)، غوانو (سماد من ذرق الطيور البحرية). لغات البرازيل مثل توبي وغواراني هي المصدر الأصلي لكلمات: كوجر (أسد أمريكي)، يغور (نمر أمريكي)، بيرانا (أو كاريبا وهو السمك الضاري في جنوب أمريكا يأكل لحم البشر)، ماكاو (ببغاء أمريكي ضخم طويل الذيل)، طوقان (طائر ضخم المنقار)، كارو (بلاذر شجر ذو ثمر بقشرة في الهند وأمريكا)، تبيوكة (مستحضر نشوي لصنع الحلوى). كانت الإنجليزية الصياد الجامد للمفردات، والكنّاس الكاسح للأرض والبحر، أصبح ملاّح البحر الإنجليزي بطلاً شعبياً ولا سيّما عندما كان يزعج ملك إسبانية الكاثوليكي، الذي وضع سعراً لرأس الملكة إليزابيث. كانت القرصنة وطنيّة وسُمّوا (فريبوترز) أي قُطّاع الطرق القراصنة، (فيليبوسترز) أي مغامرون عسكريون غير نظاميين (القرن السادس عشر)، و(برايفتيرز) أي مراكب قراصنة بتفويض حكومي، وكلاب البحر القدامى: أي الملاّحون المهرة (القرن السابع عشر). قطلس (سيف قصير ثقيل مقوّس يستخدمه البحّارة) كانت رمزاً للقراصنة في قرن سابق، (جولي روجر) أي راية القراصنة السوداء بالجمجمة والعظمين المتصالبين في قرن لاحق، لكن السرقة والعنف في المحيطات المفتوحة حصلت على أخبار صحافية جيدة في بريطانيا وأصبح لكلمة (بوكانير) أي قرصان مُغامر في السياسة والتجارة، مدلولٌ في مغالاة الوصْفيّة والتحايل[٣].

بدأ الاستيطان الانجليزي في (بيرمودا) في عام ١٦٠٩، ووصلت الكاريبي في عام ١٦٢٤ عندما استوطن توماس وارنر مع ١٢ مرافقاً في الخليج الرملي (القديس كيتز). وفي عام ١٦٢٦، وصل أوائل الرقيق الافريقي في (القديس كيتز)، الذي كان أول موضع اتبع فيه البريطانيون مثال غيرهم من الأمم الأوروبية الأخرى، واستغلّ انتظام عمل الرقيق الأسود. للبداية كان التبغ هو الغلّة. وأثبت السكر أنه أكثر ربحاً – ويحتاج إلى عمل أكثر فازداد عدد الرقيق عبر أمم الهند الغربية المسحوقة ودون استئصال كامل دخل لسانهم القومي الداعم والملتحم مع النسيج

الأوروبي المزروع، وهكذا جاء غزو اللغات الإفريقية، حتى انتهاء القرن السادس عشر، فاق الأفارقة عدد الأوروبيين ونما السكان الأفارقة على نحو كبير في القرن المقبل.

العنصرية والعنجهية في اللغة الإنجليزية[1][2]

كانت الإنجليزية لغةً انقسمت إلى عدة لهجات، وغالبا ما تظهر الفروق الكبيرة في المفردات واللفظ. ربما تفوّق العلية الفرنسية (بعد الغزو النورماندي)، وموقف عنجهيتهم في التنصل من الموطنين والفلاحين الأنجلوساكسون، أثّر في مسار استعلائي متكبر للغة الإنجليزية. ومن بعد ذلك أصبح المثلث بين كامبردج، لندن، وأكسفورد المُمثل التقليدي للغة الإنجليزية، لغة الملك والملكة. ربما هذه العنجهية أفرزت تلفّظا متراخيا لكلام الرجل الإنجليزي وكأن كرة زجاجيّة (دُعبلة) تتحرك بفمه ليُظهر موقعه الاستعلائي مع الآخرين. كان العنجهيون الإنجليز داخل بريطانيا يصنّفون الناس إلى طبقات، حسب نبرة لهجاتهم: لذا يميزونهم إلى اسكتلنديين أو ويلزيين أو ايرلنديين، وبذلك ينظرون إليهم بوضاعة على أنهم طبقة أدنى منهم. تطوّرت العقلية الاستعماريّة (الاستعلائية) خارج بريطانيا أيضا، مع تشييد الإمبراطورية البريطانية، ومع النمو السريع للغة الإنجليزية، ظهرت العنصريّة.

تمثيل السلطة، والعنجهية (التنفجيّة أو التنفخيّة) والتمايز المُدلّل في نمط الحياة، الطبقة الاجتماعية المتفوقة، وفي نبرة اللهجة، أدت دورا مُسليا في مغامرة الإنجليزية. (تكلّمْ كما نتكلّم وإلا فإنك تثبت أنك دونٌ تحتنا)، هي فزاعة الإحجام لعلية المُسيطرة من طريق سلطان اللغات.

تُرغم العُنصرية المجاميع الأخرى لتكون الأدنى. الاحتقار العنصري هو دوما إظهارٌ للقوة، ومحاولة للسيطرة التامّة، واستعمال اللغة لنشر الرعب، مُقوية بذلك الجهل والتحيّز ضد الآخرين وفيما يوصف غالباً بالرواية الإنجليزية الأولى: — (روبنسون كروزو) فإنّ بطل المؤلف (دانيل ديفو) المسمى (كروزو) بعد تحطم السفينة لاقى في الجزيرة مواطناً اسودَ وُضع في الجزيرة عقاباً له أملاً في موته. كروزو يقول: (كنت أفهمهُ بعدة أشياء، وأعلمتُه بسعادتي به، وفي وقتٍ قصيرٍ بدأتُ أتكلم معه، وأعلمتُه ليتكلم معي، أولا عرفتُه أن اسمه يجب أن يكون (جُمُعة)، وهو اليوم الذي أنقذتُ حياته، أنا سمّيته هكذا لذاكرة الوقت، وبالمثل علّمتُه أن يقول سيد، وبعد ذلك أعلمتُه أن ذلك هو اسمي، كذلك علّمته أن يقول: نعم، ولا، وأن يعرف معناهما).

هذه فقرة استثنائية غنيّة بالانتقاءات، كان هناك إنقاذ حياة ولم يكن هناك استعمال للقوة بل للغة التي يبدو أنها طريقة التحكّم: وبأن كلمة (سيد)، كلمة تعذّب الكثير من الرقيق بالتأكيد. ولكنها كانت سيداً في ١٧١٩، وببعض الطرق خطّت هذه الكلمة وحدها مسار الـ٣٠٠ سنة الآتية.

لا تُقال كلمة (زنجي) في الكثير من البلدان الآن على وجه هذا الكوكب. بغضّ النظر عن تاريخها المُحايد، حيث جاءت من الكلمة اللاتينية للون الأسود، ثم من الفرنسية تبنّتها الإنجليزية.(زنجي) تحمل جلدة سياط المستعمرات الزراعية.

كذلك (ووج) المفترض بها مختصرا (السيد الشرقي المحترم) وهي سُبّة للأجنبي غير الأبيض: (سامبو) من الإسبانية (زامبو) وتعني سُبّة للمُولّد من أب أبيض وأم سوداء أو العكس، أو شخص من نسب مختلط هندي أو إفريقيّ: (كولي) من كلمة تامل، وهي سُبّة لشخص مُستأجر هندي أو صينيّ مُهاجر إلى مدينة أجنبية: (كافر) من الكلمة العربيّة وهي سُبّة تعني (غير مؤمن): (داكو) من الإسبانية (دياكو) وهي سُبّة تعني رجلا من أصل إسباني، برتغالي، أو إيطالي: (فروك) أي ضفدع، وهي سُبّة الرجل الإنجليزي للهولندي ثم للفرنسي احتقارا له لأكله الضفدع، وكره الإنجليز للفرنسيين. (سافج) أي متوحش دون تمييز. (كافر) أُستخدمت لإهانة البريطانيين

في الهند قبل امتصاص الإنجليز لها، بوصفها كلمة إهانة في جنوب إفريقيا. (بربري) تستخدم بشيوع مثل متوحش (ساقح)، يمكن تتبعها إلى كلمة إغريقيّة للتلعثم واستخدمها الإغريق لوصف اللغات الأخرى والضحك على أصواتها المخالفة للغتهم.

اليوم وبعده[1][2][3][4][5]

(جون آدمز) ثاني رئيس للولايات المتحدة، كتب رسالة في ١٧٨٠: (يُقدّر للإنجليزية في القرون اللاحقة التي بعدها عموماً أن تكون لغة العالم بدلاً من اللاتينية في العصور السابقة أو الفرنسية في العصر الحاضر. سبب هذا واضحٌ لازدياد سكان أمريكا وعلاقتهم ومراسلاتهم الكونية مع كل الأمم، الذي بمساعدة تأثير إنجلترا في العالم (سواءً كان كبيراً أم صغيراً) سيُقحم لغتهم بالقوة للاستعمال العام بالرغم من كل العوائق المُلقاة في طريقها إذا كانت هناك).

لقد وضع آدامز اللغة الإنجليزية في قدَر أمريكا ولا يختلف عن هنري الرابع واليزابيث الاولى بما فعلوه لإنجلترا ذاتها. التكلّم البسيط بالإنجليزية قد دعمَ المثال الديمقراطي الأمريكي. ما عادت الإنجليزية لغة الملك بل لغة الناس، حتى إنه حاول أن يؤسس أول أكاديمية عامّة ليهذّب ويُحسن الإنجليزية لكنها لم تؤسس.

فُتن الأمريكان الأحرار بما يمكن أن تفعله بلادهُم الجديدة مع ما يرونه الآن كلُغتهم. (نوح ويبستر) كتب: «شمال أمريكا سيسكنه مئات الملايين من البشر، كلهم يتكلم اللغة نفسها... سكان ربع العالم سيتشاركون ويتخاطبون مع بعضهم كأطفال الأسرة الواحدة». نوح ويبستر الحالم كان معلم مدرسة، كتب كتاباً صغيراً يعرف بـ (كتاب التهجيّة الأمريكية) وبيع في المخازن العامة بـ ١٤ سنتاً للنسخة الواحدة، وبعد مئة عام بيع منه (٦٠) مليون نسخة، أكثر من أي كتاب في أمريكا، باستثناء الإنجيل. لم يكن ويبستر معجباً بإنجليزية الأرستقراطيين المقطعة للحروف الليّنة واختبار صَفّه بالمدرسة كان مصمماً لمعارضته. فهو أراد تعليم أمريكا للتهجّئة، ومُعاناة الأمة كلها للتهجئة دل على أنهم يعاملون لغتهم بعناية وجديّة[3].

واستمرت عملية الامتصاص. فاللغة الإنجليزية تبدو متعطّشة للكلمات الجديدة. الطرق الجديدة للتواصل السريع مع التعقيدات النامية دوماً في عالم الحاسوب وشبكة الاتصالات العالمية بالحاسوب (إنترنت) تنتج فعلياً لغة جديدة إضافية. فمكاتبنا مزدحمة بالـ (فاكس) و(المودم) أي إرسال الوثائق عبر الهاتف، و(ماوس) أي فأر الحاسوب.

وانتشرت الإنجليزية عبر العالم، وأصبحت وفق الأغراض العملية ما يمكن عدُّها لغة عالمية حتى التزود بالإنجليزية المتعثّرة، تجعل المرء مفهوماً عملياً بأي مكان. هذه اللغة الشرهة والحيوية والنابضة بالحياة لها ماضٍ مثير. المستقبل سيرى بالتأكيد عدة تغييرات أخرى. فإنها لن تتوقف راكدة.

إنه هذا الغنى بالمفردات، والمصحوب بالاستعمال العملي، الذي يجعل الإنجليزية بالمزاج الدولي، أغنى لغة وأكثرها تعبيراً، وأكثرها مرونةً بين جميع اللغات الأوروبية. من منتصف القرن العشرين فاضت اللغة الإنجليزية حول العالم كله حتى إنه في عام ٢٠٠٠، لم يستغرب أحد أن البابا الذي يتكلم البولندية؛ وهو رأس الفاتيكان المتكلم باللاتينية، عند وصوله للدولة المتكلمة بالعبرية (إسرائيل) تكلم بالإنجليزية قائلاً: (لتكن هذه هبة الرب لأرض هو اختارها لتكون له – سلام!) كما لم يكن مستغرباً لأحد أن الكثير من الدبلوماسيين وقادة الدول في الأمم المتحدة يتكلمون إلى صحافة العالم بالإنجليزية. والإنجليزية هي اللغة الأولى بين الأمثال في الأمم المتحدة، وفي (ناتو)، وفي بنك العالم، وصندوق النقد الدولي، وهي اللغة الرسمية الوحيدة لدول الـ (أوبيك) أي مُنظمة الدول المُصدِّرة للبترول، واللغة العملية الوحيدة بين اللغات الأوروبية في الجمعية الأوروبية للتجارة الحرّة. وكطريقة تفكير

جنبي يمكن النظر إلى مقدار القوة الاقتصادية للغات المختلفة مُقاسة ببلايين الاسترليني، فالصينية تُثمن بـ ٤٤٨ بليونا، والروسية ٨٠١، والألمانية ١٠٩٠، واليابانية ١٢٧٧، والإنجليزية ٤٢٧١ بليون استرليني. فالإنجليزية أيضا هي لغة البيع والشراء ولغة الأسهم في سوق البورصة[٢].

بالنتيجة: فالإنجليزية بعيداً عن التنامي الخارجي الحديث، هي التحام ٣ عناصر رئيسة – الإنجليزية القديمة (الانجلوساكسونية مع النرويجية القديمة)، الفرنسية القديمة، واللاتينية. عبر وسائط نقل الفرنسية واللاتينية، فالإنجليزية تنضح بوفرة من الكلمات والمصطلحات العربية أكثر كثيرا من الكلمات الإغريقية، وربما تساوي أو تبز (تتفوق على) بسهولة إسهامات أحد العناصر الثلاثة منفردة. على الرغم من أن أكثر المفردات الصميمية للإنجليزية مشتقة من الإنجليزية القديمة (مثلا يد، ورأس، وزوجة، وطفل، وصخرة، واسم، ورجل، وسمكة، وركب، واختار، وربط، وأحب!.. إلخ) – المعجم عموما توسع كثيرا بالاستعارة من اللغات الأخرى. الاسكندنافية أثرت في بعض المظاهر الأساسية للغة، مثلا نظام الضمائر (هم، ولهم، وهم) ونظام النحو (مثلا إلحاق بعض الأفعال بـ ‎- S‎ وصيغ تصريف الجذور مثلا أحب). كذلك فإن بعض أجزاء المفردات الصميمية هي اسكندنافية الأصل (مثل أخذ، ومريض، وبيضة، وجلد). إسهامات العربية كذلك واسعة جدا بالرغم من الجهل بها (انظر الفصلين الثالث والرابع من المقدمة وانظر المعجم كاملا) – الفرنسية لها تأثير على مدى المواد المعجمية المتوافرة في هذه اللغة[٤].

المراجع

(*) Readers are referred to the beginning of **Chapter One: Arabic, Language of Paradise And Mother Tongue of Adam on Earth,** with the relevant references.

1. Michael Falcon, WJ Blyton, Richard Church, et al. **English Language and Literature**. New Educational Library, Oldhams Press Ltd, London (Undated), Pp 7 – 29.
2. David Hillam. **English Word Origins**. Pocket Reference Books, Bournemouth, 1996. Pp 129 – 32.
3. Melvyn Bragg. **The Adventure of English (The Biography of a Language).** Sceptre (Hodder & Stoughton), England, 2003.
4. Melvyn Bragg. **Foreword**. In **The Chambers Dictionary** (New Ninth Edition). Editor – in – chief: Ian Brookes, Editorial Consultant: Catherine Schwarz, Editors: Christina Gleeson, Michael Munro, Megan Thompson. Chambers Publishers, Edinburgh 2005.
5. Jeremy J. Smith. **A short history of English**. In **The Chambers Dictionary** (New Ninth Edition). Editor – in – chief: Ian Brookes, Editorial Consultant: Catherine Schwarz, Editors: Christina Gleeson, Michael Munro, Megan Thompson. Chambers Publishers, Edinburgh 2005.
6. P G Foote and D M Wilson. **The Viking Achievement (The society and culture of early medieval Scandinavia)**. London, published by Book Cub Associates by arrangement with Sidgwick and Jackson Ltd. First edition 1970 and also published on 1974. Pages 107, 191, 198, 200, 201, 399, 408, 412.

❁

الفصل الثالث:

العنصرية بين لغتين

عرضٌ ونقد

داروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العنصري العلمي!) بين نصرانية الغرب وإسلام الشرق.

يتجلى تاريخ الأمم وقيمها في مفرداتها اللغوية. واللغة الإنجليزية (كاللغة العربية) متأثرةٌ بمحيطها وبيئتها؛ ثم إنّ تاريخها مرتبط جدا بتاريخ الغرب وثقافته وتطوره عبر العصور.

في بريطانيا، كتب عالم الاقتصاد البريطانيّ **توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) «مقالة في مبدأ التكاثر السكانيّ»** عام ١٧٩٨؛ يرى فيها أنّ خطط التطور المطرد للمجتمع المثاليّ تنتكس بسبب أخطار النمو السُكاني: «**إنّ قوة التكاثر السكانيّ أكبر كثيراً من قدرة الأرض لإنتاج رزق الإنسان؛ لذا فالتكاثر السكانيّ إذا ما استمر دون توقف، يزداد بمتوالية هندسيّة، في حين أن الرزق يزداد بمتوالية حسابيّة. ومعرفة بسيطة بالأرقام توضح ضخامة القوة الأولى إذا ما قورنت بالثانية**». ويرى مالثوس، وهو رجل دين في الكنيسة الإنجليزية (إنجليكاني) وزميل كلية عيسى المسيح (انتخب زميلا لها عام ١٧٩٣)، أن مجتمعات المُساواة الحرة عُرضة للانفجار السكاني، يصفها مالثوس بتعبير دراميّ مثير: «**تكتسح الأوبئة الجائحة والأمراض المُميتة والطاعون على نحو مروّع لتهلك الآلاف وعشرات الآلاف منهم. فإذا لم تنجح هذه تماماً، فإنّ موجات المجاعة (والحروب) تأتي متأخرة، وبضربة قاضية واحدة، تقوّض منسوب التعداد السكانيّ وتعدّله ليتساوى مع منسوب الغذاء في العالم**». وانتقد مالثوس قوانين دعم الفقراء وعدّ أن تكاثر السكان ينضبط متناسبا مع حدود الموارد المتوافرة بنوعين من الضوابط: الضوابط الإيجابية، التي ترفع نسبة الوفيات (كالمجاعة والأمراض والحروب)، وضوابط سلبية، تخفّض نسبة الولادات، كالإجهاض، وتحديد النسل، والبغاء، وتأجيل الزواج، والعزوبية (الامتناع عن التناسل).

ناقش مالثوس في أنّ التكاثر السكاني يفوق اعتيادياً موارد الغذاء، مما يؤدّي من ثم إلى موت الأضعف جوعاً، وهو ما يسمّى **بفاجعة أو أزمة مالثوس**. ولا يزال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي للأميركتين وقتل سكانها الأصليين على أنه جاء نتيجةً **لأزمة مالثوس!!!**

وفي الوقت الذي عدّ الآخرون زيادة الإخصاب ذا فائدة اقتصادية (لازدياد عدد العمال المتاحين للعمل)، وقف مالثوس مناقضه لأنه اعتقد أن الإخصاب بالرغم من رفعه للإنتاج الإجمالي، إلا أنه يخفض الإنتاج للرأس الواحد من العمّال. ثم إنه ناقش في أنّ فرص العمل تزداد بزيادة تعداد السكان، ولكن ببقاء حاجة العمل ثابتة، فإنّ ذلك يؤدي إلى هبوط أجور العمّال مما يؤدي أخيرا إلى تقليل إعالة العيش، حيث تتساوى حينذاك نسبة الولادة مع نسبة الوفاة، مما يؤدي من ثم إلى توقف النمو السكاني. لكنّ تقديرات مالثوس حول ثبوت حاجة العمل في إنجلترا كانت خاطئة، لأنه أهمل تأثيرات الثورة الصناعية التي زادت كثيرا في منسوبات التقنية والإنتاج ومؤدية إلى زيادة الحاجة إلى العمل لهذا تنبّؤ مالثوس بالمستقبل كان خطأً.

واعتزم مالثوس الإلغاء التدريجي لقوانين الفقراء بتخفيض عدد الأفراد المؤهلين للإعانة (تاركاً إعانتهم في ذلك للمؤسسات الخيرية وفي الضرورة القصوى). وبرّر ذلك أن إعانة الفقراء تقف في وجه مصالحهم أنفسهم عن طريق تخفيض عدد العمّال ومن ثمّ رفع أسعار السلع وتقويض استقلالية ومرونة تكيف المُزارعين. وبمعنى آخر، فإنّ (قوانين الفقراء) تؤدي إلى «خلق طبقة من الفقراء وتحافظ عليها».

وقام بدعم قوانين الحبوب، التي أدخلت نظاماً من الضرائب البريطانية المفروضة على القمح المستورد. واعتقد مالثوس أنّ هذه الوسائل تشجع الإنتاج الوطني، وتعزز الفائدة على المدى البعيد. وناقش مالثوس أنّه «تشجيع الإنتاج الوطني، فإنّ قوانين الحبوب ستضمن لبريطانيا الاكتفاء الذاتي في الغذاء».

مساوئ نظرية مالثوس:

تنبأ مالثوس بأزمة سكانية تتفجر في أواسط القرن الـ ١٩، ولكن لم يحدث شيء! ثم تنبأ أنصار مالثوس الجدد في كتابهم (قيود النمو) لعام ١٩٧٢ بأزمة مستقبلية أخرى، كذلك كانت نبوءة خاطئة.

كذلك فإنّ محاولات الحدّ من النمو البشري عن طريق تنظيم الأسرة هي محاولات تداخلية جرحية، وأحياناً قسرية وحشية (مثل عمليات العقم على نطاق واسع، أو سياسة الطفل الواحد المتبعة في الصين) وغالباً ما يرفضها الناس بالفطرة.

وحديثاً صارت ظاهرة «**تأنيث الطبيعة**» (بسبب التلوث الكيميائي الواسع للكون) مثل الوباء الجائح، متسببة انتشار العقم كمرض الطاعون (انظر كتاب ديبورا كادبوري: **تأنيث الطبيعة**. طبعة حامش هاملتون (بنجوين) لندن ١٩٩٧).

ثم إن مجلة "**إيكونومست**" (إصدار تشرين الأول/ تشرين الثاني ٢٠٠٩، ص٣٥-٣٨) نشرت مقالاً عن "**انخفاض الخصوبة وكيف انّ مشكلة السكان تحلّ نفسها بنفسها**"، وأنها ستهبط أعداد العالم المتوقعة ٩٫٢ مليار نسمة عام ٢٠٥٠ إلى ٨٫٥ مليار نسمة. وتربط المقالة بين ثراء الأسر وبين هبوط الخصوبة، (والعكس صحيح)؛ فتنصّ على أنّ الثراء يقلل الخصوبة، ثم إن قلة الخصوبة تسبّب الثراء.

إنّ استعمار الأوروبيين العالمَ الجديد وهم مندفعون برؤية مالثوس، تسبب بجشع لا يُشبع في حبهم موارد الغذاء، وطمع بالمال بلا حدود، وحبّ جبروت القوة، والتسلط على الآخرين (وكأنه حق الولادة لأفراد الجنس الأبيض المتفوق-انظر تحت).

في الواقع إنّ استعمار العالم الجديد قد أدى أولاً إلى إبادة سكان أمريكا الأصليين مما تسبّب بدوره بنقص حادّ في عدد الرجال العاملين، مع ازدياد الحاجة الماسة إلى استيراد الأفارقة العبيد (الذين شرّدوهم من ديارهم) من أجل حلّ مشكلات **المُستعمرات الزراعية** لتزريع، وعلى مستوى واسع، الغلاّت المختلفة: القطن، القهوة، التبغ، قصب السُكر، سيزال (ليف أبيض متين تتخذ منه الحبال)، أنواع البذور الزيتية، أشجار المطاط.

لقد كانت الحاجة ماسة إلى ملايين العبيد من أجل تحقيق أحلام المستعمرين التصنيعية، فمثلاً إنشاء "قناة بنما" لوحدها أدّى لوفيات هائلة وموت ٢٨٠٠٠ عامل (بسبب الحمى الصفراء والملاريا، والإنجرافات الطينية).

في الواقع، إنّ المشكلة لا تكمن في ازدياد النمو السكاني (كما يعتقد أنصار مالثوس)، ولكنها تكمن في سوء التوزيع الجائر بين السكان. والأهم من ذلك فإنّ التخطيط الجيد يؤدي اعتيادياً إلى وفرة إنتاج الغذاء: بكلمة أخرى فإنّ أساس المشكلة يكمن في وفرة **الإنتاج وسوء التوزيع**. إنّ حصة الفرد الواحد من الغذاء، ووجبات الطعام البشرية قد صارت اليوم أكبر من ذي قبل: حتى صارت السُمنة المفرطة اليوم داءً مستشرياً كالوباء الجائح في العالم.

وحقيقةً، فإنّ وسائل الإعلام قلقة بشأن **جبال الزبد والجبن** المخزّن، الذي ماع وتلاشى أو صار نفايات (ترمى في البحر) كل ذلك من أجل تثبيت ورفع أسعار السلع، بحسب قوى السوق في العرض والطلب. كذلك، فإنّ هناك **جبال الحبوب** (من القمح والشعير والشوفان)، **وبحيرات من الحليب والعسل** (هذا عدا بحيرات الخمر)؛ ولم يوزّع شيءٌ من هذا الفائض الغذائي الهائل بالتساوي داخلياً، ولا هو أُرسلَ إلى الأقطار الفقيرة لتخفيف معاناتها.

بالرغم من مساوئ نظرية مالثوس العديدة، لكن مالثوس أثر في السياسيين وصناع القرار في العالم الجديد لافتعال حروب كوسيلة لتخفيض سكان الأعراق الرديئة لمصلحة العرق الأوروبي الأبيض المتفوق (مُعزّزاً بذلك نظرة مركزية أوروبا للعالم). والحقيقة أنّ نظرية مالثوس أثرت في سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية (كان جيمس ميل، الحاكم العام للشركة الذي شغل منصبه ١٨٢٨–١٨٣٥ صديقاً حميماً ومُعجباً كبيراً بـ مالثوس). ثم إنّ رئيس الوزراء البريطاني وليم بت الصغير (الذي شغل منصبه ١٧٨٣–١٨٠١ وأيضاً ١٨٠٤–١٨٠٦) كان أحد المُميّزين المتأثرين بـ مالثوس، فبعد قراءته لكتابات مالثوس سحب فجأةً قراره الذي قدّمه لتمديد إعانة الفقراء!!! وما زال المؤرخون الأوروبيون يعللون الاستعمار الإسباني والأوروبي لأمريكا وقتل سكانها الأصليين على أنه جاء نتيجة لأزمة مالثوس!!!

والأهم من ذلك كله أنّ نظرية مالثوس الاجتماعية صارت بمنزلة قانون الاقتصاد الاجتماعيّ وهي التي أثرت في استحداث فكرة البقاء للأصلح، المصطلح المرتبط بعالم علوم الإنسان (الأنثروبولوجي) هربرت سبنسر (١٨٢٠–١٩٠٣)، أو أنه مرتبط بنظرية «إنجيل الثروة» لكاتبه أندرو كارنيجي لكانت لجنة كارنيجي هذا معنية بمشكلة الرجل الأبيض المسكين (!) في جنوب إفريقيا، ومن ثم لعبت دوراً رئيساً في إقامة سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

ثم كان مصطلح سبنسر: **البقاء للأصلح** هو الذي ألهمَ شارلس داروين وألفريد راسيل والاس في استحداث نظريتهما حول **«الانتقاء الطبيعي» (النظرية التطور)**. ففي ١٨٥٧ حرّر سبنسر عمله الكبير: **«التقدّم: قوانينه وأسبابه»** بسنتين قبيل نشر داروين كتابهُ: عن أصل الأنواع المطبوع عام ١٨٦٠. كان سبنسر وداروين متعاصرين، بل كانا صديقين حميمين. فلقد قام سبنسر (المُعاصر لداروين) بدوره باستخدام نظرية التطور البيولوجي لداروين أخيراً في ١٨٧٠، مُستحدثاً مفهومَ **«تطور الطبقات الاجتماعي»** في محاولة لإضفاء صبغة علمية على التفكير الاجتماعي. ثم طبّق سبنسر ما استحدثه من «التطور الاجتماعي» مُسقطاً إياه على جميع مناحي وفعاليات الإنسان، واعداً برؤيته التفاؤلية لمستقبل أفضل. ومن ثم امتزجت نظرية «التطور الاجتماعي» لسبنسر بالنظرية البيولوجية (الحياتية) للتطور في تقديم مفهوم جديد (خاطئ) هو: **«داروينية الطبقات الاجتماعية»**.

الحقيقة أنّ عمل مالثوس عام ١٧٩٨ **«مقالة في مبدأ التكاثر السكاني»** قد شاع على نطاقٍ واسع لا يُصدّق، فقد قرأه جميع مُنظري الداروينية الاجتماعية. فقد قرأ كلٌ من شارلس داروين، وألفريد راسيل والاس لـ مالثوس واعترفا بالدور الذي لعبه مالثوس في تكوين أفكارهما. قرأ داروين مقالة مالثوس في مبدأ التكاثر السكاني عام ١٨٣٨، أي بعد أربع سنوات من وفاة مالثوس. ويشير داروين إلى مالثوس على أنّه الفيلسوف العظيم، فقد قال: **«مبدأ مالثوس هذا ينطبق بقوة مُضاعفة على ممالك الحيوان والنبات، لأنه في هذه الحالة لا يوجد ازدياد صناعي لموارد الغذاء، وليس هناك انضباط عاقل للزواج»**. وكما قرر والاس: **«لكن ربما كان أهمّ كتاب قرأته هو كتاب مالثوس حول مبدأ التكاثر السكاني»**.

ومن ثم اقترح ابن عم داروين فرانسيس جالتون في عام ١٨٦٥ وعام ١٨٦٩ قيام **علم تحسين النسل** (أسماها: **يوجينيكس**)، وكلمة يو–جينيكس مشتقة من الكلمة الإغريقية: يو (بمعنى جيّد) ولاحقة: جينيكس (استيلاد) التي استحدثها السير فرانسيس جالتون عام ١٨٨٣ وعرّفها أنها **«دراسة جميع القوى الإدارية تحت السيطرة البشرية لتحسين أو إضعاف نوعية العرق البشري لأجيال المستقبل»**. وناقش جالتون في أنه مثلما تتوارث المواصفات الجسدية الفيزيائية بوضوح في الأجيال البشرية، فكذلك الصفات العقلية (كالعبقرية والموهبة). وناقش جالتون في أن

أخلاقيات المجتمع يجب أن تتغير حتى تكون عملية الوراثة قرارا واعياً مقصوداً، من أجل تفادي التوالد الكثير لأفراد المجتمع «الأقل صلاحية وكفاءة» والتوالد القليل للأفراد «الأكثر صلاحية وكفاءة». وفي رؤية جالتون، فإن المؤسسات الاجتماعية، مثل: ملاجئ المعوقين ومصحات المجانين إنما تسمح ببقاء وديمومة البشر الرديء الدون بمستويات أسرع من البشر المتفوق في المجتمع الجديد بالاحترام. وإذا لم تُتخذ إجراءات التصحيح، فإن المجتمع سرعان ما يكون مغموراً بالرديء الدون.

والفقرة الآتية لـ مالثوس توضح تأثيره في جالتون، حيث يقول مالثوس (في كتابه «مقالة في مبدأ التكاثر السكاني» عام ١٧٩٨، الفصل التاسع، ص ٧٢) وهو يقترح طرائق تربية الحيوان التي يمكن تطبيقها على الإنسان، قبل فكرة فرانسيس جالتون التي سمّاها من بعد «يو-جينيكس» (تحسين النسل) عام ١٨٨٣:

(لا يبدو، على أي حال أنّ الاهتمام بتوليد سلالة محسنة بعض الشيء (بما يشبه استحداثه في الحيوانات) أمراً عسيراً لا يمكن استحداثه بين بني الإنسان. قد يكون انتقال الذكاء أمراً مشكوكاً فيه: لكن مواصفات الضخامة والقوة، والجمال، والبشرة، وربما طول العمر يمكن نقلها إلى حد ما... ولمّا كان العرق البشريّ لا يمكن تحسينه دون شجب وإجبار جميع العيّنات الرديئة للتبتل والعزوبية (الامتناع عن التناسل)، لا يمكن تعميم هذا التوالد كأمر عامّ).

وهذه النظريات المُنادية بالـ «العرق المتفوّق»، وهو عادةً عرق «نورديك» (سكان شمال أوروبا من الجرمن والإسكندنافيين) والعرق «الآري» مع تحسين النسل (يوجينيكس)، التي ابتكرها سير فرانسيس جالتون (مع آخرين) وأشاعها مع مطلع القرن العشرين، كان لها التأثير الأساسيّ البارز في سياسات النازية العرقية وبرنامجهم في تحسين النسل (يو-جينيكس).

طوّر جالتون علم يوجينيكس (تحسين النسل) ومبدأه الأساس هو «السيطرة» وتعزيز القيم ذات النوعية والتحليلية لـ «السمات المرغوبة» لأجل إعداد دليل مُرشد لكيفية الحصول على «النسل الممتاز حقاً». إضافةً إلى آرتور دي جوبينيو (أحد مؤسسي العنصرية البيولوجية) مؤلف «مقالة في التباين في الأعراق البشرية» عام ١٨٥٣، فإنّ مؤلفات التمييز العرقي العلمي الأخرى التي أثرت كثيراً في النازية تشمل أيضاً: ماديسون جرانت، مؤلف «عبور العرق العظيم» عام ١٩١٦/١٩٢٤، مع لوثروب ت. ستودارد، مؤلف «ارتفاع مدّ اللون ضدّ تفوق العالم الأبيض» عام ١٩٢٠. وفي الأغلب، فإنّ التمييز العرقي العلميّ كان وصمة عار أعطيت أحياناً للنظريات والمقترحات الحديثة التي تدّعي أنّ الدليل العلمي قد وضّح فروقاً بالغة الأهمية في التطور بين الأعراق والمجاميع الأثنيّة.

لقد قرأ دارون كتابات ابن عمه (جالتون) بشغف وشديد اهتمام، حتى أنه كرّس فصولاً في كتابه (أصل الإنسان) لمناقشة نظريات جالتون.

وفي ألمانيا فإنّ فريدريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) المُعاصر لـ مالثوس قد ضمّن وصفاً تطوّريّاً قوياً للتاريخ في كتابه «محاضرات في فلسفة التاريخ»، مصوّراً تطوير ما يسميه "جيست" (بمعنى الروح أو العقل) في التاريخ عبر سلسلة تتجسد في روحانية/ عقلية الشعب (فولك-جيست). فلسفة هيجل في التاريخ كانت واضحة التحيّز لمصلحة أوروبا، والدولة البروسية خصوصاً، التي جعلها كانجاز التاريخ العظيم (نهاية التاريخ). وفي فصل عن الأساسات الجغرافية للتاريخ العالمي، كتب هيجل أنّ «كل شعب يمثل درجة متميزة في تطوير الروح»، وبذلك تكون «الأمة». ولكن فكرة الأمة هذه لا ترتبط بوضوح بالمعطيات الجسدية الفيزيائية أو العرقية، بل هي معنية بالتاريخ المحسوس (الملموس) والموقع الجغرافي حيث تترعرع الروح. وكان متأثراً كالآخرين، بنظرية مونتيسكيو حول تأثير المناخ في العادات والقانون، التي كوّنها الأخير في كتابه: الروح والقوانين (١٧٤٨)، فبذلك يكتب هيجل:

«صحيح أنّ المناخ له تأثير، لكن المناطق الحارة والمناطق الباردة ليست هي الأفضل لحرية الإنسان ولظهور الشعوب ذات التاريخ الأفضل. (أي من بين الشعوب التي تملك تاريخاً، مقارنةً بـ "الهمج" الذين يُقال: إنه ليس لهم تاريخ!)». لذلك لا يُستغرب تفضيل هيجل المناطق المعتدلة المناخ لزعزعة الروح (جيست) فيها.

وأخيراً رسم هيجل صورةً للتاريخ العالمي، الذي يبتدئ من عالم الشرق، ثم قدماء الإغريق، ثم الرومان، ثم العالم النصراني، منتهياً بالعالم البروسيّ. وفي دروسه هذه، كتب هيجل أنّ «أمريكا هي أرض المستقبل» لكن «الفلسفة لا تورّط نفسها بالنبوءات». من العجيب أنّ فلسفة هيجل، مثل فلسفة "كانت" في هذا المجال، لقد اختزلت التاريخ على نحو جازم إلى تصريحات في التطوّر. لقد مورست يوجينيكس (تحسين النسل) قبل جالتون، ومنذ بداية التاريخ في الحضارات القديمة، مثلاً في روما وأثينا. وعلى وجه الخصوص فإنّ سبارته مارست وأد الأطفال بتعريضهم في منطقة "أبوثيتي" قرب جبل تايجيتوس، وشملت الاختبارات على حديثي الولادة اغتسالهم بالخمر وتعريضهم لعنصر آخر، بالنسبة لـ سبارته، فإنّ ذلك في اعتقادهم يضمن لهم بقاء وإنجاب الأقوى فقط. عدّ أدولف هتلر أنّ سبارته هي أول «دولة روحانية»، مثل إرنست هيجل قبله الذي أثنى على سبارته بسبب طرقها البدائية في ممارسة يوجينيكس (تحسين النسل) عبر سياسة وأد الأطفال الانتقائية.

والعجيب أنّ خلفية هيجل كانت خلفية دينية: فقد حصل على شهادة في **علوم الدين**، ومن بعدها وفي أثناء المدة ١٧٩٣–١٧٩٦، ألف كرّاسةً تعرف بـ «**حياة عيسى**»، ثم ألّف أطروحة بحجم الكتاب بعنوان «**إيجابية الدين النصراني**»، وبعدها وفي فرانكفورت ألف هيجل مقالة أخرى بعنوان: «**مقتطفات من الدين والحبّ**». وفي ١٧٩٩، كتب مقالة أخرى بعنوان «**روحانية الدين النصرانيّ ومصيرها**» لم تنشر في أثناء حياته.

ثلاثية لهيجلية: بتأثره بسابقيه من فلاسفة الألمان (مثل: كانت وفيخته)، فإنّ جدليّة هيجل تتميّز بعملية ذات ٣ خطوات: «الفرضية – النقيضة – الاصطناع»؛ أي أنّ الفرضية (مثلاً: الثورة الفرنسية) ستتسبب بنقيضتها (مثلاً: حكم الملك الإرهابي)، ومن ثم ستؤدي إلى الاصطناع (مثلاً: دولة المواطنين الأحرار الدستورية). والخطأ في طريقة «الفرضية–النقيضة–الاصطناع» أنها تعطي إحساساً أنّ الأشياء والأفكار تُنتقض وتُعاكس من أشياء تأتي من خارجها. فمثلاً الثورة الفرنسية تمثل لهيجل إدخال حرية الأفراد السياسية الحقيقية إلى المجتمعات الأوروبية أول مرة في التاريخ المدوّن. وبالضبط فكونها بدءاً بهذه الطريقة المطلقة فقد كانت متطرفة بطريقة مطلقة: فمن جهة كان إفراط العنف المطلوب لإنجاز الثورة لا يمكن إيقافه ذاتياً، ومن جهة أخرى فالثورة قد التهمت معارضيها تماماً. فالثورة إذن لا ملجأ لها سوى نتائجها هي وحدها: أي إنّ الحرية المكتسبة بعد الشدائد قد بددتها سلطة الإرهاب الوحشية.

كان أسلوب هيجل الفلسفي في الكتابة صعباً في فهمه وتفسيره: فهو يوصف من قبل بيرتراند راسيل البريطاني في كتابه (**تاريخ الفلسفة الغربية**) أنه أصعب فيلسوف يمكن أن يُفهم. وربما كان ذلك إلى حد ما لأنّ: هيجل حاول تطوير طريقة جديدة في التفكير والمنطق، الذي يُسمّيه هو «**التفسير التأمّلي السببيّ**» والذي يشمل المفهوم الأشهر «**الديالكتيكي**» أي الجدلي، في محاولة للتغلب على ما يراه كقيود لكل من البديهية البسيطة والفلسفة التقليدية حول العلاقة بين الفكر والواقع.

إرنست هنريخ فيليب اوغست هيجل (١٨٣٤–١٩١٩) عالم الطبيعة والحياة، الفيلسوف والطبيب والرسّام الفنان والبروفيسور الألماني، الذي اكتشف ووصف وصنف آلاف الأنواع، ورسم شجرة أنساب كل أنواع الحياة. بوصفه فيلسوفاً، كتب إرنست هيجل كتابه «**لغز الحياة**» عام ١٨٩٥– ١٨٩٩ (والمترجم للإنجليزية عام ١٩٠١) و«**حرية العلم والتعليم**» لدعم تعليم التطور.

تأثرت أفكار هيجل السياسية باللاماركية (انظر تحت). اعتقد هيجل أن المواصفات العرقية تكتسب عبر التفاعلات مع محيط البيئة وأنّ التطور العرقي يتابع التطور الفردي بطريقة مباشرة. كان هيجل عالم حيوانات ورسّام إيضاح بارع ثم صار بروفيسوراً في علم التشريح المقارن. بالرغم من أنّ أفكار هيجل كانت مهمة لتاريخ التطور، وكان عالم تشريح مؤهل في اللافقريات وعمله في راديولا خصوصاً، إلاّ إنّ مفاهيمه التأملية (التنبئية) التي ناصرها تُعدّ الآن خاطئة. فمثلاً، وصف هيجل وسمّى كائنات مجهرية كأسلاف لنا لم يُثبت منها شيئاً أليف. وكان من الأوائل الذين عدّوا علم النفس فرعاً من فروع علم الفسلجة (الوظائف). واعتزم تسمية العديد من المصطلحات المهمة في كل المجالات مثلاً: الشعبة، والتاريخ النوعي، وعلم البيئة.

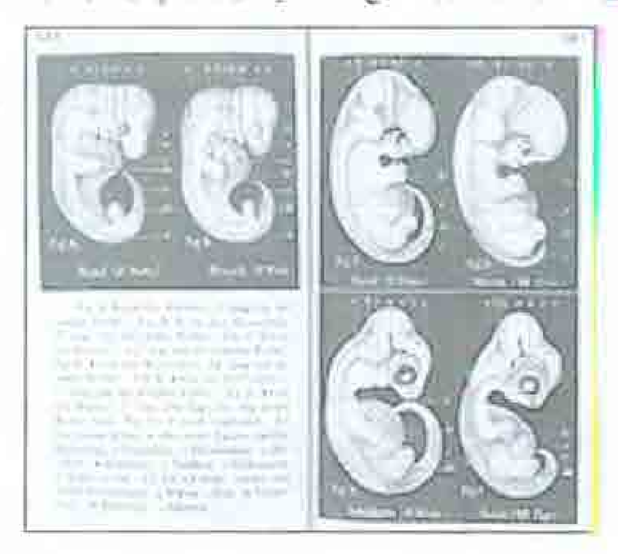
لم يدعم هيجل الانتقاء الطبيعي (لداروين ووالاص)، ولكنه آمن بنظرية لامارك: أي توريث الصفات المكتسبة (اللاماركية) مثلاً: اعتقاد لامارك أن "الظبية" حين تتطلع بعنقها لأكل الأشجار العالية، تكتسب صفة طول العنق التي تتوارثها من بعد لتصير "زرافة". وقد دعم نظريته بالرسوم الجنينية التي كانت مبسّطة بإفراط (إلى حد الخطأ) وبعضها غير دقيقة، لذا تُعدّ نظريته اليوم تبسيطاً مُفرطاً (إلى حدّ التشويه) لعلاقات معقدة: تركيب جداً. وأدخل هيجل مفهوم «هيترو كروني» وهو التغير الزمني للتطور الجنيني عبر مراحل التطور.

كان لهيجل شخصية وهّاجة. لكنه كان أحياناً يقفز بعيداً (وبأسلوب غير علمي) عن الدليل الموجود. مثلاً عند ظهور كتاب داروين عن أصل الأنواع بوساطة الانتقاء الطبيعي (١٨٥٩)، لم توجد بقايا إنسان قديم. لكن هيجل افترض وجود دليل تطور الإنسان في الهند الغربية الهولندية (إندونيسيا اليوم)، ووصف هذه البقايا النظرية بتفصيل طويل. وادّعى هيجل أنّ تطور الإنسان يمرّ بـ ٢٢ مرحلة بالضبط، والخطوة الـ ٢١–هي «**الحلقة المفقودة**»–كخطوة تتوسط بين القردة والبشر. بل إنّه سمّى رسمياً هذه الحلقة المفقودة التي لا وجود لها: بيثيكانثروبوس الالوس، وترجمتها: «**الإنسان القرد الذي لا يتكلم**» وطالب تلاميذه (ريشارد مع أوسكار هيرتويج) بالذهاب إلى هناك ليجدوها له. لكن تلميذاً من تلاميذه وجد بعض بقايا: فقد ذهب الشاب الهولندي المسمى "يوجين دوبواس" إلى الهند الغربية وحفر مُخرجاً بقايا ما يسمى إنسان جاوة، بقايا أول إنسان قديم توجد آنذاك. هذه البقايا حملت مسمى هيجل: بيثيكانثروبوس، لكنها صُنّفت ثانيةً: هومو إريكتوس.

تعدد الأصول والتمييز العنصري: إنّ تعددية الأصول التي قدّمها **صمويل مورتون ولويس اكاسيز** (من السخرية والعجب أنها كانت لعالمَين أمريكيَّيْن مُتدينين يؤمن كلاهما بالخلق والخليقة!) عدّت الاعراق البشرية خلقت منفصلة مستقلة عن بعضها!، وهذه النظرية رفضها شارلس داروين، الذي ناقش لمصلحة أحادية أصل الأعراق البشرية ونظرية الأصل الإفريقي العصريّ للإنسان الحديث. لكن هيجل تقدم بمبدأ لتعددية الأصل التطورية المبنية على أفكار اللغوي أوغست شليشر، حيث إنّ عدة مجموعات لغوية مختلفة قد نبعت منفصلةً من كائن قبل الإنسان لا يتكلم سمّاه «**أورمينشن**»، التي تطورت كلٌّ منها من أسلاف قرود. هذه اللغات المنفصلة أكملت انتقالها من الحيوانات إلى الإنسان، وتحت تأثير كل فرع رئيسي من هذه اللغات، تطور الإنسان – بشكل من أشكال نظرية لامارك لتوريث الصفات المكتسبة – كأنواع منفصلة، وهذه الأنواع يمكن تقسيمها إلى أعراق مختلفة. ومن هذا استنتج هيجل ضمنياً أنّ اللغات ذات القوى الكامنة هي التي شكلت الأنواع البشرية ذات القوى الكامنة، تترأسها: **مجموعات الأعراق السامية والهند – اوروبية، مع البربر، واليهود، والإغريق – الرومان، والأنواع الجرمانية في المقدمة**. ويمكن رؤية نظرة هيجل كسابقة لنظرية تعددية المناطق، التي بقيت حتى ١٩٨٠ في نزاع مع تطورات نظرية داروين للأصل الإفريقي العصريّ للإنسان الحديث. ومن ثم لم تستحسن نظرة تعددية المناطق، ثم قيل إنّ نظرة داروين قد أيّدتها حديثاً فك الرموز الجينية البشرية.

لم يتردد هيجل بتطبيق نظريته في تعددية الأنواع وإسقاطها على تنوع المجاميع البشرية في أغلب الطرق قوةً، حتى صار قائد **المعتذرين للعنصرية العلمية (أو تمييز الأعراق العلمي)**.

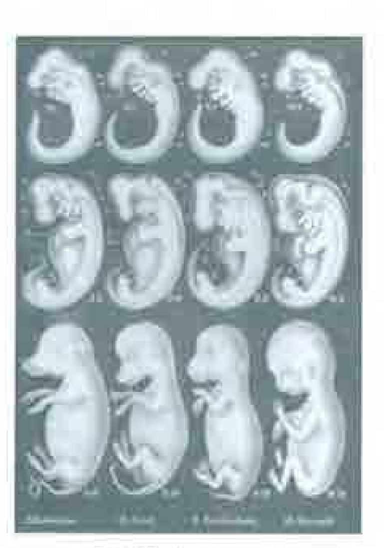
نظرية الاختصار ورسوم هيجل للأطوار الجنينية: عندما كان هيجل تلميذاً في ١٨٥٠ أبدى اهتماماً كبيراً بعلم الأجنة، فقد كان يحضر المحاضرات (التي لم تكن شائعة) مرتين ويخطط وسائل الإيضاح البصرية ضمن مسودة محوظاته: فالمراجع آنذاك كانت تحوي وسائل إيضاح قليلة واستعملت ألواح تصميم بأحجام كبيرة لتظهر للطلاب وتبين لهم الأشكال الدقيقة تحت المجهر العاكس، وتوضيح الأنسجة الشفافة ضد خلفية سوداء. لقد اتفق جميع منظري التطور الأوروبيين أنّ كل الفقريات تظهر متشابهة جداً في أدوارها الأولى، فيما اعتُقد آنذاك النموذج العام. لكن كان هنالك جدال منذ ١٨٢٠ حول صحة **نظرية الاختصار** القائلة إنّ الأجنة البشرية تتطور عبر أطوار لأشكال جميع المجاميع الكبرى للحيوانات البالغة. استخدم هيجل علم المورفولوجي أي علم الشكل ليبني التاريخ التطوري للحياة، في غياب دليل المتحجرات، مستعملاً علم الأجنة كدليل على العلاقات بين الأسلاف لذلك كشف عن نظريته المثيرة للجدل: **نظرية الاختصار "تطور مراحل الأجنة تختصر تطور الأنواع" مُدّعياً أنّ التطور الحيوي لكل كائن، أي اونتوجيني، يحاذي ويختصر نمو تطور الأنواع كله، أي فايلوجيني. وقد رُفضَ مفهومُ هيجل لهذا الاختصار.**



وسائل إيضاح مثيرة، لكنها مُلفقة، لأجنة الكلاب والبشر، تبدو متشابهة وتقريباً متطابقة في ٤ أسابيع ثم في ٦ أسابيع، كما يبدو أيضاً في جنين ٦ أسابيع للسلحفاة وجنين ٨ أيام للدجاجة. قدمها هيجل عام ١٨٦٨ كدليل مُقنع على التطور

تعدّ هذه الصور اليوم مزوّرة تماماً

كان هدف هيجل هو تقويم علم الأشكال (مورفولوجي) مع التطور كقاعدة مُنظمة للتركيب الكوني موحّداً العلم بالدين. وأعطى «محاضرات شعبية» ناجحة حول أفكار نظريته للطلاب ولسكان المدينة في جينا (المدينة الألمانية حيث جامعة جينا التي كان هيجل يعمل فيها) في أسلوب رائد ابتكره أستاذه **"رودولف فيركاو"**. وتلبية لطلب الناشر بعمل يجتذب الشعب، استخدم هيجل مسودة محاضراته التخطيطية، حين كان تلميذاً، كأساس لكتابه المُسمى **(ناتورليش سكوبفونكسشيخت)** المطبوع في برلين عام ١٨٦٨، مُقدّماً بذلك **إنجيل التطور الشامل**. وقد ترجمَ كتابه بالإنجليزية باسم **«تاريخ الخليقة»** في ١٨٧٦؛ وظل يُطبع مراراً حتى عام ١٩٢٦.

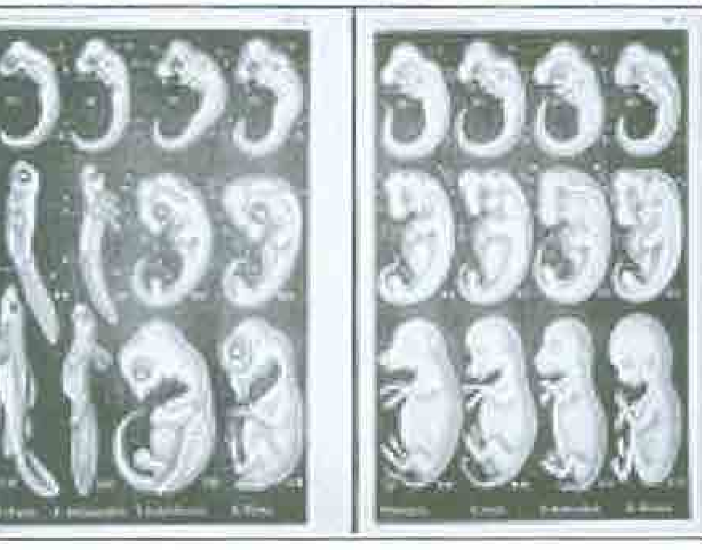


صور هيجل الملفقة

وبيع الكتاب على نحو جيد جداً. ووثق هيجل كتابه مُقنعاً الآخرين من خصوصه بصدق رسوماته ضبطاً وتأليفاً، وأكد علانيةً أنها تخطيطية

مثل أغلب الصور المستخدمة في التعليم. لكن بعض متخصصي علم التشريح المُعادين لآرائه التطوّرية أظهروا سراً شيئاً من القلق حيال صور معينة رُسمت بحرية وتصرّف. ثم إنّ هذه الصور أبدت ما كانوا يعرفونه أصلاً عن هذه التشابهات بين الأجنة.

بيعت ١٥٠٠ نسخة من الطبعة الثانية للكتاب عام ١٨٧٠ وجذبت انتباهاً أكبر، وتتابعت بسرعة الطبعات اللاحقة والمنقحة وبطباعة ألواح أكبر حجماً مع شهرة صارت جزءاً من «ثقافة التقدم» التفاؤلية الوطنية المعادي لرجال الدين في عصر الإمبراطورية الألمانية الجديدة لـ "أوتو فون بسمارك".





وسيلة الإيضاح من كتاب أنثروجيني أي أصل الإنسان عام ١٨٧٤ تظهر المراحل «المبكرة» و«المتقدمة» و«المتأخرة» لأجنة السمك، وسمندر (السالامندر)، والسلحفاة وفرخ الدجاجة، والخنزير، والبقرة، والأرنب، والإنسان

ثم صار التشابه بين المراحل المبكرة لأجنة الفقريات بديهية شائعة، وأثنى على وسائل الايضاح لهيجل متخصصون أمثال مايكل فوستر من جامعة كامبردج. وفي تقديمه لكتاب "انحدار نسب الإنسان وانتقاء الجنس" عام ١٨٧١، أثنى "داروين" على هيجل بالتخصيص، وكتب: (لو ظهر كتابه «تاريخ الخليقة» قبل مقالي، فربما لم أكمله قط). ثم ظهرت الطبعة الخامسة لكتاب هيجل عام ١٨٧٤، مع صورة مثيرة للجدل على و جهة الكتاب تظهر رؤوس القردة والإنسان مُعوضاً منها رأس هيجل نفسه.

النزاع: في نهاية ١٨٧٤، صدر كتاب هيجل (أنثروبوجيني أي أصل الإنسان) في علم الأجنة المبسّط، الذي حول الموضوع إلى ساحة قتال من أجل "الداروينية" متوحداً مع شعار بسمارك (كالشر كامف أي نضال الحضارات) ضد الكنيسة الكاثوليكية. بالرغم من أنّ هيجل اعتنى جداً بوسائل إيضاحه، وغيّر ناشره إلى الناشر "ليم إنجلمان"، رئيس علم الحيوان من لايبزج، ثم إنه حصل على إذن منهم لاستعمال وسائل إيضاح من المراجع الأخرى، إضافةً إلى تحضير رسوماته الخاصة التي تشمل وسيلة إيضاح مثيرة على صفحتين متقابلتين تظهرُ المراحل الجنينية «المبكرة» و«المتقدّمة» و«المتأخرة» لـ ٨ فقريات مختلفة (انظر الصورة تحت). ويُقال إن هيجل اتهمَ بالتزوير والاحتيال من قبل ٥ أساتذة (بروفيسورات) وأُدين في محكمة الجامعة في جينا. وقد أثبتت الدراسات الحديثة (ريشاردسون ١٩٨٨، ريشاردسون وكيوك ٢٠٠٢) أنّ بعض الاتهامات الموجهة إلى رسوم هيجل الجنينية كانت صائبة شرعياً. لكن الانتقادات الأخرى لم يكن لها أساس. وكان هناك نسخ معدّلة كثيرة للرسوم الجنينية، لكن هيجل رفض جميع ادّعاءات التزوير. ولقد قيل أخيراً إنه «كان هناك دليل تلاعب يدوي» من طرفي النزاع كليهما (أي بين هيجل وخصومه).

ادّعى بعض العلماء المؤمنين بالخلق والخليقة أنّ داروين اعتمد على رسومات هيجل كدليل على التطور ليعضد جداله ضدّ المضادين للتطور. هذا الادّعاء يهمل حقيقة أن داروين نشر كتابه عن أصل الأنواع في ١٨٥٩، وانحدار

نصب الإنسان المنشور عام ١٨٧١ واللذين سبقا نشر هيجل وسيلة إيضاحه ذات الصفحتين لأجنة الفقريات الثمانية عام ١٨٧٤ فما بعد ذلك.

كان لكتاب دارون عن أصل الأنواع عام ١٨٥٩ تأثيرٌ شعبي هائل. لكنه كان كتاباً تقنياً أكثر منه كتاب علم شعبيّ؛ كان مُطولاً، وصعباً، وبوسائل إيضاح قليلة. لكن كتاباً واحداً من كتب هيجل قدّم خدمةً لشرح قصة "الداروينية" للعالم. كان هذا الكتاب الأكثر مبيعاً، ومُزيّن بوسائل إيضاح مثيرة، بعنوانه باللغة الألمانية: (ناتورليش سكوبفونكسشيخت) أي «تاريخ الخليقة» عام ١٨٦٨.

وهكذا، فإنّ داروينية الطبقات الاجتماعية (المسماة زوراً بالعنصرية العلمية) كانت ثمرة يانعة من نتاج نظريات دارون وهيجل في التطور. ومن المثير للسخرية أنّ تاريخ كلمة «أريان»، التي ترتبط بمواصفات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء لنموذج الجسد المثالي لألمانيا النازية (حيث يعدّون عرق "نورديك" جزءاً من العرق المتفوق)، إنّما يرتبط أصلاً بمواصفات شعب مختلف المظهر تماماً. وتاريخها يبدأ مع القدماء الهنود والإيرانيين، ومع شعوب الهند الأوروبية التي قطنت أجزاء مما يُسمّى اليوم إيران، وأفغانستان، والهند؛ وهذا المعنى الأصلي لم يعد مُستعملاً منذ زمن بعيد. كان التميّز الذاتي القبلي يتمثل بتركيب الكلمة «أريا» مشتقة من السنسكريتية «آريا» بمعنى النبيل فهو «أرياني»، التي تشير إلى الطبقة العليا في المجتمع الهنديّ القديم. وهذه الكلمات صارت معروفة للباحثين الأوروبيين في القرن الثامن عشر.

أريانوس هو التحوير اللاتينيّ المشير إلى إيران: "أريان" استعملت في اللغة الإنجليزية منذ زمن بعيد. وتاريخها ككلمة مُستعارة بدأ في نهايات ١٧٠٠، عندما استعيرت هذه الكلمة من السنسكريتية "آريا" المشيرة إلى المتكلم بلغات شمال الهند أو لغات إيران، ومن ثم صارت الكلمة "أريان" تشير إلى مجموعة اللغات المشتقة من تلك اللغة القديمة، ثم توسع المعنى ليشمل متكلمي جميع هذه اللغات ولما يُعتقد اليوم (برغم تعذر الدفاع عنه) أنّ حتى اشتقاق الكلمة الإيرلندية: «آير» جاء من أصل «أريان» عام ١٨٣٧ حيث أشاع أدولف بيكتيت فكرة أنّ اسم «أريان» يمكن إسقاطه كذلك على أسرة اللغات الهند-الأوروبية كلها. هذا الانحراف في المعنى أدّى أخيراً في ثلاثينيات ١٨٣٠ إلى إحساس خاصّ آنذاك، عندما جاء الباحث الألمانيّ فريدريك شليكل المختصّ بالهند-الأوروبية القديمة، بنظريته التي تربط الكلمات الهند-إيرانية مع الكلمة الألمانية "إيهر" أي هونر (أي ذو المقام الفاضل)، ومع الأسماء الألمانية القديمة التي تحوي المقطع آريو-، مثل المُحارب السويسريّ آريو فيستوس الذي كتب عنه — يوليوس قيصر. لقد نظرّ فريدريك شليكل أنّ الكلمة بالرغم من خصوصيتها الهند — إيرانية، فإنّ الكلمة "آريا" — هي حقيقةً الاسم الذي أطلقه الهند — الأوروبيون على أنفسهم، ليعني فيما يعنيه «الشعب ذو المقام الفاضل» (هذه النظرية لا تزال موضع جدال). ثم صار «الآريّ» مُترادفاً مع «الهند — أوروبي»، وبهذا المعنى دخلت البحث الواعي آنذاك. بعد ذلك بقليل، أُقترح أن الوطن الأصلي للهند — أوروبيين هو شمال أوروبا.

بعد هذا الجدال اللغوي، وفي ١٨٥٠ افترض آرثر دي جوبينيو أنّ «الآريّ» يُقابل الثقافة الهند-أوروبية لما قبل التاريخ. واعتقد جوبينيو أن هناك ٣ أعراق أصلية — الأبيض، والأصفر، والأسود — وكلّ ما عداها تمثل تمازج الأعراق (الأجناس) التي عدّها جوبينيو سبب الفوضى في التاريخ!!! وبحسب جوبينيو، فإنّ الآريين الأوروبيين الشماليين هم الذين يمثلون «العرق أو الجنس المتفوق»، لأنهم ظلوا محافظين على «الصفاء العرقيّ». وأمّا الأوروبيون الجنوبيون (ويشمل الأسبان والفرنسيون الجنوبيون)، والأوروبيون الشرقيون، والأفارقة الشماليون، وسكان الشرق الأوسط، والإيرانيون، وسكان آسيا الوسطى، والهنود، فكلهم يعدّهم جوبينيو: خلطاء العروق، ومنحطين عبر تمازج الأجناس، لذلك فهم ليسوا بالنماذج المثالية.

صارت ألمانيا النازية تحت أدولف هتلر سيئة السمعة في استخدامها برامج الـ يوجينيكس للحفاظ على «صفاء» العرق الألماني.

فقد ألفَ تيموثي رايباك كتابه «مكتبة هتلر الشخصية – الكتب التي كوَّنت مسار حياته» نشره بودلي هيد، لندن، ٢٠٠٩»، وكتب في صفحة ١٠٩ وصفحة ١١٠ على التوالي ما يأتي:

(في الجزء الأول من دراسة كبيرة في جزأين: "دراسات في الوراثة البشرية والتنظيف العرقي"، كتب مؤلفه جوليوس ف. ليهمان: «إلى السيد أدولف هتلر، هذه لبنةٌ بناء مهمة لتعميق فهمه. مخلصك الحميم ج. ف. ليهمان».

وأهدى أوتو كانكيليت ملزمته اليدوية حول العقم عام ١٩٢٩ وهي بعنوان: "إنهاء قابلية الإنجاب لأجل التنظيف العرقيّ وللأسباب الاجتماعية"... ونقش عليه: «إلى هتلر مع الصداقة الشديدة».

(إضافةً إلى كتاب جرانت: "عبور العرق العظيم"، كان أهم كتاب آخر هو كتاب المؤلف هانس جونثر المسمى جونثر العنصري أوهو كتابه: "دراسة النماذج البشرية العرقية للشعب الألماني"، في ٦ مجلدات، وهو خلاصة للهوية الآرية، وجعل هتلر هذين الكتابين ضمن الكتب الموصّى بقراءتها لأعضاء الحزب النازي).

وقام النازيون بتجارب مستفيضة على أرواح البشر الأحياء لفحص نظرياتهم الجينية. وقام النظام النازي بإجراء عمليات العقم بالقوة على كلّ من عدّه غير صالح للبقاء جسدياً أو عقلياً، بما يصل إلى قرابة ٤٠٠٠٠٠ شخصاً بين ١٩٣٤ و١٩٣٧ فقط.

وهكذا قام الألمان بسابقة حذت حذوها وخطاها دولٌ أخرى. ففي السويد، ضَمَنَ «قانون العقم لعام ١٩٣٤» إجراء العقم الاختياري لبعض مرضى الأمراض العقلية. من ١٩٣٤ حتى ١٩٧٥ قامت السويد بإجراء عمليات العقم على أكثر من ٦٢٠٠٠. وعقمت السويد من البشر أكثر من أي دولة أوروبية أخرى ما عدا ألمانيا النازية. برنامج يوجينيكس السويدي الواسع النطاق استهدف الشاذين ومرضى الأمراض العقلية، إضافة إلى الأسباب الاقتصادية المترتبة على نظرية مالثوس. هناك مقاطعتان في كندا أجرت عمليات عقم قسريّة استمرت حتى أوائل سبعينيات القرن العشرين. ومورس برنامج يوجينيكس الواسع النطاق في الولايات المتحدة، أستراليا، النرويج، فرنسا، فنلندا، الدانيمارك، إستونيا، ايسلاندا، سويسرا، الصين.

ولعب تمييز الأعراق العلمي دوراً في توطيد سياسة الفصل العنصري (أبارثايد: أي الفصل) في جنوب إفريقيا. ففي جنوب إفريقيا، قام العنصريون البيض أمثال دودلي كد، الذي ألف كتاباً بعنوان «**الكافر الحقيقي**» (من العربية: كافر) عام ١٩٠٤ من أجل سبر أغوار العقلية الإفريقية. اعتقد هؤلاء أنّ الفروق الثقافية بين البيض والسود في جنوب إفريقيا قد تعزى إلى فروق فسلجية (وظائفية) في الدماغ. وبدلاً من الاقتراح أنّ الأفارقة هم «أطفال كبار»، كما صرّح بذلك المستكشفون البيض سالفاً، اعتقد "كد" أنّ الأفارقة «مختلو النضج ولهم روح الانتقام». ووصف الأفارقة مرةً أنهم «**ضعاف عقول وميئوس منهم**» بالرغم من وصفهم تارة أخرى أنهم «دُهاة جداً»!!!

كانت لجنة كارنيجي قلقة من أجل مشكلة البيض الفقراء في إفريقيا الجنوبية، ومن ثم لعبت هذه اللجنة دوراً أساسياً في توطيد سياسة الفصل العنصري (أبارثايد) في جنوب إفريقيا.

جريجور ميندل (١٨٢٢–١٨٨٤) هو «**أبو علم الجينات الحديث**»، وُلِدَ لأسرة ألمانية في الإمبراطورية النمساوية (جمهورية الشيك اليوم). في ١٨٥١ أُرسلَ إلى جامعة فيينا، ورجع إلى دير رهبانيته كمُدرّس أساساً في علم الفيزياء. ما بين ١٨٥٦–١٨٦٣ قام ميندل بتزريع واختبار قرابة ٢٩٠٠٠ نبتة من نبات البزاليا (المسماة علمياً بيزوم ساتيفوم).

أ. ضحت هذه الدراسة أنّ واحداً من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل المتنحية الصافية، وأنّ اثنين من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل الهجينية، وأنّ واحداً من أربع نباتات بزاليا تملك مواصفات التناسل الغالبة الصافية. وأنتجت تجاربه قانونين عامّين: "قانون الفصل" و"قانون التصنيف المستقل"، التي صارت تعرفُ أخيراً بـ "قوانين مندل للوراثة". وقد قرأ مندل مقالته: تجارب في تهجين النبات، في اجتماعين لجمعية التاريخ الطبيعي في برون (مورافيا) في ١٨٦٥. وعندما نشرت مقالة مندل عام ١٨٦٦ في محاضر جلسات جمعية التاريخ الطبيعي في برون، كان لها أثرٌ ضئيل (ذُكرت ٣ مرات فقط في الـ ٣٥ سنة اللاحقة).

ومن السخرية أنّ داروين وضع نظريته من دون أن يعرف شيئاً عن قوانين **مندل في الوراثة**. كذلك، فإن نتائج مندل قد جُهلت مدة طويلة بعد وفاة الاثنين مندل وداروين. وفي ذلك الحين، اعتقد أغلب علماء الحياة فكرة "**الوراثة التمازجية**" (التي سماها داروين: أنجينيسس أو أن – جينيسس، من أن: كلي، جينيسس: توليد أي التوليد الكلي)؛ وتعني أنّ الذرية تملك متوسط صفات الوالدين. واقترح داروين بحسب أنجينيسس أنّ خلايا الجسم تنزع جيبولات (جمع جميول، أي المورّثات بحسب اعتقاد داروين الخاطئ)، تتجمع في الأعضاء التناسلية قبيل عملية الإخصاب. وظنّ أنّ مواصفات الأبوين تتمازج مثل تمازج الأصباغ –في أثناء مرورها للذرية. لكن إذا كان هذا صحيحاً، فكيف يمكن لطفرة محظوظة واحدة (جاءت عن طريق المصادفة!) أن تنتقل عبر نوع الحيوان؟ حتماً ستمازج وتتلاشى، بالضبط مثل قطرة صبغ أبيض في غالون صبغ أسود؛ لم ينجح داروين وتقوّضت نظريته في "الانتقاء الطبيعي". لم تستطع الوراثة التمازجية تفسير التغيّرات المحدثة للأنواع وحفظها بين الأجيال اللاحقة، وبقيت واحدة مما يُسمى **الحلقات المفقودة والعديدة لنظرية داروين**. وبالفعل، فإنّ المدة ما بين ١٨٨٠ حتى ١٩٣٠ كانت تمثل «**حسوف واضمحلال الداروينية**»، لأنّ آليّات التطور قد تقوّضت تماماً.

ولكن مفاهيم مندل للجينات قد أُعيد اكتشافها في مطلع القرن العشرين، من قبل هيوجو دي فريس (ومن قبل كارل كورينس)؛ لقد كان هيوجو دي فريس (وهو نفسه داروينيّ الهوى) هو الذي أدخل مصطلح الطفرة (كما نعرفه)، وتطوير "نظرية الطفرة للتطور" لإيجاد نظرية أكثر نجاحاً لقطع استمرارية التوارث بين الأجيال بدلاً من استخدام الوراثة التمازجية للانتقاء الطبيعي. إن الداروينية الحديثة المعاصرة تفصل بين آراء داروين في الانتقاء الطبيعي عن أطروحته في أنجينيسس؛ ولكن «التركيب الجديد» الذي يوحّد علم الوراثة لمندل مع نظرية داروين في الانتقاء الطبيعي قد تمّ اختراعه وتصنيعه (أو بالأحرى تلفيقه وفبركته كما يُقال) في أثناء أكثر من عقد (من ١٩٣٦ حتى ١٩٤٧) من قبل جوليان هكسلي (أكثر أتباع الداروينية تعصباً) الذي ألف كتابه المسمى: «التطوّر: التركيب الجديد» (عام ١٩٤٢). لذا فإنّ الطفرة الواحدة المحظوظة قد استعيض عنها بطفرات عديدة، كلها عن طريق المصادفة وعبر ملايين السنين!!!

واليوم، يظن كثيرون أنّ وجود بقايا متحجرات للعديد من الأنواع المنقرضة تدلّ ضمنياً وبالضرورة على التطور، لكن أكثر الناس يجهلون أنّ أكثر المعارضين وأكثرهم مقاومة لداروين لم يكونوا رجال دين، بل خبراء المتحجرات. يبدو أنّ اكتشاف أي قطع عظمية متحجرة سرعان ما ترتب (ولو على نحو غير كامل) ثم يُركب شكلها مع خيال متحيّز لادعاء اكتشاف «حلقة مفقودة»!!!

في الواقع، فإنّ الداروينية الحديثة قد أدّت إلى تساؤلات أكثر من إجابات تستطيع تقديمها. ولكي النظريات تصير حقائق علمية، فيجب أن يكون بالإمكان أن تستعاد نتائجها وتتكرر؛ ولكن حتى الآن، لم يستطع أحدٌ إعادة أو استعادة أي من النتائج، أو حتى أن يشهد عملية التطور وهي تعمل، مُحوّلةً النوع إلى نوع آخر

ثم لماذا يكون الإنسان على قمة سُلم التطوّر، إذا كانت الآلية هي الطفرات المتعددة؟ ما الذي يجعل هذه الطفرات المتعددة تتوقف عند نوع الإنسان؟

وكيف تستطيع المصادفة التحكمّ بالطفرات مؤدية إلى أنواع جديدة؟

نشر واين جاكسون (٢٠٠٢/١٢/٢٣) على الشبكة البينية (الإنترنت) مقالة بعنوان: «شذوذ تطوّريّ أم نُباح على شجرة مغلوطة» مقرراً الحالات الشاذة في التفسير التطوريّ للكائنات الحية، مما يلقي ظلال لشكّ الخطر على نظرية داروين في أصل الأنواع البيولوجية، لتصادمها بنماذج عديدة من معطيات الحقائق.

بحسب نظرية التطور لداروين:

- يتوقع المرء أنّ بقايا الكائنات الحية أسفل السلم في سجل المتحجّرات المحفوظة ستكون نادرة جداً. لكن على العكس، فإنّ طبقة المتحجّرات الأولى كانت تظهر «**انفجاراً مُفعماً بالحياة**» وبغزارة أدهشت أنصار داروين فصوّروها على أنها واحدة من الأسرار "الكبرى" في تاريخ الحياة.

[G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 18].

- يجب أن تتميّز أشكال الحياة الأولى بتعقيد أقلّ كثيراً من تلك التي أفترض أنها تطوّرت منها لاحقاً. لكن لم يكن ذلك ما وجدناه. إنّ ما يُسمّى بأشكال الحياة «البسيطة» كانت «معقدة جداً وعلى نحو لا يصدق».

[G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 15].

إنّ حركة الارتقاء المزعومة في سلسلة التطور قدّمت مشكلات عديدة. فمثلاً، **السرخسيّات لها ٤٨٠ كروموسوماً (صبغيّاً) في نواة كل من خلاياها؛ وجراد البحر (القراديس) له ٢٠٠ كروموسوماً؛ في حين أن الإنسان له ٤٦ كروموسوماً فقط!!!**

وهذا انحراف عن نظرية داروين في التطور.

حتى عندما افترضوا أنّ الفيلة قد تطوّرت في ملايين السنين بعد انقراض الديناصورات. جاءت آثار متحجرات الفيل والديناصور وقد اكتشفت في الطبقة الصخرية نفسها.

[Verrill, A. Hyatt. (1954), Strange Prehistoric Animals and Their History (Boston: L.C. Page & Co.) page 162]

- زعم أنصار التطور أنّ الكائنات البحرية الضئيلة "ثلاثية الفصوص" (مفصليات منقرضة) قد انقرضت من الأرض بـ ٥٠٠ مليون سنة قبل ظهور الإنسان. ومع ذلك فقد وُجدت "ثلاثية الفصوص" مُنطمرةً في بصمة حذاء الصندل لإنسانٍ قرب منابع الظباء (أنتيلوب سبرنغ) في يوتا في أمريكا.

[Lammerts, Walter A., Ed. (1976), Why Not Creation? (Grand Rapids: Baker) pages 188–189]

- لقد وُجدت جذوعُ أشجارٍ متحجّرة منتصبة نحو ٢٠–٣٠ قدماً في العلو (قرابة ٢–٣ طوابق) في سجل الصخور:

[Lammerts, Walter A., Ed. (1976), Why Not Creation? (Grand Rapids: Baker) page, 153].

وبعضها ناتئ خارج من بين طبقات الصخور العديدة على افتراض أنها تكوّنت عبر ملايين السنين. ولكن يتضح بجلاء أن هذه الطبقات قد تراكمت على بعضها بعضاً على عجلٍ وبسرعة—قبل أن يكون للأشجار الوقت الكافي لكي تنهار وتنحلل. إنّ هذا لا يتوافق مع نظرية التطور.

نشرت مجلة الطبيعة (Nature) مقالاً علمياً بعنوان: "رجل العصر الجليديّ يقتني كلباً":

[Powell, Kendall (2002), «Stone Age man kept a dog,» Nature, 22/11/2002)].

يقرر فيها المؤلف: (الشمبانزي هو القريب الأقرب نسباً إلينا... لكن فصيلة الشمبانزي تتعاون وتتواصل مع البشر بطريقة رديئة). من جهة أخرى وبحسب "برايان هير" عالم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) من جامعة هارفارد: فإنّ الكلاب، التي يفترض أننا لا ننتسب إليها إلا من بعيد، قد تقاربت معنا على ما يبدو عبر بعض من عملية تطويرنا. ببساطة إنّ ظاهرةً كهذه، لا يمكن أن تتوافق مع نظرية التطور العامة.

أسرة هومينيد (بحسب مزاعم أنصار التطور):

(من اللاتينية هومو أي الإنسان وأشباهه، وفي العربية حمام أو هُمام أي رجل أو سيد شجاع) وتشمل هذه الأسرة: الإنسان وأسلافه المنقرضين والمتصلين به ممن يسير على قدمين. بقايا أنواع الإنسان المتحجرة القديمة تسمّى باليوليثيك (من اللاتينية باليو أي قديم، والعربية بالي، ليثيك أي حجري)، وهي:

١. **أوسترالوبيثكوس**، (من اللاتينية أوسترالس أي جنوبي، واليونانية بيثيكوس أي قرد).

٢. **هومو هابيليس** (الإنسان القابل أي ذو القابلية، من اللاتينية هابل وفي العربية قابل)، ويستطيع المشي واقفاً على قدميه.

٣. **هومو إيريكتوس** (الإنسان المنتصب) (يسمّى سابقاً بيثيكانثروبوس إيريكتوس: بيثيكانثروبوس من اليونانية بيثيكوس أي قرد، أنثروبوس أي إنسان) والإنسان المنتصب يتمثل بإنسان جاوة (انظر أدناه هيجل) وإنسان بكين.

٤. **هومو سابينس** (الإنسان العاقل: من اللاتينية سابر والعربية سبر غوره) ويشمل هومو سابينس نياندرثالس، الذي وجدت بقاياه عام ١٨٥٧ أول مرة في كهف بقرية نياندرثال غرب ألمانيا.

يُسمي أنصار التطور سلفَ الإنسان الشبيه بالقرد أوسترالوبيثكوس، ويعني "قرد جنوب إفريقيا". وهذه الكائنات الحية ليست إلا أنواعاً من القرود القديمة المنقرضة. وقد أُجريت بحوث مستفيضة على نماذج عدّة من أوسترالوبيثكوس من قبل اثنين من علماء التشريح المعروفين عالمياً من إنجلترا ومن أمريكا، وهما اللورد سولي زوكرمان و البروفيسور شارلس أوكسنارد، اللذان أوضحا أن هذه القرود تنتمي إلى أنواع من القرود الاعتيادية التي صارت الآن منقرضة، ولا تنمّ على أي تشابهٍ للبشر.

ويصنف أنصار التطوّر المرحلةَ الثانية لتطور الإنسان بتسميته هومو، ويعني الإنسان. وبحسب زعمهم، فإنّ الكائنات الحية في مجموعة هومو المتسلسلة تُعدّ متطورة أكثر من أوسترالوبيثكوس. اخترع أنصار التطور مخططاً وهمياً للتطور بترتيب المتحجرات المختلفة لهذه المخلوقات ترتيباً عجيباً. هذا الترتيب لم يُثبت قط. أكد إرنست ماير (وهو واحد من أكثر أنصار التطور في القرن العشرين شهرة) في كتابه "إحدى المناظرات الطويلة" أن: (**الألغاز التاريخية مثل أصل الحياة أو أصل الإنسان العاقل خاصة، هي صعبة جداً، بل حتى إنها تقاوم أي تفسير نهائي ومُرض**).

ثم بتلخيص سلسلة الربط على هذا النحو: **أوسترالوبيثكوس** > **هومو هابيليس** > **هومو إيريكتوس** > **هومو سابينس** يستدلّ أنصار التطور أنّ كلّ نوعٍ هو سلفُ النوع الذي يليه. لكن، نتائج البحوث الحديثة لعلماء الإنسان القديم أثبتت أنّ إنسان **أوسترالوبيثكوس**، و **هومو هابيليس**، و **هومو إيريكتوس** قد عاشوا في مناطق مختلفة من العالم وفي الوقت نفسه!!!

[Alan Walker, Science, Vol. 207, 7 March 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Anthropology, 1st ed., J. B. Lipincott Co., New York, 1970, p. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, Vol. 3, Cambridge University Press, Cambridge, 1971, p. 272].

إضافة إلى ذلك، فإنّ قسماً من البشر المصنف كـ **هومو ايريكتوس** قد عاش في زمن قريب جداً. إنّ كلاً من **هومو سابينس نياندرتالس وهومو سابينس سابينس** (الإنسان الحديث) قد تعاصرا وعاشا في المنطقة نفسها!!!

[Jeffrey Kluger, «Not So Extinct After All: The Primitive Homo Erectus May Have Survived Long Enough To Coexist With Modern Humans», Time, 23 December 1996].

نشر هارون يحيى بحثاً رائعاً على الشبكة البينية (الإنترنت) بعنوان: كيف قلبت المتحجرات التطور رأساً على عقب: ملايين الأدلة التي تدحض الداروينية (ترجمة كارل ن. روزيني وطبع الكتاب تام موسمان) في آذار، ٢٠٠٦؛ وهذه بعض المقتطفات المفيدة:

(هذه الحالة تشير على ما يبدو إلى **بطلان** الدعوى أنهم أسلاف الآخرين. شرح "ستيفن غاي غولد" هذه الورطة لنظرية التطور بالرغم من كونه واحداً من قادة المدافعين عن التطور في القرن العشرين: (الذي صار عندنا سلماً لثلاث سلالات متعاصرة من أسرة هومينيد (**اوسترالوبيثكوس افريكانوس، اوسترالوبيثكوس القوي، هومو هابيليس**)، لا ينشأ أحدٌ منهم عن الآخر!؟ كذلك، لا يُظهر أحدٌ من هؤلاء الثلاثة أي نزعة تطورية في أثناء مدة وجودهم على الأرض).

باختصار، فإنّ سيناريو التطور البشريّ، الذي (دُعم) بمساعدة رسوم مختلقة لبعض المخلوقات «**نصفها قرد ونصفها إنسان**» التي تظهر في وسائل الإعلام وكتب الدورات الدراسية، على سبيل الدعاية، **هو في الحقيقة ليس بشيء سوى قصة خيالية دون أي أساس علميّ**.

إنّ اللورد **سولي زوكرمان**، وهو واحد من أكثر العلماء شهرة واحتراماً في المملكة المتحدة، الذي قام ببحوث مستفيضة في هذا الحقل لسنوات ودرس متحجرات **اوسترالوبيثكوس** قرابة ١٥ سنة، قد استنتج في النهاية، برغم كونه من أنصار التطور شخصياً، أنه **لا يوجد، في الحقيقة، أي شجرة أسرة كهذه متفرّعة من مخلوقات شبيهة القرود إلى الإنسان**.

استطاع تحديد التاريخ الراديومتري والكاربوني أن يكشف أعمار المتحجرات لأكثر من ٢.٥ مليار سنة من العمر، وأشار إلى أنّ أنواع الحيوانات قد ظهرت **فجأة**، وهي الظاهرة التي عدّها داروين نفسه صعبة القبول. فالحيوانات على ما يبدو بقيت تقريباً غير متغيرة عبر كلّ هذه السنين الطويلة. بالرغم من تجميع عدد هائل من المتحجرات، فكلها تقريباً هي متحجرات حيوانات موجودة اليوم في حاضرنا، وقد أوجدت مشكلات لنظرية التطور. فالحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً، فإنها اعتيادياً تتفسّخ قبل أن تتحجر. لكن الكوارث الفجائية تستطيع دفن الحيوانات وطمرها عميقاً في الأرض. بعض الصخور والكائنات التي تحولت لتظهر المتحجرات لسنين وعقود قد ترسبت فعلاً في أثناء مدة قصيرة من الزمن.

إنّ الصحف اليومية غالباً ما تلفت انتباهنا بعناوين كهذه:

«**اكتشاف عنكبوت متحجّر منذ ٣٠ مليون سنة**»، أو «**اكتشاف وزغ متحجّر عمره ٢٥ مليون سنة**». وكلّ من هذين التقريرين هو في الحقيقة دليل دحض آخر على عدم حدوث أي عملية تطورية.

التمساح هو إحدى الزواحف التي عاشت منذ ٢٠٠ مليون كما أثبته سجل المتحجرات. ومع ذلك فإنه لا يزال حيّاً مفعماً بالحيوية اليوم.

عاشت أشجار جنكو منذ ١٢٥ مليون سنة، ولا تزال هناك نماذج حية منها موجودة في الصين حتى وقتنا هذا. عاشت رخويات نيوبولينا ٥٠٠ مليون سنة، وعاش وزغ تواتارا قبل ٢٠٠ مليون سنة، وجراثيم البكتريا العنكبوتية

منذ ٣٫٥ مليار سنة. وما زالت هذه الكائنات كلها اليوم حية مفعمة بالحيوية، وبكل منظوماتها المعقدة بتركيباتها الكاملة. إنّ حيوان نوتيليس (أحد الرخويات البحرية) قد عاش في البحار منذ ٣٠٠ مليون سنة، وكل هذه المخلوقات عاشت، وتغذت، وتناسلت بالضبط بشكلها نفسه اليوم في بحارنا الحالية.

إنّ السمك الرئوي الأسترالي والإفريقي هو نموذج آخر للمتحجرات الحية التي ظلت حية منذ ٤٠٠ مليون سنة وما زالت مزدهرة في نموها في عصرنا الحاضر. لقد دُهش دارون لبقاء هذه الأسماك ليومنا الحاضر، ولذلك أشار إليها في كتابه **أصل الأنواع** على أنها "**أشكال شاذة**" التي "**يمكن تقريباً تسميتها بالمتحجرات الحية**". لكن هذه ليست نهاية قائمة المخلوقات التي ما زالت اليوم باقية دون تغيير بالضبط بأشكالها نفسه التي ظهرت بها منذ ملايين السنين. فأسماك ستيرجن (سمك ضخم يستخرج من بيوضه الكافيار)، وماكاريل (سمك بحري)، وبز الأنهار، وهيرنج (سمك الرنجه)، والسمك الإبريّ (سمك متطاول شبيه بأبي منقار)، ولوبستر (كركند أو استاكوزا)، وجراد البحر (قراديس)، وسمك القرش من العصر المسمى بـ الديفوني، هي كلها نماذج للمتحجرات الحية. أمثلة أخرى تشمل الأسماك الهلامية، والإسفنجيات، والضفادع، والنحل، والنمل، والفراش، والنمل الأبيض (الأرضة).

ذباب لتنين (مغزل داده) عمره ٢٣٠ مليون سنة، والنمل الجنود التي عمّرت ١٠٠ مليون سنة، والسمندر عمرها ١٥٠ مليون سنة، هي كلها ما زالت حية اليوم بل مفعمة بالحياة. والشيء نفسه ينطبق على العنكبوتيات مثل العنكبوت ومتعددة الأرجل مثل الدودة الكثيرة الأرجل.

وأخيراً، العنكبوت المتحجر داخل الكهرمان (العنبر الأصفر اللون)، الذي قدّر عمره بـ ٢٠ مليون سنة، كان من أهم اكتشافات المليون الثانية (بعد ٢٠٠٠). أعلنت جامعة مانشستر تصريحاً يبين أنّ هذا العنكبوت وطوله ١سم × عرضه ٢سم، متطابق تماماً مع نماذج العنكبوت الحالية. وتحوي الأرض عدداً لا يحصى من النماذج المتحجرة الأخرى منذ ملايين السنين لكائنات لا تزال تعيش حية اليوم مثل هذا العنكبوت، ولمتحجرات كائنات تعدّ اليوم منقرضة.

اعترف عالم المتحجرات البريطاني المشهور ديريك ف. اغر، بالرغم من كونه من أنصار التطور: (تظهر النقطة التي عند فحصنا بالتفصيل لسجل المتحجرات، سواء كان ذلك على مستوى الرتب، أم مستوى الأنواع، فإننا نجد مراراً وتكراراً –أن **لا وجود لتطور تدريجي، وإنما انفجارٌ فجائيٌ لمجموعة على حساب أخرى**).

وهذا يعني أنه في سجل المتحجرات جميع أنواع الأحياء المختلفة قد ظهرت فجأةً وبطريقة مستقلة عن بعضها، كما هي كاملة التكوين (بكلّ تراكيبها المختلفة)، **دون أي أشكال وسيطة بينيّة بسبب التطور (الوهمي)**. وهذا يناقض فرضيات داروين. وهذا أيضاً دليل قوي جداً على أنّ جميع الأشياء الحية إنما هي مخلوقة. ثم إنّ التفسير الوحيد لهذا الظهور الفجائي، والكامل الشكل بكلّ التفاصيل، ودون أي سلف تطوريّ للأنواع الحيّة هو أنها قد خلقت.

من الواضح أن دليل سجل المتحجرات هو لمصلحة حقيقة الخلق؛ والمتحجرات في أسرة هومينيد قد تمّ التلاعب بها (عبر تركيب العظام الكاذب، وإضافة الخيال في إنتاج صورها النهائية) من أجل التفسير المغلوط لنتائج خطط لها سابقاً لتدعيم التطور الداروني.

نقلت مجلة **نيوزويك** في (١٩٨٠/١١/٣) خبراً حول مؤتمر مهم جداً وتاريخي، يضمّ ١٦٠ من أكثر أنصار التطور تميّزاً في العالم، عقد في شيكاغو (أمريكا) في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٠. في هذا اللقاء، حصل الاعتراف الجمعي على أنّ الـ ١٢٠ سنة الماضية من استخلاص المتحجرات من الأرض، قد فشل في تزويد حجة واحدة أكيدة تدلّ على وجود متحجرات الكائنات البينية الوسيطة. بكلمة أخرى، تمّ التسليم أن الاعتقاد

الداروني السائد مدة طويلة من أنّ التطور قد حصل عبر تغيرات صغيرة لانهائية عبر حقب زمنية طويلة جداً هو أمرٌ – أقلّ ما يُقال فيه – أنه بعيد الاحتمال جداً!

وصرّحت نيوزويك: (الحلقة المفقودة بين الإنسان والقردة... هي وحدها الأكثر سحراً بين جميع سلاسل التطور لمخلوقات وهمية. وفي سجل المتحجرات، فإنّ الحلقات المفقودة هي القاعدة... فكلما بحث العلماء أكثر عن الأشكال الانتقالية ما بين الأنواع، كانوا مُحبطين أكثر وأكثر... وتشير الأدلة من سجل المتحجرات اليوم وعلى نحو ساحق إلى تباعدها عن الداروينية الكلاسيكية التي درسها معظم الأمريكيين في المدارس الثانوية: أن الأنواع الجديدة تتطور من أنواع قديمة، عن طريق تراكم تدريجيّ لتغيّرات صغيرة، كلّ منها يساعد الكائن الحي على البقاء والتنافس في البيئة).

ولكن بدل التخلي والتبرؤ من التطور، قام أنصار التطور ببثّ الحيوية وبسرعة في نظرية سابقة (يطلق عليها اسم خيالي "**نظرية وحش الآمال**") تسمى "**التوازن المتقطع الفوري**". وهذه النظرية الآن هي التي تتبناها أكثر علماء التطور عن الطريقة التي تطورت بها الحياة. ومن المريح لهم، فإنّ التوازن الفوري لا يتطلب سجل المتحجرات البينية للكائنات الانتقالية. وبالأساس فإنّ التوازن المتقطع هو فرع من نظرية التطور، التي تنصّ، وفي مناسبات عدة، على أنّ النوع الواحد ينتج، أو بالأحرى، يولد نوعاً مختلفاً عنه تماماً. ولكي يحصل هذا، فلا بد من تغيرات صغيرة لانهائية وعبر حقب زمنية هائلة، **تحدث فورياً وبالجملة**، لتستبدل العديد من الجينات لا جيناً مُعيناً و حداً (وحرفياً فإنّ هذا يعني أنّ آلاف الجينات يجب أن تتغير وتتبدل بتزامن كامل في النوع الواحد لكي يكوّن نوعاً آخراً مختلفاً عنه). لكن هذه أحداث غريبة إن لم تكن خارقة للعادة، وذات احتمالات مستحيلة بحساب الرياضيات أقلّ احتمالاً من النظرية الداروينية نفسها (تغيرات صغيرة عبر حقب زمنية هائلة!). وهكذا، فإنّ النظرية التطورية دون سجل متحجرات، قد أُديرت جانبياً وأُنقذت مرة أخرى من الخطر المحدق برفضها تماماً!

من الجليّ الواضح جداً أنّ نظرية التطور قد طرحت بـ ٣ أشكال متعاقبة: نظرية داروين الأصلية للتطوّر التدريجيّ (من نوع إلى آخر، مروراً بأشكال انتقالية، عن طريق "الإنتقاء الطبيعي" تحت تأثير قوى "الطبيعة") قد خطط لها سابقاً وفرضت على الدوائر العلمية منذ البدايات الأولى. لكن عندما تمّ اكتشاف "قوانين مندل في الوراثة" تقوّضت مصداقية الداروينية الأصلية، فقام أنصار التطور باستبدالها بـ "الداروينية الحديثة" عبر "التركيب الجديد للتطور" عبر طفرات وراثية في أثناء فترات طويلة من الزمن. ولكن عندما أظهر سجل المتحجرات ظهور الكائنات الحية فجأة وبكمال تراكيبها، من دون أشكال انتقالية، فإنّ الداروينية الحديثة قد تقوّضت هي الأخرى، مما أجبر أنصار التطور لتغييرها مرة أخرى إلى نظرية "التوازن المتقطع الفوري" لتفسير ظهور أنواع جديدة بطريقة فورية وجملةً (عبر طفرات تدريجية لكنها طفرات لعديد هائل من الجينات متزامنة مع بعضها، وعبر حقب زمنية هائلة)، دون الحاجة إلى الأشكال الانتقالية البينية. وكلّ هذه التفسيرات العرجاء وضعت وقدّمت من أجل تجنب الحقيقة الأكثر منطقاً، بل والحقيقة المبرهن عليها علمياً: حقيقة خلق جميع الكائنات الحية من قبل الخالق.

وأما فيما يخص الطفرات الجينية (سواءً كانت هذه الطفرات في جين واحد أم في عدة جينات)، ففي حقل الطب، يُعدّ أحد أهم أسباب ولادة الجنين الميت والتشوهات والأمراض الجنينية، هو زيغ الصبغات أي الشذوذ الجسيم للكروموسومات، التي تتعذر الحياة بسببه. إنّ الشذوذات الخلقية، مثل فوكوميليا أي فقميّة الأطراف (بتر الأطراف الخلقي) يكون بسبب تأثير بعض الأدوية في أثناء الحمل. بل إنّ طفرة واحدة في جين واحد بحذف جزء منه أو إضافة جزء آخر قد يتسبب في عيوب ولادية خطرة وفواجع جينية معوقة؛ مثل ترايسومي أي تثلث صبغيّ (مثل متلازمة داون نتيجة تثلث صبغيّ في كروموسوم رقم ٢١). إذن، فالطفرة تكون دوماً، أو تكاد تكون دوماً مُضرّة وبلا هدف.

الطفرات الثلاث الكبيرة في الكروموسوم (أي الصبغيّ) الأحادي:

(١) خبن أي حذف.

(٢) ترفيل أي ازدواج.

(٣) انقلاب. مثلاً في "متلازمة داون"، هناك ٣ نسخ للكروموسوم/الصبغيّ رقم ٢١

زيغ الصبغات أي الكروموسومات هي انحرافات في مكونات الصبغات الاعتيادية للخلية، وتمثل سبباً أساسياً للحالات الجينية في الإنسان، مثل متلازمة داون. الأعداد الشاذة للصبغات أو في طخم الصبغات، مثل اختلال الصيغة الصبغية، قد تكون مميتة أو تؤدي إلى اضطرابات جينية.

زيادة أو فقدان حامض (د ن أ) من الصبغات قد يؤدي إلى تنوع في الاضطرابات الجينية. وهذه بعض النماذج البشرية:

- **متلازمة المواء**، بسبب خبن أي حذف جزء في الذراع القصير للصبغة رقم ٥. يكون للطفل الوليد المصاب صياحٌ عالي النبرة مثل مواء القط. ويكون له طخم عيون متباعدة ورأس صغير مع فك صغير، ويكون متخلفاً عقلياً بدرجات تتفاوت بين التخلف المتوسط إلى الشديد، ويكون قصيراً جداً.

- **متلازمة وُلف-هيرشهورن**، بسبب خبن (حذف) جزئي في الذراع القصير للصبغة رقم ٤. وتتميز بتخلف النمو الشديد مع تخلف عقلي بالغ الأثر.

- **متلازمة داون**، بسبب نسخة زائدة في الصبغيّ أي الكروموسوم رقم ٢١ (تثلث صبغيّ ٢١). وتتميز بنقص في التوتر العضلي، وببنية قصيرة وممتلئة الجسم، وعدم تناسق الجمجمة، وعيون مائلة (كعيون المنغوليين)، وتخلف عقلي بسيط إلى متوسط الدرجة.

- **متلازمة إدوارد**، وهي تثلث صبغيّ والثاني الأكثر شيوعاً؛ تعدّ متلازمة داون هي الأكثر شيوعاً. وهي تثلث صبغيّ في الكروموسوم رقم ١٨. أعراضه تشمل تخلفاً عقلياً مع العديد من أنواع الشذوذ الخلقيّ والمسبب لمشكلات صحية خطرة. يموت نحو ٩١٪ في دور الطفولة؛ لكن الذين يتجاوزون تاريخ ميلادهم الأول، يكونوا بصحة اعتيادية من بعد ذلك. ويتميزون باليد المنطبقة (منكمشة) التي تتميز بأصابع متراكبة على بعضها.

- **متلازمة كلاينفلتر** (XXY). اعتيادياً، يكون الذكور المصابون بمتلازمة كلاينفلتر عقيمين، ويكونون ذوي أذرع وأرجل طويلة وقامة أطول من نظرائهم. يكون الأولاد المصابون غالباً خجولين وهادئين مع نسبة عالية من تأخر الكلام وخلل القراءة. عند البلوغ، ودون العلاج بال تستوستيرون، فإنّ بعضهم يصاب بـ "تثدّي الرجال".

إذن، كيف تتمكن طفرات عديدة بطريق المصادفة العمياء، ولو عبر ملايين السنين، من تطوير الأحياء من الأنواع البسيطة إلى المعقدة؟

ثم كم هو عمر الإنسان؟

وكم هو عمر الأرض أصلاً؟

لذلك فليس غريباً أن يقوم خبراء المرجعيّات العلمية من تأليف كتب مرجعية تتحدى وتدحض مفهوم داروِن الفاسد والمفروض فرضاً، وتقويضه من أساسه. وهذه نماذج من الكتب المؤلفة (وهي غيض من فيض كثير):

١. مايكل دينتون: التطور: نظرية في أزمة (١٩٨٦)؛
٢. فيليب جونسون: دارون للمحاكمة (١٩٩١)؛
٣. مايكل بيهي: صندوق دارون الأسود–التحدي الكيميائي الحيوي للتطور (١٩٩٦)؛
٤. هارون يحيى: خداع التطور (١٩٩٩)؛
٥. مايكل جيفري سيمونس: مليارات الحلقات المفقودة (٢٠٠٧)؛
٦. يوجين وينشي: نهاية الداروينية (٢٠٠٩)؛
٧. بينجامين وايكر: خرافة دارون (٢٠٠٩)؛
٨. موريس بوكاي: ما هو أصل الإنسان؟ (١٩٩١)

موريس بوكاي (١٩٢٠–١٩٩٨)، وهو الطبيب الفرنسي، والعضو في جمعية علم الآثار المصرية في ١٩٧٣، عيّن بوكاي طبيباً خاصاً للملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، ومرضاه الآخرون هم أفراد أسرة الرئيس السادات في مصر. في عام ١٩٧٦، بينما كان بوكاي في خدمة الملك، نشر كتابه: الإنجيل والقرآن والعلم: فحص الكتب المقدسة في ضوء المعرفة الحديثة (المترجم بالإنجليزية: أليستر أنيل) الذي أكد فيه أن القرآن لا يحوي أبداً أي تصريحات تخالف الحقائق العلمية الثابتة.

الكتاب الآخر لـ بوكاي هو: ما هو أصل الإنسان؟ (١٩٩١).

والكتاب الأخير لـ بوكاي هو: مومياء الفراعنة: الاختبارات الطبية الحديثة، قد نشر بالإنجليزية.

لقد تقدّم مالثوس بنفسه على جميع مُنظري داروينية الطبقات الاجتماعية في الإيحاء أن مؤسسة الإعانة الخيرية للفقراء قد تؤزّم المشكلات الاجتماعية وتفاقمها. وبذلك وُلد علم كاذب تحت مسمى داروينية الطبقات الاجتماعية وحتى قبل نظرية دارون، فإنّ المؤلفين: نوت وجليدون في كتابيهما: **«الأعراق المحليّة لأهل الأرض»** (١٨٥٧) قد استعملا صوراً مُضللة يقترحان فيها أن **السود قد خلقوا ليكونوا الصلة بين الإغريق وقردة الشمبانزي**

قام لودفيك فون مايزيز بتعريف داروينية الطبقات الاجتماعية في كتابه «السلوك البشري» أنها: **«إحرازُ أفراد أو مجموعات (من البشر) الأفضلية على الآخرين نتيجةً لتفوقهم الجينيّ أو البيولوجي (الحياتي)»**. إنّ داروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العرقي العلمي! وما هو حقيقةً إلا علم كاذب) تحمل اسم شارلس دارون، لكنها مرتبطة أيضاً بآخرين، أبرزهم هربرت سبنسر، وتوماس مالثوس، وفرانسيس جالتون مؤسس يوجينيكس (علم تحسين النسل). ومن الولايات المتحدة، فإنّ كتاباً ومفكرين مثل: إدوارد يوماتس، ووليم جراهام سومنر، وجون فيسك، وجون بيرجس، وآخرين، كلهم طوّروا نظرياتهم في **«تطور الطبقات الاجتماعي»** نتيجة تعرّضهم لأعمال دارون وسبنسر. وتأثر ه. ج. ويلز جداً بأفكار دارون، وكذلك كتب الروائي "جاك لندن" قصصَ البناء، التي مثّلت رؤياه في داروينية الطبقات الاجتماعية.

كان أول مدير–عام لليونيسكو هو جوليان هكسلي أحد منظري التطور وعلماء الإنسانيات، الذي كتب عن العالم المُزدحم في كتابه «إنسانيات التطور» (عام ١٩٦٤)، داعياً إلى سياسة سكان العالم. انتقد هكسلي بصراحة مواقف كلٍّ من الشيوعيين والرومان الكاثوليك من تحديد النسل، وتنظيم السكان، والانفجار السكاني.

وهكذا فإنّ نظرية مالثوس وداروينية الطبقات الاجتماعية قد أثرت في كلٍّ من النازيـ والماركسية، الأيديولوجيتين (الأيديولوجية هي نظام من مفاهيم الحياة والثقافة البشرية) اللتين قامت بأكبر إبادة جماعية في القرن العشرين. في الواقع، فإنّ كتابات كارل ماركس (رأس المال، عام ١٨٦٧) وفريدريك إنجلز (اختصارات في

نقد الاقتصاد السياسي، عام ١٨٤٤) كلاهما تدور حول نظرية مالثوس بالرغم من معارضتهما الظاهرية لها، إلا أنهما حوّراها. فقام إنجلز وماركس بنقد مالثوس الذي رأى المشكلة في الضغط السكاني على وسائل الإنتاج، فقالا إن المشكلة تكمن في ضغط وسائل الإنتاج على السكان (أي العكس). لكن الحقيقة هي أنّ الماركسية استبدلت العرق بالطبقة الاجتماعية (صراع عمّال البروليتاريا هو ضدّ رأسماليي البورجوازية)، وشدّدت في رغبتها في إعادة صنع البشرية بالوسائل القسرية (يوجينيكس أو الهندسة الاجتماعية) وفي اعتقادها بتقدّم البشرية عبر نضال الطبقات الكادحة لتنتصر على الطبقات البورجوازية. ثم إن مالثوس كان له تأثيرٌ كبير على عمليات ستالين التطهيرية في الثورة الروسية عام ١٩١٧ بالنظر إلى العوامل الديموغرافية التي استحثت الاقتصاد السياسيّ. ثم إنّ مالثوس أثر في كلٍ من كارل ماركس، وماوتسي تونغ.

في الواقع، كانت هناك شخصيتان فكريّتان قد هيمنتا على كلّ القرن التاسع عشر: مالثوس وماركس، كانا ولا يزالان متعارضين نظاماً. وفي ١٩٧٠، جاء الكتاب المرجعي الأمريكي بعنوان «صراع الأنبياء» (أستغفر الله!)، الذي زوّد بما كتبه ماركس عن مالثوس.

إنّ لعلم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) أعظم الأثر الفكري في تآكل وتهميش النصرانية، التي لم تستطع لسوء حظها الوقوف في وجه التحدّي. ثم إنّ حدائق الحيوان البشرية (أو الاستعراضات الأثنية العرقية، أو قرى السود) صارت أشياء محسوسة لعلم الأنثروبولوجي ووسائل مهمة لتعزيز «العنصرية الشائعة»؛ وهذه الحدائق صارت شائعة من ١٨٧٠ حتى الحرب العالمية الثانية، واستمرت مفاهيمها حتى في القرن الواحد والعشرين.

قامت قناة التلفزة البريطانية الرابعة في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٩ ببثّ فيلم وثائقي:

حديقة الحيوان البشرية: سرّ العلم القذر:

افتُتن العلماء في القرنين التاسع عشر والعشرين بالعرق والعنصرية، إلى درجة أنّ الآلاف من السكان الأجانب الأصليين للبلاد البعيدة وراء البحار قد وضعوا للعرض في حدائق الحيوان البشرية في أوروبا وأمريكا، ولم يكن القصد مجرد عروض ترفيهية لشخوصٍ غريبي الخلقة، بل لتكون العروض براهين علميةً لإيضاح الفروق العرقية. وحدّق الملايين من أنحاء العالم الغربي بافتتان إلى هؤلاء "المتوحشين غير المتحضرين" وكانوا يغادرون هذه الحدائق مقتنعين بتفوق العرق الأبيض. كانت أكثر هذه العروض إثارة تقامُ في باريس، وشيكاغو، وهامبورغ، ولندن. ففي ١٩٢٤، قام الملك جورج الخامس والملكة ماري بمُعاينة نماذج العرض الحيّة في معرض الإمبراطورية البريطانية في ويمبلي.



أوتا بينغا في حديقة الحيوان في برونكس عام ١٩٠٦

وأظهر الفيلم أنه لم تكن هناك إلا مجرد طفرة قصيرة من حدائق الحيوان البشرية إلى جرائم ألمانيا النازية المروعة المُمارسة تحت علم كاذب قام بدعم نظريّ للأول، ثم ساعد على تقنين للثاني.

ويستكشف الفيلم الوثائقي ظاهرة حدائق الحيوان البشرية ليحكي القصة المُبكية للقزم الإفريقي «أوتا بينغا» (ولد ١٨٨٣ تقريباً-١٩١٦/٣/٢٦) من عشيرة البطوة من كونغو تحت الاحتلال البلجيكي آنذاك، الذي جُلب إلى الولايات المتحدة عن طريق المبشر ورجل الأعمال صمويل فيليبس فيرنر، الذي حرر (بينغا) عام ١٩٠٤من تجار العبيد

البلجيكيين الذين قبضوا عليه بعد مهاجمتهم قريته وقتل زوجة بينغا وطفليه الاثنين. أوتا بينغا وُضِعَ لِلعرض في معرض العالم في سانت لويس عام ١٩٠٤، ثم عرضوه في حديقة حيوانات برونكس (الولايات المتحدة الأمريكية) حيث وضع في حظيرة مُسيجة بصحبة قرد شمبانزي وعلمٌ عليه برقعة مكتوب عليها: **الحلقة المفقودة بين "القردة والأوروبيين"** لدعم مفاهيم التطور البشري والتمييز العنصري العلمي!!! فكثير من علماء الأنثروبولوجي (علم الإنسان) اعتقدوا أن الأقزام، بسبب اختلافهم عن العرق الأبيض، يمثلون الطور الابتدائي في تطوّر الإنسان من القرد. قام الاحتجاج العلني أخيراً بإخراج (بينغا) من حديقة الحيوان، وتحريره ليكون في رعاية رجل دين أمريكي من أصل إفريقي.

تنقل «**أوتا بينغا**» بين أيادي أربعة من علماء أمريكا البارزين: المُستكشف المبشر صمويل فيليبس فيرنر، وعالم الأنثروبولوجي وليم ماجي، وعالم الحيوان وليم تيمبل هورنيداي، وماديسون غرانت -واحد من أكبر العنصريين في أمريكا. أندلاع الحرب العالمية الأولى صار الرجوع إلى الكونغو متعذراً، ازدادت كآبة بينغا. وفي ١٩١٦، انتحر بمسدس مسروق.

كان غرانت رجلاً ثرياً ومن المحافظين على الطبيعة وعالم أنثروبولوجي هاوي، وهو الذي أنشأ حديقة الحيوان في برونكس. في ١٩٠٦، كان هو الذي دبّر وضع «**أوتا بينغا**» للاستعراض في حديقة الحيوان: الحادثة التي لم تكن للعرض المجرّد وإنما وسيلةً لتعليم الجماهير لبل لغسل الأدمغة! التمييز العنصري العلمي.

عندما مات ماديسون غرانت في ١٩٣٧، يُقال إنّ أسرته حرقت جميع أوراقه. وبقيت تركته الوحيدة في كتابه «**عبور العرق العظيم**» كان الأكثر مبيعاً حين طبعت طبعته الأولى عام ١٩١٦، وعزّز فكرة أنّ بقاء العرق السيّد الأبيض -«**عرق النورديك**» كما سمّاه غرانت -مهدد من قبل العروق الدنيا. ولكون غرانت من المؤمنين بـ(ال يوجينيكس، فإنه ناقش أنّ التطور يجب ألا يُترك لمُصادفة الحظ. فناضل لتشريع قوانين تمنع الزواج المختلط (بين الأعراق المختلفة) وتحدد الهجرة إلى أمريكا. وقد سنت هذه القوانين من الشعب الذي لان تحت وطأة حدائق الحيوان البشرية الذين صاروا متقبلين آراء غرانت.

ووجدت آراء غرانت تابعين لها في أنحاء العالم. في عام ١٩٣٠، ترجمَ كتابه: عبور العرق العظيم بالألمانية حيث مُنح ما يمكن عدّه تكريماً من أعظم أنواع التكريم. يشرح ذلك جون ماركس، عالم الأنثروبولوجي في جامعة نورث كارولينا قائلاً:

«استلم غرانت رسالة مُعجب به من نجم سياسيّ ألمانيّ صاعد، وهو يقول فيها: كتابك هو إنجيلي، وكان اسم الموقع هو أدولف هتلر». لقد اختفت مُراسلات غرانت الآن: وليست معنا تلك الرسالة أيضاً. لكن هنـاك شاهد عيان على أنه لوّح بهذه الرسالة متوعداً الجماهير، ليُريهم كم كان هو عظيماً وكم كان مدى تأثيره هو، وكيف أن الألمان أخذوا آراءه بمنتهى الجدّية. وظلّ هذا شيءٌ كان مُعجباً به ومتغطرساً به جداً.

وبعد ٣ سنوات، استولى هتلر على سلطة الحكم في ألمانيا وحوّل أفكار بطله إلى سياسة ملموسة. أقامت النازية مبدأ تمييز الأعراق العلمي كأساس للرايخ الثالث الألماني آخذةً بالأفكار المُعزّزة في حدائق الحيوان البشرية أكثر من غيرها، ومُقيمةً إياها على الإبادة المنظمة للأعراق الدون الرديئة، من أجل الدفاع عن عرقهم المتفوق، العرق الآري.

وفي محاكمات جرائم الحرب العالمية الثانية في نوريمبورغ عام ١٩٤٧، أدلى الأطباء النازيون باسم غرانت وبكتابه في دفاعهم – مُجادلين في أن الرايخ الثالث لم يكن إلا مُطبّقاً ناسخاً ومُقلداً للأفكار الأمريكية. وأثر

الإبادة الجماعية، صار خلط الأعراق مع العلم رجزاً محظوراً، وطمرت معها أفكار ماديسون غرانت وعلماء الأنثروبولوجي المبكرين.

لقد بنى علماء الأنثروبولوجي أمثال ماديسون غرانت أو أليكسيس كاريل علم تمييز عنصري زائف، مستمدين ذلك من قراءتهم لـ جوبينيو مؤلف «مقالة في التباين في الأعراق البشرية» عام (١٨٥٣–١٨٥٥) المؤمن بتفوق العنصر الأوروبي الأبيض (في قدرات ذكائه على الآخرين) وبأنّ امتزاج الأعراق يؤدّي إلى انهيار الحضارة.

في ١٩٣٥، نشر كاريل كتابه الأكثر مبيعاً: (**الإنسان ذلك المجهول**)، الذي نصح أن البشرية تستطيع أن تحسّن نفسها، ولو جزئياً، باتباع إرشادات مجموعة علية من المفكرين المثقفين، وبتطبيق نظام تحسين نسل قسري (يوجينيكس). وناقش كاريل أن الأنواع البشرية المنحرفة يجب قمعها باستخدام تقنيات مشابهة التي وظفتها النازية لاحقاً (القتل الرحيم للبالغين). في مقدمة الطبعة الألمانية لكتابه عام ١٩٣٦، أضاف كاريل إطراءاً لسياسات الرايخ الثالث في تحسين النسل (يوجينيكس)، وكتب: (**اتخذت الحكومة الألمانية تدابير حيوية ضد تكاثر المعوقين، ومرضى الأمراض العقلية، والمجرمين**).

وعيّنة أخرى من حدائق الحيوان البشرية هي سارجي (أي سارة) بارتمان المولودة في شرق كيب تاون بإفريقية الجنوبية (١٧٨٩–١٨١٥/١٢/٢٩) التي عرضت (بسبب هيئة وتقاسيم جسمها غير المألوفة) في الاستعراضات الجانبية الجذابة لأوروبا القرن التاسع عشر تحت اسم فينوس هوتينتوت – «هوتينتوت» كان آنذاك هو اسم قبيلتها الخوي خوي (والاسم اليوم يُعدّ سبّة) و«فينوس» إشارةٌ إلى الزهرة، إله الحبّ الروماني. كانت بارتمان مستعبدة ضمن الرقيق للمزارعين الهولنديين. قرب كيب تاون أقنع أخا المالك للعبيد بتسفيرها إلى إنجلترة للاستعراضات، واعداً إيّاها بالغنى والثروة. فسافرت إلى لندن في ١٨١٠، وعرضت بارتمان في مناحي بريطانيا، وأجبرت على التعرّي وأن تدور بأردافها وعجزها لأجل ترفيه الناس. أثار استعراضها في لندن ضجة، لأنه جاء عقب سنوات قليلة من سنّ قانون لتحريم تجارة العبيد عام ١٨٠٧، فأحدث فضيحة.

لذلك بيعت لرجلٍ فرنسيّ، أخذها معه إلى فرنسا للاستعراض أيضاً تحت ضغوط أكبر من ذي قبل ولمدة ١٥ شهراً. زارها العديد من علماء التاريخ الطبيعي منهم جورجيس كوفير، وصارت مادةً للعديد من لوحات الرسوم الزيتية العلمية. وعندما زالت غرابتها غير المألوفة من نفوس الباريسيين، بدأت تدمن الشرب ومن ثم أُجبرت على البغاء من أجل الإنفاق وإعالة نفسها. ثم ماتت مُبكراً في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨١٥ وعمرها ٢٦ سنة بسبب إصابتها بذات الرئة فحصت جثتها، ونشرت نتائج الفحص عام ١٨١٦ ثم أعاد نشرها عالم التاريخ الطبيعي الفرنسيّ جورجيس كوفير في مذكرات متحف التاريخ الطبيعي عام ١٨١٧. قيّد "كوفير" ملحوظاته في مقالة خاصة قائلاً: إنّ بارتمان كانت امرأةً ذكيّة وتمتلك ذاكرة ممتازة وتتكلم اللغة الهولندية بطلاقة. ووضعت أجزاء هيكلها وأعضاؤها التناسلية المحفوظة (!) مع دماغها للعرض لتبعد فوتاً في متحف باريس الوطني وظل معروضاً حتى عام ١٩٤٧، ثم أُزيت من العرض العلني ووضعوها في مستودع لمنع مشاهدتها؛ استبدلت بنسخة منحوتة مصبوبة للعرض لسنتين لاحقتين.



كاريكاتير تحقيري ساخر يصوّر سارجي بارتمان (أو فينوس هوتينتوت)

ومن ثم برزت قضيتها عام ١٩٨٠ بعد أن قام عالم المتحجرات الأمريكي ستيفن جاي جولد بالكتابة عنها وتشبيهها بالزهرة، إله الحبّ الروماني، فسماها «فينوس هوتينتوت» (هوتينتوت هو اسم قبيلتها). بعد انتصار حزب الكونجرس الإفريقي الوطني في الانتخابات العامة لإفريقية الجنوبية عام ١٩٩٤، قام الرئيس نيلسون مانديلا بطلب رجاع بقاياها رسمياً من فرنسا. وافقت فرنسا، بعد كثير من المجادلات والمناظرات القانونية في مجلس فرنسا الوطني، على قبول طلب الرئيس مانديلا في ٦ آذار ٢٠٠٢. وأعيدت بقاياها إلى أرض الوطن في ٦ أيار ٢٠٠٢، وأخيراً رقدت جثتها بعد الموت تحت التراب في ٩ آب ٢٠٠٢ أي بعد ٢٠٠ سنة من ولادتها.

حتى اليوم، وبعد انتخاب **براك اوباما** أول رئيس أسود للولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٩، تظل العنصرية شعوراً حيّاً داخلياً يحرك العديد من صناع القرار في الأمم المتحدة، ورؤساء دول أوروبا، وزعماء أحزابها، ووسائل الإعلام، والقضاة البيض في المحاكم القانونية، والرؤساء في المؤسسات الرسمية والخاصة، وفي الشرطة والجيش، والفنون، بل وفي الاختبارات العلمية، وفي التوظيف وقرارات العلاوات المادية والمعنوية، ليصبغ قرارات صُنّاع القرار (غالباً إن لم يكن دوماً) بالجور والبطلان ضدّ السود والملوّنين، وبالتحيز المستور والمعلن لمصلحة المواطنين البيض. بل إنّ الأفلام السينمائية لا زالت تعرض قصصاً حول تهديدات فناء الجنس البشري المؤقت (بسبب اصطدام نجم مذنب بالأرض مثلاً)، فيلجؤون إلى ملاجئ الإنقاذ إلى حين انتهاء هذا الانفجار الوهمي. وفي أثناء ذلك، لا يُسمح بدخول الملاجئ إلا لأفراد الجنس البشري الأبيض الأذكياء، ومعهم حيواناتهم (لأجل تكاثر واستعمار الأرض من جديد)، تاركين وراءهم الملوّنين والسود المتخلفين (في اعتقادهم) لحتفهم ليموتوا من دون عون!

الميراث اللغوي البغيض للعنصرية وطبقات المنبوذين:

إنّ ما يسمّى بالعنصرية العلمية قد أثرت تأثيراً بالغ الخطورة في اللغة الإنجليزية والأوروبية (لاسيما الإسبانية) وزوّدت مفرداتها اللغوية بكوكبة كبيرة من الكلمات العنصرية المُخزية، بل والمُروّعة، إلى درجة أنّ أوروبا اليوم تحاول عمداً جعل كلمات مندثرة مهجورة من أجل طمر تلك الحقبة التاريخية وطمسها (تلك الحقبة المرتبطة بهذه الكلمات) وإخفائها من بساط البحث، وذلك بسبب الوطأة القانونية للميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان (التي وُضعت مسودته عام ١٩٥٠، ودخل حيز التطبيق في ٣ أيلول ١٩٥٣)، وقانون حقوق الإنسان البريطاني لعام ١٩٩٨ اللذين يتضمنان الحقوق والحريات الأساسية الجوهرية المكفولة التي تشمل: حقّ الإنسان في الحياة، والحقّ في التحرر من التعذيب والمعاملة المهينة، والتحرر من رقّ العبودية والعمل الإجباري، وحرية الفكر والضمير والدّين، وحرية التعبير عن المعتقدات؛ وحق الإنسان في التحرر (العيش في وطن حر دونما استعمار).

شرح البروفيسور وورد تشرشل في كتابه: "**مسألة صغيرة حول الإبادة الجماعية—محرقة الإبادة الكاملة وإنكارها في الأمريكتين من عام ١٤٩٢ حتى الوقت الحاضر**" (نشرته كتب سيتي لايت في سان فرانسسكو، ١٩٩٧) في صفحة ١٠٧–١٠٨، أن الأنظمة الاستعمارية في الأميركتين الجنوبية والوسطى، مع المكسيك والجزء الجنوبي—الغربي من الولايات المتحدة المعاصرة، قد استعمرت البلاد لأجل تقوية النظام الجديد في المقاطعات الخاضعة لنفوذها، بحسب قواعد عنصرية صارمة ومفصلة ومعقدة ومُشينة. سرد الكاتب الأمريكي اليكسيس دي توكفيل هذه المقولة:

(هذا الرجل المولود في المهانة، هذا الغريب بيننا والدخيل إلينا عن طريق الرق (العبودية). فلا نكاد يمكن عدّه مشتركاً معنا في مزايا الإنسانية العامة. فوجهه يبدو شنيعاً لنا، ذكاؤه محدود، وذوقه خسيس؛ ونحن على الغالب نعدّه أشبه بكائن وسيط بين الإنسان والبهائم).

وفي جزء من إحدى قواعد القانون النافذ في إسبانية الجديدة أي الحكم الإسباني في أمريكا الجنوبية والوسطى في القرن الثامن عشر، يوضح كل هذه القوائم المُصنفة في أمريكا المحتلة من قبل الأيبيريين (الاسبان والبرتغاليين) توضح تدرج المتبوذين المُخلطين من علاقات وزيجات مختلطة بين الأعراق الثلاثة الصافية الأصيلة في أمريكا: القوقازي الأبيض، والإفريقي الأسود، والهندي الأمريكي):

١. إسباني مع هندية (أمريكية) ينجبان مُستيزو (مزيجٌ أي مُخلّط).
٢. مُستيزو (رجل أو امرأة) مع امرأة إسبانية (أو إسباني) ينجبان كاستيزو.
٣. امرأة أو رجل كاستيزو مع إسباني أو اسبانية ينجبان اسباني.
٤. امرأة إسبانية أو إسباني مع زنجي أو زنجية ينجبان مولاتو (مولد).
٥. إسباني أو إسبانية مع امرأة مولاتو (مولدة أو مولّد) ينجبان موريسكو (مغربي).
٦. امرأة موريسكية مع إسباني ينجبان البينو.
٧. إسباني مع امرأة البينية ينجبان تورنا اتراس.
٨. هندي (أمريكي) مع امرأة تورنا اتراس ينجبان لوبو (بمعنى الذئب).
٩. لوبو مع امرأة هندية ينجبان زامباگو.
١٠. زامباگو مع امرأة هندية (أمريكية) ينجبان كامبيوجو.
١١. كامبيوجو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان البارازادو.
١٢. البارازادو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان بارسينو.
١٣. بارسينو مع مولاتو (مولد أو مولدة) ينجبان كويوت.
١٤. امرأة كويوت مع هندي (أمريكي) ينجبان شاميسو.
١٥. امرأة شاميسية مع مُستيزو ينجبان كويوت مُستيزو.
١٦. كويوت مُستيزو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان اهي تي إيستاس.

وتكمل أسماء هذه القائمة المُشينة نظام معقد آخر لهذا التركيب العنصري الاجتماعي في مُستعمرة مكسيكو (وردت أصلاً في بحث نيكولاس ليون في ١٩٢٤ (لاس كاستاس مَستيزج ديل مكسيكو كولونيال و نيوفا اسبانا)، وجرى اقتباسه في م. د. أوليان ١٩٧٣، الأمريكان اللاتينيون: الشعوب المعاصرة وعاداتهم الثقافية، صفحة ٩٤):

١٧. موريسكو (مغربي) مع إسبانية ينجبان چينو.
١٨. چينو مع هندية أمريكية ينجبان سالتا اتراس.
١٩. سالتا اتراس مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان لوبو.
٢٠. لوبو مع امرأة چينو (أي چينا) ينجبان جيبارو.
٢١. جيبارو مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان البارازادو.
٢٢. البارازادو مع امرأة سوداء ينجبان كامبيوجو.
٢٣. كامبيوجو مع هندية أمريكية ينجبان سامبيوجو.
٢٤. سامبيوجو مع امرأة لوبو ينجبان كالبا مولاتو.
٢٥. كالبا مولاتو مع امرأة كامبيوجو ينجبان تنتي إنلا أير.
٢٦. تنتي إنلا اير مع امرأة مولاتو (مولدة) ينجبان نو تي إنتيندو.
٢٧. نو تي إنتيندو مع هندية أمريكية ينجبان تورنا اتراس.

وُضع هنود أمريكا الأصليين في الحضيض الأسفل من تدرج هذه القوائم، وفي العديد من الحالات يعدون عملياً لا وجود لهم البتة. إنّ هذا الموقف يمثل أقصى حالات الوسوسة القسرية الأوروبية نحو غير الأوروبيين.

واليوم وإنْ أُسقطت أنظمة المنبوذين قانونياً، لكن التحيّز الاجتماعي المُجحف، والاستغلال الاقتصادي لا زال مستمراً لا يهدأ. بالرغم من أن القمع العنصري المُعلن لم يَعُد مسموحاً به قانونياً، لكن الناس لا زالوا محتفظين بآرائهم الشخصية نحو الأعراق الأخرى بناءً على أفكار متحيّزة سابقة. وقد قام المعهد البرازيلي للجغرافية والإحصاء في عام ١٩٧٦ بدراسة لتصنيف الناس على أساس عرقي عبر سؤالهم لتعيين ألوان جلودهم، وانتهى إلى ١٣٤ مصطلحاً رُتبت ترتيباً أبجدياً.



تصوير مستيزو في لوحات المنبوذين في المكسيك في مدة الاستعمار الإسباني.

الصورة تظهر: إسباني مع هندية أمريكية منجبين مستيزو.



امرأة إسبانية مع زنجي ينجبان مولاتو (مولد)





إسباني مع امرأة مستيزو ينجبان كاستيزو

إسباني مع مولاته (أي مولدة) ينجبان موريسكو (مغربي)، (نحو ١٧٦٣)



لوحة تظهر: زنجياً مع هندية أمريكية مُنجبين لوبو، وهو هنا بديل لـ زامبو.

تصوير لطفل زامبو، في لوحات المنبوذين من إسبانية الجديدة في القرن الثامن عشر



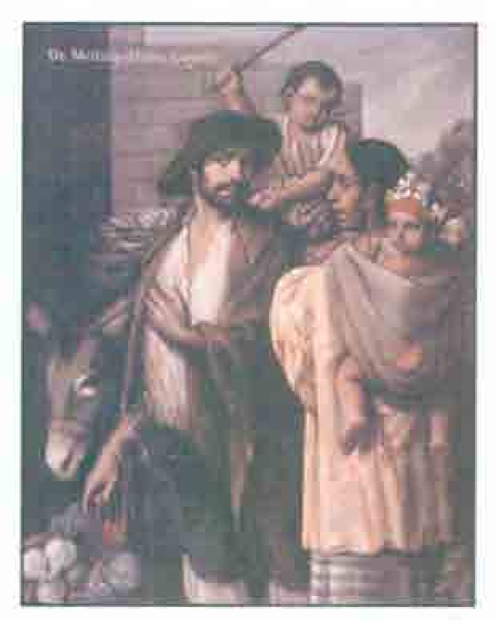


مستيزو مع هندية أمريكية ينجبان كولو

هندية أمريكية مع مولاتو (مولد) ينجبان چينو



زنجيٌ مع امرأة مولاته (مولدة) ينجبان أيضاً سامبو (زامبو)، المدرسة الهندية، ١٧٧٠



مَستيزو مع هندية أمريكية ينجبان كويوت.



نموذج من ألواح المنبوذين من أهالي بيرو

يظهر زواجاً مختلطاً بين مجموعة المنبوذين. مَستيزو، مَستيزو، مَستيزو.

انظر: المصادر في الشبكة العنكبوتية تحت عنوان: Casta . وانظر أيضاً: Yasmin amirez

"New World Orders: Casta Painting and Colonial Latin America at the Americas Society" artnet Magazine (December 2, 1996)

إضافةً إلى الأسماء المهجورة من الذين وُلدوا من زيجات مختلطة هناك، مثل:

تيرسيرون (ثلث أسلافه من الزنوج)، **كوارتيرون** (ربع أسلافه من الزنوج)، **كوينتيرون** (الخامس في سلالة من أصل زنجي وأوروبي) وهذه لا تحتاج شرحاً. ولا يزال أهالي بيرو الإسبان يحتفظون بمصطلحات **كولو** (مولود من أسلاف مستيزو مع هندية أمريكية)، **وچينو**. لكن مَن يتذكر اليوم أهمية هذه الأسماء، مثل: **كاستيزو، موريسكو، لوبو، چيارو، البارازادو، كامبيوجو، بارسينو، بوشيل، كويوت، شاميسو، جالفارو، جينيزارو، جريفو، جاروشو، سامباجو**، أو أكثر الأسماء زخرفة: **سالتا أتراس، تنتي إنلا أير، نو تي إنتيندو، اهي تي إيستاس**، وغير ذلك..!

باختصار، كان **تمازج الأجناس** (المُسمّى **ميزجينيشن** من اللاتينية ميز: أي يمتزج، أو العربية مزيج، مع كلمة: جينيشن من جنس) مصطلحاً أوروبياً جاء مع الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد منذ عصر الاكتشافات. وتاريخياً: فالمصطلح كان يستخدم قانونياً بعد تحرر العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية بحسب القوانين المانعة لتمازج الأجناس عن طريق الزواج أو الجنس، والمسمّاة بـ: **قوانين منع تمازج الأجناس**. لذلك فالمصطلح يعدّ اليوم عدائياً إلى حد ما. وتمازج الأجناس يعني امتزاج الأجناس المختلفة عن طريق **الزواج**، **والتعايش** (بين خليل وخليلته دون زواج)، **والعلاقات الجنسية** (علاقات عابرة محرمة)، **والإنجاب التناسلي** (وكلها علاقات حرمها الإسلام عدا رقيق الحروب الذين يصبحون مملوكين ملك يمين مع ضرورة حسن معاملتهم والإحسان إليهم).

عموماً، يشمل تمازج الأجناس (كما رأينا) ثلاث مجموعات من الذرية:

١. **إسبان مع هنود أمريكان (مثل: مستيزو وكاستيزو).**

٢. **إسبان مع أفارقة (مولاتو وموريسكو).**

٣. **هنود أمريكان مع أفارقة (زامبو، لوبو، كويوت).**

قارن وباين بين التاريخ الأوروبي والتاريخ الإسلامي. في الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد، لم يكن تنصّرُ السكان الأصليين (الهنود الأمريكان والسود) وتحولهم إلى النصرانية ليضمن إعطاءهم مراكز نظراء مقابلين للأوروبيين بالمساواة الإنسانية؛ في الواقع إنّ نظام المستعمرين المُهين في تصنيف طبقات المنبوذين، فضلاً على الوحشية الأوروبية (في معاملة كلّ مَن هو غير أوروبي على أنه أقل من رتبة الإنسان؛ بل أحياناً تسميتهم بأسماء الحيوانات مثل: لوبو و كويوت أو قيّوط وتعني الذئاب) قد أدت إلى ثورات قام بها أولاد هؤلاء الأوروبيين أنفسهم (من تمازج الأجناس مع هنود أمريكا أو مع الأفارقة) ضدهم أي ضدّ الأوروبيين! لكن في التاريخ الإسلامي، فإنّ كثيراً من قادة الإسلام المرموقين؛ بل ومن خلفاء الإسلام كانوا أولاداً لأمّهات من الإماء غير العربيات؛ لقد عومل العبيد والإماء غير العرب وغير المسلمين معاملةً حسنة طبقاً لمنظومة الإسلام الكاملة في القيم الأخلاقية، إلى درجة أنّ كثيراً منهم قد أُعتقوا لوجه الله.

أمّا العبيد الذين أسلموا فقد أُعتقوا، وتمّ تزويجهم كأزواج وزوجات شرعيين. أو أنهم أُعتقوا ليكونوا إخوة وأخوات في الإسلام، يمتازون بالموقع الإنساني نفسه والحقوق والواجبات للمسلمين العرب الآخرين.

كان النبي محمد ﷺ هو القدوة الكبرى والمرجعية الأولى للمسلمين؛ فكانت مولاة رسول الله وحاضنته هي أم أيمن الحبشية السوداء، ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، التي كان عندها زيد بن حارثة وهو ابن ثمان سنين من سبي الجاهلية، فوهبته لرسول الله، فتبناه بمكة قبل النبوة، ونشأ زيد في أحضان النبي وأحبّه، حتى أن زيداً خُيّر بين النبي ﷺ وبين أبيه وعمّه، فاختار النبيّ ﷺ عليهما حتى سُمّي "زيد بن محمد". وكان النبي ﷺ يحبّ أم أيمن حباً شديداً ويعدّها من أهل بيته، ثم زوّجها زيد بن حارثة (وهو أبيض اللون) أيام البعثة النبوية، فولدت له أسامة بن زيد (أسود اللون)، الذي سُمّي حبّ رسول الله ﷺ. ثم إنّ إبراهيم ابن النبي محمد ﷺ كان من أمته

مارية القبطية المصرية. وحين أسلم بلال الحبشي (العبد الأسود) أعتقه أبو بكر ، ومن ثم صار مؤذن النبي الخاص وسيِّداً من سادات المسلمين. وفي زمن عمر بن الخطاب، حين سُبيت بنات يزدجرد، صارت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالماً، والأخرى لمحمد بن أبي بكر فأولدها القاسم، والأخرى للحسين بن علي بن أبي طالب فأولدها علي زين العابدين، فسالم والقاسم وعلي زين العابدين هم بنو خالة؛ ثم إن جميع الحسينيين اليوم هم من نسل علي زين العابدين (في رواية أنّ أمه سندية وليست فارسية). كذلك فإنّ الكثير من قادة الفتح الإسلامي كانوا أولاد إماء، فمثلاً:

زياد بن أبي سفيان الوالي الداهية (في زمن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، والخليفة معاوية بن أبي سفيان) كانت أمّه سُميّة جارية الحارث بن كلدة طبيب العرب الشهير؛ ومسلمة بن عبد الملك فارس بني أمية المُلهم كانت أمُّه جارية (تسمى أم البنين أو أمّ ولد رفعة لقدرها). وهذا طارق بن زياد البربريّ الأصل (٥٠-١٠٢هـ ٦٧٠-٧٢٠م) فاتح الأندلس، كان مولىً لموسى بن نُصير عامل بلاد المغرب (من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك). وقد أسلم طارق على يد موسى بن نصير وتعلم القراءة والكتابة وحفظ سوراً من القرآن الكريم وبعضاً من أحاديث النبي ﷺ ثم ساعده حبه للجندية في أن يلتحق بجيش "موسى بن نصير" أمير "المغرب" وأن يشترك معه في الفتح الإسلامية، وأظهر شجاعة وبراعة فائقة في القتال والقيادة، لفتت أنظار موسى بن نصير، فعهد إليه بفتح شمال إفريقيا وجعله قائد جيوش البربر التي فتحت شبه جزيرة أيبيريا. أسلمت على يد طارق القبائل الوثنية في الإسلام، ومن بينها قبيلته هو أي قبيلة نفزة البربرية، وحارب طارق المشركين ودخل الكثيرون منهم في الإسلام. وبعد نجاحاته عيّنه موسى بن نصير واليا على طنجة.

بل إنّ كثيراً من الخلفاء كانوا أبناء أمهات البنين، فمثلاً: يزيد بن الوليد بن عبد الملك كانت أمُّه أم ولد. كذلك مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كانت أمُّه كردية اسمها لبابة (وهي جارية إبراهيم الأشتر، أخذها أبوه محمد من عسكر إبراهيم، فولدت له مروان). وهذا أبو جعفر المنصور خليفة العالم الإسلامي (١٣٦-١٥٨هـ) كانت أمُّه أم ولدٍ بربرية اسمها "سلامة"، ومن ثم استقرّت الخلافة في ذريته (فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته).

وقد عاصر أبا جعفر المنصور عبدُ الرحمن الداخل الأموي أمير الأندلس (الذي سمّاه المنصور بـ "صقر قريش") وكان هذا أيضاً من أمة بربرية اسمها "داح" من قبيلة نفزة المغربية (قبيلة طارق بن زياد)، وقد استفاد عبدالرحمن من هذه القرابة حين فرّ إلى المغرب وتولى إمارة الأندلس التي استقرّت من بعده في ذريته حتى عُرفت بحقبة إمارة الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ، ٧٥٥-٩٢٨م). وكان الناس يقولون آنذاك: تلك الأرض يحكمها ابنا بربريتين — ويعنون عبد الرحمن والمنصور. بل إنّ أعظم ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي هو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حرر القدس من الصليبيين تحريراً نهائياً، ووحّد مصر والشام ككمّاشة ضدّ الصليبيين (صلاح الدين الثاني) قد كان ابناً للملك الكامل من جارية سوداء اسمها "ورد المنى"، واشترى الملك الصالح نفسه جارية اسمها "شجر الدرّ" أحبّها ثم أعتقها وتزوجها، وبعد موته أكملت مشوار النصر لزوجها وأبلت بلاء منقطع النظير في صدّ الحملة الصليبية السابعة على مصر. ثم صارت هذه الأرملة أول ملكة للمسلمين؛ بل إنّ الملك الصالح هذا هو الذي اشترى المماليك في مصر ورباهم كمفرخة للملوك إسلام أسطوريين من طراز صلاح الدين مثل: قطز، بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، الذين تصدّوا لتحطيم أسطورتي المغول والصليبيين وإنهائهما، اللذين كانا أكبر خطرين محدقين بالعالم الإسلامي آنذاك، (هذا بالرغم من التحالف المغولي — الصليبيّ ضد الإسلام).

كان مَستيزو وهو مصطلح استعماري إسباني وبرتغاليّ (مَستيكو) مستعملاً في الامبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية في أمريكا اللاتينية للإشارة إلى الناس المنبوذين المُخلّطين من أسلاف أوروبية وهندية أمريكية. يُمثّل مَستيزو غالب سكان أمريكا اللاتينية.

كلمة **مستيزو** مشتقة من العربية **مزيجُ** (من الفعل مزج) ومن اللاتينية **ميكستيوس** أي ممتزج. في اللغة البرتغالية والفرنسية تستخدم الكلمتان **كابوكلو** ، **ميتس** في إمبراطورياتهم لتحديد الأشخاص من أسلاف السكان الأصليين المخلوطين مع الأوروبيين. بحسب المؤرخين مايكل ماير و وليم شيرمان فإنّ استعمال إسبانية الاستعمارية لمصطلح **مستيزو** في القرن السادس عشر "كان في الغالب مقروناً باللقيط" (أي الابن غير الشرعي). تحت نظام المنبوذين في أمريكا الإسبانية وفي إسبانية، فإنّ مصطلح **مستيزو** أصلاً ينطبق على الأطفال الناتجين من الاتحاد بين أبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي أو الأطفال الناتجين من أبوين كليهما مستيزو. في أثناء هذه الحقبة، استعملت مصطلحات عديدة أخرى تشمل كاستيزو (وهو شخص ثلاثة أرباعه أوروبي، ربعه هندي أمريكي)، كوارتيرون الهندي، وكولو (وهو شخص ربعه أوروبي، وثلاثة أرباعه هندي أمريكي) لتشير إلى الأفراد ذوي الأسلاف الأوروبية–الهندية الأمريكية المختلطة بنسب أقل أو أكثر من نسبة **مستيزو** الـ ٥٠:٥٠. وهذه المصطلحات تستخدم غالباً بدلالات سلبية.

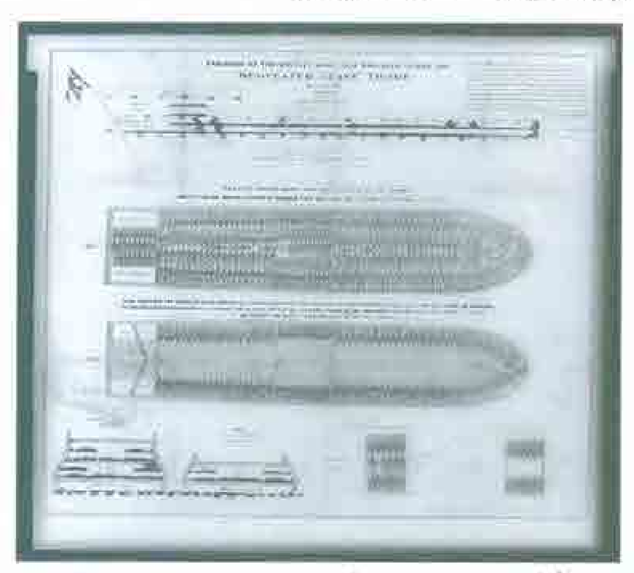
مولاته أو مولدة (من العربية والذكر مولاتو وبالعربية مولد) بدأت نتيجة لتفاعل الإمبريالية الإسبانية مع عبودية الرقيق في مستعمرات كوبا الزراعية للتبغ والسكر. فهي جاءت نتيجة لعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية وأحياناً نتيجة لإستغلال العنيف للنساء السود من قبل الرجال البيض. ثم صارت مصطلحاً مشيناً عند الأوروبيين: فقد اكتسبت صيغة جنسية من قبل الرجال البيض في القرن التاسع عشر، وتدمّ كـ "امرأة طليقة دون ارتباط"، ثم صارت توظف للاجتذاب السياحي للرجال الأوروبيين والأمريكيين في القرن العشرين (المحمومين بالجنس). ويُنظر إلى **مولاته** (أو المولدة) بالطريقة نفسها في الكاريبي وأمريكا اللاتينية وفيها البرازيل. في كوبا كما هو في البرازيل، أصبحت مولاته أيقونةً وطنيةً بل رمزاً للتمايز الطبقي العنصري الاقتصادي والجنسي.

سامبو (أو **زامبو**) هو مصطلح عنصري للأفراد المنبوذين من أصول هندية أمريكية مُخلّطة مع أصول إفريقية في الكاريبي. ويستعمل أيضاً على نحو غير محدد للفرد الأسود في أمريكا الشمالية وفي المملكة المتحدة (بريطانيا وإيرلندة). يُعدّ الاسم لطخة عنصرية. ربما دخلت الكلمة «**سامبو**» إلى الإنجليزية من كلمة أمريكا اللاتينية الإسبانية زامبو، التي بدورها وفدت من إحدى مصادر ثلاث من اللغة الإفريقية. فمعجم ويبستر (طبعة المعجم العالمية الثالثة) يعدّ لكلمة قد جاءت من كلمة الكونغو **نزابو** (أي قرد). مصدر آخر يعدّها كلمة من قبيلة فوله وتعني "العمّ" أو كلمة من قبيلة هوسة وتعني "الابن الثاني". لكن الأقدمية الإسبانية الملكية تجعل الكلمة من أصل لاتيني وتعني بالإسبانية الحديثة "**مقوّس الساقين**" (إشارة للأفارقة).

زامبو هو مصطلح إسباني (يقابله المصطلح البرتغالي **كافيوزو**) مستعمل في الإمبراطورية الإسبانية. وفي يومنا الحاضر لتمييز الأفراد المنبوذين من أسلاف إفريقية مُخلّطة بالأصول الهندية الأمريكية (يقابله المصطلح الإنجليزي **سامبو** الذي يُعدّ اليوم وصمة عار). الكلمة المؤنثة هي **زامبه** (يجب عدم خلطها بفولكلور رقص **سامبا الأفرو–برازيلي**، أو موسيقى سامبا، أو فولكلور الرقص الأرجنتيني. يُظن أنّ الكلمة عربية من زمبة أو زنبة أو زمّر موسيقى شعبية، فطورها الأسبان إلى رقص وموسيقى بعربدة جنسية في احتفال كرنفال سنوي).

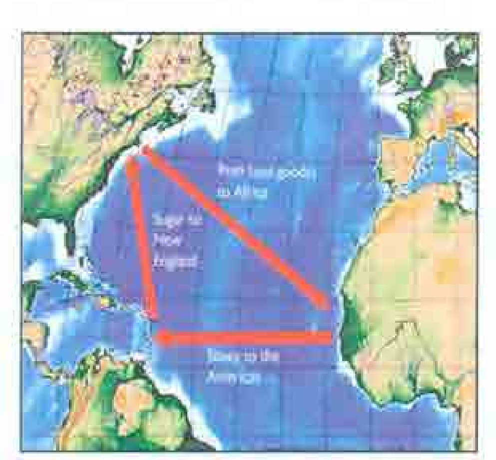
كان زامبو الأوائل، بداية، هم ذرية العبيد الأفارقة وأغلبهم من المسلمين الذين هربوا من المستعمرات الزراعية (بسبب وحشية المعاملة) ومن حطام السفن (عبر طرق تجارة العبيد في السفن، حيث يُحشرون فيها مثل عُلب سمك السردين)، وقاموا بمغامرات في مختلف غابات أمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية، والكاريبي، بحثاً عن ملاذ الأمان. التحق هؤلاء بمجتمعات الأمريكان الهنود النائية للاختفاء والهرب من الاعتقال من السلطات الاستعمارية. مثال لذلك جزيرة **إسبانيولا** (حالياً هايتي وجمهورية دومينيكان) حيث لاقى العبيد الهاربون بعض بقايا **قبائل تاينو**.

فحدث اختلاط عرقي وأخوي، واليوم تمثل مجموعة هؤلاء الأفرو - أمريكي نسبة صغيرة من سكان هايتي وجمهورية دومينيكان. كان الهنود الأمريكان - وهم أحياناً تحت وطأة التطويق الاستعماري الأوروبي - متعاطفين تماماً مع ورطة وابتلاء هؤلاء العبيد الهاربين، فرحّبوا بهم في مجتمعاتهم وقدّموا لهم الطعام والمأوى، وغالب ما قدّموا بناتهم لهم كزوجات. لذلك، فالأسلاف الأفارقة في جاريفونا هم عادةً ينتسبون إلى العبيد الهاربين من حطام السفن، في حين أن زامبو في **الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية** هم من **لوبو** المكسيك، وغالب زامبو الآخرين يعتقد أنهم عموماً منحدرين من العبيد الهاربين من المستعمرات الزراعية.



رسم توضيحي يُبيّن إيواء وتحميل الأفارقة العبيد على متن سفينة عبيد بريطانيا (يكدّسون مثل علب سمك السردين)





مثلث تجارة العبيد، والسكر، وشراب رام المسكر (مع التبغ والقطن والقماش والبضائع المصنوعة) بين إفريقيا، وجزر الكاريبي وبين أوروبا أو إنجلترا الجديدة (أمريكا) كراس زاوية المثلث الثالثة

وكما في أمريكا الشمالية في مدة استعباد الرقيق، ففي تاريخ أمريكا اللاتينية توجد أيضاً شواهد على توحّد الأفارقة مع هنود أمريكا (الهنود الحمر) واجتماعهم سويةً مكوّنين **معسكرات تمرد حرة** لمحاربة المستعمرين الأوروبيين ومُلّاك العبيد من الإقطاعيين. في أمريكا اللاتينية، سُمّيت هذه المستوطنات (التي هي أساساً للأفارقة العبيد المسلمين الهاربين أو **مارون**) مستوطنات **كلومبوس** (عبر طرق تجارة العبيد، فإن سكان وسط أنغولا من

المناتلين والمتمردين (يسمون إمبنغالا) أنشؤوا مؤسسة تسمى كيلومبو لتوحيد القبائل المختلفة أنسابها المتعددة تهدف إلى صهر الجميع في بوتقة جماعية موحدة لأجل المقاومة العسكرية في زمن الاضطراب، ربما تكون من العربية كلمة أي وحدة الكلمة). ومن أشهر الكلومبوسات هو معسكر **بالماريس** الأسطوري في البرازيل. في ذروة فاعلية هذا المعسكر، كان تعداد سكانه الرسمي يزيد على ٣٠٠٠٠.



نساء كلومبولاس البرازيليات لا زلن يرتدين غطاء الرأس الإسلامي

يؤلف **زامبو**، رسمياً، أقليات صغيرة في أقطار الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية في: كولومبيا، فينزويلا، إيكوادور. وتعرف المجتمعات الموجودة في البرازيل في المنطقة الشمالية الغربية للبلاد خصوصاً بـ **كافيوزو**.

في هندوراس، يُعرفون بـ **جاريفونا**. برغم وجود زامبو أيضاً في أقطار الكاريبي وأمريكا الجنوبية الأخرى، مثل جمهورية دومينيكان، بيليز، نيكاراجوا، لكن تاريخهم وأصولهم ليست مرتبطة بالضرورة بمجتمعات جاريفونا.

في المكسيك، حيث يعرفون **لوبو** (حرفياً تعني ذئب)، فإنهم كانوا يُمثّلون أقليّة كبيرة في الماضي. غالبية لوبو اليوم قد تمّ امتصاصهم وتداخلهم ضمن مجموعة سكان المكسيك الأكثر عدداً: **مستيزو**.



جيبارو هم جموع الفلاحين القاطنين في الجبال أو في الغابات، اسمهم مشتقّ من الكلمة جيبارو بمعنى **التلّ**، ومن العربية جبالٌ، حيث تستخدم الكلمة في بورتوريكو، والكلمة مرتبطة بكلمة **جيفارو**.

جَروشو هو شخص موسيقار من **فيراكروز** المكسيك (كما في الصورة آنفاً). إحدى الشروح عن أصل المصطلح جَروشو أنه تطور من كلمة إسبانية قديمة بمعنى فظّ أو فوضوي. **جَروشو** يمثلون اندماج **السكان الأصليين (غالباً مستيكان) في الأسبان، وفي عناصر الموسيقى الإفريقية**، وتظهر صورة السكان الذين نشؤوا في هذه المنطقة منذ زمن الاستعمار الإسباني.

جينيزارو وبابلو:

جينيزارو والمنحدرون من أصلابهم هم سكان الهنود الأصليين الذين أستوظفوا كعبيد وخدم في البيوت ورعاة للماشية في بيوتات الأسبان والمكسيك وجنوب غرب أمريكا، حتى ١٨٨٠. في نهايات ١٧٠٠، كان **جينيزارو**

والمنحدرون من أصلابهم غالباً ما يُشار إليهم بال "**كويوت**" (تعني ابن آوى)، وكانوا يمثلون الثلث من عدد السكان الكلي في نيو مكسيكو.



إنّ مصطلح **جينيزارو** مشتق من كلمة "**جانيساري**" أي **إنكشاري**، وهم العبيد الذين أُحسنت معاملتهم وتدريبهم كجنود، ودمجهم كمواطنين في الإمبراطورية العثمانية. لكن في حالة **جينيزارو**، اشتكى العديد من هؤلاء الأسرى من سوء معاملتهم من قبل أسيادهم الأوروبيين، لذا تمّ تحريرهم ومنحهم أراضي ليستوطنوها على الحدود المحيطة بالمستوطنات الإسبانية. وبهذه الطريقة المتحايلة، صار **جينيزارو** يخدمون كمجمّعات حاجزة لحماية المدن الإسبانية وصدّ هجوم القبائل المناوئة المعادية للاستعمار الإسباني.

بابلو هو مصطلح لوصف مجتمعات سكان أمريكا الأصليين حديثاً وقديماً في جنوب-غرب الولايات المتحدة الأمريكية. لقد استخدم المستكشفون الأسبان الأوائل لجنوب-غرب أمريكا هذا المصطلح لوصف المجتمعات في المباني المؤلفة من عدة وحدات سكنية كالغرف أو الشقق، والمبنية من الحجارة، وطوب الطين، والمواد المحلية الأخرى.

وقد كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في المكسيك سيئة جداً إلى درجة أنه في عام ١٨٣٧ ثار هنود أمريكا من جينيزارو وبابلو مع آخرين ضدّ الحكومة المكسيكية، وقطعوا رأس الحاكم المكسيكي **البينو بيريز**، وقتلوا جميع أفراد القوة الحامية المكسيكية في سانتا في. وألفوا حكومة جديدة وانتخبوا **جوسي أنجل گونزاليز**، وهو **جينيزارو** (من بابلو طاو من أسلاف باوي) حاكماً جديداً لها. وأُشير إلى هذه الثورة (بحسب تصنيفات المستعمرين) على أنها "ثورة شيمايوسو" نسبة إلى مجتمع شيمايو الشائن السُمعة وا قاطن شمال نيومكسيكو، حيث كانت موطن **گونزاليز**، وموطن كثير من الهنود الأمريكان ذوي الدماء المختلطة. كانت هذه الثورة مثالاً واحداً من العديد من ثورات الهنود الأمريكان-السكان الأصليين-ضد الحكومة المكسيكية في أثناء هذه المدة، وتشمل أيضاً ثورة مايا في يوكاتان.

رفض الإسلام للداروينية، ولداروينية الطبقات الاجتماعية (أو التمييز العنصري العلمي)

إنّ النصرانية المحرّفة هي التي تصادمت مع العلم الصحيح عبر محاكم التفتيش الكنسي الكاثوليكي التي بطشت بالعلماء (أمثال جاليليو جاليلي)، وهي التي استحثت العلماء (نتيجة لذلك وكردّة فعل) على رفض سلطة الكنيسة وجبروتها وتنحيتها عن السياسة والحياة وتحجيرها في النطاق الشخصي (أي إنه خطأ ولّد خطأ)، فقام العلماء بحبك نظريات علمية جدلية (ملفقة باطلة) من أجل التصدّي للنصرانية كدين، ومن ثم الترميز عبرها لكل دين (ظناً منهم خطأً أن الإسلام لا يختلف جوهراً عن نصرانيتهم المُحرّفة – ولا يعلمون أن الإسلام هو منهج حياة شامل، وهو دين الله الوحيد والصحيح غير المحرّف، والمحفوظ بحفظ الله).

ومن أعجب العجب أن دارونياً مثل ريشارد داوكن يصف "الانتقاء الطبيعي" بأنه الخالق المطلق لجميع مخلوقات هذا الكون (انظر كتاب داوكن: صانع الساعات الأعمى؛ ١٩٩٦). وبحسب آرائه، ففي الفصل الثاني صفحة ٢١ يقول: (إنّ "الانتقاء الطبيعي" هو "صانع ساعات أعمى"، وهو أعمى؛ لأنه لا يرى أمامه، ولا يخطط للعواقب، وبلا هدف

في الرؤية. ومع ذلك فإنّ النتائج الحياتية للانتقاء الطبيعي تغمرنا انطباع تخطيط ظاهريّ وكأنه صُنع ساعاتي ماهر، يؤثر فينا بتصميم وتخطيط زائف). ويتحدى داوكن هنا "تصميم الإله الذكي" ويستبدله بعنوان: "تصميم جيّد" (يغيّر كلمة ربّ God إلى كلمة جيد Good وهو تلاعب لفظي بإنجليزية الكلمتين). وبحسب آراء داوكن، فإنّ الطبيعة تفكر، وتنتقي، وتصمّم، وتخلق: وكلّها صفاتٌ لله (ولكن دون ذكر اسمه)؛ هذه الحسّاسية المُفرطة في عدم استعمال اسم الله والتعويض عنه باسم الطبيعة، لا يمكن تفسيرها إلا بمعاناة داوكن المريرة ورفضه ممارسات الكنيسة النصرانية عبر التاريخ.

في الواقع أن الدكتور ريشارد داوكن يفصح عن ذلك في كتابه "وهمُ الإله" (طبعة أنتام بريس، لندن، ٢٠٠٧، صفحة ٣٧) قائلاً:

(ولمُعظم أهدافي... إلاّ إذا صرّحتُ عكس ذلك، فإنّي سأضع النصرانية غالباً في ذاكرتي: فقط لأنها نسخة الدين التي صادفتني معرفتها جيداً).

والعكس صحيح، فإن النصارى والرومان الكاثوليك خصوصاً (من بين جميع الأديان) هم الذين استشعروا وطأة هذا الهجوم، كما ترى ذلك في كتاب "سكوت هاهن" و"بينجامين وايكر": "الإجابة عن الإلحاد الحديث – تفكيك دعوى داوكن ضدّ الإله" (طبعة إيماوس رود الناشر، أوهيو، الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠٠٨، صفحة ٨) وهما يقولان:

(ومن جانبه، فإنّ داوكن يُصرّح أن دعواه ضدّ الدين هي أساساً قضيةٌ ضدّ النصرانية، ونحن بدورنا سنفترض ذلك أيضاً).

أمّا الإسلام البعيد عن داوكن وغيره، فهو منهاج الوسطية بين إفراط الكنيسة وبين تفريط العلم الحديث؛ لأنه دين الله الصحيح والمحفوظ من التحريف بأمر الله. وإنّ العالم الإسلامي هو الذي احتضن العلماء بأطيافهم العديدة والمختلفة؛ بل كان كثير من علماء اللغة العربية والفقه والقضاء الإسلامي أنفسهم أطباء ومعماريين وعلماء اجتماع وحيوان ونبات (أمثال: ابن رشد الأندلسي الفقيه القاضي الطبيب؛ وابن خلدون الفقيه المؤرخ وعالم الاجتماع؛ والجاحظ عالم اللغة والحيوان)، والجميع يبتدئون كتاباتهم العلمية باسم الله ثم بحمد الله والصلاة على النبيّ محمد رسول الله ﷺ، ومن ثم بالاستشهاد من القرآن والسنة النبوية لدعم مقولاتهم العلمية. ولم يعرف العالم الإسلامي أبداً قضية ازدواجية العلم والدين أو تناقض العلم والدين التي نشأت في الغرب أصلاً عقب محاكم التفتيش الكاثوليكية في قرون أوروبا المظلمة التي نوّرها وأزاح ظلمتها الإسلامُ: دينُ العلم والإيمان. ولم يتعارض الإسلام قط مع العلوم الطبيعية؛ بل كان القرآن ذاته دوماً سبباً للاستلهامات العلمية (وللمزيد راجع إعجاز القرآن في الفصل الثالث).

يضع الإسلام في ذلك خمس قواعد عريضة، يضعها بسلاسة اللغة العربية القرآنية الجميلة، وهي:

١. **كلكم لآدم وآدم من تراب (وحدة الجنس البشريّ بكلّ أعراقه: مونوجينية البشر المستقلة):**

يقف الإسلام سداً منيعاً في وجه أي تمييز لأعراق البشر، فالإنسان هو الإنسان أينما كان، والبشر كلّهم من خلق الله، خلقهم الله من أبوين اثنين ثم تكاثروا وصاروا شعوباً وقبائل متسجمين في بيئات مختلفة وبطرق معيشية متمايزة ولغات مختلفة، من أجل أن يتعارفوا من جديد، ولا يجب أن يتميز أحدهم عن الآخر إلا بفكره وخلقه وثقافته التي يستطيع هو التحكم بها بنفسه (أما لونه وشكله وطوله وهيئته فليس للإنسان أي تحكم فيها). قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣).

ومن حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، خطب في خُطبة الوداع [آخر خُطبة للنبي]، في أوسط أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**». رواه الإمام البيهقي (٢٨٩/٤)، ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وقال الألباني صحيح لغيره.

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: «**الناس بنو آدم، وآدم من تراب**». رواه أبو داود والترمذي وحسّنه البيهقي

وفي صلاة المسلمين تطبيقٌ عملي يومي لوقوف الناس سواسية أمام الله لا فرق بين أسود وأبيض، ولا بين عربي وأعجمي؛ وفي فريضة الحج تطبيقٌ عالمي فريد للمساواة بين أعراق الجنس البشري الواحد في رحلتهم العظيمة إلى بيت الله حيث يجتمع ملايين الحجّاج لأداء فريضة الحج في صعيد واحد وبلباس أبيض واحد. إنّ الغربيين الذين أسلموا وشهدوا فريضة الحجّ (مثل الزعيم الأسود: مالكوم إكس) رجعوا إلى بلادهم مشدوهين بما رأوه من مساواة مطلقة بين أعراق بني آدم، ثم صاروا دعاة متحمسين لدين الإسلام؛ لأنه الوحيد بين جميع الأديان والفلسفات والحضارات الذي أقام هذه المساواة الإنسانية بين بني البشر في عالم الواقع، وللمرة الأولى في تاريخ الإنسانية.

٢. **تقويض أساسات التمييز العرقي:**

قوّض الإسلامُ كلَّ أساسات وأسباب التمايز العرقي، بناءً على لون الإنسان وعلى شكله ومظهره ومزاجه فالحياة ألوان، بل إنّ التنوع والأنواع هي توابل الحياة كما يقال:

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**». رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ويرتبط هذا الحديث بتقرير الله تعالى عن دور الماء في الحياة، ثم عن العلاقة بين ألوان جبال الأرض مع ألوان البشر والثمار والحشرات والحيوانات، ولهذا يشير الله، وفي هذا الموضع بالذات، إلى أنّ العلماء الحقيقيين هم أخشى عباد الله له، فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

ويشير الإسلام إلى أن الإنسان بجميع أعراقه وألوانه هو جنسٌ بشريٌ واحد من ذريةٍ واحدة: ذريّة آدم وحواء، ويُكرر الله تسميتهم بـ «بني آدم» (تدليلاً على وحدة الجنس البشري المنحدر من آدم)، ويشهدهم جميعاً على ربوبيته لهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَرِكم [وأموالكم]، ولكن ينظر إلى قلوبكم [وأعمالكم]**». رواه مسلم، رقم ٢٥٦٤.

ويستشنع الإسلام مسألة التكبر على أفراد الأعراق الأخرى من بني آدم؛ فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْر**» قال رجل: إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً. قال: «**إنّ الله جميل يحبّ الجمال، الكِبْرُ بطرُ الحقّ وغمط الناس**». رواه مسلم، رقم ٩١.

٣. تكريم بني آدم: أي كل الجنس البشري بمختلف أعراقه:

قال الله تعالى في تكريم الجنس البشري بكل أطيافه وأعراقه وألوانه وهيئاته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن هنا كان من بين صحابة النبي محمد ﷺ أبو بكر الأبيض، وبلال الحبشي الأسود، الذي كان عبداً فصار سيّداً في الإسلام (وهو مؤذن الرسول الخاص)، وصهيب الرومي الأحمر من سادات المهاجرين، وسلمان الفارسي الأسمر. (للتوسع: انظر الفصل الثالث).

بل إنّ احترام الإسلام لإنسانية الإنسان أياً كان، بغض النظر عن فكره وثقافته ومعتقده، تؤسس لتسامح ديني فريد في التاريخ كله: فقد جاء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قام لجنازة يوماً، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي. قال: «**أليست نفساً؟!**» متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز ١٣١٢، ومسلم في الجنائز ٩٦١.

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسّسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخواناً**» رواه مسلم رقم ٢٥٦٣.

عن الأعمش بهذا الإسناد: «**لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً**». رواه مسلم، رقم ٢٥٦٣.

ومنع الإسلامُ أتباعه (من أمّة الإسلام وهم من أعراق وألوان شتى)، من السخرية من أي قوم بينهم: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

٤. حقائق الخلق والتطوّر في الإسلام:

ومن المؤسف حقاً أن رجال الدين الغربيين (أمثال: روبرت مالثوس، وفريدريك هيجل، وصمويل مورتون، ولويس أكاسيز) كانوا هم الذين نظروا نظرياتهم التي ألهموا بها "شارلس داروِن" و"إرنست هيجل"، ومهدت لوضع نظرياتهم في "التطور" التي بنى عليها مُنظرو العنصرية العلمية (أمثال هربرت سبنسر، وفرانسيس جالتون، وماديسون جرانت، وأدولف هتلر) ومن بعدهم منظرو المادية الديالكتيكية (الجدلية) لـ كارل ماركس وستالين وماوتسي تونغ الذين جعلوا "الدين أفيون الشعوب" وأنكروا وجود الله، ونشروا الإلحاد. على هذه الأساسات النظرية جاءت النازية وجاءت الشيوعية لتحوّل البشرية إلى حيوانات تجارب مخبرية، راح ضحيتها الملايين من البشر، وكلُّ ذلك كان بناءً على آراء بشرية ظنية وتوقعات غيبية مستقبلية.

يوثق هارون يحيى في كتابه "خداع التطوّر" (الناشر طه المحدودة. لندن، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠، الصفحة الأولى): إنّ كارل ماركس أوضح بجلاء أنّ نظرية داروِن مثّلت القاعدة الصلبة للمادية ومن ثم للشيوعية. ثم إنه أبدى انجذابه لـ داروِن كما يظهر ذلك من إهدائه كتابه "رأس المال" وهو أهم مؤلفاته. وكتب إهداءه على النسخة الألمانية لكتابه: «من مُعجبٍ مخلص لـ شارلس داروِن».

ثم قام الملحدون من أنصار التطور والمادية الجدلية **بخطف مصطلحات الخلق والخليقة، وتحوير مفهوم التطور (بتفريغه من مضمونه الصحيح)** ثم نسب كلّ شيء إليهم في أطروحاتهم النظرية الظنية التي حوّلوها إلى علم كاذب كانت له أخطرُ النتائج على البشرية.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ويقرر الله أن العلم الحقيقي، وعلم (تنظير) المستقبل الغيبي خاصة، لله وحده: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

ويعيب الله على هؤلاء الملاحدة أن علمهم ليس إلا ظناً وعلماً كاذباً: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٦].

إن الإسلام هو دين الله الخالد، والقرآن هو كلام الله، لذا فهو قطعيّ العلم والدلالة؛ وفيه راحة وطمأنينة للنفس، ووسطية في التنظير، وقبل هذا وذاك هو الحق الوحيد المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه "بلا تحريف". إنّ إيحاء النظرية لا يكمن في تطور الأحياء فحسب، بل في تطور المعاني الأخرى: كالتطور التاريخي لهيجل، والتطور الاجتماعي لسبنسر والتطور العرقي لهتلر وغيره، وتطور السكان فيما يخص المال لـ مالثوس وماركس حتى صار التطور شعاراً أكاديمياً شهيراً: "الحقيقة هي التغيير"، فليس هناك شيء ثابت، لا عقائد ثابتة، ولا قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة، لأن كل شيء يتطور: فالذي كان فضيلة في الأمس، يكون رذيلة اليوم، والعكس صحيح، وما كان حقاً في الأمس، يكون باطلا اليوم، والعكس صحيح، وهذا ما يرفضه الإسلام، فعقائد الإسلام وأصول القيم والأخلاق ثابتة، إنما هي الفرعيات والجزئيات التي تتغير، كاللباس والعمارة والتقنيات. ووحدانية الله هي أصل الأصول الثابتة في الإسلام.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والقرآن كلام الله الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

الحث على التأمل في الخلق:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا أمر لنا للنظر في الآثار الدالة على بدايات الخلق وفي الأرض وفي تكوين النفس البشرية، و ن ليس هناك في الإسلام (أو في القرآن الكريم) أي مانع يمنعنا من البحث والتأمل في الخلق. لذا فهنا حث على دراسة الكون والفلك، وعلى دراسة المتحجرات مع دراسة الأرض وطبقاتها، إضافة إلى دراسات الطبّ البشري.

ولكننا لم نشهد بدايات الخلق هذه، فهي غيب فيما يتعلق بنا، ولا نعرف كيف تم خلق الكون؟

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وإنما نعرفه من القرآن الكريم: كلام الخالق الذي شهده: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦].

خلق الكون وتطوّره:

يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [السجدة: ٤]. ولكن ستة أيام ليست هي هذه الأيام ذات الـ ٢٤ ساعة؟ لا: لأن أيامنا هذه حسب الدورة الشمسية. ففي بداية الخلق، لم تكن هناك شمس، ولا قمر؛ لأنها خلقت من بعد ذلك. إنما اليوم هنا يعني: المدة التي يحدث فيها شيء معين، مثل أيام العرب في الجاهلية: يوم ذي قار، ويوم البسوس. ويوم البسوس يعني حرب استمرت أربعين سنة سمّاها العرب يوماً، فالأيام الستة التي خلقت فيها الدنيا، ليست أياماً من أيامنا هذه. ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]. ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة: ٥]. فهي إذن أطوار وعصور قد تصل إلى ملايين السنين، والله أعلم.

ويقرر الله تعالى بداية خلق الكون من كتلة واحدة متماسكة (رتقاء لا خرْق فيها)، ثم تطوّرَ الكونُ بفصل مكوناته الملتصقة عن بعضها بعضاً بالفتق (أي بالشقّ والفلق) بما يشبه الانفجار الكبير، وذلك في زمن معين في الماضي السحيق؛ ومن ثم يقرر الله تعالى توسّع وتمدّد هذا الكون. ويقرر الله أيضاً أن أصل الأحياء كلها من الماء (انظر تحت).

في علم الكون والأفلاك (الكوزمولوجي)، صارت نظرية ليمايتر المسمّاة "بغ بانغ" big bang في نشأة الكون هي المقبولة والمعوّل عليها. فقد نشر جورج ليمايتر، البلجيكي الأصل، نظريته في مجلة الطبيعة Nature العلمية عام ١٩٣١:

(Lemaître: The Beginning of the World from the Point of View of Quantum Theory, Nature» 127 (1931), n. 3210, pp. 706).

كما وصف ليمايتر نظريته أيضاً مثل «بيضة كونيّة انفجرت في لحظة الخلق»: واعتقد أن الكون قد توسّع من نقطة ابتدائية، أي تمدد من أصل كتلة حارّة في وقت محدد في الماضي (أفضل القياسات المتوافرة لدينا عام ٢٠٠٩ تعتقد أنها قد حصلت قبل نحو ١٣.٣–١٣.٩ مليار سنة)، ولا زال الكون مستمراً في التوسّع ليومنا هذا. والحقيقة، أنّ المسافة ما بين منظومة مجرّة وأخرى في ازدياد اليوم (وكل الأشياء كانت أكثر تقارباً من بعضها في الماضي). وفي هذا دليل على عدم أزلية الكون وعدم سرمديته.

والقرآن له قصبُ السبق بـ ١٤ قرناً حول حقيقة خلق الكون، وتطوّره بمعنى: فتقه وتوسيعه. يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]. ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فنحو ٧٣٪ من سطح الأرض مغمور بالماء، ثم إن ٨٠–٨٥٪ من تركيب بروتوبلازم الخلايا من الماء. إن أساس المادة الحية هو سائل أو شبه سائل في حالة مستمرة من الجريان وعدم الاستقرار، والحقيقة أن الحيوانات البرية والفقريات ومنها الإنسان في مراحلهم الجنينية تعوم كالسمكة في السائل المائي في قرار الرحم.

خلق الإنسان:

ومن ثم يقرر الله سبحانه "خلق الإنسان ابتداءً" بقوله

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣٠، ٣١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

ولذلك الأول من طين أو من تراب أو من صلصال يعني العنصر المادي، وفي عنصر آخر هو هذا الذي قال الله عنه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]. أي العنصر الروحي.

ثم يقرر الله تعالى حقيقة الزوجية في الخلق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ظاهر آيات القرآن الكريم يفيد أن الله تعالى خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق من ضلعه حواء، أو من جنسه على اختلاف بين المفسرين. هناك كثير من المفسرين يقولون: خلقت حواء من ضلع آدم وهذا موجود أيضاً في التوراة، في سفر التكوين أن حواء خلقت من ضلع آدم، ولكن بعضهم يستدل على أنّ كلمة منـ ليست من الجزئية، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، خلق منها، أي من جنسها ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، فمنها: أي من جنسها، لتألفه ويألفها لتأنس إليه ويأنس إليها، ليسكن إليها.

ويؤكد الله عز وجل أيضاً خلق كلّ شيء ابتداءً من زوجين: ذكر وأنثى، سواء كانوا حيوانات أو نباتات. وهذه لفتة قرآنية علمية فريدة في ازدواجية النبات مثل الحيوان. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

بل إن قاعدة الزوجية هذه تمتد إلى ما وراء الإنسان والحيوان والنبات، فتشمل جميع المخلوقات على الإطلاق: من الليل والنهار، والشمس والقمر، وقوى الجاذبية والطرد، والذرة تمتاز بقطبيها الموجب والسالب. وفي عالم الروح والمشاعر نرى الزوجية في الخير والشر، والحبّ والبغض، والراحة والعمل، والعدل والرحمة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ويقرر الله أنه هو الخالق المطلق لكل شيء في الكون، وأنه الواحد المطلق الذي يخالف جميع خلقه بصفاته، وباستثنائه من قاعدة الزوجية والإنجاب والولد، فلا يشبهه أحد ولا يشبه أحداً من خلقه، وهو الوحيد الذي يستحق العبادة، فقال عزّ وجل: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام ١٠١-١٠٢].

خلق الإنسان الفريد:

إنّ خلق الإنسان فريد في نوعه بين عالم الحيوان، لا يشاركه فيه أحد:

١. سلسلة الجينوم البشري تختلف عن سلسلة جينوم الحيوان، ولا تدعم نظرية دارون في أصل الكائنات الواحد؛ بل إن الجينات حافظات لنوع الإنسان منذ خلقه، مع استحالة تطور الإنسان بالطفرات من نوع

آخر. ففي بحث علمي: إعادة نظر لعام ٢٠٠٩ عنوانها «التطور الداروني في ضوء علم الجينوم» نشرت في بحث الحامض النووي، يستنتج يوجين ف. كونن قائلاً: (لا توجد نزعة ثابتة للتطور عند زيادة تعقيد الجينوم (كالإنسان) عبر الطفرة، عكس ما كان متوقعاً من نظريات التطور الشائعة). وتبقى آلية لتطور خارج نطاق أي قانون طبيعيٍّ معروف. وما يُقال عن مشابهة جينوم الإنسان للقرد، فهو تدليس ودسّ السمّ في العسل، لأنه شَبهٌ سطحيٌّ غير جوهريّ، ولا يختلف كثيراً عن مشابهته باقي الحيوان الأخرى.

٢. انتصاب القامة وانعدام الذنب وتحرر الطرفين العلويين في الإنسان (لضرورة الحركة).

٣. تقابل إبهام اليد مع الأصابع الأخرى، الأمر الذي مكن الإنسان من القيام بحركات دقيقة جداً كالكتابة، وفن الخطّ، والطباعة بلوحة مفاتيح الآلة الكاتبة أو الحاسوب، والرسم، والعزف الموسيقي، وتزرير القميص، وهلم جراً. لذا فإنّ فقدان الإبهام في حوادث المصانع يعادل فقدان ٥٠-٦٠٪ من وظيفة اليد الفسلجية الكلية (لأجل التعويض الطبي العدلي)، في حين أن فقدان كل إصبع من الأصابع الأربعة الأخرى يُمثل فقدان ١٠٪ من وظيفة اليد الفسلجية الكلية فقط.

٤. الشكل الهندسي الفراغي للحنجرة ولحبالها الصوتية مما يجعل الإنسان ينطق بالأحرف والكلمات ليكوّن ويستنبط اللغة التي تشكل أساس تطوره الاجتماعي، مع قابليته للقراءة.

٥. حجم الدماغ والنمو غير العادي للقشرة الدماغية تمكن الإنسان من التحكم وكبح السلوك البشري بحسب القيم والأخلاق التي يؤمن بها ذلك الإنسان. إنّ القشرة الدماغية البشرية أكثر تعقيداً من أي حيوان؛ فهي تؤدي وظائف متعددة، مثل القراءة، والتأمل، والتخيّل، والتفكير، والاعتقاد. وهذه الوظائف توصف بمجملها العقل البشري.

٦. روحانية الإنسان (الضمير، والتقوى، والتعبّد) ومشاعره (الإنسان يبكي ويضحك). لقد كانت الروحانية هي العامل الفاصل بين "والاص" وبين "داروين". فبالرغم من أنّ والاص كان يؤمن بالانتقاء الطبيعي، إلا أنه كان روحانياً. وأصرّ على أنّ الانتقاء الطبيعي لا يستطيع أن يفسر نبوغ الرياضيات، والفن، والموسيقى، إضافة إلى تأملات الغيبيات لما وراء الطبيعة، والموهبة، والفكاهة. ثم إنّ والاص آمن أن الانتقاء الطبيعي غير كافٍ لتفسير تطور الضمير. وأخيراً، قال: إن هناك شيئاً في «عالم الروح غير المرئي» قد تداخل في التاريخ ٣ مرات على الأقل:

(١) لأول يكمن في خلق الحياة من المادة غير العضوية.

(٢) لثاني يكمن في إدخال الضمير في الحيوانات الراقية.

(٣) لثالث يكمن في توليد وتكوين الملكات العقلية في الجنس البشري.

ثم إنه اعتقد أن السبب الأساسي في هذا الكون يكمن في تطوير الروح الإنسانية. وأقلقت هذه الأفكار داروين كثيراً، وجادل مدعياً أن المناشدات الروحية غير ضرورية، وأنّ "الانتقاء الجنسي" يستطيع بسهولة شرح الظواهر العقلية غير المتكيّفة. كان انتصار والاص العلني للروحانية هو الذي أزّم العلاقة بينه وبين علماء آخرين كانوا أصدقاءه في الماضي، لأنهم أسسوا أيديولوجياتهم على أساس ماديّ محض، مثل هنري بيتس، وتوماس هكسلي، وداروين، الذين شعروا أن والاص قد صار ساذجاً بإفراط!!! لاحظ المؤامرة المبيتة لإقصاء والاص بالرغم من أنه على حق، وبرغم أنه أصلاً هو صاحب نظرية الانتقاء الطبيعي!

رزق الإنسان وتسخير السماوات والأرض للإنسان:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] فخلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض وخلق في الأرض ما يحتاج إليه هذا الإنسان.

فيكون هذا مخلوقاً خليفةً قصداً، ويكون هذا مخلوق لخدمة الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ [الجاثية: ١٣] فالمسخّر والمسخَر له كلاهما من خلق الله.

ثم ضمن الله رزق جميع المخلوقات وفيهم مجموع البشر بشتى أعراق بني آدم: قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. وفي هذا تقويض كامل لنظرية مالتوس في قلة موارد الغذاء بالنسبة إلى ازدياد السكان.

حقائق التطوّر الصحيحة:

لكن الله أيضاً يقرر حقيقة التطور الصحيح بمعنى «التطوّر الجنيني» في عرضه القرآني البديع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وليس التشابه في بعض الأطوار الجنينية للحيوانات دليلاً (كما قال هيجل، الذي زوّر رسومها) على تطور البالغين من هذه الحيوانات من بعضها بعضاً.

ويقرر الإسلام أيضاً حقيقة «تطوّر أعمار الإنسان» من المولد إلى اللحد، مروراً بتطور مراحله من الطفولة إلى البلوغ (وشدة البلوغ) إلى الشيخوخة (أو الكهولة) حتى الوفاة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ﴾ [الحج: ٥]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

ثم إنّ الإسلام يقرر «أطوار حياة الإنسان بين الدور الأربعة»: من طور الجنين المخلوق في رحم أمه، إلى دار الحياة الدنيا مع رزقه، إلى دار البرزخ وحياة القبر (من تاريخ موته حتى يوم القيامة)، وأخيراً إلى دار الخلود في الحياة الآخرة (إمّا في الجنة أو في النار). وفي هذا دليل على عدم فناء الروح (بعد خلق الإنسان ونفخ الروح فيه). فيقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

بل إن الإسلام يشير إلى «التطوّر المعكوس» بما يُناقض نظرية التطور الداروني، فينصّ على طول قامة آدم عند خلقه، ومن ثم تناقص أطوال بني آدم إلى ما نحن عليه اليوم من الطول (دون تغيير في الخلقة والشكل): فعن أبيّ بن كعب، قال: (إنّ الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوقٌ. فلما ذاق الشجرة سقط عنه

لباسه، فأوّلُ ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعرهُ شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مِني تفرّ، فلما سمع كلام الرحمن، قال: يا ربِّ لا، ولكن استحياءً). رواه ابن أبي حاتم ١٢٩/١، وابن كثير في تفسيره. والسحوق من النخل هي الطويلةُ، جمعها سُحُق.

وهذا يعني أنّ كل قرن لاحق كان طول أجساد بنيه أقصر من القرن الذي قبله حتى انتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقرّ الأمر على ذلك.

ولعل أطوال بني آدم العملاقة آنذاك لها حكمة: لكي تتناسب مع أطوال حيوانات الديناصورات في حينها (والمنقرضة اليوم كانقراض العمالقة من بني آدم). فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**خلق الله آدمَ وطوله ستون ذراعاً، ثم قال اذهب فسلمْ على أولئك الملائكة فاستمع ما يُحيّونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكلُّ من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلقُ ينقص حتى الآن**». رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء.

محاولات التوفيق بين الإسلام ونظرية التطوّر:

وأما ما فسر به قول الله تعالى على أنه تأييد لنظرية التطوّر الداروني: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فمعناه كما جاء في تفسير ابن كثير: (قيل: معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ويحيى بن رافع، والسدّي، وابن زيد).

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] فليس في هذه الآية دليل على أن الحيوانات قد خلقت جميعها متطورة من مخلوق واحد، والأظهر أن أنواع الدوابّ خلقت مباشرةً وباستقلالية عن بعضها بعضاً. وفي تلك الآية الرائعة عرضٌ بديع مدهش لحقيقة أن الماء هو أصل للحياة، مع تصنيف مُبسط جميل للحيوانات. إنّ آيات كهذه كانت دوماً مصدر إلهام لعماء الحيوان في الإسلام (انظر تحت).

أما الآية التي تطرقت إلى المسخ الذي جرى لبعض من بني إسرائيل بشهادة شهود من بني إسرائيل فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

فإنها لا تفيد أنصار التطوّر لأن الإنسان كان موجوداً أصلاً قبل المسخ وبعده، إضافة إلى انعدام نسل الممسوخ: فقد أُخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مُسخ؟ فقال: (إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك). وهذا نصٌ صريح صحيح، رواه عبد الله بن مسعود، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر.

علماء الإسلام هم الروّاد الأوائل في كشف حقائق التطوّر الصحيحة:

وضع الإسلام حقائق الخلق والتطور، ومن ثم أطلق العنان لحرية التفكير البشري ولتجاربه واكتشافاته بحسب هذه الحقائق كيلا يشتطّ الإنسان في رؤاه وفي نظرياته. وكان للغة العربية المباركة باعٌ طويل في تعبير عبقرة الإسلام عن اكتشافاتهم الجديدة.

لقد كان علماءُ الإسلام بحقٍ من أوائل من اهتم بعلوم الحيوان والنبات، بل إنّ علماء الإسلام كان لهم قصبُ السبق في مفاهيم «التطوّر» الصحيحة، قبل لامارك وداروين وهيجل بقرابة ١٢–١٣ قرناً، عن طريق تجاربهم العملية

ومشاهداتهم الخاصة، مُسترشدين باستنباطاتهم الإسلامية باستقراء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، ثم الاستعانة بآراء ذوي الشأن والاختصاص والاستشهاد بالأمثال العربية، ولم يؤدي ذلك قطّ إلى إلحاد بالدين، ولا إلى جحود وجود الخالق.

١. فمفهوم «الصراع من أجل البقاء» (قبل مصطلح دارون: البقاء للأصلح) ذكره **الجاحظ** في كتابه **«الحيوان»**.

٢. وللجاحظ نظرته في التطور بمعنى تكوين أنواع جديدة بألوان وجلود جديدة تحت تأثير التكيّف مع المناخ والانسجام مع البيئة المحيطة.

٣. ثم إنّ «استحداث أنواع جديدة» بسبب التهجين المستمر قد ذكره الجاحظ كما ذكره **ابن قتيبة الدينوري** بتوسع.

٤. و**ابن باجه** يعدّ الإنسان الحيوان الناطق والأفضل.

٥. كذلك فإنّ مفهوم «تدرّج تكوين الكائنات» ذكره **ابن خلدون** أيضاً في مقدمته (قبل مصطلح دارون: التطور بالانتقاء الطبيعي).

٦. وتكلم **جلال الدين الرومي** عن التطور الروحاني.

٧. وتكلم **ابن طفيل** عن تطور المعرفة البشرية.

أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بـ **الجاحظ** (لجحوظ عينيه) المولود بالبصرة عام ١٦٠هـ/٧٧٥م والمتوفى ببغداد عام ٢٥٥هـ/٨٦٠م ألف موسوعة كتاب **«الحيوان»** الرائعة في ٧ أجزاء كبيرة، بلغة عربية فصيحة جميلة ومفردات هائلة، تحوي الكثير من النوادر، والأوصاف الشعرية، والأمثال العربية، وصف الجاحظ فيها أكثر من ٣٥٠ مجموعة من مجموعات الحيوانات المختلفة، وهي شهادة على حجم المفردات العربية الهائلة، ويُعدّ الجاحظ بحقّ أول عالم حيوانٍ عربيّ مسلم. عاد الجاحظ إلى البصرة بعد أن قضى ٥٠ عاماً من حياته في بغداد، وتُوفي في البصرة عام ٨٦٨ نتيجة سقوط أكداسٍ من الكتب على رأسه في مكتبته الخاصة. ولعلها موتة تليق بكاتب.

ألف العلامة **عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ولد ٢١٣هـ وتُوفي ٢٧٦هـ) كتاب **«عيون الأخبار»** يتحدث في جزء كبير منه عن الحيوان بمشاهدات وآراء أصيلة.

ثم جاء **أبو بكر بن باجه الأندلسي** (ولد في سراقوزة في إسبانية –وتُوفي ٥٢٩هـ/١١٣٨م في فاس في المغرب) بمؤلفه: **«كتاب الحيوان»**. عمل ابن باجه وزيراً قرابة ٢٠ عاماً عند يحيى بن يوسف بن تاشفين (الأخ الثاني لسلطان المرابطين يوسف بن تاشفين) المتوفى عام ١١٤٢م في المغرب.

وجاء بعده: **أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني**، المولد في قزوين والعربي الأصل (٦٠٠هـ–٦٨٢هـ) وكان مختصاً بالأدب ثم قام بتأليف «كتاب **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**» عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م: بالرغم من النكبة الكبرى بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد هولاكو (أهلكه الله)، ثم قام بإهداء كتابه هذا إلى عطا الله ملك الجويني وزير هولاكو الذي كان يلطف به، ومن ثم تُوفي كلاهما عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.

وعلى خطا الجاحظ، جاء العالم **كمال الدين الدميري** (٧٤٢هـ–٨٠٨هـ/١٣٤١م–١٤٠٥م) مؤلف كتاب «حياة الحيوان الكبرى».

أمّا **ابن خلدون** (٧٣٢–٨٠٨هـ/١٣٣٢–١٤٠٨م)، فهو أول من أشار في "مقدمته" إلى ظاهرة **«تدرّج التكوين»** في المخلوقات، ويربطها بتصميم الخالق المصوّر المبدع.



طابع بريدي يحمل صورة الجاحظ

لعل الجاحظ هو أول من أشار إلى مفهوم "سمبيوسيس" أي التعايش والتكافل في عالم الحيوان، مستقرئاً ذلك من القرآن الكريم (أي تسخير الله الطبيعة لخدمة الإنسان، واتخاذ الخلق بعضهم بعضاً سخرياً)، فقال الجاحظ في الجزء الأول من كتاب الحيوان ص ٣٦:

"ثم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سُخر له. فأدناهم مُسخرٌ لأقصاهم، وأجلهم مُيسرٌ لأدقهم".

ونرى التطبيق المعاصر لقاعدة التكافل عند الإنسان في مصطلحات: "الاعتماد المتبادل بين الناس"، و"عمل الفريق"، و"العمل الشبكي"، وأنّ "المرء ليس جزيرة نائية".

والجاحظ قرر أفضلية الإنسان (الحيوان المفكر الناطق) على جميع الحيوان. ولعل الجاحظ هو أول من نظر لتأثير البيئة في الحيوانات، وكشف عن نظرية مبكرة للتطور عن طريق التكيّف للبيئة. وكان الجاحظ أيضاً نصيراً لـ "حتمية تأثير البيئة" وفسر كيف أن البيئة هي التي تحتم الصفات الفيزياتية (الطبيعية) للساكنين من أفراد مجموعة معينة. واستخدم نظرياته حول الصراع للبقاء، وحتمية البيئة لتعليل نشأة ألوان الجلد البشري المختلفة، والجلد الأسود خصوصاً، الذي اعتقد أنه نتيجة تأثير البيئة. درس الجاحظ تأثيرات البيئة في فرص الحيوان للبقاء، وهو أول من وصف "الصراع من أجل البقاء"، (السالف للانتقاء الطبيعي) من أجل الحصول على مصادر الغذاء، ومن أجل تفادي أن يؤكل من قبل الآخرين، ومن أجل التوالد. وناقش تأثير العوامل البيئية في الكائنات واضعاً نظرية "التطور بالتكيّف" لتطوير صفات جديدة لتضمن لها البقاء حيّةً، متحولة بذلك إلى أنواع جديدة. والحيوانات التي تبقى وتتوالد هي التي تتمكن من نقل صفاتها الناجحة بالتوريث إلى ذريتها. وأسهب الجاحظ بتعليقاته النفيسة حول تهجين الحيوانات لتوليد أنواع جديدة، ومن ثم صرح أن بعض هذه الحيوانات المهجنة يستطيع التوالد. وتكلم الجاحظ في تدجين الحيوانات الوحشية كالذئب الذي يغلب أحياناً طبعُه الوحشي تطبيعه بعد التدجين.

بل إنّ الجاحظ هو أول من ناقش مفهوم "سلسلة الغذاء" رابطاً إياها بـ "الصراع من أجل البقاء"، ففي فقرة بديعة (في الجزء السابع ص ٤٩٥-٤٩٦) قال:

"وتخرج البعوضة لطلب الطعم. والبعوضة تعرفُ بطبعها أنّ الذي يُعيِّشها الدمُ. ومتى أبصرت الفيل والجاموس، وما دونهما، علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاءً، فتسقط عليهما، وتطعنُ بخرطومها، ثقةً منها بنفوذ سلاحها، وبهجومها على الدم. وتخرج الذبابة ولها ضروبٌ من المطعم، والبعوض من أكبر صيدها، وأحبّ غذائها إليها... وليس لجميعها بدٌ من الطعم، ولا بد للصائد أن يُصطاد. وكلٌ ضعيف فهو يأكل أضعف منه، وكلّ قويّ فلا بدّ أن يأكله من هو أقوى منه. والناس بعضهم على بعضٍ شبيهٌ بذلك، وإن قصروا عن درك المقدار. فجعل الله عزّ وجل بعضها حياةً لبعضٍ، وبعضها موتاً لبعض".

وهكذا يرسم الجاحظ صوراً متوازنة في الطبيعة بين ظاهرة التعايش (الإيجابي)، وبين الصراع من أجل البقاء (السلبي). وفي كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري يتوسع المؤلف في نظرته عن تكوين أنواع جديدة من الحيوان عن طريق التهجين المستمر فيقول:

"إن الضبعان ببلاد الحبشة يسفد الناقة فتجيء بولد خلقه بين الناقة والضبع، فإن كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها زرافة. وسميت زرافة لأنها جماعة وهي واحدة كأنهم جمل وبقرة وضبع؛ والزرافة في كلام العرب الجماعة".

ولابن قتيبة مشاهدات دقيقة في الحيوان فيقول مثلاً: (الحيوانات التي تضيء عيونهم في الليل (قالوا: العيون التي تضيء بالليل عيون الأسد والنمور والسنانير والأفاعي).

وفي صفات القائد (العسكري) يستشهد ابن قتيبة بمقولة عظماء الترك:

"القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنّن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب".



العالم الفيلسوف ابن باجه

أمّا «كتاب الحيوان» لابن باجه فهو مستخلصٌ ومطبوع على ضوء مخطوطي أكسفورد وبرلين، تقديم وتعليق: جواد العمارتي، طبع المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م، حيث يقول ابن باجه في ص ١٤٨:

"ومن الحيوان ما لا ذكر فيه ولا أنثى، ومنه ما فيه ذكر فيه ولا أنثى... والحيوان الذي لا ذكر فيه ولا أنثى، فليس نسميه حيواناً كاملاً، بل شبيهاً بالنبات... وأما الحيوان الكامل فكله فيه ذكر وأنثى".

ويقول ابن باجه أيضاً في ص١٨٦: "وبعض هذه الأجزاء الزائدة لا يكون بها تركيب الجسم، بل تكون من خارج تكون كلها من جنس الآلة، كالقرون والريش والأذناب والأنياب. فبعض هذه للوقاية فقط وبعضها للتعيّش كالأنياب. وأعضاء بعض السمك وهي تسمى النواصي (النواشر) والمخالب، وبعضها للجمال كأذناب الطواويس والفراريج والعرف والذنب، وبعضها للحالين كالحواجب فإنها للوقاية وللجمال".

ويقول ابن باجه في ص١٨٩: "والأكمل هو الذي يوجد له جميع الأعضاء الأفضل. فإنّ العظام فيما أعدت له أفضل من الشولد وكذلك جميع القوى، والإنسان أفضل الحيوان".

وأمّا ابن خلدون فهو أول من استخدم مصطلح «تدرج التكوين» قبل مصطلح "التطور" لداروين بنحو ٥ قرون. و«تدرّج التكوين» لابن خلدون، هو تصنيف لسُلم تكوين المخلوقات بحسب ترتيب وإحكام التعقيد، دون الدخول في فلسفة جدلية حول التطور، لأن مجرد التشابه بين المخلوقات، لا يعني تطوّرها تكوينياً من ذلك البسيط لهذا المعقد. يقول ابن خلدون في مقدمته (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت) ص٩٥:



صورة ابن خلدون على طابع بريدي

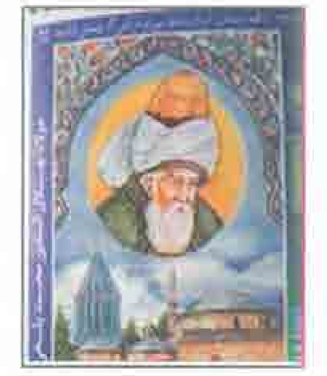
"ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرّافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول:

اعلمْ-أرشدنا الله وإيّاك-أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأوّلاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء

ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعدٌ إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتّصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط؛ وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها.

ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش، وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللّمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الرؤية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أُفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا).

مولانا الصوفي **جلال الدين الرومي** (١٢٠٧–١٢٧٣م)، هو الشاعر والقانوني التركي الفارسي الأصل الذي عاش في القرن الثالث عشر، والمنشئ لطريقة "الدراويش الدوّارين"؛ ويعرف بالرومي لأنه عاش معظم حياته فيما كان يُحكم سابقاً بامبراطورية الروم البيزنطيين.



صورة جلال الدين الرومي على طابع بريدي

كان الرومي مفكراً تطورياً بمعنى التطور الروحاني حيث اعتقد أن الروح تتحرك في دائرة، فبعد نزولها من الذات الإلهية، تخضع لعملية تطورية تطير فيها شوقاً إلى البارئ لتكون أقرب وأقرب من الذات الإلهية؛ بل إن كلَّ شيء في الكون يخضع لهذا القانون ولهذه الحركة بسبب حافز فطري تكويني (يسميه الرومي بالشوق أو الحبّ) لتتطور بصعودها باحثة عن التعشق مع الذات الإلهية مصدرها التي خرجت منه أصلاً. والتطور من الحيوان إلى الكائن الإنساني هو مرحلة واحدة في هذا التطور الإنساني (انظر تحت). ويؤمن الرومي أن هناك هدفاً محدداً لهذه العملية: الوصول إلى الله. فالله، عند الرومي، هو المصدر وهو الهدف لكلّ الوجود.

ولا ينبغي عدُّ الرومي أحد المؤمنين بالخلق والتطور البيولوجي. فالرومي عاش قبل ٦ قرون من دارون، وكان أقل اهتماماً بالنظريات العلمية. لذا يجب الاستنتاج أنه لا يتعامل مع التطور الداروني ألبتة. ولكنه كان مهتماً بالتطور الروحاني للكائن الإنساني: فالإنسان الذي لا يدرك الله ولا يعيش في كنفه هو أقرب للحيوان، فإدراك الله هو الذي يجعل الإنسان ربّانياً. وبعض الفلاسفة عدّ ذلك مبدأً أفلاطونياً جديداً؛ هو أنّ الروح عالمية تتحرك عبر عوالم الكائنات المختلفة، وهو مبدأ أدخله إلى الإسلام الفلاسفة المسلمون أمثال الفارابي وابن سينا أصحاب فكرة أنّ الحب أو الشوق هو قوة عاملة بتأثير مغناطيسيّ، تتحرك الحياة عبرها إلى فوق. يقول الرومي:

"إنني متّ كجماد وصرتُ نباتاً،

إنني متّ كنباتٍ، وارتفعت لأكون حيواناً،

إنني متّ كحيوانٍ وصرتُ إنساناً،

لماذا أخاف؟ وأنا أقلّ بالموت؟

مع أنني سأموت كإنسانٍ لكي أحلق في السماء،

مع الملائكة المبروكين: لكنّ حتى من عالم الملائكة

يجب عليّ الرحيل قدُماً: كلُّ شيء هالك إلا وجهه.

وعندما أُضحّي بروحي الملائكية،

فسأصيرُ إلى ما لا يخطر إليه عقلٌ أبداً.

آه، دع عني البقاء! لأن عدم البقاء

سيُعلن أنغام أرغون (آلة الموسيقى)،

أنّ كلنا إليه راجعون".

ويصرّ الرومي على أهمية المراقبة والطاعة للدين، لأنه أصل القرآن الأول، لاعتقاده هيمنة وعلوّ دين الإسلام:

"فرّ إلى قرآن الله، والجأ إليه

الكتاب الذي يأتيك بأحوال الأنبياء

كأسماك في البحر الصافي لذي الجلالة والإكرام".

فالجاحظ وابن خلدون ومولانا الرومي بالرغم من إشاراتهم إلى التغيير في الطبيعة، لكنهم آمنوا بثوابت معينة، كمفهوم الرب الخالق، الفاطر لهذا الكون، والمصوّر للعوالم المختلفة من النبات والحيوان والإنسان. والأهم من ذلك كله، أنّه لا يوجد مفهوم من مفاهيم الطبيعة التي وضعها الجاحظ أو ابن خلدون أدى إلى الإلحاد، أو إنكار وجود الله. على العكس من ذلك، فإنّ مفاهيمهم قد عززت ودعمت الإيمان بالله، الصانع والواجد للطبيعة.

وفي الواقع، صار عادةً لعلماء اللغة العرب المشهورين كالفيروزآبادي صحاب «البحر المحيط» أن يعرّفوا كلمة الطبيعة، بالخليقة. لذا فالطبيعة في فلسفة المسلمين العرب هي مرادف لخلق الله.

إنّ نظرية الجاحظ في التطور هي شيء جديد في تاريخ العلوم، ولم يكن لها سابقة تفكير. وبرغم كلام فلاسفة الإغريق مثل أمبدوكليس (في نشأة الكون) وأرسطو عن التغير في الطبيعة وفي النبات والحيوان، لكنهم لم يقوموا مطلقاً بخطٍ خطيّ في حقل التطور المستقبلي كما قام بها المسلمون. مفهومهم عن التغيير كان بسيطاً لا يتطرق تصريحاً أو تلميحاً إلى مفهوم التطور.

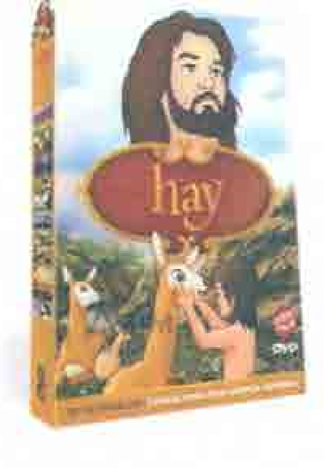
لذا، فنحو ١٠٠٠ سنة قبل أن يقوم عالم الطبيعة البريطاني (دارون) بنشر نظريته في التصور في الغرب النصراني (والكثير من مفاهيم نظريته خطأ)، كان هناك عالمٌ آخر (الجاحظ) يعمل ويفكر على نحوٍ مُتشابه في بغداد الإسلامية، وقد أصاب في نظريته.

ريادية أعمال الجاحظ (على دارون) وتوثيقها بالعديد من الدلائل:

- سبعة وثمانون (٨٧) ورقة مرقومة من كتاب **الحيوان** (تمثل قرابة عشر الكتاب الأصلي للجاحظ) محفوظة في مكتبة أمبروزيانا في ميلان، إيطالية. المجموعة هذه (وهي نسخة من الأصل) تعود للقرن الرابع عشر وتحمل اسم مالكها الأخير، "عبد الرحمن المغربي" سنة ١٦١٥. وتحوي هذه المرقومات من كتاب الحيوان أكثر من ٣٠ رسماً إيضاحياً مصغراً.

- ترجمَ كتاب الدميري (حياة الحيوان الكبرى) جزئياً باللاتينية عن طريق مترجم يهودي اسمه "أبراهام إيكلينسيس" (توفي ١٦٦٤) ونُشر في باريس عام ١٦١٧، وهذا الكتاب يحوي العديد من الفقرات المستخلصة من كتب الحيوان للجاحظ.

- قصة "حيّ بن يقظان" لابن طفيل العربي الأندلسي، تحوي فلسفة التطوّر الصحيح للمعرفة البشرية، وكان أول من ترجمها "أدوارد بيكوك" الأب (١٦٠٤-١٦٩٠) مع ترجمة لاتينية نشرها "أدوارد بيكوك" الابن (١٦٤٨-١٧٢٧) في أكسفورد، عام ١٦٧١ (الطبعة الثانية، أكسفورد كانت عام ١٧٠٠). تعدّ قصة "حيّ بن يقظان" لابن طفيل الأندلسي تحفة ورائعة أدبيّة عالميّة، ومنعطفاً كبيراً لأنها وفقت بين الدين والفلسفة، ومزجت بين الطبّ والمعرفة. ولهذه القصة العربية الإسلامية أصداء عالمية تجاوزت كلّ الحدود اللغوية والجغرافية لبلدان العالم، لذا فهي جديرة ببعض الإيضاح.



ابن طفيل أو **أبو بكر محمد بن طفيل الأندلسي** (١١٠٥-١١٨٥م) (باللاتيني اسمه: أبو باسر بن توفيل؛ بالإنجليزية: أبوبكر بن توفيل). وكان في الستينيات من عمره عندما التقى ابن رشد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م. ولد في وادي آش (كواديكس)، وهي قرية صغيرة شمال شرق غرناطة، وتوفي في المغرب عام ٥٨١هـ/١١٨٥م وهو يبلغ ٨٧ من عمره. ويعدّ ابن طفيل ثاني أعظم فيلسوف مسلم في الغرب، الأول هو ابن باجه (أفيمبيس كما يعرف في الغرب). كان ابن طفيل أمين سر حاكم غرناطة، ثم صار وزيراً وطبيباً عند أبي يعقوب يوسف، سلطان الموحدين لبلاد الأندلس، وقد قدّم ابن طفيل عام ١١٦٩م الفيلسوف بن رشد (أفيروس) وزكاه للخليفة ليكون خلفه في المستقبل (انظر تحت).

وكان ابن طفيل شاعراً عربياً مفوهاً ومن شعره "الأرجوزة في الأمراض وعلاجها" والقصيدة التي يحرض بها المسلمين على الجهاد في الحملة التي أعدها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين لنجدة المسلمين في الأندلس وفيها يقول:

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب	لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنا	ولا تكتب العليا بغير الكتائب

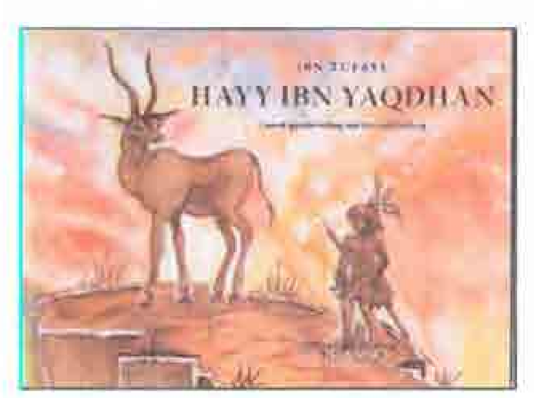
ومنها:

ألا فابعثوها همّة عربية	تحفّ بأطراف القنا والقواضب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم تبغي خلاص جميعكم	دعاءً بريئاً من جميع الشوائب
بكم نصر الإسلام بدءاً، فنصره	عليكم، وهذا عوده جدّ واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا إحياء تلك المواهب

ابن طفيل هو مؤلّف كتاب «حي بن يقظان»، ويُعرف أيضاً في الغرب بأنه "الفيلسوف الذي علّم نفسه" وهي رواية فلسفية إستعاريّة استلهمها من ابن سينا ومن الصوفية متجاوباً مع كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة". وتظهر

واحدة من اهتمامات الفلاسفة المسلمين الأساسية (ثم المفكرين النصارى المتأخرين) بالتوفيق بين الفلسفة والوحي الإلهي. ويتحدث ابن طفيل عن قصة الطفل الوحشي الذي علم نفسه، والذي ربّته غزال أمّ وعاش وحيداً في جزيرة غير مأهولة في المحيط الهندي. وبعد موت أمّه الغزال في أثناء حياته، قام بتشريح جسدها، وأجرى تشريح الجثة الميتة في محاولة لمعرفة ما حدث لها. واكتشافه أن موتها كان بسبب فقدان الحرارة المتأصلة منها (أي الروح) هو الذي استحثه "على طريق البحث العلمي"، واكتشاف الذات، ومن دون الاتصال مع أي كائن بشري آخر، ومن ثم اكتشف الحقيقة النهائية عبر عملية نظامية في تحقيق الأسباب. وأخيراً اتصل "حي" بالحضارة والدين عندما التقى بمنبوذ اسمه "آسال". ثم إنه قرر أنّ بعض زخارف الدين، مثل الصور (الأيقونات والأصنام) والتوكل على بضائع مادية قد تكون ضرورية لمجاميع الناس من أجل أن يحيوا حياة محترمة. لكن الصور والبضائع المادية تمثل تلهيةً عن الحقيقة ومن الواجب التخلي عنها من قبل الذين يدركون أنها تلهية. ابن طفيل رسم اسم القصة ومعظم شخوصها بناءً على عمل سابق لابن سينا. لكن كتاب ابن طفيل لم يكن تعليقاً على، ولا مجرد إعادة رواية ابن سينا؛ بل كان عملاً مبتكراً وجديداً قائماً بذاته.

إنّ هذه القصة الروائية سبقت كلاً من قصة "روبنسون كروزو" لـ دانيال دوفو، وكتاب "إيميل أو عن التعليم" لـ جاك روسو. إنها تخبر عن طفل ربته غزال ونما بمعزل كامل عن البشر. ففي ٧ مراحل من ٧ سنين لكل مرحلة تمكن "حي" عبر تمرين وتدريب ملكاته ووحده من أن يتدرّج في جميع مراحل المعرفة البشرية. إنّ قصة حي بن يقظان قد نسخت من قبل «إدجار رايس بوروز» في قصة طرزان: الطفل الذي ترك في جزيرة استوائية غير مأهولة حيث تبنته وربته أنثى الذئب ثم نما الطفل مع الحيوانات في الغابة وصار رجل القوة الكبيرة والحركة في الأدغال وعاش مع القرود (لاحظ أنّ اسم طرزان هو تحوير لاسم يقزان أو يقظان). ثم إنّ قصة حيّ بن يقظان قد حوّرت إلى قصة متأخرة وهي "كتاب الأدغال" وبطلها "موغلي" من تأليف روديارد كبلنك، والقصة تتحدث أيضاً عن طفل مهجور في جزيرة استوائية حيث ربته وأطعمته أمه الذئب.



وقد ترجَم **ميراندولا** (١٤٩٤) **وادوارد بوكوك الابن** (١٦٧١) الكتابَ باللاتينيّة تحت اسم «**الفيلسوف الذي علمَ نفسه**». ونشر جورج آشويل أول ترجمة إنجليزية عام ١٦٨٦ اعتماداً على نسخة بوكوك اللاتينية. أول ترجمة إنجليزية من الأصل العربي نشرت عام ١٧٠٨ من قبل سايمون أوكلي، تحت اسم: «**تطور التفسير البشري: معروضة في حياة حي بن يقظان**»، وتبعت هذه الطبعة ترجمتين إنجليزيتين أخريين. ومن ثم ظهر الكتاب في لغاتٍ عدّة. وألهم "الفيلسوف الذي علمَ نفسه" روبيرت بويل، أحد المعارف الشخصيين لـ بوكوك، ليكتب روايته الفلسفية عن بطل في جزيرة سماها: "**عالم الطبيعة الطموح**" وفي باريس. كتب وكيل بوكوك إليه قائلاً إنه: «**أودع نسخة إلى السوربون، وكانوا شاكرين جداً لاستلامها، ومسرورين جداً بها**». نشرت أول ترجمة فرنسية مضبوطة عام ١٩٠٠ من قبل البروفيسور ل. **جوتيير** في الجزائر.

كذلك فإنّ **باروخ سبانيوزا** قد قرأ الرواية وحثّ على ترجمتها بالهولندية، وبسرعة نشرت من قبل صديقه **جوهانس بوميستير** عام ١٦٧٢. ثم صدرت ترجمة هولندية أخرى نشرت من قبل **أدريان ريلاند** عام ١٧٠١. وكانت هناك ترجمتان ألمانيتان للرواية، الأولى كانت معتمدة على الترجمة اللاتينية والثانية معتمدة على الأصل العربي. وإحدى هاتين الترجمتين قد قرئت من قبل جوتفرايد ليبنز، الذي أطرى عليها كنموذج ممتاز للفلسفة العربية الكلاسيكية.

في عام ١٧٦١، طبعت قصة كروزو في لندن من قبل مجهول، تحت اسم: «**حياة ومغامرات دون أنتوني دي تريزانيو المدهشة**»، وأغلبها نقل وأعيدت صياغته من ترجمة أوكلي لقصة حي بن يقظان. وأعيد نشر ترجمة أوكلي لقصة حي بن يقظان عام ١٨٠٤، من قبل "بول بروني". وبالرغم من أنّ قصة حي بن يقظان قد كتبت أصلاً في إسبانية مسلمة، لكن أول ترجمة إسبانية للرواية لم تنشر حتى عام ١٩٠٠ من قبل **بونس بويجيس** في سراقوزة بإسبانيا.

ثم إن الرواية ألهمت ما يُعرف بمفهوم "تابيولا راسا" من اللاتينية وتعني: «**الصحيفة البيضاء أو السجل الأبيض**» المأخوذ أصلاً من الحديث النبوي: كل مولود يولد على الفطرة الذي طوّره جون لوك (وهو تلميذ بوكوك) في كتابه «**مقالة تخصّ الفهم البشري**» عام ١٦٩٠. الصحيفة البيضاء تشير إلى "نظرية المعرفة" أن الأفراد يولدون دون محتوى فكري تكويني، وبأنّ معرفتهم إنما تتأتى من التجارب والإدراك. عموماً فإنّ أنصار الصحيفة البيضاء يؤيدون جانب الطبع بالتربية في نقاش (الطبع أم التطبّع)، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بجوانب شخصية الفرد، والجوانب الاجتماعية، والسلوك العاطفي، والذكاء. ثم صارت "مقالته" هذه واحدة من أهم المصادر الأساسية للمذهب الاستقرائي للفلسفة الغربية الحديثة (القائلة إن المعرفة كلها مستمدة من التجارب)، وأثرت في الكثير من فلاسفة التنوير، أمثال دافيد هيوم، وجورج بيركلي. ثم إن **الصحيفة البيضاء قد برزت في التحليل النفسي لـ سيجمند فرويد**. فقد صوّر فرويد أنّ مواصفات الشخصية تتكون عبر ديناميكية التعامل والتفاعل الأُسريّ (مثل عقدة أوديب، ... الخ). وترى نظريات فرويد أنّ باستطاعة الفرد أن يقلل من التأثيرات الجينية والخلقية على الشخصية الإنسانية دون دفاعه عن حرية الإرادة. وفي التحليل النفسي، يُشخص الفرد على نحو كبير بالاعتماد على تربيته.

وأفكار «**حي**» حول الجوانب المادية في الرواية قد نسخت أيضاً وحوّرت من قبل كارل ماركس في المادية التاريخية. ثم إنّ رواية ابن طفيل قد أنذرت وتنبأت بـ "مشكلة موليتيكس" التي قدّمها وليم موليتيكس إلى جون لوك، حيث ضمّنها الأخير في الطبعة الثانية لكتابه: «**مقالة تخصّ الفهم البشري**».

وهذه المشكلة وصفها ابن طفيل وتكمن في الفرق بين إدراك رجل أعمى واعٍ لبيئته المحيطة بقلبه وأحاسيسه (عدا الألوان التي لا يعرفها إلا بالأسماء كما أخبره بها الناس)، وبين إدراك هذا الرجل نفسه عندما يفتح عينيه بصيراً فهو الآن يرى الأشياء كما تخيّلها ولكن بفرقين اثنين مهمين له، الأول نتيجة للثاني، وهما: الوضوح أي إنها أكثر سطوعاً، ثم الإحساس المرهف الكبير بها.

إنّ لقصة «**حيّ بن يقظان**» تأثيراً عظيماً في كلٍّ من الأدب العربي والأوروبي، بل صارت أكثر القصص المؤثرة مبيعاً في كلّ أنحاء أوروبا الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وكان لهذا العمل تأثيرٌ بالغُ الأثر في كلٍّ من الفلسفة الإسلامية الكلاسيكية والفلسفة الغربية الحديثة، وصار واحداً من أهم الكتب التي سبقت ومهدت للثورة العلمية وللتنوير الأوروبي. إنّ الأفكار المعبّر عنها في الرواية توجد بتحويرات مختلفة وبدرجات مختلفة في كتب توماس هوبس، جون لوك، إسحاق نيوتن، عمانويل كانت. وعدّ جورج سارتون الرواية «واحدةً من أكثر كتب القرون الوسطى أصالة (في ابتكارها)». وهناك العديد من الكتاب الأوروبيين الآخرين الذين تأثروا أيضاً بـ "**الفيلسوف الذي علم نفسه**" منهم: **جون واليس، كريستيان هويجنس، جورج كيث، روبيرت باركلي، جماعة الكويكرز، ساموئيل هارتليب، كارل ماركس، فولتير**.

وفي أمريكا الشمالية، نشرَ "**كوتن ماثر**" كتابه «**الفيلسوف النصراني**» عام ١٧٢١، وذكر تأثير «**حيّ بن يقظان**» فيه. بالرغم من ذمّه للمحمديين (يقصد المسلمين -لاحظ النظرة الصليبية للمؤلف) ككفار في نظر المؤلف! لكن "ماثر" ينظر إلى بطل الرواية: "حي" على أنه النموذج لفيلسوفه النصراني المثالي والعالم المؤمن بإله واحد.

وينظر "ماثر" أيضاً إلى «حي» على أنه «**النبيل الهمجي**» مطبقاً ذلك في معرض كلامه لفهم **الهنود الحمر** سكان أمريكا **الأصليين** من أجل تحويلهم إلى النصرانية البيوريتانية (التطهيرية).

من الواضح للعيان، أنّ النهضة الأوروبية والفلسفة الغربية الحديثة هي في حقيقتها قد نمت وازدهرت في ظلال الفلسفة الإسلامية، بالرغم من أنّ غالبية الأعمال العربية قد سُرقت ونسبت إلى سارقيها، بعد إعادة صياغتها، دون أدنى اعتراف بفضل أصحابها. وبخلاف الفلسفة العربية الإسلامية، فإنّ الفلسفة الأوروبية الغربية المُستعيرة صارت غير متوازنة، عرجاء تقف على الأرض بساقٍ واحدة، وعوراء ترى الحياة والعالم بعينٍ واحدة، نظراً إلى أنها مُفككة ومنفصلة عن وجود عنصر الإسلام الروحي والخلقيّ فيها (وذلك بسبب تطورها ابتداءً باتجاهٍ إلحادي مُعادي للكنيسة، كما هو جليّ في نهوض العلم والعلمانية؛ وكذلك بسبب التاريخ القديم الطويل للحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي).

- **عجائب المخلوقات** (كوزموغرافي: وصف العالم العامّ) **لزكريا القزويني** قد نشرَ في مجلدين في جوتينجين من قبل **ف. وستينفيلد** عام ١٨٤٨–١٨٤٩؛ ثم إن كتاب «**تلخيص الآثار**» **للبغوي**، وهو ملخص كتاب **القزويني** قد ترجمَ بالفرنسية ونشرَ في باريس من قبل دي جويجنس عام ١٧٨٩ (الكتاب يحوي العديد من أفكار الجاحظ). ثم إنّ أ. ل. دي شيزي قد ترجم عجائب القزويني وقد نشرت ترجمته في ١٨٠٦ (الطبعة الأولى) من قبل **س. دي ساسي**، في كتاب: **كريسيوماثي آراب** (الرياضيات النصرانية العربية).

- **للصوفي مولانا جلال الدين الرومي** صاحب التطور الروحاني، تأثير في **جوته**، الذي سمّى الرومي "دارونيّ قبل دارون"، لكن التطور الروحي قد يُفهمُ خطأً أحياناً على أنه نظرية استحالة الأنواع، بالرغم من ادّعاء بعضهم تأثير الرومي البليغ في تطوير النظريات البيولوجية.

- على كل حال، اخترقت علوم الحيوان الإسلاميةُ الغربَ مع مطلع القرن السابع عشر. بعض الأوروبيين كان يعرف اللغة العربية وباستطاعتهم القراءة مباشرة من كتب علماء الإسلام؛ فمثلاً، **جرى تكريس دارون نفسه إلى الثقافة الإسلامية في كامبردج تحت مستشرق يهودي يدعى "ساموئيل لي"**. وهذا يوضح التأثير الإسلامي في الأوروبيين، وانتقال أفكارهم إلى الغرب.

(إنّ الأعمال الريادية للجاحظ قد وثقت في دراسات عدة، ومنها هذان المصدران بالإنجليزية:

1. **Conway Zirkle** (1941). Natural Selection before the «Origin of Species", Proceedings of the American Philosophical Society 84 (1), p. 71–123
2. **Mehmet Bayrakdar** (Third Quarter, 1983). «Al-Jahiz And the Rise Biological Evolutionism", The Islamic Quarterly, London)

٥. كراهية الجدال الظنيّ لما يخالف حقائق الإسلام القطعية: علمٌ ضارّ لا ينفع:

هذه هي القاعدة الخامسة. بالرغم من أنّ الإسلام يشجّع على ضرورة التفكير في الكون والخلق والإنسان (كما أسلفنا)، وقد لا يؤمن الإنسان إلا بعد رحلة طويلة يسير فيها من الشكّ إلى اليقين. لذلك فإنّ الله يطالب المسلمين بدعوة الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم باللطف: قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ولكن نظراً إلى استفاضة الإسلام في شرح حقائق الخلق والتطور الصحيحة، لذلك فإنّ الإسلام (دين الله الصحيح والوحيد) **القطعي الدلالة** في أمر الخليقة ووحدة الجنس البشري (انظر فوق)، يكره جدال الفلاسفة البشريّ النظريّ **الظني الدلالة (دونما علم أو دليل في أمر الخلق الذي لم يشهده أحد منهم إلا الله)**، ويستهجن

تسليط مدارس الكلام البيزنطية القديمة والحديثة والمنظرة لما يخالف النصّ القرآني والحديث النبوي لتجعل من الجنس البشري حقلاً للتجارب المخبرية المشؤومة. إنّ فلاسفة التمييز العنصري العلمي مع فلاسفة علوم الإنسان الأوروبية (الأنثروبولوجية) قد حطوا من قدر الإنسان إلى موضع الحضيض، فنظروا نظريات زائفة ووضعوا علوماً ضارة جعلت من الإنسان حيوان تجارب مخبريّ. وحين طبّقت هذه النظريات والعلوم الزائفة على أرض الواقع أدّت إلى إبادات للجنس البشري تحت شتى المسميات قديماً وحديثاً من النازية إلى الشيوعية إلى الفلسفة المادية والتطهير العرقي الحديث.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦-٥٧].

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩].

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلّ قومٌ بعد هدىً كانوا عليه إلا اوتوا الجدل**» ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه الآجري والإمام أحمد والترمذي وقال الألباني: وسنده صحيح. وفيه: أن الذين يضلون بعد الهدى يعاقبون أن يؤتوا الجدل.

وقال الآجري: لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين: لم يُماروا في الدين، ولم يجادلوا وحذروا المسلمين المراء والجدل، وأمروهم بالأخذ بالسنن وبما كان عليه الصحابة. وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل.

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: إنّ امتك لا يزالون يقولون: ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلقَ الله؟**». رواه مسلم، رقم ١٣٦.

بل إنّ كلمات هذا الحديث النبوي ومفردات سياق التعبير تدلّ على أنّ المسائلات الجدلية المتواصلة غير مرغوبٌ فيها آبتة، لأنّ الجدال غير المنطقي قد يقود أحياناً إلى تشويش واضطراب فكري.

وحين قرر الله أصل الإنسان، استنكر جداله النظري الظنّي أمام حقائق القرآن القطعية: قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: ٤].

ولطالما كان النبي ﷺ يتعوّذ من الجهل والعلم الضارّ بقوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**».

وكان للغة العربية جولةٌ تقويمية كبرى عندما قام إمام الإسلام المجدد **أبو الحامد محمد بن محمد الغزالي** (١٠٥٦-١١١١م) بكتابة كتابه «**تهافت الفلاسفة**»، أهم كتاب عرفه العالم الإسلامي والأوروبي في نقد الفلسفة الإغريقية ونقد الفلاسفة العرب المتبعين حذوها، من أمثال: ابن سينا، والفارابي، وإخوان الصفا. وعدّ بعضهم هذا الكتاب معلم تاريخياً وضربةً قاضية لاستكبار الفلاسفة وادعائهم التوصل إلى الحقيقة في المسائل الغيبية بعقولهم البشرية. وقد قال الغزالي في مقدمة الكتاب:


الإمام المجدد أبو حامد الغزالي

(أما بعد فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميّز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبّدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين، بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، وهم بالآخرة هم كافرون، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي... وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم.... فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكي من عقائدهم طبعهم، تجمّلوا باعتقاد الكفر، تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم، وترفعاً عن مساعدة الجماهير والدهماء، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ظناً أن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال... فأي رتبة في عالم الله سبحانه وتعالى أخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق، المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل، تصديقاً دون ن يقبله خبر وتحقيقا).

وشنّ الغزالي هجوماً عنيفاً على الرؤى الفلسفية للفلاسفة المسلمين الذين تبنوا الفلسفة اليونانية، وهاجم الفلاسفة في ٢٠ مسألة عدّهم فيها ملحدين أو مرتكبي بدع هم أقرب فيها للكفر من الإيمان، ومن هذه المسائل: إبطال مذهبهم في أزلية العالم (من القدم)؛ إبطال مذهبهم في أبدية العالم؛ بيان تلبّسهم في قولهم: إن الله صانع العالم، وأن العالم صنعه؛ في تعجيزهم عن إثبات الصانع؛ وفي إبطال إنكارهم البعث، وحشر الأجساد، مع التلذذ والتألم بالجنة والنار. قوّض الغزالي ادّعاءات الفلاسفة مستخدماً سلاح المنطق (وهو سلاحهم) للردّ عليهم بسلاحهم وأسلوبهم، ولعلّ الغزالي هو أول شيوخ الإسلام (أو أول فلاسفة المسلمين إن صحّ التعبير) الذين أقاموا صلحاً بين المنطق وبين العلوم الإسلامية. توسّع الغزالي في شرح المنطق واستخدمه في علم أصول الفقه. وأعلن الغزالي في كتاب تهافت الفلاسفة فشل الفلسفة في إيجاد جواب لطبيعة الخالق. لكنه صرّح: **إن على الفلسفة أن تبقي موضوعات اهتماماتها في المسائل القابلة للقياس والملاحظة** مثل: الطبّ والرياضيات والفيزياء والفلك. وعدّ الغزالي محاولة الفلاسفة في إدراك شيء غير قابل للإدراك بحواس الإنسان منافياً لمفهوم الفلسفة من الأساس.

استخلص الغزالي أنه من المستحيل تطبيق قوانين الجزء المرئي من الإنسان لفهم طبيعة الجزء المعنوي. وعليه فإن الوسيلة المثلى لفهم الجانب الروحي يجب أن يتم بوسائل غير فيزيائية واختار الغزالي طريق التصوف (الحقيقي) للوصول إلى اليقين بوجود الخالق في أثناء الحياة بدلاً من الانتظار إلى ما بعد الموت للوصول إلى الحقيقة.

وهيمن كتاب «**تهافت الفلاسفة**» لأبي الحامد الغزالي الطوسي البغداديّ على العالم الإسلامي وعلى أوروبا (نطاق العالم القديم آنذاك) ولم يستطع أحد أن يتصدّى للغزالي إلا بعد قرابة قرنين من الزمان حين قام فيلسوف مسلم آخر هو الفقيه القاضي الطبيب **أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد الأندلسي** (١١٢٦–١١٩٨م) بمحاولة التوفيق بين تعاليم الإسلام وبين حكمة الفلاسفة فكتب كتاباً نحو ١١٨٠م في أشبيلية سمّاه: «**تهافت التهافت**»، حين كان ابن رشد في الرابعة والخمسين من عمره. وابن رشد هو تلميذ ابن طفيل الأندلسي الطبيب الفيلسوف (مؤلف قصة حي بن يقظان) وهو أيضاً تلميذ كلّ من الطبيب ابن زهر وابن باجه الأندلسيين. بالرغم من أنّ أبا الوليد ابن رشد لم يعش زمن أبي الحامد الغزالي ولم يعاصره، ولم يتجادل معه البتة، لكنه ردّ مباشرة على كتاب الغزالي بطريقة الجدل العلمي بذكر النصّ من كتاب «**تهافت الفلاسفة**»، والردّ عليه في كتابه «**تهافت التهافت**».

وانتقد الإمام الغزالي جالينوس الذي ادّعى أزلية الشمس وعدم ذبولها؛ لأن الأرصاد تدلّ على أنها لم تذبل منذ آلاف السنين ولا تفسد. ويعترض أبو حامد الغزالي على رأي جالينوس بقوله: «وأما التفاته إلى الأرصاد فمحال، لأنها لا تعرف مقاديرها إلا بالتقريب، والشمس التي يقال: إنها كالأرض مئة وسبعين مرة، أو ما يقرب منه ولو نقص مقدار جبال مثلاً، لكان لا يتبين للحس، فلعلها في الذبول وإلى الآن قد نقص مقدار جبال فأكثر، والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك». كان عقل الغزالي المستنير بهدي القرآن والرسالة المحمدية هي التي مكنته من القول بإمكانية ذبول الشمس؛ لأنّ القرآن يؤكد أنّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص ٨٨).

وحين جاء ابن رشد الأندلسي ليردّ على كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي في كتاب ابن رشد "تهافت التهافت" اعترض على مقولة الغزالي في الشمس وأيّد رأي جالينوس. لكن حين جاء العلم الحديث أثبت صحة رأي الغزالي، فالشمس جرم غازي كروي الشكل كبير، أكبر في حجمها من الأرض بأكثر من ١٣٠٠٠٠٠ (مليون وثلاث مئة ألف مرة)، وقد تبين عبر أبحاث ودراسات علوم الفيزياء الفلكية أن الطاقة المنبعثة من الشمس ناتجة من الاندماجات الهيدروجينية فهي أشبه بفرن هائل، وفي باطن الشمس تحدث كل ثانية انفجارات تعادل آلاف القنابل الهيدروجينية. ويقدر الفلكيون أن ما مضى من عمر الشمس هو بحدود ٥ مليارات من السنين وتشير الحسابات إلى أن كمية الهيدروجين المتوافرة في الشمس قادرة على إدامة هذا العطاء من الحرارة والضياء مدة تزيد على ٥ مليارات سنة أخرى من الآن إن شاء الله. وفي أثناء ذلك فإنّ الشمس تفقد من كتلتها نحو ٢٦٠٠ طن في الثانية الواحدة.

وللغزالي نظرات رائعة في الأسباب والمسببات وعدم ضرورة تلازمهما كما ادعى الفلاسفة، فيقول:

(فلنعين مثالاً واحداً وهو الاحتراق في القطن مثلاً مع ملاقاة النار فإنا نجوّز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق ونجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار وهم ينكرون جوازه... يدعي الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط وهو فاعل بالطبع... نقول: فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه وجعله حراقاً أو رماداً هو الله إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة فأما النار وهي جماد فلا فعل لها).

(نخالفهم في... مسائل الأولى حكمهم أن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة فليس في المقدور ولا في الإمكان لبحسب ظنّ الفلاسفة) إيجاد السبب دون المسبب ولا وجود المسبب دون السبب).


أبو الوليد محمد ابن رشد الأندلسي

(وإن المقترنات في الوجود اقترانها ليس على طريق التلازم بل العادات (التي) يجوز خرقها فيحصل بقدرة الله تعالى هذه الأمور دون وجود أسبابها). (وجواز حصول... خرق العادات بخلق المسببات دون الأسباب أو إحداث أسباب على منهج آخر غير معتاد).

(وليتعجب العاقل من طائفة يتعمّقون في المعقولات بزعمهم، ثم ينتهي آخر نظرهم إلى أن ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب لا علم له أصلاً بما يجري في العالم)!!!

كتب ابن رشد ("أفيروس" عند الغربيين) (١١٢٦-١١٩٨م) تفنيده لعمل الغزالي تحت عنوان «تهافت التهافت» ودافع فيه عن مبادئ الفلاسفة؛ وكتب الكتاب بطريقة حوار؛ يستشهد ابن رشد بفقرات من كتاب الغزالي، ثم يردّ عليها. ولكن هذا الكتاب لم تتقبله جموع المسلمين كتقبلهم لكتاب الغزالي. ابتدأ ابن رشد مهنته بمساعدة أستاذه ابن طفيل

الأندلسي (مؤلف قصة حي بن يقظان) وهو الذي قدمه للبلاط ولابن زهر الطبيب الشهير (أفينزور بالـلاتينية) الذي صار أستاذ ابن رشد وصديقه. وكان ابن رشد تلميذ ابن باجه الأندلسي (أفينبيس)، الفيلسوف المسلم الشهير الذي أثر في ابن رشد (وهؤلاء هم الفلاسفة المسلمون الأربعة في المغرب الإسلامي بحسب الأهمية: ابن باجه، ثم ابن طفيل، ثم ابن زهر، وأخيراً ابن رشد).

في ١١٦٠م صار ابن رشد قاضياً في أشبيلية وخدم في العديد من قضايا المحاكم في أشبيلية وقرطبة ومراكش في أثناء حياته. في نهاية القرن الثاني عشر، وبعد فتح الموحدين للأندلس، انتهى دور ابن رشد السياسي. كانت آراء ابن رشد العقلانية الصارمة تتصادم بعض الشيء مع الآراء الأكثر تقليدية (أي أكثر انسجاماً مع السُنّة النبوية) للخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور التي أدت إلى إقصاء ابن رشد، بالرغم من تعيينه مدة كطبيبه الخاص. ولم يُعاد ابن رشد إلى عمله إلا قبيل وفاته، ووفاة الخليفة بقليل. وكرّس ابن رشد بقية حياته في كتاباته الفلسفية.

ترجمَ كتاب «**تهافت التهافت**» لاحقاً بعدة لغات. وعدّ الكتاب مُعلم ابن رشد المهم؛ وفيه حاول التوفيق بين العقيدة الإسلامية وبين الفلسفة (بوصفها خلاصة الحكمة البشرية التي لا ينبغي أن تتعارض مع الدين). ترجم جاكوب أناتولي (يعقوب الأناضولي) العديد من أعمال ابن رشد من العربية بالعبرية في ١٢٠٠. ثم ترجمَ العديد منها لاحقاً من العبرية إلى اللاتينية من قبل جاكوب مانتينو وأبراهام دي بالمز. وترجم كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي مع ترجمة كتاب ابن رشد لكن كتاب «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي قد ترجمَ باللغة الإنجليزية من قبل مايكل مرموره. برغم محاولة دحض ابن رشد في القرن الثاني عشر، إلا أنّ كتاب الغزالي بقي هو الأوسع قراءة وانتشاراً، والأبلغ أثراً وتأثيراً.

جاءت الاستجابة الأقلّ انتقاداً لكتاب «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي أولاً في كتاب كتبه سف ابن رشد وأستاذه: أبو بكر بن طفيل في جزء من روايته الفلسفية العربية: «**حيّ بن يقظان**» (المترجمة باللاتينية والإنجليزية تحت اسم «**الفيلسوف الذي علمَ نفسه**»). وذكر ابن طفيل في روايته تأثير الغزالي عليه، وآراء الصوفية خصوصاً ولكنه كان ناقداً لنظرته ضد فلسفة ابن سينا.

وفي القرن الثالث عشر، كتب ابن النفيس لاحقاً "الرسالة الكاملية في السيرة النبوية" (ترجمت في الغرب باللاتينية والإنجليزية تحت اسم: «**عالمُ الدين الذي علم نفسه**») كاستجابة لـ "الفيلسوف الذي علمَ نفسه" لابن طفيل، وكان مُدافعاً عن كثير من آراء الغزالي.

واستمرت دراسة كتابي «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي، مع ردّه: «**تهافت التهافت**» لابن رشد، في العالم الإسلامي. والواقع أنّ السلطان العثماني محمد الفاتح في القرن الخامس عشر كلف اثنين من كبار علماء عصره بكتابة كتاب يوجز آراء هذين الفيلسوفين العظيمين ومن الذي فاز منهما بالنقاش في نهاية المطاف. قام العالم التركي المسلم **مصطفى بن يوسف البورصاوي** المعروف بـ **خواجة زادة** (المتوفى عام ١٤٨٧م) بدحض براهين كتاب ابن رشد «**تهافت التهافت**» ودافع عن صحة آراء الغزالي الذي فاز كتابه «**تهافت الفلاسفة**». وكانت هذه المناظرة إشارة أخرى، شهد فيها علماء الإسلام على ضعف الفلسفة البشرية إزاء قوة العقيدة الإلهية.

ومع ذلك كله، فإنّ «**تهافت الفلاسفة**» للغزالي قد زوّد المسلمين بمناعة ضد الأخطاء الفادحة للفلاسفة. لم تختنق الفلسفة في العالم الإسلامي، لكن «**تهافت الفلاسفة**» أثار فضول واهتمام المسلمين في الفلسفة (مع اتخاذ الحيطة اللازمة من شطحات الفلسفة): صار القانونيون لا يخافون أبداً من دراسة أعمال ابن سينا والفارابي، كما يبدو ذلك جلياً في أعمال ابن طفيل وابن رشد.

الفصل الرابع:

العربية: (لنجوا فرانكا)

لغة التداول المشتركة للعالم الإسلامي والعصور الوسطى

لنجوا فرانكا هي تحريف الأصل العربي لغة الفرنجة: حيث جرت عادة العرب ومنذ الحروب الصليبية على تسمية الأوروبيين جميعاً بالفرنجة. وأصلاً كانت لغة مشتركة للتواصل في موانئ البحر المتوسط العربيّة: وقوامها الإيطالية المجرّدة (المقطّعة) الممزوجة بالفرنسية والإسبانية واليونانية والعربية مع كلمات تركية، ثم تطوّر معنى المصطلح ليعني لغة التداول والتواصل المشتركة عالمياً، مثلاً اللغة المشتركة في التجارة والمعاملات.

تعد اللغة العربية لغة التداول المشتركة للتواصل الإسلامي: ارتقاء اللغة العربية إلى الموقع العالمي له ارتباط وثيق بتطور الإسلام. الإسلام هو الرسالة الكونية، وتاريخ وانتشار اللغة العربية هو متلازمة طبيعية لتاريخ وانتشار الإسلام. قبل المباشرة بطرق التأثير العربي في اللغة الإنجليزية، فمن المهم معرفة الحقائق ذات الصلة بالتاريخ العربي الإسلامي من أجل إلقاء الضوء على هذا التلاقح اللغوي العربي – الإنجليزي.

العرب قبل وبعد الإسلام[1][2]

كان لعرب قبائل من البدو وعرب الصحاري الرُحّل: كان يُشار إليهم بجراد الصحاري. لم يكن لهم دورٌ يقومون به على وجه الأرض: ولم يكن لهم هويّة خاصة بهم قبل الإسلام، حتى اللغة العربية كانت مُهمّشة ومدفونة تحت لغتي الفرس والروم السائدتين، كونهما مُمثلتين للإمبراطورية الفارسية والرومانية. كذلك فلم يملك العرب عُملة نقدية خاصة بهم: لأن النقد الذي استعملوه في التجارة هي الدراهم الفضيّة الفارسيّة والدنانير الذهبيّة الروميّة. في اليمن كانوا خاضعين إمّا للفرس أو للأحباش. وإذا كانت لهم حكومةٌ خاصة بهم فهي في حماية الفُرس. في الشمال: كانت سوريّة خاضعة للحكم البيزنطي، الذي كان إمّا مُباشراً أو بشكل حكومة عربيّة تحت الحماية البيزنطية. باستثناء قلب الجزيرة العربية الذي أفلتَ من الحكم الأجنبيّ لكنه كان في حالة قبَليّة، وانقسامات حرَمته أن يكون له أي وزن في قوى العالم السياسيّة. الحرب القبليّة كانت لتستمر (٤٠) عاماً أو أكثر! ولكن لم تُعدّ هذه القبائل ذات سطوة في أعين الامبراطوريتين الضخمتين المجاورتين سواءً على مستوى الأفراد أو المجموعات العربية.

وما حدث من اعتداء (الفيل) من قبل ملك الحبشة عام (٥٧٠) بعد الميلاد، هو تقويم صحيح لقوة هذه القبائل عند مواجهتهم لاعتداء أجنبي الم يقم العرب عام الفيل بأي مقاومة، وإنما خرجوا للجبال وتركوا الأمر لله ليحمي بيته من الأحباش! صار للعرب تحت راية الإسلام، وللمرة الأولى في التاريخ، دورٌ عالميّ يقومون به. كذلك حصلوا على دولة قوية تحسب لها قوى العالم حساباً. لقد امتلكوا قوة كاسحة دمّرت العروش، وهزمت الإمبراطوريات، وأسقطت القيادات الجاهلية المنحرفة الكاذبة لكي تقوم هي بقيادة البشرية. ولكن ما ساعد على هذه الإنجازات للعرب للمرة الأولى في تاريخهم، هو نسيانهم لعصبيتهم العربيّة. لقد نسوا الحزازات العرقية، والتطرف القبليّ، وروابطهم وحدودهم القوميّة. لقد تذكّروا أنهم مسلمون ومسلمون فقط: لقد شعروا أنهم مسؤولون عن حمل رسالة الإسلام العالمية، وحملوا رسالة الإيمان الكليّة القوية، وقدّموها للإنسانية بكل رحمةٍ وشفقة، ولم يلتزموا بأي نوع

من القوميّة أو التحزّبيّة، كانوا المؤصّلين للفكرة الربانيّة التي تعطي البشرية قواعدَ ربّانية لا أرضيّة للتطبيق في الحياة. وقد تركوا ديارهم وأسرهم للجهاد في سبيل الله وحده، ولم يكونوا يجاهدون من أجل إقامة امبراطورية عربية لينعموا بحياة الترف والخيال، ولم يكن هدفهم إخضاع الأمم الأخرى لُحكمهم بعد تحريرهم من حكم البيزنطيين والفُرس. كان الهدف ما قد حدّده بوضوح (ربعي بن عامر)، رسول المسلمين إلى قائد الفرس، حين قف في مقر قيادة الأخير: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[illegible].

هكذا وبعد ذلك فقط، أصبح للعرب هوية، وقوة، وقيادة. وكلّ هذه وقفوها بإخلاص لله وحده. لقد امتلكوا السلطة والقيادة حين كانوا مُتّبعين لطريق الإسلام الحقّ ولكنهم عندما انحرفوا واتّبعوا التفكير القوميّ الضيّق، وعندما استبدلوا راية الإسلام بالروابط الحزبيّة، سهُل خضوعهم للأمم الأخرى: لأنّ الله هجرهم عندما هجروه واستخفّ بهم حين استخفّوا به. وبالكلمات المختصرة لعُمر بن الخطّاب (الخليفة الثاني في الإسلام)، عندما جاء من المدينة ليفتتح رسمياً القدس: (**نحن العرب اذلّة، أعزّنا الله بالإسلام، فمهما حاولنا العزّة بغير الإسلام، اذلّنا الله**)[illegible]

وبعد هذا اكتسبت اللغة العربية مكانةً عالمية: فدُوِّنَت جميع الدواوين الفارسية في الشرق والدواوين الرومية في الغرب كلها إلى اللغة العربية، تغيّر النقد أيضاً تغييراً هائلاً: فكل قطع النقد الفضّية والذهبيّة أذيبت وسُكّت العملة الإسلامية حاملةً النقش «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» (انظر الفقرة اللاحقة).

العرب، حملة رسالة الإسلام العالمية[٣]:

كتبَ هيو كينيدي في كتابه الرائع (فتوح العرب الكبيرة – كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه): (للإسلام تأثير كبير على تاريخ البشرية: ففتوح العرب بعد موت النبي محمد ﷺ في ٦٣٢م، قد غيّرت وجه العالم إلى الأبد: وصاغت العالم الذي نعيش فيه كلّنا اليوم. في عام ٦٠٠ ميلادي، لم يكن هنالك مسلمون. عند موت النبي محمد ﷺ (٦٣٢م)، كان الإسلام مُحدّداً في القبائل الناطقة بالعربيّة، التي تقطن في شبه الجزيرة العربية والحدود الصحراوية لسورية والعراق. لم يعش العرب في مصر أو شمال إفريقيا: بينما سورية ومصر شكلتا جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية النصرانيّة، الناطقة بالإغريقية (اليونانية): والعراق مع إيران كانتا تحكمان من الملوك الساسانيين الزرادشتيين عبادُ النار. ولكن في عقود قليلة، وَصَل نظام هذا العالم القديم إلى نهايته: ففي عام ٦٤١، فتحت جيوش المسلمين العرب سورية، وفلسطين، ومصر، والعراق: وفي عام ٧٠٠ شمال إفريقيا جميعه: وفي عام ٧٣٠ إسبانية، باكستان، وأكثر آسيا الوسطى. وإنّ جل سكان سورية تكلموا الإغريقيّة أو الآراميّة: وجل سكان العراق تكلموا الفارسيّة أو الآراميّة: وفي مصر كانوا يتكلمون الإغريقية أو القبطية: وفي إيران كانوا يتكلمون اللغة البهلويّة: وفي شمال إفريقيا كانوا يتكلمون اللاتينية والإغريقيّة أو البربرية. ولم يكن أحدٌ منهم مُسلماً.

وفي مصر وشمال إفريقيا، الأرض التي نظنّها مسلمة بوضوح، لم يكن فيها مسلمون فعلياً، ولا ناطقون بالعربية، وهذا أيضاً صحيح بالنسبة لإيران وأفغانستان. لقد كان المدى وسرعة التحولّ (إلى الإسلام) مُدهشة: فبعد قرن من موت النبي ﷺ تحولّت كل هذه الأرض والبلاد بما فيها إسبانية والبرتغال، وأزبكستان، وتركمانستان، وجنوب باكستان (السند)، إلى إسلامية يحكمُها صفوةٌ مُسلمة تنطق بالعربيّة، وفي كلّ هذه البلاد كان السكان المحليّون يتوسلون في سبيل التحول إلى الدين الجديد (الإسلام). إن سرعة الفتوح الإسلامية مُحيّرة، ولكن هناك أمثلة لفتوح سريعة عبر أراضٍ شاسعة في تاريخ الإنسانية، قد تكون لحدٍّ ما قابلة للمقارنة. فتوح الإسكندر الكبير وجنكيز خان تخطر على البال مباشرة. ولكن ما يجعل فتوح المسلمين العرب مُتميّزة هي ديمومة التأثير الذي تركه

في اللغة (العربية) والدين (الإسلام) للأراضي المفتوحة. أصبحت سورية، والعراق، ومصر، وشمال إفريقيا كلها أقطاراً إسلامية ناطقة بالعربية، وأما في إيران فبالرغم من أن العربية لم تزح اللغة الفارسية القديمة، أصبح الإسلام هو الدين السائد)[3].

وبالرغم من التحليل الرائع للإسلام فإن الدكتور كينيدي، قد قام بالدراسة **من خارج** الاسلام مُركّزاً على الشرح المادي الموضوعي لسؤال سرعة انتشار وتأثير الإسلام، ومع هذا فإنني أتمنى بصدق أن يكون الدكتور كينيدي مُسماً حتى يستطيع أن ينظر للإسلام **من الداخل**، وحتى يأخذ القرآن والحديث بجديّة أكثر ليكونا مصدرين مباشرين موثوقين للتاريخ لكي يستطيع تحليل الحالة النفسية (التي أحدثها الإسلام) للعرب المسلمين التي نمت في النهاية إلى النصر. لذا فإن الفصل الآتي سيُلقي بعض الضوء مؤمّلاً شرح الخلفية الفكرية والروحية (من وجهة عربي إسلامي)، للإجابة عن السؤال:

- لماذا اكتسح الإسلام العالم بسرعة غير مسبوقة؟
- ولماذ كان نفوذه دائماً (باقياً)؟
- ولماذا تأثيره لا يُمحى ولا يُحوّل بوصفه دين، وبوصف مظهره العربي الذي ترك ميراثاً لغوياً باقياً حتى تاريخنا الحالي؟

الحاجة للإسلام؟[4]

جاء الإسلام ليُجيب الإنسان عن هدف حياته: من أين جاء؟ ولماذا خُلق؟ وإلى أين يذهب (في نهاية المطاف والقدر)؟

يقرر الله (الاسم العربي للإله الرب) **أصل الإنسان**: أنه هو الذي أنشأ هذا الإنسان من الأرض، ثم أسكنه فيها ليعيش ويستعمرها مدة مُحددة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

ويُقرر الله العظيم **موقع هذا الإنسان خليفة له على هذه الأرض**: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

وكلمة خليفة بالعربية: هي أصل (كاليف) بالإنجليزية، وتعني الوكيل عن الله على الأرض، ثم أصبحت لقب حكّام الدولة الإسلامية، مثل: (أبي بكر الخليفة الأول؛ الذي كان يفضّل تسميته خليفة رسول الله ﷺ). والخلفاء لهم لقب رسمي هو أمير المؤمنين: أي حاكم المسلمين.

والله سبحانه وتعالى يبيّن للانسان أنه لم يُخلق دون هدف: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

لذا فكلُّ شيء في هذا الكون مخلوقٌ ومُخطط له من الصانع العظيم؛ ونظرية المصادفة للطبيعة ليست فقط غريبة عن الإسلام، لكنها عبثيّة صمّاء تماماً. فالغباء تسمية الطبيعة **(وهي مخلوق من مخلوقات الله)** خالقاً! فالله أيضاً يقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

وهذا هو أساس النظرية المادية، لكنها ليست علماً بل ظنٌّ. فلماذا لا نقبل النور من العليم الذي يعلم كلَّ شيء. أن الزمن هو بيد الله، فالنبي يُكمّل هذا النص القرآني بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**قال الله تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهرُ، بيدي الأمر أُقلّبُ الليل والنهار**». صحيح البخاري، الحديث ١٧٧٦. و«أنا

الدهر» هنا تعني «أنا خالق الدهر (الزمن) وأنا أُصرِّف شؤون جميع المخلوقات بما فيها الدهر (الزمن)» لذلك فلا يجوز للمرء أن يعزو أي شيء جيداً كان أم سيئاً للزمن (الدهر)؛ لأن كل شيء بيد الله وهو الوحيد المصرِّف للأمور كلها.

ثم يبيِّن الله أنّ سبب خلق الحياة والموت هو لاختبار وامتحان الإنسان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

لكنّ الله العظيم يشرح بوضوح **الهدف الحقيقي للحياة**: وهو عبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

مصطلح **العبادة** في الإسلام طيف ألوان الحياة الواسع. فطالما كانت الفعاليات في الحياة مُنجزة في سبيل الله، فهذه الفعاليات تُعد أشكالاً للعبادة؛ لذا الأكل/ الشرب الذي يمكِّن صاحبه من تأدية واجباته الدينية وصلواته، التمرين للياقة البدنيّة من أجل الحجّ، الكلمة الطيبّة لمساعدة الآخرين، البسمة لتفريج الهمّ، وإماطة الأذى من طريق المارّة، وإطعامُ الزوجة (أو الزوج)، حتى معاشرة الزوجة الحليلة (جنسياً) هي كلها ألوانٌ من عبادة الله. «العمل عبادة» هي مقولة شائعة بين المسلمين وهي واحدة من القيم الإسلامية المهمة. والمؤمنون الذين يعبدون الله سيُكافؤون بالجنّة، بينما الكفّار غير المؤمنين سيُعاقبون بنار جهنم.

ثم يُلخّص الله تعالى رحلة حياة الإنسان بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣].

إن فاتحة القرآن المؤلفة من ٧ آيات[٦] تقدم للإنسانية وضوحَ الرؤية. فهي تلخّص علاقة الإنسان بربّه: وتستحث الإنسان على مدارسة القرآن، وعبادة ربِّ الكون، وطلب الهداية. فالمعنى الأولي لكلمة إسلام هو الاستسلام لإرادة الله. والمسلمون يردِّدون الفاتحة ما لا يقل عن ١٧ مرة في صلواتهم الخمس اليوميّة:

(١) ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(٢) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(٣) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(٤) ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(٦) ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

(٧) ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

لقد ذكر القرطبي في تفسيره: ٧١ مسألة مهمة في أحكام الإسلام وأصوله مشتقةً من سورة الفاتحة مع دروس فضائل ومعاني هذه السورة العظيمة التي سمِّيت بحق فاتحة الكتاب وأمّ الكتاب. كما ألف العالم ابن القيم الجوزية كتاباً من ثلاثة مجلدات عنوانه: «**مدارج السالكين في إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين**»، مما يدل على عظم هذه السورة.

ثم إنّ الله علل تنزيل القرآن كتاباً أخيراً ومحفوظاً محمياً جداً، أنزاله كتباً قبل ذلك للعديد من رُسُله، لكنّ هذه الكتب ولسوء الحظ أُفسدت فأصبحت محرّفةً أو مكنونةً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقد وصف الله الطرائق المختلفة المتبناة من قبل أهل الكتاب في منع وصول الناس إلى الحقيقة والحق. إحداها التلاعب بالحقيقة، أو تلبيسها بألوان الباطل (وذلك بمزج أو تلبيس الحق بالأكاذيب كما في تحرير الطباعة): أنصاف الحقائق غالبا ما تكون أكثر خطرا من الكذب الصريح. وطريقة أخرى هي الإخفاء (التغطية والتعتيم دون إظهار النص المهم)، أو محاولة الكتمان الكامل: الكتمان قد يعني محوا دائما لنصوص مهمة. الطرق الأخرى تشمل تحريف النصوص عبر قراءة مشوّهة (أي تغيير الجوهر أو المضمون): كتابة فصول (مدّعين أنها نُزّلت من الله كذبا) مع/ أو رفض (نبذ) جزء من الكتاب أو كله. وقد قاموا بهذا كله لأسباب سياسيّة أو تجاريّة. وهنالك حسد لنبي الله الذي يرونه حقيقة أمامهم، فلا يسمحون لمواصفاته المعتمدة في كتبهم ولا لشمائله أن تُعرف أو يشوهوا سمعته، أو يكتموا الحقائق الكفيلة باجتذاب الناس إليه. عندما يقوم أناسٌ بهذه الأهداف المُبيّتة، ضد نورهم (كتابهم هم) («وأنتم تشهدون» — انظر الآية الآتية)، فإنهم ينزلون إلى أكثر الأعماق هبوطا، وهم يضرّون أنفسهم أكثر من ضرّهم الآخرين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠-٧٨].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رجلٌ نصرانيا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتُب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيا، فكان يقول: ما يدري مُحمد إلاّ ما كتبتُ له. فأماته الله، فدفنوه فأصبح وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ مُحمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظتهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ مُحمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا صاحبنا فألقوه خارج القبر، فحفروا له فأعمقوا في الأرض ما استطاعُوا فأصبح قد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه). صحيح البخاري، حديث رقم ٨١٤.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أما بالنسبة لمحمد ﷺ، فالله يقرر بوضوح أن محمداً هو النبي المنتظر والرسول بعد عيسى عليه السلام، الذي بشّر عيسى نفسُه بمجيئه: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

إن النبي محمداً ﷺ أظهر الدلائل البيّنة: بل إن حياته كلها من البداية إلى النهاية كانت معجزة هائلة كبرى. فقد حارب كل الظروف الشاذة وانتصر عليها. فبلا تعليم من البشر، كان يُعلّم أرقى أنواع الحكمة. وقد أذاب قلوباً قاسية، وهوّى قلوباً ليتّ بحاجة إلى إسناد. وفي أقواله وأعماله كلها رأى أصحاب الفطنة يد الله العاملة في حياته: ومع هذا سمّى الكفّار الجهلة كلّ هذا سحراً! — سمّوه وهماً ليصبح بعد حين أكثر حقائق التاريخ البشري صدقاً وصلابة!

ثم إن الثناء المتبادل بين النبيين عيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام)، ويتضح في الحديث النبوي: حيث قال النبي محمد ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» صحيح البخاري، الحديث ٦٥٢.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المالُ حتى لا يقبله أحدٌ**». صحيح البخاري، الحديث ٤٢٥.

وإن عيسى بن مريم سينزل قائدا للمسلمين، وفي هذا إنذار شديد للنصارى الذين يدّعون أنهم أتباعٌ لعيسى وهو سيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وإذاك ستحتاج البشرية إلى اعتناق الإسلام بلا بديل.

أما فيما يخص نبوءة عيسى عن مجيء محمد ﷺ، فحقيقة أحمد أو محمد هو المحمود وهو الترجمة التقريبية للكلمة الاغريقية (بيريكلايتُس) في العهد الجديد الموجود لدينا عن النص الأصلي بالرغم من تحريفه، هناك نبوءات واضحة عن مجيء النبي محمد ﷺ، فنبوءة محمد ﷺ جاءت في إنجيل يوحنا في الجزء ١٤ (١٦)، الجزء ٥ (٢٦)، الجزء ١٦ (٧): فالمُسلّي (جالب الراحة والخير) المُستقبلي، لا يمكن أن يكون «روح القدس» كما فهم النصارى؛ لأن روح القدس كان موجوداً آنذاك يساعد ويرشد عيسى. الكلمة (مُسلّي) بالإنجليزية هي الترجمة للكلمة الاغريقية (باراكليتوس) التي تعني المُدافع؛ وهو من ينادى لمساعدة الآخر، والصديق الحميم، بدلاً من «مُسلّي»، على كل حال فالكلمة (باراكليتوس) تحوير للكلمة (بيريكلايتُس)، وذلك في الكلام الأصلي للمسيح عند تنبئه بالنبي أحمد بالاسم. حتى عندما نقرأ (باراكليت) فإنها تنطبق على النبي الكريم ﷺ، الذي هو ﴿رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أيضاً في العهد القديم الموجود حالياً، جاءت نبوءة محمد في الثاني الجزء الثامن عشر (١٨)، بسالم (الزبور ١١٨: ٢٢-٢٣، وارتفاع أمة العرب في إسايا ٤٢: ١-١٣ (خصوصا ١١)؛ لأن كيدار كان ابن إسمـعيل، والاسم المستعمل لأمة العرب. كذلك فإن هناك أناجيل أخرى قد اندثرت، لكن آثارها ما تزال باقية، التي كانت أكثر إشارة بما يختص بمحمد: فمثلاً (إنجيل القديس برنابا) له ترجمة إيطالية باقية وموجودة في المكتبة الحكومية في فينّا (حُررت في ١٩٠٧ مع ترجمة إنجليزية للسيد لونسديل ولورا راج).

ومن الجدير بالذكر هنا نقل ما قاله **يحيى اميريك** في صفحة ١٩ من كتابه «**ماذا يريد الإسلام؟**» المطبوع في كانون الثاني عام ٢٠٠٠، بالكتاب العالمي لآداب الإسلام. (الإنجيل هو كتاب كتبه النصارى واليهود لأنفسهم. والإنجيل البروتستانتي يحوي ٦٦ كتابا داخله، بينما الإنجيل الكاثوليكي يحوى ٧٣ كتابا داخله.

يحوي الإنجيل الواحد فصولاً وآيات لا يحويها إنجيل آخر. وبعضها يحوي كلمات لا وجود لها في الأناجيل القديمة، وعند مقارنتك الأناجيل القديمة، فإنها جميعا تحوي محتويات مُختلفة، حتى في النُسخ الإغريقية والعبرية.

والبوذيون لهم كُتبٌ مُقدسة كثيرة ومختلفة ولا يُعلَمُ مَنْ كتبها. والهندوس لهم كُتبٌ عديدة مليئة بقصص آلهة خيالية وهمية وحيوانات غريبة الأشكال وقصص حرب وفلسفة من الصعب تصديقها على أنها حقيقة.

والقرآن وحده الذي نجا عبر القرون من أي تغيير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والمهم أيضاً أن أناس اليوم لم يفقدوا قابليتهم لقراءته في لغته الأصلية.

فالسنسكريتية لغة كتب الهندوس هي لغة ميتة (درست). والاغريقية القديمة والآرامية والعبرية لليهود وقدامى النصارى ما عاد يُتكلم بها بالطريقة نفسها اليوم. والكتابات البوذية كُتبت بعدة لغات وليس لها أي صلة بوثائق المصدر الأصلي.

ولكن العربية قد حُفظت وما زال المسلمون يتدارسونها في جميع أنحاء العالم. وليس أسلوب العربية هو اللهجة العامّية الدارجة التي يتكلّمها بعض الناس في الشرق الأوسط، بل هي عربية القرآن الصافية: الفصحى أو العربية الصحيحة؛ لذا فنحن نملك الكتاب الأصلي واللغة الأصلية لقراءته بها. وما من أحد آخر يستطيع قول ذلك البتة.

فالقرآن كله كُتب في حياة النبي مُحمد ﷺ وقد رُتبت سوره توقيفيا، بوساطة جبريل عليه السلام، بأمر من الله عز وجل، والمسلمون كلهم يحفظونه بهذا الترتيب نفسه).

لدراسة مُقارنة مختصرة بين الإنجيل والقرآن يستطيع القارئ مراجعة: عيسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) في الإنجيل والقرآن، ملحق ثان صفحة ٩٠٧–٩١٧ في ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية. للدكتور محمد تقي الدين الهلالي والدكتور محمد مُحسن خان. مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم. المدينة المنوّرة، المملكة العربية السعودية ١٤٠٤ هجري.

ومن الجدير بالانتباه والذكر أن الله تعالى قد أكد ٣ حقائق مهمة عن أهل الكتاب في كتابه المُنزَل الأخير: القرآن:

- أن أهل الكتاب يعرفون عين المعرفة أن محمداً هو النبي المُنتظر (بالرغم من أن بعضهم لا يُصرّح بذلك علنا عنادا): ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].
- إن أهل الكتاب يعلمون جيدا أن القرآن هو يقينا وحي إلهي مثل التوراة والإنجيل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].
- إن أهل الكتاب يعلمون جيداً أن الإسلام هو تتمة الدين القديم في شكله النهائي المُجدد (ممثلا بقبلة مكة) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

لذلك فإن الربّ خالق البشرية يُذكّر أهل الكتاب برقّة أنهم كانوا مُسلمين معنويا باستسلامهم له قبل وبعد تنزيل هذا القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢–٥٤].

وبناءً على ذلك فإن الله الربّ يدعو أهل الكتاب ليؤمنوا برسالة الإسلام الجديدة كونها الدين الوحيد السرمديّ للواحد الأحد؛ ومن ثمّ يقرر الله نبوة محمد ﷺ التي جاءت بين العرب. إنها بمشيئته الحُرة المطلقة وبفضل منه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

إضافة إلى ذلك، فإن هذين النصّين القرآنيين المجيدين يتممهما الحديث النبوي بكل جمال: فقد قال رسول الله ﷺ «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: (١) رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي فله أجران، (٢) وعبدٌ مملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه فله أجران، (٣) ورجلٌ أدبَ أمتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**». أخرجه الشيخان.

وإذا كان محمد نبياً (وهو النبي الخاتم ﷺ يقيناً) وإذا كان محمد هو النبي الذي جاء بعد عيسى (وهو حقّاً جاء بعد عيسى كما بشّر به عيسى نفسه)؛ لذا كان لزاماً الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ: فعن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأُمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ كان من أهل النار». سلسلة الأحاديث الصحيحة ١١٢٩ للألباني.

إنّ التشابه بين الإسلام والنصرانية شجّع الأستاذ (بروفيسور) (ريشارد بولييت) لكتابة كتابه الممتاز «الدعوة إلى حضارة إسلامية – نصرانية» المطبوع بمطبعة جامعة كولومبيا في نيويورك ٢٠٠٤.

رسائل النبي محمد ﷺ داعياً ملوك العالم للإسلام:

وإذا كان الربّ واحداً فوجب أن يكون الحق والنور واحداً من هذا الربّ الواحد الأحد (الله). لذلك فالله يخاطب القواسم المشتركة بين الإسلام والنصرانية بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن هذه الرسالة كانت هي فحوى كتاب محمد ﷺ إلى هرقل (قيصر امبراطورية الروم البيزنطيين – كما سيأتي تعريفه).

لذا لم يكن عجباً لحظ أن جميع الحُكّام النصارى أجابوا بالتأييد على رسائل محمد التي حملها إليهم سفراؤه:

- نجاشي الحبشة (أو امبراطور الحبشة) وكان من أعلم الناس بالإنجيل وكان نصرانياً تقياً وحاكماً عادلاً. إن المسلمين المُضطهدين في مكة قد نصحهم النبي محمد بالخروج في هجرتهم الأولى إلى الحبشة؛ ليعبدوا الله بحُريّة دون اضطهاد بسبب عدل حاكمها التقي المؤمن. كما وافق النجاشي أيضا بتمثيل النبي ﷺ في خطبته لأمّ حبيبة (بنت أبي سفيان) بعد أن صارت أرملة (أو كما تدّعي مصادر أخرى تخلّى عنها زوجها وهي في الحبشة). وبُعيد إبرام محمد ﷺ لصلح الحديبيّة نحو ٦٢٨ ميلادية مع مكة بقليل، أرسل محمد ﷺ رسائله لجميع حُكّام العالم آنذاك. ونجاشي الحبشة أسلم مباشرة عند تسلُّمه رسالة النبي ﷺ.
- المقوقس: حاكم مصر (لحساب الرومان) أبدي احتراماً كبيرا لكنه لم يرغب بالقتال أو الإسلام، فأرسل للنبي ﷺ عدة هدايا تشمل ماريّة القبطية وأختها مع حمار وبغلة وحصان إضافة إلى ثياب مصرية وألف مثقال ذهب.
- هرقل (الإمبراطور البيزنطي). حسب السجلات التاريخية الأكثر توثيقاً فإن الإمبراطورية الرومانية قد دُحِرت في فلسطين وفقدت جُلّ الأقاليم الآسيوية للإمبراطورية الفارسية: وحُرقت القُدس وسُلبت، وذُبح النصارى بالجملة، وحُرقت الكنائس، وحُمل الصليب (الذي يعتقد النصارى أن المسيح قد صُلب عليه) إلى فارس. واحتفل وثنيّو مكة بهزيمة الروم أمام الفرس. بينما حزن المسلمون في مكة (وكانوا ضعفاء آنذاك) لأنهم يعدّون الروم أهل كتاب، وهم يصنفون أنفسهم (أي المسلمين) مع أهل الكتاب. ويتنبأ القرآن بإعجاز وجمال أن الروم سوف يدحروا الفرس قريباً في «بضع سنين» (سنوات قليلة بين ٧-٩):
﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢-٦].

وبالفعل، فإن أخبار انتصار الروم البيزنطيين على الفرس جاء بعد ٧ سنوات في معركة «أيسوس» في ٦٢٢، (عام الهجرة النبوية) وفي ٦٢٤، عندما قام هرقل بتعزيز حملته العسكرية ودفعها إلى قلب فارس (في العام

الذي هزمت فيه قريش مكة أمام المسلمين في معركة بدر). وأعاد هرقل كل الأقاليم التي خسرها، وحفل بانتصاره هذا في القسطنطينية في آذار ٦٢٨. ومن ثمّ كان صلح السلام بين الامبراطوريتين على أساس الوضع الراهن السابق. ولإيفاء نذر نذره هرقل ذهب في الخريف إلى حمص مركز قيادته، ومنها سار هرقل على قدميه إلى القدس؛ ليصلي في المدينة المقدّسة، وليحتفل بانتصاراته. وليُعيد الصليب المقدس إلى موضعه بعد استرجاعه كأحد شروط السلام بعد أن انتزعه الفرس. وكان طريق هرقل مكسواً بالزرابيّ باهظة الثمن (أي السجاد)، وكانت الأعشاب المعطرة تُنثرُ على الزرابيّ. وفي مدينة القدس (أواخر عام ٦٢٨م) تسلّم هرقل رسالة النبي الكريم محمد ﷺ يدعوه للإيمان الحقّ المجدد والمتمثل بالرسول الحي في زمانه ذلك. هرقل اضطرب ولكنه أخذ الأمر بجديّة: فقابل وفداً عربيا (حدث أن زار القدس في مهمة تجارية يقوده أبو سفيان، رأس العرب وهو غني أرستقراطي من مكة والذي لم يُسلم بعد في المدة بعد صلح سلام الحديبية نحو ٦٢٨م، المعقود بين المسلمين ومشركي مكة). ثم قام هرقل بتحقيق فكري مثير جداً ومقابلة غاية في الذكاء مع أبي سفيان (مُستعملاً الاستعلام بأسئلة مُغلقة غالبا ومحددة جداً تنتهي بالإجابة بنعم أو لا، قام عبرها هرقل بطرح (١١) سؤالا ومنها استخلص أن محمداً هو النبي المنتظر ﷺ.

فقد روى ابن عباس... أن أبا سفيان أخبره أنّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجُمانه فقال: أيكم أقربُ نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ فقال: أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا فقال: أدنوه منّي، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائلٌ هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. فو الله لولا الحياءُ من أن يؤثروا عليّ كَذِباً لكذبتُ عنه. ثم كان أ ل ما سألني عنه أن..

١. قال: كيف نسبه فيكم؟
قـ ـتـ هو فينا ذو نسب.
٢. قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطّ قبله؟
قـ ـتـ لا.
٣. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟
قـ ـتـ لا.
٤. قال: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضُعفاؤهم؟
قـ ـتـ بل ضُعفاؤهم.
٥. قال: أيزيدون أم ينقصون؟
قـ ـتـ بل يزيدون.
٦. قال: فهل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟
قـ ـتـ لا.
٧. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
قـ ـتـ لا.
٨. قال: فهل يغدر؟

قـ ـتـ لا. ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها. قال ولم تُمكنّي كلمةٌ أُدخلُ فيها شيئاً غيرُ هذه الكلمة.

٩. قال: فهل قاتلتموهُ؟

قلت: نعم.

١٠. قال: فكيف كان قتالكم إيّاهُ؟

قلت: الحربُ بيننا وبينه سجالٌ، ينال منّا وننالُ منه.

١١. قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول اعبدُوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقولُ آباؤكم. ويأمُرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة.

فقال للترجمان: قُل له

- سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.
- وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلتُ لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت رجلٌ يأتسي بقولٍ قيل قبله.
- وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلتُ فلو كان من آبائه من ملك قلت رجلٌ يطلب مُلك أبيه.
- وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.
- وسألتك أشرافُ الناس اتّبعوه أم ضُعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضُعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرُسل.
- وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتمّ.
- وسألتك أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشتُه القلوب.
- وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرّسُل لا تغدر.
- (وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت نعم وإن الحرب سجال بينكم وبينه، ينال منكم وتنالون منه. وكذلك حال الرّسُل يُختبرون حتى يكون النصر النهائي لهم).
- وسألتك بما يأمُرُكُم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين وقد كنت أعلمُ أنه خارجٌ ولم أكن أظنّ أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمِه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به (دحية الكلبي سفير النبي ﷺ) إلى عظيم بُصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتّبعَ الهُدى أمّا بعدُ: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللهُ أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثُر عنده الصَّخب وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلتُ موقناً أنه سيظهرُ حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

قال الزهري: فأذن هرقل لعُظماء الرّوم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلّقت، ثم اطّلع فقال: يا معشر الرّوم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت مُلككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلّقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: رُدّوهم عليّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختَبِرُ بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيتُ. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي.

ويُقال إن هرقل كان كاهناً ينظر في النجوم (مُنجّما) فرأى أن ملك الختان قد ظهر؛ فسألهم عن ذلك، قالوا: لا يختتن إلا اليهود، ونصحوه بقتلهم جميعاً. فبينما هم على أمرهم جاءته رسالة النبي محمد ﷺ فسألهم هرقل لينظروا أمُختتنٌ سفيره العربي؟ فحدثوه أنه مختتن، وقيل له: إن العرب يختتنون. فقال هرقل متشائماً: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

وقد أرسل هرقل إلى صاحب له برومية (روما)، وكان نظيره في العلم، فكتب له بعد ذلك يوافق رأي هرقل على خروج النبي محمد ﷺ وأنه جاء زمانه. إن هرقل وضع كتاب النبي محمد ﷺ في قصبة من ذهب تعظيماً له، وما زالت الرسالة متوارثها أباطرة وملوك الروم منذ ذلك الحين (بالرغم من عدم افصاحهم بذلك علناً أمام رعاياهم النصارى). والاحترام المتبادل بين النبي محمد ﷺ وهرقل كان خاصاً لا سيّما عند مقارنته بكسرى امبراطور الفرس (الذي مزّق كتاب النبي محمد ﷺ). فبعد تسلُّم رد إمبراطوريي الروم والفرس قال النبي محمد ﷺ:

«ثبّت الله مُلكه (إلى حين)» فيما يخص هرقل، لكن فيما يخص كسرى قال: «**مزّق الله مُلكه**». والأحداث التاريخية اللاحقة أكّدت نبوءات محمد ﷺ عندما قُهرت الإمبراطورية الرومانية وقوّضت وتحجّمت إلى القسطنطينية (أو بيزنطية)، لكنها بقيت على قيد الحياة؛ في حين أن الإمبراطورية الفارسيّة قُهرت وأزيلت تماماً من وجه الأرض في خلافة عمر بن الخطاب.

إن هرقل في أثناء تحقيقه الذكي جداً بوصفه طرفاً ثالثاً، وثّق أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر. وراودت هرقل فكرة اعتناق الإسلام بل ناقش ذلك مع قادته، لكنهم اضطربوا ورفضوا؛ فاضطر هرقل لرفض الإسلام علناً. إن عظمة إمبراطوريته الظاهرية وتكبّر قومه منعاه من قبول رسالة الله المُجدّدة بحرية. ففضّل هرقل مركزه الإمبراطوريّ الدنيوي، ولذلك بقي نصرانيًا. ومع ذلك فإنه كتب رداً غاية في اللباقة (الدبلوماسية) إلى النبيّ محمد ﷺ قائلاً: (إني مُسلم) وبعث إليه بدنانير ذهبية فقال رسول الله ﷺ عند تسلّمه كتاب هرقل: (**كذب، ليس بمسلم وهو على النصرانية**). وقسّم النبي ﷺ الدنانير الذهبية (بين أصحابه). رواه أحمد بن حنبل وابن حبان، كما جاء في **زاد المعاد** لابن قيّم الجوزية صفحة ٤٥-٤٦، كذلك **فتح الباري** شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ج١، صفحة ٣١-٤٥.

والتاريخ أثبت قول النبي محمد ﷺ:

- الأحداث اللاحقة في الجبهة الشمالية للجزيرة العربية تمثّلت في مقتل ١٤ من ١٥ مبعوثاً مسلماً مُسالماً؛ وفي الوقت نفسه قُتل سفير مُسلم آخر على يد حاكم بُصرى (سورية) ورئيس قبيلة الغساسنة حليف الروم. والخطر من سورية الرومانية تزايد بوضوح؛ إن قتل السفير الذي جاء يحمل رسالة بسلام كان دوماً يعد

إهانة عظيمة لا بد من تقويمها[٨]. فاضطر المسلمون لقبول التحدي والرد، وهكذا كان الصدام الأول بين المسلمين والعالم الخارجي في **معركة مؤتة** (قرب الكرك في الأردن) في أيلول عام ٦٢٩ م، التي انتهت بالانسحاب الثنائي للمسلمين والروم وجيوشهما بالرغم من عدم التكافؤ بينهما: (٣٠٠٠) مقاتل مسلم بوجه (٢٠٠,٠٠٠) مقاتل رومي مع القبائل العربية الحليفة بقيادة هرقل نفسه. وبالرغم من اختلاف الآراء عن نتيجة المعركة فإن المصادر الموثوقة تعدّ قتلى المسلمين بما لا يتعدى ١٢ شخصاً، (لكن يشمل لأمراء القادة الفرسان الشجعان المتعاقبين على هذه الحملة) إلى أن أخذ زمام القيادة القائد الأكثر مراساً لجنرال خالد بن الوليد، وبعد مُنازلة منقطعة النظير يقال فيها: إن خالداً قتل ما لا يقل عن ٥٠٠ رومي وكسّر ٩ سيوف بيده من الضرب. وبعد ذلك وفي حكمة خالد العسكرية وهو أستاذ الإستراتيجية (أي براعة تـدبير) الحرب استبدل الجناح الأيمن بالجناح الأيسر وبادل المؤخرة بمقدمة الجيش ونظّم مجموعة من المقاتين في المؤخرة تسحب سعف النخيل لإثارة غبار الصحراء في الأُفق للتمويه بقدوم إمداد عسكري للمسلمين. وعند رؤية الرومان لوجوه جديدة وبعد تمارين التحركات هذه انسحبوا، ثم إن الجنرال خالداً أيضاً سحب جيشه كاملاً (إلاّ من ١٢ شهيداً). وفي الحقيقة، وقبل رجوعهم للمدينة بشهر واحد (المسافة بين المدينة ومؤتة مسيرة شهر على الأقل)، كان رسول الله (محمد ﷺ) قد وصف بإعجاز وصفاً دقيقاً رأي العين لهذه المعركة مباشرة في أثناء وقوعها وصفها للمسلمين في المسجد النبوي بالمدينة:

عن أنس رضي الله عنه «إن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم فقال: (**أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**). صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٢٦٢.

وعند رجوع جيش الصحابة إلى المدينة بقيادة خالد أكدّوا صحة رؤية النبي ﷺ: فالأشياء حدثت بالضبط كما قال لهم، وإن الصحابة الثلاثة قد قُتلوا وهم يقاتلون بضراوة؛ وهذه كانت دلالة إضافية لصحة نبّوة محمد ﷺ. ثم إنه عندما نعت صِبيان المدينة الجيش العائد (أنتم الفُرّار)، صحّح النبي مقالتهم بقوله: «**بل الكُرّار إن شاء الله**». ومن ثمّ قام النبي محمد ﷺ بتهيئة خالد ليكون واحداً من قادة جيش المسلمين في الفتح الأكبر لمكة.

- تسلّم النبي ﷺ معلوماتٍ استخباريةً أن بعض القبائل الشمالية تتهيأ لحملة شاملة لغزو المدينة، فقام بتعبئة ٣٠٠ رجل بقيادة عمرو بن العاص، الذي تربطه أواصر أسرية ببعض قبائل الشمال؛ وطلب منه النبي ﷺ دراسة الوضع وأن يعلمه بمستجدّات الأمور، كما أمره بالتحالف مع أقصى ما يمكن من القبائل، ومن ثمّ أرسل النبي ﷺ أبا عبيدة قائداً لـ ٢٠٠ صحابي إضافي (وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب)؛ لأن المقاومة المعارضة قد تبدو أقوى من المتوقع؛ ولكن لم تكن الحالة كذلك واستطاعت هذه القوة الإسلامية (٥٠٠ مقاتل) من الوصول للأرض السوريّة، وتدعيم التحالفات القائمة، وتعزيزها بتحالفات جديدة أسهمت في تأمين هذه الجبهة التي كانت قبلاً غير مأمونة. هذه الحملة الاستكشافية الناجحة سُميت «**ذات السلاسل**» نسبةً إلى بركة ماء في أرض جُذام.
- ثم إنه عند اعتناق الحاكم الروماني في مَعان الإسلام (وهو عربي يُدعى فروة بن عمرو الجُذامي) قام الرومان بسجنه وصلبه وقتله.
- كذلك، فإن هرقل أقام صلاتٍ حميمة مع منافقي المدينة من المسلمين عبر أبو عامر (الملقب بالراهب الذي سمّاه النبي ﷺ أبو عامر الفاسق) الذي قاتل المسلمين في معركة أُحد، ومن ثمّ هرب من المسلمين إلى حضن هرقل وحمايته. وقام هرقل بحثّ المنافقين لبناء مسجد المعارضة كوكر للتجسس ووعدهم هرقل بقدومه

مع جيش روماني كبير لغزو المدينة. وهؤلاء المنافقون دعوا النبي محمداً ﷺ للصلاة في مسجدهم، لكن جبريل أخبره أن لا يُصلي فيه. ومن ثم أمر النبي محمد ﷺ أصحابه بحرق المسجد هذا. والله تعالى يوثّق (مسجد الضرار) هذا في القرآن:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

- ورداً لأخبار التهديد والإنذار أن جيش الروم قد تهيأ لغزو المدينة: عبأ النبي محمد ﷺ أواخر آب أو أيلول ٦٣١ م، أكبر جيش عربي مؤلف من نحو (٣٠٠٠٠) مقاتل مسلم في غزوة تبوك (التي حُضّر لها علناً في فصل الصيف الحار) وسار به النبي ﷺ إلى التخوم البيزنطية. فقام الجيش الروماني بقيادة هرقل بالانسحاب دون قتال، بينما أقام جيش المسلمين في تبوك مدة عشرين يوماً، وبعد تحالفات مع القبائل النصرانية (التي وافقت على دفع الجزية لقاء حماية المسلمين لها من الروم)، قفل جيش المسلمين راجعاً إلى المدينة دون قتال.

وهكذا وبعد أقل من ٥ سنوات لاحقة (وبعد وفاة النبي محمد ﷺ في ٦٣٢م)، شهد هرقل وجيوش إمبراطوريته الرومانية البيزنطية الجرّارة مجيء الإسلام على عتبات دورهم: والحقيقة أنه قد زارهم جيش مسلم صغير جداً بالمقارنة معهم ودحرهم في معركة اليرموك الفاصلة في ٦٣٦م، حيث انتزع المسلمون منهم جناح الإمبراطورية الرومانية المتوسطي الشرقي المحتل والذي ظلّ بعدها بيد المسلمين إلى الأبد، وبعدها صارت الإمبراطورية الرومانية مجرد ظلّ مع مقاطعة أرض صغيرة تحيط بعاصمتها القسطنطينية.

مواصفات القرآن الفريدة

لذلك أصبح القرآن منارة النور الهادي الوحيدة (الحق الخالص غير المخلوط بأي كذب): لذا كان تشديد الله المستمر على أهمية القرآن، فقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال النبي محمد ﷺ: (خيرُكم مَن تعلّم القرآن وعلّمه). رواه الستة إلاّ مُسلم. **والقرآن كتابٌ يتمتع بعددٍ من المواصفات الخاصّة به وحده،** واليك بعض هذه المواصفات وهي كما يأتي:

١. **القرآن الكريم صدقاً هو كلامُ الله حقيقةً، مُنزّلٌ غير مخلوق، أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة:**

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ويؤكد الله أن العربية هي اللغة التي اختارها للتنزيل، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقد أنزله الله عبر رأس الملائكة جبرائيل إلى محمد ﷺ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٢-١٠٣].

وأن محمداً ﷺ قد اصطفاه الله عز وجل عمداً وإنه أميٌّ معروف (لا يقرأ ولا يكتب)، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وقال جلّ وعلا: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨).

القرآن حقاً كان معجزة النبي محمد ﷺ الأبدية الكبرى، وخلافاً لجميع الأنبياء الآخرين استمر (القرآن) بعد موته ﷺ: ليكون مغناطيس جاذبيّة واستلهاماً للبشرية، مما أدّى إلى تحوّل أعداد كبيرة من الناس للإسلام جيلاً بعد جيل، وبعد مدة طويلة من وفاة النبي محمد ﷺ. وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**). صحيح البخاري، الحديث رقم ٣٧٩.

وشهد جلُّ صحابة النبيّ ﷺ بأعينهم الوحي عندما يصبح النبي ﷺ ساكتاً وصامتاً (لكنّ شفتيه تتحركان) وكان جميعهم يسمع صوتاً كأزيز النحل. هذا إضافة إلى أن الكثير (بمَنْ فيهم عمر بن الخطاب الخليفة الثاني) قد رأوا جبريل على هيئة رجل لم يروه من قبل البتة.

ومعجزات النبي ﷺ عديدة وقد شُهدت بالعين جميعها من قبل الصحابة، فمثلاً الماء المتدفق بين يده وأصبعه شوهد مرات عدة وفي الصيف الحار في صحراء الجزيرة العربية، فإنه شوهد مرة من قبل ٨٠ صحابياً، ومرة من قبل جميع الذين شهدوا صلاة العصر؛ ومرة من قبل ٣٠٠ صحابي الذين شربوا كلهم وتوضؤوا لصلاة منه. في الحديبيّة كان هناك بئر واحدٌ فقط وكان جافاً، فجلس النبي ﷺ على حافة البئر وتمضمض ثم مجَّ فيه، فعلا البئر بالماء بعد ذلك (شهد هذه الحادثة قرابة ١٤٠٠ صحابي). وأيضاً في صلاة جمعة وبعد فصل الصيف الحار الطويل، جاء رجلٌ يتوسل للنبي ﷺ أن يسأل الله أن ينزل المطر، فاستجاب النبي ﷺ له مباشرة بدعاء إلى الله، وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى هطل ماء المطر بكثرة طوال أسبوع فجاء الرجل الجمعة المقبلة صارخاً: يا رسول الله لقد غرقنا، فبدأ الآن النبي ﷺ يدعو الله: (**اللهم حوالينا ولا علينا، واللهم على الآكام والجبال والظراب ومنابت الشجر**) وهكذا شهد جميع صحابة المسجد النبوي (بأعداد تصل عدة آلاف) بأعينهم انجياب السحاب وتكشطه عن المدينة حتى أحدق بها كالأكليل (تمطر حولها ولا تمطر بالمدينة قطرة).

وفي غزوة تبوك (أضخم غزوة في تاريخ الجزيرة العربية)، أصابت الناس (وهم ٣٠،٠٠٠ جندي) مجاعة بسبب نفاد الزاد المحمول في هذا المسير الطويل بالصحراء في موسم الصيف القائظ، فاستأذنوا النبي ﷺ بنحر بعض نواضحهم (من الفرس والنوق)، فتدخّل عمر بن الخطاب متسائلاً: يا رسول الله كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً؟ إن فعلوا قلّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادعُ الله لهم فيها بالبركة لعلّ الله أنْ يجعل فيها البركة، فقال رسول الله: «**نعم**» فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكفّ ذرة، ويجيء الآخر بكفٍّ من التمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم: «**خذوا في أوعيتكم**» فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في

العسكر وغاء إلا ملؤوها وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة . فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبدٌ غيرُ شاكٍ فيحجب عن الجنة» رواه مسلم والإمام أحمد. وهذه الحادثة شاهدها بالعين ٣٠٠٠٠ جندي مسلم في هذه الغزوة.

كما تنبأ النبي ﷺ (بما أخبره الله بوساطة جبريل) عن السقوط المستقبليّ والنهاية لكلّ من الإمبراطوريتين الفارسيّة والرومانية على أيدي المسلمين؛ وهكذا كان في عام ٦٤١ م، كما تنبأ النبي ﷺ بعد أقل من عقد من وفاته (في عام ٦٣٢ م). كذلك فإنه تنبأ بالتخصيص سقوط القسطنطينية استثنائياً على أيدي جيش مسلم متميّز بقيادة "مير متميّز: وهكذا كان في عام ١٤٥٣ م، كما تنبأ النبي ﷺ بعد أكثر من ٨ قرون على يد السلطان محمد الفاتح، مع جيشه العثماني، أعظم آلة عسكرية في التاريخ (كما قرر ذلك بعض المؤرخين).

٣ القرآن جاء برسالة عالميّة للمخلوقات كلها: البشرية، والجنّ، وكل ما في الكون وسماواته وأرضه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وإنّ موسى وعيسى قد أرسلا خصوصاً لبني إسرائيل: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الصف: ٦]. ولكن بالناصية الأخرى فإن محمداً ﷺ قد أرسل إلى البشرية كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

إن رسالة الإسلام العالمية تمتد إلى العالمين أو العوالم جميعهم (من كل المخلوقات من إنس وجنّ وكلّ ما هو موجود)؛ ذلك لأنّ النبيّ محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وبه تختم النبوّة فقال تعالى في ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولذلك فإن الإسلام يربط المسلمين ببيئتهم المُحيطة: كونهم جميعاً مخلوقات الله فعليهم أن يتعاونوا مع الطبيعة كونها مخلوقاً من مخلوقات الله أيضاً. لهذا فكرة «الصراع ضد الطبيعة» غريبة على الإسلام. وبدلاً من ذلك، فالله ينصّ بوضوح على «**تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان**»، وبناءً على ذلك فمفهوم «الصراع» يجب الاستعاضة عنه بـ «استخدام الطبيعة وتوظيفها» من الإنسان المؤتمن من قبل الله خليفةً على الأرض، موكول له مسؤولية الطبيعة أو البيئة؛ لاستثمارها وتنظيمها وإدارتها، للسيطرة على البيئة بأفضل الطرق الممكنة. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل ١٢-١٦].

وكذلك فإن فكرة «ماما الطبيعة» أو «فعلُ الطبيعة» هما مفهومان غريبان عن الإسلام. وحين تخرجُ الطبيعةُ (في ذاتها مصطلحاً شاملاً للعديد من مخلوقات الله، ففي قاموس الفيروزآبادي تعرّف الطبيعة أنها الخليقة) عن سيطرة الإنسان، فذلك يُفسّر إسلامياً على أنه «فعلُ الله» أو «الجزاء الإلهي» أو عقاب جزئيّ ابتُلي به بسبب ظهور الشرّ الممثل بالذنوب ومعصية الله. يفسر ذلك قول الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وتؤيد الأحاديث النبوية الصحيحة هذا المفهوم الإسلامي من أنّ انتشار الذنوب هو سبب النوازل (المسماة بالكوارث الطبيعية) وسبب قلة الأرزاق (تضييق البركة في الرزق لا الحرمان في أصل الرزق: لإن الرزق لا تزيده الطاعة، ولا تنقصه المعصية: حسب أحاديث أخرى)؛ سواءً كان ذلك على المستوى الفرديّ، أو على المستوى الجماعيّ. عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يردُّ القدرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ**». رواه الإمام أحمد في مسنده. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ قال: «**إذا ضنّ الناسُ بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة (الربا)، واتبعوا أذناب البقر (اهتموا بالزراعة أي بالدنيا المادية فقط) وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاءً، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم**». رواه الإمام أحمد في مسنده ولفظ أبي داود للحديث: (**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**). والحديث أخرجه أيضاً الطبراني وابن القطان وصححه.

بل إنّ انتشار الفواحش هي من أسباب سقوط الحضارات أيضاً: قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، فالماء هو أصل قيام الحضارات في العالم: مثل: حضارة وادي الرافدين (دجلة والفرات)، وحضارة وادي النيل، وغيرها في الهند والصين ممن قامت على ضفاف الأنهار.

فكان عدمُ الاستقامة على طريق الإسلام سببٌ في تضييق الأرزاق وتقويض الحضارات؛ بل إنّ النوازل من بأساء (كالفقر وضيق العيش) وضرّاء (كالأمراض والأسقام والآلام) يجب أن تكون داعياً للرجوع إلى الله تعالى. وقد تكون وفرة الأموال والأولاد والأرزاق للظالمين الذين لا يرجعون إلى الله، هي فتنة استدراج لهم في هذه الدنيا، قبيل استئصال حضارتهم المنحرفة: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (**يا معشر المهاجرين! خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن:**

١. **لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا،**
٢. **ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم،**
٣. **ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا،**
٤. **ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم،**
٥. **وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله يتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**). رواه ابن ماجه واللفظ له، ورواه البزار والبيهقي، وذكره الحافظ المنذري في الترهيب من بخس الكيل والوزن.

٣. **يتميز القرآن بالشمول والكمال ليكون منهج حياة**: لذلك فالانفصام بين الحياة والدين، أو العلمانية التي تفصل الحكومة عن الكنيسة في النصرانية هي غير معروفة تماماً في الإسلام: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ونقرأ في موضع آخر قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

٤. **وهو كتابٌ نظري وعمليّ**، فإنه نزل بأوامر الله للعمل بها وتواهيه لاجتنابها ثم إنه أُنزل للتعبد به وتلاوته طلباً للأجر وحصول الثواب، فهو **كتابٌ للعمل** (كان صحابة النبي ﷺ يحفظون كل آية من القرآن، فيعملون بها، ثم يتحولون لحفظ الآية التي بعدها). اهمية فهم رسالة القرآن لا بد منها وهي كأهمية التلاوة. والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

٥. **إن الله سبحانه وتعالى أكمل به الدين للناس كافة**... فقال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لذلك فالنبي محمد ﷺ هو خاتم النبيين ومعجزته (أي القرآن) تشمل رسالات التوحيد الأخرى قبله كلها. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٣-٨٥].

ولذلك كان القرآن حارساً لكل الكتب التي أُنزلت قبله (قبل أي تحريف) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

٦. **القرآن معجزة الله الخالدة والرسالة المنزلة على النبي محمد ﷺ على مرّ الأزمان والعصور وحتى يوم القيامة.**

ولمن شكّ في نظم هذا القرآن فإن الله العظيم قد تحدى أكثر العرب فصاحةً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو سورة واحدة تشبه القرآن، ولكنهم حتى يومنا هذا عجزوا عن ذلك. إنّ نُقّاد القرآن قد صُفعوا بالخرس أمام بلاغته التي لا توصف وجماله الأخّاذ.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

فعندما قام مُسيلمة الكذّاب بإخراج روايته من القرآن الكاذب، أدرك العرب وبسهولة أنه مهزلة من صنع البشر ولا يمكن أن يكون من مصدر إلهيّ. وقد عُدّ مرتداً ودُحر تماماً بجيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد؛ ومن ثمّ قُتل مسيلمة الكذاب وقُطع رأسه.

كذلك فإن الغزو الأمريكي للعراق في آذار ٢٠٠٣، جلب معه الديمقراطية المزعومة، ومعهم قرآن جديد يُدعى (الفُرقان الحق) المُحرر من قبل (المهدي) عضو في مشروع (أوميغا ٢٠٠١)، (مكتوب بالعربية ومترجم إلى

الإنجليزية من قبل مبشّر نصراني عربي هو أنيس شوروش) بوصفه بديلاً للقرآن الكريم وأداة للتنصير، بسبب فشل البعثات التبشيرية وعدم النجاح للوصول إلى العالم الإسلامي عبر استخدام الطب والمدارس والكتب والأفلام والطرق الأخرى (باعتراف الناشر).

وهذا القرآن الجديد وزّع أولاً في الكويت ووصف أنه آيات الشيطان... بعد توزيعه على أطفال الكويت في المدارس الإنجليزية الخاصة! وهذا القرآن الكاذب هو كتاب من ٣٦٨ صفحة وفي ٧٧ سورة، مثلاً: السلام، المسيح، ثالوث الرّب، الصلب، النساء، الصيام، والصلاة. كل سورة تبدأ «باسم الأب، الكلمة، روح القدس، الرب الحق الواحد الأحد». وهو يقرر أن الجهاد مُحرم؛ بل يتعدى على الله سبحانه وتعالى. وهدف الكتاب هو تقديم الإنجيل النصراني للعرب في نثر وأسلوب شعري للغة الكلاسيكية للقرآن العربي (كما يدّعون) الفرقان الحق يُدعى أنه كُتب في (٧) أيام بادعاء من استلهام الصافي، بينما تسلّم محمد وحي القرآن في (٢٣) سنة، وهذا يعني بالضرورة الكثير من النسخ واللصق الإلكتروني مع مزج ولحم النصوص المختزة من مصادر بشرية (لا إلهية) خليطة.

ولكن كل من يقرأ النسخة الأصل أو الترجمة الإنجليزية سيرى أن هذا الشيء لا يمتلك النظام ولا الأسلوب ولا الثقة ولا محتويات فريدة في كتابه الأصل.

إنه محاولة يائسة لإيجاد طريق ما لتنصير المسلمين لأن العديد من مئات السنين من الجهود المتكاتفة لم تأت إلا بنجاح ضئيل. إن هذا القرآن المسخ هو مهزلة من صنع البشر يكون مآلها سلّة التاريخ للأوراق المهملة والقمامة. والموقع الإلكتروني في الشبكة العنكبوتية سرعان ما هوجم من قبل المسلمين وغير المسلمين على السواء، مما أدى إلى رفع الموقع من خطوط الشبكة العنكبوتية.

وكل الدول الإسلامية رفضته، بل حتى حكومة الهند منعت الكتاب من دخوله للهند رقم ٧٨/ ن ت (٧ أيلول ٢٠٠٥): (الحكومة المركزية وللحفاظ على السلام في الهند، تمنع مُطلقاً استيراد الكتاب المُسمى «الفرقان الحق» والمدعو «قرآن القرن الحادي والعشرين» المطبوع في الولايات المتحدة الأمريكية منه أو أي طبعة أو ترجمة أو أي وثيقة تستنسخ أي شيء من قبل أوميغا ٢٠٠٠ ومطبعة الخمر، بما يشمل (منع) أي مقتطفات منه).

٧. **إنه أنزل لإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له (التوحيد):**

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾[هود: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[البينة: ٥].

أحد المعاني الضمنية لوحدانية الله هو مُساواة كل البشر أمام الخالق الواحد الأحد. فلذلك لا تفوّق لأحد الأجناس ولا تدني لجنس آخر (إلاّ بالتقوى)؛ ولا يحق شرعاً لأي قوة بشريّة عُظمى ولا تفويض لها كي تستغل، أو تستبعد، أو تُسيء للضعيف أو الأضعف من الأمم وكأنها الربّ بسبب إيمانها أن (القوّة هي الحق).

فمهما بلغت القوة والعظمة اللتان يبلغهما الإنسان ويجمعها، فهناك دوماً الله الأكبر وصاحب القوة المطلقة فهو العظيم المذّل المُعز. ونتيجة أُخرى لهذه المساواة هي إخوة ووحدة الأمة المسلمة وهي الأسرة الكونية الكبرى.

المعنى الضمني الآخر لوحدانية الله (التوحيد) هو أن الله هو الحاكم المطلق لهذا الكون، المدبّر لشؤون الملك وهو ملك الملوك كلهم: لذلك فهو مُشرّع القوانين الشرعيّ الوحيد للبشرية، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[يوسف: ٤٠].

ولذلك فكلّ الملوك والحكومات والأمم والأفراد مسؤولون أمام صاحب الجلالة (الله) في هذه الدنيا وفي الآخرة.

والمعنى ضمني للتوحيد هو الإيمان بالله وحده، ضامناً لنصر المسلمين (انظر أسفل الصفحة). الإيمان بالقدر خيره وشره هو ركنٌ مهم في الإيمان الإسلامي. وكلا الإيمانين هذين (الإيمان بنصر الله وبقدره) هما مسؤولان عن الانتشار السريع للإسلام من قبل مُسلمين حريصين على القتال والموت لنشر رسالة الله العالمية، شديدي الفرح للوصول لهذا الهدف الكبير.

٨. **لأنه منهجٌ متكاملٌ لجميع شؤون الحياة الروحيّة والعقليّة والسياسيّة والاجتماعية والاقتصادية فهو منهجٌ قابل للتطبيق في كلّ زمان ومكان وأمّة:** ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

٩. **إن الله قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم كلّه وإلى الأبد من كل تغيير أو تحريف كما يقول عزّ وجلّ:** ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقد حُفظ القرآن الكريم بغاية من الإتقان في الصدور والسطور كما أنزل على رسولنا محمد ﷺ، ولم يتغير ولم يتبدل ولا كلمة واحدة منه على مرّ الأزمان، وهكذا يبقى إلى أبد الآباد بإذن الله تعالى.

١٠. لما كان القرآن رسالة الله الخالدة الحقّة، فإنه **يُظهر معجزات علميّة عدة وبذلك يدمج العلم بالدين.** لذلك فإن في العالم الإسلامي مشاهير العُلماء والأطباء هم مسلمون أتقياء أيضاً: كُتُبهم دوماً تبتدئ بحمد الله (ربّ السموات والأرض وكل ما بينهما) مع الصلاة عن النبي محمد ﷺ. الفصام النكد الأوروبي بين العلماء ورجال الدين غريبٌ على المسلمين: وانفصال العلم عن الكنيسة غير معروف ألبتة في العالم الإسلامي. الله تعالى يقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وإن أول الآيات المُنزلة على النبي محمد ﷺ أمرته (والمسلمين) بالقراءة والكتابة بالقلم، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥].

إنّ المعجزات النبوية كانت عديدة، ولكن كونه خاتم الأنبياء فلا بد أن تكون طويلة المدى بعد وفاته (بالمقارنة مع معجزات الأنبياء الآخرين المشهورة من أتباعهم في تلك الحقبة الزمنية): وتعني القرآن معجزة محمد ﷺ الكبرى الخالدة وهو يحوي العديد من المعجزات العلمية التي تضفي دلالة إضافية مؤيدة لنبوة محمد ﷺ **بعد** موته وأن القرآن هو حقاً كلام الله. لذا فإن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن المشركين يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، لكنهم عنيدون جداً فلا يقرون بذلك: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

خذ مثلاً أكثر الآيات إثارة للجدل:

انشقاق القمر، وهذه آية كونية كبرى، التي لا يصدقها الكثير من الغربيين في الماضي: والحقيقة حتى بعض المسلمين يعتقدون أنها أسطورة (أو خرافة).

عن أنس بن مالك، «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما». رواه البخاري في صحيحه، لكنَّ أهل مكة قالوا له (بعد ذلك): سحرنا محمد.

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١-٣].

أ. الدليل العربي، شهود العيان في المنطقة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي ﷺ: (اشهدوا) رواه البخاري.

وحسب المودودي، فإن علماء السلف والرواة اتفقوا أن هذه الحادثة حصلت عند منى في مكة قبل ٥ سنوات من هجرة النبي إلى المدينة. انشق القمر إلى فلقتين واضحتين أمام أعينهم. وهذان الجزءان انفصلا بعضهما عن بعض وتراجعا حتى رأى أهل مكة كل فلقة على جانب جبل يفصلهما. ومن ثمَّ، وفي لحظة التحم الجزءان ثانية (ليعود القمر كما كان). وهذا إثبات جليّ لحقيقة أن نظام الكون ليس سرمدياً أ_ أنه لا يفنى بل يمكن تعطيله. والحادثة هذه تشير إلى أن النجوم الضخمة والكواكب يمكن أن تنشق إلى قطع، وتنحل بعضها عن بعض، وتتصادم بعضها مع بعض وكلّ ما وصفَ في القرآن عن يوم البعث والنشور يمكن حدوثه

والنبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) قد دعا أن يكون انتباه الناس للحادثة هذه بالذات وهم يرون القمر وطلب منهم عدَّها مَعْلَماً وشهداء عليها. لكن الكفّار وصفوها بالسحر الوهمي واستمروا في تكذيبها. وقد وُبخوا في سورة القمر على عنادهم.



التعبير الإسلامي الفني لانشقاق القمر واحدة من معجزات محمد ﷺ

ب. الدليل البريطاني: شهود عيان عالمياً

تتعلق الحادثة بالملك (شكرواتي فرماز) وهي موثّقة في مخطوطة قديمة في مكتبة دائرة الهند في لندن، مرجع رقم: عربي ٢٨٠٧، ١٥٢-١٧٣. وهو مذكور في كتاب «محمد رسول الله» لـ م حميد الله: (هناك تقليد قديم في «مالابار» ساحل جنوب غرب الهند، أن شكرواتي فرماز، أحد ملوكهم، قد أبصر وشهد انشقاق القمر، المعجزة

المحتفى بها للنبي الكريم ﷺ في مكة، مُستعلماً منه النبوة بمجيء رسول الله من الجزيرة العربية، فعيّن ابنه وصيّاً للرحيل وللالتقاء بالنبي. فاعتنق الإسلام على يد النبي وعند رجوعه لبلاده وبتوجيه النبي، مات في ميناء زفر (أو ظفار) باليمن حيث مرقد (الملك الهندي) الذي كان يُزار لتقواه لعدة قرون. وبسبب هذه الحادثة لملكهم هذا، فإن أهل «مالابار» كانوا أوّل جماعة اعتنقت الإسلام في الهند وبعد ذلك ازدادت التجارة مع العرب حيث صارت السفن العربية تستخدم شواطئ «مالابار» في طريقها للصين. وقبل بزوغ نجم النبي محمد ﷺ فإن «مالابار» كانت أيضاً مجتمعاً نصرانياً يعود تاريخه إلى أوائل أتباع النبي عيسى (عليه السلام): القديس توماس يُعتقد أنه هاجر إلى الهند ومات هناك. ومجتمع «مالابار» هذا ظلّ بعيداً عن التطورات الدينية للنصرانية حتى مجيء الرحّالة البرتغالي فاسكودي كاما. وعندما عضد البريطانيون معاقلهم في الهند، حشدوا أكبر عملية بحرية (على شواطئ الهند) ضد مسلمي «مالابار».

جـ. دليل ناسا الأمريكي: خط تصدّع وانكسار القمر

يُظهرانشقاق القمر بوساطة ناسا (إدارة علوم الطيران والفضاء الوطني – مركزها في واشنطن د. س. مع مراكز ميدانية عبر البلاد) أن القشرة تحت السطح تشوّهت بسهولة مُسببة تشقّقاً وغوصاناً لتكوّن تصدّعاً يشبه جدولاً مستقيماً... وهو في الحقيقة خط تصدّع متكوّن من زلزال قمري في الماضي القديم... ناسا خط التصدع والانكسار القمري (انظر الصورة أدناه).



أكّد العلم فعلاً أن القمر قد انشق (تصدّع) كما ذكر الله العظيم في قرآنه الكريم منذ ١٥٠٠ سنة. ثم إن هناك شهود عيان كثيرين شاهدوا انشقاق القمر إلى نصفين بوصفه آية تثبت نبوة النبي محمد ﷺ وصحتها بتأييد الله العظيم. وهذه الحادثة الكبيرة قد شهدها شهادةَ عيانٍ أهل مكة وآخرون كثيرون كملك مالابار، وقد أوضحت حديثاً ناسا التي أظهرت خط التصدع (والالتحام) القمر.

ولا بد من التسليم أولاً أن القرآن العظيم لا يُمكن أن تترجم جميع معانيه لأيّ لغة ولا يمكن أن تكون الترجمة قرآناً باللغة الأجنبية لأن القرآن مُعجز بلفظه ومعناه وهو كلام الله سبحانه وتعالى أنزله على محمد ﷺ بلسان عربي مبين. ولكن لما كانت الترجمة وسيلة من وسائل نقل بعض المعاني وتيسير فهم القرآن وتدبّره لمن لا يعرف اللغة العربية وجب القيام بها نُصحاً للعباد وإبلاغاً لكتاب الله إلى من لا يعرف لغته، وقد تصدّى لمثل هذه الترجمات مجموعة من الناس لأداء هذه المهمة.

لقد كانت فضيلة هذا القرآن مدعومةً بالحديث النبويّ أن تجعل اللغة العربية لغة التداول العامة من منتصف القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن عشر؛ لأن معظم (إن لم يكن كلّ) الناس ذلك الزمان، إن كانوا مهتدين للإسلام أم لا، كانوا حريصين على تعلّم العربية بسبب الحاجة لأداء الواجبات الدينيّة؛ لتوسيع المعرفة في الحقول المختلفة؛ أو ببساطة لغرض التواصل في مُعاملات المال والأعمال.

صفات الله: وحدانية الإله (التوحيد)، جوهر العقيدة الإسلامية

جاء الإسلام ليُرجع الإنسان إلى خالقه ورازقه (الله) وليجعل هدايته الربّانية المصدر الذي تُستمدُّ منه القيم والمعايير؛ لأنه الوهّاب والخلّاق.

وحدانية الله مُشرِّعاً وحاكماً وحيداً هي الإعلان بالاستسلام لله والتحوّل إلى الإسلام. وإن وحدانية الله (التوحيد) هي جوهر الإسلام والأمر الأكثر جديّة بالمعرفة، يلخص في سورة الإخلاص التي تعدل ثُلث القرآن (القرآن يحوي ٣ أثلاث: ثلث للتوحيد، وثلثٌ للعبادات، وثلثٌ للمعاملات): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ [الإخلاص: ١-٤].

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ويصف الله سبحانه نفسه بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وربّما أحسن ما يصف الله نفسه في آية الكرسيّ، أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويقال إن الكرسي بالمقارنة للعرش لا شيء وإنما هو كحلقة مرميّة في فلاة. وإذا كان الكرسي يسع الكون كلّه فكيف هي عظمة العرش؛ حقاً إن الله خالق الكرسي والعرش هو الأعظم الأكبر سبحانه وتعالى.

وفي الإسلام جميع ما ورد في كتاب الله عز وجل من صفات الله تعالى كالوجه والعين واليد والساق والمجيء والاستواء (على العرش) من الصفات، أو مما وصفه الرسول ﷺ وثبت في الأحاديث النبوية الصحيحة كالنزول، والضحك، وغيرها فإن العلماء بالكتاب والسُّنة يؤمنون بهذه الصفات، ويثبتونها لله تعالى من غير تأويل أو تشبيه أو تعطيل، وهي صفات تليق بالله تعالى لا تشبه صفات أحد من المخلوقين لقوله تعالى:

(١) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. (٢) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

والله سبحانه يجلُّ نفسه ويميزها عن خلقه (وعن الإنسان) ومواصفاتهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

ثم يبين الله سبحانه السرّ الذي يكتنف عيسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

إن النصارى أطروا عيسى حتى اتخذوه إلهاً مع الله — وبا للأسف —. روى عمر (الخليفة الثاني في الإسلام): سمعت رسول لله ﷺ يقول: (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله**). صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٥٤. لذلك خاطب الله عز وجل أهل الكتاب بقوله:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٢].

في عام الوفود (١٠ هجري ٦٣١ ميلادي) وفد نصارى نجران (باتجاه اليمن ونحو ١٥٠ ميلاً شمال صنعاء) إلى المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وهو وفد من ستين راكباً. وقد أعجبوا جداً بالنصّ القرآني الذي يشرح وضع المسيح الحقيقي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

إذا كان عيسى عليه السلام قد وُلد من دون أب بشري فإن آدم عليه السلام لم يكن له أب ولا أم من بشر. لكن العادات والتقاليد المتأصلة فيهم منعتهم من اعتناق الإسلام جماعةً آنذاك. ومن هنا يكمّل القرآن النصّ المذكور آنفاً بتحدي إيمان هذا الوفد، فقال تعالى:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠-٦١].

لذلك فإن النبي الكريم ﷺ بثبات إيمانه دعاهم (للمباهلة) وهو اجتماع جليل مهيب (بشكل منازلة) حيث يستدعي كل طرف من أطراف المنازلة لا رجاله فقط، بل خصوص أهله من نسائه وأبنائه، ثم يُصلّون لله بكل جدٍّ واجتهاد متضرعين إليه بصدق أن يُنزل لعنته (لعنة الله) على الكاذب. والذين لهم إيمان صادق وحقيقي لن يترددوا البتة. لكن وفد النصارى ضعفوا ورفضوا، ومن ثمّ قبلوا دفع الجزية للدولة الإسلامية وصُرفوا بروح تسامح الإسلام على أن تدافع عنهم دولة الإسلام لقاء جزيتهم هذه. وعندما رفضوا قبول التحدي (والذي وثّقه القرآن للتاريخ)، فإن الله سبحانه وتعالى قرر حاسماً أمر المسيح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

ومع كل ذلك فإن عضواً واحداً من هذا الوفد قد اعتنق الإسلام اسمه (كوز ابن علقمة) لأنه حين عثرت البغلة التي تحمل أخاه (أبو حارثة بن علقمة) وهو أحد القادة السادة الثلاثة لوفد نجران) في الطريق من نجران إلى المدينة، حدثت هذه المحادثة المثيرة للذكر والانتباه بين هذين الأخوين:

قال كوز: تعسَ الأبعد! يريد رسول الله ﷺ.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال كوز متعجباً: ولِمَ يا أخي؟!

قال أبو حارثة: والله إنه للنبي الذي كنّا ننتظر،

فقال له كوزٌ: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟

قال أبو الحارثة: ما صَنَعَ بنا هؤلاء القومُ (الروم البيزنطيون): شرّفونا ومَوّلونا وأكرمونا (بالمال والهدايا والخدمات)، وقد أبوا إلاّ خلافه (خلاف محمد)، فلو فعلتُ (اعتنقت الإسلام)، نزعوا (الروم) منّا كُلّ ما ترى. فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمه حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يُحدّث عنه هذا الحديث. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص ٥١٠.

ويقرر الله سبحانه وتعالى عدم منطقية وجود أكثر من إله واحد لهذا الكون، فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

ثم يؤكد سبحانه حقيقة بشرية عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

كذلك فإن نهاية حياة عيسى على الأرض مُكتنفة بالأسرار كولادته. لكن الله تعالى يشرح بالضبط ما حصل لعيسى بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

وقوله تعالى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ هنا لها تفسيران: قبل موت عيسى وبعد نزوله من السماء، الذي يعني أن عيسى لا يزال حيّاً بجسمه وإنه سيظهر قبيل اليوم الأخير (للدنيا) بعد مجيء المهدي (إمام أو قائد المسلمين) عندما يُصفّي العالم من الإثم والشرك، ثم يكون موته الأخير قبيل يوم القيامة، لكن الجميع سيؤمن به قبل موته الأخير هذا. وهناك آخرون يعتقدون «قبل موته» تعود على «الواحد من أهل الكتاب»، أي قبل موت اليهودي أو النصراني، عند ظهور ملك الموت عندما يعتقد أن عيسى لم يكن سوى رسول الله دون اشتراكه بالألوهية إن التشديد (ليؤمننّ) تشير إلى مسألة الوجوب أكثر من الحقيقة.

إن الكنائس النصرانية التقليدية تجعل النقطة الجوهرية في مبدئها هي أن المسيح فارق الحياة على الصليب وإنه مات ثم دُفن، وإنه في اليوم الثالث خرج صاحياً بجسده وبجروحه كما هي، ثم مشى وتحدث وأكل مع حوارييه، ومن ثمَّ ارتفع بجسده إلى السماء. وهذا ضروري للمبدأ الكنسي (تضحية الدم والتكفير البديل عن الخطايا البشرية) وهو مبدأ مرفوض في الإسلام.

لكن بعض الطوائف النصرانية الأولى لا تؤمن بقتل المسيح على الصليب:

- البازيليديّون يؤمنون أن شخصاً آخر استبدل به عن المسيح.
- الدوسيتيّة يعتقدون أن المسيح لم يكن له جسم فيزيائي أو طبيعي وإنما جسم ظاهري أو خيالي وإن صلبه كان شيئاً ظاهرياً وليس حقيقة.

- الإنجيل المارسيوني (نحو ١٣٨ ميلادي) يرفض ولادة المسيح وإنما يقول فقط إنه ظهر في شكل بشري.
- إنجيل القديس برنابا يؤيد نظرية الاستبدال على الصليب.
- التعليم القرآني يقول: إن المسيح لم يُصلب ولم يُقتل من قبل اليهود آخذاً في الحسبان الظروف الظاهرية المعينة التي أدخلت خُداعاً بصرياً في عقول بعض أعدائه؛ وإن الجدال والظنون والحدس في هذه الأمور يجر الخيبة؛ وإنه قد رُفع إلى الله.

إن الإمبراطور الروماني قسطنطين هو الذي آمن بالنصرانية لتوفر له وسائل سياسية وعسكرية كبرى في تدعيم مُلكه؛ وقد ادُّعيَ أنه في مساء معركة مهمة رأى الإمبراطور صليباً في السماء مع هذه الكلمات: «بهذه العلامة سوف تنتصر».

وضع قُسطنطين النصرانية على قدم المساواة مع الوثنية، فبدأ وثنيو العالم الروماني يقبلون المسيحيّة الجديدة بمئات الألوف جالبين معهم عاداتهم الوثنية. وهو ساعد الرومان على التكيّف مع النصرانية، ولكن ليس في رسالة النصرانية الصافية الفريدة. شابهت المسيحية الجديدة عناصر معينة في المعتقد الروماني ولا سيَّما عبادة (مِثرا) حامي الإمبراطورية والمرتبطة بآلهة الشمس هيليوس وأبولو. وفي الحقيقة فإن مثرا أو مثراس هو إله النور وحامي الحقيقة وعدو قوى الظلام عند قدماء الفرس، ثم انتقلت عبادته عند الإمبراطورية الرومانية وشاعت هناك: مثريوم (جمعها مثراي) هو غارٌ أو معبد مقدس للإله مثرا والمثرائية هي المعتقد أو عبادة مثرا (إله النور). ميلاد مثرا في ٢٥ كانون الأول والقريب لانقلاب الشمس الشتوي أصبح ميلاد المسيح إنه وُلد في نهاية الصيف – انظر تحت المكرّس (كرايست) في معجم الفردوس]. صعود مثرا الموافق لرجوع الشمس للظهور عند اعتدال الليل والنهار الربيعي أصبح عُطلة (أيستر) المسيحية. ثم إن المسيحيين اتخذوا المعبد الكهف المُخصص لمثرا في روما على تلة الفاتيكان وجعلوه مركز الكنيسة الكاثوليكية. لقب القديس العالمي لخدمة مثرا: الأب والأبوي أصبح هو لقب أسقف روما: بابا أو بوب. والمؤتمرات الحديثة بدأت تناقش ذات المسيح: المباحثات المطوّلة انتهت بنتائج مضطربة ومنقسمة نوعاً ما لهذا الموضوع خارج نطاق هذا الكتاب].

وقد أكّد الله المجيء الثاني للمسيح في الأيام الأخيرة قبل البعث عندما يقوم بتحطيم المبادئ والشعارات الكاذبة المذكورة تحت اسمه زوراً، ويهيّئ للقبول العالي للإسلام، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

الإسلام المعتقد القديم الحديث ومنهاج الحياة الشامل [٤١ ا، ب، ج] [٥١ ا، ب، ج]

ليس الإسلام ديناً بالمعنى الضيق للمبدأ الروحي. إنه طريقة للحياة والتفكير والقول والعمل: الإيمان بلا فعل دون معنى. وفي الإسلام مصطلح العبادة يعني كلّ الطيف الواسع لأعمال الحياة. الإيمان وازع العمل، والعمل يُخرج الإيمان إلى العالم، حيث يمكن له أن ينمو ويتقوى. لذلك قال النبي محمد ﷺ: (**بُنيَ الإسلام على خمس: شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان**). (رواه البخاري ومسلم)

وعن عمر (ابن الخطّاب، الخليفة الثاني) رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ ذات يوم؛ إذ طلَعَ علينا رجُلٌ شديد بياض الثياب، شديدُ سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفُهُ منّا أحد حتى جلَسَ إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبتيه إلى رُكبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمّداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم**

رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال صدقت. فأخبرني عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». والحديث في صحيح مسلم.

لذلك فبإيجاز: الإسلام هو الخضوع التام لله ولهدايته؛ وبناءً على ذلك فجميع الأنبياء مسلمون من وقت آدم، وإبراهيم، ويعقوب، وعيسى وحتى محمد خاتم الأنبياء «صلوات الله عليهم أجمعين». وقد وثّق الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة المهمة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

إن وحدانية الله تتجلى في وحدانية الرسالة: رسالة الإسلام الخالدة من الله الواحد الأحد عبر أنبيائه العديدين من آدم إلى محمد إلى الأجيال المتعاقبة عبر تاريخ البشرية. إن الذين آمنوا بهذه الرسالة الإسلامية (الاستسلام لله الواحد) هم أخوة يربطهم إيمانهم وينتمون إلى أسرة عالمية واحدة: هي الأمة الإسلامية الواحدة التي تمتد في أعماق التاريخ، سواء كانوا أتباع الأنبياء: نوح، إبراهيم، يعقوب (وأولاده الاثنا عشر)، وموسى، وعيسى، وانتهاء بمحمد، وأخيراً في رجوع عيسى قبل يوم الحساب. قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

بل إن الله يهدد ويتوعد من أي تفريق بين الرسل؛ لأنهم جميعاً من الله الواحد؛ فالإيمان ببعض الرسل ورفض الآخرين هو كفر صريح. ومن هنا جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وهكذا أعاد الإسلام ربط الماضي بالحاضر بقدر ما ربط هذه الحياة الدنيا بالآخرة. والإسلام أعطى البشرية مفهوماً جديداً من القيم والمعايير وأراهم الطريق لكي يتعلموا ويعيشوا هذه القيم والمعايير، كما زودهم بمفهوم جديد للعلاقات الإنسانية. كان لجيل الصحابة رؤية قرآنية نبوية منبثقة من معتقدهم الإيماني تفسّر لهم التاريخ والكون والحياة والإنسان بشمولية وتوازن، رؤية مكنته من فتح العالم المعروف آنذاك وإقامة نظام العالم القديم على أسس هذه الرؤية الشاملة والمتزنة (نظام العالم القديم هو العالم قبل اكتشاف كولومبوس للأمريكتين عام ١٤٩٢م التي سميت بالعالم الجديد)؛ وقد ترجم جيل الصحابة الفاتحين هذه الرؤية إلى عالم الواقع بمنظومة قيم وأخلاق جذبت عقول الشعوب المفتوحة واستأسرت قلوبهم للإسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وصارت العربية اللغة الإسلامية المفضلة للتواصل العالمي في نظام العالم القديم. ففي هذا العالم هناك حزب وحيد لله وحده وكل الأحزاب الأخرى هي أحزاب الشيطان والطاغوت. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وفي حياة الإنسان هناك نظام حقّ وحيد وهو الإسلام، وكلُّ الأنظمة الأخرى هي الجاهلية. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وهناك قانون واحدٌ فقط يجب اتباعه وهو شريعة الله: ما عدا ذلك هو الهوى المجرّد. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

والحق واحد لا ينقسم: وما عدا ذلك فهو ضلالٌ. قال الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ثم إن الإسلام يزوّد دستوراً للحياة، وقوانين ربّانية شاملة لتنظيم حياة الإنسان على الأرض طبقاً لتعاليم الإسلام. هذا الدستور الإسلامي لا ينظم القضايا الشخصية والروحية فحسب بل يتعداها لينظم شتى جوانب الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسيّة للمجتمع والعالم أيضاً.

لذا فإن المعاملات التجارية والقيم الأخلاقية لا تنفصل عن الإيمان والممارسات العملية اليومية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

كذلك فإن الإسلام جاء بهداية كاملة وتعاليم قطعيّة. جاء لرفع الإنسان إلى الأعلى وتحريره من قيود الأرض والتراب. فكلّ المخلوقات هي خلق الله وكلّ البلاد هي بلاد الله: فالإسلام رسالة عالمية والمسلمون لا يحدهم أرض الميلاد ولا تحدهم حدودهم الجغرافية القوميّة. لذا فكل العلاقات يجب أن تُبنى من الله لأننا جئنا الوجود بإرادته وسوف نعود إليه آخراً. علاقات الدم يقررها الإسلام فقط عبر صلاتهم بالخالق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وعندما تتأسس علاقة الإيمان سواءً كانت هذه علاقة دم أو غيرها، يصبح المؤمنون كالأخوة. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وهو تعريف ثم إنه وصفة علاجية. والنبي ﷺ يكمّل هذا بقوله: **(لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)**. رواه البخاري ومسلم.

وفي الإسلام فإن الزواج/ الأسرة هي مؤسسة موقرة جداً. لذا فالرهبانيّة المُمارسة في النصرانية ليست ممنوعة فقط: بل هي غير معروفة تماماً في الإسلام. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

كذلك فإن النبي يعدُّ الموقف الأخلاقي مع الزوجة والأسرة وضوحاً لكمال الإيمان بالله ولذلك قال ﷺ: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخياركم خياركم لنسائه)**. رواه الترمذي.

سُئلت عائشة (أحبُّ زوجة للنبي ﷺ) بعد وفاة النبي محمد ﷺ، عن أخلاق النبي محمد ﷺ (وتصرفاته) فأجابت (**كان خُلُقُهُ القرآن**)، مُشيرةً إلى أنه كان قرآناً متحركاً قد ترجم كل قيم القرآن الأخلاقية بأعماله: أي إن النبي ﷺ كان تجسيداً لمنهج القرآن الخُلُقيّ، لذا فإن النبي محمداً ﷺ قد وضع المعيار الأخلاقي الأعلى والمثل الذي يُحتذى لأتباعه ليقلِّده كل الأتباع المسلمين. ومن هنا مدح الله محمداً وطلب من المسلمين اتباع قدوته: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي (خطبة الوداع) للنبي محمد ﷺ قبيل موته، خطب في أتباعه، فقال: (**... أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً... واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً.. الناسُ لآدم وآدم من تراب... إن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين أخوة... ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**) هذه الكلمات أُلقيت بالعربيّة قد تبدو وكأنها من عصر حركة الحقوق المدنية، لكنها قيلت قبل ١٤٠٠ سنة، وهي تمثل أول تشريع لحقوق الإنسان.

وعلى الرغم من العقلية القَبَليّة للعرب فإن الممارسة الإسلامية قد حُميت بمؤسسة قانون العدالة لحماية رعايا الدولة الإسلامية؛ فالقانون الإسلامي يهدف إلى حماية العناصر الخمسة: الدين، والحياة، والمال، والعقل، والعرض. والحديثان النبويان الآتيان يشكّلان القاعدة القانونية للحياة المدنية في الإسلام، قوله ﷺ: «**لو يُعطى الناسُ بدعواهم لادّعى رجالٌ أموال قومٍ ودماءهم؛ لكن البيّنةُ على المُدّعي، واليمينُ على مَن أنكر**». رواه البيهقي وبعضه في الصحيحين.

وقوله ﷺ أيضاً: (**لاضرر ولاضرار**). رواه ابن ماجة والدار قطني ومالك. وكلُّ الناس (مسلمين وغير مسلمين) في العالم الإسلامي متساوون بحقوقهم الإنسانية أمام الله وأمام القانون الإسلامي، حيث يُحكم الناس بناءً على أعمالهم لا على أساس معتقداتهم.

وبالرغم من مؤسسة القانون الإسلامي هذه، فالإسلام يشجّع كلَّ المؤمنين على كظم الغيظ والعفو عن الناس ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ طلباً لثواب الله العظيم. وأعظم الثواب قد وُضع خصوصاً للمسلمين الصابرين.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والإسلام لا يميز (على أساس) تربة، ولا عنصر، ولا سلالة، ولا أُسرة؛ لأنه يقبل الإسلام فقط خضوعاً لله وحده وكل الصلات مبنيّة على هذا الإساس. وهكذا حرّر الإسلام كلّ الإنسانية من روابط الأرض لكي تُحلّق إلى العُلا كما حرّرها من أواصر الدم (القيود البيولوجية أو الحيوية) حتى يسمو للعُلا. وحين يعترف الإسلام بالطبيعة البشرية في ارتكاب الذنوب، فإن باب الله يبقى دوماً مفتوحاً لقبول التوبة من جميع البشرية مباشرة من دون الحاجة لأي وسيط؛ هذا فضلاً على تشجيع الإسلام لجميع المسلمين أن يعفوا (ويصفحوا) عن إخوانهم في الإسلام.

وعلى أساس الإسلام فإن صلات الدم كلها وأواصر السلالة وعلاقات الزواج التي لا تُقام على الإيمان الإسلامي، باطلةٌ. فالله سبحانه وتعالى يمدحُ المؤمنين:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

يبدو ذلك واضحاً في أواصر الدم بين محمد (عليه السلام) وعمه (أبي لهب) وابن عمه عمرو بن هشام (أبي جهل) المبتورة (لأنهما مشركان معاديان للإسلام). ثم إن المهاجرين المسلمين من مكة كانوا يقاتلون أسرهم وقاربهم المعادين للإسلام، بل كانوا في الصفوف الأولى لمعركة بدر، بينما في الجهة الأخرى كانت علاقات المهاجرين أنصار المدينة قوية على أساس الإيمان المشترك. وأصبحوا إخوة، بل كانوا أكثر من أقارب الدم (النسب). هذه العلاقة أسست لأخوّة جديدة للمُسلمين يشترك فيها العرب وغير العرب. صُهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي كانوا كلهم إخوة. ولم تكن هناك عصبية قبلية بينهم. شرف السلالة والنسب قد انتهى وصوت القوميّة قد أُسكت ورسول الله ﷺ خطبهم قائلاً: (**دعوها** – أي دعوا العصبية – **فإنها مُنتنة**) وقال ﷺ: (**ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة، وليس منّا من مات على عصبيّة**).

لذا فإن هذه العصبية (عصبية النسب والسلالة) قد انتهت: وهذا الشعار (شعار العنصرية) قد مات: وهذا الكبرياء (كبرياء القوميّة) قد اختفى: وحلّقت روحُ الإنسان إلى الأفق العالية، مُحرّرة من أواصر اللحم والدم ومن شرور التمسُّك بالتراب وبأرض الوطن. منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم قطعة الأرض بل حمى الإسلام (دار الإسلام): المعقل الذي يحكم فيه الإيمان وتسيطر عليه شريعة الله، الدار التي يتخذ منها ملجأً ويُدافع عنها، وفي محاولته تلك قد يستشهد. أصبح داخل هذه الأمّة المسلمة، حلم الكثيرين من المسلمين غير الناطقين بالعربية من الزواج أو المسلم الناطق بالعربية حلماً قابلاً للتطبيق واقعياً في دار الإسلام: لأن الجميع يشترك بحبّه للإسلام، وحُبّه لغة العربية (انظر أسفل تحت عنوان الأمّة).

وحقّاً إن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، لم يكن رحمة للبشرية فحسب، بل هو رحمة لكل المخلوقات. فهو الذي علّم احترام حقوق الحيوان وأمر: أن تُجنّب المُعاناة وأن تُعطى ما تحتاجه من الطعام، وأن تُعامَل بالحُسنى. فعن أبي يَعْلَى شدّاد ابن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتبَ الإحسان على كلّ شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة، وليُحدَّ أحدُكم شفرتهُ، وليرح ذبيحته**». رواه مسلم.

وقد شدّد الرسول على أن احترام الحيوان هو جزء من تعاليم الإسلام المهمة.[8] ففي ذكاة الحيوانات من أجل الطعام، لم يأمر النبيُّ ﷺ المسلمين باحترام مشاعر الذبح فحسب وذلك بقول: «**بسم الله، الله أكبر**» لتحليل قتل الحيوان حتى يؤكل. لكنه طالب أن يُعامل الحيوان بأحسن طريقة وأن يُجنّب أي معاناة غير ضرورية. فالنبي ﷺ يدخل ليقول (**أتريد أن تقتلها مرتين**)؟ (**لمَ لم تحدّ شفرتك قبل وضعها للذبح**) أو هكذا قال، ومن ثمّ فإن النبي ﷺ جعل حقوق الحيوان جزءاً من واجبات البشر وأن تُفهم على أنها أحد شروط السمو الروحي؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**عُذّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النّار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض**). رواه الشيخان.

وبالعكس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**غُفِرَ لامرأة مُومسة مرّت بكلب على رأس ركيٍّ يلهث قد كاد يقتلُهُ العطش فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفر لها بذلك**). صحيح البخاري.

فالنبي ﷺ يعد كل إحسان لحيوان فيه حسنة من الله: ولكنه يذمّ بشدة كُلّ مَنْ اشترك في تعذيب الحيوان أو استخدم معاناة الطيور مثلاً لغرض اللهو، أو قتل الطيور من أجل اللّعب: فعن ابن عمر رضي الله عنه أنه مرّ بنفر من قريش قد نصبوا طيراً (دجاجة) يرمونها، فلما رأوه تفرّقوا، فقال ابن عمر: «مَن فعل هذا؟ لعن الله مَن فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروحُ غرضاً».

ثم إنه حرّم وَسْمَ الحيوانات في الوجه: فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ عليه حمارٌ قد وُسِم في وجهه فقال: (**لعن الله الذي وسمه**)، وفي حديث آخر: «نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه». صحيح مسلم.

ونزلت سور عدة في القرآن الكريم تحمل اسم الحيوان تكريماً، فهناك ما لا يقلّ عن ٨ سور في القرآن الكريم تحمل أسماء الحيوانات الاجتماعية والحشرات:

١. البقرة.

٢. الأنعام.

٣. النحل.

٤. النمل.

٥. العنكبوت.

٦. العلق.

٧. العاديات (وهي الحيوانات التي تعدو كالخيل والإبل السريعة).

٨. الفيل.

كذلك فإنّ نصوص القرآن قد ذكرت أيضاً: الضأن (الشاة) والمعز، والنعاج (جمع نعجة)، والبقر، والغنم، والعجل، والبُدْن، والذبح (الكبش)، والقردة، والخنازير، والطير، والهدهد، وطائر السلوى، والغراب، والناقة، والإبل، والجمل، والعشار (النوق الحبالى)، والوحوش، والجوارح، والكلاب (ومكلّبين)، والذئب، والقسورة (الأسد)، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والذباب، والبعوض، والدوابّ (جمع دابّة)، ودابة الأرض (الأرضة)، والدودة، والحيّة، والثعبان، والفراش، والخيل، والحمير، والبغال، والعاديات (الخيل التي تعدو في الغزو)، والموريات (الخيل تورى النار قدحاً بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة بالليل)، والمغيرات (الخيل المُغيرة على العدو)، والصافنات (الخيل المنتصبة)، والجياد، وصيد البرّ وصيد البحر، والبحيرة، (الناقة أو الشاة إذا نتجت عشرة أبطن، تكون من خير الأنعام في الجاهلية فيبحروها؛ أي: يشقوا أذنها ويتركوها ترعى، فتكون مُعلّمة يحرم لحمُها ولبنها وركوبُها، فإن ماتت حل أكلها)، والسائبة (الناقة تسيّب؛ أي: تترك ولا تركب في الجاهلية بسبب نذر، أو إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث)، والوصيلة (الناقة تبتكر بالأنثى، ثم تثني بأنثى، فسموها: الوصيلة؛ لأنها وصلت اثنين ليس بينهما ذكر، فيجدعونها لطواغيتهم، أو هي الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن؛ ومن الشاء هي الشاة التي تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع جُدعت، وقطع قرنها، فيقولون: قد وصلت فلا يذبحونها، ولا تضرب، ولا تمنع مهما وردت على حوض)، والحام (فحل الإبل الذي لقح عشراً قالوا: حمى هذا ظهره، فيتركوه فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزّون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه)، والحوت الذي التقم يونس، والحوت (السمك الكبير في قصة موسى والخضر)، ولحم البحر الطريّ (السمك)، والمرجان، واللؤلؤ (إفراز محار الرخويات لمادة صلبة كروية حول الجسم الغريب داخل أصدافها).

بل إنّ أكثر الصحابة رواية للحديث النبوي هو عبد الرحمن بن صخر، رأى النبيّ ﷺ في كمّه هرة، فقال: **(يا أبا هريرة)**، فاشتهر به (لدرجة أن نسي الكثير اسمه الحقيقي).

لذلك فإن النبي محمداً ﷺ، نحو ٦١٠ ميلادي، (مطلع القرن السابع) قد علّم أن **حقوق الحيوان** هي جزء مهم من تعاليم الإسلام وتطبيقاته للمرة الأولى وقبل منظمات حقوق حيوان القرن العشرين بزمن طويل.

وقد جندت اللغة العربية مخزونها الهائل من المفردات العربية الجميلة لخدمة الإسلام في تقريراته لحقوق الإنسان والحيوان. وإضافة إلى حقوق الحيوان، فإن الإسلام هو أول نظام عالمي إعتنى بالبيئة، وجعلها من أعمال الإحسان المرتبط بعبادة الله تعالى: يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وحثّ النبيّ ﷺ على "تخضير البيئة وتشجيرها"، فقال: «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**». رواه الشيخان. وقال ﷺ: «**من أحيا أرضا ميتة فهي له**». رواه الترمذي عن جابر.

بل لفت الإسلام نظر الإنسان إلى ضرورة "**التوازن البيئي**" وجعل من المسلم صديقاً للبيئة (Eco-Friendly) بالحفاظ على نباتات الأرض وتوازنها في الطبيعة، كما خلقها الله؛ لأن هذا التوازن ضرورة علمية تقتضيها حكمة الله المقصودة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وحثّ الإسلام على نظافة المحيط البيئي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال النبيّ ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**». رواه مسلم. ونهى النبيّ ﷺ بشدة عن "**تلويث البيئة**" فقال: (**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد [موارد الماء]، وقارعة الطريق، والظل**). رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم والبيهقي.

وهذا الحديث هو تقرير إسلاميّ عن "**وقاية البيئة**" من مخاطر الصحة العامة، إضافة إلى المحافظة على القيمة الجمالية للبيئة. ثم إن للحديث فوائد طبية وقائية جمّة ضدّ تلويث موارد المياه المستعملة في الشرب والطبخ والاستحمام لمنع انتقال عدوى الجراثيم عن طريق الماء؛ وضدّ تلويث طرق المواصلات لانسيابية حركة المارّة والسيارة ولمنع الأمراض المعدية من الاستشراء؛ وضدّ تلويث مواضع ظلّ الأشجار، وهي محطات نزول المسافرين والتجار للراحة والأكل والقيلولة قبل مواصلة مسيرهم الطويل.

فقال ﷺ: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري** (أي الراكد)، **ثم يغتسل منه**». رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، ثم يتوضأ منه**». رواه أحمد والترمذي والنسائي. وقال ﷺ: «**الإيمان بضع وستون – أو وسبعون – شعبة؛ أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله**». رواه الشيخان. وقال ﷺ: «**من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم**» رواه الطبراني.

بل إنّ الإسلام هو أول من نادى بـ "**الحفاظ على الأجناس الحية من الانقراض**": فأخبر الله تعالى عن قصة نوح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وعندما تأذى الناس من الكلاب في المدينة (بسبب نباحها بالليل، وبسبب عضات الكلاب التي قد تكون مميتة إن كانت مكلوبة أي مصابة بداء الكلَب)، رفض النبيّ ﷺ استئصالها لأنها أمة من الحيوان، فقال: «**لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم**». رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي.

هذا لأنّ الإسلام يقرر أنّ الكائنات الحية لها كينونة وهوية إجتماعية خاصة بها كالنمل والنحل والكلاب والسنانير، فيقول الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

هل انتشر الإسلام بالسيف؟(١)(٢)(٤ أ، ب، جـ، د)(٥ أ، ب، جـ)

يعني الإسلام الاستسلام لله ويعني أيضاً دين السلام من الفعل سَلَمَ؛ أي خضع، ومنه اشتق إسلام واستسلام، لكن من الجذر العربي نفسه الفعل سَلَم أي صَلُحَ وأمِنَ، ومنه كلمة سلام بمعنى أمان. السلام هو تحية المسلمين كذلك فإن السلام هو أحد أسماء الله الحسنى لأنه مصدر كل الأمن والأمان.

لقد ازدهر الإسلام وانتشر في أثناء السلام أكثر من الحرب؛ فبعد صُلح الحديبيّة (سمّاها الله فتحاً) ازدادت أعداد المسلمين أضعافاً مضاعفة أكثر من أي غزوة. كان لتأثير محمد ولجاذبية الإسلام في استخدامه الإقناع بالحجة (بدلاً من السيف) أكبر الأثر لجذب أناس من الأقاصي كاليمن وعُمان للتحالف مع محمد والتحول إلى الإسلام. والمسلمون مأمورون أن يحملوا وينشروا رسالة الإسلام لكل البشرية، (بوصفهم خلق الله) في بقاع أرض العالم كلها، (بوصفها أرض الله). إن جُلَّ جنوب شرق آسية، بما يشمل إندونيسية وماليزيا وبروناي والفليبين، بل حتى الأمريكيتين (انظر الفصل الرابع)، إضافة إلى جميع الأقطار جنوب الصحارى في إفريقيا قد تحولوا كلهم للإسلام سلمياً، عبر تجار ودعاة عرب أو مسلمين (ولا سيّما مسلمي اليمن وحضرموت والمغاربة ومسلمي غرب إفريقيا ولا سيّما مالي) الذين مارسوا الإسلام بصدق تام وطبّقوا مبادئه في معاملاتهم الأخلاقيّة و لتجارية على السواء. ولكن المسلمين يجب أن يبقوا حريصين لحماية الرسالة الإسلامية (الدعوة) لتصل إلى جميع بشر هذه المعمورة، وإلا فلزامٌ على المسلمين أن يدافعوا عن دعوة الإسلام؛ ويحاربوا المعتدين الذين يمنعون وصول الرسالة الإسلامية للناس. لم يُجبر المسلمون أعداءهم غير المسلمين على الإسلام؛ وأثناء انتشار الإسلام لم تُهاجم الكنائس أو صوامع اليهود، ولم يُقتل أحدٌ من القساوسة أو رُهبان الدير في الأرض التي فتحها الإسلام، كذلك لم تُهاجم النساء أو الأطفال أو كبار السن ألبتة.

لذا فإن الإسلام يؤيد اعتناق هذا الدين عن طريق الإقناع. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولم تكن الحرب مرغوبة ألبتة، ولكن المسلمين اضطروا إليها، إما لأنهم هوجموا أو لأن وجودهم مهدد بالفناء، ولذلك كان الردّ محسوباً لقتال قوات العدو المُعدّة والمُصمِّمة على حربهم. وإذا أراد الأخير (العدو) صلحاً أو استسلم، فيجب أن تتوقف الحرب حسب الأمر القضائي القرآني(٨): ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

كذلك فإن الإسلام هو دين الله خالق كل البشر، مما جعل المسلمين يطمعون دوماً في تحوّل أعدائهم للإسلام ومعاملتهم بالمعروف، رغبة في فلاحهم، قال تعالى:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٧-٨].

لكنّ آمال المسلمين تمتد لأكثر من ذلك حتى إلى أعدائهم المقاتلين لهم. وأنه في معركة أحد عام ٦٢٦ م تقهقر الجيش الإسلامي أول مرة (بعض المؤرخين يعدهم انهزموا) أمام جيش الكُفّار بقيادة ٣ من أبرع قياديهم: أبو سفيان (عدو النبي الأكبر)؛ خالد بن الوليد (ابن الوليد ابن المُغيرة عدو النبي الأكبر، وقد لعن الله الوليد وجعله من أهل جهنم ووثّق ذلك في القرآن)؛ وعكرمة بن أبي جهل (ابن أبي جهل عدو النبي الأكبر، وقد قتل المسلمون أبا جهل في معركة بدر سابقاً عام ٦٢٥ م، وهو أيضاً قد لعنه الله وجعله في نار جهنم ووثّق ذلك في القرآن). وعانى

النبي في معركة أحُد فقام يدعو الله لتعذيب وعقاب الكفّار، لكن الله رفض الاستجابة لدعوة النبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وبعد عقد من الزمان عام ٦٣٦م (بعد وفاة النبي محمد ﷺ عام ٦٣٢م) وفي معركة اليرموك الفاصلة كان هؤلاء القادة ذاتهم بعد إسلامهم قد أصبحوا قادة الجيش الإسلامي أمام جيش الروم الهائل (تعداده ٢٤٠٠٠٠ جندي)، والمتفوق عليه عسكرياً عُدّة وعدداً، ويمثل الإمبراطورية البيزنطية الرومانية (التي احتلّت أراضي شرق المتوسط العربيّة واستمرت بغزو حدود الجزيرة العربية): القائد العسكري العام خالد بن الوليد (بعد إسلامه)، أصبح قائداً عسكرياً سمّاه النبي (سيف الله المسلول): فقام خالد بتقسيم جيشه المسلم البالغ ٤٠٠٠٠ ألفاً إلى ٤٠ كردوساً (جمعها كراديس) يحوي كلٌّ منها ١٠٠٠ مقاتل بقيادة قائد شجاع شديد البأس. ثم قام خالد خطيباً في جيش المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه وقال: (إن هذا يوم من أيام الله... أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يومٌ له ما بعده لو رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردّهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً)، عكرمة بن أبي جهل كان قائداً عسكرياً آخر لجيش المسلمين وقال يوم اليرموك: (قاتلت رسول الله ﷺ في مواطنَ وأفرّ منكم اليوم؟) ثم نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمّه الحارث ابن هشام في ٤٠٠ من وجوه المسلمين، وشكّل عكرمة فرقة الموت (وعمّ عكرمة الحارث بن هشام أيضاً حارب المسلمين في أحُد واليوم هو سيد من علية المسلمين) أما أبو سفيان فكان في الـ ٨٠ سنة من عمره وهو سيّد القوم والآن قائد التوجيه المعنوي (شبيهٌ بدور النبيّ ﷺ في المعارك) وهو الذي اقترح تقسيم الجيش المسلم بكراديسه إلى ٣ أجزاء كُبرى فيسير ثُلثه فينزلون تجاه الروم، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر، يتأخر خالد بالثلث الآخر المتحرك. فامتثلوا بما أشار به أبو سفيان (ونعم الرأي هو). كما وضع فرقة النساء في مؤخرة الجيش لصدّ من يتراجع من الجُند. ثم صاح أبو سفيان: (يا معاشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم).

وجعل أبو سفيان يقف على كردوس ويقول: (الله الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهمّ إنّ هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك).

وهدأت الأصوات يوم اليرموك فسُمعَ صوتٌ يكاد يملأ العسكر يقول: (يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين)، كان صوت أبي سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وأوصى أبو سفيان ابنه يزيد وكان قائداً لفرقة كبيرة فقال له: (يا بُنيّ عليك بتقوى الله والصبر... ولا يكوننّ أحدٌ من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرا على عدو الإسلام منك).

إن نصر الله جاء بتكلفة كبيرة: استُشهد فيها ٣٠٠٠ من أبطال المسلمين، واستشهد عكرمة مع فرقة الموت الـ ٤٠٠، بمن فيهم عمُّه الحارث؛ أما أبو سفيان ابن الثمانين فقد قاتل بعين واحدة، ثم أُصيبت عينُه الثانية فعاش أعمى بقية عمره؛ أما خالد، فبالرغم من جراحه الكثيرة فقد نجا؛ وهذا مثال حيّ كيف علّم الله نبيّه والمسلمين الصبر وعدم فقدان الأمل في أعدى أعدائهم الوثنيين؛ ويكشف أيضاً التحوّل الكامل، والتغيير الجذري الذي سببّه الإسلام، والنبي في نفوس المُشركين ليتحوّلوا للإسلام وليكونوا مُسلمين مُهتدين ومتفانين لدين الله[1][2].

ومن الجدير بالذكر أنه في أثناء معركة اليرموك خرج (جُرجه) الجنرال الروماني، واحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما؛ ومن ثمّ دخلا في حوار فكريّ ممتع سأل فيه جُرجه خالداً: فيم سُمّيتَ سيف الله؟ قال (خالد بن الوليد):

(إن الله بعث فينا نبيّه فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً، ثم إنّ بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذّبه وباعده، فكنت في من كذّبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه. فقال لي: أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه الله على المشركين، ودعا لي بالنصر فسُميتُ سيف الله بذلك. فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين).

فقال جُرجه: يا خالد إلام تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا اله إلاّ الله وأنّ مُحمداً عبده ورسوله والإقرار مما جاء به من عند الله عزّ وجل. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فان لم يعطها. قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأوّلنا وآخرنا. قال جُرجه: فلمن دخل فيكم اليومَ من الأجر مثل مالكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: (إنّا قبلنا هذا الأمر عنوةً وبايعنا نبيّنا وهو حيٌّ بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحقّ لمَنْ رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا من العجائب والحُجج، أن يُسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيّة كان أفضل منا) فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك وإنّ الله وليّ ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جُرجه الترس ومال مع خالد وقال: علّمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فسنّ عليه قربة من ماء ثم صلّى به ركعتين. وحملت الروم عليهم مع انقلابه إلى خالد، ومن ثمّ قاتل جَرجه مع المسلمين ومع خالد ضد الروم البيزنطيين لساعات عديدة حتى غروب الشمس، وأُصيب جُرجه إصابةً مُميتة ومات مسلماً (رحمه الله) ولم يصلّ لله إلاّ تلك الركعتين مع خالد ﷺ)[٦] البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧، ص ١٣).

لقد كان العربُ حقاً مادة الإسلام والقادة النموذجيين للإسلام، وشنّ الحرب في الإسلام حالة استثنائية لا يؤمر بها إلاّ للضرورة ضد مجاميع خاصة مثل[٤ب]:

١. الذين يعتدون على بلد مُسلم.

٢. الذين يمنعون دعوة وانتشار الإسلام بالطُرق السلمية.

٣. المُرتدون. قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

تعدُّ مطالب المسلمين في الحرب بسيطة، كُلّ الأعداء غير المسلمين المقاتلين أُعطوا واحداً من ٣ خيارات: دعوة صادقة للإسلام فيكونون إخوانهم في الدين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، أو (إذا لم يقبلوا بذلك) فعليهم دفع الجزية لقاء حمايتهم، أو (إذا لم يقبلوا بذلك) فالمسلمون مضطرون لقتالهم في معركة فاصلة. إذا أُخلّ بهذه القاعدة ذات الخيارات الثلاثة، فالجزية مُلغاة مع/ أو وجوب الخروج من الأرض المفتوحة[١،٢]:

- ففي معركة اليرموك عام ١٥ هـ، (٦٣٦م) كانت القوات الإسلامية بعد فتح حمص سنة ١٤هـ، تتوزع في أماكن مختلفة. فلما وصلت أنباء استعدادات الروم إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح جمع القادة ليشاورهم ويستطلع رأيهم، وانتهى الحوار بينهم إلى انسحاب القوات الإسلامية من المدن التي فتحتها إلى موقع قريب من بلاد الحجاز، وأن تتجمع الجيوش كلها في جيش واحد، وأن يبعث أبو عبيدة بن الجراح الى المدينة يطلب المدد من الخليفة «عمر بن الخطاب». وقبل أن يتحرك: أبو عبيدة ابن الجراح بجيوش المسلمين، دعا «حبيب بن مسلمة» – عامله على الخراج – وقال له: «أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما

كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم، أنا كرهنا أن نأخذ أموالكم، ولا نمنع بلادكم...»فلمّا أصبح الصباح أمر أبو عبيدة قواته بالرحيل من حمص إلى دمشق، وقام حبيب بن مسلمة برد الجزية الى أهالي حمص. وبلغهم ما قاله أبو عبيدة؛ فما كان منهم إلا أن قالوا: «ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردّوا علينا، بل غصبونا وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا؛ لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم»، والعكس بالعكس (انظر أدناه).

- فعندما فتح قتيبة بن مسلم الباهلي سمرقند سنة٨٧هـ، وولّى عليها سليمان ابن أبي السري، فلما قدم سليمان إلى سمرقند قال له أهلها: إن قتيبة ظلمنا وغدر بنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا ليقدم وفد منا على أمير المؤمنين فأذن لهم، فوجّهوا وفداً منهم إلى عمر بن عبد العزيز وكان قد تولى الخلافة سنة ٩٩هـ، وشكوا إليه أمرهم، فكتب عمر الى سليمان يقول له: إن أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي لينظر في أمرهم، فإن قضى لهم، فأخرج العرب من معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة، فأجلس لهم سليمان القاضي (جُمَيْع بن حاضر) فقضى أن يخرج العرب من سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل سمرقند: بلى نرضى بما كان ولا نُحدث حرباً، وتراضوا بذلك.
- ثم إنه عام ١٠٠هـ، قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بعزل الجرّاح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خُراسان (بعد سنة و٥ أشهر)؛ لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفّار ويقول: أنتم إنما تُسلمون فراراً منها، فثبتوا على دينهم وأدّوا الجزية، فكتب إليه عمر (بعد عزله): إن الله إنّما بعث مُحمّداً داعياً لا جابياً.

إنّ الدفاع عن الإسلام هو الذي أدّى إلى انتشار الإسلام العالمي (أو الجهاد في سبيل الله). ويقول مونتغمري واط في صفحة ٧ من كتابه: «تأثير الإسلام على أوروبا القرون الوسطى»: (والتأكيد الأخير هذا لا يعني أن دين الإسلام انتشر بالسيف إنه في الجزيرة العربية كانت القبائل الوثنية عُبّاد الأصنام هم الذين كانوا موضع الجهاد حقيقةً وأُعطوا الخيار بين الإسلام وبين السيف. لكن كانت هناك معاملة مختلفة لليهود والنصارى والمجوس الزرادشتيين وللآخرين الذين يؤمنون بإله واحد. فدياناتهم عدت ديانات شقيقة للإسلام، بالرغم من الادّعاء بأن الملتزمين المعاصرين لكل منها قد ابتعدوا عن الأصل الحقيقي لدياناتهم. ومع ذلك فإنهم ما زالوا مؤمنين بالربّ الواحد. وهدف الجهاد أصبح ليس تحويل هذه الشعوب للإسلام بل إخضاعها لحُكم الإسلام مع إعطاء وضع الحماية الشخصية: فهم إجمالاً أهل الذمّة والواحد منهم ذِمّيّ... ولهم استقلالية داخلية تحت رؤوس دياناتهم مثل البطريق أو الوابابي. وضريبة الفرد (أو الجزية) يجب أن تدفع للحاكم المسلم عن كل فرد في الجماعة... وأحياناً كانت هذه الضرائب أقل جداً من الحُكّام السابقين (الرومان والفُرس)، وكان أمراً فخرياً واجباً للحكومة الإسلامية القيام بحمايتهم جيّداً. وعموماً لم تكن حالة المجاميع المحميّة هذه بغيضة، بل كانت لهم بعضُ المساوئ. لم يُسمح لهم بحمل السلاح ولا التزوّج بالمرأة المسلمة، وكانوا عادةً يُستثنون من مراكز الدولة العليا).

ولكن الذِمّي حرفياً تعني الذي في الذمّة والضمير: أو الذي يُعتنى به حقيقةً. ثم إن كل مسلم عليه واجب دفع الزكاة للحاكم المسلم أيضاً؛ دفع الزكاة واجب لأنها واحدة من دعائم الاسلام الخمس، وهي جزء ثابت معين من الثروة (٢.٥٪) وكل نوع من المُلكية يتعين عليه الزكاة. وزكاة المسلم قد تفوق قيمة الجزية (الضريبة

الفردية الشخصية) التي يسهم بها الذمّي. مع ذلك فالذمّي قد يشعر أنه مواطن من الدرجة الثانية. وهذا يُفسّر التحول الجماعي الكبير من النصرانية إلى الإسلام. والحقيقة أن بعض المعاصرين المسلمين يعتقد أنه إذا شعر النصراني أو اليهودي بحيف من تسميته بالذمّي (في دولة الإسلام)، فيمكن إبدال لقب الذمّي بلقب المواطن لقاء مشاركة زملائه المواطنين المسلمين في الدفاع عن الدولة الإسلامية، كما فعل النبي محمد عند هجرته إلى المدينة حين عقد معاهدة المواطنة (انظر أدناه). وبإزالة الموانع العسكرية ورفع حاجز الخوف والتهديد النفسي وبعد وصول رسالة الدعوة الإسلاميّة للناس، إذاك وحينئذٍ يكون الناس أحراراً فيما يعتقدون.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

ويقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول جلّ وعلا سبحانه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦].

إنّ مفهوم (التسامح الديني) هو اختراع إسلامي صافي الأصل، مارسه المسلمون في ربوع الخلافة الإسلامية، في التاريخ الإسلامي كلّه: فالكثير من الخلفاء اتخذوا أطباء غير مسلمين، ليكونوا أطباء البلاط الخاص من دون إجبارهم أو قهرهم للتحول إلى الإسلام.

والتسامح الديني هذا يرتبط تاريخياً بمحمد ﷺ نفسه. فعندما اشتدت مُقارعة وثنيي مكة، أرسل أهل المدينة (يثرب) وفداً إلى محمد يعرضون عليه أن يكون قائدهم. ومحمد (بعد أخذ البيعة منهم) وافق ثم هاجر مع أتباعه؛ ويوم الهجرة عام ٦٢٢ م، يشكل حَدثاً حاسماً وبدايةً للتقويم الإسلامي. وهكذا فوثنيو المدينة اعتنقوا الإسلام وولدت أول دولة إسلامية؛ ومحمد أصبح الآن قائداً سياسياً ثم إنه قائدٌ ديني. فالقرآن ضمن بعض المُعطيات كالتوراة يشكل نظام أخلاق ومنظومة قوانين؛ وفي كليهما لا يوجد تمايز بين القوانين الدينيّة والقوانين الدنيوية.

وقد ضَمِنَ محمدٌ ﷺ الحرية الدينية ليهود المدينة في «معاهدة المواطنة» التي تُمثّل حجر الأسس في مواطنة الدولة (بغضّ النظر عن التنوع العَقَدي والعِرْقي والعُنصري) وأول مَعلم للتسامح الديني في تاريخ العالم، تجسّد في هذه الدولة الإسلامية الفتيّة في الجزيرة العربية، كما تنصّ المعاهدة أيضاً أنّ مواطني المدينة ما داموا مُحاربين للدفاع عن دولة الإسلام عسكرياً ضدّ (أيّ غزو خارجي من قبل) مشركي مكة الوثنيين (من قريش)، فلهم نصيبٌ من غنائم الحرب توزع حسب ذلك؛ لكن المعاهدة جعلت الواجب إجبارياً على مواطني المدينة وهو التناصر على مَن دَهِمَ يثرب وعدم نُصرة أو إيواء العدو (أو الأعداء) لدولة الإسلام هذه. انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، صفحة ٤٥٢–٤٥٤ لتفاصيل معاهدة المواطنة.

والقرآن يُقرُّ أن التوراة والإنجيل هي كُتُبٌ مُستلهمةٌ ربّانياً أنزلها الله عبر أنبيائه. فبينما يُجبر الوثنيون على التحول إلى الإسلام بالقوة، فإن اليهود والنصارى، كونهم أهل الكتاب، ضُمن لهم حقّ العبادة بحرية. فالقرآن يُشيد باحترام بالشخصيات الرئيسة في تراث اليهود والنصارى: موسى، وداود، ومريم العذراء، وعيسى والآخرين. وهو يأمر باحترام بعض العناصر الرئيسة في قانون العهد القديم: تجنّب أكل لحم الخنزير، ممارسة الختان، وغيرها الكثير من نصوص القرآن تؤكد الإرث المشترك لهذه المعتقدات. وكلها ينتسب للأصل الحنيف إبراهيم (أي الإيمان بإله واحد وهو إيمان إبراهيم)، والقرآن يُقرّع النصارى واليهود المدّعين أن أفراد ملّتهم فقط هم الذين سيدخلون الجنّة. والقرآن لا يدعي حصرية دخول المسلمين: فالنصارى واليهود المتقون لهم نصيبٌ بالجنة كذلك مثل المسلمين،

فالمولى جلّ وعلا يقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وبعد الفتح العسكري لسورية، فتحت جيوش المسلمين فلسطين سلماً، فالرجل المسؤول عن القدس كان البطريق صُفْرانيوس (رجل الكنيسة الإغريقي) والذي عدّ ظهور نجم العرب علامة لغضب الربّ على ذنوب النصارى. صُفْرانيوس أصرّ على تسليم المدينة للخليفة عمر نفسه فقط: لذلك قدمَ عمر بن الخطاب عام ٦٣٧ أو ٦٣٨م. ومعاهدة عمر (العُهدة العُمَريّة) تمثل معلماً كبيراً في تاريخ البشرية، وأول حجر زاوية للتسامح الديني في العالم الخارجي (خارج) الجزيرة العربية، كانت بدايةً عظيمةً للعلاقات الإسلامية – النصرانية السليمة (مستوحاة من معاهدة المواطنة التي أبرمها النبي محمد).

ونصُّ المعاهدة أو العُهدة العُمَرية هو الآتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (إيلياء هي القدس) من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها؛ انه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحدٌ منهم، ولا يسكنُ بإيليا معهم أحدٌ من اليهود (هذا الحظر كان سمة القانون الروماني؛ ويبين أن المفاوضين النصارى قد طلبوا بشدة استثناء اليهود بوصفه شرطاً سابقاً لتسليم مدينة القدس سلمياً)، وعلى أهل إيلياء أن يعطو الجزية كما يُعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم (البيزنطيين) واللصوص؛ فمن خرجَ منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه؛ ومَنْ أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومَنْ أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم (البيزنطيين) ويخلّي بيَعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَنْ كان بها منْ أهل الأرض قبل مقتل فلان (أهل الأرض هم الذين نزحوا إلى المدينة في أثناء الفتح)، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سارَ مع الروم (البيزنطيين)، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد لله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أُعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك [على المعاهدة]: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان (الخليفة المستقبلي) وكُتِبَ وحضر سنة خمس عشرة هـ).

وبعد العُهدة العمرية في القدس وبعد الفتوح الإسلامية لسورية ومصر، فإن العلاقة بين المسلمين والنصارى في الشرق الأوسط كانت كما يُقال أرفع مقاماً من علاقة النصارى بالنصارى في أوروبا. حتى بعد اعتناق الشعوب للإسلام، فإن النصارى واليهود الباقين في العالم الإسلامي، كانوا يُميزون أنفسهم عن نصارى ويهود أوروبا أنهم أهل الكتاب الشرقيين؛ لذلك كان النصارى واليهود الشرقيون مع المسلمين هدفاً للمذابح المرتكبة من قبل النصارى الصليبيين في العصور الوسطى (انظر الفصل الرابع).

وعندما حكم المسلمون شبه القارة الآيبيرية (إسبانية والبرتغال الآن) قُرابة ثمانية قرون عاش اليهود والنصارى والمسلمون معاً في توافق كامل. وهو شيء فريد في أوروبا مما أجبر المؤلفين الكتابة عن ذلك مثل: (ماريا روسا مينوكال) أن تكتب كتاباً بعنوان: «**جوهرة العالم – كيف خلق المسلمون واليهود والنصارى ثقافة التسامح في إسبانية القرون الوسطى**» نشره: باك باي بوكس، لمجموعة تايم ورنر بوك، في عام ٢٠٠٢.

إن حكم الإسلام في العالم الإسلامي ولا سيّما في إسبانية لم يسمح فقط بالمسامحة والتكيف للآخرين، ولكنه سمح بتعزيز واستذكاء اليهود والنصارى في حقول الشعر والفن والعمارة والطب والعلم عموماً: هذا التعايش بين المسلمين واليهود والنصارى المواطنين (أو كونفيفينشيا كما يسميه مؤرخو الإسبان) مما استدعى المتحف اليهودي في نيويورك في عام ١٩٩٢، إلى إصدار مُجلد حول هذه المرحلة المسالمة والتعايش المتسامح المنتج (تحت الحكم الإسلامي ما بين الأعوام ٧١١-١٤٩٢م) أسموه: «**كونفيفينشيا – اليهود والمسلمون والنصارى في إسبانية العصور الوسطى**» حرره: فيفيان ب مان، وتوماس ف جليك، وجيريلين د. دودس ونشره: جورج برازيلير.

لقد كان ما يُسمى بالاسترداد الإسباني والبابوية الرومانية الكاثوليكية هما المسؤولين عن استحداث محاكم التفتيش (المبنية على التمييز الديني) والمتصفة بأحلك مراحل التعصب وأكثرها وحشية التي لا توازيها مصيبة ولا يعرف التاريخ البشري لها مثيلاً.

إن محرقة إبادة اليهود الجماعية لم تُرتكب إلا في أوروبا؛ وكان العالم الإسلامي كما كان معهوداً به الملاذ الوحيد في العالم لليهود الفارّين مع غيرهم، من الاضطهاد الأوروبي.

بالرغم من قَسَم ملوك الإسبان بالله ووعود الشرف لتنفيذ الشروط المرتبطة بمعاهدة تسليم غرناطة (١٤٩١/١١/٢٥)، وبرغم خلاصة الامتيازات الـ ٦٧ الضامنة لحقوق المواطنين المغاربة من المسلمين واليهود (١٤٩٢)، لكن الملك فرديناند والملكة إيزابيلا كانا عازمَين سرّاً على نقض جميع عهودهم ومواثيقهم. وضعت مملكة غرناطة تحت الإدارة القشتالية يحكمها حاكمٌ قشتاليٌ، وعومل القاطنون في غرناطة بدايةً بحسب المعاهدة وسُمح لهم بالبقاء على دينهم الإسلاميّ، وقوانينهم وقضاتهم، ولغتهم ولباسهم، وتمتعهم بممتلكاتهم، وأُعطوا ضماناً أن ضرائبهم لن تزيد على ما كانوا يدفعونه لحكامهم المغاربة المسلمين.

ولوحظت شروط المعاهدة طالما كان "هيرناندو دي تالافيرا" رئيس أساقفة غرناطة (١٤٩٣-١٥٠٧)؛ فقد تواصل مع المسلمين واليهود باللغة العربية عبر مترجمين، في حين حاول هو تعلم العربية، وأسس مدرسة لتدريب الدُعاة النصارى لخدمة ما عدّه جمهوراً يتكلم العربية بازدياد.

لكن إيزابيلا عيّنت "فرانسيسكو جيمينز دي سيسنيروس" مبعوثاً من طليطلة ليلحق برئيس الأساقفة ويعجّل تنصير غرناطة. تحوّل "سيسنيروس" في غرناطة عام ١٤٩٩ (ومن ثم صار رئيس محاكم التفتيش المُستبلية)، ثم قام بمجانبة مؤسسة تالافيرا المبنية على الحوار الصبور، مُؤثِراً تنصير الجماهير تحت الضغط عن طريق المواجهة والصدام. وكي لا يخطئ أحد من مسلمي غرناطة رسالته، قام "سيسنيروس" بحرق نسخ من القرآن كقرابين في نيران مشاعل في الفناء. وباشتعال نسخ كتابهم المقدس، اتّقد معه استياء المسلمين غضباً. وتمّ تحت الضغط تنصير حشود منهم. وهذا الضغط وحرق كتب الإسلام المقدسة علناً أدى إلى ثورة المسلمين المغاربة. بتحريض من "سيسنيروس" وآخرين، قام فرديناندو وإيزابيلا بسرعة بإبطال حقوق المسلمين المنصوص عليها في معاهدة التسليم بعد أقل من عقد، مُصدرين مرسوماً يطالب المسلمين واليهود بالتنصّر أو النفي طرداً.

وتمّ ترحيل (طرد) جميع المسلمين الذين تناهز أعمارهم الـ ١٤ سنة ممن لم يقبلوا بالتعميد (في ١٢ شباط ١٥٠٢) من مملكة غرناطة، وكانوا نحو ٣ مليون مسلم. ولم يُسمح لهم بالخروج إلى شمال إفريقيا. بل يسمح لهم بالذهاب فقط إلى مصر أو أن يتركوا قشتالة من حدودها المتاخمة لبيسكاي.

أُجبر الباقون من المسلمين على التحوّل إلى النصرانية قسراً، وسُمّي هؤلاء المُتنصّرون الجُدد "موريسكوس" أو الموريسكيّون، ودخلوا تلقائياً تحت عناية محاكم التفتيش؛ فأصدر الملك شارلس الخامس (١٥٢٥) مرسوماً آخراً

يُحرّم استعمال الأسماء العربية، أو التزيّن بالمجوهرات بتصاميم عربية: لم يُسمح إلا بالتحلي بالصُلبان والصور النصرانية. وحُرّمت عليهم علاقات الزواج بحسب معتقداتهم القديمة (الإسلامية). وفي ١٥٥٦، صدر مرسوم يقضي باستعمال اللغة القشتالية، وتحريم اللغة العربية في التواصل والتعامل) تحت عدد من العقوبات الصارمة جداً. إنّ هذه الإجراءات الصارمة أسرعت إحداث ثورة جديدة عام ١٥٧١، مما أدى إلى تشتيت المغاربة عبر المقاطعات القشتالية (تحضيراً لطردهم النهائي من إسبانية في ١٦٠٩/١٦١٠). بالرغم من أنّ المؤرخين الأسبان والبابوية تعترف أن ضحاياها في محاكم التفتيش لا يتجاوزون بضعة آلاف، ولكن كثيراً يعتقدون أن عدد الضحايا يصل إلى الملايين في أثناء مدة التعصب الديني المتمثل **بمحاكم التفتيش الإسبانية الوحشية.**



محاكم التفتيش الإسباني

تحرق الكتب الممنوعة حسب قوائم الكتب الصادرة المطبوعة في إسبانية والمعاد طبعها تباعاً في ١٥٥١، ١٥٥٩، ١٥٨٣، ١٦١٢، ١٦٣٢، و١٦٤٠

وقد شملت هذه القوائم مجاميع واسعة من الكتب وبالأخص الكتب المكتوبة باللغة العربية. مثلاً: نسخ القرآن الكريم، والكتب الإسلامية واليهودية المكتوبة بالعربية، إضافة إلى تراجم الإنجيل باللغة المحلية. حيث أطلق شعار "بلادٌ واحدة، وحاكمٌ واحد، واعتقاد واحد" كان هذا شعار "توماس التوركيميدي" مستشار الملكة إيزابيلا، الذي صار أول مراقب عام لمحاكم التفتيش الوحشية والدموية

محاكم التفتيش وأنواع التعذيب: تعرض ١٦ صورة نادرة:

١.



مراسيم المحاكم المسماة (أوتا دا في)؛ حيث يُقتاد ضحايا التفتيش إلى مصيرهم المحتوم في مراسيم دينية؛ وبعد "تقرير الاعتقاد" تُحرق الضحايا حتى الموت.

٢.



غرفة من غرف التعذيب لمحاكم التفتيش المقدّس.

٣.



تمزيق اللحوم البشرية: اثنان من القساوسة الطاعنين في السنّ وهما مبتهجان بنزع الجلد وتمزيق اللحم. تعلمّت الكنيسة الكاثوليكية بأنّ الإنسان يستطيع العيش حيّاً عند نزع جلده حتى خصره. وغالباً ما تحمى آلات التمزيق بالنار حتى الإحمرار، وتستخدم لتمزيق ثدي المرأة والأعضاء التناسلية للجنسين.

٤.



تعليق الضحايا بالمقلوب وذلك في أثناء تعذيبهم في محاكم التفتيش الوحشية الدموية التي أدارها القساوسة الدومنيكان واليسوعيون).

٥.



الدولاب، حيث يُمدّ الضحية ويُمطّ وهو عارٍ، ووجهه للخارج، ويداه وساقاه ممدوتان، ويُشدّ على الدولاب بأوتاده أو بحلقات حديدية. ثم يُدار الدولاب ويمرّ الضحية على نار أو على مسمار تحت الدولاب لكي تحرق أو تمزق لحم الضحية.

٦.



الإغراق بالماء: تستخدم نقالة على شكل طاولة خاصة بمفاصل لحني زاوية الضحية للخلف تزيدة دخول الماء إلى أنف السجين وفمه، لتقوية الإحساس بالاختناق، ثم لرفعه للأعلى بسرعة في حالة توقف تنفس السجين (لإطالة معاناته).

٧. 

تعليق "المتنصرين" عرايا من الخلف في أثناء التفتيش لإنتزاع الاعترافات من هؤلاء "الهراطقة"!

٨. 

الاعتداء الجنسيّ على النساء (وتقطيع ملابسهن) في أثناء تقديمهن للتفتيش.

٩. 



كرسي التعذيب الحديديّ المرصّع بالمسامير: تربط الضحية عارية، وتشعل النار تحت الكرسي. وتوضع أجسام ثقيلة على الضحية لزيادة الألم بسبب المسامير مع ضربات المطرقة. وغالباً ما تستخدم أيضاً آلات تمزيق اللحم أو آلة نهش ثدي الضحية (انظر ليمين الصورة).

١٠. 

مهد اليهود الهزّاز: ترفع الضحية بالحبال والقيود ثم تنزّل على جسم حاد. يجلس الأثرياء للفرجة وكأنهم يتفرجون على مسرح الأوبيرا! لرؤية الرجل المسكين يموت ببطئ وهو يدور على الجسم المدبب الحاد. ويعلق الرجل بالحبال ويدار لوضعه على مخرجه أو على فرج المرأة لزيادة الألم القاتل!

١١. 

المخلعة حيث يوضع الضحية أفقياً وهو عارٍ على المخلعة أو السلّم. تستخدم الحبال لربط ساعديه وساقيه بشدة (كشدّ رباط وقف النزيف). وتستخدم آلة ميكانيكية مثل كرانك لتدوير الدولاب وتشديد ربط الحبال لأجل تمديد ومطّ جسد الضحية حتى تتخلع مفاصله. تعدّ الكنيسة هذا "واحداً من وسائل التعذيب اللطيفة"!

١٢. 

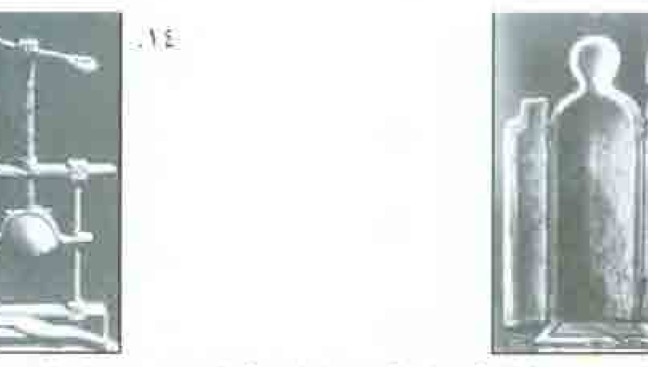
الجزمة الساحقة أو برودكوين: كانتا تستخدمان لسحق الساقين وتهشيمهما بشدّ الجهاز باليد وتضييقه أو باستخدام المطرقة في الإسفين لتهشيم العظام حتى ينفجر نخاع العظم منه.

.١٣



المقصلة الحديدية: آلة وحشية وهي تابوت قائم بمسامير ناتئة من سطحه الداخلي. وله بابان تفتحان من الأمام (باب بـ ٨ مسامير ناتئة، وباب بـ ١٣ مسماراً ناتئاً). وبمجرد دخول الضحية تغلق البابان. وهذه المسامير موضوعة استراتيجياً بحيث تثقب العديد من الأعضاء الجوفية الداخلية. لكنها مسامير قصيرة نسبياً لكيلا تكون الجروح قاتلة مباشرة. ويبقى الضحية معانياً يشخب بدمه وينزف لساعات عدة قبل موته البطئ هذا. وهنالك مسماران إضافيان موضوعان خصوصاً لسمل العينين.

.١٤



مهشمة الجمجمة: لا تحتاج لشرح!

.١٥

حرق القدمين: وذلك باستعمال الزيت، والزبدة، والدهون على القدمين قبل قليهما وتحميصهما على النار. وتستخدم شاشة عاكسة للتحكم أو لزيادة الألم عند التعرض للنار بتكرار لزيادة المعاناة. وبعض الضحايا يجبرون على لبس جزمة من جلد أو من حديد ويسكب داخلها الماء المغلي أو الرصاص المذاب.

.١٦



الحرق على الوتد هو الخطوة الأخيرة للتعذيب القاتل بالنار. وتستخدم شوكة المهرطقين (انظر ليمين الصورة) لإسكات الضحية عن الكلام وهو/ هي في الطريق للإحراق على الوتد. حتى لا يتفوهوا بما حصل لهم في غرف التعذيب أو للدفاع عن أنفسهم بأي طريقة من الطرق.

ولكن حتى المنحدرين من سلالة هؤلاء المسلمين القشتاليين والغرناطيين المتنصّرين بالقوة في بدايات ٥٠٠، بقوا بعناد (ولو سراً) محافظين على معتقدهم الإسلامي السابق وعلى عاداتهم الإسلامية، كما تنبأ وعبّر عنه الشاعر: «كان الخوف من الموت والحرق بالنار هو الذي أجبرنا على التنصّر... نحن لم نقبل بالتحول من ديننا، ولم نؤمن بشيء مما يقوله عن أمر التثليث».

وبقيت العربية هي لغة غرناطة الحية لقرن من الزمان بعد إجبار المسلمين على التنصّر ق سراً. وفي ١٦٠٩، قام ملك إسبانية بطرد هؤلاء الموريسكيين المتمردين من إسبانية نهائياً، ابتداءً من تلك السنة. لم يعد تنصّر المسلمين

وليهود مرفوضاً فقط، بل صار محرماً عليهم أيضاً أن يكونوا منحدرين من سلالة مسلمة أو يهودية، حتى لو كانت هذه الأسرة قد تنصّرت!!

وفي أعقاب الحوادث الكارثيّة لمراكز التجارة العالميّة (في البُرجين الشاهقين – نيويورك) (١١/٩/٢٠٠١)، وحادث قطار مدريد (آذار ٢٠٠٤)، كتب «كريس لوني» المدير الإداري الناجح لشركة مورجان وشركائه الممتدة على ٣ قارات) كتابه الرائع والمعنون: «عالمٌ مندثر – المسلمون والنصارى واليهود في إسبانية العصور الوسطى» ليعني عالم الأندلس المندثر) والمطبوع في مطابع أكسفورد الجامعية عام ٢٠٠٦[٧].

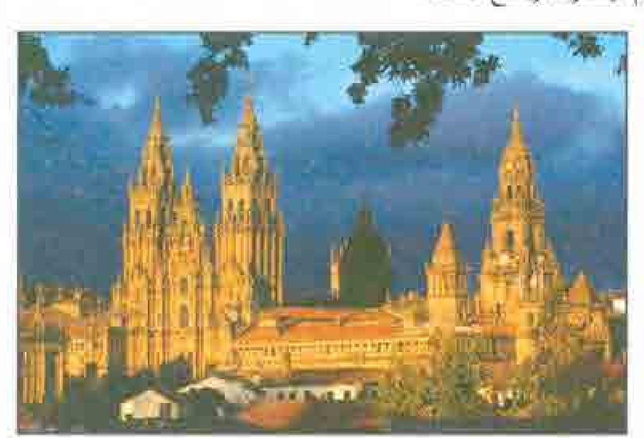
(بالرغم من أنّ المسلمين والنصارى واليهود يعبدون الربّ نفسه الذي أوحى إلى إبراهيم، إلاّ أن هذه الأصرة المشتركة تخفت (تضعف) في أعينهم أمام الفروق الفاصلة لهذه الأديان الثلاثة.

هذه الأديان التوحيدية الثلاثة لا تشترك في انتسابها فحسب إلى إبراهيم فاليهود والنصارى والمسلمون يشتركون في دم إبراهيم عبر رؤوس أنبيائهم: موسى وعيسى (كليهما من ذرية إبراهيم من زوجته سارة)، ومحمد (الحفيد المباشر لإسماعيل بن إبراهيم من زوجته هاجر)، بل أيضاً في ممارسة طقوس الحج، فقبل القرن التاسع ارتحل النصارى أول مرة إلى سانتياجو دي كومبوستيلا (انظر الصورة)، والمسلمون الأتقياء كانوا يحجّون إلى مكة، واليهود الأتقياء إلى بيت المقدس للحج... وفي هذه الأديان الثلاثة فإن رحلة الحجّ تُجسد مجازيّاً أعمق الأشواق الإنسانية.

فقط حفنة صغيرة (منّا) هي المُستأثرة بمعرفة ما إذا كانت فروقنا العقديّة غير التوفيقية طوال حياتنا الأرضية وعند الاستنارة بنور الحق المطلق، سوف تتوافق يوماً ما بشيء من العقلانية، التي – نحن المسلمين والنصارى واليهود – لا نستطيع بشريّاً إدراكها اليوم). وحتى ذلك الحين، يبدو أننا سنعاني هذه الحقائق المتنافرة والموجعة: فإمّا عيسى هو المسيح (المنتظر) أو لا، وإمّا محمد هو نبيٌّ أو لا)[٧].

المشهد الافتتاحي لأعمال العهد الجديد للحواريّين يروي حادثة مُروّعة، إذ اجتمع عيسى المرفوع بحوارييه وبينما كانوا ينظرون إليه، رُفع وغاب وسط غُمامة عن أنظارهم». وقُبيل صعوده، أفصح عيسى عن آخر تعليم له: «ستكونون شُهدائي... إلى آخر الأرض». فأخذ الحواريّ جيمس، سانتياجو بالإسبانية، التعليم حرفيّاً. وبقاياه المزعومة اليوم تُبجّل في بلدة إسبانية صغيرة تحمل اسمه، سانتياجو دي كومبوستيلا. لوتعني كلمة: "كومبوستيلا": «ميدان النجوم» إشارةً لموضع دفنه).

الكنيسة دي كومبوستيلا



وهي تقع على بقعة من ثمانية عشر ميلاً من نهاية الأرض! يُقال إن موضع الدفن هذا اكتُشف بين ٨١٨-٨٤٢ ميلادي، ومن ساعتها صار مقام ضريحه كعبة قاصدي الحج، ولكن التوترات التي مزّقت إسبانية العصور الوسطى تنعكس بمرآة الصورة الانفصامية لحامي إسبانية (وراعيها وناصرها) سانتياجو (القديس جيمس). جيمس (هذا) كان وما زال إلى اليوم قريباً دائماً إلى الخيال الإسباني، طريق الحجّ هذا والذي عمره ألف عام، يتلوّى

كالثعبان في الشمال الإسباني إلى سانتياجو كومبوستيلا، وهي تقليدياً موضع هجوع بقايا جيمس الأرضيّة، التي هي، بعد روما، أهم موضع لحجيج أوروبا. وكنائس إسبانية في كل مكان تحتفظ بصورة جيمس في قطع مذبحه (مذبح الكنيسة: ألتار) وفي ألواحها ومنحوتاتها.

وتصوير واحدٌ مُخزٍ يظهر أحياناً في هذه الكنائس على طريق الحجيج: جيمس يمتطي حصاناً، وذراعه اليُمنى مفتولة العضلات ترفع سيفاً على إنسانٍ مُعمّم داكن السُحنة جاثم مرتعد تحت حوافر جواده المطهّم الخفيّة. هذا التصوير الأيقونيّ واضحٌ اليوم، كما كان لحجيج القرن الثالث عشر الميلادي: هذا هو سانتياجو ماتاموروس، القديس جيمس قاتل المغاربة (يعني المسلمين)، راعي الاسترداد الصليبي الإسباني جيمس قاتل المسلمين، هذا يجسّد خلفية واحدة لهذه القصة: خلفيّة الكره الديني الذي مزّق إسبانية العصور الوسطى، وما زال شبحه يطارد البشرية.

وإضافة إلى ذلك وبدل هذا الحواريّ القاتل العنيف، يقف تمثالٌ أكثر هدوءاً القديس جيمس حارساً على الكاتدرائية الكبيرة (كاتدرائية هي كبرى الكنائس) في سانتياجو دي كومبو ستيلا. سانتياجو بيرجرينو (أي القديس جيمس الحاج) الذي لا يتقلّد سيفاً، ولكنه يحمل فقط قانون الإحسان العظيم: «أحبّوا جيرانكم كحُبّكم لأنفسكم» وهو أمرٌ بالمعروف يُبجّله المسلمون والنصارى واليهود على السواء.



لوحات للقديس جيمس قاتل المسلمين الذي يُعدُّ راعي الحروب الصليبية لاستعادة إسبانية



مجموعة صور للقديس جيمس الحاجّ الذي يحب الخير والسلام (ولا يتقلد سيفاً)

لذا جيمس قاتل المسلمين يجد نفساً ثانية (أو أنا ثانية) في جيمس الحاج؛ فبينما يُلهبُ الأول الكره والحرب المسعورة، يُنشئ الثاني التوافق والانسجام المؤدي لحبِّ الجيران.

لكن؛ مع إبادة الحكم الإسلامي في إسبانية عام ١٤٩٢ م، يبدو أن القديس جيمس قاتل المسلمين قد عاش وتنشر استخـدامه العسكريّ، وكان الواجب اعتزاله لصالح القديس جيمس الحاج.

لكن سانتياجو المُقاتل قد جُنِّد لمقارعة عدو جديد (أمريكيو العالم الجديد) وبقاياه لا تزال ترنّ بصداها في أطالس أمريكا الجنوبية، من الاسم الحميد لمدينة سانتياجو في شيلي، إلى اسم البلدة المكسيكية المشؤوم ماتاموروس (قاتلة المسلمين). بالفضل الجزئي لذهب إنكا (حضارة المكسيك القديمة)، دخلت إسبانية ما يسمّيه المؤرخون العصر الذهبي. العصر كان ذهبياً في جانب واضح وحيد: نهب المعادن النفيسة من مستعمرات العالم الحديث، وطلي مذابح الكنائس بالذهب، وتمويل إسبانية بالمال في نزاعاتها الأوروبيّة. ولكن، في الجوانب الأخرى فإن عنوان العصر كان أقلّ عصر ذهبي على أقل تقدير ناقص (غير مكتمل)؛ لأن ذلك العصر الذهبي تمتّعت به إسبانية.

أما العصر الذهبي الإسلامي لإسبانية فإنه بارك أوروبا بطرازات جديدة في فن العمارة، والرياضيات، وتصنيع الخزف (سيراميك)، والزراعة، والفلسفة، والطبّ، وعلم الفلك، وهذا غيض من فيض في تسمية بعض من فروع المعرفة الكثيرة. العصر الذهبي اليهودي لإسبانية (غير مستقل بل في عصر إسبانية الإسلامية) غذّى أوروبا بالجالية اليهودية الغنية والكبيرة، وصاحبة الإنجازات وعن طريق الميمونيين وموسى بن ليون، الذين ورّثوا أعمالاً رائعة أثّرت جذرياً في التفكير والعبادة اليهودية. والإسهامات الخالدة لمسلمي ويهود إسبانية العصور الوسطى كشفت الثغرة التعيسة للعصر الذهبي الثالث لإسبانية (وكشفت عورتها). بعد التطهير العرقي لغير النصارى، والمثابرة لتوحيد الجنس (النصراني) أصبح التقاء إسبانية مع الثقافات الغربية يحصل حصرياً خارج الحدود الأيبيرية، وبوضوح في مستعمرات العالم الجديد. وماذا استخلص التقاء العصر الذهبي هذا مع الحضارات الأخرى؟ كان في أغلبه الذهب فقط. إن زوّار إسبانية في كل مكان يتذكّرون بفخر كيف استفادت إسبانية مرةً من التقائها بالحضارة الإسلامية، من كاتدرائية قرطبة المرفوعة من أرضية الجامع الكبير بقنطراته وأقواسه المدوّخة الرائعة (جامع قرطبة)، إلى منارة الموحدين المهيمنة على آفاق إشبيلية المحوّل إلى برج ساعة الكاتدرائية، بل حتى الكنائس المغربية في الأقاليم الشمالية التي لم تُحكم قط بإسبانية المسلمة. الزائرون لبقايا حضارة الإنكا في (ماشو بيشا) لا يستطيعون إلاّ رؤية عمارة الإنكا، التي كان بالإمكان أن تسهم بعمق في تقنية البناء والحجارة الإسبانية. لكن إسبانية العصر الذهبي (الثالث) هذا ما عادت للقاء ولامتصاص عطايا الحضارات الأخرى إلى أرضها بل فقدت البراعة في ذلك وفي كل مكان. مع ذلك فإذا كانت الثقافات الأجنبية ما عادت تبارك إسبانية، فإن المنفيين والمغتربين من إسبانية قد باركوا البلدان التي احتضنتهم[٧].

أما فيما يخص الإسلام، فعندما يتحوّل غير المسلم إلى الإسلام، فإن الإسلام يَجُبُّ «يهدم» ما قبله من الأعمال الشريرة وكذلك الهجرة في سبيل الله؛ والحجّ إلى البيت الحرام في مكّة. وحتى الماضي الإجرامي يُغفر له مباشرة حال التطلق بشهادة «لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله»، بناءً على تقرير النبي محمد: **«الإسلام يُجبُّ ما قبله»**، فيصبح هو أو هي مولوداً مسلماً جديداً بلا خطيئة. إضافةً إلى ذلك فالذين آمنوا بالإسلام ثم ترجموا إيمانهم إلى أعمال صالحة، فإنهم سيوجرون أجراً مضاعفاً من الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠).

لنأخذ مثلاً: عكرمة بن أبي جهل، المسلم البطل في معركة اليرموك، هو ابن أبي جهل، العدو اللدود للنبي ﷺ (أبو جهل قتل في معركة بدر بين المسلمين ومشركي مكة الوثنيين – انظر فوق)؛ وعكرمة مثل أبيه كان عدواً

شديداً للإسلام والمسلمين. وبعد فتح مكة عام ٦٣٠ ميلادية، أباح النبي ﷺ قتل (٦) فقط من الوثنيين حتى وإن تعلّقوا بأستار الكعبة، بسبب شدة عداوتهم للإسلام (وعكرمة كان واحداً منهم). فركب عكرمة البحر (الأحمر) للعبور إلى بلاد الحبشة هارباً، ولكن (عند توجههم) أصابتهم عاصفةٌ هوجاء مُباغتةٌ سفينتهم، التي تلاطمتها أمواجُ البحر من كلّ جانب، فظنوا أنهم قد أُحيط بهم. فقال أصحاب السفينة: أخلِصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم ههنا شيئاً. فقال عكرمة (في نفسه): (والله لئن لم ينجّني في البحر إلاّ الإخلاص لا ينجيني في البرّ غيره، اللهمّ إنّ لك عليّ عهداً إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي مُحمّداً حتى أضع يدي في يده، فلا أجدنّه إلا عفواً كريماً. وهكذا أنجاهم الله إلى شاطئ الأمان، فتوجّه عكرمة إلى رسول الله محمد ﷺ (وروى قصتّه هذه) واعتنق الإسلام (كما عاهد الله) ثم صار مُسلماً كاملاً. «رأيتُ لأبي جهل عذقاً في الجنّة. فلما أسلم عكرمة، جاء في حديث أم سلمَة (إحدى زوجات النبي ﷺ) قالت: قال رسول ﷺ:

«رأيت لأبي جهل عذقاً في الجنّة، فلما أسلم عكرمة، قال: يا أمّ سلَمة، هذا هو». (الإصابة في معرفة الصحابة).

أما بالنسبة للمسلمين الذين يقترفون الذنوب، فالتوبة متاحةٌ وسهلة أيضاً. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحقّ آدميّ فللتوبة ثلاثة شروط:

١. أن يُقلع عن **المعصية** (مباشرةً — في الحاضر).

٢. أن يندم **على فعلها** (في الماضي).

٣. أن **يعزم أن لا يعود إليها أبداً** (في المستقبل). فإن فُقد أحدُ هذه الشروط الثلاثة لم تصحّ توبتُه. وإن كانت المعصية تتعلّق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة.

٤. **وأن يبرأ من حقّ صاحبها**، فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذفٍ ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوَه، وإن كانت غيبةً استحلّه منها.

إنّ التسامح الدينيّ الحقيقيّ لم يُمارَس قبل أو بعد الإسلام في أيّ مكانٍ بالعالم. لذا فالناس (بلا إكراهٍ أو قسر) أحبّوا بساطة الإسلام وسهولة تطبيق مبادئه؛ وتعبيره الحياتي في حريّة الاعتقاد، والعدل، والمساواة والأخوة الإسلامية التي طُبّقت في الممارسة الواقعية لا مجرد النظريّة؛ بناءً على ذلك تحوّلوا للإسلام. ثم إنهم أحبّوا لذلك العرب واللغة العربية بوصفها وسيطاً لانتشار الإسلام والتواصل الإسلامي. ثم غدت اللغة العربية حاجةً ملحّةً لأداء الواجبات الدينيّة (كالصلوات الخمس اليومية والدعاء بسؤال الله للبركات والعطايا)، ولغة تداول عامّة في كلّ حقول الحياة لأن الإسلام نفسه هو منهج حياة شامل. والحقيقة فإن مصطلح «الجهاد» يجب أن لا يُخرج عن مضمونه (أو يُساء فهمه كحرب مقدّسة) في ضوء هذا المفهوم الإسلامي النبيل الواضح؛ فالجهاد هو بذل أقصى الجُهد ضد شهوات النفس مُكافحاً دوماً لإرضاء الله (الجهاد الأكبر هو جهاد النفس) انظر كلمة جهاد في قاموس الفردوس. ثم إن الجهاد ليس كفاحاً مَبنياً على الفخر القومي ولا الكسب الماديّ ولا التوسّع الإقليمي.

ثم إن الله قد عرّف النصر بهداية الناس للاستسلام لله، أي تحوّلهم لدين الإسلام الحق؛ بمعنى آخر فإن النصر لله لا لمنفعة أحد الفريقين المتقاتلين. الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

فالنصر يتم تحت راية الايمان وليس تحت أي راية أخرى؛ والجهاد هو خالص لله وحده ولنصر دينه وشرعه، وحماية دار الإسلام (المذكور سابقاً)، لا لأي غرض آخر. فليس النصرُ نصراً لمكتسبات ماديّة، ولا لغنائم أو لشهرة ولا لمجد الدولة ولا لشرف القومية، ولا لمجرد حماية أسرة واحدة إلا إذا كانت حاميةً من القهر الديني. روى أبو موسى قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجلُ يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذِكْر، والرجل يُقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله. (رواه البخاري).

إن شرف الشهادة يتحقق فقط عندما يقاتل الإنسان في سبيل الله (كسببٍ نبيل وحيد يستحق القتال)، وإذا قتل الإنسان لأي سبب آخر، فإن هذا الشرف لا يتحقق. ولمّا كانت كل الأرض هي أرض الله، ولمّا كان كلُّ البشر والكون وكلّ ما هو موجود هو خلق الله، لذلك فإن المسلمين لا يحبّون تسمية توسع الأقاليم الإسلامي بالإمبراطورية كإمبراطورية الفرس والروم؛ وبدل ذلك يشيرون إليها بالخلافة لأنها الأرض التي يحكم فيها الخليفة (عبدُ الله) بالقوانين الربانيّة للشريعة الإسلامية التي تكون هي السائدة والمعمولُ بها ويكون الحاكم في هذه الأرض حاكماً بالقوانين التي شرّعها الله.

كذلك فإن المسلمين يشيرون إلى الربح في المعركة بالنصر أوالفتح (ليس له مثيلٌ في اللغة الإنجليزية ولكن الظهر أو النصر بمعنى فتح البلاد لتصل رسالة الله إلى البشر هي الأقرب بالإنجليزية)، وليس نصراً بمعنى إذلال الآخرين، أو احتلال أرض الناس؛ لأن نصرهم هو في سبيل الله والأرض أرضه ومن هنا فليس هناك معادلة رابح وخاسر لكن مُعادلة الرابح والرابح (فالكل رابحون لأن النصر لله وحده ولنصره).

كذلك فإن الأرض الأبّ أو الأرض الأمّ هو الموضع الذي يسود فيه الدين الإسلامي وطريقة الحياة الإسلامية وشريعة الله؛ وهذا المعنى فقط للأرض الأم هو الذي يليق بالإنسان. كذلك فإن معنى القوميّة يجب أن يكون مبنيّاً على المعتقد وطريقة الحياة وهذا الانتماء وحده هو الذي يليق بكرامة الإنسان.

التصنيف بناءً على الأسرة والقبيلة والأمّة والرسّ (الجنس) واللون والأرض هي مُخلّفات الإنسان البدائي؛ هذه المحاميع الجاهلية تنتمي لزمنٍ كانت القيم الروحيّة للإنسان في مرحلتها الابتدائيّة. النبي (صلى الله عليه وسلم) يسميها «مُنتنة» تشمئز منها روح الإنسان.

وهكذا فالإسلام هو دين الله الكامل الشامل والمنهاج المتكامل للحياة منذ الأزل؛ لذا فالإسلام هو للبشريّة كلها وليس لأمّة معيّنة أو رسٍّ (عرق) أو ثقافةٍ خاصّة. والله سبحانه وتعالى يؤكّد هذه الحقيقة مقرّراً أن الهدف من التنوعّ الإثني البشري هو استئناس التعارف المُسالم لبعضهم بعضاً، ومؤكّداً أن المُتقين هم أفضل الناس جميعاً، قال جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعندما ادّعى اليهود أنهم شعبُ الله المختار على أساس عرقِهم وقوميّتهم، ونسبهم لإبراهيم، رفض الله سبحانه وتعالى ادعاءهم وأعلن أنه في كلّ مرحلة زمنية وفي كلّ عرقٍ وفي كل أمّة هناك خصيصة واحدة فقط (مَحط التفاضل) وهي الإيمان: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۞ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۞ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۞ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

والله يُعلن أن شعبه المُختار حقيقةً هي الأمة المسلمة (عبادهُ المطيعون) الذين إنّما اجتمعوا تحت راية الله دون اعتبارٍ لفروق العرق والقومية واللون والأرض. قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. ويقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويقول جلّ وعلا: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧-٦٨].

وأثناء الانتشار العالمي للإسلام (سواء بالسلام مع/ أو بالقوة التي اضطر لها المسلمون) وُلِد وتعزّز مفهوم الأمّة الواحدة أدخل مفهومها أول مرة في هذا العالم بوصفها أسرة عالمية كبيرة واحدة تسكن عالماً واحداً (تُسمى اليوم بالقرية العالمية أوالمدينة العالمية). لذلك يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢].

والأمة أفضل مما تُترجم به هنا هو الإخوّة؛ لأن المجتمع والعرق والقوم والناس كلمات تعني مفاهيم أخرى ولا تتطابق تماماً مع مفهوم الأمّة. ثم إن الدين وطريقة الحياة هي معانٍ مُستخلصة، قد تُستعمل في مواضع أخرى لكنها أقل تناسباً هنا. لذلك فهي تعني أناساً تختلف طبائعهم وفضائلهم، مختلفون كثيراً في الوقت والعرق واللغة والظروف والتاريخ وفي العمل الذي يؤدّونه، ولكنهم يكوّنون أخوّة رجالاً ونساءً معتصمين بأعلى خدمة لله؛ وهم سبقوا التشكيل النهائي المتكامل للأخوّة في الإسلام. وهذه الأمّة الواحدة تتفق مع عقيدة الإله الواحد؛ وحقاً إن الأمّة الواحدة هي تعبيرٌ للإله الواحد. فالمسلمون عرباً وأعاجم، رجالاً ونساءً، كباراً وشباباً، من الشرق أو من الغرب صاروا أمّة واحدة ترتبط بالإسلام أو الاستسلام لإله واحد. ثم إن هذه الأمّة تمتد في أعماق التاريخ منذ خلق آدم وإلى يوم القيامة. اقتصاد هذه الأمّة يعتمد تماماً على منظومة الاكتفاء الذاتي المستوحاة من تعاليم القرآن والنبي محمد (هذا الموضوع خارج نطاق هذا الكتاب المُركّز على مغامرات اللغة العربيّة).

ومن هنا شعَرَ المسلمون أنهم مؤتمنون في قدر الله لحمل هذه الرسالة العالمية وليكونوا جزءاً فاعلاً في تاريخ البشريّة الذي يحتاج إلى تقويم المسار وإلى الهداية للطريق والطريقة المستقيمين. فالإسلام جهّز المؤمنين به بتفسير الله الشامل للتاريخ والحياة والإنسان والكون، ووسّع مداركهم وآفاقهم على المستوى العالمي.

وفي الجيل الأوّل لهذه الأخوّة الإسلاميّة كان أبو بكر العربيّ وبلال الحبشيّ وصهيب الرومي السوريّ وسلمان الفارسيّ كلهم أخوةٌ بالإيمان. والأجيال اللاحقة كانت مُشابهة، والقوميّة هنا كانت معتقد الإيمان، والوطن هو دار الإسلام، والحاكم هو الله، والدستور هو القرآن.

ليس هناك ثقافة إسلامية بهذه الصورة، لكن هناك تنوّع ثقافات الأقوام الإسلاميّة لأن الإسلام هو «مصفاة الثقافات» مُحافظٌ على كل ما هو صالح ونابذ كل ما هو طالح من كل ثقافة؛ لذلك فالإسلام هو معقدُ التوحيد للأقوام بروابط الأخوة الإسلامية التي تدور حول الإله المشرّع الواحد. وهذا المفهوم النبيل للوطن والقوميّة وللعلاقة انطبع في قلوب الدُعاة والمُقاتلين المُسلمين في سبيل الله الحق. لقد جاهدوا لرفع مؤثّرات الجاهلية كلها. وهذه الحقائق قد وثّقها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة التي وضع الله هذه المؤثرات (الجاهلية) في كفّة ميزان والإسلام ومسؤولياته في الكفّة الأخرى ودعا الناس للاختيار بينهما، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة: ٢٤].

الله جلتْ قدرتُه: ضامنُ نصرِ المُؤمنين(١٤: ب جـ د) (١٥: ب جـ)

من طبيعة البشر أنه يتّبع الأقوى؛ وإيمان المسلمين العميق هو أنّ الله هو العزيز المطلق والمقتدر والأقوى من أيّ مخلوقٍ أو قوّةٍ بشريّةٍ عُظمى؛ وهذا الاعتقاد جعلهم يضعون كلّ ثقتهم وتوكلّهم على الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إنّهم عرفوا أنهم إذا كانوا مُمكّنين من قِبل الله فيجب عليهم أن يلتزموا بقوانينه. لقد تعلّموا أن يكونوا عباداً مُطيعين لله؛ وانعكس ذلك في أسمائهم مثل عبد الله وعبد الرحمن: في التاريخ الإسلامي كما هو في التاريخ الحديث، انتهت الأسماء المشؤومة بكوارث فمثلاً: السفينة (تايتانيك) أي الجبارة سموّها بالتي لا تُقهر ولا تغرق فغرقت في أوّل رحلة بحريّة! ومكوك الفضاء (تشالينجر) أو المُتحدّي (متحدياً الله!) انفجر بعد ثوانٍ من انطلاقه!!

إن الله سبحانه وتعالى يُبيّنُ سُنّته في مصير الحضارات عندما يحكمها طُغاةٌ كفّار: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

ولهذا كان النبي محمد والخليفة الثاني عمر يكرّران هذه الآيات الأخيرة ٤٤: ٢٥-٢٩ بعد كل فتح، وبعد إزاحة أعداء الله، واسترجاع المسلمين للأرض ليكون الوارثين الجدد لأرض الله؛ لأنهم مؤتمنون في تطبيق شرع الله على أرضه.

كذلك فإن إيمان المسلمين العميق بالله أدّى لإيمانهم بقدره. إذا كان (الإنسان في التفكير فالله في التدبير). لذلك أدركوا أنهم يجب أن يبذلوا غاية الجهد في تحضير أنفسهم آخذين بالأسباب، ولكن عليهم ترك النتائج (إن ظهرت جيّدة أو سيئة) جلّها في يد الله العليم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

جلب هذا الاعتقاد السعادة النفسيّة حتى عندما كان المسلمون يُقتلون دفاعاً عن دينهم. ثم إن الله قرر أنه قد كتب الموت سابقاً لكلّ نفس بتاريخ وميعاد معينين، وإذا لم يحن الميعاد أو يجئ الوقت فالنفس تعيش حتى لو واجهتها أعنف المخاطر. ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وهذه الحقيقة أعطت المسلمين راحة نفسية عند موت الأقارب الأعزّاء، كما زوّدتهم بأعلى مراتب الشجاعة عند لقاء العدو في المعارك والحروب.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوماً فقال لي: يا غُلام إنّي أعلّمُك كلمات:

- احفظ اللهَ يحفظك،
- احفظ اللهَ تجدهُ تُجاهك،
- إذا سألت فاسأل الله،
- وإذا استعنت فاستعنْ بالله،
- واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتَبَهُ الله لك وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضُرُّوك إلاّ بشيء قد كتَبَهُ الله عليك. رُفعت الأقلامُ وجفّت الصُّحُف). رواه الترمذيّ وقال: حديث حَسَنٌ صحيحٌ. وفي رواية غير الترمذي:
- (احفظ الله تجدهُ أمامك،
- تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدّة،
- واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك،
- واعلم أنّ النصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرْب، وأنّ مع العُسْر يُسْراً).

من ثمّ فالإسلام كان وما زال رسالة الله الخالدة، وما دام المسلمون مُطيعين لله ولرسوله فإنهم موعودون بنصر الله النهائي وانتشار رسالته العالمية. وحقّاً فإنّ سرعة انتشار الإسلام كانت ظاهرة غير مسبوقة، وما كانت على أي نحو طبيعيّة وبل وغير المفهومة من حيث قوّتهم وقلّة أعدادهم، التي ما كافأت قوى العدو وأعداده ألبتة. والفتوحات الإسلامية كانت أبعد ما تكون عن تدفق جموع البدو الكاسحة بل كانت حملات موجهة بمجموعة صغيرة من رجالٍ مقتدرين ومصمّمين[٣]. فالإمبراطور شينغ (الذي وحّد الصين)، والإسكندر الكبير (الذي قهر أوروبا وآسية)، وجنكيزخان (الذي قهر الصين وآسية)، وهانيبعل، ونابليون بونابرت، وأدولف هتلر: كلُّهم كانوا أصحاب انتصارات كاسحة، ولكن بمجرد موتهم تفككت منظومتهم، وانفرط عقد امبراطوريتهم، وانكسر إلى أجزاء. لكن يتميّز الإسلام عن الجميع بتفرّده بالانتشار الدائم دون مثيل؛ وأينما تحرك الإسلام فكثيراً ما كان السكان المحليون من العدو نفسه هم الذين مهّدوا وعبّدوا الطريق لمجيء المسلمين؛ مُحرّرين للبشرية وحملة لأعلى القيم الإنسانية الأخلاقيّة ولاسيّما العدالة الإسلاميّة. لذلك فالله سبحانه يؤكد ذلك بقوله:

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].
- ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].
- ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].
- ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].
- ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوانين الجهاد في الحرب مُشابهة تماماً لما يقرره النظام العسكري:

- واجه العدو بعد تحضير وتخطيط كامل.
- عند اللقاء يجب الاستمرار بالتنفيذ دون تردد: الموت أو النصر هو شعار كل جُندي ولكن باستثناءين:

- ارجع للوراء للقفز إلى أمام، أو لخداع العدو بالمكر؛
- إذا انعزل فرد أو مجموعة من الجنود في أثناء المعركة عن القوة الأم، فله أو لهم التقهقر لاستجماع القوى والقتال ثانية. لذلك يقول الله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

لذلك فالمسلمون المطيعون المخلصون موعودون بالنصر من الله. إنّ بدراً وأُحُداً هما مَعْلَمان في الإسلام. في معركة بدر كان المسلمون لا يتجاوزون ٣٠٠ وبِعُدّة قليلة قاتلوا ألفاً من الكفار القادمين من مكة وانتصروا انتصاراً فاصلاً؛ في حين في معركة أُحُد وقع اختبار عظيم للمجتمع المسلم الناشئ، عندما قاتل ٧٠٠ مسلم ٣٠٠٠ كافر قادم من مكة؛ لذلك فإن عدد الملائكة ألف في "بدر"، و٣٠٠٠ (حتى ٥٠٠٠) في "أُحُد" يساوي قوة العدو. فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]. وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥].

إنّ معركة أُحُد كانت نصراً في بدايتها لكن ٥٠ من رُماة المسلمين عصوا أمر النبي وتركوا مواقعهم على الجبل المطل على المعركة ليشتركوا في المطاردة ومُقاسمة الغنائم (كذلك كانت هناك خيانة الـ ٣٠٠ مُنافق بقيادة عبد الله ابن أبي بن سلول الذي انسحب تاركاً ٧٠٠ من جيش أصله ١٠٠٠ مُقاتل مُسلم). والله يوثق هذا العصيان وقلة صبر هؤلاء الـ٥٠ رامياً مسلماً الذين تركوا الجبل بسبب طمعهم مما أنهى المعركة بخسارة مُضاعفة: ١) أنّهم صدُّوا عن الغنائم التي ركضوا إليها، ٢) صارت حياتهم وحياة الجيش الإسلامي كلّه في خطر، وحقيقةً خسر المسلمون عدداً من القادة، منهم حمزة عم النبي، لذا يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. (تحسُّونهم: أي تقتلونهم).

ولمّا كان إمداد الله بالـ ٥٠٠٠ مَلَك مشروطاً بصبر المسلمين الذي لم يحدث؛ لذا فإن هذه المجموعة من الملائكة لم تنزل؛ ولكن بلا شك بتأييد الله أنقذت المدينة المنورة، ولكن درساً مُهماً في الإيمان والثبات والصلابة ومواظبة الصبر والرسوخ المخلص تعلّمه المسلمون.

ولكن في أثناء الفتوح اللاحقة للنبي مُحمّد ﷺ، كان المسلمون شديدي الحرص على طاعة رسول الله وبذلك ربحوا جميع المُنازلات الأخيرة. وحقاً يقول النبي ﷺ: **(نُصرت بالرُعب مسيرة شهر)** صحيح البخاري.

ففي حروب الإسلام (الدفاعية) ضد الكُفّار، ظهرت قيم وأخلاق الإسلام العظيمة وترجمت عملياً على أرض الواقع، ومن ذلك وصية أبي بكر (خليفة رسول الله) لجيش أسامة عام ٦٣٢ م، التي تُشكّل أول قانون عالميّ لأخلاقيات الحروب، قبل معاهدة جينيفا بوقت طويل، يخطب أبو بكر بجيش أسامة بن زيد قائلاً[1]: (يا أيُّها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي:

- لا تخونوا
- ولا تغلّوا،
- ولا تغدروا،

- ولا تُمثّلوا،
- لا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة [إلا إذا حملت السلاح لتقاتل].
- ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً،
- ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة،
- وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعُوهم وما فرغُوا أنفسهم له.
- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم آنية فيها ألوانُ الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها.
- وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً.

اندفعوا باسم الله...). تاريخ الطبري، جـ ٢، (١-٣٥ هـ).

كذلك فإن الوصفة السريّة للنصر عند الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب تتجسد في وصيته لسعد بن أبي وقّاص المُرسَل إلى العراق عام ٦٣٦ م، قُبيل انتصارهم في القادسية، المعركة الفاصلة التي قوّضت صرح الإمبراطورية الفارسيّة[1]:

(أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد:
- بتقوى الله على كلّ حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العُدّة على العدو، وأقوى العُدّة في الحرب،
- وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدّوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدّوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدّوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدّتنا كعُدّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا،
- واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم،
- ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله،
- ولا تقولوا إن عدّونا شرٌ منّا ولن يُسلط علينا وإن أسأنا، فربَّ قوم سُلّط عليهم شرٌ منهم كما سلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس، فجاسوا في أثناء الديار، وكان وعداً مفعولاً،
- اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم، أسألُ اللهَ ذلك لنا ولكم...). تاريخ الطبري.

لقد كان معروفاً للمؤرخين أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء (في العربية صحابة أو أصحاب مفردها صحابيّ: هو كلّ من رأى النبي وآمن به ومات مُسلماً، بينما تابعي جمعه تابعيّون: هو المسلم الذي رأى صحابياً). بعد النبي مُحمّد كان صحابته أكثر الناس بركة وفضلاً والأكثر تقوى لله وتذكيراً برسول الله (بعد وفاته). ولهذا السبب يقول النبي ﷺ:

(يأتي على الناس زمانٌ يغزو فئامٌ من الناس، فيُقالُ: هل فيكم مَن صَحبَ النبيَّ ﷺ؟ فيُقال: نعم، فيُفتح عليه. ثم يأتي زمانٌ فيُقال: فيكم مَن صَحبَ أصحابَ النبي ﷺ؟ فيُقال: نعم، فيُفتح عليه، ثم يأتي زمانٌ فيُقال: فيكم مَن صَحبَ أصحابَ أصحاب النبي ﷺ؟ فيُقال: نعم فيُفتَح). صحيح البُخاري.

ففي معركة اليرموك كان هناك ألف رجل من الصحابة منهم مئة من أهل بدر (والذين هم أفضل جميع الصحابة على الإطلاق، وكنزٌ من المبروكين ومن بقية النبي مُحمّد). لذلك السبب فعندما أمر الخليفة أبو بكر

قَلَدَه خالد بن الوليد (قبل اليرموك) بتقسيم جيشه إلى شطرين يقود خالد أحدهما ويقود المثنى بن الحارثة الشطر الآخر من الجيش في حملة عسكرية إلى العراق. استأثر القائد الخالد بصحابة النبي لنفسه؛ رفض المثنى الخروج من دون حصته في النصف من صحابة النبي، وقال: (والله لا أقيم إلاّ على إنفاذ أمر أبي بكر كلّه في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف؛ وبالله ما أرجو النصر إلاّ بهم. فأنى تُعريني منهم؟! أتُعريني أي تحرمني) فلما رأى ذلك خالد بعد ما تلكأ عليه أعاضه منهم حتى رضى مُثنى. انظر: تاريخ الطبري.

وبعد هزيمة اليرموك الساحقة لجيوش الإمبراطورية الرومانية التي تقهقرت إلى أنطاكية، حيث هرقل الذي أخذه كل العجب وسألهم:

(ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ فقالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عُظمائهم:

"من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، نرتكب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بسُخط وننهى عما يُرضي الله ونُفسد في الأرض").

إن رجلاً من نصارى العرب كان يتجسّس للرومان فيجمع المعلومات سرّاً عن مُخيّم المسلمين فيأتي بهذه الرسالة: (وجدت قوماً رُهباناً بالليل فُرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابنُ ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه)

إن الله قد ضمن تأييده ونصره للمسلمين المطيعين له. عندما أعجب المسلمون باثنين من القادة: القائد العسكري الأسطوريّ خالد بن الوليد، والقائد مُثنى بن حارثة، ظانّين أن انتصارات الإسلام كانت بسبب عبقرية قادتهم، كان الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب واثقاً من نصر الله (بغضّ النظر مَن هو القائد)، لذا قرر تغييرهما (مستبدلاً المُثنى بسعد بن أبي وقّاص، وخالد بأبي عبيدة) وعندما فعل ذلك، استمرت الانتصارات الإسلامية كما كانت من قبل ولكن بقياديين مُختلفين. وبذلك أثبت الخليفة عمر صحة رؤيته لجميع المسلمين: ومن ثم كتب إلى ساط الأمصار الإسلامية العسكرية: (إنّي لم أعزل خالداً عن سُخطةٍ ولا خيانةٍ، ولكن الناس فُتنوا به، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع)[٢].

وعند قدوم عمر إلى الشام (القدس) دخل قائده العسكريّ خالد ليُرحّب به، فأنشد عمر قول الشاعر:

صنعتَ فلم يصنعْ كصنعك صانعٌ وما يصنع الأقوام فالله صانعٌ[٣]

ومن المُدهش أن القادة المسلمين كانوا يُعيّنون ويُعزلون بأمر الخلفاء، وليس هناك مثال في مخطوطات الكتب لقائد تمرّدَ ضد الخلافة أو عصى الأوامر؛ وهذا بمقارنة واضحة مع الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية التي شهدت في أزمنة مختلفة شللاً فعلياً بسبب تمردات قادتها وولاتها ضد حُكامهم[٢]. وهذه الحقيقة تشهد أن المسلمين كانوا يقاتلون بصدقٍ في سبيل الله (وجنّاته)، لا من أجل تحصيل شخصيّ ولا من أجل سُمعةٍ أو صيت.

(ويقال إن الخليفة عمر الثاني (٧١٧–٧٢٠) لهو الخليفة عمر بن عبد العزيز) قد أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث. وهذه الرسالة المنسوبة لعمر (في نسختها التي وصلتنا) كانت على ما يبدو مكتوبة من قبل كاتب مسلم من القرن التاسع الميلادي. لكنها تُعطي مثالاً جيداً لنظرات علماء الإسلام إلى النصرانية في تطوّرها الديني آنذاك. فالمؤلف يرى أن النصارى قد زيّفوا الكتب المقدسة؛ وأن عيسى لم يدّعِ أنه إله، بل هو رسول أرسله

الله وأنه بشّر بمجيء مُحمّد؛ وأنه علّم عبادة الإله الواحد (الله)؛ لأنه كان موحّداً ولم يُعلّم أبداً مبدأ ا لتثليث (الأب، الابن، روح القدس).

ولنقاشاته هذه جميعاً فهو يستشهد بالأدلة من نصوص الإنجيل (بضبط قد يختلف بعض الشيء). وهو يهاجم عبادة الآثار المقدسة (كالرُفات والتذكار) وعبادة الصليب والصور والتماثيل. وهو يقدّم دفاعاً مُلخّصاً عن العقيدة الإسلامية ضدّ انتقادات النصرانية، ومن ثمّ يستنتج مُستدلّاً انتشار الإسلام المُعجز: «بعد الاستعانة بالله الذي نؤمن به وحده، فقد خرجنا حُفاةً وعُراةً بلا عُدّةٍ ولا عدد ولا سلاح ولا مُؤن اكثيرة لنُقارع أكبر الإمبراطوريات وأقوى الأُمم التي حكمت الشعوب بالجور والظلم والقسوة أي: الفرس والروم.

لقد زحفنا إليهم بأعدادنا القليلة ومواردنا الضئيلة. ولكن الله مكّننا من الانتصار عليهم جميعاً والاستيلاء على مُمتلكاتهم، وهو الذي أسكننا أرضهم وبيوتهم، ومَنّ علينا بثرواتهم، وما كان لنا إلاّ عظمة وقوة دين الحقّ. فالحمد لله على نصره وقدرته ورحمته، ومنذ ذلك الوقت امتد انتشار الإسلام لم تتوقف عطاياه العامرة لنا ليلاً ونهاراً مرةً بعد مرة حتى وصلنا لما وصلنا إليه اليوم من كرمه علينا وجوده الغامر وقوته... وأما فيما يحص نا، فإننا نجدُ في تنزيل الله على نبيّنا كما يقول هو سبحانه وتعالى عنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

إن الصعود النيزكيّ للإسلام يبدو معجزةً حقّاً: حفنةٌ من المحاربين من الصحراء يُخضعون أغنى وأكثر أجزاء العالم سكاناً لأعظم وأقوى الإمبراطوريات. بالتأكيد، قد فضّل اللهُ دين الإسلام وأراد من رعاياه اجدد التحوّل لدينه. والغالبية (تدريجيا وعبر عدة أجيال) سوف تصل إلى هذا الاستنتاج نفسه، والغالبية ستعتنق الإسلام لذلك. ولكن الذين رفضوا الإسلام، واختاروا البقاء على نصرانيتهم، وجّب عليهم الإجابة عن هذا السؤال الهائل: لماذا مَكّن الله هذه النجاحات المذهلة لدين الإسلام؟؟؟»[١٠].

العدالة في العالم الإسلامي كانت أسطورية من دون نظير بأي مكان في العالم ولم يُسمع بنظير لها في التاريخ البشري[١١]. الحوادث الآتية تمثل ثلاثة نماذج جديرة بالذكر (وهي غيضٌ من فيض):

- بعد فتح مكة وعندما اعترفت المرأة المخزومية (بنو مخزوم هم ثاني قبيلة شهرةً بعد بني هاشم) بالسرقة (وكانت تستعير المتاع وتجحده مرارا) وكانت الدلائل على سرقتها قطعيّة، أحيلت قضيتها للنبي محمد ﷺ، الذي حكم بحُكم الله وهو قطع يدها اليمنى (من الرسغ). فشعرت قريش أن اسمها قد لُطّخ وشهرته قد تقوّضت وتشوّهت؛ لذلك طلبوا من أُسامة بن زيد (ابن النبي بالتبني وحِبّه) أن يتكلم نيابة عنهم ويطلب من النبي تخفيف العقوبة.

فقال رسول الله ﷺ (بغضب): **(أتشفع في حدّ من حدود الله تعالى؟)** ثم قام فاختطب، ثم قال: **(إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**. متفق عليه.

وبعد قطع يد هذه المرأة قالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: **(نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)**. إنّ هذه المرأة حسُنت توبتها بعد، وتزوجت. فأنزل الله تعالى فيها توثيقاً في القرآن: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

والذي يبدو أنه في عصر المسيح، كان السرّاق يُصلبون (ماثيو ٢٧-٣٨)؛ ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا يعملون بقطع يد السارق. ولكن في الإسلام لا تُعاقب كُلُّ سرقة بقطع اليد إلاَّ إذا ثبت أن: (١) الشيء المسروق كان في حرزٍ كصندوق المال؛ (٢) لا يكون السارق في حاجة، فإنه في المجاعة، وفي سرقة الخدم المحتاجين لا تقطع اليد. (٣) قيمة الشيء المسروق يعادل ثمن درع في تلك الأيام (بما يُساوي ربع دينار ذهبي)؛ وفقهاء القانون غير متفقين على القيمة العصرية للشيء المسروق الذي يؤدي للعقاب بقطع اليد والغالبية يجمعون على أن السرقات التافهة (أو الصغيرة) مُستثناة من العقوبة؛ وهناك استثناءات كثيرة أخرى. لذلك فإن هذه العقوبة الإسلامية توظف كرادع للآخرين. ويقال إنه في قرون الحكم الإسلامي الطويلة، كان العدد المُقيد للأيادي المقطوعة بسبب السرقة ضئيلاً جداً حتى إنه يُعد بالأصابع.

وهذه الحادثة حقاً توضّح أن المعيار القانوني الموحّد والمُطبّق على جميع الناس دون تمايز وبغضّ النظر عن المركز والجاه والثروة والعرق، والعلاقات كان حقاً أعظم وأحدث قيمة جلبها العدل الإسلامي للبشرية. والنبي هنا أيضاً يُعطي تفسير التاريخ بتوضيحه جليّاً أن واحداً من أهم أسباب هبوط وسقوط الحضارات يكمن في تبني المعيار القانوني المزدوج، عندما يُطبق القانون على مجموعة من الناس ولا يطبق على آخرين بسبب جاههم واسمهم وشهرتهم وعرقهم ومركزهم الحكوميّ. في العالم الإسلامي لم يكن هنالك أحدٌ فوق القانون؛ وكان القانون مُطبّقاً على الجميع (فرؤوس الدولة يُحالون للمحاكمات كالآخرين في محاكم القضاء حيث القُضاة وسلطان القضاء مستقلان تماماً عن الدولة).

◆ عندما اشتُبه طعمة بن أُبيرق (أنصاريٌ مُسلم بالاسم فقط، لكنه حقيقة منافق أدمن على جميع الأعمال الشريرة) بسرقة درع محفوظ في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره. وعندما اشتدّت المحاكمة أقسم بالله أنه لم يسرق (كذباً)، ومن ثم قام بوضع الدرع مع جراب الدقيق ودفعه إلى منزل رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين) ووجد الدرع عنده (لاستخدام اليهودي كبش فداء لتلفّق له تهمة سرقة لم يفعلها). لكن زيد اليهودي أنكر التهمة وادّعى أن طعمة هو الذي دفع الدرع له. وتعاطف المسلمون مع قبيلة طعمة المسلمة كون طعمة مسلم بالاسم. وأحيلت القضية إلى النبي محمد، الذي برّأ وأطلق سراح اليهودي طبقاً لقاعدة العدالة الصارمة، بهداية الله. وقد كانت هناك محاولات للتلاعب بمحمد ومحاولة خداعه لاستخدام سلطته ومحاباة طعمة المسلم ضد اليهودي. وعندما أحسّ طعمة أن العقوبة وشيكة، هربَ من المدينة وارتد عن الإسلام (وفي مكة حاول طعمة السرقة ثانية فأخرجوه من مكة، فخرج مع تجار من قُضاعة نحو الشام، فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب. فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة حتى قتلوه). ويُسجّل القرآن هذه الحادثة بجمال كما حدثت ويوثق كيف أن الله عز وجل أقام العدالة عن طريق الوحي لنبيّه للدفاع عن براءة يهودي ضد فظاعة طعمة (المُسلم اسماً): ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۞ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۞ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ۞ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء: ١٠٥-١٠٨). انظر: تفسير البغوي.

◆ عندما قام ابن عمرو بن العاص (وعمرو بن العاص آنذاك والي أو حاكم مصر) بضرب مواطن قبطي بالسياط (لأنه سبق فرسه في سباق للخيل)؛ قام هذا القبطي (عارفاً بالعدالة الإسلامية) بالسفر قاطعاً كل المسافة من مصر للمدينة ليشكو شخصياً للخليفة عمر بن الخطاب ابن عمرو بن العاص. فأمر الخليفة والي مصر بالقدوم مباشرة إلى المدينة مصحوباً بابنه. ولما حضر عمرو بن العاص المدينة مع ابنه: قام عمر (الخليفة) يأمر المواطن المصري القبطي بالقصاص من ابن عمرو بن العاص ويقول له: لو ضربت أباه عمراً لما حلنا بينك وبين ذلك (مؤكداً

أنه لولا أبوه ما تجرأ الابن على هذا التصرف أبداً؛ لكن القبطي اكتفى بضرب الابن فقط)؛ ثم قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب قولته المشهورة (التي صارت قاعدة أو قانوناً في الأحكام والإدارة الإسلامية وفي تسيير شؤون الناس على نحو عام): (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!).

باستثناء نادر لشبه الجزيرة الأيبيرية (أي إسبانية والبرتغال) أينما حلّ ووصل المسلمون فإن الناس تحولوا للإسلام على نحو دائم، واللغة العربية كانت تابعاً للإسلام كلغة التداول عند العامة في هذا الجزء الجديد من العالم الإسلامي. إنّ الحضارة هي كالكائن البشري يقوم على ساقين: القوة المادية (العلم أو هاي – تيك) والقوة الخُلقية (الدين أو القيم الإنسانية)؛ والحضارة الإسلامية بالرغم من قصورها الابتدائي وعدم حيازتها لأفضل (هاي –تيك)، لكنها ثابرت بشدة لامتلاكها (مُستوحية ذلك من تعاليم الإسلام) لمضارعة خصومها (الكفّار)، لكن القيم الأخلاقية والإنسانية الإسلامية والمستوحاة من الله والمترجمة واقعياً في النبي محمد البشري وأتباعه المسلمين أعطى العالم والبشرية ما كانت دوماً تحتاجه (لكنها لم تحصلها أو ضيعت الفرصة للحصول عليها) من القيم الحيوية مثل العدالة، والمساواة، والأخوة.

الإسلام غيّر نظام العالم القديم للأبد، مُحوّلاً إيّاه إلى قرية عالمية (الموحّد بإيمان الناس بربٍ واحد؛ والناس يعيشون بسلام مع الله ومع أنفسهم، ومع الآخرين) وأول مرة في تاريخ البشرية.

يقال إن التطبيق الصحيح للإسلام يضمن دوماً شيئين: سعادة الإنسان (حتى في أثناء مرضه ومعاناته) زائد بركات الله في حياة الإنسان (في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة).

الصلة المتبادلة بين الإسلام واللغة العربية[1]

لإيضاح التأثير المتبادل بين الإسلام واللغة العربية، يستطيع المرء أن يركّز على مفهوم التوحيد أن الله واحد أحد (يستحق العبادة والطاعة وحده) ويتضافر القرآن العربي والحديث النبوي في إخراج ٩٩ اسماً حسناً مقدّساً لله. يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**إن لله تسعةً وتسعين اسماً مئة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنّة**) و(**الله وتر يحبُّ الوتر**). صحيح البخاري، الحديث رقم ٤١٩. الأسماء الحسنى المقدسة الـ ٩٩ لله (الله هو الاسم الأصيل للربّ جلّ وعلا) الواردة في القرآن والحديث، وهي: الله لا إله إلا هو:

١. الرحمن	١٤. الغفار	٢٧. البصير
٢. الرحيم	١٥. القهار	٢٨. الحكم
٣. الملك	١٦. الوهّاب أو المعطي	٢٩. العدل
٤. القدوس	١٧. الرزّاق	٣٠. اللطيف
٥. السلام	١٨. الفتّاح	٣١. الخبير
٦. المؤمن	١٩. العليم	٣٢. الحليم
٧. المهيمن	٢٠. القابض	٣٣. العظيم
٨. العزيز	٢١. الباسط	٣٤. الغفور
٩. الجبار	٢٢. الخافض	٣٥. الشكور
١٠. المتكبّر	٢٣. الرافع	٣٦. العلي
١١. الخالق	٢٤. المعزّ	٣٧. الكبير
١٢. البارئ	٢٥. المذلّ	٣٨. الحفيظ
١٣. المصور	٢٦. السميع	٣٩. المُقيت

٤٠. الحسيب
٤١. الجليل
٤٢. الكريم (كثير العطاء) والمحسن (المعطي بالرغم من الإساءة ودون مقابل)
٤٣. الرقيب
٤٤. المجيب
٤٥. الواسع
٤٦. الحكيم
٤٧. الودود
٤٨. المجيد
٤٩. الباعث
٥٠. الشهيد
٥١. الحق
٥٢. الوكيل
٥٣. القوي
٥٤. المتين
٥٥. الولي
٥٦. الحميد
٥٧. المحصي
٥٨. المبدئ
٥٩. المعيد
٦٠. المحيي
٦١. المميت
٦٢. الحيّ (الذي لا يموت)
٦٣. القيّوم (القائم فوق كل شيء ولا ينام أبدا)
٦٤. الواجد
٦٥. الماجد
٦٦. الواحد (عددا وترا)
٦٧. الأحد (ليس كمثله شيء)
٦٨. الصمد (السيد المطلق فاكتفاؤه ذاتي لا يأكل ولا يشرب، ويحتاج إليه الخلق كلهم وهو لا يحتاج إلى أحد ألبتة).
٦٩. القادر
٧٠. المقتدر
٧١. المقدم
٧٢. المؤخر
٧٣. الأوّل
٧٤. الآخر
٧٥. الظاهر
٧٦. الباطن
٧٧. الوالي
٧٨. المتعالي
٧٩. البرّ
٨٠. التوّاب
٨١. المنتقم
٨٢. العفوّ
٨٣. الرؤوف
٨٤. مالك الملك
٨٥. ذو الجلال والإكرام
٨٦. المقسط
٨٧. الجامع
٨٨. الغني
٨٩. المغني
٩٠. المانع
٩١. النافع
٩٢. الضار
٩٣. النور
٩٤. الهادي
٩٥. البديع أو بديع السموات والأرض
٩٦. الباقي
٩٧. الوارث
٩٨. الرشيد
٩٩. الصبور

هذه الأسماء العربية الوصفية الـ (٩٩) لله الواحد، هي ليست فقط إغناء للغة العربية (بالقرآن والحديث)، ولكنها تأكيدٌ على عدم وجود وسط لغوي غني «كالعربية» واحتوى وعبّر عن المعاني الصحيحة التي تصف الله سبحانه وتعالى بهذه الدقّة والغنى بالمفردات والأوصاف الغنيّة.

نقلت جريدة «الشروق» الجزائرية (فيما أوردته الدكتورة عُلى الألفي في موقع بوتقة) واحدة من دلائل عظمة الخالق في اسمه جاءت على لسان غير عربي وديانة غير إسلامية: هيلين، الفتاة الإسبانية التي تدرس ماجستير لغة عربية في جامعة اليرموك الأردنية، إذ قامت بتقديم شروح مبدعة للفظ الجلالة: الله، قالت: (إن أجمل ما قرأت بالعربية هو اسم الله، فآلية ذكر اسمه سبحانه وتعالى على اللسان البشري لها نغمة متفردة، لأن مكونات حروفه من دون الأسماء جميعها يأتي ذكرها من خالص الجوف وليس من الشفتين، فلفظ الجلالة لا تنطق به الشفاه لخلوه من النقاط !) وأضافت الطالبة التي أعجزت أستاذها: (لفظ الجلالة، من إعجاز اسمه، أنه مهما نقصت حروفه فإن الاسم يبقى كما هو، دون أن يشوبه أي تغيير، وكما هو معروف أن لفظ الجلالة يُشكّل بالضمة في نهاية الحرف الأخير: اللهُ) وأكملت قائلة: (وإذا ما حذفنا الحرف الأول يصبح اسمه لله كما هو في الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وإذا ما حذفنا الألف واللام الأولى بقيت "لـه" ولا يزال مدلولها الإلهي كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الحشر: ٢٤].

وإن حذفت الألف واللام الأولى والثانية بقيت الهاء بالضمة "هُـ"، وبالرغم من ذلك تبقى الإشارة إليه سبحانه وتعالى كما قال في كتابه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[الحشر: ٢٢].

أما إذا ما حذفت اللام الأولى بقيت "إله" كما قال تعالى في الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وبناءً على ذلك، فقد حازت اللغة العربية على موقع مقدّس جداً في أعين كل المؤمنين (بالإسلام)، ومن هنا كان الإسلام واللغة العربية متلازمين دوماً دون انفصال.

لذلك فكثيراً ما يُصطلح للعربية اسم «اللغة الإسلامية»، أو «لغة الإسلام» كما يجب أن تسمّى أيضاً «لغة السلام والوئام».

العربية: لغة الثقافة الجديدة في العالم الإسلامي[9]:

كانت اللغة العربية الوسط ولغة التداول الشائعة للعالم الإسلامي للحاجة الدينية لها، كما هي لحاجة الأعمال والتجارة والفعاليات العلمية لتلك اللغة.

أنتجت الفتوحات العربية/ الإسلامية العظيمة في القرنين السابع والثامن نتاجين خطري الأهمية وطويلي المدى فالتأثير المباشر والمثير كان في تكوين دولة عالمية جديدة حول حوض البحر المتوسط والشرق القريب (يسار لها أخير بالعالم الإسلامي). والنتاج الثاني الأقل سرعة وإثارة ولكنه لا يقل أهمية هو تطوّر ثقافة عالم جديد لهذه الدولة فالإسلام هو مصفاة الثقافات، الذي يُصفّي ثقافات الشعوب الخاضعة، ومن ثمّ يمزجها بالتفسير الإسلامي الشامل لله والتاريخ والحياة والبشرية والكون؛ وكما كان الإسلام يصور نفسه معتقاً كلّ مناحي الحياة البشرية، فلا فاعلية فرد ولا جماعة غريبة عليه، يوظف المسلمون (داخل إطار هذه الثقافة المصفّاة إسلامياً) الآداب التقليدية، والطريقة الهلينية في التفكير، والمؤسسات البيزنطية، وقانون الإدارة الروماني، والمدارسة السريانية، والفن الفارسي. وجُرِّدت داخل دولة الإسلام الجديدة هذه أو عالم الإسلام (أو الخلافة) الثقافات المتنوعة والمجتمعات للعالم القديم من إقليميتها، ودُمجت في تفاعل مثمر بنّاء جديد. ونتج عن ذلك ثقافة عالم جديد، حيث مكوّناته الرئيسة موجودة أصلاً في حياة وإرث شعوب البلاد المفتوحة، لذلك فإن هذه الثقافة الغنية المتميزة قد تكونت في الموضع نفسه، بخلاف فرض الثقافة الأجنبية بالغزو، وهي ليست العملية نفسها التي حملت الحضارة الغربية إلى الشرق في مرحلة الاستعمار الأوروبي.

وقد استجاب الفاتحون العرب أنفسهم بسرعة للتواصل مع الحضارات التي اكتسحوها: وبمجرد الارتخاء بعد الامتصاص الأوّلي للفتح، «جلس العرب المسلمون كالتلاميذ أمام علماء الشعوب التي أخضعوها - ويا لهم من تلاميذ وطلاّب علم نابهين» كما نبّه فيليب حتّي. وقبل نهاية أول سلالة عربية (الأموية) كانت الأعمال التقليدية قد تُرجمت إلى العربية، والعمارات المثيرة للإعجاب قد بُنيت، وعلوم البحث عند العرب في الآداب والعلوم قد بدأت تنتعش. وبعد زمان وفي الوقت الذي فقد العرب تألّقهم بالحكم، كانت العناصر غير العربية قد توطّدت في الحياة والفكر للمجتمع المسلم. ووصل هذا التكوين للثقافة الإسلامية المتميّزة ذروته في وقت كانت القيادة العربية لدول العالم الإسلامي (المسماة خطأً إمبراطورية) في هبوط (مع ارتفاع نجم السلالة العباسية عام ٧٥٠م).

إن كلاً من الفتوحات والثقافة كل له التأثير العميق في شكل العصر الحديث. ولا سيّما فإن هذه الثقافة العالمية المُصفّاة إسلامياً في دولة الإسلام وعالمه هذه قد أدّت سريعاً إلى حضارة متميزة كذلك وبلون عربيّ معين التي

ميّزت العالم الإسلامي معطيةً إياه هويةً وسمة نظام العالم الجديد من جرّاء فتوحات الإسلام المنتشرة عبر الشعوب الأجنبية. والتأثير وثيق العلاقة لهذه الخلافة شاملة المضامين وللدين الاستثنائي كان في إسهام العرب في بزوغ نجم ثقافة جديدة بلغتهم. وكيفية اختراق ونفوذ اللغة العربية في تطور الثقافة المسلمة هو أمر لا مفرّ منه. ويتمثل في حقيقة النظام الذي تكوّن آخراً، الذي نشير إليه بالحضارة العربية والفكر العربي، بالرغم من أن الكثير من إنجازات التدفقة العظيمة لم تحصل تحت رعايات عربية، فغير العرب بل حتى غير المسلمين قاموا بإسهامات مهمة، ولكنهم قاموا بها باللغة العربية، مهما كانت أعراق أصولهم الاجتماعية. كما أكّدنا سابقاً أن الإسلام كان وسيلة نقل العربية على نحوٍ رائد. فالقرآن مصدر كل العقيدة والتقوى، كان عربياً ولا يمكن ترجمته حرفياً لأي لسان آخر (لكنّ معاني القرآن يمكن ترجمتها). وتفسير القرآن اقتضى أن يكون بعض العرب الأوائل علماء بحث، ثم إن حقيقة اختيار الله للعربية لغةً للتنزيل جعل دراسة قواعدها النحويّة واستعمالاتها واجباً دينيّاً. وباختصار لا يستطيع المرء أن يكون مسلما دون بعض الفهم للغة العربية. وفيما يخص اللغة العربية يوضح الأستاذ جون بادو في **عبقرية حضارة العرب — مصدر للنهضة [الأوروبية]**[١]:

(ومع ذلك فإن هناك ما هو أكثر من الفتوحات والدين الذي رفع العربية إلى موضع التألق في الثقافة المسلمة. فبالرغم من ميزتها الأصلية لغةً للصحراء، فالعربية أبدت طاقة كامنة رائعة كوسط للتواصل اللغوي الذوّاق والمعقّد. فهي تمتلك تركيباً واضحاً جداً للّغات الساميّة، التي تكون أجزاء الكلام فيها مترابطة بوضوح وبإحكام، وهي تستطيع خلق كلمات جديدة من الأشكال اللفظية الموجودة، وقابليتها لرسم ظلالٍ من المعاني في تعبير مثير واحد يجعلها لغة دقيقة ومفعمة بالحياة. وحين توسّعت بالتحويرين وتحفّزت بالتحدي في الآفاق الجديدة، أصبحت آلة ممتازة للفكر وعلوم البحث، ولو كانت فاقدة لنوعية الجودة العظيمة المتأصلة فيها، فلا وطأة الفتوح ولا النزعة الديني يستطيعان إعطاء العربية هذا الموقع المسيطر في عالم الإسلام مترامي الأطراف وعديد الألسنة. وتأثيرات تفوّق العربية وسيادتها على الثقافة عميقة وبعيدة المدى.

فالعربيا جهّزت الوسط الشامل (متضمن الجميع) للتواصل الذي يترجم السياسات المختلطة لأنواع الشعوب في ثقافة مشتركة موحّدة. فكما فعلت اللغة اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى، والإنجليزية في الهند البريطانية، فعلت العربية فعلها في الدولة الجديدة مُهيمنةً على اللغات الإقليمية والآداب لتخلق دنيا فكرية عالمية جديدة حيث فلاسفة الفرس، وفقهاء العرب، وأحبار اليهود والنصارى، والرياضيون الهنود يمكنهم جميعاً النطق بلغة واحدة مشتركة، ولكنّهم مع ذلك يستطيعون الإحساس بالمشاركة في نظام فكريّ مشترك. وإضافة إلى ذلك فاستعمال العربية وتبنّي ألف بائها من قبل اللغات الإسلامية غير العربية شكلت نوعاً من حدود الاستكشاف اللغوي حوّلت الشعوب المسلمة من ثقافتها السابقة وأعطتها نوعاً من الهوية والوعي الذي يميّزهم عن الشعوب الأخرى. واللغة العربية صارت تداخلاً مترابطاً بين الوسط والرسالة. فالسمات فائقة التميز للعربية، وغناها، ومحتويات ألفاظها، وأسلوبها الخاص في التعبير عن الفكرة، ونزوعها لأوزان الشعر والقافية – كلها تضع بصمة التألق العلمي على نتاجاته، وعلى عقول علمائه ومعها نكهة خاصة لعالم الفكر الإسلامي. لهذا فإن الخاصّية الفريدة لثقافة الإسلام في العصور الوسطى تكمن جزئياً في عمله بالعربية ومثل إسهام الإسلام، فتأثير العربية النافذ كفل عربية (عروبة) عالم العصور أو القرون الوسطى لمدى طويل وحتى بعد مرحلة حكم العرب السياسي)[٢].

المراجع

1. **Al-Tabar , Tarikh: The History of Nations and Kings (2nd Volume).**

تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ ج ٢ (١–٢٥)، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ–١٩٨٧م.

2. **Ibn Kath r: Al-Bidayah wal Nihaya (The Beginning and The End) - 2nd and 3rd Volumes.**

البداية والنهاية: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير، مج٢–٤ (ج ٥–٨)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ هـ–١٩٧٨م.

3. **Hugh Kennedy. The Great Arab Conquests-How The Spread of Islam Changed The World We Live In.** Published by Weidenfeld & Nicolson, London, 2007, extracts from book cover, preface, and conclusion.

4. a. **The Holy Qur'an (English translation of the meanings and Commentary).** The Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. **Mus'haf Al-Madinah Al-Munawarah** under The Auspices of The Ministry of Hajj and Endowments. The Kingdom of Saudi Arabia. 1413 H. pages according to specified verses as cited in the text.

   b. **Translation of the meanings The Noble Qur'an in the English Language.** By Dr Muhammad Taqi-ud-Din al-Hilali AND Dr Muhammad Muhsin Khan. King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. Medina ،The Kingdom of Saudi Arabia. 1404 H.

   c. **The Glorious Qur'an-Text & Explanatory Translation.** By **Marmaduke Pickthall**. Karachi: Taj company Ltd ،(undated).

   d. **The Holy Qur'an-Text ،Translation and Commentary. By Yusuf Ali.** Compliments of Al Rajhi Company For Currency exchange and Commerce. Published by Amana **Corporation** ،Maryland USA. 1983

5. a. **Sahihs of Hadiths** related by the six: [Sahih] Al-Bukhari ،[Shaih] Muslim ،At-Tirmidhi ،Abu **Dawood** ،Ibn Majah ،and Al-Nisa'i.

   b. **An-Nawawis Forty Hadith** (An Anthology of the Sayings of the Prophet Muhammad). Translated by **Ezzedin Ibrahim and Denys Johnson-Davies**. The Holy Koran Publishing House ،Beirut and Damascus. 4th Edition. 1979.

   c. **Ibn Qayyim Al-Jawzi'yah. Zad Al-Ma'ad fi Hadi Khair Al-Ibad**. Page 45

   زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيِّم الجوزيّة، ص ٤٥، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

6. **Kerry Brown** and **Martin Palmer** (Editors). **The Essential Teachings of Islam-Daily readings from the sacred texts**. Rider. London. 1987. Pages 9-11.

7. **Chris Lowney. A Vanished World (Muslims ،Christians ،and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5 ،10-13 ،255-260.

8. **Tariq Ramadan. The Messenger-The Meanings of the Life of Muhammad**. Oxford University Press in USA and Allen Lane (an imprint of Penguin Books) in UK. 2007. Pages: 161,171-174,187 ،200-204.

9. **John R Hayes (Editor). The Genius of Arab Civilization-Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976 ،pages 2 ،12-13 ،201-205.

10. **John V. Tolan. Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York ،2002. Page 37.

الفصل الخامس:

كيف أثّر المسلمون والعرب في اللغة الإنجليزية

(التلاقح اللغوي العربي – الإنجليزي)

منافذ التأثير العربيّ يمكن تتبّعها فما يأتي:

١- الترجمة (الإغريقية إلى العربية) والترجمة المُعاكسة (من العربيّة إلى اللاتينية)[١,٢,٣]:

أمَرَ الإسلام أتباعه بالتزوُّد بالمعرفة والعلم. فقد قال رسول الله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مُسلم ومُسلمة**» رواه ابن ماجة، حديث رقم ٢٢٤. وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها**». الترمذي، حديث ١٩:٤٩.

كان العربُ والمسلمون مسحورين بالفلاسفة الإغريق وعلمائهم إلى حد أن أقنعهم الرومان عام ٨٣٠ م، بوقف حملاتهم العسكرية ضد القسطنطينية لقاء حصولهم على كتب الإغريق المحفوظة في أنفاق تحت الأرض لمدينة بيزنطة (القسطنطينيّة). وكان الخلفاء العبّاسيون رُعاةً وداعمين ومطوِّرين للفنون والفعّاليات العلميّة. قام الأطباء المشهورون في زمانهم: جرجس ابن جبرائيل، يوحنا بن ماسويه، وحُنين بن إسحاق العبادي (في بغداد) وبناءً للطلب الخاصّ للخلفاء المتعاقبين: أبو جعفر المنصور (٧٥٤–٧٧٥م) وهارون الرشيد (٧٨٦–٨٠٩م)، والمأمون (٨١٣–٨٣٣م) بمتابع بالعمل الخطر لترجمة الكُتب الطّبية الإغريقية (اليونانية) والمستحصلة من بيزنطة) إلى اللغة العربية. كلُّ مُترجم أُعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً.

وأخيراً، أمر الخليفة المأمون بإلحاق مدرسة الترجمة مع جامعة بغداد المُسماة «بيت الحكمة» وعيّن حُنين بن إسحاق العبادي (٨٠٨–٨٧٣م) رئيساً لها والأخير (حُنين) ترجم مؤلفات جالينوس: «في أعمال التشريح» حيث إن المجلّدات الأصليّة الإغريقيّة منها ٩–١٥ (بالتتابع) قد فُقدت تماماً (لذا فالترجمة العربية كانت وسط الحفظ الوحيد للكتب الإغريقية المفقودة)؛ «في المهنة التي يترافعُ بها أفاضلُ الأطباء»؛ و«في أنّ الطبيب الفاضل فيلسوف». جورج سارتون من جامعة هارفارد تتبّع في كتابه (الهادي لتاريخ العلوم) المطبوع في أمريكا عام ١٩٥٢، في صفحة ٣٧–٢٨) جذور التطور الفكري الغربي إلى الإرث العربي الذي كان (المدّ المتدفق الرائع، وبقي كذلك حتى القرن الرابع عشر الميلادي واحداً من أكبر تيّارات الفكر العصور الوسطى). أيضاً فقد صعد (العرب على أكتاف أسلافهم الإغريق، بالضبط كما صعد الأمريكيّون على أكتاف أسلافهم الأوروبيين. وليس في ذلك أي خطأ). ومن ثمّ ينتقد سارتون بشدة أولئك الذين يدّعون (بسطحية مقولة «إن العرب كانوا مجرد مترجمين لكتابات الإغريق، وكانوا مقلدين مُثابرين»... أنها ليست باطلاً محضاً فقط، ولكن المقولة هذه «جزء ضئيلٌ من الحقيقة» التي إذا قيلت هكذا مجرّدة وحدها فإنها تُصبحُ أسوأ من الكذب ذاته).

إنّ التاريخ هو تراكم المساعي البشرية والخبرات الثمينة وحكَم القُدماء وهو البوصلة التي تستفيد من خبرات الماضي لتوجيه البشر وهدايتهم إلى أفضل طُرُق المستقبل. وإذا كان التاريخ الحضاري يُبتدأ في (سومر)، حيث وثّق الأستاذ (صامويل نوح كريمر) من جامعة بنسلفانيا الاكتشافات الـ(٣٩) الأوائل في تاريخ الإنسان المُقيّد بناءً على ألواح

سومر (بلاد الرافدين). **التاريخ يبدأ في سومر**، أول طبعة ١٩٥٦، والطبعة المنقّحة الثالثة عام ١٩٩٤، مطبعة جامعة بنسلفانيا) لذلك فإن كلاً من حضارتي المصريين والفينيقيين قد شيّدتا على أساس خبرات سومر الحضارية. وكما أن الإغريق (اليونان) أسّسوا حضارتهم على أكتاف المصريين: فإن العرب/ المسلمين أسّسوا بناءهم على خبرات الإغريق، بالطريقة نفسها التي أسّس الأوروبيون بناءهم وحضارتهم على خبرات العرب المسلمين. وفي العالم الأكاديمي (التعليمي)، عندما يقوم الطالب الجامعي بدراسة الدكتوراه، فإن عليه أو عليها مراجعة المؤلفات من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر لأطروحة الدكتوراه كي يستفيد ويبني على خبرات الآخرين قبل أن يقدم عمله الخلّاق الأصيل ثم إن طلاب الأمس هم سادة الغد: وأحياناً قد يتفوّق الطلاب المثابرون المُجدّون على أساتذتهم المُعلّمين.

لقد وصل العلماء العرب القمة في عصرهم الذهبي الخلّاق طوال القرون ٨–١٢ (كلها) مُتسيّدين على أوروبا في عصورها الوسطى السوداء: بل إن الحقيقة أن عصور أوروبا الوسطى تُقابل العصور الذهبية للعالم الإسلامي واللغة العربية كانت لغة التداول الشائعة للعالم آنذاك. إنّ أغلب الكتب العربية في الطب والفلسفة مثل «**الكتاب الملكي**» لعلي عباس، و«**القانون**» لابن سينا، و«**التصريف**» لأبي القاسم، و«**الكليات**» لابن رشد، كلها مراجعٌ تُرجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية بوساطة قسطنطين الإفريقي (١٠٢٠–١٠٨٧ ميلادي)، جيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧ ميلادي)، وفرج بن سالم، والأخير كان مُترجماً صقليّاً قام بناءً على طلب الملك شارلس (من نجو) بالمهمة الشاقّة لترجمة (٢٣) جزءاً لكتاب «**الحاوي**» للرازي في حياة المؤلف كلها.

واستخدمت هذه النُسخ اللاتينية للمراجع العربية في المدارس الطبية في أوروبا لتكون المراجع الوحيدة المتوافرة في الطب من أواخر القرن الحادي عشر وحتى بدايات القرن الثامن عشر[٢١،٢٢]. وقد كانت هذه النسخ اللاتينية للمراجع العربية كانت إحدى المصادر الرئيسة (إن لم تكن المصدر الأساس) للنهضة الأوروبية.

وهكذا عَبرت التحويرات اللاتينية للكثير من الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغة اللاتينية بعلم أو دون علم، ولا سيّما في حقول الطب، وعلم الزراعة، والقانون، والحلقات الدينية، واستخدمها الأوروبيون لكون اللغة اللاتينية موقّرة جداً للاستخدام بتحمّس ديني وتاريخيّ كبير كلغة أوروبا الرسمية لاستعادة مجد الرومان والإمبراطورية الرومانية. كما أصبحت الفرنسيّة، عقب الغزو النورماندي لإنجلترا، عنصراً مُكمّلاً للغة الإنجليزية ولأن فرنسية النورمان آنذاك (سواءٌ في بريطانيا أو في صقليّة العربية) كانت لغةً عالمية في التجارة، فإنها قناة مباشرة (عبر الفرنسية القديمة) أو غير مباشرة (عبر اللاتينية) لاستعارة الكلمات العربية من أسواق الشرق وتطعيمها وغرسها في اللغة الإنجليزية.

أثّر العرب في اللغة الإنجليزية القديمة للأنجلوساكسون على نحو غير مباشر عبر استخدام الكلمات اللاتينية وأثناء الاتصالات التجارية مع الحضارة العربية في إسبانية، لذلك، فالإسهام العربي للغة الإنجليزية كان كالمتطفل المُسالم الذي تبنّاه الأنجلوساكسون والنورمان أنفسهم للحاجات العلمية وللمتطلّبات اللغوية الإنسانية.

وهذا بالمقارنة عكس الإسهامات الرومانية والفرنسية (النورماندية) في الإنجليزية التي جاءت عقب غزوهم العسكري واحتلال الجزر البريطانية من قبل يوليوس قيصر في ٥٥ قبل الميلاد ووليام الفاتح في ١٠٦٦ بعد الميلاد بالتعاقب. وقد يكون من الممتع هنا الاستشهاد بالتحليل المُقارن لعالمة النبات والحدائق الغربية الخبيرة آن بافورد[٤]:

(وبالمقارنة مع الجمود في أوروبا، فإن انفجار فاعلية الفكر في الإسلام الغربي (الأندلس) بين القرن العاشر والثالث عشر كان معجزةً. فالنصرانية ما كانت تملك هذا التأثير المُحرّر لعقل القرون الوسطى في أوروبا. والقديس أوغسطين (هو الذي نشر النصرانية في أوروبا) علّم أن المعرفة (التي تشمل طبعاً العلوم كلها) هي انعكاس للفكر الإلهي في الذكاء البشري، وهذا شجّع نوعاً من السلبية غير الفاعلية.

التنوير والتوضيح لا تأتي به إلا السلطة الإلهية؛ إمّا مباشرةً أو بتفسير الوسيط وهو الكنيسة. والطبيعة كانت «وعاء فارغاً» كما يسميها شارلز ريفن، وفراغ تملؤه الكنيسة بآرائها. وهي لا تتبنى أو تشجع الآراء الفردية ولا التجارب. وفي العصور الوسطى في أوروبا ما كان تفسير العالم الطبيعي لاستجلاء واستخراج الحقيقة إلا بقدر ملئه بقمامة من الخرافات والعلامات المبهمة والنُذُر المشؤومة. وعندما تمكن العرب من الاستيعاب والامتصاص الكامل لكل صنوف المعرفة من المراجع الغربية، قاموا من ثمّ بإعادة تصدير هذه المعارف ثانية إلى أوروبا. وعبر الترشيح والتسلُّل العربي، أصبح العلماء الأوروبيون مُطلعين ثانية على جذور ثقافتهم هم الإسلام يؤمن أن مُلكية العلوم هي لكل الشعوب. بل تعلموا أكثر من ذلك أيضاً، مما كان له من بعد ذلك أعمق الأثر في الطريقة التي تصوّروا بها العالم من حولهم.

وبالبطء الذي استوعب الإسلام ذاته معارف قدماء الإغريق، فإن ثمار العلوم العربية نفذت بالترشيح والتقطير إلى الغرب، وغالباً ما عن طريق وسطاء يهود.

وهؤلاء كانوا بُحّاث علوم؛ وقادرين على التواصل بالإغريقية والعربية مع العبرية؛ أي كانوا متنوعي الثقافة قبل اختراع الكلمة نفسها (أي تنوع الثقافة التي كانت أصلاً صفة علماء العالم الإسلاميّ. واليهود عاشوا هناك واكتسبوا هذه الميزة منهم)، فرجالٌ مثل سبّاتي بن إبراهيم بن جويل (٩١٣–٩٨٢م)، والمعروف أكثر باسم دونولو، كان يهودياً من أوترانتو؛ وعند بلوغه ١٢ عاماً قبض عليه وعلى أسرته المسلمون (الشرقيون) الفاتحون وأخذوه إلى بلرمو (في صقلية). وعندما دُفعت رسوم الفدية من قبل أقرباء الأسرة في إيطالية، كان بن جويل طليق اللسان بالعربية التي تعلّمها من القابضين الشرقيين (المسلمين). ومن ثمّ درس الطب ومارسه في روزانو جنوب إيطالية. ومثل قسطنطين الإفريقي، الذي جاء بعده، فإنه ادعى في كتابه «كتاب الخليقة» (نحو ٩٦٤م) أنه درس علوم الإغريق والعرب والبابليين والهنود. وقام برحلات في إيطالية كلّها بحثاً عن معرفة جديدة ونشر في أثنائها معرفة العرب الواسعة أينما حل. أما قُسطنطين الإفريقي (نحو ١٠٢٠–١٠٨٧) فإنه كان مواطناً من قرطاج (بتونس اليوم) ومسلماً ناطقاً بالعربية وقد سافر لسنين عديدة في الهند وبلاد فارس. ونحو عام ١٠٦٥، جاء عبر صقليّة إلى ساليرنو، المدينة الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي لإيطالية. وهناك تعلم كلّاً من اللاتينية والإغريقية، ودخل إلى دير الرهبان في مونت كاسينو وقضى بقية حياته مترجماً لأعمال الإغريق والعرب في الطب وعلم النبات إلى اللاتينية. ووحده، أثار الانتباه إلى مجموع وثائق المعرفة الإغريقية/ العربية قبل ١٠٠ سنة من الشروع بترجمتها بالكمّ الهائل (أخيرا). وفي أكثر الأوقات، كان لا بد للعلماء الأوروبيين من الاعتماد على هؤلاء الوسطاء لجلب وقطف ثمار العلوم العربية.

كانت العربية لغةً لا تكاد تُخترق (الكلام صحيح جزئياً لأنه يعكس محاولة الكنيسة متقصدةً تغريب اللغة العربية عن الأوروبيين)، حتى استعصى على الرياضي الضليع الكبير روجر بيكون أن يحلّ رموزها. ولم تكن عنده مشكلةٌ ليتعلم بنفسه الإغريقية والعبرية، ولكن طريقته الوحيدة لتعلُّم العربية كانت في أن يُعايش سُكّانها في إقليم ينطق بالعربية. والجزء القليل من العلماء المتفوقين (أمثال اديلارد من باث (نحو ١٠٨٠–١١٤٥م) وجيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧م)) ذهب إلى إسبانية واستحضر ترجماتهم الخاصة لرسائل البحث العربية (وهذا يوضّح وجود البعثات والمنح الدراسية إلى إسبانية للتعلُّم والنهل من علوم العرب) – عندما بدأت أول طلائع علوم الغرب تنهل من الإسلام، حيث إسبانية الموضع المهم للاتصال. وبعد عام ١٠٨٥، عندما انقضّ (السيد) على طليطلة مع (ألفونسو السادس) من ليون، صارت هذه المدينة موضع التقاء مهم بين الشرق والغرب... (لذا فإن مجموع المعارف المطبوعة أكان) يدور كالدوّامة عبر القارات، وكأن خريطة العالم الكبيرة معروضة في غرفة عمليات الحرب العالمية الثانية.

كانت أول عملية شُرع بها في مدينة بيزنطة (القسطنطينية – إستنبول حالياً)، ثم إديسّا، ثم جُند يشابور (في فارس)، ثم بغداد (في العراق). وعندما شُيِّدت أول مدرسة طبيّة في أوروبا القرون الوسطى عام ٩٨٥ في ساليرنو

(المدينة الإيطالية) على أيدي ٤ أطباء – هم يونانيّ (إغريقي)، ويهوديّ، وعربي (شرقي مسلم)، ورجل محليّ من ساليرنو – ومن ثم صارت نواةً للفاعلية الفكرية)[١١].

الكلمات الإنجليزية الآتية من الأصول العربية هي نماذج قليلة فقط لهذه المرحلة:

الكيمياء، الغطّاس (الباتروس الطائر البحري)، الكحول، القرآن، القبّة، الإنبيق، القصفصة، الجبر، الخوارزم، القلي، الله، المناخ، الملغم، عنبر، أمير، أنجُر، النيل (صبغة النيل)، البرقوق، عرب، عربي، السّق، عَرَق دار – الصناعة، الزرنيخ، أرضي شوكي، الحشاشين، الزائغ، أسطرلاب، أطلس، عطر، السّمت، اللازوردي (أزرق سماوي)، لبان جاوه، بورق، بُرنس، جبل، قالب، خليفة، جمل، كافور، قند، قنا (قصب)، غرّاف، قيراط، كراوية، قطّ، صك، زنجفر، صفر، قهوة، قافلة، قطن، قرمزيّ، كمّون، دمشق، دينار، درهم، إكسير، أمير، غربل، غزّيّ (شاش)، غزال، جبل طارق، جبس (جص)، حجّ، حكيم (طبيب مُسلم)، حلوى، حريم، حشيش، زهر (نرد)، حنّاء، جرّه (مرطبان)، ياسمين، جُلاّب (شراب منعش)، كباب، كافر، خمسين (ريح الخمسين)، كحل، ليمون، ليلاقي (الليلَك، الارجواني)، مخزن، موهير (مُخيّر)، موسمية (ريح موسميّة)، مسجد، مُسلم، مُرّ، نظير (نظير السمت في الفلك)، نطرون (الملح: كربونات الصوديوم المائية)، نظام، نخاع، نارنجة (برتقالة)، قرآن، سفريّ، زعفران، سَحلب، صافن (وريد الساق)، سَنا (مُسهل)، سمسم، شريف، صُفّة (أريكة)، إسفاناخ (سبانخ)، سُكر، سُلطان، شراب (سيروب)، عتّابي (نسيج حريري مموج)، طلق، تعريفه، طوفان (إعصار إستوائي)، وزير، وادي (وادي النهر)، شبّاك (سفينة قرصانية)، سمت الرأس (في الفلك)، صفر (في الرياضيات)، وغير ذلك من الكلمات التي جرى استعراضها بالتفصيل في معجم الفردوس.

٢. الوجود الإسلامي في أوروبا[١٥] (هـ)

كان تأثير الإسلام الثقافي والحضاري في أوروبا غالباً تبعاً للفتوحات الإسلامية لإسبانية ولقسطنطينية وصقلية. إن اللغة العربية كانت لغة التداول الشائعة في الأندلس (إسبانية والبرتغال) وفي صقلية، وفي أرجاء العالم الإسلاميّ كله (الخلافة الإسلامية، أو بالمصطلح الغربي المعاصر الإمبراطورية الإسلامية أو الإمبراطورية العربيّة). وهكذا تسرّبت مفردات اللغة العربية وتداخلت بعد ذلك في اللغات الأوروبية؛ وعلى وجه الخصوص صارت اللغة العربية جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي للغة الإنجليزية (لكونها المثل وبوتقة انصهار اللغات الأوروبية).

الأندلس: عبَر المسلمون من شمال إفريقيا إلى أقصى الطرف الجنوبي لإسبانية في تموز ٧١٠م؛ ومن ثمّ هزموا الملك (رودريك) القوطيّ الغربي والإدارة المركزية لمملكته في شبه الجزيرة الأيبيريّة. وفي جنوب غرب فرنسا قام المسلمون بفتح كلٍّ من ناربون وبامبلونا، وفي ٧٣٢م، أغارت حملةٌ تغلغلت إلى المنطقة ما بين بوتيرز (بواتيه) وتورز، لكنها هُزمت أمام شارل مارتل (أي شارل المطرقة)، في معركة أقنعت المسلمين أنهم وصلوا الحدّ الأقصى لحملاتهم الناجحة. لذا وفّروا طاقاتهم البشرية وركزوا جهودهم لتوحيد وتأمين البلاد؛ ونظّموا إسبانية بوصفها مقاطعة تابعة للإمبراطورية العربية الإسلامية يحكمها حاكم (أمير) تابع لوالي شمال إفريقيا المتمركز في القيروان (تونس)، وهذا بدوره مسؤول مباشرة للخليفة في دمشق حتى سنة ٧٥٦م. عندما انتقلت سيطرة الخلافة الإسلامية من السلالة الأموية وعاصمتها دمشق إلى السلالة العباسيّة التي حوّلت العاصمة إلى بغداد. ثم صارت إسبانية دولة مستقلة بذاتها عندما استطاع أميرٌ شابٌ من سلالة بني أميّة (عبد الرحمن الأول) الهروب إلى إسبانية (الأندلس) ليكون أول الأمراء من بني أميّة في قرطبة، ولكنه أبقى الروابط الثقافية والاقتصادية حيّةً مع باقي العالم الإسلاميّ. حكَمَ المسلمون الأندلس قرابة ٨ قرون حتى ١٤٩٢، حيث كان سقوط مملكة غرناطة في أيدي الممالك النصرانية.

القسطنطينية: تعرّضت الإمبراطورية الرومانية البيزنطيّة لضغوط مُماثله نتيجة التوسع الإسلامي. فعندما اندفع العرب المسلمون من جزيرة العرب وحققوا الانتصارات المتتالية على الجيوش البيزنطية، وبسرعة فتحوا مقاطعات سورية ومصر. تعرّضت القسطنطينية لهجوم عام ٦٦٩م، ثم هُدِّدت أرضاً وبحراً عدة سنوات حتى عام ٦٨٠م. وقُبيل فتح إسبانية حوصرت القسطنطينية بشدّة مدة عام كامل (٧١٦–٧١٧م). واستمرت هذه الضغوط على القسطنطينية بلا توقف حتى سقطت في ١٤٥٣، على يد محمد الفاتح (محمد الثاني). ثم استطاع (سليمان القانوني) ومن بعده من الخلفاء العثمانيين التغلغل في أعماق الجزء الشرقي لأوروبا، حيث حاصروا وهدّدوا فيننا (النمسة) ٣ مرات بجيش العثمانيين وهو أقوى آلة عسكرية عرفها التاريخ.

كان الأتراك مسلمين وكانوا مسحورين باللغة العربيّة: وسيطروا على عنق الزجاجة (الإستراتيجي)، أهم موقع بين مياه البحر الأسود الباردة وبين مياه البحر المتوسط الدافئة، لذا كانوا حلقة وصل فريدة بين الحضارة العربيّة الإسلامية (ولغتها العربيّة) وبين الغرب النصراني، وقد تجسّد هذا التأثير في اللغة الإنجليزية على مستويات عدة، مثل: مصطلحات الرُتب العسكرية، تصاميم الهندسة المعمارية، وفي الأطعمة وفنون الطبخ، إضافة إلى المنسوجات القماشية (المحمولة والمتاجر فيها عبر أطراف طريق القوافل التجارية المعروفة بـ «طريق الحرير»).

صقلّية لشرقيين (العربية) الإسلامية: كان البيزنطيّون يتوقون لجعل صقلية منصةً لشنّ هجمات للاستيلاء على بلاد العرب المسلمين، وضمّها للإمبراطورية النصرانية تحت حكم روما والكنيسة البابوية الكاثوليكية. وبالمقابل وللدفاع عن شواطئ شمال إفريقيا، قام المسلمون بشنّ هجوم مضاد بجيوش متوحدة من العرب والبربر والإسبان المسمين (المصْطلح عليهم إجمالاً بـ «سراسينز» أي الشرقيين بالعربية) نزلت في مزاره (ديل فالو) بدعوة من قائد وجنرال بيزنطيّ تمرّد على الإمبراطور. واستشعر العالم النصراني اللاتينيّ تأثير المسلمين العسكري في صقلية عندما هوجمت مدينة سرقوسة أولاً عام ٦٥٢م؛ ثم سقطت كلٌّ من باليرمو، مسينا ثم سرقوسة بأيدي المسلمين في الأعوام ٨٣١، ٨٤٣ و٨٧٨ ميلادية على التوالي.

إسهامات العرب والمسلمين:

قام العرب والمسلمون بجعل اللغة العربية لغة التداول العامة وأدخلوا برنامج إصلاح الأراضي التي كان الناس في أمسّ الحاجة إليها، كما تبنّوا مشروعات تنمية أشجار الحمضيات والنخيل وقصب السكر: والأهم من ذلك أن المسلمين طوّروا وأتقنوا أنظمة توفير المياه والري (الزراعي). وحكم المسلمون أكثر من ٤ قرون حتى سقطت الجزيرة بأيدي النورمانديين عام ١٠٩١م، نتيجة تحالف بين الكنيسة البابوية الكاثوليكية والنورمانديين (إنجلترا سقطت بأيدي النورمنديين عام ١٠٦٦م). اتبع النورمان سياسة المصالحة مع أهل الجزيرة: واستمر تداول اللغة العربية جنباً إلى جنب مع الفرنسية، كما استمر توظيف المهندسين العرب والإداريين (البيروقراطيين) والمعماريين في البلاط الملكي. كانت مظاهر حياة بعض الحكام المتأخرين تبدو منسجمةً مع المسلمين أكثر من النصارى: ولا سيّما روجر الثاني (١١٣٠–١١٥٤م) وحفيده فريدريك الثاني من هوهنستاوفن (١٢١٥–١٢٥٠م) حيث كانا يُعرفان بـ «السلطانين المعمّدين في صقلية» (من الكلمة العربية (سلطان)، أي الحاكم)!!! وبالفعل، كلاهما كان يرتدي الثياب العربية، وكان روجر الثاني يمتلك عدداً كبيراً من الحريم.

كان الدافع الرئيس وراء هذه الموجات العملاقة من الفتوحات الإسلامية (كما يراها العرب) هو نشر دعوة الإسلام لغير المسلمين. والإسلام بذاته يقوم على مصدرين رئيسين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أحاديث وأفعال النبي محمد ﷺ، وكلاهما تنطق باللغة العربية.

لقد رفض العديد من الغربيين أمثال: (مونتيغومري وات) عدَّ المسلمين كباقي المتطفلين الأجانب الذين اقتحموا أوروبا؛ لأنهم (المسلمين) كانوا يمثلون حضارة ذات إنجازات عظيمة على بقعة واسعة من سطح الأرض، وقد تدفقت منافعها عبر أوروبا الغربية المجاورة أو العالم النصراني اللاتيني. يُصرِّح مونتغمري وات في كتابه الرائع (تأثير الإسلام على أوروبا العصور الوسطى) في الصفحات (١) و(٨٤) (اختلق كُتَّاب العصور الوسطى النصارى صورةً «مشوهةً» عن الإسلام في عدة جوانب، ولكن بفضل جهود عُلماء القرن الماضي أو نحوه، فقد بدأت الآن تتجلّى في صورةٍ أكثر موضوعيةً في أذهان الغربيين. أما فيما يخص دَيْننا الثقافي فإننا نحن الأوروبيين قد أُصبنا ببقعة عمياء وإننا في بعض الأحيان نقلّل من شأن التأثير الإسلامي في تراثنا، وأحياناً أخرى نتغاضى عنه بالكلية إذا أردنا إيجاد علاقات طيبة مع العرب والمسلمين، فإنه يجب علينا أن نعترف بفضلهم علينا اعترافاً كاملاً. إن محاولة إخفاء هذه الحقيقة وإنكارها تُعد مؤشر غرور زائفاً).

(وبسبب ردود الفعل المناهضة للإسلام، فإن أوروبا قد قلّلت من شأن تأثير العرب (المسلمين) فيها، وبالغت في اعتمادها على التراث الإغريقي اليوناني والروماني، لذلك علينا نحن في الوقت الحاضر واجب مهم هو تصحيح هذا التشدّد الزائف مع الاعتراف على نحوٍ كامل بدَيْننا للعالم العربي والإسلامي)[١٥].

إن غزو إسبانية وآسية الوسطى البيزنطية وصقلية كان يعني لبعض الوقت وجوداً إسلامياً على أطراف العالم النصراني اللاتيني، وجوداً كانت له أصداء في باقي أوروبا تجلّى في نقاط الاتصال التجاري المباشر والتبادل التقني بين فرنسا وإسبانية. لقد كانت هناك علاقات دبلوماسية بين شارلمان ملك فرنسا وبين هارون الرشيد، الخليفة الإسلامي في بغداد، وكذلك مع منافسه الأمير الأموي في إسبانية. وعبر هذه القنوات وصلت لأوروبا بعض الأخبار والمعرفة بمدى اتساع رقعة العالم الإسلامي وقدراته. إضافة إلى ذلك فإن التأثير العربي - الإسباني في اللغة الفرنسية قد انتقل إلى اللغة الإنجليزية على نحوٍ غير مباشر عبر الغزو النورماندي لإنجلترا بقيادة ويليم الفاتح. وكذلك فإن مدرسة باليرمو، ومدرسة ساليرنو (جنوب إيطالية) قد أسهمت بدورٍ كبيرٍ في نقل العلوم العربية إلى أوروبا.

إن إسهامات العرب الحضارية في أوروبا الغربية كثيرة، فمدينة قرطبة عاصمة الأمير بسكانها مئة الألف (١٠٠٠٠٠ نسمة) جعلت باقي مُدُن أوروبا تبدو كالأقزام أمامها. وكانت مكتبة الأمير تضم أربعمئة ألف (٤٠٠٠٠٠) مجلد، بل ربما كانت تحوي عدداً من الكتب بما يعادل عدد الكتب في مكتبات أوروبا النصرانية كلها مجتمعة، بين رفوفها ما كان مفقوداً ردحاً طويلاً من نفائس حكمة الغرب ومفاهيم رائعة جديدة من الشرق.

اخترع العرب الأرقام العربية واستعملوها في الجزء الغربي من أرض الخلافة (ساحل الشمال الإفريقي والأندلس)، كما طوّروا نظام الأرقام الهندية واستعملوها في الجزء الشرقي من أرض الخلافة (الجزيرة العربية، الهلال الخصيب، فارس والهند).

وبهذا استبدل العرب (بنظام أرقامهم العربية) نظام الأرقام الرومانية المرهق البطيء. إن نظام الأرقام العربية يعتمد على عدد الزوايا التي تمثل كل رقم: فمثلاً الرقم واحد كان يكتب هكذا: 1 بزاوية واحدة (كما يكتب الآن في جلّ أوروبا وأمريكا اللاتينية)، والرقم اثنان كان يكتب بزاويتين هكذا: Z كما يكتب حرف الزاي Z اللاتيني، والرقم الثلاثة يكتب هكذا: Ƶ بثلاث زوايا، والرقم أربعة له أربع زوايا هكذا: 4، والرقم خمسة له خمس زوايا 5، والرقم ستة له ست زوايا هكذا: 6، والرقم سبعة بسبع زوايا هكذا: 7، والرقم ثمانية كمربعين بثماني زوايا هكذا: 8، والرقم تسعة بتسع زوايا ملفوفة من الأسفل هكذا: 9، وكذلك أدخلوا مفهوم رقم الصفر، ويكتب كدائرة دون زوايا هكذا: 0.

لم يؤدِ اختراع الصفر لتقدم الرياضيات والعلوم المرتبطة بها فقط، بل عزّز التواصل لحياة الناس اليومية وعملياتهم الإحصائية؛ ومن ثمّ أدى أخيراً لاختراع آلات الحاسوب المبنية على مفهوم «الأرقام الثنائية» (الصفر (٠) والواحد (١) الذي يرمز له «بت» وهي أصغر وحدة ذاكرة مخزّنة بالحاسوب، حيث كل ٨ بت = ١ بايت؛ التي تعادل حرفاً واحداً مثل أ أو ب). وآلات الحاسوب التي أدت أخيراً إلى ثورة في تقنية المعلومات، لا يمكن تخيُّلها البتة دون الاختراع العربي للصفر.

وكان العرب خبراء في زراعة المحاصيل الزراعية ورعايتها مثل الأرزّ، والحمضيات كالبرتقال، والسكر، وعلّموا الأوروبيين التقنيات الأفضل للريّ. كذلك أدخلوا صناعة الورق، والبوصلة، وشراع السفينة المثلث الجديد الذي مكّنهم من تحريك مسار السفينة بعكس اتجاه الريح.

وكان لعلماء العرب دورٌ كبير في مجالات المعرفة الإنسانية، كعلم الفلك، (ولا نزال نستخدم بعض أسماء النجوم التي سمّوها حتى الآن مثل الطاير، ذنب، الدبران)، وعلم الرياضيات، وفي الطب (حتى أصبحت كتابات ابن سينا أكثر المراجع الطبية توثيقاً لفنون المعالجة في أوروبا العصور الوسطى)، وفي الفلسفة (الفلسفة العقلانية لابن رشد). كما كان العرب هم الذين نقلوا الكتب اليونانية (المترجمة إلى العربية)، وهكذا حافظوا على المعارف اليونانية بعد أن فقدت المصادر الأصلية. لقد تفوّق العرب في تطوير وتحسين العلوم اليونانية والهندية والفارسية إضافة إلى إسهاماتهم الأصلية وابتكاراتهم الجديدة. إن ترجمة المصادر العربية إلى اللاتينية شكلت مصدراً مهمّاً للنهضة الأوروبية. كما شملت إسهامات العرب أيضاً مظاهر الحياة الرفيعة وتهذيب الحياة ورفع المستوى المادي المعيشي.

كانت الحمّامات العامة والحمّامات الخاصة شائعة في العالم الإسلامي. فبينما كان طوب كابي (قصر السلطان العثماني في استنبول – والآن أصبح متحفاً) يحوي ركناً كبيراً للاستحمام والتدليك، بعكس ذلك كان قصر فيرساي في باريس، لا يوجد فيه حمام واحد!!! وبينما تمتع الإسبان بالماء الساخن في الحمّامات العامّة تحت ظل حُكم المسلمين، كان أحد المؤرخين الإخباريين يزدري الحالة الصحية البدائية عند الأوروبيين في مواضع أخرى، قائلاً: ([الذين] لا ينظفون أنفسهم ولا يغتسلون إلا مرة أو مرتين في السنة، وبماء بارد، وهم لا يغسلون ثيابهم بعد لبسها حتى تتساقط عنهم قطعة قطعة)[٥٣].

وكانت الكنيسة النصرانية في بداية عهدها كثيراً ما تثني الناس عن الاهتمام بالنظافة وذلك (رداً على فسوق الحمّامات الرومانية). وفي القرن السادس بعد الميلاد أمر القديس بندكت بما يأتي: (إلى الذين هم بصحة جيدة ولا سيّما الشباب، سيكون الاستحمام ممنوعاً إلا ما ندر). أما القديس فرنسيس الأسيسي فإنه عدّ الجسم غير المغسول علامةً نتنةً للتقوى.

ولهذا فبعد انهيار الامبراطورية الرومانية والانحدار نحو العصور المظلمة، فإن الاهتمام بالصحة العامة قد اختفى فعلياً، وغالباً ما يقال عن أوروبا العصور الوسطى أنها بقيت ألف عام دون استحمام!!! لقد استُبدل الاستحمام باستعمال العطور. كانت إيزابيل ملكة قشتالة تتفاخر أنها اغتسلت مرتين في حياتها: بعد الولادة وقبل الزواج. أما الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا، فكانت تغتسل مرتين في السنة، وكانت تستعمل مهفّةً (مروحة) يدوية في الجو البارد، لطرد رائحتها الكريهة. وكان ملك فرنسا لويس الرابع عشر يغتسل مرةً واحدة في السنة. لهذا السبب كان ابتكار العطور ذات الأساس الكحولي واستعمالها أولاً في باريس، ولندن، لكي تغطي الرائحة الكريهة، (من الناحية العلمية فإن حاسة الشم عند الإنسان تستطيع تعرّف الروائح القوية فقط من إحدى الرائحتين).

وبينما كان عند المسلمين أنظمةُ ري متقنة ومجارٍ تحت الأرض (للخلاء والمياه القذرة) مع مستوى عالٍ من النظافة الصحية، فعلى العكس من ذلك كانت الفضلات في أوروبا تلقى في الشوارع مباشرةً، أو تمرَّغ في الأنهار التي يشربون منها الماء. إن كلمة مرحاض بالعامية (لُوْ)، قد ذكر أنها مُشتقة من صيحة التحذير بالفرنسية كارديز ليو (تُلفظ كاردي لُوْ، وتعني إنتبه ماء!) قبل إفراغ وعاء زبالة الغرفة من الطابق العلوي إلى الشارع التحتاني. وبعد الهلاك الذي حصل بسبب انتشار الطاعون الدُبَيْليّ، كانت هناك محاولات في بعض مناطق أوروبا لتحسين الأوضاع الصحية والنظافة العامة، ولمنع ممارسة عادة رمي القمامة في الشوارع العامة. لكنّ إنشاء مجاري المياه القذرة تحت الأرض لم يحدث في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر.

كان أكثر الأوروبيين قليلي الاطلاع على صفات العرب والمسلمين وماذا كانوا يعملون. إن «الحياة المرفّهة للعرب وما صاحبها من آداب، قد حفّز مخيّلة أوروبا، وليس أقل من ذلك النبوغ الشعري للحال العاطفي (الرومانسي) ولقد ذُكِرَ أن الأندلس كانت أول من أضاء الشوارع في الليل باستعمال مصابيح الزيت (التي تضيء مدة أطول من مصابيح الشموع). وأيضاً عندما تعطّلت الساعة المائية في قرطبة وغرناطة في منتصف القرن العشرين لم يتمكن المهندسون الإسبان من إصلاحها حتى طلبوا الاستعانة رسمياً بالمهندسين المغاربة، وبعد زمنٍ من تعزيز جهود التعاون المشترك استطاعوا معاً إعادة تشغيل الساعة المائية.

ثم إن وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) كان على اطلاعٍ على الأدب العربي في إسبانية، كما بيّن هو ذلك في مسرحيته الشهيرة (عُطَيْل) وهو النبيل المغربي داكن السُحنة. كذلك فإن قصة (روميو وجولييت) العاطفية (عواطف كهذه ودون علاقة جنسية قبل الزواج نادرة في العادات والممارسات البريطانية)، و(تاجر البندقية) (المعميق بالممارسات اليهودية) كلٌّ هذا عزّز الفكرة القائلة: إن وليم شكسبير قد انحدر نسبُهُ من لمورسيكيين (وهم المسلمون العرب الإسبان الذين أجبروا على اعتناق النصرانية الكاثوليكية بعد سقوط غرناطة والأندلس) حيث كان أجداده من العرب المسلمين! هذا هو التفسير الأرجح لهذه المعرفة الواسعة عند شكسبير، حيث صارت معارفه وهويته موضع جدالٍ طويل. فنظرية هربرت لورانس عام ١٧٦٩م، القائلة: إن شكسبير ليس هو مؤلف الأعمال المنسوبة إليه، مبنيّة على افتراض أنه لا يمتلك هذه المعرفة والثقافة التي تجلّت وظهرت في تلك الأعمال. وفي عام ١٨٥٧م، أطلق وليم هنري سميث الفكرة القائلة: إن المؤلف الوحيد من ذلك العصر الذي له القدرة والكفاية لإنتاج مثل هذه الأعمال هو فرانسيس بيكون!!![٦]

٣. وجود الصليبيين والأوروبيين في الشرق (١٠٩٩-١٢٩١م)[١٥، ب، ج، د]

أصبحت النصرانية ديناً للدولة أيام الإمبراطور الروماني قسطنطين: هذا الرجل الذي أعدم ابنه، وطبخ زوجته وهي على قيد الحياة سلقاً بالماء المُغْلى؛ الذي رأى في النصرانية وسيلة عملية لتدعيم سيطرته العسكرية وتوحيد الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف كثيرة المشكلات. كان اعتناقه النصرانية على أساس حلم رأى فيه صليب في السماء منقوشاً عليه: «بهذه الراية سوف تقهر الأعداء».

ولكنه أقرّ بالنصارى على قدم المساواة مع الوثنيين، فاسحاً المجال للدّين النصراني بالاندماج مع الطقوس الوثنية من ناحية أخرى.

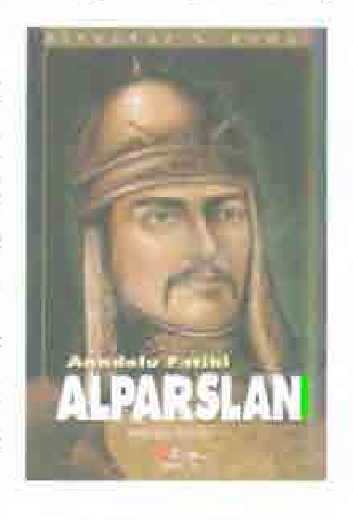
إن الحركة الصليبية التي ظهرت في أواخر القرن الحادي عشر لم تبدأ بوصفها ردّ فعلٍ نشيطاً ضد الإسلام فقد كان مركز الحركة في شمال فرنسا بعيداً عن الاحتكاك المباشر مع الولايات الإسلامية. كما كانت الكنيسة البابوية الكاثوليكية قلقة لانقسام واقتتال الممالك النصرانية الكاثوليكية فيما بينها، وكانت ترى

أنه من الأولى وقف القتال فيما بينهم، وعليهم توجيه قواهم ضد الملاحدة الكفار (أعداء النصرانية) في الخارج (يقصد بذلك المسلمين)، وضد الهراطقة والخصوم المنشقين عن العقيدة في الداخل (اليهود)، فأعلنت أن الواجب على المحارب النصراني مقاتلة أعداء الكنيسة والسلطة البابوية الكاثوليكية[5]. لهذا فإن السلطة البابوية الكاثوليكية قامت بدعم العديد من الجهود السياسية ضد أعداء النصرانيّة، وليست حصرياً ضد المسلمين. ففي عام ١٠٦٦م، حصل وليم الفاتح على مباركة البابا وعلى الراية البابوية عندما قام بغزو إنجلترا.

وفي عام ١٠٥٤م، حدث الانقسام الأكبر في الكنيسة البابوية بالفاتيكان الذي أدى إلى انقسام كامل بين الكنائس الأرثوذكسية البيزنطية والكنائس اللاتينية، مما أجبر الكنيسة البابوية على التحالف مع النورمان لهذا ففي عام ١٠٥٩م، تحالف البابا مع فرسان النورمانديين جنوب إيطالية: الذين كانوا يحاربون البيزنطيين (أي ضد النصارى الأرثوذوكس). كذلك استخدمت الحملات الصليبية ضد الهراطقة (المنشقين عن العقيدة النصرانية) في داخل العالم النصراني. وتجدر الإشارة هنا إلى الحملة الصليبية عام ١٢٠٩م، ضد الـ (كاثارز) أو الـ (ألبيجينسيانز)، [أي الكاثاريين والألبيجنسيين].

لكن الحركة الصليبية ضد الإسلام بدأت عندما قام البابا بتأييد جهود النورمنديين في جنوب إيطالية لكي يستعيدوا صقلية. ومعركة سيرامي في صقلية عام ١٠٦٣م، بقيادة كاوفريدوس مالاتيرّا مع الحملة البحرية المشتركة التي أعدّتها مُدن: بيزا، وجنوه، وروما، وأملفي ضد تونس، يمكن عدُّها كلها حملات صليبية.

وكابدت الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية هزيمةً تاريخيةً فادحة ومنكرة في موقعة ملاذكرد (الزهوة) عام (٤٦٣ هـ-١٠٧١م)، أمام المسلمين السلاجقة الأتراك، حيث خرج "أرمانوس" قيصر الروم مزهواً بجيوشه الجرّارة سنة (٤٦٣هـ-١٠٧٠م) لمواجهة غزو السلاجقة الإسلامي لممتلكاته من أجل تطويق الجيش السلجوقي، ثم القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، فاستولى في طريقه على حلب من دون قتال، بعد اتفاق وخيانة حاكمها التابع للخليفة الفاطمي العُبيدي في مصر. فأرسل "ألب ارسلان" ابنه "ملكشاه" على رأس قوة من جيشه: لاسترداد حلب من الروم، وتأمين الحدود الشمالية لبلاد الشام: فنجح في مهمته، واستولى على حلب، وأصبحت تابعة للسلاجقة، ثم ضمّ القدس أيضًا، وأجزاء من بلاد الشام. لم يجد قيصر الروم بداً من الهجوم المباشر على جيش ألب أرسلان بعد أن فشلت خطته في تطويقه: فخرج بجيوشه الرومانية الجرارة البالغ تعدادها ٢٠٠ ألف جندي نصراني (تضمّ أخلاطًا من الروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين) إلى المنطقة التي يعسكر فيها جيش ألب أرسلان في "ملاذكرد"، وتعداده ١٥-٢٠ ألف فارس مسلم، وهم بالمقارنة أقلّ عدداً وعُدّةً وسلاحاً. فقال السلطان: "أنا التقيهم، فإنّ سلمتُ فبنعمة الله، وإن قُتلتُ فملكشاه وليّ عهدي".



أرسل ألب أرسلان طلائعه فاصطدمت وكسرت العدو وأسرت مُقدّمهم في نصرٍ خاطف، وطلب السلطان الهدنة (لحفظ ماء الوجه)، لكن القيصر أرمانوس رفض ذلك؛ فأيقن ألب أرسلان الأ مضرّ له من القتال: فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم رُوح الجهاد والصبر عند اللقاء وطلب الشهادة والجنة، ووقف الإمام "أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري" يشدّ من أزر السلطان، ويقول له: "إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، والقهم يوم الجمعة والساعة يكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين"، وحين دنت ساعة اللقاء صلّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان: فبكى الناس لبكائه، ودعا، وأمّنوا (أي قالوا آمين)، ورمى

القوس وسلّ السيف، وعقدَ بيده ذنَبَ فرسه (إيذاناً بالقتال المتواصل حتى الموت)، وفعل الجند مثله. ثم لبس السلطان البياض وتحنّط وقال: "إن قُتلت فهذا كفني"، ثم حمل، فلمّا لاطخَ العدو، ترجّل وعفّر وجهه بالتراب، وأكثرَ التضرّع، ثم ركب، وحمل المسلمون على أعدائهم حملة صادقة على قلب رجل واحد، فقتلوا في الروم كيف شاؤوا، ونزل النصر، وتطايرت الرؤوس، وما هي إلا ساعة من نهار حتى انكشف غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال، ووقع قيصر الروم "أرمانوس" أسيرًا في أيديهم، وحلّت الهزيمة النكراء بهذا الجيش الجبّار بإذن الله في (ذي القعدة ٤٦٣هـ الموافق آب/أغسطس ١٠٧١م).

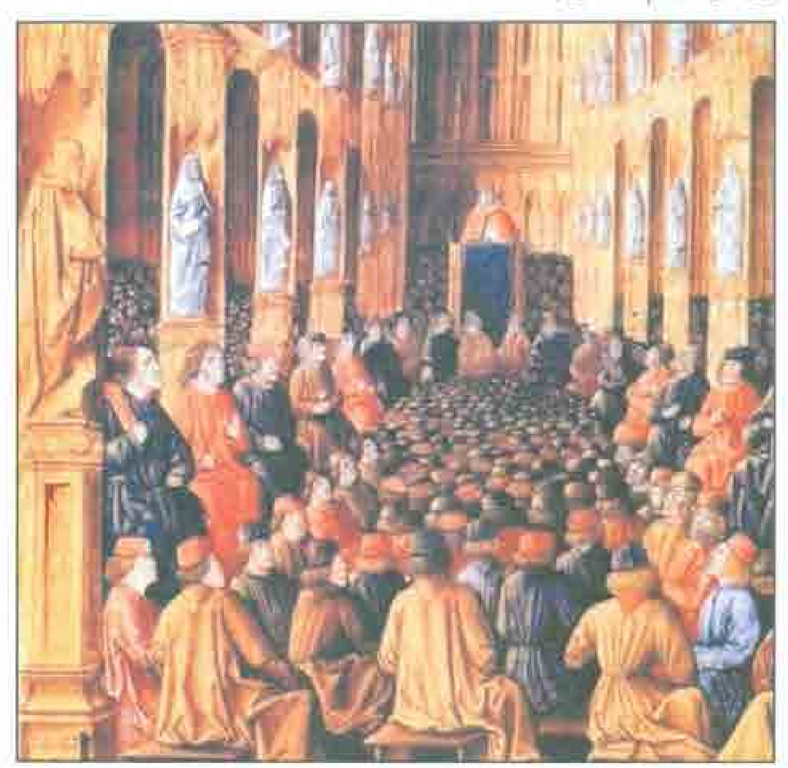
وأحضِرَ بين يدي السلطان فضربَه بالمقرعة، وقال: ألم أسألك الهدنة؟ قال: لا توبّخ، وافعل ما تريد. قال: ما كنت تفعل لو أسرتني؟ قال: أفعل القبيح. قال: فما تظنّ بي؟ قال: تقتلني أو تشهّرني في بلادك، والثالثة بعيدة، أن تعفو وتأخذ الأموال. قال: ما عزمت على غيرها. ففكّ قيصر نفسه وجنده بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف المليون من الدنانير، وعقدوا صلحًا مع السلاجقة مدته ٥٠ عامًا، وتعهدوا بدفع جزية سنوية طوال هذه المدة، واعترفوا بسيطرة المسلمين السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم، وتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات دولة السلاجقة. ثم أُطلق سراح قيصر الروم، وبعث له السلطان عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق له عدة بطارقة وشيّعه. لكن الروم خلعوه وعيّنوا إمبراطوراً آخراً بدلاً منه في القسطنطينية. كان من نتائج هذا النصر العظيم أن تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة: حيث أشرقت عليها شمس الإسلام، ودخل سكانها في دين الإسلام، وتعلموا مبادئه وشرائعه. وما كان للسلطان ألب أرسلان أن يحقق كل هذه الإنجازات إلا بعد توطيد جبهته الداخلية بجهود وزيره العظيم نظام الملك، الذي كان وزيرًا بارعاً وسياسياً ذكياً، وداعيًا للإسلام وعلومه، وهو الذي أنشأ المدارس المعروفة باسمه "المدارس النظامية"، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدثين، وفي مقدمتهم حجة الإسلام "محمد أبو الحامد الغزالي". [سير أعلام النبلاء للذهبي تحت اسم عبد الله بن أحمد بن جعفر بن المعتضد العباسي]

ومع استمرار التهديد الإسلامي السلجوقي للقسطنطينية، استغاث الإمبراطور الجديد طالباً النجدة والدعم العسكري، وادّعى محذّراً أنه إذا سقطت القسطنطينية فسوف تنفتح بوابة أوروبا الخلفية، وقريبًا يصبح وسط أوروبا أرضاً للمعركة. وفي القرن الحادي عشر كانت هناك بعض حوادث السلب والنهب التي يتعرض لها بعض السياح والمسافرين (في أثناء زيارتهم الأراضي المقدّسة)، كأن تُسرق بغالهم أو استغفالهم فيقعوا ضحايا لألعاب قذرة. وأخبار حوادث كهذه كانت تتسرّب إلى مسامع أوروبا، ومن بعد سردها من فم لآخر تصبح للقصص مبالغات كثيرة. لكن تصوّر بالمقابل ماذا سيحدث لو أن سفينة تحمل ركاباً مسلمين سياحاً تحط بأرض باريس أو لندن في القرن الحادي عشر؟!(٥٢)

كان البابا أوروبان الثاني حريصاً على رأب التصدّع والانفصال الديني وتحسين العلاقة بين الكنيسة الغربية (روما) والكنيسة الشرقية (القسطنطينية) فوافق على وجهة النظر البيزنطية القائلة إن مدينتهم القسطنطينية هي حقيقةً خط الدفاع الأول لأوروبا. كذلك فقد كانت تحدث مذابح دامية على نحو مستمر تقوم به عصابات إرهابية مُسلّحة داخل أوروبا، فكان البابا يَعدُّ أن قتل غير النصارى باسم الربّ لا يُعدُّ ذنباً، لذلك فلا بد من تنفيس الطاقات العدوانية وتصديرها إلى خارج أوروبا.

لقد كان خطاب البابا أوروبان الثاني الذي ألقاه في كليرمونت عام ١٠٩٥م، داعياً فرسان أوروبا كي يتحدوا ويتقدموا زاحفين على القدس لإنقاذ وتحرير الأرض المقدسة من الكفرة المسلمين (١). كمن خطابه هذا دافعاً لشن أولى الحملات الصليبية (من مجموع ثماني حملات في مئتي عام التي تلت): لقد استطاع أن يأسر خيال العامّة من الرجال بفكرة استعادة القدس والذهاب إلى الحج لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين. كانت

الاستجابة عظيمةً لنداء البابا في كليرمونت. فبدلاً من توقع حضور عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من الجنود المُحترفين، فقد حضر ما يقارب مئة الألف من القرويين تحت إمرة بيتر هرمت: (أي بُطرس الناسك – من العربية حُرمة أي المُحرم)، وبدؤوا المسيرة وحدهم (الحملة الصليبية الشعبية)، ولما وصل هذا الحشد من الناس إلى هنغاريا (المَجَـر)، كانوا في مجاعة شديدة، فبدؤوا السَّلب والنهب وهم يتقدمون، وعندما وصلوا القسطنطينية، قام الإمبراطور بنقل هؤلاء القرويين في الحال ونقلهم إلى الأناضول حيث كان جيش الأتراك المسلمين في انتظارهم فقضوا عليهم سريعاً وأوقعوا فيهم قتلاً وذبحاً.



البابا أوروبان الثاني في مجمع كليرمونت الكنسي عام ١٠٩٥م،
يلقي خطبة حماسية ألهبت العواطف لاسترجاع الأرض المُقدسة

ويقال: إنه عند وصول هذه الحملة الصليبية الأولى إلى القسطنطينية عام ١٠٩٧م، فوجئ الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الذي كان يأمل مجيء قوة محدودة العدد من الجنود المُحترفين لتحقيق هدفه الأساسي: وهو استعادة الأناضول)، وتنبَّه إلى خطر هذا الحشد الهائل من الجيوش الغربية المتجهة للتجمُّع في القسطنطينية (بتعداد يفوق مئة الألف وهو حشد تصعب إدارته وإمداده بالمؤن). فلا حاجة للقول إنه أغلق بوابات المدينة خشيةً من أنّ هذه الغوغاء رُبما تغتنم هذه الفرصة للانقضاض والاستيلاء على عرشه. وفي ربيع السنة التي تلت (١٠٩٨م)، بدأت الحملة بالانطلاق تحت القيادة الشكلية (بالاسم فقط) للبيزنطيين. والسنتان اللاحقتان (١٠٩٩–١١٠٠م) كانتا دمويتين. فقد كان التقدم صعباً ومنهكاً وقاسياً في أراضٍ وعرة وأجواء غريبة لم يعتد عليها فرسان ألمانية وفرنسا وإنجلترا، وهلك نحو ثلثي الرجال في أثناء الطريق نتيجة الحر الشديد ونتيجة الاشتباكات. واكتسبت فكرة الحملة الصليبية زخماً متزايداً مع تقدم الجيوش نحو الجنوب باتجاه القدس (أورشليم المقدسة). ثم كان الاستيلاء على مدينة القدس وتدمير سكانها بمذابح دموية عام ١٠٩٩م، وإقامة مملكة أورشليم (القدس) (وإخضاع دُويلات إيديسا، أنطاكية، وطرابلس) كانت هذه الخطوة إكليل الغار والتاج الذي توَّج تحقيق أهداف الحملة الصليبية.

سجّل المؤرخ الإخباري ريموند (من آكويليرز) مشهداً لزمرة من الصليبيين وهم يقومون بمجزرة ذبح المسلمين واليهود: (السكان المدنيين المسالمين) في القدس عام ١٠٩٩م كما يأتي: (تشاهد أشياء رائعة. فعددٌ من المسلمين قُطّعت أعناقهم... وآخرون رُموا بالسهام (قتلاً)، أو أُجبروا على القفز من الأبراج؛ وآخرون عُذّبوا لأيام عديدة، ثم أُحرقوا بالنار في الشوارع تُشاهد أكوامٌ من الرؤوس والأيدي والأقدام. يسير الراكب بين جثث الرجال وجثث الخيل في كلّ مكان تقريباً. وفي معبد سُليمان، كانت الخيل تخوض بالدماء إلى رُكَبها، لا بل إلى لجامها. لقد كان قضاءً إلهياً عادلاً ورائعاً أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفرة)!!! أما البابا جريجوري السابع فقد صرح بما يأتي: (ملعونٌ ذلك الرجل الذي يُمسك سيفه ممتنعاً عن إراقة الدّماء).

في الثمانين عاماً اللاحقة للحملة الصليبية الأولى، قُسّمت الأرض المقدّسة إلى مُقاطعات صليبية (بالرغم من استمرار المناوشات بينهم أيضاً). وكان المؤرّخون يقسّمون الحوادث إلى عدة مراحل: كالحملة الصليبية الأولى، والحملة الصليبية الثانية، والحملة الصليبية الثالثة... والواقع أنها كانت في الغالب عملية مستمرة. فموجات الصليبيين كانت تجتاح المنطقة على مدى أكثر من مئتي عام؛ كان بعضهم مدفوعاً بعاطفة التقوى، وآخرون أُرسلوا كعقوبة تكفيراً عن الذنوب، ولكن الأغلبية جاءت جزءاً من عمليات عامّة لسلب الأراضي ونهب المُمتلكات التي أطلقت زمامها هذه الحروب. ومن وراء المثالية كانت تكمن أسبابٌ واقعية ودوافع اقتصادية؛ وهي هؤلاء السياح الوافدون بالآلاف كل عام إلى خارج أوروبا، بما ينعش الأعمال التجارية التي تدرّ الربح الكبير والمردود السريع.

ولم يكن هذا النجاح ممكناً إلاّ بسبب تفرّق المسلمين في تلك المنطقة، حيث كان عددٌ من قادتها يتناحرون فيما بينهم. وعندما جاء أتابيك من الموصل فهر العديد من مناوئيه وازدادت قوّته، واستطاع استعادة إديسا في ١١٤٤م. ثم ظهر صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث عام ١١٦٩م، فوحّد مصر وسورية تحت حكمه. ومن ثم أوقع عدة هزائم بالنصارى، توّجها باستعادة القدس من النصارى عام ١١٨٧م، بعد انتصاره في حطين[٢٥].

وفي نحو عام ١١٩٢م، (بعد هزيمة الصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧م)، يُقال إن صلاح الدين نفسه مع طبيبه الخاص عبد اللطيف البغدادي قد تدخّلا شخصياً وطبقا معرفتهما العملية في الطب العربي لعلاج الجراح الخطرة للملك ريتشارد قلب الأسد (قائد الحملة الصليبية الثالثة، وملك إنجلترا). فربما هذه العلاقة النبيلة لا الهزيمة هي التي حدَت بريتشارد لمعاقدة السلام وخروج الصليبيين؛ ولإعطاء وجهٍ حسن لسوء طالعهم. فقد عُقدت هدنة تعطي الغربيين حق السياحة للمدينة المقدسة (القدس).

امتدّ هذا التواصل الأنجلو - عربي بين الملك الإنجليزي والسلطان العربي لما وراء المنازلة العسكرية، فمثلاً الملك ريتشارد ترجّى السلطان صلاح الدين عن طريق رسوله الشخصي، وهو فارس صليبي فقد أخته العزيزة (أسرها المسلمون وكانت تُسمّى ماري ثم صار اسمها ثريا) كي تعود الأخت مع أخيها معاً، أو يؤخذ أسيراً معها لحبّه لها. فحدثت هذه المراسلة الجديرة بالذكر:

بعث ريتشارد قلب الأسد برسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، جاء فيها:

(من ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنجليز إلى صلاح الدين الأيوبي ملك العرب... أيُها المَولى... حامل خطابي هذا بطل باسل صنديد، لاقى أبطالكم في ميادين الوغى، وأبلى في القتال البلاء الحسن، وقد وقعت أخته أسيرة، وكانت تدعى (ماري) وصار اسمها (ثريا).

وإن لملك الإنجليز رجاءً يتقدم به إلى ملك العرب وهو: إما أن تعيدوا إلى الأخ أخته، وإما أن تحتفظوا به أسيراً معها، ولا تفرقوا بينهما ولا تحكموا على عصفور أن يعيش بعيداً عن إليفه.

وفي حين أنا أنتظار قراركم بهذا الشأن، أذكّركم بقول الخليفة عمر بن الخطاب — وقد سمعته من صديقي الأمير حارث — وهو: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ردّ صلاح الدين على رسالة ريتشارد:

(من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى ريكاردوس ملك الإنجليز...

أيها الملك: صافحت البطل الباسل الذي أوفدتموه رسولاً إليّ، فليحمل إليكم المصافحة ممن عرف قدركم في ميادين الكفاح.

وإني لأحب أن تعلموا أنني لم أحتفظ بالأخ أسيراً مع أخته؛ لأننا لا نبقي في بيوتنا سوى أسلاب المعارك. لقد أعدنا للأخ أخته. وإذا ما عمل صلاح الدين بقول عمر بن الخطاب، فليعمل ريكاردوس بقول عندكم: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». فردّ أيُّها الملك الأرض التي اغتصبتها إلى أصحابها، عملاً بوصية السيد المسيح عليه السلام).

ومن الجدير بالذكر أن الملك ريتشارد تعرّض إلى كمين وهوجم من قبل أعدائه وهو في طريق عودته لإنجلترا، حيث قبضوا عليه واحتجزوه رهينةً في السجن لقاء فدية. لقد ذكر المؤرخ (وليام فورستشن) في كتاب بعنوان: (تبدو فكرة جيدة: تجميع الإخفاقات التاريخية العظيمة) ما يأتي:

(يعتقد المرء أن الإنجليز رُبما كان عليهم تقديم الشكر للخاطفين، وذلك لأن الجزء المهمل من أسطورة ريتشارد، هو أنه ومنذ اعتلائه العرش، قلّما وضع قدمه في إنجلترا، بل كان يراها جعْبة (كيس) مالٍ لا نهاية له، ومصدراً لتجهيزه بالأجساد البشرية لتحقيق أغراضه النبيلة! ولهذا السبب فإنه هو الذي أفلس البلد، ثم إنّ دفع فدية قد أدّى لتفاقم المشكلات المالية.

ومن سُخرية القدر أن أخاه (جون) تحمّل المسؤولية والتبعات كافة وأرهق كاهل البلاد كي يُطلق سراح أخيه من السجن. عاد ريتشارد إلى الوطن، ودفع البلاد إلى تحمل ديونٍ أثقل. فقد جهز جيشاً جديداً ثم توجّه به لقتال حليفه السابق ملك فرنسا، ولكنه قُتل هناك فور وصوله. ومن ثمّ قضى (جون) البقية من زمن حكمه يحاول إصلاح الضرر ولكنّ سُمعته لم تزدد إلا سوءاً)[٥٥].

وهكذا فإن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٦–١١٩١م)، قد عدّت ناجحة جزئياً في بدايتها، حيث استعادت عكّا عام ١١٩١م، بعد حصار دام سنتين، ثم توقفت بعد ذلك ولم تحرز أي تقدم يذكر بعد نجاح المسلمين في استعادة القدس من الصليبيين.

بعد هذا الإحباط، تغيّر هدف الحملة الصليبية الرابعة ليصبح استيلاءً على القسطنطينية عام ١٢٠٤م(!). فإن البابا (إنوسنت الثالث) هو الذي أرسل الصليبيين إلى القسطنطينية لإجبار الكنيسة الإغريقية (اليونانية) الشرقية البيزنطية هناك على الخضوع إلى سلطته البابوية في روما. إن السبب الأصلي المعلن من وراء إرسال الصليبيين إلى القسطنطينية لحمايتها من الأتراك المسلمين قد تمّ تجاهله تماماً، بدلاً من ذلك، وتحت ذريعة إعادة تنصيب أحد المخلوعين من منصبه، من أقرباء الإمبراطور البيزنطي، قام الصليبيون بشنّ هجوم مفاجئ على القسطنطينية، فاقتحموها وأشعلوا النيران فيها، وقتلوا عدداً لا يستهان به من سكانها، ونهبوها على بكرة أبيها ولم يبقوا شيئاً.

وأثناء مرورهم، قاموا بتنصيب ألعوبة (دمية) لهم على العرش. وهكذا تقاطر جنود المسيح على القسطنطينية اغتصاباً وسلباً ونهباً وحرقاً للمدينة. واستناداً إلى مؤرخ الأحداث (جيفري فلهاردوين): (فإنه منذ خلق العالم، لم تؤخذ من مدينة قط مثل هذه الغنائم العظيمة). وكانت إجابة البابا لإمبراطور القسطنطينية ما يأتي:

(نحن نعتقد أنّ الإغريق قد عوقبوا بقضاء الربّ العادل على أيدي الصليبيين: هؤلاء الإغريق الذين جاهدوا لتمزيق رداء المسيح الذي لا يتمزّق... أولئك الذين لم يُرافقوا نوحاً ولم يركبوا سفينةً قد أهلكهم الطوفان بـا حق، وهؤلاء الذين أصابتهم الفاقة والمجاعة بحقٍّ: الذين رفضوا استقبال (بطرس) المبارك أمير الحواريين).

وكتب (نايسيتاس كونياتس) مؤرخ الأحداث البيزنطي ما يأتي:

(حتى العرب الشرقيون (المسلمون) رحماء وذوو عطف بالمقارنة مع هؤلاء الرجال الذين يحملون لصليب على أكتافهم). وفي نهاية الأمر، استعاد الحُكم البيزنطي سُلطته على العرش، ولكن كظلٍّ شاحب لما كان من سلطانهم ومجدهم السابق. إن السقوط الحتمي لإمبراطورية يقتفي أثرها ونسبها إلى القياصرة يمكن اعتبار بداية سقوطه من هذه اللحظة[٥٥].

استمر الاهتمام السياسي متركّزاً على القدس، وقد مكّنت النزاعات بين خلفاء صلاح الدين، مكنت هذه الفجوة من احتلالها ثانيةً من عام ١٢٢٩م، إلى عام ١٢٤٤م، ولكن هذه المرة كانت بمعاهدة.

في نحو سنة ١٢٥٠م، انتقلت السلطة في مصر وسورية من الأيوبيين (سلالة صلاح الدين الحاكمة) إلى المماليك، وأدت الضغوط التي كانت تمارس على الصليبيين في ذلك الحين إلى انحسار نفوذهم تدريجياً عن المناطق التي كانت تحت سيطرتهم.

طالما كان المسلمون منقسمين، كان الأوروبيون بأمان نسبياً ويحرّضون جانباً ضد الآخر. ولكن صعود المماليك إلى سدة الحكم في مصر وضع الدولة اللاتينية (أي فلسطين الصليبيين النصرانية) داخل فكّي كماشة كبيرة محاطة بجيران أعداء ومن خلف ظهورها البحر. وكانت أوضاع فلسطين النصرانية قاتمة، ولكن ظهور جيش المغول عام ١٢٦٠م، بقيادة هولاكو، إيلخان بلاد فارس أعطاها شيئاً من الراحة. اتفق المسلمون على هدنة مع النصارى ليتفرغوا لقتال الغزاة المغول، الذين دمّروا بغداد العاصمة المركزية لخلافة العالم الإسلامي. ولكن باعتبارات عديدة فإن هذا قد استبدل خطراً بآخر (فيما يخص الصليبيين): لأنّ قوات المغول التي لا تحصى (المسمّون أيضاً بالتتار) احتلوا، ودمّروا أجزاء من الأرض المقدسة، وقتلوا العديد من فرسان الهيكل والاسبتارية هناك؛ لم يكن المغول أصدقاء للنصارى وفي بعض الأحيان هدّدوا المملكة اللاتينية (بقدر ما هدّدها المماليك).

بالرغم من هذا الخطر الداهم على العالم النصراني لم يُعمل الكثير لدرئه، وترك الأمر لجيوش المسلمين لإيقاف الزحف المغولي[٥٦].

في تموز عام ١٢٦٠م، طلب قائد المماليك قطز من حُكام المملكة اللاتينية السماح له بمعبر آمن له ولجيشه عبر أراضيهم (المحتلة)، وطلباً للتحالف المشترك لدحر الخطر المشترك. وافق النصارى على طلبه الأول ورفضوا الثاني. وفي ٣ أيلول ١٢٦٠م، في عين جالوت جنوب الناصرة، قهرت الجيوش الإسلامية قوات المغول. لقد كان انتصاراً عظيماً والذي رفع معنويات المماليك وثقتهم على نحوٍ هائل. في جيلٍ واحد، أشرفت هذه القوة ذاتها على إسقاط المملكة اللاتينية بكاملها. كان الهبوط تدريجياً، حيث تساقطت الحصون والمقاطعات البعيدة عن الساحل الواحدة تلو الأخرى أمام قوات المسلمين. وكان هناك أوقاتٌ للراحة في أثناء هدنة الأمير إدوارد الإنجليزي عام ١٢٧١م، وهدنات عامي ١٢٨١م و١٢٨٢م، لكنّ هذه الهدنة الأخيرة التي عقدها رئيس فرسان الهيكل (وليم مِن بيوجه) مع قائد المماليك قلاوون مدة عشر سنوات سلام، قد نُقضت عام ١٢٨٥. وبعد ذلك بقليل سقطت الحصون الساحلية واحداً بعد الآخر بالرغم من تحصيناتها الأرضية:

سقطت اللاذقية في ذلك العام، وكذلك المرقاب، حصن الفرسان الإسبتارية، وبعد ٤ سنوات (عام ١٢٨٩)، أرسل قلاوون جيشه لمهاجمة طرابلس التي سقطت في نيسان ١٢٨٩م، وكان واضحاً أن عكّا، المركز العصبي لقوات الصليبية، سيكون الهدف الآتي لقدرة قوات المماليك المنصورة[1].

واستثيرت مملكة العالم الغربي النصراني في وقت المحنة هذه، وفي عام ١٢٩٠م، وصلت عدة سفن مع تعزيزات ومؤن إلى عكّا. لكن القادمين الجدد عديمي الخبرة، الذين رُحّب بهم في البداية بوصفهم مُنقذين، أثبتوا أنهم هم الذين دفعوا هذه المدينة الكبيرة إلى كارثة. فلقد حرّضوا على الشغب وقاموا بقتل كثير من المسلمين. وحسب مؤرخ لا يعرف اسمه من فرسان هيكل صور: (الذين قُتلوا لم يكونوا مقاتلين بل قرويين بُسطاء اعتادوا على جلب منتوجاتهم لبيعها في المدينة).

كان ذلك كل ما يحتاجه قلاوون ذريعة. فأرسل رسله مطالباً بتكفير هذه الجريمة، وهدّد بتدمير المدينة إذا لم تُستجب طلباته. وقد رُفضت مطالب قلاوون، وبالرغم من موت قلاوون، فإن ابنه (الأشرف خليل) كان متحمساً وشجاعاً كأبيه؛ في نيسان ١٢٩١م، زحف جيش المماليك على المدينة. وبسقوط عكّا، سقطت الحصون الباقية في صيدا، وطرطوسة، وعاتليت واحداً بعد الآخر: صيدا أُخليت في تموز، طرطوسه وعاتليت بعد شهر واحد. وحاول فرسان الهيكل التخطيط لغزو ركن صغير في الشرق، جزيرة رواد عديمة الماء، التي تأملوا منها شنّ هجمات معاكسة ضد المماليك. ولكنّ جزيرة رُواد سقطت نهائياً في ١٣٠٣م، والناجون من حاميتها العسكرية أخذوا أسرى بالقيود إلى القاهرة، حيث واجهوا موتهم أمام الجموع المحتفلة، ورموا بسهام رماة المماليك النبّالة. ومعهم مات حلم أرض النصارى المقدّسة، ومعه مات المبرّر لوجود منظمة فرسان الهيكل[1].

بعد انقضاض المماليك على عكا بالهجوم الكاسح عام ١٢٩١م، سقطت المدن الساحلية الباقية في غضون شهر أو شهرين. وباءت محاولة الصليبيين استعادة القدس بالإخفاق الذريع[2]. لهذا فإن الاحتلال الصليبي لم يُقدر له الاستمرار: لأن الإسلام فعل فعله ووحّد المسلمين الذين طردوا أخيراً هؤلاء النصارى من إقطاعياتهم (من الأراضي التي اقتطعوها لأنفسهم) في الأراضي المقدسة.

وفي نحو مئتي عام من الحروب الصليبية قتل الصليبيون الآلاف إن لم يكن الملايين من الناس، ودمّروا الكثير مثل الذي دمّرته الكنيسة في بداية العصور المُظلمة، وأحرقوا أي كتاب وجدوه. لقد أحرقوا آلاف المجلدات من النصوص الدينية المقدّسة وكتب العلم ومصادر المعرفة الإنسانية النفيسة. وبدلاً من أن يكسبوا متنصّرين جدداً إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، فقد تركوا وراءهم مشاعر الكراهية والعداء المُرّ، الذي بقيت آثاره إلى اليوم. ولما حسرت الحملات الصليبية أمام المسلمين وضد الكنيسة الإغريقية (اليونانية) الأرثودوكسية (في القسطنطينية) وضد اليهود الكفرة الملاحدة (كما يسمّون أعداءهم) أخفقت الكنيسة أيضاً في تحقيق وحدة أوروبية دائمة تحت راية النصرانية. قامت الكنيسة بالضرب بيد من حديد كل مَن يهدد نفوذها ولا ينصاع لأمرها لمدّ نفوذها داخل أوطانها وما يحيط بها.

وإحدى أبشع الحملات الصليبية المروّعة تلك المسماة (حملة الأطفال الصليبية)، حيث كانت مُدن أوروبا القرون الوسطى تعج بالكثير من الأطفال اليتامى والمتروكين (المتخلى عنهم)، وكانوا على اقتناع أن ما أخفق فيه الكبار من حملات صليبية سينجح فيه الأطفال بالتأكيد؛ لأنّ الرب سوف يحميهم حتى يصلوا إلى المدينة المقدّسة. لقد خرج الآلاف من الأطفال وتوجّهوا نحو الساحل، وكانوا يتسوّلون ويسرقون وهم في طريقهم لكي يبقوا على قيد الحياة. حاولت الكنيسة القيام ببعض الجهود لكي تثني الأطفال عن عزمهم، ولكن لا شيء كان يمكن أن يحرف مسارهم وحماستهم البريئة. ولما وصلوا الموانئ على طول الساحل الإيطالي، فاوضَ قادتهم جمعية مالكي


حملة الأطفال الصليبية

السُفُن على أن يقوموا بنقلهم إلى الأرض المقدسة مقابل الحصول على بركات الربّ. تم الاتفاق وبدأ الأطفال في الصعود على ظهر السُفُن. وبعد ذلك وباستعراض رأسمالي خبيث وخدع اجتماعية، أبحروا بكلّ هؤلاء الأطفال المساكين وأرسلوهم إلى شمال إفريقيا حيث باعوهم عبيداً في سوق النخاسة بسعرٍ بخس لربح بعض المال.

نهاية الحملات الصليبية ومصير البابوية[٥٥١١٥٥٥]:

كانت الحملات الصليبية الدموية خارج وداخل أوروبا، والاحتكاك بالثقافة الإسلامية الشرقية المسالمة في أثناء الحروب الصليبية وأثناء الزيارات والتبادل التجاري وقت السلم، كانت لكلّ هذه الأمور آثار معاكسة (ضارّة) ضد سلطة الكنيسة البابوية. كان البابوات يتمتعون بسُلطة هائلة، مثل البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨–١٢١٦) حيث كان له نفوذٌ أكثر من الأباطرة أنفسهم، وكان يستخدم نفوذه لتنظيم حملات صليبية لتغيير الواقع السياسي على الأرض، ليس في أوروبا الغربية فقط، بل كذلك في بيزنطة النصرانية الشرقية، ولكن تقوية نفوذ السلطة العلمانية والسلطة الدينية في آن واحد، قد أدّى لبعض التوترات الجديدة.

كان تأثير الحملات الصليبية في أوروبا القرون الوسطى كبيراً جداً. وأحياناً كانت أغلب أجزاء القارة موحّدة تحت السلطة البابوية، ولكن بحلول القرن الرابع عشر الميلادي، صار مفهوم النصرانية القديم مجتزءاً، وكان نمو الإدارات المركزية (أساس دولة الشعوب الحديثة) في طريقه إلى فرنسا، وإنجلترا، وبورغندي، والبرتغال، وقشتالة والأراغون ويعزى جزئياً إلى هيمنة الكنيسة في بداية عهد الحروب الصليبية، فوجد البابوات الأقوياء أنفسهم في حالة نزاع مع الأمراء الأقوياء، ولا سيّما مع الإمبراطور الرومانيّ المقدس لقد شعَر الأمراء أنّ من حقهم تعيين الأساقفة للكنائس التي في أراضيهم وأوطانهم لأنها مصدر كبير من مصادر التأثير السياسي لصالحهم. لكن البابوات كانوا يرون أن هذا الحق هو من صلاحية روما فقط. بهذا وقع صراع حادّ حول تقليد المناصب بين الكنيسة والدولة في أنحاء أوروبا كافة.

ولكن الكنيسة الكبرى لم يُكتب لها البقاء. ففي عام ١٣٠٩م، أجبر ملك فرنسا البابا بطريقة أو بأخرى أن ينتقل ليعيش في مدينة أفينون في جنوب فرنسا وتحت حمايته، التي عرفت فيما بعد باسم (الأسر البابليّ)، وهذا زعزع مركز البابوية وجعله ضعيفاً جداً)، بحيث جعل بعض الحكومات تدعم مرشحيها الخصوصيين لمنصب البابوية، لهذا لم يمض زمنٌ طويلٌ بعد عام ١٣٠٠م، حتى صار البابوات كأنهم مجرد أحجار شطرنج في خِضَمّ الصراعات السياسية الأوروبية، وليسوا كما كانوا سابقاً قادةً عظاماً لشعوب أوروبا المتديّنة. وعندما أعيد البابا أخيراً إلى روما سنة ١٣٧٧م، كان العديد من البابوات يتنافسون للحصول على الاعتراف بهم، وأدّى هذا الأمر إلى تعاظم الإساءة إلى سمعة البابا الروحية، وبالتأكيد فقدان هيبته في عيون أتباعه المخلصين، لذلك فإن سمعته بقيت متدنّية منحطّة ردحاً من الزمان.

ربما كان الطاعون الأسود (الموت الأسود) الذي نزل بأوروبا في المدة ما بين (١٣٤٨–١٣٥٠م) التي نُظر إليه أنه عقوبة إلهية جاءت لإنهاء فصول الحروب الصليبية بإهلاك خمسة وعشرين مليوناً من السكان، ففي إنجلترا وحدها، وأثناء ٣ سنوات، أباد الطاعون الأسود نصف عدد السكان الذين بلغ تعدادهم ٤ ملايين نسمة. أعقب ذلك موجات من تفشّي الأوبئة والأمراض الأخرى التي اجتاحت أوروبا وزادت في إضعافها، في إنجلترا أيضاً أدّت محاولات

ملاّك الأراضي الزراعية (بمن فيهم الكنيسة) إلى القبض على العمال ورميهم في السجن – وهم أصلاً ندرة آنذاك – أدت لانتفاضة كبرى في (شرق ووسط) إنجلترا، عُرفت انتفاضة القرويين عام ١٣٥١م، ومع أنها قد أخمدت، لكنها تركت شعوراً بالسُخط والاستياء من أصحاب الثروة مالكي الأراضي الزراعية ومن الكنيسة أيضاً.

إنّ قسوة البابوية التي لا ترحم، والحروب الصليبية العدائية داخل أوروبا نفسها، و**محاكم التفتيش** بإيحاءات البابوية (ومباركتها) قد أثّرت سلبياً على أوروبا وأفرزت **ثلاث ظواهر رئيسة**:

١. **العلمانية** التي ترى فك ارتباط الكنيسة والدين النصراني بنظام الدولة وقوانينها.

٢. **النزعة الجديدة لأصحاب دارون ونظرية التطور** المعارضة لمبدأ خلق الإنسان والعقيدة النصرانية (التي كانت تعادي الدين على نحو عام) التي أدت إلى عواقب خطرة أهمها فصل العلم عن الدين.

٣. **الماركسية المادية والتفسير الجدلي للتاريخ** على أساس أن الإنسان تحفزه الحاجة الاقتصادية والجشع المادي، وبافتراض أن الدين هو أفيون الشعوب وأنّ الربّ هو مصطلح من صنع البشر، منكرة تحفيز الإنسان بالحوافز الإيمانية الربانية والآمال الروحانية والدينية.

نظرات الغرب المشوّهة عن الإسلام في القرون الوسطى وأوروبا قبل العصر الحديث[١٠][١١]

إن الإسلام في ذمّه لأهل مكة المشركين الوثنيين عُبّاد الأصنام قد وثّق في القرآن الكريم ادعاءاتهم مع الردود الإسلامية على هذه الادعاءات والمزاعم للرجوع إليها مستقبلاً. وقبل الخوض في هذه الادعاءات، فإن الله تعالى قد بيّن النية الحقيقية من وراء هذه المزاعم الكاذبة: وهو استعمالها بوصفها جزءاً من الحرب الإعلامية ضد الإسلام. فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

وبالرغم من أن من حق المسلمين ردّ السوء بالسوء، لكن الله سبحانه وتعالى ينصح المسلمين أنه من الأفضل العفو عن أعدائهم متحرّين الصلح، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۞ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٠].

جُلّ ادعاءات المشركين موجهة إما ضد مصداقية القرآن أو مشتملة على الإساءة إلى شخصية النبي محمد ﷺ وتشويه سمعته. أما فيما يخص القرآن، فالادعاء أن محمداً قد زوّره واختلقه، أجاب عنه الله بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٨-٣٩].

والانطباع أن محمداً قد علّمه معلّم قد أنكرها الله بسهولة معلناً أن هؤلاء المعلمين (أو الرهبان) هم أعاجم أجانب في لغتهم (لا يتكلّمون العربية)، لكن القرآن قد نزل بلغة عربية صافية (وهي اللغة التي لا يستعملها أحد من هؤلاء المعلمين آنذاك)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

والحقيقة أن الله وبّخ أهل مكة بقوة وأنّبهم لادعائهم هذه الدعوى العرجاء، وهم يعلمون أنهم متضلّعون في اللغة العربية ويتقنونها، ويبين الله عز وجل أن هذا الكتاب أُنزل على محمد ﷺ وهو بين ظهرانيهم جميعاً فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وإضافة إلى ذلك فإن محمداً معروف بأميته (لا يقرأ ولا يكتب): ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

أما فيما يخص تسفيه شخصية محمد ﷺ وتشويه سمعته: فقد وصفه المشركون والوثنيون أنه مسحور؛ لكن الله سبحانه وتعالى أجابهم:

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٨].

ومن ثَمّ وصفوا محمداً أنه ساحر أو أنه مجنون؛ فردّ الله قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقالوا: إنّ محمداً مثيرٌ للفرقة والمشكلات، يفرق الناس وأعضاء الأسرة الواحدة؛ لكن الله رب العالمين ردّ عليهم أنّ محمداً هو رحمة للناس، والحقيقة أنه رحمة لكل العالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

كما ادّعوا أن محمداً حالمٌ يرى أضغاث أحلام، لكن الله رد عليهم بالنذير: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥–٦].

وعندما زعموا أن محمداً شاعر أو كاهن، صرّح الله الواحد هنا بلا لَبْس وفصّل القول أن القرآن من عنده بالضبط كما أنزله إلى رسوله محمد ﷺ (عن طريق رسوله جبريل عليه السلام):

- ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝
- وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝
- وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝
- تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝
- وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٠–٤٧].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩].

ومن ثَمّ تتجلى بوضوح حكمة توثيق هذه المزاعم ورد الله عليها؛ فهي تزوِّد المسلمين بمرجع مستقبلي عن هذه الاتهامات، وبذلك تمنحهم نوعاً من الحصانة التي تصبح حصانةً داخلية مع الزمن، لدرجة أن التعرُّض لمثل هذه المزاعم المكرَّرة أخيراً من قِبَل الأوروبيين والغربيين لا تؤدي إلا إلى مناعة مكتسبة إضافية. (أما فيما يخص انتشار الإسلام بحدّ السيف — فراجع الفصل الرابع).

ربما كانت هناك تهمة واحدة لم يستخدمها الوثنيون العرب البتة، لكنّ استخدمها الأوروبيون بطريقة متكرّرة ضد النبي محمد: هو أنه شهواني يحب النساء منتهكاً وضع المرأة والأسرة المسلمة!!! لكن الله دافع عن نبيه، الذي كان يقضي لياليه عبادةً تهجُّداً لربّه (لا تلذذاً بنسائه)، فوثّق ذلك في القرآن الكريم قائلاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۞ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١-٦].

والأفضل أن يعلق على هذا الأستاذ جون تولان في كتابه الرائع (الشرقيون – الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى) صفحة ٢٨-٢٩:

(التشريع القرآني... ليقضي أن) تحتفظ المرأة المتزوجة بممتلكاتها الشخصية (وباسم شهرة أسرتها بعد الزواج): فالمهر الذي يقدّمه الأزواج يُعدُّ ممتلكاتٍ للزوجات وفي حالة الطلاق، فعلى الزوج إعادة ممتلكات زوجته. ولتوجيه تهمة الزنا لامرأة فلا بد من أربعة شهود. ويجب أن يعقب الطلاق مدة انتظار لا تقل عن ثلاثة أشهر (لاستبراء الرحم، وإن كانت حاملاً فتستمر مدة الانتظار حتى نهاية الحمل)، قبل التخلّص من الزوجة المطلّقة من بيته؛ ولابد للزوج من الإنفاق على زوجته (ولا سيّما الأم وأطفالها)، كذلك فإن الزواج المتعدّد غير مرغوب فيه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. ثم أضاف أخيراً:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]. لذا فالزواج المفرد (بواحدة) هو كما يبدو الزواج المثالي. لكنّ زواج العرب المتعدّد (بعدة زوجات في آن واحد) لم يلغ، بل أصبح مقتصراً على أربع زوجات كأقصى عدد. ولكن هذا العدد الأقصى لم يتقيد به محمد نفسه: فالقرآن (سورة الأحزاب ٥٠) يعطي النبي استثناءً خاصاً من قيود العدد على الزوج: فكان عنده تسع نساء في وقت واحد. وهذا بالنسبة لمؤلفي النصارى المتزهدين، قد يكون مخزياً، فقد استخدموه لتصوير أن النبي مدفوع بشهوة الجنس. ولكنّ محمداً لم يتزوج حتى بلغ من العمر (٢٥) عاماً وبقي زواجه مقتصراً على واحدة الـ (٢٤) سنة أخرى، حتى موت زوجته خديجة عام ٦١٩م. وربما الأهم من ذلك أن زواجه المتعدد بدأ في المدينة، حيث صار قائداً سياسياً وعسكرياً مهماً: ومثل الحكام العرب قبله، فإن محمداً استخدم الزواج لتعزيز التحالفات السياسية المهمة، ولإظهار هيبته السياسية والاقتصادية (الكثير من زوجاته كبيرات في السن، وكلهن كنّ أرامل: إلا عائشة فهي زوجته العذراء البكر الوحيدة).

إنه بهذا المفهوم و الحسبان يأمر القرآن المسلمين بطاعة نبيهم بصفته قائداً سياسياً وقاضياً أيضاً. وحتى في هذه النقطة فإن القرآن يؤكد صحة حقه بالزواج بأكثر من أربع زوجات، ولا سيّما حقه بالزواج من زينب، الزوجة المطلقة لحواريه وابنه بالتبني زيد (الأحزاب: ٣٧-٣٨). وهذه القصة أيضاً سوف تلوى بالأقلام المعادية من مجادلي اللاهوت النصراني، وسوف تستخدم لتكميل تصويرهم عن محمد أنه شهواني: زواج النبي المتعدد عندهم يقابل صورة رسموها بمخيّلتهم لعدو المسيح.

«ثم بينما كرّه وثبّط الناس عن الزواج، متنازلاً أنه هو فقط الأفضل أن يتزوج حتى لا يحرق بنار جهنّم» (١ الإنجيل مقابل ٨:٧)، فالقرآن هنا يشجع المسلمين العزاب أن يتزوّجوا (سورة النور ٣٢): ليس هناك أي خطأ في الزواج وفي الجنس، ما دام في حدود النزاهة والاحترام المتبادل في مؤسسة الزواج)[1].

إن الزواج المتعدد هو إجراء احتياطي في حالة الضرورات، عندما تفوق أعداد النساء عدد الرجال:

- حلّ الحروب يخوضها رجال قد يقتلون مما يؤدي إلى ازدياد عدد النساء.

- نزلاء السجون أكثرهم من الرجال الذين قد تصل أعدادهم إلى ٩٨٪ من السجناء.
- الأمراض الوراثية المرتبطة بالجنس، مثل: داء كريستماس ذي المشكلة في تخثُّر الدم، فإن الذكور وحدهم هم الذين يصابون به ويموتون باكراً؛ بينما الأمهات والإناث يحملن المرض ولا يصبن به. ويعشن كما يبدو حياة طبيعية في العادة.
- تأثُّث الطبيعة بسبب المواد الكيماوية أدى إلى قلة نسبة الخصوبة وأكثر من ٢٠٪ من الذكور مصابين بالعقم على مستوى العالم.
- نسبة الوليد الميت عند الولادة (مليص) وخديج الولادة الميت أعلى عند الذكور.
- في الولايات المتحدة الأميريكية يقال إن لذكورهم ميل للجنوسية (اللواطة أو فعلة قوم لوط) قد تصل ٢٥٪ مما يؤدي لترك الكثير من النساء بلا رجال.

وإضافة إلى ذلك، فإن مكانة المرأة في الإسلام عالية جداً لدرجة أن الجنة تحت أقدام الأمهات، كما هو مذكور. ثم إن مناسك الحج مبنيّة على أعمال امرأة: هي هاجر (أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) تراوح بين شربها لماء زمزم (الماء المبارك)؛ وسيرها وركضها ذهاباً وإياباً بين الصفا والمروة.

ويسترسل الأستاذ جون تولان تحوُّل تحول القيادة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل قائلاً: (والسورة الثانية من القرآن (البقرة) أمرت المسلمين بتغيير القبلة، موضع اتجاه الصلاة، من القدس إلى الكعبة في مكة. بعض الباحثين الدارسين اقترحوا أن هذا يشكل مخالفةً لليهودية بعد تقهقر اتفاقية المسلمين باليهود في المدينة في أعقاب معركة أحد). لكن القرآن يشرح أن الكعبة بناها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

كان إبراهيم حنيفاً يعبد إلهاً واحداً، والإسلام هو استمرارية لدين إبراهيم، الحنيفيّة. وإسماعيل، ليس الابن غير الشرعي المنبوذ كما يصوّره [فصل الخليقة (بالإنجيل)]، بل هو في القرآن، الابن الأول المفضّل عند إبراهيم، ثم إن الكعبة هي أقدم وأقدس مقام فهي بيتٌ لله الواحد، سابقة لمعبد سليمان في القدس. وهذا يسلّط الأضواء على ضرورة الانتصار على أهل مكة؛ وتنظيف الكعبة من قذارة الأصنام وإعادتها إلى أصل العبادة الصافية لرب إبراهيم.

[وفي عام ٦٢٨م]، سار محمد والمسلمون نحو مكة بقصد الحج. فقابلتهم مجموعة من قريش خارج مكة وتفاوضوا على السماح لهم بالحج في العام المقبل، لقاء هدنة (١٠) سنوات [صلح الحديبية]. وبدأ نجم الإسلام بالصعود، وتحول الكثير من حلفاء مكة إلى المسلمين. في عام ٦٣٠م، قام حلفاء قريش بمهاجمة بعض المسلمين؛ وأصبحت هذه هي الذريعة ليقود محمدٌ جيشاً تعداده (١٠) آلاف مسلم إلى مكة، التي استسلمت دون إراقة الدماء. فسار محمد إلى الكعبة ودمر ما فيها من أوثان وأصنام المشركين: وهكذا طُهِّر مقام إبراهيم)[١-١].

ولقد كان الكثير من الكتاب النصارى يصفون العرب المسلمين بأولاد إسماعيل، أو الإسمعيليين. وأثناء الحروب الصليبية في القرون الوسطى كان النصارى يشوّهون المسلمين بنعتهم أولاد إسماعيل الوثنيين؛ و دّعوا زوراً أن الراهب بحيرا وورقة بن نوفل كانا رهباناً مهرطقين متشققين عن النصرانية ومنفيين في الجزيرة العربية والشام، فقط لأنهم قالوا الصدق بالتبشير بمحمد نبياً ورسولاً.

وحين ازداد الاهتمام والطلب على النفط في الشرق الأوسط في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، ازداد الاهتمام بالعالم الإسلامي. فالمبشرون والأكاديميون على السواء بدؤوا يصادفون ويلتقون بالإسلام باهتمام متزايد بازدياد دور الدول الكبرى حسب مخططاتها في العالم من بعد الاستعمار. وفي هذه السنين فإن المهتمين بنظرات الغرب للإسلام مدينون لعملين شاملين لا يكاد يتفوق عليهما أحد:

- كتاب نورمان دانيل: **الإسلام والغرب: صنع صورة** (أدنبرة ١٩٦٠)،
- وكتاب ريتشارد سوثرن: **الصور الغربية عن الإسلام في العصور الوسطى** (كامبردج ماسوشيتس ولندن ١٩٩٢).

ثم إن جون تولان في كتابه الرائع: (**الشرقيون — الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى**) صفحة ٣٠-٣٩ يرى أن نجاحات الإسلام في حياة محمد ﷺ (بعد هجرته إلى المدينة) تختلف كلّ الاختلاف عن إخفاقات النصرانية في حياة عيسى عليه السلام: (وباقي القبائل البدوية الوثنية صارت مسلمة بعد ذلك؛ وكل الجزيرة العربية توحدت بالإسلام، تحت قيادة محمد السياسية والعسكرية. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النساء: ١-٣].

وطبعاً، هذه كلها قصة مختلفة جداً عن بداية جهاد النصرانية؛ فعيسى، طُلب للموت بوصفه مجرماً من قبل الرومان وحاولوا قتله وصلبه؛ وأتباعه، أقليّة نصرانية في إمبراطورية وثنية، قد قمعوا واضطهدوا لقرون. فلا عجب أن النصارى الأوائل كانوا يرون في القوة السياسة والعسكرية شراً. فروما هي تناسخ وتقمُّص لعاهرة بابل... لأنه لا توجد صورة إيجابية عن القوة السياسية للعهد الجديد.

ولكن الأشياء تبدو مختلفة في مفاهيم بداية الإسلام. فالله توّج المسلمين بالنصر منذ البداية كما يبدو؛ لذلك فلا داعي لذم القوة الدنيوية الأرضية أو لتجنُّب النجاح السياسي والعسكري).

ويواصل جون تولان: (ولم تكن غزوات المسلمين اقتحام أناس جدد أو أجانب إلى الهلال الخصيب، فالعرب منذ زمن بعيد كانوا أعضاء متحالفين في قوات الروم (البيزنطيين) العسكرية؛ وهم الذين (أي العرب) أنشؤوا واستعمروا الكثير من المدن في سورية: البتراء، حمص، حرّان، حلب (أديسّا). وكانت التجارة بين سورية الرومانية والبدو من الجزيرة العربية مستمرة دائماً؛ يتخللها صدامات عسكرية متقطعة. ولكن الجديد غير المسبوق أنه في عام ٦٣٤م، صارت قبائل الجزيرة العربية حلفاء متحدين لا خصوم متناحرين كالسابق.

وقوة المسلمين ووحدتهم تصادفت مع ضعف البيزنطيين (هذا صحيح جزئياً؛ فالكثير من الغربيين يعزون الانتصارات الإسلامية لا لنصر الله القوي، بل للادّعاء أن إمبراطوريتي الروم والفرس قد أضعفت إحداهما الأخرى بحروب حديثة!!! الحروب عموماً تقوّي الجيش المنتصر، وتغذّيه بمزيد من المهارات والخبرات)، وفي السنين بين ٦٣٤ و٦٣٨، سيطر المسلمون على كل سورية البيزنطية. فقد انتصر المسلمون في معركتين بريتين أساسيتين رسمتا الهزيمة النهائية للقوات البيزنطية في سورية: أجنادين (٦٣٤)، واليرموك (٦٣٦)... وبموت عمر ابن الخطاب الخليفة الثاني عام ٦٤٤م، كان المسلمون مسيطرين تماماً على كل الهلال الخصيب وعلى مصر وعلى جل إيران؛ كانوا مستعدّين لدفع عجلة انتصاراتهم وفتوحاتهم لأبعد من ذلك في العقدين اللاحقين إلى الغرب مروراً بالمغرب و(في عام ٧١١)، إلى إسبانية القوط الغربيين. وفي الوقت نفسه اندفعت جحافل قوات المسلمين في إيران وفي السند والهند وبلاد ماوراء النهر.

فالخليفة الأموي الوليد الأول (٧٠٥-٧١٥م)، حكم إمبراطورية ممتدة مما يعرف الآن بباكستان وأفغانستان إلى بلاد المغرب والبرتغال.

وكل ذلك أكد اعتقاد المسلمين أن الله في جانبهم، وهذا ما اشتكى منه بطريق القدس (أورشليم) في القرن السابع صُفرانيوس/ (هم يتفاخرون أنهم يخضعون العالم بأسره). وهذه الثقة العالية بالنفس في المهمة الإلهية كانت بالتأكيد هي المفتاح والعامل الأساس في نجاح وسرعة الفتوحات. ولا يقلُّ أهمية عن ذلك حرية الأديان المضمونة للرعايا غير المسلمين...

فاليهود (والنصارى)، كما يبدو، أساؤوا تفسير كتبهم المقدسة لدرجة إنكار أقدميّة الإسلام ونبوّة محمد. واتهم علماء الإسلام المتأخرون اليهود (والنصارى) بتحريف الكتب المقدسة: حاذفين بتقصُّد النبوءات المتعلقة بمحمد من التوراة والإنجيل. فاليهودية في شكلها الحاضر هي نسخة محوّرة غير كاملة للدين الحق الذي أنزل على إبراهيم في شكله الحاضر وعلى موسى. لذا فاليهودية الحاضرة يتسامح معها، ولكن يجب ألا تعطى ألبتة قدم المساواة مع الإسلام.

والنصارى، مثل اليهود، قد ضلّوا عن صفاء الأصل في اعتقادهم، وحرّفوا تعاليم الإنجيل. فبالنسبة لابن إسحاق (مؤلف سيرة النبي محمد ﷺ)، محمد هو الباراكليت (أي المبشّر بالخير والرحيم) الذي بشّر به جون (أي يحيى) (١٥: ٢٦)؛ لكنّ النصارى رفضوا وبعناد الاعتراف بذلك. فأتباع الديانتين يتركون أحراراً لاختيار البقاء على ديانتهم التقليدية، أو اعتناق الإسلام؛ ولن يكون هناك إجبار لهم.

إن مبادئ العقيدة النصرانية في التثليث والتناسخ (تقمُّص الله في شخص المسيح – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) هي التي أغضبت المسلمين (واليهود): فإن من المخزي إدخال أقسام التثليث (الأب، الابن، وروح القدس) في وحدانية الرب التي لا تنقسم. هذان المبدآن المركزيان قد هوجما في القرآن، وأنكر ذلك بشدة كل علماء الإسلام، معطين اهتماماً أقل للاختلافات العقديّة الصغيرة الأخرى مع النصرانية. فالنصارى بذلك «مشركون»/ فبدلاً من عبادة الإله الحق الواحد، فإنهم أشركوا معه مجموعة من الشركاء بوصفهم آلهة صغيرة: عيسى، والقديسين، والرهبان، والقساوسة.

وإذا كان المقيم، لِنَقُلْ: في دمشق في نحو الثلاثينيات عام ٦٣٠م، يظن أنه قد غير حاكمه وعادله البيزنطي بحاكم عربي فقط، فإنه بعد قرن من الزمان تبيّن أن هناك تغيرات جوهرية قد حصلت على أرض الواقع: دمشق صارت عاصمة الحضارة الإسلامية الناهضة. وتحوّل الكثير الكثير من اليهود والنصارى إلى دين الإسلام: واللغة العربية صارت تستخدم بازدياد ملحوظ. ولا يوجد دليل صلب من دراسة إحصائية للسكان (ديموغرافية) ليخبرنا متى تحوّل المسلمون من أقلية إلى أكثرية، لكنّ التقديرات الذكية هي نحو ٨٢٥م بالنسبة لإيران، ٩٠٠م، بالنسبة لمصر وسورية، والعراق. وبينما نملك قصصاً لشخصيات بارزة التمست بفاعلية وإيجابية التحول واعتناق الإسلام، لكن في كثير من الحالات كان «التحوّل للإسلام» ربما سلبياً بلا فاعلية: وذلك بعدم التماس طقوس تعميد النصارى الشعورية والقربان المقدس، فالكثير منهم توقفت نصرانيتهم من دون اختيارهم التحول إلى الإسلام، وانخفضت أعداد الذميين تدريجياً وباستمرار، وازدادت بالمقابل أعداد المسلمين تناسبياً.

وفيما يخص المسلمين، كان هذا هو نظام الأشياء العقلاني والطبيعي. فالله كافأ المؤمنين السيادة على أغنى بلدان الأرض. وهو (الله) الذي أظهر تفوّق الإسلام على النصرانية (واليهودية) مرتين: الأولى عبر القرآن، ثم بإخضاع اليهود والنصارى وخضوعهم بوصفهم ذمّيين لبيضة الإسلام.

إن الصعود النيزكي للإسلام يبدو معجزة حقاً: حفنة من المحاربين من الصحراء يخضعون أغنى وأكثر العالم سكاناً لأعظم وأقوى الإمبراطوريات. فبالتأكيد، الله قد فضّل دين الإسلام وأراد من رعاياه الجدد التحوّل إلى دينه. والغالبية سوف (تدريجياً وعبر عدة أجيال) تستنتج هذا الاستنتاج نفسه: والغالبية ستعتنق الإسلام لذلك. ولكن الذين رفضوا التحول إلى دين الإسلام، واختاروا البقاء على نصرانيتهم، وجب عليهم الإجابة عن السؤال الهائل: **لماذا مكّن الله هذه النجاحات المذهلة لدين الإسلام؟**

ويخلص الأستاذ جون تولان أن الرمز الإسلامي الأعظم قوة كان: (منحوتاً في مسجد قبة الصخرة، في المدينة المقدسة (القدس). النقش يقول: إن الخليفة الأموي عبد الملك بناه عام ٦٩٢م... وهو أول أثر تذكاري في فن العمارة الإسلامية، بُنِيَ على موضع معبد القدس الثاني، الذي دمرته الجيوش الرومانية عام (٧٠) بعد الميلاد. في إعادة بناء

على موضع المعبد المرتبط بالملوك القدامى سليمان وداود، عزز الخلفاء الأمويون دعوتهم لميراثهم، وهو مصدر الشرعية في عيون رعاياهم – اليهود، والنصارى، والمسلمين. واختيار الموضع عزز القرار القوي: الإسلام هنا جاء ليبقى؛ واستمر الإسلام ونسخ ما قبله من اليهودية والنصرانية. وتعلن النقوش المكتوبة على خارجه، وبآيات قرآنية، وحدانية الله ومهمّة نبيّه محمد، بينما النقوش في داخله بالمقارنة، تحوي آيات قرآنية ذات علاقة بالمسيح، مؤكدة دور عيسى بوصفه نبيّاً بشرياً، وجازمة أن الله لا يمكن أن يكون له ولد.

وعلى جبل المعبد في القدس، وبمسافة قصيرة من كنيسة القيامة، تعلن النقوش على قبة الصخرة وبوضوح أن المسلمين هم الوارثون الحقيقيون لعيسى، وليس النصارى الذين اتخذوه ربّاً بجانب الربِّ الحقّ الواحد... ولم يكن هذا كله سهلاً بالنسبة للنصراني (المتعصب) فلقد استُثني التصوّر الانتصاري (الإسلامي) للتاريخ (عند كُتّاب النصارى)... وعُدّت الانتصارات العربية عقوبة (إلهية) لذنوب النصارى)[11].

وهكذا فإن جون تولان يشرح الأسباب الأساسية للتصوّر المشوّه والكاذب للإسلام عند النصارى الغربيين منذ القرن السابع ن أسباب النظرة المشوهة الغربية عن الإسلام سببها كما يأتي: جهلهم (قلة المعرفة عن الإسلام)، والخوف من الإسلام [(إسلام – فوبيا) من رواسب خوف القرون الوسطى من توسع الإسلام الإقليمي]، والعناد (بسبب الحقد وكره ثقافة التغيير للعادات حتى لو كانت هذه العادات خاطئة)، (مع) أوساط الدعاية العدائية (المتكالبة في اختلاق أخبار كاذبة، أو لإثارة الحوادث الصغيرة درامياً لاستفزاز الأحقاد في المجتمع وتسويقها بوصفها حوادث وأخبار إضافية في حلقة خبيثة – من أجل جني الفوائد المادية لهذه الأوساط الدعائية) وفي تاريخ العصور الوسطى كان النضال حول إسبانية، سقوط الدويلات الصليبية، قرصنة البحر الأبيض المتوسط، سقوط القسطنطينية الوضع القلق لفيينا، كلها ساعدت على تأجيج العداوة والمخاوف.

لكن ديفيد بلانكس، المؤلف الآخر مع مايكل فراسيتو في كتابهم الممتاز **(نظرات الغرب للإسلام في أوروبا العصور الوسطى وأوروبا الحديثة – إدراك الآخر)** يَعُدُّ (عقدة النقص الثقافية الأوروبية) سبباً لنظرتهم الكاذبة عن الإسلام (في العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية متفوّقة تماماً على منافستها النصرانية، مقدّمةً تقدماتٍ جذابةً في فن العمارة والقانون والأدب والفلسفة وفي الحقيقة، في شتى الفعاليات الثقافية.

لذلك فإنهم من موقع الضعف العسكري، وربما الأهم الضعف الثقافي الحضاري الذي جعل أوروبا النصرانية تطوِّر صوراً سلبية، بعضها لا يزال حياً باقياً إلى اليوم الحاضر. وجزئياً؛ فإن هذه العداوة كانت نتيجة الصراع السياسي والعسكري المستمر، ولكنها كانت أيضاً ناتجة من الإحساس الغربي بتخلُّفه الحضاري (الثقافي) لذلك فالحاجة الغربية لإنشاء صورة للمسلم، وللآخر كانت عملية ثنائية: جاءت لتهيمن على أحاديث العصر قبل الحديث بما يخص الإسلام. فمن ناحية، اختلقت أوروبا صورة للشرقيين، والمغاربة، أو الأتراك التي كانت غريبة كلّياً وشرِّيرة كلّياً ففي المجال العام وفي مجال آداب المتعلمين، صُوِّر المسلمون على أنهم جبناء، ومنافقون وذوو وجهين، وشهوانيون، ومنغمسون باللذات الذاتية ووثنيون يعبدون الأصنام وثالوثاً من الآلهة الكاذبة؛ ومن ناحية أخرى، فإنَّ اختلاق هذا القالب المكرر والكذب الواضح وسماجةٍ مكَّن النصارى الغربيين من تعريف أنفسهم. وبالفعل صار المسلم بهذا المعنى الصورة السلبيّة (الفوتوغرافية) لفهم الصورة الذاتية النصرانية المثالية التي تصوِّر الأوروبيين على أنهم شجعان مؤمنون ذوو قيم وأخلاق، يؤمنون بالرب الحق الواحد وبالاعتقاد الحق الوحيد.

ويستطرد ديفيد بلانكس قائلاً: (وفي الوقت الذي كانت صقلية وإسبانية والدويلات الصليبية حقول قتال، لكنّها كانت أيضاً مواضع تبادل ثقافي مهم: فمن الملحوظ مثلاً أن الصليبيين الذين بقوا في الأراضي المقدسة كانوا متطبعين بالثقافة العربية – الإسلامية المحليّة على نحوٍ أفضل من الصليبيين القادمين الجدد. «قصة أسير

لمؤلفها سير فانتيس تعطي الانطباع نفسه، وكذلك تاريخ صلاح الدين الذي عدّوه خصماً محترماً موقّراً ذا قيمة. وبالتدريج تسللت الأقاصيص عنه إلى أوروبا وترعرت لتصبح أساطير. وبالطبع كانت هناك تبادلات علمية مهمّة ربما أوضح مثال على ذلك يوجد في علماء بيتر الموقر وزملائه، وأهمهم روبرت من كيتون الذي استشار علماء المسلمين من أجل ترجمة القرآن إلى اللاتينية، والفكر النصراني مدين جداً لعلماء الإسلام وفلاسفته ولا سيّما ابن سينا الذي كان محترماً في مترجمته لأرسطو طاليس. وفي الأدب أيضاً قام الإسلام بتأثير إيجابي في تطور الثقافة الأوروبية، وبالنتيجة، سواء كان أجدادنا من العصر الحديث يستشعرين بذلك أم لا، فإنه كان هناك تبادل إيجابي كثير عبر الحدود العدائية).

ثم يقول ديفيد بلانكس في فصل الكتاب المعنون «**بقاء مفاهيم العصور الوسطى**» يناقش فيه أن نظرات الغرب عن الإسلام قد قُنّنت في العصور الوسطى.

(من القرن الحادي عشر وحتى أواسط القرن السابع عشر كانت هجمات الكتاب الغربيين التحقيريّة قد تولّدت من عقدة النقص المستمرة أمام الحضارة العربية.

ولكن في خضم القرن السابع عشر، ما عادت الدول الإسلامية تشكل خطراً سياسياً، وابتدأ الغرب يطوّر نظراته العلمانية الجديدة التي تفكك اللغز الديني وتقلل من خطر الإسلام بوصفه عقيدة (أيديولوجي) مناوئة؛ لذا ففي المرحلة الحديثة، صارت المواقف التحقيريّة تنبع لا من عقدة النقص، بل من الإحساس بمركزية أوروبا في التفوّق الثقافي. لقد شهد القرن السابع عشر نهاية الحروب الدينية، واعتراف الكنيسة الكاثوليكية النهائي بالبروتستانتية، وهبوط وتراجع الإمبراطورية (الخلافة) العثمانية، وظهور نظام الدول الأوروبي، وعلمانية الحكومات التدريجي، وتطوّرات تقنيّة جسيمة في صناعة السفن وفي صنع السلاح، وبداية الاستعمار والمستعمرات في العالم الجديد، وإقامة نظام الرأسمالية وانتصار نظام مركزية الشمس، وروح جديدة في الحرية الشخصية (والمصالح الفردية) والعقلانية. لذلك فإن أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر يصلح أن يكون مرحلةً انتقالية من العصر قبل الحديث إلى العصر الحديث. والقرن السابع عشر كان أيضاً نقطة التحول اللغوي؛ فكلمة «إسلام» ظهرت أول مرة في اللغة الإنجليزية عام ١٦١٣م، وفي الفرنسية عام ١٦٨٧م واستخدام المصطلح العربي الصحيح كان يعني ظهور وعي جديد من جانب الأوروبيين؛ بالرغم من أن اسم التمييز القديم الخاطئ وقليل الاحترام (المحمّدية) قد بُدِّلت، ولكن ببطء شديد (يرفض المسلمون تسميتهم بالمحمديين وتسمية الإسلام بالمحمديّة لأنهم يعبدون الله وحده لا النبي محمداً). ولكن معجم أكسفورد الإنجليزية ما زال يُعرِّف الله على أنه اسم الرب عند المحمديين، وهو خطأ قد يكون واضحاً من الناحية السياسية أيضاً، أنه غير صحيح في تاريخ مصطلحات المعاجم الحديثة.

لولكن حتى اليوم صدر كتاب لمؤلفه تيموثي جورج بعنوان: (هل أبو عيسى هو ربُّ محمد؟) وهو عنوان مشوه من بقايا النظرة الخاطئة لأوروبا القرون الوسطى عن الإسلام).

ومع ذلك فإن هناك شيئاً قد تغير فاليوم وفي قائمة تصنيف (كاتالوج) الكتب المطبوعة العامة والموجودة في المكتبة البريطانية (ما بعد ١٩٧٥)، يوجد ٦،٤٤٨ عملاً تحت كلمة إسلام، وماكسيم رودينسون قد بدأ مُصيبتها عندما قالت: «نحن مفتونون بالإسلام».

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأ الباحثون والدارسون يبدون اهتماماً ملحوظاً في نظرات الغرب عن الإسلام وبعد الحرب العالمية الثانية صار الحقل حقيقة قائماً بذاته، لكن أصلاً بدأت الدراسات تظهر في القرن التاسع عشر، وقد عكست فضولاً وليداً حول تأثير الإسلام في ثقافة أوروبا في العصر قبل الحديث. كان الباحثون والدارسون الإسبان والفرنسيون والإيطاليون أول من أبدى هذا الاهتمام ولا سيّما في عالم الدراسات الأدبية)[11].

ولذلك صار اسم النبي محمد ﷺ بذاته هدفاً للكتّاب النصارى في العصور الوسطى، وقاموا بليّه وتحويره إلى مفردات إنجليزية وكلمات غريبة):

- مخمت،
- ماخوميتوس،
- ماخوميس،
- مهمت،
- ماهون،
- ماهوميس،
- ماهومِّيت (يلفظ ماهوم – ميت)،
- ماهوس،
- ماهوميت،
- ماهاوند. بعض تصويرات العصور الوسطى كانت رسوماً ساخرة (كاريكاتورية) فجّة (وغير مصقولة) مثل شكل ما هاوند، الصنم أو الظالم الوثني الذي يظهر في دراما العصور الوسطى الشعبية.
- ماهاون،
- ماهوميت،
- مالفوميت،
- ماثوموس،
- ماوميت،
- مامد،

ثم إن النبي محمد ﷺ صوره الكتّاب النصارى على أنه:

- المضاد للمسيح أو المؤدي إلى المسيح الدجال (معاذ الله).
- النبي الكاذب أو المبتدع الأكبر في الهرطقة (معاذ الله).
- الصنم الذي يعبده الشرقيون (المسلمون) (استغفر الله).

فهذا جون الدمشقي (مات ٧٤٩م، واسمه يحيى بن منصور بن سرجون) يدّعي أن (نبياً كاذباً.. اسمه مامد، وهو قد تعرّض عفوياً لرؤية العهد القديم والعهد الجديد (من الإنجيل) ويظن أنه التقى راهباً اريانياً، ليكوّن بعد ذلك هرطقة خاصة به) والراهب الأرياني المعنيّ هنا هو بلا شك (بحيرا)، فبدلاً من قبوله مهمة النبي الإلهية، فعلى ما يبدو أنه هنا يؤدي دوراً لتكوين هرطقة النبي. وجون هنا يجعل بحيرا مهرطقاً اريانياً من أجل نفي النبوة، والتشكيك زوراً بارتباط الإسلام بأخطاء الهرطقة (الأريانية مبينة على اعتقاد أريوس أن المسيح لا يساوي الرب بالجوهر – ومن ثمّ اعتبرت الكنيسة اعتقاد آريوس هرطقة) (صفحة ٥٢ من كتاب الشرقيين (جون تولان)، وعبر عملية التصوير الكاذبة، والزعم بعبادة الشيطان، صار الإسلام محطم التماثيل وثنياً، وحضارته بربرية، والإيمان بالإله الواحد شركاً ووثنيّة، وهكذا. ومع ذلك فإن هذه القوالب المتكررة المشوّهة هي في دلالتها صارت «حقيقة». صارت حقيقة لأنها كانت بالنسبة للجمع الأكبر من الأوروبيين في العصور الوسطى وبدايات العصر قبل الحديث، المصادر المتوافرة بسهولة لفهم (أو بالأحرى يجب أن نقول: لسوء فهم) الإسلام.

فلماذا هذا التصوير الزائف والمستمر عن الإسلام، بالرغم من توافر المعلومات الأكثر مصداقية وصحة عن المجتمع المسلم وعقائده؟ الإجابة سهلة: لقد كان الإسلام بشكل خطراً محسوساً ومدركاً ضد النصرانية، وهو الذي أدى للإنكار أو التشويه الجذري لحقيقة الإسلام، إن تصوير الشرق الإسلامي بالشياطين كان تقليداً غربياً طويلاً وعميق الجذور – يمتد عبر قرون، من بداية حقبة العصور الوسطى حتى نهاية القرن العشرين. ولم تكن حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر حين ظهرت أصوات لصالح التسامح والانفتاح على الإسلام وصارت تسمع على نحو واسع.

فمثلاً كما أوضح (كولباش) في تفحّصه للإسلام في ما يسمى (غلوسا أورديناريا): أي وجود العقيدة الإسلامية في تعليقات نصارى العصور الوسطى على الإنجيل نحو ١٢٢٠–١٢٤٠)، استعار الباحثون الدارسون

النصارى بوعي وإدراك الأفكار المسلمة، ففي القرن الثاني عشر قام علماء اللاهوت النصراني بدراسة القرآن والترجمات العربية للنصوص القديمة. وهي ممارسة اتبعها أساتذة القرن الثالث عشر أمثال فيليب قاضي القضاة، جين دي لاروشيل وأليكساندر من هيلز. واستمرت أعمالهم متأثرة بتقاليد العلوم العربية — الأرسطوطاليسية[١١].

والكوميديا الإلهية لـ (دانتي) يمكن تتبع إنشائها من معراج النبي محمد ﷺ، (وهو صعوده المعجز إلى السماوات العلى والجنة) المذكور في القرآن. وفصّلها صوفية المسلمين مثل ابن عربي، ولكنّ المهم أنّ وَضْع دانتي كلاً من ابن سينا، وابن رشد، وصلاح الدين في الأعراف، (عند النصارى وهي موطن الأرواح التي تحرم دخول الجنة لغير ذنب اقترفته كأرواح الأطفال غير المُعمّدين)، بخلاف محمد وعليّ المستقرّين في الهوّة التاسعة بين المنشقّين (عن الكنيسة)!!!.

وفي بداية الحملة الصليبية الخامسة قام الكاتبان جاكس دي فيتري (أسقف عكا)، وأوليفر من بادربورن (قانوني كولان) برفع الآمال عالياً مدعين أن الصليبيين سوف يقهرون مصر والعالم الإسلامي. فكتب هذان الكاتبان ما يأتي:

(الاستيلاء على مكة وبعثرة عظام محمد (ظانين خطأً أنه يرقد في مكة!!!) ستكون معماً، كما هو متأمل، للانتصار الفاصل للنصرانية على الإسلام). وآمالهم تعزّزت بدايةً بالاستيلاء على دمياط، ولكنها ذهبت أدراج الرياح بعد ذلك، عندما وقع الصليبيون في الكمين المصري، وفي المفاوضات التي أعقبت ذلك لإطلاق حريتهم، خسروا بذلك كل ما أخذوه أولاً[١٠].

إضافة إلى ذلك (فإن اليكساندر دو بونت، في كتابه: «رومان دي ماهوميت»: أي الرومان منذ عصر محمد) يدّعي أن النبي أباح لكل مسلم الزواج من عشر نساء، وكل امرأة مسلمة بالزواج عشر مرات كذلك، وفي الدراما وقصص الخيال الشعبي، فإن الشرقيين الوثنيين: أي المسلمين، والمغاربة عُبّاد الأصنام جميعاً يقدمون ولاءهم لإله اسمه ماهاون أو ماهاوند، وهو غالباً جزء من هيكل آلهة الشعوب الوثنية، الذي يشتمل أيضاً على أبولين (ملاك أو شيطان الجحيم)، تيرماجنت (امرأة سليطة صاخبة مشاكسة) وأصنام الشياطين الأخرى.

ثم إن الأوروبيين (البيض) فسّروا اسوداد لون المغاربة على أنه علامة ولادية للشرّ. فالأسطورة النصرانية التي تفسر أصول الأجناس، داكني البشرة، بما يشمل مسلمي إفريقيا المغاربة، إنما هي مشتقة من العهد القديم، وهي قصة حام أو سام بن نوح، الذي لُعِن لرؤيته أبيه عارياً. وعندما ظهرت شخصية شكسبير أوثيلو (أو عطيل) النبيل المغربي، على مسرح لندن في القرنين السادس عشر أو السابع عشر، كان في جوهره نمطاً رمزياً لا تصويراً طبيعياً لجنس أثني مخصوص. وعُطيل لم يُصنّف في عرقية واضحة تاريخياً ومعيّنة: ولكنّه كان رمزاً دراميّاً للظلام والخطر المتهدد على طرف المملكة النصرانية، وبشكله المجرد هذا فإن عطيل المغربي قد ارتبط بعدد من المصطلحات ذات الصلة — «مور»: أي مغربيّ، «تركي»، «أوتومايت»: أي عثماني، «شرقي»، «محمدي»، «مصري»، «يهودي»، «هندي» — وكلها صُوّرت ببهتان بالرغم من معارضتها للعقيدة النصرانية وقيمها، وبالنظر بوجه الخصوص إلى أهمية لقب عطيل المغربيّ، وَصَفَ (جـ.ك) هنتر كيف تمّ فهم هذا المصطلح:

«كلمة مغربي (مور لها دلالة عرقية واضحة منذ البداية: معناها الأول في معجم الإنجليزية القديمة هو «محمّدي» التي بذاتها تعني مجرد «كافر»، «غير نصراني»، «بربري». المغاربة (موزر) كانوا كفّاراً أجانب، بالضبط مثل الأتراك: فالكلمة مغربي (مور) كانت مبهمة جداً من ناحية الدراسة الآتية، وغالباً على ما يبدو كانت تعني شيئاً فوق «الأجنبي داكن سحنة البشرة» قليلاً، لكنه ليس مبهماً في كونها ذات علاقة متضادة للمبدأ الأوروبي للنصراني الأبيض المتحضّر».

وهكذا كما رأينا أن الإسلام المصوَّر كشر، وأحياناً يحول جذرياً لعبادة الشياطين ويُعمل مثه وحشاً. في أحيان أخرى، يربط الإسلام بشرّ السحر الأسود، والقوى الخفية، وعبادة الشياطين أو الصنام، ولكن هذه التصوّرات كانت تحدث عادةً في الثقافة الشعبية، أو في المجتمعات ذات الاتصال المحدود أو غير المباشر بالثقافة الإسلامية. وكما رأى (جاك داميكو):

«مشكلة احتواء الإسلام، سياسياً وفكرياً، صارت صعبة بسبب الجوانب التي تُعدُّ فيها الثقافة (الحضارة) الإسلامية متفوّقة بحق... عدوٌّ جذاب وفاعل كالإسلام يجب تصويره على أنه تشويه خطر للكنيسة الحقّة، مهزلة ومحاكاة ساخرة للحضارة، ومحمد فيها هو نبيٌّ كاذب، الجهاد فيها انحراف مارق للحملات الصليبية، وكتابها القرآن مجموعة من الأخطاء والأكاذيب التي تهزأ بالإنجيل»[11].

إن الدراسة الاستشراقية كما يصفها إدوارد سعيد لم تولد بغزو نابوليون لمصر عام ١٧٩٨: لقد بدأت تظهر في العصر الذي كانت العلاقة الأوروبية مع الشرق غير مبنية على السيادة الاستعمارية بعد – وعندما كانت العلاقة علاقة القلق والرعب من جانب الأوروبيين. كما أشار أحد الباحثين الدارسين:

«... اختلاق الصورة المشوّهة للإسلام كانت غالباً ردّة فعل للتفوق الحضاري الثقافي للإسلام، ولا سيّما في الأندلس». إن عقدة النقص عند الغرب النصراني، التي ابتدأت بالصدمة في أثناء فتوحات الخلافة الأولى، قد تجدّدت وتعزّزت بظهور القوة الإسلامية الجديدة، الأتراك العثمانيون الذين أنجزوا عام ١٤٥٣م، ما أخفقت في تحقيقه الجيوش الأموية عام ٦٦٩ وعام ٦٧٤، وهو الاستيلاء على القسطنطينية. وسلسلة الغزوات العثمانية وانتصارات الفتوحات اللاحقة، بما يشمل أثينا عام ١٤٥٩، أوأترانتو عام ١٤٨٠، رودس عام ١٥٢٢، بودابست عام ١٥٣٦، وفي عام ١٥٢٩، عندما اندفع الأتراك مطبقين وكادوا يستولون على فيينا، قبرص عام ١٥٧١، وكريت عام ١٦٦٩. أدى ذلك لما يسمى الفزع التركي.

والمثال المثير للانتباه في التصوير الغربي للحكم الشرقي يمكن رؤيته في الشعر الملحمي لـ جون ميلتون: (الفردوس المفقود) طبعت أولاً عام ١٦٦٧، حيث صُوِّر الغرب على أنه ملائكي: والشرق شيطاني. تصوير ميلتون للشيطان مبني على موقف عدائي سلبي النزعة بأغلبه نحو الثقافة والحضارة الإسلامية، وهذه هي طريقة التفكير المغروسة بعمق عن الشرق التي كانت (وما زالت) سائدة في الغرب. فمثلاً تصوّر ميلتون عن قوة الشيطان وثباته، في كتبه: الأول والثاني يصوّر الشيطان على أنه قائد بطولي يبقى صامداً في مقاومته الملحمية على الرغم من هزائمه وسقوطه. مثّل بذلك النظام العثماني، الذي حافظ على قوّته بالرغم من الهزائم الكبيرة التي مني بها، كمعركة أنقرة (هزيمة بايزيد أمام تيمورلنك) عام ١٤٠٢م، والمعركة البحرية في ليبانتو عام ١٥٧٠، فالشيطان لهكذا يصوّر المسلمين العثمانيين يلملم شتات جيوشه من الشياطين ويوحدهم في جهاد مستمر ليتحدى قوى الخير! ومثل الشيطان، فإن السلطان العثماني كما يُرى على صورة للاستبداد، والزهو، والكبرياء، وهو يقود إمبراطورية الشر في نضال عنيف لقهر المملكة النصرانية ولإطفاء الإيمان الحق[12].

ثم إن صورة القرون الوسطى عن الإسلام قد رسمت بشكل رسم (كارتوني) يصوّر النبي محمداً ﷺ واقفاً على منصة عالية يعبده المسلمون تحت تأثير الشيطان؛ ولكنّ هذا الرسم الكارتوني كان صورة غلاف الكتاب الجيد (الشرقيون – الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى). ثم في عصرنا الحديث وبالحجة الكاذبة لحرية الصحافة قام (كورت وسترغارد) البالغ ٧٣ عاماً وهو مصور (الكاريكاتور) للصحيفة الدانماركية (جيلاندز – بوستن) في ٣٠ أيلول ٢٠٠٥، بنشر ١٢ صورة مرسومة بسخرية عن النبي محمد ﷺ أحدثت زلزالاً عالمياً وضجّة واسعة في العالم الإسلامي، احتجاجاً عليها واستنكاراً لمضمونها. فقامت سورية والمملكة العربية السعودية بسحب

سفرائها من الدانمارك، وقوطعت كل البضائع والأطعمة الدانماركية في أنحاء العالم الإسلامي الـذي عدّ سبب هذه الصور هو العنصرية والخوف من الإسلام. ولم تعتذر الدانمارك رسمياً. ولكن حين أعيد طبع هذه الصور في صحيفة (فرانسوار) في باريس، قام الناشر للصحيفة (ريموند لاكه) بحكمة بطرد المدير المحرر للصحيفة (جاكس ليفرانك) وقال واصفاً قراره: «كرمز قوي لاحترام العقائد والمعتقدات لكل شخص».

وفي استفتاء شعبي في سويسرا تمّ التصويت ضدّ بناء منارة المساجد في أواخر عام ٢٠٠٩، ووزعت ملصقات جدارية تُظهر إمرأة مُنقّبةً وخلفها عدة منارات بشل صواريخ منتصبة على العلم السويسري ذي الصليب الأحمر. هذا بالرغم من جمال المنارة كبناء معماريّ اسلاميّ، وبالرغم من أن سويسرا هي بلد معروف بحريته الديمقراطية. إنّما هو الخوف من انتشار الإسلام: فشبابهم يعزف عن النصرانية، ولا يتزوج، ومن يتزوج منهم يحدّد نسله: في حين أن جالية الإسلام تقبل على الإسلام، ويتزاوجون منذ نعومة أظفارهم، ويتكاثرون ولا يحددون نسلهم. لذلك فإنّ سويسرا تخشى أن تتحول في يوم ما إلى بلد مسلم يحكمه الإسلام.

وهذه الصور الساخرة هي رواسب النظرة المشوّهة عن الإسلام منذ القرون الوسطى.

بل في القرن العشرين قام الكاتب سلمان رشدي بإعادة وتأكيد صورة القرون الوسطى المشوهة عن الإسلام مبنية على جهله وعلى تشويهه المقصود لآيات القرآن. فطبع كتابه (آيات شيطانية) في أيلول ١٩٨٨، الذي حوى تصويراً خالياً من الاحترام للنبي محمد. وبرأي رشدي، فإنّ محمداً (وهو يسميه ماهاوند في كتابه) قد أضاف آيات للقرآن متقبّلاً بها آلهة ثلاثة كانت تعبد في مكة كأشياء ربانية: ولكن محمداً بعد ذلك ألغى هذه الآيات بقوله: إن الشيطان أوحى لي قولها احتراماً لمشاعر مكة (ومن هنا سمى كتابه آيات شيطانية). لكنّ رشدي ادّعى أن هذه الآيات إنما أوحاها جبريل عليه السلام. وكتاب رشدي مُنع في أغلب البلدان ذات الأكثرية المسلمة. والحقيقة أن رشدي قد بنى كتابه كله على رواية موضوعة وقصة كاذبة هي قصة الغرانيق العلى (وهي الطير العوالي إشارة لاستخدامها كأصنام) التي رفضها علماء الإسلام: وهكذا فالكتاب جاء متقمّصاً بالجهل وتشويه الإسلام المقصود.

حتى في القرن الحادي والعشرين، فإن تعليقات (كيلروى – سيلك) التحقيريّة للعرب والمسلمين هي من رواسب صورة العصور الوسطى المشوهة للإسلام والمسلمين. (روبرت كيلروى – سيلك) كان عضو برلمان لحزب العمال في منتصف عام ١٩٨٠م، ثم تركه ليعمل في الوسط الإعلامي بأجر عالٍ (استعراض كيروى – تلفاز BBC1) وكان عرض كيلروى يوميّ منذ عام ١٩٨٦م، حتى ٢٠٠٤، عندما عُلّق استعراضه، ووقّف كيلروى عن العمل للتحقيق معه بعد نشره مقالة عنوانها: (نحن لا ندين للعرب بشيء) نشرت في (صاندى اكسبريس) في ٤ كانون الثاني ٢٠٠٤. وفي مقابلة تلفازية في إذاعة تلفاز BBC (كلام شديد) اتضح أن كيلروى اخطأ باعتقاده أن الإيرانيين هم العرب ثم ربط العرب معتقداً أنهم شعب ذو صلة بالأفغان مما يوضح بجلاء بالنسبة لنقاده – جهله العام بالعرب. وهذه إحدى فقرات مقالته:

«يقال لنا: إن العرب يكرهوننا؟ بسبب تحريرنا العراق؟ ولدعم حياة شعوبهم في مصر والأردن، لنسمي مثالين اثنين فقط، لتمويلهم بكميات هائلة من المساعدات؟ لتزويدهم بالعلم، والطب، والتقنيات، وكل أنواع فوائد الغرب ومعوناته؟ يجب أن يركعوا على ركبهم ويشكروا الرب لكرم الولايات المتحدة الأمريكية. وكيف يظنون بما نشعر به نحوهم؟ أننا نعشقهم للطريقة التي قتلوا فيها أكثر من ٣٠٠٠ مدني في (١١) أيلول. وأننا نرقص في الشوارع الحارة المغبرة للاحتفال بجرائمهم؟ أننا معجبون بهم لجرائم قتلهم بدم بارد في مومباسا، واليمن، وغيرها؟ أننا معجبون بهم لأنهم مفجرون انتحاريون، قطاع أطراف وأعضاء، ومضطهدو النساء؟».

أدّت المقالة إلى استنكار واسع من المجلس الإسلامي البريطاني ومن لجنة المساواة العرقية. وطالبت جريدة (جارديان) بمحاكمته لتحريضه على الأحقاد العرقية، كما اتّهم أنه لا يبدو قادراً على التفريق بين الإرهابيين الذي قاموا بجرائم ١١ أيلول ٢٠٠١، وبين العرب العاديين الذين يشكلون سكاناً يتجاوز الـ٣٠٠ مليون. وقال خبير من جامعة يورك متخصص بشؤون الشرق الأوسط: إن مقالة كيلروي تبدي تحيُّزاً عرقياً خطراً، وإن كيلروي لا يملك معلومات تاريخية تمتد ما وراء ١١ أيلول. فالعالم يبتدئ في ١١ أيلول ٢٠٠١ بالنسبة لكيلروي، ويجب تعليمه أن العالم يبتدئ حقيقة قبل ٣٠٠٠ سنة من ولادة المسيح. إن قرار إذاعة BBC، بإيقاف عرض برنامجه اليومي، ومن ثمّ طرد كيلروي من المؤسسة استحق كل احترام وتقدير من كل البريطانيين المسلمين وغير المسلمين ولا سيّما البريطانيين من أصل عربي؛ لأن (كيلروي سيلك) لم يهن العرب المسلمين وحدهم بهجومه العنصري، بل إنه أهان المؤسسة التي يعمل فيها (BBC)، المعروفة بموضوعيّتها ومهنيّتها التي حازت على شهرة عالميّة بسبب ذلك.

ومما يثير الانتباه والعجب، أن البابا بينيديكت السادس عشر للفاتيكان أعاد وكرر هذه الصورة المشوّهة عن الإسلام، صورة القرون الوسطى في هجومه خفيف الظل ضد الإسلام: الذي جاء في محاضرته الدينية في ١٢ أيلول ٢٠٠٦، للعاملين والطلاب في جامعة ريجينسبرغ، حيث درس علم اللاهوت في السبعينيات (١٩٧٠–١٩٨٠)، وباستخدام كلمات (الجهاد) و(الحرب المقدّسة)، نقل البابا انتقادات النبي محمد عن طريق إمبراطور القرن الرابع عشر البيزنطي النصراني (مانويل الثاني) القائل في أثناء محاورة مع عالم فارسيّ: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمّد، فلا تجد إلاّ الشرّ وغير الإنسانية، كأوامره لنشر العقيدة التي يدعو لها بحدّ السيف»، ثم يستطرد بينيديكت قائلاً: «ويستمر الإمبراطور يشرح بالتفصيل كيف أن نشر العقيدة عبر العنف هو شيء غير معقول»، ثم أضاف البابا قائلاً: «العنف متعارضٌ مع طبيعة الربّ وطبيعة الروح».

وبعد هذا كله، فإن أحد أجداد بنيديكت (أوروبان الثاني) كان هو الذي دعا النصارى للجهاد (الحرب المقدسة) ضد الإسلام. ثم إن النصارى المولودين – ثانية (كما يُسمّون) هم الذين كانوا في مقدمة التأييد لغزو العراق، كذلك احتلال إسرائيل لأراضي فلسطين، والإعادة الكليّة لخريطة الشرق الأوسط – والكوارث التي كان ضحيتها الآلاف العديدة من المسلمين. وبالمناسبة، فإن الإمبراطور مانويل الثاني (١٣٥٠–١٤٢٥)، كان الإمبراطور الثاني قبل الإمبراطور الأخير للإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطيّة). وعندما كان صبياً أسَرهُ الأتراك، وقد كان إرثه ومملكته في خطر من قبل الإمبراطورية العثمانية وكانت عاصمته تحت الحصار.

وبعد (٢٨) عاماً من موته، سقطت القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية للعثمانيين بقيادة السلطان محمدٌ الثاني (محمد الفاتح)، كذلك في العصر الحديث تكلم البابا بينيديكت علناً أن النصرانية هي حجر الزاوية لأوروبا وضدّ ضمّ تركية للمجلس الأوروبي (للسوق المشتركة). وقال: إن على تركية أن تلتمس مستقبلها بصحبة الدول الإسلاميّة، لا الاتحاد الأوروبي ذي الجذور النصرانية. وفي تقرير آخر بالـ (جارديان) يعْطي بصيرةً لتفكير الفاتيكان حول الإسلام، جون هوبر من الـ (جارديان) كتب من روما أن البابا يعتقد أن الكنيسة يجب أن تتخذ خطاً متشدّداً مع الإسلام. ولكن ما يجعل تعليقات البابا من بافاريا (ألمانية) غير حساسة، هو أن ميونخ والمدن المحيطة بها هي مأوى الآلاف من الأتراك، الذين غالباً ما يُعاملون بسوء من قبل الألمان المحليين ويعانون العنصرية بتكرار.

وعكس البابا السابق (جون بول)، فإن (الكاردينال راتزينجر) هذا الذي أصبح يسمى بالبابا بينيديكت السادس عشر بعد انتخابه، لا يوافق على صلوات مشتركة مع المسلمين. وهو أيضاً متشكّك بفائدة حوار الأديان. ماركو بوليتي، خبير الفاتيكان في الصحيفة الإيطالية اليومية (ريبوبليكا) قال: «بالتأكيد، فإنه (البابا) يغلق الباب أمام فكرة كانت عزيزة جداً للبابا جون بول الثاني؛ وهي فكرة أن النصارى واليهود والمسلمين جميعاً ربهم

واحد، ويجب عليهم جميعاً الصلاة لهذا الرب الواحد». وبلا عجب فإن هجوم البابا بينيديكت على الإسلام أدى إلى استنكار شديد في العالم الإسلامي. لذا فإن منظمة المؤتمر الإسلامي بـ٥٧ دولة عضو ذمت تصريح البابا وأبدت أملاً «بأن هذه التعليقات العجيبة ليست جزءاً من حملة جديدة ضد الإسلام بقيادة الفاتيكان، ولا سيّما بعد عقود من الحوار الذي قرّب العلماء في العالم الإسلامي مع وجهات نظر علماء الفاتيكان».

بعد كارثة مركز التجارة العالميّ (في ١١ أيلول ٢٠٠١)، كتب (اليكساندر كوكبرن) في ٧ أيلول ٢٠٠٢، عما يسمى الآن بـ (حملة بوش الصليبية) على الإرهاب التي صارت معروفةً بـ (الحملة الصليبية العاشرة) التي أدت للغزو ولاحتلال أفغانستان والعراق. فإن في ٩ حزيران ٢٠٠٧، قام الرئيس الأمريكي بوش بزيارة البابا بينيديكت السادس عشر في الفاتيكان، (كلا الرجلين كاثوليكي روماني العقيدة!) ربما لتعزيز ما يعرف اليوم بالحملة الصليبية العاشرة.



لذلك يبدو أن أوروبا احتاجت أكثر من ١٢ قرناً حتى تسمّي المسلمين باسمهم الصحيح (المسلمون)، وأن تعدّهم وحدانيين يعبدون إلهاً واحداً (لا وثنيين، كفّار، مشركين)، أو تسميتهم بأصلهم الإثني، مثل: العرب، والترك، والشرقيين. والآن الغرب له قدرة التمييز لتسمية محمد نبي الإسلام (وهو ليس إلهاً يعبد، ولا مهرطقاً مبتدعاً) وأن أتباعه هم المسلمون (وليس المحمديين؛ لأنهم لا يعبدون محمداً بل الله الواحد)؛ وهم يستطيعون النطق باسمه محمد (لا ماهاوند، ولا ماهون مثلاً) وتسمية الأشياء والناس بأسمائهم الصحيحة هو بذاته تقدّم تاريخي عظيم.

في الواقع، أنّ النبيّ محمد ﷺ ومجيء الإسلام بدأ يظهر إيجابياً في كتب الدراسات الأكاديمية والكلاسيكية التي تعدّد أعظم الرجال المؤثرين وأهم الأحداث التي صاغت تاريخ البشرية، مثلاً:

١. **مجيء الإسلام**، صفحة ١٢٤–١٤٠ في:

١٠٠ **حدث عظيم غيّر العالم منذ بابل حتى عصر الفضاء**، لمؤلفه: جون كانينغ، نشرته أودهام بوكس المحدودة، لندن، ١٩٦٥.

٢. **محمد** (٥٧٠–٦٣٢)، صفحة ١٨٥–١٩١ في:

١٠٠ من **عظماء الملوك والملكات وقادة العالم**، لمؤلفه: جون كانينغ، نشرته أودهام بوكس المحدودة، لندن، ١٩٦٧.

٣. رقم ١: **محمد** ٥٧٠–٦٣٢، صفحة ٣٣–٤٠ في:

المئة (١٠٠) **شخصية الأكثر تأثيراً في التاريخ**، لمؤلفه: مايكل هارت، شركة هارت للنشر، نيويورك، ١٩٧٨.

وهنالك العديد من الكتب المؤلفة في القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين عن شخص النبي محمد ﷺ.

إن إعادة تكرار الماضي المظلم السلبي في قرننا الحاضر الحادي والعشرين قد يكون طريقاً خطراً جداً؛ فالتاريخ دائرة، ومن الأفضل دوماً إعادة تكرير الجوانب المشرقة الإيجابية من التاريخ الماضي في حاضرنا وتطبيقها في مستقبلنا. ثم إن الخوف من الإسلام يجب أن يتوقف، ومصطلح (إسلام – فوبيا) يجب أن يصبح من الكلمات المنقرضة باللغة الإنجليزية. إن نصف الكرة الغربيّ هو حقل خصب لفهم الإسلام على نحو أفضل؛ لأن الإسلام هو دين الله منذ خلق آدم؛ وهو المعتقد الحق الواحد من الله الحقّ الواحد، وهو منهاج حياة كامل قرره الصانع لخلقه. والإرهاب يجب تمييزه وعزله عن الإسلام والديانات الأخرى (والحقّ أن هناك متطرفين نصارى، ويهوداً، وهندوساً أكثر كثيراً من المتطرّفين المسلمين). إضافة إلى ذلك، فإن الذين اعتنقوا الإسلام شعروا بالفارق مباشرة، وصاروا أكثر سلاماً مع أنفسهم ومع الآخرين؛ ثم إنهم صاروا مؤمنين أفضل من ذي قبل لأنهم أصبحوا أقرب إلى موسى وأقرب إلى عيسى من ذي قبل، وبمعرفة أن الله هو الواحد الأحد، وكل شيء آخر غيره هو من مخلوقاته.

وعندما تحوّل الغزاة التتار إلى الإسلام، صاروا أكثر إنتاجية ونفعاً؛ وقد استبدلت همجيتهم وتدميرهم للحضارات ببناء حضارة وتوحيد ثقافاتها كما في سلالة المغول في شبه القارة الهندية.

لمّا كان الإسلام هو دين الله الوحيد الحقّ (الصحيح): لذا فليس الإسلام مُلكاً لأحد. وبالرغم من أنّ العرب والمماليك والمغاربة والأتراك حملوا رسالة الإسلام للعالم، لكن الحقيقة تبقى: أن الإسلام ليس حكراً لأحد. بل إنّ الإسلام جاء للبشرية جمعاء، والكلّ معنيٌّ ومُلزم بنشر رسالة الله لربوع العالم.

وما زالت هناك تقارير حول اعتناق نابليون بونابرت للإسلام بعد الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، عندما أصبح قريباً من علماء الإسلام وفي احتكاك مباشر مع المجتمع المسلم. فقد قيل: إن نابوليون بونابرت قال في كريستيان شيرفيل، بونابرت والإسلام طبعة بيدون، باريس، فرنسا ١٩١٤ صفحة ١٠٥، ١٢٥:

«أرجو أن يكون الوقت غير بعيد عندما أستطيع أن أوحد جميع الحكماء والرجال المتعلمين من كل الدول لأقيم نظاماً موحداً مبنياً على مبادئ القرآن التي هي وحدها الصحيحة الحقة وهي وحدها الكفيلة بقيادة البشرية للسعادة[٤٢]».

ولكن نابوليون ارتحل من مصر (تاركاً وراءه جيشه) قبل أن يكتمل إيمانه تماماً وقبل أن يتجسّد معتقده على نحو مادي محسوس.

إن تاريخ الهجرة الحديثة أو الرحيل الجماعي للمسلمين من بلادهم إلى نصف الكرة الغربي، ولا سيّما إلى المملكة المتحدة (بريطانيا وإيرلندة الشمالية) والولايات المتحدة الأمريكية، أدت إلى حوار أفضل وإلى فهم للإسلام أحسن. والحقيقة إن إحدى مجلات لندن الأسبوعية (تايم آوت) في عددها بتاريخ ٦-١٢ حزيران ٢٠٠٧، نشرت مقالاً متّزناً بعنوان (**هل مستقبل لندن إسلامي؟**) وبناءً على مقابلة مع قطاعات مختلفة من الأهالي اللندنيين)، وثّقوا الفوائد الكثيرة التي يستطيع الإسلام جلبها لمدينة لندن، فمثلاً إن منع الكحول يؤدي إلى تجنب ٢٢٠٠٠ وفاة مع توفير ٧.٣ بليون إسترليني من جرائم الكحول كل سنة.

انتقد سمو الأمير شارلس، أمير ويلز وولي العهد في المملكة المتحدة، وراعي مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، بشدة الخوف من الإسلام (إسلام – فوبيا) وألقى ثلاث محاضرات مُلهمة عن الإسلام، بعنوان:

١. (**الإسلام والغرب**) ألقاها في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٣.

٢. (**تحسّس القدسية: بناء جسور بين الإسلام والغرب**) ألقاها في ويلتون بارك، معهد إنجلترا المحترم لدراسة الشؤون العالمية، في ١٣ كانون أول ١٩٩٦.

٣. (**وحدة العقيدة**) ألقاها في جامعة الأزهر في مصر في ٢١ آذار ٢٠٠٦.

وفي محاضرته في أكسفورد ابتدأ الأمير شارلس بقوله: إنه يتكلم من قلبه (واستشهد بالمثل العربي: ما يخرج من اللسان لا يتجاوز الآذان، وما يخرج من القلب يستقر في الجنان – أي القلب)، ثم قال فيها: (هناك أيضاً جهلٌ مُدقع حول ما تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي. إنّه فشلٌ ناشئٌ، فيما أعتقد، من سترة السجّان المساجين (لتقييده ومنعه من الحركة) التي كبّلت التاريخ الذي ورثناه. إنّ عالم الإسلام في القرون الوسطى، الممتد من آسيا الوسطى حتى سواحل الأطلسي، كان عالماً يعجّ ويترعرع فيه العلماء ورجال الفكر.

إنّ إسهامات إسبانية المسلمة (الأندلس) في المحافظة على العلوم لاسيما الكلاسيكية في أثناء عصور الظلام (الأوروبية)، وفي تثبيتها أول أزهار النهضة (الأوروبية)، قد أدركت وعُرف قدرُها. لقد غذّى الإسلامُ طلبَ العلم

وحافظ عليه. كما ورد في المقولة التقليدية: "مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء". لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر مدن أوروبا حضارةً. ويقال: إنّ مكتبة أميرها كانت تحوي ٤٠٠٠٠٠ كتاباً؛ أكثر مما حوته جميع مكتبات أوروبا من الكتب مجتمعةً.

وكان ذلك مُمكناً لأنّ العالم الإسلامي أخذ من الصين مهارة صناعة الورق ووظّفها قبل أوروبا غير المسلمة كلها بـ ٤٠٠ سنة. إنّ كثيراً من العلوم والمزايا التي تتبجح بها أوروبا الحديثة قد جاءت لها من إسبانية المسلمة. فالدبلوماسية، والتجارة الحُرّة، والحدود المفتوحة، وطرائق البحث الأكاديمي (العلمي)، وعلوم الجنس البشري، والأتيكيت (الآداب)، وعروض الأزياء، ومختلف فروع الطبّ، والمستشفيات، كلها جاءت من هذه المدينة العظيمة: مدينة المُدُن.

كان الإسلام في العصور الوسطى دين التسامح الأعظم في زمانه، مما سمح لليهود والنصارى حريّة ممارسة معتقداتهم الدينية، وكان بذلك نموذجاً فريداً في الغرب ولعدة قرون، ولم يحذو حذوه أحد (من أوروبا)، ويا للأسف.

إنّ الإسلام هو جزءٌ من ماضينا وحاضرنا، وفي كل مناحي الحياة. فهو الذي ساعد على قيام أوروبا الحديثة. إنّه جزء لا يتجزأ من تراثنا — نحن — الخاص بنا.

وأكثر من ذلك أنّ الإسلام يستطيع اليوم تعليمنا طريقة الفهم والعيش في العالم، لأن النصرانية نفسها قد خسرت، فهي مفتقرة إلى ذلك. إنّ الحفاظ على النظرة المتوازنة للكون هي من صميم الإسلام، ولكن الغرب قد فقدَ هذه النظرة المتوازنة للعالم تدريجياً مع كوبيرنيكوس وديسكارت ومجيء الثورة العلمية. فما عادت الفلسفة الشاملة للطبيعة تكوّن جزءاً من معتقداتنا اليومية. هذا التحسس المهم للنظرة الشمولية الموحّدة وللائتمان على الجوانب المقدسة والروحية للعالم من حولنا هو بالتأكيد شيء جوهري يجب علينا تعلمه ثانيةً من الإسلام. كلّ منا يجب عليه أن يفهم أهمية التوفيق، والتفكير — أي التدبّر (ذكرها حرفيّاً من العربية) هي الكلمة، كما أعتقد — لكي نفتح عقولنا وقلوبنا (المنغلقة) لبعضنا بعضاً. وأنا على يقين من أنّ عالمي الإسلام والغرب يملكان كثيراً ليتعلّم أحدهما من الآخر. فكما أنّ مهندس النفط في الخليج قد يكون أوروبياً، كذلك جرّاح زراعة القلوب في بريطانيا قد يكون مصريّاً (إشارة إلى الجرّاح المصري مجدي يعقوب).

وفي محاضرته (تحسّس القدسية: بناء جسور بين الإسلام والغرب) التي ألقاها في ويلتون بارك قال: (إنّ المادية الحديثة، في رأيي المتواضع، غير متوازنة وذات أضرار كبيرة في عواقبها الطويلة الأمد. لقد صار الدين والعلم منفصلين، إلى درجة أن وليم وردزورث قال: (إنّ قليلاً مما نراه في الطبيعة صار يمتّ لنا بصلة). لقد حاول العلم سلب العالم الطبيعي من الله، مما أدّى إلى تجزئة الكون وتنحية وعزل كل ما هو مقدس في حُجيرة ثانوية منفردة في فهمنا، ومنفصلة عن حياتنا ووجودنا العمليّ اليومي.

وفي رأيي، أننا نحتاج إلى نظرة أكثر شمولية في عالمنا المعاصر. لقد أدّى العلمُ خدمة لا تُقدّر ليُرينا عالماً شديد التعقيد أكثر مما تصورناه. لكنه في نظرته المادية الحديثة والأحادية الجانب، لا يستطيع تفسير كلّ شيء. فليس الله مجرد عالم رياضيات نيوتنيّ أعظم، ولا هو صانع الساعات الميكانيكي وحسب...وبازدياد انفصال العلم والتقنيات عن الجوانب الخُلُقية والأدبية والمقدسة، كذلك صارت عواقب هذا الانفصال أكثر عتامة ورعباً — كما نراه مثلاً في التلاعب بالجينات...

بعض العلماء بدأ يدرك ببطء تعقيد الروعة المستلهمة وسرّ هذا الكون. ولكن تبقى هناك حاجة إلى إعادة استكشاف الجسر بين ما أدركته معتقدات العالم العظيمة حول هذين العالمين: الداخلي والخارجي، أي من نُحسّه فيزيائياً مع طبيعتنا الروحيّة. ذلك الجسر هو التعبير عن إنسانيّتنا.

والنظرة الغربية هذه مُختلفة، مثلاً، عن نظرة ربّ المهن المسلم أو الفنان، الذي لا يعنيه حب الظهور من أجل الظهور، ولا التطور للإبداع المجرد، لكنه يظهره بقناعة حبّ إخضاع صنعته الإنسانية لله. وهذه النظرة توضح، على ما أعتقد، عبارة القرآن التي لا تنسى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

إنّ إعادة اكتشاف هذه النظرة الشمولية المتداخلة لما هو مقدس، تستطيع أيضاً أن تساعدنا في حقول الفعاليات العملية المهمة:

١. في الطب، بالرغم مما يقوله بعض العلماء، فإنّ تمزّق العلاقة بين الدين والعلم، بين العالم المادي وبين تحسس المقدس، غالباً ما أدى إلى طريقة التقوقع في العلاج الصحي، وإلى فشله في فهم شمولية وجلاء الخفيّ في عملية الشفاء. فالمستشفيات يجب أن تُصوّر، بل وتُصمم قبل كل شيء لتظهر شمولية العلاج إذا كانت تريد أن تساعد المريض في عملية النقاهة على أكمل وجه..

٢. إنّ بيئتنا قد عانت ما هو أسوأ من الكوابيس، جزئياً بسبب النظرة الأحادية للتطور الاقتصادي، الذي ما زال حتى عصر حديث يفشل، ليأخذ في حسبانه العلاقة المتداخلة بين الخلق. إنّ القليل من التفكير قد أُعطيَ لأهمية إيجاد توازن مستقر ضمن صميم الطبيعة وفهم الضرورة الحيوية لوضع واحترام الحدود. وهذا، مثلاً، يعلل لماذا أنّ حماية البيئة هو شأن حديث نسبياً؛ ولماذا الزراعة العضوية والمستمرة للحقول ضرورية جداً إذا أردنا استخدام الأرض بطريقة تحمي قدرتها لتغذية أجيال المستقبل.

٣. وحقلٌ آخر كان له عواقب درامية وخيمة عليه لانفصال المادة عن الروحانية، وهو حقل فن العمارة. إني أعتقد أنّ لهذا الانفصال وقع في صميم فشل كثير من فن العمارة الحديثة في فهم الميزة الروحية الحقيقية والقواعد التقليدية التي تظهر انسجام الكون، الذي جاء منه البناء الذي ترتاح له النفوس وتحبّ أن تعيش في أكنافه. لهذا السبب فإني كوّنتُ (معهدي في فن العمارة). كتب تيتوس بوخارد: «إنها طبيعة الفنّ أن تستبشر بالروح، ولكن ليس كلّ فنّ يمتلك أفقاً روحياً». ونحن نرى الروحانية في فن العمارة النصرانية التقليدية. ثم إنها تنعشنا بالطراز الهندسي المتجانس والزخارف العربية للفن الإسلامي وفن العمارة، التي تمثل أقصى مظاهر الوحدانية الإلهية، وهي بدورها رسالة مركزية في القرآن. فالنبيّ محمّد نفسه كما ورد عنه قال: «إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال». أنظر للتخطيط المدني. فالمؤرخ العظيم ابن خلدون، فهمَ العلاقة الوثيقة بين حياة المدينة والسكينة الروحية على أنها أساس جوهري للحضارة. فهلا نستطيع الرجوع ثانية إلى هذا الانسجام في مدننا؟ وعندما تفسد الحضارات، تفسد فنوننا أيضاً، هكذا كتب ابن خلدون ذلك أيضاً.

هناك حاجة كامنة إلى إقامة روابط جديدة ومفيدة بين الحضارة الإسلامية والغرب. ربما نستطيع مثلاً أن نبدأ بتوظيف كثير من المدرّسين (المربّين) المسلمين في المدارس البريطانية، أو نقوم بتبادل المدرّسين. في كل مكان في العالم، على ما يبدو، يودّ الناس تعلّم الإنجليزية. ولكننا في الغرب، نحتاج بدورنا إلى المدرّسين المسلمين لكي يعلمونا ثانية كيف نستطيع التعلّم بقلوبنا كما نتعلّم برؤوسنا).

[on-line: http://www.fco.gov.uk ; Prince Charles Speech;
www.princeofwales.gov.uk/speechesandarticles/a_speech_by_hrh_the_prince_of_wales_titled_islam_and_the_wes_425873846.html]

وكثيرٌ من المسلمين يعتقدون أنه إذا كانت بريطانيا أو أمريكا حريصة على قيادة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بأسره بكل موارده، فلهم أن يتبنّوا الإسلام بصدق ويطبّقوه في حياتهم، وبذلك سيُرحّب بقيادتهم العالم الإسلامي كله، ومستقبل العالم سيزدهر للجميع، بالتشارك والتكافل، لا عن طريق ديمقراطيات زائفة، ومعايير

مزدوجة، والسيطرة على الأسواق، واحتلال العراق وافغانستان وفلسطين: الذي ما جلب إلاّ الدمار والضحايا البشرية لكل الأطراف.

وكأن قاعدة الاستعمار القديمة: «فرّقْ تسُدْ» قد استعيض عنها بالسياسة الجديدة: «**الفوضى الخلاّقة**».

إذا تبنّت بريطانيا وأوروبا عموماً الإسلام أو لو تبنّته أمريكا الآن وبصدق، فإنهم يستطيعون قيادة العالم بوسطية الإسلام الأصيلة قاضين بذلك على التطرّف العنيف: مما سيوصل العالم إلى أعظم سلام واتحاد وازدهار.

ولعل الوقت قد حان للدراسة المستفيضة للقرآن الكريم: في ترجمة إنجليزية موثّقة مع الأصل العربي: (أي طبعة مجمع الملك فهد) مع صحيح البخاري ومسلم (المجلّدان اللذان يحويان الأحاديث الصحيحة لأقوال وسيرة النبي محمد ﷺ) كمراجع تدريسيّه مُقررة في أقسام القانون، والفلسفة، واللاهوت والأديان المقارنة في جامعات لندن وأكسفورد وكامبردج: لفهم الإسلام مباشرةً من منبعه الأصيل (دون طرفٍ دخيل).

لقد نُقل عن العالم المصري (محمد عبده) في أوائل القرن العشرين أنه قال: (أوروبا «ويعني الغرب» إسلامٌ ولا مسلمين، لكن الشرق مسلمون ولا إسلام) مشيراً إلى العدل والمساواة والقيم الإنسانية العظيمة الأخرى السائدة الآن في الغرب (التي تماثل الإسلام في شكله الأصيل)، بينما كان يذمّ الجور والفساد السائد في الشرق آنذاك.

وبعد ذلك كله، ولعله من المثير للذكر هنالك أن ننقل ثلاثة أقوال للسير جورج برناردشو[٢] في الإسلام الحقيقي المجلد الأول عدد ٨، ١٩٣٦:

- «لقد كنت دوماً أكنُّ لدين محمدٍ كل تقدير بسبب حيويته المدهشة. فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أنه يمتلك قدرة اتساع لاستيعاب أطوار الحياة المتغيّرة مما يجعله جذاباً لكلّ الأعمار. لقد درستُ إنه إنسانٌ رائع (عن محمد) وفي رأيي هو بعيدٌ كل البعد عن كونه عدو المسيح (أعداء الإسلام يسمّون محمداً بالمسيح الدجّال حاشا نبي الهدى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، بل الواجب تسميته منقذ البشرية»
- «أنا أؤمن أنه لو تزعم رجلٌ مثله (محمد) العالم الحديث فإنه سينجح في حلِّ مشكلاته على نحوٍ يجب ما نحتاجه من السلام والسعادة، إنني أتنبأ أن دين محمد سيكون مقبولاً من أوروبا الغد كما هي بداية قبوله لأوروبا اليوم».
- «إن كان هناك دينٌ له إمكانية حكم إنجلترا؛ لا بل أوروبا في أثناء مئة السنة القادمة، فلعلّه الإسلام».

التراث الإسلاميّ وتأثيره في أوروبا:[(١) (٤) (١٥) (٥ ب)]

تركت الحملات الصليبية آثاراً عميقة لكنها محدودة على العالم الإسلاميّ، بحيث كانت المصطلحات المتعلقة بـ«الفرنجة» تتكافأ مع «الصليبيين»، ويُنظرُ إليها بازدراء. ورأى المسلمون فيها نصارى أوروبا كغزاة للسّلب والنّهب والطمع، الذين يجب إخراجُهم بأي ثمنٍ ممكن: إنّ فكرة البابا أنها حربٌ للتحرير قد أدّت إلى مثل ما تؤدي إليه كلّ الحروب، نزاعات وحشية بغيضة طويلة المدى، ازدادت سوءاً بالكراهية الدينية واجشع وجنون المثالية. حتى الآن يرى العرب والمسلمون التدخل الغربي في الشرق الأوسط (حرباً صليبية): لقد عَدَّ المسلمون الحملات الصليبية انقضاضاً وحشيّاً همجياً قاسياً (لا مسوّغ له) من قبل نصارى أوروبا.

والعكس من ذلك، ففي أثناء الحملات الصليبية لم يمنع المسلمون النصارى من الأراضي المقدسة أبداً بل دعوهم للمجيء على نحوٍ مُسالم للزيارة والحجّ.

وبالفعل فقد جاؤوا ليس إلى فلسطين في الشرق فحسب، بل إلى إسبانية في الجنوب، حيث فتح لهم المسلمون الأبواب إلى عالم المعارف العلميّة والحضارة والمدنية.

وهنا قام المسلمون بحفظ التراث والثقافة الماديّه وأفضل ما في الحضارة اليونانية – الرومانية من الضياع ولم يروا أن هناك تناقضاً بين عقيدتهم الدينية والتراث الماديّ الإغريقي – الرومانيّ. وفي الواقع فإن الإسلام قد استحثّ أتباعه على طلب العلم. قال النبيّ محمد ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمة**». لذلك كان هذا الاحتكاك (مع المسلمين) هو تجربة لفتح عيون الغربيين.

ولم يأتِ الاحتكاك بالشرق المسلم بالثراء الماديّ من البضائع فحسب، ولكنه جلب ثروة فكرية جديدة. إن احتكاك الغرب بالشرق هذا كان قد استمر بما فيه الكفاية لإخراج الغرب من عُزلته الحضارية والعودة للاتصال بالحضارة القديمة التي كانت قد استمرت بوجه أو بآخر في الشرق. وفي المدة تلك من الزمان، استُبدل السّلب والنهب بالتجارة، والحملات العسكرية بزيارات الغربيين إلى مراكز العلم في الشرق الإسلامي (الذي يشمل إسبانية بصورة رئيسة). إنه هنا بين ظهرانيّ المسلمين حيث قام الغربيون بإعادة اكتشاف تراثهم الأوروبي الضائع (ولا سيّما التراث (الوثني) القديم لليونان والرومان). وبعكس الأثر السلبي للبابوية في أوروبا فإن الشرق الإسلامي قد أثر تأثيراً إيجابياً في أوروبا، ونتج عن ذلك ثلاث ظواهر أساسية هي:

أ. التفكير العلمي الحرّ والحركة الفكرية السكولاستية

ب. الإصلاحات البروتستانتية

ج. عصر النهضة الأوروبية

أ. التفكير العلمي الحرّ والحركة الفكرية السكولاستية:

في نحو منتصف القرن الثاني عشر، كان هناك كما يبدو روحٌ جديدة من الطاقات المتدفقة تجري في المجتمع الأوروبي. وكانت هذه مرحلةً من النمو السّريع في المعارف الأوروبية (وهذه الروح الجديدة من التفكير الحر أثارت مخاوف الكنيسة إلى حدٍّ ما). وسرعان ما أدّى هذا التعطش للمعرفة إلى دفع بعض المعلمين إلى التعمق أكثر في التقصّي الفكري والتساؤل العقلاني. ولما أعاد مسلمو الشرق كتب أرسطو القديمة إلى الظهور في أوروبا، بدأ العلماء والباحثون في التجمع والالتقاء في (جامعات) جديدة متنامية ظهرت إلى حيز الوجود من المدارس الكنسية الكاتدرائية. هنا أصبحت دراسة المنطق والعلوم دراسة دقيقة صارمة. كان العلماء أمثال توماس الإكويني يجتمعون في هذه الجامعات لتعرُّف الأعمال الكاملة لكتب أرسطو وأفلاطون، وغير ذلك من المؤلفات (الوثنيّة) ما قبل ظهور المسيح (عليه السلام). وبالتدريج بدأت بصيرتهم في الحياة تتوسع وإدراكهم يتوسع وذلك عبر الدراسة الصارمة لعلوم المنطق والرياضيات والقانون والطبّ والفلك. كل هذا انتظم أخيراً ليصبح حركةً فكرية تعرف بـ (السكولاستية) أي العقلانية.

إن علماء أوروبا في العصور الوسطى المتأثرين على نحو مباشر أو غير مباشر بمؤلفات العلماء المسلمين عدد كبير قد يشكلون قائمة لا تكاد تنتهي. وعلى سبيل المثال لا الحصر فهذه بعض الأسماء المشهورة:

١. أديلارد من باث.
٢. بيتر أبيلارد.
٣. روبرت غروسيتيست.
٤. ألكساندر من هيلز.
٥. ألبيرتوس ماجنَس.
٦. القديس توماس الأكوينيّ.
٧. القديس بونا فينتورا.
٨. دونس سكوتوس.
٩. روجير بيكون.
١٠. مارسيليوس من بادوا.
١١. ريشارد من ميدلتون.
١٢. نيكولاس أوريزم.
١٣. جوانيس بوريدانوس.
١٤. سايغر من برابانت.
١٥. جون بيكام.
١٦. هنري من غانت.
١٧. وليم من أوكام.
١٨. والتر برلي.
١٩. وليام من أوفيرن.
٢٠. دانتي الغيري.
٢١. بليز باسكال.

وعديدٌ آخرون. ويذكر أديلارد من باث الإنجليزيّ المشهور الذي عاش في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، يذكر في كثير من الأحيان فضل العرب عليه، فقال: (لقد تعلمت على أيدي العلماء العرب [كما يقول هو]... لقد علّمني أساتذتي العرب – أن أُقاد بالسببية [العقل] وحده لا غير، بينما علموّكم اتّباع قيود صورة الاستعباد [الأعمى] للسلطة القديمة [أي سلطة الكنيسة]). [تينا ستيفل الثورة الفكرية في أوروبا القرن الثاني عشر. مطبعة سانت مارتن نيويورك. صفحة ٨٠، ٧١].

لقد قيل: إن استقلالية فرسان الهيكل (انظر أدناه) جلبوا معهم بضاعة أخرى نادرة الوجود في أوروبا العصور الوسطى – **حرية الفكر**: إنهم كانوا وسيلة للغرب في جلب تقنيّات العرب المتقدمة في المسح (الجغرافي والأرضي)، والطبّ، والعمارة، وفن البناء. أن تفتّح الذهن لفرسان الهيكل كان فريداً بحق في المجتمع الأوروبي مدة (١٥٠) سنة أخرى حتى بداية عصر النهضة في أواسط القرن الرابع عشر. وفي (ما وراء البحر) كما كانت تسمى فلسطين، فإنهم (فرسان الهيكل) تبنوا عادات كثيرة من أعدائهم السابقين (العرب المسلمين). وبعض قادة الفرسان تكلموا العربية بطلاقة (غالباً ما تعلموها في أثناء مدة أسرهم) والعديد منهم استوظفوا (سكرتارية) أمناء عرب. ونتيجة لذلك فقد نهلوا من معارف هذه الثقافة الأجنبية، حيث معارفهم (معارف المسلمين العرب) في شتى الحقول كانت متقدمة جداً على مناوئيهم النصارى.

إن مراكز العرب التعليمية آنذاك كانت مستودعات ممتلئة بالحكمة، ومكتباتهم عامرة بالكثير من المخطوطات اليونانية (الإغريقية) والمصرية القديمة، التي افتقدها الغرب: المراجع الطبية كمجموعة جالينوس الكاملة، والأقوال المأثورة لأبقراط، وكتب الفلك، والفيزياء، والرياضيات. وهذه النفائس كانت قد 'نمحت' في العالم النصراني في أثناء تدمير الكنيسة المتطرف الأعمى لكتب الهرطقة. وكان نمو قوة فرسان الهيكل واستقلالهم الفعلي قد سمح بفحص مصادر التعليم الجديدة هذه دون الخوف الدائم من التدخل الكنسي الديني دون تهديد الدولة. وهذه الرغبة لقبول الأفكار الجديدة والمفاهيم الحديثة (آنذاك) جلبت فوائد عظيمة (للغرب)[٩].

ب. الإصلاحات البروتستانتية:[١٠]

(أي إصلاحات المعترضين على الكنيسة الذين هددت الكنيسة البابوية بقتلهم بتهمة الهرطقة والابتداع الديني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر).

إن احتكاك الغرب بالمسلمين قد بيّن لهم صدق وبساطة الرسالة الإسلامية، الداعية إلى التمسك بكتاب الله سبحانه وتعالى (القرآن الكريم) والإيمان بوحدانيته وعدم الشرك به أو عبادة الأصنام (أيد البروتستانتيون الالتزام الأكثر صرامة بالكتاب المقدس، وعدُّوا عبادة السيدة مريم العذراء والقديسين نوعاً من الشرك)، وإن الناس سواسية أمام الله سبحانه تعالى؛ وحرم الإسلام الرّبا والضرائب الفاحشة التي تستعبد الناس، وكذلك فإن الإسلام عدَّ تحرير العبيد و(فك الرقاب) عبادة وتقرباً إلى الله يثاب عليها المسلم، وكل مسلم هو على اتصال مباشر مع الله سبحانه لطلب المغفرة من الذنوب بلا وسيط (أو الحاجة لطلب صكوك الغفران – من الكنيسة كما يفعل الكاثوليك).

وكل مسلم له الحق في استعمال القرآن الكريم على نحو مباشر (كلام الله سبحانه). وبلغته العربية. كذلك لا توجد رهبانية أو عزوبية: (امتناع عن الزواج) في الإسلام وهكذا كانت سنوات القرن الثاني عشر الميلادي مُتزامنة مع صحوة بروتستانتية بين الناس، وكان موضوعها الغالب هو إصلاح الفساد في مؤسسة الكنيسة، الذي أدّى بدوره إدانة البابوية والتمرد على الكنيسة وإحراج روما حول أغلاطها العقَديّة. واتهمت البابوية كل الحركات

الإصلاحية وكل المصلحين بـ الهرطقة ووصفهم بالهراطقة (أي أصحاب البدع والمنشقين عن العقيدة). بعض المصلحين (أمثال كالفن وكذلك لوثر) قد هُدّدَ ووُسِمَ أنه محمد أوروبا!!! ومع هزيمة الأسطول البحري الإسباني (الأرمادا) عام ١٥٨٨ م، بدأ نفوذ الإمبراطورية الإسبانية الكاثوليكية بالهبوط، ونفوذ الإمبراطورية البريطانية البروتستانتية بالصعود.

وإحدى الحركات الأساسية التي تأثرت بالإسلام (التي جاءت من الشرق في أثناء الحروب الصليبية)، كانت: **حركة الكاثارز** (كاثارز مفردها كاثار من العربية أطهار، وهي أيضاً مشتقة من كلمة كاثاروس اليونانية بمعنى الطاهر النقي)، وعرفوا أيضاً بالـ ألبيجنسياتز (ألبي جنسياتز) نسبةً لمدينة ألبي جنوب فرنسا حيث كان الكثير منهم هناك (وكذلك في شمال إيطالية وألمانية).

احتوت حركة الكاثارز عناصر دينية مختلفة: فهناك دليل على العلاقة القوية بين حركة الكاثارز وجماعات الصوفيّة المسلمة، وطائفة القبالا اليهودية. إن كلمة صوفي جاءت من كلمة صفا العربية، وتعني صافياً كالسماء الصافية الزرقاء. وقد صح إن كاثارز القرن الثالث عشر كانوا يرتدون أردية زرقاء، ثم إن الكاثارز الجدد يفضلون هذا اللون أيضاً. وكان الكاثارز على علاقة قريبة بالـ ترابادور (من العربية طرب، ودور أي المغنون المتجوّلون) وهم كتّاب الشعر العاطفي. وكان الرأي أن الكاثارز كانوا يعتقدون أن الله تتجلى قدرته عبر الألوان والأصوات في الطبيعة. وكان الكاثارز يعدّون في نظر المناوئين ثنويين يعتقدون بوجود إلهين اثنين: إله الخير والكمال الذي خلق السموات والأرواح، وإله الشر الذي تنسب إليه الأشياء المادية الدنيوية الزائلة. وكانوا يمجّدون عيسى عليه السلام، بوصفه مخلوقاً عظيماً ولا يعدّونه في منزلة ابن الأب (الرب). كان الكاثارز نموذجاً يقتدى به في تقواهم وإحسانهم وطريقة حياتهم، على نقيض واضح وعلى عكس قساوة النصارى العاميين؛ بل كان الكاثارز محبوبين جداً في مجتمعاتهم. والحقيقة أنهم كانوا محبوبين يدافع عنهم كل من الطبقة العليا من المجتمع، حتى جيرانهم الكاثوليك: إلى الحد الذي جعل الكثير من الكاثوليك يضحون بحياتهم من أجلهم، ورفضوا تسليمهم إلى الكنيسة عندما هاجمتهم الكنيسة الكاثوليكية من بعد (بحُجّة أنّ الكاثارز دنّسوا الصليب، وانتهكوا الحرمات المقدسة، وأكلوا لحوم البشر، وانغمسوا في اللهو والعربدة، وتبرؤوا من المسيح).

وفي جنوب فرنسا فلعل الكاثارز قد أصبحوا أغلبية السكان. ومع هذا فإن أغلب أتباع الكاثارز ظلوا نصارى طيبين محافظين على التزامهم بالعبادة النصرانية المعتادة. إن وحشية الهجوم الذي استمر (٢٠) عاماً قد شتت مدينة لاغيدوك مُخلّفاً ما بين ستين ألفاً إلى مئة ألف قتيل. وحين سألوا القائد أرنود ممثل البابا: كيف يستطيع أن يميز بين الكاثوليك وبين الكاثارز، فأجاب: (اقتلوهم جميعاً: لأنّ الرّب سوف يعرف أتباعه). ولم يُبقوا على أحد منهم، حتى أبادوا الأطفال[٥٥]. إن حملة الثلاثين عاماً على الـ (ألبيجنسياتز) أدت إلى حقبة من القمع والاضطهاد الشنيع استمرت خمس مئة عام، وكانت أسطورة على مدى لم يسبق له مثيل في تاريخ الغرب[٥٦].

ومن الهرطقات الأخرى في ذلك الزمن كانت **هرطقة الفالدينسيين (أو الولدويين)** إلى مؤسسها فالديز أحد أثرياء تجار مدينة ليونز، الذي قام عام ١١٧٥م، بالتخلي عن ثروته ليصبح داعياً متجولاً مبشراً بالإنجيل. كان يقول: إن الكتاب المقدس لا غير يجب أن يكون أساس العقيدة، وإن كل شيء لا إثبات له في الكتاب المقدس يجب أن يرفض، لهذا فإنه كان يشجع على الفقر الحقيقي، والتبشير الشعبي، والتفسير الحرفي للكتب المقدسة، وكان يرفض صكوك الغفران (الذي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية)، ومفهوم المَطْهر (موطنٌ تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل)، ومفهوم الاستحالة (استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه). وبالرغم من أنه استطاع استقطاب المؤيدين (الذين يسمونهم — فقراء ليونز)، لكنه جَلَبَ معارضة الأسقف المحلي؛

لأنه كان يعظُ الناس (كان الوعظُ مقتصراً على رجال الدين فقط)؛ وأما طلبهم الاعتراف بهم من روما عام ١١٧٩ فقد قوبل بالرفض والحرمان من حقوق عضوية الكنيسة عام ١١٨٤م. (هم والكتارز أيضاً). لكن في القرن الثالث عشر بدأ البابا إنوسنت الثالث بالاهتمام جدياً بالقضاء على هذه الهرطقات (الفالدينسيين والكاثارز). في فرنسا أعلنت حملة أليبجنسيان الصليبية ضد الكاثارز عام ١٢٠٩، من قبل البابا إنوسنت الثالث، واغتنم هذه الفرصة بارونات (نبلاء) الشمال الفرنسي لغزو الجنوب الفرنسي للاستيلاء على أراضٍ جديدة.

ونتيجة لذلك، في العشرين سنة التي لحقت، أصبحت مُدُن الجنوب الفرنسي والريف مُهملة وثقافتها مُحطّمة وفي عام ١٢٤٣م، سقط آخر معقل للكاثارز في جنوب فرنسا ودُمِّر. كان الكاثارز والفالدينسيون (الولدويون) ضحايا الحروب الصليبية التي لا ترحم ومحاكم التفتيش التي لا تلين.

فُرسان الهيكل (أو المعبد): ومن سخرية القدر أن كان فُرسان الهيكل أشهر ضحايا محاكم التفتيش البابوية وأحسن مثال على تلاعب محاكم التفتيش للأغراض الشخصية والسياسيّة. لقد أنشئت جماعة فرسان الهيكل عام ١١١٩م، على افتراض أنها سوف تقوم بمهمة حماية طريق الحجّ إلى الأراضي المُقدّسة. وبمرور الزمن أصبح لهؤلاء الرّهبان المحاربين دور أساسي في الحروب الصليبية (أحد المصادر قدّر عدد فُرسان الهيكل الذين قُتلوا في الحروب الصليبية بأكثر من عشرين ألفاً (٢٠،٠٠٠). وقد عُرِف عن هؤلاء الفُرسان أنهم مسؤولون أمام البابا مُباشرة وليس أمام أيّ سُلطة محليّة كنسيّة. وبعد حين من الزمان أسس هؤلاء الفرسان مكاتب إدارية (دُعيت) هياكل أو معابد ومفردُها هيكل أو معبد) في أنحاء العالم النصراني الغربي كافة. ولقد كانوا من المبتكرين دوماً، فقد أوجدوا ما يعدّه الكثير أوّل نظام مصرفي (بنكيّ أو بنكنوتي) في أوروبا، وكان تورّطهم بوصفهم صيارفة أو أصحاب مصارف هو الذي أدّى في النهاية إلى سُقوطهم.

وفي بداية القرن الرابع عشر، كان ملكُ فرنسا فيليب الرابع غارقاً في الديون لهيكل باريس، والحقيقة أن فرسان الهيكل أصبحوا مُكافئ العصور الوسطى لما يُعد اليوم بنوكاً عالميّة. فإن لويس السابع (ملك فرنسا) استدان من فرسان الهيكل لتموين الحملة الصليبية الثانية، وفي القرن الثالث عشر أعطى الفرسان قروضاً أنتظم لملوك الأراغون. ومُعدلات فائدتهم ١٠٪ في السنة كانت أقلّ من مُعدلات البنوك الأوروبية ٢٠٪ تحت إشراف المرابين اليهود؛ وكانت التجارة نشيطة والأرباح هائلة. فعندما أسَرَ المسلمون (الشرقيّون) الملك لويس التاسع (ملك فرنسا - في المنصورة بمصر بعد غزو الحملة الصليبية الفرنسية لمصر) طالبوا بفدية قدرها ثماني مئة ألف (٨٠٠،٠٠٠) بيزة (ذهبية) لإطلاق سراحه، وكان فرسان الهيكل هم الذين قدّموا المبلغ كلّه تقريباً لدفع رسوم الفدية لإطلاق سراح الملك من أيدي المسلمين. لذلك، فإنه في القرن الثالث عشر، كانت فرنسا مدينةً لجميع مُقرضي المال المرابين الأوروبيين، ولا سيّما لفرسان الهيكل. ومن ثمّ قام فيليب ملك فرنسا المعروف باسم فيليب الجميل (أو الوسيم) قام بالبداية باستهداف مجموعتين: المرابين اليهود واللّمبارد، وهم التجّار المرابون في شمال إيطالية والذين كانوا أيضاً يشرفون على عدد من مؤسسات البنوك.

وبالرغم من إقراض فيليب كميات هائلة من المال، فمنذ عام ١٢٩١، (السنة التي سقطت بلاد ما وراء البحر (أي فلسطين) نهائياً لجيوش المماليك المسلمين بقيادة قلاوون وابنه) تعرّض اللّمبارديون لاعتقالات عشوائية، ووضع اليد على ممتلكاتهم، وطردوا. ولم يكن اليهود أحسن حالاً منهم. ففي منتصف صيف عام ١٣٠٦ م، قُبيل نحو سنة من قمع فرسان الهيكل، تمّ اعتقال كل يهودي في البلاد وصودرت جميع أموالهم المنقولة لصالح الدولة وتُركوا بلا مال ثم طُردوا بلا احتفاء من المملكة (من فرنسا).

كذلك فإن ضرائب فرنسا لم تكن كافية، لذا فإنه في حزيران عام ١٣٠٦، قام فيليب بلعبة خطرة تماماً: فخفّض قيمة العُملة الفرنسيّة مقداراً كبيراً يبلغ ثلثي قيمتها الجارية. فانفجرت المملكة في غضب عارم وأعمال

سخف في باريس. وفي وقت كان فرسان الهيكل يشتركون مع اليهود واللُّمبارديين بمضرَّة واحدة – وهي أنهم مكروهون جداً أو معدومو الثقة من عموم الشعب. وفي أغلب المناطق هناك سببٌ وجيه لمثل هذا الشكّ: فقرابة ٢٠٠ عام من استقلالهم الحُرّ من الأغلال قد ألقى ظلاله على معنويات فرسان الهيكل: فالقوة غير المكبوحة التي يتمتعون بها والجشع كان له أساس. فالاعتقاد أنَّ الاحتلال الأصلي للقدس من قبل الأتراك الملحدين (!). قد رآه حلّ النصارى باعتبارات إقطاعية ضيّقة: وهي أن الشرقيين (المسلمين) قد اغتصبوا مملكة الربّ المُقدّسة. وعلى جميع النصارى إصلاح هذا الضرر. لذلك كانت الصدمة الكُبرى عندما هُزم العالم النصراني واندحر نهائياً على أيدي سلاطين المماليك والملاحدة (المسلمين!)، الذين استولوا على جميع الأرض المقدّسة. إن الربّ (الله) قد خذل العالم النصراني، ورجالهم المقاتلين أثبتوا عدم كفاءتهم لمهمة الدفاع عن الأرض المُقدّسة. وهذه الصدمة التي استشعرها كلّ العالم النصرانيّ على هذه الهزيمة النكراء قد أدّت إلى إحباط هائل سفي المعنويات. وللتعويض عن هذه الكارثة الروحيّة والماديّة، كانت هناك محاولة ميؤوسة لتوزيع الملامة (اللوم)، وهو البحث عن أحدٍ مسؤول عن هذه الهزيمة الكارثيّة: أي البحث عن كبش فداء. بفقدان الأرض المقدّسة، تحوّل الانتقاد إلى واحدٍ من الخيانة المطلقة، وبيع (الأرض المقدسة) للعرب. وعكس العامّة من الناس، فإن فرسان الهيكل كانوا مُستثنين من ضريبة العُشر (المُسمّاة بضريبة صلاح الدين: وهي ضريبة مُكوّنةٌ من عُشر دَخْل الفرد، فُرضت أولاً عام ١١٨٨، في إنجلترا وفرنسا لدعم الحملات الصليبية ضد صلاح الدين) وضرائب أخرى، ومن قوانين الكنسية والقوانين الدنيوية[٩].

وكان الملك فيليب يعلم أن فرسان الهيكل سيكونون جوزة يصعب كسرها ومشكلة عسيرة أكثر من اليهود ومن اللمُّبارديين، فاعتقال الفرسان غير قانوني، لأنهم يقعون تحت سلطة البابا المباشرة. وكانت هناك محاكم التفتيش التي أنشأها البابا جريجوي التاسع عام ١٢٣١، للهدف المُعلن في تقصّي وقمع الهرطقات بأشكالها كافة. فيما يخص الملك فيليب، فإن محاكم التفتيش هذه هي المفتاح والحلّ. وكانت ظاهريّاً الذراع البابويّ الذي عند فرسان الهيكل الولاء له، وإن سُلطته عليهم واجب مُلزمٌ الاعتراف به. فأمر الملك فيليب باعتقال فرسان الهيكل تحت ذريعة الاحترام القانوني بادعائه أن طلب الاعتقالات هذه إنما جاء أصلاً من المفتش العام في فرنسا وليام من باريس، النائب المُعترف به للبابا هناك. وفي فجر الجمعة الـ ١٣ (رقم اليوم الذي صار منذ ذلك الحين رقماً مشؤوماً غير محظوظ) من تشرين أول ١٣٠٧م، اقتحم وانتهك رجال الملك حُرمة بيوتات ومدارس فرسان الهيكل وقاموا باعتقال كلّ فارس وجدوه هناك[٩].

وهكذا وجّه الملك فيليب في عام ١٣٠٧، تُهمة الهرطقة للمنظّمة (فرسان الهيكل). ومن ثمّ اتُّهم الفرسان بتُهم أخرى مثل تهمة أنّ المُرشّح للدخول بالرهبنة كان يُطلبُ منه أن يُنكر المسيح وان يبصُق على الصليب، وكذلك تُهمة أنّ الفرسان يعبدون سرّاً رأساً يُسمى (بافوميت) لرُبمّا تحريفٌ لكلمة مُحمّد أو حتى بوفاتيمه، تحريف للكلمة العربيّة (أبو فاطمة)! وبالرغم من أن الاسم كان موضع جدال، لكن يبدو الآن جليّاً أن الكلمة اشتُقّت من لغة خواص المغاربة الإسبان: (بوفهمه)، التي هي نفسها تحريف الكلمة العربية (أبو فهمه)، حرفياً (أبو الحكمة)[٩]. هذه التهم لم تثبت البتّة إلاّ في اعترافات تحت التعذيب على أيدي محاكم التفتيش.

وجهّت محاكم التفتيش الفرنسيّة تُهماً رسمية إلى الفرسان. كان هذا ضرورياً لأنه كما ذُكر سابقاً أن فرسان الهيكل كانت لهم حصانةٌ ضدّ نطاق سُلطة الكنائس المحليّة. في عام ١٣١٢ م، قام مجمع فينّا الكنسي بحلّ المنظّمة (ع المحفل. إنّ فرسان الهيكل هو التنظيم الأبّ للماسونية الحديثة بمحافلها) ومنح جميع ممتلكاتهم إلى منظمة مُشابهة أخرى تُسمى الإسبتاريّة. انتهى الفصل الأخير من قصة فرسان الهيكل عام ١٣١٤م، عندما أُحرق حياً الأستاذ الأعظم لفرسان الهيكل (جاك دي مولي)، وذلك بعد إنكاره لاعترافاته السابقة علناً، وبعد حل منظمة فرسان الهيكل قام التاج الفرنسي بإلغاء وشطب الديون التي في عنقه للفرسان، بالإضافة إلى مصادرة جلّ ثرواتهم الماليّة.

إنّ الاحتكاك بالشرق الإسلاميّ أشعل ثانيةً مسألة الاهتمام بترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينيّة إلى اللغات المحلية، بما فيه المقت والبغض لاحتكار الكنيسة للكتاب المُقدّس باللاتينيّة، ولبيعها صكوك الغفران، ولسياستها في العُزوبة وعدم الزّواج (جزءاً من الرهبانيّة).

إنّ الإصلاحات البروتستانتيّة التي تُعرف أيضاً بالثورة البروتستانتية أو (الإصلاحات اللوثرية)، كانت حركة إصلاحيةً في القرن السادس عشر وذلك لإصلاح الكنيسة في أوروبا الغربيّة.

الجذور والعوامل التي سبقت الإصلاح الديني البروتستانتي هي:

- الحركات المُضادة للسلطة الكهنوتية: الكاثارز، الفالديتسيون (الولدويون، الغُلفيّون، والجلانيون).
- بابوية أفنيون (الأسر البابليّ للكنيسة).
- جون وايكليف، وليم تيندل، وجون هاس (انظر الفصل الثاني).
- الإصلاحات اللوثريّه.
- وجود الخلافة الإسلامية العُثمانية على أرض أوروبا الشرقية وضغوطها (على الكنيسة والسلطة النصرانية الكاثوليكية).

بدأ الإصلاح الدينيّ رسميّاً مارتن لوثر بأطروحاته الـ (٩٥) ضد ممارسة صكوك الغفران التي تمنحها الكنيسة. في ٣١ تشرين أول عام ١٥١٧م. قيل: إن مارتن لوثر أعلن هذه الأطروحات على باب كنيسة القلعة في وتينبرغ (ألمانية)، التي كانت عادةً تُستعمل موضعاً لإعلانات الهيئة الجامعيّة. وفي تشرين الثاني أرسل أطروحاته هذه إلى مختلف الهيئات الدينيّة في ذلك الوقت. انتهت الإصلاحات بالانقسام وبظهور مؤسسات جديدة.

ومن **أهم التعاليم التي ظهرت** على نحو مباشر **نتيجة الإصلاح الديني البروتستانتي هي أربعة:**

- التعاليم اللوثريّة.
- الكنيسة الإصلاحية /الكالفنيّه/ المشيخيّة (بريسباتاريان).
- كنيسة تجديد العماد (أي تعميد البالغين).
- الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانيّة).

إن الحركات الإصلاحيّة التي جاءت من بعد، تعود جذورها في العموم إلى هذه المدارس الأربع الأوليّة للإصلاحات البروتستانتيّه. لكن بعض أكثر المؤرخين تدقيقاً يرى أن بداية الحركة الإصلاحية البروستنتيّه تعود إلى الوراء أكثر، ويرى أن (وايكليف) هو البداية، جان أوجون هاس هو الوسط، ومارتن لوثر هو نهاية الإصلاح البروتستانتي (انظر الفصل الثاني).

إنّ الإصلاح الدينّي كان في بوهيميا قبل ذلك الوقت بمئة عام، كان له تأثيرٌ قوي على المقاطعات المجاورة وعلى لوثر نفسه، حيث كان يُسمّي نفسه هاسياً (نسبةً إلى هاس). إن الاضطرابات في الكنيسة الغربيّة والإمبراطوريّه التي بلغت ذروتها في بابوية أفنيون (١٣٠٨-١٣٧٨م)، والانقسام البابويّ (١٣٧٨-١٤١٦م)، قد أجّجت نار الحروب بين الأُمراء، وهيّجت ثورة القرويين، وأثارت قلقاً على مدى واسع حول الفساد في نظام الرُهبان.

ثم إن نظام القوميات الجديد تحدّى وبصورة نسبية عالمية عالم العصور الوسطى.

جاءت أول حلقة في سلسلة حلقات الفوضى ووجهات النظر الجديدة من جون وايكليف في جامعة أكسفورد، ثم من جون هاس في جامعة براغ، أنهت الكنيسة الكاثوليكيّة هذا الخلاف رسمياً في مجمع كونستانس الكنسيّ في الأعوام (١٤١٤-١٤١٨م). ففي اجتماع الكرادلة السرّي أُدين جون هاس الذي نُفّذ فيه حكم الإعدام

(بعد إعطائه عهد الأمان) كما أحرقوا جثّة وايكليف بعد موته لأنهم عدّوه مهرطقاً (منشقاً عن العقيدة). ورداً على الإصلاح الدينيّ البروتستانتيّ جاء الإصلاح الدينيّ الكاثوليكيّ الذي أدى إلى سلسلة من الحروب الأهلية في فرنسا وإنجلترا، إضافة إلى الحرب الدمويّة التي استمرت ثلاثين عاماً التي شملت كُلاً من ألمانية، والسويد، وفرنسا، والدانمارك، وهولندة، والإمبراطوريّة الرومانية المُقدّسة مُمثلة في هابسبُرغ. ففي ٢٤ آب عام ١٥٧٢ م، مثلاً، وفيما يُعرف بـ (مذبحة يوم القدّيس سانت بارثولوميو) قُتل في ذلك اليوم عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) من البروتستانت في فرنسا. وكتب البابا غريغوري الثالث عشر رسالة تهنئة إلى ملك فرنسا شارلس التاسع قائلاً: (نُشاركُكم البهجة العظيمة: لأنه بمعونة الربّ فقد خلّصتُم العالَمَ من هؤلاء المُهرطقين الحُقراء)!!![illegible]

أمّا فيما يخص الإسهام العثماني (التركي) الإسلاميّ في الإصلاحات البروتستانتية[illegible]، فيُناقش كينيث ستن في كتابه: (اللوثريّة والخطر التركي، المطبوع عام ١٩٦٢)، أن الألمان لم يعطوا الكثير من الاهتمام للأتراك العثمانيين ألبتة حتى هزموا المجريّين (الهنغاريين) في معركة موهاكس عام ١٥٢٦م. ومن ثَمّ فإن المواقف المُعلنة قد تحوّلت نسبياً من مواقف العصور الوسطى.

وبينما كان لوثر، مثل الكثير من كُتّاب القرون الوسطى، يرى في الأتراك وفي الإسلام عموماً عقاباً من الله، فإن ستن يرى أن الرأي العام قد تغيّر، حيث إنّه بدل المناداة بحملة صليبية جديدة، شعر أغلب الألمان أن الحرب ضد الأتراك يجب أن تقوم بها الدولة لا الشعب. إضافةً إلى ذلك، فعلى المستوى الثقافي/ الدينيّ، فإن ستن يؤكّد أن هناك ازدراءً أكثر للنصارى الأتراك (الأورثوذوكس) – الذين كان واجبهم أن يتعلموا ويكونوا بروتستانت – بدل ازدراء المسلمين الأتراك، الذين لم يعرفوا أصلاً ما هو الأحسن (حسب اعتقاد المؤلف المُضادّ للإسلام عموماً). وهو (أي ستن) يرى أنه في حين كانت هزيمة الأتراك أمام الكاثوليك في مالطة وفي ليبانتو مُرحّباً بها في إنجلترا البروتستانتية، فإنها كانت موضع احتفالات عظيمة في إسبانية، وإيطالية، والنمسة الكاثوليكية؛ وفي الوقت نفسه، فقد أعقبَ ذلك ارتفاع المشاعر الإسلامية ضد الكاثوليكية في استانبول (التي كانت لصالح البروتستانت، وبمرور الزمان، أثبتت أنها ليست بالفائدة التجارية القليلة لإجلترا وهولندة البروتستانتية)، حيث قامت الطبقة الحاكمة العليا بتهوين وتقليل عدائها للإسلام).

لقد اتفقت تقريباً عدة أجيال من الباحثين على أن العثمانيين هم الذين «أنقذوا» البروتستانتية (هو قولٌ آخر لتقرير أنه ما كان بإمكان الغرب من الارتقاء صعوداً دون الإسلام). وبعض المؤرخين أطلقوا على الأتراك «حُلفاء الإصلاح البروتستانتي»؛ لأن حملات العثمانيين في وسط أوروبا هي التي ساعدت لتحويل الطاقات العسكرية والموارد الاقتصادية لقرارات البابوية – هابسبُرغ التي كانت تُريد استئصال اللوثريين والهراطقة الآخرين. إن السُلْطات التركية كانت أكثر تسامحاً مع البروتستانتية من الكثير من الأمُراء الكاثوليك الرومان، وإنّ الحكم العثمانيّ في البلقان كان بعمومه أقل استغلالاً من نبلاء الكاثوليك الرومان الذين كانوا في السلطة هناك قبل الفتوح العثمانية. لذلك فإن القرويين البلقان في القرن السادس عشر اعتادوا القول: «عمامة الأتراك أحسن من تاج البابا المُثلّث». فلقد كان التهديد العثماني هو الذي أجبَرَ شارلس الخامس وحلفاءه الألمان على الإذعان لمنح حرية الممارسة الدينية للطوائف اللوثريّة في المرحلة العصيبة من الأعوام بين ١٥٢٠ و١٥٣٠ م. لوثر، مثل الكثير من المبشرين البروتستانت والكاثوليك، اعتقد أن «الأتراك هم شعب يمثّل العقوبة الإلهية» جاؤوا لمُعاقبة النصارى على ذنوبهم. ثم إنه في ردّه على البابا، دافعَ لوثر عن المبادئ أن «قتال الأتراك هو مقاومة عقاب الربّ على ذنوب المُذنبين». على الرغم من أن لوثر كان في اعتراضه «للقتال ضد الأتراك على أنه أقل أهمية من اعتراضه الأهم، وهو القتال تحت قيادة البابوية».

وفي إنجلترا البروتستانتية، سلكت الملكة اليزابيث سياسة التحالف التجاريّ والعسكري مع الخلافة العثمانية، في زمن حقبة العَداء المفتوح (العلنيّ) مع إسبانية. ففي عام ١٥٨٥، قام عضو مجلسها القوي ذو النفوذ

(والشينغهام) بإعطاء تعليماته إلى وليام هاربورن، السفير الإنجليزي لدى السُلطان، لتعزيز التحالف العسكريّ بين إنجلترا والأتراك. والشينغهام كان يأمل في هجوم تركيّ على إسبانية الذي سوف «يحول دون المحاولات والمُخططات الخطرة للملك الإسبانيّ ويمنعها في هذه الأجزاء من العالم النصراني (إنجلترا)». ولكنه قد أكثر من ذلك، فقد عبّر عن أمله أن تقوم إسبانية وتركية – ذراعا الشيطان كما يراهما – بإضعاف بعضهما بعضاً مما يؤدي إلى قمعهما جميعاً[٤١٦].

جـ. عصر النهضة الأوروبية (انظر الوجود الإسلامي في أوروبا آنفاً)[جـ١، ٥، (٢)(١)]

عصر النهضة الأوروبية هو أحد العصور التاريخية الأوروبية التي تلت القرون الوسطى التي سبقت عصر الإصلاح الديني، ويمتد من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر على وجه التقريب. مع هذا فإنّ التجربة الأوليّة قد بدأت من النصف الثاني للقرن الثاني عشر، وذلك عندما أدّى إعادة اكتشاف أرسطو ثانية للتأثير في تطوير الفكر الأوروبي وإعادة تشكيله. إن الذي جلب أرسطو إلى أوروبا هو جهود العلماء المسلمين، مثل ابن سينا (بداية القرن الحادي عشر) وابن رُشد (منتصف القرن الثاني عشر).

(لقد ترك العربيّ بصماته الفكريّة على أوروبا منذ زمنٍ طويل، يجب على العالم النصرانيّ الاعترافُ بذلك، لقد كتبها في السماء على نحوٍ لا يُمحى يراها كُلُّ من يقرأ أسماءَ النجوم في الكرة السماويّة المشادة)؟ (جون درابر، تاريخ التطوّر الفكري الأوروبي، هاربر & رو، المجلد الثاني: ١٨٧٦ و١٩٠٤، صفحة ٤٢).

(إنّ إحدى سِمات الإنسان المتحضّر هي معرفة الماضي، سواء أكان ماضي الفرد نفسه، أم قبيلته، أم أُمّته أم حضارته؛ أم ماضي الآخرين الذي تلاقت به حضارةُ الفرد نفسه مراتٍ متكرّرة مُثمرة؛ أم ماضي أي جماعة أسهمت في تقدّم البشرية. على العرب ينطبقُ المثالان الأخيران انطباقاً شديداً. لكن لم يُعرف العربُ على نحوٍ جيّد في الغرب. لقد كانوا ضحايا الجهل والتضليل الإعلامي. وغالباً ما كان يوصف العربُ أو حضارتُهم، وصفاً مشوهاً وبعيداً عن الحقيقة). (عبقرية الحضارة العربية – مصدر النهضة الأوروبية. المحرر: جون هَيز. مطبعة فايدون المحدودة أكسفورد. ١٩٧٦ صفحة ٢).

هذا المضمون الفكري المستورد لا يمتّ بصلةٍ إلى النصرانية، بل يعتمد على نحوٍ محضٍ على التفسير الدنيوي (الإسلامي) فمثلاً:

ابنُ سينا (٩٨٠–١٠٣٧ ميلادية): الشيخ الرئيس في الطبّ، الطبيب المسلم وأبو الطب الإسلاميّ، ومؤلف كتاب تدريس الطب (القانون)؛ الذي أصبح المرجع في الطبّ في كليات الطبّ الأوروبية لعدة قرون. و كلمة طب (ميديسين بالإنجليزية) مشتقة من الكلمة اللاتينية (ميديسينا) المشتقة من العربية (مادّةُ سينا)؛ أي موضوع /مادة/ محاضرات ابن سينا.

ابنُ رُشد (١١٢٦–١١٩٨ ميلادية): فيلسوف وطبيب الأندلس المسلم (في إسبانية) الذي هيمن على الفلسفة الأوروبيّة والحركة الفكريّة.

إنّ كلمة (كوليج) الإنجليزية مشتقة من اللاتينية (كوليجيم) من كلمة (كول)؛ أي معاً و(ليجير)؛ أي يجمع أو يقرأ. بالعربية (كُليّة) أو منهج دراسي جماعي (كورس) مع الدراسات ذات الصلة، والجمع (كُليّات)، والكلمة مُشتقّة من كتاب ابن رشد الأصلي: (الكُليّات في الطب).

ومع أن أوروبا تعرّضت إلى الثقافة الإسلامية عبر عدة قرون في أثناء الاتصال مع شبه الجزيرة الأيبيرية وصقلية، ولكن الكثير من الفكر الإسلامي كالعلوم والطب والعمارة قد انتقل إلى الغرب في أثناء الحروب

الصليبيّة. كذلك كان للخبرات العسكرية الإسلامية تأثيرٌ في أوروبا، فمثلا أصبحت القلاع الأوروبية بناء صخريا عظيماً كما كانت في الشرق، بدلاً من بنايات خشبيّة صغيرة كما كان معروفا في السابق. ودفعت الحاجة لتجهيز وسائل النقل وتزويد الجيوش الكبيرة بالمؤن إلى ازدهار التجارة في أنحاء أوروبا كافة. فالطرق التي كانت أكثرها مهجورة منذ عهد الرومان بدأت تشهد نشاطا متزايدا في حركة المرور، حيث بدأ التُجّار المحليّون بتوسيع آفاقهم التجارية. ولم يكن هذا لأن الحروب الصليبية هيّأت أوروبا للسفر، ولكن على الأرجح لأن الكثير من الناس كان يريد السفر ثانية بعد أن تعرّفوا منتجات الشرق الأوسط. وهذا أيضا ساعد على ابتداء النهضة في إيطالية لأنه منذ البداية كانت لدول المدن الإيطالية مستعمراتٌ تجارية مهمة ومُربحة من الممالك الصليبية في كلٍّ من الأرض المقدّسة، ومن ثمّ في الأراضي المُستولى عليها من البيزنطيين.

على الرغم من هزيمتهم النهائية في الشرق الأوسط فقد استطاع الصليبيون في أوروبا الغربيّة استعادة شبه الجزيرة الأيبيرية (الإسبانية) على نحوٍ دائم، ولإبطاء مسيرة التوسع الإسلامي ولكن من ناحية أخرى، فمثل هذه الحملات الصليبية الدمويّة الأخيرة على الأندلس قد ارتدّت على أوروبا بهجوم إسلاميّ مُضادّ من جهة أوروبا الشرقية، ولا سيّما على القسطنطينية التي تمّ إسقاطها في نهاية العصور الوسطى عام ١٤٥٣ م، التي كانت فقط البداية لمزيد من الفتوح الإسلامية. فقد اكتسح الإسلام منطقة البلقان طولا وعرضا؛ واستولى على جزر شرق البحر الأبيض المتوسط كافة، (كريت ورودس والبقية)؛ واحتلّ اليونان كله، ثم استمر مُندفعاً نحو وادي الدّانوب، وشمالاً نحو السهول الكبرى؛ وقضى على مملكة المجر (هنغاريا) القديمة في معركة موهاكس المُميتة.

وأخيراً وفي الثلث الأول من القرن السادس عشر، تماما في اللحظة التي عصفت فيها رياح الإصلاح الديني النصراني، كان الإسلام يُهدد أوروبا عن كثب؛ واضعا (فينّا) قلب الإمبراطورية تحت الضغوط (الإسلامية) مرتين: عام ١٥٢٩ وعام ١٦٨٣. والحقيقية التي لم تُدرك عموما هي أن السبب في نجاح ثورة لوثر الدينية ضد الكاثوليكية في ألمانية كان بسبب الضغط الإسلامي القادم من الشرق الذي شلّ السلطة المركزية لأباطرة ألمانية.

لذلك كان مثل هذا الاتّصال المباشر بالعرب في داخل أوطانهم يُشكّل قناة مهمة للتأثير اللغوي؛ فكثيرٌ من الصليبيين عندما رجعوا إلى أوطانهم في أوروبا جلبوا معهم قصصا كثيرة عن تجارب حياتهم (المعيشية والاجتماعية) في العالم العربي، إضافةً إلى أشياء كثيرة كالزرابّي، والشطرنج، ومختلف أنواع الطعام.

ومثل هؤلاء الصليبيين، قد أدخلوا أنفسهم العديد من الكلمات إلى الفرنسية والإنجليزية. وقامت اللغة الفرنسية بالخصوص وسيطاً للاستعارة اللغوية المباشرة، ولنقل الكلمات العربية إلى الفرنسية؛ وفي الوقت نفسه فإن التأثير اللغوي لشديد للغة الفرنسية (النورماندية) في اللغة الإنجليزية شكل وسيطا غير مباشر لنقل العربيّة إلى اللغة الإنجليزية (راجع الفصل الثاني: اللغة الإنجليزية بوتقة انصهار اللغات الأوروبية).

على الرغم من الحماسة والتعصّب الدينيّ الذي بلغ ذروته بالكارثة الإنسانية والعلميّة التي تمثلت بحرق المسلمين واليهود مع الآلاف من كُتبهم النفيسة (كُتب الإسكوريال) علانيةً من قبل محاكم التفتيش الإسبانية التي أنشئت في أعقاب ما يسمى بالاسترداد الإسباني عام ١٤٩٢م، ومن بعد ذلك حركة الإنسانيات المضادة لحركة السكولاستية، كلها لم تستطع محو ذكريات العرب في إسبانية عبر (٨) قرون، أو إلغاء تأثيرها في أوروبا.

إن العلماء والأطباء العرب والمسلمين، هم الذين قدّموا حقائقهم العلمية ونظرياتهم الرصينة (ليس على أساس التجربة والخطأ فقط) بل على أساس التجارب العلمية على الحيوانات، وطُرق التداخل البشرى (من أمثلة ذلك التشريح الطبي، والعلاج بالأدوية والعقاقير الطبية، والدراسات المقارنة)، ومُراقبة التجارب العلمية وتسجيل نتائج البحوث؛ وترك الطب العربي والعلوم العربية تأثيراً طويلاً، عميقاً، لا يُمحى في الطب والعلوم الأوروبية. فقد ترجمت

جُلّ كتب الطب والجراحة العربية آنذاك إلى اللاتينية عن طريق قسطنطين الإفريقي (١٠٢٠–١٠٨٧ م)، وجيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧م) – وفرج بن سالم، والأخير كان يهودياً من صقليه؛ وهو الذي قام بناءً على أمر الملك شارلس من أنجو (في صقلية) (١٢٢٦–١٢٨٥م)، قام بالمهمة الشاقة في ترجمة كتاب: (الحاوي في الطب) للرازي إلى اللاتينية، وهو موسوعة طبية تحوي ٣٢ مُجلداً من العربية للاتينية؛ وقد استمرت طوال عمر المترجم، التي أنهاها نحو ١٢٧٩ م، في صقلية؛ وكتاب الحاوي (الموسوعة الطبية) مثلاً صار المرجع الطبي لجميع الأطباء الأوروبيين ولعدة قرون. وفي طليطلة، قام جيرارد الكريموني بترجمة الكتب الآتية إلى اللاتينية: قانون ابن سينا، جراحة أبي القاسم (الزهراوي)، كتاب المنصوري للرازي، إضافة إلى الكتب العربية للكندي (المتوفى عام ٨٧٣م)، وكتب ثابت بن قُرّة (المتوفى عام ٩٠١م)، وقام قسطنطين الإفريقي في جنوب إيطالية بالترجمة إلى اللاتينية جزءاً من الكتاب الملكي (موسوعة طبية) لعلي عباس (المجوسي)، ثمّ توفي المترجم عام ١٠٨٧، ومن ثم أكمل ترجمة باقي الكتاب الملكي المترجم جون الشرقي (لعله جون العربي النصراني)، وأعقبه كذلك ستيفن الإنطاكي في ١١٢٧، مستكملين ترجمة الكتاب الملكي. وقام أديلارد من باث بترجمة كل الكتب العربية الآتية إلى اللاتينية: كُتب الخوارزمي (من القرن التاسع الميلادي): كتاب الخوارزمي في الرياضيات، والجداول الفلكية (المُثلثات) عام ١١٢٦م، إضافةً إلى ذلك، فقد وجدت الأقاصيص العربية الفلسفية طريقها إلى أوروبا بأشكالٍ محوّرة، فعلى سبيل المثال:

طرزان: بطل قصص «إدجار رايس بوروز» الذي تربّى مع القرود. وقصص طرزان هي تحوير لقصة يقظان، تأمّل التقارب اللفظي ولا سيّما بالإنجليزية بين طرزان ويقزان (ويقزان أو يقظان هو حيّ بن يقظان التي ألّفها الطبيب والفيلسوف الأندلسي ابن طفيل نحو ١١٨٥ حول طفل تُرك في مهده جرفه الماء لجزيرة حيث تبنّته ظبية أم (كانت قد فقدت وليدها حديثاً). ونما الطفل مع الحيوانات بالغابة حتى ماتت أمه، فبدأ يبحث عن روح أمه، ومن ثمّ عن سر الحياة والموت، حتى وصل في رحلته الروحية الفلسفية إلى وجوب وجود خالق أعظم للمخلوقات والحياة (الله). إن الوصف التشريحي للظبي يدل على علم ابن طفيل الواسع في التشريح الحيواني. وكتاب ابن يقظان هذا عُدّ تحفة ورائعة أدبية عالمية مزجت الطب بالفلسفة. وقد ترجم ميراندولا (١٤٩٤)، وبوكوك (١٦١٧)، الكتاب إلى اللاتينية تحت اسم «الفيلسوف الذي علّم نفسه» كما ظهر الكتاب في لغات عدة. ثم إن قصة روبنسون كروزو لمؤلفها دانييل دوفو، وقصة طرزان لمؤلفه إدجار رايس بوروز، وقصة كتاب الأدغال لمؤلفه روديارد كيلنك، هي كلها تحويرات للقصة الأصل: قصة حيّ بن يقظان (أو الفيلسوف الذي علم نفسه) لابن طفيل الأندلسي التي ألفها نحو ١١٨٥.

والأكثر إثارة للانتباه والذكر هو أن الأطباء العرب والمسلمين هم الذين صححوا عدة نظريات خاطئة للأطباء الإغريق (اليونان). فمثلاً مرجعية جالينوس أجبرت أجيالاً من الأطباء في أوروبا لتطبيق علومه في تشريح الحيوان تطبيقاً أعمى على الأجساد الإنسانية. وعندما وقعت منابر العلم في أيدي الكنيسة، صارت كتاباته (كتابات جالينوس)، كالأناجيل تحمل ختم سلطة الكنيسة وعصمتها من الخطأ، (حتى صحح العرب مفاهيم وآراء جالينوس الخاطئة في علم التشريح). وبينما كان العلماء والأطباء في العالم الإسلامي في موضع احترام وتقدير الخليفة شخصياً، كان الوضع مختلفاً تماماً في أوروبا، فقد كان الأطباء والعلماء يكابدون صعوبات شديدة في مواجهة تعاليم الكنيسة، وذلك بالرغم من عصر النهضة الأوروبية.

وفي القرن الرابع عشر فإن أستاذ التشريح موندينو اللُزي من بولونا في إيطالية (١٢٧٥–١٣٢٦م، والمعروف أيضاً بمجدد أو معيد علم التشريح)، كان يعرّض نفسه للحرمان الكنسي والعزل من عضويتها بسبب اقتراحه إمكانية الحصول على معرفة أفضل عبر تشريح جثة الإنسان بدلاً من قراءة كتب جالينوس! موندينو كان أول من

شرح الجثث الآدمية في القرون الوسطى. وفي عام ١٣٢٦، طبع (أناتوميا – أي التشريح) ملزمة في علم التشريح التي ظلت الكتيب اليدوي للتشريح قرابة قرنين. وقد استخدم عدة مصطلحات عربية، وبالرغم من التنقية المتأخرة لمصطلحات الطبية، بقي الكثير منها حيا (أي المصطلحات العربية).

وكان أندرياس فيزاليوس من بروكسل (١٥١٤–١٥٦٤م)، يُسمى أبا علم التشريح البشري الحديث: يرفض التسليم كالعبد لتعاليم ومرجعية الطبيب اليوناني – الروماني جالينوس في التشريح، ولكنه كان بفضل البحث عن الأدلة والبراهين الموثقة، ورؤية الفروق والاختلافات، وذلك عن طريق المشاهدة وتشريح جثث الإنسان. وكان خصومه يطلقون عليه لقب: (خاطف الأجساد)! بدأ الفلمنكي فيزاليوس دراسة اللغة العربية واليونانية واللاتينية على يد الفارين من الأطباء الإسبان اليهود. في البداية ألف كتاب (شرح الفن الرابع لابن سينا)، ثم بعد ذلك في عام ١٥٣٧ م في مدينة لوفين قام بنشر أطروحته لنيل شهادة البكالوريا (تفسير الكتاب التاسع للرازي).

وفي مدينة بازل عام ١٥٤٣، نشر تحفته الرائعة: (الكتب السبعة في بنية جسم الإنسان) ودليله المرافق كتاب «الخُلاصة»، الذي أصبح معلماً في تاريخ علم الجراحة الحديثة وفن التصوير الطبي. وكان ذلك الحصيلة المثمرة لدراسته الدؤوبة لعلوم وفنون الطب العربي.

أما الإسباني ميخائيل سرفيتوس، زميل فيزاليوس الدراسي، فقد هاجم جالينوس وأكد فكرة ابن النفيس في الدورة الدموية الرئوية (منذ ٣٠٠ سنة سبقت). وعن قصد أو دون قصد، فقد صرّح أن الروح الأساسية تتولد من الامتزاج داخل الرئة، بين الهواء المتنفس ودم البطين الأيمن للقلب، الذي بعد تنقيته يُدفَعُ للجانب الأيسر من القلب. قامت الكنيسة بإعدامه حرقاً على الوتد في ٢٦ تشرين أول عام ١٥٥٣م، عقوبة على ذنوبه هذه!!

وبينما كانت حقيقة دوران الأرض حول نفسها ودورانها في فلك (مسار) حول الشمس، معروفة لدى العالم الإسلامي، وعند علماء الفلك المسلمين (خاصة عند البيروني وغيره، كما أشار إليها القرآن الكريم)، وأن العلماء المسلمين قد اخترعوا البوصلة، والاسطرلاب، وأنواع الساعات (ابتداء من الساعة الشمسية، والساعة الميكانيكية، والساعة المائية) لحاجتهم إليها في أمور الدين، لمعرفة أوقات الصلاة اليومية، وتحديد اتجاه القبلة لبناء المساجد وتوجيهها (نحو الكعبة المشرّفة في بيت الله الحرام العتيق في مكة المكرمة)، ولكنّ هذا كان في العالم الإسلامي! أما في أوروبا فكان الوضع مختلفاً تماماً.

فعندما حاول غاليليو أن يعيد عرض نظرية مركزية الشمس وترويجها في أوروبا القرن السابع عشر، فإنه تحدّى نظرية الكنيسة بدوران الشمس حول الأرض، وأدى ذلك به إلى أن يُحاكم من قبل محاكم التفتيش في روما، وأن يتعرض لمعاناة طويلة من التعذيب حتى مات في إقامته الجبرية ببيته؛ فقط في عام ١٩٦٥م، قررت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إبطال حكمها على غاليليو والعفو عنه!!!

كذلك عارضت الكنيسة الكاثوليكية أكثر أعمال نيوتن (قوانين الحركة والجاذبية): المبنية على براهين التجربة والاختبار بوصفها دليلاً للاعتقاد الخالي من التأثير فوق الطبيعي (الخارق للعادة) على العالم الطبيعي المادي (لأنه كان يرى أن الكون يعمل على نحو دقيق متكامل على أساس آلية ميكانيكية محددة سلفاً)! وبالمناسبة فإن نيوتن كان يعتقد «أن ثالوث النصارى» هو زيف وأن الأريانية هي الوجه الصحيح للنصرانية البدائية (الأريانية، اعتقاد آريوس أن المسيح لا يساوي الربّ بالجوهر).

كان تأثير الكنيسة على التعليم مُدمّراً: ففي عام ٣٩١ م، أحرق النصارى إحدى أعظم المكتبات في العالم: في الإسكندرية، التي قيل إنها كانت تضم سبع مئة ألف مخطوطة، كل كتب ملوك الغنوسطية (أصحاب مذهب

العرفان عند بعض النصارى الذين اعتقدوا أن المادة شر، وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية؛ (٣٦) جزءاً من الرُّخام السُّمّاقي (صخور سُمّاقية اللون)، مخطوطات (لفّات) أوراق البردي لـ (٢٧) مدرسة من مدارس اللاهوت والأسرار، و(٢٧٠.٠٠٠) من الوثائق القديمة التي جمعها بطليموس فيلاديلفوس، كلّها أُحرقت، وأُغلقت معاهد العلوم والمعارف القديمة، وانتهت كلّ دراسة أو تعليم خارج الكنيسة لأي كان[٤٨].

من الجدير بالتأمل هنا المقارنة بين إسلام الشرق المُتحضّر، وغرب العصور الوسطى النصراني، وهو أنه عند تفاعل الإسلام مع العرب البدو، استطاع الإسلام تحويلهم إلى أرقى الناس حضارةً على وجه الأرض، ولكن عندما تفاعلت الكنيسة مع الأوروبيين، فإنها دفعت أوروبا إلى العصور الوسطى المُظلمة الدّامية التي استمر بها الحال حتى عصر النهضة الأوروبية الذي صار ممكناً فقط بعد الاتصال بالشرق الإسلامي، وبعد القيام بجهود كبيرة وعلى نطاق واسع لترجمة الكتب والمراجع الدراسيّة العربية، ومن ثمّ دراستها بالتفصيل (باللغة اللاتينية).

٤. التجارة وعلم التقنية[١][٤٩]

إن الوجود الإسلامي العربي في إسبانية وصقلية من القرن الثامن الميلادي وما بعده، والوجود الأوروبي في الشرق في أثناء مرحلة الحروب الصليبية قد أدّيا إلى اشتراك خاص في الثقافة – وبالتحديد – لتبني الأوروبيين الغربيين مظاهر عديدة من الثقافة الإسلامية، وذلك يشمل التذوّق اللغوي وتبنّي الكثير من الكلمات العربية (أيضاً انظر: العنصر العربي للغة الإنجليزية (الفصل الثاني)). والعرب أسهموا بتقنيّات علوم الإبحار، وبوصلة البحّارين، وخرائط السفن والبحرية المستعملة من قبل الملاّحين مع الكثير من الكلمات العربية ذات الصلة، مثلاً: أمير البحر، حبل، الشّلّوب أو السّلوب (قارب صغير)، البَرْك (مركب بثلاث صوار)، موسميّة (ريح موسمية). والعرب قد صنعوا البارود أيضاً. ففي الصين، وجد العرب الخزف الصيني والحرير ولكنهم أيضاً وجدوا البارود، الملح الصخري (المُسمى بالثلج الصيني)، والورق. واعتمدت أوروبا على البَردي، لكنّ توفّره انخفض بفتح العرب مصر. ولم يكن مادةً حُرّةَ التصنيع: فإنتاجه خاضع لاحتكار الدولة في العصور الفرعونية، والرومانية الأولى، والرومانية النصرانية.

وقد اختُرع (الورق) في ١٠٥م في الصين. ومن ثمّ جلب أسرى الحرب الصينيون معهم صناعة الورق إلى سمرقند عام ٧٥١ م. وهناك (في سمرقند) بدأت صناعة وتصدير هذا المنتوج، ومن ثمّ أسس وزير الخليفة هارون الرشيد، يحيى البرمكي أوّل مصنع ورق في بغداد عام ٨٠٠م، ومن ثمّ انتشر استعمال الورق في سورية، وشمال إفريقيا، وإسبانية؛ حتى إنه العام ١١٩٠، تمكن السلطان روجر الثاني في صقلية أن يصدر وثيقة من ورق. وبالمقارنة، لم تؤسس أول مصانع ورق في أوروبا حتى القرن الثاني عشر. ثم إن إنتاج الحرير انتقل غرباً مع العرب الذين أدخلوا زراعة أشجار التوت (الذي تقتات عليه دودة القزّ أي الحرير) في الجابية (جنوب تونس). كذلك، فإن زراعة القطن ما عادت باقية كتخصص هندي، ولكنها جُلبت إلى شمال إفريقيا وإلى إسبانية. كما نقلت زراعة السلالات الهندية والآسيوية الشرقية الأخرى إلى المناطق الأخرى للإمبراطورية العربية [أو الأصح العالم الإسلامي]: قصب السكر غُرست في مصر وقبرص وإسبانية، وصبغة النيل زرعت وانتقلت إلى شمال إفريقيا.

كما أسهم العرب بتقنيّات الزراعة والإنتاج الزراعي والمعادن عبر حضارتهم في إسبانية (الأندلس). وتطوير أنظمة الري أدّى إلى نمو منتوجات جديدة في أوروبا مثل: قصب السكر، والأَرُز، والبرتقال، والليمون، والباذنجان، والأرضي شوكي، والبرقوق، والقطن. وكل هذه المنتوجات جاءت أسماؤها وكلماتها الإنجليزية أصلاً من العربية. ثم إن العرب زرعوا عدة نباتات أخرى مثل الحبوب، الأعناب، الزيتون، التين، الكرز، التفاح، الكمثرى، الرمان، واللوز مع الكثير من النباتات المُنكهة أمثال: الزعفران، كارثموس أو الزعفران المُزيّف، كمّون، كزبرة، حنّاء، نبات الوسمة (ذو الصبغة الزرقاء)، والفُوّة (نبات ذو صبغة حمراء). وفي كل مكان تتوافر فيه أشجار التوت

بكثرة، انتعشت صناعة الحرير. وزُرع الكتان أيضاً وصُدِّر منه منسوجات الكتّان. والعرب هم الذين أسّسوا مصانع الورق لغرض نشر التعليم. كما أن الثروة المعدنية في إسبانية تمّ استغلالها وتوظيفها أكثر من ذي قبل. فالحديد الإسباني والنحاس والذهب والفضة والقصدير والرصاص قد أُنتجت جميعها؛ واستخلص الزئبق من الزنجفر (وهو كبريتيد الزئبقيك). وتمّ البحث والتنقيب عن الأحجار الكريمة وجُمِعت.

كذلك فإن العرب أسهموا بفنون «الحياة المُترفة والمذاوقة» كما هو مُشاهد في تصميم العمارة الرائع لقصر إشبيلية، وفي طراز الحمراء ونافورتها الجميلة في جنات العريف في غرناطة. كما أنتجوا بضائع الترف لكلٍّ من السوق المحليّ وللتصدير أمثال: الملابس الصوفية، والكتانية، والحريرية؛ الفرو من أغلب الأنواع؛ تصنيع الخزف؛ وتلوين الآخر. وفي قرطبة استنبطوا أسرار صناعة البلّور (الكريستال) وبرعوا في الحرف اليدوية لصناعة الأدوات المعدنية مُنتجين الأوعية المُتقنة والأشكال عديمة الحياة (غير الحيوانية) من النحاس والبرونز والمُرصّعة أو المُطعّمة بالفضة والذهب؛ وفي القرن العاشر الميلادي كانت الجواهر المُنتجة في قرطبة تضاهي بنوعيتها تلك المصنوعة في بيزنطة (القسطنطينية أو إسطنبول حاليا). كذلك، فإن العرب في إسبانية صنعوا الثلج الصناعي.

كتب الأستاذ رجائي الملاّح والدكتورة دوروثيا الملاّح في (عبقرية حضارة العرب – مصدر النهضة): (ولكن ما برع فيه العالم الإسلامي كان الأقمشة، وعبر التجار العرب عرفت أوروبا أنواعاً واسعة من المنسوجات. وضمن الكلمات المُشتقة عن العربية في اللغات الأوروبية ولا سيّما في الإنجليزية، عددٌ لا يُستهان به مرتبطٌ بالألبسة – مثلاً غزّيّ أشاش مُصنّع في غزة بفلسطين)، البقرم (قماش قاسٍ لتجليد الكتب)، شيفون لشفيف شفّاف، ساتان (أطلس وهو نسيج حريري)، عتّابي (لباسٌ من عتابية، محلّة في بغداد)، موهير (مُخيّر)، موصلين (نسيج قطني رقيق يُصنع في الموصل)، دمقس (من دمشق)، والقطن. كما أدخل العرب أيضاً صبغة النيل وهي مادة التركيب المهمة في تلوين الأقمشة. وعلى الرغم من أن التصنيع تطوّر في العالم الإسلامي قبل أوروبا بوقت طويل، لكنّ خصوصيات التطوير في البلاد المُهيمن عليها من قبل العرب صارت لا تُنافس التصنيع الأوروبي. ففي العالم العربي، كان التصنيع مثلاً يخضع تماماً لسيطرة الحاكم؛ وكان يتميّز بقلة رأس المال وإخفاق الحرفيين في تنظيم نقابات الصُنّاع (في القرون الوسطى).

وفي إسبانية الإسلامية أدخل العرب مفاهيم إدارة الشؤون البلدية والمقاييس (المعايير) لتنظيم التجارة. والكلمات التي تعكس التأثير العربي في هذه الفعاليات الاقتصادية مثل: ترافيك (من العربية تفريق بمعنى توزيع)، وتعريف (تعريفة)، وشيك (صكّ)، ومخزن (كما في الفرنسية بمعنى مستودع)، ومانكوس (مصطلح العملة في القرون الوسطى أصله من كلمة منقوش)، والمناخ، ومعدل التعيير (بالإنجليزية أفريج)، وقالب، وقفير (أو صندوق النفائس المقفول)، وصفر، وقبالة (أي ضريبة من اللاتينية كبالة من الأصل العربي قبالة)، ونظير، وسمت الرأس، وورق أو خطر.

وعلى الرغم من أن بعض هذه الكلمات يمكن تقصّي آثارها لمصدر لاتيني أو إغريقي أو فارسي، لكنها دخلت اللسان الأوروبي عن طريق العربية. فالكلمة «إسترليني» مثلاً لها قاعدة إغريقية قديمة، لكنها انتقلت إلى الإنجليزية عبر اللغة العربية. وفي تقدّم مفهوم وثيقة التصريف – صك أو شيك – قام العرب بجعل تمويل التجارة أكثر مرونة من ذي قبل. والإسهام المهم الثاني هو تطوير شركات رأس المال المتحدة، الذي تُوصّل إليه عبر التشارك بين التجار المسلمين والتجار النصارى الطليان. والإسهام العربي المهم الآخر للتطوير التجاري الأوروبي لعله قُدّم منذ نهاية القرن التاسع في دمشق عن طريق أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي في كتابه: (**الإشارة إلى محاسن التجارة** ومعرفة جيد العرض ورديئها وغشوش المدلسين فيها): «هناك ثلاثة أنواع من التجار: الذي يرحل، والذي يخزن، والذي يصدر. وتجارتهم تُنجز بثلاث طرق: بيع النقد في زمن محدد للاستلام، وشراء بقرض ودفعه على دفعات، والمُقارضة».

والمُقارضة في القانون الإسلامي هي عقدٌ يستأمن فيه الشخص رأس ماله مع تاجر للاستثمار في التجارة لكي

يكون له نصيبٌ في الربح. ويتحمل المنفق المستثمر الأخطار المالية كلها، في حين أن الطرف المدير يُخاطر بعمله. وكان مفهوم المُضاربة بالتأكيد سابقة لما يُسمى بالـ كومِنْدا (الاستيداع)، وهي آلة تجارية قانونية مسؤولة إلى حد كبير عن توسيع تجارة أصحاب المهن في العصور الوسطى. وتُستخدم بوصفها آلية مهمّة بوساطتها يُجمّع رأس المال، ويدخل المنفق (من إنفاق أو استثمار) مع المدير في مشروع تجاري. وأما فيما يخص حركة البضائع إلى الأسواق، فإن تجّار الإمبراطورية العربيّة (العالم الإسلامي) بحكم طبيعتها، أدّت إلى تقدم في حقول الجغرافية والملاحة. فالتفوق التجاري للعرب في المحيط الهندي والبحر الأحمر ظلّ دون منازع للعديد من السنين قبل ارتفاع نجم الامبراطورية الإسلامية، واستمر هذا التفوق في العصور الوسطى والنهضة، في كلٍ من البحر وعلى الأرض. وعند تنقل مغامرات التجار هذه، فإن خبراتهم أثمرت على نحو كتابات جغرافية وتوصيفات البلاد البعيدة وشعوبها، وتسلّلت هذه المعلومات إلى أوروبا من إسبانية وصقلية وبيزنطة (القسطنطينية أو إستانبول حالياً) ولعل من أشهر المؤلفين هو الجغرافي المعروف الإدريسي (١١٠٠-١١٦٦م)، المقيم في بلاط الملك النورماندي النصراني روجر الثاني من صقلية (١١٣٠-١١٥٤م).

ولكن الأكثر شيوعاً هي قصص المغامرات الخالدة لسندباد البحري، ولهذا أيضاً فنحن مدينون إلى تجّار البحار في الإمبراطورية العربيّة (العالم الإسلامي).

وضمن إسهامات العرب للملاحة وبناء السُفن، لعل من الواجب ذكر البوصلة. فالعرب على الأغلب هم أول من استخدمها، بالرغم من أن التحسينات أُضيفت لها مباشرةً من قبل البحّارة الأوروبيين. والابتكار الأكثر خطورة كان الشراع المثلث الذي أدخله العرب أولاً في المحيط الهندي، ثم أدخلوه في المراكب الشراعية الصغيرة والسريعة في البحر المتوسط. وباستخدام هذا الشراع استطاعت القوارب العربية شق طريقها ضد الريح، بعكس السفن الضخمة رباعية الشراع في البحر المتوسط التي تستطيع الإبحار فقط أمام الريح (أي باتجاهه). وقاعدة الشراع الثلاثية أخذها وطوّرها بناؤو السفن الأوروبيون، ولا سيّما الإسبان والبرتغاليون بين ١١٤٠-١٤٩٠. وفي هذه المرحلة تبنّوا تصميماً يمزج بين الأشرعة المثلثة ورباعية الصواري والمطبّقة في مراكب أكبر كثيراً من ذي قبل. والكلمة الإنجليزية كرّاك، وتعني سفينة شراعية ضخمة، يمكن اقتفاؤها من الكرّاك الإسباني والبرتغالي إلى القراقر العربية التي تعني السفينة التجارية (مفردها قرقور). الكلمات البحرية الأخرى من الأصول العربية التي دخلت إلى اللغة الإنجليزية: آمير البحر (أدميرال)، بُرْك (مركب ذو ثلاث صوارٍ كلّ صارٍ بشراع مثلث) حبل، سوب (مركب شراعي وحيد الصاري)، موسميه، قالب، ومعدل (مُغيّر).

إن البحث العلمي في هذا القرن (العشرين الميلادي) حاول جاهداً وضع الحروب الصليبية وفقاً للمنظور الصحيح أن بيّن أن المهن الحرفية، والتجارة، والصلات الفكرية كانت ذات شأن واهتمام، وكانت صحيحة سليمة بين أوروبا والإمبراطورية العربية (العالم الإسلامي) لمدى طويل قبل أن تأتي الحماسة الدينية النصرانية بمسعى استرجاع الأرض المقدسة (فلسطين). إن معرفة الغرب بثروات ومستوى المعيشة والبضائع المنتجة أو المتوافرة داخل الإمبراطورية الإسلامية (العالم الاسلامي) هي التي استثارت الوازع الديني (المزعوم). في نحو عام ١١٨٤، تنبّه أبو الحسن محمد بن جُبير، المستوطن في إسبانية الذي ارتحل إلى أقطار الإسلام كلها على البحر المتوسط، وكذلك إلى المجتمعات النصرانية في صقلية، سارديني، والأرض المقدسة (فلسطين) تنبّه وبسُخرية أن المسلمين والنصارى في فلسطين قد استمروا في تجارتهم بالرغم من الحرب بين قوّاتهم: (رجال الحرب مشغولون بحربهم، والناس يتجارون بسلام، والعالم يكون لمن يأخذه) هذا قوله.

ومن القرن الثامن حتى أوائل القرن الثاني عشر، تكوّنت التجارة بين أوروبا والإسلام بصورة رئيسة من تبادل المواد الخام من أوروبا (الخشب، الحديد، الفرو، والعبيد) بالمنتوجات المُصنّعة ومواد الزراعة الكمالية، مثل التوابل

من الإمبراطورية العربية (العالم الإسلامي). ولكن التأثير الإسلامي الدائم في أوروبا لم يتأت من المواجهات العسكرية لحملات الصليبية بقدر تأثير السنوات الطويلة للحكم العربي الإسلامي في إسبانية وصقلية. وعبر الابتكارات المجتذبة لهذه المناطق، دخلت بضائع جديدة، وعمليات، وتقنيات، ومفاهيم إلى أوروبا التي كانت متخلفة آنذاك عن عالم الإسلام كثيراً. ومن ثمّ فإن دين الثقافة الأوروبية والغربية للإسلام الذي نُسي أكثره إنما هو دليل على كون التأثير العربي قد استوعب وتم امتصاصه كاملاً في العالم الغربي. لذا فالإسهام الإسلامي قد صار جزءاً لا يتجزأ من ميراثه (ميراث الغرب)[1].

- **الإمبراطورية البريطانية والمستعمرات المسلمة**[7][8] (لاسيما الشرق الأوسط والهند):

كانت الهند هي الجوهرة الكبرى في تاج الإمبراطورية البريطانية. إن القرار الإنجليزي لقتال نابليون عام ١٨٠١ (بعد احتلاله لمصر عام ١٧٩٨)، وتأمين قاعدة عسكرية لأنفسهم في مصر كان يهدف إلى منع الفرنسيين من قطع خطوط إمدادهم وتجارتهم إلى الهند.

كذلك، فالقرار البريطاني بإقامة علاقات مع بلاد فارس (معاهدة ١٨١٤)، والاندفاع داخل أفغانستان معرضة لخسائر فادحة في ١٨٣٩-١٨٤٢، كان يهدف إلى منع الروس من تحقيق حلمهم بالسيطرة على الهند عبر بلاد فارس مع أفغانستان (الحلم الروسي لم يتحقق ألبتة).

أثناء هذه المغامرات البريطانية، تأثرت اللغة الإنجليزية بشدة بالمقيمين في المستعمرات المسلمة الذين تكلموا مزيجاً من العربية والتركية والفارسية: الذين كانوا يحكمون مدة تزيد على ٦ قرون بالمسلمين العرب تحت الخلافة الأموية والعباسية. وهذا التأثير اللغوي المتبادل جاء ضرورة بريطانيا للتواصل مع المواطنين الذين يحكمون، ضرورة للعلاقات المربحة في التجارة.

والخبرة البريطانية في الهند بدأت منذ نحو ٤٠٠ سنة من الآن: في عهد الملكة اليزابيث الأولى، عندما تقدم تجار قلائل بطلب امتيازات تجارية من أباطرة المغول الأقوياء.

وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ادعى مكتشفان أوروبيان اثنان أنهما وجدا الطرق البحرية الأخرى إلى الهند. كريستوفر كولومبس الذي عبر المحيط الأطلسي (الأطلنطي) عام ١٤٩٢، فهو لم يزل مقتنعاً حتى موته أنه اكتشف الهند (خطأ). وفاسكودي جاما، الذي أبحر من البرتغال عام ١٤٩٧، ودار حقيقة حول رأس إفريقيا الجنوبي (رأس الرجاء الصالح)، وذهب حتى وصل ميناء التوابل لكاليكوت على ساحل مالابار في الجنوب الغربي للهند؛ وقد اكتشف أيضاً الطرق البحرية للبحارة العرب إلى الهند. رحلة دي جاما ألهبت الخيال والآمال التجارية لأوروبا.

وفي عام ١٥٨٢، نظّم مجموعة من تجّار لندن بعثة إلى الهند: رالف فيتش، ووليم ليدز، وجيمس ستوري أبحروا في مركب (تايكر) بعد نزولهم في طرابلس في شمال إفريقيا، اتبعوا الطرق البرّية إلى الهند. ومن بعد ذلك، تغنّى فيتش مديحاً لما رآى: هنا طرائق عظيمة لكل أنواع التوابل والدواء، للحرير والملابس الحريرية، لأسنان الفيلة، والكثير من أعمال الخزف الصيني، والكثير من السكر المستخلص من نواة كالجوزة تسمى (كاجاره)، والشجرة تُسمّى النخلة المسعّفة: وهي أكثر أشجار العالم ربحاً.

وتحت ضغط التجار الإنجليز - وآملاً بمستحقات الرسوم الجمركية المستعادة من التجارة المباشرة مع الشرق - منحت الملكة إليزابيث الأولى في ديسمبر ١٦٠٠، امتيازاً لـ «حاكم وشركة تجار لندن المتاجرين مع الهند الشرقية».

هذه الشركة سرعان ما ارتفع نجمها لأعلى قوة في القارة الهندية لكن الآمال التجارية للشركة لم تكن تركز على الهند، وإنما كانت تأمل أن تنفذ إلى التجارة الغنية لجزر التوابل الهند الشرقية. التوابل كانت بوضوح السلعة التي يُقصد إليها. ولما كانت أكثر مواشي أوروبا الحيّة تُذبح قُبيل كل شتاء، كان الاحتياج للتوابل لتحفظ

اللحم في الفصل البارد. ثم إن التوابل تُنكّه الطعام وتغطي على مذاق اللحم الفاسد. ولكنّ جُزُر التوابل (جُزُر صغيرة مثل أمبيونا، تيرنيت وتايدور إضافة إلى جزائر الهند الشرقية الكبيرة جاوة، وسومطرة، وسيليبس) كانت أصلاً تُتاجر بنشاط مع الهولنديين.

وبطردهم من الهند الشرقية، ركّز الإنجليز اهتمامهم على الهند بوصفها ثاني أفضل خيار؛ ونزلت شركة الهند الشرقية على الأرض الهندية عام ١٦٠٨. ووصل وليام هوكنز إلى صُرات، الميناء المزدهر على ساحل الهند الغربي. وكان على الإنجليز أن ينافسوا البرتغاليين أولاً ثم الفرنسيين آخراً. وحلّ هوكنز (كسفير بريطاني) مع بطانة الملك (الذي رشاه) إلى اكرا، عاصمة الإمبراطور المغولي جاهانكير (١٦٠٥-١٦٢٨)، وهو مسلم من أصل مغولي، يتكلم خليطاً من الفارسية والعربية، ويتربع حاكماً على عدد كبير جداً من المقاطعات الخاضعة والمسكونة بملايين الناس بأديان وثقافات متضاربة. ومن هذه البدايات البسيطة ومع سقوط الملك المغولي الأخير شاه علم عام ١٨٠٣، وبنهاية الحرب النابليونية عام ١٨١٥، صار البريطانيون في الهند السادة الذين لا يُنازعون لهذه القارة الهندية الهائلة حتى استقلال الهند عام ١٩٤٨[٧].

وعبر ٣٠٠ سنة من الوجود البريطاني واستعمار القارة الهندية، وأثناء الصلات البريطانية مع بلاد فارس المجاورة والأتراك العثمانيين، دخلت الكثير من الكلمات التي تبدو هنديةً، فارسية، أو تركية (وهي أصلاً عربية أو مُتبنّاة واستُعملت من قبل العرب) إلى اللغة الإنجليزية عن طريق الحُكّام البريطانيين والتُجّار أنفسهم. والكلمات الآتية هي فقط نماذج قليلة من الكلمات المُستعارة في اللغة الإنجليزية:

فمن الهندية جاءت الكلمات الآتية[٨]:

«آية من العربية علامة في الجمال والرحمة» (ممرضة أو خادمة)، و«كسمت من العربية قسمة والتركية قسمت (مصير أو نهاية)، و«كوران» (كتاب المسلمين المقدّس)، و«موغول» (مغول اسم السلالة الحاكمة الهندية العظيمة)، و«محمدي» (أحد اتباع النبي محمد ﷺ، أو مُسلم)، و«مسلم» (أحد اتباع الإسلام)، نيوب، نوّاب من العربية، نوّاب جمع نائب: أي وكيل» (أمير هندي مسلم)، و«بيجاما من العربية منامة، سروال فضفاض يُربط حول الوسط يلبسه المسلمون لتغطية العورة أو الأجزاء الخاصة» (لباس النوم في الاستعمال الأوروبي)، و«صاحب» (صديق محترم أو سير (سيد)، «سلام» (للتحية)، و«سيبوي من الفارسية سيباهي» (جُندي هندي في الخدمة الأوروبية) و«شاه» (ملك)، و«ثكي أو ثك من العربية شقيّ» (لص).

ومن الفارسية جاءت الكلمات الآتية:

«باربيكان، بابُ الخان» (برج مُراقبة على بوابة القلعة)، و«بخشيش» (حُلوان صدقة)، و«بازار» (سوق)، و«شيك ميت أو شاه مات» (الملك مات في لعبة الشطرنج)، و«شيس» (لعبة الشطرنج يلعبها الشاه)، و«خاكي» (ملابس بلون التراب تستخدم لباساً عسكرياً) و«بُردة» (الحجاب الذي تلبسه المسلمات، أو ستار حجب النساء)، و«شاه» (ملك).

ومن التركية جاءت الكلمات الآتية: «أنكورا» (ماعز يمتاز بطول شعره الأبيض يوجد في أنقرة)، و«بيه أو بيك» (حاكم)، و«بيكوم» (أميرة مُسلمة، مؤنث بيه)، و«بوش» (هُراء)، و«كباب» (كباب)، و«خان» (أمير)، و«خديوي» (نائب الملك)، و«يوغورت» (لبن).

٦. المسلمون في الأمريكيتين قبل كولومبوس:

موضوع التأثير العربي في اللغة الأمريكية أصبح حقلاً خصباً للبحوث المستفيضة المعاصرة؛ التي تستحق كتابتها في كتاب مستقل وحده.

المراجع

1. **John R Hayes** (Editor). **The Genius of Arab Civilization-Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976, pages 2, 12-13, 201-205.

2. **Al – Fallouji M A R. Publications (The Author):**

   a. Al-Fallouji M: **Notes on the early history of Medicine** (Arabic Medicine, Arabic Surgery. The Arabic Legacy. The Greek Medical Legacy). In **'POSTGRADUATE SRUGERY-The Candidate"s Guide'. By** MAR Al-Fallouji. Butterworth Heinemann Medical Books. Oxford. Second Edition (March 1998). Pp 616-620

   b. Al-Fallouji M: **Review of Literature** - Milestones, Pebbles and Grains of Sand (Chapter Two). In **'COLORECTAL VASCULAR PATTERNS IN HEALTH AND DISEASE-**An applied Anatomy, Physiology and Pharmacology at the Microcirculation Level ', **PhD Thesis.** By Dr MAR Al – Fallouji. December 1988. Royal Postgraduate Medical School/Hammersmith Hospital (UNIVERSITY OF LONDON). Pages 32-70

   c. Al-Fallouji: **History of Surgery of the Abdominal Cavity: Arabic Contributions.** (The First Large Bowel Anastomosis in the Literature) **International Surgery** September 1993; 78:3:236-8

   d. Al-Fallouji: **Arabic Caesarian Section: Islamic History and Current Practice** **Scottish Medical Journal** February 1993; 38:3-4

   e. Al-Fallouji: **Arabs were skilled in anesthesia.** **British Medical Journal** April 1997; 314:1128

   f. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery. Part I: General Considerations** **Emirates Medical Journal** August 1992; 10:174-7

   g. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Part II: Arab – Islamic influence on Europe** **Emirates Medical Journal** December 1992;10:250-4

   h. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Part III: Basic Applied Sciences in Surgery.** **Emirates Medical Journal** August 1993; 11:132-6

   i. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Parts IV and V: Clinical Methods and Operative Innovations.** **Emirates Medical Journal** August 1998; 16:129-34

   j. Al-Fallouji: Surgery (general) Item no. 537 **Current Work in the History of Medicine** April-June 1997, 174 An international Bibliographical Journal of references The Wellcome Institute for the History of Medicine.

   k. Al-Fallouji: **History of Laparotomy for Military Trauma according to the Original Arabic Manuscripts**. In «Proceedings of 34th International Congress of the History of Medicine» held at Glasgow, Scotland 4-8 September 1994 (published in September 1995). British Society of the History of Medicine

   l. Al-Fallouji: **Arabic Influence on English Language in Medicine and Routes of such Linguistic Transfer**. In «Proceedings of 36th International Congress of the History of Medicine» held at Tunis – Carthage 6-11 September 1998.

   m. Al-Fallouji: **Arabic Influence on European Medicine** (Invited Lecture delivered on 7th July 2004) **Thackray Museum Lectures 2004** Yorkshire Medical & Dental History Society Leeds (Great Britain)

n. Al-Fallouji: **History of Surgery in the Arab World** (Invited Lecture delivered on 11 Nov 1992) (Won the Prize for the best lecture)
3rd CONGRESS OF ARAB SURGEONS 10-13 Nov 1992 Tripoli, LIBYA

3. Ullmann M. **Islamic Medicine. Islamic Surveys 11**. Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1978.

4. Anna Pavord: **The Naming of Names** (The Search for Order in the World of Plants). Bloomsbury, London. 2005. pages 105 – 107.

5. a) Montgomery Watt W. **The Influence Of Islam On Medieval Europe.** Islamic Surveys 9 Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1972, Reprinted 1987.

   b) Henry Coppee. **History of the conquest of Spain by the Arab Moors with a sketch of the civilization which they achieved, and imparted to Europe** (volume II). Gorgias press. 2002

   c) Chris Lowney. **A Vanished World (Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5, 10-13, 255-260.

   d) Miles Hodges. **The High Middle Ages (1050 to 1400).**
   Retrieved from internet on 8/28/2006. Internet search through google.

   e) Wikipedia, the free encyclopedia. **Crusade.**
   Retrieved from internet on 8/29/2006. Internet search through google.

   f) Robert Jones. **A Brief History of the Inquisition.** Retrieved from internet on 8/28/2006. http://G:\The%Inquisition.htm

   g) Helen Ellerbe. **The Dark Side of Christian History**. Morningstar Books, 1995.

   h) William Forstchen and Bill Fawcett. **It Seemed like a Good Idea - A Compendium of Great Historical Fiascoes.** published by Harper 2000 under 'There is Nothing Worse Than an Idealistic War' pages 25-32.

6. Brewer E C. **The Dictionary of Phrase and Fable**. Cassell. Millennium edition revised by A Room. 2002.

7. Judd D. **The British Raj (The Documented History Series).** England: Wayland (publishers) Ltd, 1987.

8. **Hobson-Jobson The Anglo-Indian Dictionary**. By Henry Yule and A. C. Burnell.

   First published 1886 reprinted 1996. Wordsworth Reference (Wordsworth Editions).

9. Keith Laidler. **The Head of God-The Lost Treasure of The Templars**. Weidenfeld & Nicolson. London, 1998. Pages 169-221.

10. **John V. Tolan**. **Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York, 2002.

11. **Michael Frassetto and David Blanks**. Western Views of Islam in **Medieval and Early Modern Europe**-Perception of Other. St. Martin's Press. New York. 1999.

12. **QUOTATIONS ON ISLAMIC CIVILIZATION.** By Dr. A. Zahoor 1992،1997،1999. Website: Quatations on Islamic Civilization. mht.

☙❋❧

الفصل السادس:

جهاد اللغة العربية والإسلام ضد الصليبيين والمغول

دور اللغة العربية في جهاد الصليبيين والمغول

إن مدة الاجتياح الصليبي – المغولي لديار الإسلام، قرنين ونصف قرن من الزمان، من منتصف القرن الخامس إلى مطلع القرن الثامن الهجري (أي منتصف القرن الحادي عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر الميلادي)، وتحديداً من موقعة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ–١٠٧١م حتى موقعة شقحب ٧٠٢هـ–١٣٠١م (ويمكن مدها حتى فتح جزيرة قبرص عام ٨٢٩هـ–١٤٢٦م)، هي مدة جديرة بالدراسة والبحث وجديرة بالاعتبار والتعليم؛ لأنها تمثل أحلك مدة في التاريخ الإسلامي على الإطلاق؛ ولأنها حقبة عصيبة هددت وجود الإسلام بالاستئصال والزوال، وهددت لغة الإسلام، اللغة العربية، بالموت والانقراض (كما حصل ذلك في سقوط الأندلس عام ١٤٩٢م؛ إذ حُرِّم بعدها التدين بدين الإسلام، وحُرِّم التواصل باستعمال اللغة العربية، فزال الإسلام وزالت العربية معاً بعد قرن واحد من زوال دولة الإسلام بالأندلس).

هناك سببان آخران يستدعيان هذه الدراسة ويستحقان عناء البحث: أولاً، إن هذه المدة تمثل عصر احتكاك واتصال وتأثير لحضارة المشرق الإسلامي العربي في همجية الغرب الأوروبي النصراني، وفي وحشية الشرق المغولي التتاري. وهذا الاحتكاك والاتصال والتأثير عميق الأثر وبالغ الخطر وبعيد النظر، وترتب عليه خيرٌ وفير لأوروبا: كالتفكير العلمي الحر، وعصر النهضة الأوروبية، والإصلاح الديني البروتستانتي الأوروبي. وترتب عليه أيضاً هداية المغول وتحولهم من أمة متوحشة إلى أمة متحضرة تدين بدين الإسلام، الدين الذي حاربوه ابتداء، وتحالفوا والصليبيين لقهره، فقهرهم الله وهداهم، بدل ذلك، إلى الإسلام.

والسبب الآخر للدراسة والبحث: هو أنّ هذه المدة تمثل جذور الماضي لصورة الإسلام في أوروبا، ولنظرة الغرب الحديث للعالم الإسلامي اليوم، بل تمثل الخلفية التاريخية التي مهدت لأحداث الحاضر والمستقبل. فمن لا يفهم مدة الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، لايستطيع ولن يستطيع فهم الحملات الدعائية المستمرة لتشويه صورة الإسلام وسمعته، والاستعداء دونما سبب على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا فهمَ أسباب الحملات الغربية المتأخرة والمتعاقبة على بلاد الإسلام، وتصدي العثمانيين لها في جهادهم البطولي ضد تحالفات الغرب النصراني التي أدت من ثم إلى فتح القسطنطينية وما تبعها من مدّ التأثير الإسلامي العثماني في أعماق أوروبا؛ ولا فهمَ أسباب سقوط دولة الإسلام بالأندلس، ولا فهم محاولات الغرب الحديثة والحثيثة لاستعمار (استخراب) العالم الإسلامي والسيطرة عليه وعلى ثرواته، مثل دخول الفرنسيين (الفرنجة) إلى الشمال الإفريقي والمشرق العربي في سباق محموم مع الإيطاليين والإسبان (الرومان الكاثوليك) ومع الإنجليز البروتستانت (والأمريكان المنحدرين من نسلهم الأنجلوساكسوني)، ومثل محاولتهم اقتسام القارة السوداء كالكعكة بين الأوروبيين (وهكذا تسمى بالإنجليزية Scramble of Africa). حتى إن الغزو الأمريكي على العراق بقيادة الرئيس بوش الابن عام ٢٠٠٣م قد سُمي بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!!

وإذا كانت مدة الإسلام تمتد ١٤ قرناً من الزمان من تاريخ البعثة النبوية (وإن كانت جذور الإسلام تمتد إلى آدم)، فإنّ هذه المدة الحرجة، قرنين ونصف قرن، تمثل ١٧.٨٪ من تاريخ الإسلام الكليّ، فهي إذن بالفعل مدة جديرة بالدراسة والتعليم، وبالبحث والتقصي.

عندما ضعفت الخلافة العباسية الإسلامية (في أواخر عصرها) وتقطعت أوصالها إلى دويلات متناحرة في زمن ضعف الأمة الإسلامية إيماناً وجهاداً واجتهاداً، سهل انتصار الحملات الصليبية القادمة من الغرب وسهل تتابعها، وسهل اجتياح المغول العالم الإسلامي من الشرق. وواكبت اللغة العربية الأحداث الكبرى التي زلزلت العالم الإسلامي وهددت وجود المسلمين، وضيّقت عليهم دار الإسلام، إذ قامت بتسجيل هذه الأحداث الخطرة، ووثقت معاركها ووقائعها وحروبها الجهادية، إلى أن خرج الإسلام من عنق الزجاجة منصوراً، بل خرج من هذا القمقم المظلم كالمارد الجبار ليكيل الصاع صاعين لكلّ الغزاة المتوحشين من الفرنج الصليبيين الغاصبين، ومن جحافل التتار الكافرين.

ولم يكتف عمل اللغة العربية بمواكبة الأحداث وتوثيقها فحسب، بل كان للعربية عمل آخر، عمل ريادي جهاديّ قياديّ لصنع النصر عبر تأجيج حماسة الجهاد قبل المعارك، والتواصل والمراسلات والحرب الإعلامية والحرب النفسية مع أعداء الإسلام قبل المعارك وبعدها، وفي تخليد هذه الانتصارات، وفي فتاوى العماء بترشيد الأمة بضرورة قتال المغول الذين ادعوا الإسلام زوراً وهم يقتلون المسلمين ويحالفون الصليبيين؛ ثم بروز أهمية العربية في رفع الهمم لمعاودة القتال عند الانكسارات.

إنّ عمل العربية الجهادي باللسان وبالقلم لا يقلّ عن جهاد المسلمين بالمال والنفس، كما جاء في الأثر:

(مداد العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء)، و(يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء)، وقد قيل:

يا طالبي علم النبيّ محمد ... ما أنتمُ وسواكمُ بسواء

فمداد ما تجري به أقلامكم ... أزكى وأرجح من دم الشهداء

ويشير المتنبي إلى أن قوة الكلمة (الممثلة بالقلم) التي لا تخاف المنيّات؛ أي: الموت، هي أقوى على الأعادي من قوة المشرفيات؛ أي: السيوف:

قومٌ إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماءَ المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإن بَعدوا ... ما لا يُنال بحدّ المَشرفيّات

ويقول أبو الطيب المتنبي أيضاً:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنّن أن الليث يبتسم

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقد قيل:

أن النار بالعيدان تذكى ... وأن الحربَ مبدؤها كلام

ويؤيد ذلك ما قاله معروف الرصافي من المتأخرين:

وقلته بالقول لا بمُهنّدي ... والحربُ أحرى أن تكون مقالا

تستجد في مسيرة الجهاد أمور وتحدث قضايا تستوجب الاجتهاد. ومن هنا كانت مهمة العلماء العاملين المؤمنين المجاهدين في الاطلاع على أمور الاجتهاد لتقرير الحكم الشرعي بطريق البحث واستقراء الأدلة ووزنها. وكان التوجيه المعنوي والخطاب الإسلامي قبيل المعارك وفي أثنائها دوما باستخدام اللغة العربية، لغة الإسلام، سواء كان الجند عربيا أم عجما، تركا أم كردا، سودانا أم بربرا.

والعالم إنْ أصاب في اجتهاده فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وبهذا جاء الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد» وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. إن مهمة العلماء، ولاسيما أهل الاجتهاد، كبيرة في ظل احتلال العالم الإسلامي عبر تزويدها بالفتاوى لتصحيح مسيرتها وترشيدها.

ولقد قاد العلماء العاملون المجاهدون (بالقول والفعل) حملات التصدي للصليبيين والمغول، أمثال: سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، الذي خرج مُجاهداً مع جيش مصر بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ لردّ الحملة الصليبية السابعة على دمياط. وبتوفيق الله ثم جهاد المسلمين ودعوات هذا الشيخ المجاهد استُجيب له، فسخر الله الريح على سفن العدو، وانهزم الجيش الفرنسي، وأُسرَ ملك فرنسا لويس التاسع نفسه، وسُجن وذاق طعم الذلّ والهوان في سجن المنصورة.

وخرج الشيخ العز بن عبد السلام أيضاً مجاهداً مع جيش المماليك وأمة الإسلام بقيادة الملك المظفر قطز لردّ جحافل المغول وبتوفيق الله ودعوات السلطان المجاهد قطز ودعوات الشيخ المُستجابة في ميدان المعركة في عين جالوت، قهر الله جحافل المغول وأبادهم عن بكرة أبيهم، وتحطمت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، ليبدأ بذلك العد التنازلي لانهيار إمبراطورية المغول.

ثم خرجت جيوش الإسلام من الشام ومصر لإنهاء الوجود الصليبي المتبقي في عكا، وتطهير ديار الإسلام منهم نهائياً؛ وخرج شيخ الإسلام ابن تيمية مجاهدا مع جيش الشام إذ ذاك، وأدهش المقاتلين بصنائعه في فتح عكا، آخر معقل وعاصمة لمملكة الصليبيين في ديار الإسلام. ثم خرج هذا الشيخ المجاهد ابن تيمية في جيوش الشام ومصر بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون ضد جحافل المغول في معركة شقحب، التي نصر الله بها المسلمين النصر النهائي الساحق المؤزّر على جيوش المغول.

وكان للغة العربية، لغة الإسلام، عمل ريادي في اجتهاد العلماء بضرورة قتال المغول الذين ادّعوا الإسلام زوراً، وهم يقتلون المسلمين ويحالفون الصليبيين، كما ورد ذلك في رسالة ابن تيمية الرائعة والخطيرة قبيل موقعة شقحب المباركة.

وكانت المراسلات بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون البطل وبين إيلخان المغول محمود قازان المجرم باللغة العربية، ثم كان الانتصار في موقعة شقحب انتصاراً فيصلياً للإسلام، وكان أيضاً انتصاراً عظيماً للغة العربية، لغة الإسلام الخالدة.

لقد كان لهذه اللغة المباركة، لغة القرآن والإسلام، أبلغ الأثر في بعث هذه الأمة الإسلامية من رقادها وسباتها، وفي تجديد إيمانها ودينها لتنتفض وتصحو من جديد، ولتقف ثانية: كي تدافع عن بيضة الإسلام، ثم لتوجّه الضربات القاضية وتدحر أعتى قوتين في العالم آنذاك: اتحاد أوروبا الصليبي، وجموع المغول العاتية، بالضبط كما قام أسلاف هذه الأمة المباركة بتقويض إمبراطوريتي الفرس والروم من قبل. وقد أثرت اللغة العربية في استنهاض هذه الأمة الإسلامية، وتمكينها من جديد، عبر تأثيرها في مجالين اثنين بالتحديد: في مجال التوحيد، وفي مجال الجهاد (أي في مجال التوعية والمعنويات الروحية، وفي مجال العمل الميداني).

١- بعثت العربية مفهوم التوحيد بالله رباً ومعبوداً، ومجّدت أسماء الله الحسنى بمفرداتها اللغوية الواسعة:

فالله هو المُقدّر لما يحدث، وهو مقلب الأمور، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠-٣١]، وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل؛ إذ روي هذا المعنى مرفوعاً عن علي بن أبي طالب ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتب الله حدّث بها النبي ﷺ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾» الآية.

«يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم. والله أكرم من أن يُثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه» [تفسير القرطبي]. قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفّره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سُنّة الله مع المؤمنين؛ وأما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة [فتح القدير للشوكاني]. بل إنّ الله قد يفتح على الكافرين المشركين بالأموال والانتصارات المؤقتة في الدنيا، مكراً منه واستدراجاً لهم قبيل استئصالهم فجأة وبغتة على حين غرة ودون مقدمات: قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

والله هو الناصر، وهو القاهر فوق عباده، وإن نصر الله مضمونٌ لمن ينصر دين الله ويأخذ بالأسباب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]؛ فنعم المولى ونعم النصير.ثم إنّ الإيمان بالله الواحد يقتضي الإيمان بقدر الله، وإنّ كلّ نفسٍ لا تموت إلا بإذنه بعد أن تستوفي أجلها كتاباً محتوماً مؤجلاً، والأعمار كلها بيد الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ [التوبة: ٥١-٥٢].

ثم إن الله هو وحده الرزاق الوهاب الكريم، وهو وحده مالك الملك، القابض الباسط، الخافض الرافع، المُعزّ المُذلّ، المغني المانع، والضّار النافع، كما ورد في الدعاء **(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت)**. وتقتضي عقيدة التوحيد إذن أن من يعبد الله وحده (لا يشرك به شيئاً)، لا يخاف أحداً من عباد الله أبداً؛ **لأن الله هو وحده ربّ الأرباب، ومسبّب الأسباب، وهازم الأحزاب.**

فإنّ دفع الصائل وإخراجه من ديار الإسلام، في المنظور الشرعي، هو الجهاد في سبيل الله أي: أن يقاتل المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، يقاتل وهو يحمل عقيدة التوحيد: عقيدة لا إله إلا الله، يقاتل وهو يسعى إلى إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله، والله ضامن نصر المؤمنين وضامن إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

قال تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، فقد ذكر الله سبحانه السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٥١].

وشوب عقيدة المسلمين بعدم الإخلاص لله، وخلوها من تمام التوكل على الله، وامتزاجها بالبدع والأباطيل، لما عاقبة أنّ الله لن ينصره برغب أعدائه المشركين.

ثم إن ضعف الإيمان يُضعف الثبات في المعارك، ويؤدي إلى الفرار والهزيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. يخبر الله تعالى عن حال الذين انهزموا يوم (أحد) وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، فلم يعتصموا بطاعة ربهم.

ثم إن اليقين بنصر الله تعالى، وأن النصر من عند الله لا من غيره، هو أساس الاعتقاد الصحيح في ميدان المعارك والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]؛ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعُدد؛ لأن الله لا مُغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم. ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ فلابد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق؛ وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة؛ ولهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فتقديم المعمول يؤذن بالحصر: أي: على الله توكلوا لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. (انظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]. ذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وظل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك، حين رميت التراب، أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

إن في التوحيد كمال الإيمان، وهو جماع الأسباب كلها، فهو إذا تحقق فلابد أن تأتي أسباب النصر الأخرى له تبعاً؛ ولذا وعد الله المؤمنين في أكثر من موضع في كتابه العزيز بالنصر والتمكين والاستخلاف، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

وترجمت اللغة العربية معاني التوحيد عملياً في ضرورة توحيد البلاد والعباد، فكلّ بني الإنسان خلق الله بلا تفضل عرقي أو طبقي، ولا فرق بين عربيّ وأعجمي إلا بالتقوى، ولن يصلح آخرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أولها؛ كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: (نحن العرب أذلة، أعزّنا الله بالإسلام، فمهما حاولنا العزة بغير الإسلام أذلنا الله). فمهما

كانت الألقاب والشعارات - دون العودة المخلصة إلى دين الإسلام الحق - فستظل الأنانيات الشخصية ودويلات الطوائف الضعيفة تنخر في جسد الإسلام. وصدق محمد بن عمار المهري الأندلسي القائل:

ممـــا يزهـــدني في أرض أنـــدلس	ألقـــابُ معتصـــم فيهـــا ومعتضـــد
ألقـــابُ مملكـــة في غـــير موضـــعها	كـالهرِّ يحكـي انتفاخـا صـولة الأسـد

إن تفرق الكلمة سبب للفشل وذهاب القوة والهيبة من نفوس الأعداء، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. بل قد يتحول النصر إلى هزيمة، لكن اجتماع الكلمة لايكون كيفما اتفق، وإنما باجتماع المسلمين على المنهج الحق في الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

إن الإسلام هو دين العالمين جميعاً، ولأن العرب آنذاك قد ضعفت شوكتهم وعملهم القيادي، فإنّ الله قيّض لأمة الإسلام من يقوم بأمر الإسلام وقيادته، فاستبدل بالعرب إخوانهم الأتراك السلاجقة، وآل زنكي التركمان، وبني أيوب الأكراد، والمماليك الشراكسة التركمان، ثم آل عثمان الأتراك، وآذابهم جميعاً مع العرب في بوتقة الإسلام الكبيرة وفي حاضنته الجامعة، ليحملوا راية الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ أي: إخوة تربط بين جميع المؤمنين الأولين والآخرين، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، رؤساء ومرؤوسين. قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضاً**» وشبّك بين أصابعه. رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى**» رواه البخاري ومسلم وأحمد. وعن عليّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مسلمٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده**» رواه أبو داود والنسائي، ورواه ابن ماجة عن ابن عباس؛ أي: تتماثل دماؤهم فلا فضل لبعضهم على بعض، فيقتل مثلاً القرشي بغير القرشي، ويقتل الحسيب النسيب بغيره، عدا ما خصّ به الحديث «**ألا لا يقتل مسلم بكافر**»، فإذا قتل مسلمٌ كافراً فإنه لا يقتل به، وإن كان المسلم ظالماً مستوجباً للعقاب؛ لأن الكافر لا يتكافأ دمه بالمسلم الذي هو أكرم على الله من الكافر.

ومن ثم كان للغة العربية أبلغ التأثير في استعراب المسلمين من غير العرب، عبر تعايشهم مع العرب لغةً وتواصلاً وحياةً (ولا يضرّ إن كان استعراب بعض العثمانيين لم يصل حدّ الكمال)، ثم صار هؤلاء قادة الفتوح الإسلامية الجديدة، يتبعهم في ذلك جموع المسلمين من العرب والأتراك والأكراد والبربر والسودان وغيرهم، حتى صاروا يُسمون بـ "سلاطين العرب والمسلمين". وتصاهروا بوشيجة الإيمان، بل امتزجت دماؤهم جميعاً في ميادين الجهاد في سبيل الله. وكان أول ما فعله هؤلاء القادة المسلمون (غير العرب) هو توحيد لحمة العالم الإسلامي بتوحيد مصر والشام، وآسيا الصغرى وضمّها إلى العراق والحجاز واليمن. إنّ توحيد مصر والشام تحديداً سرعان ما كوّن فكي كمّاشة أطبقت تدريجاً على دويلات الصليبيين في القدس وساحل البحر المتوسط، قبل خنقها والإجهاز عليها وطردها من ديار المسلمين إلى الأبد.

وينبثق من التوحيد بالله ومن توحيد البلاد والعباد ضرورةُ العدل بين العباد، والعدل أساس الملك، بل هو أصل من أصول التمكين في الأرض، وخاصةً **العدل المالي بين الرعية**، إذ يشتري الحاكم العادل به قلوب الرجال.

فيقاتلون معه بأرواحهم قتال رجل واحد. وسنرى أن العدل المالي قبيل المعارك مع الجهاد الخالص في سبيل الله طلباً لشهادة كانا الخلطة السرية للانتصارات الإسلامية الساحقة في استعادة الرها أيام عماد الدين زنكي، وفي تل حارم الفاصلة أيام العادل نور الدين محمود، وفي حطين وفتح القدس أيام صلاح الدين الأيوبي، وفي عين جالوت أيام المظفر قطز، وفي حمص الأولى، وفي واقعة الفرات، وفي أبلستين أيام الظاهر بيبرس، وفي حمص الثانية أيام الناصر قلاوون، وفي فتح عكا أيام الأشرف خليل ابن قلاوون، وفي معركة شقحب أيام المنصور محمد بن قلاوون، وفي الفتح الثاني جزيرة قبرص أيام السلطان الأشرف برسباي.

بل إن للغة العربية أبلغ الأثر في التخطيط السليم ووضع الرؤى الإسلامية موضع التطبيق والتنفيذ. ولتبيان ذلك فإن مرسوم الخليفة العباسي المستضيء بالله لتقليد صلاح الدين السلطان الناصر في مصر والشام يمثل خريطة طريق دقيقة لسيرة صلاح الدين المستقبلية. وهذا المرسوم المكتوب بأجمل كلمات اللغة العربية الرصينة، والمطعم بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحكيمة، سرعان ما استجاب لها صلاح الدين بنحو حرفي بروحه وقلبه وعقله، فكانت هذه الرسالة الفريدة (انظر هذه الرسالة تحت صلاح الدين) عميقة الأثر، بعيدة النظر، عظيمة الخطر في المسيرة الظافرة للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

٢. **بعثت اللغة العربية روح الجهاد والتعبئة العسكرية، وغدت مفرداتها أدب العسكرية، وعسكرة العالم الإسلامي؛ لينهض ويتصدى للأخطار المحدقة به.**

والحقيقة أن للعربية جهاداً لا يقلّ عن جهاد أبنائها. فالعربية هي لغة كلام الله تعالى، القرآن، والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته "فريضة" فرضها الله في القرآن بعد ذكره فريضة الصلاة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨]؛ وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

والجهاد هو عنصر النصر والتمكين الأكبر للمسلمين على أعدائهم الكافرين، بل لقد أنذر الله تعالى هذه الأمة بالذلّ إن هي فرّطت بالجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

ثم إنّ الله عزّ وجل جمع وأجمل تدابير الحرب كلها في آيتين جميلتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]. وقال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله، وإن جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت**».

قال أبو بكر الصديق ﷺ لخالد بن الوليد: "احرص على الموت، توهب لك الحياة". ومن كلام علي بن أبي طالب ﷺ: "ربّ حياة سببها التعرض للموت، وربّ منية سببها طلب الحياة". وقال ﷺ أيضاً: "مَن أكثر النظر في العواقب، لم يشجع".

ومن أدبيات العسكرية الإسلامية ومستلزماتها: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وعدم موالاة الكفار، وطاعة الأمير، وحسن الظن بالله:

التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: ربط القرآن **الإيمان بالعمل**، وعدّ العمل الصالح شرطاً للإيمان (في أكثر من سبعين موضعاً)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾؛ أي: مصيرهم إلى النار، واستثنى الله منهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]. وقال عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال أيضاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]؛ **فالعمل والمشي في مناكب الأرض ينافي التواكل والتقاعس والقعود، ولا يتعارض مع التوكل على الله؛ لأن التوكل على الله من صميم الإيمان بالله، إذن لا بد من إيمان ومن عمل.**

والتوكل على الله سبحانه وتعالى لا يمنع من الأخذ بالأسباب. عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: «**اعقلها وتوكل**». وهذا الحديث أصل في التوكل، وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز مع الأمر بالتوكل. وعن عمر بن الخطاب ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً**»، وفي هذا حث على التوكل على الله مع أهمية الأخذ بالأسباب، إذ أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها. إن الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى. وقد جمع النبي رسول الله ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، إذ يقول ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**».

إنّ المُسبَّبات، لا بد لها من أسباب، والله وحده هو مُسبِّب الأسباب كلها. والأخذ بالأسباب من شيم المرسلين والصالحين، وتركه من شيم البطالين الدراويش الذين يريدون أن يعيشوا على الصدقات والهبات. فها هو نوح — عليه السلام — أمره ربه تبارك وتعالى بإعداد سفينة عملاقة لحمل الأحياء من كل زوجين اثنين ومن آمن من البشر، ولو شاء الله أن ينجيه لنجاه، ولكنه أرشده إلى الأخذ بالأسباب.

وها هو موسى عليه السلام أمره ربه تبارك وتعالى أن يضرب البحر بعصاه؛ وهل تشق العصا البحر؟! ولكنها الأسباب، فإذا بالبحر فرقتين، كل فرق كالطود العظيم. ولو شاء الله أن يجعله كذلك من غير ضرب بالعصا لفعل، ولكنه ليُعلّم أنبياءه وعباده الصالحين الأخذ بالأسباب، وكذا ضربه الحجر بالعصا لينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، كل هذا لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان.

وها هي مريم — عليها السلام — أمرها ربها تبارك وتعالى، وهي في المخاض، أن تهز النخلة لتسقط عليها رطباً جنياً، ومن المعلوم أن المرأة أضعف ما تكون قوة في هذه الحال، ومع هذا أيضاً لو هز النخلة عشرة رجال من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ولكنها الأسباب:

ألم تــــرَ أن الله أوحــــى لمــــريم	وهــزّي إليـك الجـذع تسّـاقط الرطـبْ
ولـو شـاء أن تجنيـه مـن غـير هزهـا	جنتـه ولكـن كـل شـيء لـه سـبباً

وأكدت السنة النبوية الشريفة العمل والأخذ بالأسباب، فقال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار**»، فقيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟، فقال: «**لا اعملوا، فكلّ ميسر لما خُلق له**» رواه البخاري. وقال في حديث آخر: «**اعقلها وتوكل**». وقال ﷺ أيضاً: «**أطيب الكسب عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور**». وقال ﷺ: «**تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء**» رواه أحمد.

فالأخذ بالأسباب واجبٌ شرعي، فمن أراد الكسب الشريف سعى إليه، ومن أراد الذرية تزوّج، ومن أراد النجاح درس، ومن أراد الشفاء أخذ الدواء. وها هو ذا نبينا محمد ﷺ جاهد الكفار والمشركين، وحفر الخندق حول المدينة، وكان يمشي في الأسواق لتحصيل الرزق، وكان يقول ﷺ: «**جُعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي**». ويروى عنه

ﷺ أنه قال: «**لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن** الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]».

وكان رسول الله ﷺ، وهو أفضل المتوكلين، أوعى الناس لهذه السنة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً، والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تماماً. ففي الهجرة لم يترك رسول الله ﷺ أمراً من الأمور إلا أعد له عدته أفضل إعداد، فقد أعدَّ النبي ﷺ الرواحل والدليل، واختار الرفيق، وساعي الطعام، والأغنام ليعمي على آثارهم، والمكان الذي سيتوارى فيه هو وصاحبه حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس، وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر، والكتمان، وأسباب الاحتياط، وترك للإرادة الإلهية، بعد ذلك، ما لا حيلة له فيه. وجميع غزوات رسول الله ﷺ وكل أموره فيها إلى الله تعالى، بل حتى في ليلة الإسراء، ركب الرسول ﷺ (دابته) البُراق حتى أتى المسجد الأقصى، وربط الدابة في الحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء من قبل، ثم دخل المسجد وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السموات العُلا (حائط البراق تابع للمسجد الأقصى، ويسميه اليهود بحائط المبكى)؛ وركوب النبي ﷺ البراق في رحلة الإسراء، وربطها بالحلقة هي من باب الأخذ بالأسباب.

وكان رسول الله ﷺ يوجه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السنة الربانية، في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء، ففي أمورهم كان النبي رسول الله ﷺ يرشدهم دائماً إلى الأخذ بما يمكن من أسباب للوصول إلى حياة كريمة بعيداً عن ذل السؤال ومهانة العوز والحاجة. روى أبو داود والترمذي، أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله عطاء، فقال الرسول ﷺ: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى؛ حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه. قال ﷺ: «**ائتني بهما**»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشتري مني هذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: «**من يزيد على درهم؟**» مرتين أو ثلاثاً، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال له: «**اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فائتني به**»، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً**»، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة سوداء في وجهك يوم القيامة**».

ومن أهم عناصر الجهاد في سبيل الله الإعداد والاستعداد، فهو من الأخذ بالأسباب ومن مستلزمات العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقوله في سورة الأنفال: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ يشير إلى أقصى حدود الطاقة، إذ لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة التي في طاقتها. والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً لحصول القوة. وذكر الفخر الرازي فيه وجوهاً:

١. المراد من القوة أنواع الأسلحة.

٢. ورد أن النبي رسول الله ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «**ألا إن القوة الرمي**»، قالها ثلاثاً.

٣. قال بعضهم: القوة هي الحصون.

4. قال أصحاب المعاني: هذا عام في كل ما يُتقوّى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة. وقوله ﷺ: «**القوة الرمي**»؛ والرمي هو القتل عن بعد بسهام القسي والنشاب، والرمح، والقذائف اليدوية، والمدفع، والمنجنيق، والعرادات بالحصى والبندقة والحجارة والنار والبارود — ويشمل حديثاً المسدس، والبندقية، والرشاش، والصواريخ وغيرها. والحديث لا ينفي شمول القوة لغير الرمي (مثل قوله ﷺ: «**الحج عرفة**»، علماً أن عرفة ركن واحد من الحج). ويفهم من مجيء كلمة "قوة" نكرة لا معرفة، جاءت بعد أقصى الجهد (ما استطعتم من قوة)، أنها تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد، فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة، بما فيها الحرب النفسية، وحرب الإعلام، وقوة الاستخبارات.

ولذلك حثّ النبي ﷺ المؤمنين على أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة. فقال ﷺ في حديثه الجامع: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

عدم موالاة الكفار: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩–١٥٠]. هاتان الآيتان الخطيرتان جاءتا في أثناء الحديث عن غزوة أحد؛ لتحذر المسلمين من مجرد التفكير في موالاة الكفار، سواء كانوا كفاراً مصرّحين بكفرهم أم كانوا منافقين. فمهما اشتد الكرب فلا يجوز للمسلمين أن يضعوا أيديهم في أيدي الكفار راكنين إليهم، فإن العاقبة وخيمة جداً كما يقول الله خالق البشر، وهو قول الحق: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]. ومعنى ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ تخبرونهم﴾ سرائر المسلمين وتنصحون لهم؛ قاله الزجّاج؛ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة الصحابي البدري الذي فعلها مرة واحدة، وقبل النبي ﷺ عذر حاطب لجهاده في معركة بدر، ولما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش؛ ليتخذ فيهم يداً يحمون به قرابته من الأولاد والأموال، وموالي الكفار يجتهد فيه الإمام.

وقال عبدالملك: إذا كانت عادته تلك، قُتل؛ لأنه جاسوس؛ وقد قال مالك بقتل الجاسوس — وهو صحيح؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه إلى الفساد في الأرض. ولعل ابن الماجشون إنما اتخذ التكرار في هذا؛ لأن حاطباً أخذ في أول فعله. وذكر أن حاطباً لما سمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان؛ انظر: تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير].

وسورة الممتحنة هذه أصل في النهي عن موالاة الكفار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]. إنّ ضعاف النفوس عند الهزيمة يستظلون بقوة الكفار، ويتطلعون إليهم يتلمسون العزة عندهم، لكن الله تعالى ينذر: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ويبشر: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾، والتاريخ خير شاهد (كما سنرى) على ما حدث من تحالف العبيديين (الفاطميين) بمصر مع الصليبيين والنصارى، فانقلبوا وبالاً عليهم، وحين دخلوا بلادهم بدعوة الوزير العبيدي الخائن (شاور) لم يرقبوا في مؤمن ولا قبطي إلاً ولا ذمة في مذبحة بلبيس بمصر.

وكما حدث في اجتياح المغول ودخولهم إلى بغداد، بتحالف الوزير الرافضي الخائن (ابن العلقمي)، فقتل المغول بوحشية لم يعهدها التاريخ الآلاف المؤلفة، وذبحوا أهل السنة والشيعة بلا تمييز؛ كذلك ما حدث لمسلمي الأندلس في محاكم التفتيش بعد أن أطاعوا النصارى ووالوهم وركنوا إليهم، فكانت النتيجة أن استأصلوهم كلهم على الرغم من تحولهم إلى دين النصارى قسراً.

طاعة الأمير بالسمع له وبعدم مخالفته: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. قال العلماء: نزلت الآية في الرعية من الجيوش وغيرهم: أي: عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يؤمروا بمعصية الله، فإن أُمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله. ففي معركة أحد، حدّد الله تعالى أسباب الهزيمة، ولم يدعها لاجتهاد مجتهد ليقول: إن سبب الهزيمة هو التفاوت والفارق في العدة والعدد بين الجيشين (كان عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، بصحبتهم سبع مئة درع، وثلاثة آلاف بعير، ومئتا فرس، في حين كان عدد المسلمين سبع مئة مجاهد، ومئة درع، وفرسين فقط).

إنما سبب الهزيمة كما يقول الله هو سبب داخلي لا خارجي، مجيباً بذلك على تساؤل الصحابة، حينما قالوا: (أنى هذا؟) [آل عمران: ١٦٥]، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وفي هذه إشارة إلى مخالفة الرماة أوامر الرسول ﷺ حينما نزلوا من الجبل، وكانوا سبباً في الهزيمة، وفصّل سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

حسن الظن بالله نصراً كان ذلك أم هزيمة. المد والجزر الذي ينتاب الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها، إنما هو في مدى قربها أو بعدها عن الله تعالى، فمتى كانت الأمة قوية في دينها مطيعة لربها مستمسكة بسنة نبيها عزت وسادت، ومتى اختل شيء من ذلك ضعفت واستكانت. ولابد من أن يكون للمعارك مد وجزر؛ لأسباب قدرية أو شرعية، أو كليهما، ولكن الأصل هو نصر المسلمين. فإن كان للباطل ساعة، فالحق قائم إلى قيام الساعة. قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨] والوهن هو ضعف العزيمة والقدرة على العمل، بل إن الهزيمة النفسية تفعل في الأمة أشد من فعل أعدائها بها. إن المؤمن لاينبغي له أن يهن ولايحزن ولا يضعف ولا يستكين، وهو الأعلى بإيمانه وعزته وعون ربه له. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وكيف يهن ويحزن لما أصابه وقد أصاب الكفار في وقائع أخرى مثل ما أصابه أو أكثر؟! ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. لكن الفرق بين المؤمنين والكافرين فيما أصابهم يكمن في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وكيف يهن المسلم ويحزن وهو يعلم أن انتصار الكفار على المؤمنين سُنّة ماضية، لله عز وجل فيها حكمة بالغة والعاقبة للمتقين؟! ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٢]. ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

بل إن للغة العربية، في الجاهلية والإسلام، أجمل المفردات اللغوية وأصدق الأمثال والأشعار في أدب العسكرية والفروسية والمنازلات الميدانية، وفي المكر والخديعة في الحرب، وفي الصبر والمصابرة، وفي النفس الطويل في الجهاد والمجاهدة في سبيل الله. فمثلاً مما قالته العرب: أجمعُ كلمةٍ قيلت في الصبر: (الصبر مطية النصر). وقالت العرب (إن من يُقتل مُدبراً، أكثر ممن يُقتل مُقبلاً). وقالت أيضاً: (الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة). وعندما جاء الإسلام ارتفعت مكانة اللغة العربية إلى ذرا العلياء والمجد، وبارك الله في مُفرداتها وزكّاها وجعلها هادفة، إذ جعل الجهاد كله في سبيل الله؛ من أجل الفوز بالجنة أو النصر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

كتب خالد بن الوليد إلى مَرازبة فارس مع ابن نفيلة الغسّاني: (الحمد لله الذي فضّ خُرمتكم، وفرّق جمعكم وأوهن بأسكم، وسلبَ مُلككم، وأذلّ عزّكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية. وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا). ويكرر خالد بن الوليد مقولته هذه في رسالته إلى قائد جيوش الفرس (هرمز): (لقد جئتك بقوم يحبّون الموتَ في سبيل الله تعالى كما تحبّون أنتم الحياة لمتاعها الزائل!).

وعلى الرغم من كثرة غزوات خالد بن الوليد ومنازلاته ومبارزاته، فإنه عندما كان على فراش الموت في مدينة حمص قال: (ما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة أو رمية سهم. وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير... فلا نامت أعين الجبناء). ويموت البطل خالد بن الوليد (عام ٦٤٢م)، ولم يترك وراءه ثروة، مع أنه فتح بلاد الشام وفيها الثروات الهائلة.

قال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو قبيل معركة نهاوند (المسماة "فتح الفتوح") مع الفرس (إني هازٌّ لكم الراية، فليُصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشدّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازّها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصته؛ ثم إني هازّها لكم الثالثة وحاملٌ، فاحملوا على اسم الله). وللنعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب ﷺ: إذ تكاملت عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: (لأقلدن أعنتها رجلاً يكون غداً لأول أسنةٍ يلقاها). فقلدها النعمان بن مقرن ﷺ.

قيل للمهلب بن أبي صفرة: إنك لتلقي نفسك في المهالك، فقال: (إن لم آتِ الموت مُسترسلاً، أتاني مُستعجلاً، إني لست آتي الموت من حُبّه، وإنما آتيه من بُغضه)، وتمثل بقول الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد	لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

وهي قصيدة مشهورة منها:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا	ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من كرامٍ أعزةٍ	علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما
ولما رأينا الصبر قد حيل دونه	وإن كان يوماً ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجيةً	بأسيافنا يقطعن كفاً ومعصما
ولما رأيت الودّ ليس بنافعي	عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بسُبّةٍ	ولا مُرتقٍ من خشية الموت سُلما

وما زالت العرب يتمادحون بالموت قعصاً (أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه)، ويتسابّون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلانٌ حتف أنفه، وأول من قال ذلك رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب: (إنْ يقتل، فقد قتل أخوه وأبوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف).

قال عنترة الفوارس (عنترة بن شدّاد):

بَكَرَتْ تخوّفني الحتوفَ كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنيّة منهلٌ ... لا بد أن أُسقى بكأس المنهل

فاقني حياءك، لا أبالك، واعلمي ... أني امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتل

وقول عنترة أيضاً:

أروم من المعالي منتهاها ... ولا أرضى بمنزلة دنيه

فإما أن أشال على العوالي ... وإما أن توسدني المنيه

ومن طلب العلا سهر الليالي وتجشم الصعاب، وما أحسن قول عبد المطلب جد نبينا محمد ﷺ:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ... وإن تسلت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

يقول العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني: (رتبة الشرف لا تنال بالترف، والسعادة أمر لا يدرك إلا بعيش يفرك، وطيب يترك، ونوم يطرد، وصوم يسرد، وسرور عازب، وهمّ لازب، ومن عشق المعالي ألف الغمّ، ومن طلب اللآلىء ركب اليمّ، ومن قنص الحيتان ورد النهر، ومن خطب الحصان نقد المهر).

وهذا كما قال الشاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعدّدت الأسبابُ والموت واحد

ومثله قول جرير من قصيدة أولها:

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... ما أنت من شَرَك المنيّة ناجي

وقال آخر:

وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا ... ونترك أخرى مرةً ما تذوقها

وقال المتنبي:

فطعم الموت في أمرٍ حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وقال حبيب بن أوس الطائي:

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ حسبتهم ... لم يحسبوا أن المنية تخلق

انظر بحيث ترى السيوف لوامعاً ... أبداً وفوق رؤوسهم تتألق

قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ يوم صفين: أتقاتل أهل الشام بالغداة، وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟ فقال: (أبالموت تخوفونني؟ فوالله ما أبالي، أسقطتُ على الموت، أم سقط الموتُ عليّ).

وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثل بهذه الأبيات:

أبـت لـي شـيمتي وأبـى بلائـي	وأخـذي الحمـد بـالثمن الـربيح
وإقـدامي علـى المكـروه نفسـي	وضـربي هامـة البطـل المشـيح
وقـولي كلمـا جشـأت لنفسـي	مكـانك تحمـدي أو تسـتريحي
لأدفـع عـن مـآثر صـالحاتٍ	وأحمـي بعـدُ عـن عـرضٍ صحيح

وقال السموءل بن عادياء:

ومـا مـات منـا سـيّد في فراشـه	ولا طـلّ منـا حيـث كـان قتيـل
تسـيل علـى حـد الظبـات نفوسـنا	وليسـت علـى غـير السـيوف تسـيل
ومـا قـلّ مـن كانـت بقايـاه مثلنـا	شـبابٌ تسـامى للعـلا وكهـول
إذا سـيّد منـا خـلا قـام سـيّدٌ	قـؤول لمـا قـال الكـرام فعـول
ومـا أخمـدت نـارٌ لنـا دون طـارق	ولا ذمّنـا في النـازلين نزيـل
وأيامنـا مشـهورة في عـدوّنا	لهـا غـررٌ معلومـةٌ وحجـول
وأسـيافنا في كـل شـرقٍ ومغـرب	بهـا مـن قـراع الـدارعينَ فلـول

وهذا هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا، يحجّ سنة، ويغزو سنة، حتى إنه عندما سار لغزو الروم (وقد لبس على رأسه قلنسوة) قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمـن يطلـب لقـاءك أو يـرده	فبـالحرمين أو أقصـى الثغـور
ففـي أرض العـدو علـى طمـرٍ	وفي أرض الترفـة فـوق كـور

وهذا عبد الله بن المبارك العالم الفقيه الحافظ (١١٨-١٨١هـ) يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيراً ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه على الثغور يغزو الروم؛ لأنه يرى الجهاد فريضة يجب تأديتها كما أداها الرسول ﷺ. ويُروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه العالم الزاهد (الفضيل بن عياض) يدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام، ويحثُّه على قتال الأعداء، بقوله:

يـا عابـدَ الحـرمين لـو أبصـرتنا	لعلمـتَ أنّـكَ في العبـادة تلعـبُ
مَـنْ كـانَ يخضـبُ خـدّه بدموعـه	فنحورنـا بـدمائنا تتخضـبُ
أو كـان يتعـبُ خيلـه في باطـل	فخيولنـا يـوم الصـبيحة تتعـبُ
ريـحُ العـبير لكـم ونحـنُ عبيرنـا	رَهَـجُ السـنابك والغبـارُ الأطيـبُ
ولقـد أتانـا مـن مقـال نبيّنـا	قـولٌ صـحيحٌ صـادقٌ لا يكـذبُ
لا يسـتوي غبـارُ أهـل الله في	أنـف امـرئ ودخـانُ نـارٍ تلهـب
هـذا كتـابُ الله ينطـقُ بيننـا	لـيس الشـهيدُ بميـتٍ لا يكـذبُ

و يتوفى هذا العالم المجاهد في شهر رمضان سنة ١٨١هـ وهو راجع من الغزو، وعمره ٦٣ عاماً وحين يصل خبر موته إلى هارون الرشيد يقول فيه: (مات اليوم سيّد العلماء).

يقول أبو تمام في فتح عمورية على يد المعتصم الخليفة العباسي:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

أين الرواية؟ بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

ثم ما جدوى السلاح والآلات بدون أبطال يحملونها، ومهندسين ينصبونها... وما جدوى خيل بغير خيّال، أو قوس بغير فارس، أو سيف صارم بغير بطل؟!

وما أجمل ما قاله الطغرائي (الأديب السلجوقي المسلم)، في أنّ قيمة السلاح تتمثل في قوة الإرادة والإيمان لحامله:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

إن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويدُ حامله إنما يحرّكها إيمانٌ برسالة وهدف في سبيل الله، وهذا هو ما يُعبأ به الجنود.

يقول أبو الطيب المتنبي:

وما تنفع الخيل الكرامُ ولا القنا ... إذا لم يكن فوق الكرام كرامُ

ومن أجمل ما قيل في بركة الله للمجاهدين في الأهل والولد قول عليّ بن أبي طالب ﷺ: "بقية السيف أنمى عدداً، وأطيبُ ولداً". يُريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددُهم، ونما ولدُهم. ومما يستدل به على صدق قوله: ما عمله السيف في آل الزبير، وآل أبي طالب، وما كثر من عددهم.

ثم إنّ للمكر في الحرب ضرورة لا تقلّ أهميةً عن المنازلة القتالية نفسها، فيقول النبي ﷺ: «**الحرب خدعة**».

قال المهلب لبنيه: "عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها خير من النجدة".

وكان المهلب يقول: "أناة في عواقبها فوتٌ، خيرٌ من عجلة في عواقبها دركٌ".

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: "إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره":

يقول أبو الطيب المتنبي:

لا يخدعنك من عدو دمعه ... وارحم شبابك من عدو ترحمُ

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يُراق على جوانبه الدمُ

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكايد فيها أحزم؟ قال: "إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق (أي الخوف)، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستنصح، ولا استصحاب لمن يُستغش، واشتغال الناس عمّا هم فيه من الحرب بغيره".

وصارت الفروسية من أهم فنون عسكرة العالم الإسلامي، وانعكس ذلك في انتصارات الإسلام الفاصلة في معركة ملاذكرد، ومعركة عين جالوت. وقد مدح الله الفروسية في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ثم إنّ الرسول ﷺ امتدحها بقوله: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**» أخرجه مسلم. ومنها قول الشاعر صفي الدين الحلّي (في عصر السلطان محمد بن قلاوون):

إذا افتخر الأقوام يوماً بمجدهم	فإنك من قوم بهم يفخرُ المجدُ
تعوّدَ من الصافنات صغيرُهم	حتى تساوى عنده السَّرْجُ والمهدُ

ومن قدر الله أن يظهر فحل من فحول الشعراء، في مدة الضعف بعد سقوط بغداد، ومن بغداد نفسها، وهو الشاعر العربي العراقي المولد: عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الطائي، شاعر عصره، المسمى «صفيّ الدين الحلي – ولد ونشأ في الحلة، قرب بغداد عام ٦٧٥-٧٥٠هـ/١٢٧٦-١٣٤٩م). الذي عاش في المدة التي تلت مباشرة دخول المغول إلى بغداد وتدميرهم الخلافة الإسلامية العباسية، فأثر هذا في شعره، وتناهضت القبائل نصرة العراق لصدّ هذا المدّ الإلحادي، فقامت قبائل طيّئ (و شمّر أصلاً من شمال الجزيرة العربية، وهي مدينة حائل الآن) لقتال التتار، وهم معروفون بنخوتهم ومقاومتهم الأعداءَ من المغول والصليبيين. واستقر الحلي زمناً بالموصل ثم رحل لأداء فريضة الحج، وتوجه بعدها إلى مصر وقضى حياته هناك يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون. والتقى في القاهرة بكبار علمائها، ثم توفي في بغداد. حرّض صفي الدين الحلي ملوك الإسلام وسلاطينه على مقارعة المغول والاحتراز منهم، فقال:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العلا من قدّم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب	قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لابد للشهد من نحلٍ يمنّعه	لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يُبلغ السؤلُ إلا بعد مؤلمة	ولا يتمّ المنى إلا لمن صبرا

وقصائده تقارن بشعر المتنبيّ؛ ومن أجمل قصائده قصيدة: (سلي الرماح العوالي) التي يفاخر فيها أمام حبيبته بأمجاد قومه وبطولاتهم، فيطلب منها أن تسأل الرماح العوالي لتخبرها عن طول قامة الشاعر وقبيته في ساحات القتال، ولتنظر إلى لون الغروب في السيوف عندما ترد من المعارك مكللة بالظفر ومشحوذة برقاب كل من تسول له نفسه النيل من عزة قبائل العرب المسلمين وهيبتها.

ثم يستطرد الشاعر في تعداد المناقب الجمة واصفاً الفرسان في وقعة زوراء العراق ومعدداً خصالهم، فهم المجيبون إذا ما دعاهم الحمى للدفاع عنها، وهم الفراعنة إذا ما استخصموا، وموازين العدل إذا ما حكموا في أمر جلل. وبالإضافة إلى كل هذه الخصال فهم لا يستعملون جبروتهم في السطو والاعتداء على الآخرين إنما يتحلون بالأخلاق التي تخولهم استعمال القوة للدفاع عن قومهم وتحصين قبيلتهم من كل غاز. ولعل أجمل ما في القصيدة وأشهرها البيت الذي غدا مضرباً للمثل في الفخر والعزة عندما يصف قومه بأنهم أصحاب الأيادي البيضاء في الصنائع، والسوداء في الوقائع، وأن مرابعهم الخضراء الخصبة تحميها سيوف ماضية حمراء ارتوت من دماء الخصوم. وكان هذا أشهر بيت في قصيدته؛ وكل أعلام الدول العربية اليوم مبنية على هذه الألوان. يقول صفي الدين الحلي في رائعة القصائد العربية:

سَلِي الرّماحَ العوالي عن معالينا
واستشهدي البيضَ هل خابَ الرّجا فينا

وسائلي العُرْبَ والأتراكَ ما فعلَتْ
في أرضِ قبرِ عُبَيْدِ اللّهِ أيدينا

لمّا سعَينا، فما رقّتْ عزائمُنا
عمّا نرومُ، ولا خابَتْ مساعينا

يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ، وقد
دِنّا الأعادي كما كانوا يدينُونا

بضُمّرٍ ما ربَطناها مُسوّمةً
إلّا لنغزوَ بها مَن باتَ يغزُونا

وفتيةٍ إنْ نقُلْ أصغَوا مسامعَهمْ
لقولِنا، أو دعوناهمْ أجابُونا

قومٌ إذا استخصموا كانوا فراعنةً
يوماً وإن حُكّموا كانوا موازينا

تَدرّعوا العقلَ جلباباً، فإنْ حميتْ
نارُ الوغَى خِلتَهُمْ فيها مَجانينا

إذا ادّعَوا جاءتِ الدّنيا مُصدِّقةً
وإن دَعوا قالتِ الأيّامُ: آمينا

إنّ الزرازيرَ لمّا قامَ قائمُها
توهّمتْ أنّها صارتْ شواهينا

ظنّتْ تأنّي البُزاةِ الشُّهبِ عن جزَعٍ
وما درَتْ أنّه قد كانَ تهوينا

بيادقٌ ظفرتْ أيدي الرِّخاخِ بها
ولو تركناهمُ صادوا فرازينا

ذلّوا بأسيافِنا طولَ الزّمانِ، فمُذْ
تحكّموا أظهروا أحقادَهم فينا

لم يغنِهمْ مالُنا عن نهبِ أنفُسِنا
كأنّهمْ في أمانٍ من تقاضينا

أخلَوا المَساجدَ من أشياخنا وبغَوا
حتى حملْنا، فأخلَينا الدّواوينا

ثمّ انثنينا، وقد ظلّتْ صوارمُنا
تميسُ عُجباً، ويهتزُّ القَنا لينا

وللدّماءِ على أثوابِنا علَقٌ
بنشرِهِ عن عبيرِ المسكِ يُغنينا

فيَا لها دعوةً في الأرضِ سائرةً
قد أصبحتْ في فمِ الأيامِ تلقينا

إنّا لقومٌ أبَتْ أخلاقُنا شرفاً
أن نبتدي بالأذى مَن ليسَ يؤذينا

بيضٌ صنائعُنا، سودٌ وقائعُنا
خضرٌ مرابعُنا، حُمرٌ مواضينا

لا يظهرُ العجزُ منّا دونَ نيلِ مُنًى
ولو رأينا المنايا في أمانينا

ما أعوزَتنا فرامينٌ نصولُ بها
إلّا جعلْنا مواضينا فرامينا

إذا جرينا إلى سبقِ العُلا طلقاً
إنْ لم نكُنْ سُبّقاً كُنّا مُصلّينا

تدافعُ القدرَ المحتومَ همّتُنا
عنّا ونخصمُ صرفَ الدّهرِ لو شِينا

نغشَى الخُطوبَ بأيدينا فندفعُها
وإنْ دهتْنا دفعْناها بأيدينا

مُلْكٌ، إذا فُوّقتْ نبلُ العدوِّ لنا
رمَتْ عزائمُهُ مَن باتَ يرمينا

عزائمٌ كالنّجومِ الشُّهبِ ثاقبةٌ
ما زالَ يُحرقُ منهنّ الشّياطينا

أعطى فلا جودُهُ قد كانَ عن غلَطٍ
منه، ولا أجرُهُ قد كانَ ممنونا

كم من عدوٍّ لنا أمسى بسطوته يُبدي الخُضوعَ لنا ختلاً وتسكينا
كالصِّلِّ يظهرُ ليناً عندَ ملمسهِ حتى يُصادفَ في الأعضاء تمكينا
يطوي لنا الغدرَ في نصحٍ يشيرُ به ويمزجُ السمَّ في شهدٍ ويسقينا
وقد نغُضُّ ونُغضي عن قبائحه ولم يكُنْ عجزاً عنه تغاضينا
لكنْ تركناه، إذْ بتنا على ثقةٍ إنَّ الأميرَ يُكافيه فيَكفينا

ولعل أبا القاسم الشابي استوحى قوله الشهير:

ومن يتهيّبْ صعودَ الجبال يعشْ أبدَ الدهر بين الحُفَر

من مقولة الحلي:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدّم الحذرا

وقصيدة الشابي هذه المسماة "قصيدة الأمل" هي من روائع القصائد العربية في استحثاث الشعوب (ولاسيما شعوب شمال إفريقيا) للتحرر من ربقة الاستعمار الأوروبي، الامتداد الحديث لحملات الصليب القديمة، فيقول فيها:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوّها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات وحدثني روحها المستتر
ودمدمت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ ركبتُ المنى ونسيتُ الحذر
ولم أتجنب وعورَ الشعاب ولا هبة اللهب المُستعر
ومن يتهيّبْ صعودَ الجبال يعشْ أبد الدهر بين الحُفر
فعجّت بقلبي دماءُ الشباب وضجت بصدري رياح أخر
وأطرقتُ أصغي لقصف الرعود وعزف الرياح ووقع المطر
وقالت لي الأرضُ لمّا سألت: أيا أمّ هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهلَ الطموح ومَن يستلذّ ركوبَ الخطر
وألعنُ من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حيٌّ يحبّ الحياة ويحتقر الميْت مهما كبر
فلا الأفقُ يحضن ميتَ الطيور ولا النحلُ يلثم ميتَ الزهر

ولعل أروع ما كتبه شاعر ساخر عن أهداف الاستعمار هو الشاعر العراقي معروف الرصافي، الذي تكلم بلسان الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي (قديماً كان ذلك، أو حديثاً، إذ يتكرر ذلك في العراق وفي أفغانستان وفي فلسطين باسم التحرير مرة؛ أي: الاستعباد والاحتلال، وباسم الديمقراطية مرة أخرى؛ أي: الفوضى والحرب الأهلية. وكل عمل حقيقي لتحرير البلاد فهو في نظرهم إرهاب، وكل إصلاح عندهم إفساد، وهكذا كل شيء مقلوب)، فيقول الرصافي بلسان الأجنبي الغربيّ:

يا قومُ لا تتكلموا ... إن الكلامَ محرَّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوَّمُ
وتأخروا عن كل ما ... يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهّم جانباً ... فالخيرُ أن لا تفهموا
وتثبّتوا في جهلكم ... فالشرُّ أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا ... أبداً وإلا تندموا
إن السياسة سرّها ... لو تعلمون مُطلسم
وإذا أفضتم في المُباح ... من الحديث فجمجموا
والعدلَ لا تتوسّموا ... والظلمَ لا تتجهموا
من شاءَ منكم أن ... يعيش اليوم وهو مُكرّم
فليُمسِ لا سمعٌ ولا ... بصرٌ لديه ولا فمُ
لا يستحقّ كرامةً ... إلا الأصمُّ الأبكمُ
ودعوا السعادة إنما ... هي في الحياة توهم
فالعيش وهو منعّمٌ ... كالعيش وهو مذمّم
فارضوا بحكم الدهر ... مهما كان فيه تحكّم
وإذا ظُلمتم فاضحكوا ... طرباً ولا تتظلموا
وإذا أُهنتم فاشكروا ... وإذا لُطمتم فابسموا
إنْ قيل: هذا شهدكم ... مُرٌّ فقولوا: علقمُ
أو قيل: إن نهاركم ... ليلٌ فقولوا: مُظلمُ
أو قيل: إن ثمادكم ... سيلٌ فقولوا: مُفعَمُ
أو قيل: إن بلادكم ... يا قوم سوف تُقسّمُ
فتحمّدوا وتشكّروا ... وترنّحوا وترنّموا

وكان المسلمون في العصور الوسطى مُشردين مُفرّقين (بصورة أسوأ مما هي عليه حالنا اليوم)، وكانوا مُستعبدين ومُستعمرين من قبل الصليبيين والمغول (بصورة أقوى من واقعنا اليوم)، إلاّ أنهم رجعوا إلى دينهم وجاهدوا واجتهدوا، وأخذوا بالأسباب، فوفق الله عز وجل لهم وحدة البلاد والعباد؛ بل نصرهم من حيث لا يحتسبون.

وسنرى كيف خرج المسلمون آنذاك من عنق الزجاجة الضيق، ومن القمقم المغلق المظلم، وكيف استطاعوا إنهاء الوجود الأوروبي الصليبي الغربي، ودحر الاجتياح المغولي الكافر الشرقي، بل قهروهم وهم مجتمعون متكالبون جميعاً على العالم الإسلامي.

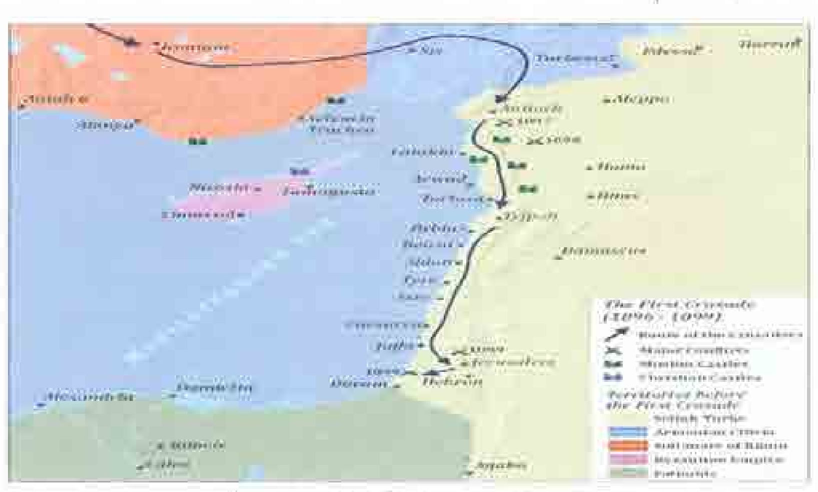
وهذه المفارقة تحتاج إلى دراسة مستفيضة وعميقة للتاريخ؛ لأن فيها درساً عظيماً، علينا التعلم منه وترجمته في واقعنا المعاصر. وهكذا تداخلت اللغة العربية والجهاد الإسلامي جنباً إلى جنب في صنع هذا النصر المزدوج، بتوفيق الله تعالى. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها.

التحالف العبيديّ – الصليبيّ وآثاره في العالم الإسلامي

العالم الإسلامي في أثناء الحملات الصليبية: بدأت الحركة الصليبية بتحريض من البابا أوربان الثاني عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) إثر خطابه التحريضي لتشجيع الأوروبيين النصارى على مهاجمة البلاد الإسلامية، وفلسطين خاصة. تعد حقبة الحروب الصليبية من أصعب الحقب التي مرت على العالم الإسلامي، فمنذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بدأت تتقاطر على العالم الإسلامي، ولاسيما بلاد الشام وما جاورها الحملات تلو الحملات التي قتلت المسلمين، وخرّبت ديارهم، ونهبت خيراتهم، ونشرت في بلادهم الذعر والقلق.

ودرج المؤرخون على تقسيمها إلى ٨ حملات صليبية، وقد اتجهت ٤ منها نحو فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية (تركيا اليوم) وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمال إفريقيا (تونس).

وكانت القوى الإسلامية آنذاك موزّعة بين الخلافة الإسلامية العباسية التي تناصرها دولة السلاجقة الأتراك السُنّة، لكن الخلاف بدأ يدب في دولة السلاجقة في أعقاب مقتل وزيرهم الفذ نظام الملك، ثم سلطانهم القوي ملكشاه، في سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م).



الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦–١٠٩٩)

أما القوة الأخرى فكانت ممثلة بالدولة العبيدية (وليست بفاطمية)، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، التي كانت تسيطر حينها على مصر، وأجزاء من شمال إفريقيا وبعض بلاد الشام، فكانت في عداء مع الخلافة العباسية والسلاجقة، بل في تحالف عبيدي – صليبي، إذ كانت لها سفاراتها وهداياها مع الصليبيين. وتعدّ الدولة العبيدية في مصر أول دولة إسماعيلية في التاريخ الإسلامي، مبنية على المذهب الإسماعيلي (المقتصر على الأئمة الستة الأوائل: علي بن أبي طالب، وابنه الحسين بن علي، وعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر الصادق، وإسماعيل المبارك)، ثم إن الدولة العبيدية هذه تمثل امتداداً تاريخياً لحركة (إخوان الصفا وخلان الوفا) التي نشأت في الخلافة العباسية وكانت حركة مناوئة سرية، واتخذت من فلسفة الإغريق وعلومهم

الميتافيزيقية (مثال أفلاطون وأرسطو) ستاراً لها. من هنا يظهر امتزاج التأثير الإغريقي بالتفكير الإسلامي في هذه الدولة العبيدية الإسماعيلية.

كشف القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه "كشف أسرار الباطنية" عن بطلان نسب هؤلاء المدعين بالفاطميين إلى علي ﷺ، وقد استقصى أصولهم القاضي عبد الجبار بن أحمد . وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: (هم أربعة عشر خليفة...)، إلى أن قال: (ويدعون الشرف، ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العامة فصاروا يقولون: الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنما هي الدولة اليهودية والمجوسية الملحدة الباطنية). قال: (وقد ذكر ذلك جماعة من العلماء الأكابر، وأنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي).

وذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر : سمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن الأموي الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله؛ صاحب الأندلس كتب إليه نزارٌ هذا يعني العزيز صاحب مصر كتاباً يسبّه فيه ويهجوه، فكتب إليه الأموي: (أما بعد ، قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك. والسلام).

وفي رواية أنه كتب له قصيدة :

ألسنا بني مروان كيف تقلبت	بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا وُلد المولود منا تهللت	له الأرض واهتزت إليه المنابر

ثم قال: ("ما بعد ، قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك. والسلام). قال: فاشتد ذلك على نزار المذكور وأفحمه عن الجواب. يعني أنه غير شريف وأنه لا يعرف له قبيلة حتى كان يهجوه.

وقال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: كان العزيز قد ولى عيسى بن نسطورس النصراني ومنشا اليهودي فكتبت إليه امرأة: بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطورس وأذلّ المسلمين بك، إلا نظرت في أمري. فقبض العزيز على اليهودي والنصراني وأخذ من ابن نسطورس ثلاث مئة ألف دينار.

وقال ابن خلكان: وأكثر أهل العلم لا يصححون نسب المهدي عبيد الله والد خلفاء مصر ، حتى إن العزيز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد ورقة فيها:

إنا سمعنا نسباً مُنكراً	يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدّعي صادقاً	فاذكر أباً بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته	فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم	يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم يتكلم.

ثم صعد العزيز المنبر يوماً آخر ، فرأى ورقة فيها مكتوب:

بالظلم والجور قد رضينا	وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أُعطيتَ علم غيبٍ	فقل لنا كاتب البطاقه

قال: وذلك: لأنهم ادعوا علم المغيبات والنجوم، وأخبارهم في ذلك مشهورة.

وفي بداية دولتهم استولى جوهر الصقلي، ودخل المعز العبيدي إلى الديار المصرية، فامتدحه شعره محمد بن هانئ الأندلسي، وكان قوي النظم، بقصيدة أولها:

يقول بنو العباس: هل فُتحت مصرُ؟ فقل لبني العباس: قد قضي الأمرُ

ثم توجه المعز من المغرب فوصل إلى الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ، وتلقاه أعيان مصر إليها، فخطب هناك خطبةً بليغة، وجلس قاضي مصر أبو الطاهر الذهلي إلى جنبه، فسأله: هل رأيت خليفةً أفضل مني؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائف سوى أمير المؤمنين؛ فقال له: أحججت؟ قال: نعم، قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيرت ماذا أقول! ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء، فقلت: شغلني عنهما رسول الله ﷺ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، ونهضت إليه فسلمت عليه، فانفسح المجلس إلى غيره لوهذا من التورية البارعة. وشاعره ابن هانئ الأندلسي قد كفره غيرُ واحد من العلماء، منهم القاضي عياض في الشفاء: لمبالغته في مدح الخلق، فمن ذلك قوله في المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبيّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

أنت الذي كانت تبشّرنا به في كُتبها الأحبارُ والأخبار

وهذا من أكبر الكفر. وقال أيضاً، قبحه الله وأخزاه:

هذا أميرُ المؤمنين بمجلسٍ أبصرتُ فيه العقلَ والتنزيلا

وإذا تمثل راكباً في مجلسٍ عاينتُ تحت ركابه جبريلا

وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له. قال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: "ذا الكلام إن صح عنه فليس عنه اعتذار، لا في الدار الآخرة ولا في هذه الدار. وقد وُجد ابن هانئ هذا مقتولاً على حافة البحر سنة ٣٦٢هـ: بسبب مجاهرته بالكفر.

ومن غرائبه أنه استوزر رجلاً نصرانياً يقال له: عيسى بن نسطورس، وآخر يهودياً اسمه ميشا، فعزّ بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان، حتى كتبت إليه امرأة: بالذي أعزّ النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك! إلا كشفت عن ظلامتي! فعند ذلك أمر بالقبض على هذين، وأخذ من النصراني ثلاث مئة ألف دينار. وولي بعده **ابنه الحاكم بأمر الله** (بل الحاكم بأمر إبليس عام ٩٩٦م-٣٨٦هـ) بعمره ١١ سنة حسب نظام الوراثة في عقيدتهم الإسماعيلية الذي يحصر الإمامة في الأعقاب. وكان تحت وصاية أستاذه ومعلمه (برجوان) مدة ٤ سنوات انتهت بانقلاب التلميذ على أستاذه وقتله غيلة: لكي ينفرد بالحكم دون وصاية وعمره ١٥ سنة فقط في عام ١٠٠٠م؛ أي: مطلع الألفية الثانية/ ٣٩٠هـ فكان شرّ الخليفة (حكم مصر ٢٥ سنة)، لم يلِ مصر بعد فرعون شرٌّ منه؛ رام أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمه؛ فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر خاصة إذا قاموا خروا سجداً؛ حتى إنه يسجد بسجودهم في الأسواق الرعاع وغيرهم. وكان جباراً عنيداً، وشيطاناً مريداً، كثير التلون في أقواله وأفعاله، هدم كنائس مصر ثم أعادها،

وخرب قمامة (أي كنيسة القيامة) ثم أعادها، ولم يُعهد في ملة الإسلام بناء كنيسة في بلد الإسلام قبله ولا بعده. وقد نقل السبكي الإجماع على أن الكنيسة إذا هدمت، ولو بغير وجه، لا تجوز إعادتها.

ومن قبائح الحاكم أنه ابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس إغلاق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً؛ فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً. وكان يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجده قد غش في معيشته أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنعهن من دخول الحمامات، وقتل خلقاً من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، ومنع من طبخ الملوخيا.

وله رعونات كثيرة لا تنضبط، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولأسلافه في صورة قصص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، فلما رأى ما فيها غضب، وأمر بقتلها؛ فلما تحقق أنها من ورق، ازداد غضباً إلى غضبه، وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، ففعلوا، وقاتلهم أهل مصر قتالاً عظيماً ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم. واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله واستغاثوا به، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير وفعل بهن الفواحش. واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

يروي الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري المتوفى ٤٨٧هـ (السنة التي مات فيها المستنصر حفيد الحاكم – أي هو شاهد على عصر الحاكم): أن الحاكم بأمر الله شيّد في المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة ٣ مشاهد لتنقل إليها رفات الرسول ﷺ ورفات الشيخين أبي بكر وعمر؛ لينقل الحجّ إلى مصر (**نفذ هذا المشروع الخاسر عام ٣٠٠هـ بإشارة أحد الزنادقة على الحاكم بنبش قبر النبي ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر، وكانت الحجاز آنذاك تحت الهيمنة الفاطمية**)، فبذل الحاكم أموالاً لرجال من شيعته نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوه وبنواياهم، فقتلوهم ومثلوا بهم، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص حتى لا يطمع في الوصول إليها طامع أبداً.

وحاول ابن الحاكم تصحيح ما أفسده أبوه فلم يستطع: قال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة، ج٢): وكان الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم، كثير الصدقات منصفاً من نفسه لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة، ولا سيما لما وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة ٤١٣هـ.

وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المشرفة وثب شخص من الحجاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام وضربه بدبوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه وعاجله الناس فقتلوه، وثار المكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ الفتنة ودفع عن المصريين. وقيل: **إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم**. فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

قال هلال بن الصابئ: وجدت كتاباً كتب من مصر في سنة ٤١٤هـ على لسان المصريين وهو كتاب طويل فمنه:

(وذهبت طائفة من النصيرية إلى الغلو في أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح. ونجم عن هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل فغلوا فينا

غلواً كبيراً وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً ونسبونا بغلوهم الأشنع وجهلهم المستفظع إلى ما لا يليق بنا ذكره. وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال. ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا علي المرتضى وأسلافنا البررة أعلام الهدى.

وقد علمتم يا معشر أوليائنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق وا فجرة المراق وتفريقنا لهم في البلاد كل مفرق، فطعنوا في الآفاق هاربين، وشردوا مطرودين خائفين. وكان من جملة من دعاه الخوف منهم إلى الانتزاح رجل من أهل البصرة أهوج أثول ضال مضل سار مع الحجيج إلى مكة، حرسها الله، فرقاً من وقع الحسام، وتستر بالحج إلى بيت الله الحرام. فلما حصل في البيت المفضل المعظم والمحل المقدس المكرم أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر، وحمله لم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وضربه بدبوس ضربات متواليات أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلك. ثم إن هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله، وأضل أعماله وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولعمري إن هذه لمصيبة في الإسلام فادحة، ونكاية فادحة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً ومقاماً جسيماً، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج، لعنه الله، من إحراق البيت وهدمه وإزالة بنيانه وردمه. ثم ذكر كلاماً طويلاً في هذا المعنى يطول الشرح في ذكره). انتهى كلام ابن الصابئ.

وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ، وعُدّ ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات، واتهم الناس الرافضة بذلك الفعل.

فيها احترق مسجد رسول الله ﷺ في شهر رمضان، وهذا غير النار التي ظهرت بنواحي المدينة، فإن هذا الحريق له سبب ابتدأ من زاوية الحرم النبوي الغربية من الشمال، فعلقت في آلات الحرم ثم دبت في السقوف، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ووقع بعض أساطينه، وكان ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق أيضاً سقف الحجرة. وأصبح الناس في يوم الجمعة فعزلوا موضعاً للصلاة. ونظم في حريق المسجد غير واحد من الشعراء.

فقال معين الدين بن تولو المغربي:

قل للروافض بالمدينة ما لكم	يقتادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريف محرقاً	إلا لسبكم الصحابة فيه

وقال غيره:

لم يحترق حرم النبي لحادث	يُخشى عليه ولا دهاه العـ[illegible]
لكنها أيدي الروافض لامست	ذاك الجناب فطهرته النـ[illegible]

ووهنت دولة العبيديين في أيام المستعلي بن المستنصر (٤٨٧هـ-٤٩٦هـ). وكانت أول حركة الفرنج لأخذ السواحل وخروجهم إليها في سنة ٤٩٠هـ، فساروا إليها، وكان أول ما أخذوا نيقية وهو أول بلد فتحوه وأخذوه من المسلمين. ثم فتحوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء، ووصلوا إلى البارة وجبل السماق وفامية وكفر طب ونواحيها. وانقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام، واستولى عليها السلاجقة المسلمون في جهاد ضد الفرنج الصليبيين. ولم يكن للمستعلي مع الأفضل "ابن أمير الجيوش" حكم.

وزحف الفرنج في ٤٩١هـ إلى سور المعرة (معرة النعمان) من الناحية الشرقية والشمالية، فنصبوا عليها السلالم وأسندوا البرج إلى سورها فكان أعلى منه. ولم تزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم ١٤ المحرم، وصعدوا

السور وانكشف أهل البلد بعد أن ترددت إليهم رسل الفرنج، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم وألا يدخلوا إليهم بل يبعثوا إليهم شحنة (أي حامية صليبية)، فملكت الفرنج البلد بعد المغرب بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ثم، أعطوهم الأمان. فلما ملكوها غدروا بهم فقتلوا من أهلها ١٠٠ ألف إنسان (قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي، قال: وسبوا مثلها).

وأقاموا عليها إلى أن رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس. ثم دخلوا كفر طاب وفعلوا مثل ذلك وعادوا إلى أنطاكيا وحصروها ٨ أشهر وأخذوها في ١٦ رجب سنة ٤٩١هـ بمساعدة قوم من أهل أنطاكيا واطؤوا الفرنج على تسليمها إليهم: لإساءة حاكم البلد في حقهم وحجزه لهم، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج، وقُتل من أنطاكيا وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يدركه.

ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الإسلام (السلاجقة) بالشام وهم: رضوان صاحب حلب، وأخوه دقماق، وطغتكين، وصاحب الموصل، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين، وأرسلان شاه صاحب سنجار، **ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر**. يقول عنه ابن تغري بردي: (وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال)، فجتمع الجميع ونزلوا أنطاكيا وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا ورق الشجر.

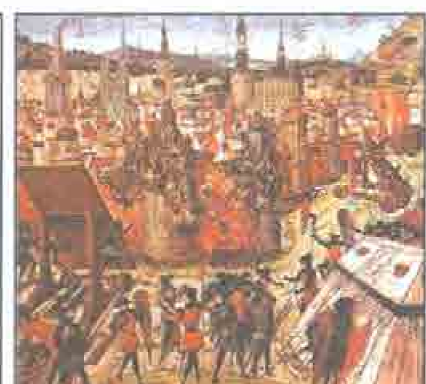




جعلت الكنيسة الكاثوليكية من فرسان الصليب القاتلين الصورة المثلى للبطولة النصرانية في أوروبا القرون المظلمة!

الصورة اليسرى أعلاه تمثل الفارس الصليبي وهو يصلي للرب.

قارن هذه الصور بالوحشية اللادينية المستخدمة ضد المسلمين.

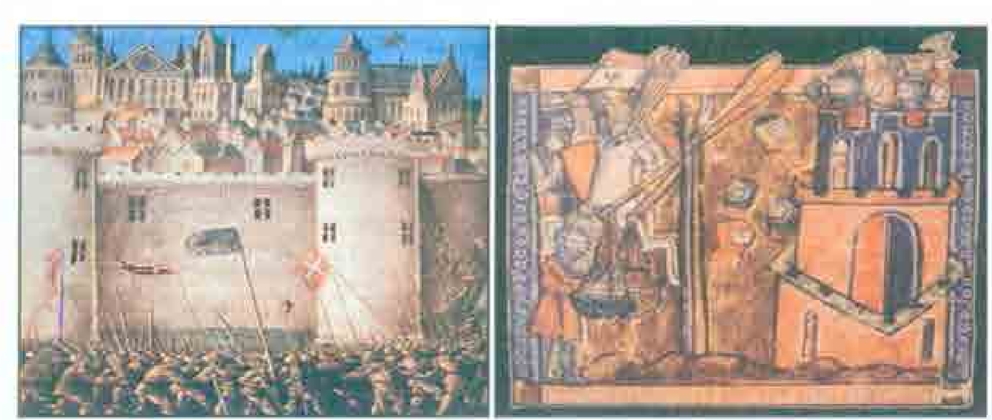




حصار الصليبيين بقيادة جودفري دي بويلون مدينة القدس (تحت الحكم الفاطمي انذاك)، ثم دخول المدينة بعهود الأمان لسكانها عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م



الحملة الصليبية الأولى بقيادة جودفري دي بويلون، استولت على القدس بالأمان، ثم دخلها الصليبيون وقتلوا قرابة ٧٠ ألفاً إلى ١٠٠ ألف من سكانها المسلمين واليهود، على الرغم من كل عهود الأمان على حياتهم وعدم التعرض لهم (عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م)



الصليبيون يرشقون رؤوس المسلمين المقطوعة كالقذائف من فوق متاريس الحصون في أثناء حصارها، وتظهر الصورة الثانية حصار الحملة الصليبية الأولى لمدينة أنطاكيا (التي استولوا عليها وحولوها إلى إمارة أنطاكيا الصليبية)



استخدم الصليبيون سياسة الإرهاب والترويع ضد المسلمين وشملت: المجازر والإعدامات الجماعية، رمي الرؤوس المقطوعة من فوق جدران المدن المحاصرة. ويظهر في الصورة السابقة عرض الجثث العارية والتمثيل بها علناً ليشاهدها المسلمون. حتى أكل لحوم البشر المسلمين سُجِّلت حالاته ووثقت. وكان حصار معرّة النعمان قبيل دخولهم القدس؛ أي: عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م. (أخذوها بالأمان ثم فتكوا بأهلها)

وكان صنجيل مقدم الفرنج عنده دهاء ومكر، فرتب مع راهب حيلة وقال: اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظفر لكم وهي حربتي، فصوموا ثلاثة أيام وصلوا وتصدقوا، ثم قام وهم معه إلى المكان ففتشوا

ظهرت الحربة، فصاحوا وصاموا وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين وقاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد، فثبت جماعة من المسلمين فقُتلوا عن آخرهم رحمهم الله تعالى. والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا غاية في الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام غاية في القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم وانكسر أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين.

وأما أخذ بيت المقدس فكان في يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ، وهو أن الفرنج ساروا من أنطاكيا ومقدم الفرنج في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل فارس، والباقون رجالة وفعلة وأرباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل.



مدينة القدس بأسوارها إبان الحملة الصليبية الأولى

وكان بيت المقدس الذي افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٦هـ لم يزل بأيدي المسلمين إلى هذه السنة، ثم كان في يد السلاجقة. واستغلت الدولة العبيدية بمصر جهاد السلاجقة لدحر الفرنج الصليبيين (بدل أن يكونوا معهم على الفرنج)، وسار الأفضل بن بدر أمير الجيوش، فحاصر الأمير سقمان وأخاه إيلغازي، ونصبوا على القدس نيفاً وأربعين منجنيقاً، فهدموا في سوره.

ودام الحصار نيفاً وأربعين يوماً، وأخذوه بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ. وأنعم الأفضل على سقمان وأخيه، وأجزل لهم الصلات. فسار سقمان واستولى على الرها، وذهب أخوه إلى العراق. وولي على القدس افتخار الدولة، فدام فيه إلى هذا الوقت (أي: سنة ٤٩٢هـ). وسارت الجيوش النصرانية من حمص، ونازلت عكا أياماً، ثم ترحلوا وأتوا القدس، فحاصروها شهراً ونصفاً، ودخلوا من الجانب الشمالي ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان، واستباحوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. واحتمى جماعة ببرج داود، ونزلوا بعد ثلاث بالأمان، وذهبوا إلى عسقلان. **رواية ابن الأثير عن دخول الإفرنج بيت المقدس**: قال ابن الأثير: (قتلت الإفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد، ومما أخذوا أربعين قنديلاً من الفضة، وزن القنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة، وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وغنموا ما لا يحصى. وورد المستنفرون من الشام إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وجرح القلوب. وبعث الخليفة رسلاً، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك الباسلاني، فردوا من غير بلوغ أرب، ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين، وتمكنت الإفرنج من الشام).

وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا برجين من خشب مطلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها السلطان صلاح الدين بن أيوب، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه. وأما الآخر: فزحفوا به حتى الصقوه بالسور، وحكموا به على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد؛ فانهزم المسلمون فنزلوا إلى البلد وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بها، فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مئة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى. ويقال: إنه لما بلغهم، يعني الفرنج، خروج الأفضل من مصر جدوا في القتال ونزلوا من السور وقتلوا خلقاً كثيراً

وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المشاهد وقبر الخليل – عليه السلام – وتسلموا محراب داود بالأمان.

والحقيقية أن اتفاقاً سرياً قد انعقد بين الصليبيين والحامية العبيدية الفاطمية لمدينة القدس، على أن يخرجوا بالأمان وتسلم لهم مدينة القدس. وبالفعل لم يخرج من القدس أحياء سوى هذه الحامية وقائدها افتخار الدولة، إذ سمح لهم الصليبيون بالخروج إلى عسقلان. أما الصليبيون فدخلوا القدس وقتلوا كل مسلم فيها رجالاً ونساء وأطفالاً ثم قتلوا اليهود، ولم ينكر المؤرخون الصليبيون أنفسهم هذه المذبحة، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس "تحولت إلى مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم".

هذا كله وعسكر مصر لم يحضر، غير أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر، لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر وجد في السير فوصل إلى عسقلان يوم ثاني فتحه، ولم يعلم بذلك، وراسل الإفرنج.

قال ابن الأثير: فأعادوا الرسول بالجواب، ولم يعلم المصريون شيئاً فبادلوا السلاح بالخيل، وأعجلتهم الإفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا خيامهم بما فيها. ودخل الأفضل عسقلان. وتمزق أصحابه. فحاصرته الإفرنج بعسقلان، فبذل لهم ذهباً كثيراً، فردوا إلى القدس.

ومما يرويه ابن الجوزي في مرآة الزمان أنه بعد وصول الأفضل إلى عسقلان (يوم ١٤ رمضان) أضاع وقتاً ثميناً "ينتظر الأسطول في البحر والعرب"، وعندئذ اكتشف الصليبيون أمره، فأطبقوا عليه بغتة، وحلت الهزيمة بالفاطميين، وتشتت شملهم بعد قليل، حتى إن بعضهم لم يجد مفراً سوى إلقاء أنفسهم في اليم حيث غرقوا، في حين احتمى بعضهم الآخر بشجر الجُمّيز، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من فيه، وأما الوزير الأفضل فقد هرب من عسقلان ومعه بعض رجاله على ظهر سفينة فارين في البحر إلى مصر، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونُهب العسكر (كما يروي ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق). ثم عاد الأفضل إلى مصر ولم يتصدَّ بعد ذلك للصليبيين.

وحكي أنه قتل من أهل عسقلان من شهودها وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبع مئة نفس. وقرر الفرنج على أهل البلد عشرين ألف دينار تحمل إليهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد، فاختلف المقدمون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً.

وأرقام الضحايا تختلف، لكن حتى ابن كثير المعتدل في أرقامه يقول في البداية والنهاية: "لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ، أخذت الفرنج – لعنهم الله – بيت المقدس شرّفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبّروا ما علوا تتبيراً" (ج١٢، ص١٩٢).

قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وست مئة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب، وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج بالخليفة والسلطان، منهم القاضي بدمشق أبو سعد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلاماً قرئ في الديوان وعلى المنابر، فجهش الناس بالبكاء، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج أعيان الفقهاء، وساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

مزجنا دماء بالدموع السواجم — فلم يبق منا عرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه — إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم — وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

وكيف تنام العين ملء جفونها — على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم — ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم — تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة — تظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها — ليسلم يقرع بعدها سن نادم

سللن بأيدي المشركين قواضباً — ستغمد منهم في الطلى والجماجم

يكاد لهن المستجن بطيبة — ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا — رماحهم، والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى — ولا يحسبون العار ضربة لازم

أيرضى صناديد الأعاريب بالأذى — وتغضي على ذل كماة الأعاجم؟

فليتهم إذ لم يذودوا حمية — عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى — فهلا أتوه رغبة في المغانم

التحالف العبيديّ الصليبي:

في الوقت الذي تصدى فيه السلاجقة للحملات الصليبية منذ بداياتها على الرغم من الخلافات التي أصابت دولتهم ومظاهر الضعف، جاء موقف الدولة الفاطمية مغايراً لذلك، إذ غابت فيه نجدتهم للمسلمين، أو الدفاع عن الإمارات الإسلامية على الرغم من القوة التي كانت تمتلكها، والاستقرار الذي كانت تنعم به، مقارنة بغيرها. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن العبيديين الفاطميين، ووزيرهم القوي آنذاك الأفضل ابن بدر الجمالي، وجدوا في الحروب الصليبية على بلاد المسلمين فرصة سانحة للقضاء على دولة السلاجقة السُّنة، وتوسيع نفوذ العبيديين على حسابها، ولم يكن في بال العبيديين محاربة الصليبيين أو نجدة المسلمين. (راجع أيضاً: "أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين" للأستاذ يوسف إبراهيم؛ و"تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام" للدكتور محمد سهيل طقوش؛ و"الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" للأستاذ جمال بدوي).

يقول الأستاذ جمال بدوي: (جاءت الحملة الصليبية الأولى في ختام القرن الحادي عشر (الميلادي)، فدقت آخر مسمار في نعش الدولة الفاطمية، وتسببت في ضياع هيبتها، وأسقطت القناع عن وجهها الحقيقي، فظهرت نواياها المعادية الإسلام والمسلمين في العالم السني، وفقد الفاطميون اعتبارهم الأدبي والمعنوي، لا لأنهم فقط عجزوا عن التصدي للصليبيين؛ ولكن لأنهم تواطؤوا معهم، وشجّعوهم على التوغل في بلاد الشام للقضاء على عدوهم المشترك، وهم الأتراك السلاجقة، وعقد الفاطميون اتفاقاً مع الصليبيين لاقتسام الشام بينهما، ولكن الفرنجة خدعوهم وشقوا طريقهم نحو الأماكن المقدسة في فلسطين وهي الهدف الرئيس للحملة).

وفي سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) استطاع الصليبيون تأسيس أول إمارة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي، وهي إمارة الرّها

(بين الموصل والشام)، وفي العام نفسه، أسسوا ثاني إماراتهم، وهي إمارة أنطاكيا (شماليّ بلاد الشام، تتبع الآن لتركيا)، وبدأ الصليبيون يلتهمون المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولا يتصدى لهم إلا السلاجقة المسلمون بإماراتها.

وليت الفاطميين ووزيرهم الأفضل اقتصر موقفهم على الصمت وعدم المساندة، بل إنه اتسم بالتآمر الصريح، إذ إن الوزير الأفضل عندما رأى اشتباك الصليبيين والسلاجقة، فكر في عقد تحالف مع الصليبيين وبعث بسفارة دبلوماسية محملة بالهدايا والنفائس إلى قادة الحملة الصليبية تعبيراً عن مشاعر الود.

أما فقرات التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين فتضمنت ما يأتي:

١. ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكيا وشمال بلاد الشام.
٢. تحتفظ مصر (الدولة الفاطمية) ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.
٣. يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألاّ تزيد مدة إقامتهم فيها على شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
٤. يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة.

ويظهر من الفقرات السابقة "أن الأفضل قرّر أن يعمل ضد السلاجقة، لا ضد الصليبيين". أما الصليبيون فقد تلقوا سفارة الفاطميين بالمودة والترحيب "ومكث الوفد الفاطمي في المعسكر الصليبي عدة أسابيع عادوا بعدها إلى بلادهم تتقدمهم سفارة صليبية تحمل الهدايا الوفيرة للتباحث مع الأفضل في الأمور التي اتفقوا عليها. والجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية قبل إبحارها إلى مصر، أرسل إليها الصليبيون حمولة أربعة جياد من رؤوس القتلى السلاجقة السنيّين هدية لخليفة مصر (الفاطمي)، فأبدى أفراد السفارة سرورهم البالغ لذلك المشهد".

أما عن العرض الفاطمي باقتسام الشام، فإن الصليبيين لم يرفضوه، ولم يقبلوه، وتركوا البتّ فيه للأمر الواقع عندما تقرره أحداث المستقبل ولم يكن هذا هو الاتصال الأول بين الفاطميين العبيديين والصليبيين، إذ إن عدداً من الأمراء النُبلاء الأوروبيين الراغبين في زيارة القدس كانوا يتوجهون من أوروبا إلى الإسكندرية، ومنها يصحبهم الفاطميون إلى ميناء يافا ثم إلى القدس، وكان الهدف من ذلك حماية هؤلاء الأمراء من خطر السلاجقة إبان رحلة الذهاب والعودة من الإسكندرية إلى بيت المقدس.

واستغل الوزير الأفضل الجمالي اشتغال السلاجقة بمقاتلة الفرنج الصليبيين، وأضاف إلى خياناته خيانات جديدة تمثلت بقيامه بأخذ صُور وبيت المقدس من أيدي السلاجقة بعد حصارهما أسابيع عديدة، وهذا الأمر يدل على مقدار القوة التي كانت تمتلكها الدولة العبيدية الفاطمية، التي اختارت أن تستعمل هذه القوة ضد السلاجقة السنة، لا ضد الصليبيين المعتدين.

يقول د. طقوش: "والواقع أنه تحقق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي لصد الهجوم الفاطمي، ثم إن تهديده لفلسطين وبيت المقدس خدم القضية الصليبية؛ لأنه سبّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً". ولو أن بيت المقدس بقي في أيدي السلاجقة لكان أصلح للإسلام وللمسلمين من أن يُحتل من قبل الفاطميين، إذ سرعان ما قام الصليبيون باحتلال القدس، ليضيفوها إلى ممالكهم، وبعد أن ارتكبوا فيها مذبحة مروّعة سقط فيها سبعون ألفاً من المسلمين ومن اليهود، ولم ينج من هذه المذبحة المروّعة سوى حاكم المدينة الفاطمي الخائن (افتخار الدولة) الذي احتمى مع حامية جنده بمحراب داود مدة ثلاثة أيام ثم سمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فلا هو وحاميته دافعوا عن القدس، ولا هم حثّوا سكان القدس على الدفاع. بل إنّ هذه الحامية العبيدية كانت تكره سكان القدس السُنيين والمدينة السنة. وكأن الدولة العبيدية الفاطمية أخذت مدينة القدس من المسلمين السلاجقة لتسلمها من بعد إلى الصليبيين النصارى.

وعندما كان الصليبيون يتجهون نحو القدس، اختار الأفضل الجمالي طريق الود والمحبة معهم "وأرسل عندئذ سفارة فاطمية قابلت قادتهم قرب طرابلس.. تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة، وعرضاً بالسماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على نحو مجموعات من مئتي حاج أو ثلاث مئة بشرط ألاّ يكونوا مسلحين"..."رفض الصليبيون الاقتراح وردّوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً بوصفهم جيش واحداً، لا بوصفهم جماعة بإذن الله، ولا بإذن الخليفة الفاطمي".

وبعد احتلالهم القدس، احتل الصليبيون عسقلان، آخر مدينة كانت بأيدي الفاطميين في بلاد الشام، ولم يأبه الصليبيون باقتراحات الأفضل وسفاراته، ولم تنجح كل محاولاته فيما بعد لإعادة أملاك الدولة الفاطمية في بلاد الشام، فالخيانة ومعاونة الصليبيين على المسلمين أدت إلى نتيجة معكوسة منكوسة على رؤوس الدولة العبيدية، و قتل الأفضل في رمضان من سنة ٥١٥هـ، ومات بالعار، لكن الخيانات العبيدية لم تنته بموت الوزير الأفضل: ذلك أن خيانة المسلمين ومعاونة الصليبيين نهج ثابت لدى العبيديين الفاطميين، الذين كانوا في داخل بلادهم يعلون من شأن اليهود والنصارى، ويفضلونهم على المسلمين من أهل السنة، وقد جاءت سياستهم الخارجية متسقة مع الداخلية. يقول ابن تغري بردي: وكان الآمر بن المستعلي يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد.

وما قاله الذهبي في ترجمته فبحق: فإنه مع تلك المساوئ التي ذكرت عنه كان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، حتى استولت الفرنج على السواحل غالبها وحصونها في أيامه، وإن كان وقع لأبيه المستعلي أيضاً ذلك وأخذ القدس في أيامه، فإنه اهتم بقتال الفرنج، وأرسل الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بالعساكر فوصلوا بعد فوات المصلحة بيوم. فكان له في الجملة مندوحة بخلاف الآمر هذا، فإنه لم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو لا شيء.

وأول ما وقع في أيامه من طمع الفرنج في البلاد خروجهم في أول سنة ٤٩٧هـ من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصد حران وقسم قصد الرقة. فمن توجه إلى الرقة تصدى له السلاجقة المسلمون والتقوا مع الفرنج واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم كانت الدائرة على الفرنج فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

والقسم الآخر من الفرنج الذي قصد حران والبلاد الشامية لم ينهض أحد لقتالهم، بل صالحهم ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها وهادنهم على أن يكون لصنجيل ملك الفرنج ظاهر البلد، وألا يقطع الميرة عنها، وأن يكون داخل البلد لابن عمار. وهلك في أثناء ذلك صنجيل المذكور ملك الروم. ولم ينهض أحد من المصريين لقتال المذكورين. فعمت الفرنج ضعف من بمصر.

ثم بعد ذلك قصد الفرنج طرابلس في سنة ٥٠٢هـ، وأخذوها بعد أن اجتمع عليها ملوك الفرنج في ستين مركباً في البحر مشحونة بالمقاتلة مع صاحب أنطاكيا وصاحب القدس بمن معهم الذين جاؤوا من البرّ وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى ذي الحجة وأسندوا أبراجهم إلى سور البلد. فلما رأى أهل طرابلس ذلك أيقنوا بالهلاك مع تأخر أسطول مصر عنهم. ثم حضر أسطول مصر من البحر، وصار كلما سار نحو البلد ردّه الفرنج إلى نحو مصر. قال ابن تغري بردي: ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كلّ وجه:

الأول: من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة.

والثاني: لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال.

والثالث: لم يخرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في أوائل الأمر.

هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة. ولله در السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فعله في أمر الجهاد وفتح البلاد.

ثم إن الفرنج لما علموا بحال أهل طرابلس وتحققوا أمرهم حملوا حملة رجل واحد في يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة وهجموا على طرابلس، فأخذوها ونهبوها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءهم، وأخذوا أموالها وذخائرها، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر واقتسموها بينهم. وطمعوا في الغنائم فساروا إلى جبة، وبها فخر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس وقاضيها، وتسلموها منه بالأمان في الثاني عشر من ذي الحجة في يوم واحد، وخرج منها ابن عمار سالماً. ثم وصل بعد ذلك الأسطول المصري بالعساكر فوجدوا البلاد قد أخذت فعادوا كما هم إلى مصر.

ثم انقضى ذلك في سنة ٥٠٥هـ ، وقصد الفرنجة صور، فكتب واليها وأهلها إلى طغتكين، القائد السلجوقي المسلم، يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج: لأنهم يئسوا من نصرة مصر، فأبى وبعث إليهم الفرسان والرجالة وجاءهم هو من جبل عاملة ثم عاد. ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس، وهو حصن عظيم، وحاصروه حتى فتحوه عنوة وقتلوا كل من كان فيه، ثم عادوا إلى صور وشرعوا في عمل الأبراج وأخذوا في قتالها والزحف في كل يوم.

فلما بلغ ذلك طغتكين القائد السلجوقي، زحف عليهم ليشغلهم، فخندق عليهم، وهجم الشتاء فلم ينال الفرنج به؛ لأنهم كانوا في أرض رملة، والميرة تصل إليهم من صيدا في المراكب. ثم ركب طغتكين البحر وسار إلى نحو صيدا وقتل جماعة من الفرنج وأغرق مراكبهم، وأوصل مكاتبته إلى أهل صور فقوى قلوبهم.

ثم عمل الفرنج برجين عظيمين طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير زيدة على أربعين ذراعاً، وزحفوا بهما أول شهر رمضان. وخرج أهل صور بالنفط والقطران ورموا النار فهبت الريح فاحترق البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونُهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير أيضاً فأطفأها الفرنج.

ثم إن الفرنج طموا الخندق وواتروا الزحف طول شهر رمضان وأشرف أهل البلد على الهلاك. فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب فعمل كباشاً من أخشاب تدفع البرج الذي يلصقونه بالسور. ثم تحيل في حريق البرج الكبير حتى أحرقه وخرج المسلمون فأخذوا منه آلات وسلاحاً. فحينئذ يئس الفرنج من أخذها، ورحلوا عنها بعد ما أحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها. وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلدة، فقال لهم: (أنا ما فعلت الذي فعلته إلا لله تعالى، لا لرغبة في حصن ولا مال، ومتى دهمكم عدوكم جئتكم بنفسي وبرجالي) ثم رحل عنهم – فلله عزه من ملك – كلُّ ذلك ولم تأت نجدة المصريين.

ودام الأمر بين أهل صور والفرنج تارة بالقتال وتارة بالمهادنة، إلى أن طال على أهل صور الأمر ويئسوا من نصرة مصر، فسلموها إلى الفرنج بالأمان في سنة ٥١٨هـ. وما أبقى أهل صور – رحمهم الله تعالى – ممكناً في قتالهم مع الفرنج وثباتهم في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر. ودخل الفرنج صور وملكوها سنين إلى حين فتحت ثانياً.

وهكذا، فبالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة في التصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الصليبيين في جنوب بلاد الشام، ظناً منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة. فاستولى الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستعلي العبيدي على صور في ٤٩٠هـ–١٠٩٧م، وعلى القدس عام ٤٩١هـ–آب ١٠٩٨م، واستتاب عليها افتخار الدولة.

ثم استولى الصليبيون على القدس من الفاطميين عام ٤٩٢هـ ودحروا الفاطميين في معركة عسقلان، ثم استولوا على أرسوف وقيسارية، ثم هزموا الفاطميين في معركة الرملة الأولى ٤٩٤هـ-١١٠١م، وفي معركة الرملة الثانية ٤٩٥هـ على الرغم من انتصار الفاطميين المؤقت الذي أعقبه انكسارهم. وفي أيام الآمر العبيدي (٤٩٦-٥٢٤هـ، استُخلف وعمره ٥ سنين)، أخذ الفرنج عكا سنة ٤٩٧هـ-١١٠٤م، وهذا قلص النفوذ الفاطمي في الساحل. ثم أخذوا طرابلس في سنة ٥٠٢هـ فقتلوا وسبوا، وجاءتها نجدة المصريين بعد فوات المصلحة، وأخذوا عرقة وبانياس وأخذوا بيروت بالسيف في سنة ٥٠٣هـ، ثم صيدا سنة ٥٠٤هـ بأيدي الصليبيين، واستعصت عليهم صور؛ لأنهم استعانوا بالسلاجقة على الرغم من السيادة الفاطمية اسماً. ثم قام الوزير الفاطمي بفرض السيادة كاملة على صور عام ٥١٦هـ/ ١١٢٣م؛ ليسلم صور إلى الصليبيين عام ٥١٨هـ بأيدي الصليبيين بعد حصار، وتسلموا في سنة ٥١١هـ تبنين. وبذلك تبيّن التواطؤ العبيدي على الإسلام، **يأخذون مدن جنوبي الشام والساحل من السلاجقة، ليسلموها من بعد ذلك إلى الصليبيين!!!** وارتفعت الأصوات في مصر تطالب الآمر الخليفة العبيدي باتتهاج سياسة إيجابية في الجهاد الحقيقي لا سياسة التحريك الظاهري للجيش.

وأظهر المؤرخون المسلمون أسفهم لعجز الفاطميين عن حماية موانئ بلاد الشام التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي الصليبيين، واتهموا الآمر الفاطمي بالتهاون في الجهاد، "فكان يتناهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، ولم ينهض لقتال الفرنج ألبتة، وإن كان قد أرسل مع الأسطول عسكراً فهو لا شيء...".

(راجع: "تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام" للدكتور محمد سهيل طقوش).

آثار العبيديين في نكبات العالم الإسلامي:

أفرزت الدولة العبيدية الفاطمية خمس ظواهر خطرة في تاريخ الإسلام:

١. ظاهرة موالاة الفرنجة الأجانب الصليبيين.

٢. وموِلد طائفة الدروز.

٣. وظهور فرقة الحشاشين الإسماعيلية.

٤. وظهور ظاهرة الوزير خواجة نصير الدين الطوسي.

٥. وموِلد طائفة البُهرة أو المكرمية الإسماعيلية.

(١) **أما بالنسبة إلى الموالاة مع الفرنجة الأجانب الصليبيين:** فراجع التحالف العبيدي – الصليبي (فيما سلف).

(٢) **أما بالنسبة إلى الدروز: فتدور عقيدتهم حول الوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي، ومؤسسوها: الزوزني والأخرم والدرزي:**

كان الحاكم قد أنشأ (دار الحكمة) على مقربة من مسجده الملاصق لباب الفتوح لتظل اسم دار الحكمة المناهض لدار الحكمة الأصل في بغداد؛ لتكون هذه الدار أشبه بالأكاديمية يجتمع فيها فلاسفة المذهب الإسماعيلي للعكوف على تطوير المذهب ومده بروافد فلسفية جديدة، وكان دعاة المذهب يقبلون من الأنحاء كافة لهذه المجالس التأويلية التي ينظمها شيوخ المذهب للدارسين في حلقات سرية. ووفد إلى مصر رجل من دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه حمزة بن علي الزوزني الذي نبغ في فلسفة المذهب في عام ٤٠٥هـ، وهو الذي دعا إلى تأليه الحاكم. وكان أحد زملائه محمد بن إسماعيل الدرزي تسرّع فكشف عن أسرار الدعوة الجديدة؛ وهذا أثار حفيظة حمزة فطرده من حلقته. وبعد اختفاء الدرزي خلا المسرح لخصمه حمزة الزوزني الذي اتخذ من مسجد (تبر)

بالمطرية مقراً سرياً للاجتماع بأعوانه وبث دعواه الإلحادية. وسرعان ما عرف أهالي القاهرة كرهم ودعواهم فطاردوهم وهاجموهم وأحرقوا باب المسجد. ويقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة):

ثم عنّ له [أي للحاكم] أن يدعي الربوبية، وقرّب رجلاً يعرف بالأخرم ساعده على ذلك وضمّ إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة. فلما كان في بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكباً في خمسين رجلاً من أصحابه وقصد مصر، ودخل الجامع راكباً دابته ومعه أصحابه على دوابهم، وقاضي القضاة ابن أبي لعوام جالس فيه ينظر في الحكم، فنهبوا الناس وسلبوهم ثيابهم وسلموا إلى القاضي رقعة فيها فتوى وقد صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم.

فلما قرأها القاضي رفع صوته منكراً واسترجع [أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون]، وثار الناس بالأخرم، وقتلو أصحابه وهرب هو. وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد! يا أحد! يا محيي! يا مميت! وصارت له دعاة يدعون أوباش الناس ومن سخف عقله إلى اعتقاد ذلك، فمال إليه خلق كثير طمعاً في الدنيا والتقرب إليه.

وكان اليهودي والنصراني إذا لقيه يقول: إلهي قد رغبت في شريعتي الأولى، فيقول الحاكم: افعل ما بدا لك فيرتد عن الإسلام. وزاد هذا الأمر بالناس.

وقال الشيخ شمس الدين في تاريخه مرآة الزمان: رأيت في بعض التواريخ بمصر أن رجلاً يعرف بـ **الدرزي** (اسمه محمد بن إسماعيل الدرزي) قدم مصر وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علي ابن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم.

فنافق عند الحاكم وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب، حتى إن الوزراء والقواد و لعلماء كانوا يقفون على بابه، ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده. وكان قصد الحاكم الانقياد للدرزي المذكور فيطيعونه.

فأظهر الدرزي الكتاب الذي فعله، وقرأه بجامع القاهرة، فثار الناس عليه وقصدوا قتله. فهرب منهم وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية، وبعث إليه في السر مالاً وقال: **اخرج إلى الشام، وانشر الدعوة في الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد**. فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة، غربي دمشق من أعمال بانياس، فقرأ الكتاب على أهله، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال، وقرر في نفوسهم التناسخ، وأباح لهم شرب الخمر، والزنى، وأخذ مال من خالفهم في عقائدهم، وأباح دمه، وأقام عندهم يبيح لهم المحظورات إلى أن انتهى.

والدروز يحبون أن يُسمَّوا الموحدين؛ فهذا هو الاسم الذي يحبونه ويطلقونه على أنفسهم في كتبهم التي يقدسونها. ويجب لحظ أن هذه التسمية لا تعني توحيد الله عز وجل الذي يعبده المؤمنون، ولكن معناها الإخلاص في توحيد الحاكم بأمره، إذ يذكر حمزة بن علي الزوزني ذلك بقوله: (التوحيد لمولانا عوض الشهادتين).

وعقيدة الدروز، في مجملها، تتألف من أفكار شتى ونظريات مختلفة فلسفية وهندية ويونانية وفارسية وفرعونية، ثم أحاطوها بالسرية الكاملة، لا يبيحون لأحد أن يطّلع عليها غيرهم، كما لا يبيحون لأحد منهم أن يفشي سراً من أسرارها. وقد جاء في كلام لحمزة بن علي قوله في الترهيب من إفشاء أسرارهم: (إن أكبر الآثام وأعظمها إظهار سر الديانة، وإظهار كتب الحكمة – يعني كتبهم – والذي يظهر شيئاً من ذلك يقتل حالاً تجد الموحدين ولا أحد يرحمه). وفي عقيدتهم الإيمان بـ **الوصايا السبعة**: صدق اللسان، حفظ الإخوان، ترك عبادة العدم والبهتان، البراءة من الأبالسة والطغيان، التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان، الرضى بفعل مولانا كيف ما كان، التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان.

قال ابن الجوزي: ثم زاد ظلم الحاكم، وعنّ له أن يدّعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي، يا مميت!! ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شرّه إلى أخته يتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فعملت على قتله وإنقاذ الدولة الفاطمية من الزوال بسببها، فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر في النجوم، فأتاه عبدان فقتلاه، وحملاه إلى أخته ليلاً فدفنته في دارها، وذلك سنة ٤١١هـ.

وحديثاً دخل كثير من الدروز في خدمة الجيش الإسرائيلي. إذ أكد سكرتير هيئة رافضي الخدمة العسكرية في الكيان الصهيوني بسام القنطار أن مشاعر الرفض متصاعدة لدى الدروز في هذا الكيان تجاه أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، وقال القنطار: (إن الدروز عندما يخدمون في (الجيش الإسرائيلي) فإنهم ملزمون بالخدمة بموجب قرار استثنائي صدر عام ١٩٥٦ ميّزهم عن بقية الأقلية العربية). وأضاف: (إنه بناءً على ذلك، ولو كانت هناك مشاعر عداء متصاعدة ضد هذه الخدمة، فإن القانون (الإسرائيلي) يلزم هؤلاء بالخدمة، أو إنهم سيدخلون السجن). مؤكداً أن الدروز لديهم مشاعر متصاعدة ضد الخدمة العسكرية في الكيان على خلفية مجموعة قضايا.



الدروز يشيعون جنازة جنود إسرائيل

والدروز بنحوٍ عام يتبعون التورية ومبدأ التقية؛ لستر معتقداتهم الباطنية الإسماعيلية، وقد ذهب محمد كامل حسين يقول: (وللدروز قضاة منهم يحكمون دائماً حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية، إلا أنهم في بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية). وقد أفتى الأزهر بانتماء الدروز إلى الإسلام!

(٣) أما بالنسبة إلى ظهور الحشاشين (النزارية الإسماعيلية أو الدعوة الجديدة):

الخلفية التاريخية: لم يلِ أحدٌ من الخلفاء الأمويين ولا العباسيين ولا المصريين مثل مدة ولاية الخليفة العبيدي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) في مصر، حيث استقر في دست الخلافة ٦٠ سنة، وقد عاش المستنصر ٦٧ سنة و٥ أشهر في الشدائد والوباء والغلاء والفتن. وعلى الرغم من طول ولايته، إلا أنها كانت بداية النهاية للدولة العبيدية، إذ تحكم الوزراء بالخلفاء، فما عاد للخلفاء عمل فعليّ إلا صناعة المكايد والمؤامرات. والمستنصر هذا على الرغم من الشدائد التي ألمت به إلا أنه هو الذي دبر أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية في بغداد عام ٤٥٠هـ عن طريق مؤامرة البساسيري الباطنية التي نجحت مدة سنة واحدة، ثم باءت بالخسران (انظر سقوط بغداد). وصار القحط في أيامه ٧ سنين مثل سني يوسف الصديق (صلوات الله وسلامه عليه) من سنة ٤٥٧-٤٦٤هـ. وثارت في أيامه الفتن في بني حمدان وكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال، واختلت الأعمال، وحُصر في قصره وطمع فيه.

ويصفه الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام: (وهو الذي خُطب له بإمرة المؤمنين على منابر العراق، في نوبة الأمير أبي الحارث أرسلان البساسيريّ، في سنة ٤٥١هـ. ولا أعلم أحداً في الإسلام لا خليفةً ولا سلطاناً طالت مدّته مثل المستنصر هذا. ولي الأمر وهو ابن سبع سنين ولمّا كان في سنة ٤٤٣هـ قطع الخطبة له من المغرب الأمير المعزّ بن

باديس، وقيل: بل قطعها في سنة ٤٣٥هـ، وخطب لبني العبّاس، وخرج عن طاعة بني عبيد الباطنيّة، وحدث في أيام هذا المتخلّف بمصر الغلاء الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف ﷺ، ودام سبع سنين، حتّى أكل النّاس بعضهم بعضاً، حتّى قيل: إنّه بيع رغيفٌ واحدٌ بخمسين ديناراً؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

حتى إن المستنصر هذا بقي يركب وحده وخواصّه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع. وآل الأمر إلى استعارة المستنصر بغلةً يركبها حامل الخبز من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء. وآخر شيء توجّهت أمّ المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من أن يمتن جوعاً؛ وكان ذلك في سنة ٤٦٠هـ. ولم يزل هذا الغلاء حتّى تحرّك الأمير بدر الجماليّ والد الأفضل أمير الجيوش من عكا، وركب في البحرّ... وجاء إلى مصر وتولى تدبير الأمور، وشرع الأمر في الصلاح.

وتوفّي المستنصر في ذي الحجّة، إذ كان في دولته الرفض والسبّ فاشياً مجهوراً، والسّنة والإسلام غريباً مستوراً، فسبحان الحليم الخبير الذي يفعل في ملكه ما يشاء). ويقول في ترجمته: (ركب البحر في الشّتاء من صور إلى الدّيار المصريّة في سنة ٤٦٠هـ، والمستنصر في غاية الضعف واختلال الدّولة للغلاء والوباء الذي حصل من قريب، ولاختلاف الكلمة، فولاه الأمور كلّها، من وزارة السيف، والقلم، وقضاء القضاة، والتقدم على الدّعاة، فضبط الأمور. وزال قطوع المستنصر واستفاق. ولمّا دخل قرأ القارئ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ ووقف. فقال المستنصر: لو أتمّها لضربت عنقه (أصل الآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾)، ولم يزل إلى أن مات في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ" انتهى.

ولم يزل على ذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا إلى مصر فاستولى على التدبير وقام بمذبحة جماعية غيلةً لزعماء الشغب، لم يكررها في التاريخ إلا محمد علي، بعد ٧٠٠ سنة في مذبحة القلعة (حين قتل المماليك غدراً). ثم استطاع الجمالي الاستيلاء على مدن الشام: صور وبعلبك وعسقلان من السلاجقة، وبذلك أنقذ الدولة الفاطمية من الفناء المبكر ومدّ في عمرها قرناً كاملاً من الزمان (حتى أزالها البطل صلاح الدين يوسف).

وتمهدت الأمور لهذا الوزير الجبار الجمالي ولم يبق نصب عينه إلا حكم مصر وراثياً في صلبه من بعده، لكن تعاليم المذهب الإسماعيلي للفاطميين يحصر الإمامة في أسرتهم، وكان الجمالي يعرف أن الوريث الشرعي للمستنصر هو ابنه نزار (كان في سن الثلاثين عندما جاء الجمالي إلى مصر)، ولكن ما الذي يمنع ظهور ابن آخر للخليفة يسابق أخاه ويستلب منه الإمامة؟ وما الذي يمنع أن يكون الوريث الجديد من بيت الجمالي كي تؤول إليه الإمامة؟ كان للجمالي ابنة رائعة الحسن والجمال اسمها (ست الملك) انتقلت مع أبيها في رحلته إلى مصر. وتحدث الناس بجمالها حتى وصلت أخبارها إلى مسامع الخليفة، فأبدى رغبته في رؤيتها، وتلقف الجمالي الطلب وهو يرقص فرحاً، وعرف أن الخليفة قد ابتلع الطعم، ولم يبق إلا اصطياده في الشبكة التي نسج خيوطها باقتدار. فأعدّ وليمة فاخرة تليق بمقام أمير المؤمنين الفاطمي، ودخلت الفتاة وهي ترفل في ثيابها الفخمة الزاهية وهي تمشي باستحياء، وبعد أن أدت فروض التحية وهي راكعة على الأرض رفعت وجهها ونزعت الغلالة الرقيقة عن وجهها الذي تبدّى في عين الخليفة كالبدر في ليلة التمام. وانبهر الرجل بجمالها وتزوجها، وانتقلت ست الملك إلى القصر الكبير وصارت زوجة أمير المؤمنين، وبقي على الأقدار أن تساند الجمالي في خطته لتهب ابنته ولداً، وكانت الأقدار سخية على بدر الجمالي (منذ كان مملوكاً أرمنياً في بلاد والي دمشق).

وحملت ست الملك وأنجبت ولداً أسماه أبو أحمد، وبذلك تهيأت كل الظروف أمام الجمالي لينقل الإمامة إلى حفيده. فتمهدت الأمور ولم يبق للمستنصر معه أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين. (راجع كتاب: "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" للدكتور جمال بدوي).

وكانت عيون نزار، الابن الأكبر للمستنصر ووريثه الشرعي، ترصد تحركات الجمالي، ويعلق آماله على زعزعة

مركز هذا الوزير الجبار مثلما حدث لكل الوزراء السابقين من جهة أخرى، كان الجمالي يراقب تحركات نزار وأعوانه، ويطلق الجواسيس لمراقبة أتباع الإسماعيلية الذين يتلقون العلم في مصر، ومنهم شاب فارسي شديد الطموح كثير الشغب اسمه (الحسن الصباح) جاء إلى مصر حاجاً الإمام المستنصر، وقابله عام ٤٧١هـ-١٠٧٨م.

وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هي التأويل الباطني للحجّ عندهم. أما الحج الظاهر فهو زيارة بيت الله الحرام. جاء الحسن الصباح كداعية إسماعيلي ناشط ضد الخلافة العباسية في بغداد. ودخل ابن الصباح على المستنصر، فأكرمه وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن بن الصباح: فمن الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار. ولذا لم يكن الحسن الصباح راضياً عن تصرفات الوزير المستبد بدر الجمالي، والخيوط التي ينسجها من أجل إقصاء نزار وتولية المستعلي، وأخذ يجهر بهذه المعارضة في محيط الإسماعيليين بالقاهرة، فلما وصلت أنباؤه إلى مسامع الجمالي قبض عليه وسجنه، ثم نفاه إلى المغرب، ولكن السفينة التي حملته من الإسكندرية، طوحت بها الرياح إلى الشام، ومنها ذهب إلى إيران حيث أقام "دولة الحشاشين" لمناوأة نظام الحكم الذي أقامه الجمالي في مصر.

بدأ الصباح يفكر في تكوين فرقة دموية فدائية بعد أن غادر مصر فراراً من نقمة الوزير بدر الجمالي، وعاد إلى مسقط رأسه في إيران بعد أن اجتاز سوريا والعراق وخوزستان، وكان طوال رحلته يدعو الناس إلى الالتفاف حوله لتخليص الإمام المستنصر من سطوة الجمالي الساعي إلى تنصيب حفيده المستعلي، بدلا من نزار الوريث الشرعي للإمامة. فآمن بدعوته خلق كثير يمنّيهم بإقامة العدل ومقاومة الظلم الذي حاق بهم من سلاطين الأتراك السلاجقة. في أقاصي الأصقاع الإيرانية عند بحر قزوين، استقر الصباح ووجد في المناطق النائية مكاناً مناسباً لإقامة دولة للإسماعيلية ينتقل إليها الإمام المستنصر ويتخذها مركزاً له وللدعوة الإسماعيلية بدلاً من مصر، وشرع في تنفيذ مشروعه الخطر.

فأطلق الدعاة لجذب الجماهير العطشة إلى العدل، ونجح هؤلاء الدعاة في التسلل إلى داخل القلاع والحصون، وتمكنوا من استمالة عدد كبير من الجند فاعتنقوا الدعوة الإسماعيلية. كان أقوى هذه القلاع قلعة "ألموت" وتعني عش النسر، ولها من اسمها نصيب كبير؛ إذ تقع فوق قمة جبال عالية يصعب الوصول إليها إلا بشق الأنفس. ثم أوعز الصباح إلى دعاته المُكرّسين للمذهب الإسماعيلي في القلعة بدعوته إليها، فدخل القلعة متنكراً منتحلاً اسماً غير اسمه، ومكث في القلعة بضعة أيام يتنقل بين حصونها ومسالكها ويختلط بالناس حتى عرف كل شيء عنهم، وعندئذ كشف عن شخصيته، وطلب من حاكم القلعة تسليمها إليه، فانصاع عندما علم أن الجنود صاروا طوع إرادة حسن الصباح، وكانت هذه بداية الدولة الإسماعيلية في إيران عام ٤٨٣هـ. ولم يلبث الصباح أن وسع مملكته فاستولى على القلاع المجاورة (وصار يُدعى "شيخ الجبل")؛ وأصبح الجو مهيأ لدعوة الإمام المستنصر إلى دولته.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: (ودخل ابن الصباح خراسان وكاشغر، والنواحي، يطوف على قوم يضلهم، فلما رأى قلعة ألموت بقزوين أقام هناك، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، ولبس المسوح، فتبعه أكثرهم. وكان نائب ألموت رجلاً أعجمياً علوياً، فيه بلة وسلامة صدر، وكان حسن الظن بالحسن، يجلس إليه، ويتبرك فيه. فلما أحكم الحسن أمره دخل يوماً على العلوي فقال: اخرج من هذه القلعة. فتبسم، وظنه يمزح، فأمر الحسن بعض صحابه فأخرجوه، وأعطاه ماله. فبعث نظام الملك لما بلغه الخبر عسكراً فنازلوه وضايقوه، فبعث من قتل نظام الملك، وترحل العسكر عن ألموت. ثم بعث السلطان محمد بن ملكشاه العسكر وحاصروه. ومن جملة ما استولوا عليه من القلاع: قلعة طبس، وزوزن، وقاين، وسيمكوه، وتأذى بهم أهل البلد، واستغاثوا بالسلطان، فبعث عسكراً حاصروه ثمانية أشهر، وفتحت، وقتل كل من فيها. ولهم عدة قلاع سوى ما ذكرنا).

وأما في مصر فقد كان الجمالي على جبروته لا يتردد في تحطيم أي رأس يقف في طريقه، ولو كان رأس ابنه "الأوحد" الذي جعله والياً على الإسكندرية (للجمالي ابنان: الأوحد والأفضل، وهذه أسماؤهما وليست صفتهما). فاتفق جماعة بمصر وولد أمير الجيوش بدر الجمالي (الأوحد) على قتل والده، وينفرد الولد بالملك، فتفطن له أبوه، فقتل الجماعة وعفا أثر ولده: يقال: إنه دفنه حياً، وقيل: غرّقه، وقيل: جوّعه حتى مات: تعددت التفاسير لكن النهاية واحدة.

وبعد موت الأوحد، اتخذ بدرٌ ابنه الثاني الأفضل معيناً له وأفضى إليه كل سلطاته، واستصدر من الخليفة سجلاً رسمياً يعترف بالأفضل ولياً له في عهد السلطنة وعمارة الجيوش، وأمر المستنصر أن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش بدر. كان بدر الجمالي أرمنياً فاتكاً جباراً قتل خلقاً كثيراً من العلماء وغيرهم، وأقام الأذان بـ (حي على خير العمل)، وكبر على الجنائز خمساً، وكتب سبّ الصحابة على الحيطان ولم يزل كذلك حتى مات بدر الجمالي وقام بعده ولده الأفضل بعمل والده نفسه.

وصار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي هو القائم بأمر المستنصر، فإن المستنصر كان قد أجلس بعده ابنه أبا منصور نزاراً أكبر اولاده وجعل إليه ولاية العهد بالخلافة. فلما مرض المستنصر أراد أخذ البيعة له، فتقاعد الأفضل شاهنشاه ودافع المستنصر، من يوم إلى يوم، حتى مات المستنصر. وكان ذلك سعياً من الأفضل في تنصيب ابن أخته (ست الملك)، وكراهة من الأفضل في نزار ولد المستنصر: وسببه أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار المذكور: (انزل يا أرمني يا نجس!) فحمل عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر.

فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر والأمراء والخواص وخوفهم من نزار، وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أحمد فرضوا بذلك، ما خلا محمود بن مصال اللكي: فإن نزاراً كان وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل. فلما علم ابن مصال الحال أعلم نزاراً بذلك، وبادر الأفضل بإخراج أبي القاسم أحمد هذا وبايعه ونعته بـ (المستعلي بالله)، وذلك بكرة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة ٤٨٧هـ، وأجلسه على سرير الخلافة، وجلس الأفضل شاهنشاه على كرسي الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال والشهود معه وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها.

ثم مضى الأفضل إلى إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر وهما بالمسجد بالقصر والموكلون عليهما فقال لهما: إن البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعان أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا وقاما وبايعاه. فكتب الأفضل بذلك سجلاً قرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء على الأمراء.

وأما أمر نزار، فإنه بادر وخرج من وقته وأخذ معه اخاه عبد الله الذي بايع وابن مصال اللكي، وتوجهوا إلى الإسكندرية، وساعده قاضي الثغر ابن عمار، وأقاموا على ذلك سنة. وكان الوالي بها ناصر الدولة أفتكين التركي أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل، فعرّفوه الحال ووعده نزار بالوزارة، فطمع أفتكين في ذلك وبايع نزاراً وبايع أيضاً جميع أهل الإسكندرية، ولقب المصطفى لدين الله. ولما استهلت سنة ٤٨٨هـ خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وأفتكين، فكانت بينهم حرب شديدة انكسر فيها الأفضل ورجع إلى القاهرة منهزماً، فخرج نزار ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري.

وأخذ الأفضل في التجهز لقتال نزار، فأرسل إلى جماعة ممن كان مع نزار من العربان واستمالهم عنه، ثم خرج بالعساكر ثانية إلى نحو الإسكندرية فكانت بينهم أيضاً وقعة انكسر فيها نزار بمن معه إلى داخل الإسكندرية، فحاصرهم الأفضل حصاراً شديداً إلى ذي القعدة. فلما رأى ذلك ابن مصال جمع ماله وفر إلى الغرب

ولما فر ابن مصال ضعفت قوى نزار وأفتكين وخافا وطلبا من الأفضل الأمان فأمنهما، ودخل البلدة ثم قبض على نزار وأفتكين وكان ذلك آخر العهد بنزار، وقتل أعيان أهلها وابن عمار قاضي الإسكندرية، الذي كتب إلى الأفضل ورقة حين كان في الحبس يقول فيها:

هل آنت منقذ شلوي من يدي زمن	أضحى يقدّ أديمي قدّ منتهس
دعوتك الدعوة الأولى وبي رمق	وهذه دعوةٌ والدهر مفترسي

فلم تصل إليه الورقة حتى قتل. فلما وقف عليها قال: والله لو وقفت عليها قبل ذلك ما قتلته.

وقدم الأفضل بأفتكين ونزار إلى القاهرة (وكان أفتكين يلعن المستعلي والأفضل بن أمير الجيوش على المنابر)، فقتله المستعلي بيده وذبحه صبراً، وبنى على أخيه نزار حائطاً فهو تحته إلى الآن. ولم يزل الأفضل يؤمّن ابن مصال حتى حضر إليه بالقاهرة ولزم داره حتى رضي عنه الأفضل.

جاءت الأخبار بوفاة المستنصر وتولية ابنه المستعلي، فثار الصباح وخطب باسم نزار وأرسل أعوانه إلى مصر لإحضار نزار، فوجدوا أن الوزير الأفضل قد قتله، ولكنهم استطاعوا أن يصحبوا معهم ابناً لنزار إلى الموت، فخفاه الحسن حتى تأتي الفرصة المناسبة لإظهاره. وبقتل نزار أصبح الحسن الصباح صاحب الأمر فيما يسمى الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وصار العقل المدبر واليد الفاعلة للاغتيالات في العالم الإسلامي آنذاك.

وقتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الأرمني وزير مصر ومدبر ممالكها في آخر رمضان ٥١٥هـ (السنة العشرين من خلافة الآمر). وقد ولي مملكة مصر بعد موت أبيه بدر الجمالي في أيام المستعلي إلى أن مات المستعلي، فأقام الأفضل ولد المستعلي مكانه في الخلافة، ولقبه بالآمر، ودبّر لدولته، وحجر عليه. وكان الخليفة المستنصر (جدّ الآمر)، وابنه المستعلي (والد الآمر) كلاهما أيضاً تحت حجر بدر الجمالي والد الأفضل هذا.

فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتضييق عليهم. وضيّق الأفضل هذا في حق الآمر حتى إنه منعه من شهواته وأراد قتله بالسم. فحمله ذلك على قتله، واتفق الآمر وجماعة أو الحشاشين، الذين قتلوه أيضاً من بعد ذلك. وكان الأفضل يسكن في مصر، فلما ركب في غير موكب وثبوا عليه وقتلوه في سلخ شهر رمضان بعد أمور وقعت.

قال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: كان الآمر العبيدي رافضياً كآبائه فاسقاً ظالماً جباراً متظاهراً بالمنكر واللهو ذا كبر وجبروت، وكان مدبر سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش. ولي الآمر وهو صبي، فلما كبر قتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون بن فاتك البطائحي، فظلم وأساء السيرة إلى أن قبض عليه الآمر سنة ٥١٩هـ وصادره ثم قتله في سنة ٥٢٢هـ وصلبه وقتل ٥ من إخوته.

وفي أيام الآمر أخذ الفرنج عكا سنة ٤٩٧هـ، وأخذوا طرابلس سنة ٥٠٣هـ، فقتلوا وسبوا وعاثوا فساداً، وجاءتها نجدة المصريين بعد فوات المصلحة وأخذوا عرقة وبانياس. وتسلموا تبنين سنة ٥١١هـ، وتسلموا صور سنة ٥١٨هـ، وأخذوا بيروت بالسيف سنة ٥٠٣هـ، وأخذوا صيداء سنة ٥٠٤هـ.

ثم قصد الملك بردويل الإفرنجي مصر ليأخذها، ودخل الفرما وأحرق جامعها ومساجدها، فأهلكه الله قبل أن يصل إلى العريش. فشق أصحابه بطنه وصبروه (أي ملحوه) ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم بالسبخة، ودفنوه بقمامة.

وهو الذي أخذ بيت المقدس وعكا وعدة حصون من السواحل: وهذا كله بتخلف الآمر المشؤوم الطلعة. ولد الآمر هذا في أول سنة ٤٩٠هـ، واستُخلف عام ٤٩٦هـ (وله ٥ سنين)، وبقي في الملك ٢٩ سنة و٩ أشهر، إلى أن خرج

من القاهرة يوماً في ذي القعدة ٥٢٤هـ وعدا على الجسر إلى الجزيرة فكمن له قوم بالسلاح. وقد ابتُهج بقتله لفسقه وسفكه للدماء وكثرة مصادرته واستحسانه الفواحش.

كان الآمر بن المستعلي مطلوباً من جماعة الحشاشين الباطنية؛ من أعوان عمه نزار المقتول بيد أبيه بعد واقعة الإسكندرية: لأن الآمر وأباه المستعلي غصبا الخلافة. وأن النص كان على نزار. فاتصل بالآمر أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر يريدون قتله. فاحترز الآمر على نفسه وتحيل في قبضهم، فلم يقدر له ذلك لما أراده الله.

وفشا أمر النزارية، وكانوا عشرة، فخافوا أن يقع عليهم الأمر فيقتلهم قبل قتله، فاجتمعوا في بيت، وقال بعضهم لبعض: قد فشا أمرنا ولا نأمن أن يظفر بنا فيقتلنا، ومن المصلحة والرأي أن نقتل واحداً منا ونلقي رأسه بين القصرين وحلاتنا عندهم، فإن عرفوه فلا مقام لنا عندهم. وإن لم يعرفوه فلنا ما نريد؛ لأن القوم في غفلة.

فقالوا للذي أشار عليهم: ما يتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا وما يتم بذلك أمرنا، فقال الرجل: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته؟ فقالوا: نعم. فقال: وما دللتكم إلا على نفسي. وشرع في قتل نفسه بيده بسكين في جوفه فمات من وقته. فأخذوا رأسه فرموه في الليل بين القصرين وأصبحوا متفرقين ينظرون ما يجري في البلد بسبب الرأس. فلما وُجد الرأس اجتمع عليه الناس وأبصروه فلم يقل أحد منهم أنا أعرفه. فحُمل إلى الوالي. فأحضر الوالي عرفاء الأسواق وأرباب المعايش فلم يُعرف، فأحضر أيضاً أصحاب الأرباع والحارات فلم يُعرف، ففرح التسعة بذلك ووثقوا بالمقام بالقاهرة لقضاء مرادهم. واتفق للخليفة الآمر أن يمضي إلى الروضة ويجوز على الجسر الذي من مصر إلى جزيرة الروضة للمقام بها أياماً للفرجة.

وكان من شأن الخلفاء أنهم يشيعون الركوب في أرباب خدمتهم حيثما قصدوا، حتى لا يتفرقوا عنه وأيضاً لا يتخلف أحد عن الركوب، فعلم النزارية التسعة ركوبه، فجاؤوا إلى الجزيرة ووجدوا قبالة الطالع من الجسر فرناً فدخلوا فيه قبل مجيء الخليفة الآمر ودفعوا إلى الفران دراهم وافرة ليعمل لهم بها فطيراً بسمن وعسل. ففرح الفران بها وعمل لهم الفطير، فما هو بأكثر مما أكلوه، ولم يتموا أكلهم إذ طلع الخليفة الآمر من آخر الجسر وقد تقدم عنه الركابية ومن يصونه لحرج الجواز على الجسر لضيقه. فلما قابلوه وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، حتى إن واحداً منهم ركب وراءه وضربه عدة ضربات وأدركهم الناس فقتل التسعة. وحُمل الآمر في عشاري إلى قصر اللؤلؤة وكان ذلك في أيام النيل، ففاضت نفس الآمر ٥٢٤هـ قبل وصوله إلى اللؤلؤة.

طرائق الحشاشين:

وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال لأهداف سياسية ودينية متعصبة. وكلمة **الحشاشين** Assassin: دخلت الاستخدام الأوروبي بمعنى الاغتيال، أو القتل غدراً، أو بمعنى القاتل المحترف المأجور. وعزوا اسم الحشاشين إلى كثرة زراعة الحشيش والأفيون على سفوح جبال قلاعهم بأمر "الحسن بن الصباح"؛ ليتناولوا الحشيش المخدر، فيصيروا تحت سيطرته. ومن نبتة "الحشيش والأفيون" أخذت المنظمة اسمها؛ ويكوّنوا تلك العملة بعامل يعوّد الدماغ على نشوة معينة تصبح جزءاً مهماً في حياته، بل لا يستطيع العيش دونها بسبب الإدمان الذي يحرّك مشاعره وانصياعه طمعاً في تناولها ثانية. ادعى الإسماعيلية أو الدعوة النزارية الجديدة أن أعداءهم هم الذين أطلقوا عليهم اسم الحشاشين ليشوهوا صورتهم.

لكن الحقيقة تجافي هذا الادعاء، ثم إن الحشيشة كانت منتشرة آنذاك، إذ يقول العالم ابن الصلحب أحمد بن شكر (ت ٦٨٨هـ) يمدح الحشيشة الخسيسة (وكان مدمناً على أكل الحشيش):

يا نفس ميلي إلى التصابي	فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملي من سكر يوم	إن أعوز الخمرُ فالحشيش

فيردّ عليه الشمس محمد بن العفيف سليمان بن علي التلمساني (ت ٦٨٨هـ)، الشاعر المُطبق، يذمّ الحشيشة:

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها	لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراءُ في وجهه، خضراءُ في فمه	حمراءُ في عينه سوداء في كبده

كان الحسن بن الصباح يختار الأطفال حتى يتدربوا تدريباً شاقاً للقيام بعمليات الاغتيالات، وقد كان يراعي فيهم ألا يكونوا قد ذاقوا الخمر أو النساء أو أي من ملذات الحياة، وقد كانت بعض الأسر ترسل أبناءها إلى (الحسن)؛ حتى يجاهدوا في سبيل توسيع الدعوة الصباحية المقدسة!!

وقد وكل (الصباح) أمر هؤلاء الفتية إلى بعض المعلمين يعلمونهم أصول مذهبهم واللغة والشعر. وتعلموا العلوم العسكرية على يد قادة بارعين جداً، وكانت تدريباتهم العسكرية رفيعة المستوى بدرجة كبيرة؛ حتى إن الفدائي نفسه كان يتأذى في أثناء التدريب.

وكان مما يقوله هؤلاء المُعلمون إلى فتيانهم: "إنه لا بد من أن يكون لعقل الإنسان وفكره وتطلعاته تحليق النسر إذا لم يعترضه عائق كبير، هذا العائق هو جسدنا بكل مواطن ضعفه، فجسدنا الميال إلى الكسل – كما يوضح القائد – يخشى الصعاب التي بها تتحقق الأهداف السامية، وقهر هذه الأهواء وتحرير العقل من قيودها هو الهدف من تدريباتنا، إلى أن يصبح المرء قادراً على إنجاز المآثر العالية التي تقتضي التضحية بالنفس بنحو أعمى عندما يأمر سيدنا الأعلى ابن الصباح. وعندما يموت الفدائي وهو يقوم بواجبه يسمى شهيداً، وعندما ينجح ويبقى حياً يُرقى إلى داعية أو أكثر".

وقد غرس (الصباح) في نفوسهم أنه هو السيد والإمام والمولى، وأن الله تعالى قد أعطاه مفتاح الفردوس يفتحه لمن يشاء من أتباعه الإسماعيليين.

وكان (الصباح) قد اهتم بالجانب الآخر من القلعة وبما خلّفه ملوك الديلم من حدائق تخترقها الأنهار وتملؤها الطيور والأزهار، واشترى العديد من الفتيات الشديدات الجمال والفتيان، وأسكنهم القلعة وجلب لهم من يعلمهم الفنون والشعر والرقص ويجعل حياتهم ناعمة مثل الأميرات الناعمات. وقبل كل شيء كان يقوم بتعليمهم طاعته وولاء التام له والطاعة العمياء لأوامره.

عندما كان (الصباح) يفكر في خطة لاغتيال أي شخص أو زعيم فإنه ينتدب لها أي شخص من الفدائيين فيدخله (فردوسه) هذا، ثم يستدعيهم في المساء ويجعلهم يتناولون الحشيش، ومن ثم يغيبون عن وعيهم ولا يفيقون إلا في الفردوس على أصوات الفتيات الجميلة التي تمثل لهم الحور العين، فيأخذن بالغناء والرقص له وهو الفتى الذي لم يواجه في حياته أي فتنة أو إغراء. ويقوم بعمل كل شيء حُرِّم عليه في الجانب الآخر من القلعة، وكان الفتى بعد كل ما تعرض له يؤمن بأنه كان في الجنة وأن سيده (الصباح) فتح له باب الفردوس الحقيقي... ثم تقوم الفتيات بتخديره وحمله إلى (الصباح)، فيفيق وقد آمن تماماً بأن هذا (الصباح) معه مفتاح الفردوس الأعلى!! ثم يكون من الطبيعي وقتها أن يستجيب الفدائيّ لكل ما يطلبه منه سيده ولو كان فيه مصرعه.

وفرقة الحشاشين مدربون على التخفي، وعلى استعمال الخناجر بجرأة في الاغتيالات؛ للإمعان في إرهاب الضحايا بقتلهم عن قرب. ويرفض الحشاشون استخدام السمّ أو السهام؛ لأنها أدوات تتيح للمقاتلين الهرب. جاء في كتاب (المنتظم) لابن الجوزي حكاية فحواها:

أن ابن الصباح عندما استقبل مبعوثين من خصومه السلاجقة يطلبون منه التنازل عن ألموت والرجوع عن دعوته، عمد إلى الردّ عليهم بواقع حال فدائييه الذين أذاقهم فردوسه، فاستدعى اثنين منهم، وقال لأحدهم: هل تريد العودة إلى الفردوس والخلود فيها؟ فأجاب الفتى: نعم، فقال له: اذهب إلى أعلى ذلك البرج وألقِ نفسك إلى الأرض، فانطلق الغلام برغبة طافحة وجذل ظاهر وارتقى البرج وقذف بنفسه إلى الأرض فتقطع جسده ميتاً، ثم التفت إلى الفدائي الآخر ملوحاً بالفردوس وسأله: ألديك خنجر؟ فأجاب: نعم، فقال له: اقتل نفسك، فانتزع الفتى خنجره وغرسه في عنقه وفار دمه ثم خر صريعاً... عندها قال ابن الصباح للرسل بين يديه: أبلغوا من أرسلكم أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا مبلغ طاعتهم لي!!

وحسن الصباح هو المُنظر الفعلي لمفهوم الإرهاب، بمفهومه التنظيمي ومصطلحاته وعقيدته... فهو أول من أسس مفهوم الانتحاري المُكرس لهدف الاغتيال وسماه الفدائي. ومنها ظاهرة الساموراي بوصفه محارباً يابانياً انتحارياً ينهي حياته باختياره بشرف، وهذا ما ألهم الطيارين اليابانيين في عملياتهم الانتحارية على البوارج الامريكية kamikaze mission في الحرب العالمية الثانية.

ضحايا الحشاشين:

امتدت عمليات الاغتيال على مدة قرنين هما الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). **ومن ضحايا الحشاشين الوزير نظام الملك السلجوقي (عام ١٠٩٢م)، والوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه الجمالي (عام ١١٢٢م)؛ لأنه المسؤول عن سجن نزار وموته (انظر فيما سبق)، والخليفة العبيدي الآمر بن المستعلي الذي اغتصب الخلافة من نزار (انظر فيما سبق)، وابن الخشاب (عام ١١٢٥م) الذي كان يُصرّ من حلب على جهاد الصليبيين، فاستلهم ذلك منه المجاهد عماد الدين زنكي. وتعرّض صلاح الدين لمحاولات الحشاشين الخائبة، ثم حاصر حصن الباطنية الحشاشين في سوريا في (مصياف) عام ١١٧٦م في أثناء جهاده لاسترجاع أراضي القدس. ثم أنهى حصاره لهم بعد اتفاقهم على معاهدة لاستسلامهم وتطويعهم، ومن ثم تركهم صلاح الدين.**

وكان من عادات (الفدائيين أو الانتحاريين) في تنفيذ العمليات: الاختباء في ملابس الصوفية أو ارتداء ثياب النساء والدراويش، أوانتظار المطلوب بين صفوف المصلين، أو تقديم أنفسهم بوصفهم طالبي حاجات وعابري سبيل، أو العمل داخل القصور تحت أسماء مستعارة حتى تحين فرصة الانقضاض على الضحية. يعترضون ضحيتهم وهو بين حرسه وشرطته، وربما داخل ثكنة الجيش برسالة استرحام، أو برسالة من صديق يتوسط بقضاء حاجة حاملها، وعندما يقترب من المطلوب قتله تغرز الخناجر جسده (رقبته أو صدره). وأحياناً يذبحون الضحية في أثناء النوم. ولا يترددون في التضحية بواحد من السرية المبعوثة لتنفيذ المهمة إن اقتضى الأمر.

وفرقة الحشاشين هم من أوائل من استخدم المرايا لعكس الإشارات في أثناء النهار؛ من أجل التواصل مع القلاع المجاورة، ولاسيما المحيطة بقلعة ألموت. ويستخدم الحشاشون إشارات شعلة النار في الليل.

كانت أول عملياتهم التي قاموا بها بعد عامين من دخول (الصباح) القلعة، إذ قاموا بقتل وزير السلاجقة نظام المُلك عام ٤٨٥هـ. يصوّر ابن الأثير في (الكامل في التاريخ) عملية اغتياله، فقال: (لما بلغ الخبر "أي الاستيلاء على القلعة" نظامَ المُلك، بعث عسكراً إلى قلعة ألموت فحصروه فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاق ذرعه بالحصر فأرسل مَنْ قتل نظام المُلك، فلما قُتل رجع العسكر عنها). وقد تمنى نظام الملك الشهادة في نهاوند حيث موقعة نهاوند، فاستجاب الله له.

قال ابن تغري بردي: (ولما خرج من أصبهان بعد مخدومه ملكشاه قاصداً بغداد نزل قرية من قرى نهاوند مكان الوقعة التي كانت في زمان عمر بن الخطاب ﷺ فقال: هذا موضع مبارك قتل فيه جماعة من الصحابة، فطوبى لمن كان منهم. وكان جالساً والأمراء بين يديه وكان صائماً؛ فإنه كان يوم الخميس فقدّم الأكل فأكل الناس، ثم ركب محفته إلى خيمة النساء، وكان به مرض النقرس، فاعترضه صبيٌّ ديلمي في زي الصوفية وبيده قصة فدعا له وسأله أن يناوله إياها من يده إلى يده، فقال: هات، فمد يده ليأخذها، فضربه بسكين في فؤاده، فحُمل إلى مضربه ومات، وهرب الديلمي، ثم عثر عليه بطنب في خيمة فقطع قطعاً. وكانت وزارة نظام الملك لبني سلجوق ٢٤ سنة – وقيل ٤٠ سنة – وكان عمره ٧٦ سنة). (النجوم الزاهرة).



أحد أعضاء تنظيم فرقة الحشاشين (صاحب العمامة البيضاء في يسار الصورة) يطعن الوزير السلجوقي العظيم "نظام الملك" طعنة قاتلة بالخنجر، عام ١٠٩٢م، وهي واحدة من العديد من جرائم الاغتيالات السياسية التي قامت بها فرقة الحشاشين. والوجوه في هذا التصوير الإيضاحي من مخطوطة القرن الرابع عشر، وقد حكت حديثاً لإخفائها (عن مخطوطة في متحف قصر طوب كابي)

باغت انتحاري الوزير **فخر المُلْك بن نظام الملك** في ٥٠٠هـ، بهيئة متظلم رفع صوته شاكياً: "ذهب المسلمون، ما بقيَ مَنْ يكشف ظلامة، ولا مَنْ يأخذ لضعيف حقاً، ولا مَنْ يفرج عن ملهوف". سمعه الوزير، وهو يهم بالخروج من دور بعض نسائه، فلما أدناه منه "دفع إليه رقعة، فبينما هو يتأملها ضربه بسكين في مقتله فقضى نحبه" وهو بين حراسه، أما الانتحاري فكان مصيره أن "فصّل على قبر فخر المُلْك عضواً عضواً" (النجوم الزاهرة). كان تعرض نظام المُلْك لجند الموت وابلاً عليه وعلى أولاده الوزراء، فبعد مقتله ومقتل ولده تعرض ولده الآخر نظام المُلْك أحمد لضربة سكين بعنقه نجا منها بأعجوبة، فلما قبض على الانتحاري أسقي خمراً، فأقرّ على "جماعة من الباطنية بمسجد في محلة المأمونية، فقتلوا وقتل معهم".

وقتل الأمير آق سنقر البرسقي (السلجوقي) صاحب الموصل في ٥١٩هـ كان أميراً شجاعاً جواداً عادلاً في الرعية، وكان الخلفاء والملوك يحترمونه. وكان قد احترز من الباطنية بالرجال والسلاح والجاندارية. فدخل يوم الجمعة إلى جمع الموصل فجاء إلى المقصورة وفيها جماعة من الصوفية لهم عادة يصفون فيها، فاستراب بهم ودخل في الصلاة وتأخر عنه أصحابه، فوثب عليه ثلاثة في زي الصوفية فضربوه بالسكاكين فلم تعمل في جسده للدرع الذي كان عليه، فصاحوا: رأسه، وجهه فضربوه حتى قتلوه وقُتل الثلاثة.

وحزن الناس عليه وأقاموا ابنه مسعوداً مقامه (النجوم الزاهرة). وقتل الباطنية وزير السلطان سنجر شاه السلجوقي في عام ٥٢١هـ وكان قد أفنى منهم اثني عشر ألفاً. فبعثوا إليه سائساً يخدم في إصطبله، إلى أن وجد الفرصة حين دخل الوزير يوماً يفتقد خيله فوثب عليه المذكور فقتله وقتل بعده نفسه.

واعترض انتحاري عام ٥٣٤هـ، في صورة امرأة، طريق جوهر خادم السلطان سنجر شاه بن ملكشاه السلجوقي، ووكيله في الدولة، مستغيثاً من ظلم لحقه، وعندما اقترب من جوهر رمى ثياب المرأة "ووثب عليه وقتله، فقتله خدم جوهر في الوقت".

وصارت فرقة الحشاشين مرتزقة للصليبيين الأجانب، الذين أشاعوا اسمهم في أوروبا. فاستطاع الصليبيون شراء ذممهم لاغتيال القائد المجاهد عماد الدين زنكي. واستخدمهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا لاغتيال كونراد دي مونتفيرات (عام ١١٩٢م).

وقتلت فرقة الحشاشين أيضاً ريموند الثاني ملك دويلة طرابلس (عام ١١٥٢م). وقامت فرقة الحشاشين بمحاولة اغتيال الأمير إدوارد (الذي صار الملك إدوارد الأول لإنكلترا)، فجرحوه بخنجر مسموم عام ١٢٧١م (بتدبير من البطل الملك الظاهر بيبرس)، وعلى الرغم من إخفاق المحاولة، نجدها أقنعت الأمير إدوارد بتوقيع هدنة مدة ١٠ سنة مع المماليك، وسرّعت برحيله مباشرة إلى إنكلترا، وبخروجه أخفقت الحملة الصليبية التاسعة والأخيرة على العالم الإسلامي.

قائمة حكام الحشاشين:

١. **الحسن بن الصباح:** حكم الصباح ٣٩ عاماً، ومات وعمره قد بلغ نحو ٩٠ عاماً (١٠٣٧–١١٢٤ م). وفي عهده مات الإمام المستنصر بالله ٤٨٧هـ–١٠٩٤م، وقام الوزير بدر الجمالي بقتل ولي العهد والابن الأكبر "نزار" لينقل الإمامة إلى الابن الأصغر "المستعلي" الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت الوزير؛ وبذلك انشقت الفاطمية إلى نزارية مشرقية، ومستعلية مغربية. أخذ الحسن بن الصباح يدعو إلى إمامة نزار، مدّعياً أن الإمامة قد انتقلت إلى حفيد لنزار أحضر سراً إلى الموت، وأنه طفل جرى تهريبه من مصر إلى فارس، أو أن محظية لنزار كانت حاملاً منه أُخذت إلى الموت حيث وضعت حملها. وبقي أمر هذا الإمام الجديد مكتوماً، توفي الحسن الصباح عام ٥١٨هـ–١١٢٤م من غير سليل؛ لأنه كان قد أقدم على قتل ولديه في أثناء حياته. فبعد ٣٤ سنة من سيطرته على منظمة الحشاشين، ومن حجرة داخل قلعة الموت لم يغادرها إلا مرات قليلة، كان لزاماً عليه أن يخطط لاستمراره حتى بعد موته. فلم يكن له وريث بعد مقتل ولده الأكبر ووفاة الأصغر بسبب إدمانه على الخمر، فاستدعى مساعديه وأسند إلى أحدهما يدعى (كيا) الأمور الروحية، وأسند إلى مساعده (أبي علي القزويني) الشؤون العسكرية، بعدها خرج من غرفته عبر ممر سري، حتى يوهم أتباعه أنه رُفع إلى السماء وسيعود عند نهاية العالم. ويعني ذلك العقيدة الاثنا عشرية وجوده الروحي مع أتباعه!!

لم تؤثر وفاة زعيم الانتحاريين الحسن بن الصبّاح سنة ٥١٨هـ، وسقوط قلعة الموت بيد السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٤هـ، في استمرار العمليات الانتحارية، فقلعة "عش النسر" واحدة من مئات القلاع التي لم تسقط كاملة إلا بأيدي عساكر المغول أسقطتها واحدة بعد واحدة، خاصة حين ذهب إليهم مستجيراً قاضي قضاة قزوين شمس الدين، وهو يلبس الزرد تحت ثيابه وقاية من خناجر الحشاشين، وحذر خان المغول من الاحتراز منهم.

٢. **كيا بزرك اميد:** حكم من ٥١٨هـ–١١٢٤م إلى سنة ٥٣٢هـ–١١٣٨م: كان أول أمره قائداً لقلعة لاماسر مدة عشرين سنة، وفي مدة حكمه دخل في عدة معارك مع جيرانه السلاجقة، ثم إنه كان أكثر تسامحاً وسياسة من الحسن الصباح.

٣. **محمد كيا بزرك اميد:** حكم من سنة ٥٣٢هـ–١١٣٨م إلى سنة ٥٥٧هـ–١١٦٢م.

٤. **الحسن بن محمد:** حكم من ٥٥٧هـ–١١٦٢م إلى ٥٦١هـ–١١٦٦م: أعلن في شهر رمضان ٥٥٩هـ قيام

القيامة، وأنهى الشريعة، وأسقط التكاليف، وأباح الإفطار، ثم أقدم بعد ذلك على خطوة أخطر، وذلك بأن ادعى أنه من الناحية الظاهرية حفيد لكيا بزرك، ولكنه في الحقيقة إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار.

٥. **محمد بن الحسن**: من ٥٦١هـ-١١٦٦م إلى ٦٠٧هـ-١٢١٠م: طور نظرية القيامة ورسخها، وقد ساعده على ذلك انحلال هيمنة السلاجقة في عهده وضعفهم، وظهور التركمان، وبداية التوسع التركي.

٦. **جلال الدين الحسن بن محمد**: من ٦٠٧هـ-١٢١٠م إلى ٦١٨هـ-١٢٢١م: رفض عقائد آبائه في القيامة، ولعنهم وكفّرهم، وأحرق كتبهم وجاهر بإسلامه، وقام بوصل حباله مع العالم الإسلامي، إذ أرسل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله وإلى السلطان السلجوقي خوارزم شاه والملوك والأمراء يؤكد لهم صدق دعوته إلى التعاليم الإسلامية، ففرحت البلاد الإسلامية بذلك وصار أتباعه يعرفون بالمسلمين الجدد.

٧. **محمد بن الحسن** (وبعض الكتب تسميه **علاء الدين محمود**): كان حكمه من سنة ١٢٢١م إلى سنة ١٢٥٥م: خلف أباه وعمره ٩ سنوات، وظل وزير أبيه حاكماً لألموت، وقد عاد الناس في عهده إلى المحرمات، وارتكاب الخطايا، والإلحاد، وانتشرت السرقة وقطع الطرق والاعتداءات.

٨. **ركن الدين خورشاه (شمس الشموس)**: ١٢٥٥م-١٢٥٨م: قاد هولاكو حملة سنة ١٢٥٦م، وكان هدفه قلاع الإسماعيلية، وما زال يتقدم حتى استسلم له ركن الدين وسلمه قلعة ألموت وأربعين قلعة وحصناً، كلها سوّيت بالأرض، ويقال: إنّ هولاكو استقبله بترحاب وزوّجه فتاة مغولية، وانتهى منه بقتله غيلة في عام ١٢٥٨م (الجزاء من جنس العمل)، وبذلك انتهت دولة الحشاشين سياسياً في فارس. لكن رواية الذهبي تقول بقتل هولاكو له مباشرة (انظر فيما سيأتي لاحقاً).

تقول روايات الإسماعيليين: إن ركن الدين قد أخفى ابنه شمس الدين محمد الذي هرب من بطش هولاكو متنكراً إلى جهة ما بجنوب القوقاز، ثم استقر في قرية أنجودا على الطريق بين أصفهان وهمدان. وبقي فيها إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة. وكان من عقبه سلسلة من الأئمة في القرن التاسع عشر، ومنهم ظهرت أسرة آغا خان.

الحشاشون في بلاد الشام: (كان لهم وجود في قلاع الشام: قلعة بانياس، حصن قدموس، حصن مصياف، الكهف، الخوابي، المنيقة، القليعة). ظهر لهم في الشام قادة مثل بهرام الأستراباذي، والداعي إسماعيل الفارسي، وقد أفادوا من ستمالة رضوان بن تتش والي حلب إلى مذهبهم، فوفد إليها عدد كبير من إسماعيلية فارس، وهذا قوّى شوكتهم في بلاد الشام. يقول عنهم المؤرخ كمال الدين بن العديم: (**في عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م انخرط سكان جبل السماق في الآثم والفسوق وأسموا أنفسهم المتطهرين، واختلط الرجال والنساء في حفلات الشراب ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن أحدهم أن سناناً هو ربه**). ومن أبرز شخصياتهم في الشام هو شيخ الجبل سنان بن سليمان بن محمود المعروف برشيد الدين الذي نشأ في البصرة، وتلقى علومه في قلعة ألموت وكان زميلاً لولي العهد الحسن بن محمد الذي أمره بالرحيل إلى بلاد الشام عندما صار الأمر إليه. انتقل إلى بلاد الشام وجمع الإسماعيلية حوله وصار لهم نفوذ وسلطان، واعترف الناس بإمامته، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بألموت. وقد كان شخصاً مخيفاً، وهم يذكرونه على أنه أعظم شخصياتهم على الإطلاق. خلفه أمراء ضعاف وهذا سهّل إنهاءهم والقضاء عليهم على يد الظاهر بيبرس.

سقوط الحشاشين وتراثهم: استأصل المغول الحشاشين ربما؛ لأنهم حاولوا قتل مونغي خان، فأصدر قراراً سلمه إلى القائد المغولي كتبغانوين الذي بدأ بالانقضاض على العديد من قلاع الحشاشين عام ١٢٥٣م قبل أن يتقدّم هولاكو إليهم عام ١٢٥٦م. فحاصر المغول قلعة الموت المنيعة والمركز القيادي لقلاع الحشاشين في ١٥ كانون

أول/ديسمبر ١٢٥٦م. ولم يستطع هولاكو دخول قلعة ألموت واستئصال الحشاشين منها إلا بمساعدة وزير الحشاشين الخائن خواجة نصير الدين الطوسي (انظر فيما سيأتي لاحقاً). استطاع الحشاشون فيما يقال استرداد قلعة ألموت بضعة أشهر عام ١٢٧٥م، لكنهم هزموا هزيمة ساحقة أنهت قوتهم السياسية هناك، وإلى الأبد.

لكن فرع الحشاشين الشامي السوري استولى عليه السلطان البطل الملك الظاهر بيبرس عام ١٢٧٣م، واستطاع المماليك بحنكة بيبرس السياسية والعسكرية توظيف خدمات الحشاشين المتبقين لمصلحة الإسلام: فقد سجل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر استئجارهم للقيام بالاغتيالات السياسية لمصلحة الإسلام ضد الصليبيين مقابل أجر ثابت لكل عملية فدائية. وبذلك استمر الحشاشون بالعمل وبقوا أحياء. ولا بد أن يكون لمماليك ضلع في استحثاث الحشاشين لاستعادة السيطرة على قلعة ألموت في قلب الإمبراطورية المغولية عام ٢٧٥م. وعلى كل حال، فإن الحشاشين استطاعوا اللجوء إلى مبدأ التقية (الكذب والتورية): لستر هويتهم الحقيقية وللبقاء أحياء حتى يخرج إمامهم كما يدّعون.



رئيسة وزراء بريطانيا مع الاغاخان، وهي تفتتح "مركز الإسماعيلية" في لندن في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٥م

واستمر الحشاشون بوصفهم شيعة إسماعيلية في العالم المعاصر، بقيادة آغا خان الرابع (إمامهم رقم ٤٩). ومنذ ذلك الحين والإسماعيلية النزارية الآغاخانية لها مكان متميز في الغرب الأوروبي، فقد أسس "معهد الدراسات الإسماعيلية" في ١٩٧٧: لنشر أعمال البحوث بقيادة الأكاديميين النزاريين. وأغلب هذه الأعمال تدور حول مدة الحشاشين بما يشمل تاريخهم، وعلومهم، وفلسفتهم. وافتتحت رئيسة وزراء بريطانيا العظمى بنفسها "مركز الإسماعيلية" في قلب العاصمة البريطانية، في ساوث كينزنغتون — لندن، يوم الأربعاء ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٥، وبحضور آغا خان الطائفة الإسماعيلية: الأمير شاه كريم الحسيني آغا خان الرابع.

(٤) أما بالنسبة إلى ظهور شخصية الخواجة نصير الدين الطوسي الإسماعيلي:

فقد حوصرت قلعة ألموت وهوجمت من قبل قوات هولاكو (حفيد جنكيز خان) في عام ٦٥٤هـ–١٢٥٦م، وكان حاكم الحشاشين الإسماعيلية في قلعة ألموت آنذاك هو ركن الدولة خورشاه شمس الشموس، وكان وزيره آنذاك خواجة نصير الدين الطوسي، الذي يُقال: إنه أراد الخروج إلى بلاط الخلافة في بغداد (ولعلها حجة للخروج من القلعة المنيعة: لأجل التعاون مع هولاكو)، فحبسه حاكم القلعة.

وفي أثناء حصار القلعة المستعصي على هولاكو، استطاع الطوسي الهرب من معتقله بالقلعة إلى خارجها، وقام مباشرة بخيانة حاكم القلعة وتحالف مع هولاكو. وقد دله على دفاعات القلعة وكيفية الدخول من مواطن ضعفها، فكافأه هولاكو لذلك، بعد تدميره قلعة ألموت، وعينه وزيراً ومستشاراً له بوصفه عالماً بالتنجيم، ثم جعله مسؤولاً عن الأوقاف والكتب الإسلامية في بغداد بعد تدمير هولاكو إياها عام ١٢٥٨م. ومن ثم بنى له مرصداً فلكياً في مرغانة افتتحه للعمل عام ١٢٦٢م.

كان كثير من العلماء، في العالم الإسلامي الذي اكتسحه هولاكو، هم أعظم مكانة من الطوسي علماً وعبقرية، لكن هولاكو قتلهم جميعاً (أهلكه الله) دون تأنيب ضمير. فلماذا أبقى على حياة الطوسي الإسماعيلي في الوقت الذي قتل فيه الحكام الإسماعيليين ودمّر قلعتهم في ألموت؟!!

بل السؤال الأهم: لماذا استوزر هولاكو الطوسي هذا من بعد ذلك، وجعله يده اليمنى؟! الجواب يكمن في المعلومات الدقيقة والخطيرة التي أفشى بها الخواجة الطوسي الخائن (وزير دولة الحشاشين) إلى هولاكو، التي مكنته من قتل حاكمها ومن فتح أمنع حصن آنذاك، الذي لم يستطع أحدٌ اقتحامه غيره عام ٦٥٤هـ-١٢٥٦م.

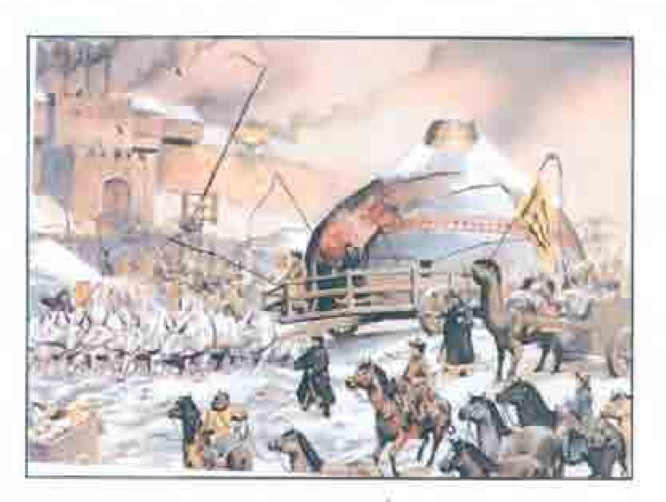
وينفي الإمام الذهبي أن يكون خواجة نصير الطوسي قد تعرّض للحبس من حاكم القلعة، وهذا يدل على خيانة سابقة وتواطؤ مع هولاكو قبيل مجيئه إلى قلعة الألموت، وأن مقتل حاكم الألموت وكبار القادة في دولة الإسماعيلية حدث بخروجهم لملاقاة هولاكو بالأمان بتأثير وزيرهم خواجة نصير الطوسي؛ ذكر ذلك الإمام الذهبي مرتين.

يقول الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٤هـ: (**املك هولاكو حصون الإسماعيلية!** وفيها كان خروج الطاغية هولاكو ابن تولي بن جنكيزخان، فسار في المغول من الأردو فملك الألموت وقلاع الإسماعيلية التي بنواحي الري. قال ابن الساعي: بعث هولاكو إلى مقدمة الباطنية ركن الدين، فبعث أخاه في ثلاث مئة فقتلهم هولاكو، وتهدّد ركن الدين، فنزل إليه بأمان، ثم قتله وخرب قلعته، ثم خرب الألموت وسائر قلاع الباطنية، ثم ترحل قاصداً العراق).



دخول المغول حصن الحشاشين في ألموت

ويقول الذهبي في موضع آخر في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٦هـ: (فكان هولاكو قد قصد الألموت، وهو معقل الباطنية الأعظم وبها المقدم علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن المنتسب إلى نزار بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي الباطني، فتوفي علاء الدين وقام بعده ابنه شمس الشموس، فنزل إلى هولاكو بإشارة النصير الطوسي عليه، وكان النصير عنده وعند أبيه (أي وزيراً)، فقتل هولاكو شمس الشموس وأخذ بلاده) انتهى. وتكررت القصة نفسها هذه بعد سنتين فقط، وبالتحديد عام ٦٥٦هـ-١٢٥٨م، لكن بنحو آخر مع وزير آخر اتصل بهولاكو وتعاون معه سراً للدخول إلى أعظم عاصمة في الدنيا: بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية: لأن هذا الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي، كان وزير المستعصم، آخر خليفة عباسي في بغداد.



حصار المغول قلعة ألموت: مركز الحشاشين المحصّن

نصير الدين الطوسي (٥٩٧-٦٧٢هـ / ١٢٠١-١٢٧٤ م): فيلسوف وفلكي فارسي. ولد بمدينة طوس الإيرانية، ثم انضم إلى فرقة الحشاشين الإسماعيلية الموجودة في قلعة ألموت في شمال إيران، وهناك أتم معظم إنجازاته في الفلك والعلوم. يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: (النصير الغلام الفيلسوف خواجة نصير الدين محمد بن محمد بن حسن الطوسي الحكيم. كان رأساً في حكم الأوائل، ومعرفة الرياضي والأرصاد والحساب. قرأ على المعين سالم الرافضي وغيره. وخدم ابن الصباح صاحب الألموت، واجتمع بهولاكو فنفق عليه وأحبه، وتمكن حتى صار مشير دولته، وأنشأ له الرصد بمراغة، وحمل فيه عظيمة وخزانة للكتب ما سمع قط بمثلها، فأوترها من كتب البلاد المنهوبة حتى زاد فهرس أسماء الكتب نحواً من ستين كراسة، وجعل في الرصد المنجمين والفلاسفة والأدباء والفقهاء).

واشتغل الطوسي في شبيبته بعلم الأوائل جيداً، وصنف في علم الكلام، وشرح (الإشارات) لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في واقعة بغداد. ودفن في مشهد موسى بن جعفر في سرداب كان قد أعد للخليفة الناصر لدين الله. وهو الذي كان قد بنى الرصد بمراغه، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء.. وبنى له فيه قبة عظيمة، وجعل فيه كتباً كثيرة جداً. توفي في بغداد في ١٢ ذي الحجة سنة ٦٧٢هـ، وله ٧٥ سنة.

كان نصير الدين الطوسي ووزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي ممن أسهموا في إسقاط بغداد، وقتل فيها عشرات الآلاف على أيدي المغول.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن هولاكو بعد تدميره بغداد واحتجاز الخليفة عنده ليقرر ماذا يبتّ في أمره: (**ويقال إن الذي أشار بقتله (أي قتل الخليفة) الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا يُنسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير. فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق: لئلا يقع على الأرض شيء من دمه فيؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنق، ويقال: بل أُغرق، فالله أعلم. فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنيّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون**). (ج١٣، ص٢٣٥)

قال ابن تيمية عند تفسير سورة البقرة (في مجموع الفتاوى): "وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها وأخذ كتب الناس، ملكها ووقفها، وأخذ منها ما يتعلق بغرضه، وأفسد الباقي، وبنى الرصد ووضعها فيه، وكان يُعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والطوينية، ويعطي في رصده الفيلسوف والمنجم والطبيب أضعاف ما يعطي الفقيه، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان، ولا يصلون".

وقال في موضع آخر: "وصنف القاضي أبو بكر بن الطيب فيهم كتاباً في كشف أسرارهم وسماه (كشف الأسرار وهتك الأستار) في مذهب القرامطة الباطنية. والذين يعيشون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم. وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين، وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم. وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم ثم الرافضة بعدهم. فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة ويوالون التتار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت

الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد. ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم". وقال في منهاج السنة (ج٧، ص٤١٤): "و لهذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول الترك الكفار إلى بلاد الإسلام. وأما قصة الوزير ابن العلقمي وغيره كالنصير الطوسي مع الكفار، وممالأتهم على المسلمين فقد عرفها الخاصة والعامة".

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

(ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد، وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو، شفى نفسه من أتباع الرسول الكريم – وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه: قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة. واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك، فقال هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحراً يعبد الأصنام، وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه "المصارعة" أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه للعالم: فقام له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه "مصارعة المصارعة"... وبالجملة: كان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر). (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٢٦٣).

لكن في الجانب الآخر يصف أحد علماء الإثناعشرية (روضات الجنات للخونساري) عند ترجمته لنصير الدين الطوسي ما نصّه: (ومن جملة أمر نصير الدين الطوسي المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هلاكو خان (انظر تعظيم هولاكو أهلكه الله)، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار)!!!



الطوسي على الطوابع الإيرانية

ويقول الخميني أيضاً في كتابه "الحكومة الإسلامية" ما نصه: (ويشعر الناس بالخسارة بفقدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام)... (وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك، ولو أدى الامتناع إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين، مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي رحمهما الله). (علي بن يقطين – توفي ١٨٢هـ – هو أحد وزراء الخليفة هارون الرشيد، كانت علاقته وثيقة بالإمام موسى الكاظم (عليه السلام) الذي استحثه للبقاء في البلاط العباسي لحماية الشيعة، بقوله: (كفّارة عَمَل السلطان الإحسان إلى الإخوان). (ص١٤٢، ط٤). وقد قامت جمهورية إيران الإسلامية بتخليد الطوسي(١) على طوابعها.

ولعل كثيراً من العلوم التي بولغ بنسبتها إلى الطوسي لم تكن في حقيقتها إلا سرقات علمية للكتب المنهوبة

من دار الحكمة بعد نكبة سقوط بغداد وتدمير الخلافة العباسية على يد المغول عام ٦٥٦هـ؛ ولا يُستعصى على الطوسي صاحب التقية والنفاق نزع غلاف أي كتاب يعجبه، ووضع اسمه عليه على أنه من تأليفه، في حين إن المؤلف الحقيقي قد مات وما له من شهود، بعد مذبحة القضاة والعلماء والكتاب في بغداد؛ وهو ما يسمى علمياً بالانتحال. فالطوسي كان وزيراً مرافقاً لهولاكو وجيوشه الدائمة التنقل من مكان إلى آخر، وهو الذي كان يصوغ وينشئ رسائل هولاكو المرعبة لملوك الإسلام وأمرائها، فيستحيل، والحالة هذه، أن يكون لطوسي وقت فراغ لكتابة المؤلفات المنسوبة إليه.

ثم إن الطوسي كان له من يكتب في العلوم كلها، يقول شمس الدين الشهرزوري في "تاريخ الحكماء" (تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) عن الطوسي ص٣٩٨: (بنى الرصد بمراغة بمعاونة جماعة من الفضلاء منهم: مؤيد الدين العرضي وهو رجل عالم بالرياضي، وفخر الدين الأخلاطي وكان الغالب عليه الطب، ونجم الدين القزويني والغالب عليه المنطق، وفخر الدين المراغي، ومحيي الدين المغربي والغالب عليهما الرياضي).

ولم يكن الطوسي هذا في حقيقته إلا منجماً ينجم تنجيمَ الكهان؛ ولهذا السبب أيضاً أحبه هولاكو الشاماني المعتقد. يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، في سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغولي الأصل، سلطان الديار المصرية الذي جلس على تخت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، أنه: (لما فتح هولاكو حلبَ بالسيف، ودمشق بالأمان، طلب نصيرَ الدين الطوسي، وكان في صحبته، وقال له: اكتب أسماء مقدمي عسكري وأبصر أيهم يملك مصر ويقعد على تخت الملك بها حتى أقدمه، قال: فحسب نصير الدين أسماء المقدمين، فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصرية غير اسم كتبغا... وكان كتبغا صهر هولاكو فقدمه على العساكر، فتوجه بهم كتبغا وانكسر على عين جالوت، فتعجب هولاكو من هذه الواقعة وظن أن نصير الدين قد غلط في حسابه.

وكان كتبغا هذا [أي الملك العادل كتبغا] من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يُؤبه له من الأصاغر، وكسبه قلاوون في الواقعة، فكان بين المدة نحو ٣٥ سنة حتى قدر الله تعالى بما قدر من سلطنة كتبغا هذا [أي الملك العادل كتبغا]. انتهى.

(٥) طائفة البُهرة الإسماعيلية (أو المكرمية أو الطيبية):

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام ٤٨٧هـ، تفرّقت الحركة الإسماعيلية إلى فرقتين أساسيتين: **فرقة الحشاشين** (الإسماعيلية النزارية التي تؤمن بإمامة نزار بن المستنصر، الذي أطاح به انقلاب القصر إذ حل محله أخوه "المستعلي" بتدبير من جدّه بدر الجمالي وخاله الوزير الأفضل)، وامتدادها الحاضر في "الأغاخانية" التي بدأت من إيران ثم الهند، ويتزعمها آغاخان. **وفرقة أخرى تؤمن بإمامة المستعلي بن المستنصر**، لكن أتباع المستعلي قد انقرضوا من مصر مع زوال الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد البطل صلاح الدين الأيوبي، إلا أن بقاياهم لا تزال ماثلة في طائفة (البُهرة) الذين عادوا إلى مصر منذ ربع قرن وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الأقمر وصنعوا مقصورة من الذهب لضريح الإمام الحسين وأخرى من الفضة للسيدة زينب. وتراهم منتشرين في شارع المعز لدين الله في سراويلهم البيضاء يمارسون تجارة المعدات الكهربائية وأدوات البناء؛ وهي أحبّ أنواع التجارة إليهم. وكلمة (البُهرة) بضم الباء هندية قديمة تعني التاجر، ويشتهرون بالثراء العريض. وقد أخذ الهنود مذهب المستعلية من اليمن لا من مصر، وظلت المستعلية تحكم اليمن قروناً طويلة بعد زوالها من مصر، ثم تسربت إلى الهند عن طريق خطوط التجارة.

الصليحيون: والقصة تبدأ من اليمن. فالأسرة الصليحية بزعامة (علي الصليحي) تعتنق المذهب الإسماعيلي، إذ قدم إلى مصر وأعلن ولاءه للخليفة المستنصر العبيدي، فأعطاه تفويضاً بحكم اليمن، وخلع عليه ألقاب الشرف، منها "الأمير الأجلّ مشرق المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين"، ومنها "منتخب الدولة وصفوتها ذو المجدين، منجب الدولة وغرسها ذو السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين".

وعاش علي الصليحي يعمل على تدعيم الدولة الفاطمية في اليمن، حتى اغتيل، وخلفه ابنه أحمد الصليحي فسار سيرة أبيه في الولاء للإسماعيلية، وأغدق عليه المستنصر الألقاب نفسها التي منحها لأبيه، وخلع عليه لقب "المكرم"، ولكن الصعاب أحاطت به بسبب تمرد بعض القبائل اليمنية التي لم تألف الخضوع لسلطة حكومة مركزية، وكان الخليفة المستنصر يتابع باهتمام ما يجري في اليمن ويساند "المكرم" في حروبه ضد المتمردين، حتى انتصر عليهم وأعاد الأمن إلى البلاد. فلما مات تولت الحكم زوجته الملكة الحرة "أروى".

وهي: **أروى بنت أحمد الصليحي الإسماعيلية**، وتلقب بالسيدة الحرة (وأمها الملكة رداح بنت الفارع، زوجة المكرّم بن علي الصليحي ملك اليمن)، وهي من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن ووحدت معظم إماراته (٤٣٩–٥٣٣هـ) ونشرت الدعوة الإسماعيلية. ولدت في حصن مسار من جبال حراز باليمن، ونشأت في بيت مؤسس الدولة الصليحية، بعد وفاة والدها أحمد الصليحي وزواج والدتها من عامر بن سليمان الزواحي. تزوجها المكرّم أحمد بن علي سنة ٤٥٨هـ في حياة أبيه علي الصليحي، وتولى الحكم من بعده (٤٥٩–٤٨١هـ) وأنجبت منه. فوّض المكرم الأمور إلى زوجته أروى، فكان أول ما قامت به، بعد أن غادرت صنعاء، أن اتخذت مقرها في قصر شيده زوجها في حصن بجبلة (اليمن) نقل إليه ذخائره. وقامت بتدبير المملكة خير قيام، فبسطت سلطانها على القبائل اليمانية، وخضع الناس لها، وكانت الرسائل التي يبعث بها المستنصر بالله الخليفة العبيدي إلى اليمن تصدر باسمها. وبعد وفاة زوجها المكرّم سنة ٤٨١هـ اختلف الصليحيون والزواحيون فيمن يتولى الحكم، وكان زوجها قد أوصى أن تسند أمور الدعوة إلى الأمير سبأ بن أحمد الصليحي الذي طمح إلى الزواج منها، فلم ترض أروى بهذا الاختيار، واحتكم سبأ إلى المستنصر بالله الفاطمي الذي أمر أروى أن تقبل بسبأ زوجاً حقناً للدماء؛ كتب الخليفة إلى السيدة أروى رسالة يقول فيها:

"وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الراعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير "سبأ بن أحمد" على ما حضر من المال، وهو مئة ألف دينار عيناً، وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف". فلم يسع السيدة الحرة إلا أن تمتثل لأمر الخليفة الفاطمي وتتزوج بمن تكره.

وقد ظل هذا الزواج صورياً، وظلت أروى تمسك بمقاليد الحكم الفعلية، وترفع إليها الرقاع، ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للخليفة الفاطمي ثم لسبأ بن أحمد ثم للسيدة الحرّة أروى. وظلت الملكة الحرة "أروى" على ولائها للمستنصر حتى وثق بها كل الثقة وعهد إليها الخليفة ومن بعده المستعلي ثم الآمر بأحكام الله بالإشراف على الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في عُمان والهند، وأن تعيّن من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد؛ وهذا هو سبب انتشار الدعوة الإسماعيلية في الهند، فلما مات المستنصر وعلمت بنبأ إمامة المستعلي بادرت إلى الاعتراف به، ورفضت التمرد عليه مثلما فعل الحسن الصباح.

ولم تلبث أن استقلت بأمر الحكم بعد وفاة زوجها الثاني سبأ سنة ٤٩٢هـ، واعتمدت في تدبير أمور الملك على عدد من الثقات، وامتدت أيام حكمها بعد ذلك ٤٠ سنة، استطاعت في أثنائها أن تمارس سيادتها على الإمارات اليمنية الصغيرة من دون إخضاعها. وهي التي بنت جامع صنعاء الكبير، ويمدحها الإسماعيلية بتسميتها بلقيس الصغرى، ويستعيرون شعر المتنبي لمدحها:

ولــو كــانَ النســاءُ كَمَــن فَقَــدنا	لَفُضِّــلَت النســاءُ علــى الرجــال
ومــا التأنيــثُ لاســم الشــمس عيــبٌ	ولا التــذكيرُ فخــرٌ للهــلال

عمّرت أروى طويلاً، فلمّا ماتت دفنت في مسجد كانت بنته بذي جبلة، وقبرها لا يزال حتى اليوم مزاراً. وأسندت الحرّة أمر الدعوة إلى سبأ من آل زريع. وعلى إثر وفاتها دبّ الضعف في جسد الدولة الصليحية وتفككت أوصالها وصار الأمر فيها إلى الأمراء من آل زريع، وأنهى القائد توران شاه بن أيوب أخو البطل صلاح الدين الأيوبي حكم الصليحيين تماماً بعد أن غزا اليمن سنة ٥٦٩هـ، وألحق اليمن والحجاز بسلطنة الدولة الأيوبية.

الانشقاق الإسماعيلي الفاطمي الثاني: وفي حياة الملكة "أروى" بقيت الملكة على ولائها للمستعلي، ومن بعده ابنه "الآمر"، ثم جدّت أمور خطيرة وضعت الدعوة الفاطمية في مهب الريح، حتى ضعف شأنها وانفرط عقدها. وكان الخليفة "الآمر" هذا من أفسد عباد الله. وكان يهيم غراماً بفتاة بدوية أقام لها عشاً خاصاً في جزيرة الروضة، وكان يتسلل إليها تحت جنح الليل، وفي إحدى هذه الجولات هجم عليه رسل الحشاشين فقتلوه دون أن يخلف وريثاً. فقفز إلى الخلافة عمّه عبد المجيد ولقب نفسه "الحافظ"، ولكن الملكة الحرة "أروى" لم تعترف بإمامته تمسكاً بالأحكام الشيعية التي تقصر الإمامة على الأعقاب، ولا تسمح بانتقالها إلى الأشقاء و الأعمام.

وهنا حدث الانشقاق الثاني في الدعوة الإسماعيلية، عندئذ لجأ دعاة الإسماعيلية إلى طريقتهم في صنع القصص التي تخدم أغراضهم، فزعموا أن إحدى زوجات الخليفة المقتول "الآمر" كانت حاملاً ثم وضعت ولداً ذكراً اسمه "الطيب"، وأن أحد الدعاة خاف عليه من أعدائه فاحتفظ به وأخفاه ثم أرسله في "مقطف" (أي سلة لقطف الثمار) إلى الملكة "أروى" في اليمن، فتولت تربيته، وظلت تحكم اليمن باسمه وتنوب عنه في إدارة شؤون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقباً (**كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر**)! وبذلك انشقت الفرقة "الطيبية" عن الفرقة "المستعلية" التي استمرت في مصر تحت إمامة "الحافظ".

ودخلت الدعوة في اليمن طور الغموض حتى لم يعرف المؤرخون أسماء الأئمة من بعد هذا الطيب، وإن كان دعاة المذهب يصطنعون سلسلة من الأئمة ليس لهم وجود حقيقي: وهذا ما يراه الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول: (وفي اعتقادي أن قصة "الطيب" هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية، فإنّ أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود "الطيب" بن الآمر إلا ما نراه في كتب الدعاة، أما ما يقال عن وجود سجل وجّهه الآمر إلى الملكة الحرة قبل مقتله فهو، في رأيي، سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة: حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة "الطيب". والصليحيون في اليمن هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، في حين سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة "الآمر" التي كانت حملاً عند موته وضعت أنثى، ولكن الصليحيين قالوا: بل وضعت ذكراً هو "الطيب")، ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين ومعه الحق، عن سبب ستره مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين، والسلطان في أيديهم، فلماذا قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون إليه ويدينون بطاعته وإمامته!!! وإنما يخيل إليّ أن الصليحيين وضعوا قصة "الآمر" هذه: حتى يتخذونه ذريعة للانفصال عن سلطان الفاطميين الديني، وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً، وأوحى دهاءُ الملكة "أروى" وذكاؤها الشديد، وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى، وسار على نهجه كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن!!!

البُهرة أو المكرمية أو الطيبية: وبعد انقراض الدولة الصليحية عام ٥١١هـ، خمد أتباع الدعوة الطيبية ولم يقوموا بأي نشاط سياسي، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيطهم الخاص، واتخذوا التقية ستاراً فلا يظهرون

إسماعيليتهم. وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم "البُهْرة". وفي القرن العاشر الهجري؛ أي: منذ ٤٠٠ سنة؛ حدث انشقاق جديد في صفوف الطيبية، وانقسمت إلى فرقتين:



زعيم البُهرة الداوديين برهان الدين مع الرئيس اليمني

البُهرة الداودية، والبُهرة السليمانية: بسبب الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة: فالتفت الداودية حول الداعي قطب شاه داود، واجتمعت الثانية حول الداعي سليمان ابن حسن. وانتقل مركز الداودية من اليمن إلى الهند ومقره بومباي، ويتمتع داعيها بالصفات نفسها التي كان يتمتع بها الأئمة، وله سلطات روحية مطلقة على أتباعه؛ وهي سلطة الأئمة نفسها في العصور الوسطى.

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البهرة "الداوديين"، في كل عام، إلى منطقة حراز التي تبعد عن صنعاء نحو ٩٠ كم؛ لزيارة ضريح حاتم محيي الدين، ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية، فعمره ٩٩ سنة.

وكان الرئيس علي عبد الله صالح قد قال في حوار صحفي أجري معه في وقت سابق: حينما سُئل عن زيارة السلطان برهان الدين لليمن وطائفة البهرة: إن أبناء هذه الطائفة يأتون إلى اليمن من وقت إلى آخر، وهم لا يمثلون أي خطر لا على المجتمع ولا على النظام ولا على الدولة... وهم يأتون للزيارة والسياحة وزيارة أحد القبور في حراز، فإذا كنا نستقبل السياح من فرنسا وأمريكا واليابان ودول أخرى غير مسلمة، ونوفر لهم الرعاية والحماية، فهم طائفة مسلمة لا تمثل أي خطر، ولن نسمح لأحد بأن يمسهم بأي أذى.



تقديس سلطان البُهرة

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البُهرة الدواديين في كل عام إلى منطقة حراز باليمن؛ لزيارة ضريح حاتم محيي الدين. ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية: تقديساً له لا لكبر سنه.



عيدهم في غدير خم



السجود لسلطان البُهرة

رجوع البُهرة إلى مصر: ينتشر البُهرة في الهند ودول الخليج العربي، وكانوا قد رجعوا إلى مصر أواخر السبعينيات في عهد الرئيس السادات، وبدأ عددهم يزداد في مدة الثمانينيات. واتجه البُهرة فور وصولهم إلى مصر إلى مسجد الحاكم بأمر الله المسمّى بالأنور المجاور بابَ الفتوح، واهتموا بالمراقد والآثار الفاطمية وعملوا على ترميمها وتجديدها، ولم تقتصر هذه الترميمات على الآثار الفاطمية فقط، بل امتدت إلى كل مراقد آل البيت، مثل مرقد السيدة زينب، ومقصورة رأس الإمام الحسين، وقبر مالك الأشتر الذي دفن الى جواره حديثاً شقيق شيخ البُهرة. وهناك الكثير من المحلات والبيوت التي اشتراها طائفة البهرة الباطنية الإسماعيلية في شارع المعز لدين الله الفاطمي بمنطقة الجمالية والمناطق المجاورة له، وليس في هذه المنطقة فحسب، لكن بمناطق الحسين والدراسة والدرب الأحمر والموسكي، إذ يعتقدون أن إمامهم الغائب سيعود ويعيد الدولة من مصر: ولذا، بلاشك، ستقابلهم أو تراهم وهم يسيرون جماعات بشوارع القاهرة ويمسكون بالمصاحف في أيديهم بانضباط ومعهم نسوتهم محجبات، حيث اعتاد رؤيتهم رجل الشارع العادي بالقاهرة.

والبهرة أغنياء، وأغلبهم رجال أعمال وتجار كبار، وإمامهم البرهاني يفرض عليهم الضرائب بدقة، وهو الآن يقيم في دبي قبل أن يذهب للحرم، وعدّ مقابلته الخاصة مع الرئيس حسني مبارك منذ عدة أعوام نصراً وفتحاً مبيناً للبهرة: فمصر لها مكانة خاصة عندهم بما تحمله من مساجد لآل البيت، وتحمل جثة إمامهم وجدهم الحاكم بأمر الله، تحت البئر المقدسة!!

سيطر البهرة على مسجد الحاكم بأمر الله، في شارع المعز لدين الله الفاطمي، إذ إن جموعهم تتوافد طوال اليوم يصعدون إلى مكان علوي بالمسجد رجالاً ونساءً... وبعد أن يفرغ الناس من الصلاة تتوافد أفواجهم جموعاً للناحية الشرقية من المسجد يصلون فرادى بطريقة لم يعهدها أهل مصر من قبل، ثم يهرول أتباع الطائفة ناحية بئر مقدس في وسط المسجد ويطوفون حوله ثم يجلسون على جانبي المسجد بعد ذلك، ويدعون أن إمام البُهرة الداوديين برهان الدين قد ورد اسمه في القرآن حين قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].



سلطان البُهرة "محمد برهان الدين" يُحمل بكل تقديس إلى جامع خانة

وقد وصف الشيخ محمود عاشور من علماء الأزهر الشريف في "المصريون"، هؤلاء البهرة بأنهم "خارجون عن الدين، ولا يجوز الصلاة خلفهم، ولكن يمكن التعامل التجاري معهم، ولا يجوز الزواج منهم، وأما ما يجري في مسجد الحاكم بأمر الله فاسألوا وزارة الداخلية المصرية عنه".

أما الدكتور محمد الشحات الجندي الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، فقال لـ "المصريون": أنا أيضاً أتعجب مما يحدث وأتساءل أين الدولة؟ وفي الفتوى الخاصة رقم ٦١٠٥٩٤ من دار الإفتاء المصرية حول البهرة، أجابت لجنة الفتوى قائلة: **(هم إسماعيلية مستعلية، يعرفون بالإمام المستعلي، ومن بعده الآمر، ثم ابنه الطيب؛ ولذا هم يسمّون بالطيبية، وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة، فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة؛ والبهرة لفظ قديم بمعنى التاجر. وهم يقولون: إن الإمام الطيب دخل الستر عام ٥٢٥ هجرية، والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يُعرف عنهم شيئاً، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم.**

وقد انقسمت البهرة إلى فرقتين:

١. **البهرة الداودية: نسبة إلى قطب شاه داود، وينتشرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري، وداعيتهم يقيم في بومباي بالهند.**

٢. **البهرة السليمانية: نسبة إلى سليمان بن حسن، وهؤلاء مركزهم في اليمن إلى الآن. وعقائدهم مثل عقائد الإسماعيلية، مثل: وجوب إمام معصوم منصوص عليه من ولد محمد بن إسماعيل، والقول بالإمام الغائب المستور، ورفع أئمتهم لمنزلة أشبه بالألوهية، ومنها القول بالتناسخ، وأن الإمام وارث الأنبياء جميعاً، وغير ذلك من العقائد الباطلة، فهي فرقة غير مسلمة، وغير كتابية، وتعامل معاملة المشركين، أو المرتدين في الأحكام: فلا يجوز الزواج منهم، ولا أكل ذبيحتهم من الأحكام الخاصة بمن ذكروا).**

صفات البُهرة: يقدس البُهرة زعيمهم ويُدعى السلطان محمد برهان الدين. وسلاطين البُهرة هم النواب، ورتبتهم الدينية هي رتبة الداعي المطلق، وهم دون الأئمة رتبة، والعُصمة للإمام ومن ينوب عنه من الدعاة. وهم يدينون بالمذهب الإسماعيلي، ولا يختلفون في عبادتهم عن الإمامية في شيء، إلا أنهم يختلفون مع الشيعة الإمامية في قضية الإمامة وهم يعترفون بستة من الأئمة الاثني عشر فقط من الإمام علي حتى جعفر الصادق، ويأخذون بقية أئمتهم من سلالة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق الذي توفي في حياته: ولذلك سُمّيت الطائفة بالشيعة الإسماعيلية تمييزاً لها من الشيعة الإمامية التي تعتقد بوصية الإمام جعفر لابنه موسى الكاظم الإمام السابع الذي لا تعترف به الإسماعيلية، ويعتقدون أيضاً أن الإمام الذي اختفى هو الطيب، وابنه هو المنتظر المهدي.

ويبلغ الدخل السنوي لزعيم البُهرة الداوديين محمد برهان الدين نحو ١٢٠ مليون روبية هندية، واشترى من ضرائب الطائفة عدة فنادق منها "سندز هاوس" في بومباي، واشترى شركة كولا للمشروبات الغازية، ويتاجر بالذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة. ويأتي مدخوله من ضرائب الطائفة: فأي امرأة حامل تدفع ضريبة، وإذا وضعت تدفع ضريبة، ولزم عليها أن تأتي بالجنين إلى الداعي؛ كي يمسح عليه وهذا فيه ضريبة، ويقال: إنه هو الذي يختار له الاسم ولا دخل لوالديه في اسم المولود وهذا فيه ضريبة أيضاً. ويلزمها أن تدفع ضريبة ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ روبية؛ كي يقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم. وفي العيد تباع تذاكر الصلاة، فالصف الأول يكلف ١٠٠٠ روبية، والثاني ٨٠٠، وهكذا... ومن مات يدفع عنه أولياؤه ضريبة، ويكفن بضريبة، ويدفعون ضريبة أخرى لشراء صك غفران! ومن دفع أكثر يُكتب له الصك ومعه موضع أفضل في الجنة!

يشتهر البُهرة بأنهم لا يقيمون الصلاة في مساجد عامة المسلمين، بل لهم مساجدهم الخاصة (تسمّى جامع خانة)، وتراهم في سراويل بيضاء. أما أركان الإسلام عندهم فهي سبعة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والولاية، والطهارة وتتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام. وهم في صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولا يصلون الجمعة بل يصلونها ظهراً، ويصلون العيد أربع ركعات ودون خطبة، ويقيمون مأساة كربلاء مدة عشرة أيام، ويحتفلون بيوم غدير خم في يوم ١٨ ذي الحجة، فهم يعتقدون أنه تمّت فيه الوصاية إلى الإمام علي، فيصومون فيه ويجددون العهد للداعي المطلق والدعاة المبايعين وهم نوابه في الأقاليم. و تباع الداعي يطيعونه طاعة عمياء، وهناك عهد قديم بالولاء للإمام الطيب والإمام المنتظر. والداعي المطلق عندهم معصوم في كل تصرفاته كما سلف. ويقال عنهم بين الناس: إن ظاهرهم في العقيدة يشبه عقائد سائر الفرق الإسلامية المعتدلة، أما باطنهم فشيء آخر، فهم يصلون ولكن صلاتهم للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب بن الآمر. ويقال أيضاً: إنهم يذهبون إلى مكة للحج لكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز للإمام. يقول الإمام الغزالي عنهم (المنقول عنهم الإباحية المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع. لكنهم جميعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم).

ظهور آل زنكي وآل أيّوب

كانت دول العالم الإسلامي تمزّقها الخلافات والصراعات الدموية عشية بدء الحملة الصليبية على العالم الإسلامي عام ٤٩١ للهجرة الموافق ١٠٩٨ للميلاد. ودعا البابا أوربان الثاني إلى «استرداد» الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. وأعلن أن كل من يشترك في هذه الحروب المقدسة تغفر له ذنوبه، وقرر أن ممتلكات المقاتلين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وطلب أن يُخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي؛ ومن هنا جاءت تسميتهم (الصليبيون)، وسُميت الحملات والحروب التي أعقبتها بالحملات والحروب الصليبية.

عمل الصليبيون على تجنيد أمراء الولايات والمناطق التي احتلوها أو القريبة منها، وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و«كسب ودّ» الصليبيين، الذين استطاعوا، بمساعدة الخونة والعملاء، حصار بيت المقدس وإسقاطها ثم احتلالها!



الإمارات التي احتلها الصليبيون بعد حملتهم الأولى

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى واحدة بعد الأخرى، وهكذا أُسست مملكة بيت المقدس الصليبية. واستطاع الصليبيون – بعد حملتهم الأولى – أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة في المدة الواقعة من ٤٨٩هـ–١٠٦٩م إلى ٤٩٨هـ–١١٠٥م، وأنشؤوا فيها إماراتهم الأربع: الرها، وأنطاكيا، وطرابلس، وبيت المقدس.

١. **إمارة الرّها ٤٩٢هـ–١٠٩٨م**: وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إديسّا.

٢. **إمارة أنطاكيا**: وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها.

٣. **إمارة طرابلس**: وهي تقع في شريط ضيق على الساحل، وهي أصغر هذه الإمارات.

٣. **مملكة القدس (فلسطين)**: وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلاً، وتتجه جنوباً إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من الإمارات أمير صليبي يحكمها، وكانت هناك خلافات بينهم بين الحين والحين.

وظهر نجم الإسلام البطل المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي في خضم هذا الواقع المرير (التركماني الأصل، عربي المنشأ والتربية والتعليم واللغة والحياة).

والزنكيون (أو بنو زنكي) هم سلالة تركمانية من قبيلة (الساب يو) استوطنت شمال سوريا والعراق، وحكمت مابين ١١٢٧–١١٧٤م. مؤسس السلالة آق سنقر بن عبد الله آل ترغان، أصبح أتابكاً (قائداً عسكرياً) على حلب من قبل القائد السلجوقي.

عماد الدين زنكي موحّد العراق والشام وفاتح الرّها (حكم ١١٢٧–١١٤٦م):

ولد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان نحو سنة ٤٧٧هـ–١٠٨٤م في أسرة تنتمي إلى قبائل "الساب يو" التركمانية الشديدة المراس. كان والده "آق سنقر" مملوك السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي (بطل معركة ملاذكرد)، وذا حظوة ومكانة عنده، واعتمد عليه السلطان في كثير من الأمور فلم يخذله آق سنقر قط، وهذا زاد في ثقته ومنزلته. تولى آق سنقر ولاية الموصل سنة ٥١٦ للهجرة بأمر الخليفة العباسي المسترشد (وبتزكية السلطان محمود بن السلطان محمد بن ملكشاه).



القائد المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي

وعند وفاة آق سنقر، لم ينس السلطان محمود بن ملكشاه تضحية "آق سنقر" في سبيل الإسلام، فوجّه اهتمامه نحو ابن آق سنقر الوحيد عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره. وهكذا نشأ عماد الدين في "حلب" في رعاية السلطان محمود السلجوقي، ثم ما لبث أن انتقل عام ٤٨٩هـ–١٠٩٦م إلى "الموصل" ليحظى برعاية القواد السلاجقة هناك الذين قربوا عماد الدين لما لمسوا فيه من مهارة قتالية متميزة، وأحبّوه. وحين خرج والي الموصل على السلطان، انفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد "مودود بك التونتكين" الذي عيّنه السلطان محمود على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته به. خاض القائد التركماني عماد الدين زنكي إلى جانب القائد "مودود" معارك كثيرة ضد الصليبيين المحتلين في "الشام" و"الجزيرة"، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية.

ومع مطلع عام ٥١٧هـ–١١٢٣م استطاع السلاجقة – بفضل الخطة البارعة التي اتبعها عماد الدين – إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش "دبيس" الخارج على الخليفة العباسي، وخلّصوا الخلافة من خطر محقق، فانضم "دبيس" هذا إلى الصليبيين بعد هزيمته أمام عماد الدين، وأسهم معهم في حصار "حلب" طمعاً في الاستيلاء عليها، وعندما تدهورت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد والسلطان السلجوقي "محمود" في عام ٥١٩هـ–١١٢٥م كان لعماد الدين عمل كبير في إصلاح ذات البين. وبعد حلّ الخلافات الداخلية تفرّغ عماد الدين لعملية توحيد البلاد والعباد قبل دخوله في حروب مع الصليبيّ المحتل.

تولى عماد الدين زنكي الإمارة على البصرة وواسط في العراق، وبعد ظهور كفاءته في الحكم، تولى ولاية الموصل وأعمالها عام (٥٢١هـ ١١٢٧م)، واستطاع أن يُحكم قبضته على كامل شماليّ العراق وأجزاء مهمة من الشام. قرر زنكي توطيد دعائم إمارته الجديدة، وتدعيم جيشه، وتعزيز قدراته العسكرية والاقتصادية قبل خوض غمار المعارك ضد الصليبيين، فعكف هذا القائد المحنك على وضع إستراتيجية محكمة لتوحيد الإمارات والولايات الإسلامية الصغيرة المتناثرة والمتناحرة فيما بينها وجعلها تحت قيادة قوية، ومن ثم العمل على تهيئة الأمة الإسلامية وتوحيدها قبل خوض المعركة المرتقبة. ونجح في أن يمد سلطانه إلى نصيبين وحران، وهيأ نفسه لكي يقوم بحركة الجهاد ضد الصليبيين، وأدرك أن ذلك لن يتحقق ما لم تتحد القوى الإسلامية في العراق والشام، فتطلع إلى حلب وكانت غارقة في الفوضى بعد وفاة أتابكها "عز الدين مسعود البرسقي".

ولتنفيذ هذه الإستراتيجية، استولى عماد الدين على إمارة "حلب" بعد حصارها عدة أشهر وذلك في ١ محرم سنة ٥٢٢هـ–١١٢٨م؛ أي: بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل، وهذا يوضح أن عماد الدين كان يملك رؤية واضحة وخطة مُعدة سلفاً لتحركاته بالشام، ثم قام بعدها بضم مدينة "حماه" في السنة اللاحقة ٥٢٣ هجرية، ثم ضم مدينة سرجي ودارا ثم حصن الأثارب (كان بيد الصليبيين)، ثم عاد فضمّ عدة قلاع للأكراد الحميدية والهكارية وقلعة الصور، وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة ٥٢٨ هجرية. وأحكم عماد الدين زنكي سيطرته على بلاد الشام عدا دمشق حاضرة الشام؛ بسبب أميرها الخائن الموالي للصليبيين (معين الدين أنر).

وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين وهاجم عدداً من المواقع المحتلة المحيطة بها، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها، وتمكن من الاستيلاء على "بعرين" التي وجد الصليبيون في استيلائه عليها خطراً يهدد إماراتهم في المشرق. وقد حاول الصليبيون إنقاذ "بعرين"، ولكن حملتهم أخفقت.

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكي في حلب والشام خاف الصليبيون فاستعانوا بإمبراطور القسطنطينية "عمانوئيل" فوافق لنصرة أبناء دينه. وجاء الإمبراطور البيزنطيّ بجيوش جرارة سنة ٥٣٢ هجرية، اخترق آسيا الصغرى، ولم يستطع السلاجقة إيقاف زحفه فدخل سوريا واستولى على مدينة "بزاعة" قرب حلب، وغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان، فقتلهم وسبى نساءهم. ووقعت الشام بين مطرقة الإمبراطور البيزنطي وبين سندان الصليبيين الفرنجة بالشام.

وهنا برزت مهمة عماد الدين الذكي، فقام بإيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة، فقد كان عماد الدين زنكي من دواهي عصره في خدعة الحرب، إذ استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل يخوّف الإمبراطور البيزنطي مغبّة نكصان الفرنجة العهود، وأنهم يتربصون به، فإن فارق مكانه الذي هو فيه فسيتخلفون عن نصرته، ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوّفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم: إن هو ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً. وهكذا استطاع بحنكته السياسية أن يزرع بذور الشك بين الطرفين ليقضي على التعاون بينهما، وسعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدة والإمدادات العسكرية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي لحرب العصابات ضد الجيش البيزنطيّ.

ونجحت خطة عماد الدين زنكي ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك كثيراً من أسلحته الثقيلة كالمجانيق على حالها، فغنمها جيش الشام وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيبته عند الصليبيين وأثبت أنه رجل المهام الصعبة.

ثم إنه استطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة "الرها" الصليبية، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير "الرها" وبين حلفائه. كانت إمارة "الرها" واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق؛ وذلك لقوة تحصينها، وقربها من "العراق" التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية، ونظراً إلى ما تسببه من تهديدات وأخطار للمناطق الإسلامية المجاورة لها. إذ تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة السورية، وهي المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة. وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية، و"الرها" من البلاد التي كان لها خصوصية عند البيزنطيين؛ لأنها إحدى المدن الدينية عندهم، وكانت تنتشر فيها الكنائس والصوامع، وأيضاً لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية، وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون "الرها" وأقاموا فيها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة ٤٩٢ هجرية. كان أميرها الصليبي "جوسلين" قد فهم من تحركات عماد الدين زنكي أنه يخطط لفتح الرها، فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيماً في الرها لا يفارقها أبداً، على الرغم من أن زوجته وأولاده بفرنسا، ولكنه صبر على فراقهم من أجل الدفاع عن الرها.

وعزم "عماد الدين" على فتحها سنة ٥٣٩هـ، وأدرك أنه لن يتمكن من فتح "الرها" إلا إذا استدرج "جوسلين" أمير "الرها" الصليبي وقواته خارجها، فوضع خطة بارعة أتاحت له الوصول إلى مآربه: إذ تظاهر بالخروج إلى "آمد" لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير "الرها"، الذي سرعان ما خرج بجنوده إلى "تل باشر" (على الضفة الغربية للفرات) بعد أن اطمأن إلى اشتغال "عماد الدين" عنه بحصار "آمد" ليستجم ويتفرغ لملذاته. وقد كان هذا ما توقعه "عماد الدين"، فأسرع بالمسير إلى "الرها" في جيش كبير تعداده ٢٠ ألفاً من مقاتلي التركمان الأشداء مع حشد هائل من المتطوعين العرب والأكراد، فحاصر "الرها" من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهل "الرها" بالطرق السلمية، وبذل جهداً كبيراً لإقناعهم بالاستسلام، متعهداً لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدّد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع جيوشهم لإنقاذ المدينة.

كان عماد الدين من أشجع الناس وأقواهم وأجرأهم في القتال لايجاريه أحد من جنده في ذلك، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام وقال: لا يأكل معي على المائدة إلا من يطعن معي غداً باب الرها؛ وهي كناية عن شدة القتال والشجاعة؛ لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل إلى باب المدينة ولا يفعل ذلك إلا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلا صبي صغير، فقيل له: ارجع، ما أنت في هذا المقام، فقال له عماد الدين زنكي القائد المربي: دعوه، فوالله إني أرى وجهاً لا يتخلف عني. وبالفعل أثمرت هذه الكلمات عن طاقة جبارة عند الصبي فكان أول طاعن وأول بطل في هذه المعركة، وبعد (٢٨) يوماً من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات القائد المنصور، وفُتحت المدينة في ٦ من جمادى الآخرة ٥٣٩هـ-٢٧ من تشرين الثاني ١١٤٤م، فأصدر "عماد الدين" أوامره إلى الجند بالتوقف عن القتال أو الأسر أو السلب، وأمر بإعادة جميع ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه.

وضرب بذلك أروع مثال على الشهامة والفروسية والأخلاق الإسلامية الرفيعة. وبدأ من فوره بإعادة إعمار المدينة، فأعاد بناء ما تهدم من أسوارها، وما تهدم من بيوتها في أثناء اقتحام المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى عمّ الأمان وهدأت النفوس وكسب القلوب والعقول. ثم أمر بأن يحتفظ النصارى بكنائسهم وصوامعهم، وسمح لهم بأداء عباداتهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وأمان.

كان لفتح الرها زلزال شديد في العالمين الإسلامي والصليبي، فلقد كان أعظم انتصار حققه المسلمون على

الصليبيين منذ دخولهم إلى الشام منذ ٥٠ سنة، وعادت روح الجهاد عند المسلمين وتغلبوا على الهزيمة النفسية أمام الصليبيين التي أقعدتهم عشرات السنين. وطارت شهرة عماد الدين زنكي في فتح الرها في جميع آفاق العالم الإسلامي من بغداد إلى شمال إفريقيا؛ وكتب بعضهم أنّ زنكي حاكم الموصل متى توفي، فإن جنة الفردوس هي مثواه بإذن الله؛ مقابل هذا الجهاد الذي باركه الله بفتح الرها.

إنّ فتح الرها عنوةً وإسقاط هذه المملكة الصليبية الأولى التي أسست في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، وفتح ملحقات المملكة في منطقة الجزيرة، وشرقي الفرات، كان أجلّ أعمال "عماد الدين وأعظمها"، ولم يمض عامان على ذلك النصر العظيم حتى اغتيل هذا القائد المجاهد.

فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكي، فقرروا إسناد مهمة الاغتيال إلى جماعة الحشاشين الباطنية المعروفة بذلك. عندما كان عماد الدين زنكي يحاصر إحدى القلاع المطلة على نهر الفرات واسمها "قلعة جعبر" قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين (بعد أن قبضوا الثمن) بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكي واندسّوا بين حراسه، ودخلوا عليه خيمته في الليل وهو نائم فقتلوه في ٦ ربيع الثاني ٥٤١هـ-١٤ أيلول ١١٤٧م وهو غازٍ مجاهد في أثناء حصاره قلعة "جعبر". قتله "يرنقش"(كبير الحرس) الذي تسلل إلى مخدع عماد الدين فذبحه وهو نائم، وكان عمره يزيد على الـ ٦٠ سنة (رحمه الله).

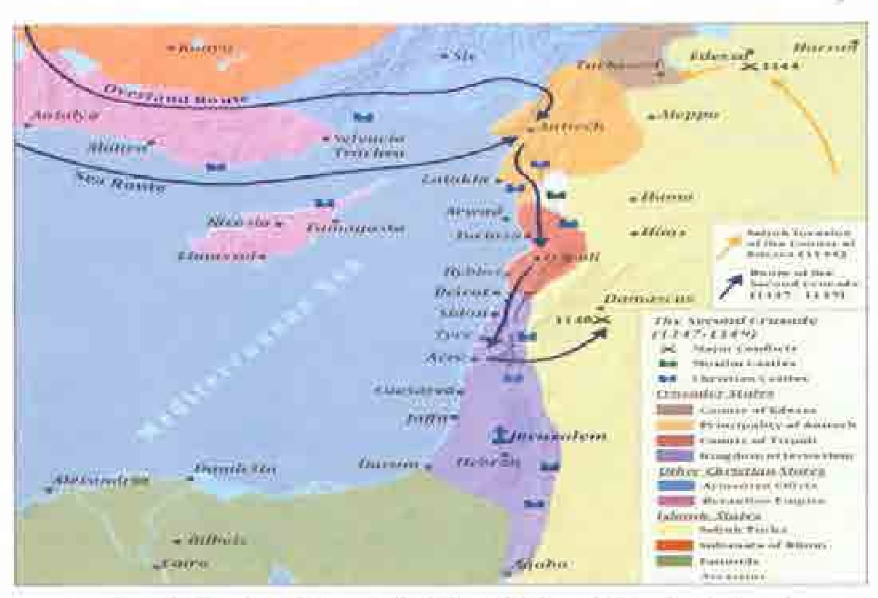
ويرى كثير من المؤرخين أن اغتيال "عماد الدين زنكي" جاء لأسباب سياسية، فقد كان في أوج انتصاره على الصليبيين المحتلين، وحقق انتصاراً آخر على المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، وتأسيس جيش قوي عماده ٥٠ ألف مقاتل من التركمان والمتطوعين العرب والأكراد. ومن ناحية أخرى، فقد كانت قلعة "جعبر" على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مداه. فضلاً على أن قاتله "يرنقش" كان من الباطنية، وقد استطاع التستر واستبطان الشر والانتظار طويلاً (على عادة الباطنية)، حتى حانت الساعة المناسبة لتنفيذ جريمة الاغتيال. وقد حاول جوسلين استغلال الفرصة واستعادة الرها بعد اغتيال زنكي، ولكن ابن عماد الدين زنكي (نور الدين محمود) هزمه في تشرين الثاني ١١٤٦م، وبذلك أمن نور الدين محمود زنكي فتح الرها وصان فتح والده لها بكل صلابة، وظلت الرها تحت السيطرة الإسلامية.

قال ابن الأثير في وصفه: (كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنجة، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً، وكان أشجع خلق الله). وقال عنه ابن كثير الدمشقي: (وقد كان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامة).

واشتُهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد"، ودُفن بصفين. وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل. وخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب. وأولاد عماد الدين ثلاثة: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد، وقطب الدين مودود. فملك بعده ابنه نور الدين محمود الشهيد، وسار غازي إلى الموصل.

ونزلت بالصليبيين أعظم المصائب بفقدهم أهم إمارة صليبية بالمنطقة (إمارة الرها أو أديسا، وكانت أول إمارة صليبية قامت، وأول إمارة صليبية سقطت)، فقامت الحملة الصليبية الثانية على الشام سنة ٥٤٣هـ-١١٤٥م لاسترجاع هذه الإمارة. وكانت أول حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا.

تحركت جيوش الملكين كلٌ على حدة في أوروبا، وبعد عبور الجيوش المناطق البيزنطية من الأناضول، هُزم كلا الجيشين على يد المسلمين السلاجقة، كل على حدة. ووصل كل من جيوش لويس وكونراد وشراذم إلى القدس عام ١١٤٨م، ومن ثم تجمعوا وهاجموا دمشق، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً. مثلت الحملة الصليبية الثانية خسارة كبيرة للصليبيين، ونصراً للإسلام باسترجاع القدس، وأدت إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.



الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) والدويلات الصليبية عام ١١٣٥م

نور الدين محمود زنكي صاحب مشروع توحيد العراق والشام ومصر (٥١١-٥٦٩هـ/١١١٨-١١٧٤م):

إن أفضل تركة خلفها عماد الدين زنكي هو ابنه نور الدين محمود زنكي. ولد نور الدين محمود (بعد نحو ٢٠ عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين) في ١٧ شوال ٥١١هـ / شباط ١١١٨م.

وطوال ٢٨ عاماً من حكمه (بين ١١٤٦-١١٧٤م)، وضع نور الدين زنكي هدفه الأساسي في تحرير بلاد المسلمين واستردادها وتوحيدها تحت راية الإسلام، واستكمال ما بدأ به والده الشهيد، آخذاً بالأسباب من إعداد العدة والعتاد ومن توحيد المسلمين، مرتقياً بهم في جوانب الحياة المختلفة، وفق منظومة تصور إسلامي متكامل؛ لإعادة أمجاد المسلمين وطرد المحتلين من بلادهم.

ونور الدين محمود زنكي (١١١٨-١١٧٤م) هو الابن الثاني لعماد الدين زنكي الذي أسس دولة الموصل وسمت جزيرة الفرات وحلب، وحارب الصليبيين وحرر الرها من الصليبيين وخربها سنة ١١٤٦، وهزم جيوش الحملة الصليبية الثانية لدى محاولتها الاستيلاء على دمشق سنة ١١٤٨، واستولى على العديد من معاقل الصليبيين، وأهمها: قلعة حارم بين حلب وانطاكيا. كان مثالاً للحاكم الفاضل، بنيت في عهده المدارس والمساجد والبيمارستانات، وازدهرت في أيامه دمشق عمرانياً واقتصادياً. من آثاره فيها: دار الحديث، والبيمارستان النوري، وحمام نور الدين.

بعد وفاة عماد الدين زنكي اقتسم ولداه: سيف الدين غازي ونور الدين محمود دولته، فكانوا جميعاً من رجال الجهاد وفرسانه (على تفاوت في ذلك بينهم). فاستقر الأول بالموصل وثبّت أقدامه فيها، وانفرد الآخر بحكم حلب، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور. وكان كلا الأخوين مؤهلاً لما وجهته له الأقدار،

فكان سيف الدين غازي صاحب سياسة وأناة، على حين كان نور الدين مجاهداً مخلصاً، جياش العطفة، صادق الإيمان، ميالاً إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديار المسلمين. مفطوراً على الرقة ورهافة الشعور؛ وهو ما جذب الناس إليه، وحبب القلوب فيه.

وكان على نور الدين أن يواصل سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، يدفعه إلى ذلك طبيعته المفطورة على حب الجهاد، وملازمته أباه في حروبه معهم. وقربُ إمارته في حلب من الصليبيين، جعله أكثر الناس إحساساً بالخطر الصليبي. كان نور الدين محمود يقول: "نحن شحن (شرطة) الشريعة نمضي أوامرها". وقال أيضاً: **نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، افلا نحفظ الدين، ونمنع عنه ما يناقضه؟! وهو الأصل".**

تمكّن نور الدين من الاستيلاء على دمشق عام (١١٥٤م). وبعد وفاة أخيه سيف الدين (١١٤٦-١١٤٩م) ضمّ نور الدين شمال العراق إلى دولته ثم اتخذ الموصل عاصمة له. تميّز عهده بتطوّر حركة العمران وازدهار الاقتصاد وتوسع رقعة إمارته. وتمكن من أن يمد حدوده حتى مصر، فقد قضى قائد جيشه صلاح الدين على الخلافة الفاطمية فيها سنة ١١٧١م. ثم استولى صلاح الدين والأيوبيون على الحكم من إسماعيل بن نور الدين زنكي (في حلب)، معلناً ظهور نجم الأيوبيين بعد أن كانوا في خدمة الزنكيين سنوات طويلة.

أمر بإلغاء كل الضرائب والمكوس التي كانت تؤخذ من الشعب، وذلك عندما قصّ عليه وزير، موفق الدين خالد بن محمد القيسراني الشاعر انه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤياك. وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان قد أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذبّ عن بلادكم ونسائكم وأولادكم. وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: (اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب).

وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: "كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها".

قال ابن الأثير: "وهو أول من ابتنى داراً للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل: أربع مرات، وقيل: خمساً، ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم. وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شاذي قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وربما كان قد ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه. فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد إلى نوابه أن لا يدعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك. فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة، ولم ير أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين شكراً لله، وقال: الحمد لله أن أصحابنا ينصفون من أنفسهم".

كان نور الدين يصلي كثيراً بالليل، وحكي عنه أنه يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جـ

الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء باكراً، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة. قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: "وقد كان – رحمه الله – حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً الآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محباً فعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنّ أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط، لا في غضب ولا في رضى، وكان صَموتاً وقوراً".

وكان لا يلبس الحرير، ويأكل من كسب يده بسيفه ورمحه. وكان نور الدين يستقرض من الشيخ عمر الملا من الموصل – وكان من الصالحين الزاهدين – في كل رمضان ما يفطر عليه، ويرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان. وكان يدعو قائلاً: (اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً من الكلب محمود حتى يُنصر)، وكان يدعو أيضاً: (إنك يا رب إن نصرت، فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق النصر).

قال ابن الأثير: "لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئاً، ولو مات جوعاً، وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد)".

جهاده ضد الصليبيين: استهل نور الدين حكمه في سوريا بالقيام ببعض الهجمات على إمارة أنطاكيا الصليبية، واستولى على قلاع عدة في شمال الشام والساحل السوري، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة الرها التي فتحها عماد الدين زنكي، وكانت هزيمة الصليبيين في الرها أشد من هزيمتهم الأولى وقعاً، وعاقب نور الدين مَن خان المسلمين من أرمن الرها، وخاف بقية أهل البلد من المسيحيين على أنفسهم فغادروها.

كان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشام وشمال العراق وكسب ودها وصداقتها؛ لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع معين الدين أنر حاكم دمشق سنة (٥٤١هـ–١١٤٧م) وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف، لم يجد غير نور الدين يستجير به فخرج اليه، وسارا معاً واستوليا على بصرى وصرخند في جنوبيّ سوريا قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة أنطاكيا، وفي عام ٥٤٢هـ افتتح نور الدين محمود حصن أرتاح وغيرها (كفر لاثا وبصرفوت) من يد الفرنجة.

وعلى أثر ذلك ملك الرعبُ قلوبَ الصليبيين من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكانت سنه إذ ذاك ٢٩ سنة؛ لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيراً كثيراً.

وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام في سنة (٥٤٢هـ–١١٤٧م) بزعامة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها أخفقت في تحقيق أهدافها، وعجزت عن احتلال دمشق أهم مدن الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى صبر

المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في إخفاق تلك الحملة.

واستغل نور الدين هذه النكبة التي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم للهجوم على أنطاكيا بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ-١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب أنطاكيا لنجدتها، والتقى الفريقان في (٢١ صفر ٥٤٤هـ-آخر حزيران ١١٤٩م) في معركة "إنب" وكسرهم الكسرة المشهورة، وقتل منهم ألفاً وخمس مئة وأسر مثلهم، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، وبعث بعضها إلى أخيه مودود...

وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكيا وغيره من قادة الفرنج، وأرسلت خوذة الأمير الصليبي ريموند المرصّعة بالفضة إلى الخليفة العباسي في بغداد. وكان فرح المسلمين بهذا النصر عظيماً.

وفيها يقول ابن القيسراني الشاعر:

وكــم لــه مــن وقعــة يومهــا ... عنــد ملــوك الشــرك مشــهود
حتــى إذا عــادوا إلى مثلــها ... قالــت لهــم هيبتــه عــودوا
مناقــب لم تــك موجــودةً ... إلا ونــور الــدين موجــود
وكيــف لا نــثني علــى عيشــنا الـ ... محمــود والســلطان محمــود

وفيها افتتح نور الدين محمود أيضاً حصن فاميا، وكان على حماه وحمص منه ضرر عظيم.

ضمّ دمشق: آمن نور الدين بضرورة وحدة الصف، وانتظام القوى الإسلامية المبعثرة بين الفرات والبحر ووقوفها كالبنيان المرصوص أمام أطماع الصليبيين، وكانت دمشق أهم المدن وتقف حجر عثرة في طريق تلك الوحدة، فعزم نور الدين على ضمها، وكان "معين الدين أنر" صاحب السلطة الفعلية في دمشق يرتبط بعلاقات ومعاهدات مع الصليبيين، وبعد وفاته قام "مجير الدين أبق" باستلام الحكم بدمشق، وجرى على سياسة أنر في التعامل مع الصليبيين، بل أظهر ضعفاً ومذلة في التعامل معهم، وأعرض عن وحدة الصف وجمع الكلمة، وبلغ الهوان به أن وافق على أن يدفع أهل دمشق ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم، وصار رسل الفرنجة يدخلون دمشق لجمع الجزية المفروضة دون أن يستشعر حاكمها خجلاً أو هواناً.

عاد الملك العادل نور الدين محمود إلى حصار دمشق في عام ٥٤٦هـ ووقع له مع مجير الدين صاحب دمشق أمور حتى استنجد مجير الدين بالفرنج، فرحل عنها نور الدين، ثم نازلها وتراسلا على يد الفقيه برهان الدين البلخي وأسد الدين شيركوه الكردي وأخيه نجم الدين أيوب، ثم تحالف نور الدين ومجير الدين على أمر ورحل عنه.

ولم يسكت نور الدين على هذا الوضع المهين، واستغل شعور الغضب الذي أبداه الدمشقيون، فملك دمشق في ٥٤٩هـ من الأمير مجير الدين وساعده في ذلك بعض أهل دمشق على مجير الدين أبق؛ لزيادة ظلمه ومصادراته، فلما تحرك نور الدين لطلب دمشق، وافقه أهلها لما في نفوسهم من مجير الدين. وبالفعل نجح بمساعدتهم في الإطاحة بمجير الدين أبق وضمّ دمشق إلى دولته في سنة ٥٤٩هـ-١١٥٤م. كانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ فلقد توحدت بلاد الشام تحت زعامة نور الدين من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، واتزنت الجبهة الإسلامية والجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم لمصلحتها وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة (٥٤٨هـ-١١٥٣م)؛ لأن دمشق كانت

تقف حائلاً دون تحقيق ذلك. بعد ضم نور الدين دمشق، صارت عاصمة الدولة وموحّدة بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب والشرق، واستقر نور الدين زنكي فيها، وانطلق منها لفتح مزيد من البلاد في الجنوب وتوسيع ملكه.

ضمّ مصر: كان الوزير طلائع بن رزيك وزيرَ الخليفة العبيدي. وبعد نجاح نور الدين في ضم دمشق وإحكام سيطرته على بلاد الشام، لم يعد أمام الصليبيين للغزو والتوسع سوى طريق الجنوب؛ ولذا تطلع الصليبيون إلى مصر بوصفها الميدان الجديد لتوسعهم، وشجعهم على ذلك ضعف الدولة العبيدية الفاطمية في مصر، فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذاناً بمحاولتهم غزو مصر، مستغلين الفوضى في البلاد. وتحولت نياتهم إلى عزم، فقد قام "بلدوين الثالث" ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة (٥٥٨هـ-١١٦٣م) محتجاً بعدم التزام الفاطميين دفع الجزية له، غير أن حملته خسرت وأُجبر على الانسحاب.

أثارت هذه الخطوة الجريئة مخاوف نور الدين، فأسرع بشن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن الاستعداد لغزو مصر، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر وضمها إلى ملكه في الشام، فأرسل عدة حملات من دمشق تحت قيادة "أسد الدين شيركوه" وبصحبته ابن أخيه الشاب اليافع صلاح الدين الأيوبي، ابتدأت من سنة (٥٥٩هـ-١١٦٤م) واستمرت نحو ٥ سنوات، وخسرت عدة مرات؛ بسبب خيانة شاور الوزير الأول للخليفة الفاطمي وتعاونه مع الصليبيين والفساد المتفشي. ولكن أسد الدين لم يتراجع، ففي كل مرة كان يعيد تجهيز جيشه وينطلق من جديد بأوامر نور الدين في دمشق حتى نجحت بعد سباق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة (٥٦٤هـ-١١٦٩م)، وتولى شيركوه الوزارة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي، فانضمّت مصر إلى ملك نور الدين محمود في الشام.



فارس مسلم يرمي فارسا صليبيا ويصرعه

معركة تل حارم التاريخية: هاجم الصليبيون في سنة ٥٥٨هـ جزءاً من جيش نور الدين زنكي حاكم حلب - ومحرر الرها - على حين غفلة، فأكثروا فيهم القتل، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، وقد عرفت هذه المعركة بـ "يوم البقيعة"، ولحق به من سلم من الجند حتى اجتمعوا به. وكان مما قاله له بعضهم: "ليس من الرأي أن تقيم هاهنا فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنُؤخذ ونحن على هذه الحال، فقال لهم: "إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم. ووالله، لا أستظل بسقف حتى آخذ بثاري وثأر الإسلام". وكان الفرنج قد عزموا ملاحقته إلى حمص بعد انتصارهم؛ لأنها كانت أقرب البلاد إليهم، ولما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمتنعنا بها، فراسلوه يطلبون منه الصلح فلم يجبهم.

وبعدها بدأ نور الدين - رحمه الله - بتجهيز قواته؛ استعداداً لمواجهة الفرنج والأخذ بالثأر، وكان قد خصص أموالاً من بيت المال ينفقها على العلماء والعباد والفقراء، فقال له بعض أصحابه لما رأى كثرة إنفاقه: "لو استعنت بهذه

الأموال في هذا الوقت لكان أصلح". فغضب عليهم وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلاة قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ؟! وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم".

وخرج الفرنج من عسقلان في العام الثاني سنة ٥٥٩ هجرية "لقتال أسد الدين شيركوه" بمصر، فاستغل نور الدين فرصة خروجهم وأرسل إلى الأمراء المسلمين يطلب العون والنصرة فجاؤوا من كل فجّ، وكتب إلى الزُهّاد والعباد يستمدّ منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزو والجهاد في سبيل الله.

وأخذ في الاستعداد بقوة لفتح تل حارم وقلعتها الحصينة التي تتحكم في الطريق بين أنطاكيا وحلب وحمص (تقع الآن في محافظة إدلب بسوريا). وكاتب نور الدين أمراء الشام ليأتوا بجنودهم، فأرسل إلى أمير الموصل والجزيرة، وإلى أمير ماردين وأمير كيفا، فاجتمعت الجيوش الإسلامية وتوجهت لحصار تل حارم. فحاصره ونصب المجانيق عليها. وجاءت جموع الصليبيون، خاصة أمراء الساحل، وبالغوا في تقوية جيوشهم وحشد أبطالهم وشجعانهم ورهبانهم وقساوسهم، والجميع تحت قيادة أمير أنطاكيا «دي كورتناي» ومعه شيطان الفرنج «ريمون الثالث» أمير طرابلس أشد الناس شكيمة على المسلمين، وأمير الأرمن، واستعدوا للدفاع عن تل حارم. وقبيل المعركة انفرد نور الدين بنفسه تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرّغ وجهه وتضرع، وقال:

(**يا رب! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك: فانصر أولياءك على أعدائك. أيش فضول محمود في الوسط؟**): يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وقال: (**اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً. من هو محمود الكلب حتى يُنصر**)

والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي عند تل حارم في يوم ليلة القدر المباركة: أي: يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٥٩هـ-٢٣ آب ١١٦٤م، وقد وضع نور الدين خطة ذكية في القتال: تقوم على استدراج فرسان الصليبيين لمطاردة وهمية مع ميمنة المسلمين التي ستنهزم من أمامهم، فينفرد بقية الجيش الإسلامي بمشاة الجيش الصليبي، فإذا فرغوا منهم، استدارت ميمنة المسلمين المنهزمة وعادت إلى القتال، فيقع فرسان الجيش الصليبي في كماشة وهي ما نجح بالفعل. وكان انتقام نور الدين من الصليبيين رهيباً، إذ قتل منهم عشرة آلاف صليبيّ، وأسر عشرة آلاف آخرين أو يزيد، واستعاد المدينة من قبضتهم. ووقع في الأسر عظماء الأعداء وقادتهم، مثل أمير أنطاكيا «دي كورتناي»، وأمير طرابلس «ريمون الثالث»، و«رينالد دي شاتيون» المعروف بأرناط، ومقدم الداوية، وفرسان المعبد وحاكم قيليقيا البيزنطي (عدا أمير الأرمن الذي لم يؤسر). وفي اليوم الثاني، استولى نور الدين على "حارم" بعد أن أجلى الفرنج عنها، وكان ذلك فتحاً كبيراً ونصراً مبيناً أعاد إلى المسلمين الهيبة في قلوب أعدائهم، وأعز الله جنده وأولياءه في هذا الشهر المبارك. وكان يوماً عظيماً انكسر به الصليبيون مدة طويلة.

وفتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد بانياس عنوة في سنة ٥٦٠هـ، وكان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فقال له أخوه نور الدين: (لو كشف عمّا أُعدّ لك من الأجر، لتمنيت ذهاب الأخرى)، فحمد الله على ذلك.

ونجح صلاح الدين في مصر في إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط الدولة العبيدية: فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة "٥٦٧هـ-أيلول ١١٧١م). كان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود دوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد إلى الصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه

لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها؛ بسبب يقظة صلاح الدين في مصر، وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى لحمة العالم الإسلامي، يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات جبهة الجهاد الإسلامي الموحد تمهيداً للضربة القاضية.

وفاته: بينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحُمّى، واشتد به المرض حتى لقي الله في ٣١ شوال ٥٦٩هـ-١٥ آيار ١١٧٤م، وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وتوفي ودفن في دمشق. قال ابن تغري في "النجوم الزاهرة":

(قال ابن عساكر: "ولد سنة ٥١١هـ وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح. وكان زنكي يقدمه على أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة. وفتح في أيام سلطنته نيفاً وخمسين حصناً".

قلت: ومصر أيضاً من جملة فتوحاته، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب، ولولاه أيش كان صلاح الدين! حتى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عبيد خلفاء مصر وقوة بأسهم!

وكان ابتداء مرضه أنه ختن ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر فهُنّئ بالعيد والطهور، فقال العماد الكاتب -رحمه الله-:

عيدان فطر وطهر — فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه — حقاً هناء وأجر

فمرض بعد عوده من صلاة العيد بالخوانيق، وما كان يرى الطب على قاعدة الأتراك فأشير عليه بالفصد في أول مرضه فامتنع. وكان مهيباً فما روجع، فمات يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال، ودفن بالقلعة ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها مجاورة الخواصين بدمشق.: وعاش ثمانياً وخمسين سنة.. وكانت سلطنته ٢٨ سنة و٦ أشهر. ورثاه العماد الكاتب عدة مراثٍ، ومن ذلك قوله:

يا ملكاً أيامه لم تزل — لفضله فاضلة فاخره
ملكت دُنياك وخلفتها — وسرتَ حتى تملك الآخره

قال أبو اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي المعري: "تعدى بعض أمراء صلاح الدين بن أيوب على رجل وأخذ ملكه، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد، فجاء إلى قبر نور الدين وشق ثيابه وحثا التراب على رأسه وجعل يستغيث: يا نور الدين أين أيامك! ويبكي.

فبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله فازداد بكاؤه، فقال له صلاح الدين: ما يبكيك وقد انصفناك. فقال: إنما أبكي على ملك أُنصفتُ ببركاته وبعد موته، كيف يأكله التراب ويفقده المسلمون؟) انتهى.

كان لموت نور الدين محمود رجّة عنيفة في العالم الإسلامي، وشعر الناس بحجم الخسارة وعظم المصيبة التي حلت بهم.

آثار نور الدين في التاريخ: كان نور الدين مؤمناً بالإسلام وعظمته: وهو ما جعله يحقق ما عجز عنه غيره ممن كانوا أوسع منه بلاداً وأعظم مالاً ونفقة، ولم يكن يحارب الصليبيين على أنهم نصارى بل على أنهم أجانب عن

بلاد العرب والمسلمين جاؤوا لاحتلال الأرض وتدنيس المقدسات؛ ولذا لم يمسّ نصارى بلاده بسوء، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً.

ولم يشغله الجهاد وتوحيد الصف عن إقامة المدارس والمساجد، حتى بلغت مدارسه ومساجده المئات، لا يخلو منها بلد دخل تحت سلطانه. وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيوخها، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وكانت مدارسه تُعنى بالقرآن والحديث، وكان له شغف بالحديث وسمعه من أجلاء المحدثين، وأجازه بعضهم بالرواية.

وتوسع في إقامة البيمارستانات في كل بلدة تحت حكمه إلى جانب إنشاء المدارس، وجعلها للفقراء الذين لا تمكنهم دخولهم من الاستعانة بالأطباء والحصول على الدواء. وحرص على إقامة الخانات على الطرق؛ لينزل بها المسافرون للراحة أو المبيت، وجعل عليها من يحرص عليها ويحافظ على زائريها. وكان نور الدين مؤمناً صادق الإيمان، ومجاهداً عظيماً، وزاهداً متصوفاً لا ينام إلا منتصف الليل ثم ينهض فيتوضأ، ويقبل على الصلاة والدعاء، حتى يقبل الصباح فيصليه ثم يأخذ في شؤون دولته. ولم يكن له راتب يتقاضاه؛ لزهده في أبهة الحكم والسلطان، وإنما كان يأكل ويلبس من مُلك له كان قد اشتراه من ماله، ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في غرفة في قلعة البلد الذي يحل فيه.

تثبيته مذهبَ السنة والجماعة: قال عنه ابن كثير: **"كان يقوم في أحكامه بالمعاملة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السُّنة وأمات البدعة"**.

في حلب: إن كان لبني حمدان فضل في مقارعة الروم، فالفضل يذكر لأهل الفضل. ولكن بني حمدان قد ضعفوا وكانوا يعتنقون المذهب الإماميَّ، وقد أضاف سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦–٣٨١هـ/ ٩٤٤–٩٧٦م) للأذان عام ٣٦٧هـ–٩٧٧م عبارة (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)، واستمر الأذان على ذلك في عهود حكم آل مرداس وآل عقيل في حلب. وازداد نفوذ الشيعة الإسماعيلية زمن رضوان بن تتش؛ لذا كان المذهب الشيعي متغلغلاً في حلب؛ لذلك قام نور الدين بالخطوات الآتية:

١. أزال السلطان نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٤٣هـ من حلب الأذان بـ (حي على خير العمل)، وسبَّ الصحابة بها، وقال: (من عاد إليه قتلته)، فلم يعد أحد. كان ذلك في رجب عام ٥٤٣هـ–١١٤٨م؛ أي: بعد عامين من دخوله حلب واستقراره فيها. فهاج الإسماعيلية وماجوا ولكن سرعان ما سكنوا خوفاً من ردة فعل السلطان.

٢. قام بعد ذلك بإبعاد بعض زعماء الشيعة (الذين يثيرون الفرقة بين المسلمين) عن حلب، منهم والد المؤرخ ابن أبي طي.

٣. أنشأ المدارس؛ لتدريس العلوم الإسلامية إحداهما حنفية وهي المدرسة الحلاوية (٥٤٣هـ–١١٤٨م)، وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي الذي استدعاه من دمشق، والمدرسة النورية الكبرى، والمدرسة النورية الصغرى (٥٤٤هـ–١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس فيها قطب الدين النيسابوري. والمدرسة العصرونية والمدرسة الشعيبية وكلاهما مدارس شافعية أيضاً.
   - أوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية.
   - أنشأ خوانيق للصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة.
   - كان أول من أنشأ داراً للحديث.

دمشق – الشام: كانت دمشق العاصمة وأهم المدن في عهد نور الدين زنكي، وقد عني بإنشاء كثير من المباني التي تحمل اسمه مثال:

- أنشأ في دمشق مدارس التعليم الشرعي وركز اهتمامه على المذهبين الحنفي والشافعي، فأنشأ للحنفية المدرسة النورية الكبرى والمدرسة النورية الصغرى. وأنشأ المدارس للمذهبين المالكي والحنبلي.
- بنى أول دار للحديث وأكبرها، ووكل أمرها إلى الحافظ الكبير ابن عساكر.
- بنى دوراً للأيتام لتخريج العلماء وخصص لها الأوقاف الكثيرة.

في مصر: لم يفرض السلطان نور الدين محمود مذهب السنة في مصر بالقوة على حساب الشيعة الإسماعيلية على الرغم من قدرته على ذلك عن طريق وزيره صلاح الدين الأيوبي، وإنما جرى الرفق بالشيعة وتوحيد الأحكام الإسلامية في مصر مع باقي الدولة بهدوء وروية.

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، موحّد العراق والشام ومصر ومحرر بيت المقدس (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٨-١١٩٣م)

لا يمكن التطرق إلى سيرة البطل صلاح الدين دون معرفة عمّه أسد الدين شيركوه بن شاذى الدويني، المولود في بلدة "دوين" أطراف أذربيجان عام ٥٠٠هـ تقريباً، وهو كردي الأصل. وشيركوه بالعربية: أسد الجبل، فشير بالكردية: أسد، وكوه: جبل. نشأ، هو وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) بتكريت. لما كان أبوهما شاذى "ومعناها فرحان" نقيب قلعتها، وكان نجم الدين أسنّ من أسد الدين، ويغلب عليه العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على عدوان حرمات أوانتهاكها. ولم يكن الأيوبيون مماليك، قال صاحب مرآة الزمان: "وهذا من غلطات ابن القادسي ما كان شادي مملوكاً قط، ولا جرى على أحد من بني أيوب رقّ، وإنما خدم شادي بهروز الخادم فاستنابه بقلعة تكريت"... ونجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) هو الأخ الأكبر لأسد الدين شيركوه، وهما من الأكراد الروادية وهو الأصح.

قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه إلى العراق وخدما الأمير مجاهد الدين بهروز بتكريت (وكانت تكريت لبهروز أعطاها له السلطان مسعود ابن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي وولاه شحنة العراق). فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن انهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر (والد عماد الدين زنكي) من الخليفة المسترشد في سنة ٥٢٦هـ. ووصل إلى تكريت وبها نجم الدين أيوب فأقام له المعابر بالسفن، فعبر زنكي "دجلة" من هناك وبالغ نجم الدين في إكرامه فرأى له زنكي ذلك. وأقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. وسببه أن نجم الدين كان يرمي يوماً بالنشاب فوقعت نشابة في مملوك بهروز فقتلته من غير قصد. فاستحى نجم الدين من بهروز، فخرج هو وأخوه إلى الموصل (ويقال: إن بهروز هو الذي أخرجهما؛ لأنه كان يكره زنكي).

ورحلوا عن قلعة تكريت سنة ٥٣٢هـ في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين يوسف بن أيوب. قرر الأخوان التوجه إلى أمير الموصل "عماد الدين زنكي" والالتحاق بخدمته، فسارا إليه فأحسن استقبالهما وشكر صنيعهما معه ومع والده، وضمهما إلى أمرائه وقادته وبالغ في إكرامهما وأقطعهما أقطاعاً حسنة، وجعل نجم الدين والياً على بعلبك، وأسد الدين من مقدمي جيوشه، إذ كان عماد الدين زنكي خبيراً بمعادن الرجال.

ظل أسد الدين شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض الحروب معه ضد الصليبيين، وكان معه يوم فتح الرها. وكان عماد الدين يحبّه ويقدره؛ لأنه كان مثله بطلاً شجاعاً لا يهاب الموت، وظل هكذا حتى كان معه في معسكره ليلة أن قُتل عماد الدين عام ٥٤١هـ. وعندها قام أسد الدين شيركوه بعمل في غاية الأهمية، ذلك أنه حفظ معسكر المسلمين من الفوضى التي تحدث عادة عند مقتل القائد، ثم قام بإعطاء خاتم الملك الخاص بعماد الدين لولده نور الدين محمود زنكي كناية عن خلافته لأبيه الشهيد، ثم قام بحراسة نور الدين محمود حتى وصل سالماً آمناً إلى مدينة "حلب"، فعرف نور الدين هذا الجميل لأسد الدين، وصار من أقرب الناس إليه.

ومن ذلك اليوم أصبح أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين محمود الأمير الجديد على دمشق والشام وأصبح أخلص أمراء الجيوش الشامية وأقواهم، ورجل المهام الصعبة الذي يعتمد عليه نور الدين محمود في النوازل وصعاب الأمور، وكانت له المواقف المشهورة والبطولات المشهورة.

الأسد المعلم: كان أسد الدين شيركوه الأستاذ الأول والمعلم الحقيقي والمكتشف البارع لقدرات ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ومواهبه أيضاً، وذلك منذ كان صلاح الدين فتى يافعاً، فقد رأى فيه شيركوه، بعين الخبير الفاحص، أن الفتى الصغير يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه، وزهد أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة أن ترشح هذا الفتى للقيادة. وتعهد الأسد المعلم شيركوه رعاية ابن أخيه وتدريبه على فنون القتال وقيادة الجيوش وأساليب إدارة المعارك دفاعاً وهجوماً، وتولى تعليمه فنون السياسة والمناورة والمفاوضة، حتى نضج الفتى اليافع وصار شاباً قوياً يصحب عمّه في كل مكان وفي مدن الشام، وصار بمنزلة الذراع اليمنى لأسد الدين شيركوه. ومن لا يعرفهما يظن أن صلاح الدين هو ابن أسد الدين شيركوه. ولعل تربية صلاح الدين وتدريبه هو أفضل أعمال أسد الدين شيركوه وخير تركة للأمة الإسلامية.

الأسد فاتح مصر: كان لأسد الدين شيركوه رؤية ثاقبة في ضرورة توحيد العالم الإسلامي للانتصار ضد الوجود الصليبي، وفي ضرورة ضم الديار المصرية إلى الشام وضرورة فتحها وإزالة الدولة العبيدية الإسماعيلية الخبيثة (التي تسمى زوراً بالفاطمية) التي تسببت في ضياع بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية؛ لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين ملك دمشق وحلب والشام لكي يفتح مصر؛ ولذلك كان نور الدين يترقب الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب، فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة، والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود، وضمن له ثلث إيراد مصر، وأن يكون نائبه في مصر إن هو أعانه على استعادة وزارته المفقودة. فوجد نور الدين الفرصة مناسبة لفتح مصر وضمها إلى الشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه بالتوجه إلى مصر لذلك الغرض، ففرح الأسد بهذه المهمة، وخرج من دمشق عام ٥٥٩هـ، وفي صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، ومعه ألف رجل فقط.

الأسد المرعب: وصل أسد الدين شيركوه على رأس جيش دمشق إلى مدينة بلبيس، واشتبك مع جيش ضرغام وانتصر عليه، ثم واصل تقدمه إلى القاهرة حتى قضى على ضرغام وأعاد شاور إلى منصب الوزارة، وأقام هو بظاهر القاهرة انتظاراً للوفاء بالعهود والمواثيق مع شاور، ولكن شاور غدر وخان به وأمره بالرجوع إلى دمشق، بل هدده. فما كان من الأسد شيركوه إلا أنه دخل مدينة "بلبيس" المحصنة وامتنع بها وأرسل إلى شاور أنه لن يتحرك من مكانه إلا بأمر قائده الملك العادل نور الدين محمود. ولما كان شاور رجلاً لا تهمه إلا مصالحه الشخصية ومنصبه، أرسل إلى الصليبيين في الشام يستنجد بهم على أسد الدين، وكان الصليبيون منذ أن توجه أسد الدين إلى مصر قد أيقنوا الهلاك إذا فتح الشاميون مصر، فلما جاءتهم استغاثة شاور فرحوا بها وأرسلوا جيوشهم، وقد بذل لهم شاور أموالاً طائلة من أجل الانتصار على بني دينه. اجتمعت الجيوش الصليبية وعساكر شاور الخائن وحاصروا الجيش الشامي وأسد الدين شيركوه في بلبيس ٣ أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها ليس بالعالي، وليس له خندق ولا أي تحصينات، ومع ذلك لم يجسروا على اقتحام المدينة خوفاً من أسد الدين شيركوه الذي ظل يقاتلهم ليل نهار بألف رجل ليس غير، وهم عشرات الألوف، ثم حدث الصلح على جلاء الطرفين من مصر.

قديماً قالوا: "الفضل ما شهد به الأعداء"، فاسمع الشهادة من أحد الصليبيين الذين شاهدوا أسد الدين شيركوه يوم حصار بلبيس ثم يوم الصلح، قال: (أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده عود من حديد يحمي

ساقتهم، والمصريون والفرنج ينظرون إليه، فتقدمت منه وقلت له: "أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية؟". فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت، والله، أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، والله، لو أطاعني هؤلاء - يعني جنوده - لخرجت إليكم من أول يوم - يعني الحصار - ولكنهم امتنعوا. فقام هذا الصليبي بالتصليب على صدره وقال: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم).

العزيمة الفولاذية: رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو مملوءٌ غيظاً من "شاور" وزير مصر الخائن. ثم وافق نور الدين سنة ٥٦٢هـ على إرساله ثانيةً، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بالفين من المقاتلين. أسرع "شاور" كعادته وأرسل إلى الصليبيين بالشام يستنجد بهم، فجاؤوه بألوف مؤلفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتحه ثم عسكر في منطقة البابين "قريباً من محافظة المنيا الآن"، وقد رفعت إليه الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاور، فعقد اجتماعاً مع قادة جيشه فأشاروا جميعاً بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصرّ على القتال واستعان بالله ووافقه ابن أخيه صلاح الدين.

ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية غاية في الذكاء: إذ إنه استدرج معظم الجيش الصليبي لقلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاة من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصاراً عظيماً لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير. بعد معركة البابين توجه أسد الدين وعسكره الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها البطل الشاب صلاح الدين (وعمره حينئذ ٣٠ سنة)، ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، فانتهز الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصاراً عنيفاً طوال تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية والجيش الشامي بقيادة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فخاف الصليبيون منه خوفاً شديداً جعلهم يطلبون منه الصلح، فاشترط عليهم مغادرة مصر ولا يتملكوا منها قرية واحدة فوافقوا. فرجع إلى الشام منصوراً وهو عازم بإذن الله على فتح مصر في الغزوة القادمة.

وأقام أسد الدين في "حمص" عندما جاءته رسالة نور الدين محمود بالقدوم إلى حلب استعداداً لإنقاذ مصر، فركب البطل العجوز الذي جاوز الستين فرسه بعد صلاة الفجر وانطلق بأقصى سرعة حتى وصل "حلب" قبيل الغروب، وهذا الأمر لم يتسن لأحد من الناس سوى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت الوجيز، فسُرّ نور الدين بذلك وجهزه بجيش مكون من ألفي فارس، وقام أسد الدين بجمع ستة آلاف فارس آخر من متطوعة الشام لفتح مصر، وانطلق الأسد يزأر ويتوعد الصليبيين والخونة المنافقين في مصر.

وكان الصليبيون يفزعون من ذكر اسم أسد الدين شيركوه، فلقد كان جاثومهم المفزع الذي يقضّ مضاجعهم، فلما جاءتهم الأخبار بقدوم الأسد وعسكره الشامي على جناح السرعة أجمعوا أمرهم على الرحيل من مصر بعد أن هزموا بها مرتين من قبل على يد أسد الدين، وبالفعل رحلوا مذعورين هاربين، ودخل الأسد المظفر القاهرة فاتحاً منتصراً من غير أن يشهر سيفاً واحداً هذه المرة، فلقد نصره الله عز وجل بالرعب.

لقي شاور جزاء خيانته وعمالته للصليبيين، فقد أمر العاضد الفاطمي بإعدامه، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر، وبدأ بالتوحيد الفعلي بين مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود. ولكن الأجل جاء إلى الأسد بذبحة صدرية قتلته في ٢٢ جمادى الآخر ٥٦٤هـ، بعد أن كلل جهاده بفتح مصر. ويقال: إنه خاض أكثر من ١٥٠ موقعة وتعرض للشهادة في كل موطن وسعى لها سعياً حثيثاً، ولكنه مات على فراشه؛ وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قال: "**احرص على الموت توهب لك الحياة**".

الحملات الصليبية لغزو مصر

يخطئ من يظن أن غزو مصر ابتدأ من الحملة الصليبية الأوروبية الخامسة على دمياط، والحملة الصليبية الأوروبية السابعة على دمياط أيضاً. إن محاولات الاستيلاء الصليبي على مصر الفاطمية كادت تنجح؛ بسبب خيانة الوزراء العبيديين (الفاطميين) وتخاذلهم، لكن جميع هذه المحاولات باءت بالخسران بفضل الله تعالى، ثم جهود الأبطال الثلاثة: المجاهد المسلم نور الدين محمود، ونائبه أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف. لذلك كانت هذه الحملات الأولى لا تذكر استحياءً، أو إن ذكرت تذكر هامشياً.

الحقيقة أن هناك ٦ حملات صليبية لغزو مصر في المدة ما بين ١١٥٤–١١٦٩م قامت بها مملكة القدس الصليبية، بُعيد الحملة الصليبية الأوروبية الثانية:

(١) الحملة الصليبية الأولى على مصر بقيادة بلدوين الثالث، وسقوط عسقلان عام ٥٤٨هـ–١١٥٣م:

شرع ملك مملكة القدس بلدوين الثالث (٥٣٨–٥٥٨هـ/١١٤٣–١١٦٣م) في تعمير استحكامات غزة عام ٥٤٥هـ تمهيداً للانقضاض على عسقلان، القاعدة الأخيرة للفاطميين في فلسطين المتاخمة حدودَ مصر، إذ إن غزو مصر لا بد له من الاستيلاء على عسقلان أولاً؛ لذا فهي أمنع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة وباستحكاماتها القوية، وحرصت الدولة الفاطمية على شحنها بالذخائر والمؤن لكونها حصن مصر الأخير.

شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات: وهذا ما دفعهم إلى الاستغاثة بنور الدين محمود، الذي كان يسعى إلى ضم دمشق إلى الاتحاد الإسلامي ضد الصليبيين، لكنه كان في موقف حرج مع حاكم دمشق. ظهر جيش بلدوين الثالث أمام أسوار عسقلان في ذي الحجة ٥٤٧هـ واستمر الحصار بضعة أشهر. كانت الدولة الفاطمية تمدّ أهل المدينة بالمعونة بحراً دون أن تتجرأ على شنّ هجوم برّي أو بحري. وأمام القذائف شبه المتواصلة اليومية طوال مدة الحصار، استسلمت الحامية (والتزم هذا الملك تأمين السكان)، ودخل منتصراً وضُمّت عسقلان إلى أملاك عموري الأول أو أملريك الأول ولي العهد، كونت يافا وعسقلان آنذاك. وقويت بذلك شوكة الفرنج بتأمين حدود مملكة القدس الجنوبية. كان المفروض أن تكون مملكة القدس مُحاطة بعدوّين: السلجوقي الزنكي من الشمال والشرق، والعبيدي الفاطمي من الجنوب والغرب، لكن تخاذل الوزراء العبيديين جعل مصر عرضة لمطامع الصليبيين.

(٢) الحملة الصليبية الثانية على مصر بقيادة الملك أملريك الأول (أو عموري الأول) عام ٥٥٨هـ–١١٦٣م:

شرع عموري الأول أو أملريك الأول ملك مملكة القدس (١١٦٢–١١٧٤م) في حملته الأولى لغزو مصر عام ٥٥٨هـ بحجة عدم دفع الفاطميين الجزية المفروضة عليهم من قبل الملك بلدوين الثالث.

وكانت الدولة العبيدية في ضعف وصراع داخلي آنذاك. فلمّا مات الفائز، الخليفة العبيدي، كان وزيره الملك الصالح طلائع بن رُزّيك في وزارة مصر سبع سنين (كان الفائز معه كالمحجور عليه). كان الوزير طلائع آخر الوزراء الفاطميين الذين حركوا الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج في صور وأسر كثيراً منهم، لكنه أدرك أنه لا يستطيع مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فأرسل إلى نور الدين صاحب دمشق يطلب إليه توحيد جهودهما، وكان رسول طلائع في هذه المهمة الأمير الشاعر "أسامة بن منقذ" الذي تبادل معه مجموعة من القصائد لتسهيل مهمته لدى نور الدين، وأوجد نوعاً من التعاون بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام. وكان الوزير طلائع يطمح إلى تحويل الخلافة الفاطمية إلى نسله – كما فعل الجمالي – فاختار أصغر الأمراء الفاطميين وأجلسه على عرش الخلافة

وسماه (العاضد)، وزوجه من ابنته، عسى أن ترزق منه ولداً فيجتمع لبني رُزّيك الخلافة والملك. ولم تقبل نساء الدولة الفاطمية هذا الإجراء، فدبرت "ستّ القصور" عمة العاضد مؤامرة اغتيال طلائع. وقد تولى العاضد العبيدي الخلافة الفاطمية، فولى شاور بن مُجير السعدي الصعيد. ثم ثقل عليه وزيره الملك الصالح طلائع، فدبّر قتله.

فلما كان ١٠ رجب سنة ٥٥٦هـ (وقيل ١٩ رمضان ٥٥٦هـ) حضر "الصالح طلائع" إلى قصر الخلافة، فوثب عليه باطني فضربه بسكين وقتله، وكانت آخر كلمات طلائع وهو يلفظ آخر أنفاسه أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج... وتحذيره ابنه "العادل رزيك" من شاور حاكم الصعيد الذي لا يؤمن غدره. حزن الناس عليه لحسن سيرته وأقيم المأتم عليه بالقصر وبالقاهرة ومصر. وقام بعده في الوزارة ابنه رزيك بن طلائع بن رزيك ولقب بمجد الإسلام. وفرح العاضد بقتل طلائع؛ ليستبد بالأمور من غير وزير، فدسّ إلى شاور بن مجير السعدي الذي تحرك من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم إلى القاهرة لحرب رزيك. فخرج إليه رزيك بن طلائع وقاتله، والعاضد في الباطن مع شاور. فانهزم رزيك.

ودخل شاور إلى القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بني رزيك. واختفى الوزير رزيك حتى ظفر به شاور وقتله. وتولى شاور الوزارة، فعامل العاضد بأفعال قبيحة وأساء السيرة في الرعية، وأخذ أمرُ مصر في وزارته في إدبار. ولما كثر ظلمه خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر من الصعيد، فخرج إليه شاور بدسته فهزمه ضرغام وقتل ولده الأكبر طيء، وخذل أهل القاهرة شاورَ لبغضهم إياه.

استغلّ عموري الأول ذلك، وأعلن أن هدف حملته إرغام مصر العبيدية على دفع الجزية، وأسهمت الأسبتارية إسهاماً فاعلاً في تجهيز هذه الحملة. وصل الجيش الصليبي إلى العريش دون مقاومة، ثم التقى والجيش الفاطمي بقيادة ضرغام، الذي هزم عند بيلوسيوم (أطراف مديرية الشرقية) ثم تابع الصليبيون تقدمهم نحو بلبيس حيث تقهقر ضرغام. استغل ضرغام والمصريون فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود فساح الماء وأغرق الأرض وأرغمَ الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى مملكة القدس.

كان نور الدين يراقب تطور الأوضاع السياسية بمصر وتحركات عموري الأول العسكرية بدقة متناهية. هرب شاور إلى الشم ودخل إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الشهيد، فالتقاه نور الدين وكرمه، فطلب شاور منه النجمة (أي إعادة وزارته) والعساكر وأطمعه في الديار المصرية، وقال له: (أكون نائبك بها وقنع بما تعيّن لي من الضّياع، والباقي لك). وتعهد بسيادة نور الدين وبدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاع الجند، وإبقاء عدد من أمراء الشام في مصر.. وبعد تفكير طويل بين إحجام وإقدام (خوفاً من غدر الصليبيين بالعساكر الإسلامية، وحسباً لاحتمال غدر شاور إن هو سيطر على مصر)، ومشورة أسد الدين شيركوه أن المصريين يفضلون حاكماً مسلماً على بلادهم، على السيطرة الصليبية، أجابه نور الدين لذلك، وجهز له العساكر مع الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي أحد أمراء نور الدين. وخرجوا من دمشق في ٢٠ جمادى سنة ٥٥٧هـ وكان مع أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي في خدمته. وقام نور الدين بمرافقة الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق لحمايته من أي هجوم. وقام أيضاً بمشاغلة الصليبيين بالشام؛ ليُعمّي على جيشه الشامي المتجه إلى مصر.

(٢) الحملة لنورية الأولى لمصر والحملة الصليبية الثالثة على مصر بقيادة عموري (وحصار بلبيس) عام ٥٥٩هـ-١١٦٤م:

لما علم ضرغام برجوع شاور بصحبة جيش نور الدين، استغاث بالملك عموري الأول أو آملريك الأول، وتعهد بمقابل بدفع جزية يقررها الملك الصليبي؛ وأن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأُجبر العاضد على توقيع الاتفاق.

لكنه بوغت بوصول شيركوه وشاور قبل أن يستطيع أملريك التحرّك. فلما وصلوا إلى القاهرة خرج إليهم أبو الأشبال ضرغام بن عامر فحاربهم أياماً إلى أن التقوا على باب القاهرة، وقتِل ضرغام بعد أن تخلى عنه الجيش والناس والعاضد، واستقام أمر شاور. فكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر.

واستولى شاور ثانياً على القاهرة؛ وكان خبيثاً سفاكاً للدماء. ولما ثبت أمره، ظهرت منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه. فأشار صلاح الدين يوسف بن أيوب على عمه أسد الدين شيركوه بالتأخر إلى بلبيس وكان أسد الدين لا يقطع أمراً دون صلاح الدين ففعل ذلك وخرج إلى بلبيس، وبعث أسد الدين يطلب من شاور رزق الجند أعني النفقة، فاعتذر وتعلل عليه. فكتب أسد الدين إلى نور الدين يخبره بما جرى، ودسّ شاور إلى الفرنج رُسُلا يدعوهم إلى مصر، ويبذل لهم الأموال، فأسرع ملك القدس بالزحف إلى مصر مرة ثانية واجتمع الفرنج من الساحل وساروا من الداروم متفقين مع شاور على أسد الدين شيركوه.

فتهيأ أسد الدين لحربهم وحاربهم، فقوي الفرنج عليه وحاصروه بمدينة بلبيس نحو ٣ أشهر (من أول شهر رمضان إلى ذي القعدة) ووقع بينهم حروب وأمور.

وفجأة قرر عموري الأول مصالحة أسد الدين شيركوه على مالٍ للجلاء المزدوج للطرفين من مصر. الحقيقة أن أملريك الأول لم يستطع متابعة وجوده بمصر؛ بسبب الأخبار المزعجة لتعرّض ممتلكاته في الشام لضغوط جيوش نور الدين الفاعلة في الشام الذي استطاع أسرَ كلٍ من أمير أنطاكيا (بوهيمند الثالث) وأمير طرابلس (ريموند الثالث) في معركة تل حارم التاريخية في أثناء غياب ملك أورشليم بمصر. وبلغهم أن نور الدين قصد بلادهم من الشام فعند ذلك رجعت الفرنج، وأسرع أملريك الأول؛ ليتولى نيابة الحكم على أنطاكيا وطرابلس، وقد قام بدفع فدية كبيرة لتحرير أسر بوهيمند عام ١١٦٥م (في حين بقي ريموند بالسجن حتى ١١٧٣م). وعاد أسد الدين شيركوه إلى الشم وقد أصابه القهر بسبب الخائن شاور. كان شاور هو الفائز الحقيقي في هذا الصراع، فتخلص من ضرغام ومن الجيوش الشامية والصليبية على السواء، وأضحى طوال العامين اللاحقين الحاكم الفعلي المتفرد بمقاليد مصر.

ثم كان عام ١١٦٦م هادئاً نسبياً. وأرسل أملريك الأول مبعوثيه إلى الإمبراطورية البيزنطية طالباً زوجة بيزنطية من أجل التحالف الصليبي – البيزنطي. وفي أثناء هذا العام كان عليه التعامل مع غزوات نور الدين وتحركاته الذي دوّخهم واستولى على مدينة "بانياس".

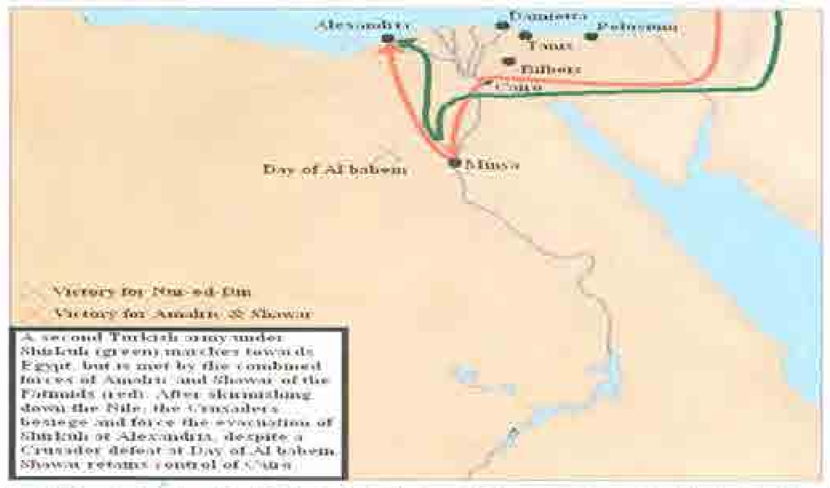


قدوم أسد الدين شيركوه وإعادة شاور إلى وزارته بمصر (أخضر رقم ١)، ثم خيانة شاور واستقدامه الحملة الصليبية الثالثة على مصر؛ لإخراج أسد الدين شيركوه (أحمر رقم ٢)، وبعد حصار بلبيس، جرى الجلاء للطرفين – عام ٥٥٩هـ–١١٦٤م

٤) الحملة النورية الثانية لمصر، والحملة الصليبية الرابعة على مصر بقيادة عموري (معركة البابين وحصار الإسكندرية) عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م:

أقام شور بالقاهرة على عادته يظلم ويقتل ويعتقل الناس، ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي. وأقام أسد الدين شيركوه بدمشق في خدمة نور الدين إلى سنة ٥٦٢هـ، ثم عاد بعساكر الشام إلى مصر ثانياً. وسببه أن العاضد لما غلب عليه شور كتب إلى نور الدين يستنجده على شاور، وأنه قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم. وكان في قلب نور الدين من شاور حزازة؛ لأنه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج. وكان نور الدين يطمح إلى ضمّ مصر إلى الشام لتكوين فكيّ كماشة (نزّاعة) تطبق على الصليبيين وتخرجهم من دار الإسلام.

فخرج أسد الدين بعساكر الشام من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٢هـ وسار أسد الدين شيركوه. ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب حتى نزل برّ الجيزة غربي مصر على بحر النيل. وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الإقطاعات وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم أسواقاً تخصهم.



قدوم شيركوه (أخضر) استجابة للعاضد عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م، واستقدام شاور الخائن الحملة الصليبية الرابعة على مصر (أحمر) ثم انتصار جيش المسلمين على الصليبيين في معركة البابين، ثم فتح الإسكندرية بمساعدة أهاليها، ثم جلاء الطرفين

وكان مقدم الفرنج الملك مري وابن نيرزان. فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين، وعمّى مسيره إلى الصعيد ثم إلى برّ مصر والقاهرة في ٢٥ جمادى الآخرة في منطقة البابين القريبة من الأشمونين. وخرج إليه شاور والفرنج. والواضح أن الحامية في القاهرة لم تشترك في القتال.

ورتب شاور عساكره؛ فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان وعسكر مصر في الميسرة، وأقام الملك مري الفرنجي في القلب في عسكره من الفرنج.

ورتب أسد الدين عساكره، فجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين، وأمره أن لا يصدق العدو في القتال، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغترّ عموري فيتبعه، في حين تسلّم أسد الدين الميمنة، وفي الميسرة الأكراد. فحمل الملك مري على القلب فتعتعه وكانت أثقال المسلمين خلفه فاشتغل الفرنج بالنهب، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره وفرّق جمعه. وعاد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين وحملا على الفرنج، فانهزموا، فقتلا منهم ألوفاً وأسرا مئة وسبعين فارساً.

وهرب شاور والفرنج إلى القاهرة، لكن أسد الدين شيركوه لم يتعقبهم، بل سار نحو الفيوم شمال غرب النيل واستولى على الإسكندرية، فأقام صلاح الدين فيها، وسار أسد الدين إلى الصعيد. فاستولى عليه وأقام فيها

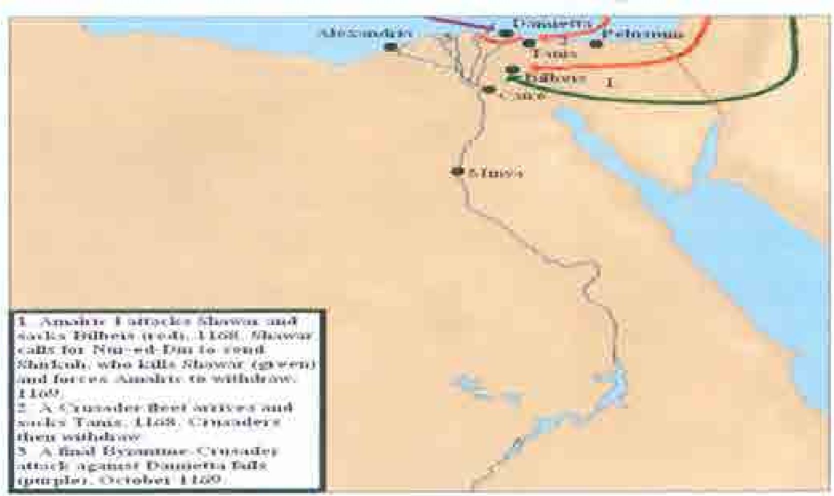
يجمع أمواله. وخرج شاور والفرنج من القاهرة، فحصروا الإسكندرية أربعة أشهر وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين، ويقوُّونه بالمال. وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعاد شاور إلى القاهرة وراسل أسد الدين حتى تحقَّق الصلح بينهم، وأعطى شاور أسد الدين إقطاعاً بمصر وعجل له مالاً خمسين ألف دينار فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منه قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام (كما يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ).

فعاد أسد الدين إلى الشام ومعه صلاح الدين. واعتذر أسد الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود بكثرة الفرنج والمال.

ورأى صلاح الدين لأهل الإسكندرية ما فعلوا فلما ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم. ثم إن الفرنج طلبوا سراً من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة ويكون أبوابها بأيدي فرسانهم وتحمل إليهم في كل سنة مئة ألف دينار، ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله ويعود بعض ملوكهم إلى الساحل، فأجابهم شاور إلى ما طلبوا منه. كل ذلك تقرر بين شاور والفرنج، والعاضد لا يعلم بشيء منه.

(٥) الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري (مذبحة بلبيس وحريق مصر)، والحملة النورية الثالثة لنجدة مصر عام ٥٦٣هـ-١١٦٨م:

بعد رجوعه في ١١٦٧م، تزوج الملك أملريك الأول من ماريه كومنينا، حفيدة بنت أخت الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس. وفي عام ١١٦٨م تناقش أملريك ومانويل في التحالف الصليبي – البيزنطي ضد مصر. وكان وليم الصوري أحد سفرائه المبعوثين إلى القسطنطينية لتوقيع المعاهدة النهائية، بالرغم من أن أملريك الأول كان في صلح سلام مع شاور، لكنه اتهم شاور بمحاولته التحالف مع نور الدين، وبهذه الذريعة غزا أملريك مصر. وكان فرسان الأسبتارية من أكثر المؤيدين لهذا الغزو، بل كانوا هم المسؤولين عن إقناع الملك في غزو مصر، في حين امتنع فرسان المعبد أن يسهموا بأي شكل فيه.



الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري عام ٥٦٣هـ-١١٦٨م ومذبحة بلبيس (أحمر رقم ١)

ثم انسحابها مع مقدم نجدة شيركوه (أخضر رقم ١)

تلتها الحملة الصليبية السادسة (أحمر رقم ٢)

على دمياط بمساندة الأسطول البيزنطي عام ٥٦٤هـ-١١٦٩م (بنفسجي)

وفي تشرين الأول/أكتوبر، من دون انتظار أي مساعدة بيزنطية (وفي الواقع من دون الانتظار لرجوع سفرائه)، غزا الملك أملريك الأول مصر، واستولى على بلبيس. وتعرّض سكانها من مسلمين وأقباط لمذبحة دموية وحشية، وممّن لم يُقتل منهم تعرّض لمهانة الاسترقاق. من ثم توجّه الملك المجرم أملريك الأول نحو القاهرة، إذ قام شاور بحرق مدينة الفسطاط، ثم عرض شاور (كما يقال) عليه مليوني قطعة ذهبية.

وأسرع نور الدين بإرسال شيركوه إلى مصر بعد استغاثة الخليفة العبيدي به، وبمجرد وصول أنباء مقدم جيش نور الدين إلى مصر، تقهقر أملريك الأول وانسحب إلى مملكة القدس، يجرّ معه خيبة الإخفاق وعار الفضيحة بمذبحة المصريين الأبرياء. يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة":

(ثم جاءته كتب شاور والعاضد، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وقال لصلاح الدين: اخرج مع عمك أسد الدين. فامتنع، وقال: يا مولاي، يكفي ما لقينا من الشدائد في تلك المرة.

فقال نور الدين: لا بد من خروجك. فما أمكنه مخالفة مخدومه نور الدين المذكور، فخرج مع عمه وساروا إلى مصر. وبلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار).

يقول ابن شداد: لقد قال لي السلطان صلاح الدين — قدس الله روحه — كنت أكرهُ الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت من دمشق مع عمي باختياري. وهذا معنى قول القرآن: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢١٦]. وقام شيركوه بقتل شاور في يناير/كانون الثاني ١١٦٩م، بطلب من الخليفة العاضد (انظر فيما سيأتي). وصار شيركوه الوزير الجديد مكانه، لكنه توفي بعد شهرين، في آذار، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمي بمصر. عدّ الملك أملريك الأول تعيين صلاح الدين نذير شؤم وخطر على الصليبيين، فأرسل رئيس قساوسة صور، طالباً النجدة من ملوك أوروبا ونبلائها، ولكن دون جدوى.

ويصف الإمام جلال الدين السيوطي هذه الحملات الصليبية في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" بقوله: (لما قتل صاحب مصر الظافر، وصلت الأخبار إلى بغداد أن مصر قتل صاحبها، ولم يبق فيهم إلا صبي صغير، ابن خمس سنين، قد ولوه عليهم، ولقبوه الفائز. فكتب الخليفة المقتفي عهداً للملك نور الدين محمود زنكي على البلاد الشامية والمصرية، وأرسله إليه، فسار حتى أتى دمشق، فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طغتكين، وشرع في فتح بلاد الشام بلداً بلداً، وأخذها من أيدي من استولى عليها من الفرنج.

فلما كانت سنة ٦٢ (أي ٥٦٢هـ) أقبلت الفرنج في محافل كثيرة إلى الديار المصرية، فأرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه بن شادي، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، فسار إليها في ربيع الآخر، وقد وقع في النفوس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية، وفي ذلك يقول عرقلة الشاعر:

رَبٌّ كما ملّكتها يوسفَ الصديقَ من أولاد يعقوب

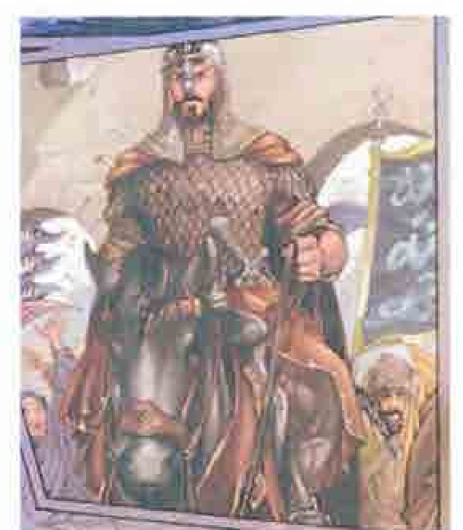
يملكها في عصرنا يوسف الصادق من أولاد أيوب

وسار إلى الفرنج، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فهزم الفرنج ولله الحمد، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى الإسكندرية، فملكها، واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد، فملكه.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية، فصالح شاور وزير العاضد أسد الدين على الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجاب إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في ذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مئة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة.

وسكن القاهرة أكثر شجعان الفرنج، وتحكموا فيه؛ إذ كادوا يستحوذون عليها، ويخرجون المسلمين منها. فلما كانت سنة ٦٤، قدم إمداد الفرنج في محافل هائلة، فأخذوا مدينة بلبيس، فقتلوا وأسروا ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلاً ومعقلاً. ثم جاؤوا فنزلوا في القاهرة من ناحية باب الشرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقلوا إلى القاهرة. فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة، وبقيت النار في مصر أربعة وخمسين يوماً؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد يستغيث بالملك نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني؛ واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج. والتزم له ثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً عندهم، وبهم قطاعات زائدة على الثلث.

... (وبعد موت شيركوه) فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر. وأهداه خلعة من النفائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤. فلما كان سنة ٦٥ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٥٦٦هـ، توفي المستنجد، وقام المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس، وقطع الأذان بحيَّ على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا روافض، وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، واستناب في سائر الأعمال شافعية).



دخول صلاح الدين إلى الديار المصرية، ليكون وزيراً ثم سلطاناً

ويفصل ابن تغري بردي الأحداث في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة): (وبينما هم في ذلك عاد الفرنج من الساحل إلى نحو مصر في سنة ٥٦٤هـ وطمعوا في أخذها. وكان خروجهم من عسقلان والساحل إلى نحو مصر في أوائل ٥٦٤هـ، وساروا حتى نزلوا ببلبيس وأغاروا على الريف وأسروا وقتلوا. هذا وقد تلاشى أمر الديار المصرية من الظلم ولم يبق للعاضد من الخلافة سوى الاسم والخطبة لا غير. فلما بلغ شاور فعلُ الفرنج بالأرياف أخرج من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء في حقهم قبل ذلك، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون.

ثم أمرَ شاور أهل مصر (الفسطاط) أن ينتقلوا إلى القاهرة ففعلوا، وأحرق شاور مصر. وسار الفرنج من بلبيس حتى نزلوا على القاهرة في سابع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق. فلم يجد شاور بداً أن كاتب الملك العادل نور الدين محموداً بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأوليين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها، وعلم نور الدين بذلك فأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر. ثم جاءته كتب شاور والعاضد، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وبلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار.

وجاء أسد الدين بمن معه من العساكر ونزل على باب القاهرة. فاستدعاه العاضد إلى القصر وخلع عليه في الإيوان خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور، وسُرَّ أهل مصر بذلك. وقيل: إنه لم يستدعه وإنما بعث إليه بالخلع والأموال والإقامات وكذلك إلى الأمراء الذين كانوا معه. وأقام أسد الدين مكانه وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم، ولم يقدر شاور على منعهم؛ لكثرة العساكر ولكون العاضد مائلاً إلى أسد الدين شيركوه.

فكاتب شاور أيضاً الفرنج واستدعاهم وقال لهم: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر.

فبلغ ذلك أعيان الدولة بمصر فاجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقالوا له: (شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الإسلام). ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فعمل في عمل: دعوة لأسد الدين المذكور ولأمرائه ويقبض عليهم.

فنهاه ابنه الكامل وقال له: (والله لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرفن أسد الدين). فقال له أبوه شاور: (والله لئن لم نفعل هذا، لتُقتلن كلنا). فقال له ابنه الكامل: (لأن نُقتل والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل والبلادُ بيد الفرنج)... وعزم شاور على قتل أسد الدين وقتل أصحابه أكابر أمراء نور الدين معه، ففطن أسد الدين لذلك فاحترز على نفسه.

وعلم ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب أيضاً، فاتفق صلاح الدين يوسف والأمير جرديك النوري على مسك شاور وقتله. و تفق ركوب أسد الدين إلى زيارة قبر الإمام الشافعي ﷺ وكان شاور يركب في كل يوم إلى أسد الدين. فلما توجه إليه في هذا اليوم المذكور قيل له: إنه توجه إلى الزيارة. فطلب العود فلم يمكّنه صلاح الدين، وقال: انزل الساعة يحضر عمي. فامتنع فجذبه هو وجرديك فأنزلوه عن فرسه، وقبضوا عليه وقتلوه بعد حضور أسد الدين...

وحين اتفق صلاح الدين وجرديك على قتله وأخبرا أسد الدين نهاهما وقال: (لا تفعلا، فنحن في بلاده ومعه عسكر عظيم)، فأمسكا عن ذلك. إلى أن ركب أسد الدين إلى زيارة الإمام الشافعي ﷺ وأقام عنده، فجاء شاور على عادته إلى أسد الدين فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: هو في الزيارة انزل، فامتنع فجذباه فوقع على الأرض، ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، فسحبه الغلمان إلى الخيمة، وانهزم أصحابه عنه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم.

وعلم أسد الدين فعاد مسرعاً، وجاء رسولٌ من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور وتتابعت الرسل. فلما تكاثرت الرسل من العاضد، دخل جرديك إلى الخيمة وجزر رأسه وبعث أسد الدين برأسه إلى العاضد فسُرَّ به. ثم طلب العاضد ولد شاور الملك الكامل وقتله في الدهليز وقتل أخاه، واستوزر أسد الدين شيركوه، وذلك في شهر ربيع الأول. إن ولاية أسد الدين للوزارة كانت بعد قتل شاور.

"قال أبو شامة: وقتل العاضد في هذه السنة أولاد شاور، وهم: شجاع الملقب بالكامل، والطاري الملقب بالمعظم، وأخوهما الآخر الملقب بفارس المسلمين، وطوّف برؤوسهم ببلاد مصر".

ولما قتل شاور وابنه الكامل بعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين بخط القاضي الفاضل وعليه خط العاضد بما صورته: (هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة، والزم حق الإمامة تجد إلى الفوز سبيلاً، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل: ٩١].

ثم أرسل العاضد نسخة الأيمان إلى أسد الدين وحلف كل واحد منهما لصاحبه على الوفاء والطاعة والصفاء. فتصرّف أسد الدين شهرين ومات. ولما احتضر أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولاية الوزارة.

وكان دخول يوسف بن أيوب (صلاح الدين) إلى مصر وتوزيره يشبه إلى حد كبير مقدم يوسف الصديق إلى مصر؛ حيث قام يوسف بن أيوب باستقدام إخوته وأبيه معه إلى مصر، كما فعل يوسف الصديق باستقدام إخوته وأبيه.

وبلغ الملك العادل نور الدين اتفاق الأمراء عليه بمصر، فقال له توران شاه بن أيوب، وكان أسنّ من صلاح الدين: يا مولانا، أريد أن أسير إلى أخي، يعني إلى صلاح الدين، فقال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وترى يوسف أخاك بعين أنه كان يقف في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر؛ فإنك تفسد العباد والبلاد فتحوجني إلى عقوبتك بما تستحقه، وإن كنت تسير إليه وترى أنه قائم مقامي وتخدمه كما تخدمني فسرْ إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، وإلا فلا تذهب إليه.

فقال: يا مولانا سوف يبلغك ما أفعل من الخدمة والطاعة. وسار إلى مصر فتلقاه صلاح الدين من لبيس وخدمه وقدم له المال والخيل والتحف وأقام عنده على أحسن حال. وفعل ما ضمن لنور الدين من خدمة أخيه صلاح الدين وقوي أمر صلاح الدين به واستقام أمره.

واستمر صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيوب من الملك العادل نور الدين محمود. فأرسله إليه مُعظماً مبجلاً. وكان وصوله، أعني نجم الدين، إلى القاهرة في شهر رجب سنة ٥٦٥هـ، فلما قرب نجم الدين إلى الديار المصرية خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته. وترجل صلاح الدين وجميع الأمراء ومشوا في ركابه، ثم قال له ابنه صلاح الدين: (هذا الأمر لك؛ يعني الوزارة، وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر ونحن بين يديك). فقال له نجم الدين: (يا بني، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له). وأبى نجم الدين قبول السلطنة، غير أنه حكم ابنه صلاح الدين في الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين كل ذلك والخطبة باسم العاضد في هذه السنين إلى سنة ٥٦٧هـ) .

١. **التحالف الصليبي البيزنطي لغزو مصر، وحملة عموري الصليبية الخامسة (حصار دمياط) عام ٥٦٤هـ-١١٦٩م:**

صعود نجم صلاح الدين، البطل المنقذ لمصر: وفي السنة العاشرة من خلافة العاضد وزر له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يكن له مع صلاح الدين إلا مجرد الاسم فقط. وهي سنة ٥٦٥هـ التي نزل فيها الفرنج على دمياط يوم الجمعة في ثالث صفر، وجدّوا في القتال وأقاموا عليها ٥٣ يوماً يحاصرونها ليلَ نهارَ وبذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه، وأقام نائباً عن نور الدين، ودعا لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد ولصلاح الدين بعدهما.

ولما بلغ صلاح الدين قصد الإفرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً لا يُردّ أمره في شيء، ثم نزل الإفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو يشن عليهم الغارات من الخارج والعسكر يقاتلهم من الداخل فنتصر عليهم، فرحلوا عنها خائبين، فأحرقت مناجيقهم ونُهبت آلاتهم وقتل من رجالهم عدد كبير.

وكانت الفرنج نزلت على دمياط في ثالث صفر وجدُّوا في قتالها وأقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجانيق ويزحفون عليها ليل نهارَ، وصلاح الدين يوجه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين وابن أخيه تقي الدين وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه شيئاً كثيراً حتى قال صلاح الدين: **(ما رأيت أكرم من العاضد؛ جهّز إلي في حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها).**

ولما سمع نور الدين بما وقع لدمياط أخذ في غزو الفرنج بالغارات عليهم. ثم وقع فيهم الوباء والفناء فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كل ذلك في حياة العاضد في أوائل أمر صلاح الدين.

ووصل الأسطول البيزنطي في أواخر عام ١١٦٩، وشنّ الملك أملريك الأول، في تشرين الأول/أكتوبر، حملة غزو جديدة وحاصر دمياط براً وبحراً. واستمر الحصار طويلاً، لكن بعد ٣ أشهر ترك الصليبيون الحصار؛ بسبب

انتشار المجاعات والأوبئة في المعسكر النصراني؛ فرمى البيزنطيون بلائمة الإخفاق على الصليبيين، والعكس بالعكس، وبذلك قرروا توقيع الصلح مع صلاح الدين. ورجع أملريك الأول صفر اليدين إلى مملكة القدس.

ثم أُعلِن أن صلاح الدين وزير مصر قد صار سلطاناً في عام ١١٧١م بموت العاضد آخر السلالة العبيدية، فتوجس الملك أملريك الأول خيفة وأرسل مبعوثيه من القدس طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن دون جدوى. ثم قام الملك أملريك الأول بزيارة القسطنطينية بنفسه، وأرسل مبعوثيه مرة ثانية من القسطنطينية طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن أيضاً دون اهتمام أحد منهم. وبتوحد مصر والشام بدأ العدّ التنازلي لمملكة القدس المحاطة بأعدائها من كل الجوانب، وصمدت مملكة القدس ١٦ سنة أخرى. ثم مات الملك أملريك الأول بالزُّحار (إسهال الديزنتري) في ١١ يوليو/ تموز ١١٧٤، مباشرة بعد وفاة نور الدين في ٥٦٩هـ-١١٧٤م.

مؤامرات الانقلاب على الدولة الأيوبية الوليدة: تعرضت دولة صلاح الدين لما لا يقل عن ٥ مؤامرات هي: مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي (في حياة العاضد)، والتواطؤ العبيدي - الصليبي، ومحاولتا الحشاشين الباطنية لاغتيال شخص صلاح الدين، وتمرد السودان (انظر فيما سيأتي).

مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي: بذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري، فأحبوه وطاعوه وأقاموه نائباً عن نور الدين يُدعا لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد ولصلاح الدين بعدهما.

ولما تم أمر صلاح الدين بمصر خاف العاضد عاقبة أمره. وكان للعاضد خادم يقال له مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان والخدم والمشار إليه بالقصر. فأمره العاضد بقتال الترك والغز. واتفق العسكر المصري والخادم وثاروا على الترك فقتلوا منهم جماعة. فركب صلاح الدين وشمس الدولة ودخلا إلى باب القصر وتقاتلا مع مؤتمن الخلافة، وأبلى شمس الدولة بلاء حسناً وقتل الخادم مؤتمن الخلافة وجماعة كبيرة من السودان بعد حروب وقتال عظيم. فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يعتب عليه ويقول له: فأين أيماناتكم! هذا الخادم جاهل، فعل ما فعل بغير أمرنا. فقال صلاح الدين: (**نحن على الأيمان والعهود ما نتغير، وما قتلنا إلا من قصد قتلنا**).

إنهاء الخلافة العبيدية في مصر: واستمر صلاح الدين على ذلك والخطبة للعاضد، وقد ضعف أمره وقوي أمر صلاح الدين. ثم أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد، حتى كانت أول سنة ٥٦٧هـ فكتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة لبني عبيد وأن يخطب بمصر لبني العباس. فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألا يجيبوه ولم يسعه مخالفة أمر نور الدين، وقال: ربما وقعت فتنة لا تتدارك. فكتب الجواب إلى نور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع منه نور الدين وخشّن عليه في القول، وألزمه إلزاماً لا محيد عنه. فوقع ذلك وقطعت خطبة العاضد في أول المحرم سنة ٥٦٧هـ.

فأشبه أمرُ الفاطميين أمرَ العباسيين لما انتقلت الدعوة منهم إلى الفاطميين بني عبيد، فإنه أول من خطب للمعز (معد أول خلفاء مصر) من بني الخطيب عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وجامع أحمد بن طولون، وهذا من باب المكافأة والمجازاة؛ أي: إن الذي خطب لبني عبيد كان عباسياً والذي خطب لبني العباس كان علوياً يقال له: محمد بن المحسن بن أبي المضاء البعلبكي. وأقيمت الخطبة لبني العباس في أول المحرم ٥٦٧هـ، والعاضد مريض، فأخفى عنه أهله ذلك، وقيل: بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعة فلم يتوجه إليه. ومات العاضد في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ، وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته. وندم صلاح الدين على قطع خطبته وقال: ليتني صبرت حتى يموت.

ثم كتب صلاح الدين يخبر الملك العادل نور الدين بإقامة الدعوة العباسية بمصر. فكتب نور الدين كتاباً إلى الخليفة العباسي في بغداد من إنشاء العماد الكاتب الأصبهاني، وفيه:

قــد خطبنــا للمستضـيء بمصـر | نائـب المصـطفى إمـام العصـر
ولـــدينا تضــاعفت نعــم الــ | ـه وجلت عـن كـل عـد وحصـر
واســتنارت عــزائم الملــك العــا | دل نــور الــدين الهمــام الأغــر
هـــو فـــتح بكـــر ودون البرايــا | خصّـــنا الله يـــافتراع البكــر

وصفا الوقت لصلاح الدين وسُمّي السلطان، وصار يُخطب باسمه على منابر مصر، بعد الخيفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود. ومن يوم مات العاضد عظم أمر صلاح الدين واستولى على خزائن مصر واستبد بأمورها من غير منازع. غير أنه كان تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود زنكي.

وكان ابتداء مرض العاضد من أواخر ذي الحجة سنة ٥٦٦هـ. وبنى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مدرسة للشافعية في ٥٦٦هـ، وكان موضعها حبس المعونة، وبنى بها أيضاً مدرسة للمالكية تعرف بدار الغزل، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي القضاء بالقاهرة.

فلما كان ٤ محرم سنة ٥٦٧هـ جلس العاضد في قصره بعد الإرجاف بأنه أثخن في مرضه فشوهد وهو على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحُمّى. وقيل: إن الحُمّى فشت في أعضائه، وأمسك طبيبُه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته وخذله مساعدة عليه للزمان وميلاً مع الأيام. ثم خُطب في ٧ محرم باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي وصُرح باسمه ولقبه وكنيته بمصر.

ومات العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام؛ في يوم الإثنين يوم عاشوراء. وكان لموته بمصر يوم عظيم. وعظُم مصابه على المصريين كثيراً، ووجدوا عليه وجداً عظيماً، ولاسيما الرافضة فإن نفوسهم كادت تزهق حزناً لانقضاء دولة الرافضة من ديار مصر وأعمالها. وجلس صلاح الدين في عزائه ومشى في جنازته، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله.

واستولى السلطان صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره. وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك مما كان قد جمع في طول السنين. فمنه: القضيب الزمرد وطوله قبضة ونصف، والجبل الياقوت الأحمر، والمرة اليتيمية مثل بيض الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر وزنتها أربعة عشر مثقالاً. ومن الكتب المنتخبة بالخطوط النفيسة مئة ألف مجلد. ووجد عمامة القائم وطيلسانه كان البساسيري بعث بهما إلى المستنصر؛ يعني لما استولى البساسيري على بغداد وأسر الخليفة القائم العباسي وخُطب ببغداد للمستنصر من بني عبيد، ثم بعث بعمامة القائم وطيلسانه فأخذوهما خلفاء مصر فاحتفظوا بهما نوعاً من النكاية في بني العباس؛ فهذا شرح قول أبي المظفر عن عمامة القائم والطيلسان. قال: ووجدوا أموالاً لا تعد ولا تحصى.

وأفرد صلاح الدين أهل العاضد ناحية من القصر، وأجرى عليهم جميع ما يحتاجون إليه، وسلمهم إلى الخادم قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم.

ومما وُجد في خزانة العاضد طبل القولنج الذي صنع للظافر وكان من ضربه خرج منه ريح واستراح من القولنج – قال: فوقع الطبل إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره؛ لأنه ضرب عليه فخرج منه ريح فحنق فضربه وكسره.

قال: وفرّق صلاح الدين الأموال التي أخذها من القصر على العساكر وباع بعض الجواري والعبيد، وأعطى القاضيَ الفاضل من الكتب ما أراد، وبعث إلى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهدايا وتحف وطيب ومئة ألف دينار.

وكان نور الدين بحلب، فلما حضرت بين يديه قال: (والله ما كان لي حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر مشار ما أنفقناه على العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتح الساحل وقلع الكفار منه).

وانقضت أيام الخلفاء المصريين بوفاة العاضد، وعدتهم أربعة عشر على عدد بني أمية، لكن أيامهم طالت فملكوا مئتين وثماني سنين، وملك بنو أمية نيفاً وتسعين سنة.

مرسوم الخلافة العباسية بتقليد صلاح الدين سلطاناً لمصر (خريطة طريق لمسيرة صلاح الدين الظافرة):

يصف الإمام جلال الدين السيوطي مجرى الأحداث في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة": (فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر. وأهداه خلعة من النفائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤. فلما كان سنة ٦٥ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٦٦، مات المستنجد، وقام المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس، وقطع الأذان بحيّ على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا شيعة، وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، واستتاب في سائر الأعمال شافعية.

فلما دخل سنة ٥٦٧هـ أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر في أول جمعة من المحرم والقاهرة في الجمعة الثانية، وكان ذلك يوماً مشهوداً؛ والعجب أن أول من خطب للمعز، حين أخذت مصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون؛ وكان أول من خطب لبني العباس هذه النوبة شريف علوي، يقال له: محمد بن الحسن بن أبي الضياء البعلبكي. ولما بلغ الخبر نور الدين أرسل إلى الخليفة المستضيء يعلمه بذلك، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحاً شديداً).

وأرسل أمير المؤمنين الخليفة العباسيّ في بغداد، **المستضيء بأمر الله**، إلى الملك صلاح الدين خلعة سنية، ومعها أعلام سود، ولواء معقود، ففرقت على الجوامع بالشام وبلاد مصر، وكتب له تقليداً؛ أي: رسالة رسمية طويلة فيها التهنئة والنصيحة البليغة بلغة عربية رائعة، رصينة وفيها رؤية إسلامية ثاقبة وخريطة الطريق، كان لها أبلغ الأثر في مسيرة صلاح الدين الأيوبي من بعد؛ وهو الذي لقبه بـ "الملك الناصر". ولخطورة هذه الوثيقة، نقتطف منها مقتطفات كما يأتي: (ونصّها الكامل في "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية" لمؤلفه أبو شامة المقدسي، وفي "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي):

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً، ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى لها زاداً، وحملته أعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ولم يألُ فيه اجتهاداً، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محراباً ولا عرضت عليه جياداً، وحققت فيه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

ثم يصلّي على من أنزلت الملائكة لنصره إمداداً، وأسري به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً. ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقاً وأعواداً، وورثت النور المبين بلاداً، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشاداً؛ وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً.

وإذا استوفى العلم مراده من هذه الحمدلة، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه يأخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسيه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه؛ وليس ذلك إلا قاضية في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإكثار، واشتبه التطويل فيها بالاختصار، وهي التي لا يفتقر واضعها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوادها؛ ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد. وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب... وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها. ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين، ورأت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أوّلهما كذّابين؛ فبمصر منهما واحد تجري أنهارها من تحته؛ ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا سبته. وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم، واتخذوه صنماً ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم؛ فقمت أنت في وجه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد؛ وقلت ليده: تبّت، فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد.

وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمته؛ فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية، وقال هذا هو الخلصة الثانية. فأي مقامك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه. وها هنا فليصبح القلم للسيف من الحساد، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد، ولم يحط بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً، وفخر بك حتى طال فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً، لما كان حده ماضياً.

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً، وما اشتملت عليه رعية وجنداً، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهراً. وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن المدنة، والمراكز المحصنة، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها؛ فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين، وتخلفه في عقبه في الغابرين. وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل، وليست هذه الربوة إلا من ذلك الجبل؛ فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد والفتك عن فضيلة الازدياد. فإياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الإضراب. ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله، ثم لخليفته من بعده، ولا منة للعبد بإسلامه، بل المنة لله بهداية عبده. وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه؛ لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة بمفازة، وفي الدنيا برقم طراز. فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الإسلام شعاراً، وفي الرسم فخاراً، وتناسب محل قلبك وبصرك؛ وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً، ومن جملتها طوق يوضع في عنقه موضع العهد والميثاق، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاق بك إطاقة الأطواق بالأعناق. ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضي لصدرك بالانشراح، ولأملك بالانفساح، وتؤمر معه بمدّ يدك العليا لا تضمها إلى الجناح. وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال: إنها الحسنى وزيادة؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل: هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب. هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة بجعلك إليه حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك. والضنة من

شيم الغيوب؛ وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها؛ وما نقول إلا إنها لك صاحبة وأنت يوسفها، فاحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها، واعمل بها فإن الأعمال بخواتيمها.

واعلم أنك تقلدت أمراً يفتن به تقي الحلوم، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم، وكثيراً ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقسومة بأيدي الخصوم؛ ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار. واعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار، قال النبي ﷺ: **(يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم)**. فانظر إلى هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال، ومثل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها، أليس مصيرها إلى زوال؟!...

فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان؛ وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب.... ومن آكد فروضه أن تمحي السير السيئة التي طالت مدد أيامها، ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها؛ تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غنى للأيدي الغنية إذا كانت ذا نفوس فقيرة؛ وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً، زادها الله محقاً؛ وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولو أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه؛ وهي أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً؛ وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها، وتلحق أسماءها في المحو بإهمالها؛ حتى لا يبقى لها في العيان صورة منظورة، ولا في الألسنة أحاديث مذكورة.

وإذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يداه، وعن الآتي متابعة ظلم وجده طريقاً مسلوكاً فجرى على مداه، فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذرعاً، وانظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها في الآخرة متاعاً. وأحمد الله على أن قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك؛ وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، وتفتقر في سياستها إلى أيد متساعدة؛ ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام، وأولو تدابير السيوف والأقلام؛ وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم والدينار، فما أضل الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان؛ وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك، فاضرب عليه بالأرصاد، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بنقل الأجساد. وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد (الربيع بن زياد الحارثي هو تقي صاحب فتوح، وفد إلى عمر فأعجبته هيئته ونحوه فشكا عمر طعاماً غليظاً يأكله. فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بمطعم طيّب وملبس ليّن ومركب وطيء لأنت. فضرب رأسه بجريدة وقال: والله ما أردت بهذا إلا مقاربتي وإن كنتُ لأحسب أن فيك خيراً. ألا أخبرك بمثلي ومثل هؤلاء، إنما مثلنا كمثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا: أنفقهم علينا. فهل له أن يستأثر عليهم بشيء؟ قال الربيع: لا).

والزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه؛ فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم؛ وهو لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم. ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في الأصحاب، وجيراناً في الاقتراب، وأعواناً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف، ويتولاها بالوطء العنيف؛ ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا الحق في

سؤاله تخلق بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر؛ فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين. ومن سعادة المرء أن يكون ولاته متأدبين بآدابه، وجارين على نهج صوابه؛ وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه.

وبعد هذه الوصية، فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود؛ ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود وتيقظت لنصره والعيون رقود؛ وهي التي تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية تبعتها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه. وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية إفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها؛ وهو يأمرك أن تفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الإملاق؛ فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا. وينبغي لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقاً. وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر؛ وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال. ويتوله جهاد الكافر في مواقف القتال؛ وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته أخاً، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا. ومن صفاته أن لعمل المحبوب بفضل الكرامة، الذي ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق. كل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهي المختص دونها بزينة الخلوق، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان.

ولما جعل الله الجنة له ثمناً وليست لغيره من الأثمان، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى؛ الذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً، ولا تكون للإسلام نعم الجار؛ حتى تكون له بئس الجار. ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار. وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصبحاً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد قصد المستغير لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس؛ فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في رفع التعظيم، الذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر ربته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته. فانهض إليه نهضة...). انتهى

ولما استقل السلطان صلاح الدين بأرض مصر، أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة ٥٦٧هـ. واستولى على القصر وخزائنه وفيها من الأموال ما لا يحصى؛ ووجد خزانة كتب ليس في الإسلام لها نظير، تشتمل على نحو ألفي مجلد، منها بالخطوط المنسوبة مئة ألف مجلد، فأعطاها القاضي الفاضل.

وأخذ السلطان صلاح الدين في نصر السُّنَّة وإشاعة الحق، وإهانة المبتدعة والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين.

ثم تجردت همته إلى الفرنج وغزوهم؛ فكان من أمره معهم ما ضاقت به التواريخ، واستردّ منهم ما كانوا استولوا عليه من بلاد الإسلام بالشام. من ذلك فتح القدس الشريف، بعد أن كان في يد الفرنج... أجلى ما بين الشام ومصر من الفرنج. ثم افتتح الحجاز واليمن من يد متغلبيها وتسلم دمشق بعد موت نور الدين، فصار سلطان مصر والشام واليمن والحجاز.

وتوفي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي في سنة ٥٧٥هـ، وهي السنة التاسعة من سلطنة صلاح الدين على مصر. كان أحسن الخلفاء سيرة، وكان إماماً عادلاً شريف النفس حسن السيرة ليس للمال عنده قدر، حليماً شفيقاً على الرعية

أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته. وكانت وفاته ببغداد في ثاني ذي القعدة عن 36 سنة، وكانت خلافته 9 سنين. وهو الذي عادت الخطبة باسمه في الديار المصرية والبلاد الشامية والثغور، واجتمعت الأمة على خليفة واحد وانقطعت في أيامه دولة بني عبيد الفاطميين الرافضة من مصر وأعمالها؛ ولله الحمد. وأمه أم ولد مولدة.

تثبيت سلطنة صلاح الدين، مقتطفات من "النجوم الزاهرة":

السنة الثالثة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٦٩هـ): فيها كتب صلاح الدين لنور الدين يستأذنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، فسار إليها وكان فيها عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين، وكان ظالماً فاتكاً فحصره شمس الدولة توران شاه في قصره بزبيد مدة حتى طلب الأمان فأذنه، فلما نزل إليه قيده ووكل به، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن. يقال: إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة واستولى على أموالها وذخائرها وقتل عبد النبي المذكور.

وفي هذه السنة ٥٦٩هـ توفي البطل نور الدين محمود في الشام، وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أصوب الآراء وأحسنها؛ لتكون مصر والشام فكي كماشة(نزّاعة) على الصليبيين. وفي السنة نفسها ٥٦٩هـ اكتُشفت مؤامرة التواطؤ العبيدي – الصليبيّ الخطرة:

التواطؤ العبيدي الفرنجيّ: وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيدية: مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن، واتفقوا مع السودان، وكاتبوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصلب عمارة اليمني. وعمارة اليمني هذا هو أكبر شاعر عرفته مصر في الحقبة الأخيرة من العصر العبيدي الفاطمي، وكان دائم التزلف والنفاق. وكان ذا حظوة عند الوزير الفاطمي طلائع بن زريك، وكتب فيه أجمل قصائده، حين مثل أمام الخليفة العبيدي الفائز ووزيره طلائع، فقال في مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم

ثم قال:

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يداً لصنيع السيف والقلم

وبمقتل الوزير طلائع وابنه، صدُم عمارة اليمني، لكنه سرعان ما نقض ودّه ووفاءه لهما، فصار يمجد شاور بقوله:

صحت بدولتك الأيام من سقم ... وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزيك وانصرمت ... والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن (صالحهم) يوماً و(عادلهم) ... في صدر ذاك الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة ... بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم ... من كان مجتمعاً من ذلك الرَّخم
ولم يكونوا عدو أزل جانبه ... وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي سواك سوى ... تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولما عاد شاور إلى السلطة بعد ٩ أشهر، شبهها بأشهر الحمل والولادة في رحم الأحداث، فقال:

حملت بـه الأيـام تسـعة أشـهر ... حتى جعلـن لـه جمـادى مولـداً

وقال في مدح الوزير شاور شعراً يتحدى الزمان أن يأتي بمثله (أي مثل هذا الخائن شاور!):

شجر الحديد من الحديد وشاورٌ ... من نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفّر

ثم قضى صلاح الدين على عبثه، ولم يجد عنده حظوة، فكتب يسبُّ الدهر ويرثي زوال العبيديين، ويتحسر على أعطياتهم:

رميت يا دهر كفّ المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
قدمت مصر فأولتني خلائقها ... من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن ... كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما ... رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة ... وخلة حرست من عارض الخلل
مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد ... من الأعادي ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

وله هذه الأبيات:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب ... وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيداً ضعيفاً فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدّ قدْماً عرشَ بلقيس هُدهُد ... وخرب فأر قبل ذا سد مأرب

ومن ثم ألقى قصيدة أشاد بها بمناقب صلاح الدين، ولكنها كانت مدحاً مطوياً على الذمّ مغلفاً بالهجاء، ممتلئة بالغمز واللمز، كمن يدسّ السمّ بالعسل، راجياً صلاح الدين أن يرفق بالفاطميين!! وقيل: إن سبب قتله أنه مدح توران شاه وحرّضه على أخذ اليمن بقصيدة أولها:

لعلم مذ كان محتاج إلى العلم ... وشفرة السيف تستغني عن القلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته ... كما يقول الورى لحماً على وضم
وكان أول هذا الدين من رجل ... سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد الكاتب: اتفقت لعمارة اتفاقات: منها أنه نسب إليه قول هذا البيت فكان أحد أسباب قتله، وأفتى قضاة مصر بقتله. وقيل: إنه لما أمر صلاح الدين بصلبه مروا به على دار القاضي الفاضل فرمى بنفسه على بابه، وطلب الدخول إليه ليستجير به، فلم يؤذن له، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص من العجب

والحقيقة أن عمارة اليمني قد اشترك في مؤامرة مع ذيول الفاطمية، فكاتبوا الفرنجة وحرضوهم على غزو مصر وقتل صلاح الدين، ولكن أحد المشتركين وشى بهم. وقد مال القاضي الفاضل يتشفع في عمارة إلى صلاح الدين، ولكن عمارة ظن أنه يغريه بقتله، فقال للسلطان: مولانا، لا تسمع منه... فإنه عدوّي!!! فغضب القاضي الفاضل وغادر المجلس. وعندئذ قال صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك... وقد قبلنا سؤالك فيه. ثم ساقوه ليشنق على باب بيته، فطلب أن يمروا على بيت القاضي الفاضل واسمه عبد الرحيم. وكان جالساً على باب بيته، فلما رأى عمارة مخفوراً، دخل بيته وأغلق بابه، فصاح عمارة بآخر أشعاره:

عبد الرحيم قد احتجب	إن الخلاص من العجب

وكان علي بن نجا، الواعظ الدمشقي الحنبلي، صاحب حظوة عند نور الدين ثم عند صلاح الدين، هو الذي نمّ على عمارة اليمني فصُلب، وكانت لابن نجا مكانة بمصر من قبل مجيء صلاح الدين، (فهو يعرف عمارة جيداً)، وهو الذي أنشد من على منبره للوزير طلائع بن رزيك الذي قاتل الفرنجة في صور:

مشيبك قد قضى شرخ الشباب	وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى	وما ناب النوائب عنك ناب
فكيف بقاء عمرك وهو كنز	وقد أنفقت منه بلا حساب؟

وأنشد تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني، الذي مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين، وأراد عودة دولة الفاطميين، فظهر على أمره فصُلب مع من صلب في سنة ٥٦٩هـ:

عمارة في الإسلام أبدى خيانةً	وحالف فيها بيعةً وصليبا
فأمسى شريك الشرك في بغض أحمد	وأصبح في حبّ الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته	تجد منه عوداً في النفاق صليبا

وملك السلطان صلاح الدين دمشق من الملك الصالح، ابن الملك العادل نور الدين محمود، في السنة الرابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧٠هـ)؛ وذلك لأنه صبي لا يستقل بالملك. وكان أخذه إلى دمشق بمكاتبة القاضي كمال الدين الشهرزوري وابن الجاولي والأعيان. وكان بالقلعة ريحان الخادم فعزم على قتاله، فجهز إليه عسكر دمشق وركب صلاح الدين من الجسور فالتقاه أهل دمشق بأسرهم وحدّقوا به، فنثر عليهم الدراهم والدنانير ودخل دمشق فلم يغلق في وجهه باب ولا منعه مانع فملكها عناية لا عنوة.

وتوفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين، وهي سنة ٥٧٧هـ، بمرض القولنج. وكان لما اشتد به مرض القولنج وصف له الحكماء قليل خمر، فقال: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز فلم يقبل، وقال: إن الله تعالى قرب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟! قالوا: لا. قال: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علي فمات ولم يشربه.

وزراء صلاح الدين وكتاب سره ودواوينه:

القاضي الفاضل والعماد الكاتب (وأيضاً بهاء الدين بن شداد الأسدي قاضي القدس بعد فتحها): وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب الأصبهاني؛ وسببه أنه التقى بالقاضي الفاضل ومدحه بأبيات منها:

عاينت طود سكينة ورأيت شم ... س فضيلة ووردت بحر فضائل

ورأيت سحبان البلاغة ساحباً ... ببيانه ذيل الفخار لوائل

حلف الحصافة والفصاحة والسما ... حة والحماسة والتُّقى والنائل

بحر من الفضل الغزير خضمّه ... طامي العباب وما له من ساحل

في كفه قلمٌ يعجل جريه ... ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجل

أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً ... فعرفت أني في فهاهة باقل

فدخل القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال: غداً تأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد الكاتب. فقال: (ما لي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا استكتبت غيرك تحدّث الناس). فقال الفاضل: (هذا يحل التراجم وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد مقامي، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية فاستكتبه).

وبرع القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) في منصبه كاتباً لديوان الجيش، فتولى رئاسة ديوان المكاتبات الفاطمي سنة (٥٦٦هـ-١١٧٢م)، وتمكن من إقامة علاقات وثيقة بكبار رجال الدولة في مصر، وخاصة الأيوبيين الذين بدأ نفوذهم يتوسع على حساب الفاطميين. وقد أسهم القاضي الفاضل مع الأيوبيين في (إزالة الدولة الفاطمية)، ولعل سبب ميوله إلى الأيوبيين يكمن في إدراكه رغبة المصريين في مناصرة الأيوبيين لتخاذل الفاطميين في الدفاع عن مصر أمام العدوان الصليبي، وأن الدولة الفاطمية أمست في أيامها الأخيرة ضعيفة، إذ إن إزالتها لم تكن من الصعوبة، ولم ينتطح فيها عنزان (كما يقول ابن الأثير).

إن إسهام القاضي الفاضل في تغيير الأوضاع السياسية في مصر كانت من القضايا الخطرة في حياته السياسية والعلمية؛ لأنها فتحت له آفاقاً جديدة بل أصبحت منزلته عالية ومكانته رفيعة، فلقد توسّم فيه صلاح الدين بفراسته تميّزه الواضح. فقد ذكر العماد الكاتب أنه كان (صاحب القرآن، العديم الأقران، وحيد الزمان العظيم الشان)، وقد وصفه البغدادي بأنه (كان ضعيف البنية رقيق الصورة، له حدبة يسترها الطيلسان... نزيهاً عفيفاً قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد). وأصبح القاضي الفاضل الرجل الثاني في دولة صلاح الدين إذ (تمكن منه غاية التمكن)، وكان صلاح الدين (لا يصدر أمراً إلاّ عن مشورته)، لذلك أشاد ياقوت الحموي بحنكته السياسية حينما قال: (إن الدنيا تدبر برأيه). وعلى الرغم من المبالغة في هذا القول، نرى أنه دليل يرجع عقلية القاضي الفاضل ونجاحه في الإسهام في قيادة الدولة الأيوبية.

وبناءً على ذلك اعترف صلاح الدين صراحة أمام الناس بالجهود الكبيرة التي بذلها القاضي الفاضل في تثبيت أركان دولته، فقد قال مثمناً تلك الجهود: (لا تظنوا ملكتُ البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل). أما نشاطه العلمي وإبداعاته في فنون صناعة الإنشاء والكتابة، فمن المفيد أن نذكر النصوص التي ذكرها المؤرخون والأدباء في ترجماتهم له، فقد أطلق عليه عمارة اليمني أنه "شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" (وعمارة هو الذي تواطأ مع الفرنجة وأفتى العلماء بصلبه فصُلب).

وجعل العماد الكاتب نزعته الأدبية نموذجاً جديداً في صناعة الكتابة لعصره فوصفها بالشريعة (المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع)، وأكد العماد أن القاضي الفاضل هو (ربُّ القلم والبيان واللسن واللسان)، شأنه شأن كبار رجال عصره في تشييد المدارس ودور الحديث والمكاتب والربط والزوايا؛ فقام بتشييد

مدرسة في القاهرة وافتتح التدريس فيها سنة (٥٨٠هـ-١١٨٤م)، وقد وصفت هذه المدرسة بأنها من أجلّ مدارس مصر التي تُدرس فيها العلوم الشافعية والمالكية، وألحق بها مكتباً لتعليم الأيتام، واحتوت هذه المدرسة على مكتبة تضم مجاميع كبيرة من الكتب. ويظهر أن أكثر هذه الكتب اشتراها القاضي الفاضل من خزانة القصر الفاطمي عند انقراض الدولة الفاطمية، وذكرت المراجع أنها كانت تحتوي على مئة ألف كتاب مجلد إضافة إلى مكتبته الخاصة التي قدّر عدد كتبها بمئة وعشرين ألف كتاب مختلفة الأنواع. وقد خصص القاضي الفاضل لها نُسّاخاً لا يفترون، ومجلدين لا يسأمون؛ لغرض إدامتها وتوزيعها على طلبتها، وهذا يعكس الجوّ الثقافي العلمي المتقدم الذي عاصره طلبة القاضي الفاضل.

ولم يفقد القاضي الفاضل مركزه السياسي والإداري إلا بعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ-١١٩٣م). فقد اشتدّ الصراع السياسي بين أبناء أسرته فلم يرُق للقاضي الفاضل مقامه في دمشق، فذهب إلى مصر تاركاً وراءه السياسة والحكم. ولعل هذا من أسباب وفاته في يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول سنة (٥٩٦هـ-١١٩٩م) (وهو اليوم الذي دخلت فيه جيوش الملك العادل مصر)، ودُفن في سفح المقطم. وكان لوفاته وقع شديد عند العماد الكاتب الذي عبر عنه بقوله: (في هذه السنة تمّت الرزيّة الكبرى والبليّة العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء). ووصفه النويري بأنه (كاتب الشرق والغرب).

محاولة الحشاشين الباطنية اغتيال صلاح الدين: وبينما كان يحاصر حلب يوم ٢٢ أيار/مايو ١١٧٦م حاول الحشاشون اغتياله، فأجروا محاولتين كانت ثانيهما وشيكة إلى حد أنه أصيب. وبعد إخفاق محاولة الاغتيال، فرض صلاح الدين نفوذه على الجزيرة وشمال العراق والموصل وسنجار وماردين وديار بكر، وبسط نفوذه على الحجاز.

يقول أبو شامة المقدسي في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين": (لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج، أيقن من هم تحت سلطتهم بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، ونصبوا الحبائل للسلطان. فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على البتاع، فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاؤوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جا ولي، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا يترك الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشيّ شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بها على رأس السلطان، فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان بذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضعه على الأرض وركبه لينحره؛ وأدرك من كان حول السلطان دهشة أخذت عقولهم. وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل: إنه كان حاضراً، فاخترط سيفاً وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح علي: (اقتلوه واقتلوني معه)، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخركاه، ونصب له في وسط سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولايدخل عليه إلا من يعرفه. وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر).

يقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) تحت السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧١هـ): (وفيها وثبت الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو على أعزاز. إذ جاءه ثلاثة في زي الأجناد فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرحه وخدشت السكين خده، وقُتل الثلاثة. فرحل صلاح الدين إلى حلب فلما نزل بها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود (الصبي) أخته خاتون بنت نور الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين، فسألته أن يرد عليهم أعزاز فأعطاها إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن من حماه وما فتحه إلى مصر له وباقي البلاد الحلبية للصالح. وفيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق في سلخ ذي الحجة).

زواج صلاح الدين من أرملة نور الدين: في السنة السادسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر، وهي سنة ٥٧٢هـ، تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر زوجة الملك العادل نور الدين محمود؛ وكانت بقلعة دمشق.

وهكذا عضّد السلطان صلاح الدين مُلكه بالزواج من أرملة نورالدين، ثم بسط نفوذه على حلب والموصل عامي ١١٧٦، و١١٧٧م على التوالي.

تمرّد السودان: وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له: "الكنز" جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية. وكان بعض أهل مصر يؤثرون عودهم وانضافوا إليه، فسيّر صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل، فساروا والتقوا به وكسروه في السابع من صفر سنة ٥٧٠هـ.

وكانت في ٥٧٢هـ فتنة مقدم السودان من صعيد مصر سار من الصعيد إلى مصر في مئة ألف أسود ليعيد الدولة المصرية الفاطمية فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر وأبو الهيجاء الهكاري وعز الدين موصك بمن معهم من عساكر مصر والتقوا مع السودان، فكانت بينهم وقعة هائلة قتل كبير السودان المذكور ومن معه. قال الشيخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان: "يقال: إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً وعادوا إلى القاهرة. ثم بعد ذلك استقرت لصلاح الدين قواعد الملك.

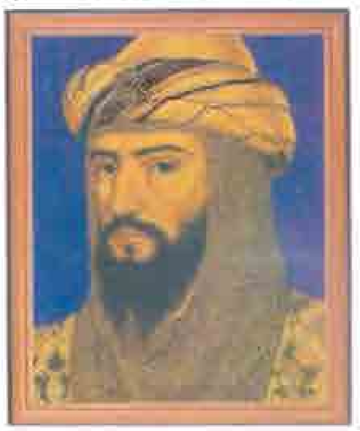
وأبطل صلاح الدين في ٥٧٢هـ المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجدة مما يحمل في البحرة وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تحمل إليه في البحر فتفرق في أهل الحرمين. وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشافعي بالقرافة وتولى الشيخ نجم الدين الخبوشاني عمارتها. وعمر البيمارستان في القصر ووقف عليه الأوقاف. وبنيت قلعة الجبل بالقاهرة في عام ٥٧٧هـ (قلعة صلاح الدين في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين).

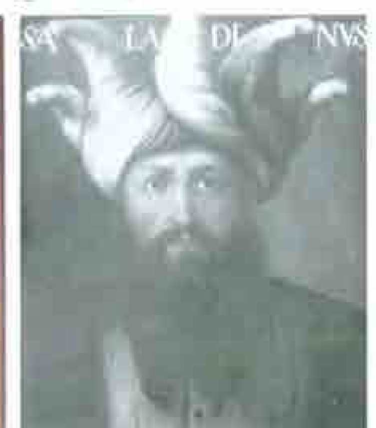
حماية الحرمين الشريفين: خرج صلاح الدين الأيوبي بعساكر العاضد إلى الشام (حيث مملكة القدس) في جمادى الآخرة عام ٥٦٦هـ (١١٧٠-١١٧١م)، فأغار على غزة وعسقلان والرملة وعلى مقاطعتي شرق الأردن، وقلاع الشوبك والكرك التي كان الصليبيون يسيطرون عليها. ثم مضى إلى مدينة أيلة (إيلات) وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج، والتقاه الأسطول في البحر، فافتتحها وقتل من فيها وشحنها بالرجال والعدد، وكان على درب

الحجاز منهم خطر عظيم. وقطع صلاح الدين بذلك خطوط التواصل بين مملكة القدس وبين البحر الأحمر، فقد جعل إيلات مقرّ قيادة جنده وأسطوله البحري؛ لحماية الحجاز (مكة والمدينة) من غارات الصليبيين، ولتأمين سلامة الحجيج إلى بيت الله الحرام. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر في جمادى الآخرة (انظر فيما سيأتي).

الحرب مع الصليبيين: بينما كان صلاح الدين يعمل على بسط نفوذه على عمق سوريا فقد كان غالباً يترك الصليبيين لحالهم مرجئاً المواجهة معهم، وإن كانت غالباً لم تغب عنه حتميتها، لكنه كان عادة ما ينتصر عندما يقع مواجهة معهم. وكان الاستثناء هو معركة مونتجيسارت في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١١٧٧م، إذ لم يُبدِ الصليبيون مقاومة، فلم يوقف صلاح الدين قوات جنوده من السعي وراء الغنائم فتشتت، فهاجمته قوات بولدوين السادس ملك أورشليم القدس وأرناط وفرسان المعبد وهزمته. لكن صلاح الدين عاد وهاجم الإمارات الفرنجية من الغرب، وانتصر على بولدوين في معركة مرج عيون في ١١٧٩م، وانتصر أيضاً في ١١٨٠م في موقعة خليج يعقوب، ثم كانت الهدنة بين الصليبيين وصلاح الدين في ١١٨٠م.

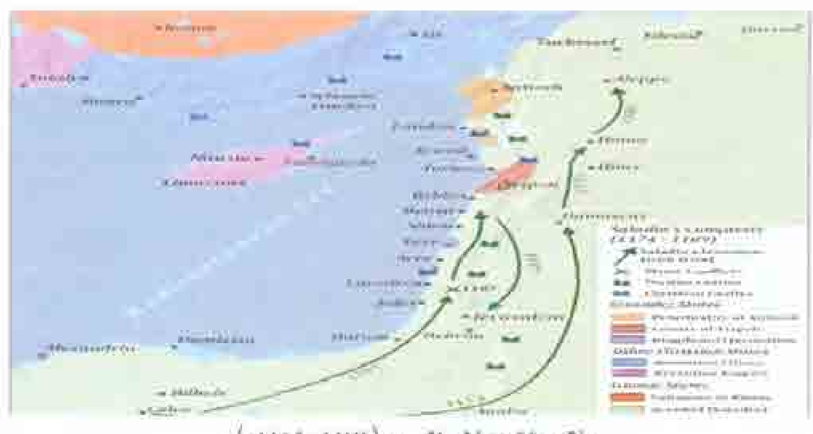
لكن غارات الصليبيين عادت فحفزت صلاح الدين على الرد. فقد كان أرناط يتحرش بالتجارة وبالحجّاج المسلمين بواسطة أسطول له في البحر الأحمر، فبنى صلاح الدين أسطولاً من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت في ١١٨٢م، وعندها هدد أرناطُ بمهاجمة مكة والمدينة، حاصر صلاح الدين حصن الكرك معقل أرناط مرتين في عامي ١١٨٣ و١١٨٤م، فردّ أرناط بكل خبث بمهاجمته لقوافل حجاج المسلمين الآمنين العزّل من السلاح لإحرامهم عام ١١٨٥م.





صورتان تفصيليتان لملامح المجاهد الزاهد البطل السلطان الناصر "صلاح الدين الأيوبي"
حسب رؤية من شاهده من صليبيي أوروبا في العصور الوسطى
(لاحظ الشبه بين الصورتين على الرغم من اختلاف العمر بينهما
وانظر سماحة وجهه، وطول لحيته، وعمامته التي شبهها الرسّام بتاج ملوك أوروبا)

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى: (له من الفتوحات التي خلصها من أيدي الفرنج قلعة أيلة، وطبريا، وعكا، والقدس، والخليل، والكرك، والشوبك، ونابلس، وعسقلان، وبيروت، وصيدا، وبيسان، وغزة، ولد، وحيفا، وصفوريا، ومعليا، والفولة، والطور، وإسكندرونة، وهفوس، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وجبل، ونبل، ومعليكه، وعفر بلا، واللجون، ولستمة، وباقون، ومجدل يابا، وتل الصافية، وبيت نوبا، والطرون، والجيب تبيرا، وبيت لحم، وريحاء، وقرا، واحصر الدير، ودمرا، وقلقيليا، وصرير الزيت، والوعر، والهرمس، وتفليسا، والعازريا، وتصرع، والكرك، ومجدل، والحار غير في جبل عاملة، والشقيف، وسبسطيا ويقال: بها قبر زكريا، وجبيل، وكوكب، وأنطرطوس واللاذقية، وبكسرائيل، وصهيون، وجبلة، وقلعة العيد، وقلعة الجماهرية، وبلاطنس، والشغر، وبكاس، وسمر سامية، وبزرية، ودربساك، وبغراس، وصقد. وله مصافات يطول شرحها.



فتوحات صلاح الدين (١١٧٤-١١٨٩م).

وافتتح كثيراً من بلاد النوبا من يد النصارى، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها، وأكثرها ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، وبنى المدارس والخوانق، وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء، مع الدين المتين والورع والزهد والعلم، وكان يحفظ القرآن والتنبيه والحماسة. وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم التي هي الآن دار السلاطين (تسمى اليوم قلعة صلاح الدين)، ولم يكن للسلاطين قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة. وفتح بلاد المسلمين حران، وسروج، والرها، والرقة، والبيرا، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وملك حلب، والمواريخ، وشهرزر، وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبها تحت طاعته. وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس. ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك الغرب بأسره، ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم. وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولا لصاحب هزل عنده نصيب. وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن. وكان رقيق القلب جداً.

ورحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفي، ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ. ومن صنائع السلطان صلاح الدين أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حُبس. وقد كان الخليفة المستضيء أرسل إليه في سنة أربع وسبعين خلعاً سنية، وزاد في ألقابه "معز أمير المؤمنين". ثم لما ولي الخليفة الناصر في سنة ست وسبعين أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه في سنة اثنتين وثمانين يعتبه في تلقيبه بالملك الناصر، مع أنه لقب أمير المؤمنين، فأرسل يعتذر إليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء، وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب، فهو لا يعدل عنه، وتأدب مع الخليفة كل الأدب). انتهى

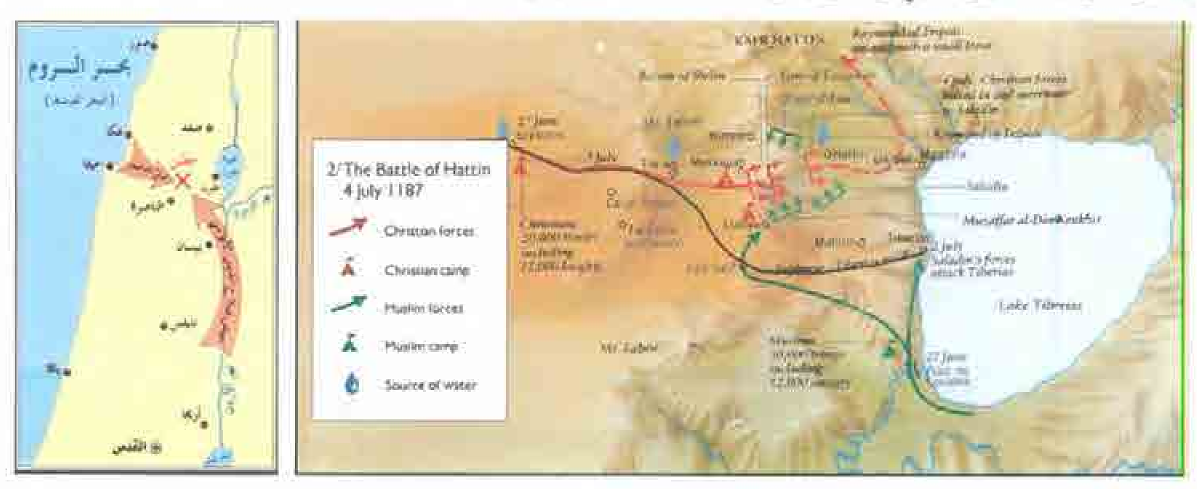
موقعة حطين على أرض فلسطين (الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ-٤ تموز ١١٨٧م):

دخل الصليبيون القدس في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ الموافق ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م وقاموا بذبح أهلها من المسلمين واليهود رجالاً ونساءً وأطفالاً، وقتلوا ما بين ٦٠ ومئة ألف. وقد هزت هذه الهزيمة المسلمين في شتى بقاع الأرض. وبعد نحو قرن من الزمان وضع صلاح الدين خطة حربية محكمة، وأحسن اختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة المنتظرة، فتقدمت الجيوش تحت قيادته من الشرق نحو فلسطين وبدأ بمحاصرة مدينة طبريا، وهي مهمة لدى الصليبيين، ثم أسرع واستولى عليها، وأحاط بها من كل جانب، وأحكم قبضته على مصادر المياه في المنطقة كلها. عندئذ تجمعت جيوش الصليبيين وحاولت مهاجمته والتقدم لاسترجاع طبريا. وهذا ما أراده صلاح

الدين، فقام على الفور بمحاصرة القوات الصليبية في وادي ضيق بين جبلين ومنعهم من الوصول إلى خزانات المياه، إذ دارت المعركة في ٣ تموز ١١٨٧م في فصل الصيف الشديد الحرارة في هذه البقعة من فلسطين، والصليبيون في الحديد، وهذا يزيد الطين بلة، وتحركت قوات صلاح الدين في جنح الظلام، وأشعلت النيران حولهم في صبيحة اليوم الثاني للمعركة ٤ تموز.

ثم حاصرهم حصاراً محكماً، وأمطرهم رماة صلاح الدين من خلال الدخان الذي أعمى أبصارهم بوابل من السهام (٤٠٠ سهم في كل دفعة)، وهذا زاد في جهدهم وعنائهم. ثم فتح لهم ثغرة ضيقة للاندفاع منها إلى الماء وهم غاية في العطش، فاستطاعت قواته أن تهجم عليهم من كل جانب وتحصدهم حصداً، ودارت معركة حامية بين الطرفين وانتصر صلاح الدين نصراً مبيناً على جيوش الصليبيين. وكانت هزيمتهم في حطين بداية النهاية لاحتلالهم الشرق الإسلامي.

ولنترك ابن تغري بردي يصف وقعة حطين في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة": (وقعة حطين المباركة على المسلمين: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت واجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوت الحصر، وكان قد بلغه أن العدو اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفوريا بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل طبريا على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج. فلما بلغهم نزوله في الموضع المذكور لم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر. فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبريا وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونزل طبريا وهاجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما فيها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة ممتنعة بمن فيها.

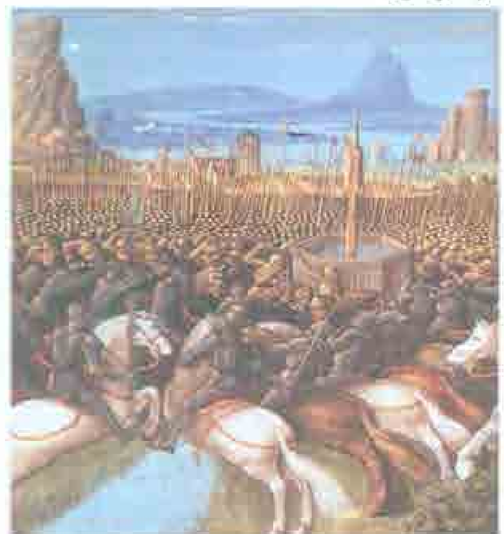


من موقعة "حطين" الفاصلة إلى تحرير القدس يقع موقع "حطين" قرب مواقع المعارك الفاصلة في التاريخ: اليرموك (على نهر اليرموك)، وعين جالوت (قرب بيسان)

ولما بلغ العدو ما جرى في طبريا قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبريا من يحاصرها ولحق بالعسكر والتقى بالعدو على سطح جبل طبريا الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر. ثم حال الليل بين العسكرين فناما على المصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال واشتد الأمر ودام القتال حتى لم يبق إلا الظفر. ثم حال الليل بينهم وناما على المصاف وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد.

وأصبحوا من الغد، فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: **الله أكبر**، وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.

ولما أحس الملك القومص (الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس) بالخذلان هرب في أوائل الأمر وقصد جهة صور، فتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام وحملوا عليهم بالسيوف وسقوهم كأس الحمام وانهزمت طائفة منهم، فتبعهم المسلمون يقتلونهم واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام؛ فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش فاستسلموا للأسر خوفاً من القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون. وكان ممن أسر من مقدميهم الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) وأخوه الملك والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبريا ومقدم الديوية (أي فرسان الهيكل). قال ابن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً ومعه نيف وثلاثون أسيراً ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان. ثم إن الملك القومص الذي هرب في أول الوقعة وصل إلى طرابلس وأصابه ذات الجنب فهلك.



معركة حطين أو قرنا حطين (أي وادي حطين بين الجبلين) عام ١١٨٧، التي قلبت موازين القوى لصلحة المسلمين ضد الصليبيين. لاحظ سيطرة المسلمين (أصحاب الدروع السوداء) على المياه، ومنع الصليبيين (ذوي الدروع الصفراء والرايات) من الوصول إلى المياه، وتطويقهم، وإبادة حضرانهم.

وأما مقدم الأسبتار والديوية فقد قتلهما السلطان صلاح الدين، وقتل من بقي من أصحابهما حياً. وأما البرنس أرناط فإن السلطان كان نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر إليه بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الصلح الذي بينه وبين السلطان، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ، وبلغ ذلك السلطان فحملته حمية دينه على أن أهدر دمه.

ولما فتح الله عليه بالنصر جلس بالدهليز: يعني الخيمة، فإنها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالجهاد. وعُرض عليه الأسرى وصار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله عليه، و شخص الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول السلطانُ الملكَ جفري (يقصد غي لوزنيان) شربة من جلاب وثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس، ثم قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته. وأما أنا فما سقيته. فإنه كان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان للترجمان: أنت الذي سقيته.

ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم فاستحضرهم وأقعد الملك في دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط (أي رينو دو شاتيون) وأوقفه بين يديه وقال له: (ها أنا أنتصر لمحمد منك). ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسلّ النيمجاة فضربه بها فحلّ كتفه، وتمّم قتله من حضر، وأُخرجت جثته فرميت على باب الخيمة.



السلطان الناصر صلاح الدين بعد انتصاره في معركة حطين،
وهو في خيمته يبتّ في أسراه الصليبيين، وفيهم ملكهم غي لوزنيان



قتل أرناط (أي رينو دو شاتيون) الذي قتل الحجيج
وسبّ النبيّ ﷺ

فلما رآها الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) لم يشك أنه سيُلحقه به، فاستحضره السلطان وطيّب قلبه وقال له: (لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلا أن هذا تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء صلوات الله عليهم)، ثم أمره بالانصراف. وبات الناس تلك الليلة على أتم سرور.

يقول العماد الكاتب في هذه الواقعة قصيدة طنانة منها:

حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

كسرتهم إذ صحّ عزمك فيهم ... ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا

بواقعة رجّت بها الأرضُ جيشهم ... دماراً كما بُسّت جبالهم بسّا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رمسا)

حطين فاتحة الفتوح:

لقت معظم حاميات الصليبيين حتفها بعد اشتراكها في حطين. ثم رحل السلطان بعد أن تسلم **طبريا** ونزل على **عكا** في يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ، وأخذها واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين: وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع؛ لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع.

ثم سار السلطان من عكا ونزل على **تبنين** يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فحاصرها حتى أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى المذكور عنوة. ثم رحل عنها إلى **صيدا** فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها. ثم رحل عنها وأتى **بيروت** فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى حتى أخذها في يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى.

ولما فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل بها... فأتى **عسقلان** ونزل بها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. وأقام بها إلى أن تسلم أصحابه مدينة **غزة وبيت جبريل والنطرون** من غير قتال. وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين ٣٥ عاماً.

ولما تسلم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك واجتمع إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه، منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه ﷺ بقوله: «**من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه**».

ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر كتب إلى الوزير ببغداد على يد شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، الذي خطب أول شيء بمصر لبني العباس بإشارة السلطان صلاح الدين وكان الكتاب من إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان مما فيه: (وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشاماً، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراماً، وأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها صماً وعمياناً، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة؛ وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ بهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً. وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن السير إليهم بنائم). (النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جزء ٢)

تابع صلاح الدين تحرير البلاد من الفرنجة، حتى لم يبق معهم من المدن المنيعة سوى **صور** التي صارت مكان تجمعهم **وانطاكيا وطرابلس**. ولقد حدث ذلك في عام ونصف، وهي مدة قياسية. وقبيل فتح القدس، كان صلاح الدين قد استعاد كل المدن تقريباً من الصليبيين، ما عدا صور التي كانت المدينة الوحيدة الباقية في يد الصليبيين ومن الناحية الإستراتيجية ربما كان من الأفضل لصلاح الدين فتح صور قبل القدس؛ لكون الأولى موقعها على البحر تشكل مدخلاً لإمدادات الصليبيين من أوروبا، لكنه اختار البدء بالقدس؛ بسبب أهميتها الروحية لدى المسلمين.

وبمجيء عام ٥٨٦هـ-١١٨٩م، لم يبْقَ في أيدي الصليبيين من كل أرض سوريا وفلسطين سوى صور وأنطاكيا وطرابلس وبعض مدن وقلاع صغيرة مبعثرة هنا وهناك. والحق أن هذه الأماكن الساحلية التي استهان المسلمون بها وتركوها في أيدي الصليبيين كانت سبباً في كثير من المتاعب للدولة الإسلامية بعد ذلك، فقد تجمع فيها الصليبيون الفارّون من الأماكن الأخرى، وقاموا بمهاجمة البلاد الإسلامية المجاورة، واستولوا على بعضها، وساعدوا الحملات الصليبية الثالثة التي جاءت من الغرب وكبدت المسلمين خسائر فادحة.

كانت صور في ذلك الوقت تحت إمرة كونراد أمير مونتفرات الذي حصنها فصمدت أمام حصارين لصلاح الدين. ثم أطلق صلاح الدين سراح غي دي لوزنيان وأعاده إلى زوجته سيبيلا ملكة أورشليم السابقة، فلجأ أولاً إلى طرابلس ثم إلى أنطاكيا، وحاولا عام ١١٨٩م استعادة صور، لكن كونراد حاكمها رفض دخولهما؛ لأنه لم يكن يعترف بهما بعد فتح المسلمين القدس، فذهب لوزنيان لحصار عكا ومن ثم جاءته إمدادات الحملة الصليبية الثالثة، فاستولوا عليها.

فتح القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ:

وكان نزول السلطان على القدس في يوم الأحد ١٥ من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، ونزل بالجانب الغربي (فاتخذ صلاح الدين جبل الزيتون مركزاً لجيوشه) وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان.

ثم انتقل السلطان إلى مصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة ٢٠ من رجب ونصب عليها المجانيق وضايق البلد بالزحف والقتال، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى العدو ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم، فاستكانوا لطلب الأمان، وسلموا المدينة في يوم الجمعة ٢٧ من رجب ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم. فيسّر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ.

وكان فتحاً عظيماً شهده من العلماء خلق ومن أرباب الحرب والزهد عالم كثير، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير. وصُليت فيه الجمعة يوم فتحه، ونُكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان الفرنج قد استولوا على القدس -بعد فتحه الأول في زمن عمر- في يوم الجمعة ٢٣ من شعبان سنة ٤٩٠هـ في خلافة المستعلي أبي القاسم أحد خلفاء مصر من بني عبيد، وكان من وزارة بدر الجمالي بديار مصر؛ فكون القدس أقامت بيد الفرنج نيفاً وتسعين سنة من يوم احتلاله في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرة ثانياً. ولله الحمد.

قال ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل ٢٠ ديناراً وعن كل امرأة ٥ دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً. وأُفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً.

وأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال. ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه وهي مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبي شيء؛ وكان يقارب مئتي ألف دينار أو عشرين ألفاً.

وعلى عكس ما فعل الصليبيون عند احتلالهم القدس وقيامهم بارتكاب مذابح ضد السكان دون تمييز بين المسلمين أو النصارى، الذين كانوا يعيشون جنباً الى جنب قروناً عديدة تحت راية الحضارة الإسلامية والدين

الإسلامي الحنيف، فقد عفا صلاح الدين عن الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، وقدّم لهم العون والمساعدة التي تبلغهم بلادهم لمن أراد العودة منهم، وأمّن من رغب في البقاء.



فتح مدينة القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ
وتسليم الصليبيين سلاحهم وخروجهم من القدس صاغرين بالفدية.

رحمة صلاح الدين:

- ووفى المسلمون لهم بوعد الأمان، وكان ضمن من خرجوا البطريرك الأكبر يحمل أموال البِيَع (الكنائس) وذخائر المساجد التي كان الصليبيون قد غنموها في فتوحاتهم. وفي هذه الأثناء، قال بعض المسلمين لصلاح الدين: إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين! فأجاب صلاح الدين: الإسلام لا يعرف الغدر، وقد أمّنّا وعلينا الوفاء. وخرج الرجل بهذه الأموال.

- قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده، ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجداً شديداً، واشتكت إلى ملوكهم: فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها، فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفاً حتى جيء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها مكرمة

- ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين وهن يغادرن بيت المقدس: "أيها السلطان! لقد مننت علينا بالحياة، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك؟! وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعي والمعاش؟! أيها السلطان! هَبْ لنا أزواجنا وأولادنا، فإنك إن لم تفعل أسلمتنا إلى العار والجوع". فتأثر صلاح الدين بذلك، فوهب لهن رجالهن. هذا؛ لأن صلاح الدين كان مثلاً للرحمة والعفو وحسن الخلق، وكان مثالاً حسناً لمبادئ الحضارة الإسلامية وعظمة الإسلام.

وفى صلاح الدين وجيوشه بعهد الأمان للصليبيين المغادرين، فلم يغدروا بأحد منهم، خلافاً لفعل الصليبيون من قبل عند دخولهم القدس، ليتبين الفرق الكبير بين تسامح الإسلام والسلوك الحضاري للمسلمين، وبين وحشية الصليبيين وتعصّبهم الديني الأعمى الذي لا يمتّ بصلة إلى الربّ الرحيم. ويصف ذلك جيداً الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد فيقول:

ملكنا فكان العفو منا سجيةً — فلمّا ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحللتمُ قتل الأسارى وطالما — غدونا على الأسرى نمُنّ ونصفحُ
وحسبكم هذا التفاوتُ بيننا — وكلُّ إناء بالذي فيه ينضحُ

وهكذا حرر الناصر صلاح الدين المسجد الأقصى المبارك، وأعاد الأذان والصلاة في ربوع الحرم الإسلامي الثالث في بيت المقدس (المسجد الأقصى المبارك) بعد ٣ أشهر من معركة حطين فاتحة النصر المبين بفلسطين. وقد ارتبط اسم السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي باسم حطين وطبريا بفلسطين، والانتصار التاريخي على الأعداء الصليبيين الذين كانوا يدنسون المسجد الأقصى المبارك، وحولوه إلى أجزاء متناثرة: كنيسة ومساكن وحانات، وإصطبلات ومخازن أعلاف وحبوب، فجاء صلاح الدين الأيوبي بجيشه المسلم، ورشه بماء الورد في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / تشرين الأول ١١٨٧، وأعاد الحق إلى نصابه، وأجبر الصليبيين المحتلين المعتدين على الخروج تحت ظل السيف الإسلامي، ودفع الجزية عن يد وهم صاغرون. وأزال السلطان ما أحدثه الفرنج من الآثار، وهدم ما أحدثوا من الكنائس، وبنى موضع الكنيسة منها مدرسة للشافعية؛ فجزاه الله عن الإسلام خيراً. ولم يهدم القمامة اقتداء بعمر ﷺ الذي لم يهدمها لما فتح بيت المقدس. وقال في ذلك محمد بن أبي أسعد النسابة:

أترى مناماً ما بعيني أبصرُ — القدسُ يُفتح والنصارى تكسرُ
وقمامةٌ قمّت من الرجس الذي — بزوالهِ وزوالها يتطهرُ
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم — يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسرُ
قد جاء نصر الله والفتح الذي — وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها — فاروقها عمر الإمام الأطهرُ

ومن الغرائب أن ابن برجان ذكر في تفسير ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١-٢] أن بيت المقدس يبقى في يد الروم إلى سنة ٥٨٣هـ ثم يغلبون، ويُفتح ويصير دار إسلام إلى آخر الأبد: أخذاً من حساب الآية، فكان كذلك. قال أبو شامة: (وهذا الذي ذكره ابن برجان من عجائب ما اتفق، وقد مات ابن برجان قبل ذلك بدهر، فإن وفاته سنة ٥٣٠هـ. حرر صلاح الدين بيت المقدس ودخلها في ٢٦ رجب سنة ٥٨٣هـ / تشرين الأول أكتوبر ١١٨٧م؛ أي: بعد ثلاثة أشهر فقط من نصر حطين. ولما كان هذا النصر يبدو بعيداً في ظل ما كان يعانيه المسلمون في ذلك الزمان من ضعف، فقد وصفه نائب صلاح الدين، عماد الدين الأصفهاني، بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

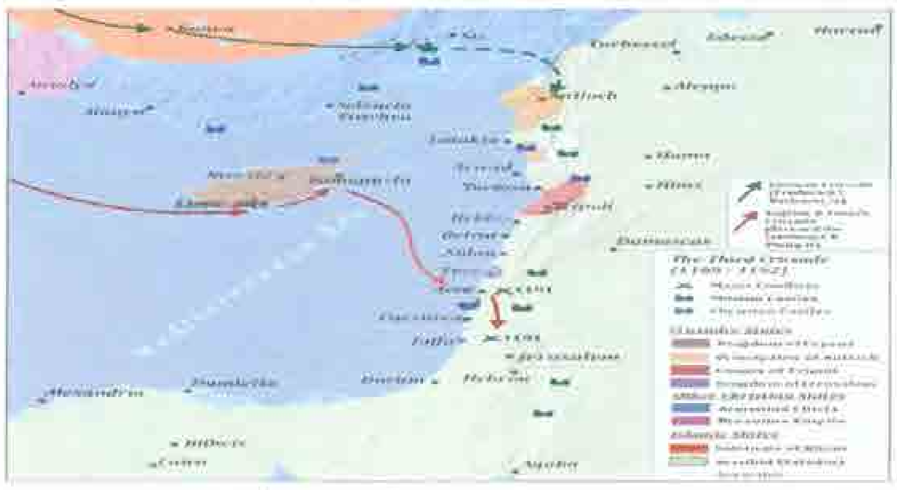
وقال المؤرخ الإنجليزي "لين بول" عن فتح بيت المقدس: (لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس لكان ذلك كافياً لجعله أعظم الفاتحين في عصره، وأكبرهم قلباً، بل لعله كان كذلك في أي عصر من العصور).

وسرعان ما غادر صلاح الدين القدس إلى "صور" يريد تحريرها، فحاصرها، لكن انتصار الأسطول الفرنجي على أسطوله ودخول الشتاء وتعب الجند وتذمر الأمراء جعله يرجئ ذلك إلى الربيع، وفيه بدأ بحصار حصن كوكب القريب من صور عام ٥٨٤هـ؛ وهنا دخل ابن شداد في خدمته، ولقد صرّح ابن شداد أن جميع ما رواه من قبل إنما هو روايته عمن يثق به ممن شاهده، وأن ما سيرويه بعد ذلك مما رآه بعينه عامة.

ملوك أوروبا يقودون الحملة الصليبية الثالثة: ارتجت أوروبا لاسترداد المسلمين لقدس، وأججت انتصارات حطين وسقوط المدن الساحلية نار الحقد في أوروبا، وتصاعدت صيحات إنقاذ الأراضي المقدسة في أرجاء أوروبا. واتجهت

الكنيسة إلى جمع الضرائب للحروب الصليبية، وشجعت الناس على الخروج لقتال المسلمين، وأعلن البابا أن من لم يستطع أن يخرج بنفسه فليتبرع بالمال لكي تغفر له ذنوبه، ثم تطور هذا الأمر إلى إصدار صكوك الغفران لكل من يتبرع لهذه الحرب، أو يخرج فيها. فأرسلت أوروبا الحملة الصليبية الثالثة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عدداً وعدّة، وأعظمها سلاحاً، وتكونت هذه الحملة من ثلاثة جيوش: ألمانيّة وفرنسيّة وإنجليزية. ومُوّلت في إنكلترا وأجزاء من فرنسا بضريبة خاصة عُرفت بضريبة صلاح الدين (بالإنجليزية: Saladin tithe).

قاد الحملة ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الزمان: ريتشارد (قلب الأسد) ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بربروسا ملك ألمانيا الإمبراطور الروماني المقدس، لكن هذا الأخير غرق هو وجيشه في أثناء عبوره نهر أرمينيا بآسيا الصغرى (بفضل الله على صلاح الدين)،



الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م).

فعاد معظم جيشه من حيث أتى، ولم يصل منه إلى الأراضي المقدسة سوى عدد قليل. ووقع عبء الحرب على ريتشارد وفيليب، وتضامّ الجيشان (الإنجليزي والفرنسي) متحالفين على حصار عكا. وقبل وصول هذين الأخيرين، أخذ الصليبيون يجمعون قواتهم، ويحاولون القيام بعمل مضاد لحركات صلاح الدين. فوجهوا قوتهم لتحاصر عكا من البر، وأساطيلهم لتحاصرها من البحر، وكان في استطاعة صلاح الدين أن يقضي على الجيش الصليبي لولا وصول ريتشارد وجيوشه في ذلك الوقت. وقد طال الحصار البحري - البري مدة عامين كاملين من سنة ٥٨٦هـ-١١٨٩م إلى سنة ٥٨٨هـ-١١٩١م ضرب فيها الفريقان أسمى أمثلة الشجاعة، وأخيراً **سقطت عكا في أيدي الصليبيين بعهد الأمان عام ١١٩١م، ودخلها الملك ريتشار قلب الأسد وخان العهود**، فأُعدم فيها ثلاثة آلاف أسير مسلم فيهم نساء وأطفال (بعد إعطائهم الأمان)، وبوحشية لم تعرفها ديار الإسلام إلا من هؤلاء الوحوش الصليبيين.

واشتبكت جيوش صلاح الدين وجيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد في ٧ أيلول/ سبتمبر ١١٩١م في معركة "أرسوف" التي انكسر فيها صلاح الدين، لكن الصليبيين لم يتمكنوا من اجتياح الداخل وبقوا على الساحل، وخابت كل محاولاتهم لغزو القدس، وتصدى صلاح الدين لهؤلاء، وصمد صموداً عظيماً أمام جيوش الصليبيين التي كانت تهدف أساساً إلى احتلال بيت المقدس؛ وهذا اضطر ريتشارد قلب الأسد أخيراً إلى طلب الصلح مع صلاح الدين والرجوع إلى بلاده، ثم لحق به ملك فرنسا. ووقّع ريتشارد في ١١٩٢م معاهدة الرملة مع صلاح الدين؛ بموجبها يكون الشريط الساحلي ما بين يافا وصور تابعاً لمملكة أورشليم الصليبية وتفتح القدس للحجاج المسيحيين المسالمين من دون سلاح.

يوثق ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" حصار عكا: (ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة ٥٨٥هـ. ثم سار السلطان وأتى عكا ودخلها بغتة؛ ليقوي قلوب من بها. واستدعى العساكر من كل ناحية، وكان العدو مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل.

وتكاثر الفرنج واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا.

قال ابن خلكان: قال شيخنا ابن شداد: وسمعت السلطان ينشد — وقد قيل له إن الوخم قد عظم بعكا وإن الموت قد فشا بين الطائفتين: "اقتلاني ومالكاً واقتلا مالكاً معي" وهذا الشعر لعبد الله بن الزبير في الأشتر النخعي، اسمه مالك، وكان الأشتر من أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ.

قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الإمداد من البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، فضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ، خرج من عكا رجل عوّام في البحر ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوة، ضُربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب ومئتي ألف دينار وخمس مئة أسير مجهولين ومئة أسير معينين من جماعتهم وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس — لأنه كان الواسطة في هذا الأمر — أربعة آلاف دينار.



ريتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا، في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، وحصار عكا والاستيلاء عليها

فلما وقف السلطان على الكتب المشار إليها، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أهل الرأي من أكابر دولته وشاورهم فيما يصنع، فاضطربت آراؤه وتقسم فكره وتشوّش حاله، وعزم أن تُكتب في تلك الليلة كتبٌ مع الرجل العوّام الذي قدم عليه بهذا الخبر، ينكر المصالحة على هذا الوجه، وبينما هو يتردد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدو وصلبانه وناره على سور البلد، وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم، ووقع من الصياح والعويل والبكاء ما لا يذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل، والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين وهنٌ شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشرة منازل من سيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة، فجاءه من أخبر أن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب

خرابها أم بقاؤها، فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس وينقطع بها طريق مصر، وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا. ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة ٥٨٧هـ، فسار إليها السلطان في سحر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور).





من الأرشيف: وحشية الملك ريتشارد (المسمى زوراً قلب الأسد!) وهو في عكا يُشرف على مجزرة ٣٠٠٠ أسير مسلم من الرجال والنساء والأطفال، بعد إعطائهم الأمان

العلاقة بين صلاح الدين وريتشارد ملك إنكلترا:

كانت العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد مثالاً على الفروسية والاحترام المتبادلين، على الرغم من الخصومة العسكرية، بل كانت أفضل من علاقة ريتشارد بملك فرنسا. وعندما مرض ريتشارد بالحُمى أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص (عبد اللطيف البغدادي)، وأرسل إليه فاكهة طازجة وثلجاً لتبريد الشراب، وهو إلى جانب كونه فعلاً كريماً يعد استعراضاً للقدرة. وعندما فقد ريتشارد جواده في أرسوف أرسل إليه صلاح الدين اثنين.

وقد أرغم البطل صلاح الدين الصليبيين على البقاء في جزء من الشريط الساحلي، فقد أحبط بصلابة إيمانه جهود الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس. **والقى القائد صلاح الدين كلمة على جنوده حين اقترب الصليبيون من القدس:**

(الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم. وإن هذا العدو ليس له من المسلمين، من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم، فإن وليتم والعياذ بالله، طوى البلاد وأهل العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعُبد الصليب في المساجد، وعزل القرآن عنها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام).

ثم عرض الملك ريتشارد على السلطان صلاح الدين مشروع فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيين والمسلمين العرب، عن طريق تزويج أخت ريتشارد بالعادل أخي صلاح الدين، وأن تكون القدس هدية زفافهما. ولم ينجح مشروع الزواج هذا، ثم إن الرجلين لم يلتقيا قطّ وجهاً لوجه، وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

ورسائل صلاح الدين تمتاز برصانة اللغة العربية وقول الحقّ الذي يقوله بمنتهى الأدب والدبلوماسية: فعندما أرسل ملك الإنجليز رسالة إلى صلاح الدين (عن طريق أخيه الملك العادل) متضمنة مطالبته بـ ٣ مطالب: بتنازل

المسلمين عن القدس، وبالتنازل عن بعض البلاد الشامية، ثم المطالبة باسترجاع صليب الصلبوت المُعظم عندهم، الذي غنمه المسلمون منهم في معركة حطين. فقال فيها:

(إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ما نتنزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم).

فكان جواب صلاح الدين له: (.. **هو عندنا أي بيت المقدس أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف مَن كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز أن نفرّط فيها إلاّ لمصلحة راجحة إلى الإسلام هي أوفى منها**).

صلح الرملة بفلسطين في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ-١٢ أيلول ١١٩٢م: أُبرم صلح الرملة بين السلطان الناصر صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وحددت مدة الصلح بثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وبذلك انتهت الحروب بين الجانبين الإسلامي والصليبي، ومهدت للصلح مفاوضات استمرت خمسة عشر شهراً، قام بها اثنان وربعون وفداً، كان البادئ في طلبها دوماً ريتشارد، وقد اتفق الطرفان على أن تبقى في يد الفرنجة يافا وقيساريا وأرسوف وحيفا وعكا، وتكون عسقلان خراباً، واللد والرملة مناصفة، وأن تكون بلاد الإسماعيلية في هدنة صلاح الدين، أي معه، وأنطاكيا وطرابلس في هدنة الفرنج أي معهم، وحرص صلاح الدين في هذا الصلح على ما يأتي:

١. أن تكون مدته محدودة بثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢. أن يحصر الفرنج في أضيق بقعة ممكنة.

٣. أن تبقى الجبال بيده؛ ليبقى الفرنجة بالأماكن المنخفضة فيكونوا تحت رحمته.

٤. أن ينقذ أكثر ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين.

٥. أن يمنح القدس للحجاج الفرنجة دائماً، بعدما رفض طلب ريتشارد أن يأخذوا موافقته على ذلك؛ ليريهم السماحة والحرية والحضارة الحقة.

٦. أن يستمر في تقوية حصون القدس وغيرها استعداداً لتحرير كامل الأرض المحتلة بعد انتهاء الهدنة.

سعد الجميع بهذا الصلح ما عدا صلاح الدين؛ لأنه لم يره محققاً ما يصبو إليه من تحرير الأرض كاملة من الاحتلال الفرنجي، ولم يوقع صلاح الدين صلح الرملة مع الفرنجة إلا مضطراً؛ بسبب إلحاح أمرائه وقادته وجنوده الذين ما كانوا يملكون همته وقوته وقدرته على المتابعة وصبره وعزيمته، وأما رأيه في استمرار الجهاد، فقد صرح به بقوله: **والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت**؛ لذلك بعد أن اطمأن إلى عودة ريتشارد إلى بلاده أمر بتقوية حصون القدس وغيرها من القلاع، ثم دخل دمشق بعد غياب ٤ سنوات، فاستقبله أهلها استقبالاً فريداً، لم يستقبلوا به أحداً من قبل، ولكن بقاءه فيها لم يطل، إذ مرض مرضاً اشتد به يوماً بعد يوم، وكان ابن شداد القاضي الفضل يلازمانه، وازداد ضعفاً في الليلة الثانية عشرة من مرضه، وهي ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر عام ٥٨٩ هـ، أسلم في فجرها روحه إلى بارئها، وكان يوماً لم يصب المسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين.

وفاة صلاح الدين، وسيرته، وأسرار نجاحه، وتراثه:

توفي رمز البطولة والفروسية الإسلامية في عصره السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بمرض الحمى، بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ - ٤ آذار ١١٩٣م، وعمره (٥٧) سنة، وضريحه - رحمه الله - قرب الجامع الأموي في دمشق (إلى جوار الملك العادل نور الدين زنكي). وقبره ما زال موجوداً حتى الآن في دمشق. وكان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر: ٢٢]، كان قد غاب ثم فتح عينيه وقال: صحيح. وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء سحر يوم الأربعاء، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. ومما قاله الشعراء في رثائه:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبوه مات شخصاً واحداً ... قد عم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تنشر بعدما ... أقوت قواه وأقفرت ساحاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف ... محفوفة ببروده حافاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ... متعطف مفضوضة صدقاته
من لليتامى والأرامل راحم ... في ذكره من ذكره آياته
لو كان في عصر النبي لأنزلت ... من سلها وركوبها عزماته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من كل قلب مؤمن روعاته
فارقت ملكاً غير باق متعباً ... ووصلت ملكاً باقياً راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان رب العرش بل صلواته

كان أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٦ ذكراً وابنة واحدة، أكبرهم الأفضل علي ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ يوم عيد الفطر.

وتوفي والده الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان في مصر. وخلف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، وأبا بكر العادل الذي ملك مصر، وشمس الدولة توران شاه وهو أكبر الجميع، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري.

كانت المواجهة مع ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ إنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مات صلاح الدين من الحُمّى في دمشق. وعندما فُتحت خزانته الشخصية وجدوا أنه لم يكن فيها ما

يكفي من المال لجنازته، فلم يكن فيها سوى ٤٧ درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات. ثم ذكر ابن شداد شدة اهتمام صلاح الدين بالجهاد، ويدلنا على ذلك ما أخبر به صلاحُ الدين ابنَ شداد، وهو: "أنه متى ما يسر الله فتح بقية الساحل، قسمتُ البلاد، وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتتبعهم فيها، حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت". فقال له ابن شداد "إنك سور الإسلام ومنعته، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك". فقال له: "ما أشرف الميتات؟". فقال ابن شداد: "الموت في سبيل الله". فقال له: "غايتي أن أموت أشرف الميتات". وقيل: إن صلاح الدين الأيوبي كان يختار أيام الجمع لمقاتلة الأعداء. ومن كلماته المشهورة: (نحن لسنا بحاجة إلى كلامكم... نحن بحاجة إلى سلاحكم)... (حافظوا على تلاوة القران الكريم لتحقيق النصر على الأعداء الصليبيين).

وكان متديناً في مأكله ومشربه ومركبه وملبسه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، وكان يواظب على الصلاة في الجماعة، ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفين ويتبجح بذلك، وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً. وبالجملة، فإن مناقبه الحميدة كثيرة لا تُستقصى إلا في مجلدات.

وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك ابن زيد الدولعي خطيب دمشق، وأخرج تابوت السلطان – رحمه الله تعالى – بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى داره التي في البستان وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

لقد كان – رحمه الله تعالى – من محاسن الدنيا وغرائبها. ثم ذكر ابن شداد أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا ٤٧ درهماً ناصرية وجرما واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة.

كتب القاضي الفاضل قاضي دمشق في ساعة موته إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

(﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]. كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر احسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعدة، ما لم يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وانا عليك لمحزونون يا يوسف. وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر، فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام).

سيرة صلاح الدين: كان صلاح الدين يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه، وزهد أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة بأن ترشحه للقيادة. وعبر استقراء مسيرة صلاح الدين الجهادية يتضح أن صلاح الدين كان صاحب مشروع حضاري إسلامي:

عرف أعداؤه وأصحابه عدل صلاح الدين ورحمته وأحبوه لها، وكما يقال بمصطلحات القيادة المعاصرة: حازم عادل، ورحيم بلا خوف أو تزلف (بالإنجليزية: Fair and Firm with mercy but without fear or favour).

كتب بهاء الدين بن شداد الأسدي عام ٥٣٩-٥٨٩هـ (١١٤٥-١٢٨٥م) كتابه "النوادر السلطنية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين الأيوبي" وهو مصاحب لصلاح الدين في غزواته بعد فتح القدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ. جعل صلاحُ الدين ابنَ شداد قاضي عسكره، وأول قاضٍ للقدس وناظراً لأوقافها بعد تحريرها، وواحداً من أقرب أصفيائه ويرافقه في أكثر معاركه. وغدا كذلك شيخاً له يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد، ويبتهل معه إلى الله عند الشدائد، ويواسيه في النكبات، ويحمد الله معه في الانتصارات.

لم يضن ابن شداد بعلمه الغزير على غيره، بل أوصله إلى أعلام عصره الذين أتوا إليه وإلى مدرسته في حلب، ومنهم ابن خلكان، وابن واصل الحموي مؤرخ الأيوبيين الذي افتخر بتلمذته عليه، وأبو شامة صاحب "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" الذي جعل كتاب سيرة صلاح الدين لابن شداد مصدراً مهماً من مصادره. تحدث ابن شداد عن عقيدة صلاح الدين السليمة التي أخذها عن العلماء بالدليل، وأنه كان محافظاً على الصلاة بوقتها جماعة. وأما الزكاة فإنها لم تجب عليه؛ لأن عطاياه لم تمكنه من أن يملك نصابها، حتى إنه عندما توفي لم يخلف لورثته شيئاً قط ما عدا ٤٧ درهماً وديناراً واحداً. وكان حريصاً على صيام رمضان وقضاء ما فاته منه بسبب الجهاد ومقتضياته. وأما بالنسبة إلى الحج، فقد شغله عنه الجهاد المستمر.

وكان يحب قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسماعهما، وكثيراً ما كانت تدمع عيناه في أثناء القراءة والسماع. وكان أيضاً كثير التعظيم لشعائر الدين حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً الضعيف على القوي، يجلس للعدل كل إثنين وخميس مجلساً عاماً. وأما كرمه، فقد كان عظيماً يدل عليه أنه لم تجب عليه زكاة قط، وأنه لم يترك لورثته شيئاً. وضرب المثل الأعلى بشجاعته وبسالته وشدة بأسه وعظيم ثباته، وكان لا بد من أن يطوف حول العدو يومياً مرة أو مرتين إذا كان قريباً منه

ويبين ابن تغري بردي مواصفات صلاح الدين في ترجمته في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"

(قال العلامة أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي في تاريخه "مرآة الزمان": كان السلطان صلاح الدين شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله. وكان مغرماً بالإنفاق في سبيل الله، وحسب ما أطلقه ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج من شهر رجب سنة ٥٨٥هـ إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ٥٨٨هـ فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال.

قال العماد الكاتب: لم يكن له فرس يركب إلا وهو موهوب، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب، وما كان يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف. وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، ويؤثر سماع الحديث. وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه.

قال: ورأى معي يوماً دواة محلاة بفضة فأنكر عليّ؛ وقال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. وكان محافظاً على الصلوات في أوقاتها لا يصلي إلا في جماعة. وذكره القاضي ابن شداد في السيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وإذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام).

وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري وعلمها أولاده الصغار؛ لترسخ في أذهانهم وكان يأخذها عليهم. (والقطب النيسابوري هو عالم فاضل تأدب على أبيه، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، ودرس بالزاوية الغزالية، ودُفن

بمقابر الصوفية، كما يحكي ابن العماد في "شذرات الذهب" ج٢، ص٢٦٣). كان جلاّب خير على تلميذه صلاح الدين، فغمره بروحانيته وانتشله من مجونه إلى عالم الرجولة، فكان الرجل الذي نقرأ عنه ونسمع. يقول شهاب الدين المقدسي في "كتاب الروضتين" (ج٢، ص٦٩) عن بطلنا صلاح الدين: (وهو... مقوّ مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين... وهو - رحمه الله - لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً). كانت خطوة في تربية الأمة وإعدادها وتأهيلها لواجب النصرة والجهاد خطاها الناصر صلاح الدين، فكان لمن بعده نموذجاً لمن أراد سلوك منهاج النصر والفتح. ويزيد الدكتور البوطي في "الجهاد" (ص٢٠٤)، توضيحاً للمسألة، فيقول استناداً إلى أحد مراجع التاريخ:

"فقد عمد إلى سفوح قاسيون هذه من أقصاها إلى أقصاها وإلى جنبات القاهرة كلها، فغرسها جميعاً بالمعاهد والمدارس الشرعية، وحشد فيها حشداً كبيراً من طلاب العلوم الشرعية، وأخذ يشرف بنفسه على مناهج التربية والتعليم فيها، بل كان كما قالوا يشترك مع أساتذة بعض منها موجهاً ومعلماً، ويشترك آناً آخر مع طلابها ملقياً متعلماً. ثم إنه عمد فألف معظم جيشه الذي غزا به الصليبيين من خريجي هذه المعاهد في دمشق والقاهرة). ويزيدنا المؤرخ حسين مؤنس فائدة توضيحية فيلفت نظرنا في "الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام" (ص١١) إلى أن المشاركين في معركة حطين مع صلاح الدين كانوا من الصوفية، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ الأمة من الصليبيات و يُسمّون في المراجع بالمطوّعة إنما هم: زهاد ومتصوّفة ومُريدون يخرجون للقتال حسبةً لله تعالى، ويبلون أعظم مما يبلي الجنود المحترفون.

وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط، وأما صدقة النوافل فاستُنفدت أمواله كلها فيها. وكان يحب سماع القرآن، واجتاز يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة.

وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يحضر عنده، استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه.

وكان مبغضاً كتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله.

وكان محيياً العدل يجلس في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز. وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته. واستغاث إليه ابن زهير الدمشقي على تقي الدين عمر ابن أخيه، وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع. فأمر تقي الدين بالحضور معه. واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال، فباع ضيعة وفرق ثمنها فيهم.

قال ابن شداد: وسألت باليان بن بارزان يوم انعقاد الصلح (بعد فتح القدس) عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا (فتحت قبل القدس ثم حاصرها الصليبيون بالحملة الثالثة واستولوا عليها ثانية)، وهو جالس بين يدي السلطان، فقال الترجمان: قل له: كانوا من خمس مئة ألف إلى ست مئة ألف، قتل منهم أكثر من مئة ألف وغرق معظمهم.

قال: وكان يوم المصاف يدور على الأطلاب ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم. وكان في الشتاء يعطي العساكر ستوراً وهو نازل على برج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير. وكان على الرملة فجاءه كتاب بوفاة تقي الدين ابن أخيه. فقال وقد خنقته العَبرة: مات تقي الدين، اكتموا خبره مخافة العدو.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل ويسرقونهم. فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً، فباتت أمه تبكي طول الليل. فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبي إليه. فجاءته وهو على تل الخروبة راكباً،

فعفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأُخبر بقصتها، فرقّ لها ودمعت عيناه، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل ولم يزل واقفاً حتى أحضروه، فلما رأته بكت وشهقت وأخذته وأرضعته ساعة وضمته إليها وأشارت إلى ناحية الفرنج، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج، ففعلوا.

قال ابن شداد: وكان حسن العشرة، طيب الخلق، حافظاً أنساب العرب، عارفاً بخيولهم، طاهر اللسان والقلم، فما شتم أحداً قط ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على من خلفه، وجبر قلبه، وأعطاه ما يكفيه. فإن كان له كافل سلّمه إليه وإلا كفله. انتهى. (النجوم الزاهرة).

كان صلاح الدين من دعاة الحضارة والإصلاح، فاهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتخفف عنهم عناء الحياة، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون إلى المساجد للعيش فيها. وجعل من مسجد "أحمد بن طولون" في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب.

ومن أشهر أعماله التي أقامها في القاهرة: قلعة الجبل لتكون مقرًّا لحكومته، وحصناً منيعاً يمكنه من الدفاع عن القاهرة. وأحاط "الفسطاط" و"العسكر" و"القاهرة" بسور طوله (١٥ كم) وعرضه ثلاثة أمتار، وتتخلله الأبراج: ولا تزال أجزاء منه قائمة حتى اليوم في جهات متفرقة.

ومدح ابن جبير الأندلسي (٥٤٠هـ-٦١٤هـ)، في رحلته الشهيرة، الناصرَ صلاح الدين بأن عرشه هو سرجه لكثرة جهاده، وذمّ كثيراً من الملوك المعاصرين بأنهم مجرد ألقاب رنانة وأسماء بلا مسمى. ومدح صلاح الدين لإبطاله المكس (الضريبة) المترتبة على الحُجاج.

ومما قاله في قصيدته التي مدح بها السلطان صلاح الدين، يهنئه بفتح بيت المقدس:

ثأرت لدين الهدى في العدا	فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى	فسمّاك بالملك الناصر
فتحتَ المقدس من أرضه	فعادت إلى وصفها الطاهر
وأعليت فيه منارَ الهدى	وأحييت من رسمه الداثر

أسرار نجاح صلاح الدين:

إنّ عظمة صلاح الدين الحقيقية من وراء انتصاراته وفتوحاته وتحرير بيت المقدس لا ترتبط مباشرة بشخصه ولا تكمن في بسالة القتال العسكري المجرّد، بقدر ما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الجماعي لفريق جماعة متكامل متواصل مع الله، ويمتلك رؤية واضحة، وخطة عمل مستقبلية تأخذ بأسباب النصر، وبضرورة تبادل المشورة وتطبّق ذلك في أرض الواقع (بالمفهوم المعاصر: روح الفريق والعمل المؤسّساتي). فصلاح الدين نفسه كان ثمرة العمل الجماعي المؤسساتي الدؤوب للسلطان نور الدين محمود زنكي التركماني، وعمّه أسد الدين شيركوه الكردي، بالتعاون مع الخليفة العباسي العربي الهاشمي المستضيء بالله، الذي خطّ في مرسومه لصلاح الدين معالمَ الطريق مع أولويات المسيرة لتوحيد بيضة الإسلام وتحريرها من الصليبيين.

كان فريق صلاح الدين فريقاً جماعياً من القادة العسكريين، ومن العلماء القضاة يصلون جماعة جنباً إلى جنب، ويوزعون المال والغنائم على الرجال (فلا يبقى منها شيء لصلاح الدين)، ويهتمون بأمر الرعية المالي برفع المكوس والضرائب، فلا نصر دون عدل مالي، ثم التركيز الكبير على الصحوة الإسلامية والثقافية.

فالقضاة والعلماء كانوا دعاة الإسلام والثقافة الدينية الرشيدة عن طريق دروسهم المتواصلة وحلقاتهم اليومية وفتواهم بين الحين والحين، وكان لهم أكبر الأثر في تثبيت دولة صلاح الدين. وعلى وجه الخصوص، فإن القاضي الفاضل كان مع باقي القضاة في أمسّ الحاجة إلى قائد يحفظ مصر وبيضة الإسلام من أطماع الفرنجة (فوجدوها في صلاح الدين). وبحكم وظيفة القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) بوصفه رئيساً للديوان التي تطلع بمسؤولية وزارات الداخلية والخارجية والإدارة المحلية في عصرنا كتب كتاب تولية صلاح الدين ولخص فيه لصلاح الدين المسؤوليات المطلوبة منه والمهام المتوقعة منه، فكان منها: التنبيه على أحوال مصر الاقتصادية وضرورة التخفيف من أعباء الناس المالية، والحث على الجهاد وحماية الدولة من أطماع الفرنجة. فكانت هذه أول مبادرة من قلم القاضي الفاضل لتنفيذ مشروع صلاح الدين، وتوالت بعد ذلك إسهامات قلم القاضي الفاضل من التوجيهات الإدارية للولاة والموظفين في شؤون الدولة كافة؛ لإنجاح مشروع صلاح الدين بإلغاء الضرائب الظالمة، وهذا قرب صلاح الدين إلى الرعية، والقيام بالدعاية لحكم صلاح الدين ومشروعه في البلاد عبر إشاعة العدل وفرض هيبة القانون، وكشف المؤامرات ضد صلاح الدين، وإرسال الرسائل لجلب التأييد لصلاح الدين من الخليفة العباسي والقائد نور الدين، ومتابعة شؤون الإمدادات للوحدات المقاتلة، ورعاية إقامة التحصينات في الخطوط الخلفية لجيش صلاح الدين، والإشراف على المفاوضات التي يجريها صلاح الدين مع جيوش الصليبيين، ووضع نصوص المعاهدات والهدنة التي يعقدها صلاح الدين، مع تزويد صلاح الدين بتقارير وافية عن أحوال الدولة.

ويمكن تلخيص إنجازات صلاح الدين التاريخية فيما يأتي:

١. **تأمين الديار المصرية داخلياً وخارجياً**: إذ أمّن مصر وخلصها من الفرنجة ومن حلفائهم العبيديين المتواطئين معهم، الذين انشقوا عن العالم الإسلامي، وأخسر صلاح الدين الحملة الصليبية على دمياط (قام المسلمون بإمرة صلاح الدين بشن الحملات، وأنزلوا سلاسل لمنع السفن، واستخدموا النيران المشتعلة، وساعدهم الله بالرياح وبمجاعة الفرنجة واستشراء الأوبئة بينهم، فأخفقت الحملة الصليبية).

٢. **إنهاء الدولة العبيدية الإسماعيلية المتواطئة مع الصليبيين**: وكان شر العبيديين يفوق خيرهم، بل هم الذين انشقوا من الخلافة العباسية، ودقوا إسفين الفرقة في العالم الإسلامي، وحاربوا السلاجقة، وتحالفوا مع النصارى البيزنطيين والفرنجة الصليبيين، وسلموا ديار الإسلام واحدة بعد الأخرى إلى البيزنطيين والنورمانديين والصليبيين ابتداء من صقلية، وحصون ساحل المتوسط، ثم القدس، وانتهاء بدعوتهم إلى دخول مصر نفسها. فصار تحالفهم وبالاً وعاراً عليهم.

٣. **إقامة العدل الإسلامي**: ولاسيما العدل الاقتصادي المالي، ومحو المظالم العبيدية عن أهالي مصر. فهو الذي أسقط المكوس والضرائب، ووزع المال والصدقات، وأحيا الزكاة التي أسقطها العبيديون. وأسقط المكوس والضرائب عن حجاج بيت الله الحرام في مكة.

٤. **الإعداد الروحي للجهاد والتعبئة العسكرية مع الثقافة الإسلامية الصحيحة من أجل تنفيذ مشروع الوحدة الإسلامية**: فقام بصناعة السفن وإنشاء أسطول بحري قوامه ٣٠ سفينة، وقام بإعداد جيش إسلامي يبلغ مئة ألف لجهاد الصليبيين، نواته فرسان الفرقة الأسدية مع فرسان الفرقة الأيوبية مع جيش العاضد من المصريين من السودان والمغاربة وقبائل العرب، بعد تأهيلهم وتوجيههم الصحيح. وأدخل المطوعة من الصوفيين والمريدين في جيشه.

٥. **توحيد العالم الإسلامي**: اتبع صلاح الدين إستراتيجية إرجاع مصر إلى حاضرة العالم الإسلامي والخلافة العباسية، وتوحيد مصر مع الشام كفكيّ كمّاشة (نزّاعة) ضد الصليبيين.

٦. **حماية الحرمين الشريفين، وتحرير الحرم الثالث (فتح القدس)**: حمى صلاح الدين مكة والمدينة براً وبحراً، وأرسل جيشه من تبوك للحماية، ودخل أسطوله في البحر الأحمر لحمايته من المجرم الصليبي أرناط باحتلال جدة ورابغ وينبع، إذ أمر أخاه العادل لهذا الأمر. وسماه ابن شداد خادم الحرمين الشريفين. وظل صلاح الدين يجاهد على فرسه، ولم يستطع تأدية مناسك الحجّ في زمنه لاشتغاله بالجهاد.

٧. **الجهاد وحرب التحرير من احتلال الصليبيين**: ابتداءً من مدن الشام وقلاعه، وانتهاءً بتحرير القدس وتأمينها عسكرياً. ومدّ سلطانه على الشام ومصر والحجاز واليمن وليبيا والسودان؛ لتوحيد لحمة العالم الإسلامي. كانت دولة نور الدين تضم الشام والحجاز واليمن، وضمت أجزاء من شمال أفريقيا. فأصبحت دولة صلاح الدين تضم شمال العراق والشام، ثم الحجاز واليمن ومصر والسودان وبعض شمال إفريقيا. لقد كان هذا أكبر اتحاد للقوى الإسلامية في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية مفككة ضعيفة لا سلطان لها.

تراث صلاح الدين:

بالرغم من كون صلاح الدين خصماً عنيداً للأوربيين، لكنه ظلّ في الوعي الأوروبي نموذجاً للفارس الشهم الذي تبدو فيه أخلاق الفروسية بالمفهوم الأوروبي، حتى إن هنالك ملحمة شعبية شعرية من القرن الرابع عشر تصف أعماله البطولية. وقد يكون اسم الشهرة الإنجليزي سليدن Sladen, Sladin هو تحوير لاسم صلاح الدين الذي يلفظ بالإنجليزية سلادن Saladin.

ثم إن الشاعر دانتي مؤلف "الكوميديا الإلهية" قد وضعه في الأعراف (المطهر) مع عدد من الشخصيات التي عدّها كافرة – وفق معتقده النصراني الكاثوليكي – لكنها في نظره شخصيات صالحة وسامية أخلاقياً.

ثم إن صلاح الدين يُصور بنحو مقبول في رواية والتر سكوت "التعويذة" (The Talisman) المكتوبة سنة ١٨٢٥م. وُجسِّدتْ شخصيةُ صلاح الدين في عام ٢٠٠٦ في فيلم "مملكة الجنة" (Kingdom of Heaven)، بأسلوب فيه فروسية وأخلاق وكرم نفس، وقد جسّد الشخصية الفنان السوري غسّان مسعود.

ويدرك الأوروبيون أنه بالرغم من المذابح التي أوقعها الصليبيون عندما غزوا القدس في ١٠٩٩ إلا أن صلاح الدين قد عفا عن كل المسيحيين الكاثوليك (الأوروبيين)، حتى عن الجنود المنهزمين إذا كانوا قادرين على دفع الفدية. وعومل نصارى العرب ولاسيما الأرثوذكس دوماً بالحسنى؛ إذ إنهم كانوا أصلاً يُعارضون الغزو الأوروبي الصليبي للشرق الإسلامي. ومدحه الأمراء الصليبيون، وحاول الملك ريتشارد تزويج أخته لأخي صلاح الدين أبي بكر العادل.

ونسر العقاب الذي يرمز إلى الدولة الأيوبية (اكتُشف في قلعة صلاح الدين بالقاهرة) قد اتخذته العديد من الدول العربية في العصر الحديث شعاراً رسمياً لها، إذ يظهر النسر في العلم المصري، وفي شعارات سوريا والعراق وفلسطين.

خلدت سوريا ذكرى صلاح الدين بإقامة نصب صلاح الدين في دمشق، ويظهر تحت قدميه الأسير أرناط، الأمير الصليبي الذي غدر بحجيج مكة وسبّ النبي محمد ﷺ، وحلف صلاح الدين إن ظفر به أن يقتله، فكان أسيره بعد معركة حطين، إذ عرض عليه الإسلام فرفض، فوفى بنذره وقتله.



نسر العقاب أو نسر صلاح الدين، يرمز إلى الدولة الأيوبية



نصب السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في دمشق ليلا





نصب السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق نهارا (الصورة في اليمين)

والأمير الصليبي أرناط (أي رينو دو شاتيون) أسيراً (هو الذي قتل حجاج مكة وسب النبي ﷺ)

فعرض صلاح الدين عليه الإسلام فرفض، فوفى صلاح الدين بنذره وقتله. (الصورة في اليسار)

موقف أبناء صلاح الدين من الصليبيين: ولما مات صلاح الدين - رحمه الله - سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م، وصل إلى بغداد الرسول (إلى الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله) وفي صحبته لامة الحرب التي لصلاح الدين، وفرسه، ودينار واحد، وستة وثلاثون درهماً، لم يخلف من المال سواها. وحكمت أسرته من بعده، فاستقرت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز، ودمشق لابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

ومات السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان بن طغرلبك آخر ملوك السلجوقية في سنة ٥٩٠هـ قال الذهبي: (وكان عددهم نيفاً وعشرين ملكاً، أولهم طغرلبك الذي أعاد القائم إلى بغداد، ومدة دولتهم مئة وستون سنة).

ومات للملك العزيز بمصر سنة ٥٩٥هـ، وأقيم ابنه المنصور بدله، فوثب الملك العادل سيف الدين أبو بكر العادل بن أيوب (أخو صلاح الدين) فحكم مصر ومعظم أجزاء الشام، وخلفه ابنه الكامل، الذي سقطت دمياط في عهده بأيدي الصليبيين لما هاجموا مصر سنة ٦١٥هـ، ثم انسحبوا منها مدحورين، بعد هزيمة فادحة أدت إلى الجلاء عن مصر سنة ٦١٨هـ (بعد الصلح مع الملك الكامل)، وقطع المصريون جسر النيل فغرقت الأرض بالمياه

وأوشك الصليبيون على الهلاك، فطلبوا الصلح. ثم سلم الملك الكامل بن العادل الأيوبي عام ٦٢٦ هـ القدس صلحاً إلى قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور الألمان فريدريك، وأضاع جهود عمه صلاح الدين العظيمة في سبيل تحريرها. ولكنها حُررت ثانية عام ٦٣٧ ه بيد الملك الناصر الأيوبي داود أمير الكرك، الذي سلّمها إلى الصليبيين مرة أخرى عام ٦٤١هـ؛ لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضدّ الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، وحررّها ثالثة الملك الصالح أيوب (صلاح الدين الثاني)، الذي فتحها عام ٦٠٢ هـ، وبقيت القدس مع المسلمين وثبتت من حينها، حتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

واستطاع صلاح الدين قيادة جيش كبير مؤلف من الشاميين والمصريين يصل تعداده إلى مئة ألف محارب متمرّس وتحوّل تركيز الصليبيين من الاهتمام بالشرق إلى الاهتمام بمصر على نحو استثنائي، وذلك بسقوط مملكة القدس عام ١١٨٧م. وهذا ما نجده في الحملة الصليبية الثالثة، عندما أدرك ريتشارد قلب الأسد أهمية مصر. وأي هجوم على المشرق لن ينجح دون موارد الثروة وتمويل الرجال الذي لا ينضب في أرض مصر. ولاتزال مصر إلى اليوم تزوّد قدرات العالم الإسلامي بمزايا حاسمة. من هنا كانت مصر هدفاً للحملات الأوروبية في الحملة الصليبية الرابعة (التي انحرف مسارها إلى احتلال القسطنطينية)، والخامسة (دمياط)، والسابعة (دمياط)، وحملة الإسكندرية، (أسفرت عن انتصارات مؤقتة أعقبتها هزائم فادحة، أو جلاء، أو مفاوضات؛ وانتهت أخيراً بلا شيء. وكانت عكا، في عام ١٢٩١م، آخر حصن كبير منيع للصليبيين في الأرض المقدسة، فتحه السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، وأنهى الوجود الصليبي في أرض المشرق الإسلامي. ولم تبق إلا جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط تستخدمان بوصفهما قاعدتين للإغارة والكر والفر، هما جزيرة أرواد وجزيرة قبرص، أسقطهما وفتحهما للإسلام في القرن اللاحق كل من السلطان محمد بن قلاوون، والسلطان الأشرف برسباي على التوالي، وكلاهما من مصر.

الحملة الصليبية الرابعة عام ٦٠٠هـ.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص: ٤٥-٤٦): (في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقاً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسراً، وأباحوها ثلاثة أيام قتلاً وأسراً، وأحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلاً أو فقيراً أو مكبولاً أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منهم إلى كنيستها العظمى المسماة بـ "أيا صوفيا"، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك؛ بل قتلوهم أجمعين أكتعين أبصعين. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلي والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصلبان والحيطان؛ والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان.

ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم: دوق البنادقة، وكان شيخاً أعمى يقاد فرسه، ومركيس الإفرنسيس، وكندا بلند، وكان أكثرهم عدة وعدداً. فخرجت القرعة له ثلاث مرات فولوه ملك القسطنطينية، وأخذ الملكان الآخران بعض البلاد، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة. ولم يبق بأيدي الروم هناك إلا ما وراء الخليج، استحوذ عليه رجل من الروم يقال له: تسكرى، ولم يزل مالكاً تلك الناحية حتى توفي.

ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقوّوا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة وأطلق لهم شيئاً من البلاد؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون).

الملك الكامل بن الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي:

استقل الملك الكامل بمصر عام ٦١٥هـ-١٢١٨م، بعد وفاة والده الملك العادل الذي كان قد قسم مملكته بين أولاده قبل وفاته وأعطى مصر للملك الكامل، والملك الكامل هو من أكمل بناء قلعة الجبل التي بدأ في تشييدها جده صلاح الدين الأيوبي، وكان الكامل أول من سكن قلعة الجبل من ملوك مصر، وفيها ولد الصالح أيوب في سنة ٦٠٣هـ-١٢٠٦م. في سنة ٦١٥هـ-١٢١٨م، عندما كان الصالح أيوب طفلاً في الثانية عشرة من عمره، تعرضت مصر لحملة صليبية يقودها "جان دي بريين" ملك القدس (الحملة الصليبية الخامسة). وكان ذلك تطوراً خطراً في الحروب الصليبية، إذ إن مصر منذ ذلك الحين أصبحت هدفاً للصليبيين الذين أدركوا أن مصر بإمكانياتها البشرية والاقتصادية هي حصن الإسلام ومصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والسلاح، إن استولوا عليها سهل عليهم استعادة بيت المقدس وامتلاك الشام.

تجمعت جيوش ممالك أوروبا في عكا ومنها أبحرت إلى مصر ونزلت بالبرّ الغربي من دمياط، وخرج الملك الكامل، والد الصالح أيوب، بالجيش إلى دمياط لمواجهة الصليبيين لكن القوات الصليبية نجحت في الاستيلاء على برج دمياط، ولما سمع السلطان العادل (والد الملك الكامل وجد الصالح أيوب) بما حدث، وكان وقتها مقيماً بمرج الصفر في الشام، دقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض ومات بعد بضعة أيام. صار ملك مصر بموت العادل إلى الملك الكامل محمد، ووقع عليه عبء الدفاع عن مصر. بعد حصار دام نحو ١٦ شهراً سقطت دمياط في أيدي الصليبيين فقتلوا سكانها وحولوا جامعها إلى كنيسة. ولما حاول الصليبيون التقدم داخل الأراضي المصرية حاصرهم المسلمون من كل الجهات حتى لحقت بهم الهزيمة، فطلبوا الأمان مقابل رحيلهم عن دمياط. وسُلمت دمياط إلى المسلمين في ٨ أيلول ١٢٢١م-١٩ رجب ٦١٨هـ، ودخلها الملك الكامل على رأس إخوته وقواده وأجناده، وعقدت هدنة مداها ٨ أعوام بين المسلمين والصليبيين.

الحملة الصليبية الخامسة:

استهلّ عام ٦١٥هـ، والعادل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور، فأخربه ونقل ما فيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان؛ خوفاً من الفرنج. أعاد المعظم في رجب من السنة نفسها ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، إذ إنه لم يكن أحد يتجاسر على أن ينقل ملء كفه خمراً إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر؛ لقلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج. وكما يقول ابن كثير في "البداية والنهاية": "وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء، وينصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولون بسببه الأدبار. وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول، كما في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني)، وهذا ظاهر لا يخفى على فطن".

لكن في العام اللاحق ٦١٦هـ أمر الشيخ محيي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي (عكس ما أمر به المعظم). وخُرّب سور بيت المقدس في مستهل سنة ٦١٦هـ، أمر بذلك المعظم؛ خوفاً من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة لأخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم المحرم، فهرب منه أهله خوفاً من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلاً أو نهاراً، وتركوا أموالهم وأثاثهم وتمزقوا في البلاد كل ممزّق، وظهر الغلاء، وضجّ الناس، وابتهلوا إلى الله عند الصخرة، وفي الأقصى: وهي أيضاً فعلة شنعاء من المعظم مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك:

في رجـــب حلـــل المُحـــرّم ... وأخـــرب القـــدس في المحـــرّم

فإذا بالحملة الصليبية الخامسة تقدم على مصر؛ لتستأصلها قبل التقدم للاستيلاء على القدس، فقد استحوذت الفرنج في سنة ٦١٦هـ على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان، وغدروا بأهلها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وفجروا بالنساء، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة. (ابن كثير في "البداية والنهاية" ج١٣، ص: ١٠٠).

وللتفصيل: **يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"**: (يقول أبو المظفر في تاريخه: في شعبان ٦١٦هـ أخذ الفرنج دمياط وكان المعظم عيسى (أخو الملك الكامل محمد سلطان مصر) قد جهز إليها "الناهض بن الجرخي" في ٥٠٠ راجل، فهجموا على الخنادق، فقتل ابن الجرخي ومن كان معه وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكان الفرنج قد طموها: يعني الخنادق.

وضعف أهل دمياط وأكلوا الميتات، وعجز الملك الكامل عن نصرتهم ووقع فيهم الوباء والفناء، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد (بالأمان) ويخرجوا منه بأموالهم وأهلهم، واجتمعوا وحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البرّ والبحر، وفتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ويفتضون البنات، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل وأخوه المعظم بكاءً شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة.



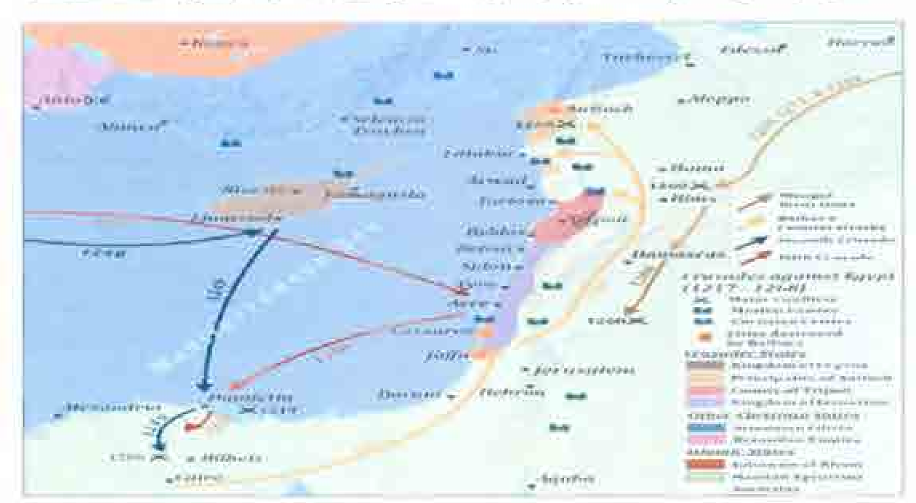
الصليبيون يهاجمون دمياط في ٦١٦هـ–١٢١٨م

ومن شعر الكامل يستحث أخاه الأشرف موسى بالمجيء من بلاد الجزيرة إليه حين كان محاصراً بدمياط:

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي	فارحل بغير تقيد وتوقف
واطوِ المنازل والديار ولا تنخ	إلا على باب المليك الأشرف
قبّل يديه – لا عدمت – وقل له:	عني بحسن تعطف وتلطف
إن مات صنوك عن قريب تلقه	ما بين حد مهند ومثقف
أو تبطِ عن إنجاده فلقاؤه	يوم القيامة في عراص الموقف

ثم قال الكامل لأخيه المعظم: قد فات المطلوب وجرى المقدر بما هو كائن، وما في مقامك هاهنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من بلاد الشرق.

واستمر الملك الكامل في مقاتلة الفرنج إلى أن فتح الله عليه في سنة ٦١٨هـ، وطلب من إخوته النجدة، وتوجه المعظم في أول السنة إلى أخيه الأشرف موسى. وكان المعظم أحرص الناس على خلاص دمياط والغزاة. وكان مصافياً لأخيه الكامل، وكان الأشرف مقصراً في حق الكامل مبايناً له في الباطن، فلما اجتمعت



الحملات الصليبية على مصر (١٢١٧-١٢٦٨م)، والدويلات الصليبية عام ١٢٠٠م

العساكر على حران، خرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح: الرحيل الرحيل إلى دمياط، وخرج بعساكره وعساكر أخيه إلى دمياط، وقطع بهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائداً جداً فجاؤوا إلى ترعة فارسوا عليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان وأحدق بهم عساكر الكامل فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم عن أن تصل إليهم الميرة من دمياط. وكانوا خلقاً عظيماً، وانقطعت أخبارهم عن دمياط. وكان فيهم مئة كند وثماني مئة من الخيالة المعروفين وملك عكا والدوك واللوكان نائب البابا، ومن الرجالة ما لا يحصى. فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط. فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم (كان الكامل عرض عليهم أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد السواحل على أن يتركوا دمياط: فامتنعوا من ذلك: فقدر الله أنه ضاقت عليهم الأقوات، فقدمت عليهم مراكب فيها ميرة، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى، حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن).

أوقع الكامل في ٦١٧هـ بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديداً، فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم، ولله الحمد. فبعث الكامل إليهم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب (وابن أخيه شمس الملوك) وجاء ملوكهم إلى الكامل، فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام.

ووصل المعظم عيسى والأشرف موسى في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمة كبيرة عالية، وقد مدّ سماطاً عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج ووقف المعظم والأشرف والملوك في خدمته، وقام راجح الحلي الشاعر - رحمه الله تعالى - فأنشد:

هنيئاً، فإن السعد أضحى مُخلداً   وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانـا إلـه الخلـق فتحـاً بـدا لنـا	مُبينـاً وإنعامـاً وعـزّاً مُؤيـدا
ولـما طغـى البحـر الخضـم بأهلـه ال	طغـاة وأضـحى بالمراكـب مُزبـدا
أقـام لـهـذا الـدين مـن سـلّ سـيفه	صـقيلاً كمـا سـلّ الحُسـامَ مُجرّدا
فلـم يـنجُ إلا كـلّ شـلو مُجنـدلٍ	ثـوى مـنهم أو مـن تـراه مُقيّـدا
ونـادى لسـانُ الكـون في الأرض را	فعـاً عقيرتـه في الخـافقين ومنشـدا
أعبّـاد عيسـى إنّ عيسـى وحزبـه	وموسـى جميعـاً يخـدمون مُحمـدا

صح للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى لما وقفا في خدمة الكامل محمد، فلله دره! لقد أجاد فيما قال. ووقع الصلح بين الملك الكامل وبين الفرنج في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ثماني عشرة وست مئة، وسار بعض الفرنج في البر وبعضهم في البحر إلى عكا وتسلم الكامل دمياط.

الحملة الصليبية السادسة عام ٦٢٥هـ-١٢٢٨م:

بدأت بعد مرور أقل من ١٠ سنوات من نهاية الحملة الصليبية الخامسة، وترأسها الإمبراطور فريدريك الثاني (هوهنشتاوفن) الألماني الذي نذر الانخراط في الحملة الصليبية السابقة (أي: الحملة الخامسة)، ولكنه لم يف بنذره حينها، وأراد الإمبراطور أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده، فتزوج في صيف ١٢٢٥م من ابنة ملك القدس يوحنا دي بريان (يولاندي والمعروفة أيضاً باسم إيزابيلا)، وتزوج كذلك من ماريا من مونتفيرات، ثم أخذ يطالب بعرش مملكة قد زالت أصلاً من الوجود. ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل سلطان مصر والشام، دون دعوة البابا، وهذا الأمر أغضب بابا روما الجديد غريغوريوس التاسع الذي حرم فريدريك الثاني من الكنيسة، فكان هذا ردّة فعل ضدّ البابا.

وأبحر الإمبراطور إلى سوريا في صيف ١٢٢٨، فما كان من البابا إلا أن منع الحملة الصليبية، ووصف فريدريك بأنه قرصان، وبأنه يريد سرقة مملكة القدس، فكانت أول حملة صليبية لا يباركها البابا. لكن فريدريك الثاني لم يأبه لذلك، وخرج على رأس حملة صليبية صغيرة قوامها ٦٠٠ فارس فقط (وهذا يوضح أنه لم يكن يجهز لحرب حقيقية)، فاستولى على قبرص ووصل إلى عكا، حيث بدء مفاوضات الصداقة مع السلطان الكامل، فأرسل إليه الملك الكامل رسوله فخر الدين يوسف بن الشيخ للتفاوض على عقد معاهدة بينهما، وأسفرت في شباط/فبراير ١٢٢٩م عن صلح مدة ١٠ سنوات.

تنازل بمقابله السلطان الكامل عن الأماكن النصرانية في القدس للإمبراطور الألماني باستثناء منطقة الحرم (المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة وأوقافهما)، على أن يتعايش النصارى والمسلمون في القدس جنباً إلى جنب. وتنازل السلطان له عن الأماكن النصرانية الأخرى: بيت لحم، والناصرة وجميع القرى المؤدية إلى القدس، وقسم من صيدا وطورون (تبنين حالياً): على أن يتعهد فردريك بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه، ولو كانوا صليبيين، وأن يضمن فردريك عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين أنطاكيا وطرابلس. ووقع مع مصر عدّة اتفاقيات تجارية. واشترط أيضاً ألا يُجدد بناء جدار القدس ولا قلاعها (توكيداً للسلام بينهما).

وأكد فريدريك الثاني للسلطان مساعدته ضد أعدائه أياً كانوا، مُسلمين أم مسيحيين، وضمن عدم تلقي القلاع الصليبية الباقية (خارج سيطرته) أي مساعدة من أي مكان.



الإمبراطور فريدريك الألماني (على يسار الصورة)
وهو يصافح السلطان الملك الظاهر (على اليمين) على توقيع صلح القدس

ودخل فريدريك الثاني بيت المقدس في حماية قواته الألمانية في ١٧ آذار ١٢٢٩م، وتوّج فريدريك الثاني نفسه بنفسه في كنيسة القيامة، ورفض رجال الدين تتويج الإمبراطور المحروم من الكنيسة، وفرضت البابوية منعاً لممارسة الطقوس الدينية في القدس، ودفع البابا مواليه إلى ممتلكات فريدريك في إيطاليا، فأسرع فريدريك إلى المغادرة، ونشب صراع مسلح ضد الحبر الأعظم، والحق الهزيمة بالبابا؛ فألغى البابا، في سنة ١٢٣٠م، الحظر الكنسي عن فريدريك، وصادق في السنة الثانية على معاهداته مع السلطان الكامل في دمشق ومع المسلمين.

ويذكر ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" هذا الصلح في السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر، وهي سنة ٦٢٦هـ إذ أعطى فيها الملك الكامل بيت المقدس للك الفرنج الأنبرور (أي: الإمبراطور الألماني). وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر ونزل تل العجول، وكان الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق قد كاتَبَ عمه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها ونزل بالنيرب، وكان عز الدين أيبك قد أشار على الملك الناصر داود بمداراة عمه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه، وقال الناصر لعمّه الأشرف في قتال عمّه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه، واجتمع الأشرف وأخوه الملك الكامل واتفقا على حصار دمشق.

ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور، وتسلم الأنبرور القدس، والكامل و لأشرف على حصار دمشق، فلم يقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس ولم يغير من شعائر الإسلام شيئاً. واستطاع الكامل برجاحة عقله توظيف هذا الصلح المحدود المشروط توظيفاً عظيماً في توحيد دار الإسلام، فعاش بعد الصلح مدة ٩ سنوات (توفي عام ٦٣٥هـ)، وهو متربّع على عالم إسلاميّ موحّد.

قال ابن خلكان (فيما يرويه ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة"): **(واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين: الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين).**

صحيح أنّ هذا الصلح المحدود المشروط لم يكن مُرحباً به، لا من قبل النصارى ولا من قبل المسلمين، حتى قيل: إن السلطان الكامل تندّم لتنازله (سلماً من دون قتال) عن كل ما حارب لأجله صلاح الدين الأيوبي، لكن

الحقيقة أن الصلح هذا إذا وضع بالميزان فإنّ تعايش الجيرة بين المسلمين والصليبيين الأوروبيين المتوحشين أول مرة كانت له آثار مستقبلية حميدة طغت على سلبيات الماضي. تمكن الإمبراطور الألماني (بمساعدة ٦٠٠ فارس فقط!، وباستخدام الدبلوماسية والقوة الناعمة (دون حرب ودون دعم بابوي) فعل ما لم يستطعه أحد قبله، ولا بعده ملوك فرنسا (مثل الملك لويس التاسع) بالحرب ضد مصر والشام، بالرغم من مباركة البابا وبرغم جيوشهم المدججة بالسلاح والمتفوقة عدةً وعتاداً.

والحقيقة أن ألمانيا انفردت من دون دول أوروبا منذ ذلك الحين فصارت صديقة للمسلمين. فقد وقف الإمبراطور الألماني ضد قيام الحملة الصليبية السابعة من بعد ذلك، بل عارض البابا؛ وكان هو الذي أخبر ابن صديقه الملك الكامل (الملك الصالح أيوب) سلطان مصر والشام آنذاك عن قدوم الحملة الصليبية السابعة (قبل مجيئها). ووقفت ألمانيا من بعد ذلك ضد بابوية روما الكاثوليكية، بل كانت ألمانيا هي مركز اللوثرية وحركة الإصلاح البروتستانتي. ومن ثم وقفت ألمانيا مع الدولة العثمانية، ثم مع العرب عموماً. ومن هنا كان اختيار الرئيس المصري حسني مبارك للعلاج الجراحي خارج مصر في ألمانيا مرتين، من دون دول أوروبا وأمريكا والعالم كله.

الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٠٣-٦٤٧هـ): صلاح الدين الثاني، ومؤسس المماليك بمصر (أو مفرخة صلاحات الدين!)

ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية (وأخو صلاح الدين الأيوبي). **والملك الصالح** (كما يقول ابن تغري بردي) **هو أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب** (أخي جده الملك العادل أبي بكر بن أيوب). ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده على مقابلة العدو الصليبي بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد، والذبّ عن المسلمين لكفى. فالله يرحمه، ما كان أصبره وأغزر مروءته!

ولا بد من تفصيل لهذا السلطان المغبون حقه في التاريخ، بل لا يعرفه إلا القليل من أبناء العروبة والإسلام. ومن الأفضل ذكره تحت عناوين خمسة: ابتلاؤه قبل سلطنته، وتحرير بيت المقدس، وتوحيد الشام مع مصر، وجهاده ضد الحملة الصليبية السابعة (أكبر حملة أساطيل بحرية على مصر)، وتنشئته المماليك الذين صاروا من بعده سلاطين مصر والشام والعالم الإسلامي (كلٌ منهم يمثل قائداً من طراز صلاح الدين).

كان الصالح أيوب ابناً للسلطان الأيوبي الملك الكامل محمد، وأمه جارية سوداء اسمها ورد المنى، وأخاً للسلطان العادل سيف الدين أبي بكر، وحفيداً للسلطان الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي.

أولاً. ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته:

كان ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته مِنحة ربانية تتناسب وعظم المهمة الملقاة عليه (**فأشدّ الناس ابتلاءً هم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**، كما في الحديث النبوي)، وكان من وراء هذا الابتلاء والتمحيص حكمة الله البالغة في تجرّد الملك الصالح من الاعتماد على الأسرة الأيوبية، التي صارت مُشتتة مقسمة ذات أنانيات ومطامع شخصية، تنبئ باضمحلال البيت الأيوبي وهبوط قوة دولة الإسلام. وأفرزت محنة الملك الصالح اختياراً غنيّاً بالتجارب، زوّدته بمناعة مكتسبة ضد مطامع أفراد البيت الأيوبي، وأعطته رؤية ثاقبة للمستقبل أدت إلى تميّز الملك الصالح وانفراده عن جميع السلاطين الأيوبيين بشراء المماليك واستكثارهم لحمايته وحماية مصر والعالم الإسلامي، وصدق حدسه وفراسته بالأمور، إذ صار هؤلاء المماليك الأبطال من بعده أعظم سلاطين مصر والعالم.

زوال الدولة الخوارزمية (١١٩٠–١٢٢٠م) ووفاة السلطان الكامل:

بينما تلك الأحداث تجري في مصر، كان المغول يتقدمون نحو حدود العالم الإسلامي الشرقية، وكان المغول بحلول عام ٦٣٥هـ–١٢٢٨م، قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية — الجبهة الأولى للعالم الإسلامي — ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه، وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ–١٢٣٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية وتمزقوا كل ممزق، وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة. يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وأما الخوارزمية فزالت دولتهم، وتمزقوا، وقطعت أذنابهم، وبقوا حرامية، يقتلون ويسبون الحريم، ويفعلون كل قبيح).

توجه السلطان الكامل ومعه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق إلى الشرق في سنة ٦٣٣هـ–١٢٣٥م، وهزما الروم واستولوا على حران والسويداء والرها وقطليتا، ثم عاد الكامل إلى مصر، وسلم جميع بلاد الشرق إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهذا أغضب الأشرف الذي كتب إلى الكامل يقول: (أخذت الشرق مني وأعطيته ولدك، وقد افتقرت، وأيش هي دمشق إلا بستان؟ ومالي فيها رزق). فأرسل الكامل إليه ١٠ آلاف دينار، ولكن الأشرف ردها إليه قائلاً: (أنا أعطي هذا أميراً عندي). واتفق الأشرف وملوك حماه وحلب وغيرها على الانتقام من السلطان الكامل، لكن الأشرف مات بعد ذلك بقليل، وتملك دمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فترك السلطان الكامل ابنه الملك العادل نائباً عنه في مصر، وسار بالأجناد المصرية إلى الشام وحاصر دمشق ودخلها، ثم توفي في ٢١ رجب عام ٦٣٦هـ.

توفي السلطان الكامل تاركاً ابنه العادل في مصر وابنه الصالح أيوب في بلاد الشرق، وكان الصالح أيوب وقت وفاة أبيه ينازل الرحبة للاستيلاء عليها بمساعدة الخوارزمية، بعد أن كان قد استولى على سنجار ونصيبين والخابور، وكانت الرحبة تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فلما علم الخوارزمية بوفاة السلطان الكامل، طمعوا في الرحبة وأرادوا أخذها لأنفسهم، فخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه، ففر منهم إلى سنجار، فحاصره هناك الخائن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأراد القبض عليه ونقله إلى بغداد في قفص حديد لشدة كراهيته إياه، فأرسل الصالح أيوب إلى ابنه المغيث فتح الدين الذي كان هو الآخر قد فر إلى حران خوفاً من الخوارزمية، وطلب منه استمالة الخوارزمية وإحضارهم إلى سنجار. ونجح المغيث وقاضي سنجار بدر الدين في استمالة الخوارزمية، بعد أن أكدا لهم أن الصالح أيوب سيمنحهم سنجار وحران والرها، فذهبوا معهما إلى سنجار وفر بدر الدين لؤلؤ بعسكر الموصل. قويت شوكة الصالح أيوب بعودة الخوارزمية إليه وسيرهم إلى آمد لمساعدة ابنه المعظم غياث الدين توران شاه الذي كان محاصراً هناك، عن طريق عسكر السلطان كيخسرو صاحب الروم، ونجح الخوارزمية في إبعاد الروم عن آمد، وانتقل الصالح أيوب من سنجار إلى حصن كيفا.

محاولة تهميش الملك الصالح:

ولي السلطان الملك الناصر داود بن السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سلطنة دمشق عام ٦٢٤هـ بعد والده، وأحبه أهل دمشق. ثم سار عمه الملك الكامل من الديار المصرية؛ لأخذ الملك منه، فاستنجد بعمه الأشرف فجاء لنصرته، ثم تغير عليه، ومال إلى أخيه الكامل، وأوهم الناصر بأنه يصلح قضيته، فسار إلى الكامل، واتفقا على الناصر وحاصراه أربعة أشهر، وأخذا منه دمشق، وسار إلى الكرك، وكانت لوالده، وأُعطي معها الصلت

ونابلس وعجلون وأعمال القدس. ثم إن الناصر بعد الثلاثين قصد الإمام المستنصر بالله، وقدم له تحفاً ونفائس، وسار إليه على البرية، والتمس الحضور بين يديه كما فعل بصاحب إربل، فامتنعوا عليه، فنظم هذه القصيدة:

ألا يا أمير المؤمنين، ومَن غدَتْ	على كاهل الجوْزاء تَعْلُو مرتبةْ
أيَحْسُنُ في شَرْع المعالي ودينها	وأنت الذي تُعْزَى إليه مذاهبُهْ
بأنّي أخوض الدّوَّ والدّوُّ مُقْفِرٌ	سباريته مُغْبَرَّةٌ وسباسبُهْ
وقد رصد الأعداء لي كلَّ مرصد	وكلُّهم نحوي تَدِبُّ عقاربُهْ
وآتيك والعضْبُ المُهَنّد مُصْلَتٌ	طريرٌ شَباهُ، قانياتٌ ذوائبُهْ
وأُنْزِلُ آمالي ببابك راجياً	فواضلَ جاهٍ يبهرُ النّجم ثاقبُهْ
فتقبلُ منّي عبدَ رقٍّ فيغتدي	له الدّهر عبداً طائعاً لا يغالبُهْ

فوقعت هذه القصيدة من المستنصر بموقع، وأدخله عليه ليلاً، وتكلم معه في أشياء من العلوم والآداب، ثم خرج سراً، وقصد المستنصر بذلك رعاية الملك الكامل. ثم حضر الناصر بالمدرسة المستنصرية، وبحث واعترض واستدل، والخليفة في روشن بحيث يسمع، وقام يومئذ الوجيه القيرواني فمدح الخليفة بقصيدة جاء منها:

لو كنت في يوم السّقيفة حاضراً	كنتَ المقدَّم والإمامَ الأورعا

قال الناصر: أخطأت، قد كان حاضراً العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا أبا بكر ﷺ فخرج الأمر بنفي الوجيه، فذهب إلى مصر، وولي بها تدريس مدرسة ابن سكر. ثم إن الخليفة خلع على الناصر، فألبسه الخلعة بالكرك، وركب بالأعلام الخليفية وزيد في ألقابه: "المولى المهاجر". ثم اتفق موت الملك الأشرف وموت الكامل، وكان الناصر بدمشق، فتطلع إلى السلطنة، ولم يكن حينئذ أميز منه، ولو بذل المال حلفوا له. ثم سلطنوا الملك الجواد؛ فخرج الناصر عن البلد وسار إلى عجلون وندم، فجمع وحشد ونزل على السواحل فاستولى عليها. فخرج الجواد بالعساكر، فوقع المصاف بين نابلس وجينين، فانكسر الناصر، واحتوى الجواد على خزائنه وأمواله، وكان ثقل الناصر على سبع مئة جمل، فافتقر ولجأ إلى الكرك، ونزل الجواد على نابلس، وأخذ ما فيها للناصر (انظر فيما سيأتي).

وهكذا اتفق الأمراء، ومن بينهم عماد الدين إسماعيل والناصر داود، على تنصيب الملك العادل سلطاناً على مصر. أما الشام فقد تقاسمها إخوته وأقاربه من بني أيوب، فصارت دمشق من نصيب الملك الجواد مظفر الدين، وحلب من نصيب الملك الناصر صلاح الدين يوسف (على اسم صلاح الدين الأيوبي)، وحمص من نصيب الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (على اسم اسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين الأيوبي)، وحماه من نصيب الملك المظفر تقي الدين محمود؛ وبعلبك من نصيب الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والكرك من نصيب الملك الناصر داود.

فأقيم بعد الملك الكامل ولدُه الملك العادل أبو بكر (ويسمى العادل الصغير على اسم جدّه العادل)؛ وسبب تسلطنه وتقدّمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات أبوه، الملك الكامل محمد، بقلعة دمشق، كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب – وهو الأكبر – نائب أبيه على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه الملك العادل أبو بكر هذا – وهو الأصغر – نائب أبيه بديار مصر. فلمّا مات الكامل قعد الأمراء يتشاورون فيمن يولون من أولاده، فوقع الاتفاق بعد اختلاف كبير على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق ابن

عمه، الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه، الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله، فكان ذلك. وتسلطن الملك العادل في أواخر سنة ٦٣٥هـ. فبلغ ذلك أخاه الأكبر، الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقدم ووقع له من مؤامرات أخيه العادل، وحبسه عند ابن عمه، الملك الناصر داود وغيرهما من الأمور الجسام والابتلاء العظيم، ولله فيه الحكمة البالغة. ثم برز العادل إلى بلبيس قاصداً للقتال، فاختلفت عليه الأمراء، فقيدوه، واعتقلوه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب فوصل إليهم، فملكوه يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ. وأقام في الملك عشر سنين إلا أربعة أشهر.

لما تسلطن العادل بمصر، واستقر نائبه الجواد بدمشق، وبلغ هذا الخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، عظم عليه ذلك؛ لكونه الابن الأكبر، فسار بعساكر الشرق ودخل دمشق سنة ٦٣٦هـ -١٢٣٨م، فخرج إليه الملك الجواد والتقاه واتفق وإياه على مقايضة دمشق بسنجار وعانة من بلاد الشرق (وكان من أسباب ذلك خوف الملك الجواد من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل)، ثم خرج الجواد واجتمع الخلق يسبّونه في وجهه، وكان قد أساء السيرة في أهل دمشق. ثم خرج الصالح من دمشق على عزم الديار المصرية؛ لأخذ حقه بالسلطنة بعد موت أبيه، فكاتبَ عمّه صاحب بعلبك، الملك الصالح إسماعيل بن العادل، وسار الملك الصالح نجم الدين إلى نابلس (ضمن ملك الناصر داود) فاستولى عليها، فتوجه ابن عمه الناصر داود (ابن الملك المعظم عيسى بن العادل) إلى مصر داخلاً في طاعة الملك العادل، فأكرمه العادل وتأمرا عليه. وأقام الصالح بنابلس ينتظر مجيء عمه الصالح إسماعيل، فلم يلتفت الملك الصالح إسماعيل إلى ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب هذا، وتوجه نحو دمشق وهجم عليها فدخلها سنة ٦٣٧هـ.

وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه ليس غير، ومعه جاريته شجرة الدر أم خليل، حتى طمع فيه أهل الغور فكسرهم مماليكه. ثم وصل بعد ذلك الملك الناصر داود من مصر إلى الكرك، فركب الصالح أيوب والتقاهم، فخدموه وتقدموا عليه بالسلطنة وقالوا له: طيب قلبك، إلى بيتك جئت. فقال الصالح: لا ينظر ابن عمي فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا، وقد جئت إليه أستجير به. فقالوا: قد أجارك وما عليك بأس. وأقاموا عنده أياماً حول الدار. وقالوا للصالح: تطلع إلى الكرك فإن ابن عمك له بك اجتماع وأخذ سيفه. وكانت شجرة الدر حاملاً فسقطت وأخذوه وتوجهوا به إلى الكرك. (نقل الصالح أيوب إلى الكرك مع شجرة الدر التي كانت قد أنجبت منه في أثناء ذلك ابنهما خليل، وحجز الثلاثة هناك في القلعة، ومعهم مملوكه ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلطن من بعد)).

واستفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر: بالقبض على أخيه الصالح هذا، وأخذ وأعطى وأمر ونهى فتعذر عليه بعض أمراء مصر، ولكن ما أمكنهم يومئذ إلا السكات، وأركبوه بغلة بغير مهماز ولا مقرعة وساروا به إلى البرية في ثلاثة أيام وهو لا يكلم أحداً منهم كلمة ولا يأكل لهم طعاماً، ثم أدخلوه إلى الكرك ليلاً، وأقام مماليكه بنابلس.

واستمر الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح ودقت الكوسات وزينت القاهرة.

(اطمئن السلطان العادل على عرشه في مصر: باعتقال أخيه الصالح أيوب في الكرك، فزينت القاهرة ووزعت الحلوى بتلك المناسبة، وأرسل العادل إلى الملك الناصر داود في الكرك يطلب منه إرسال أخيه الصالح أيوب إليه في قفص حديد، مقابل منحه أربع مئة ألف دينار وفوقها دمشق. فردَّ عليه الناصر داود برسالة تقول: "**وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده في قفص حديد، وأنك تعطيني أربع مئة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني إياها، فأما الذهب فهو عندي كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هي معه، وسلمتها إلي، سلمت أخاك إليك. وهذا جوابي والسلام**".

ولما وصل العادل، ردَّ ابن عمه الناصر داود فأمر بالتجهيز للخروج إلى الشام للاستيلاء على دمشق التي كانت في يد عمه الملك عماد الدين إسماعيل.

أطلعَ الناصرُ داود ابنَ عمّه الصالح أيوب على كتاب أخيه العادل، وكتب له أبياتاً من الشعر ليست من تأليفه، فيها:

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني	فالرزايا إذا توالت تولت

فردَّ عليه الصالح شاكراً، وأضاف هو الآخر أبياتاً شعرية من بينها بيت يقول:

أما ترى البحر تطفوا فوقه جيفٌ	ويستقر بأقصى قعره الدررُ

والبيت للإمام الشافعي من قصيدة يقول فيها:

الدهر يومان ذا أمنٌ وذا خطرُ	والعيش عيشان ذا صفوٌ وذا كدرُ
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ	وتستقر بأقصى قاعه الدررُ
وفي السماء نجومٌ لا عداد لها	وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

ثم كاتبه عمّه الملك الصالح صاحب بعلبك في إرساله إلى الملك العادل إلى مصر. كل ذلك والعادل في قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم، وأقام الصالح مدة في الحبس، حتى أشار بعضهم على الملك الناصر بالاتفاق مع الصالح نجم الدين أيوب وإخراجه.

تحرير القدس المؤقت، وإطلاق سراح الصالح أيوب:

بينما ملوك بني أيوب في صراعاتهم مشغولون، قام الصليبيون ببناء قلعة في القدس، وكان هذا خروجاً على أحد شروط معاهدة الملك الكامل وفردريك الثاني، فلما بلغ الملك الناصر داود ذلك سار إلى القدس بجنود من مصر وضربها بالمجانيق، واستولى عليه، وأخرج الصليبيين منها في جمادى الأولى ٦٣٧هـ / كانون الأول ١٢٣٩م، بعد أن حاصرها ٢١ يوماً.

وكتب جمال الدين بن مطروح مادحاً الناصر داود حفيد الناصر صلاح الدين أبياتاً قال فيها:

المسجد الأقصى له عادة	سارت وصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً	أن يبعث الله له ناصرا
فناصرٌ طهره أولاً	وناصرٌ طهره آخرا

ثم اشتبك الصليبيون والعسكر المصري المقيم بساحل الشام، فهُزموا وقتل منهم الكثيرين ونقلت أسراهم إلى مصر.

لم يعط السلطان العادل دمشق للملك الناصر داود، ولم يرسل الناصر داود الصالح أيوب إلى السلطان العادل، وتعقدت الأمور بينهما، وازدادت العلاقة بينهما سوءاً، ولم تنجح محاولات إقامة صلح بينهما من جهة، وبينهما وبين الملك عماد الدين إسماعيل من جهة أخرى. ثم أرسل الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه رسالة إلى الخوارزمية، نقلها إليهم جمال الدين بن مطروح، يستحثهم فيها على مناصرة الملك الصالح أيوب ضد أخيه السلطان العادل، ومع الرسالة وضع رسالة أخرى من الملك الناصر داود كتب فيها:

"إني لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفاً عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه وأملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص". (ثم ما لبث أن سلم الناصر داود القدس ثانية إلى لصليبيين عام ٦٤١هـ؛ لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضدّ الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، كما سنرى فيما سيأتي).

أطلق الملك الناصر داود، بعد ٧ أشهر من احتجاز الصالح أيوب بقلعة الكرك سراحه، فأخرجه الناصر وتحالفا واتفقا، وذلك في آخر شهر رمضان، وكان تحليف الناصر داود للصالح أيوب على شيء ما يقوم به أحد من الملوك، وهو أنه يأخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل. ولما علم الملك العادل بخلاص أخيه الصالح، اتفق وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك الذي ملك دمشق، فسار الملك العادل من مصر والملك الصالح من دمشق ومعه أسد الدين صاحب حمص، ثم عزموا على قصد الناصر والصالح، فأول من برز لهم الملك العادل بعساكر مصر حتى وصل بلبيس (وكان قد أساء السيرة في أمرائه وحواشيه) فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الصالح نجم الدين أيوب يعرفونه ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصرية.

فسار ومعه الملك الناصر داود صاحب الكرك، فكان وصول الصالح إلى بلبيس في يوم الأحد ٢٤ ذي القعدة، فنزل في خيمة العادل، والعادل معتقل في خركاه، ومنذ أن فارق الصالح غزة تغير عليه داود وهو طامع في الملك وتحدث مع مماليك الصالح لقتله فأبوا. وشرب ليلة وصل إلى بلبيس وشطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه، فقبل الأرض بين يديه فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك ولم تقبل مني؟! فقال: يا خوند التوبة، فقال: طيب قلبك الساعة أطلقك، وجاء فدخل على الصالح الخيمة ووقف، فقال الصالح: باسم الله، اجلس. فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل. فقلت: اقعد، وهو يكرر الحديث، ثم سكت ونام، فما صدقت بنومه، وقمت في باقي الليل فأخذت العادل في محفة ورحلت به إلى القاهرة . ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليّ مع غلماني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر. واستولى الصالح على ملك مصر وقبض على أخيه العادل في يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة وحبسه عنده بالقلعة سنين.

كشف السلطان الصالح أيوب بيت المال والخزانة السلطانية، عند تسلطنه، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه، فأجابوا: "لأنه كان سفيهاً". فسألهم: "يا قضاة، السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟". فلما أجابوا بالنفي، قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه". فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال، فتركهم، ولكنه قبض عليهم واحداً تلو الآخر فيما بعد.

ولما أحس الصالح أن الأمراء والمماليك الأشرفية (مماليك عمه الملك الأشرف موسى) يتآمرون عليه قبض على عدد منهم، من بينهم مقدمهم أيبك الأسمر. وشرع الصالح في تنظيم أمور دولته وتقوية مماليكه، وبدأ في تشييد مقر جديد له في جزيرة الروضة، فأقام فيها الدور السلطانية والأسوار، ولما اكتملت، انتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها مع أهله وحرمه ومماليكه.

ثانياً. الملك الصالح نجم الدين أيوب: تحرير بيت المقدس النهائي:

اتفق الناصر داود وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور صاحب حمص، على حرب الملك الصالح أيوب: وكان الصليبيون يراقبون الوضع باهتمام إلى حين.

وفي الوقت الذي كان الامبراطور الألماني (صديق الملك الكامل وابنه الملك الصالح) يعارض البابا في الدعوة البابوية المستمرة إلى حملة صليبية جديدة، تحركت فصائل فرنسية قليلة من ليون بقيادة الملك تيبو دي نافار والدوق هوغ الرابع البورغوني وغيرهما من الأسياد، وأبحر القسم الأكبر في خريف ١٢٣٩م إلى سوريا، إذ حاولوا، بإصرار من الفرسان الهيكليين، عقد حلف مع أمراء دمشق وحمص والكرك الأيوبيين الانفصاليين ضد مصر، ولكن المصريين هزموهم جوار عسقلان في شهر تشرين الثاني ١٢٣٩، وبدأت المخاصمات بين الصليبيين.

نشب في الشام صراع بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك، وطلب الصالح إسماعيل من الصليبيين مساعدته في مقابل تسليمهم جميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي. ثم تطور ذلك الصراع إلى إقامة حلف مناهض للصالح أيوب في مصر، وكان من ضمن ذلك الحلف الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص.

وانضم، إلى هذا الحلف، الصليبيون الذين وعدهم الملوك الأيوبيون المتحالفون معهم بتسليمهم جزءاً من مصر بعد هزيمة الصالح أيوب. ومنح الصالح إسماعيل الصليبيين صفد وشقيف ونصف صيدا وطبريا وسائر بلاد الساحل، وسمح لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها، وهذا أغضب المسلمين، فأفتى الشيخ عز الدين ابن عز الدين عبد السلام بتحريم بيع الصليبيين السلاح، وقطع الدعاء للصالح إسماعيل في جامع دمشق، فعزله الصالح إسماعيل، فسار إلى مصر حيث ولاه الصالح أيوب الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وقلده قضاء مصر والوجه القبلي.

تسلم الصليبيون في سنة ٦٤١هـ طبريا وعسقلان من الحلف المناهض للصالح أيوب، وتمكنوا من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها يحتسون الخمر، وعلقوا جرساً على المسجد الأقصى. كاتب، عندئذ، السلطان الصالح أيوب الخوارزمية في بلاد الشرق وطلب منهم الحضور إلى مصر؛ لمعاونته في محاربة الملوك الذين تحالفوا مع الصليبيين وسلموهم أراضي المسلمين. (دخل المغول في السنة نفسها بلاد الروم، وهزموا السلطان غياث الدين كيخسرو، واستولوا على مملكته وعلى سيواس وقيسارية، وفرّ غياث الدين إلى القسطنطينية. أما بدر الدين لؤلؤ الخائن صاحب الموصل، فإنه خضع بإرادته للمغول؛ فقد راح يجبي المال من أهل الشام لمصلحة المغول).

عبر الخوارزمية نهر الفرات في نحو عشرة آلاف مقاتل، يقودهم الأمير حسام الدين بركة خان مع عدة من الأمراء، واقتحموا بعلبك وغوطة دمشق، فتحصن الصالح إسماعيل بدمشق. ثم هاجم الخوارزمية القدس (مدينة بلا أسوار؛ لأن الملك المعظم خرب أسوارها)، وقتلوا أعداداً من الصليبيين، ومنها ساروا إلى غزة وأرسلوا إلى الصالح أيوب يعرفونه بقدومهم، فرحّب بهم وسمح لهم بالإقامة في غزة، وأرسل إليهم الخيل والأموال. وجهز الصالح أيوب جيشاً تحت قيادة جنراله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، أحد مماليكه الأخصاء الذي كان معه في الكرك وقت احتجازه (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلطن فيما بعد). وخرج الجيش بقيادة بيبرس إلى غزة حيث انضم إلى الخوارزمية. أما في الشام، فقد جهز الصالح إسماعيل عسكر دمشق يقودهم الملك المنصور صاحب حمص. وانضمت إليه قوات من الكرك والعربان يقودها الظهير بن سنقر الحلبي، والوزيري، والقوت الصليبية القادمة من عكا التي كانت تضم فرسان المعبد (الداوية) والأسباتريه وفرسان التيوتون الألمان، وفرسان القديس لازاروس، وجيش بيت المقدس بقيادة "والتر الرابع" و"أرماند دو بريجورد" و"فيليب منوتفورت"، ورفع الصليبيون الصلبان فوق رؤوس عسكر الشام، وساروا جميعاً بحلفهم نحو مصر والقساوسة يباركونهم.

حطين الثانية: معركة غزة أو معركة الحربية. وتسمى أيضاً معركة لافوربي:

شنّ الصليبيون، في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م - جمادى الأولى ٦٤٢هـ، في تحالف صليبي - أيوبي كبير (من الأيوبيين الانفصاليين في دمشق وحمص والكرك)، هجوماً برياً ضخماً على مصر، واصطدم الجمعان في شمال

شرقي غزة في معركة عرفت أيضاً باسم معركة الحربية أو معركة لافوربي La Forbie؛ وكان الصليبيون في ميمنة جيش الشام بأكبر جيش دفعوا به إلى ميدان القتال منذ معركة حطين (١٥٠٠ فارس، و١٠ آلاف راجل)، وفي الميسرة عسكر الناصر صاحب الكرك والعربان، وفي القلب المنصور صاحب حماه. وهجم الخوارزمية على العسكر الشامي في حين تصدى المصريون للصليبيين، وانهزم المنصور وفر الوزيريّ وأسر الظهير الحلبي، وأحيط بالصليبيين الذين حصر جيشهم بين الخوارزمية والمصريين، وهزم التحالف الصليبي – الأيوبي هزيمة منكرة في عدة ساعات فقط، وفرّ المنصور إلى دمشق.

وقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقساوستهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وقتل من بينهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. وانهزم الحلف الشامي – الصليبي هزيمة منكرة. وبعث الخوارزميون بالأسارى، وعددهم ٨٠٠، وبالرؤوس إلى مصر. ووصلت بشارة النصر إلى الملك الصالح أيوب في ١٥ جمادى الأولى، فزينت القاهرة وقلعتي الجبل والروضة، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وكان من بينهم كونت يافا ومقدم الأسباتارية، وطوّف بهم في الشوارع وهم محملون على الجمال. واستخدم الصالح أيوب الأسرى الصليبيين في إكمال تشييد جزيرة الروضة. مكن نصر غزة المسلمين من تعضيد نصرهم، وفرض سيادتهم الكاملة على بيت المقدس وتحريرها النهائي مع بعض معاقل الصليبيين في الشام.

أما بيبرس، فقد انطلق إلى عسقلان التي حوصرت عن طريقه براً وعن طريق السفن المصرية من البحر، ودخلت القوات القدس وحررتها – ولم يتمكن الصليبيون منذ ذلك اليوم من الاستيلاء على القدس مرة أخرى – ودخلت الخليل وبيت جبرين والأغوار. ثم أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمشق تحت قيادة معين الدين الحسن بن شيخ، وتحصن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وحاصرت القوات دمشق، فأرسل الصالح إسماعيل إلى معين الدين سجادة وإبريقاً وعكازاً ومعها رسالة تقول: "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك". فأرسل إليه معين الدين جنكاً وزمراً وغلالة من حرير أحمر وأصفر، ومعها رد يقول: "السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة"؛ واستمر الحصار.

جرت مفاوضات بين معين الدين والصالح إسماعيل، وتقرر أن يقوم الصالح إسماعيل بتسليم دمشق على أن يخرج منها سالماً هو والمنصور بأموالهم، وأن يعوض الصالح إسماعيل ببعلبك وبصرى ومواضع أخرى، وأن يعوض المنصور بحمص وتدمر والرحبة. وغادر الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم دمشق بهذا الاتفاق، فدخلها معين الدين في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ، وخطب للسلطان الصالح أيوب في مساجدها. وعين الأمير حسام الدين أبا علي الهذباني نائب للسلطان في دمشق.

ولشيء من التفصيل والتوثيق العربي، يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" تحت سنة ٦٤٢هـ (ج١٣، ص١٩٣):

(وفيها: كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل (أي عمّ الملك الصالح نجم الدين أيوب) والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص (أولاد عمّ الملك الصالح نجم الدين) مع الفرنج، واقتتلوا مع الخوارزمية قتالاً شديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، وهزمت الفرنج بصلباتها وراياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش، فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الزرجون. فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وبعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً؛ ولله الحمد. وقد قال بعض أمراء المسلمين (المنصور): قد علمتُ أنا لمّا وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلحُ).

واستغل المسلمون هذه الظروف، وأشرف الملك الصالح نجم الدين أيوب في أيلول ١٢٤٤م بجيشه المصري يسانده ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين بفتح القدس ثانية، وقضوا على الصليبيين فيها عن بكرة أبيهم، وانتقلت المدينة برسوخ إلى المسلمين.

يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" عن حكمة الله في أن معركة غزة كانت سبباً في استرجاع القدس، ومن ثم توحيد الشام ومصر على يد البطل الجديد الملك الصالح نجم الدين أيوب: (وأما الخوارزمية لبعد أن أزال التتار دولتهم)، فإنهم تغلبوا على عدة قلاع وعادوا وخربوا البلاد (وكانوا مرتزقة شراً من التتار) ووقع الصلح في سنة ٦٤١هـ بين الصالحين (أي الملك الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل) والمنصور صاحب حمص على أن تكون دمشق للصالح إسماعيل، وأن يقيم هو والحلبيون والحمصيون الخطبة في بلادهم لصاحب مصر، وأن يخرج ولد الملك الصالح أيوب الملك المغيث من اعتقال الملك الصالح إسماعيل - والملك المغيث هو ابن الملك الصالح نجم الدين، كان معتقلاً قبل سلطنته في واقعة جرت. قلت: يعني: إن الصالح اسماعيل (عمّ الملك الصالح أيوب) قبض على المغيث بن الملك الصالح أيوب بعد خروج الصالح من دمشق قاصداً الديار المصرية قبل أن يقبض عليه الناصر داود ثم ساروا إلى مصر واتفق الملوك على عداوة الناصر داود، وجهز الصالح إسماعيل عسكراً يحاصرون عجلون (وهي للناصر)، وخطب لصاحب مصر الصالح نجم الدين في بلاده. وبقي عنده المغيث حتى تأتيه نسخ الأمان.

قال ابن واصل: فحدثني جلال الدين الخلاطي قال: كنت رسولاً من جهة الصالح إسماعيل، فورد عليّ منه كتاب، وفي طيه كتاب من الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية يحثهم على الحركة ويعلمهم أنه إنما صالح عمه الصالح ليخلص ابنه المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوته، ولا بد له من أخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين الدين، فأوقفته عليه فما أبدى عنه عذراً يسوغ.

وردّ الصالح إسماعيلُ المغيثَ بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، وقطع الخطبة، ورد عسكره عن عجلون، وأرسل إلى الناصر داود، واتفق وإياه على عداوة صاحب مصر، وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حمص عنه وصاروا كلمة واحدة عليه. واعتقلت رُسُلهم بمصر، واعتضد صاحب دمشق بالفرنج وسلم إليهم القدس وطبريا وعسقلان.

وتجهز صاحب مصر الملك الصالح أيوب لقتالهم، وجهز البعوث، وجاءته الخوارزمية فساقوا إلى غزة، واجتمعوا بالمصريين وعليهم ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي.

وتسلّم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمّروا قلعتي طبريا وعسقلان اخلافاً لصلح الملك الكامل مع الامبراطور الألماني)، ووعدهم الصالح إسماعيل (عمّ الملك الصالح أيوب) بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام الى غزة، ومضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكا وطلبها فأجابوه وصعد الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر والجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر، وقدم الناصر داود إلى القدس فنزل بغربيه.

ولما عدت الخوارزمية الفرات، وكانوا أكثر من عشرة آلاف، ما مروا بشيء إلا نهبوه، وتقهقر الذين بغزة منهم، وطلع الناصر إلى الكرك، وهربت الفرنج من القدس، فهجمت الخوارزمية على القدس وقتلوا من به من النصارى وهدموا مقبرة القمامة (أي المرفقة بكنيسة القيامة)، وجمعوا بها عظام الموتى، فحرقوها ونزلوا بغزة وراسلوا صاحب مصر: يعني الملك الصالح هذا، فبعث إليهم بالخلع والأموال وجاءتهم العساكر، وسار الأمير حسام الدين بن أبي علي بعسكر ليكون مركزاً بنابلس، وتقدم المنصور إبراهيم على الشاميين لقتال المصريين (وكان شهماً شجاعاً) ورافقته الفرنج من عكا وغيرها بالفارس والراجل، ونفذ الناصر داود عسكراً فوقع المصاف بظاهر غزة، فانكسر المنصور شر كسرة. وأخذت سيوفُ المسلمين الفرنجَ فأفنوهم قتلاً وأسراً، ولم يفت منهم إلا الشارد، وأسرَ أيضاً من عسكر دمشق والكرك جماعة من المقدمين.

قال ابن واصل: حكى لي عن المنصور أنه قال: (والله، لقد قصّرت ذلك اليوم ووقع في قلبي أنه لا ننتصر، لانتصارنا بالفرنج) - قال ابن بردي: (عليه من الله ما يستحقه من الخزي. وأيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً واحدة على المسلمين؟!). قال: ووصلت عسكر دمشق معه في أسوأ حال.

وأما مصر، فزينت زينة لم ير مثلها، وضربت البشائر، ودخلت أسارى الشام، الفرنج والأمراء، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة.

ثم عطف حسام الدين بن أبي علي وركن الدين بيبرس فنازلوا عسقلان وحاصروها وبها الفرنج الذين تسلموها، فجُرح حسام الدين وامتنعت عليهم عسقلان لحصانتها. ثم ترحلوا إلى نابلس وحكموا على فلسطين والأغوار إلا عجلون لكانت بيد سيف الدين بن قليج نيابة عن الناصر داود)).

كان سقوط بيت المقدس في يد قوات الملك الصالح نجم الدين أيوب صدى قوي في أوروبا يشبه صدى سقوطها في يد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م. إذ قام "روبرت" بطريق بيت المقدس بإرسال "جاليران" أسقف بيروت إلى ملوك أوروبا وأمرائها، يستعجلهم بإرسال إمدادات إلى الأراضي المقدسة؛ لمنع زوال مملكة بيت المقدس برمتها، وذلك في أثناء شهر من سقوط القدس بأيدي المسلمين. وبدأ الأوروبيون بدعم من بابا الكاثوليك "إنوسنت الرابع" Pope Innocent IV يجهزون لحملة صليبية كبرى ضد مصر، تمكنهم من استعادة بيت المقدس. وكان ملك فرنسا لويس التاسع من أكبر المتحمسين للحملة الجديدة. كان الصليبيون يدركون أن مصر صارت قلعة الإسلام وترسانته العسكرية، ومصدر القوة البشرية الرئيس للمسلمين، وهي العائق الرئيس الذي يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس. وقرروا أنهم لن يتمكنوا من احتلال كل الشام وبيت المقدس دون الإجهاز أولاً وبدايةً على مصر.

ثالثاً. توحيد الشام مع مصر (القضاء على تمرد الخوارزمية والصالح إسماعيل الخائن):

عزم الصالح أيوب صاحب مصر، في ٦٤٠هـ، على دخول الشام فقيل له: إن العساكر مختلفة، فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدير مملكتها. ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين بن الشيخ على جيشه، وأقامه مقام نفسه. وأنفذ معه الخزائن وحكمه في الأمور، وسار هو إلى الشام ومعه الخوارزمية، فنالوا دمشق وبها عمّه الخائن الصالح إسماعيل، والمنصور صاحب حمص، فذلّ الصالح إسماعيل (وبعث وزيره أمين الدولة مستشفعاً بالخليفة: ليصلح بينه وبين ابن أخيه الملك نجم الدين فلم يظفر بطائل ورجع).

واشتد الحصار على دمشق، وأُخذت بالأمان (لقلة مَن مع صاحبها، ولعدم الميرة بالقلعة، ولتخلي الحلبيين عنه: فترحل). ولما رأت الخوارزمية أن السلطان قد تملك الشام بهم وهزم أعداءه، صار لهم عليه إدلال كثير فطمعوا، فلما لم يحصلوا على شيء، فسدت نيتهم له وخرجوا عليه وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب وكان بغزة فأصغى إليهم - فيما قيل). وراسلوا صاحب الكرك فنزل إليهم ووافقهم، وكانت أمه أيضاً خوارزمية، وتزوج منهم ثم طلع إلى الكرك واستولى حينئذ على القدس ونابلس وتلك الناحية، وهرب منه نواب صاحب مصر. ثم راسلت الخوارزمية الملك الصالح إسماعيل وهو في بعلبك وحلفوا له. فسار إليهم واتفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر، فقلق الصالح لذلك، وطلب ركن الدين بيبرس فقدم مصر، فاعتقله، وكان آخر العهد به. **(وهذا غير بيبرس البندقداري الظاهري وإنما هذا أيضاً على اسمه وشهرته، وهذا أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم. وقد قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك لتمرده وأودعه السجن حيث قضى نحبه).**

ثم خرج الملك الصالح نجم الدين أيوب بعساكره فخيم بالعبّاسة، وكان قد نفذ رسوله إلى الخليفة المستعصم (ببغداد) يطلب تقليداً بمصر والشام أو الشرق. فجاءه التشريف والطوق الذهب والمركوب، فلبس التشريف الأسود

والعمامة والجبة وركب الفرس بالحلية الكاملة، وكان يوماً مشهوداً. ثم جاء عمه الخائن الصالح إسماعيل والخوارزمية ونازلوا دمشق، وليس بها كبير عسكر، وبالقلعة الطواشي رشيد، وبالبلد نائبها حسام الدين بن أبي علي الهذباني، فضبطها وقام بحفظها بنفسه ليل نهارَ، واشتد بها (أي بدمشق) الغلاء وهلك أهلها جوعاً ووباء.

وتوجه السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٦٤٤هـ إلى مصر، وتصدّق في القدس بألفي دينار، وأمر بعمارة سورها، وقال: اصرفوا دَخل البلد في عمارة السور.

فعند ذلك اتفق عسكر حلب والمنصور صاحب حمص على حرب الخوارزمية، فقصدوهم وتركوا حصار دمشق وساقوا يقصدونهم، فالتقى الجمعان ووقع المصاف في أول سنة ٦٤٤هـ على القصب قرب حمص، فاشتد القتال والصالح إسماعيل مع الخوارزمية، فانكسروا عندما قتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وانهزموا ولم تقم لهم بعدها قائمة، وعلق رأس بركة خان على قلعة حلب، وتشتتت الخوارزمية، وخدم طائفة منهم بالشام، وطائفة بمصر، وطائفة مع كشلوخان ذهبوا إلى التتار وخدموا معهم، وكفى الله شرهم ووصل الخبر إلى القاهرة، فزينت، وحصل الصلح التام بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبين صاحب حمص والحلبيين.

وأما الصالح إسماعيل الخائن، فإنه التجأ إلى ابن أخته الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. وسار نائب دمشق حسام الدين إلى بعلبك وحاصرها وبها أولاد الصالح إسماعيل فسلموها بالأمان، ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة: هم والوزير أمين الدولة والأستادار ناصر الدين بن يغمور، فاعتقلوا بمصر. وصفت البلاد للملك الصالح (بفضل الله ومنته عليه).

وبقي الملك الناصر داود – سامحه الله – بالكرك في حكم المحصور، ثم رضي السلطان على فخر الدين بن الشيخ، وأخرجه من الحبس وسيره إلى الشام واستولى على جميع بلاد الناصر داود، وخرب ضياع الكرك ثم نازلها أياماً، وقلّ ما عند الناصر من المال والذخائر، وقلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده من اليد، من الذبّ عنه وتمليكه ديار مصر (كان مزاجي الطبع، ينوي قتل الملك الصالح نجم الدين أيوب) وهي:

قـل للـذي قاسمتـه ملـك اليـد ... ونهضـت فيـه نهضـة المستأسـد
عاصيت فيه ذوي الحجا من أسرتي ... وأطعـت فيـه مكـارمي وتـوددي
يـا قـاطع الـرحم الـتي صلتي بهـا ... كتبـت علـى الفلـك الأثـير بعسـجد
إن كنـت تقـدح في صـريح مناسـبي ... فاصـبر بعزمـك للـهيب المرصـد
عمّـي أبـوك ووالـدي عـمٌ بـه ... يعلـو انتسـابك كـل ملـك أصـيد
صـالا وجـالا كالأسـود ضـواريا ... فارتـد تيـار الفـرات المزبـد
دع سـيف مقـولي البليـغ يـذبّ عـن ... أعراضـكم بفرنـده المتوقـد
فهـو الـذي قـد صـاغ تـاج فخـاركم ... بمفصـل مـن لؤلـؤ وزبرجـد

ثم أخذ يصف نفسه وجوده ومحاسنه وسؤدده، إلى أن قال:

يـا محرجـي بـالقول والله الـذي ... خضـعت لعزتـه جبـاه السُـجّد
والله يـا بـن العـمّ لـولا خـيفتي ... لرميـت ثغـرك بالعُـداة المُـرّد
لكـنني ممـن يخـاف حرامـه ... نـدماً يجـرعني سمـام الأسـود
فـأراك ربـك بالهـدى مـا ترتجـي ... لـنراك تفعـل كـل فعـل مرشـد

لتبد وجه الملك طلقاً ضاحكاً ... وترد شمل البيت غير مبدد
كي لا ترى الأيام فينا فرصة ... للخارجين وضحكة للحُسّد
لا زال هذا البيت مرتفع البنا ... يزهو بأمجد بعد آخر أمجد

ثم إن صاحب الكرك هذا الملك الناصر داود سافر إلى بغداد، فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسلم إليه الكرك، ففرح بها مع ما فيه من الأمراض، وزينت بلاده، وبعث إليها بالطواشي بدر الدين الصوابي نائباً. ثم قدم عليه أولاد الناصر داود، فبالغ الملك الصالح في إكرامهم وأقطعهم أخبازاً جليلة. ولم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، وأخفي موته. قال: ثم إن السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبي علي وولاه نيابة الديار المصرية، واستناب على دمشق الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، ثم قدم الشام وجاء إلى خدمته صاحب حماه الملك المنصور وهو ابن اثنتي عشرة سنة وصاحب حمص وهو صغير، فأكرمهما وقربهما ووصل إلى بعلبك، ثم رد إلى الشام، ثم رجع السلطان ومرض في الطريق إلى مصر.

وقد أذاق الله تعالى الملك داود هذا طعم الحبس بنفسه، مثلما حبس ابنَ عمّه الملك الصالح أيوب ظلماً وعدواناً (جزاء من جنس العمل). وعاد الملك الناصر داود في عام ٦٥٣هـ من الأنبار إلى دمشق، بعد أن حبسه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بقلعة حمص ثلاث سنين، وبعث به إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، ثم عاد في سنة ٦٠٣هـ إلى العراق وحجّ وأقام بالحلة، وكان قد جرى بين الحج العراقي وأصحاب أمير مكة فتنة فأصلح بينهم. وقد أودع الملك داود وديعة للخليفة المستعصم قد جحدها عليه. وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة ٦٣٢هـ، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنت في يوم السقيفة شاهداً ... كنت المقدم والإمام الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر: (اسكت فقد أخطأت، قد كان جدّ أمير المؤمنين العبّاس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا أبو بكر الصديق ﷺ)، فقال الخليفة: صدقت. فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى وعفا عنه.

رابعاً. الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة الهائلة رداً عسكرياً صارماً على تحرير القدس الثاني، يقودها ملك أوروبي مع أمراء أوروبا وولاتها (تشبه الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك إنكلترا). كان أول أهداف هذه الحملة هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، والقضاء على الدولة الأيوبية التي تحكم مصر والشام، ومن ثم إعادة احتلال بيت المقدس. وقد جهز الصليبيون هذه الحملة بتأنٍ في ثلاث سنوات، وحاولوا التحالف مع المغول؛ ليعاونوهم على تطويق العالم الإسلاميّ من المشرق والمغرب، فيصعب على مصر القتال على جبهتين في آن واحد، ويسهل عليهم إذاك الإطاحة بالعالم الإسلامي بضربة واحدة. وقام البابا بإرسال سفارتين إلى المغول، فأرسل مبعوثه الفرنسيسكاني "جيوفاني دا بيان كاربيني" إلى "جويوك" خان المغول الأعظم يطلب منه تحالفه مع الصليبيين. لكن ردّ "جويوك" كان مخيباً لآمال البابا، إذ ردّ عليه برسالة يطلب منه أن يعترف له بالسيادة، ويعلن خضوعه له مع ملوك أوروبا، بل طالبه بأن يأتي إلى بلاطه مع جميع ملوك أوروبا؛ لتقديم الجزية ومبايعته بوصفه الخان الأعظم وسيد العالم.

لكن إنوسنت الرابع لم يفقد الأمل، فقام في أيار/مايو عام ١٢٤٧م بإيفاد "أشلين اللومباردي Asclin of Lombardy" إلى القائد المغولي الإيلخان "بايجو" في تبريز. وبدا بايجو أكثر استعداداً للتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين، إذ اقترح أن يقوم بمهاجمة بغداد على أن يقوم الصليبيون في ذات الوقت بمهاجمة الشام فيحصل تطويق المسلمين، وأوفد رسولين إلى

روما بقيا في ضيافة بابا الكاثوليك نحو عام، ثم عادا إلى "بياتشو" ومعهما شكوى من البابا بأنه لم يلحظ أن "بايتشو" قد أقدم على فعل شيء مثمر يخدم التحالف المأمول؛ وأخفق عملياً التحالف الصليبي — المغولي.

وأبحر لويس، في جمادى الأولى ٦٤٦هـ–آب ١٢٤٨م، من مرفأ إيجو — مورت، وتبعته سفن من المرفأ ومن مرسيليا. كان الأسطول الفرنسي الصليبي ضخماً، ويتكون من نحو ١٨٠٠ سفينة محملة بنحو ٨٠ ألف مقاتل بعتادهم وسلاحهم وخيولهم. كان بصحبة لويس زوجته "مرجريت دو بروفنس Marguerite de Provence"، وأخوه الأول "شارل دي أنجو (Charlesd'Anjou)" وأخوه الثاني "روبير دي أرتوا (Robertd'Artois)" ونبلاء من أقاربه ممن شاركوا في حملات صليبية سابقة مثل: "هيو دو بورجوندي (Hugh deBurgundy)" و"بيتر دو بريتاني Peter de Brittany" وغيرهم. وتبعته سفينة على متنها فرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف سالزبري (William of Salisbury)" و" فير روزاموند (Fair Rosamond)". وكانت هناك فرقة إسكتلندية مات قائدها "باتريك أوف دونبار (Patrick of Dunbar)" في سفره إلى مرسيليا. أراد الملك لويس التوجه مباشرة إلى مصر من أجل عنصر المباغتة، لكن مستشاريه وباروناته فضلوا القيام بوقفة تعبوية لتجميع كل السفن والمقاتلين، فتوقف بجزيرة قبرص، إذ انضمّ إليه عدد كبير من بارونات سوريا وقوات من فرسان المعبد المعروفون بالداوية والإسبتارية التي قدمت من عكا تحت قيادة مقدميها.

قام لويس، في أثناء توقفه بقبرص، باستقبال وفد مغولي سلمه رسالة ودية من خان المغول يعرض عليه فيها خدماته؛ للاستيلاء على الأراضي المقدسة، وطرد المسلمين من بيت المقدس. فأرسل لويس هدية إلى خان المغول، وكانت خيمة ثمينة على هيئة محراب كنيسة، عليها رسم يمثل بشارة الملائكة لمريم العذراء؛ لترغيبه في اعتناق النصرانية، لكن لسوء حظ لويس، عدّ المغول هديته لهم بمنزلة رسالة تعني قبولهم الخضوع للصليبيين، فطلبوا منه إرسال هدايا لهم في كل عام لكونهم الأسياد، وهذا أصابه بصدمة (ويفعل الله ما يريد).

الاستخبارات المصرية: بلغت أخبار حملة لويس التاسع لغزو مصر إلى السلطان الصالح أيوب عن طريق إمبراطور ألمانيا "فردريك الثاني"؛ بسبب صداقته مع الأيوبيين والملك الظاهر وابنه الملك الصالح، فأرسل رسولاً من قبله، تنكر في زيّ تاجر؛ ليحذر الملك الصالح من تلك الحملة. وكان الإمبراطور الألماني فريدرك الثاني في صراع مع بابا الكاثوليك وضد أي حملة صليبية ضد المسلمين. وهذا منح السلطان أيوب فرصة للاستعداد وإقامة التحصينات. ثم إن توقف الحملة الصليبية في قبرص أدى إلى تسرب أنبائها إلى مصر قبل وصول سفنها إلى المياه المصرية.



الحملة الصليبية السابعة لغزو دمياط (مصر) في ١٢٤٩م

ولما علم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون طريق الصليبيين المفضل لغزو مصر، أنهى حصاره لحمص، وعاد من الشام إلى مصر على محفة؛ بسبب مرضه الشديد، ونزل في شهر محرم سنة ٦٠٧ —نيسان

١٢٤٩م، وعسكر بجيوشه جنوبها في بلد "أشموم طناح" (اليوم "أشمون الرمان") التابع لمحافظة الدقهلية – شمالي مصر – على البر الشرقي من الفرع الرئيس للنيل. وأمر بتحصين دمياط، وأصدر أوامره بالاستعداد وشحن دمياط بالأسلحة والأقوات والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وكان أميراً في نحو الثمانين، على رأس جيش كبير ليعسكر في البرّ الغربي لدمياط؛ حتى يواجه الفرنج إذا قدموا، ويمنع نزول العدو إلى الشاطئ.

أقلع الملك لويس، في ٦٤٧هـ – أيار عام ١٢٤٩م، في سفينته الملكية "لو مونت – جوي"، وأمر باروناته باتباعه بسفنهم إلى مصر، فأبحرت السفن من ميناء ليماسول القبرصي. وقعت عاصفة بحرية قوية، في أثناء التوجه إلى مصر، تسببت رياحها في جنوح نحو ٧٠٠ سفينة من سفن الحملة إلى عكا وسواحل الشام. كان ضمن المقاتلين على متن السفن الجانحة نحو ٢١٠٠ من فرسان لويس التاسع الذين كان مجموعهم نحو ٢٨٠٠ فارس، فتوقف لويس وقتاً قصيراً في جزيرة المورة اليونانية، حيث انضم إليه "هيو دو بورجوندي" الذي كان ينتظر هناك، ثم أبحر جنوباً صوب مصر. وكام هذا سبباً ثالثاً لمصلحة الاستخبارات المصرية وإحكام التحصينات المصرية.

الاستيلاء على دمياط: دخلت سفن الفرنج المياه المصرية، ووصلت إلى شاطئ دمياط ورست بإزاء المسلمين. كان المقاتلون الصليبيون، وهم ينظرون من فوق أسطح سفنهم، قد راعهم كثرة أجناد المسلمين على الشاطئ، وبريق أسلحتهم، وصهيل خيولهم. وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه الاستسلام، وكان السلطان الصالح مريضاً. اغرورقت عينا الصالح أيوب بعد أن قُرئ عليه كتاب لويس، وردّ عليه (يحذره من عاقبة عدوانه وصلفه، وينبئه أن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه). ولما وصل رد الملك الصالح إلى لويس برفض الاستسلام، قرر لويس بدء عملية الإنزال.

وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (صفر ٦٤٧هـ–حزيران ١٢٤٩م) وبدأ في اليوم الثاني فجر السبت ٢٢ صفر ٦٤٧هـ – ٥ حزيران ١٢٤٩م إنزال القوات الصليبية على برّ دمياط. وكانت القوات تضم نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل وفارس. ضُربت للويس خيمة حمراء كبيرة على الشط، ونشب قتال عنيف بين المسلمين والصليبيين، انتهى بتراجع المسلمين.



الإنزال العسكري الضخم للحملة الصليبية السابعة والاستيلاء على مدينة دمياط

وارتكب الأمير فخر الدين يوسف، في المساء، خطأً تكتيكياً فادحاً فانسحب هو وقواته المكلفة بحماية المدينة من دمياط إلى المعسكر السلطاني في "أشموم طناح"، بعد أن ظن أن السلطان قد فارق الحياة؛ لأنه لم يرد على رسائله التي بعث بها إليه بالحمام الزاجل. ترك فخر الدين دمياط خلفه بكل ما فيها من سلاح ومؤونة

وأقوات. ففزع السكان وفروا هم أيضاً منها، وخلفهم العربان الذين كانوا مسؤولين بالمشاركة في حماية المدينة. فعبر الجنود الصليبيون إلى المدينة المهجورة، سيراً على الجسر الذي نسيت الحامية الأيوبية تدميره قبل انسحابها، واحتلوا دمياط دون مقاومة، حتى إنهم ظنوا بادئ الأمر أنها مكيدة من المسلمين. استولى الصليبيون على المدينة بكل ما فيها من سلاح وعتاد ومؤونة، وحصنوا أسوارها. وهكذا سقطت دمياط في أيدي القوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال.

وكما يقول ابن تغري بردي: (ووقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم، حتى لم يبق بها أحد. وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين: فإن دمياط كانت في نوبة سنة خمس عشرة وست مئة أقل ذخائر وعدداً وما قدر عليها الفرنج إلا بعد سنة، وإنما هرب أهلها لما رأوا هرب العسكر وضعف السلطان. فلما أصبحت الفرنج ملكوها صفواً بما حوت من العدد والأسلحة والذخائر والغلال والمجانيق؛ وهذه مصيبة لم يجر مثلها!).

اغتبط الفرنج بالاستيلاء على دمياط بهذه السهولة، لكن لويس فضل التمهل في التقدم نحو الدلتا إلى أن تصل السفن الجانحة في الشام وإلى أن ينتهي موسم فيضان النيل: حتى لا يسقط في غلطة الحملة الصليبية الخامسة التي أغرقها فيضان النيل. وتحولت دمياط إلى مستعمرة صليبية، وعاصمة لمملكة ماوراء البحار (أوتريميه) وصار جامعها الكبير كاتدرائية، ونصب أحد القساوسة أسقفاً عليها، وأنشأت الأسواق الأوروبية، وأمسك تجار جنوا وبيزا بزمام التجارة فيها. واستقبل لويس صديقه بالدوين الثاني Baldwin II إمبراطور القسطنطينية، وحضرت زوجته من عكا للإقامة معه، وكانت قد توجهت من قبرص إلى عكا عند إبحاره إلى مصر.

المقاومة الإسلامية: أما في الجانب المصري، فقد وقعت أنباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين كالصاعقة على الناس، واشتد حنق السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين، وقال له: "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟". وأمر بإعدام نحو ٥٤ من أمراء العربان الذين تهاونوا وغادروا دمياط بغير إذن، وصلبهم ليكونوا عبرة للمنهزمين المتولين في أثناء الزحف. يقول ابن تغري بردي: (فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان، حنق على الشجعان الذين كانوا بها وأمر بهم فشنقوا جميعاً ثم رحل بالجيش وسار إلى المنصورة، فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه نزلها، وبها قصر بناه أبوه الكامل. ووقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أممٌ لا يحصون من المطوعة والعُربان، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم، واستمر ذلك أشهراً، والسلطان يتزايد مرضه، والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به. وتقدّم السلطان المجاهد وهو في مرض الموت ليقود القتال والمقاومة بنفسه، فحُمل السلطان المريض في حراقة إلى قصر المنصورة.

واشتعلت روح الجهاد، وقدمت الشواني (السفن) بالمحاربين والسلاح من أنحاء مصر كافة إلى المنصورة، استجابة لنفير الجهاد العام لأجل الجهاد ضد الغزاة. وتوافد على المدينة أفواجٌ من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والمغرب الإسلامي. وقامت حرب عصابات ضد الجيش الصليبي المتحصن خلف الأسوار والخنادق. وراح المجاهدون يشنون هجمات على معسكراته ويأسرون مقاتليه وينقلونهم إلى القاهرة). ويروي المؤرخ الصليبي "جوانفيل Joinville" الذي رافق الحملة، أن المسلمين كانوا يتسللون في أثناء الليل إلى المعسكر الصليبي، ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون برؤوسهم. ويذكر المؤرخ ابن أيبك الدواداري أن الصليبيين كانوا يخافون من العوام المتطوعين أكثر من الجنود، واقتصر الأمر على الغارات التي يشنها الفدائيون المسلمون على معسكر الصليبيين واختطاف كل من تصل إليه أيديهم، وابتكروا لذلك وسائل تثير الدهشة والإعجاب. من ذلك أن مجاهداً من المسلمين قوّر بطيخة خضراء، وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن اقترب من معسكر الصليبيين، فظنه بعضهم بطيخة عائمة في الماء، فلما نزل لأخذها خطفه الفدائي المسلم وأتى به أسيراً. وتعددت مواكب أسرى الصليبيين في شوارع القاهرة على نحو زاد من حماسة الناس، ورفع معنويات المقاتلين إلى السماء.

التقدم الصليبيّ إلى المنصورة باتجاه القاهرة: وفي الوقت نفسه قامت البحرية المصرية بحصار قوات الحملة وقطع خطوط إمدادها في فرع دمياط. استمر هذا الوضع ٦ أشهر منذ قدوم الحملة، ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث، ووصل في ٢٤ تشرين الأول إلى دمياط من فرنسا "ألفونس دي بواتيه Alphonse de Poitiers" الشقيق الثالث للملك لويس، ومعه إمدادات وقوات إضافية. تشجع الصليبيون بوصول الإمدادات، وعقد الملك مجلساً للحرب لوضع خطة الزحف، فقرروا التحرك من دمياط، وكان على لويس الاختيار بين السير إلى الإسكندرية : كما اقترح "بيتر أوف بريتني" والبارونات، أو السير إلى القاهرة، كما أصرّ "روبرت دو أرتوا" شقيق لويس الذي أشار : "إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها". واختار لويس ضرب رأس الأفعى (أي القاهرة)، فأمر بالسير إلى القاهرة. وبعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط، خرج الصليبيون يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧هـ — ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م من دمياط، وساروا على البر، في حين إن شوانيهم في بحر النيل توازيهم (أي: سارت سفنهم بحذائهم في فرع النيل). وبقيت في دمياط حامية صليبية.

وقاتلوا المسلمين هنا وهناك، حتى وصلوا في ٢١ كانون الأول إلى ضفة بحر أو قناة أشموم (يعرف اليوم بالبحر الصغير)، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة على الضفة الأخرى، عند مدينة المنصورة. وصارت مياه بحر أشموم الحاجز الطبيعي الفاصل بينهم وبين معسكر المسلمين. حصّن الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا خنادقهم، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على عسكر المسلمين، ووقفت شوانيهم بإزائهم في بحر النيل، ووقفت شواني المسلمين بإزاء المنصورة، ووقع قتال شديد بين الصليبيين والمسلمين في البر ومياه النيل. حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى الجانب الآخر، ولكن المسلمين ظلوا يمطرونهم بالقذائف ويجرفون الأرض في جانبهم كلما شرعوا في إكمال الجسر، حتى تخلوا عن الفكرة. وراحت المساجد تحضّ الناس على الجهاد ضد الغزاة مُرددة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، فصار الناس يتواردون من أنحاء مصر على منطقة الحرب بأعداد غفيرة.

وفاة السلطان الصالح أيوب: وبينما كان الصليبيون يتقدمون جنوباً داخل الأراضي المصرية، اشتدّ المرض على السلطان الصالح أيوب وفارق الحياة بالمنصورة في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ — ٢٣ تشرين الثاني 1249م، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته، بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتابك العسكر والطواشي جمال الدين محسن رئيس القصر؛ خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وكي لا يعلم الصليبيون فيزيد عزمهم ويشتد بأسهم، وكي لا تتأثر معنويات الجيش والعوام. أدارت أرملة السلطان الصالح شجرة الدر الأمور بجسارة، واستحثت الأمير فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية الصالحية أن يرسل رسالة عاجلة إلى حصن كيفا في شمال العراق؛ لإحضار (توران شاه) ابن السلطان المتوفى لتسلم تخت السلطنة وقيادة البلاد في حربها ضد الغزاة. لكن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرّب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجّع الصليبيون أكثر، وظنوا أن التحالف القيادي القائم بين شجرة الدرّ، وهي امرأة، والأمير فخر الدين، وهو رجل طاعنٌ في السن، لن يصمد طويلاً وسوف يتهاوى عاجلاً ومعه مصر.

الهجوم الصليبيّ عبر المخاضة، ونصر الله في معارك المنصورة: وجب على الصليبيين لمواصلة الزحف أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم، فاختار لويس التاسع القناة. وفي ٥ ذي القعدة ٦٤٧هـ — ٨ شباط ١٢٥٠م، تمكنت فرقة يقودها أخو الملك "روبرت دي أرتوا" مع فرسان المعبد (الداوية)، وفرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف ساليزبري William of Salisbury"، بمساعدة أحد الخونة الذي دلّ الصليبيين على مخائض في بحر أشموم، من العبور بخيولهم وأسلحتهم إلى الضفة الأخرى ليفاجأ المسلمون بهجوم صليبي كاسح على معسكرهم في "جديلة" على نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة المنصورة. قتل في هذا الهجوم المباغت الأمير فخر الدين يوسف، ابن الشيخ مقدم العساكر المصرية، وهو خارج من الحمام مدهوشاً بعدما سمع جلبة وصياحاً في المعسكر. وأدى الهجوم إلى تشتت

الأجناد وتقهقرهم مذعورين إلى المنصورة. وبعد أن احتل الصليبيون معسكر جديلة، تقدموا خلف "روبرت دو أرتوا" نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصري برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لاريب منتصرون.

أمسك المماليك بزمام الأمور بقيادة فارس الدين أقطاي، الذي أصبح القائد العام للجيش المصري، وكان هذا أول ظهور للمماليك بوصفهم قواداً عسكريين داخل مصر. تمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها، ووافقت شجرة الدر – الحاكم الفعلي للبلاد – على خطة بيبرس البندقداري، باستدراج القوات الصليبية المهاجمة داخل مدينة المنصورة. فأمر بيبرس بفتح باب من أبواب المنصورة وبتأهب المسلمين من الجنود والعوام داخل المدينة مع التزام السكون التام.

وبلعت القوات الصليبية الطعم، فظن فرسانها أن المدينة قد خوت من الجنود والسكان، كما حدث من قبل في دمياط، فاندفعوا إلى داخل المدينة بهدف الوصول إلى قصر السلطان، فخرج عليهم بغتة المماليك البحرية والجمدارية، وهم يصيحون كالرعد القاصف، وأخذوهم بالسيوف من كل جانب ومعهم العربان والعوام والفلاحون يرمونهم بالرماح والمقاليع والحجارة، وقد وضع العوام على رؤوسهم طاسات نحاس بيضاً عوضاً عن خوذ الأجناد، وسد المسلمون طرق العودة بالخشب والمتاريس، فصعب على الصليبيين الفرار، وأدركوا أنهم قد سقطوا في كمين محكم داخل أزقة المدينة الضيقة، وأنهم متورطون في معركة حياة أو موت، فألقى بعضهم بأنفسهم في النيل وابتلعتهم المياه. قتل عدد كبير من القوات الصليبية المهاجمة، ولم ينج من فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية سوى ثلاثة مقاتلين، وفنيت الفرقة الإنجليزية تقريباً عن آخرها. واضطر أخو الملك لويس "روبرت دي أرتوا" إلى الاختباء في أحد الدور، ثم قُتل هو و"وليم أوف ساليزبري" قائد الفرقة الإنجليزية.

وفي أثناء المعركة راح الفرنج على الضفة المقابلة لبحر أشموم يكدّون ويجدون لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور لمساعدة فرسانهم، ولكن لما وردتهم أنباء سحق الفرسان، عن طريق "بيتر أوف بريتني" الذي فرّ إليهم بوجه مشجوج من ضربة سيف، وشاهدوا بقايا فرسانهم مدبرين إلى جهتهم والمسلمين في أعقابهم، راحوا يلقون بأنفسهم في مياه النيل بغية العودة إلى معسكراتهم، وكاد لويس ذاته يسقط في الماء. يصف المؤرخ "جوانفيل" الذي حضر الواقعة كالآتي: (في تلك المعركة أعداد كبيرة من الناس، من ذوي الهيئات المحترمة، ولّوا مدبرين فوق الجسر الصغير في مشهد مخزٍ إلى أبعد الحدود. لقد كانوا يهرولون وهم في حالة من الذعر الشديد، وبدرجة جعلتنا لا نتمكن من إيقافهم على الإطلاق. أستطيع ذكر أسمائهم، ولكنني لن أفعل ذلك؛ لأنهم صاروا في عداد الأموات).

وبذلك أصبح الصليبيون في ذات الموقع الذي باتوا فيه في الليلة السابقة على الضفة الشمالية من بحر أشموم، إذ أداروا عليهم سوراً، وبقوا تحت هجوم مستمر طوال اليوم. وقد اتهم بعض الفرسان لويس التاسع بالجبن والتخاذل.

عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش المصري مجلس الحرب في اليوم اللاحق لمعركة المنصورة لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على إشارة تحمل علامة البيت الملكي الفرنسي، كان صاحب الإشارة هو شقيق الملك لويس، "روبرت دي أرتوا" الذي لقي مصرعه في المعركة، وعرض الأمير أقطاي على ضباطه معطف الكونت أرتوا ظناً منه أنها سترة الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور، مسوّغاً ذلك بقوله:

"كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد"، فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفوري على معسكر الصليبيين.

قام الجيش الإسلامي المصري بشنّ هجومه الكاسح الواسع على معسكر الفرنج، في فجر يوم الجمعة ٨ ذي القعدة ٦٤٧هـ – ١١ شباط ١٢٥٠م، لكن الملك لويس تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة؛ وفي هذا الهجوم فقدَ مقدم فرسان المعبد "وليم أوف سوناك William of Sonnac" إحدى عينيه، ثم فقد الأخرى بعد بضعة أيام ومات.

وبذلك انتهت معركة المنصورة الثانية، وهي المعركة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لن يستطيعوا البقاء في مراكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الأوان.

توران شاه وخطته وانتصاره في معركة فارسكور: لم تمض أيام بعد معركة المنصورة الثانية، حتى وصل توران شاه في ٢٣ ذي القعدة ٦٧٤هـ – ٢٧ شباط ١٢٥٠م، وتولى قيادة الجيش، وأخذ في إعداد خطة لإجبار الملك لويس التاسع على التسليم، بقطع خط الرجعة على الفرنسيين، فأمر بنقل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، وإنزالها خلف الخطوط الصليبية في النيل.

وتمكنت الأساطيل المصرية بهذه الوسيلة من مهاجمة السفن الصليبية المحملة بالمؤن والأقوات، والاستيلاء عليها وأسر من فيها، وأدى هذا إلى سوء الحال بالفرنسيين، وحلول المجاعة بمعسكرهم، وتفشي الأمراض والأوبئة بين الجنود، فطلب لويس التاسع الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد ساحل الشام، فرفض المصريون ذلك وأصرّوا على مواصلة الجهاد.

لم يجد الصليبيون بداً من الانسحاب إلى دمياط تحت جنح الظلام، وأمر الملك بإزالة جسر قناة أشموم، غير أنهم في غمرة فزعهم نسوا قطع الجسر، فعبره المصريون في الحال، وتعقبوا الصليبيين، وطاردوهم حتى فارسكور، وطوّقوهم هناك، وانقضوا عليهم في يوم الأربعاء الموافق ٣ محرم سنة ٦٤٨ هـ – نيسان ١٢٥٠م، وقتلوا منهم أكثر من عشرة آلاف، وأسروا عشرات الألوف.

وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكانت النصرة أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فقال الشيخ عزّ الدين، بأعلى صوته، مشيراً بيده إلى الريح: (يا ريح خذيهم) عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ: (الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخر له الريح)، وكان ذلك في يوم الأربعاء ٣ المحرم.

وأسر الفرنسيس ملك الفرنج بين آلاف الأسرى في قرية "منية عبد الله" شمال مدينة المنصورة، ونقل إلى دار القاضي فخر الدين بن لقمان، إذ بقي سجيناً مدة من الزمان، وحبس مقيداً بدار ابن لقمان، ووكل بحفظه طواشي يقال له: صبيح.





تمثال لويس التاسع في مصلى القديس بباريس. ملك فرنسا لويس التاسع أتى غازياً مصر ورحل أسيراً

نتائج معركة المنصورة (أو بالأحرى معارك المنصورة الأولى والثانية وفارسكور): كان النصر كله يعود، بعد فضل الله تعالى أولاً، إلى المجاهد الملك الصالح (على الرغم من موته)، فهو الذي تولى قيادته، وخطط له، وألهب حماسه عند الانكسار، وهو الذي ربى روح الجهاد في زوجته شجرة الدر، وفي ابنه، وفي مماليكه، الذين تنفسوا أنفاسه، وعاشوا هموم أستاذهم وجديته، بل عايشوا روح أستاذهم الوثابة في الجهاد والمصابر ، وفي القتال والاستشهاد حتى النصر. انطلق الحمام من المنصورة بنبأ الانتصار على الصليبيين وحط بالقاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل، وفرح الناس، وأقيمت الزينات.

وتحققت نبوءة الصالح أيوب أن (بغي لويس التاسع سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه). قتل في حملة لويس التاسع استناداً إلى المصادر الإسلامية أكثر من ٣٠ ألف، وقيل ١٠٠ ألف من الجنود الصليبيين. أسر لويس التاسع في "منية عبد الله" (ميت الخولي عبد الله الآن)، بعد أن استسلم مع نبلائه للطواشي جمال الدين محسن الصالحي، وأودع مغللاً في بيت القاضي إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، تحت حراسة طواشي يدعى صبيح المعظمي. وأسر أيضاً أخواه "شارل دانجو" و"ألفونس دو بويتي" وعدد كبير من أمرائه ونبلائه، وقد سجن معظمهم معه في د ر ابن لقمان. أما الجنود العاديون الذين أسروا، فقد أقيم لهم معتقل خاص خارج المدينة. وانتشرت بعض الأمراض بين الأسرى كالملاريا والدزنطاريا والإسقربوط، حتى إن الملك أخذت أسنانه تسقط، وتعيّن حمله لقضاء حاجته.

سُمح للويس التاسع بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط إلى المصريين، والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، وأخلي سبيل لويس مقابل فدية ضخمة ٨٠٠ ألف بيزة ذهبية. على أن يدفع نصفها مباشرة فدفع ٤٠٠ ألف دينار ذهبي تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها بمصر (دفع نصف المبلغ بعد أن جمعته زوجته في دمياط. ووعد بدفع النصف الباقي بعد وصوله إلى عكا، وهو مالم يفعله بعد أن تهرب من الدفع فيما بعد).

بعد احتلال دام ١١ شهراً و٩ أيام، سلم لويس التاسع دمياط في ٣ صفر ٦٤٨هـ - ٨ أيار ١٢٥٠م، وغادرها إلى عكا مع أخويه و١٢,٠٠٠ أسير كان من ضمنهم أسرى من معارك سابقة. أما زوجته "مرجريت دو بروفنس"، التي كانت في أثناء ذلك قد أنجبت طفلاً في دمياط أسمته "جان ترستان Jean Tristan" أي "جان الحزن"، فقد غادرت دمياط مع وليدها قبل مغادرة زوجها ببضعة أيام. وكانت مرجريت تعاني كوابيس مرعبة في أثناء نومها، وتتخيل أن غرفتها تغتص بالمسلمين، فكانت دائماً تصرخ في الليل: "أغيثوني... أغيثوني".

أما "جان ترستان" فقد مات مع لويس التاسع في سنة ١٢٧٠م في أثناء الحملة الصليبية الثامنة على تونس، وهي الحملة التي كان من أهدافها تحويل تونس إلى قاعدة صليبية ينطلق منها لويس التاسع لمهاجمة مصر مرة أخرى: مع أن هذا القديس الكاذب كان قد أقسم بعدم العودة إلى مصر (وهو أحد شروط إطلاق سراحه).

ثم اتفقت شجرة الدر والآراء على إطلاق الفرنسيس، بشرط أن يردوا دمياط إلى المسلمين، ويعطوا ثماني مئة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقوا أسرى المسلمين. فأطلق على هذا الشرط، فلما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط، فندمت الأمراء على إطلاقه؛ وقال الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، وكتب وبعث بها إليه، يعني إلى ملك الفرنسيس وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح

تسعين ألفاً لا ترى منهم	إلا قتيلاً أو أسيراً جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم، إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لعقد صحيح:
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

فلله درّه فيما أجاب عن المسلمين، مع اللطف والبلاغة العربية وحسن التركيب رحمه الله.

قال سعد الدين في تاريخه: اتفقوا على أن يسلم الفرنسيس دمياط، وأن يعطي هو والكنود ثماني مئة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل ويطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا، وركبت العساكر ثاني صفر إلى دمياط قرب الظهر، وساروا حتى دخلوها ونهبوا وقتلوا من بقي من الفرنج، حتى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم وقوموا الحواصل التي بقيت في دمياط بأربع مئة ألف دينار، وأخذوا من الملك الفرنسيس أربع مئة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته فانحدروا في شيني إلى البطس وأنفذ رسولاً إلى الأمراء الصالحية، يقول: (ما رأيت أقل عقلاً ولا ديناً منكم! أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب، يعني لما قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظم توران شاه بعد أخذ دمياط بأيام، وأما قلة العقل، فكذا مثلي ملك البحر وقع في أيديكم بعتموه بأربع مئة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص). ثم لما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط فأهلكه الله تعالى، وندمت الأمراء على إطلاقه.

لم يعد لويس إلى وطنه فرنسا بل آثر البقاء في مدينة عكا بعد أن سمح لإخوته ومعظم نبلائه بالسفر إلى فرنسا، وحمّلهم رسائل إلى ملوك أوروبا يطلب فيها النجدة والمدد، لعله يتمكن من إحراز نصر في الشام يمسح به وصمة الإخفاق والهزيمة التي لحقت به في مصر، ودعا البارونات إلى حملة صليبية، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات و لفرسان تجاهلوا هذه الدعوة، فاضطر الملك لويس التاسع إلى مغادرة عكا والعودة إلى فرنسا في نيسان ١٢٥٤م بعد أربع سنوات، بعد أن توفيت والدته "الملكة بلانش القسطلية" التي كانت تدير شؤون الحكم في فرنسا وقت غيابه، وكان عمره إذاك ٤٠ سنة، وقد ضاعت أمواله هباء منثوراً.

كان عمره ٥٦ سنة (أيام السلطان الظاهر بيبرس) في ١٢٧٠م، قام هذا الملك لويس التاسع بالحملة الصليبية الثامنة (مكذباً أقواله ومخلفاً وعده) إلى تونس لإيجاد قاعدة عسكرية في شمال إفريقيا ينطلق منها إلى مصر. فسلط الله على عسكره وباء الطاعون، فصرعه الله تعالى هو وابنه هناك، وماتت معه حملته الصليبية الثامنة والأخيرة.




الملك لويس التاسع جاء ثانية غازيا تونس، وخرج منها ميتا بوباء الطاعون هو وابنه، وانتهت حملته الصليبية الثامنة بالخسران أيضاً

على الرغم من الهزيمة الساحقة التي مني بها لويس وجيشه والأعداد الغفيرة من قتلاه وجرحاه وأسراه، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول إلى "رأس الأفعى" في القاهرة، بل لم يتمكن من الاستيلاء على المنصورة، وفر في النهاية بقواته ووقع في الأسر وقيّد بالسلاسل مع باروناته، ووُضع في السجن تحت حراسة خاصة، وكاد أن يُقتل لولا موافقة شجرة الدر والمماليك على إطلاق سراحه مقابل دفع دية، على الرغم من كل ذلك فإن بعض المؤرخين الغربيين أشاروا إلى أن لويس انتصر في معركة المنصورة!! وعدُّوا الهجوم الخاطف على معسكر المسلمين في جديلة وصمود لويس عند الجسر في أثناء فرار فرسانه عدوه انتصاراً، وأن هذا الصمود هو معركة المنصورة!! هذا، على الرغم من أن بعض الفرسان الفارين اتهموا لويس: بسبب توقفه عند الجسر بالجبن والتخاذل، وأضافوا أن استسلامه في فارسكور كان نتيجة لخيانة جندي صليبي رشاه المسلمون: كي يصيح في الجنود على لسان لويس بإلقاء السلاح والاستسلام. وأضافوا أن المسلمين طلبوا منه بعد القبض عليه أن يوافق على تنصيبه سلطاناً على مصر ولكنه رفض في عزة وكبرياء، متحججاً بأنه في حالة تنصيبه سلطاناً سيضطر إلى تخيير رعيته المسلمة بين اعتناق النصرانية أو القتل!!!

ويعبر وصف المؤرخ الصليبي "ماثيو باريس"، المتوفى عام ١٢٥٨م، الذي سجله في كتابه بعد أحداث معركة المنصورة، عن مدى الألم الذي شعر به الصليبيون بعد هزيمتهم: "كل الجيش المسيحي تمزق إرباً في مصر، وا أسفاه، كان يتكون من نبلاء فرنسا، وفرسان الداوية والإسبتارية وتيوتون القديسة ماري وفرسان القديس لازاروس". عززت هزيمة القوات الصليبية في المنصورة اسم تلك المدينة المرتبط بالانتصار الذي يرجع إلى تاريخ أقدم من الحملة الصليبية السابعة.

توزعت الخريطة السياسية والعسكرية في شرق حوض البحر المتوسط بعد هزيمة الصليبيين سنة ١٢٥٠م-٦٤٨هـ على أربع قوى أساسية: المماليك في مصر، والأيوبيون في الشام، والصليبيون في عكا وساحل الشام (طرابلس، وصيدا، وصور)، ومملكة قليقيا الأرمينية، وإمارة أنطاكيا الصليبية.

تسلطن الملك المعظم: بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو أربعة أشهر ونصف؛ لأن الملك الصالح أيوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفرنج محدقة بعساكر الإسلام، فأخفت زوجته أم ولده خليل شجرة الدر موته مخافة على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظم هذا بالسلطنة في غيبته وصارت شجرة الدر تدبر الأمور وتخفي موت السلطان الملك الصالح، إلى أن حضر المعظم توران شاه هذا من حصن كيفا إلى المنصورة في أول المحرم من سنة ثمان وأربعين وست مئة. وكان المعظم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا وغيرها من ديار بكر. ولما وصل المعظم إلى المنصورة، فتح الله على يديه ونصر الله الإسلام في يوم دخوله، فتيمن الناس بطلعته.

وسبب النصر أنه لما استهلت سنة ٦٤٨هـ، والفرنج على المنصورة والجيوش الإسلامية بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين أشهراً، ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، ووقع في خيلهم وباء وموت، وعزم ملكهم الفرنسيس على أن يركب في أول الليل، ويسير إلى دمياط، فعلم المسلمون بذلك.

وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر منه المسلمون في الليل إلى برهم وخيامهم على حالها وثقلهم وأحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً، فالتجؤوا إلى قرية تسمى منية أبي عبد الله وتحصنوا بها ودار المسلمون حولها، وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم فغنموا جميع المراكب بمن فيها.

واجتمع لى الفرنسيس ٥٠٠ فارس من أبطال الفرنج وقعد في حوش منية أبي عبد الله، وطلب الطواشي رشيد الدين والأمير سيف الدين القيمري فحضرا إليه، فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه، فأجاباه. وهرب باقي الفرنج على حمية وأحدق المسلمون بهم، وبقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة حتى أبيدت الفرنج ولم يبق منهم سوى فرسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنم المسلمون منهم ما لا يوصف، واستفتى خلق وأنزل الفرنسيس في حراقة وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول. وأحصي عدة الأسرى فكانوا نيفاً وعشرين ألف آدمي، والذي غرق وقتل سبعة آلاف نفس.

ستر القتلى وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وسائق يسوقه وراءه كأنه أذلّ ما يكون وكان يوماً لم يشاهد المسلمون مثله ولم يقتل في ذلك اليوم من المسلمين مئة نفس، ونفذ السلطان الملك المعظم توران شاه للفرنسيس والملوك الذين معه والكنود خلعاً، وكانوا نيفاً وخمسين فلبس كلهم سواه. وقال: (**إن بلادي بقدر بلاد صاحب مصر كيف ألبس خلعته!**). وعمل السلطان من الغد دعوة عظيمة، فامتنع الملعون أيضاً من حضورها، وقال: (**أنا ما آكل طعامه، وما يحضرني إلا ليهزأ بي عسكره، ولا سبيل إلى هذا!**). وكان عنده عقل وثبات ودين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. وانتقى الملك المعظم الأسرى، وأخذ أصحاب الصنائع، ثم أمر بضرب رقاب الجميع.

وقال غيره: وحبسوا الفرنسيس بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشي صبيح مكرماً غاية الكرامة. وقال أبو المظفر في تاريخه "مرآة الزمان": "وفي أول ليلة منها يعني سنة ثمانٍ وأربعين، كان المصاف بين الفرنج والمسلمين على المنصورة بعد وصول المعظم توران شاه إلى المخيم، ومسك الفرنسيس وقتل من الفرنج مئة ألف، ووصل كتاب المعظم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور؛ يعني إلى نائب الشام، يقول:

(﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤-٥] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر الإسلام كافة، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شرّه ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] الآية.

ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة، تمّم الله على الإسلام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة، واجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى، فجاؤوا من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحيق. ولما رأى العدو ذلك، أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبي بكر فأبينا.

ولما كان في الليل، تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا في آثارهم طالبين، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ويدخل فيهم الخزي والويل. فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج. وأما الأسرى فحدّث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعونه وقوته وجلاله وعظمته).

وارسل الملك المعظم مع الكتاب إلى ابن يغمور المذكور بغفارة الفرنسيس، فلبسها ابن يغمور في دست ملكته بدمشق، وكانت سقراط أحمر بفرو سنجاب.

فكتب ابن يغمور في الجواب إلى السلطان الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل وهما:

أسـيد أمـلاك الزمـان بأسـرهم	تنجـزت مـن نصـر الإلـه وعـودهُ
فـلا زال مولانـا يبيـحُ حمـى العـدا	ويلـبسُ أسـلابَ الملـوك عبيـدهُ

وقال غيره: وبقي الفرنسيس في الاعتقال إلى أن قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فدخل حسام الدين بن أبي علي نائب السلطان في قضيته، على أن يسلم للمسلمين دمياط ويحمل خمس مئة ألف دينار، فأركبوه بغلة وساقت معه الجيوش إلى دمياط، فما وصلوا إلا والمسلمون على أعلاها بالتكبير والتهليل، والفرنج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب وأخلوها فخاف الفرنسيس واصفر لونه.

فقال الأمير حسام الدين بن أبي علي للملك المعز: هذه دمياط، قد حصلت لنا، وهذا الرجل في أسرنا وهو عظيم النصرانية وقد اطلع على عوراتنا، والمصلحة ألا نطلقه. وكان قد تسلطن أيبك التركماني الصالحي أو صار حاكماً عن الملكة شجرة الدر، فقال أيبك وغيره من المماليك الصالحية: ما نرى الغمر! وكانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقووا عليه وأطلقوه طمعاً في المال! فركب في البحر الرومي في شيني.

وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيس عن عدة العسكر الذي كان معه لما قدم لأخذ دمياط، فقال: كان معي تسعة آلاف وخمس مئة فارس ومئة ألف وثلاثون ألف طبسي سوى الغلمان والسوقة والبحارة. انتهى.

وهكذا كانت سنة ٦٤٨هـ سنةً حاسمة في التاريخ الإسلامي: فهي سنة كسرة الفرنج على دمياط، والقبض على الملك لويس التاسع. وفيها: أخرب المماليك الترك دمياط، وحملوا آلاتها إلى مصر وأخربوا الجزيرة، أعني الروضة، وأخلوها (لكي لا يستخدمها الصليبيون بوصفها قواعد لهم عند الإغارة على مصر). لما فرغ المماليك والمصريون من خراب دمياط وتفرّق أهلها، نقلوا أخشاب بيوتهم وأبوابهم منها وتركوها خاوية على عروشها، ثم بنيت بعد ذلك بليدة بالقرب منها تسمى: المنشية. وكان سور دمياط من عمل المتوكل على الله. ونقلوا، في السنة اللاحقة (٦٤٩هـ)، تابوت الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى تربته بالقاهرة بـ (بين القصرين). ولبس الأمراء ثياب العزاء وناحوا عليه بـ (بين القصرين)، وتصدقت زوجته (جاريته وأرملته) شجرة الدر في ذلك اليوم بمال عظيم.

قتل الملك المعظم توران شاه وأسباب القتل: وقتل، في السنة نفسها ٦٤٨هـ، الملك المعظم توران شا... وسبب قتل الملك المعظم توران شاه هو أنه عند وصوله إلى مصر، في أثناء كسرة الفرنج، تيمّن الناس بطلعته، غير أنه بدت منه أسباب نفرت القلوب عنه، فاتفقوا على قتله. كان فيه نوع خفة، فكان يجلس على السماط فإذا سمع فقيهاً يذكر مسألة وهو بعيد عنه يصيح: لا نسلم! ثم احتجب عن الناس أكثر من أبيه، وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها، ويقول: كذا أفعل بالبحرية! يعني مماليك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة، ثم يسمي مماليك أبيه بأسمائهم، وأهانهم وقدّم الأراذل وأبعد الأماثل، فقرّب مماليكه، وأبعد مماليك أبيه، وما حفظ للمماليك البحرية حسن صنيعهم بقتال المنصورة، ولا هو أحسن لأرملة أبيه على ما ضحّت وقامت به من جهاد بالمال وعظيم الفعال: وهي التي أرسلت في طلبه لتسلم السلطنة. فضلاً على أنه وعد الفارس أقطاي أن يؤمره (وهو قائد الجيوش الفعلي قبل مجيئه)، ولم يف له فاستوحش منه.

وكانت أم خليل: يعني شجرة الدر زوجة والده الملك الصالح، لما وصل إلى القاهرة مضت هي إلى القدس، فبعث يهدّدها ويطلب المال والجواهر منها، فخافت منه فكاتبت فيه، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله. وفي هذا عبرة للملوك، ألا يغتروا وأن يحفظوا للناس مواقفهم، فالله يبدل من حال إلى حال بلمحة من لمحات البصر. وقتلوه بعد شهرين من ملكه، في يوم الإثنين ٢٧ المحرم، ضربه بعض الأمراء، وهو عز الدين أيبك التركماني: ضربه في

يده فقطع بعض أصابعه وصاح: من جرحني؟ قالوا: الحشيشية. فقال: لا والله إلا البحرية، والله لا. واستدعى المزين فخيّط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: تمّموه وإلا أبادكم! فهرب إلى قصر من خشب في المخيم، فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة، وهو يستغيث فلا يغاث.

وكان الذي باشر قتله أربعة، وكان أبوه الملك الصالح أيوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخي العادل إلى الحبس وخذ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم مضوا معه وخنقوه: فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتلة، ومثلوا به أعظم مثلة، لما فعل بأخيه! ويُقال: إنه، في ٥ شوال سنة ٦٤٦هـ، جهز الصالح أخاه العادل (الذي أراد أصلاً قتل أخيه الصالح) ونفاه إلى الشوبك وبعث إليه الخادم محسناً، فقال: إن أردتم أن تقتلوني في الشوبك فهاهنا أولى، ولا أروح أبداً. فعذله محسن، وعرف الصالح أيوب بقوله، فقال: دبر أمره. فأخذ المحسن ثلاثة مماليك، ودخلوا عليه ليلة الإثنين ١٢ شوال، فخنقوه بشاش وعلقوه به وأظهروا أنه شنق نفسه، وأخرجوا جنازته مثل بعض الغرباء، ولم يتجاسر أحد أن يترحم عليه أو يبكي حول نعشه، وعاش بعده الملك الصالح ١٠ أشهر، ورأى في نفسه العبر من مرض تمادى به وما نفعه الاحتراز.

فكان كذلك، وقع بعد ذلك قتال بين المصريين والشاميين، وعدم من المصريين طائفة كثيرة. وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء! وتسلطن بعده زوجة والده أم خليل، شجرة الدر، باتفاق الأمراء وخشداشينها المماليك الصالحية، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة.

وكانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقتل في يوم الإثنين سابع عشرين المحرم من سنة ثمان وأربعين وست مئة، وكان قدومه من حصن ٧ كيفا إلى المنصورة في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة حسب ما تقدم ذكره.

قال الأمير حسام الدين بن أبي علي: كان توران شاه لا يصلح للملك، كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب: ما تنفذ تحضره إلى هاهنا! فيقول: دعوني من هذا فألححنا عليه يوماً فقال: أجيبه إلى هاهنا أقتله! وقال عماد الدين بن درباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول:

قتلـــوه شـــرَّ قِتلـــة	صـــار للعـــالم مثلـــه
لم يُراعـــوا فيـــه إلاَّ	لا ولا مَـــن كـــانَ قبلـــه
ســـتراهم عـــن قريـــب	لأقـــلّ النـــاس أكلـــه

فكاك أسرى الفرنج وإعدام الصالح إسماعيل: قال الذهبي في تاريخ الإسلام تحت سنة ٦٤٨هـ: (وقال ابن الساعي: لما قتل المعظم، ثارت أسرى الفرنج وفكوا قيودهم وقتلوا خلقاً، فأحاط بهم العسكر وقتلوا منهم زيادة على ١٢ ألفاً. ودخلت الصالحية والأسرى والسناجق منكسة مكسرة، والخيول والطبول مشققة، فلما عبروا على تربة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، أحاطوا بالصالح إسماعيل لعمّه الخائن! وصاحوا: يا خوند، أين عينيك ترى عدوك؟ ثم رموا الأسارى في الجُبِّ، وجمعوا بين الصالح وبين أولاده أياماً، ثم أفردوه وأعدموه سراً، ولم يُدر أين دُفن).

خامساً: تنشئة المماليك أو مفرخة صلاح الدين:

إذا كانت الأمور تقاس بنتائجها، فإن النتائج التاريخية العالمية لهزيمة الحملة الصليبية السابعة على مصر لا تكمن في نهاية الصليبيين المأساوية في فارسكور عام ١٢٥٠م وحسب، وإنما تكمن في تغيير ميزان القوى العالمية معلنة عن بدء عصر تاريخي جديد وظهور المماليك بوصفهم قوة إقليمية كبرى على مسرح الأحداث العالمي: لتتصدى لجميع قوى العالم آنذاك من الصليبيين والمغول. أثبتت مصر ثانية أنها قلعة الإسلام وترسانته العسكرية الكبرى. لم يتمكن الصليبيون من تحقيق حلمهم باحتلال بيت المقدس مرة أخرى، وفقد ملوك أوروبا، باستثناء لويس التاسع، اهتمامهم بإطلاق حملة صليبية جديدة.

ومهد هذا الانتصار للمماليك البحرية، الذين أبلوا بلاءً منقطع النظير في مقاومة تلك الحملة، أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر؛ فلم يكد يمضي شهر من تحقيق هذا النصر حتى تخلص المماليك من توران شاه، وأقاموا شجرة الدر سلطانة على مصر، وكان ذلك إيذاناً ببزوغ عصر دولة سلاطين المماليك في مصر والشام. يعدُّ اعتلاء الملكة شجرة الدر (وهي تركية) في أواخر عام ١٢٤٩ م بداية قيام دولة المماليك. لكن بعض المؤرخين يعدّ اعتلاء الأمير أيبك التركماني لعرش السلطنة بعد زواجه من الملكة شجرة الدر عام ١٢٥٠ م هو التاريخ الأدق لقيام هذه الدولة. وقد أطلق المؤرخون اسم المماليك البحرية على هذه الدولة إشارة لإسكانهم في جزيرة الروضة التي أنشأها الملك الصالح، وجعلها الكلية العسكرية والتدريب المتقدم على فنون القتال شتى تخرج هؤلاء المماليك قادة لجيوش الجهاد المصرية والإسلامية.



تدريبات المماليك على استخدام السيوف والرماية بالرمح والألعاب النارية

وقد نظم جمال الدين المصري المعروف بالجزار الشاعر أرجوزة سماها "العقود الدرية في الأمراء المصرية"، ضمنها أمراء مصر المماليك قائلاً:

ثم أتى الصالح وهو الأعظم	ثم تولاها ابنه المعظم
وبعده أم خليل ملكت	وطابت الأفعال فيها وزكت
والملك الأشرف كان طفلاً	فلم يدبر عقدها والحلا
ثم استبدَّ الملك المعزّ	ثم ابنه ووافقته العز
ثم حواها الملك المظفر	وحظه من نصره موفر
ثم حوى الأمر المليك الظاهر	لا زال للأعداء وهو قاهر!

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب أشد الناس اهتماماً بوحدة دار الإسلام والمصلحة العامة لأمة الإسلام، وقدمهما على كلّ المصالح الشخصية الضيقة لبني أيوب. قال ابن واصل: حكى لي الأمير حسام الدين قال: لما ودعني السلطان قال:

(إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر فيأخذ البلاد، وما يجري عليكم منه خير، فإنْ مرضت — ولو أنه حمى يوم — فأعدمه فإنه لا خير فيه، وولدي توران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي، فلا تسلم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها للخليفة). انتهى

لقد شاءت القدرة الربانية أن يُقتل الخليفة المستعصم في بغداد، ليحمل همومَ الصالح أيوب زوجته شجرة الدرّ ومماليكه الذين ساروا على نهجه بالجهاد، فأدهشوا العالم. والملك الصالح هذا هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمّرهم بديار مصر.

أيقن الملك الصالح أيوب منذ وقت مبكر أنه لا يستطيع الاعتماد على المرتزقة كالعسكر الخوارمية الذين هزمهم جنكيز خان، فساحوا في البلاد يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر (وإن كان بداية قد استطاع استخدامهم للإسلام، فقد ينصر الله بالعبد الفاجر أحياناً)، ثم حصل تمردهم الخطر حتى قضي عليهم. وتحقق للملك الصالح أيضاً فسادُ نيات الأشرفية (عسكر عمّه الأشرف) وأنهم يريدون الوثوب عليه، فأخذ في تفريقهم والقبض عليهم، فبعث مقدم الأشرفية وكبيرهم أيبك الأشقر نائباً على جهة ثم سير من قبض عليه ثم مسكهم عن كرة أبيهم وسجنهم، وأقبل على شراء المماليك الترك والخطائية واستخدم الأجنادة. ثم شرع يؤمّر غلمانه: يعني مماليكه فأكثر من ذلك وأخذ في بناء قلعة الجزيرة، واتخذها سكناً، وأنفق عليها أموالاً عظيمة، وكانت الجزيرة قبلاً متنزهاً لوالده، فشيدها في ثلاثة أعوام وتحول إليها.

بائع الملوك والأمراء، سلطان العلماء، الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨—٦٦٠هـ): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن مهذّب السُلمي، مغربي الأصل، ولد بدمشق وتوفي بمصر، اشتهر باسم العزّ بن عبد السلام، وتولى خطابة الجامع الأموي الكبير بدمشق. وفي عام ٦٣٨هـ أعطى الخائنُ الصالح إسماعيل (صاحب دمشق) حصن الصفد للصليبيين، وسلم حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والطعام: تمهيداً للتحالف مع الفرنجة لغزو ابن أخيه البطل الملك الصالح أيوب ملك مصر.

فاشتد الإنكار عليه: بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية. صعد العز بن عبد السلام المنبر وخطب في الناس خطبةً عصماءَ، وأفتى بحُرمة بيع السلاح للفرنجة وحُرمة الصلح معهم، ثم قطع الخطبة عن الصالح إسماعيل، وكان ذلك بمنزلة إعلان للعصيان العام، وقال في آخر خطبته: **اللهم أبرم أمر رشد لهذه الأمة، يُعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك، ويُؤمر بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر**، ثم نزل. علم الملك الصالح إسماعيل بخروج العز عن طاعته، فغضب عليه غضباً شديداً، وأمر بإبعاده عن الخطابة، وسجنه، وبعدما حصل القيل والقال، واضطرب أمر الناس، أخرجه من السجن ومنعه عن الخطبة. وعزل الصالح إسماعيل أبا عمرو أيضاً، واعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما (إقامة جبرية)، وولى الخطابة والتدريس غيرهما. ومن ثم خرج الشيخان من دمشق، فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية عام ٦٣٩هـ، فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (رحمهما الله تعالى). (انظر أيضاً البداية والنهاية: ج١٣، ص١٨٢).

وكان الملك الصالح أيوب مهيباً جداً، دبر المملكة على أحسن وجه، وبنى المدارس الأربعة بين القصرين، وعمّر قلعة بالروضة، واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها، وسماهم البحرية، وهو الذي أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم، ولم يكن ذلك قبله، فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع ولئك الأمراء المماليك، وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين.

كان أول ما لحظه الشيخ، بعد توليه القضاء، قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان، وهذا يتعارض مع الشرع، إذ إنهم في الأصل مملوكين، لا يحق لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر، فكان لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، وأصدر العز بن عبد السلام، الذي لا يخاف في الله وفي الحق لومة لائم، فتواه بعدم جواز ولاية المماليك على الأحرار، حتى شكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يعدّل من فتواه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء فليس هذا للسلطان، فإن شاء أن يتدخل، فالشيخ يقيل نفسه. فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ: نعقد لكم مجلساً وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين؛ فاستشاط نائب السلطنة غضباً، وكان من المماليك، وأقسم ليقتلن الشيخ بسيفه، فذهب إليه نائب السلطنة مع جماعة من الأمراء فطرق بابه، ففتح ابنه عبد اللطيف، فراعه منظر نائب السلطنة؛ إذ رأى سيفه مسلولاً، والغضب يعلو وجهه فدخل على والده وقال: انجُ بنفسك، إنه القتل، فرد عليه الشيخ بقوله: (أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله)، ثم خرج وحين وقع بصره على النائب، سقط السيف من يد النائب وارتعد، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي ماذا ستفعل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

وأرسل السلطان مَن يتلطف إليه، بأن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين! فأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء، وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشياً. تجمع الناس وراءه وتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان، حتى كادت مصر أن تخلو من سكانها. فأسرع الملك الصالح بنفسه خلف الشيخ ليسترضيه، فقال له: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلا بد من أن يُباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع من بيت مال المسلمين، فلا بد أن يُردّ الثمن إلى بيت مال المسلمين. ووافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العزّ بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء، وبدأ يعرض الأمراء واحداً بعد الآخر في مزاد، ويغالي في ثمنهم، ودخل الشعب في المزاد، حتى إذا ارتفع السعر جداً، دفعه الملك الصالح أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعتقه بعد ذلك أمام الشعب، فيأخذ المالَ الشيخُ العزُّ بن عبد السلام ليضعه في بيت مال المسلمين.

وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، وصارت لهم الصفة الشرعية بالإمارة على الأحرار، وكلهم مدين لأستاذهم ومليكهم الذي أعتقهم جميعاً لله (رحم الله الملك الصالح أيوب رحمة واسعة). ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف بـ (**بائع الملوك والأمراء**).

توفي الشيخ العز بن عبد السلام في جمادى الأولى ٦٦٠هـ / ٩ نيسان ١٢٦٦م في سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى الرغم من شجاعة بيبرس وجرأته، لكنه كان يهاب الشيخ العز كثيراً ولا يخالف رأيه. يقال: إنه عندما مرت جنازته أسفل القلعة ورآها السلطان بيبرس، قال: "اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني".



تدريبات المماليك على الفروسية والرماية

قال ابن واصل، في سيرة الملك نجم الدين أيوب هذا: (وكان مهيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللسان والذيل، لا يرى الهزل ولا العبث، شديد الوقار، كثير الصمت، اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره، ورجّحهم على الأكراد وأمّرهم، واشترى وهو بمصر خلقاً منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم "البحرية". حكى لي حسام الدين بن أبي علي أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ من يعظم هيبته، كان إذا خرج وشاهدوا صورته يرعدون خوفاً منه، وأنه لم يقع منه في حال غضبه كلمة قبيحة قط، أكثر ما يقول إذا شتم: "يا متخلف". وكان كثير الباه بجواريه فقط، ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدر، والأخرى بنت العالمة، تزوجها بعد مملوكه الجوكندار، وكان إذا سمع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك وكذلك الحاضرون يلتزمون حالته، كأنما على رؤوسهم الطير، وكان لا يستقل أحد من أرباب دولته بأمر، بل يراجعون القصص مع الخدام فيوقع عليها بما يعتمده كتاب الإنشاء، وكان يحب أهل الفضل والدين، وما كان له ميل إلى مطالعة الكتب، وكان كثير العزلة والانفراد، وله نهمة باللعب بالصوالجة وفي إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة). انتهى كلام ابن واصل.

كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في إعطاء العساكر والإنفاق في مهمات الدولة، لا يتوقف فيما يخرجه في هذا الوجه، وكانت همته عالية جداً وآماله بعيدة، ونفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها وانتزاعها من يد ملوكها، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق (أي: بدلاً من السلاجقة لخدمة الخلافة العباسية، وجبر ضعفها)، وكان لا يمكن القوي من الضعيف، وينصف المشروف من الشريف، وهو أول من استكثر من المماليك من ملوك البيت الأيوبي ثم اقتدوا به لما آل الملك إليهم، على الرغم من أن الخليفة المأمون والمعتصم كانوا أول من غذى جيشه برافد المماليك، وكذلك صلاح الدين.

وكان المصدر الأساسي للمماليك إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق العبيد والنخاسة، ولاسيّما المماليك من بلاد ما وراء النهر؛ أي: نهر جيحون شمال تركمانستان وأفغانستان. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أول من سنّ امتلاك المماليك منذ الصغر؛ ليكونوا غاية في الإخلاص له وللإسلام (في مناخ سيسي متقلب وظروف صعبة)؛ فكانوا أولاً سرية حراسة وحماية خاصة بشخصه، ثم أكثر منهم

وأمّرهم على الجيش ومرافق الدولة، وجعلها سُنّةً قائمة فيمن بعده. فكل من ولي مصر بعد الصالح من بني أيوب ومن غيرهم اقتنى المماليك! وهو آخر ملوك الأيوبيين بمصر. ولا عبرة بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، عدا الذي بالبلاد الشامية، وأما بمصر فلا.

استحدث الملك الصالح (وتبعه سلاطين المماليك) أنه لا يأتي إلا بالمماليك الصغار السن. فكان الصالح أيوب يتعامل معهم كالأبناء لا الأرقاء، ولم تكن رابطته بهم رابطة السيد بالعبد، بل رابطة المعلم والتلميذ أو الأب والابن. حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) لا لقب السيد.

ويشرح المقريزي كيف يتربى المملوك الصغير عندما يُشترى، وهو في طفولته المبكرة:

(إنّ أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءةً وكتابة،

ثم بعد ذلك يُدفع إلى مَن يعلّمه القرآن الكريم،

ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة الإسلامية،

ويُهتمّ جداً بتدريبه على الصلاة،

وكذلك على الأذكار النبوية،

ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه،

فإذا ارتكب خطأ يمسّ الآداب الإسلامية نبه لذلك، ثم عوقب). انتهى

ثم إذا وصل المملوك إلى سنّ البلوغ، جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال يعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام، والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مهارة قتالية وقوة بدنية بتحمل المشاق و لصعاب، ثم يتدربون على القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، فينشأ المملوك متفوقاً تماماً في المجال العسكري، إضافة إلى الحمية الدينية الكبيرة. وكان الصالح أيوب يطمئن عليهم إلى إن زاد عدد المماليك الصالحية، حتى بنى قلعة لهم مع قصره على النيل في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، فيسمون المماليك الصالحية والبحرية نسبة إلى سكناهم جوار بحر النيل. ومن ثم تأهل هؤلاء المماليك ليكونوا ملوك العالم الإسلامي، بل ملوك الدنيا.

وظهر في عصر دول المماليك علماء أفذاذ، امثال:

العزّ بن عبد السلام (سلطان العلماء)، **وتقي الدين بن دقيق العيد، والإمام النووي** (صاحب رياض الصالحين)، **وابن تيمية** (شيخ الإسلام وصاحب الفتاوى الضخمة والمؤلفات الكثيرة)، **وابن قيم الجوزية** (تلميذ ابن تيمية، وله مؤلفات عديدة)، **واحمد بن حجر العسقلاني** (صاحب فتح الباري شرح صحيح البخاري)، **و لمؤرخ المحقق الحافظ ابن كثير** (صاحب البداية والنهاية)، **والمؤرخ تقي الدين المقريزي، وابن جماعة، وابن قدامة المقدسي، والإمام الذهبي** (صاحب تاريخ الإسلام في ٥٢ مجلداً، وسير أعلام النبلاء)، **وابن تغري بردي** (صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، **وابن منظور** (صاحب لسان العرب)، **والنويري** (صاحب نهاية الأرب)، **واحمد بن فضل الله العمري** (صاحب مسالك الأبصار)، **والقلقشندي** (صاحب صبح الأعشى)، **والإمام جلال الدين السيوطي** (صاحب المؤلفات العديدة)، **وشمس الدين السخاوي.**

وكانت ولاية استاذ المماليك: الملك الصالح أيوب بمصر قرابة ١٠ سنوات (٩ سنين و٧ أشهر و٢٠ يوماً) — ولي السلطنة في ٢٠ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ، ومات في نصف شعبان سنة ٦٤٧هـ. وكان عفيف الذيل، طاهر اللسان،

قليل الفحش في حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول - رحمه الله تعالى. ولما مات رثاه الشعراء بعدة مراثٍ. وأما مدائحه فكثيرة: من ذلك ما قاله فيه كاتبه وشاعره بهاء الدين زهير من قصيدته:

وسريت في ليلٍ كأن نجومه	من فرط غيرتها إليّ تحدّق
حتى وصلتُ سرادق الملك الذي	تقف الملوك ببابه تسترزق
ووقفت من ملك الزمان بموقفٍ	ألفيت قلب الدهر منه يخفق
فإليك يا نجم السماء فإنني	قد لاح نجم الدين لي يتألق
الصالح الملك الذي لزمانه	حسن يتيه به الزمان ورونق
ملك تحدث عن أبيه وجده	نسب لعمري في العلا لا يلحق

وبعد رحيل لويس التاسع إلى عكا، بعد اغتيال السلطان الأيوبي توران شاه بفارسكور بأيدي المماليك أنفسهم، الذين دحروا الصليبيين في المنصورة وفارسكور، أصبح هؤلاء المماليك منذ ذلك الحين حكاماً لمصر وبعد قليل جداً حكاماً للشام، ومن ثم سلاطين العالم الإسلامي قرابة ٢٥٠ عاماً.

تسلطن الملكة شجرة الدرّ على مصر: هي الملكة شجرة الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل، وكانت ذا حظوة كبيرة عنده، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك ومعها ولدها خليل أيضاً، وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمحن، ثم قدمت معه مصر لما تسلطن، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً.

ومازالت في عظمتها من الحشم، وإليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته. والأمور تدبرها على أكمل وجه إلى أن قدم ولد زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها ما فعلته من الإخفاء لموت والده، وقيامها بالتدبير أتم قيام، حتى حضر إلى المنصورة وجلس في دست السلطنة.

ولم تدع أحداً يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك توران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها وطلب الأموال منها. واتفقوا على ولايتها؛ لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيبك التركماني أتابكاً لها، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة؛ لكنها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفتي على العادة، غير أنهم بايعوها بالسلطنة في أيام أرسالاً وتم أمرها. وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في تاريخه:

(شجرة الدر أم خليل الصالحية وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل. كان الملك الصالح يحبها حباً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره ومهماته، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح في شعبان سنة ٦٤٧هـ على دمياط في حصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلم بخطها مثل علامة الملك الصالح، وتقول: السلطان ما هو طيب. وتمنع الناس من الدخول إليه. وكان أرباب الدولة يحترمونها، ولما علموا بموت السلطان ملكوها عليهم أياماً.

وتسلطنت بعد قتل السلطان الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: "واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح".

واتفق المماليك البحرية والأعيان على تولية شجرة الدر أم خليل جارية الملك الصالح [وزوجته] فملكوها، ونقش اسمها على الدينار والدرهم، وكانت تعلم عل المناشير وتكتب: والدة خليل. ولم يلِ مصر في الإسلام امرأة قبلها؛ غير أن المصريين استنكروا وجود سيدة تتحكم في رقاب الأمراء والكبراء والسادة، وغضبوا غضباً شديداً، وخرجت المظاهرات الغاضبة تستنكر هذا الحضور والنفوذ السياسي الكبير لسيدة من سيدات القصر، وقاد المعارضة العز بن عبد السلام، ووقف وسط جموع المتظاهرين، منددا بجلوس امرأة على عرش مصر، مبيناً أن هذا الجلوس مخالف للشرع الحكيم، وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة، وأرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك، ويقول: (إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً).

وأقامت شجرة الدر في المملكة ثلاثة أشهر، ثم عزلت نفسها. واتفقوا على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملكوه وله ثماني سنين، وذلك في يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى سنة ٤٨. وجعل عز الدين أيبك التركماني مملوك الصالح أتابكه، وخطب لهما، وضربت السكة باسمهما، وعظم شأن الأتراك من يومئذ، ومدوا أيديهم إلى العامة، وأحدث وزيره الأسعد الفائزي ظلامات ومكوساً كثيرة.

ثم إن عز الدين خلع الملك الأشرف، واستقل بالسلطنة في سنة ٦٥٢هـ، ولقب الملك المعز؛ وهو أول من ملك مصر من الأتراك، فلم يرض الناس بذلك حتى أرضى الجند بالعطايا الجزيلة. وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعونه ما يكره إذا ركب، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على الفطرة، وكان المعز تزوج شجرة الدر. ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل، فغارت شجرة الدر فقتلته في أواخر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ، وأقيم بعده ولده علي ولقب المنصور، وعمره نحو ١٥ سنة، فأقام سنتين وثمانية أشهر. وفي أيامه أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة.

وكانت تركيا ذات شهامة وسيرة حسنة شديدة الغيرة. فلما بلغها أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج بنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، تخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها؛ لأنه سئم من حجرها عليه واستطالتها، فعاجلته وعزمت على الفتك به وإقامة غيره في الملك.

ودبرت قتل الملك المعز في الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدام، في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ. وكان ملكاً شجاعاً كريماً عاقلاً سيوساً كثير البذل للأموال، أطلق في مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة، حتى رضي الناس بسلطان مسّه الرق. وكن أهل مصر يسمعونه ما يكره إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: (لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة). على أن الملك المعز كان عفيفاً حليماً كثير الاحتمال لتجنيهم عليه، وشر أخلاقهم. وُجدت شجرة الدر مقتولة مسلوبة خارج القلعة في يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الآخر، فحُملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة – رحمها الله تعالى – فدفنت هناك. ولشجرة الدر أوقاف على التربة المذكورة وغيرها.

ظهور التتار أو المغول، وأسبابه:

- **يخطئ من يظن أن جنكيز خان كان مجرد قائد مغوليّ عظيم!!!**
- **ويخطئ من يظن أن الخليفة الناصر لدين الله هو الذي تعاون مع التتار لإزالة الدولة الخوارزمية؛ حامية الجناح الشرقي لديار أمة الإسلام!!!**
- **ويخطئ من يظن أن أول من أسقط الخلافة العباسية هو هولاكو!!!**
- **ويخطئ من يظن أن التتار هاجموا بغداد أول مرة عام ٦٥٦هـ، بقيادة هولاكو خان!!!**

- **ويخطئ من يظن أن خيانة ابن العلقمي (وزير المستعصم) مع التتار إنما بدأت عام ٦٥٤هـ بوصفها ردّة فعل لفتنة الكرخ بين الشيعة والسنة في ذلك العام!!!**

الخلفية التاريخية وحقيقة جنكيز خان: بدايةً، فإنّ بعض المؤرخين يسميهم المغول، ويرى أن التتار فرع من المغول، لكن المغول بقيادة جنكيز خان تغلبوا على التتار فتلاشوا في دولة واحدة، فصاروا يسمون مرة بالمغول ومرة بالتتار، وهم يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس، ويرون أن (تنكري) وهو الرب الذي يعلو السماء الزرقاء، يبارك خطواتهم، وأنهم خلقوا ليحكموا العالم كله، ولهذا سمى زعيمهم نفسه بجنكيز خان؛ أي: حاكم العالم، وينطلقون من قاعدة (أن في السماء رباً واحداً، فليكن هناك حاكم واحد على الأرض) وهو الخان، ولا يختلفون بذلك عن الصليبيين في رؤيتهم للعالم. بدأ مُلك جنكيز خان في الصين عام ٥٩٩هـ، ثم بدأ ملكه بالتوسع في أوائل القرن السابع، حتى فتح (بكين) عام ٦١٢هـ، أما في جهة الغرب، فقد وصل ملكه إلى أواسط آسيا عام ٦٠٧هـ وتصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشبههم.

كان ابتداء مُلك جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ٦١٦هـ، ومات خوارزم شاه في سنة ٦١٧هـ، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع. وكانت وفاة جنكيز خان عام ٦٢٤هـ، فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هناك. وأما كتابه (الياسا)، فإنه يُكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم؛ وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقي على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا، فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها. (وهذا يعني أن جنكيز خان لم يكن قائداً عسكرياً وحسب، إنما تلبّس لبوس الأنبياء الكذابين، مُدعياً نزول الوحي عليه في كتاب المغول المقدس "الياسا" أو "اليسق". وبهذه النبوة المزعومة وبهذا الكتاب وبقوة شخصيته وحّد جموع التتار تحت إمرته وقيادته لاكتساح العالم).

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلاً يقول له: إنا قد ملّكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض، قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون هذا، ويأخذونه مسلماً. والاحتكام إلى كتاب "الياسا" كفر، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى "الياسا" وقدمها عليه؟! فمن فعل ذلك كفر، بإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفاً كبيراً من أخبار جنكيز خان ومكارم كان يفعلها لسجيته وما أداه إليه عقله، وإن كان مشركاً بالله، وقالوا: أهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب، فاستحسنه جنكيز خان، فوهن أمره عنده بعضُ خواصه وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له.

فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالماً؟ أعطوه مئتي بالس.

قال: وأهدى له إنسان رمانة، فكسرها وفرق حبّها على الحاضرين، وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد:

فلذاك تزدحم الوفود ببابه ... مثل ازدحام الحَبّ في الرمان

وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم.

الأخطاء الفادحة للدولة الخوارزمية، وزوالها (١١٩٠–١٢٢٠م):

بدأ اجتياح التتار العالمَ الإسلامي في بداية القرن السابع الهجري، ويخطئ من يظنّ أن الدولة الخوارزمية هي التي أبطأت اجتياح التتار، ومنعته من اجتياح العالم الإسلامي؛ لأن هذه الدولة كانت أصلاً السبب المباشر لاجتياح التتار العالمَ الإسلامي، فجلبت عليه ويلات المغول. وتمثل دولة الحشاشين في قلعة "ألموت" والقلاع الإسماعيلية سبب آخر لاجتياح المغول.



صحيح أن الدولة الخوارزمية وقفت بوجه تقدم المغول إلى أن سقطت (وهذا الأمر عجل سقوط بغداد بعدها)، لكن خوارزم شاه أخطأ أصلاً في حق الخلافة العباسية، فقام بخلعها وإهانة رسول الخليفة فأهانه الله. وأخطأ خوارزم شاه خطأً فادحاً بفعل ٣ كبائر مع جنكيز خان، عادت عليه بالشرّ وباستئصاله من ملكه العريض في سنة واحدة فقط، وعادت على العالم الإسلامي بالوبال والدمار.

أما خطؤه مع الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء، فيقول الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت سنة ٦١٤هـ: (قال أبو المظفر: وفيها قدم خوارزم شاه محمد بن تكش في أربع مئة ألف، وقيل في ست مئة ألف، فوصل همذان، قاصداً بغداد، فاستعدّ الخليفة وفرق الأموال والعدد، وراسله مع الشيخ شهاب الدين السهروردي، فأهانه ولم يحتفل به، واستدعاه، وأوقفه إلى جانب الخيمة، ولم يجلسه... فسلمت عليه فلم يردّ، ولا أمرني بالجلوس، فشرعت فخطبت خطبة بليغة، ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين، والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغتُ، قال للترجمان: قل له: هذا الذي تصفه ما هو في بغداد، بل أنا أجيء، وأقيم خليفة يكون بهذه الصفة، ثم ردّنا بغير جواب. ونزل عليهم بهمذان الثلج فهلكت خيلهم، وركب الملك خوارزم شاه يوماً فعثر به فرسه، فتطيّر ووقع الفساد في عساكره، وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفاً من الخطى، فردّه الله تعالى عن بغداد).

وقال الذهبي أيضاً: (ولم يلِ الخلافة أحد أطول مدة منه أي: الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء ٥٥٣–٦٢٢هـ، فإنه أقام فيها ٤٧ سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة وقمع الأعداء واستظهار على الملوك، ولم يجد ضيماً ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءاً رماه الله بالخذلان. وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته كبارهم وصغارهم، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفطن لها أحد: يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون...

وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم، فقيل له: ارجع فقد عرفنا ما جئت به، فرجع وهو يظن أنهم يعلمون الغيب. قيل: إن الناصر كان مخدوماً من الجن. وظهر خوارزم شاه بخراسان وما وراء النهر وتجبّر وطغى واستعبد الملوك الكبار وأباد أمماً كثيرة، وقطع خطبة بني العباس من بلاده، وقصد بغداد فوصل إلى همذان، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوماً، فقطعهم في غير أوانه، فقال له بعض خواصه: إن ذلك غضب من الله، حيث قصدت بيت الخلافة. وبلغه أن أمم الترك قد تألبوا عليه، وطمعوا في البلاد لبعده عنها، فكان ذلك سبب رجوعه، وكفي الناصر شره بلا قتال).

وأما بالنسبة إلى أخطائه مع جنكيز خان، فإنه قام بقتل تجّار جنكيز خان عام ٦١٦هـ، ثم قتل رسوله له، ومن ثم بادر فنهب أموال قبيلته، وسبى ذراريهم وأطفالهم، وجنكيز خان في شغل شاغل بقتال أعدائه من قبيلة أخرى. يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص ١٤٠-١٤١): (ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته، معهم بضائع كثيرة من بلاده (في رواية: يبتضعون له ثياباً للكسوة) انتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجة كشلي خان القائد تتاري يعادي جنكيز خان)، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضى منه، أو أنه لا يعلم به، فأنكره، وقال له فيما أرسل إليه: "من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون؛ لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتصّ من نائبك".

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرف وكبرت سنه، وقد ورد الحديث: (اتركوا الترك ما تركوكم)، فلما بلغ ذلك جنكيز خان، تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع).

ويقول ابن كثير (ج١٣، ص٩٩-١٠٥)، تحت أحداث عام ٦١٦هـ: (وفيها: عبرت التتار نهر جيحون بصحبة ملكهم جنكيز خان من بلادهم... وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكز خان بعث تجاراً له (الحادثة)، ولم يكن فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً. فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم، وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين، فاقتتلوا أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء. وكان من جملة من قُتل من المسلمين نحوٌ من عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان، وولى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها، وبالغ في كثرة من ترك بها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة)، ... ثم كان اجتياح جحافل المغول على العالم الإسلامي. فيقول ابن كثير، تحت أحداث عام ٦١٦هـ وعام ٦١٧هـ:

(فقصدت التتار بخارى، فأمنهم جنكيز خان ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذّب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها. ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وفعلوا مثل ذلك.

ثم دخلت سنة ٦١٧هـ: عمّ البلاء في هذه السنة وعظم العزاء بجنكيز خان المسمّى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها. فملكوا في سنة واحدة، وهي هذه السنة، سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم. وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار ما لا يحد ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار، وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع.

وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين، فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم. ثم قاتلت التتار ابنه جلال الدين تكش (ويقال له محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي، وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وجدهم تكش هو الذي أزال الدولة السلجوقية). كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد، فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر، وتفرقوا عنه أيدي سبأ، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميافارقين، فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب، وعلى فرسه، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية – وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً – فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين، فاستدعى الفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر وأخذ الفرس أيضاً، وكان الأشرف يقول: هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أن السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

كان المغول، بحلول عام ٦٢٥هـ–١٢٢٨م قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية – الجبهة الأولى للعالم الإسلامي – ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه. وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ–١٢٣٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية، وتمزقوا كل ممزق وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة.

يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وأما الخوارزمية، فزالت دولتهم، وتمزقوا، وقطشت أذنابهم، وبقوا حرامية، يقتلون ويسبون الحريم، ويفعلون كل قبيح).

وفتحت الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي على مصراعيها أمام جحافل المغول الذين لم يتبق لهم سوى دخول بغداد والتوغل في الأراضي العربية.

أول سقوط للخلافة العباسية في بغداد: الفتنة العُظمى:

لا يعلم كثيرون أن محاولة إسقاط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ على يد هولاكو إنما كانت هي المحاولة الثانية!

أما أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية، فقد تمّت عام ٤٥٠هـ على يد البساسيري، ولها دلالتُها الخطرةُ في تعاظم الخطر الباطني، الذي أدى إلى إلغاء الخلافة العباسيّة تماماً مدة سنة واحدة، ونقل السلطة المركزيّة من بغداد إلى العبيديين في مصر، حتّى سمّى الحافظ الذهبيُّ هذه الواقعة في كتابه "سير أعلام النبلاء" (الفتنة العُظمى).

آلت الدولة العباسيّة، في سنة ٤٢٢هـ، إلى عبد الله بن أحمد القادر الملقّب بـ "القائم بأمر الله"، وكان الخليفة الـ ٢٦ من خلفاء بني العبّاس، والرابع والأخير في خلفاء العصر البويهي وكان البويهيّون زيدية المذهب، لا يسبون أبا بكر وعمر، ويعترفون بهم، ولكن كانوا أصحاب بدعة ويؤمنون بأفضلية عليّ عليهما. وكانوا يمدّون الجسور إلى العبيديين إخوانهم في العقيدة، وتجري بينهم المراسلات، بل كانوا يشاورونهم في إمكان إعلان الحاكم العبيدي خليفةً للمسلمين عامةً.

وبرز نجم أرسلان البساسيري التركي، أحد قوّاد البويهيّين، وكان الخليفة القائم بأمر الله قد قدّمه على جميع الأتراك، وقلّده الأمور بأسرها!! وكان على سدّة الحكم العبيدي في مصر آنذاك الخليفة المستنصرُ محمّد بن عليّ. تعاظم شأنُ البساسيريّ، وانتشر ذكره وطار اسمُه وتهيّبته أمراء العرب والعجم... وجبى الأموال وخرب الضياع، ولم يكن الخليفة يقطع أمراً دونه، ولا يحلّ ولا يعقد إلاّ عن رأيه. ثم استمر في انتزاع الصلاحيّات، حتى لم يبق للملك الرحيم (البويهي) ولا الخليفة (القائم بأمر الله) معه إلاّ الاسم. وراسل البساسيريُّ المستنصرَ العبيديَّ في سنة ٤٤٧هـ، وأطلعه على عزمه إلغاء الخلافة العبّاسيّة، وإرسال شارات الخلافة إليه: تمهيداً لاستقدامه إلى بغداد ومبايعته خليفةً للمسلمين عامّة، وطلب منه الدعم بالمال والسلاح. وساءت علاقة الخليفة القائم بالبساسيري، وأرسل إلى الملك البويهي يقول له: إن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، وإن الخليفة له على الملك عهود، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده، وأصعد إلى بغداد، تولى الديوان تدبير أمره.

ففقد الخليفة ثقته بمن حوله، ورأى أن المصلحة تقضي الاتصال بقوة السلاجقة النامية لحماية الخلافة وكسر شوكة البساسيريّ، خاصة أنها كانت تدين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة. فاستدعى الخليفة طُغرُليك القائد السلجوقي إلى بغداد من الريّ. فخرج البساسيريّ بعسكره إلى مكان بين الرقّة وبغداد يسمّى الرَّحْبة، وأمدّه المستنصر بما أراد من مال وسواه، انطلاقاً من مواقع نفوذه في الشام.

وعندما دخل طغرلبك بغداد، أظهر العامة تذمرهم، وقتلوا عدداً من جنده، فاستاء من ذلك، واتهم الملك (الرحيم) البويهي وأتباعه، فقبض عليهم، وأرسل الملك البويهي إلى قلعة السيروان قرب الري (طهران اليوم)، إذ ظل معتقلاً بها ٣ أعوام ثم توفي. واستولى على إقطاعات عسكره، وهذا دفع أكثر هؤلاء إلى الخروج من بغداد، وانضموا إلى لبساسيري، فكثر بهم عدد أنصاره.

وبدأ العصر السلجوقي ذو المسار الإسلامي الصحيح بدخول طغرلبك إلى بغداد، واستعد طغرلبك لقتال البساسيري، لكنّ البساسيريّ ودعاة الإسماعيلية معه مثل (هبة الله الشيرازي) تمكّنوا من الإيقاع بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال، عن طريق مراسلة الأخير، وإطماعه بإقصاء أخيه، والاستيلاء على منصبه.

واضطر طغرلبك إزاء تمرد أخيه إبراهيم ينال إلى أن يغادر بغداد، ويعود إلى الري لمحاربة أخيه والقضاء على ثورته. واستغل البساسيري هذا الوضع، وزحف على بغداد – بعد أن كان قد احتل الأنبار – على رأس قوة عسكرية تقدر بأربع مئة شخص، حاملاً الرايات المستنصرية، وقد كتب عليها "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين"، وسار معه أمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وكان حليفاً للبساسيري، في مئتي فارس، وتمكنا من دخول بغداد في ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ دون مقاومة تذكر.

واضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه، وأرسله إلى حُديثة عانة تحت الإقامة الجبرية، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر عند المستنصر العبيدي. وأرغم البغاة الخليفة العباسي قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعثوا بهذا العهد إلى القاهرة، وأرسلوا ثوب الخليفة وعمامته وشبّاكه الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرح لدى المستنصر العبيدي وأنصاره.

دعا البساسيري للمستنصر العبيدي في جامع المنصور ببغداد في يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، وقطع الخطبة للعباسيين، وزيد في الأذان "حي على خير العمل"، ثم أقيمت الخطبة للعبيديين في جميع مساجد بغداد، وكان أول من أيّده ودعا للمستنصر أهل الكرخ. ونُهبت دار الخلافة، وقتل البساسيريُّ بعضَ رجال الدولة، ومنهم رئيس الرؤساء وقاضي القضاة. واستمرت الخطبة للخليفة العبيدي، وامتدّ احتجاز الخليفة في عانة عاماً كاملاً كذلك. وتناهت الأنباء في هذه الأثناء، أن "ينال" حصر أخاه طغرلبك في همذان، فبلغ من سوء الحال وتردّي الأوضاع أنْ سمّى الحافظ الذهبي هذه الواقعة «الفتنة العظمى»، وبلغ من ذلك أنّه نُهب الحريم ودار الخلافة. وسُلّمت زوجةُ الخليفة إلى أحد مُظاهري البساسيريّ من العرب. وملك البساسيريُّ بغداد والبصرة والكوفة وواسط والموصل وخوزستان وغيرها. وشمخت أنوف الرافضة، واستأسدوا به على أهل السنّة، ورُفعت رايات المستنصرية العبيديين.

أمّا في الشرق، فقد بدأت الكفة تميل إلى مصلحة طغرلبك بعد أن جاءته إمدادات من ابن أخيه البطل ألب أرسلان، فتمكن طغرلبك عام ٤٥١هـ من التغلب على أخيه وقتله، ثم زحف نحو العراق لإعادة الأمور إلى نصابها. فطلب من البساسيري وقريش بن بدران إعادة الخطبة للخليفة القائم، مقابل عدم دخوله بغداد، فرفض البساسيري إجابة طلبه.

ثم إن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي، حاكم حديثة عانة؛ ليمنع عودة الخليفة إلى بغداد. وبالرغم من النجاحات التي حققها البساسيري، والمناطق التي استولى عليها، لكنه لم يتمكن من مواجهة الجيش السلجوقي القادم؛ لذلك خرج البساسيري من بغداد مع جنده، وقصد الكوفة في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ. لكن لماذا لم يقدم المستنصر العبيدي الدعم الكافي للبساسيري على الرغم من إخلاصه له؟

الذي يظهر أنّ أحد وزراء المستنصر – أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي – كان يكره البساسيريّ، فلذلك كان نفرَ عنه المستنصرُ وحذّره منه. فضلاً على أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده. وأيّاً كان الباعثُ، فإنّ المستنصر لم يثق تماماً بالبساسيريّ، فاكتفى بتقديم الدعم المادّي، وكان هذا من في مصلحة المسلمين. علّق ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة" (ج٥/ ص١١) على موقف المستنصر العبيدي من البساسيري بعد خروجه من بغداد، بقوله: (ولولا تخوف المستنصر من البساسيري، وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً).

وكتب القائم من إقامته الجبريّة في عانة تظلُّماً إلى الله عزّ وجلّ في رقعة جاء فيها: «إلى الله العظيم من المسكين عبده»، وبعث بها إلى الكعبة. وهو أمر لطيف أن ينفذ الإنسان رسالة إلى رب العالمين في بيته الأعظم! وإن كان سبحانه قريب يجيب دعوة المضطر إذا دعاه أياً كان. أما هذه القصاصة، فقال الحافظ الذهبي فيها: (نفعت وأخذ الله بيده).

وتفاهم طغرلبك والأمير محيي الدين مهارش لإعادة الخليفة العباسي القائم إلى بغداد، واستقبله عند وصوله إلى النهراوان، وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى سروره لعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدته لاشتغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري الذي التجأ إلى الكوفة. وعزم طغرلبك على المسير إلى الشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر العبيدي معاملة تتلاءم وأفعاله، وأعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد، حتى عهد السلطان طغرلبك إلى القائد خمارتكين الطغرائي بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة، حيث يقيم البساسيري، وضمّ إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجي، وسار بنفسه في إثرهم. ودارت بين الطرفين معركة ضارية عند الكوفة منتصف شهر ذي الحجة سنة ٤٥١هـ أسفرت عن انتصار السلاجقة، ومقتل البساسيري وهزيمة جيشه، وحمل رأسه إلى بغداد، فطوّف به، وعلّق إزاء دار الخلافة.

وبذلك تمكن طغرلبك من القضاء على فتنة البساسيري التي أقضّت مضاجع الخلافة العباسية، وطوى فصل من فصول التآمر الباطني. وقيل: إن القائم لم يضع رأسه بعد ذلك على وسادة، ولازم الصيام والقيام وقضاء الحوائج، واستمر في الحكم بعد ذلك قرابة ١٦ سنة.

أول هجوم للتتار على بغداد:

شنّ المغول أول هجوم لهم على بغداد سنة ٦١٧هـ، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها. ففي "تاريخ الإسلام" للذهبي تحت حداث ٦١٧هـ: (قال الموفق عبد اللطيف: انشعب من التتار فرقتان، كما ينشعب من جهنم لسانان:

فرقة قصدت أذربيجان وأران ثم بلاد الكرج. وفرقة أتت على همذان وأصبهان، وخالطت حلوان تقصد بغداد. أما الفرقة التي قصدت بغداد، فردّهم الله بقوة العقل وحسن التدبير:

أما (أولاً) صاحب إربل، فشحن الدربندات بالأكراد، والبيهم ينتهي العلم باللصوصية، فسلطهم عليهم يسرقونهم ويقتلونهم صبراً في نومهم، فيصبحون وقد نكبوا نكبات في جهات لا يدرون من أين ولا كيف.

ثم (ثانية) إن الخليفة الناصر لدين الله جمع الجموع وعسكر العساكر وحشر فنادى، وأقبلت إليه البعوث من كل حدب ينسلون، فلما سمعوا بوصول رسول التتر، تقدموا إلى صاحب إربل أن يحتفل ويظهر جميع عسكره، ويدخل بينهم من العوام والفلاحين من يشتبه بهم. فلما وصل الرسول إربل، تلقاه عساكر قطعت قلبه، وصاروا يتكررون عليه، كلما مرّ بقوم سبقوه وعادوا ووقفوا بين يديه، فلما دخل ولاية دقوقا، عبّئ له من العساكر أضعاف ذلك.

ثم (ثالثاً) أُخرج إلى بغداد فلقيته عساكر بغداد، صغرت في عينه ما رأى، لم يتركوا ببغداد فرساً ولا جملاً ولا حماراً حتى أركبوه رجلاً، ومعه شيء من السلاح، وأكثرهم بالأعلام والبرك اسطوانات (أي جل مزركش)، وخلق يلعبون بالنفط، ويرمون بالبندق الزجاج فيه النفط، فامتلأت البرية بالنيران. ثم حُمل إلى دار، ثم أُخرجوا بالليل خفية على طريق غير مسلوكة، ووردوا إلى إربل، وقيل للرسول: "إنما هربناك في الخفية: خوفاً عليك من العامة". فنصل، وقد امتلأ قلبه رعباً ودماغه خيالاً، وأبثّ قومه ما أثبته عيانه، فعلموا أنهم لا قبل لهم ببغداد، فرجعوا خائبين). انتهى.

وجاءت فرقة من التتار إلى إربل، في ٦٣٣هـ، فواقعوا عسكرها، فقتل جماعة من التتار، وقتل من الأرابلة نفر يسير، ثم إن لتتار ساقوا إلى الموصل ونهبوا وقتلوا، فاهتم المستنصر بالله (أبو المستعصم بالله الذي قتله التتار) وفرّق الأموال والسلاح، فرجع التتار.

ونزل التتار إربل وحاصروها في ٦٣٤هـ، ونقبوا السور وأخذوها عنوة، وقتلوا وسبوا، وجافت إربل بالقتلى. وكان باتكين نائبَ البلد بالقلعة فقاتلهم، ثم إن التتار نقبوا القلعة، وجعلوا تحتها سَرَباً وطرُقاً، فقلت المياه على أهل القلعة، ومات بعضهم من العطش، ولم يبق إلا أخذ القلعة، ثم لطف الله بمن بقي بالقلعة، ورحلت التتار بمكاسب لا تحصى. ويقول ابن كثير: (ثم دخلت سنة ٦٣٤هـ: فيها: حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة، فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدة. وفيها: النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم، وقيل: إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار). (البداية والنهاية ج١٣، ص٢٠٧) وامتنع الحج من العراق عام ٦٣٤هـ وعام ٦٣٥هـ.

ثم دخلت سنة ٦٤٢هـ (وهي سنة الخوارزمية؛ وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية، ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين، ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح) وفي هذه السنة: كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم؛ خوفاً من غائلة مكرهم، وعملاً بقوله ﷺ: **(اتركوا الترك ما تركوكم)**. (البداية والنهاية ج١٣، ص١٩٧).

وفي ذلك يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وفيها [أي: سنة ٦٤٣هـ] وصلت التتار إلى بعقوبا فعاثوا وأفسدوا فخرج من بغداد الدوادار الصغير في عسكر بغداد، فالتقاهم في ربيع الآخر فكسرهم وردّ ومعه الأسرى).

فتلت التتر بخانقين في ٦٤٧هـ خلقاً عظيماً من النزّال، ونهبوا أغنامهم وأبقارهم، ثم نهبوا ناحية لبتّ والراذان [من قرى بغداد] وأخربوا تلك النواحي، فخرج من بغداد عسكر لذلك، وأُمر الناسُ في جمادى الآخرة بالمبيت في أسواق بغداد وفي دروبها وبالوقيد. وحجّ الركب العراقي في ٦٥٠هـ، بعد انقطاعه عشر سنين. [قاله الذهبي في تاريخ الإسلام].

كارثة الإسلام والعربية الكبرى: سقوط بغداد عاصمة الإسلام، على يد المغول بقيادة هولاكو.

أما المحاولة الثانية لإسقاط الخلافة العباسية، فكانت على يد هولاكو المغول، وتمت بإسناد رافضي أيضاً وتمثل الغزو التتاري الثاني على بغداد. وهو هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان المغولي. ولي الملك بعد موت أبيه تولي خان، واتسعت ممالكه، وعظم أمره، وكثرت جيوشه من المغول والتتار، وما زال أمره في زيدة حتى ملك مدينة "ألموت"، وقتل متوليها شمس الشموس، وأخذ بلاده.

وقد بسط ابن الأثير في كامله خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً، وقدم على ذلك كلاماً هائلاً في تعظيم هذا الخطب العجيب.

قال: (فنقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل).

كانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني أشد درجات الضعف والوهن، فأرسل له هولاكو رسالة يطالبه فيها بالاستسلام دون شروط، وكان من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بغداد بيد التتار – بالإضافة إلى ضعف الخلافة – هو سوء البطانة والحاشية التي كان يستعين بها الخليفة العباسي، فلم يكن وزيره ابن العلقمي إلا منفذاً لمخططات الأعداء، فقام بإعفاء الجيش وتسريحه، وأثار الفتنة بين أهل بغداد نفسها أكثر من مرة، وكان عوناً للتتار فيما بعد على دخول بغداد؛ بسبب مشوراته المدسوسة التي كان يبغي منها تمكين العدو من رقاب المسلمين.

لم يكن الخليفة **المستعصم بالله** (٦٠٩–٦٥٦هـ/١٢١٢–١٢٥٨م) نبيهاً ولا مهتماً بالأخطار المحدقة بالخلافة الإسلامية، كأبيه المستنصر بالله ولا جدّه الناصر لدين الله اللذين أنفقا الأموال الكثيرة على إعداد الجيوش،

وزعاها على العساكر. حكم المستعصم ١٦ عاماً (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م)، وكان يحبّ جمع الأموال، بل ينكر ودائع الملوك، ويستجمع المال بتسريح جنده وعساكره (بمشورة وزيره ابن العلقمي).

(أودع الملك الناصر داودُ وديعةً عند الخليفة المستعصم، في ٦٤٧هـ، قيمتها مئة ألف دينار فجحدها الخليفة، فكرر وفوده إليه، وتوسله بالناس في ردها إليه، فلم يفد من ذلك شيئاً، فوفد عليه في ٦٥٤هـ، فتوقف في ردها واحتجّ بحجج باردة. وجرت أمور قبيحة لم يعهد مثلها من أمير فضلاً على أمير المؤمنين.

ثم سار إلى بغداد في سنة ثلاث وخمسين؛ بسبب الوديعة والحجج، وكتب معه الناصر صاحب الشام كتاباً إلى الخليفة يشفع فيه في رد وديعته، ويخبر برضاه عنه، فسافر ونزل بمشهد الحسين بكربلاء، وسير إلى الخليفة قصيدة يمدحه ويتلطفه، والقصيدة طويلة مطلعها:

مقامُـك أعلـى في النُّفـوس وأعظـمُ ... وحلمُـك أرجَـى في النُّفُـوس وأكـرمُ

فلم ينفع ذلك، ثم أحضر شيخ الحرم والخدام، ووقف بين الضريح مستمسكاً بسجف الحجرة الشريفة، وقال: اشهدوا أن هذا مقامي من رسول الله ﷺ قد دخلت عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه أمير المؤمنين في رد وديعتي. فعظم الناس هذا وبكوا، وكُتب بصورة ما جرى إلى الخليفة. ولما كان الركب في الطريق، وقع القتال بين الحجيج، فجاء الناصر يشق الصفوف، وأصلح بينهم. وكان الناصر داود قد حجّ، وعاد إلى العراق بسببها، فأُنزل بمحلة وأُجري عليه راتب ضعيف، فعمل قصيدة تلطف فيه وعدد خدَمه وخدَم آبائه فما نفع، بل سيّروا إليه من حاسبه على جميع ما اتصل إليه من النفقات والمأكول وما حملوه إليه من الهدايا في تردده، ثم أوصلوا إليه شيئاً يسيراً، وقالوا: قد وصل إليك قيمة وديعتك فهات خطك بوصوله، وإنك لم يبق لك شيء، فكتب كارهاً. ولم يصل إليه من قيمتها العشر. ثم رجع ثم قدم دمشق ونزل بقرية البويضا بقرب البلد، وأخذ يتجهز للمسير، فلم ينشب أن جاءت الأخبار بما جرى على بغداد). (البداية والنهاية ج ١٣، ص٢٤٩، وتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث ٦٥٤هـ)

ولي وزارة العراق مؤيد الدين محمد بن العلقمي في ٦٤٢هـ، بعد موت ابن الناقد الوزير. وابن العَلْقمي ٥٩٣-٦٥٦هـ (١١٩٧-١٢٥٨م) هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة عام ٦٤٢هـ، فوليها ١٤ عاماً. ووثق به "المستعصم" فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصَّغاني "العُباب" وصنف له ابن أبي الحديد "شرح نهج البلاغة".

خيانة ابن العلقمي: متى؟ ولماذا؟

قدم رسولان من التتار في ٦٤٤هـ، أحدهما من بركة، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي، وتغمّت على الناس بواطن الأمور.

وفي ٦٤٨هـ ثارت الجند ببغداد؛ لقطع أرزاقهم، ومنعوا يوم الجمعة الخطيب عن الخطبة، واستغاثوا لأجل قطع أرزاقهم. وكل ذلك كان من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي؛ فإنه كان حريصاً على زوال دولة بني العباس ونقلها إلى العلويين، وكان يرسل إلى التتار في السرّ والخليفة المستعصم لا يطلع على باطن الأمور، ولا له غرض في المصلحة. وهذا يعني أن خيانة ابن العلقمي بدأت من عام ٦٤٤هـ، عندما اجتمع هو شخصياً مع رسولي التتار، وليس من عام ٦٥٤هـ بعد فتنة الكرخ كما يُقال.

وكثر اللصوص ببغداد في العام ٦٤٨هـ نفسه، وصار لهم مقدم يقال له: عيث، وتجرؤوا على دور الأمراء. وكان آمر الله بتبديد أموال الخليفة وأمرائه وخزائنهم في سنة ٦٥٤هـ (عقاباً من جنس العمل بقطع أرزاق الجند).

فقد غرقت بغداد الغرق العظيم الذي لم يعهد مثله أغرقت بغداد أيضاً عام ٦١٤هـ وعام ٦٤٦هـ بأسوأ من الأول)، إذ انتقل الخليفة ودخل الماء إلى دار الوزير، وغرقت خزائن الخليفة وجرى شيء لم يجر مثله، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى. وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ.. وحدثت فتنة الكرخ في ٦٥٤هـ (انظر فيما سيأتي).

وكان وزير الخليفة المستعصم بالله، مؤيد الدين بن العلقمي ببغداد، رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية، ونقل الخلافة إلى العلويين، ويدبّر ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك. (كان أستاذ الخلافة ثم ولي الوزارة في ربيع الأول عام ٦٤٢هـ بعد موت ابن الناقد الوزير)، ومازال يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة ونهبوا، فاشتكى أهل باب البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدوادار والأمير أبي بكر بن الخليفة، فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ، فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة، وارتكبوا معهم العظائم اوقيهم أقارب الوزير وأصدقاؤه وجمعة علويون). فحنق الوزير ابن العلقمي، ونوى الشر في الباطن، وأمر أهل الكرخ الرافضة بالصبر والكفّ عن القتل، وقال لهم: (أنا أكفيكم غيّهم).

وثيقة الخيانة الخطرة: إن رسالة ابن العلقمي إلى ابن صلايا العلوي تمثل الإدانة الصريحة لهذا الوزير الخائن، وتبيّن أنه كان يخطط لخيانة الإسلام مع مجموعة متواطئة معه تعلم جيداً خيانته للإسلام، فما أفشوا بسره، بل عاونوه في تواطئه مع المغول ضد الإسلام، منهم رسولاه: أخوه وغلامه، ومنهم امرأته التي استهجنت احتقار المغول لزوجها الذي صار يركب كديشاً بعد أن كان الوزير المعلى، ومنهم ابن صلايا العلوي هذا، ومنهم أهل الكرخ الذين صاروا من مقدمة جيش هولاكو على بغداد. **ولخطورة هذه الرسالة نوردها كاملة**، كما ذكرها الذهبي في ترجمته لابن العلقمي عام ٦٥٦هـ في "تاريخ الإسلام":

(فكتب – أي ابن العلقمي – إلى نائب إربل تاج الدين محمد بن صلايا العلوي الرسالة التي يقول فيها:

كتب بها الخادم من النيل إلى سامي مجدك الأثيل. ويقول فيها: نُهب الكرخ المكرم والعترة العلوية. وحسن التمثل بقول الشاعر:

أمـــورٌ يضـــحكُ السُّـــفهاءُ منهـــا	ويبكـــي مـــن عواقبهـــا اللّبيـــب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حرمه وأريق دمه ولم يعثر فمه:

أمـــرتهم أمـــري بمنعـــرج اللِّـــوَى	فلـم يسـتبينوا النُّصْـح إلاّ ضُـحى الغـد

وقد عزموا – لا أتم الله عزمهم، ولا أنفذ أمرهم – على نهب الحلة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم أمراً، فصبر جميل. وإن الخادم قد أسلف الإنذار، وعجل لهم الأعذار.

أرى تحـــت الرّمـــاد وميـــضَ نـــارٍ	ويوشـــك أنْ يكـــون لهـــا ضـــرامُ
وإنْ لم يُطْفهـــا عُقَـــلاءُ قـــوم	يكـــون وقُودُهـــا جُثَـــثٌ وهـــامُ
فقلـــتُ مـــن التعجُّـــب: ليـــتَ شـــعْري	أأيْقـــاظ أميّـــةُ أمْ نيـــامُ

فكان جوابي (أي إجابتهم له) بعد خطابي: لا بد من الشنيعة ومن قتل جميع الشيعة، ومن إحراق كتابي "الوسيلة" و"الذريعة"، فكن لما نقول سميعاً، وإلا جرّعناك الحمام تجريعاً، فكلامك كلام، وجوابك سلام، ولتتركن في بغداد أحمل من المشط عند الأصلع، والخاتم عند الأقطع، ولتنبذن نبذ الفلاسفة بحظورات الشرائع، ولتلقى لقاء أهل القرى أسرار الطبائع، فلا فعلن بلبي كما قال المتنبي:

قـومٌ إذا أخـذوا الأقـلام مـن غضـب	ثـمّ اسـتمدّوا بهـا مـاءَ المَنِيّـات
نـالوا بهـا مـن أعـاديهم وإنْ بَعُـدُوا	مـا لا يُنـال بحـدّ المَشْـرَفيّات

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

ووديعـة مـن سـرّ آل محمّـد	أودعتُهـا إذْ كنـتُ مـن أمنائهـا
فـإذا رأيـت الكـوكبين تقاربـا	في الجـدي عنـد صـباحها ومسـائها
فهنـاك يؤخـذ ثـأرُ آلِ محمـد	لطلابهـا بـالتّرك مـن أعـدائها

فكن لهذا الأمر بالمرصاد، وترقب أول النحل وآخر صاد، والخير يكون إن شاء الله). انتهى

وكان الخليفة المستنصر بالله (أبو المستعصم) قد استكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مئة ألف. وكان الوزير ابن العلقمي يصانع التتار في الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلما استخلف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خلياً من الرأي والتدبير، أشار عليه ابن العلقمي المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند (بحجة اقتصاد البلاد)، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود ولا حاجة إلى كثرة الجند، ففعل الخليفة ذلك! (**وكلمة الشيخ مطاعة!**) ثم إن الوزير بعد ذلك كاتب التتار، وأطمعهم في البلاد سراً، وأرسل إليهم غلامه وأخاه، وسهل عليهم فتح العراق، وأخذ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد، فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد، وكاتبوا لؤلؤاً صاحب الموصل في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سراً وحذره، ثم هيأ لهم الآلات والإقامات.

وكان الوزير ابن العلقمي المذكور ليس لأحد معه كلام في تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره إلى الخليفة، وعمّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التتار بذلك غاية النتاج، وأخذ أمر الخليفة والمسلمين في إدبار! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل حذر الخليفة وحرك عزمه. والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ، فلما تحقق الخليفة حركة التتار نحوه، سيّر إليهم شرف الدين بن محيي الدين بن الجوزي رسولاً يعدهم بأموال عظيمة، ثم سير مئة رجل إلى الدربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر! لأن الأكراد الذين كانوا هناك دلوا التتار عليهم فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين.

وبعد استنفاذ الطرق الدبلوماسية، وإخفاق المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم، اتخذ هولاكو القرار بالهجوم على بغداد، فسار إليها في مئتي ألف مقاتل، وكان بصحبته جمع ممن ينتسب إلى الإسلام، منهم نصير الدين الطوسي الفيلسوف الذي كان أحد مستشاري هولاكو، ومنهم أمير شيراز، ووصل الجيش التتري إلى بغداد في محرم سنة ٦٥٦هـ.



ثم ركب هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان في جيوشه من المغول، وقصدوا العراق، وكان على مقدمته الأمير بايجو نوين، وفي جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة. فوصلوا إلى قرب بغداد، واقتتلوا من جهة البر الغربي عن دجلة، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين الدوادار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديون، وأخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء، وهرب الباقون. ثم ساق بايجونوين مقدمة هولاكو، فنزل القرية مقابل دار الخلافة وبينه وبينها دجلة ليس غير.

وقصد هولاكو بغداد من البر الشرقي، وضرب سوراً وخندقاً على عسكره وأحاط ببغداد، فأشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة المستعصم بالله بمصانعتهم.



تصوير فارسي من القرن الرابع عشر لحصار بغداد في شباط ١٢٥٨م قبيل تدميرها على أيدي التتار

وقال له: اخرج إليهم؛ أنا في تقرير الصلح. فخرج إليهم واجتمع بهولاكو وتوثق لنفسه ورد إلى الخليفة، وقال: (إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف هو عنك بجيوشه فتجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد والرأي أن تخرج إليه". فسمع له الخليفة، وخرج إليه في جمع من الأعيان من أقاربه وحواشيه وغيرهم. فلما توجه إلى هولاكو، لم يجتمع به هولاكو، وأنزل في خيمة. ثم ركب الوزير وعاد إلى بغداد بإذن هولاكو، واستدعى الفقهاء والأعيان والأمثل ليحضروا عقد بنت هولاكو على ابن الخليفة، فخرجوا من بغداد إلى هولاكو. فأمر هولاكو بضرب أعناقهم، ثم مد الجسر ودخل بايجو نوين بمن معه إلى بغداد وبذلوا السيف فيها، واستمر القتل والنهب والسبي في بغداد بضعة وثلاثين يوماً؛ فلم ينجُ منهم إلا من اختفى.

ثم أمر هولاكو بعدِّ القتلى، فبلغوا ألف ألف وثماني مئة ألف وكسراً. وقال الذهبي - رحمه الله - في "تاريخ الإسلام": والأصح أنهم بلغوا ثماني مئة ألف. ثم نودي بعد ذلك بالأمان، فظهر من كان اختفى وهم قليل من كثير.

وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبذلون السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً، وراح مع الطائفتين أيضاً أممٌ لا يُحصون كثرة، وذاق ابن العلقمي الهوان والذل من التتار ولم تطل أيامه. وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" في ترجمته: (ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وقد رأته امرأة، وهو في الذل والهوان، وهو راكب في أيام التتار برذوناً مرسماً عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه، وقالت له: يا ابن العلقمي، هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وغبينة وضيقاً وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الروافض لمكان قريب من مشهد الإمام موسى الكاظم بالكاظمية ببغداد)، وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف.



وحشية المغول بلا حدود ولا رحمة: تلال بل جبالٌ من رؤوس المسلمين المقطوعة

وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة (واسمه أبو الفضل محمد بن محمد)، وكان أبو الفضل كاتباً منشئاً بليغاً معظماً في دولة أبيه، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفاً على ما حلّ بالمستعصم

دستُ الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمي)

قال الذهبي في "تاريخ الإسلام" وفيات تحت سنة ٦٥٦هـ: (وكان في قلبه غلّ على الإسلام وأهله، فأخذ يكاتب التتار، ويتخذ عندهم يداً ليتمكن من أغراضه الملعونة. وهو الذي جرأ هولاكو وقوّى عزمه على المجيء، وقرر معه لنفسه أموراً انعكست عليه، وندم حيث لا ينفع الندم، وبقي يركب كديشاً، فرأته امرأته فصاحت به: يا ابن العلقمي، أهكذا كنت تركب في أيام أمير المؤمنين؟).

ثم ضرب هولاكو عنق مقدم جيشه بايجو نوين؛ لأنه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمي أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربي.

ولما تم أمر هولاكو، طلب الخليفة وقتله خنقاً. وقيل: غمّ في بساط، وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا.

ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدوادار، والخادم إقبال الشرابي صاحب الرباط بحرم مكة، والأستادار محيي الدين بن الجوزي وولديه وسائر الأمراء الأكابر والحجّاب والأعيان. ويقال: إن هولاكو حينما استحل بغداد، حبس الخليفة وأمر جنوده بوضع طبق من ذهب فيها كنوزه (التي ادخرها في قبو قصره)، فقال هولاكو كل (يقصد بالذهب)، فردّ الخليفة: أيؤكل؟ فأجابه هولاكو: لو أنفقت هذا على جنودك وشعبك لما كنت أنا هاهنا. والقصة مع ما فيها من حكمة، إلا أنها من تلفيق ماركو بولو؛ لأن هولاكو والتتار كانوا عازمين على اكتساح الأرض (سواء كان حكامها ظالمين أم عادلين).

وللتوثيق العربي، يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" عن هولاكو بعد تدميره بغداد، واحتجاز الخليفة عنده ليقرر ماذا يبتّ في أمره: (ثم عاد (هولاكو) إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك. وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله.

ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي. وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع "الألموت"، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا يُنسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.

وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شيء من دمه؛ خوفاً من أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنق، ويقال: بل أغرق، فالله أعلم.

فباؤوا بإثمه، وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون). (ج١٣، ص٢٣٥)



صورة تخيلية من عصور أوروبا الوسطى، حسب رحلات ماركو بولو الذي ادعى أن هولاكو (لليسار) سجن الخليفة المستعصم في غرفة مع كنوزه دون ماء ولا طعام، وقال له: (كلْ أموالك ما استطعت: لأنك كنت مُغرماً بجمعها)، وحسب المصادر العربية، فإن هولاكو سجن الخليفة ثم قتله رحمه الله بعد أن لفه في بساط، رفساً بسنابك خيله.

شهادة خطرة لشاهد عدل مسلم شهد قتل الخليفة ونجا من القتل:

يوردها الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت ترجمة المستعصم عام ٦٥٦هـ، ولخطورتها نوردها كاملة، وتعليقات الذهبي قبلها وبعدها: (قلت: وكان – المستعصم – يلعب بالحمّام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يطلعه على الأخبار. وإذا جاءته نصيحة في السرّ أطلع عليها ابن العلقمي ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فحكى جمال الدين سليمان بن عبد الله بن رطلين قال:

جاء هولاوو (أي: هولاكو) في نحو مئتي ألف نفس، ثم طلب الخليفة، فطلع ومعه القضاة والمدرسون والأعيان في نحو سبع مئة نفس، فلما وصلوا إلى الحربية، جاء الأمر بحضور الخليفة ومعه سبعة عشر نفساً، فاتفق أن أبي كان أحدهم، فحدثني أنهم ساقوا مع الخليفة، وأنزلوا من بقي عن خيلهم، وضربوا رقابهم. ووقع السيف في بغداد، فعمل القتل أربعين يوماً. وأنزلوا الخليفة في خيمة صغيرة، والسبعة عشر في خيمة. قال أبي: فكان الخليفة يجيء إلينا كل ليلة، ويقول: ادعوا لي. وقال: فاتفق أنه نزل على خيمته طائر، فطلبه هولاوو، وقال: أيش عمل هذا الطائر؟ وأيش قال لك؟ ثم جرت له محاورات معه ومع ابن الخليفة أبي بكر. ثم أمر بهما فأخرجا، ورفسوهما حتى ماتا، وأطلقوا السبعة عشر، وأعطوهم نشابة، فقتل منهم رجلان وطلب الباقون بيوتهم فوجدوها بلاقع. فأتوا المدرسة المغيثية، وقد كنت ظهرت فبقيت أسأل عن أبي، فدللت عليه، فأتيته وهو ورفاقه، فسلمت عليهم، فلم يعرفني أحد منهم، وقالوا: ما تريد؟ قلت: أريد فخر الدين بن رطلين. وقد عرفته، فالتفت إليّ، وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولده. فنظر إليّ وتحققني، فلما عرفني بكى، وكان معي قليل سمسم فتركته بينهم. وأقمنا هناك إلى صفر، إلى أن رفع السيف، فأتينا دار فخر الدين أحمد بن الدامغاني صاحب الديوان، وقد أراد ابن العلقمي أن يضرّه، فقال لهولاكو: هذا يعرف أموال الخليفة وذخائره وأمواله، وهذا كان يتولاها. فقال: إذا كان الخليفة اختاره لنفسه، فأنا أولى أن أوليه. وكتب له الفرمان، وقال للوزير: لا تفعل شيئاً إلا بموافقته.

ثم إن ابن العلقمي عمل على أن لا يُخطب بالجوامع، ولا تُصل الجماعة، وأن يبني مدرسة على مذهب الشيعة، ولم يحصل أمله، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات. وحدثني أبي: فخر الدين، قال: كان قد مشى حال الخليفة بأن يكون للتتار نصف دخل البلاد، وما بقي شيء أن يتم ذلك، وإنما الوزير ابن العلقمي قال: ما هذا مصلحة، والمصلحة قتله، وإلا ما يتمّ ملك العراق.

قلت: تُوفّي الخليفة في أواخر المحرم أو في صفر، وما أظنه دفن، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم من أن يوجد مؤرخ لموته، أو موارٍ لجسده. وراح تحت السيف أممٌ لا يحصيهم إلا الله، فيقال: إنهم كثر من ألف ألف. واستغنت التتار إلى الأبد، وسبوا من النساء والولدان ما ضاق به الفضاء. وقد بينا ذلك في الحوادث. وقتلوا الخليفة خنقاً، وقيل: غموه في بساط حتى مات. والأشهر أنه رفس حتى خرجت روحه.

وحكى جمال الدين بن رطلين، عن أبيه أنه قال: أخذوا الخليفة ليقتلوه، وكان معه خادم يقال له: قرنفل، فالقى عليه نفسه يقيه من القتل، فقتلوا الخادم، وعادوا إلى رفس الخليفة حتى مات؛ وكانوا يسمونه الأبله.

وحدثني شيخنا ابن الدباهي، قال: لما بقي بين التتار وبين بغداد يومان، أعلم الخليفة حينئذ، فقال: عدلان يروحان يبصران إن كان هذا الخبر صحيحاً. ثم طلب والدي، فحضر إلى بين يديه، وطلب منه الرأي. وقال: كيف نعمل؟ فصاح والدي وقال: فات الأمر كنتم صبرتم زاده). انتهى

ويقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث سنة ٦٥٦هـ:

(**الخيانة ابن العلقمي**) وولى هولاكو على العراق نوّابه، وعزم ابن العلقمي على أن يحسّن لهولاكو أن يقيم ببغداد خليفة علوياً، فلم يتهيأ ذلك له، واطرحته التتار، وبقي معهم على صورة بعض الغلمان، ثم مات كمداً لا رحمه الله، ولا خفف عنه.

(**قتل ابن صلايا**) وسار هولاكو قاصداً إلى أذربيجان، فنزل إليه بدر الدين صاحب الموصل، فأكرمه ورده إلى الموصل، ونزل إليه تاج الدين بن صلايا فقتله، فقيل: إن صاحب الموصل كان في نفسه من ابن صلايا، فقال لهولاكو: هذا شريف علوي، فربما تطاول إلى الخلافة، وتقوم معه خلق؛ فلهذا قتله هولاكو. ولم تطل لصاحب الموصل بعد ذلك حياة. انتهى

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مئة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف. ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه في أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وانقضت الخلافة من بغداد، وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل: إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر، وقيل غير ذلك. وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ٦٥٦هـ، ونزل هولاكو بظاهر بغداد في عاشر المحرم، وبقي السيف يعمل فيها ٣٤ يوماً. وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد كانت الخطبة: (الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار... إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلها: وإنا لله وإنا إليه راجعون).

عمل الخائن الخواجة نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة في سنة ٦٥٧هـ، ونقل إليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد، وعمل دار حكمة، ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة

دراهم. ودار طب، فيها للطبيب في اليوم درهمان. ومدرسة، لكل فقيه في اليوم درهم. ودار حديث، لكل محدث نصف درهم في اليوم.

وواكبت اللغة العربية، بحزن شديد، نكبة الإسلام، بسقوط بغداد أمّ الدنيا وحاضرة حواضر العالم الإسلامي، فعمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي بغداد وأهلها، وعمل الشيخ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله التنوخي قصيدته المشهورة، وهي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديّارُ

تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به المعالم قد عفاه إقفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

يا نار قلبي من نار لحرب وغى ... شبّت عليه ووافى الربع إعصار

علا الصليب على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحويه زنار

وكم بدور على البدرية انخسفت ... ولم يعد لبدور منه إبدار

وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النهّاب وقد حازته كُفار

وكم حدود أقيمت من سيوفهم ... على الرقاب، وحطّت فيه أوزار

وهم يُساقون للموت الذي شهدوا ... النار يا رب من هذا ولا العار

والله يعلم أن القوم أغفلهم ... ما كان من نعم فيهن إكثارُ

فأهملوا جانب الجبّار، إذ غفلوا ... فجاءهم من جنود الكفر جبّارُ

يا للرجال بأحداث تحدثنا ... بما غدا فيه إعذار وإنذار

من بعد أسر بني العباس كلهم ... فلا أنار لوجه الصبح إسفار

ما راق لي قط شيء بعد بينهم ... إلا أحاديث أرويها وآثار

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ... سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا

إن القيامة في بغداد قد وجدت ... وحدها حين للإقبال إدبار

آل النبي وأهل العلم قد سُبيوا ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصار

ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أبي دون ما أختار أقدار

وقال غيره في فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد:

خلت المنابرُ والأسرّة منهم ... فعليهمُ حتى الممات سلامُ

وقال سبط التعاويذيّ في دمار بغداد من آجل بقاء ابن العلقمي:

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خرابُ

وهكذا، لم تمض إلا بضعة أسابيع حتى دخل التتار بغداد، وقتلوا كل من استطاعوا قتله من أهلها، وكان ضحايا هذه المجزرة الجماعية ثماني مئة ألف إنسان، ولم ينجُ من الناس إلا أهل الذمة من اليهود والنصارى، وبعض التجار، ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي، وامتلأت بغداد بالجثث حتى صارت كالتلال والجبال في الطرقات،

وتعفنت الأشلاء، وتلوث الهواء؛ فانتشر الطاعون في بغداد، فمات منه خلق كثير. وكان كثير من الناس قد اختبؤوا في الآبار وقنوات الأوساخ والنجاسات، فلما نودي في بغداد بالأمان، خرجوا كأنهم الموتى من قبورهم لا يعرف الوالد ولده، ثم أخذهم الطاعون فألحقهم بمن سبقهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد سقوط بغداد، فوض الطاغية هولاكو أمرها إلى الأمير (علي بهادر)، وجعل معه الوزير ابن العلقمي الذي كان يطمع في الملك، فأخزاه الله في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾(فصلت: ١٦)، ولما لم يحصل له الملك، انقطع في داره فمات هماً وكمداً، ثم تولى الوزارة بعده ولده الخبيث فأخذه الله سريعاً وألحقه بوالده، ثم قرر هولاكو مغادرة بغداد بعد أن صارت خراباً فخرج إلى أذربيجان، وبدأت استعداداته للمرحلة الثالثة من الحملة، وهي غزو سوريا وفلسطين ومصر.

التحالف الصليبيّ المغوليّ:

كان هولاكو حفيد جنكيز خان معلناً بدينه الشاماني (عبادة الشمس)، لكنه كان متسامحاً مع النصرانية؛ والسبب في ذلك أن أمه "سورغاختاني – بيكي"، وزوجته المفضلة "دقوز خاتون"، والعديد من معاونيه المقربين كانوا نصارى نسطوريين، بل إنّ واحداً من أهم جنرالاته هو القائد "كتبغانوين"، كان نصرانياً نسطورياً.

صار التعاون العسكري بين المغول وبين توابعهم النصارى الصليبيين متيناً وكبيراً في المدة ما بين ١٢٥٨–١٢٦٠م. تمكن جيش هولاكو بمساندة قوات النصارى من البلاد الخاضعة له: بوهيمند الرابع ملك أنطاكيا الصليبي، وهيثوم الأول ملك أرمينيا، ونصارى جورجيا، من التحطيم الكامل لاثنين من أهم السلالات الإسلامية آنذاك: السلالة العباسية في بغداد، والأيوبية في سوريا.

وعلى الرغم من توغل جيوش المغول شرقي أوروبا والعالم الإسلامي، كان الصليبيون يأملون في التحالف مع المغول ضد العالم الإسلامي. وخضعت مملكة قليقيا بإرادتها للمغول في عام١٢٤٧م، وقام "هيثوم" ملك أرمينيا الصغرى بزيارة "قاراقوروم" عاصمة المغول في عام ١٢٥٤م، (بعد أربع سنوات من إخفاق الحملة الصليبية السابعة)، وأرسل لويس التاسع من عكا الكاهن الفرنسيسكاني "وليم أوف روبروك" إلى عاصمة المغول في عام ١٢٥٣م للتشاور، وكان وليم هذا يصحب لويس في مصر في أثناء حملته عليها. فقد كان من ضمن أهداف الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع إنشاء حلف صليبي – مغولي ضد العالم الإسلامي.

اجتاح المغول بغداد في عام ١٢٥٨م، عاصمة الخلافة الإسلامية ومركز العلوم والمعرفة في العالم الإسلامي، ودمروها، وأسقطوا معها الخلافة العباسية، وقتلوا أعداداً غفيرة من علمائها المسلمين، ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، فانمحى بذلك جزء كبير من التراث الثقافي والعلمي للمسلمين. ومن ثم احتلوا بلاد الشام ودمروها.

بغداد؛ حاضرة العباسيين وعاصمتهم، جوهرة الإسلام، وواحدة من أعظم مدائن العالم وأكبرها قرابة ٥٠٠ سنة، سقطت في ١٥ شباط ١٢٥٨م، الحادثة التي تعدّ النكبة الكبرى في تاريخ الإسلام. كان نصارى جورجيا هم أول من صدّع جدران المدينة، وكما يصفهم المؤرخ ستيفن رانسيمان: (كانوا من أشرس الناس في تحطيمها). وعندما استولى هولاكو على المدينة، قام المغول بتدمير مبانيها ،وحرقوا ما يجاورها، وذبحوا قرابة ٨٠٠ ألفاً من الرجال والنساء والأطفال على أقل تقدير. لكن بتدخل زوجة هولاكو النسطورية النصرانية دقوز خاتون، أبقى على حياة السكان النصارى.

بالنسبة إلى النصارى الآسيويين، يُعدّ سقوط بغداد سبباً للابتهاج والاحتفال. صار (هولاكو وملكته دقوز خاتون) وكلاء الربّ ضد أعداء النصرانية. ووُصف الزوجان المغوليان، من قبل المؤرخين الأرمن، على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجُدد بالنسبة إلى الكنيسة الأرمنية لقسطنطين هو أول إمبراطور روماني يعتنق النصرانية مع زوجته هيلين! بل ظهر الزوجان المغوليان في صور وهما يمثلان "قسطنطين وهيلين". وأشار قسيس من الكنيسة الأرثوذوكسية السريانية على أنهما "قسطنطين وهيلين"، وكُتب عن هولاكو بأنه لا يُضاهي ملك الملوك هذا أحدٌ في حكمته، وفي عقله الراجح، وفي أعماله الباهرة!!!



التحالف النصرانيّ المغوليّ: "هولاكو وملكته دقوز خاتون" وهما مُصوّران باحتفاء على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجُدد، كما يظهران في إنجيل باللغة السريانية



تحت ظلّ جنكيز خان: زار الرئيس الأمريكي (هولاكو بوش) رئيسَ منغوليا المغولي (أولانباتار) في ٢٠٠٥/١١/٢١، لينسّق أمور سقوط بغداد في ٢٠٠٣م!

التاريخ يُعيد نفسه. فما أشبه اليوم بالبارحة! وهل يُلام من يسمّون الرئيس الأمريكي هولاكو– بوش.





الرئيس بوش في أثناء زيارته إلى منغوليا (في ٢١/١١/٢٠٠٥م)،
وهو يلتقي بالممثلين المغول في أثناء أدائهم السينمائي لبعث تراث جنكيز خان

عين جالوت: المعركة المفصلية العالمية الكبرى، وفاتحة الانتصارات الإسلامية

كان مسار الأحداث التي زلزلت العالم الإسلامي يجري بسرعة منقطعة النظير، وحسب المصادر العربية الموثقة للتاريخ الإسلامي ك (البداية والنهاية) لابن كثير، و(النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) لابن تغري بردي، مطعمة بمقتطفات من المصادر العربية والغربية الأخرى، فإنّ مسار الأحداث هو كما يأتي:

سقوط الشام (ميافارقين، حلب، دمشق) وهروب أهاليها إلى مصر:

قدم رسول من ملك التتار تولي بن جنكيز خان إلى ملوك الإسلام؛ يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم، وعنوان الكتاب: (من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب قان قان). و قبل هولاكو خان، فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مدة سنة ونصف (ولم يسعفها أحد من بلاد الشام)، فأرسل إليها ولده أشموط، فافتتحها قسراً، وأنزل ملكها المجاهد البطل الكامل بن الشهاب غازي بن العادل، فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستناب عليها بعض مماليك الأشرف (ملك حمص الذي أجبر للتعاون مع التتار)، وطوف برأس الكامل في البلاد. ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب الفراديس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب الفراديس الجواني، فنظم أبو شامة في ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده، وشبهه بالحسين في قتله مظلوماً ودفن رأسه عند رأسه.

بطل ميافارقين: أسطورة الشهيد الذي دوّخ المغول:

خرج حفيد صلاح الدين الأيوبي، في زمن عز فيه الرجال؛ ليقاوم التتار على الرغم من خذلان المسلمين المجاورين له. إنه الملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد ابن أيوب. تملك ميافارقين عام ٦٤٥هـ عقيب وفاة والده، ودام في الملك سنين إلى أن جفل من التتار بعد أن كان يداريهم سنين، وقدم على الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدمشق عام ٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد، واستنجده على التتار فوعده الناصر بالنجدة لدون أن يوفي بوعدها، وآخر الأمر أنه رجع إلى بلاده وحصره التتار بها نحو سنتين حتى استشهد بأيديهم – رحمه الله تعالى – عام ٦٥٨هـ.

لما وصلت الأنباء إلى الملك الكامل محمد بسقوط بغداد، أعد العدة للجهاد، ولما بلغ الأمر إلى هولاكو، أراد أن يفتّ في ساعد الملك الكامل، فأرسل إليه رسولاً يوحي إليه بالاستسلام كغيره من الأمراء الأيوبيين، وكان

الرسول يكون نصرانياً عربياً اسمه "قسيس يعقوبي؛ وذلك لأمرين: حتى يستطيع التفاهم مع الملك الكامل بلغته، والأمر الثاني: لتوصيل رسالة غير مباشرة إلى الكامل أن النصارى مع هولاكو. فوقع الكامل بين أرمينيا النصرانية المتحالفة مع التتار من الشرق، والكرج النصرانية في الشمال الشرقي، ومن الجنوب الشرقي التتار. إلا أن كل هذا لم يفتّ في ساعد الملك الكامل. ولكي يعلن الحرب على التتار، ولا يعطي فرصة لنفسه أو لمن معه للتخاذل، فقد أقدم على قتل الرسول معلناً بذلك الحرب على التتار. [قصة التتار للدكتور راغب السرجاني]

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (فحاصره عسكر هولاكو نحواً من عشرين شهراً، حتى فني الناس جوعاً ووباء، وحتى لم يبق بالبلد سوى سبعين رجلاً فيما قيل، فحدثني الشيخ محمود بن عبد الكريم الفارقي، قال:

سار الكامل إلى قلاع بنواحي آمد فأخذها، ثم نقل إليها أهله، وكان أبي في خدمته، فرحل بنا إلى قلعة منها، فعبرت التتار علينا، فاستنزلوا أهل الملك الكامل بالأمان من قلعة أخرى، وردوا بهم علينا، وأنا صبي مميز، وحاصروا ميافارقين أشهراً، فنزل عليهم الثلج، وهلك بعضهم، وكان الكامل يبرز إليهم ويقاتلهم، وينكي فيهم فهابوه، ثم بنوا عليهم سوراً بإزاء البلد، بأبرجة، ونفدت الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيؤكل. ووقع فيهم الموت، وفتر عنهم التتار وصابروهم، فخرج إليهم غلام أو أكثر وجلوا للتتار أمر البلد، فما صدقوا، ثم قربوا من السور وبقوا أياماً لا يجسرون على الهجوم، فدلى إليهم مملوك للكامل حبالاً فطلعوا إلى السور فبقوا أسبوعاً لا يجسرون، وبقي بالبلد نحو التسعين بعد الوف من الناس، فدخلت التتار دار الكامل وأمنوه، وأتوا به هولاكو بالرها، فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأساً فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنت، فناولته فأبى، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاكو. وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم، من رأى وجه القان لا يقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضباً وقتله).

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (كان شابًا، عاقلاً، شجاعاً، مهيباً، محسناً إلى رعيته، مجاهداً، غازياً، ديّناً، تقياً، حميد الطريقة. وكان الكامل شديد البأس، قوي النفس، لم ينقهر للتتار، حتى إنهم أخذوا أولاده من حصنهم، وأتوه بهم إلى تحت سور ميافارقين، وكلموه أن يسلم البلد بالأمان، فقال: ما لكم عندي إلا السيف).

يقول الصفدي في كتابه "الوافي بالوفيات" عن الملك المظفر محمد بن غازي: (كان ملكاً جليلاً ديناً خيراً عالماً مهيباً شجاعاً، محسناً إلى الرعية، كثير التعبد والخشوع، لم يكن في بيته من يضاهيه. ومدحه الشعراء: لمواقفه المحمودة وصموده في وجه التتار، فقالوا:

ابن غازٍ غزا وجاهد قوماً	أثخنوا في العراق والمشرقين
ظاهراً غالباً ومات شهيداً	بعد صبرٍ عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منه	فله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة	لقد حاز أجره مرتين
جمع الله حسن زين الشهيدين	على فتح تينك القلعتين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك	الرأس فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعث	رفيق الحسين في الجنتين)

يقول الذهبي: طيف برأسه بدمشق بالطبول، وعلق على باب الفراديس، فلما انقلعوا، وجاء المظفر لقطز دُفن الرأس.

أرسل هولاكو في عام ٦٥٧هـ (بعد سقوط بغداد) إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاكو بل غضب على أبيه: إذ لم يُقبل إليه بنفسه، وأخذ ابنه، وقال: أنا أسير إلى بلاده بنفسي. فانزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات، فسافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا بد من استشراء المفاسد في الشام (كما في العراق) مع انتشار الظلم، لتستوجب غضب الله بتسليط الأعداء عليهم، ويصف الذهبي في "تاريخ الإسلام" مفاسد دمشق تحت أحداث عام ٦٥٥هـ: (قال ابن حَمُّوْيُه بعد أن ترك الجندية وتصوّفا في "تاريخه": ولما عاندني الدهر في أموري، وباعد سروري، وكدّر مشاربي، وعسّر مآربي، وانقطعت الأرزاق، وانحلّ كيس الإنفاق، خرجت من مصر، فلما حللت بدمشق، مسقط رأسي، وجدتها وقد صوّح واديها، وخلا من الأنيس ناديها، وارتفعت عنها البركات، وأحيط بها الظلم والظلمات. والأسواق كاسدة، والرعايا فاسدة، عدم ركبا، وظهرت الخيانات وشغل المودف، وعلت المنكرات، وأحدث من الرسوم ما لم يعهد، وحملوا أثقالاً مع أثقالهم. إن استغاثوا بالملك أجابهم بالضرب والرد، وإن استنجدوا بالوزير عاملهم بالإعراض والصد، وإن سألوا الحاجب طلب الرشا بلا حمد. إلى أن قال: لا يحضرهم أحد على مائدة، ولا يرجع من عندهم بعائدة. قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار، يكذبون ويحلفون، ويغدرون ويُخْلفون، وعلى حريم أصحابهم بالفاحشة يحلفون. قد قنع كل منهم بلومه، ولف ذنبه على خيشومه. قيل لوزيرهم: إنا نطيل الجلوس، فلو جعلت علامة لقيامنا. قال: إذا قلت، يا غلام، هات الغداء، فانصرفوا. وقال صاحب ديوانهم لغلامه: هات غدائي وأغلق الباب. فقال: بل أغلق الباب وأجيء بالطعام. قال: أنت أحذق مني، فأنت حر لوجه الله بعد موتك. وحضر شاعر مائدة أكبر أمرائهم، فرمى لقمة للهر، فقال الأمير: لا تطعمها فإنها هرة جيراننا. ومن غرائب الظلم أن رجلاً جاء بحمل عسل، فأخذ للخوشخاناه، فطولب بمكس العسل، فقال: خذوا من تحت أيديكم. قالوا: ما نعرف ما تقول. فذهب بالبغل يبيعه، فأخذه أمير الإصطبل. وطولب بحقه في السوق، فقال: ادفعوا لي ثمنه وخذوا حقكم. قالوا: ما نعلم ما تقول. وحبسوه على مكسه. فكتب إلى أهله: أنفذوا لي دراهم حتى أستفك روحي، فقد راح العسل والبغل، وأنا محبوس على المكس. ومما يناسب هذه الحكاية أن امرأة ذهب عنها حُلِيٌّ بخمسة آلاف، فوجده منادٍ بسوق الرحبة فرده عليها، فوهبته خمس مئة درهم، فتمنع وقال: إنما رددته لله. فألزمته فأخذ الدراهم. فسمع به الوالي فأحضره وأخذ منه الدراهم وضربه وقال: ليش ما جبت بالحُلِيّ إلى عندنا؟).

يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث ٦٥٦هـ:

(**كتاب هولاكو إلى صاحب الشام**) وفيها جاءت رسل قاءان من بلاد ما وراء النهر ورسل هولاكو إلى صاحب الشام، فصورة كتاب هولاكو:

"يعلم السلطان الملك الناصر – طال بقاؤه – أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بسيف الله تعالى، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوسهم يستحق الإذلال، فأعدمناهم أجمعين، وذلك بما قدمت أيديهم وبما كانوا يكسبون. وأما ما كان من صاحب البلدة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحق الإعدام. وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً. أجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات. ولقد بلغنا أن شذرات من العسكر التجأت إليك هاربة، وإلى جنابك لائذة،

(أيـن المفـرُّ ولا مفـرَّ لهـاربٍ ولنـا البسـيطان الثـرى والمـاءُ)

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماها أرضاً، وطولها عرضاً، والسلام. ومن كتاب ثان: خدمة ملك ناصر -طال عمره. أما بعد، فإنا فتحنا بغداد، واستأصلنا ملكها وملكها، وكان ظن وقد ضن بالأموال، ولن ينافس في الرجال أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره، ونما قدره، فخسف في الكمال بدره،

(إذا تمّ أمــــرٌ بـــدا نقصُــــهُ توقَّـــعْ زوالاً إذا قيـــل تـــمّ)

ونحن في طلب الازدياد، على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأبد ما في نفسك، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. أجب ملك البسيطة تأمن شره، وتنل بره، واسع إليه برجالك وأموالك، ولا تعوق رسولنا، والسلام.

(وصول فرسان من العراق إلى دمشق) ووصل نحو خمس مئة فارس من عسكر العراق، ذكروا أن التتار حالوا بينهم وبين بغداد. ثم جاء بعدهم نحو ثلاث مئة فارس إلى دمشق.

(اشتداد الوباء بالشام) واشتد الوباء بالشام في أثناء السنة، ومات خلق حتى لقد قيل: إنه خرج من حلب في يوم واحد ألف وعشا جنازة. وأما دمشق فكان فيها من المرض ما لا يحد ولا يوصف، واستغنى العطارون، ونفدت الأدوية، وعز الأطباء إلى الغاية. وبيع الفروج بدمشق بثلاثة دراهم، وبحلب بعشرة دراهم. ومبدأ الوباء في جمادى الأولى لفساد الهواء بملحمة بغداد. انتهى

وعرض طاعون بالشام عقيب ما حدث في العراق، فطعن الناصر داود في جنبه (وهو الذي حرر القدس من الصليبيين ثم أرجعها لهم، وهو الذي اعتقل الملك الصالح أيوب ثم أطلق سراحه). قال ابن واصل: وكثر الطاعون بالشام مع بعد مسافة بغداد. وحكى جالينوس أنه وقعت ملحمة في بلاد اليونان، فوقع الوباء بسببها في بلاد النوبة مع بعد المسافة.

قال بن واصل: حكى لي عبد الله بن فضل أحد ألزام الناصر داود، قال: اشتد الوباء فتسخطنا، فقال لنا الناصر: لا تفعلوا، فإنه لما وقع بعمواس زمن عمر ﷺ قال بعض الناس: هذا رجز. فذكر الخبر بطوله، وأن معاذاً قال: اللّهمّ أدْخل على آل مُعاذ منه أوْفى نصيب. فمات مُعاذ وابنُه. ثم ابتهل الناصر، وقال: اللّهمّ اجعلنا منهم وارزُقنا ما رزقتهم. ثم أصبح من الغد أو بعده مطعوناً. وقال ابن واصل: عُمْرُهُ نحو ثلاث وخمسين سنة، وكان قد استولى عليه الشيب استيلاء كثيراً، رحمه الله لوهذا من تطهير الله له، غفر الله ذنبه).

تواترت الأخبار، في بداية ٦٥٨هـ، أنّ المغول بصحبة ملكهم هولاكو خان جازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصرة لنا فالبلاد كلها في حكمنا، وإن كانت علينا، فإن شئتم قبلتم الشحنة، وإن شئتم أطلقتموه. فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه. فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وامتنعت عليه القلعة شهراً ثم تسلموها بالأمان. وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً، لكنه لم يوافقه الجيش على القتال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو، فاستناب عليها

رجلاً من العجم يدّعي أنه من ذرية خالد ابن الوليد يقال له: خسروشاه، فخرب أسوارها كمدينة حب. (البداية والنهاية ج١٣/ص ٢٥٤)

يقول عمر بن أحمد الحلبي، المعروف بابن النديم الذي قدم مصر لما جفل الناس من التتر ثم عاد بعد خراب حلب إليها، فصُدع بما رأى، وقال قصيدته المحزنة (وتوفي بعد ذلك بالقاهرة ٦٦٠هـ بعد أن أنعم الله على المسلمين في معركة عين جالوت) قال في حلب:

هو الدهر ما تبنيه كفّاك يُهدم	وإن رمت إنصافاً لديه فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً وقيصراً	وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بني أيوب مع كثرة جمعهم	وما منهم إلا مليك معظم
وملك بني العباس زال، ولم يدع	لهم أثراً من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تُداسُ وعهدُها	تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجائب	أحل بها يا صاح، إن كنت تعلم
فيا لك من يوم شديد لغامه	قد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت	مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم
ولكنما لله في ذا مشيئة	فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

أرسل هولاكو، وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوين، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة. وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد، فقرئ بالميدان الأخضر ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل بأهل حلب، هذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفي أعاليها المجانيق منصوبة، والحال شديدة. فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة، فنصب المجانيق على القلعة من غربيها، وخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا حجارتها، ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت، فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها، وأعالي بروجها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة. وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: إبل سيان، وكان - لعنه الله - معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه.

وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده، ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا من باب توما، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم، ويقولون: (ظهر الدين الصحيح دين المسيح)، ويذمّون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم مملثة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم.

ورحل الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي (باسم جده صلاح الدين، لكنه اسم هذا دون مسمّاه) ملك دمشق آنذاك إلى الديار المصرية جافلاً من التتار، وكان ضعيف الهمة غير ثابت الرأي. ولما تحقق الناصر بحركة التتار، رحل إلى "برزة" شمالي دمشق ونزل بها بعساكره، واجتمع إليه أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمطوعة، فلم يعجب الناصر حاله؛ لتخوفه لما رأى من تخاذل عسكره، وعلم أنه إذا لاقى التتار لن يثبت

عسكره لهم لكثرتهم ولقوتهم، فإن هولاكو في خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى من المغول والكرج والعجم وغيرهم. وأما هولاكو، فإنه مازال يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشام واضمحل أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور ووقائع وقعت له وانفل عنه أصحابه. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري إلى مصر (انظر نهاية الناصر يوسف تحت عين جالوت).

السلطان المظفر قطز: الرجل المناسب للمقام المناسب وللوقت المناسب

وقدم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز، يستنجد المصريين على قتال التتار، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها. واستفحل أمر قطز بديار مصر، وصار هو المشار إليه فيها، لصغر الملك المنصور علي ولكثرة حواشي قطز، ثم تحقق قطز مجيء التتار إلى البلاد الشامية، وعلم أنه لا بد من خروجه من الديار المصرية بالعساكر للذب عن المسلمين، فرأى أنه لا يقع له ذلك، فإن الآراء مغلولة لصغر السلطان ولاختلاف الكلمة.

فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد وينتصب للجهاد في التتار. وبان عذر قطز الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم، حين قال: (لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة).

فأجابه الجميع: ليس لها غيرك!

وخُلع الملك المنصور في الحال من الملك، وبويع الأمير قطز ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز، وحلف قطز الناس لنفسه وتم أمره، وذلك في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ؛ ولهذا قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه أيبك: نور الدين علي الملقب بالمنصور (البالغ من العمر ١٥ سنة)، واعتقله مع والدته بالدور السلطانية من قلعة الجبل. فلما مسكه، سيره مع أمه وابنيه وأخوته إلى بلاد الأشكري، وتسلطن هو، وسمى نفسه بالملك المظفر. وكان هذا من رحمة الله بالمسلمين، فإن الله جعل على يديه كسر التتار (وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى).

ولم يكن قطز أصلاً من الرقيق. حكى الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، فضربه أستاذه فبكى، ولم يأكل شيئاً يومه، ثم ركب أستاذه للخدمة وأمر الفرّاش أن يترضاه ويطعمه، قال: فحدثني الحاج علي الفرّاش، قال: فجئته، وقلت: ما هذا البكاء من لطشة (أي لطمة). فقال: إنما بكائي من لعنة أبي وجدي وهم خير منه، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر! فقال: والله، ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود ابن ممدود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكته وترضيته. وتنقلت به الأحوال إلى أن تملك مصر، ولما تملك أحسن إلى الحاج علي الفرّاش المذكور وأعطاه خمس مئة دينار وعمل له راتباً.

وعن حسام الدين البركتخاني، قال: تسلطن قطز وتملك الديار المصرية وبكسر التتار. قال تاج الدين ابن الأثير: فبقيت متعجباً من حديثه، وقلت له: أيش هذا القول، ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قطز خشداشي، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرّح رأسه، على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلساً أو صفعته، ثم قلت في أثناء ذلك: والله، ما أشتهي إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارساً، فقال لي: طيّب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً فصفعته، وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم، فصفعته، فقال لي: وإلك علة! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارساً، أنا والله أعطيك. قلت:

ويلك! كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت. قلت: ويلك أنت مجنون؟ أنت بقملك تملك الديار المصرية، قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: «أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار»، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكتُّ، وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب. قال تاج الدين: فلما قال لي هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنه تسلطن. قال لي: والله وهو يكسر التتار.

قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركتخاني -الحاكي ذلك بالديار المصرية- بعد كسر التتار فسلم علي، وقال: يا مولاي تاج الدين، تذكر ما قلت لك في الوقت الفلاني. قلت: نعم. قال: والله، عندما عاد الملك الناصر من قطيا دخلت الديار المصرية فأعطاني إمرة خمسين فارساً كما قال لا زائد على ذلك.

وحكى عز الدين محمد بن أبي الهيجاء: أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي قال: كنتُ أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس -رحمهما الله تعالى- في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا منجماً في بعض الطريق بالديار المصرية فقال له الملك المظفر قطز: أبصر نجمي، فضرب بالرمل وحسب، وقال: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار، فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر بيبرس: أبصر نجمي، فقال: وأنت أيضاً تملك الديار المصرية وغيرها فتزايد استهزاؤنا به. ثم قالا لي: لا بد أن تبصر نجمك، فقلت له: أبصر لي نجمي، فحسب وقال: أنت تحلص لك إمرة مئة فارس يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يخرم منه شيء. وهذا من عجيب الاتفاق.

يقول الإمام الذهبي في ترجمة قطز بن عبد الله في "تاريخ الإسلام" تحت وفيات عام ٦٥٨هـ: (قطز بن عبد الله: السلطان الشهيد الملك المظفر، سيف الدين المعزي. كان أكبر مماليك المعز أيبك التركماني. وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً، حازماً، حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير. وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوّض الله شبابه بالجنة. حكى شمس الدين بن الجزري في "تاريخه"، عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، فضربه أستاذه فبكى، ولم يأكل شيئاً يومه. ثم ركب أستاذه للخدمة، وأمر الفراش أن يترضاه ويطعمه. قال: فحدثني الحاج علي الفراش، قال: جئته فقلت: ما هذا البكاء، من لطشة؟ فقال: إنما بكائي من لعنته أبي وجدي، وهم خير منه. فقلت: من أبوك؟! واحد كافر. فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك. فسكتُّ وترضّيته وتنقّلت به الأحوال إلى أن تملك. ولما تملك الشام أحسن إلى الحاج علي الفراش، وأعطاه خمس مئة دينار، وعمل له راتباً. قلت: وكان مدبر دولة أستاذه "الملك المنصور علي بن المعز"، فلما دهم العدو الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب كامل الرجولية، فعزل الصبي من الملك وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سبع وخمسين. ثم لم يبلع ريقه، ولا تهنّى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار، فتجهز للجهاد، وشرع في أهبة الغزو، والتف عليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان لقصد الشام، ونصر الإسلام، فعمل المصاف مع التتار، وعليهم كتبغا على عين جالوت، فنصره الله تعالى، وقتل مقدم التتار.

قال الشيخ قطب الدين: حكي عنه أنه قُتل جواده يومئذ، ولم يصادف أحداً من الوشاقية، فبقي راجلاً، فرآه بعض الأمراء الشجعان، فترجل وقدم له حصانه، فامتنع وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت، ثم تلاحقت الوشاقية إليه. حدثني أبي أحمد أن الملك قطز لما رأى انكشافاً في ميسرته، رمى الخوذة عن رأسه وحمل وقال: (وا دين محمد). فكان النصر.

قال: وكان شاباً أشقر، كبير اللحية. قلت: ثم جهز الأمير ركن الدين بيبرس، أعني الملك الظاهر، في اقفية التتار، ووعده بنيابة حلب، فساق وراءهم إلى أن طردوهم عن الشام. ثم إنه انثنى عزمه على إعطائه حلب، وولاها

لعلاء الدين بن صاحب الموصل، فتأثر ركن الدين من ذلك. ودخل الملك المظفر دمشق، فأحسن إلى الرعية، وأحبّوه حبا زائدا، ثم استناب على البلد علم الدين سنجر الحلبي، ورجع بعد شهر إلى مصر، فقتل بين الغرابي والصالحية في آخر الرمل، ودفن بالقصير).

وقال ابن الجزري في "تاريخه": (حدثني أبي قال: حدثني أبو بكر بن الدريهم الإسعردي والزكي إبراهيم الحنبلي أستاذ الفارس أقطايا قال: كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز، وقد حضر عنده منجم مغربي، فصرف أكثر غلمانه، فأردنا القيام، فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل. ثم قال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي، ومن يكسر التتار، فضرب، وبقي زمانا يحسب، وقال: يا خوند، يطلع معي خمس حروف بلا نقط ابن خمس حروف بلا نقط. فقال: لم لا تقول محمود بن ممدود. فقال: يا خوند، لا يقع غير هذا الاسم. فقال: أنا هو، وأنا أكسرهم وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه. فتعجبنا من كلامه وقلنا: إن شاء الله يكون هذا يا خوند. فقال: اكتموا هذا. وأعطى المنجم ثلاث مئة درهم). انتهى



غارات المغول العدوانية عام ١٢٦٠م على أرض المشرق.

أدت انتصارات المغول المبكرة على حلب ودمشق إلى هجمات صغيرة على أهداف ثانوية، مثل بعلبك، والصُّبيبة، وعجلون، بالإضافة إلى غارات على المدن الفلسطينية، وربما شملت القدس أيضا. وبلغت غارات التتار إلى غزة وبلد الخليل عليه السلام، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والصبيان، واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً.

العدل المالي والاقتصادي أساس النصر والتمكين:

كان للنبي ﷺ وللخلفاء الراشدين من بعده، سياسة العدل في المال والغنائم، فلا تكاد الأموال والغنائم تصل، حتى يوزعوها كلها في الحال، بل لا يهنأ لهم بال ولا يناموا براحة إلا والمال كله قد توزع على الرجال، فلا يتملكون ولا يفتنون بالمال، لكنهم كسبوا قلوب الرجال بهذا العدل في توزيع المال. فكان الرجال يقاتلون بأرواحهم عند لقاء العدو، وكانت الانتصارات من الله. فجاء من بعدهم من لا همّ له إلا جمع المال، والاغتناء به على حساب الرجال، فكسبوا عداوة قلوب الرجال، الذين خذلوهم عند لقاء العدو الذي استولى بدوره على المال كله، وبذلك أضاعوا المال والرجال والبلاد. فالعدل المالي لا يقل عن الجهاد بوصفه سببا أساسيا للنصر والتمكين. وهكذا كان نور الدين محمود القائد الزاهد، ففتح الله عليه، وهكذا كان صلاح الدين القائد الزاهد، ففتح الله عليه.

والتحضير لمعركة مصيرية مع المغول لاينفع معه مال الأمير ولا يغني عنه؛ لأنها معركة الوجود والأرض والعرض. وبعد وصول قطز إلى سدة حكم مصر، وظهور خطر التتار، ووصول أخبار فظائعهم ورسهم المهددين وللاستعداد لملاقاة التتار الزاحفين، أمر قطز بجمع الأموال للإعداد للحرب، ووقف العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام أمام الأمراء وقادة الجند، فقرروا ألا يؤخذ من الناس شيء إلا إذا كان بيت المال فارغاً، وبعدما يخرج الأمراء والتجار وأغنياء الناس من أموالهم وذهبهم حتى يتساوى الجميع. فقال العز بن عبد السلام:

(إذا طرق العدو البلاد، وجب على العالم كله قتالهم (أي: العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يُستعان به على جهازهم (أي: فوق الزكاة) بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء (وهذا هو الشرط الأول)، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات (أي: يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة (هذا هو الشرط الثاني)، وأما أخذ الأموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا!!!)؛ بمعنى آخر: إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحوائص المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس، سوى آلات الحرب حيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس (أي: فرض ضرائب) في دفع الأعداء عنهم؛ لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

على الرغم من أن الفتوى عجيبة في جرأتها، فإن قطز كان أول من استجاب لها بنفسه، فباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك! فانصاع الجميع. وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية، واكتشف المسلمون أن مصر غنية جداً.

وحصلت مشكلة شبيهة حين نودي بالنفير العام إلى الغزو في سبيل الله تعالى، اجتمع عند الملك قطز من عساكر مصر نحو أربعين ألفاً، وبرزت مشكلة جمع الأموال اللازمة لهذا الجهاد، فعقد مجلساً للعلماء على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واستشاره السلطان في شأن المال، فقال الإمام كلاماً عظيماً لا يصدر إلا ممن وثق بنصر الله تعالى لعبيده. فقال: (اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر)، فقال السلطان: (إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار)، فقال له الإمام ابن عبد السلام: (إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام اتخاذه، وضربته سكة ونقداً، وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك، فلا)، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بحضرة الشيخ، وكانت له عندهم عظمة، وله في أنفسهم مهابة، إذ لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا ما قاله.

وكان حين سار من مصر في خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم ومعه المنصور صاحب حماه، وجماعة من أبناء الملوك، فأرسل قطز إلى صاحب حماه يقول له: (لا تتعنى في مد سماط في هذه الأيام وليكن مع الجندي لحمة يأكلها، والعجل العجل)، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا في العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان، وكان فيها نصر الإسلام.

توحيد العباد والبلاد فوق المصالح الشخصية:

لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه وقتل، وأجمعوا على الأمير عز الدين أيبك التركماني، وولوه الأتابكية ثم استقل بالملك. كان مقدم المماليك الصالحية البحرية أيام الملك المعز أيبك هو فارس الدين أقطاي الجمدار، وكان جسوراً شرساً وفيه كبرياء وجبروت، وكان ينظر للملك المعز أيبك باحتقار، ولعله طمع بالملك. ثم قال للملك المعز أيبك: إنه يريد الزواج بابنة ملوك، ولا بد من السكن في قلعة الجبل

لكونها من بنات الملوك ولا يليق سكناها بالبلد، فاستشعر الملك المعز منه بما عزم عليه، وأخذ يدبر أمره وعمل على قتله. وكان المظفر سيف الدين قطز أخص مماليك الملك المعز وأقربهم إليه وأوثقهم عنده. وهو الذي قتل الأمير فارس الدين أقطاي سنة ٦٥١هـ.

ركب الملك الظاهر بيبرس وأتباع أقطاي من المماليك البحرية الصالحية، وقصدوا قلعة الجبل، فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة، مجاهرين بالعداوة للملك المعز أيبك التركماني، ومهاجرين إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، وهم: الملك الظاهر بيبرس، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمر السيفي، وشمس الدين سنقر الرومي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري الشمسي، وسيف الدين قلاوون الألفي، وسيف الدين بلبان المستعرب وغيرهم. فلما شارفوا دمشق، سيّر إليهم الملك الناصر طيب قلوبهم، فبعثوا فخر الدين إياز المقرئ يستحلفه لهم، فحلف الناصر لهم، ودخلوا دمشق في العشر الأخير من شهر رمضان سنة ٦٥٢هـ. فأكرمهم الملك الناصر صلاح الدين وأطلق للملك الظاهر بيبرس ثلاثين ألف درهم وثلاثة قُطُر بغال وثلاثة قطر جمال وملبوساً، وفرّق في بقية الجماعة الأموال والخلع على قدر مراتبهم.

وداموا على ذلك حتى قبض الأمير قطز على ابن أستاذه الملك المنصور علي، وتسلطن وتلقب بالملك المظفر قطز. شرع بيبرس يحرض الملك الناصر على التوجه إلى الديار المصرية ليملكها فلم يجبه، فكلمه بيبرس في أن يقدمه على أربعة آلاف فارس أو يقدم عليهم غيره ويتوجه بها إلى شط الفرات؛ ليمنع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح إسماعيل لباطن كان له مع التتار (جزاه الله بما يستحق)!

بينما كان سلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز، (مملوك المعز أيبك التركماني) في بداية ٦٥٨هـ في حرب مع سلطان دمشق وحلب الملك الناصر ابن العزيز بن الظاهر، وسلطان الكرك والشوبك الملك المغيث بن عادل بن الكامل. ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين، وأخذ مصر منهم. وبينما الناس على هذه الحال، تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو خان، وجازوا الفرات على جسور عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة. تغيّرت الأولويات في خضم الأحداث من الصراع الداخلي إلى ضرورة جهاد التتار.

ثم حدث أن سلطان الشام الناصر في بداية السنة وهو مقيم في وطاة برزة، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك، وجحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب، وغيرهم، ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة، لما يريده الله عز وجل. وكان الناصر ضعيفاً عن مقاومة المغول، فانفضّ ذلك الجمع، ولم يسر لا هو ولا هم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري إلى مصر. (البداية والنهاية ج١٣/ص٢٥١).

فاستمر بيبرس عند الناصر إلى سنة ٦٥٨هـ. ففارقه بمن معه وقصد الشهرزورية وتزوج منهم، ثم أرسل إلى الملك المظفر قطز من استحلفه له فحلف قطز. وقد عزمت طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه الملك الظاهر علي. فلما عرف الناصر ذلك، هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شَذَر مَذَر، وفارقه الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر وساق في أصحابه المماليك البحرية إلى ناحية غزة، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه، وأقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة، وعظم شأنه لديه (وإنما كان حتفه على يديه).

ودخل بيبرس إلى القاهرة في يوم السبت ٢٢ شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب، فلم تطل مدته بالقاهرة، وتهيأ الملك المظفر قطز لقتال التتار، وسيّر بيبرس هذا في عسكر أمامه كالجاليش (مقدم الجيش) ليتجسس أخبار التتار، فكان أول ما وقعت عينه عليهم ناوشهم بالقتال في غزة (انظر فيما سيأتي).

وتوجه الملك الناصر نحو الديار المصرية، ونزل العريش ثم قطيا بعد أن تفرق عسكره عنه، وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال.

فلما وصل الناصر إلى قطيا، عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوادي موسى ثم نزل بركة زيزاء، فدلّ الجاسوس حسين الكردي الطبردار التتار عليه، فكبسه التتار بها وهو في خواصه وقليل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم. فلما وصل إليهم، احتفظوا به و بقي معهم في ذلّ وهوان إلى أن قتل. جاء في الأثر: (**إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني**).

رسالة المغول إلى سلطان مصر، وجوابه:

بينما كان قطز يعد الجيش والشعب للقاء التتار، وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز جاء فيها:

(بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملّكنا أرضه، وسلّطنا على خلقه... الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس "المماليك" صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتّابها وعمّالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها... أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غيظه... فكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر... فاتعظوا بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم... قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ... فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى... فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد... فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب... فأي أرض تأويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص: فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال.

فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردّ السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان... فأبشروا بالمذلة والهوان ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]... وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة... وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة... فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل... فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردّ الجواب... قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها... فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أزتكم رماحنا أزّاً... وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية... فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومنّنا برسلنا عليكم).

جمع قطز القادة والمستشارين، وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الاستسلام للتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلا أن قال:

(أنا ألقى التتار بنفسي، يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين لعن القتال).

فتحمس القواد والأمراء لرؤية قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً ويبقى هو. ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول: (يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن). فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وهنا قام قطز بقطع أعناق الرسل الأربع الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة. وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادي بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله، وكان العالم الرباني العامل العزّ بن عبد السلام ينادي في الناس بنفسه، فهبّ نفر كثير ليكونوا في قلب جيش المسلمين وميسرته، أما القوات النظامية من المماليك، فكونت الميمنة واختبأت بقيتها خلف التلال لتحسم المعركة.

ولكن جحافل المغول في أثناء اجتياح هولاكو الشام (وهو الوقت الذي أرسل رسالته إلى سلطان مصر) كان يتجاوز ٣٠٠ ألف مقاتل مغولي؛ أي: أكثر بـ ١٥ مرة من جيش المماليك البالغ تعداده ٢٠ ألفاً؛ أي: إن الكفة سترجح حتماً لمصلحة المغول في أي معركة مع مماليك مصر.

ثم إن الشريط الساحلي الفلسطيني كان بيد الصليبيين الذين كانوا معروفين بتحالفهم مع المغول (كما في سقوط بغداد ودمشق)، وهذا يزيد الطين بلة في تعقيد موقف المسلمين. وهنا تتدخل العناية الإلهية، حين تصدق النيات مع الله الناصر القاهر فوق عباده، مالك الملك والملوك والملكوت، ومذلّ الجبابرة، وكاسر الأكاسرة، وخافض القياصرة.



مخطوطة فارسية من القرن الرابع عشر تظهر جنكيز خان مع ثلاثة من أولاده الأربعة. ابنه الأصغر اسمه تولي (أبو مانغي، وهولاكو)؛ كان موت مانغي بداية ١٢٦٠م هو الذي دفع هولاكو إلى سحب قواته، تاركاً قوة مغولية أصغر كثيراً من جيشه لتتقدم إلى مصر

انسحاب هولاكو من بلاد الشام، ونيابته للجنرال كتبغا نوين: ولكن قبل أن تتقدم جحافل المغول نحو مصر، كان عليهم (بحكمة الله وتقديره) أن ينسحبوا؛ بسبب الصراع الداخلي على السلطة ورئاسة إمبراطورية المغول الكبرى، وكان هولاكو يطمع فيها. فانسحب هولاكو بمعظم قواته، تاركاً قوة متوسطة الحجم قرابة ٢٠ ألفاً، بقيادة جنراله المحنك كتبغا نوين لإدارة بلاد الشام التي استولوا عليها. وكان كتبغا نوين قد اشترك في تدمير بغداد، وفي الاستيلاء على دمشق.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣/ص٢٦٣): (معنى نوين: أمير عشرة آلاف، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيز خان جد هولاكو، وكان كتبغا هذا يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها:

- كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه، لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوائهم عندهم، قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه

قبل ذلك، فإن حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفني تلك المقاتلة، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً.

- وكان يبعث إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قلّ فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم، ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً. فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء. فيقول: لا أصدق، حتى أبعث من عندي من يشرف عليه، فإن كان كثيراً انصرفت عنكم. فيقولون: ابعث من يشرف عليه، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً. فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه ويعرفون قدره، فينفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون، لعنه الله لعنة تدخل معه قبره)

الصدام بين الصليبيين والمغول: استمرت غارات المغول الإرهابية جنوباً إلى فلسطين باتجاه مصر، تاركين قرابة ألف مقاتل مغولي حاميةً لمدينة غزة التي استولوا عليها. فصارت أرض السيطرة المغولية متاخمة لدويلات الفرنجة، وهذا أدى احتكاكاً مباشراً مع بعض الحوادث، أدت إحداها لتفاقم الوضع في صيدا.

فقد قام جون رئيس بيروت، وجوليان دي غارنير رئيس صيدا وبيوفورت (يصفه معاصروه الصليبيون بأنه كان عديم المسؤولية وطائشاً) بالإغارة على منطقة البقاع ونهبها، وكانت تحت السيطرة المغولية. عندها أرسل كتبغا نوين (جنرال المغول) ابن أخته في قوة صغيرة مطالباً بالتعويضات، فإذا بهم يُقتلون في هجوم بكمين دبّره جوليان. فكان جواب كتبغا نوين قوياً فقام بالإغارة على مدينة صيدا بنفسه، وبسلبها ونهبها وقتل أهاليها الصليبيين. وأدت هذه الحوادث إلى انعدام الثقة بين المغول والقوات الصليبية، التي توجد قواتها في مدينة عكا الساحلية. ثم جاءت الأخبار باكتساح المغول أوروبا وغزوهم بولندا.



كتبغا نوين يحاصر صيدا بعد مقتل ابن أخته على يد جوليان دي غارنير، لورد صيدا

رجع في الوقت نفسه تقريباً، وليم من روبريك، سفير الملك لويس التاسع (ملك الإفرنج الصليبي) المبعوث إلى منغوليا لأجل التحالف الصليبي – المغولي: رجع بتقرير كامل مخيّب لآمال البابوية الكاثوليكية تماماً. وبعد قراءته: بعث البابا أليكساندر الرابع برسائله لأرجاء العالم النصراني، محذراً بفصل كل من يتحالف والمغول من الانتماء الكنسي، وهذا حرم المغول من التعاون الصليبي.

باستثناء فرنجة أنطاكيا (نصارى الأرمن شرقيون وليسوا صليبيين، لكنهم تحالفوا مع المغول نكاية بالإسلام)، وكان الصليبيون والنصارى الآخرون مترددون في تعاونهم مع المغول، وأحياناً يتخذون موقف مضادة للمغول.

رأى بطريق القدس أن المغول يمثلون خطراً واضحاً، وكتب إلى البابا يحذره منهم في ١٢٥٦م. لكن الصليبيين في عكا وقعوا في دوامة: إن هم تعاونوا مع قطز، صاروا أعداءً للمغول وعرضة لوحشيتهم. ومن ناحية أخرى، فإنّ قطز هو أملهم الوحيد لتخليص المنطقة من شر المغول. اتخذ فرنجة عكا في ١٢٦٠م موقفاً محايداً بين المغول وبين المماليك المسلمين.

فأرسل الفرنجة دومينيكان دَيفيد من آشبي إلى بلاط هولاكو في ١٢٦٠م، لكنهم في الوقت نفسه دخلوا بهدنة سلبية مع المماليك المصرية. سمح بارونات عكا بموجبها لقوات المماليك بحرّية الحركة عبر أراضي دويلتهم النصرانية من دون التعرض لهم، في أثناء مسير المماليك شمالاً للاشتباك بالمغول، مقابل اتفاقية بشراء غنائم المماليك من الخَيل المغولية بأسعار مُخفضة، إن هم انتصروا.



تحالف الصليبيين مع المغول انعكس وبالاً عليهم فتحوّل إلى صدام مغولي صليبي.
من الدعوات النبوية: (اللهم اهلك الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين)

زمام المبادرة، وعنصر المباغتة بالخروج للقاء المغول خارج مصر:

والمقصود أن المظفر قطز، لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه، وبرز إليهم، وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه.

فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية، ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر ليس غير؛ لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه، ولم يبق خارجاً عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن.

قام قطز بزمام المبادرة، مع التخطيط العسكري لاستدراج المغول حسب خطة مدروسة إلى عين جالوت، بدل أن ينتظر مباغتة المغول له ومجيئهم إلى حصار بلاده، كما كانوا يفعلون مع باقي بلاد الإسلام. وكان بصحبة قطز الملك المنصور صاحب حماه، وكان مقدم جيش قطز هو بيبرس البندقداري. وصمم الملك المظفر – رحمه الله – على لقاء التتار، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في شهر رمضان، وبصُحبته الملك المنصور صاحب حماه، وسيّر الملك المظفر قطز إلى صاحب حماه، وهو بالصالحية يقول له: لا تحتفل في مد سماط، بل كل واحد

من أصحابك يقطر على قطعة لحم في صولقه. سافر الملك المظفر بالعساكر من الصالحية، ووصل غزة والقلوب وجلة. وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، وبقي الباقون في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد.

وكان معه بيبرس الذي كان مُغرماً بخالد بن الوليد وأبي عبيدة (ولهذا جدد مقام هذين الصحابيين المجاهدين الجليلين في سلطنته التي أعقبت سلطنة قطز)، واستلهام ذكريات صلاح الدين وخالد بن الوليد، يقول خالد بن الوليد: (ما ليلة تزفّ إليّ فيها عروس أنا لها مُحِبٌّ — أو أُبشر فيها بغلام، بأحبّ عندي من ليلة شديدة البرد في سرية من المهاجرين أُصبِّحُ بهم أعداء الله). من هنا كان اختيار عين جالوت (جنوب حطين بـ ٦٥ كم حيث موقعة حطين عام ٥٨٣هـ؛ أي: قبل ٧٥ سنة)، وقرب اليرموك وفي ظلال معركة اليرموك، مع خطة شبيه: الخروج من المدينة على السهل الفسيح وعمل الكمين وراء التلال وملاقاة العدو، ثم استدراجه بالانسحاب الكاذب لجرّه إلى الكمين المنصوب؛ وهذا يُفاجئ العدو ويباغته، ويحبط معنوياته القتالية.

تقع عين جالوت قرب المناطق الساحلية التي يسيطر عليها الصليبيون، وبالإضافة إلى كونها سهلاً تحوّطه تلال ومرتفعات متموجة، وهذا يمكن قوات قطز وبيبرس من الاختباء والترصّد والرماية، وبوصفها ملجأ آمناً للكرّ والفرّ دون ضرورة الاشتباك المباشر مع العدو على أرض مبسوطة مكشوفة، وهي أقرب إلى الشام من مصر. وهذا يعطي مرونة الحركة لتتبع فلول المغول بعد الانتصار عليهم بمشيئة الله. وموقعها قرب الشام يمكن الشاميين النازحين والمقاتلين في جيش قطز من الاستبسال والتفاني في الجهاد، وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادهم وممتلكاتهم، وخاصة الأمراء الأيوبيين، واختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر رمضان المبارك، ، صادف شهر آب/أغسطس الحار الذي سيؤثر في حركة المغول القادمة من صحارى منغوليا الباردة.

تحرك جيوش المسلمين: طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال، وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام، وقال لهم: (يا مسلمين، قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام، وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم، جاهدوا في الله بصدق النية، تجارتكم رابحة، وأنا واحد منكم، وها أنا وأنتم بين يدي ربّ لا ضام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب)، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء، وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة.

الانقضاض على حامية غزة المغولية (معركة غزة): تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ — ٢٦ تموز ١٢٦٠م، واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية (١٠٠٠ مغولي) في غزة، واكتشف المغول أنه مازال في المسلمين نخوة، وفيهم من يتجرأ لحمل السيوف ضدهم دفاعاً عن الدين والأرض والعرض. هذا النصر الصغير كان فاتحة خير وبشارة أمل في النصر الكبير.

اتفاقية مع دويلة الصليبيين في عكا

فتقدمت جيوش قطز إلى الشمال، باتجاه عين جالوت للقاء المغول، فأرسل إلى الصليبيين وعرّفهم بأنه خارج لقتال المغول ليس غير، وتوصّل معهم إلى هدنة سلبية، يُسمح بموجبها لقوات المماليك بحُرّية الحركة عبر أراضي دويلتهم النصرانية من دون التعرض لهم، مقابل اتفاقية بيعهم الخيول المغولية بأسعار مُخفضة، إن هم انتصروا.





تحركات القطع العسكرية المؤدية إلى معركة عين جالوت شمال بيسان

وقال مهدداً الصليبيين: (والله العظيم، متى تبعهم منهم فارس أو راجل – يريد أذى عسكر المسلمين – قتلتكم قبل ملتقاي التتار، وقد عرفتكم ذلك)، عند ذلك كتب الملوك إلى أتباعهم بما سمعوه، ورفض السلطان قطز أي مساعدة عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة، وألا يستعين بمشرك في قتال المغول، ثم إن هذا يشير إلى رغبة قطز، ومشروعه الجهادي الذي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم.

خروج المغول: وأما كتبغا نوين مقدم التتار على عسكر هولاكو (لما بلغه خروج الملك المظفر قطز) كان بالبقاع (لبنان)، فاستدعى الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، وقاضي القضاة محيي الدين المجير بن الزكي، واستشارهم في ذلك، فمنهم من أشار بعدم الملتقى والاندفاع بين يدي الملك المظفر إلى حيث يجيئه مدد من هولاكو ليقوى على ملتقى العسكر المصري، ومنهم من أشار بغير ذلك، وتفرقت الآراء، فاقتضى رأي كتبغا نوين الملتقى وتوجه من فوره لما أراد الله تعالى من إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه، بعد أن جمع كتبغا نوين من في الشام من التتار وغيرهم، وقصد محاربة المسلمين وصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان، وكان كتبغا نوين نصرانياً نسطورياً، وقد صحبه في عين جالوت كلٌ من أمير أنطاكيا الصليبية، وملك أرمينيا الصغرى.

معلومات استخبارية مهمة: بينما هو في الطريق، جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات استخباراتية لسيف الدين قطز، وهو مُرسل من قبل صارم الدين أيبك، وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك وإياهم في مواقعهم المختلفة، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز – المعلومات الآتية:

أ) جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

ب) ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

ج) إن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته، ومع صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين. أي: إن الرسالة تقول: إن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار: مكيدةً لهم، وتفكيكاً لصفهم. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وأعادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ. وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء.

استدراج المغول إلى عين جالوت: كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة طليعية صدامية من شجعان المسلمين للاشتباك مع الجيش المغولي ومنازلته ومناوشته ثم التظاهر بالهزيمة والانسحاب التكتيكي استدراجاً للمغول لجلبهم إلى سهل عين جالوت، حيث يربض جيش قطز وراء تلاله



فرسان المغول



الجيش المغوليّ



المغول يقعون في فخ عين جالوت مُحوَّطين بقوات الملك المظفر قطز.

والإسلاماه (معركة عين جالوت الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ أيلول ١٢٦٠م):



عين جالوت معركة التاريخ المفصلية: استدراج المغول (مقدمة الصورة) إلى عين جالوت، حيث يكمن جيش المماليك خلف التلال (مؤخرة الصورة وجوانبها)

وأقام المسلمون ليلة القدر قبل يوم اللقاء، إذ التقى الجمعان، وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء إيذاناً ببدء الهجوم، ويُقال: إنه استخدمت في عين جالوت مدافع بدائية تحدث انفجاراً وصوتاً مدوياً؛ وهذا أحدث اضطراباً في قوات العدو المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو؛ ولذا أخفى قواته الرئيسة في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة الطليعية التي قادها بيبرس، وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه (وهو يظنّ أنه كلّ الجيش)، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة.

كان قطز يقف في مكان عالٍ خلف الصفوف يراقب الموقف برمته، ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات، ويخطط لكل كبيرة وصغيرة، وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال، ولكن الضغط التتري استمر. فما كان من قطز إلا أن نزل ساحة القتال بنفسه؛ وذلك لتثبيت

الجنود ورفع روحهم المعنوية، فحمل الملك المظفر – رحمه الله – بنفسه في طائفة من عساكره، وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، وتحايل المغول وتراجعوا، ثم اقتحم الملك المظفر وباشر القتال بنفسه وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً، وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة، ألقى بخوذته على الأرض تعبيراً عن اشتياقه إلى الشهادة، وعدم خوفه من الموت، ولكي يرى الجميع وجهه فيعرفونه فيقتدوا به، وصرخ بأعلى صوته مطلقاً صرخته الشهيرة عبر التاريخ (وإسلاماه)، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره، ورأى جنود الإسلام قائدهم أمامهم، يقاتل كالأسد، فالتفوا حوله، واستبسلوا في القتال، وانقضوا على التتار فخلخلوا صفوفهم، وكسروهم كسرة عظيمة، ولم تنقض سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وأبادوا خضراء الجيش المغولي.

وكانت دعوات الشيخ العز بن عبد السلام في أرض المعركة، ومعه دعوات العلماء، ودعوات المجاهدين، ودعوات المقاتلين من المظلومين المهاجرين من الشام. فلاحت بشائر النصر، وولى التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلاً ونجا من نجا.

ونصر الله الإسلام وأعزّه، وانكسرت التتار وولوا الأدبار على أقبح وجه، بعد أن قتل معظم أعيانهم، وأصيب مقدم العساكر التتارية كتبغا نوين، فإنه أيضاً لما عظم الخطب باشر القتال بنفسه فأخزاه الله تعالى وقتل شر قتلة. وكان الذي حمل عليه وقتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسي – رحمه الله تعالى.



صورتان تنسبان إلى الملك المظفر قطز في معركة عين جالوت. الأولى: وهو بلا خوذة، يطعن التتار بالرمح، ويتفادى رمية رمح من جانبه الأيسر. والصورة الأخرى: وهو يُرمى بوابل من السهام يصدُّها بدرعه وهو يقاتل بالسيف. فتصاب فرسه لينزل منها ويقاتل راجلاً، حتى يأتوه بفرس آخر

وسعد التتار بقتل كتبغا نوين، وذهب سعدهم بقتله، وكان شيخاً كبيراً قد أسن، وكان يميل إلى دين النصارى، ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيز خان في الياساق. قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها،

وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة، وتارة يعلقها من خلفه بأذنه، وكان مهيباً شديد السطوة، قال: وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها، ثم خرج من الباب الغربي فدخل

دكاناً خراباً فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة، فلما فرغ من حاجته مسّحه بعض أصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة لكبر سنه!

قال: ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر، تلوم في أمره وحار ماذا يفعل، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه، وظن أنه منصور على جاري عادته، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم في المعركة، فحملوا حملة صادقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً، وقتل أميرهم كتبغا نوين في المعركة وأسر ابنه، وكان شاباً حسناً، فأحضر بين يدي المظفر قطز، فقال له: أهرب أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنام طيباً.

كان هذا سعادة التتار، وذهب سعدهم بقتله، وهكذا كان كما قال، ولم يفلحوا بعده قط، وكان قتله يوم الجمعة، لخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله. وهكذا قتل القائد كتبغا نوين الذي اشترك في تدمير بغداد، وتدمير الشام، وقائد جيش المغول في عين جالوت.

وفي حال الفراغ من المصاف حضر الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب (كان صاحب الصبيبة وبانياس بعد أبيه)، ثم أخذنا منه وحبس بقلعة المنيرة، فلما جاءت التتار، كان معهم وردوا عليه بلاده، فلما كانت وقعة عين جالوت، أتي به أسيراً إلى بين يدي السلطان الملك المظفر قطز، وكان التتار لما ملكوا قلعة البيرة وجدوه فيها معتقلاً، فأطلقوه وأعطوه بانياس وقلعة الصبيبة، فانضم مع التتار وبقي منهم وقاتل يوم المصاف المسلمين قتالاً شديداً؛ لأنه كان قد لبس سرقوج التتار وناصحهم على المسلمين. فلما أيد الله المسلمين بنصره، وحضر الملوك عند الملك المظفر فحضر الملك السعيد هذا من جملتهم على رغم أنفه فلم يقبل المظفر عذره وأمر بضرب عنقه فضربت. واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها.

تقهقر المغول من عين جالوت إلى مدينة بيسان (على بُعد ١٢ كلم / ٧.٥ ميلاً من عين جالوت): ومرّ العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار، والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((واإسلاماه)) ثلاث مرات: (يا الله، انصر عبدك قطز على التتار) فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه، ومرّغ وجهه على الأرض، وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم. وقتل المسلمون منهم جمعاً كثيراً، وفر الباقون مدبرين.

وقاتل قطز مع الجيش قتالاً شديداً، حتى صوب أحد التتر سهمه نحو قطز فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز، فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجل قطز على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له. قال الإمام الذهبي: (ولما تسلطن، لم يبلع ريقه ولا تهنّى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار) ثم ساق الذهبي وقال الشيخ قطب الدين: (حكي عن الملك المظفر قطز أنه قتل جواده يوم القتال مع التتار، ولم يصادف المظفر أحد من الأوشاقية فبقي راجلاً، فرآه بعض الأمراء الشجعان، فترجل له وقدم له حصانه، فامتنع المظفر من ركوبه وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت! ثم تلاحقت الأوشاقية إليه)، وأتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه الذي ذيّله على "مرآة الزمان": (وكان الملك المظفر بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير لم يكن يوصف بكرم ولا شح، بل كان متوسطاً في ذلك، وذكر حكايته لما أن قتل

جواده يوم الوقعة بنحو مما حكيناه لكنه زاد بأن قال: فلامَ المظفرَ بعضُ خواصّه على عدم ركوبه وقال: يا خوند - لو صادفك والعياذ بالله تعالى - بعض المغول وأنت راجل، كنتَ رحت وراح الإسلام. فقال: (أما أنا فكنت رحت إلى الجنة - إن شاء الله تعالى - وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات الملك الصالح نجم الدين أيوب وقتل بعده ابنه الملك المعظم توران شاه، وقتل الأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العساكر يوم ذلك ونصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره!) - يعني عن نوبة أخذ الفرنج دمياط.

تقهقر المغول، ومعركة أفاميا: واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى أفاميا، فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم مرة ثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة. وتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع.

تتبع فلول المغول، وقتلهم من قبل الأهالي: واستمرت فرقة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري تتبعهم إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار ثأرهم. وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً. استغرقت موقعة عين جالوت أقل من ٣ أيام في العشر الأواخر من رمضان ٦٥٨هـ، وجاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت.

تحرير دمشق وباقي بلاد الشام:

فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير، وكان مما جاء في هذه الرسالة:

(أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار - خذلهم الله - استطالوا على الأيام، وخاضعوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام، وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، وقتل من المشركين كلُّ جبّارٍ عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

استمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وفرقته من الشجعان يتبعون التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب مَن بدمشق من التتار، وكان هربهم منها يوم الأحد ٢٧ رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت.

فتبعهم المسلمون من دمشق، يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم، ويفكُّون الأسارى من أيديهم قهراً، ولله الحمد والمنّ على جبره الإسلامَ، ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتها البشائر من القلعة المنصورة، وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين، وظهر دين الله وهم كارهون.

وهكذا بعد اجتياح المغول بغداد والشام، أرادوا اجتياح مصر، فبادرهم المماليك قبل ذلك، وهزموهم عند عين جالوت شر هزيمة، وأوقفوا زحفهم.

وكان الناصر يوسف في آخر إخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظي، ولكنهم قبضوا على الناصر يوسف قبل عين جالوت، وسلموه إلى هولاكو الذي قتله بعد هزيمتهم في عين جالوت انتقاماً من المسلمين.

وقام مماليك مصر بتحرير الشام من المغول، وبقي بعض الأيوبيين تبعاً للمماليك في مصر.

وأصبح المماليك، الذين تكوّنت دولتهم في رحم الأخطار والصعاب بعد جهاد طويل ضد المغول، حكاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق البحر المتوسط وجنوبه عقوداً طويلة من الزمان.



فرسان المماليك: سرعة بداهة ولياقة بدنية وخفة حركة، مع التدريب المستمر على أنواع السلاح شتى

ثم كتب الملك المظفر كتاباً إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح وكسر العدو المخذول، ويعدهم بوصوله إليهم ونشر العدل فيهم فسُرَّ عوامُّ دمشق وأهلها بذلك سروراً زائداً، وقتلوا فخر الدين محمد بن يوسف بن محمد الكنجي في وسط جامع دمشق.

وكان المذكور شيخاً رافضياً خبيثاً، وكان مصانعاً للتتار على أموال الناس، وكان خبيث الطويّة، وانضم مع التتار، ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبحه الله. وقتلوا أيضاً بدمشق من أعوان التتار ابن الماسكيني وابن النفيل وغيرهما، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين، وكان الأمر كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فلما هرب نواب التتار حين بلغتهم الكسرة، أصبح الناس، وتوجهوا إلى دور النصارى ينهبونها، ويأخذون ما استطاعوا منها، وأخربوا كنيسة اليعاقبة، وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً، وقتلوا منهم جماعة واختفى الباقون. وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرؤوا على المسلمين، واستطالوا بتردد التتار إلى كنائسهم. وذهب بعضهم إلى هولاكو، وجاؤوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب

توما ، وصلبانهم مرتفعة ، وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين ، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد ، فحصل عند المسلمين من ذلك همٌّ عظيم (بسبب التحالف المغولي – الصليبي، ولكون كتبغا نوين المغولي الذي فتح دمشق كان نصرانياً نسطورياً).

وكانت النصارى في تلك الأيام ألزموا المسلمين القيام في دكاكينهم للصليب ، ومن لم يقُمْ أخرجوا به وأهانوه، وشقوا السوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم ، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب ، وفضل دين النصارى ووضع من دين الإسلام ، وكان ذلك في ثاني عشرين شهر رمضان. ثم من الغد طلع المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق وبها التتار ، فأهانهم التتار ورفعوا قسيس النصارى عليهم ثم أخرجوهم بالضرب ، فصار ذلك كله في قلوب المسلمين، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها ، فاحترق دور كثيرة للنصارى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة ، وهمّتْ طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصلبان.

وصول سيف الدين قطز إلى دمشق: وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق ، في اليوم ٣٠ رمضان سنة ٦٥٨هـ ، واستقبله الناس استقبال الفاتحين ، وعلقت الزينات في الشوارع ، وخرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر. ثم وصل الملك المظفر قطز إلى دمشق مؤيداً منصوراً ، فانجبرت بذلك قلوب الرعايا ، وتضاعف شكرهم لله تعالى. والتقاه أهل دمشق بعد أن عفّوا آثار النصارى وخربوا كنائسهم: جزاء ما كانوا سلفوه من ضرب النواقيس على رؤوس المسلمين ودخولهم بالخمر إلى الجامع. وفي هذا المعنى يقول بعض شعراء دمشق:

هلك الكفر في الشام جميعاً … واستجد الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الملك الأر … وع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم … فاعتززنا بسمره وبيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا … دائماً مثل واجبات فروضه

وفي نصرة الملك المظفر هذا ، يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم … من مصر تركي يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدّد شملهم … ولكلّ شيء آفة من جنسه

(انظر البداية والنهاية ج١٣/ص٢٥٧)

ولما استقر الملك المنصور بحماه، قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم، وهنّأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ المنصورَ بهذا النصر العظيم، وبعود المعرة بقصيدة منها:

رُعْتَ العدى، فضمنت ثلّ عروشها … ولقيتها ، فأخذت ثلّ جيوشها

نازلت أملاك التتار ، فأنزلت … عن محلها قسراً وعن إكديشها

فغدا لسيفك في رقاب كماتها … حصد المناجل في يبيس حشيشها

فقت الملوك ببذل ما تحويه ، إذ … ختمت خزائنها على منقوشها

وطويت عن مصر فسيح مراحل … ما بين بركتها وبين عريشها

حتى حفظت على العباد بلادها ... من رَومها الأقصى إلى إحبوشها
فرشت حماه لوطء نعلك خدَّها ... فوطئت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكتها التي أخلصتها ... عما يشوب النقد من معشوشها
وكذا المعزة، إذا ملكت قيادها ... دهشت سروراً سار في مدهوشها
لا زلت تنعش بالنوال فقيرها ... وتنال أقصى الأجر من منعوشها

وقد اتفق في هذا العام أمور عجيبة؛ وهي: أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في النصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز، ثم في أواخر ذي القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شركه في دمشق الملك المجاهد سنجر.

وكذلك كان القضاء في أولها بالشام لابن سني الدولة صدر الدين، ثم صار للكمال عمر التفليسي من جهة هولاكو، ثم لابن الزكي، ثم لنجم الدين بن سني الدولة. وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستاني من سنين متطاولة، فعزل في شوال منها بالعماد الأسعردي، وكان صيناً قارئاً مجيداً، ثم أعيد العماد الحرستاني في أول ذي القعدة منها. فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ولا تقارن فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين، بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان. ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق، واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، ولم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد، واستقر الوضع بسرعة، وحفظ الأعراض والنفوس والأموال لكل الساكنين من نصارى ويهود، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان موالياً لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين في أثناء احتلال التتار المدينة، وكان في اليوم الثاني لدخول قطز إلى دمشق عيدُ الفطر له طعمه الخاص ومكانته المتميزة؛ لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين.

لم يضيع قطز وقتاً، بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس؛ لتتبع الفارين من التتار، وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفرّ المغول بحياتهم، وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الأسرى وعرّجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه.

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال، بأن المتهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطلب من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس، سيّبوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين ورموا أولادهم، فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه. وبعد هذه المعركة تطهرت الشام من التتار، وانكفُوا على أنفسهم، ولم يقدروا على شيء. واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام كلها، في بضعة أسابيع، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة، وذلك منذ وفاة السلطان المجاهد الملك الصالح نجم الدين أيوب - رحمه الله - في سنة ٦٤٨هـ، وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات، وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم.

ترتيب البيت الداخلي في الشام: شرع السلطان سيف الدين قطز في ترتيب أحوال الشام بسرعة؛ حتى يتمكن من العودة إلى مصر. ولما قدم الملك المظفر إلى دمشق أحسن إلى الناس، وأجراهم على عوائدهم وقواعدهم إلى آخر أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف (الذي قتله التتار)، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام، وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي، وبعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، الذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له. كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على ما كان عليه (وكان حضر مع الملك المظفر قطز من مصر وقاتل معه)، فأقرّه على حماه وبارين، وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ، ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب. وعين الأمير جمال شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت (وهو الذي قتل كتبغا نوين قائد جيش التتار). ثم أمر بشنق حسين الكردي الطبردار، فشنق؛ لأنه دلّ على الملك الناصر.

ويتتبع الذهبي نهاية الناصر يوسف، في "تاريخ الإسلام"، تحت وفيات ٦٥٩هـ:

(حكى علاء الدين بن نصر الله أن الملك الناصر جاء إلى داره بغتة، قال: فمددت له في الوقت سماطاً بالدجاج المحشي بالسكر والفستق وغيره. فتعجب وقال: كيف تهيأ لك هذا؟ فقلت: هو من نعمتك، اشتريته من عند باب القلعة. وكانت نفقة مطابخه وما يتعلق بها في كل يوم أكثر من عشرين ألف درهم...

وقال أبو شامة: وفي منتصف صفر، ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التتار على حلب بالسيف، فهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره وزال مُلْكه عن البلاد، ودخلت رسُل التتار بعده بيوم إلى دمشق، وقرئ فرمان الملك بأمان دمشق وما حولها. ووصل الناصر إلى غزة، ثم إلى قطيا، فتفرق عنه عسكره، فتوجه في خواصه إلى وادي موسى، ثم جاء إلى بركة زيزا، فكبسه كتبغا، فهرب، ثم أتى التتار بالأمان، فكان معهم في ذل وهوان. وكان قد هرب إلى البراري، فساقوا خلفه، فأخذوه وقد بلغت عنده شربة الماء نحو مئة دينار. فأتوا به إلى مقدم التتار كتبغا وهو يحاصر عجلون، فوعده وكذبه، وسقاه خمراً صرْفاً، فسكر، وطلبوا منه تسليم قلعة عجلون، فجاء إلى نائبها، وأمره بتسليمها، ففعل، ودخلها التتار، فنهبوا جميع ما فيها. ثم ساروا بالناصر وأخيه إلى هولاكو. قال قطب الدين: فأكرمه وأحسن إليه، فلما بلغه كسر عسكره بعين جالوت غضب، وأمر بقتله، فاعتذر إليه، فأمسك عن قتله، لكن أعرض عنه. فلما بلغه كسرة بيدره على حمص استشاط غضباً، وقتله ومن معه، سوى ولده الملك العزيز. وقيل: إنّ قتل الناصر كان عقيب عين جالوت، في الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان. وعاش إحدى وثلاثين سنة وأشهراً. فيقال: قُتل بالصيف، وقيل: إنه خُصّ بعذاب دون أصحابه. وقد اشتهر عنه أنه لما مر به التتار على حلب، وهي خاوية على عروشها، قد هدت أسوارها، وهُدمت قلعتها، وأحرقت دُورها الفاخرة، وباد أهلها، وأصبحت عبرة للناظرين، انهلت مُقْلتُه بالعَبْرة، وقال:

يعزّ علينا أنْ نرى رَبْعَكُمْ يَبْلَى ... وكانت به آيات حُسْنكم تُتْلَى

وقد أورد له ابن واصل عدة قصائد، ووصفه بالذكاء والفضيلة والكرم، إلى أن قال: وفي سابع جمادى الأولى، عُقد عزاؤه بدمشق بالجامع، لما ورد الخبر بمقتله. قال: وصورته على ما ثبت بالتواتر أن هولاكو لما بلغه مقتل كُتُبُغا، ثم كسْرَةُ أصحابه بحمص، أخذ الناصر وأخاه وقال للترجمان: قل له: أنت زعمت أن البلاد ما فيها أحد، وأن من فيها في طاعتك، حتى غررت بي وقتلت المغل. فقال الناصر: أما إنهم في طاعتي لو كنتُ في الشام ما ضربَ أحدٌ في وجه غلمانك بسيف. ومن يكون ببلاد توريز، كيف يحكم على من في الشام؟ فرماه هولاكو بالنشاب فأصابه فقال: الصنيعة يا خَوَنْد. فقال أخوه الملك الظاهر: اسكت، تقول لهذا الكلب هذا القول وقد حضرت. فرماه هولاكو بفردة ثانية فقتله. ثم أخرج الملك الظاهر وبقية أصحابهم، فضربت أعناقهم).



مقاتل المماليك: دبابة بشرية مُدججة بأنواع السلاح

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول. توجه السلطان سيف الدين قطز في اليوم ٢٦ شوال ٦٥٨هـ بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر، جاء أجل سيف الدين قطز.

نتائج الانتصار في عين جالوت وإفرازاته وأبعاده:

١. حطم الانتصار الإسلامي الساحق في معركة عين جالوت أسطورةَ جيش المغول الذي لا يُقهر، وكسرت عين جالوت الحاجز النفسي بالنقص أمام تفوق المغول العسكري.

٢. مثّل انتصار عين جالوت مَعلماً جهادياً مُتميّزاً، وبداية الفتوح المباركة لبلاد الشام كلها، وأرجع الحقوق المسلوبة إلى نصابها، والممتلكات المغتصبة إلى أصحابها.

٣. يمثل اصطدام المماليك بالمغول في عين جالوت المعركةَ المفصلية الكبرى في التاريخ العالمي وفي التاريخ الإسلامي، وأمن سلامة المستقبل لمسارات كلٍّ من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، على السواء. لقد كان انتصار الإسلام في عين جالوت انتصاراً للغة العربية، لغة الإسلام، فلو انتصر المغول على مصر

العروبة والإسلام، لانتهى الإسلام – لا قدّر الله – ولماتت لغته العربية، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره كذلك لو نجح المغول في اجتياح مصر لكانت لهم القدرة، بعد عودة هولاكو، من الاستمرار في اجتياح الشمال الإفريقي والتقدم إلى مضائق جبل طارق. ولكان المغول يحوّطون أوروبا كالسوار حول المعصم من بولندا شرقاً ومن إسبانيا غرباً. وتحت ظروف كهذه، ما كان للنهضة الأوروبية أن تحدث. ولكان من المؤكد أن تكون ضعيفة الأساسات، بل لكان العالم كله يختلف تماماً عما هو عليه اليوم.

٤. كان الانتصار الإسلامي الساحق الماحق على المغول في عين جالوت بداية النهاية للمغول الكفار، وإرهاصات البداية لهداية المغول واعتناقهم الإسلام. فلا يفلّ الحديد إلاّ الحديد، والحديد بالحديد يفلح. ونصر الإسلام في عين جالوت هو نصر الله لدينه الحق وإظهاره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

٥. وبقدر ما أنقذت المعركة مدينة القاهرة من مصير الدمار الأكيد الذي حلّ ببغداد وحلب وباقي مدن الشام، فإنّ معركة عين جالوت وضعت اللمسات الأخيرة ومسك الختام في القضاء المحتوم على الدويلات الصليبية المتبقية والضعيفة نسبياً.

٦. وارتفعت، بهذه المعركة، مصرُ المماليك إلى قمة الذروة والقوة الإسلامية سياسياً، وعسكرياً، وثقافياً، واستطاعت المحافظة على مركزها الطليعي هذا قرابة ٢٥٠ سنة، حتى بزوغ نجم العثمانيين. وصدق المصطفى في أحاديثه عن مناقب مصر، حين قال ﷺ: «**الله الله في قبط مصر: فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله**». [صححه الألباني: السلسلة الصحيحة ٣١١٣].
وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمةً ورحماً**». قال الإمام النووي، في شرح مسلم وفي رياض الصالحين: أما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم.
وروى ابن عبد الحكم في فتوح مصر: "إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد. فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة". أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، والدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن عساكر في تاريخ دمشق وإسنادُه ضعيف؛ لأنّ مداره على ابن لهيعة وهو ضعيف، وفيه الأسود بن مالك لا يوجد له ترجمة، وبحير بن ذاخر مجهول الحال.

٧. **موقف هولاكو من الهزيمة**: لم يستطع هولاكو، بفضل الله ومنته الكبرى على المسلمين، لتقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت؛ لاشتغاله في حروب طاحنة مع منافسيه من أهل بيته (بفضل الله ومنه على المسلمين حين يصدقون النية لله)، وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، بركة خان المسلم المجاهد، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم، فأخبره بما حلّ بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك رفع معنويات هولاكو وجيوشه، وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله بجلطة في المخ لكان أصلاً مصاباً بالصَرَع) في سنة ٦٦٣هـ /١٢٦٥م، فتوفي دون أن يحقق حلمه بضمّ مصر والشام إلى ممتلكاته (أهلكه الله – انظر ترجمته فيما سيأتي: اعتناق المغول الإسلام). ولكن حصلت معركة حمص الأولى بين بقايا المغول في الشام والبيت الأيوبي، وكانت مسك الختام لانكسار المغول في الشام (انظر فيما سيأتي).

وفاة الملك المظفر قطز:

وكان الملك المظفر قطز قد وعد الأمير بيبرس بحلب وأعمالها، فلما انتصر على التتار، انثنى عزمه عن عطائه حلب وولاها علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس والملك المظفر قطز. فقد ساق بيبرس وراء التتار إلى حلب، وطردهم عن البلاد، ووعده السلطان بحلب، ثم رجع عن ذلك، فتأثر بيبرس ووقعت الوحشة بينهما، فأضمر كل لصاحبه الشر، فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل المظفر (علماً أن المظفر قطز قد قتل سابقاً مقدّمهم فارس الدين أقطاي الجمندار)، فقتلوه في الطريق في ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ بين الغرابي والصالحية.

يذكر الإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت حوادث عام ٦٥٨هـ:

(**عَوْدُ المظفَّر إلى مصر**) وأقام المظفر نحو الشهر، وسار إلى الديار المصرية. ونقل الصاحب عز الدين بن شداد أن المظفر لما ملك دمشق، عزم على التوجه إلى حلب لينظف آثار التتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أن ركن الدين البندقداري قد تنكر له وتغير عليه، وأنه عامل عليك. فصرف وجهه عن قصده، وعزم على التوجه إلى مصر وقد أضمر الشر للبندقداري، وأسر ذلك إلى بعض خواصه، فاطلع على ذلك البندقداري.

(**قَتْلُ المظفَّر قُطُز**) ثم ساروا والحقود ظاهرة في العيون والخدود، وكل منهما متحرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدين البندقداري على قتل المظفر، واتفق والأمراء: سيف الدين بلبان الرشيدي، وبهادر المعزي، وبيدغان الركني، وبكتوت الجوكندار، وبلبان الهاروني، وأنس الأصبهاني. فلما قارب القصر الذي بالرمل عرج للصيد، ثم رجع، فسايره البندقداري وأصحابه، وحادثه، وطلب منه امرأة من سبي التتار، فأنعم له بها، فأخذ يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين أولئك، فبادره بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، فضربه بالسيف على عاتقه فأبانه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم قضى عليه، وذلك يوم سادس عشر ذي القعدة.

(**سلطنة بيبرس**) ثم ساروا إلى الدهليز، وضربوا مشورة فيمن يملكوه عليهم، فاتفقوا على ركن الدين البندقداري، وتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المعروف بالأتابك فبايعه، ثم تلاه الرشيدي، ولُقِّب بالملك القاهر. ثم ساق هو والأتابك، وقلاوون الذي تسلطن، والبيسري، وجماعة، وقصد قلعة مصر، ورتب أقوش النجيبي أستاذ دار، وعز الدين الأخرم أمير جندار، فخرج نائب الملك المظفر على القاهرة للقائه، وهو الأمير عز الدين الحلي، فصادف هؤلاء فأخبروه بما وقع، فحلف لركن الدين، ورد إلى القلعة ووقف على بابها ينتظره، وكانت القاهرة قد زينت لقدوم المظفر وهم في فرحة، فلما طلع الضوء، لم يشعروا إلا والمنادي يقول: معشر الناس، ادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدنيا والدين. ووعدهم بالإحسان وإزالة... لأن المظفر كان قد أحدث على المصريين حوادث كثيرة، منها تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها، وأخذ ثلث الزكاة، وثلث التركات، وعن كل إنسان دينار واحد، ومضاعف الزكاة، فبلغ ذلك في العام ست مئة ألف دينار، فأطلق لهم ذلك. وجلس على تخت الملك يوم الأحد، وذلك اليوم الثاني من قتله للمظفر، فأشار عليه الوزير زين الدين بن الزبير، وكان منشئاً بليغاً، بأن يغير هذا اللقب، وقال: ما لقب به أحد فأفلح. لقب به القاهر بن المعتضد فسُمل بعد قليل وخلع، ولقب به الملك القاهر بن صاحب الموصل فسُمّ. فأبطل السلطان هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر) انتهى.

ولم يخلف الملك المظفر قطز ولداً ذكراً، وكان قتله يوم السبت ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ. فتكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوماً واحداً، فإنه تسلطن يوم السبت ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٧هـ. أما الملك المظفر قطز، فإنه دفن موضع قتله – رحمه الله تعالى – وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. ثم عمّى بيبرس على

موضع دفن قطز. قال عنه الحافظ الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوّض الله شبابه بالجنة ورضي عنه).

وكانت مصر قد زينت للملك المظفر فاستمرت الزينة. ركب بيبرس، وساق في جماعة من أصحابه، حتى وصل إلى قلعة الجبل، فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه. وكان الذي ركب معه من الصالحية إلى القلعة، وهم خواصه من خشداشيته وهم: فارس الدين الأتابك، وبيسرى، وقلاوون الألفي، وبيليك الخازندار، وبلباخ الرشيدي، ثم في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة وهو صبيحة قتل المظفر قطز، وهو أول يوم من سلطنة الظاهر بيبرس، جلس بالإيوان من قلعة الجبل.

ولما جلس الظاهر بالإيوان، رسم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته، فأول من بدأ به الملك الأشرف صاحب حمص، ثم الملك المنصور صاحب حماه، ثم الأمير مظفر الدين صاحب صهيون، ثم إلى الإسماعيلية، ثم إلى الملك السعيد المظفر علاء الدين علي بن لؤلؤ صاحب الموصل الذي صار نائب السلطنة بحلب، ثم إلى من في بلاد الشام يعرفهم بما جرى.

ثم أفرج عمن بالحبوس، من أصحاب الجرائم، وأقرّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير على الوزارة، وتقدم بالإفراج عن الأجناد المحبوسين، والإنعام عليهم وزيادة من رأى استحقاقه من الأمراء، وخلع عليهم وسير الأمير جمال الدين آقوش المحمدي بتواقيع للأمير سنجر الحلبي نائب دمشق، فتوجه إليه فوجده قد تسلطن بدمشق ودعا لنفسه وحلف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس، وأخذ في إصلاح أمره معه والإحسان إلى خشداشيته البحرية الصالحية وأمر أعيانهم. ثم إنه أخرج الملك المنصور نور الدين علياً بن الملك المعز أيبك التركماني وأمه وأخاه ناصر الدين قاقان من مصر إلى بلاد الأشكري، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل. ودخل مصر، وأزال عن أهلها ما كان المظفر أحدثه عليهم من المظالم.

وقفة مع قتل ملوك المماليك: عدل الله وفضله، وجزاء من جنس العمل:

- الحظ أن الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب قد قتل، قتله فارس الدين أقطاي.
- ثم إنّ فارس الدين أقطاي قد قتل، قتله قطز بأمر الملك المعز أيبك.
- ثم إنّ شجرة الدر قامت فقتلت الملك المعز أيبك.
- ثم إن جواري الزوجة الأولى للملك المعز أيبك، قتلن شجرة الدر.
- ثم إن بيبرس قد قتل قطز؛ لنقضه الوعد بتأميره على حلب، ولقتله فارس الدين أقطاي.

وما هذا إلا عدلٌ إلهي، وفضل ربانيّ، بتطهيرهم من الذنوب في الدنيا بالقتل جزاءً من جنس عملهم؛ لكي يلاقوا الله تعالى يوم القيامة وهم أنقياء من ذنوبهم. فإن الله لا يُثني عليهم العقوبة في الدنيا والآخرة. عفا الله تعالى عنهم جميعاً، وتغمّدهم برحمته الواسعة، فلقد أبلوا خير بلاء في نصرة الإسلام، في أحلك مدة في تاريخ الإسلام.

معركة حمص الأولى، أو وقعة حمص "القيقان": (لأن غير واحد حدث أنه رأى قيقاناً عظيمة – جمع قوق، وهو طائر مائي طويل العنق – قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم). تمثل مسك الختام والامتداد النهائي لمعركة عين جالوت، ومعارك حمص الأولى والثانية والثالثة، وموقعة شقحب كلها قريبة من مرقد خالد بن الوليد في حمص، حيث استلهام البطولة وذكريات الانتصارات لسيف الله المسلول في أرض الشام المباركة.

ولما صح عند التتار قتل الملك المظفر قطز – رحمه الله تعالى – وكان النائب ابن صاحب الموصل أساء السيرة في الجند والرعية، فاجتمع رأي الأمراء والجند بحلب على قبضه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعينوا للقيام بالأمر الأمير حسام الدين الجوكنداري العزيزي، فبينما هم على ذلك، وردت عليهم بطاقة نائب البيرة، بخبر أن التتار قاربوا البيرة لمحاصرتها، واستصرخ بهم لينجدوه بعسكر.

وكان التتار قد هدموا أبراج البيرة وأسوارها، فلما وصلوا إلى عمق البيرة، صادفوا التتار بجموعهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة، وما سلم منهم إلا القليل. وورد هذا الخبر لحلب، فجفل أهل حلب إلى جهة القبة ولم يبق بها إلا القليل. ثم بعد أيام قلائل دهم العدو حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكنداري بالمقدم على عسكر حلب بمن معه إلى جهة دمشق، ودخلت التتار حلب، وأخرجوا من كان فيها إلى ظاهر حلب، ووضعوا السيف فيهم فقتل بعضهم وفر بعضهم.

ونزل العسكر الحلبي بظاهر حماة، فقام الملك المنصور بضيافتهم ثم تقدم التتار إلى حماة، فلما قاربوا منها، رحل صاحبها الملك المنصور ومعه الجوكنداري بعساكر حلب إلى حمص، ونزل التتار على حماة، فامتنعت عليهم، فاندفعوا من حماة طالبين العسكر، وجفل الناس بين أيديهم، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، وأقام الجميع على حمص، حتى قدم إليهم التتار في أوائل المحرم من سنة ٦٥٩هـ، وكانوا في ستة آلاف فارس فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حماة، والأشرف صاحب حمص، والجوكنداري العزيزي بعساكر حلب، وحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الأمير بيدرا مقدم التتار في نفر يسير، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد ﷺ، ثم عاد التتار إلى حلب، وفعلوا بأهلها تلك الأفعال القبيحة على عادتهم. ثم جهز الملك الظاهر عسكراً لخروج التتار من حلب، فساروا إليها وأخرجوهم منها على أقبح وجه. كل ذلك والدنيا بلا خليفة من سنة ست وخمسين وست مئة.

يذكر الإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام" بركات الله على المسلمين **بأحداث سنة ٦٥٩هـ**، فيقول: (**وقعة حمص** وكانت في خامس المحرم. اجتمع عدد من التتار الذين نجوا من عين جالوت، والذين كانوا بحران والجزيرة، وكانوا قد هلكوا من القحط فأغاروا على حلب، وقتلوا أهلها بقرنيبا، ثم ساقوا إلى حمص لما علموا بقتلة الملك المظفر، وأن العساكر مختلفة، فوجدوا على حمص الأمير حسام الدين الجوكندار ومعه العسكر الذين كانوا بحلب، والملك المنصور صاحب حماه، والملك الأشرف صاحب حمص، وعدتهم ألف وأربع مئة، فحملوا على التتار وهم في ستة آلاف فارس حملة صادقة فكسروهم وركبوا أقفيتهم قتلاً حتى أتى القتل على معظمهم، وهرب مقدمهم بيدرا في نفر يسير بأسوأ حال. وكانت الوقعة عند تربة خالد بن الوليد ﷺ. وتسمى **وقعة حمص "القيقان"**: لأن غير واحد حدث أنه رأى قيقاناً عظيمة قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم. وحكى بدر الدين محمد بن عز الدين حسن القيمري، وكان صدوقاً، قال: كنت مع صاحب حماه، فوالله، لقد رأيت بعيني طيوراً بيضاء وهي تضرب في وجوه التتار يومئذ. نقله عنه الجزري في "تاريخه". وقال أبو شامة: جاء الخبر بأن التتار كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة وضربت البشائر، وكانت الوقعة عند قبر خالد إلى قريب الرستن، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقُتل منهم فوق الألف، ولم يُقتل من المسلمين سوى رجل واحد. ثم جاءت رؤوسهم إلى دمشق. قلت: حكى أبي أنهم جابوها في شراع، وكنا نتعجب من كبر تلك الرؤوس كأنها رؤوس المُغْل.

(هزيمة الفرنج) قال: وفيه، يعني ربيع الأول، خرج الفرنج في تسع مئة فنطارية، وخمس مئة تركبلي، ونحو ثلاثة آلاف راجل، فأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد. قلت: انتدب لقتالهم الفاخرية التركمان، فأخلوا لهم بيوتهم وهربوا، وكمنوا لهم، ثم نزلوا عليهم وبيتوهم، وأراح الله منهم. وكان خروجهم من عكا وصيدا.

(العزاء بالملك الناصر يوسف) عُقد العزاء في جمادى الأولى بجامع دمشق للملك الناصر. جاء الخبر أنه ضُربت رقبته مع جماعة لما بلغهم أن المصريين كسروهم على عين جالوت.

(الخُلف بين هولاكو وبركة) ووقع الخلف بين هولاكو وبركة، وأظهر بركة عداوته، وبعث الرسل إلى الملك الظاهر بالموادة واجتماع الكلمة، ويحرضه على حرب هولاكو، ثم جرى بينهما مصاف، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

(دخول أول دفعة من التتار في الإسلام) ووصل إلى دمشق في ذي الحجة من التتار نحو المئتين هاربين إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً. وهم أول من فرّ من التتار ودخل في الإسلام.

(استرجاع الروم القسطنطينية من الفرنج) تحزبت نصارى الروم في سنة ستين وحشدوا، وأخذوا مدينة القسطنطينية من الفرنج، وكان الفرنج قد استولوا عليها من سنة ست مئة. أرّخ ذلك الملك المؤيد رحمه الله. انتهت وقائع هذه الطبقة، والحمد لله وحده).

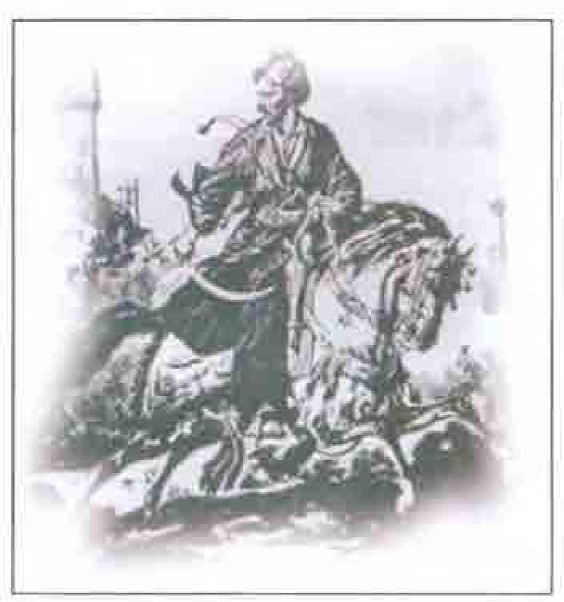
الملك الظاهر، أبو الفتوح، الأسد الضاري، ركن الدين بيبرس البندقداري (حكم ٦٥٨هـ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠م ١٢٧٠م)

يمثل بيبرس ظاهرة فريدة جداً في التاريخ الإسلامي وتاريخ الجهاد المزدوج ضد الصليبيين والمغول في آن واحد، وفي مدة عصيبة جداً من أخطر مدد التاريخ الإسلامي على الإطلاق. وكان طوال حكمه مُكللاً بالانتصارات وقضى معظم سنوات حكمه مُجاهداً بنفسه قائداً لجيوشه في معارك متكررة ضد الصليبيين والمغول وحلفائهم، وكانت الغلبة فيها دائماً إلى جانبه والنصر حليفاً له، بتوفيق الله وفضله. فلا غرابة في شعبية هذا السلطان المجاهد في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وتسمّى الكثير من المسلمين باسمه، فهو الذي قهر ٣ حملات صليبية (الحملة الصليبية السابعة على مصر، والحملة الصليبية الثامنة على تونس، والحملة الصليبية التاسعة على فسطين). ولبيبرس الفعل الأكبر في الانتصار بعين جالوت، المعركة المفصلية الكبرى في تاريخ الإسلام والعالم: فهو الذي انقضّ على حامية غزة المغولية وهزمها شرّ هزيمة، وهو الذي كان رأس الحربة للفرقة الطليعية التي صدمت المغول، وهو الذي تصنع الانكسار والانسحاب، ونجح بجرّ جيش المغول واستدراجه إلى كمين المسمين في عين جالوت ومباغتته هناك بجحافل الإسلام، حسب الخطة المسماة عسكرياً بالانسحاب الكاذب، وهو الذي قاد فرقة الشجعان لمطاردة فلول المغول الهاربة وقتلها وتمشيط حلب وحمص وباقي مدن الشام منهم. استمر حكم هذا السلطان المجاهد بيبرس البندقداري مدة ١٩ عاماً، كانت بركة وفتحاً للإسلام وحفظاً لبيضة الإسلام من كل أعدائه.

وكان بيبرس عبقرياً، متوقد الذكاء، ذا فكر خلّاق، فمن بنات أفكاره: إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، بعد قضاء المغول عليها في اجتياحهم وتدميرهم بغداد، وتكثيف الدعوة الإسلامية للمغول وإقامة حلف دفاعي مع المغول المسلمين ضد المغول الكفار، واستقدام المسلمين منهم لمصر لمبايعة الخليفة ومعايشة الإسلام في مصر، وعسكرة العالم الإسلامي بالتدريب والجهاد والرباط والمصابرة الدائمة في الثغور ضد الصليبيين والمغول. بل قام أيضاً بتوظيف الحشاشين في الشام عام ١٢٧٢م لمصلحة الإسلام، باستئجارهم للقيام بالاغتيالات الهدفية ضد الصليبيين وأعداء الإسلام، مقابل أجر ثابت لكل عملية فدائية، ثم إنه سجل ذلك الرحالة العربي ابن بطوطة (بدلاً من استخدام أعداء الإسلام والصليبيين لهم ضد زعماء المسلمين).

ولإسناد حملاته العسكرية أيضاً، قام بيبرس بإنشاء دور صناعات السلاح (الترسانات)، وتصنيع السفن الحربية وسفن الحمولة لإنشاء الأسطول المصري وتقويته. وحدّث أيضاً الكثير من آلة الحرب البرية الثقيلة لحصار

القلاع والحصون، ويقال: إنه أول من ستخدم المتفجرات في المدافع اليدوية المتنقلة في الحروب، في عين جالوت، وفي حملاته العسكرية (هذه المدافع بدائية تحدث صوت انفجار مدوٍّ، وهذا يحدث اضطراباً في قوات العدو)، وامتدت حملاته العسكرية إلى آخر أطراف الشام وسواحلها، وإلى ليبيا وبلاد النوبة. وكان إدارياً بارعاً ورجلاً مؤسساتياً يعمل بروح الفريق، وقد أرسى دعائم الحكم ونظم شؤون البلاد، وبسط الأمن وأحل السلام. وأنشأ العديد من مشروعات البنية التحتية، مثل منظومة البريد بالخيل والتسلّم السريع، ووصول البريد من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام. وأنشأ عدة جسور، وقنوات للريّ وللملاحة، وطوّر الموانئ، وبنى المدارس والمستشفيات والمساجد. وكان راعياً للعلوم الإسلامية، مثل مساعدة البحوث الطبية وتطويرها لطبيبه العربيّ ابن النفيس الدمشقيّ. أسس المدرسة الظاهرية وهي بجوار ضريحه في دمشق. هذا والمكتبة الظاهرية تزخر بنفائس المخطوطات في شتى المعارف، وما زالت موجودة إلى اليوم في دمشق.



صورة فنية تظهر الملك الظاهر بيبرس، وهو يقاتل المغول والصليبيين في معارك الجهاد

إقامة الخلافة العباسية في مصر: ولما أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة، وجرى ما جرى، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة؛ وذلك من يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ، وهو يوم قتل الخليفة المستعصم — رحمه الله — إلى سنة ٦٥٩هـ؛ فلما كان رجب من هذه السنة، قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله، وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المستنصر، وقد كان معتقلاً ببغداد ثم أطلق، فكان مع جماعة من الأعراب بالعراق، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم عليه الديار المصرية صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا.

وكان دخوله إلى القاهرة في ثاني رجب فخرج السلطان للقائه، ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون فتلقوه، وكان يوماً مشهوداً، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر بأبهة عظيمة.

فلما كان يوم الإثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ، جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلعة الجبل والقاضي والوزير والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة على القاضي تاج الدين؛ فلما ثبت قام قاضي القضاة قائماً، وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة. ثم كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ثم السلطان الملك الظاهر، ثم القاضي تاج الدين، ثم الأمراء والدولة، وركب في دست الخلافة بمصر والأمراء بين يديه، والناس

حوله، وشق القاهرة، وكان يوماً مشهوداً، ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه، وخطب له على المنابر، وضرب اسمه على السكة، وكتبت بيعته إلى الآفاق، وأنزل بقلعة الجبل هو وحشمه وخدمه، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب في أبهة السواد، وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر، وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا للسلطان، ثم نزل فصلى بالناس، وكان وقتاً حسناً ويوماً مشهوداً.

ثم ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزراء والأمراء في يوم الإثنين ٤ شعبان ٦٥٩هـ، وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة، فألبس الخليفةُ السلطانَ بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء، وطوقاً في عنقه من ذهب، وقيداً من ذهب في رجليه. وفوّض إليه الأمور في البلاد الإسلامية، وما سيفتحه من بلاد الكفر. ولقبه بـ (قسيم أمير المؤمنين)، وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبراً، فقرأ عليه تقليد السلطان.

دعوة المغول إلى الإسلام:

جلب الإسلام انتباه المغول، بعد أن استولى جنكيز خان على أفغانستان. وفي أثناء رجوعه إلى منغوليا عام ١٢٢٢م، زار بخارى في ترانس – أوكسيانا. ويعتقد أنه سأل عن الإسلام، وثم وافق على وجود ذوي العقائد الإسلامية – إضافة إلى النصارى، والطاويين، والبوذيين – ولم يوافق على فريضة الحج؛ لأنه رآه غير ضروري. ولكنه استمر في عبادته آلهته (تانكري) كما فعل أسلافه.

يرجع أول ظهور للإسلام في منغوليا إلى ١٢٥٤م، عندما زار الفرانسيسكي (وليم من روبريك) بلاط الخان الأعظم مونغا في قراقوروم. احتفل هو بعيد الفصح إيستر والنصارى النسطوريين في الكنيسة، لكنه لحظ أيضاً ٧ معابد للوثنيين (ربما يقصد المعابد البوذية والطاوية)، مع مسجدين للمسلمين. من هنا يؤرخ المؤرخون تاريخ وصول الإسلام إلى منغوليا في المدة ما بين ١٢٢٢م–١٢٥٤م.

لكن الفضل الأكبر يعود (بعد الله) إلى الملك الظاهر بيبرس حاكم المماليك، الذي قام بفعل مهم جداً في اعتناق الكثير من مغول القبيلة الذهبية الإسلام. طور بيبرس علاقات قوية مع مغول القبيلة الذهبية، واتخذ خطوات في ترحيل مغول قبيلة الذهبية إلى مصر. وأدى وصول وفود المغول من القبيلة الذهبية إلى مصر ودعوتهم إلى الإسلام وتعايشهم في البيئة الإسلامية إلى دخول أعداد كبيرة من المغول إلى دين الإسلام، وبانتصارات الإسلام الكاسحة والعديدة ضد المغول منذ عين جالوت أدى إلى دخول المغول بالآلاف المؤلفة. واعتنقت بحلول ١٣٣٠م ثلاثة من الخانات الأربعة العظمى (التي تصنع إمبراطورية المغول) دين الإسلام، وهي القبيلة الذهبية، وأولوس هولاكو، وأولوس شاغاتاي. فضلاً على أنها احتضنت إمبراطورية يوان (الخانة الرابعة) العديد من المسلمين في أقاليمها، مثلاً قبائل يوغورز، والفرس (للمزيد انظر فيما سيأتي: **اعتناق المغول الإسلام**).

جهاد الملك الظاهر بيبرس:

وأخبار غزواته تفوق الوصف: إذ انتصر على الصليبيين في أكثر من ٢٠ موقعة، استولى فيها على كثير من حصونهم ومدنهم ودوّخهم، فلم يقدروا عليه. حاصر الظاهر بيبرس في ١٢٦٣م عكا عاصمة ما تبقى من مملكة القدس، فلم يستطع فتحها، لكنه دحر الصليبيين في جميع المعارك اللاحقة (أرسوف، أثليث، حيفا، صفد، يافا، عسقلان، قيصريا). بدأ حصاره على دويلة طرابلس في ١٢٧١م، ثم طلبوا الصلح فقبله في أيار ١٢٧١.

ولعلّ من أعماله العسكرية: غزوه مملكة أرمينيا المعادية في الشمال والمحالفة للمغول، وهدم عاصمتها سيس، واستيلائه على مدن قيصرية وأرسوف ١٢٦٥م، ويافا في ١٢٦٨م، وفتح في أيار/ مايو ١٢٦٨ دويلة انطاكيا، أعتى المدن الصليبية (قمة أعماله العسكرية ضد الصليبيين – ولم يستطع صلاح الدين الأيوبي فتح أنطاكيا)، ثم

صافيتا وحصن الحروب، ومعظم القلاع الصليبية على الساحل السوري. وحارب الباطنية الملاحدة في شمال سوريا وقضى عليهم، ثم قام بتوظيف الحشاشين تحت المراقبة؛ للقيام بأعمال فدائية معينة مقابل أجر ثابت لكل عملية. وأعاد فتح مملكة أرمينيا وتأديبها مجدداً؛ لنقضها العهود السابقة، ولمساندتهم المغول في حملاتهم على الشام. وتكرر صدّه وتدميره للهجمات المغولية العديدة على سوريا، ولعل من أعظم المعارك ضد المغول (بعد عين جالوت) هي معركة حمص الأولى، وتحرير حلب، ثم دحره الجيشَ المغولي وإلحاق الهزائم به في موقعة الفرات، وفي موقعة أبلستَيْن (ضد التحالف المغوليّ – الصليبيّ).



المماليك بقيادة بيبرس يدحرون حلفاء المغول النصارى الأرمن في معركة ماري عام ١٢٦٦م، ويقتلون أحد أبناء هيثوم الأول ويقبضون على ابنه الثاني (صار من بعد ذلك الملك ليون الثاني) ثم قام المماليك بتدمير بلاد أرمينيا الصغرى

ثم إنه أرسل حملة تأديبية إلى بلاد النوبة في الجنوب، وتوفي عام ١٢٧٩ م في أثناء انهماكه في جولة تفقدية لجنده المرابضين في الثغور، إذ أعيد جثمانه إلى دمشق ودفن في المدرسة الظاهرية التي سبق له أن أنشأها في مدينة دمشق، تلك التي لاتزال قائمة حتى اليوم. وقد عمّت سيرة هذا السلطان المجاهد الشجاع الآفاق في العالم الإسلامي؛ تقديراً لانتصاراته الباهرة وبطولاته الكبيرة في الذود عن حياض الإسلام وديار المسلمين، حتى أصبحت سيرة حياته أسطورة شعبية كبيرة، تتناقلها ألسنة الرواة بالحب والإعجاب من جيل إلى جيل، منافسةً بذلك السير البطولية الأسطورية الشعبية لعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، والمهلهل الزير سالم، وغيرهم.

الحملة الصليبية الثامنة (١٢٧٠م) والحملة الصليبية التاسعة (١٢٧١–١٢٧٢م):

انطلق لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، مع عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيين، إذ إنّ إخفاق الحملات الصليبية وانحطاط سمعتها صدّهم عنها، حتى إن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة، رفض الانضمام إليه هذه المرة، ويروي هذا المؤرخ أن نبأ الحملة الجديدة كان مفاجئاً جداً بالنسبة إليه شخصياً، وبالنسبة إلى الأشخاص الآخرين المقربين من الملك، وأنه أدهش البارونات، وكانت المعارضة مُجمَعٌ عليها تقريباً، واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر الملك الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، واتفقوا على توجه الحملة نحو تونس، بوصفها قاعدة لغزو مصر. بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس، ولما نزل الصليبيون في تونس، وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وعندها انضم شارل الأول كونت أنجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي، واستولوا على قلعة قرطاجة القديمة، ولكن وباء الطاعون دبّ في صفوف فرسان الفرنجة، توفي على إثرها الملك وأفراد الأسرة المالكة المرافقة له، باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي، ووصل في اليوم نفسه لوفاة الملك في ٢٥ آب ١٢٧٠م، أخوه شارل الأول، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب، بضعَ معارك ضد قوات أمير تونس، ووقعت معاهدة صلح مع المستنصر في أول

تشرين الثاني ١٢٧٠، ألزمته دفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليين. وشملت حقوقاً تجارية متبادلة. بعد ١٧ يوماً من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

ثم قام إدوارد الأول بالحملة الصليبية التاسعة ضد السلطان بيبرس عام ١٢٧١م، وكانت بمنزلة ردة فعل لسقوط دويلة أنطاكيا الصليبية، وكان إدوارد (قبل أن يصبح ملكاً) قد لحق متأخراً ليصحب لويس التاسع في حملته الصليبية الثامنة على تونس عام ١٢٧٠م، فأهلكه الله هناك بالطاعون هو وابنه، وخابت حملته (وقد جيَّش له الملك بيبرس حملة مضادة عبر ليبيا، فلما علم بموته رجع).

إدوارد الأول ملك إنكلترا، هو الملك الإنجليزي عديم الرحمة، الذي قتل الثائر الإسكتلندي وليم والاص (كما في الفيلم العالمي: القلب الشجاع Brave Heart). وتعدُّ الحملة الصليبية التاسعة خاسرة أيضاً، وهي آخر حملة صليبية على الشرق الأوسط.

كانت آمال الصليبيين في السنوات الأخيرة، وأمام خطر المماليك في مصر معلقةً بالتحالف الصليبي الفرنجي – المغولي. وكان المغول الإيلخانيون متعاطفين ومتعاونين مع النصرانية، بل إن الأمراء الفرنجة تمكنوا من تفعيل تحالفهم وترجمة تعاونهم بفاعلية في عدة حملات مشتركة على الشرق الأوسط عدة مرات. وعلى الرغم من أن المغول استطاعوا بنجاح الهجوم جنوباً في حملات وصلت إلى دمشق، لكن القابلية للتنسيق مع الصليبيين في الغرب كانت محبطة ومخيبة لآمال الصليبيين عدة مرات، خصوصاً ضياع الفرصة لمثل هذا التحالف في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م. وتمكن المماليك أخيراً بالإيفاء بوعودهم الصادقة في تطهير الشرق الأوسط كله من الفرنجة. وبعد سقوط دويلة أنطاكيا (١٢٦٨م على يد الظاهر بيبرس)، ودويلة طرابلس (١٢٨٩م على يد الناصر قلاوون)، وأخيراً مملكة عكا (١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاوون)؛ صار الفرنجة الصليبيون الذين يرفضون الخروج من بلاد المسلمين معرضين للقتل أو للعبودية بوصفهم رقيقاً أبيض، ومن ثم اختفت آخر آثار الحكم الصليبي النصراني في المشرق تماماً.

فتوجه إدوارد يصاحبه أخو الملك لويس التاسع (شارلس من أنجو) إلى مملكة الصليبيين في عكا وقبرص، بوصفهما قاعدتي انطلاق لمساعدة طرابلس الصليبية، وفيها أمير أنطاكيا المخلوع مع رئيس طرابلس في أثناء حصار الملك الظاهر بيبرس لمدينة طرابلس.



غزوات أبو الفتوح الملك الظاهر بيبرس في حربه ضد الفرنجة (الأخضر) والمغول (الأحمر) في أثناء الحملة الصليبية التاسعة

بمجرد وصول إداورد إلى عكا، بدأ بمحاولته للتحالف الفرنجي – المغولي، وأرسل سفيراً إلى إيلخان المغول "أبغا بن هولاكو" الذي وافق على التعاون العسكري. وبوصول قوات إضافية من قبرص، بدأ إدوارد بالإغارة على قاقون. أغار المغول على سوريا في نهاية تشرين الأول ١٢٧١م ونهبوا حلب وما حولها: ولاشتغال "أبغا ابن هولاكو" بصراعاته في تركستان، لم يستطع إرسال أكثر من ١٠ آلاف فارس مغولي بقيادة سماغار، وارتحل المسلمون بالآلاف لكن المغول لم يثبتوا أمام جيش البطل بيبرس الذي جاءهم من مصر وقارعهم في ١٢ تشرين الثاني ١٢٧١م فهزمهم شر هزيمة فتقهقروا إلى ما وراء الفرات.

وتحسباً لهجوم بري وبحري على مصر، أنشأ الظاهر بيبرس أسطوله البحري، وأخذ زمام المبادرة بهجوم بحري للإنزال في قبرص في ١٢٧١م: من أجل استدراج العدو وسحب قواته من عكا إلى قبرص، لكن العملية البحرية لم تنجح.

أراد إدوارد توقيع هدنة مدة ١١ سنة مع بيبرس: وذلك بسبب اختلافات الصليبيين الداخلية بين فرسان الهيكل وبين أسرة الصليبيين في قبرص، لكن بيبرس حاول اغتيال الملك إدوارد بإرسال رجال من فرقة الحشاشين تخفوا كنصارى يطلبون التعميد (وهذا من ذكاء بيبرس)، فاستطاع إدوارد وفرسانه كشفهم وقتلهم، وفتت هذه المحاولة في عضد الملك إدوارد، وثبطت عزائمه للهجوم على القدس. وجاءت الأنباء بوفاة والده الملك هنري الثالث، فوقع الهدنة مع بيبرس على عجل للخروج من معمعة حملته الخاسرة، والرجوع إلى بلاده ليتوّج ملك إنكلترا عام ١٢٧٢م.

وهذه مقتطفات للتوثيقات العربية لفتوحات بيبرس، من كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي:

أرسل الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ عسكراً، مقدمه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي: للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد، وسبوا وغنموا ما لا يحصى. ونزل الملك الظاهر بنفسه على صفد، ثم رحل إلى دمشق، ولما كان الملك الظاهر نازلاً بصفد وصل إليه رسول صاحب صهيون بهدية جليلة ورسالة مضمونها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقبل الملك الظاهر الهدية والعذر.

ثم وصلت رسل صاحب سيس (عاصمة مملكة الأرمن) أيضاً بهدية، فلم يقبلها ولا سمع رسالتهم. ثم رحل الملك الظاهر من دمشق يوم السبت ثالث ذي القعدة، وأمر العساكر بالتقدم إلى بلاد سيس للإغارة عليها، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماه، وتدبير الأمور راجع إلى الأمير آق سنقر الفارقاني، فساروا حتى وصلوا إلى الدرب الذي يدخلون منه إليها. وكان صاحبها قد بنى عليها أبرجة فيها المقاتلة، فلما رأوا العسكر تركوها ومضوا، فأخذها المسلمون وهدموها ودخلوا بلاد سيس فنهبوا وأسروا وقتلوا، وكان فيمن أسر ابن صاحب سيس وابن أخته وجماعة من أكابرهم. ودخلوا المدينة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، وأخذوا منها ما لا يحصى كثرة، وعادوا نحو دمشق. فلما قاربوها، خرج الملك الظاهر لتلقيهم في ٣ ذي الحجة واجتاز بقارة في ٦ ذي الحجة، فأمر بنهبها وقتل من فيها من الفرنج، فإنهم كانوا يخيفون السبيل ويستأسرون المسلمين، فأراح الله منهم وجعلت كنيستها جامعاً، ورتب بقارة خطيباً وقاضياً، ونقل إليها الرعية من المسلمين. ثم التقى العساكر وخلع عليهم وعاد معهم، فدخل دمشق والغنائم والأسرى بين يديه في يوم الإثنين ١٥ شهر ذي الحجة فأقام بها مدة.

ثم خرج منها طالباً الكرك في مستهل المحرم سنة ٦٦٥هـ، ثم عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر، وعند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ومعهم فيل وحمار وحش أبيض وأسود وخيول وصيني وتحف، وطلب معاضدة الملك الظاهر له، وشرط له أن يخطب له ببلاده.

ثم خرج السلطان في يوم السبت في ٢ جمادى الآخرة إلى بركة الجب عازماً على قصد الشام على حين غفلة وجعل نائب السلطنة على مصر الأمير بيليك الخازندار، ورحل في سابع الشهر فوردت عليه رسل صاحب يافا في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب ليلاً، وسار فأصبح يافا وأحاط بها من كل جانب فهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة وطلب أهل القلعة الأمان، فأمنهم وعوّضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا، وكان أخذ قلعة يافا في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وأمر بهدمها.

فلما فرغ السلطان من هدمها، رحل عنها يوم الأربعاء ١٢ رجب طالباً الشقيف فنزل عليه يوم الثلاثاء وحاصرها حتى تسلمها يوم الأحد ٢٩ رجب، وكان الملك الظاهر أيضاً ملك الباشورة بالسيف في ٢٦ منه.

ثم رحل الملك الظاهر عنها بعد أن رتب بها عسكراً في عاشر شعبان وبعث أكثر أثقاله إلى دمشق، وسار إلى طرابلس فشن عليها الغارة، وأخرب قراها وقطع أشجارها وغور أنهارها.

ثم رحل إلى حصن الأكراد، ونزل بالمرج الذي تحته فحضر إليه رسول من فيه بإقامة وضيافة فردها عليه وطلب منهم دية رجل من اجناده كانوا قتلوه مئة ألف دينار فارضوه. فرحل إلى حمص ثم إلى حماه ثم إلى أفاميا ثم سار ونزل منزلة أخرى.

فتح انطاكيا: ثم رحل ليلاً وأمر العسكر بلبس آلة الحرب، ونزل أنطاكيا في غرة شهر رمضان فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان، وشرطوا شروطاً لم يجب إليها وزحف عليها فملكها يوم السبت رابع الشهر ورتب على أبوابها جماعة من الأمراء؛ لئلا يخرج أحد من الحرافشة بشيء من النهب ومن يوجد معه شيء يؤخذ منه. فجمع من ذلك ما امكن جمعه وفرقه على الأمراء والأجناد بحسب مراتبهم. وحصر من قتل بأنطاكيا فكانوا فوق ٤٠ ألفاً وأطلق جماعة من المسلمين، كانوا فيها أسرى من الحلبيين وكتب البشائر بذلك إلى مصر وإلى سائر الأقطار.

وأنطاكيا: مدينة عظيمة مشهورة مسافة سورها اثنا عشر ميلاً وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً. ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب – رحمه الله رحمة واسعة – في حين فتح. فكم ترك الأول للآخر.

ولما ملك الملك الظاهر أنطاكيا، وصل إليه قُصّاد من أهل القصير يطلبون تسليمها إليه، فسير السلطان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني بالعساكر إليها فوصل إليها، ووجد أكثر أهلها قد برح منها فتسلمها في ثالث عشر شهر رمضان، وكان قد تسلم دركوش بواسطة فخر الدين الجناحي في تاسع شهر رمضان، وعاد إلى دمشق فدخلها في ٢٧ رمضان وعيّد السلطان بقلعة دمشق. ثم عاد إلى القاهرة.

تهديد المغول وجواب بيبرس: ولما صار الملك الظاهر بدمشق، وصلت إليه كتب التتار ورسلهم والرسل: محب الدين دولة خان وسيف الدين سعيد ترجمان وآخر، ومعهم جماعة من أصحاب سيس. فأنزلهم السلطان بالقلعة وأحضرهم من الغد وأدوا الرسالة ومضمونها:

أن الملك أبغا بن هولاكو، لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت: يعني للملك الظاهر لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً وأنت مملوك أبعت في سيواس، فكيف تشاقّ ملوك الأرض وأولاد ملوكها. فأجابه في وقته، بأنه في طلب جميع ما استولوا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام، وسفرهم إليه بسرعة.

حج الظاهر بيبرس ودعواته عند الحرمين بالنصر: تصدق في المدينة بصدقات كثيرة، وخرج منها متوجهاً إلى مكة، فوصل إليها في ثامن ذي الحجة، فخرج إليه أبو نمي وعمه إدريس صاحبا مكة وبذلا له الطاعة، فخلع عليهما وسارا بين يديه إلى عرفات فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى منى ثم إلى مكة وطاف بها طواف الإفاضة، وصعد الكعبة وغسلها بماء الورد وطيبها بيده وأقام يوم الاثنين، ثم ركب وتوجه إلى المدينة الشريفة فزار بها قبر النبي ﷺ ثانياً.

ثم توجه إلى الكرك، فوصل إليه في يوم الخميس، التاسع والعشرين من ذي الحجة فصلى به الجمعة. ثم توجه إلى دمشق. فوصل يوم الأحد ثاني المحرم سنة ٦٦٨هـ في السحر، فخرج الأمير جمال الدين آقوش فصادفه في سوق الخيل واجتمع به. ثم سار إلى حلب فوصل إليها في سادس المحرم. ثم خرج منها في عاشره، وسار إلى حماه ثم إلى دمشق ثم إلى مصر، وبصحبته الأمير عز الدين الأفرم، فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر واتفق ذلك اليوم ودخول ركب الحاج. وكانت العادة يوم ذاك بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فأقام الملك الظاهر بالقاهرة أياماً، وخرج منها في صفر المذكور إلى الإسكندرية، ومعه ولده الملك السعيد وسائر الأمراء فتصيد أياماً، وعاد إلى نحو القاهرة في يوم الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول، وخلع في هذه السفرة على الأمراء، وفرق فيهم الخيل والحوائص الذهب والسيوف المحلاة والذهب والدراهم والقماش وغير ذلك. فلم يقم بالقاهرة إلا مدة يسيرة، وخرج منها متوجهاً لى الشام في يوم الإثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول في طائفة يسيرة من أمرائه وخواصه، فوصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، ولقي أصحابه في الطريق مشقة شديدة من البرد. ثم خرج عقيب ذلك إلى الساحل، وأسر ملك عكا وقتل وأسر وسبى.

في سنة ٦٦٩هـ (بداية الحملة الصليبية التاسعة من قبرص إلى عكا) خرج من مصر إلى عسقلان، في يوم السبت عاشر صفر، في جماعة يسيرة من الأمراء والأجناد، فوصل إلى عسقلان، وهدم من سورها ما كان أهمل هدمه في أيام الملك الصالح، ووجد فيما هدم كوزان مملوءان ذهباً مقدار ألفي دينار، ففرقها على من صحبه وورد عليه الخبر وهو بعسقلان أن عسكر ابن أخي بركة خان المغولي كسر عسكر أبغا بن هولاكو، فَسُرَّ الملك الظاهر بذلك سروراً زائداً.

وعاد إلى مصر يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول. وانتهى، في هذه السنة، القناطر والجسر الذي عمل على بحر أبي المنجا ووقف عليه الملك الظاهر وقفاً يُعَمَّرُ منه ما اندثر منه على طول السنين. بنى الملك الظاهر، في هذه السنة أيضاً جامع المنشية وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة ٦٦٩هـ.

ويوم الإثنين سابع عشر ذي الحجة ٦٦٩هـ أمر الملك الظاهر بإراقة الخمور في سائر بلاده، وأوعد مَنْ يَعْصِرُها بالقتل، فأريق على الأجناد والعوام منها ما لا تُحْصَى قيمتُه، وكان ضمانُ ذلك في ديار مصر خالصة ألفَ دينار، في كل يوم، وكُتب بذلك توقيعٌ قُرئ، وفي العشْر الأخير من ذي الحجة اهتمّ الملك الظاهر بإنشاء شواني (بناء الأسطول المرة الثانية)عوّضاً عمّا ذهب على قُبُرُص، وانتهى العمل من الشواني في يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة سبعين، وركب السلطان إلى الصناعة لإلقاء الشواني في بحر النيل، وركب السلطان في شيني منها ومعه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار. فلما صار الشيني في الماء، مال بمن فيه فوقع الخازندار منه إلى البحر، فنهض بعض رجال الشيني ورمى بنفسه خلفه، فأدركه وأخذ بشعره وخلصه، وقد كاد يهلك فخلع عليه الملك الظاهر وأحسن إليه. وخرج الملك الظاهر، في ليلة السبت السابع والعشرين منه، من الديار المصرية إلى الشام في نفر يسير من خواصه وأمرائه، ودخل حصن الكرك وخرج منه وصحب معه نائبه الأمير عز الدين أيدمر وسار إلى دمشق، فوصل إليه يوم الجمعة ثاني عشر صفر فعزل عنها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي، وولى مكانه الأمير عز الدين أيدمر المعزول عن نيابة الكرك.

انتصار بيبرس الساحق على جيش المغول في موقعة الفرات عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م: ثم خرج منها إلى حماه في ٦ صفر ثم عاد منها في ٢٦. وفيها أمر ملك التتار أبغا بن هولاكو عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج عسكره في عدة عشرة آلاف فارس وعليهم الأمير صمغرا والبرواناه، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفاً وخمس مئة من المغول؛ ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب. وكان مقدمهم أمال بن بيجو نوين، ووصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكيا، فاستأصلوهم، ثم تقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم.

وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومقدمها الأمير بيسري فوصلوا إلى السلطان في خامس شهر ربيع الآخر، وخرج بهم في السابع منه فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم. وكان الظاهر لما مر بحماه استصحب معه الملك المنصور صاحب حماه، ونزل الظاهر حلب يوم الإثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر من سنة ٦٧٠هـ وخيم بالميدان الأخضر، ثم جهز الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني في عسكر، وأمره أن يمضي إلى بلاده حلب الشمالية ولا يتعرض لبلاد صاحب سيس، وجهز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري في عسكر وأمره بالتوجه إلى حران. فأما الفارقاني، فإنه سار خلف التتار إلى مرعش فلم يجد منهم أحداً ثم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيماً بها. ثم عاد إلى دمشق في خامس المحرم من سنة ٦٧١هـ. وخرج الملك الظاهر من دمشق في المحرم عائداً إلى الديار المصرية فأقام بالقاهرة إلى ليلة الجمعة ثم توجه إلى دمشق فدخل قلعتها ليله الثلاثاء رابع صفر فأقام بدمشق إلى ٥ جمادى الأولى.

واتصل به أن فرقة من التتار قصدت الرحبة، فبرز إلى القصير فبلغه أنهم عادوا من الرحبة ونزلوا على البيرة، فسار إلى حمص وأخذ مراكب الصيادين على الجمال ليجوز عليها ثم سار حتى وصل إلى الباب من أعمال حلب، وبعث جماعة من الأجناد والعربان لكشف أخبارهم وسار إلى منبج فعادوا وأخبروا أن طائفة من التتار مقدار ثلاثة آلاف فارس على شط الفرات مما يلي الجزيرة، فرحل عن منبج يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ووصل إلى شط الفرات وتقدم إلى العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسري في أول الناس، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر فوقعوا على التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مئتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل وتبعهم بيسري إلى قريب سروج ثم عاد.

وكان على البيرة جماعة كثيرة من عسكر التتار، وكانوا قد أشرفوا على أخذها، فلما سمعوا بقدومه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم، ودخل السلطان إلى البيرة في أبهة عظيمة، وفرق في أهلها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى. وخرج منها نحو الديار المصرية، فخرج ولده الملك السعيد تلقيه في يوم الثلاثاء ٩ عشر جمادى الآخرة فاجتمع به بين القصير والصالحية في يوم الجمعة ثاني عشرينه فترجلا واعتنقا طولاً ثم ركبا وسارا جميعاً إلى القلعة بالقاهرة، وبين يديهم أسارى التتار ركاباً على الخيل. وكان يوماً مشهوداً.

[وخلّدت اللغة العربية هذا النصر] ومما قاله القاضي شهاب الدين أبو الثناء محمود الكاتب، في خوض السلطان الفرات بالجيش:

سر حيث شئت لك المهيمن جار	واحكم فطوع مرادك الأقدارُ
لم يبق للدين الذي أظهرته	يا ركنه عند الأعادي ثارُ
لما تراقصت الرؤوس وحركت	من مطربات قسيك الأوتارُ
خضت الفرات بسابح أقصى به	موج الصبا من فعله الآثار

حملتــك أمــواج الفــرات ومــن رأى   بحــراً ســواك تقلــه الأنهــار
وتقصعــت فرقــاً ولم يــك طودهــا   إذ ذاك إلا جيشــك الجــرّار
رشــت دمــاؤهم الصــعيد فلــم يطــر   مــنهم علــى الجــيش الســعيد غبــار
شــكرت مســاعيك المعاقــل والــورى   والــترب والآســاد والأطيــار
هــذي منعــت وهــؤلاء حميــتهم   وســقيت تلــك وعــمّ ذا الإيســار
فلأمــلأن الــدهر فيــك مــدائحاً   تبقــى بقيــت وتــذهب الأعصــار

وقال الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري –رحمه الله– وأجاد:

الملــك الظــاهر ســلطاننا   نفديــه بــالأموال والأهــل
اقــتحم المــاء ليطفــي بــه   حــرارة القلــب مــن المُغــل

وقال بعض من شاهد ذلك:

ولمــا تراءينــا الفــرات بخيلنــا   ســكرناه منــا بالقنــا والصــوارم
فأوقفــت التيــار عــن جريانــه   إلى حــين عــدنا بــالغنى والغنــائم

انتصار الظاهر بيبرس الساحق على تحالف سلاجقة الروم مع المغول، في موقعة أبلستين والاستيلاء على قيصريا عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م: جلس الملك الظاهر بدار العدل، في يوم الإثنين سابع المحرم سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م، وحكم بين الناس ونظر في أمور الرعية: فأنصف المظلوم وخلص الحقوق ومال على القوي. وفي العاشر منه هدمت غرفة على باب قصر من قصور الخلفاء الفاطميين بالقاهرة.

وفيها قبض على ملك الكرج: ذلك أنه كان قد خرج من بلاده قاصداً زيارة القدس الشريف متنكراً في زي ترهبان، ومعه جماعة يسيرة من خواصه، فسلك بلاد الروم إلى سيس فركب البحر إلى عكا ثم خرج منها إلى بيت المقدس. فاطلع الأمير بدر الدين الخازندار على أمره وهو على يافا، فبعث إليه من قبض عليه، فلما حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين منكورس إلى السلطان، وكان السلطان قد توجه إلى دمشق فوصل إلى دمشق في رابع عشر جمادى الأولى، فأقبل عليه السلطان وسأله حتى اعترف، فحبسه في برج من أبراج قلعة دمشق، وأمره أن يبعث من جهته إلى بلاده من يعرفهم بأسره فبعث نفرين.

ثم ورد الخبرُ على الملك الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البَرْوَاناه اجتمعوا على نهر جَيحان، فلمّا صَعد العسكرُ الجبل، أشرف على صحراء أبلُسْتَيْن فشاهد التّتار قد رَتّبوا عساكرَهم أحدَ عشرطُلْباً، في كل طُلْب ألف فارس وعزلوا عسكر الروم عنهم: خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرْج طُلْباً واحداً، فلمّا تَراءَى الجمْعَان، حملت مَيْسرة التتار حمْلةً واحدة، وصدموا سجق الملك الظاهر، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقّوا المَيْسَرة وساقوا إلى المَيْمَنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أرْدفهم بنفسه ثم لاحت منه التفاتةٌ فرأى المَيْسرة قد أتت عليها ميمنةُ التتار، فأمر الملك الظاهر جماعةً من أصحابه الشُجْعان بإردافها، ثم حَمل هو بنفسه –رحمه الله– فلما رأته العساكر، حملت نحوه بِرُمتها حملةَ رجل واحد، فترجل التّتار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت، فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئاً، وصبّر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يَكُر في القوم كالأسد الضاري، ويقتحم الأهوال بنفسه ويُشجع أصحابه ويُطيب لهم الموت في الجهاد، إلى أن أنزل اللهَ تعالى نصره عليه، وانكسر التتارُ أقبح كسْرة وقُتلوا وأسروا وفرّ منْ نجا منهم، فاعتصموا بالجبال، فقصدتْهم العساكرُ الإسلامية وأحاطوا بهم،

فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتل منهم جماعة كثيرة، وقُتل ممن قاتلهم من عساكر المسلمين الأميرُ ضياء الدين بن الخَطير وكان من الشُجعان الفُرسان، والأميرُ شرف الدين قيران العلائي، والأميرُ عز الدين أخو المحمديّ، وسيفُ الدين قفجاق الجاشَنكير والأميرُ أيْبك الشُقيفيّ -رحمهم الله تعالى وأسكنهم الجنة.

وأُسر من كبار الروميين مُهذّب الدين بن مُعين الدين البرْوانَاه، وابن بنت معين الدين المذكور، والأميرُ نور الدين جبريل بن جاجا والأميرُ قُطب الدين محمود أخو مجد الدين الأتابك، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأميرُ سيف الدين سُنْقُرجاه الزُوباشيّ، والأمير نصرة الدين بَهْمَن أخو تاج الدين كيوي يعني الصهر صاحب سيواس، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأمير حُسام الدين كاوك، والأميرُ سيف الدين بن الجاويش، والأميرُ شهاب الدين غازي بن علي شير التُرْكُماني، فوبّخهم السلطان الملك الظاهر لكونهم قاتلوه في مساعدة التتار الكَفَرة ثم سلمهم إلى من احتفظ بهم.

وأسر من مقدمي التّتار على الألوف والمئين بركة صهر أبْغا بن هولاكو ملك التتار، وسَرْطَق، وحيز كدوس، وسركده، وتماديه.

ولما أسر من أسر وقتل من قتل، نجا البرواناه وساق حتى دخل قيصريا يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة، واجتمع بالسلطان غياث الدين والصاحب فخر الدين والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفي والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، فأخبرهم بالكسرة وقال لهم: إن التتار المنهزمين متى دخلوا قيصريا فتكوا بمن فيها حنقاً على المسلمين، وأشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله وماله إلى توقات وبينها وبين قيصرية أربعة أيام.

ورصدت اللغة العربية وشعراء الإسلام النصر المبين في هذه الوقعة، فيما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي كاتب المرج في قصيدته:

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم	وإلا فلا تجفو الجفون الصوارمُ
عزائم حادتها الرياح، فأصبحت	مخلفة تبكي عليها الغمائم
سرت من حمى مصر إلى الروم ف	احتوت عليه وسوراه الظبا واللهاذم
بجيش تظل الأرض منه كأنها	على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
كتائب كالبحر الخضم جيادها	إذا ما تهادى موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفرٌ	له النصر والتأييد عبد وخادم
مليك يلوذ الدين من عزماته	بركن له الفتح المبين دعائم
مليك لأبكار الأقاليم نحوه	حنين كذا تهوى الكرام الكرائم
مليك به الدين في كل ساعة	بشائر للكفار منها مآتم
جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى	ثغوراً بكى الشيطان وهي بواسم
إذا رام شيئاً لم يعقه لبعدها	وشقتها عنه الإكام الطواسم
فلو نازع النسرين أمراً لناله	وذا واقع عجزاً وذا بعد حائم
ولما رمى الروم المنيع بخيله	ومن دونه سد من الصخر عاصم
يروم عقاب الجو قطع عقابه	إليه، فلا تقوى عليها القوادم

وســـالت علـيهم أرضــهم بمواكــب لهــا النصــر طــوع والزمــان مســالم
أدارت بهــم ســوراً منيعــاً مشــرفاً بسـمر العـوالي، مـا لـه الـدهر هـادم
مــن الــترك أمــا في المغــاني، فــإنهم شمــوس، وأمــا في الــوغى فضــراغم
غــدا ظــاهراً بالظــاهر النصــر فــيهم تبيــد الليــالي والعــدا وهــو دائــم
فــ'هووا إلى لــثم الأســنة في الــوغى كــأنهم العشــاق وهــي المباســم
فــلا زلــت منصــور اللــواء مؤيــداً على الكفـر مـا ناحـت وأبكـت حمـائم

ثم جرد الملك الظاهر الأمير سنقر الأشقر لإدراك ما فات من الترك والتوجه إلى قيصريا، وكتب معه كتاباً بتأمين أهلها وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية.

ثم رحل الملك الظاهر بكرة السبت حادي عشر ذي القعدة قاصداً قيصريا، فمر في طريقه بقرية أهل الكهف ثم إلى قلعة سمندو فنزل إليه واليها مذعناً للطاعة ثم سار إلى قلعة درندا وقلعة فالو، ففعل متوليها كذلك ثم نزل بقرية من قرى قيصريا فبات بها فلما أصبح رتب عساكره. وخرج أهل قيصريا بأجمعهم مستبشرين بلقائه، وكانوا لنزوله نصبوا الخيام بوطاة، فلما قرب الظاهر منها ترجل وجوه الناس على طبقاتهم ومشوا بين يديه إلى أن وصل إليها.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر الشهر، ركب السلطان للجمعة فدخل قيصريا ونزل دار السلطنة وجلس على التخت وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء وجلسوا في مراتبهم على عادة ملوك السلجوقية، فأقبل عليهم السلطان ومد لهم سماطاً فأكلوا وانصرفوا، ثم حضر الجمعة بالجامع وخطب له وحضر بين يديه الدراهم التي ضربت له باسمه.

وكتب إليه البرواناه يهنئه بالجلوس على تخت الملك بقيصريا، فكتب الملك الظاهر إليه بعوده ليوليه مكانه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً وكاد مراد البرواناه يصل أبغا ويحثه على المسير ليدرك الملك الظاهر بالبلاد فاجتمع تاوون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وعرفه مكر البرواناه في ذلك، فكان ذلك سبباً لرحيل الملك الظاهر عن قيصريا مع ما انضاف إلى ذلك من قلق العساكر، فرحل يوم الإثنين، وكان على اليزك عز الدين أيبك الشيخي، وكان الملك الظاهر ضربه بسبب سبقه الناس فغضب وهرب إلى التتار.

وكان أولاد قرمان قد رهنوا أخاهم الصغير علي بك بقيصريا، فأخرجه الملك الظاهر وأنعم عليه وسأل السلطان في تواقيع وسناجق له ولإخوته فأعطاه وتوجه نحو إخوته بجبل لارندا.

وعاد اسلطان وأخذ في عوده أيضاً عدة بلاد إلى أن وصل مكان المعركة يوم السبت، فرأى القتلى فسأل عن عدتهم فأخبر أن المغول خاصة ستة آلاف وسبع مئة وسبعون نفساً، ثم رحل حتى وصل أقجادربند وبعث الخزائن والدهليز والسناجق بصحبة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ليعبر بها الدربند، وأقام السلطان في ساقة العسكر بقية اليوم ويوم الأحد ورحل يوم الإثنين فدخل الدربند.

ليذكر ابن دقماق في "الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين" تحت أحداث عام ٦٧٥هـ، انتقام التتار الجبان لهزيمتهم النكراء في أبلستين: إذ أمر قائدهم أبغا بمجزرة أهالي قيساريا العزّل انتقاماً: (وفيها سافر السلطان إلى دمشق ثم إلى حلب ثم قطع الدربند، وكان على جاليشه سنقر الأشقر، فلقي ثلاثة آلاف من التتار فكسرهم، ثم طلعوا إلى الجبل، فأشرفوا على صحراء أبلستين فعاينوا التتار قد تعبّوا أحد عشر كردوساً، كل كردوس ألف، وانعزلوا عن عسكر الروم خوفاً من مخامرتهم. فالتقى الجمعان، فترجّل التتار ورموا النشاب وقاتلوا أشد قتال.

فقتل منهم النصف وانهزم الباقون وتبعهم المسلمون، وأرسل السلطان إلى قيساريا أماناً لأهلها، ثم دخل قيساريا، وكان يوماً مشهوداً، ونزل بدار السلطنة وصلى بها الجمعة، فبلغ الملك الظاهر حركة التتار، فخرج منه ورجع، وأسرع أبغا إلى صحراء أبلستين فرأى القتلى، فغضب ورجع إلى قيساريا فقتل من أعيانها جماعة، ثم أمر التتار بالقتل والنهب، فقتلوا من الرعية خلقاً كثيراً فوق مئة الألف)).

ثم سار إلى أن وصل إلى دمشق، في سابع المحرم سنة ست وسبعين وست مئة، ونزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، وتواترت عليه الأخبار بوصول أبغا ملك التتار إلى مكان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء وضرب مشورة فوقع الاتفاق على الخروج من دمشق بالعساكر وتلقيه حيث كان، فأمر الملك الظاهر بضرب الدهليز على القصير، وفي أثناء ذلك وصل رجل من التركمان وأخبر أن أبغا عاد إلى بلاده هارباً خائفاً ثم وصل الأمير سابق الدين بيسري أمير مجلس الملك الناصر صلاح الدين وهو غير بيسري الكبير وأخبر بمثل ما أخبر التركماني، فعند ذلك أمر الملك الظاهر برد الدهليز إلى الشام.

وكان عود أبغا من ألطاف الله تعالى بالمسلمين، فإن الملك الظاهر في يوم الجمعة نصف المحرم من سنة ست وسبعين ابتدأ به مرض الموت.

وفاة الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله): لما كان يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ٦٧٦هـ، جلس الملك الظاهر بالجوسق الأبلق بميدان دمشق يشرب الخمر، وبات على هذه الحالة، فلما كان يوم الجمعة خامس عشره وجد في نفسه فتوراً وتوعكاً فشكا ذلك إلى الأمير شمس الدين سنقر الألفي السلحدار، فأشار عليه بالقيء فاستدعاه فاستعصى عليه القيء، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب من الجوسق إلى الميدان على عادته والألم مع ذلك يقوى عليه وعند الغروب عاد إلى الجوسق.

فلما أصبح اشتكى حرارة في بطنه، فصنع له بعض خواصه دواء ولم يكن عن رأي طبيب فلم ينجع وتضاعف ألمه، فأحضر الأطباء فأنكروا استعماله الدواء وأجمعوا على استعمال دواء مسهل، فسقوه فلم ينجع، فحركوه بدواء آخر كان سبب الإفراط في الإسهال ودفع دماً، فتضاعفت حماه وضعفت قواه، فتخيل خواصه أن كبده يتقطع وأن ذلك عن سم سقيه فعولج بالجوهر، وأخذ أمره في انحطاط وجهده المرض وتزايد به إلى أن قضى نحبه يوم الخميس بعد صلاة الظهر ٢٧ المحرم، فاتفق رأي الأمراء على إخفائه وحمله إلى القلعة: لئلا تشعر العامة بوفاته ومنعوا من هو داخل من المماليك من الخروج ومن هو خارج منهم من الدخول.

فلما كان آخر الليل حمله من كبار الأمراء سيف الدين قلاوون الألفي وشمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري وبدر الدين بيليك الخازندار وعز الدين آقوش الأفرم وعز الدين أيبك الحموي وشمس الدين سنقر الألفي الظاهري وعلم الدين سنجر الحموي أبو خرص وجماعة من أكابر خواصه.

وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه مهتاره الشجاع عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين الأفرم ثم جعل في تابوت، وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق إلى أن حصل الاتفاق على موضع دفنه. وكانت مدة ملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً.

وأما صدقاته، فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح في الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا.

وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم.

ووقف وقفاً على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر.

ووقفاً ليشترى به خبز ويفرق في فقراء المسلمين.

وأصلح قبر خالد بن الوليد ﷺ بحمص.

ووقف وقفاً راتباً على من هو فيه من إمام ومؤذن وغير ذلك.

ووقف على قبر أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

ووقفاً مثل ذلك، وأجرى على أهل الحرمين والحجاز وأهل بدر وغيرهم ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك.

وأما عمائره: من المدارس والجوامع والأسبلة والأربطة، فكثيرة وغالبها معروفة به وكان يخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حبسه القاضي من المقلين. وكان يرتب في أول شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة وتفرق على الفقراء والمساكين.

وأما حرمته ومهابته، فمنها: أن جماعة من التجار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلما مروا بسيس منعهم صاحبها من العبور، وكتب إلى أبغا ملك التتار فأمره أبغا بالحوطة عليهم وإرسالهم إليه، وبلغ الملك الظاهر خبرهم فكتب إلى نائب حلب بأن يكتب إلى نائب سيس: إن هو تعرض لهم بشيء يساوي درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً. فكتب إليه نائب حلب بذلك فأطلقهم وصانع أبغا بن هولاكو على ذلك بأموال جليلة حتى لا يخالف مرسوم الظاهر وهو تحت حكم غيره لا تحت حكم الظاهر.

ومنها: أن تواقيعه التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القبجاق بإعفائهم من الصادر والوارد، كان يعمل بها، حيث حلوا من مملكة بركة خان ومنكوتمر وبلاد فارس وكرمان.

وكان الملك الظاهر يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يخفَ عليه من أحوالهم شيء. وكان يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم. وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وكانت ترد عليه الأخبار وهو بالقاهرة بحركة العدو، فيأمر العسكر بالخروج وهم زيادة على ثلاثين ألف فارس فلا يبيت منهم فارس في بيته، وإذا خرج من القاهرة لا يمكن من العود إليها ثانياً.

ومن حزمه ومهابته أنه في بداية حكمه في عام ٦٦٣هـ، كثر الحريق بمصر والقاهرة، فقالوا للسلطان: هذا الحريق من النصارى، فأمر السلطان بجمع النصارى من مدينتي مصر (الفسطاط) والقاهرة، فلما اجتمعوا أمر بحريقهم، فجمعت الأحطاب والحلفاء، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العسكر، على أن يلتزموا الأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار. (الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق)

والذي افتتحه من أيدي الفرنج — خذلهم الله — قيساريا وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف وأنطاكيا وبغراس والقصير وحصن الأكراد وعكار والقرين وصافيثا ومرقيا. وناصفهم على المرقب وبانياس وبلاد أنطرطوس وعلى سائر ما بقي في أيديهم من البلاد والحصون وغيرها. واستعاد من صاحب سيس دربساك ردركوش ورعبان والمرزبان وبلاداً أخر.

والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة ودلويا وتل بشر، وهذه البلاد انتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حمص في سنة اثنتين وستين وست مئة. وصهيون وبلاطنس وبرزيه وهذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد وعمه عز الدين، وحصون الإسماعيلية وهي: الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابي والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك.

وما انتقل إليه عن التتار: بلاد حلب الشمالية بأسرها وشيزر والبيرة. وأما ما افتتحه من البلاد وصار إليه من أيدي المسلمين فعدة بلاد وقلاع. وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وفيها من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق ويلي هذه البلاد بلاد العلا وجزيرة ميكائيل وفيها بلاد وجزائر الجنادل وهي أيضاً بلاد، ولما فتحها أنعم بها على ابن عم المأخوذة منه ثم ناصفه عليها ووضع عليه عبيداً وجواري وهجناً وبقراً وعن كل بالغ من رعيته ديناراً في كل سنة. وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات.

مبانيه: وأما مبانيه فكثيرة: منها ما هدمه التتار من المعاقل والحصون. وجدد جامع الأنور – أعني جامع الظافر العبيدي – المعروف الآن بجامع الفاكهيين والجامع الأزهر، وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم. وأنشأ قريباً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً وعمر بالمقياس قبة رفيعة مزخرفة، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين ببرقة وقلعة السويس.

وعمَّر جسراً بالقليوبيا والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بمنية السيرج وقنطرتين عند القصير على بحر إبراش بسبعة أبواب، مثل قنطرة بحر أبي المنجا، وأنشأ في الجسر الذي يسلك فيه إلى دمياط ست عشرة قنطرة، وبنى على خليج الإسكندرية قريباً من قنطرتها قنطرة عظيمة بعقد واحد، وحفر خليج الإسكندرية وكان قد ارتدم بالطين. وحفر بحر أشموم وكان قد عمي. وحفر ترعة الصلاح وخورسخا وحفر المحامدي و لكافوري، وحفر في ترعة أبي الفضل ألف قصبة وحفر بحر الصمصام بالقليوبيا وحفر بحر سردوس.

وتمم عمارة حرم رسول الله ﷺ وعمل منبره وجعل بالضريح النبوي درابزيناً، وذهّب سقوفه وجددها وبيض حيطانه وجدد البيمارستان بالمدينة النبوية، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية.

وجدد في الخليل عليه السلام قبته، ورم شعثه وأصلح أبوابه وميضأته وبيضه وزاد في راتبه. وجدد بالقدس الشريف ما كان قد تهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، وأنشأ بها خاناً للسبيل نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرناً وبستاناً.

ووسع عمارة مشهد جعفر الطيار ﷺ ووقف عليه وقفاً زيادة على وقفه على الزائرين له والوافدين عليه. وعمر جسراً بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، ووقف عليه وقفاً برسم ما عساه يتهدم منه. وأنشأ جسوراً كثيرة بالغور والساحل.

وأنشأ قلعة قاقون وبنى بها جامعاً، ووقف عليه وقفاً وبنى على طريقها حوضاً للسبيل. وجدد جامع مدينة الرملة، وأصلح جامعاً لبني أمية ووقف عليه وقفاً. وعدة جوامع ومساجد بالساحل.

وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية والنظر في أمورهم، وإنصاف الضعيف من المستضعف والذب عنهم من العدو المخذول. رحمه الله وعفا عنه.

يقول الذهبي في ترجمته في "تاريخ الإسلام":

(السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام. ولد في حدود ٦٢٠هـ، قبلها بقليل أو بعدها. وأصله من صحراء القفجاق فأبيع بدمشق ونشأ بها، فيقال: كان مملوكاً للعماد الصائغ الذي كان يسكن عند المنكلانية.. ثم اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فطلع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي أن يكون إلا عند ملك. فأخذه الملك الصالح إليه وصار من جملة

البحرية. وشهد وقعة المنصورة بدمياط، وصار أميراً في الدولة المعزية، وتقلبت به الأمور... واشتهر بالشجاعة والإقدام، وبعد صيته. ولما سارت الجيوش المنصورة من مصر لحرب التتار، كان هو طليعة الإسلام. وجلس على سرير الملك بعد قتل المظفر، وذلك في ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٨هـ بقلعة الجبل. وكان أستاذه البندقدار من بعض أمرائه. وكان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليقاً للملك، لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له ويسامحه، فإن له أياماً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة. وله سيرتان كبيرتان لابن عبد الظاهر ولابن شداد رحمهما الله، لم أقف عليهما بعد.

وقد دخل الرومَ، قبل موته بشهرين، وكسرَ التتارَ، ودخل مدينة قيصريا، وجلس بها في دست الملك، وصلى بها الجمعة، وخطبوا له، وضربت السكة باسمه. وذلك في ذي القعدة، ثم رجع وقطع الدربند، وعبر النهر الأزرق، ودخل دمشق في سابع المحرم مؤيداً منصوراً، فنزل بالقلعة، ثم انتقل إلى قصره الأبلق، فمرض في نصف المحرم، وانتقل إلى عفو الله وسعة رحمته يوم الخميس بعد الظهر ٢٨ من المحرم بالقصر، وحمل إلى القلعة ليلاً مع أكابر أمرائه، وغسله وصبره المهتار شجاع الدين عنبر، والكمال علي بن المنيحي الإسكندراني المؤذن، والأمير عز الدين الأفرم. ووضع في تابوت، وعلق في بيت بالقلعة، وهو في أول عشر الستين. وخلف عشرة أولاد: الملك السعيد محمد، وسلامش، وخضر، وسبع بنات. قال ذلك الشيخ قطب الدين، وقال: كان له عشرة آلاف مملوك كان يشتريهم ويعلمهم الإسلام ويدربهم على الانضباط والعسكرية، ويعتقهم ليكونوا من فرسانه ومن أبطال الإسلام).

وحكى الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي، قال: كان الأمير علاء الدين البندقدار الصالحي، لما قبض وأحضر إلى حماه واعتقل بجامع قلعتها، اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر، وكان الملك المنصور إذ ذاك صبياً، فأراد شراء رقيق تبصره الصاحبة والدته. فأحضر بيبرس هذا وخشداشه، فرأتهما من وراء الستر، فأمرت بشراء خشداشه، وقالت: هذا الأسمر لا يكن بينك وبينه معاملة، فإن في عينيه شراً لائحاً. فردهما جميعاً، فطلب البندقدار الغلامين. فاشتراهما وهو معتقل، ثم أفرج عنه، وسار بهما إلى مصر، وآل أمر ركن الدين إلى ما آل. وقد سار غير مرة في البريد حال سلطنته. وعمل في حصارات المدائن التي أخذها من الفرنج في بذل نفسه وفرط إقدامه على المخاوف ما يقضي منه العجب، فبه يُضرب المثل، وإليه المُنتهى في سياسة الملك وتفقد أحوال جنده. فهو كما قيل: لولا نقص عدله، لكان أحوذياً نسيج وحده. وقد أعد للأمور أقرانها، أقامه الله وقت ظهور هولاكو وأبغا فهاباه، وانجمعا عن البلاد). انتهى

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبد الله الصالحي الألفي (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م)

من سلاطين المماليك البحرية العظام، واسمه قلاوون الألفي؛ لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراه بألف دينار لبراعته القتالية الفريدة، ثم تولى تربيته وتدريبه فكان من أكابر الأمراء عنده وبعده. أبلى بلاءً حسناً في معركة المنصورة في الحملة الصليبية السابعة، وكان مقدم الجيوش والبطل المغوار المجاهد عند السلطان الظاهر بيبرس.

ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بيبرس بابنته غازية خاتون، عظم شأنه جداً عند الظاهر، وما زال يترفع في الدولة حتى صار أتابك ولده من بعده. وفي عام ٦٧٨هـ اتفق وقوع الخلاف بين الممالك كلها، فاختلف التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلف الفرنج في السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضاً، وكذلك وقع الخلاف بين الأمراء الظاهرية؛ لأنّ السلطان الملك السعيد بن الظاهر بيبرس لما بعث الجيش إلى سيس (عاصمة أرمينية) أقام بعده بدمشق، وأخذ في اللهو واللعب والانبساط مع خاصته، الذين تمكنوا من الأمور، وأبعد عنه الأمراء الكبار، الذين قالوا: (الملك لا ينبغي له أن يلعب ويلهو، إنما همّة الملوك في العدل، ومصالح المسلمين،

والذبّ عن حوزتهم، كما كان أبوه). وصدقوا فيما قالوا، فإن لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم، وخراب الملك، وفساد الرعية؛ فحدث خلاف داخلي سرعان ما انتهى باتفاق الجميع مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي على أن يترك الملك السعيد المُلك ويخلع نفسه (دام حكمه سنتين)، ويعوّض بإمارة الكرك والشوبك، ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر؛ وتكون المملكة لأخيه الصغير بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس (عمره يومئذ ٧ سنين)، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه (أي: المشرف عليه).

ثم بعد أشهر قلائل، وأمام التحديات الكبيرة في الأمة الإسلامية، اتفق المماليك والقضاة والأعيان على خلع سلامش ابن الظاهر، وأخرجوه من البين، واتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقبوه الملك المنصور (انظر "البداية والنهاية" لابن كثير ١٣ ج/ص٣٣٧). واستقل قلاوون بالمُلك عام ٦٧٨هـ حتى توفي عام ٦٨٩هـ وكانت مدة حكمه ١١ سنة.

جاهد هذا السلطان على افتداء الأسرى الأتراك لدى المغول، حيث يجري تحريرهم من عبودية الأسر ودفع الفدية المطلوبة عنهم من أموال السلاطين، أو الأمراء الخاصة، أو من أموال خزينة الدولة؛ لتجنيدهم بصفة تلاميذ عسكريين يتلقون التربية والتعليم الكافيين أولاً، ثم يتلقون التدريبات العسكرية المختلفة بأجود المقاييس؛ ليتخرجوا فرساناً أكفّاء قادرين على خوض الحروب وكسب المعارك وإحراز الانتصارات.

ومن اهم اعماله: قيادته الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام: لمحاربة المغول في ملحمة حمص الثانية، حيث استطاع هزيمتهم وجرح/قتل قائدهم منكوتمر، ثم قاد جيشه وفتح حصن المرقب المنيع عام ٦٨٢هـ. وقام بإنشاء دار صناعة (ترسانة) جديدة في الإسكندرية، وطوّر صناعة المجانيق الجبارة؛ لفتح الحصون المستعصية ثم سار إلى دويلة طرابلس الشام الصليبية واستطاع تحريرها عام ٦٨٨هـ من أيدي الصليبيين الذين احتلوها مدة ١٨٥ عاما (من ٥٠٣ حتى ٦٨٨هـ)، ومن ثم عزم على فتح عكا، وبرز إليها، فعاجلته المنية في ٢٦ ذي القعدة، عام ٦٨٩هـ وأكمل المشوار ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون. والجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي لم يستطع فتح حصن المرقب، ولا فتح دويلة طرابلس.

ملحمة الإسلام بقيادة سيف الدين قلاوون والانتصار على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م.

وثّق ابن تغري بردي تفاصيل هذه الوقعة الفاصلة الرهيبة في تاريخ الإسلام، في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(وكان سبب حركة التتار أنهم لما سمعوا اختلاف الكلمة، وظنوا أن سنقر الأشقر بمن معه يتفق معهم على قتال الملك المنصور قلاوون لاختلف سنقر الأشقر مع قلاوون على طريقة وصوله إلى الحكم، ثم اصطلحا، لكن حاول المغول استغلال الموقف وبث الفرقة بينهما، ففشلوا!

فأرسل أمراء العساكر المصرية إلى سنقر الأشقر يقولون له: (هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلاف بيننا، وما ينبغي هلاك الإسلام، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه)، فامتثل سنقر ذلك، وأنزل عسكره من صهيون وأمر رفيقه الحاج أزدمر أن يفعل كذلك من شيزر، وخيّمت كل طائفة تحت قلعتها ولم يجتمعوا بالمصريين، غير أنهم اتفقوا على اجتماع الكلمة ودفع العدو المخذول عن الشام...

وبينما السلطان في ذلك وردَ عليه مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق، فتهيأ لقتالهم وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق، واجتمعت العساكر عند السلطان ولم يتأخر أحدٌ من التركمان والعُربان وسائر الطوائف.

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف بلاد حلب، فخلت حلب من أهلها وجُندها ونزحوا إلى جهة حَمَاة وحمص، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة وخرجوا جرائد على وجوههم، ثم ورد الخبر بوصول منكوتمر بن هولاكو ملك التتار إلى عين تاب وما جاورها في يوم الأحد ٢٦ جُمادى الآخرة [وكان فيهم ملك التتار إيغا مختفياً ينظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه]. فخرج الملك المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور [وقنت الخطباء والأئمة في الجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها]، وخيّم بالمرج، ووصل التتار إلى بغراس، فقدم الملك المنصور عسكره أمامه، ثم سافر هو بنفسه في سلخ جمادى الآخرة المذكور وسار حتى نزل السلطان بعساكره على حمص في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب، وراسل سنقر الأشقر بالحضور إليه بمن معه من الأمراء والعساكر، وكذلك الأمير أيتمش السعدي الذي كان هرب من عند السلطان لما قبض على الأمراء الظاهرية، فامتثل سنقر الأشقر أمر السلطان بالسمع والطاعة وركب من وقته بجماعته وحضر إلى عند الملك المنصور قلاوون واستحلفه لأيتمش السعدي يميناً ثانية؛ ليزداد طمأنينة، ثم أحضره وتكامل حضورهم عند السلطان. وعمل السلطان سنقر الأشقر بالاحترام التام والخدمة البالغة والإقامات العظيمة والرواتب الجليلة.

شرعت التتار تتقدم قليلاً قليلاً بخلاف عادتهم، فلما وصلوا حماه أفسدوا بنواحيها وشعثوا وأحرقوا بستان الملك المنصور صاحب حماه وجوسقه وما به من الأبنية. واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه يومَ الخميس رابع عشر شعبان، فركب الملك المنصور بعساكره وصافف العدو والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ما قيل مئة ألف فارس أو يزيدون، وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهما.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وكانت وقعة عظيمة لم يشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد ﷺ إلى الرستن والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها وانهزم من كان بها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر وثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله تعالى في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحدق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل: سنقر الأشقر المقدم ذكره، وبدر الدين بيسري، وعلم الدين سنجر الدواداري، وعلاء الدين طيبرس الوزيري، وبدر الدين بيليك أمير سلاح، وسيف الدين أيتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسام الدين طرنطاي وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة وجرح منكوتمر مقدم التتار، وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عربه عرضاً، فتمت هزيمتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف. واتفق أن ميسرة المسلمين كانت انكسرت كما ذكرنا والميمنة ساقت على العدو، ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير والأمير حسام الدين طرنطاي قدامه بالسناجق، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به وهو في ذلك النفر تحت السناجق — يعني الملك المنصور قلاوون — والكوسات تضرب.

قال: ولقد مررت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا دون ذلك فلما مروا به — يعني ميمنة

التتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين للإجهاز على القلب وقتل السلطان) – ثبت لهم ثباتاً عظيماً. ثم ساق عليهم بنفسه، فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء وكان ذلك تمام النصر. كان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب وافترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سلمية والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات.

ولما انقضت الحرب في ذلك النهار عاد السلطان إلى منزلته وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب، جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان ومقدمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، وكان لما لاحت الكسرة على المسلمين نهب لهم من الأقمشة والأمتعة والخزائن والسلاح ما لا يحصى كثرة، وذهب ذلك كله أخذته الحرافشة من المسلمين مثل الغلمان وغيرهم.



انتصار المسلمين بقيادة قلاوون (إلى اليمين)

وهزيمة المغول وهروبهم (إلى اليسار) في معركة حمص في ٢٩ تشرين الأول ١٢٨١م

وكتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعملت القلاع وزينت المدن. وأما أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين ووصل إليهم جماعة ممن كان انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم. وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحارى والجوامع والمساجد وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك، حتى ورد عليهم هذا النصر العظيم ولله الحمد وطابت قلوب الناس وردّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

وقتل في هذه الوقعة من التتار ما لا يحصى كثرةً، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دون المئتين على ما قيل. وممن قُتل: الأمير الحاج أزدمر وسيف الدين بلبان الرومي وشهاب الدين توتل الشهرزوري وعز الدين بن النصرة من بيت الأتابك صاحب الموصل وكان أحد الشجعان المفرطين في الشجاعة رحمهم الله تعالى أجمعين.

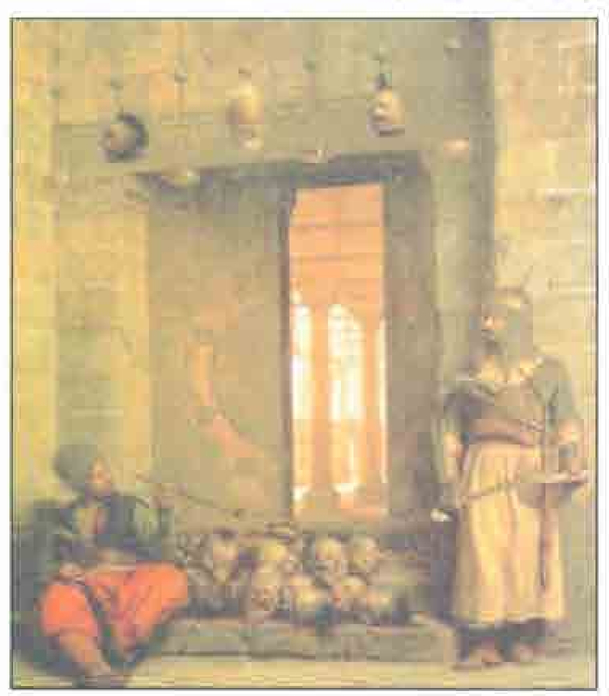
ثم إن السلطان انتقل من منزلته بظاهر حمص إلى البحيرة التي بحمص: ليبعد عن الجيف، ثم توجه عائداً إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان قبل الصلاة، وخرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى التتار وبأيديهم رماح عليها رؤوس القتلى منهم، فكان يوماً مشهوداً.

ودخل السلطان الشام وفي خدمته جماعة من الأعيان منهم:

سنقر الأشقر الذي كان تسلطن وتلقب بالملك الكامل، وأيتمش السعدي، والأمير علم الدين سنجر الدواداري، وبلبان الهاروني، ثم قدم بعد ذلك الأمير بدر الدين الأيدمري بمن معه من العسكر عائداً من تتبع التتار

بعد ما أنكى فيهم نكاية عظيمة، ووصل إلى حلب وأقام بها وسيّر أكثر من معه يتبعونهم. فهلك من التتار خلق كثير غرقوا بالفرات عند عبورهم. وعندما عدوه نزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جمعاً كثيراً وتفرق جمع التتار وأخذت أموالهم. وانهزموا في أسوأ حال وأتعسه يتخطفون من كل جانب، ويقتلون من كل فج، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين والجيوش في آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله تعالى منهم الناس.

وقد استشهد في هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أزدمر جمدار، وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر، فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفز إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله تعالى، ودفن بالقرب من مشهد خالد.



أباد المماليك المسلمون في عين جالوت، وحمص الأولى، والفرات، وأبلستين، وحمص الثانية، وشقحب، جيوش المغول الغازية التي أشيع أنها لا تقهر. وقام أبطال المماليك بإذكاء روح الجهاد وعسكرة العالم الإسلامي. وقاموا بنصب رؤوس المغول المقطوعة على أبواب المساجد لرفع همم المسلمين.

وأقام السلطان بدمشق إلى ثاني شهر رمضان خرج منه عائداً إلى الديار المصرية، وخرج الناس لوداعه مبتهلين بالدعاء له، وسار حتى دخل الديار المصرية يوم ثاني عشرين الشهر بعد أن احتفل أهل مصر لملاقاته وزُينت الديار المصرية زينة لم يُر مثلها من مدة سنين، وعملت بها القلاع، وشقّ القاهرة في مروره إلى قلعة الجبل حتى طلع إليها، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة وتضاعف سرور الناس بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخذول) . انتهى

وقد جاء إبغا ملك التتار نفسه، فنزل قريباً من الفرات؛ ليرى ماذا يكون من الأمر، فلما جرى عليهم ما جرى ساءه ذلك ومات غماً وحزناً. ولم يكن بعد هولاكو في التدبير والحزم مثله، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك، فلم يخالفه. توفي بين العيدين من هذه السنة، وقام بالمُلك بعده ولده

السلطان أحمد المسلم، وسُرَّ السلطان قلاوون بخبر إسلام أحمد بن هولاكو. وأرسل ملك التتار أحمد المسلم في ٦٨١هـ إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم. وجاء في الرسلية الشيخ قطب الدين الشيرازي أحد تلامذة النصير الطوسي، فأجاب المنصور إلى ذلك، وكتب المكاتبات إلى ملك التتار بذلك.

لكن في ٦٨٣هـ اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه، وملّكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا، ونادوا بذلك في جيشهم، وتأطدت أحوالهم، ومشت أمورهم على ذلك وبادت دولة السلطان أحمد، وقامت دولة أرغون بن أبغا ملك التتار، وكان سفاكاً للدماء: قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو، فعظم في أعين المغول. مات عام ٦٩٠هـ من شراب شربه فيه سم، فاتهمت المغول اليهود به –وكان وزيره سعد الدولة ابن الصفي يهودياً– فقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً، ونهبوا منهم أموالاً عظيمة جداً في جميع مدائن العراق. ثم اختلفوا فيمن يقيمونه بعده، فمالت طائفة إلى كيختو فأجلسوه على سرير المملكة فبقي مدة، قيل سنة وقيل أقل من ذلك، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا.

وجاء الخير بوفاة أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرح بذلك كثيراً، وكانت مدة ملك أرغون ٨ سنين، وقد وصفه بعض مؤرخي العراق بالعدل والسياسة الجيدة.

فتح حصن المرقب المنيع ومدينة مرقية عام ٦٨٣هـ:

وكان في نفس السلطان من أهل المرقب: لما فعلوا مع عسكره ما فعلوا في السنين الماضية، فنازل السلطان حصن المرقب في يوم الأربعاء ١٠ صفر، وشرع العسكر في عمل الستائر والمجانيق. فلما انتهت الستائر التي للمجانيق حملتها المقاتلة لباب الحصن، فسقطت الستارة إلى بركة كبيرة كان عليها جماعة من أصحاب الأمير علم الدين سنجر الدويداري منهم: شمس الدين سنقر أستاداره وعدة من مماليكه فاستشهدوا جميعهم رحمهم الله تعالى.

ثم حضر رسل الفرنج في يوم الأحد ١٤ من الشهر من عند ملكهم الإسبتار، وسألوا السلطان الصلح والأمان لأهل المرقب على نفوسهم وأموالهم ويسلّمون الحصن المذكور، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك.

وكمَل نصب المجانيق ورمى بها وشعث الحصن وهدم معظم أبراجه، واستمر الحال إلى ١٦ شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان على الحصن فأذعن من فيه بالتسليم، وحصلت المراسلة في معنى ذلك.

فلما كان يوم الجمعة ١٨ شهر ربيع الأول المذكور سُلّم، ورفعت عليه الأعلام الإسلامية، ونزل من به بالأمن على أرواحهم فركبوا وجهّز معهم من أوصلهم إلى أنطرطوس. وبالقرب من هذا الحصن مرقية، وهي بلدة صغيرة على البحر وكان صاحبها قد بنى في البحر برجاً عظيماً لا يرام ولا تصله النشاب ولا حجر المنجنيق وحصنه.

واتفق حضور رسل صاحب طرابلس إلى السلطان يطلب مراضيه، فاقترح عليه خراب هذا البرج وإحضار من كان فيه أسيراً من الجبيليين الذين كانوا مع صاحب جُبيل، فأحضر من بقي منهم أحياء واعتذر عن هدم البرج بأنه ليس له ولا هو تحت حكمه، فلم يقبل السلطان اعتذاره وصمّم على طلبه منه، فقيل: إنه اشتراه من صاحبه بعدة قرى وذهب كثير، ودفعه إلى السلطان فأمر بهدمه فهدم واستراح الناس منه. وحصل الاستيلاء في هذه الغزوة على المرقب وأعماله، ومرقية.

والمرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وهو كبير جداً، ولم يفتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح، فأبقاه السلطان الملك المنصور بعد أن أشير عليه بهدمه ورمم شعثه واستناب فيه بعض مرائه ورتب أحواله.

وكتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار، ولما كان السلطان الملك المنصور على حصار المرقب جاءته البشرى بولادة ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون، فمولد الملك الناصر محمد هذه السنة... وهو أعظم ملوك الترك بلا منافعة.

ولما فتح لسلطان الملك المنصور المرقب عملت الشعراء في ذلك عدة قصائد، فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود:

الله أكبر هذا النصر والظفر   هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت   إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر واملك الدنيا فقد تحلت   شوقاً منابرها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك   فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الأيام مملكة   كانت لدولتك الغراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن   إسعاده منجداك القمر والقدر
غر العدا منك حلم تحته همم   لأشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى   معنى العواصف لا تبقي ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى   ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه   وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت   منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى   أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
وليس يُروى بماء السحب مصعدة   إليه من فيه إلا وهو منحدر
واضرمت حوله نار لها لهب   من السيوف ومن نبل الوغى شرر
كأنها ومجانيق الفرنج لها   فرائس الأسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن ما يلقى فما   اكترثت يا قلبها أحديد أنت أم حجر
وللنقوب دبيب في مفاصله   تثير سقماً ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به   نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر
ركبت في جندك الأولى إليه ضحاً   والنصر يتلوك منه جندك الأخر
قد زال تجلى قواه عن قواعده   وخرّ أعلاه نحو الأرض يبتدر
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا   لديك من مضمرات النصر ما ستروا
إن لم يوف الورى بالشكر ما فتحت   يداك فالله والأملاك قد شكروا

ثم سار الملك المنصور قلاوون من المرقب إلى دمشق وأقام بها أياماً، ثم خرج منها عائداً إلى نحو الديار المصرية في بكرة الإثنين ثاني عشر جمادى الأولى، فدخل الديار المصرية في أوائل شهر رجب.

فتح دوية طرابلس الصليبية عام ٦٨٨هـ بعد ١٨٥عاماً، أطول احتلال صليبي: برغم التكوين النصراني لدويلة طرابلس الصليبية، إلا أنها صارت دويلة تابعة ذليلة للإمبراطورية المغولية منذ ١٢٦٠م، عندما خضع أميرها بوهيمند

السادس (تحت تأثير والد زوجته هيثوم الأول، ملك أرمينية) وسلم للاجتياح المغولي، ومنذ ذلك الحين وطرابلس تمثل قاعدة عسكرية للتقدم المغولي في الشام الإسلامي، مما أدى إلى زيادة النقمة الإسلامية منها.

لكن المغول لم يتمكنوا من الدفاع عن ولايتهم الذليلة هذه، وإيلخان المغول (أبغا خان) أرسل رسله إلى أوروبا لتكوين جبهة التحالف الفرنجي - المغولي ضد المسلمين، لكنه سرعان ما توفي غماً؛ بسبب انتصار جيوش الإسلام بقيادة البطل قلاوون على جيوش المغول بقيادة منكوتمر، فمات في ١٢٨٢م. ثم جاء بعده تيكودر بن هولاكو الذي أسلم وصار اسمه أحمد. رُفض تحت قيادة أحمد بن هولاكو المغولي التحالف مع الصليبيين، و الدفاع عن المقاطعات الصليبية ضد الزحف الإسلامي، مما خفف العبء على المماليك في تركيز جهادهم ضد مدن الساحلية التي كانت تحت السيطرة الصليبية. لكن تيكودر أو أحمد المسلم قتل، حيث اغتاله ابن أخيه: أرغون بن أبغا خان بن هولاكو عام ١٢٨٤م، واستحل العرش بدل عمه، وكان أرغون هذا متعاطفاً مع النصارى، واستمر على تواصل والده بأوروبا؛ لاحتمال تكوين تحالف مستقبلي، ولكنه لم يكن يتحمس للدفاع عن دولة طرابلس الصليبية. وقد استمر المماليك في أثناء ذلك بالجهاد وفتح المرقب في ١٢٨٥م، واللاذقية في ١٢٨٧م.

ولم يزل السلطان قلاوون ملتزماً بالهدنة مع دويلة طرابلس الصليبية، لكنهم هم الذين نقضوا العهد وأعطوه الحجة لحصارهم، ولم يسلك النصارى الطريق الحكيم، فدبّ الخلاف بينهم في معارك، من أشهرها ما حصل بين المملكتين التجاريتين: جنوه والبندقية. فقامت لوسيا أميرة طرابلس الصليبية بالتحالف مع الجنويين، مما أكسبها عدواة تجار البندقية. ويقال: إن تجار البندقية أرسلوا مبعوثهم إلى الإسكندرية لاستثارة المماليك بالتدخل ضد تجار جنوه الذين يريدون الهيمنة على تجارة المشرق، وتعويق أو تدمير تجارة المماليك إن هم سيطروا على طرابلس. وهذا الزعم - أن تجار البندقية هم الذين أثروا في قلاوون لتحريك جيشه شمالاً لحصار طرابلس - لا يتفق تماماً مع شخصية قلاوون الجهادية، ولا مع ما جاء في المصادر العربية كما سنرى.



كان لتجار البندقية دور كبير في تمويل الحملات الصليبية

تحرك السلطان قلاوون بجيش كبير مع العديد من المجانيق الكبيرة، وبدأ بحصار طرابلس في آذار/ مارس ١٢٨٩م. بالمقابل، أعطى كبار رجال الدين والنبلاء الأميرة لوسيا السلطة المطلقة. كان في ميناء طرابلس آنذاك ٤ سفن حربية من جنوه، مع سفينتين حربيتين من البندقية، مع العديد من المراكب الصغيرة، وجاءت الإمدادات العسكرية إلى طرابلس من فرسان المعبد الذين أرسلوا قوة بقيادة جيفري من فينداك، وأرسل فرسان الإسبتارية قوة بقيادة ماثيو من كليرمونت، وأرسل فوج فرنجي (فرنسي) من عكا بقيادة جون من غريلي، وأرسل هنري الثاني (ملك قبرص) أخاه الشاب أماليرك بصحبة الفرسان و٤ سفن حربية، وارتحل العديد من المدنيين غير المقاتلين من طرابلس إلى قبرص.

أطلق المماليك نيرانهم وقذائفهم عبر مجانيقهم الجبارة، وسرعان ما انهار لهم برجان من أبراج قلاع السور تحت وابل القذائف، وبدأ المدافعون يتهيؤون للهروب

السريع. عبر المماليك ثغرات الأسوار المهدمة، واستولوا على المدينة في ٢٦ نيسان/ أبريل، مُنهين بذلك الاحتلال الصليبي لمدينة طرابلس بعد أكثر من ١٨٠ سنة، وهي أطول مدة احتلال فرنجي لأي مدينة في المشرق الإسلامي. استطاعت الأميرة لوسيا الهرب إلى قبرص مع اثنين من مارشالات تنظيمات الفرسان، ومع أماليريك. وقُتل قائد فرسان الهيكل هناك بيتر من مونتكادا، مع بارثولوميو إمبرياكو. دخل المماليك وقتلوا سكان المدينة المقاتلين، وفرّ بعضهم في سفينة. أما الذين التجؤوا إلى الجزيرة المجاورة سانت – توماس فسرعان ما قبض عليهم المماليك في ٢٦ نيسان/أبريل، فأخذ النساء والأطفال سبايا أرقاء، وأما الـ ١٢٠٠ أسير فقد أُرسلوا إلى الإسكندرية؛ ليعملوا في دار الصناعة (الترسانة) الجديدة للسلطان. قارن بين معاملة الإسلام الإنسانية للنصارى، وبين معاملة النصارى الصليبيين الوحشية بقتل جميع المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً دون تمييز.

وفي التوثيق العربي يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ثم في سنة ثمان وثمانين وست مئة فتحت طرابلس، وهو أن صاحب طرابلس كان وقع بينه وبين (سير تلميه) الفرنجي وكان من أصحاب صاحب الحصن الذي أخربه صاحب طرابلس: رضاءً للملك المنصور قلاوون حسب ما تقدم ذكره.

فحصلت بينه وبين صاحب طرابلس وحشة بسبب ذلك، واتفق موت صاحب الحصن وسأل (سير تلميه) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخي السلحدار أن يساعده على تملّك طرابلس على أن تكون مناصفة، وبذل في ذلك بذولاً كثيرة فوعد إلى أن تم له مراده، ورأى أن الذي بذله للسلطان لا يوافقه الفرنج عليه فشرع في باب التسويف والمغالطة ومدافعة الأوقات، فلما علم السلطان باطن أمره عزم على قتاله قبل استحكام أمره، فتجهز وخرج من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس وسار حتى وصل دمشق وأقام بها، ثم تهيأ وخرج منها ونازل طرابلس في مستهل شهر ربيع الأول ونصب عليها المجانيق وضايقها مضايقة شديدة إلى أن ملكها بالسيف في الرابعة من نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، وشمل القتل والأسر سائرَ من كان بها وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، ونُهب من الأموال والذخائر والمتاجر وغير ذلك ما لا يوصف، ثم أحرقت وخُرّب سورها وكان من أعظم الأسوار وأمنعها.

ثم تسلم حصن أنفة، وكان أيضاً لصاحب طرابلس، فأمر السلطان بتخريبه. ثم تسلم السلطان البترون وجميع ما هنالك من الحصون.

وكان لطرابلس مدة طويلة بأيدي الفرنج من سنة ٥٠٣هـ إلى الآن. (احتلها الصليبيون ١٨٥ عاماً من ٥٠٣ حتى ٦٨٨هـ).

قلت: وكان فتح طرابلس الأول في زمن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وتنقلت في أيدي الملوك وعظمت في زمن بني عمار قضاة طرابلس وحكامها.

فلما كان في آخر المئة الخامسة ظهرت طوائف الفرنج في الشام واستولوا على البلاد، فامتنعت عليهم طرابلس مدة حتى ملكوها بعد أمور في سنة ثلاث وخمس مئة واستمرت في أيديهم إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون في هذه السنة.

وقال شرف الدين محمد بن موسى المقدسي الكاتب في السيرة المنصورية: إن طرابلس كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي، وكان فتحها على يد سفيان بن مجيب الأزدي، الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان ﷺ لحصارها في خلافة عثمان بن عفان ﷺ. انتهى كلام شرف الدين باختصار.

قلت: وأما طرابلس القديمة فقد كانت من احسن المدن وأطيبها، ثم بعد ذلك اتخذوا مكاناً على ميل من البلدة وبنوه مدينة صغيرة بلا سور فجاء مكاناً رديء الهوى والمزاج من الوخم. انتهى.

ولما فتحت طرابلس كتبت البشائر إلى الآفاق بهذا النصر العظيم، ودقت البشائر والتهاني، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع، وسُر الناس بهذا النصر غاية السرور. وأنشأ في هذا المعنى القاضي تاج الدين ابن الأثير كتاباً إلى صاحب اليمن بأمر الملك المنصور يعرفه بهذا الفتح العظيم، وبالبشارة به.



هجوم المماليك

وسقوط دويلة طرابلس الصليبية عام ١٢٨٩م

وأوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، أعز الله نصر المقام العالي السلطاني الملكي المظفري الشمسي).

ثم استطرد وحكى أمر الفتح وغيره إلى أن قال فأحسن فيما قال: (وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مُكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة. أموال تنهب وممالك تذهب، لا يبالون بما سُلبوا، وهم كما قيل: (من البحر البسيط)

إن قاتلوا قُتلوا أو طاردوا طُردوا ... أو حاربوا حُربوا أو غالبوا غُلبوا

إلى أن أوجد الله تعالى من نصر دينه وأذل الكفر وشياطينه). انتهى. قلت: والكتاب هذه خلاصته والذي أعجبني منه). انتهى

وجاءت العربية لتخلد هذا النصر المبين على هذه الدويلة الصليبية، وعمل الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد. فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الدرج يمدح الملك المنصور قلاوون ويذكر فتحه طرابلس، والقصيدة أولها:

علينا لمن أولاك نعمته الشكر ... لأنك للإسلام يا سيفه ذخر

ولله في إعلاء ملكك في الورى ... مراد وفي التأييد يوم الوغى سر

ألا هكذا يا وارث الملك فليكن ... جهاد العدا لا ما توالى به الدهر

نهضت إلى عليا طرابلس التي ... أقلّ عناها أن خندقها البحر

وفاة الملك المنصور قلاوون: خرج السلطان قلاوون مجاهداً لفتح عكا: أهم معقل صليبي (وتوفي بهذه النية - يرحمه الله). وجاء البريد يعمل مجانيق لحصار عكا، فركب القادة إلى أراضي بعلبك: لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها في دمشق، وهي تصلح لعمل المتجنيقات، وكلفوا الناس تكليفاً كبيراً، وأخذوا أخشابهم وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة. وبينما الناس في ذلك إذ ورد البريد، فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلاً وجلس بعده ولده

للملك الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في أبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل، والخلع على الأمراء والمقدمين. وعلى القضاة والأعيان. ودفن السلطان قلاوون في تربته بمدرسته الهائلة التي انشاها بين القصرين، التي ليس بديار مصر ولا بالشام مثلها، وفيها: دار حديث ومارستان، وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة. مات عن قريب من ٦٠ سنة، وكانت مدة ملكه ١١ سنة، رحمه الله تعالى.

الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٦٦–٦٩٣هـ / ١٢٦٧–١٢٩٣م): تحرير عكا وإنهاء الاحتلال الصليبي:

ومن السلاطين المشهورين السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الذي تولى الحكم بعد والده السلطان قلاوون عام ٦٩٠هـ–١٢٩٠م. واستمر في حمل راية الجهاد، فقاد جيشه في حملة عسكرية ضخمة على مدينة عكا عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس وآخر حصون الصليبين المستعصية، فنجح الأشرف خليل في دكها وطرد الصليبين منها برغم إمدادهم بالنجدة من القبارصة. وقد دبّ الرعب في نفوس الصليبين بعد هذا الفتح، فتركوا حصونهم وقلاعهم في كل من بيروت وصيدا وصور وغيرها، وعاد السلطان إلى القاهرة منتصراً مظفراً ومعه الآلاف من أسرى العدو الصليبيين. وفتح حصن الروم المنيع، ثم اتجه لقتال المغول في حلب ومنها إلى آسيا الصغرى، ثم اتجه إلى أرمينيا، وفتح بلاد أرض الروم، ورجع إلى القاهرة حيث تعرض للاغتيال عام ١٢٩٣م.

ومن الجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي لم يفتح مدينة صور، ولم يستطع استرداد عكا بعد أن انتزعها منه الملك ريشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة، بعد إعطاء الأمان، ولكن حين دخل عكا، غدر بأهلها وقتل ٣٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال.

فتح عكا الأسطوريّ عام ٦٩٠هـ ١٢٩١م، عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس الصليبية:

في عام ١٢٨٩ قضى السلطان قلاوون على دويلة طرابلس الصليبية، وحرر طرابلس من قبضة الصليبيين، ثم قرر في العام الآتي تحرير ثغر عكا، أي بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية، إلا أنه – ولفرحة سكانها الصليبيين – توفي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر قبل أن يبدأ بالمسير.

فلما تولى الأشرف خليل السلطنة قرر المسير إلى عكا: لفتحها وإنهاء الاحتلال الصليبي لها، فأرسل إلى "وليام أوف بوجيه" رئيس طائفة فرسان المعبد (الداوية) بعكا يعلمه بأنه قد قرر الهجوم عليها، وطلب منه عدم إرسال رسل أو هدايا إليه؛ لأن ذلك لن يثنيه عن مهاجمة المدينة. إلا أن عكا أرسلت إلى القاهرة وفداً محملاً بالهدايا برأسه فيليب ماينبوف لاسترجاء الأشرف بالعدول عن خطته وضرورة الحفاظ على المعاهدة، فرفض الأشرف خليل مقابلتهم وقام بحبسهم.

قام الأشرف بتعبئة جيوشه من مصر والشام، التي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين وآلات الحصار التي كانت تشمل اثنين وتسعين منجنيقاً. كانت بعض العرادات الضخمة تحمل أسماءً مثل "المنصوري" و"الغاضبة"، وكانت هناك مجانيق أصغر حجماً ولكن ذات قوة تدميرية هائلة اسمها "الثيران السوداء". احتشدت الجيوش عند قلعة الحصن في جبال الساحل السوري، ثم انضم إليها جيش مصر الذي خرج به الأشرف خليل من القاهرة. انضمت أربعة جيوش يقودها نواب السلطان: جيش دمشق يقوده حسام الدين لاجين، وجيش من حماه يقوده المظفر تقي الدين، وجيش من طرابلس يقوده سيف الدين بلبان، أما الجيش الرابع فقد كان من الكرك وكان على رأسه الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار؛ وقد كان في جيش حماه أمير مؤرخ آخر هو أبو الفداء.

كان الصليبيون في عكا يدركون منذ مدة خطورة موقفهم، وكانوا قد أرسلوا إلى ملوك أوروبا وأمرائها يطلبون منهم العون والمساعدة إلا أنهم لم يصلهم من أوروبا دعم يذكر، حيث قام ملك إنكلترا إدوارد الأول بإرسال

بعض الفرسان. والدعم الوحيد الذي كان ذا أهمية جاء من هنري الثاني ملك قبرص الذي قام بتحصين أسوار عكا وأرسل قوة عسكرية على رأسها أخوه "أماالريك". كانت عكا محمية براً عن طريق سورين مزدوجين سميكين، واثني عشر برجاً شيدها الملوك الأوروبيون وبعض أثرياء حجاج بيت المقدس. كانت الأسوار مقسمة على الطوائف والفرق الصليبية بحيث تكون كل طائفة (فرسان المعبد، والإسبارتيه، وفرسان التيوتون الألمان وغيرهم) مسؤولة عن حماية قسمها.

غادر الأشرف خليل القاهرة في السادس من آذار/مارس عام ١٢٩١م، وبحلول الخامس من نيسان/أبريل كان جيشه يقف بمواجهة عكا. نصب الأشرف دهليزه الأحمر فوق تلة مواجهة لبرج المندوب البابوي على مسافة غير بعيدة من شاطئ البحر، وانتشر جيش مصر من نهاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا، واتخذ جيش حماه مواقعه عند البحر وعلى ساحل عكا. وانطلقت في اليوم اللاحق عرادات جيش المسلمين ومناجيقه تلقي بالأحجار الضخمة والنيران على أسوار عكا، وراح رماة السهام من المسلمين بإمطار المدافعين من الصليبيين المتحصنين فوق أبهاء الأبراج وأفاريزها بسهامهم.

وبعد ثمانية أيام من الدك والمناوشات والاشتباكات تقدم الفرسان والمهندسون المسلمون وقد تغطوا بالدروع في موجات متلاحقة نحو سور عكا حتى سيطروا على حافته دون أن يتمكن المدافعون الصليبيون من إيقاف موجات زحفهم؛ لكثرة أعدادهم وتلاحق موجاتهم بامتداد الأسوار. استخدم المسلمون سلاحاً يدوياً صغير يطلق نيراناً كثيفة وسريعة أطلق عليه الصليبيون اسم "كارابوها"، وقد أحدث هذا السلاح أضراراً بالغة بالمقاتلين الصليبيين وصعب عليهم التقدم نحو المهاجمين المسلمين، وتمكن المسلمون من إحداث أضرار وبعض النقوب في الأجزاء الضعيفة من الأسوار، وأخذ الأمير سنجر الشجاعي ومقاتلوه على عاتقهم نقب سور برج جديد يسمى برج الملك وكان أمام البرج الملعون، فقام الصليبيون بإشعال النار فيه وتركوه ينهار.

على الرغم من استمرار وصول الإمدادات والتعزيزات العسكرية من قبرص إلى عكا عن طريق البحر إلا أن الصليبيين المحاصرين فيها كانوا يدركون أنهم غير قادرين على التصدي لجيش المسلمين. قامت في ١٥ من نيسان/أبريل، وتحت ضوء القمر قوة صليبية من فرسان المعبد بقيادة "جين غريلي Jean Grailly" و"أوتو أوف غراندسون Otto of Grandson" بغارة مفاجئة على معسكر جيش حماه بهدف إحراق إحدى عرّادات المسلمين إلا أنه، وبحمد الله، تعثرت أرجل خيولهم في حبال خيام المقاتلين المسلمين مما أدى إلى انكشاف أمرهم، وقتل العديد منهم وأسرهم.





خريطة مدينة عكا عام ١٢٩١م، ومحاولة فرسان المعبد الفاشلة الإغارة على المسلمين

وتمكن عدد منهم من الفرار ببعض طبول المسلمين ودروعهم. ثم شن فرسان الإسبتاريه بعد بضعة أيام غارة أخرى على معسكر للمسلمين، هذه المرة في الظلام الدامس، ولكن غارتهم انتهت هي الأخرى بالفشل بعد أن انكشف أمرهم وأشعل المسلمون المشاعل وتصدوا لهم، فلاذوا بالفرار بجرحاهم.

استرد الصليبيون المحاصرون في الرابع من شهر أيار/مايو بعض الثقة والأمل حين وصل الملك هنري الثاني من قبرص، وبصحبته أربعون سفينة محملة بالمقاتلين والعتاد. تولى هنري قيادة الدفاع، ولكن سرعان ما أدرك هنري قلة حيلته في مواجهة الأشرف خليل، فأوفد إليه فارسين من فرسان المعبد هما "وليم أوف كافران William of Caffran" و"وليم أوف فيلييه William of Villiers": لطلب السلام وإعادة الهدنة، وسألهما الأشرف عما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة، فلما أجابا بالنفي قال لهما إن كل ما يهمه هو امتلاك المدينة، وأنه لا يهمه مصير سكانها، ولكن تقديراً منه لشجاعة الملك هنري ولصغر سنه وقدومه لتقديم المساعدة وهو مريض، فإنه على استعداد أن يبقي على حياة السكان في حال تسليم المدينة له دون قتال، فأجابا بأنهما لم يأتيا إليه للاستسلام، ولكن لطلب رحمته على السكان فقط. وبينما الفارسان يستعطفان الأشرف إذ بعرارة صليبية تلقي من داخل عكا بحجر يسقط بالقرب من دهليز الأشرف، فظن أنها مؤامرة صليبية لقتله وأراد قتل الفارسين، إلا أن الأمير سنجر الشجاعي شفع فيهما، فسمح الأشرف لهما بالعودة إلى عكا.

فتح عكا: بدأت أبراج عكا منذ ٨ أيار/مايو تصاب بأضرار بالغة؛ نتيجة لدكها المستمر بالمناجيق وتنقيبها عن طريق المهندسين المسلمين، فانهار برج الملك هيو وتبعه البرج الإنجليزي وبرج الكونتيسة دو بلوا، وقام المسلمون في ١٦ أيار/مايو بهجوم مركز على باب القديس أنطوان تصدى له فرسان المعبد والإسبتاريه. سمع صليبيو عكا في فجر يوم الجمعة ١٨ مايو/أيار (١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ) دقات طبول المسلمين، وبدأ المسلمون بالزحف الشامل على عكا بامتداد الأسوار، تحت هدير دقات الطبول التي حُملت على ثلاث مئة جمل؛ لإنزال الرعب في صدور الصليبيين داخل عكا.

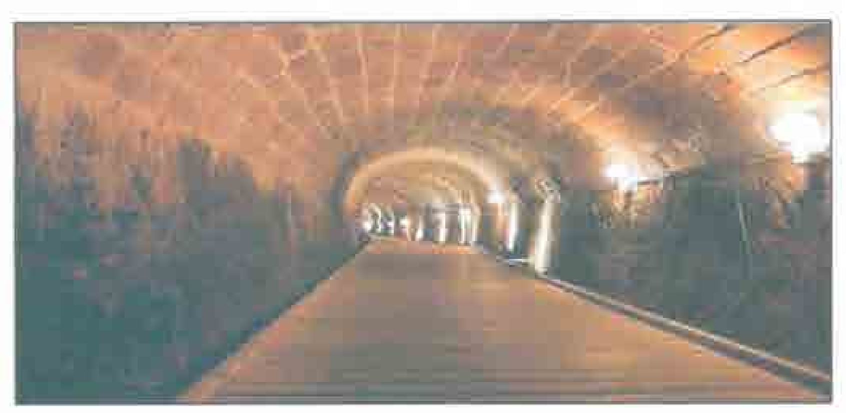
اندفع جنود جيش الأشرف وجيش حماه وهم يكبرون (الله أكبر) لمهاجمة تحصينات المدينة تحت قيادة الأمراء المماليك الذين ارتدوا عمائم بيضاء. ووصل المقاتلون إلى البرج الملعون وأجبروا حاميته على التراجع إلى جهة باب القديس أنطوان، واستماتت فرسان المعبد وفرسان الإسبتاريه في الدفاع عن البرج والباب، ولكن المقاتلين المسلمين، الذين كانت نار الإغريق من ضمن أسلحتهم، تمكنوا من الاستيلاء عليهما، وراحت قوات جيش المسلمين تتدفق على شوارع المدينة حيث دار قتال عنيف بينهم وبين الصليبيين. وقتل مقدم فرسان المعبد "وليم أوف بوجوه"، وتبعه "ماثيو أوف كليرمونت Matthew of Clermont"، وجُرح مقدم الإسبتارية "جون فيلييه" جرحاً بالغاً فحُمل إلى سفينته وبقي فيها.

رفعت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا، وأيقن الملك هنري أنه لا طاقة للصليبيين بجيش الأشرف وأن عكا ستسقط في يد الأشرف لا محال، فأبحر عائداً إلى قبرص ومعه "جون فيلييه" مقدم الإسبتاريه، وقد تعرض الملك هنري فيما بعد للاتهام بالتخاذل والجبن.

حصار عكا الأسطوري وفتحها عام ٦٩٠هـ –١٢٩١م (يشبه إلى حدّ ما فتح القسطنطينية ١٤٥٣م)



انفاق فرسان الهيكل أو المعبد تحت مدينة عكا: بداية الأنفاق تحت الأرض تتشعب للاتساع وللذهاب والمجيء، ثم تتحد لتكوّن نفقاً واحداً يتصل بالبحر



انفاق فرسان الهيكل تحت مدينة عكا: وسط النفق المتحد الذي يربط قلاع عكا تحت الأرض بالبحر مباشرة كممر سريّ للهرب



نهاية النفق تحت الأرض يرتبط بالبحر مباشرة
(انظر مياه البحر على جانبي الممر السريّ)

سادت عكا حالة من الفوضى العارمة والرعب الهائل، واندفع سكانها المذعورن إلى الشواطئ؛ بحثاً عن مراكب تنقلهم بعيداً عنها، ولا يدري أحد بالتحديد كم منهم قتل على الأرض، أو كم منهم ابتلعه البحر. وقد تمكن بعض الأثرياء من النبلاء، من الفرار من عكا في مراكب الكاتالاني "روجر فلور Roger de Flor"، مقدم المرتزقة وفارس المعبد، مقابل أموال دفعوها له، وقد تمكن "روجر دو فلور" من استغلال الموقف فابتز الأثرياء والنبيلات وكوّن ثروة طائلة.

كانت مدينة عكا قبل أن يحل الليل قد صارت في يد المسلمين، عدا حصن فرسان المعبد الذي كان مشيداً على ساحل البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة. عادت عكا إلى المسلمين بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً، وبعد أن احتلها الصليبيون مئة عام.

تفاوض السلطان خليل بعد أسبوع من فتح عكا مع "بيتر دو سيفري Peter de Severy" رئيس حصن فرسان المعبد، وجرى الاتفاق على تسليم الحصن مقابل السماح بإبحار كل من في الحصن إلى قبرص.

بعد وصول رجال السلطان إلى الحصن؛ للإشراف على تدابير الإخلاء، تعرضوا لبعض النسوة في الحصن أو أرادوا أخذهن مما أدى إلى غضب فرسان المعبد، فانقضوا عليهم وقتلوهم وأزالوا صنجق المسلمين الذي كان قد رفع على الحصن من قبل، واستعدوا لمواصلة القتال.

غادر "تيبالد غودين Theobald Gaudin" مقدم فرسان المعبد الجديد، في الليل تحت جنح الظلام الحصن إلى صيدا في صحبة عدد من المقاتلين ومعه أموال الطائفة. وذهب "بيتر دو سيفري" في اليوم اللاحق إلى السلطان خليل ومعه بعض الفرسان؛ للتفاوض من جديد، فقبض الأشرف عليهم وأعدمهم انتقاماً لرجاله الذين قتلهم الفرسان في الحصن، فلما رأى بقية الفرسان المحاصرين في الحصن ما حدث لبيتر دو سيفري ورفاقه واصلوا القتال.

دفع الأشرف في ٢٨ من أيار/مايو، بعد أن حفر المهندسون نقباً تحت الحصن، بألفي مقاتل للاستيلاء عليه، وبينما هم يشقون طريقهم داخله انهار البناء وهلك كل من كان بداخل الحصن من مدافعين ومهاجمين.

وصلت أنباء انتصار جيش المسلمين وتحريره عكا إلى دمشق والقاهرة، ففرح الناس وزينت المدن، ودخل السلطان خليل دمشق ومعه الأسرى الصليبيين مقيدين بالسلاسل، وقوبل جيش المسلمين بالاحتفالات ورفع رايات النصر وزينت دمشق وعمت البهجة بين الناس. وبعد أن دخل القاهرة وتزينت وفرشت فيها الشقق الحرير تحت حافر فرسه، وبعد أن زار قبر أبيه الملك المنصور، صعد إلى قلعة الجبل وخلع على الأمراء، أمر الأشرف بإطلاق سراح "فيليب مايننيف" وزملائه الصليبيين الذين كان قد قبض عليهم قبل مسيره إلى عكا، وقام بنقل بوابة كنيسة القديس أندرياس من عكا إلى القاهرة؛ لاستخدامها في استكمال مسجده.

تحرير ساحل الشام:

كان ثغر صور من أمنع المعاقل الصليبية على ساحل الشام، وقد حاول صلاح الدين الأيوبي تحريره مرتين ولكنه لم ينجح. كانت سيدة صور "مرجريت أوف لوسيجنان Margaret of Lusignan" أرملة "جون أوف مونتفورت John of Montfort" قد تنازلت لابن أختها "أماليريك" عن صور منذ مدة قصيرة قبل فتح الأشرف عكا. أرسل الأشرف في ١٩ أيار/مايو، وهو ما زال في عكا، فريقاً من المقاتلين تحت قيادة الأمير سنجر الشجاعي لتعرف حال الصليبيين في صور. ارتعب "آدم أوف كافران Adam of Cafran"، نائب "أماليريك" في صور، عندما رأى قوات الشجاعي وفرّ إلى قبرص، فاستولى الشجاعي على صور من دون قتال.

أرسل الأشرف خليل الأمير الشجاعي إلى صيدا، ففرر فرسان المعبد اللوذ بقلعتهم، التي كانت مشيدة على جزيرة صغيرة قرب الشاطئ؛ إذ إن ثروتهم كانت قد نقلها زعيمهم الجديد "تيبالد جودين" إلى صيدا وقت حصار حصنهم في عكا. ثم فرّ "تيبالد جودين" بالثروة إلى قبرص بعد أن وعد فرسان حامية صور بإرسال إمدادات إليهم من قبرص، وهو ما لم يفعله، فاضطر الفرسان إلى مناوشة قوات الشجاعي بعض الوقت حتى تمكنوا ذات ليلة من الفرار إلى طرطوس بعدما لاحظوا أن المسلمين يبنون جسراً بين الشاطئ والقلعة.

توجه الشجاعي بعد أن حرر صيدا إلى بيروت، التي كان بها حامية صليبية صغيرة وكانت مرفأً جارياً مهماً للصليبيين. كانت سيدة بيروت "إيشيفا أوف إيبلين Eschiva of Ibelin" تظن أنها بمأمن من المسلمين؛ بسبب توقيعها هدنة مع السلطان قلاوون والد الأشرف خليل. طلب الشجاعي عندما وصل إلى بيروت من مقدمي الحامية المثول أمامه، فلما أتوه قبض عليهم، ففر المقاتلون الصليبيون عن طريق البحر. تحررت بيروت من الصليبيين في ٣١ تموز/يوليو، وأمر الشجاعي بتدمير قلاعها وأسوارها وتحويل كاتدرائيتها إلى مسجد.

تحررت حيفا من دون مقاومة صليبية تُذكر. وقام الأمير سيف الدين بلبان بمحاصرة طرطوس، ففر الصليبيون إلى جزيرة أرواد مقابل الساحل السوري والقريبة من طرطوس. وتحررت طرطوس في الثالث من آب، وبعدها عثليت في ١٤ من آب.

فقدَ الصليبيون بهذا معاقلهم كافة على ساحل الشام، عدا جزيرة أرواد التي بقيت اثنتي عشرة سنة في أيدي فرسان المعبد إلى أن قام المسلمون بمحاصرتها وتحريرها في عام ١٣٠٢م.

كان الأشرف يدرك أنه بطرد الصليبيين من سواحل الشام فإن قبرص قد صارت مصدر الخطر الأساسي على المسلمين؛ فملك قبرص كان يعدّ بالنسبة إلى الصليبيين من الناحية الاسمية ملكاً لبيت المقدس حتى بعد تحريرها. وأصبحت حكومة قبرص بعد تحرير ساحل الشام الحكومة الصليبية الأكثر حماسة لمعاودة الاستيلاء على "الأرض المقدسة"، فقام الأشرف بتدمير كل المواقع والمدن والحصون الساحلية؛ ليحرم الصليبيين من الإفادة منها في حالة مهاجمتهم لها، وفضل أن تبقى منطقة الساحل مهجورة ما دام بقي التهديد الصليبي قائماً.

فتح قلعة الروم وتهديد مملكة أرمينيا الصغرى:

في عام ١٢٩٢م وصل الأشرف خليل ومعه وزيره ابن السلعوس إلى دمشق، وانطلق منها على رأس الجيش إلى حلب ومنها إلى قلعة الروم "هرموغلا" مقر بطريرك أرمينيا. حاصر الأشرف قلعة الروم بـ ٢٠-٣٠ منجنيقاً، وعمل الأمير الشجاعي سلسلة وشبكها في شراريف القلعة، فصعد الأجناد وقاتلوا قتالاً شديداً إلى أن استولوا على القلعة بعد ٣٣ يوماً. وأمر السلطان خليل بتغيير اسمها من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين، وطلب من الأمير الشجاعي عمارتها، وعاد إلى دمشق بالأسرى المكبلين بالأغلال، وكان من ضمنهم بطريرك الأرمن. وقام أهل دمشق باستقبال الجيش بآلاف الشموع المضيئة وتزينت المدينة احتفالاً بالنصر. وتوجه الأشرف من دمشق إلى القاهرة التي تزينت له من باب النصر، وصعد إلى قلعة الجبل من باب زويلة، واستقبلته رعيته المحتشدة والمبتهجة بآلاف الشموع.

كانت مملكة أرمينيا الصغرى، أو مملكة قليقيا، من ألد أعداء الدولة المملوكية؛ حيث شاركت في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وتحالفت مع المغول عليهم، وكان لها قوات شاركت في صف المغول في معركة عين جالوت. وقد أصبحت تلك المملكة الصليبية بعد هزيمة المغول، التي أدت إلى نقص قدرتهم على حمايتها، هدفاً للمماليك يغيرون عليها من حين إلى آخر منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس. أصبحت سيس عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى بعد فتح قلعة الروم مقراً للكنيسة الكاثوليكية الأرمينية.

تجهز الجيش في دمشق بقيادة الأمير بيدرا نائب السلطنة، ثم لحق به الأشرف بعد أن توقف في الكرك؛ لترتيب أحوالها، وأمر بالتجهيز؛ لأخذ بهنسا من الأرمن. لما علم الأرمن بنية الأشرف أرسلوا إليه الرسل يرجون منه عدم مهاجمة مملكتهم، فجرى الاتفاق على تنازل الأرمن عن بهنسا ومرعش وتل حمدون في مقابل عدول الأشرف عن مهاجمتهم. فأرسل الأشرف الأمير طوغان والي البر بدمشق مع رسل الأرمن إلى تلك المناطق لتسلمها، فصارت في حوزة المسلمين بغير قتال.

وللتوثيق العربي يقول ابن كثير: (وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا، وقد كان أهل عكا في هذا الحين عدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأبرزت المناجيق إلى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماه الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا.

فتوافت الجيوش هنالك، فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ شرف الدين الفزاري، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان. وضمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلاث مئة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فولت الفرنج عند ذلك الإدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار. وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ٥١٨هـ وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدي الفرنج، ثم إن الفرنج جاؤوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة، ثم جاء صلاح الدين ليمنعهم عنها مدة ٣٧ شهراً، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، كما تقدم ذلك). (البداية والنهاية ج١٣، ص٣٧٨-٣٧٩)

ويوثق ابن تغري بردي تفاصيل هذا **الفتح الأسطوري الملحمي** في تاريخ الإسلام في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ولما استهلت سنة ٦٩٠هـ أخذ الملك الأشرف في التجهز للسفر إلى البلاد الشامية وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى البلاد الشامية، وجمع العساكر، وعمل آلات الحصار، وجمع الصناع إلى أن تم أمره وخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة. وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ويوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة.

وكان المطّوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجنيقاً، منها ما يرمي بقنطار دمشقي وأكبر، ومنها دونه (وتسمى المنصوري نسبة إلى الملك المنصور قلاوون).

وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة، ونقب عدة نقوب وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها؛ فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمّال في كل يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسّ عظيم مزعج، فجال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج وملكت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينجُ منهم إلا القليل، ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها، وعصى الديوية والإسبتار، واستتر الأرمن في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد فحصروا فيها.

فلما كان يوم السبت ١٨ الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الديوية فطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان وسير لهم صنجقاً فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف فقتلوا جماعة من المسلمين ورموا الصنجق وتمسكوا بالعصيان وعاد الحصار عليهم.

وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد

الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وجرى القتال على برج الديوية ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الديوية ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث شاؤوا، فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدهليز النساء والصبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه، فتزايد الحنق عليهم وأخذ الجند وغيرهم من السبي والمكاسب ما لا يحصى، ولما علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسكوا بالعصيان وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشد قتال واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج، فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخر بعكا وأنزل من فيه بالأمان وكان قد علق من سائر جهاته، فلما نزلوا منه وحولوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرجين ومضين قصد النهب فهلكوا عن آخرهم، ثم بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية، وضرب رقاب الرجال أجمعين وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه ومثل الساعة التي أخذوها فيها؛ فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمس مئة في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدراً، وقدّر الله تعالى أن المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى، وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم. وكان السلطان عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى صور؛ لحفظ الطرق وتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور، فأجيبوا إلى ذلك فتسلمها.

وتعد صور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمنهم أوصلهم إلى صور هذه؛ لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتة. وعندما تسلمها جهز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير.

ولما تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوي عزم الملك الأشرف على أخذ غيرها. ثم رحل الملك الأشرف عن عكا في بكرة نهار الإثنين خامس جمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الإثنين ثاني عشره بعد أن زينت له دمشق غاية الزينة، وعملت القباب بالشوارع من قريب المصلى إلى الباب الجديد، وحصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنج المنكسة، ومنهم من حمل رمحاً علمه من رؤوس قتلى الفرنج، فكان لقدومه يوم عظيم.

وأقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وعاد إلى الديار المصرية فدخلها يوم الإثنين تاسع شعبان، فاحتفل أيضاً أهل مصر لملاقاته احتفالاً عظيماً أضعاف احتفال أهل دمشق، وعند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكا الذين كانوا معوقين بالقاهرة.

ثم إن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب الشام فتح صيدا – بعد حصار كبير – بالأمان في يوم السبت خامس عشر شهر رجب. ولما أخذت هذه البلاد في هذه السنة أمر السلطان أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض، فخربت أصلاً، ثم أخذت عثليث بعد شهر.

وأما أهل أنطرطوس لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي عسكراً، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس ٥ شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السعدي بما كان أحضره من المراكب والشواني، فأخلوها. وكان فتح هذه المدن الست في ٦ شهور).

ويذكر ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٣، ص٣٨١–٣٨٢) مواكبة اللغة العربية لتخليد هذا الانتصار التاريخي، فقال:

(وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة، ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين الفاروثي، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام، وجاءت البريدية بالتهيؤ لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام: بسبب الجسورة على دجلة بغداد، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود، وحصل لبعض الناس أذىً بسبب ذلك).

وكان للغة العربية دور ريادي في تخليد هذه الملحمة التاريخية، وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا:

الحمد لله زالت دولة الصُّلُب ... وعزّ بالترك دينُ المصطفى العربي

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحييت من الطلب

ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها ... في البحر للشرك عند البرّ من أرب

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... في البحر والبرّ ما ينجي سوى الهرب

أمّ الحروب فكم قد أنشأت فتناً ... شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تشب

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خطّ في الكتب

لم يبلغ النطق حدَّ الشكر فيك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب

أغضبتَ عُبّاد عيسى إذ أبدتهم ... لله أي رضى في ذلك الغضب

وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قرب

فقرّ عيناً لهذا الفتح وابتهجت ... ببشره الكعبة الغرّاء في الحجب

وسار في الأرض سيراً قد سمعت به ... فالبرّ في طرب والبحر في حرب

فتح قلعة الروم بعد الحصار:

يقول ابن كثير في البداية والنهاية (ج١٣، ص٣٨٦–٣٨٨): (وفي ربيع الأول من ٦٩٠هـ توجه السلطان الأشرف بالعساكر نحو الشام، فقدمَ دمشق ومعه وزيره ابن السلعوس، فاستعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالاً جزيلة، ثم سار بهم نحو بلاد حلب، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً في يوم السبت حادي عشر رجب، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم، وكان يوم السبت إلباً على أهل يوم الأحد، وكان الفتح بعد حصار عظيم جداً مدة ثلاثين يوماً.

وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقاً، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير. وقد قتل من أهل البلد خلق كثير، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعي بقلعة الروم يعمرون ما وهي منها؛ بسبب رمي المنجنيقات عليها وقت الحصار، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه، وكان يوماً مشهوداً بسط له كما يبسط له إذا قدم من الديار المصرية.

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيراً، وكذلك رؤوس أصحابه، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح، وجهز السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجرد؛ بسبب ممالأتهم الفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر بندار وفي صحبته سنقر الأشقر..

وقد امتدح الشهابُ محمودُ الملكَ الأشرفَ خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها:

لـك الرايـة الصـفراء يقـدمها النصـر	فمـن كيقبـاد إن رآهـا وكيخسـرو
إذا خفقـت في الأفـق هـدب بنودهـا	هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر

نتائج فتح عكا الأسطوري:

١. **نهاية الوجود الصليبيّ على أرض الإسلام:** أنهى الأشرف خليل الوجود الصليبي على أرض الإسلام. كان الجهاد لتقويض الحلم الصليبي عملية تراكمية ابتدأها الناصر صلاح الدين وأكملها الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وأنهى مشوارها الطويل الأشرف خليل. وتساقطت بسقوط عكا المراكز الصليبية على ساحل الشام الواحدة بعد الأخرى، وتبخر الحلم الصليبي الذي عمل الصليبيون في مئتي عام على تحقيقه بكل جد ودون كلل وكلفهم المال والرجال. ولم يبقَ للصليبيين من قاعدة لشن الحملات على سواحل الشام ومصر إلا من جزيرتي: أرواد وقبرص في البحر الأبيض المتوسط (انظر فيما سيأتي: فتح السلطان محمد بن قلاوون جزيرة أرواد، وفتح السلطان الأشرف برسباي جزيرة قبرص).

شدّت الحملات الصليبية أعصاب أوروبا وجعلتها في حالة اضطراب وفوران دائم مدة قرنين من الزمان، وكلفت العالم النصراني، مباشرة أو بوجه غير مباشر، العديد من ملايين الضحايا (فقد فقدَ مليونان إلى ٦ ملايين من الأوروبيين أرواحهم حسب الإحصائيات المختلفة)، زيادة على النفقات التي لا تعد ولا تحصى في الأموال وفي المعاناة. وصاحبت ذلك كله الفوضى والفجور والجرائم التي تصاحب الحروب دوماً. وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

يقول الإمام أبو جعفر الطبري في تفسير الآية ٣٦: (يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقوّوا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ليصدّوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم: "حسرة"، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله تعالى وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله تعالى؛ لأن الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها

حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحيّ، فحُرم ماله وذهب باطلاً في غير ذلك نفع، ورجع مغلوباً مقهوراً محروباً مسلوباً. وأما الهالك، فقتل وسُلب، وعُجّل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه).

٢. **قدوم الفرنجة للحج أو زيارة بيت المقدس دون سلاح:** حاول بابا الكاثوليك "نيقولا الرابع" بعد سقوط عكا فعل شيء يعيد إلى الصليبيين مكانتهم وهيبتهم. وقام فور سماعه بسقوط عكا بتحميل عشرين سفينة بالمقاتلين في أنقونا وجنوه وأرسل بها إلى قبرص. وقامت تلك السفن بعد أن انضمت إليها سفن الملك هنري بغارة فاشلة على حصن تركي على ساحل الأناضول، وغارة كرّ وفرّ على مدينة الإسكندرية في مصر غلاً وحقداً على انتصارات الأشرف وجيش المسلمين. ولكن البابا نيقولا مات في سنة ١٢٩٢م دون تحقيق أكثر من ذلك. وبفشل الحروب الصليبية، صار المجيء إلى بيت المقدس من دون سلاح، للحج أو الزيارة آمناً أكثر من ذي قبل، وبرعاية إسلامية مسؤولة.

٣. **تنامي التجارة بين الشرق والغرب:** أحدثت الحملات الصليبية طلباً مستمراً لضرورة نقل الرجال والمعدات والتجهيزات، فشجعت بناء السفن، وامتدت أسواق البضائع الشرقية إلى قلب أوروبا، وخُمت منتوجات دمشق والموصل والإسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى الأخرى عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الموانئ الإيطالية، ومن هناك تجد طريقها إلى جميع البلاد الأوروبية.

كان بريق الشرق بحريره، وأحجاره النفيسة، وعطوره، وتوابله، ولآلئه، وعاجه ساحراً للعيون؛ حتى إن الصليبيين المتحمسين كانوا يسمون الشرق "الدهليز إلى جنة الفردوس". وبرغم الفشل السياسي والحربي للحملات الصليبية فإن هذه الحروب كان لها نتائج بالغة الأثر، منها اتساع تجارة أوروبا خاصة "جنوه" و"البندقية" و"بيزا" مع موانئ الشام.

ولم يقتصر هذا الاتساع على المدة التي سيطر فيها الصليبيون على الأراضي المقدسة، بل استمر حتى بعد أن أجلوا عن الإقليم كله. وحصّل تجار السلاح والبضائع والنقل مدة الحروب الصليبية على أموال هائلة فازدهرت تجارة التجار الأوروبيين في إيطاليا وفرنسا، وخصوصاً تجار البندقية، وبيزا، وجنوه.

٤. **تنامي سلطة ملوك أوروبا:** كان للحملات الصليبية تأثير سياسي؛ فقد ساعدت على تقويض الأرستقراطية الإقطاعية، وأبرزت دور الملوك والشعوب. فقد رهن الآلاف من البارونات والفرسان أو باعوا أراضيهم لأجل استحصال مال لتزويد الحملات الصليبية، وقضى الآلاف نحبهم في سوريا، وتحولت ملكية أراضيهم (بسبب فشل الورثة) إلى الدولة وسلطة الملك، وفقد الكثيرون ثرواتهم لأجل الصرف على معيشتهم في حلهم وترحالهم وحملاتهم.

إضافة إلى ذلك، فإن الحروب الخاصة التي كانت سائدة في العصور الوسطى بدأت تموت مع رحيل العديد من أرباب الإقطاعية المشاغبين إلى الأرض المقدسة. إن تناقص هؤلاء في أعدادهم وفي تأثيرهم صاحبه تنامي السلطة الملكية، ويمكن تتبع آثاره في التغيرات التي حصلت في فرنسا، البلد الأصليّ للحركة الصليبية. حصلت المدن على العديد من الأفضليات السياسية على حساب البارونات والأمراء الصليبيين. كان المال في القرنين الثاني عشر والثالث عشر متوافراً غالباً في أيدي الطبقة الكادحة العامة من الشعب، بمقابل إسهامات وديون قدموها لأسيادهم الإقطاعيين، واستلموا بالمقابل أفضلية قيّمة وخاصة. إن تنامي سلطة الملوك في أوروبا أدى إلى عاملين: أحدهما تحجيم البابوية، والآخر تنامي الوطنيات القومية ودخولهم في صراعات داخلية، كالحرب المريرة التي نشبت بين فرنسا وإنكلترا في عام ١٢٩٢م، ولم يعد في استطاعتهم تنظيم حملات صليبية جديدة.

٥. **تحجيم البابوية الكاثوليكية في روما:** كان قانون الإرث المطبق في أوروبا ينص على أن يرث الابن الأكبر عقارات والده وعبيده بعد موته، وتوزع المنقولات بين أبنائه. ونشأت بسبب هذا القانون طبقة من النبلاء أو الأسياد الذين لم يكونوا يملكون إقطاعيات، فشاعت بينهم ألقاب مثل "بلا أرض" و"المعدم"؛ دلالة على عدم ملكيتهم قطعة أرض، ورأى الكثير من هؤلاء فرصتهم في الحملات الصليبية للحصول على أراض في الشرق، ورأى آخرون فيها فرصة لتوسيع أملاكهم بضمّ أملاك جديدة. كذلك كان الفقراء يجدون فيها فرصة لحياة جديدة أفضل، ووسيلة تخرجهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها في ظل نظام الإقطاع السائد في ذلك الوقت.

فجاءت الكنيسة وزجّت الملايين من البشر للقتال في الشرق، ونمت سلطة الكنيسة بداية حتى طغت على سلطة ملوك أوروبا وأباطرتها، وعاشت على أموال الضحايا، فتضخمت أموالها وممتلكاتها من بيع صكوك الغفران ومن رهن الأموال والأملاك للفرسان المقاتلين الذين رحلوا ولم يعودوا. ثم أدت ممارسات الكنيسة غير الربانية وغير الأخلاقية في أوروبا نفسها من الحملات الصليبية ضد الهرطقة ومحاكم التفتيش إلى ردة فعل أوروبي، وإلى ازدياد الاستياء الشعبي من استغلال الكنيسة البشع، وبتنامي سلطة الملوك، واحتكاك الغرب بالشرق الإسلامي. كل هذا مهد للإصلاحات البروتستانتية للكنيسة الكاثوليكية، فتحجمت البابوية الكاثوليكية ومنعت من الهيمنة على ملوك أوروبا، بل العكس صار صحيحاً حيث هيمنت ملوك أوروبا على البابوية.

٦. **التأثير الثقافي والحضاري:** زود الاحتكاك بثقافة الشرق تأثيراً عاماً في صقل الثقافة الغربية وتحسينها، وساعدت على انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وبداية حركة الفكر الحر والنهضة الأوروبية، وتسرّبت مع لغة الفرنجة مفردات اللغة العربية إلى أوروبا، مع التجار ومع الصليبيين.

٧. **نهاية فرسان الهيكل:** كانت نهايتهم مأساوية في أوروبا بعد أن تورطوا في مشكلات مالية مع ملك فرنسا فيليب الرابع، واتهمهم البابا كليمينت الخامس بالهرطقة، فجرى الاستيلاء على ثرواتهم ولعنوا وألقي سدنتهم وكبارهم في النار. ومن ثم هربوا إلى إسكتلندا، وتخفوا هناك بحركة البنائين الأحرار السرّية (فري - ماسون أو الماسونية)، وصاروا يمتهنون مهنة القانون في بريطانيا.





فرسان المعبد يُحرقون بالنار في فرنسا وأوروبا (راجع الفصل الخامس من المقدمة)، ثم هرب الكثير منهم إلى إسكتلندا بثرواتهم، وتخفوا هناك بإنشاء حركة الماسونية، وغالبيتهم اليوم مُحامون قانونيون (Barristers) في المحاكم العليا

٨. **لعل التأثيرات السياسية الأخرى للصليبيين** (في الرؤية الأوروبية) تكمن في تأخير تقدم العثمانيين وإسقاط القسطنطينية ثلاثة قرون أخرى، وهذا ما أعطى دول أوروبا الوقت لتجميع قواها في مناهضة الزحف الإسلامي عندما بدأ يتوغل في قلب أوروبا في القرن الخامس عشر.

٩. **حملات صليبية عبر المحيطات**: ثم إنّ أوروبا بعد اندحار حملاتها الصليبية على ديار الإسلام حاولت تجميل صورتها، وتلميع نتائجها مما حققها على حملات صليبية أخرى عبر البحار يسمونها – زوراً – بالاكتشافات الجغرافية (ويعنون بذلك الحملات العسكرية الاستكشافية). قادها الكثير من الرحالة بداية، خصوصاً مشاهير الإيطاليين، مثل ماركو بولو، والرحل الإنجليزي المغمور سير جون مانديفل؛ لاستكشاف البلاد النائية من آسيا. بل إن حب المغامرة العسكرية الاستعمارية (تحت المظلة التجارية) قد حولت القرن الخامس عشر إلى قرن شهير مستلهماً رحلات أدميرال البحرية الإسباني كولومبوس، وأمير البحار البرتغالي فاسكو دي جاما، والبرتغالي ماجلان. ويمكن تتبع نشأتها جميعاً كامتداد لحملات الصليب إلى المشرق!!!

١٠. تركت فرنسا أثراً **لا يُمحى من ذاكرة التاريخ الإسلامي** بقيادتها الحملات الصليبية الأولى حتى صار العرب والمسلمون يطلقون كلمة فرنجة على جميع الأوروبيين والغربيين، وفسروا كل حملات الغرب الاستعمارية على أنها صليبية في روحها، فسمي الغزو الأمريكي على العراق بقيادة بوش الابن عام ٢٠٠٣م بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!! وعُدّ احتلال فرنسا للجزائر في القرن التاسع عشر حملة صليبية، وبعد جثوم ثقيل ١٣٠ سنة، قدمت فيه الجزائر مليون شهيد أو يزيد، تحررت الجزائر وفشلت كل محاولات فرنسا لطمس هويتها الإسلامية وتهميشها، وكان أول نشيد فرح بتحرير الجزائر من فرنسا أو من فرنجة الصليبيين الحديثة:

يا محمد مبروك عليك ... الجزاير رجعت ليك

ولا عجب أن يكون النشيد الوطني الجزائري نشيد من أناشيد الجهاد والتحرير الخالدة التي ألهبت الملايين من العرب والمسلمين، رسالةً موجهةً إلى فرنسا الحديثة (قائدة الحملات الصليبية القديمة). كتب النشيد شاعر الثورة مفدي زكريا، حيث نظمه بسجن بربروس في الزنزانة رقم ٦٩ بالجزائر، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٥٥م، ولحنه الموسيقار المصري محمد فوزي:

قسماً بالنازلات الماحقات ... والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات ... في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات ... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحن جند في سبيل الحق ثرنا ... وإلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا ... فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحناً ... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب ... وطويناه كما يطوى الكتاب

يا فرنسا إن ذا يوم الحساب فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحن من أبطالنا ندفع جنداً وعلى أشلائنا نبعث مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلداً وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهداً وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

صرخة الأوطان من ساح الفداء فاسمعوها واستجيبوا للنداء
واكتبوها بدماء الشهداء واقرؤوها لبني الجيل غدا
قد مددنا لك يا مجد يداً وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...



صورة "الصليبيّ الأخير أو الصليبيّ المهزوم"
أدت انتصارات المسلمين المتعاقبة، وهزائم الصليبيين المتوالية،
وعداوات الأوروبيين بينهم وخطاياهم، إلى نهاية الحملات الصليبية

الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (٦٨٤-٧٤١هـ/١٢٨٥-١٣٤١م) ونهاية المغول:

ولد بالقاهرة وتوفي فيها، وقد ولد ووالده على حصار المرقب، تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية، ومن السلاطين الذين حكموا مدةً طويلة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى العرش منذ عام ١٢٩٣م،

واستمر حكمه ٣٣ عاماً مع أنه خلع في أول عهده ثم أعيد إلى الحكم، وخلع نفسه والتجأ إلى قلعة الكرك بعد سنوات من مدة حكمه الثانية، ثم عاد للاستمرار في الحكم. ومن أهم أعماله انتصاره على المغول في بلاد الشام مرتين، ومحاصرة عاصمة أرمينيا سيس، وإجبار أهلها على دفع كل ما تأخر عليهم من الجزية للمسلمين. وهو من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية. خاض حروباً ضد الصليبيين والمغول، وحروباً إصلاحية في الداخل ضد الفساد. شهدت مصر في مدة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطان آخر من سلاطين الدولة المملوكية. جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات: الأولى وعمره ٩ سنوات، و لثانيه وعمره ١٤ سنة، والثالثة وعمره ٣٥ سنة.

١. من ٦٩٣-٦٩٤هـ (١٢٩٣-١٢٩٤م)، تلاه السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م-١٢٩٥م)، والسلطان حسام الدين لاجين (حكم ١٢٩٦-١٢٩٩م).
٢. من ٦٩٨-٧٠٨هـ (١٢٩٩-١٣٠٩هـ) ثم خلع نفسه بسبب تحكم الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير ومؤامرتهما، فتسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، ولم يتهنَّ فيها من الفتن. ثم رجع محمد بن قلاوون إلى السلطنة بمساندة الجيش والشعب، فهرب المظفر من مصر قبل دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنى عطف مصر حين وافى	قدوم الناصر الملك الخبير
فذلّ الجشنكير بلا لقاء	وأمسى وهو ذو جأش نكير
إذا لم تعضد الأقدار شخصاً	فأول ما يُراع من النصير

٣. ومن ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حتى وفاته عام ٧٤١هـ/١٣٤١م.

معركة وادى الخزندار أو معركة حمص الثالثة عام ٦٩٩هـ-١٢٩٩م:

خلفية المعركة: بعد موت جنكيز خان عام ١٢٢٧م قسمت إمبراطورية المغول بين أبنائه الأربعة. وكانت الأجزاء التي تهم الدولة المملوكية جزأين هما: الجزء الغربي من دولة جنكيز خان من تصيب حفيده "باتو بن جوجي"، وعرف هذا الفرع باسم " القبيلة الذهبية " (خانات القفجاق) وشملت حدودها أجزاء مما يُعرف اليوم باسم (روسيا، أوكرانيا، مولدوفيا، كازاخستان). والجزء الآخر بلاد فارس وكان من نصيب "تولوي"، وعرف هذا الفرع باسم دولة "الإلخانات" (مغول فارس المتوحشون). وقد توسّع الإلخانات في آسيا الصغرى، واقتحموا حدود العالم الإسلامي، وفي عام ١٢٥٨م استولوا بقيادة "هولاكو" على بغداد ودمروها، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وقضوا على الخلافة العباسية، ثم استولوا على دمشق، وبذلك فقد المسلمون مركزين مهمين من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي.

أما القبيلة الذهبية في الجزء الغربي، فقد اعتنقت الإسلام، وصارت عضداً وحليفاً للمسلمين في حربهم ضد مغول فارس. وبعد الاستيلاء على بغداد ودمشق أرسل هولاكو إلى سيف الدين قطز سلطان مصر المملوكي يهدده ويأمره بالخضوع له. فخرج قطز من القاهرة بجند مصر، ومن انضم إليه من عسكر الشام والعرب والتركمان، واصطدم بجيش المغول في ٣ أيلول ١٢٦٠م وهزمه هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت الكبرى.

بانتصار قطز على مغول فارس تم تحرير دمشق من المغول، وتلاشت الدولة الأيوبية نهائياً، وامتدت الدولة المملوكية الناشئة إلى الشام. إلا أن معركة عين جالوت لم تنه مطامع مغول فارس في الشام، بل صار المغول يتربصون ويعدّون العدة لأخذ ثأر هزيمتهم على أيدي المماليك. لم يكد يعلم المغول بموت السلطان قطز حتى أغاروا بقيادة "بيدرا" على مدينة البيرة وبعد ذلك هاجموا حلب واستولوا عليها.

أدرك السلطان بيبرس الذي خلف قطز خطورة مغول فارس على دولة المماليك والعالم الإسلامي، فهادن الصليبيين وعقد حلفاً مع "بركة خان ابن جوجي" ملك مغول القبيلة الذهبية الذي أشهر إسلامه، حتى يتفرغ لمواجهة خطر مغول فارس. وتمكن بيبرس من استرداد البيرة ووقف للمغول والصليبيين بالمرصاد، وهزمهم في وقعة حمص الأولى، والفرات وإبلستين.

بعد وفاة الظاهر بيبرس جدّد السلطان قلاوون (الذي خلف بيبرس وابنيه السعيد بركة خان وسُلامش)، الهدنة مع الصليبيين ليتفرغ هو الآخر لمواجهة الخطر المغولي، حيث اجتاح "أباقا بن هولاكو" الشام، فتصدى له السلطان قلاوون وهزم جيوش المغول هزيمة نكراء عند حمص سنة ١٢٨١م (معركة حمص الثانية). وبعد وفاة أباقا خلفه أخوه "تكودار" الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه (أحمد) مما أدى إلى تحسن العلاقات بين مغول فارس والمماليك. إلا أن تحسن العلاقات لم يدم طويلاً، إذ قتل تكودار على يد ابن أخيه "أرغون بن أباقا" الذي ولي عرش مغول فارس مكانه في عام ١٢٨٤م وعرف بكراهيته وعدائه للمسلمين. بعد صراعات داخلية بين مغول فارس أطاح "غازان بن أرغون" بابن عم أبيه "بايدو بن طرقاي" عام ١٢٩٥م ليصبح بذلك سابع الخانات فارس، وقام بتبديل لقبه من الخان إلى سلطان.

ونشأ غازان نصرانياً وقامت بتربيته "ديسبينا خاتون" زوجة "أباقا"، التي كانت صديقة للصليبيين وعدوة لدودة لمسلمين. إلا أن غازان اعتنق الإسلام وسمّى نفسه محموداً، وجعل الإسلام الديانة الرسمية لدولة مغول فارس، لكنه ظل فاسد العقيدة ومارس الشامانية سراً، وكان أقرب إلى المجوس والروافض. ولم يؤد إسلامه إلى تلاشي أحقاده على المماليك وأطماعه في السيطرة على بلاد المسلمين. وبقي غازان صديقاً وحليفاً للصليبيين.

عندما استولى غازان على عرش الإلخانات كان السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م-١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة. وكان كتبغا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة الأويراتية.

وفيما بين عامي ١٢٩٦م-١٢٩٩م حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون المرة الثانية سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك ١٤ عاماً. وفي عهد السلطان لاجين فر الأميران قبجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار إلى المغول وأقاما عند غازان. فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى قبجق غازان بسهولة الزحف على الشام؛ نظراً إلى صغر سنّ السلطان الناصر وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة عام ١٢٩٩ حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام.



معركة وادي الخزندار ١٢٩٩ تصور انكسار المسلمين (لليمين) أمام جيش المغول (لليسار).
الحقيقة أن المسلمين وإن انكسروا لكنهم قتلوا من المغول قرابة ١٤٠٠٠ منهم. ولهذا لم يقم المغول بملاحقة المسلمين.

زحف المغول على الشام: في سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م وردت أنباء عن زحف مغولي من حلب على الشام يقوده محمود غازان سلطان مغول فارس، وأن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة. جمع الناصر محمد الأمراء للتشاور واتفقوا على خروج بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان إلى حلب على رأس جيش صغير قوامه خمس مئة مملوك، على أن يلحق به الناصر ببقية الجيش. في ١٥ صفر خرج الناصر من القاهرة على رأس جيشه متوجهاً إلى دمشق وفي صحبته الخليفة العباسي الإمام أحمد الحاكم بأمر الله، والقضاة الأربعة، وسائر الأمراء.

تآمر المغول الأويراتية: عند وصول جيش الناصر محمد إلى تل العجول من غزة تآمر المغول الأويراتية الذين وفدوا إلى مصر وأقاموا فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا، مع بعض المماليك السلطانية على اغتيال الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستادار السلطان بهدف الانتقام وإعادة كتبغا – وهو مغولي الأصل – إلى الحكم. وأفلت بيبرس من القتل بعد أن هاجمه أحد المماليك السلطانية ويدعى برنطاي ولكنه نجا. وقُتل برنطاي بعد أن تبادرته السيوف. ظن سلار أن المؤامرة قد تمت بمعرفة الناصر فأرسل إلى أمير جاندار يقول: "ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو؟ وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برأيك ورأي السلطان، وقد دفع الله عنا.

إن كان الأمراء كذلك فنحن مماليك السلطان ومماليك أبيه الشهيد، ونحن نكون فداء للمسلمين، وإن لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماءنا". فلما سمع الناصر هذا الكلام بكى، وأقسم أنه لم يكن يعلم. وأقسم أمير جاندار أيضاً وذكر أنه ظن أن السلطان كان هو هدف المتآمرين.

وتم الصلح بين أمير جاندار والأمراء البرجية. وقُبض على الأويراتية، فأقروا بما كانوا قد عزموا عليه من قتل بيبرس الجاشنكير وسلار وإعادة العادل كتبغا إلى الحكم. وشنق نحو الخمسين من الأويراتية، ونودي عليهم: "هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك".

في ٨ ربيع الأول وصل الناصر إلى دمشق على رأس جيشه، ووردت الأنباء بالبريد ومع القادمين من حلب وغيرها بعبور غازان نهر الفرات بجيش ضخم. في ١٧ ربيع الأول خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه ونزلوا بحمص. وأرسل الناصر العربان لمعاينة وضع المغول، فبلغه أنهم يحتشدون عند سلمية. وفي سحر ١٨ ربيع الأول خرج الناصر من حمص لملاقاة المغول. وقد أمر الجنود بالتخلي عن الرماح والاعتماد على السيوف والدبوس. ووصل الناصر إلى مجمع المرج –الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار – وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف وراح الفقهاء يعظون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكوا من وقع الكلمات وشدة التأثر.

تطور المعركة الميدانية: كانت عدة جيش المسلمين نحو ٢٠ ألف فارس وكان جيش غازان في نحو ١٠٠ ألف، وكان يضم قوات متحالفة من مملكة قليقية Cilicia الأرمنية. وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماه. ووقف على رأس الميسرة أقش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء. أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار وأيبك الخازندار في عدة من الأمراء. ووقف الناصر محمد على بعد مع حسام الدين لاجين الأستادار. وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه.

أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طليعة جيش الناصر (الزرّاقون) بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول، لم يتحرك غازان

بعكس ما توقع المسلمون، وظل غازان على ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم جيشه حملة واحدة. انطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة النشاب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم فولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماه فهزمت ميمنة جيش المسلمين. أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت من صدم ميمنة غازان صدمة قوية فرقت جمعها ودحرتها عن آخرها، وفقد المغول في تلك الصدمة نحو خمسة الآلاف. وعرف الناصر محمد ذلك فابتهج.

كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبجق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقفيتهم. رأى الملك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفه جيش غازان يمطره بالسهام، فراح يبكي ويبتهل قائلاً "يارب لا تجعلني كعباً نحساً على المسلمين". لم يبق مع الناصر من المماليك غير اثني عشر مملوكاً.



الحليفان المغولي والنصراني: غازان إيلخان المغول (وهو جالس في الخيمة)
وهيثوم ملك أرمينية الصغرى (راكع على الأرض لليسار)

عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية يولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبهتوا. إلا أن غازان أمر مقاتليه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً فنجوا.

وصل بقية المنهزمين إلى حمص وقت الغروب بلا عتاد ولا سلاح، بعد ما غنم المغول سائر ما كان معهم، فصرخ فيهم أهل حمص: "الله الله في المسلمين!"، ثم توجهوا إلى دمشق.

وبلغ السلطان أن التتار قد نزلوا بالقرب من سلمية وأنهم يريدون الرجوع إلى بلادهم لما بلغهم من كثرة الجيوش واجتماعهم على قتالهم – وكان هذا الخبر مكيدة من التتار – فركب السلطان بعساكره من حمص بكرة يوم الأربعاء وقت الصبح ٢٧ شهر ربيع الأول وساقوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار، فركب التتار للقائهم وكانوا تهيؤوا لذلك، وكان الملتقى في ذلك المكان في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما وقد كلت خيول السلطان وعساكره من السوق والتحم القتال بين الفريقين، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة وقتلوا منهم جماعة كثيرة نحو ٥٠٠٠ أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير.

ثم حملت القلب أيضاً حملة هائلة، وصدمت العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض – بلاء من الله تعالى – فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر فلا قوة إلا بالله. ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كان وراء السناجق السلطانية من غير قتال وألقى الله تعالى الهزيمة عليهم، فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومدبري مملكته إلى نحو بعلبك وتركوا جميع الأثقال ملقاة فبقيت العدد والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بقيت الرماح في الطرق كأنها القصب لا ينظر إليها أحد، ورمى الجند خوذهم عن رؤوسهم وجواشنهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتنجيهم بأنفسهم وقصد الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك.

ولما بلغ أهل دمشق وغيرها كسرة السلطان عظم الضجيج والبكاء وخرجت المخدرات حاسرات لا يعرفن أين يذهبن والأطفال بأيديهن وصار كل واحد في شغل عن صاحبه، إلى أن ورد عليهم الخبر أن ملك التتار قازان مسلم وأن غالب جيشه على ملة الإسلام وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجدوه وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً. ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله وحواصله وتوجه إلى جهة مصر وبقي من بقي بدمشق في خمدة وحيرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم، فطائفة تغلب عليهم الخوف وطائفة يترجون حقن الدماء وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة.

واجتمعوا في يوم الأحد بمشهد علي من الجامع الأموي واشتوروا في أمر الخروج إلى ملك التتار غازان وأخذهم أماناً لأهل البلد، فحضر من الفقهاء قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وهو يومئذ خطيب جامع هل دمشق، والشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين بن صصري، و لصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والقاضي عز الدين بن الزكي، والشيخ وجيه الدين بن المنجا، والشيخ عز الدين بن القلانسي، وابن عمه شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحرائي، والشريف زين الدين بن عدنان، و لصاحب شهاب الدين الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري، والشيخ محمد بن قوام النابلسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القزويني – وقد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلاً إلى مصر – وجلال الدين بن القاضي حسام الدين الحنفي، وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء.

وأما السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة. وأما العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يعبر عن حالهم: فإنه كان أكبر الأمراء يرى وهو وحده وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته وهو مسرع في السير خائف متوجه إلى جهة الكسوة لا يلوي على أحد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم، وقد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل وأمعن العامة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم ولا ينتقمون من أحد منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: مع أن الله تعالى لطف بهم لطفاً عظيماً إذ لم يسق عدوهم خلفهم ولا تبعهم إلا حول المعركة وما قاربها، وكان ذلك لطفاً من الله تعالى بهم. وبقي الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر فوصل أربعة من التتار ومعهم الشريف القمي وتكلموا مع أهل دمشق فلم يبرم أمر. ثم قدم من الغد آخر ومعه فرمان يعني مرسوماً من غازان بالأمان وقرئ بالمدرسة البادرائية، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرفهم أنه يحب العدل والإحسان للرعية وإنصاف المظلوم من الظالم وأشياء من هذا النمط فحصل للناس بذلك سكون وطمأنينة.

الخسائر: استناداً إلى المقريزي، قتل في المعركة العديد من الأمراء، ونحو أربعة عشر ألفاً من المغول. وتجدر الإشارة إلى أن المماليك كانوا عادة يحصون عدد الأمراء المقتولين مع عدم الإشارة إلى المقتولين من عوام الجنود والمتطوعين. ويذكر ابن إياس أن عدد القتلى من الجانبين كان ضخماً.

دخول المغول دمشق: ما كاد المنهزمون يصلون إلى دمشق حتى وصل خبر بقدوم غازان، فسارعوا بمغادرة المدينة. وصل غازان إلى أطراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمين في معركة حمص، فقامت ضجة عظيمة وهرب الناس من المدينة في فزع، وهرب نحو مئتي سجين من السجون ومات من الزحام في الأبواب العديد من الناس، وفر إلى جهة مصر كثير منهم. واجتمع من بقي في المدينة بالجامع الأموي، واتفقوا على إرسال قاضي القضاة بدر الدين محمد والفقيه تقي الدين أحمد بن تيمية، في عدة من شيوخ وقضاة دمشق، إلى غازان لطلب الأمان. فذهبوا إليه ومنهم من قبل له الأرض، وطلبوا منه الأمان عن طريق مترجم، فقال لهم: "قد بعثت إليكم الأمان" وصرفهم، فعادوا إلى دمشق، وفي يوم الجمعة قرأ الأمير إسماعيل التتري الفرمان، الذي حمل الأمان لأهل دمشق. ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذلك اليوم. وبعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبجق نائب دمشق.

ثم دخل الأمير قبجق المنصوري الذي كان نائب دمشق قبل تاريخه وهرب من الملك المنصور لاجين إلى غازان ومعه رفقته الأمير بكتمر السلاح دار وغيره إلى دمشق. وهرب القادة المسلمين خوفاً وهو أهم أسباب الفرقة والهزيمة، ومن ثم عمل السلطان محمد بن قلاوون على توحيد الصف داعياً إلى رجوع هؤلاء القادة من غازان إلى جيش الإسلام، خصوصاً بعد أن اكتشف الجميع أن محمود غازان الذي يدعي الإسلام كان فاسداً ديناً ودنيا.

استمرار جهاد البطل ارجواش في قلعة دمشق: رفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان، وتحصن في قلعة دمشق، معلناً بذلك عدم سقوط دمشق. ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار حماية للسكان، فوقف ابن تيمية أمامهم وطلب من صاحب القلعة عدم تسليمها لو لم يبق فيها إلا حجرٌ واحد، فأخذ صاحب القلعة برأي ابن تيمية وكان فيه مصلحة للمسلمين.

فلما كلم قبجق وبكتمر الأمير أرجواش المنصوري خشداشهم نائب قلعة دمشق في تسليمها إلى غازان وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها. فأجابهم: (دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها). ثم وبّخهم ولم يسلم قلعة دمشق وتهيأ للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة. فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة دمشق وأعيانها يحذرهم من مغبّة عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة إلى المغول، وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم.

ودخل غازان دمشق في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٦هـ، وخطب لغازان على منبر دمشق بألقابه وهي: "السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرئ على الناس تقليد قبجق دمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم، ونثرت الدنانير على الناس ففرحوا بها. ونهب المغول وأرمن مملكة قليقية المدن وأحرقوا المساجد والمدارس وقتلوا الناس. قام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق، سوريا) وقتلوا وأسروا نحو ١٠٠٠٠ من أهلها وفرّ من تمكن منهم إلى دمشق.

وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين فاستولوا على تل حمدون وغيرها. وخرج ابن تيمية إلى غازان بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان، فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب الخمر. فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فنصحاه بدفع المال. نصب المغول المنجنيق على القلعة بالقرب من جامع دمشق

الكبير فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول، ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته، وحولوا الجامع إلى حانة، واستباحوا حرمته وشربوا فيه الخمور وفجروا بنساء المسلمين، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت. فأرسل أرجواش رجلاً لقتل المنجنيقي فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة. ثم قام أرجواش بهدم ما حول القلعة وحرقه لئلا يستتر به المغول.

رحيل غازان والمغول بعد السرقة والفساد: راح المغول يجبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان. فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماه، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلو شاه، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها". بعد رحيل غازان استمر نهب دمشق وتخريبها، وكسر المغول أبواب البيوت ونهبوا ما فيها وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس واحترقت المدرسة العادلية. ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى غزة حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها. وحين بدأ بعض التتار ببعض أعمال القتل والنهب والسبي، خرج ابن تيمية مع جماعة إلى ملك التتار قازان ولم يحصل لهم الاجتماع به، واستعصت القلعة على قازان، فعاد إلى العراق وترك نائبه بولاي في الشام في ستين ألف مقاتل، ثم توجه جماعة من التتار جهة الغور فعاثوا فيه الفساد، فخرج ابن تيمية إلى بولاي وكلمه في أسارى المسلمين الذين معه، ففك أسر كثير منهم.

ولابن قاضي شهبة:

رمتنا صروف الدهر حقاً بسبعة	فما أحدٌ منا من السبع سالم
غلاءٌ وغازان وغزو وغارة	وغدر وإغبان وغمٌ ملازمُ

ودامت هذه الشدة على أهل دمشق، والحصار حاصل في كل يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش (كان عنده سلامة باطن).

وجرى جبي المال، وأخذه غازان وسافر من دمشق في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى بعد أن ولى الأمير قبجق المنصوري نيابة الشام على عادته أولاً وقرر بدمشق جماعة أُخر يطول الشرح في ذكرهم.

وأقام الأمير قطلوشاه مقدم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقي من الأموال ولحصار قلعة دمشق، ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقية التتار في يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى. وخرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه وانقطع أمر المغول من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم.

قال ابن المنجا: إن الذي حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف وست مئة ألف سوى ما محق عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك، بحيث إن الصفي السنجاري استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم وللأمير إسماعيل مئتي ألف درهم وللوزير نحو أربع مئة ألف وقس على هذا. واستقر بدمشق ورُسم أن ينادى فيها أن أهل القرى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم: رسم بذلك سلطان الشام حاج الحرمين سيف الدين قبجق. وصار قبجق يركب بالعصابة والشاويشية بين يديه وجتمع الناس عليه.

كل ذلك والقتال والمباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وبين قبجق المذكور ونواب قازان والرسل تمشي بينهم في الصلح، وأرجواش يأبى تسليم القلعة له: فلله درّ هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفل كان فيه حسب ما يأتي ذكره. هذا وقبجق غير مستبد بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنواب قازان مثل بولاي وغيره.

وصلت الأخبار بقدوم الجيوش المصرية إلى الشام، فخرج بولاي ومن معه من التتار من دمشق وبقيت دمشق بلا جند ولا حرس، فنودي في أهلها أن يخرجوا بأسلحتهم ويبيتون على الأسوار والأبواب يحرسون البلد، فخرجوا على الأسوار، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة، يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط، (هكذا يكون تفاعل الأمة المؤمنة مع الأزمات).

ثم سافر بولاي من دمشق بمن كان بقي معه من التتار في عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب ومعه قبجق وقد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار، وبعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

وفي يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون وللخليفة الحاكم بأمر الله على العادة ففرح الناس بذلك. وكان أسقط اسم الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر فالمدة مئة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة في البلد فزينت.

ولما عادت الحياة إلى دمشق دار ابن تيمية وأصحابه على الخانات فكسروا آنية الخمر وأباريق، ثم خرج ابن تيمية مع الأفرم نائب دمشق إلى بلاد جبيل وكسروان لتأديبهم على دعمهم التتار وإغارتهم على المسلمين، فخرج رؤساؤهم إلى ابن تيمية فأظهروا الطاعة والندم وردّوا كل ما أخذوا.

ثم عاد الأفرم إلى دمشق وصدرت الأوامر أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلموا الرمي، فبنيت الإماجات (وهي معسكرات التدريب) في دمشق، وأمر الفقهاء أن يتعلموا الرمي استعداداً لأي طرف طارئ، وهكذا يجب أن تستعد الأمة في أوقات الرخاء، حتى إذا نزلت الشدائد انبرى من أبنائها من يدافع عنها ويرد عنها كيد الأعداء.

وحاول جواسيس المغول النكاية بابن تيمية في حادثة يرويها ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج١٤/ص٢٧): (وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام، وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأفرم، وكذلك كمال الدين بن العطار. فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل، ففحص عن واضعه فإذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له اليعفوري، وآخر معه يقال له أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشر والفضول. ووجد معهما مسودة هذا الكتاب، فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزرا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك، وقطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج المناديلي. وفي أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري إلى نيابة القلعة عوضاً عن أرجواش).

أخبار عودة التتار إلى الشام: فلما استهلت سنة ٧٠٠هـ كثرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان، وكان قازان قد تسمى محموداً وصار يقال له السلطان محمود غازان، وكان شامانيا بوذياً ثم أسلم عام ٦٩٤هـ وأسلم معه ٧٠ ألفاً من التتار، ولكنه إسلام فيه فساد في العقيدة وموالاة للنصارى وقتال للمسلمين.

ثم وصلت في أول المحرم من سنة ٧٠٠هـ الأخبار والقصاد من الشرق وأخبروا أن قازان قد جمع جموعاً كثيرة وقد نادى في جميع بلاده الغزاة إلى مصر، وأنه قاصد الشام، فجفل أهل الشام من دمشق وتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزة. فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهز عساكره وتهيأ وخرج بجميع عساكره وأمرائه من القاهرة إلى مسجد التبن في يوم السبت ثالث عشر صفر وسافر حتى قارب دمشق.

وأقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر وتوجه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية بعد أن لاقوا شدة ومشقة عظيمة من كثرة الأمطار والثلوج والأوحال وعدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جلب المأكول لهم ولدوابهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق. وكان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعه الجبل يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى.

وقبل عود السلطان إلى مصر كان جهز السلطان الأمير بكتمر السلاح دار والأمير بهاء الدين يعقوبا إلى دمشق أمامه فدخلوا دمشق. ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة فجفل غالب أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعهم بل يحسّن لهم ذلك. وقيل إن والي دمشق بقي يجمّل الناس بنفسه وصار يمر بالأسواق ويقول: في أي شيء أنتم قعود! ولما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق: من قعد قدمه في رقبته ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة. فسافر في ذلك اليوم معظم الناس.

انتقام الله من جيش قازان المغولي: وأما قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قرون حماه وإلى بلاد سرمين وسير معظم جيشه إلى بلاد انطاكيا وغيرها فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حد الكثرة، وسبوا عالماً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان.

ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث إنه أمطر عليهم ٤١ يوماً وقت مطر ووقت ثلج فهلك منهم عالم كثير، ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين وقد تلفت خيولهم وهلك أكثرها وعجزهم الله تعالى وخذلهم وردهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ابن تيمية الإمام العالم العامل ودوره في الجهاد:

للظروف التاريخية والسياسية دور في تنضيج شخصية ابن تيمية، وشهرتها، وقد كان له بصماته الواضحة في أحداث تاريخية وسياسية مفصلية في التاريخ الإسلامي، ولعل أشهر أدواره تصديه لحملات التتار ونجاحه في تحريض عوام المسلمين وأمرائهم على جهادهم بحنكة إدارية ودبلوماسية شجاعة، وقد تجلت هذه الشجاعة والحنكة الدبلوماسية في أثناء رئاسته وفداً من أبناء دمشق وذهابه إلى الملك "قازان" ملك التتار وطلب الأمان لأهل دمشق، وتحذيره من ممارسة العبث والفساد، وذهابه إلى قائد التتار "بولاي" وإقناعه بالإفراج عن الأسرى من أهل دمشق، ثم سفره إلى سلطان المماليك وإقناعه بضرورة إرسال جيشه لمواجهة التتار.

وكانت دمشق في عصر ابن تيمية تعيش حالة فراغ دستوري وإداري، ونجح ابن تيمية في سد هذا الفراغ، وتحديداً من بعد موت الظاهر بيبرس، وكان الناس يلوذون به عندما تدلهمّ الخطوب ويفزع الناس وبر عسكر نائب السلطان في دمشق. ومن يقرأ التاريخ يجد أن ابن تيمية كان أشبه ما يكون بالحاكم الحقيقي، وأن وجود نائب السلطان كان وجوداً رمزياً، ولهذا توسع ابن تيمية في مفهوم فقه الحسبة، وكان أحياناً يقود الجيش بنفسه ليحارب بهم بعض فرق الشيعة التي تواطأت مع التتار، واتهمه خصومه باستغلال هذا النفوذ في إقصائهم، وقاموا بتنظيم عدد من الفاعليات الاحتجاجية للمطالبة برفع ولاية ابن تيمية عليهم، وجلب له الحضور السياسي عداوات فقهاء المذاهب الأخرى.

وفي صفر سنه ٧٠٠هـ جاءت الأخبار بعودة التتار إلى بلاد الشام فاضطرب الناس وزادات أجرة النقل، وبيعت الأمتعة والثياب بأرخص الأثمان. وجلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع في الثاني من صفر، وحرض المؤمنين على القتال وبذل الأموال، ونهاهم عن الفرار، فسكن الناس وهدأت الأوضاع. ثم قام ابن تيمية بأعمال جليلة في هذه

الأزمة فخرج إلى نائب الشام والجيش المرابطين، فثبتهم وطيب قلوبهم، ووعدهم بنصر الله، وبات عندهم ليلة، وعاد إلى دمشق.

ثم جاءت الأخبار برجوع السلطان الناصر محمد وجيشه إلى مصر، فسأل أميرُ الشام ابنَ تيمية أن يسير إليه، فركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان وطلب منه النصرة، وخوّفه بالله، وهدده بأنه إذا تأخر فإن أهل الشام سيجعلون عليهم سلطاناً غيره يدافع عنهم. ثم أقام شيخ الإسلام بمصر ثمانية أيام يحث الناس على الجهاد والخروج. وقد اجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية بشيخ مصر تقي الدين بن دقيق العيد قاضي الديار المصرية ومشيخة دار الحديث الكاملية منذ ٦٩٥هـ، فقال له تقي الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه: (ما أظن بقي يُخلق مثلك). واستجاب السلطان والناس لدعوة الشيخ ابن تيمية، وتحرك الجيش المصري إلى الشام، واستعد المسلمون للحرب، ثم جاءت الأخبار بانسحاب التتار إلى العراق وكفى الله المؤمنين القتال.

رسالة ابن تيمية في جهاد التتار وجهاد عملاء التتار من منافقي الأمة الإسلامية:

رسالة ابن تيمية الشيخ العالم العامل في جهاد المغول من البدائع اللغوية والوثائق التاريخية، فهي نموذج لجهاد هذا العالم الفاضل في سبيل الله، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان الشجعان، الذين شاهدوه في القتال في أثناء فتح عكا فعجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو، خاصة بعد أن بدأ التخاذل من قبل المنافقين يسري بين الناس (وما أشبه اليوم بالبارحة)، فكتب ابن تيمية الرسالة هذه سنة ٧٠٠هـ بُعيد انكسار المسلمين أمام التتار في معركة الخازندار (٦٩٩هـ) واحتلالهم دمشق (٧٠٠هـ) وخروجهم منها بسرعة، ثم حاول التتار القدوم ثانية، لكن قدّر الله تعالى أن يردّ كيد التتار في ذلك العام، فقد أرسل الله تعالى عليهم برداً شديداً ومطراً شديداً متصلاً لأكثر من ٤٠ يوماً، فرّق الله به جموعهم، وأهلك أنعامهم، ورد كيدهم عن المسلمين سنة ٧٠٠–٧٠١هـ. نشر ابن تيمية رسالته هذه (قبيل موقعة شقحب ٧٠٢هـ–١٣٠٣م)، يستثير الهمم لقتال التتار بكل قوة وحماس، حتى قال في ذلك: (إذا رأيتموني في ذلك الجانب – أي في جانب العدو – وعلى رأسي مصحف فاقتلوني)، وأدت الرسالة نفعها ومفعولها، حين انتصر المسلمون بفضل الله في وقعة شقحب انتصاراً مؤزراً عظيماً ونهائياً على المغول، الذين أسلموا من بعد ذلك، ودخلوا دار الإسلام طائعين مسلمين ومؤمنين بدين الله: دين الإسلام الخالد. والرسالة من أبدع ما كتب للتدبر بمعانيها (مذكورة في مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج٢٨، ص٤١٠–٤٦٧، والعقود الدرية: ص١٢٦–١٩١):

[بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته وخيرته من بريته محمد عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وسلم تسليماً.

أما بعد: فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

والله تعالى يحقق لنا التمام بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦–٢٧].

فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام: قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم، على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين: مما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة: فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي.

وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا، فنشبّه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين، كما قال تعالى لما قصّ قصة يوسف مفصلة وأجمل قصص الأنبياء، ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة، وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممن قبلها من الأمم، وذكر في غير موضع: أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة، فقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

وأخبر سبحانه أنّ دأب الكافرين من المستأخرين، كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنّة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم، لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشّر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتثّ ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدّين باستيلاء الفجرة التّتار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنّ ما وعدهم الله ورسوله إلا غروراً، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبهم، وظنوا ظنّ السّوء، وكانوا قوماً بوراً.

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرّجل الصّاحي منزلة السّكران، وتركت الرّجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإيقان، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق، وضعف إيمان ورفع بها أقواماً إلى الدّرجات العالية، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى، ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى، فإن الناس تفرّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرّ الرّجل فيها من أخيه وأمّه وأبيه: إذ كان لكلّ امرئ منهم شأن يغنيه

وكان من الناس من أقصى همته النّجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشّفيع المطاع، وهم درجات عند الله في المنفعة والدّفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشّكوى، إلا الإيمان والعمل الصّالح والبرّ والتّقوى، وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضّمائر، وتبيّن أنّ البهرج من الأقوال والأعمال، يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل، وذمّ سادته وكبراءه من أطاعهم، فأضلوه السّبيلا، كما حمد ربّه من صدق في إيمانه، فاتّخذ مع الرّسول سبيلاً، وبان صدق ما جاءت به الآثار النّبوية من الأخبار بما يكون، وواطئها قلوب الذين هم في هذه الأمّة محدّثون، كما تواطأت عليه المبشّرات التي أريها المؤمنون، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة، على الدّين الذين لا يضرّهم من خالفهم، ولا من خذلهم إلى يوم القيامة.

حيث تحزبت النّاس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذلٌ له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام، وانقسم النّاس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غرّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤].

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة: أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرع له الجهاد إباحة له أولاً، ثم إيجاباً له ثانياً: لما هاجر إلى المدينة، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله، فغزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بدار الهجرة، وهو نحو عشر سنين: بضعاً وعشرين غزوة، أولها غزوة بدر وآخرها غزوة تبوك: أنزل الله في أول مغازيه (سورة الأنفال) وفي آخرها (سورة براءة)، وجمع بينهما في المصحف: لتشابه أول الأمر وآخره، كما قال أمير المؤمنين عثمان: لما سئل عن القران بين السورتين من غير فصل بالبسملة.

وكان القتال منها في تسع غزوات، فأول غزوات القتال: بدر وآخرها حنين والطائف، وأنزل الله فيها ملائكته كما أخبر به القرآن: ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً: فإن بدراً كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ما بين المدينة ومكة شامي مكة، وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة، وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة، ثم قسم النبي ﷺ غنائمها بالجعرانة واعتمر من الجعرانة، ثم حاصر الطائف، فلم يقاتله أهل الطائف زحفاً وصفوفاً، وإنما قاتلوه من وراء جدار، فآخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً: هي غزوة حنين.

وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار، وقتل الله أشرافهم وأسر رؤوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم: فإنهم كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر ليس معهم إلا فرسان، وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد، وكان عدوهم يقدرهم أكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء، فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة، وفيها النبي ﷺ وأصحابه، فخرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه في نحو من ربع الكفار، وتركوا عيالهم بالمدينة لم ينقلوهم إلى موضع آخر.

وكانت أولاً الكرة للمسلمين عليهم ثم صارت للكفار، فانهزم عامة عسكر المسلمين، إلا نفراً قليلاً حول النبي ﷺ منهم من قتل ومنهم من جرح، وحرصوا على قتل النبي ﷺ، حتى كسروا رباعيته، وشجوا جبينه، وهشموا البيضة على رأسه، وأنزل الله فيها شطراً من سورة آل عمران من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وقال فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال فيها: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وكان الشيطان قد نعق في الناس: أن محمداً قد قتل، فمنهم من تزلزل لذلك فهرب، ومنهم من ثبت فقاتل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي، وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة: من فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والأعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوهم في أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة، شارعاً في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به؛ ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام، فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم - الذي هو على الحال المذكورة - لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين فإن النبي ﷺ قال: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له**».

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد، وكان بعد أحد بأكثر من سنة - وقيل بسنتين - قد ابتلي المسلمون عام الخندق، كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنحو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها (سورة الأحزاب)، وهي سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده ﷺ وأعز فيها جنده المؤمنين وهزم الأحزاب - الذين تحزبوا عليه - وحده بغير قتال؛ بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم، ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته: لما كان هو القلب الذي نصره الله فيها بغير قتال، كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواءً، وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق، وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق.

وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً ﷺ، وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس ثلاثة أقسام: قسماً مؤمنين وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسماً كفاراً، وهم الذين أظهروا الكفر به، وقسماً منافقين، وهم الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً، ولهذا افتتح (سورة البقرة) بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين، وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة، وكما فسره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في الحديث المأثور عنه في الإيمان ودعائمه وشعبه.

فمن النفاق ما هو أكبر ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار؛ كنفاق عبد الله بن أبي وغيره؛ بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ وما زال بعده؛ بل هو بعده أكثر منه على عهده؛ لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها - وكان النفاق معها موجوداً - فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وكما أنه ﷺ كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة: ١٠١)، كذلك خلفاؤه بعده وورثته: قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم، وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون (الزنادقة)، وقد اختلف العلماء في قبول توبتهم في الظاهر: لكون ذلك لا يعلم إذ هم دائماً يظهرون الإسلام، وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة: من المنجمين ونحوهم، ثم في الأطباء، ثم في الكتاب أقل من ذلك، ويوجدون في المتصوفة والمتفقهة، وفي المقاتلة والأمراء، وفي العامة أيضاً، ولكن يوجدون كثيراً في نحل أهل البدع: لا سيما الرافضة، ففيهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس في أحد من أهل النحل، ولهذا كانت الخرمية والباطنية والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية، ونحوهم من المنافقين الزنادقة: منتسبة إلى الرافضة، وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هولاء التتار: لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام: بل يتركونهم وما هم عليه، وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم في الدنيا، واستيلائهم على الأموال، واجترائهم على الدماء والسبي: لا لأجل الدين، فهذا ضرب النفاق الأكبر.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها: مثل أن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا اؤتمن، أو يفجر إذا خاصم، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**»، وفي رواية صحيحة: «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم**».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين. قال النبي ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق**» رواه مسلم، وقد أنزل الله (سورة براءة) التي تسمى الفاضحة: لأنها فضحت المنافقين، أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل: (ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها).

وعن المقداد بن الأسود (رضي الله عنه) قال: "هي سورة البحوث: لأنها بحثت عن سرائر المنافقين"، وعن قتادة (رضي الله عنه) قال: "هي المثيرة: لأنها أثارت مخازي المنافقين"، وعن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: "هي المبعثرة"، والبعثرة والإثارة متقاربان، وعن ابن عمر (رضي الله عنه) "أنها المقشقشة، لأنها تبرئ من مرض النفاق"، يقال: تقشقش المريض إذا برأ، قال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص: المقشقشتان: لأنهما يبرئان من النفاق.

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ غزوة تبوك عام تسع من الهجرة، وقد عز الإسلام وظهر، فكشف الله فيها أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد، ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال، وهذان داءان عظيمان: الجبن والبخل، قال النبي ﷺ: «**شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع**» حديث صحيح: ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار، كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٦).

وأما وصفهم بالجبن والفزع فقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧]، فأخبر سبحانه أنهم وإن حلفوا إنهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يفزعون من العدو: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يلجؤون إليه من المعاقل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد، أو ﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾ وهي جمع مغارة، ومغارات

سميت بذلك؛ لأن الداخل يغور فيها أي يستتر؛ كما يغور الماء: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾، وهو الذي يتكلف الدخول إليه، إما لضيق بابه أو لغير ذلك، أي مكاناً يدخلون إليه، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة: لولوا عن الجهاد ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعا لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام، وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا، وفيما قبلها من الحوادث وبعدها.

وكذلك قال في (سورة محمد) ﷺ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠] أي فبعداً لهم: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥]، فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد؛ وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن، فكيف بالتارك من غير استئذان.

ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى، وقال في وصفهم بالشح: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، فهذه حال من أنفق كارهاً، فكيف بمن ترك النفقة رأساً، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

وقال في السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥] فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حقه، أو منعه من مستحقه من جميع الناس؛ فإن الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العباد، وقد أخبر أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون - أي يعرضون ويمنعون، يقال: صد عن الحق صدوداً وصد غيره صداً - وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل: من وقف أو عطية على الدين كالصلاة والنذور التي تنذر لأهل الدين ومن الأموال المشتركة كأموال بيت المال ونحو ذلك، فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله، والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله، سواء كان ملكاً أو مقدماً أو غنياً أو غير ذلك، وإذا

تدخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب، فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة -ومستحقها: مصالحهم - أولى وأحرى.

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق، فإذا قرأ الإنسان (سورة الأحزاب)، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي: كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن، ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك: وجد مصداق ما ذكرنا، وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة، كما انقسموا في تلك، وتبين له كثير من التشابهات، افتتح الله السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وذكر في أثنائها قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧-٤٨]، ثم قال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢-٣]، فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله، فبالأولى يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وبالثانية يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومثل ذلك قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وهذا وإن كان مأموراً به في جميع الدين: فإن ذلك في الجهاد أوكد: لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين: وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله: ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وفيه سنام التوكل وسنام الصبر: فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل: ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولهذا كان الصبر واليقين - اللذين هما أصل التوكل - يوجبان الإمامة في الدين كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى: ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء، فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم: لأن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا، وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال إلى المعبود: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، والجنة: اسم للدار التي حوت كل نعيم، أعلاه النظر إلى الله إلى ما دون ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما قد نعرفه وقد لا نعرفه كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السورة بهذا، ثم إنه تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] كان مختصر القصة: أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، وجاؤوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين، فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد وأشجع وفزارة وغيرهم من قبائل نجد، واجتمعت أيضاً اليهود: من قريظة والنضير، فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك، كما ذكره الله تعالى في (سورة الحشر)، فجاؤوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ، ومجاورون له قريباً من المدينة، فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد، ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم بقدر المسلمين مرات متعددة، فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في آطام المدينة، وهي مثل الجواسق، ولم ينقلهم إلى مواضع أخر، وجعل ظهرهم إلى سلع – وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام – وجعل بينه وبين العدو خندقاً، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة، وكان عدواً شديد العداوة، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات.

وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغول، وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الأقدام و الإحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين، ومقصودهم الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها، كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين، ودام الحصار على المسلمين عام الخندق – على ما قيل – بضعاً وعشرين ليلة، وقيل: عشرين ليلة، وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر، وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الإثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة، واجتمع بهم الداعي وخاطبهم في هذه القضية، وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم: ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف، وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات، حتى كره كثر الناس ذلك، وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن لله فيه حكمة ورحمة، وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو: فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله، وهلك أيضاً منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم؟ حتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين لو يصطادونهم؛ لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة، وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

وهكذا هذا العام، جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال الفرات، وهو قبلي الفرات، فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر؛ لعظم البلاء: لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وقرب العدو وتوجهه إلى دمشق، وظن الناس بالله الظنونا، هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام، وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام، وهذا يظن إنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها فلا يقف قدامهم أحد فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها، وهذا – إذا أحسن ظنه –

قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم، كما خرج ذلك العام، وهذا ظن خيارهم.

وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات، أماني كاذبة وخرافات لاغية، وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم، وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات: لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء: بل إما أن يكون جاهلاً بها، وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية، فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وهكذا قالوا في هذه الفتنة، فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم، وأما الذين في قلوبهم مرض، فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة، فذكروا هنا وفي قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وفي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وذكر الله مرض القلب في مواضع، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، والمرض في القلب كالمرض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت؛ فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أم أفسد عمله وحركته، وذلك – كما فسروه: هو من ضعف الإيمان: إما بضعف علم القلب واعتقاده، وإما بضعف عمله وحركته، فيدخل فيه من ضعف تصديقه، ومن غلب عليه الجبن و لفزع: فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض.

وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه، وعلى هذا فقول: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] هو إرادة الفجور وشهوة الزنا كما فسروه به، ومنه قول النبي ﷺ: **«وأي داء أدوا من البخل؟»**، وقد جعل الله تعالى كتابه شفاءً لما في الصدور، وقال النبي ﷺ: **«إنما شفاء العي السؤال»**، وكان يقول في دعائه ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»**، ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك.

ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أولياءه، وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

[التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ [التوبة: ١٣].

فدلت هذه الآية – وهي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩] – على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة، التي توجب أمن الإنسان: من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا؛ لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة، وقيل: لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين الشرك، وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو، كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن؛ بل ننتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن و ما إلى مصر وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم، فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك، وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصةً والشام عامةً: لا مقام لكم بهذه الأرض، ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام، وإن كانت قد قرئت بالضم أيضاً، فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون – والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق والنساء والصبيان في آطام المدينة: يا رسول الله إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل – وأصل العورة: الخالي الذي يحتاج إلى حفظ وستر، يقال: اعور مجلسك إذا ذهب ستره أو سقط جداره، ومنه عورة العدو – وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، فلا نأمن على أهلنا فائذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ لأن الله يحفظها ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة الأسرة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٤]، فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها، ثم طلبت منهم الفتنة – وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق – لأعطوا الفتنة، ولجاؤوها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام – وتلك فتنة عظيمة – لكانوا معه على ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات، إما في حق الله وإما في حق العباد، كترك الصلاة وشرب الخمور، وسب السلف وسب جنود المسلمين والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير تلك من أنواع

الفتنة، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديماً وحديثاً في هذه الغزوة، فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ثم فر منهزماً لما اشتد الأمر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]، فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل. فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**» والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف (لن) ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها، فاقتضى ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن، فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا وتفاوتوا في المصائب، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم، وقل في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل: بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون، فإن الموت لا بد منه، وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلاً، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً، ثم ذكر جواباً ثانياً، أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل، ثم ذكر جواباً ثالثاً وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم من حضر الصفوف فسلم، وكم ممن فر من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد (ﷺ) - لما احتضر: (لقد حضرت كذا وكذا صفاً، وأن ببدني بضعاً وثمانين، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء).

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة، فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج، ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة فإنا ننتظركم، يثبطونهم عن القتال، وكانوا لا يأتون العسكر إلا ألا يجدوا بداً، فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة، فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ، فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ، فقال: أنت ههنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلي فقد أحيط بك وبصاحبك.

فوصف المثبطين عن الجهاد - وهم صنفان - بأنهم: إما أن يكونوا في بلد الغزاة أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما، وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد، كما جرى في هذه الغزاة، فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرهما،

صاروا يعوقون من أراد الغزو وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾[الأحزاب: ١٨-١٩]، أي: بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله، وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة، وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، و شح عليهم بفضل الله: من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره، فإن أقواماً يشحون بمعروفهم وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله، وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب: ١٩]، من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ويقال في اللغة (صلقوكم) وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي، ومنه (الصالقة): وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة، يقال: صلقه وسلقه، وقد قرأ طائفة من السلف بها؛ لكنها خارجة عن المصحف – إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً، ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغاً في خطبته؛ لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير، كما قال: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[الأحزاب: ١٩] وهذا السلق بالألسنة الحادة يكون بوجوه: تارةً يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم؛ فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه وخالفتموهم؛ فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة

وتارةً يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا، وتارةً يقولون – أنتم مع قلتكم وضعفكم – تريدون أن تكسروا العدو وقد غركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وتارةً يقولون: أنتم مجانين لا، عقل لكم تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم، وتارةً يقولون: أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد، وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم، قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم بأحق بها منا، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم.

وقيل: أشحة على الخير أي بخلاء به، لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم، وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم: من منع الحق وأخذ الباطل، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم والشح: فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»، فهؤلاء أشحاء على إخوانهم: أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير أي حراص عليه، فلا ينفقونه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠]، فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد، وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن. الوصف.

الثاني: أن الأحزاب إذا جاؤوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنبائكم: إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟

والوصف **الثالث:** أن الأحزاب إذا أتوا – وهم فيكم – لم يقاتلوا إلا قليلاً.

وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة، كما يعرفونه من أنفسهم ويعرفه منهم من خبرهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو، كما ابتلي رسول الله ﷺ، فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه، فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق؛ بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذاباً، كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فبين الله سبحانه – منكراً على من حسب خلاف ذلك – أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بـ (البأساء) وهي الحاجة والفاقة، و(الضراء): وهي الوجع والمرض، و(الزلزال): وهي زلزلة العدو، فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم، قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال، وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وأمره، وهذه حال أقوام في هذه الغزوة: قالوا ذلك.

وكذلك قوله: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أي: عهده الذي عاهد الله عليه، فقاتل حتى قتل أو عاش، و(النحب): النذر والعهد، وأصله من النحيب، وهو الصوت، ومنه: الانتحاب في البكاء، وهو الصوت الذي تكلم به في العهد، ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء – ومن صدق في اللقاء فقد يقتل – صار يفهم من قوله: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أنه استشهد، لا سيما إذا كان النحب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقضيه إلا بالموت، وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أي أكمل الوفاء، وذلك لمن كان عهده مطلقاً: بالموت أو القتل، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاءه إذا كان قد وفى بعضهم، فهو ينتظر تمام العهد.

وأصل القضاء: الإتمام والإكمال: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم، حيث صدقوا في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا؛ لا من قال كما قالت الأعراب: آمنا والإيمان لم يدخل في قلوبهم؛ بل انقادوا واستسلموا.

وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم، فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزاة، وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة: ليجزي الصادقين بصدقهم، وهم الثابتون الصابرون لينصروا الله ورسوله ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم، والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وقد فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنةً، لا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها.

وقد ذكر أهل المغازي – منهم ابن إسحاق – أن النبي ﷺ قال في الخندق: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»، فما غزت قريش ولا غطفان ولا اليهود المسلمين بعدها: بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة.

كذلك – إن شاء الله – هؤلاء الأحزاب من المغول وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، ويتوب الله على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم بالإسلام وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم، فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار كما قال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم، وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه، فكان من حكمته، أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم، وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله، وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه، وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين، وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه.

فلما ثبت الله قلوب المسلمين، صرف العدو جزاءً منه وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار، وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود، كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن تصف فيه قصة الخندق، بل من طالعها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي، مثل عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة وسعيد بن يحيى الأموي ومحمد بن عائذ ومحمد بن إسحاق والواقدي وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم مضافاً إلى عسكر حماه وحلب وما هنالك، وثبت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماه وأذلهم الله تعالى، فلم يقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار كما جرى في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب ﷺ فيها عمرو بن عبد ود العامري، لما اقتحم الخندق هو ونفر قليل من المشركين، كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين، وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم، وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات، وبعضهم في جزيرة فيها، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم، وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب بعد أن جرى – ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور – رجفات ووقعات صغار وعزمنا على الذهاب إلى حماه غير مرة لأجل الغزاة؛ لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا، وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماه ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقائهم ونالوا أجراً عظيماً، وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات: إما ثلاثة أو أربعة.

فكان من المقدر: أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب، فيهربون لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل (تيزين) و(الفوعة) و(معرة مصرين) وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي، وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض وأن عند بعضهم فرامين منهم: لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالماً بلي به، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل (سيس) والإفرنج، فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم، وهي الحصون – ويقال للقرون: الصياصي – ويقذف في قلوبهم الرعب، وقد فتح الله تلك البلاد، ونغزوهم إن شاء الله تعالى، فنفتح أرض العراق وغيرها وتعلو كلمة الله ويظهر دينه.

فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين – بعد أن كاد الإسلام أن ينثلم وكر العدو كرة فلم يلو عن، وخذل الناصرون فلم يلووا على، وتحير السائرون فلم يدروا من...، ولا إلى...، وانقطعت الأسباب الظاهرة، وأهطعت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتخاذلت القلوب المتناصرة، وثبتت الفئة الناصرة، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين بقوته وحوله، وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق، فالله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قال الشيخ رحمه الله:

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده، لما رجعت من مصر في جمادى الآخرة، وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد، ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماة، وتحريض الأمراء على ذلك، حتى جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم، فكتبته في رجب والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلى الله على أشرف الخلق محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. انتهى

العدل لتالي أساس النصر والتمكين: وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإن عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ١٢ ربيع الآخر وتبعته العساكر المصرية والشامية متفرقين. وتهيأ السلطان إلى لقاء غازان ثانياً وجهز العساكر وقام بكلفهم أتم قيام على صغر سنه.

بدأ الناصر فور عودته إلى القاهرة بتنظيم الجيش وتجهيزه؛ لأخذ الثأر من المغول. واستدعى صناع السلاح وجمعت الأموال والخيل والرماح والسيوف من كل أرجاء مصر. ورسم للجنود العائدين بالنفقة فمنحوا أموالاً كثيرة أصلحوا بها حوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم. ونودي بحضور الأجناد البطالين ووزعوا على الأمراء. استدعى مجدي الدين عيسى نائب الحسبة؛ ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الناس للنفقة على الحرب. فأحضر فتوى قديمة كان السلطان قطز قد استخدمها في أخذ دينار من كل شخص قبل معركة عين جالوت. ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد امتنع عن إصدار فتوى بهذا الخصوص قائلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم ورآه. وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا، وكان ذلك ليس بكاف؛ فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلا من

الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مجاس زوجته بأصناف الجواهر". عندئذ تقرر النظر في أموال التجار والأغنياء، وأخذ مايمكن أخذه من كل منهم بحسب قدرة كل واحد. وفرض على كل فرد من التجار والأغنياء من عشرة دنانير إلى مئة دينار، وطلب من أعيان التجار مالاً على سبيل القرض، فجرى جمع مبالغ كبيرة. على الرغم من التكاليف الباهظة والأعداد الكبيرة من نازحي الشام إلا أن ذلك لم يؤثر كثيراً في اقتصاد مصر، إذ ارتفع سعر السلاح ولكن هبطت أسعار الغذاء ولم يحدث نقص في الأسواق.



خريطة موقع معركتي وادي الخزندار وشقحب بين المماليك والمغول في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومحمود غازان

في أثناء ذلك وردت إلى القاهرة أنباء رحيل غازان عن دمشق وإقامة قبجق نائباً عليها، فأرسل الناصر إلى قبجق وبكتمر يدعوهما للولاء له، فاستجابا له وخرج قبجق من دمشق متوجهاً إلى مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم الملك الناصر بعد انقطاعها مئة يوم.

وسار بيبرس الجاشنكير وسلار إلى دمشق وأرسلا العسكر إلى حلب فقتلوا من كان فيها من أتباع غازان، وفرَّ بعضهم إلى غازان وعرَّفوه بغدر قبجق به. وأقيم العادل كتبغا نائباً على حماه، وخلع على أرجواش وأنعم عليه، وأقيم قبجق على نيابة الشوبك. وزحفت جنود الناصر على جبل الدروز وألزموا الدروز، بعد أن طلبوا الأمان، بإعادة العتاد والأموال التي نهبوها من الجنود وقت انسحابهم إلى مصر.

اللغة العربية في أروع تواصل بين ملك المغول الدجّال محمود غازان، وبين سلطان الإسلام البطل محمد بن قلاوون.

ووصل الخبر برجوعهم في جمادى الآخرة وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام من سكانها. وفيها في تاسع ذي القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار وأن التتار قد أرسلوا أمامهم رسلاً وأن رسلهم قد قاربت الفرات، ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية في ليلة الإثنين خامس عشر ذي الحجة وأعيان القصاد ثلاثة نفر: قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعي، وآخر عجمي، وآخر تركي.

ولما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء والمقدمين إلى القلعة وعملت الخدمة ولبسوا المماليك أفخر الثياب والملابس، وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحواً من ألف شمعة ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر ثم أحضروا الرسل وحضر القاضي بجملتهم وعلى رأسه طرحة، فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة وذكر آيات كثيرة في معنى الصلح واتفاق الكلمة ورغب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن بعده للسلطان محمود غازان ودعا للمسلمين والأمراء وأدى الرسالة.

ومضمونها: إنما قصدهم الصلح ودفعوا إليهم كتاباً مختوماً من السلطان غازان فأخذ منهم الكتاب ولم يقرؤوه تلك الليلة وأعيد الرسل إلى مكانهم.

فلما كان ليلة الخميس فتح الكتاب وقرئ على السلطان وهو مكتوب بالمغولي وكتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة حضر جميع الأمراء والمقدمين وأكثر العسكر وأخرج إليهم الكتاب وقرئ عليهم وهو مكتوب بخط غليظ في نصف قطع البغدادي ومضمونه:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

وننهي بعد السلام إليه، أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة، وشرّفنا بدين الإسلام، وأيدنا وندبنا لإقامة مناره، وسددنا وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم وما الله بظلام للعبيد.

وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار، وفيه تغل الشياطين وتغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم تفعله عباد الأصنام، فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا فهزتنا نخوة الكرام وحركتنا حمية الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا ولم يسعنا بعد هذا المقام، ودخلنا البلاد وقدمنا النية وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية.

وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً والله لا يحب الفساد، وأنه يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد. فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحمية للدين موافقة، فمزقناكم كل ممزق، والذي ساقنا إليكم هو الذي نصرنا عليكم، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة – الآية – فوليتم الأدبار، واعتصمتم من سيوفنا بالفرار، فعفونا عنكم بعد اقتدار، ورفعنا عنكم حكم السيف البتار، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم، ولو قدرتم ما عفوتم ولا عففتم، ولم نقلدكم منة بذلك بل حكم الإسلام في قتال البغاة.

كذلك وكان جميع ما جرى في سالف القدم، ومن قبل كونه جرى به في اللوح والقلم، ثم لما رأينا الرعية تضرروا بمقامنا في الشام لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام وما حصل في قلوب الرعية من الرعب عند معاينة جيوشنا، التي هي كمطبقات السحب، فأردنا أن نسكن تخوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد والعلو والمزيد، فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتونس بهم، وتعود في أمرها إليهم ويحرسونهم، من تعدي بعضهم على بعض بحيث إنكم ضاقت بكم الأرض، إلى أن يستقر جأشكم وتبصروا رشدكم، وتسيّروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، وأكرادكم المتمردين، وتقدمنا إلى مقدمي طوامين جيوشنا أنهم متى سمعوا قدوم أحد منكم إلى الشام أن يعودوا إلينا بسلام، فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

والآن، فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين، وقد أخذنا منكم القصاص وهو جزاء كل عاص، فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا، فقد تضررت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها، وتعذر سفر التجار، وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار، ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك

وتحاسب عليه، وأن الله عزّ وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وأنت تعلم أيها الملك الجليل أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل، وأننا مسؤولون عما جناه أقل من وليناه، وأن مصيرنا إلى الله، وإنا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً ونيةً؛ عاملون بفروضه في كل وصية.

وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد الله أعزه الله تعالى مشافهة يعيدها على سمع الملك، والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيَّر لنا هدية الديار المصرية؛ لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية، ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، والسلام الطيب منا عليكم. إن شاء الله تعالى).

فلما سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء في ذلك، وبعد أيام طلبوا قاضي الموصل أعني الرسول المقدم ذكره من عند قازان وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين، فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين، فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى ورغبوه غاية الرغبة، فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية.

ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم، فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم.

فلما سمعوا كلامه ورأوا ما فيه من غرض وهو مصلحة، فشرعوا ليعيّنوا من يروح في الرسالة، فعيّنوا جماعة منهم الأمير شمس الدين محمد بن التيتي والخطيب شمس الدين الجوزي خطيب جامع ابن طولون فتشفع ابن الجوزي حتى تركوه وعينوا القاضي عماد الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم، وهو ناظر دار العدل بالديار المصرية، وشخصاً هو أمير آخور من البرجية.

الحرب النفسية وجواب السلطان المسلم البطل محمد بن قلاوون على افتراءات غازان ملك المغول:

فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة، أدهش عقول الرسل مما رأوا من حسن زي عسكر الديار المصرية بخلاف زي التتار، وأحضروا الرسل في الليل إلى الدهليز إلى بين يدي السلطان، وقد أوقدوا شموعاً كثيرة ومشاعل عديدة وفوانيس وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد، بحيث إن البرية بقيت حمراء تتلهب نوراً وناراً، فتحدثوا معهم ساعة ثم أعطوهم جواب الكتاب وخلعوا عليهم خلع السفر، وأعطوا لكل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك. ونسخة الكتاب المسير إليهم صورته:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

علمنا ما أشار الملك إليه، وعوّل في قوله وفعله عليه، فأما قول الملك: قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام! وإنه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم، وأن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم، وفعلوا فعل من لا له دين، فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم مستمرّة من عهد آبائكم وأجدادكم، وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن

برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد، بل من الأطراف الطامعة ممن لا يُؤبه إليه، ولا يعوّل في فعل ولا قول عليه، وأن معظم جيشنا كان في تلك الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا، لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، وأنهم أكثر ليلهم سُجداً وأكثر نهارهم صيّاماً.

وأما قول الملك بن الملك الذي هو من أعظم القان، فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب، ويزعم أن جميع ما هو عنه من علمنا ساعة واحدة يغيب، ولو يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلاً أو راكباً، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب، أو يتحقق أن أقرب بطائنه إليه هو العين لنا عليه وإن كثر ذلك لديه. ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع وينتصر بالتابع والمتبوع، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح وألكن، وطلب من المسومات خيولاً وركاباً وكثّر سواداً وعدّد أطلاباً، ثم إنه لما رأى أنه ليس له بجيشنا قبل في المجال، عاد إلى قول الزور والمحال، والخديعة والاحتيال، وتظاهر بدين الإسلام واشتهر به في الخاص والعام والباطن، بخلاف ذلك حتى ظن جيوشنا وبطالنا أن الأمر كذلك، فلما التقينا معه كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله ويبعد عن نزاله ويقول: "لا يجوز لنا قتال المسلمين ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين"! فلهذا حصل منهم الفشل، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل، وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك.

وليس يرى من أصحابك إلا من هو نادم أو باكٍ، أو فاقد عزيزاً عنده أو شاكٍ، والحرب سجال: يوم لك ويوم عليك، وليس ذلك مما تعاب به الجيوش ولا تقهر، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر.

وأما قول الملك إنه لما التقى بجيشنا مزّقهم كل ممزق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به، وهو يعلم وإن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا، ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم، وإن كنتَ نصرتَ مرة فقد كسرت آباؤك مراراً، وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة، فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا قرار، وكما تدين تدان.

وأما قول الملك: إنه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلاً وعملاً ونية، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هذه البنية أعني الكعبة المضية، فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفيٍّ عنك ولا مكتوم، وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا من هو متمسك بهذا الدين، فأين وكيف وما الحجة! وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور، وتهتك الستور، وتفتض البكور، ويقتل فيه المجاورون، ويستأسر خطباؤه أو المؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان وتهتك النسوان، ويدخل فيه الكافر سكران، فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتك في دنياك وأخراك، ويا ويلك في مبدئك ومعادك، وعن قليل يؤذن بخراب عمرك وبلادك وهلاك جيشك وأجنادك.

وإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام وأنت في قولك صادق في الكلام وفي عقدك صحيح النظام، فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الفعال، وأوقع بهم أعظم النكال، لنعلم أنك على بيضاء المحجّة، وكان فعلك وقولك أبلغ حجة. ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحققوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص، وخدعتم باليمين والإيمان، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الصلبان، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزمات محمّدية، وقلوب بدرية، وهمم عليّة، عند الله مرضيّة، وجدّوا السير في البلاد ليتشفوا منكم غليل الصدور والأكباد، فما وسع جيشكم إلا الفرار، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار، فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام، فخشينا على رعيتكم تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مسلك، فأمرناهم بالمقام ولزوم الأهبة والاهتمام، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة، فإنا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشافهة، ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور وزهده في دار الغرور، ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم، فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح، وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مين ولا يشوبه تمويه، تقلدك سيف البغي ومن سل سيف البغي قتل به - ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله - فيُرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حكماً انتهيتم إليه، أو جزم أمراً عولتم عليه، يكون له في أول دولتكم حكم وتمكين، وهو فيما يعول عليه ثقة أمين، لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين.

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية، فليس نبخل عليه ومقداره عندنا أجل مقدار، وجميع ما يهدى إليه دون قدره، وإنما الواجب أن يهدي أولاً من استهدى لتقابل هديته بأضعافها، ونتحقق صدق نيته وإخلاص سريرته، ونفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل، ورضا رسوله في الدنيا والآخرة، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة. والله تعالى الموفق للصواب ا. انتهى.

خديعة الدجّال قازان

ثم في صفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأن قازان على عزم الركوب وقصد الشام، وأن مقدم عساكره الأمير بولاي قد قارب الفرات، وأن الذي أرسله من الرسل خديعة. فعند ذلك شرع السلطان في تجهيز العساكر وتهيأ للخروج إلى البلاد الشامية، ثم في أثناء ذلك ورد على السلطان قاصد الأمير كتبغا المنصوري نائب صرخد - وكتبغا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاجين المقدم ذكرهما - وأخبر أنه وقع بين حماة وحمص وحصن الأكراد برد، وفيه شيء على صورة بني آدم من الذكور والإناث، وصور قرود وغير ذلك. فتعجب السلطان وغيره من ذلك.

ثم في ليلة الجمعة ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٠١هـ في وقت السحر: توفي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن علي الهاشمي العباسي بمسكنه بالكبش ظاهر القاهرة، وحمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة ودفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبي الربيع سليمان: وتقدير عمره فوق العشرين سنة.

وكان السلطان طلبه في أول نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولاه والده وفوضه إليه، ثم عاد إلى الكبش. فلما فرغت الصلاة على الخليفة رد ولده المذكور وأولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، ونزل من القلعة خمسة خدام من خدام السلطان وقعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، وسيّر السلطان يستشير قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي في أمر سليمان المذكور: هل يصلح للخلافة أم لا، فقال: نعم يصلح وأثنى عليه.

وبقي الأمر موقوفاً إلى يوم يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور. فلما كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة، فطلع هو وأولاد أخيه بسبب المبايعة، فأمضى السلطان ما عهد إليه والده المذكور بعد فصول وأمور يطول شرحها بينه وبين أولاد أخيه، وجلس السلطان وخلع على أبي الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، ونُعت بالمستكفي وهي جبة سوداء وطرحة سوداء، وخلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعاً ملوّنة.

وبعد ذلك بايعه السلطان والأمراء والقضاة والمقدمون وأعيان الدولة ومدوا السماط على العادة. ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش وأجرى راتبه الذي كان مقرراً لوالده وزيادة، ونزلوا إلى الكبش وأقاما به إلى يوم

الخميس مستهل جمادى الآخرة، إذ حضر من عند السلطان المهمندار ومعه جماعة وصحبتهم جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة وأولاد أخيه ونساءهم وجميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل وأنزلوهم بالقلعة في دارين: الواحدة تسمى بالصالحية والأخرى بالظاهرية، وأجروا عليهم الرواتب المقررة لهم.

وكان في يوم الجمعة ثاني يوم المبايعة خطب بمصر والقاهرة للمستكفي هذا، ورسم بضرب اسمه على سكة الدينار والدرهم» انتهى.

في جمادي الآخرة عام ٧٠٢هـ-١٣٠٣م:

وصلت أخبار من حلب بأن جيش المغول أوشك على الزحف على الشام مرة أخرى، فخرج جيش الناصر بجيش مصر، وانضم إليه عسكر الشام، والتقى الجمعان في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ – ٢٠ نيسان ١٣٠٣م قرب دمشق، في معركة تعرف باسم معركة "شقحب" أو معركة "مرج الصفر". وفيها أبلى جيش المسلمين بلاءً حسناً، وانتصر فيها على جيش المغول نصراً كبيراً غسل عار هزيمة وادي الخزندار.

في رجب عام ٧٠٢هـ-١٣٠٣م:

قدم البريد إلى القاهرة من حلب بأن غازان على وشك التحرك إلى الشام، فخرج إلى دمشق الأمير بيبرس الجاشنكير على رأس ثلاثة آلاف من الأجناد.

وأرسل غازان قائده ونائبه قطلوشاه إلى الشام بجيش قوامه ٨٠ ألف مقاتل. ولما عرف قطلوشاه أن الناصر لم يخرج من مصر بعد، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي، توجه تواً إلى حماه.

انتصار المسلمين على التحالف الثلاثي: الأرمنيّ – الصليبيّ – المغوليّ:

١. **هاجم جيش من المسلمين بلاد الأرمن (حليف المغول والصليبيين).**

وتوجهوا إلى بلاد سيس، وأحرقوا الزروع ونهبوا ما قدروا عليه، وحاصروا مدينة سيس وغنموا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً من جفال الأرمن، وعادوا من الدربند إلى مرج أنطاكيا. ثم قدموا في تاسع عشر ذي القعدة.

٢. **إنشاء أسطول بحري ومهاجمة قاعدة الصليبيين في أرواد.**

ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس أن الفرنج أنشؤوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة أرواد وعمّروها بالعدد والآلات وكثر فيها جمعهم وصاروا يركبون البحر ويأخذون المراكب.

فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربية في محرم سنة ٧٠٢هـ، ففعل ذلك ونجزت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة وآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العلائي والي البهنسا، واجتمع الناس لمشاهدة لعب الشواني في يوم السبت ١٢ المحرم، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، حتى بلغ كراء المركب التي تحمل عشرة أنفس إلى مئة درهم، وامتلأ البر من بولاق إلى الصناعة حتى لم يوجد موضع قدم، ووقف العسكر على بر بستان الخشاب وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، وبرزت الشواني تجاه المقياس تلعب كأنها في الحرب، فلعب الشيني الأول والثاني والثالث وأعجب الناس إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، وتقدم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلا أنه خرج من الصناعة بمصر وتوسط في النيل إذا بالريح حركته فمال به ميلة واحدة فانقلب وصار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الحبالى وتكدر ما



هجوم التحالف المغولي (أحمر) الصليبي (أخضر) الأرمني (أزرق) واندحاره أمام المسلمين في شقحب (١٣٠٠-١٣٠١)

كانوا فيه من الصفو، فتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا ما سقط منه في الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير آقوش وسلم الجميع، فتكدر السلطان والأمراء بسببه وعاد السلطان بأمرائه إلى القلعة وانفض الجمع...

ثم شرع العمل في إعادة الشيني الذي غرق حتى نجز وندب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري إلى السفر فيه عوضاً عن آقوش الذي غرق رحمه الله تعالى، وتوجه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة وهي بالقرب من أنطرطوس، فأخربوها وسبوا وغنموا؛ وكان الأسرى منها مئتين وثمانين نفراً، وقدم الخبر بذلك إلى السلطان فسر وسر الناس قاطبة ودقت البشائر لذلك أياماً.

٣. **خروج أمة الإسلام لقتال التتار في ملحمة شقحب في رمضان ٧٠٢هـ.**

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب أن قازان عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعين من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير وطغريل الإيغاني وكراي المنصوري وحسام الدين لاجين أستادار بمضافيهم وثلاثة آلاف من الأجناد، وساروا من مصر في ثامن عشر شهر رجب وتواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفاً، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب الشام يرغبه في طعته.

ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق في نصف شعبان وليث يستحث السلطان على الخروج، وأقبل الناس من حلب وحماه إلى دمشق جافلين من التتار، فاستعد أهل دمشق للفرار ولم يبق لا خروجهم، فنودي بدمشق، من خرج منها حل ماله ودمه.

انتصار الطلائع الإسلامية على طليعة التتار:

وخرج الأمير بهادر آص والأمير قطلوبك المنصوري وأنس الجمدار في عسكر إلى حماه، ولحق بهم عساكر طرابلس وحمص فاجتمعوا على حماه عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصوري. وبلغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتركمان، فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس وبهادر آص وكجكن وعرلوا العادلي وتمر الساقي وأنص الجمدار ومحمد بن قرا سنقر في ١٥٠٠ فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض في ١١ شعبان على غفلة، فافترقوا عليهما أربع فرق وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم - وكانوا التتار فيما يقال ٤ آلاف - واستنقذوا التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار وهم نحو ٦ آلاف أسير. ولم يفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري وستة وخمسون من الأجناد، وعاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، وأسر العسكر المصري ٢٨٠ من التتار وكتب إلى السلطان بذلك ودقت البشائر بدمشق.

مقدم التتار: ففي شهر رجب من سنة ٧٠٢هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتدّ خوفهم جداً كما يقول الحافظ ابن كثير، وقنت الخطيب في الصلوات، وقُرئ صحيح البُخاري، وهذه عادة كانوا يستعملونها في مواجهة الأعداء فيعمدون إلى قراءته في المسجد الجامع. وشرع الناس في الهرب إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخّر مجيء العساكر المصرية عن إبانها فاشتدّ لذلك الخوف.

قال ابن كثير: (وفي يوم السبت ١٠ شعبان ضربت البشائر بالقلعة — أي قلعة دمشق — وعلى أبواب الأمراء، وخروج السلطان من مصر لمناجزة التتار المخذولين... وفي ١٨ شعبان قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين، فيهم كبار الأمراء من أمثال ركن الدين بيبرس الجاشنكير وحسام الدين لاجين وسيف الدين كراي). ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم بدر الدين أمير السلاح وأيبك الخزندار. فقويت القلوب في دمشق، واطمأن كثير من الخلق، ولكنّ الناس في الشمال سيطر عليهم الذعر، واستبدّ بهم الفزع، فنزح عدد عظيم منهم من بلاد حلب وحماه وحمص.

ثم خافوا أن يدهمهم التتار فنزلوا إلى المرج، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك البلاد فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً لتأخُّر قدوم السلطان ببقية الجيش، وخافوا خوفاً شديداً، وبدأت الأراجيف تنتشر، وشرع المثبِّطون يوهـون عزائم المقاتلين ويقولون: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لقلة المسلمين وكثرة التتار. وزيَّنوا للناس التراجع والتأخُّر عنهم مرحلة مرحلة. ولكن تأثير العلماء ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية كان يتصدى لهؤلاء المرجفين المثبِّطين، حتى استطاعوا أن يقنعوا الأمراء بالتَّصدِّي للتتار مهما كان الحال.

خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون مع الخليفة المستكفي بالله بالجيوش المصرية: وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية في ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المستكفي بالله واستناب السلطان بديار مصر الأمير عز الدين أيبك البغدادي.

وجد قطلوشاه مقدم التتار بالعساكر في المسير حتى نزل قرون حماه في ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصرية التي كانت بحماه بين يديه إلى دمشق، وركب نائب حماه الأمير كتبغا (الذي كان تسلطن وتلقب بالملك العادل في محنة لضعفه)، واجتمع الجميع بدمشق واختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء العدو أو انتظار قدوم السلطان. ثم خشوا من مفاجأة العدو فنادوا بالرحيل وركبوا في أول شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم واشتروا الحمار بست مئة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حريمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة، فلم يأت الليل إلا وبوادر التتار في سائر نواحي المدينة.

شيخ الإسلام ابن تيمية يحرض المؤمنين على القتال: واجتمع الأمراء وتعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدوّ وشجّعوا رعاياهم، ونوديَ بالبلد دمشق أن لا يرحل منه أحد، فسكن الناس وهدأت نفوسهم وجلس القضاة بالجامع يحلّفون جمعة من الفقهاء والعامّة على القتال، وتوقّدت الحماسة الشعبية، وارتفعت الروح المعنوية عند العامة والجند. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم التأثير في ذلك الموقف، فقد عمل على تهدئة النفوس، حتّى كان الاستقرار الداخلي عند الناس والشعور بالأمن ورباطة الجأش. ثم عمل على إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماستها وتهيئتها لخوض معركة الخلاص... ثمّ توجّه ابن تيمية بعد ذلك إلى العسكر الواصل من حماه فاجتمع بهم في القطيفة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرّة منصورون. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وكان يتأوّل في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[الحج: ٦٠].

وقد ظهرت عند بعضهم شبهات تفتُّ في عضد المحاربين للتتار من نحو قولهم: كيف نقاتل هؤلاء التتار، وهم يظهرون الإسلام وليسوا بُغاة على الإمام... فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟

فردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الشُّبهة قائلاً: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحقُّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، وهم متلبّسون بالمعاصي والظُّلم. فانجلى الموقف وزالت الشبهة وتفطّن العلماء والناس لذلك، ومضى يؤكّد لهم هذا الموقف قائلاً: "إذا رأيتموني في ذلك الجانب — يريد جانب العدوّ — وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجّع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم".

وامتلأت قلعة دمشق والبلد بالناس الوافدين، وازدحمت المنازل والطرق. وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من دمشق صبيحة يوم الخميس من باب النصر بمشقّة كبيرة، وصَحِبَتْهُ جماعة كبيرة يشهد القتال بنفسه وبمن معه. فظنّ بعض الرعاع أنه خارج للفرار، فقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت ذا هارب من البلد... فلم يردّ عليهم إعراضاً عنهم وتواضعاً لله، ومضى في طريقه إلى ميدان المعركة.

وخرجت العساكر الشامية إلى ناحية قرية الكسْوة. ووصل التتار إلى قارة. وقيل: إنهم وصلو إلى القطيفة فانزعج الناس لذلك، وخافوا أن تكون العساكر قد هربوا، وانقطعت الآمال، وألحّ الناس في الدعاء والابتهال في الصلوات وفي كلّ حال. وذلك في يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان... فلمّا كان آخر هذا اليوم، وصل أحد أمراء دمشق، فبشّر الناس بأنّ السلطان قد وصل وقت اجتماع العساكر المصرية والشامية. وتابع التتار طريقهم من الشمال إلى الجنوب، ولم يدخلوا دمشق بل عرجوا إلى ناحية تجمّع العساكر، ولم يشغلوا أنفسهم باحتلال دمشق وقالوا: إن غلبنا فإنّ البلد لنا وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به.

ووقفت العساكر قريباً من قرية الكسوة، فجاء العسكر الشامي، وطلبوا من شيخ الإسلام أن يسير إلى السلطان يستحثُّه على السير إلى دمشق، فسارَ إليه، فحثّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر. فجاء وإيّاه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ ابن تيمية: السُّنّةُ أن يقف الرجُل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلاّ معهم.

وحرّض السلطان على القتال، وبشّره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو: إنّكم منصورون عليهم في هذه المرّة. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناسَ بالفطر مدّة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أنّ إفطارهم ليتقوّوا به على القتال أفضل من صيامهم.

ولقد نظّم المسلمون جيشهم في يوم السبت ٢ رمضان أحسن تنظيم، في سهل شقحب الذي يشرف على جبل غباغب. وكان السلطان الناصر في القلب، ومعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة والأمراء. وقبل بدء القتال اتُّخذت الاحتياطات اللازمة، فمرّ السلطان ومعه الخليفة والقرّاء بين صفوف جيشه، بقصد تشجيعهم على القتال وبثُّ روح الحماسة فيهم. وكانوا يقرؤون آيات القرآن التي تحضُّ على الجهاد والاستشهاد، وكان الخليفة يقول **(دافعوا عن دينكم وعن حريمكم)**

الإلحاح بالدعاء وقراءة القرآن في المعركة: وسار العسكر مُخفّاً، وبات الناس بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله تعالى، فلما أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة. وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشحورا في يوم السبت ٢ رمضان وقبلوا له الأرض.

ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار في ٥٠ ألفاً مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على قتال التتار بشقحب (تحت جبل غباغب) وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر فصفت العساكر الإسلامية: فوقف السلطان في القلب وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وعز الدين أيبك الخازندار وبكتمر الجوكندار وآقوش الأفرم نائب الشام والأمير برلغي والأمير أيبك الحموي وبكتمر الأبو بكري وقطلوبك ونوغاي السلاح دار ومبارز الدين أمير شكار ويعقوبا الشهرزوري ومبارز الدين أوليا بن قرمان، ووقف في الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماه والعربان وجماعة كثيرة من الأمراء، ووقف في الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، والأمير قرا سنقر نائب حلب بعساكرها، والأمير بتخاص نائب صفد بعساكرها والأمير طغريل الإيغاني وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار بمصافيهم.

ومشى السلطان على التتار والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: "يا مجاهدون، لا تنظروا إلى سلطانكم. قاتلوا عن دين نبيكم ﷺ، وعن حريمكم!"، والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض! وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد. وكل ذلك والسلطان والخليفة يكران في العساكر يميناً وشمالاً. ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغلمان والأحمال والعساكر صفاً واحداً، وقال لهم: (من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلبه).

وحمي وطيس المعركة: فلما تم الترتيب، زحفت كراديس التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ١٢ رمضان المذكور.

وأقبل قطلوشاه (قائد جيوش المغول) بمن معه من الطوامين وحملوا على الميمنة فثبتت لهم الميمنة، وقاتلوهم أشد قتال، حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الأستادار وأوليا بن قرمان والأمير سنقر الكافوري والأمير أيدمر الشمسي القشاش والأمير آقوش الشمسي الحاجب وحسام الدين علي بن باخل، ونحو الألف فارس، كل ذلك وهم في مقابلة العدو والقتال عمال بينهم.

فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: "هلك، والله، أهلُ الإسلام!" وصرخ في بيبرس الجاشنكير وفي البرجية، فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم وصدم بهم العدو وقصد مقدم التتار قطلوشاه وتقدم عن الميمنة حتى أخذت الميمنة راحة، وأبلى سلار في ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً وسلموا نفوسهم إلى الموت. فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك، ألقوا نفوسهم إلى الموت واقتحموا القتال، وكانت لسلار والجاشنكير في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين -رحمهما الله تعالى- واستمروا في القتال إلى أن كشفوا التتار عن المسلمين.

وكان جوبان وقرمجي، وهما من طوامين التتار، قد ساقا تقوية لبولاي (قائد الفرقة المغولية) وهو خلف المسلمين فلما عاينوا الكسرة على قطلوشاه، أتوه نجدة ووقفوا في وجه سلار وبيبرس، فخرج من عسكر السلطان سندمر والأمير قطلوبك والأمير قبجق والمماليك السلطانية، وأردفوا سلار وبيبرس وقاتلوا أشد قتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار على الأمير برلغي في موقفه فتوجه الجماعة المذكورون إلى برلغي واستمر القتال بينهم.

وأما سلار، فإنه قصد قطلوشاه مقدم التتار وصدمه بمن معه وتقاتلا وثبت كل منهما. وبالنسبة إلى الميمنة، فإنه لما قُتل الأمراء منها، انهزم من كان معهم ومرت التتار خلفهم، فجفل الناس وظنوا أنها كسرة، وأقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها ونهبوا ما فيها من الأموال، وجفل النساء والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، وكشف النساء عن وجوههن وأسبلن الشعور. وضج ذلك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة! واستمر القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كل من الطائفتين.

معركة جبل غباغب: ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين من المسلمين، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كله عساكر والميسرة السلطانية ثابتة وأعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه وتحير وتسمّر بموضعه، حتى كمل معه جمعه وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عز الدين أيدمر نقيب المماليك السلطانية، فأحضره قطلوشاه وسأله: "من أين أنت؟" فقال: "من أمراء مصر" وأخبره بقدوم السلطان. وكان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت، فعند ذلك جمع قطلوشاه أصحابه وشاورهم فيما يفعل. وإذا بكوسات السلطان والبوقات قد زحفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاي وخرج من تجاه قطلوشاه في نحو ٢٠ ألفاً من التتار ونزل من الجبل بعد المغرب ومر هارباً.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب وتلاحق بهم من كان قد انهزم شيئاً بعد شيء، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات. وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار بيبرس وسلار وقبجق والأمراء والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد، يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ. ووقف كل أمير في مصافه مع أصحابه والحمل والأثقال قد وقف على بعد وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ونزلوا مشاة وفرساناً وقاتلوا العساكر، فبرزت المماليك السلطانية بمقدميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جهتهم وصاروا يتناوبون في القتال أميراً بعد أمير. وألحت المماليك السلطانية في القتال، وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف، حتى إن بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل.

قتل التتار النازلين إلى النهر بسبب العطش: وما زال الأمراء على ذلك حتى انتصف نهار الأحد، فصعد قطلوشاه الجبل، وقد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلاً وجرح الكثير واشتد عطشهم. واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان، وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية، وأنهم في شدة من العطش، فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم. فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين، ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد، وساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين، وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومروا في أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان، عرفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر في البطائق وسرحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة.

بشائر النصر ومنع المنهزمين من دخول مصر: وكتب إلى غزة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتتبع من نهب الخزائن السلطانية والاحتفاظ بمن يمسك منهم، وعين السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر، ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

ودخل، في يوم الإثنين رابع رمضان، شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من المجاهدين، ففرح الناس به، ودعوا له وهنؤوه بما يسّر الله على يديه من الخير. ثم ركب السلطان في يوم الإثنين من مكان الواقعة وبات ليلته بالكسوة، وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها ومعه الخليفة في عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامة والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجون بالدعاء والهناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنة وتساقطت عبرات الناس فرحاً ودقت البشائر بسائر الممالك. وكان هذا اليوم يوماً لم يشاهد مثله. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق وقد زينت المدينة.

دخل لسلطان إلى دمشق، في يوم الثلاثاء خامس رمضان، وبين يديه الخليفة، وزُيِّنت البلد، وبقيا في دمشق إلى ثالث شوّال إذ عادا إلى الديار المصرية. وكان فرح السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمسلمين بهذه المعركة فرحاً كبيراً، ودخل مصر دخول الظافر المنتصر، يتقدّم موكبه الأسرى المغولُ يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى، واستُقبل استقبال الفاتحين.

قتل فلول التتار وجواسيسهم: واستمرت الأمراء وبقيت العساكر في طلب التتار إلى القريتين، وقد كلت خيول التتار وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل، والعساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى أن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها، ثم أدركت عربان البلاد التتار وأخذوا في كيدهم: فيجيء منهم الاثنان والثلاثة إلى العدد الكثير من التتار، كأنهم يهدونهم إلى طريق قريبة من مفازة فيوصلونهم إلى البرية ويتركونهم بها فيموتوا عطشاً، ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غوطة دمشق فخرجت إليهم عامة دمشق فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم تتبعت الحكام النهبة وعاقبوا منهم جماعة كثيرة، حتى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن ولم يفقد منه إلا القليل. ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلغي، وقد كان انهزم فلم يأذن له السلطان في الدخول عليه وقال: بأي وجه تدخل علي أو تنظر في وجهي؟! فما زال به الأمراء حتى رضي عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب، كان قد انتمى إلى التتار وصار يدلهم على الطرقات، فسُمِّر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها. واستمر الناس في شهر رمضان كله في مسرات تتجدد، ثم صلى السلطان صلاة عيد الفطر وخرج في ثالث شوال من دمشق يريد الديار المصرية.

ارتفاع ضغط دم غازان ونزفه وإهانة قادة المغول: وأما التتار، فإنه لما قتل أكثرهم ودخل قطلوشاه الصرات في قليل من أصحابه، ووصل خبر كسرته إلى همذان، ووقعت الصرخات في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها إلى لقائهم واستعلام خبر من فقد منهم حتى علموا ذلك، فقامت النياحة في مدينة تبريز شهرين على القتلى. ثم بلغ الخبر غازان فاغتم غماً عظيماً، وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت واحتجب عن حواشيه فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه.

ثم بعد ذلك بمدة، جلس غازان وأوقف قطلوشاه مقدم عساكره وجوبان وسوتاي ومن كان معهم من الأمراء وأنكر على قطلوشاه وأمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه وأبعده من قدامه حتى صار على مسافة بعيدة، بحيث يراه وقام إليه وقد مسكه الحجاب سائر من حضر — وهم خلق كثير جداً — وصار كل منهم يبصق في وجهه حتى بصق الجميع. ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاي عدة عصي وأهانه. وفي الجملة، فإنه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر والهم ما لا مزيد عليه. ولله الحمد.

الملك الناصر محمد بن قلاوون يدخل القاهرة منصوراً: وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى وصل إلى القاهرة ودخلها في يوم ٢٣ شوال... وكان نائب الغيبة قد رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة، وكتب بإحضار سائر مغاني العرب بأعمال الديار المصرية كلها.

وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا القلاع، واقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزينوا ما يخص كل واحد منهم وعملوا به قلعة بحيث نودي: من استعمل صانعاً في غير صنعة القلاع كانت عليه جناية للسلطان.

وتحسن سعر الخشب والقصب وآلات النجارة، وتفاخروا في تزيين القلاع المذكورة، وأقبل أهل الريف إلى القاهرة لمشاهدة قدوم السلطان وعلى الزينة، فإن الناس كانوا قد أخرجوا الحلي والجواهر واللآلئ وأنواع الحرير فزينوا بها. ولم ينسلخ شهر رمضان، حتى تهيأ أمر القلاع وعمل ناصر الدين محمد بن الشيخي والي القاهرة قلعة

بباب النصر فيها سائر أنواع الجد والهزل ونصب عدة أحواض ملأها بالسكّر والليمون، وأوقف مماليكه بشربات حتى يسقوا العسكر. وقدم السلطان إلى القاهرة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال، وقد خرج الناس إلى لقائه ولمشاهدته، وبلغ كراء البيت الذي يمر عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مئة درهم. فلما وصل السلطان إلى باب النصر، ترجل الأمراء كلهم، وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، وأخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنه ويحمل السلاح خلفه فامتنع ومشى.

وحمل الأمير مبارز الدين سوار الرومي أمير شكار القبة والطير على رأس السلطان، وحمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، والأمير سنجر الجمقدار الدبوس، ومشى كل أمير في منزلته وفرش كل منهم الشقق من قلعته إلى قلعة غيره التي أنشأها بالشوارع.

استعراض الأسرى ورؤوس قتلى التتار: وكان السلطان إذا تجاوز قلعة، فرشت القلعة المجاورة له الشقق حتى يمشي عليها بفرسه مشياً هيناً من غير هرج بسكون ووقار؛ لأجل مشي الأمراء بين يديه. وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير، أمسك عن المشي ووقف، حتى يعاينها ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك. هذا، والأمراء من التتار بين يديه مقيدون، ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم و١٠٠٠ رأس على ١٠٠٠ رمح وعدة الأسرى ١٦٠٠ وفي أعناقهم أيضاً ١٦٠٠ رأس، وطبولهم قدامهم مُخرّقة. وكانت القلاع التي نصبت ٧٠ قلعة. بعد موقعة شقحب المباركة هذه، لم تقم للمغول ولا للصليبيين ولا للأرمن قائمة.

ولصفيّ الدين الحلي مديح للسلطان محمد بن قلاوون في مقارعته المغول والانتصار عليهم:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العلا من قدّم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب	قضى ولم يقض من إدراكها وطَرا
لابد للشهد من نحل يمنّعه	لا يجتني النفعَ من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السولُ إلا بعد مؤلمة	ولا يتم المنى إلا لمن صبرا

وارتفعت مكانة مصر في العالم الخارجي في عهد الناصر، ووسعت البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء لخطب ودها، وأصبحت القاهرة قبلة للمتوددين والزوار من شتى الأرجاء. وخُطب باسم الناصر على منبر بغداد التي كانت في حوزة مغول فارس، ونقش اسمه على نقودها، وخطب ملوك بني رسول في اليمن للناصر وأرسلوا إليه الهدايا. وخطب للناصر في دولة بني قرمان في آسيا الصغرى، وعلى منابر تونس وطرابلس الغرب وماردين، وقامت علاقات وُدّيّة بينه وبين ملوك الهند والصين وملوك غرب إفريقيا. وكان الناصر، ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، يشرف على الحجاز، وينصب أمراء مكة والمدينة. وعقد الملك الناصر اتفاقية سلام مع أبي سعيد إيلخان مغول فارس في عام ١٣٢٢. وكثر وصول السفارات إلى مصر من ملوك أوروبا والعالم المسيحي، فوصلت سفارات من بابا الكاثوليك، وملك فرنسا، وملك أرجونا، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة وغيرهم.

وصلت، في حزيران ١٣٢٧م، إلى القاهرة سفارة من بابا الكاثوليك جون الثاني والعشرين (John XXII) ومعهم هدية ورسالة من البابا، يرجو فيها من الناصر حماية المزارات المسيحية في الأراضي المقدسة ووقف الحملات على مملكة أرمينيا الصغرى. وكانت هذه أول سفارة بابوية تفد إلى مصر منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح أيوب. وأرسل فيليب السادس ملك فرنسا إلى القاهرة سفارة ضخمة قوامها ١٢٠ رجلاً في عام ١٣٣٠م، طالب من الناصر منحه بيت المقدس وبعض المناطق على ساحل الشام، فأهان الناصر رجال السفارة وملكهم، وقال لهم: "لولا أن الرسل لا يقتلون، لضربت أعناقكم"، وطردهم من مصر.

يقول ابن إياس عن الناصر: "خُطب له في أماكن لم يُخطب فيها لأحد من الملوك غيره، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر. ويذكر المقريزي عن الناصر في الصدد ذاته: "ولم يعهد في أيام ملك قبله ما عهده في أيامه: من مسالمة الأيام له، وعدم حركة الأعداء براً وبحراً وخضوع جميع الملوك له ومهاداتهم إياه".

ابن بطُوطة: وكان الرحالة الشهير ابن بطوطة من الذين زاروا مصر في سنة ٧٢٥هـ-١٣٢٤م، وهو في طريقه إلى الحج في عهد الناصر محمد. وذكر في كتابه: "تحفة النظار"، مشيداً به: (وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد بن المنصور، سيف الدين قلاوون الصالحي... وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين. وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج، من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي).

اعتناق المغول الإسلام:

على الرغم من النازلات الجسام التي حلت بدار العروبة والإسلام (من مذابح الصليبيين في القدس ومعرة النعمان وباقي بلاد الشام)، بقيت جذوة اللغة العربية ناراً تحت الرماد، ثم انبثقت من تحت ركام المعارك وضرابها واحترابها منصورةً مؤزرةً بنصر الله، ظاهرة بدين الإسلام على الدين كله. خرجت العربية منصورة بعد معارك حطين، وحصن الثانية (معركة غزة)، وتحرير القدس، وإعادة تحرير القدس، وكسر شوكة الصليبيين في دمياط مصر ٣ مرات على الأقل (في أثناء الحملات الصليبية الثانية والخامسة والسابعة). وعلى الرغم من وحشية المغول واكتساحهم عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد، ومن التدمير الهائل لمكتباتها الزاخرة بالعلوم والآداب والوثائق، ومن المذابح الدموية لسكانها التي لم يسمع العالم لها نظيراً، واجتياح الشام بحواضره في حلب ودمشق وحماه، على الرغم من كلّ ذلك خرجت اللغة العربية منصورةً بدين الله على وحشية المغول، بعد المعارك الفواصل في عين جالوت وحمص والفرات وإبلستين وشقحب.

ولم يقتصر عمل اللغة العربية على رصد حوادث التاريخ الجسام وتوثيق سردها وحسب، بل تعداه في الأشعار الملهبة للحماس بعد كل واقعة وموقعة، وفي القصائد الروائع بوصفها رمزَ شموخ ودليلاً على انتصار الإسلام على الرغم من العاديات على كلّ الأعداء. بل تعدى عمل اللغة العربية ذلك: في التأثير الحضاري العميق الأثر في وحشية أوروبا ذاتها، إبان الحروب الصليبية في أثناء عصور أوروبا المظلمة، وفي نهضتها الفكرية والعلمية، وفي تأثير الإسلام في إصلاح الكنيسة وتقويض البابوية: المركز العصبي لإعلان هذه الحملات الصليبية على دار الإسلام.

كذلك، فإنّ للغة العربية أكبر الفضل على العالم كله: بتخليصه من شبح الشيطان المغولي الكاسح لأوروبا النصرانية وآسيا المسلمة. فلقد كان للعربية عمل متميزٌ في التأثير الحضاري العميق الأثر في المغول: في إسلامهم واستعرابهم واستيعابهم في حظيرة الإسلام وحضارته، وفي تحويلهم من وحوش بشرية ضارية إلى أناس متحضرين. فبدل أن يفرض الغالب عقيدته على المغلوب، ولم يكن لهؤلاء الوحوش المغول من دين ولا حضارة، فسرعان ما اجتذبهم الإسلام بعد انتصاراته الساحقة عليهم.

لم يذهب سقوط بغداد سدًى، فالوحشية التي استخدمها هولاكو في مذبحة بغداد وفي قتل الخليفة وعلماء الإسلام، سرعان ما استعدت عليه وجندت له ابن عمه: بركة خان المغولي المسلم ليقف كالطود الشامخ، وعدواً لدّ ضدّ هولاكو ليوقفه عند حده (انظر فيما سيأتي). ثم أعقب ذلك نصر الله للمسلمين في معركة عين جالوت التاريخية التي قلبت موازين القوى العالمية لمصلحة الإسلام، أعقبه سلسلة انتصارات مباشرة للمسلمين كما في

معركة حمص الأولى، وغيرها فبدأ المغول إذاك بعد انكساراتهم هذه يفكرون جدياً في اعتناق الإسلام، إذ لا يفل الحديدَ إلاّ الحديدُ.

وللقلوب أقفالها ومفاتيحها، فإذا كان الصحابي ركانة لم يُسلم إلا بعد أن صرعه رسول الله ﷺ مرتين، فالمغول لم يسلموا إلا بعد أن صرعهم الإسلام عدة مرات: في عين جالوت، وفي معركة حمص الأولى، وموقعة الفرات، وموقعة إبلستين، وحمص الثانية، وموقعة شقحب.

ثم كانت للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس اليد البيضاء، وأفضل الأثر والتأثير في نصرة دين الله وإسلام المغول عن طريق المصاهرات والزواج والتحالفات مع بركة خان المسلم، وقبل هذا وذاك عن طرق انتصاراته الكاسحة وفتوحاته الدائمة بفضل الله.

ثم كان استرقاق آلاف الأسرى المغول وتعليمهم وتربيتهم على الإسلام، ثم عتقهم من بعد إسلامهم، ليكونوا أمراء مسلمين، بل سلاطين لدار الإسلام يحاربون بأنفسهم أبناء جلدتهم المغول الكفرة. وكانت أعمال بيبرس البطل الأسطوري، سُنة اقتدى بها ملوك المماليك من بعده.

ثم بدأت **هجرات المغول الكبيرة**: جماعات وأفراداً من البيوت ومن الفرسان، تهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام، لتعتنق دين الله، وتعيش في كنفه في رحاب إخوانهم المسلمين، في مصر والشام، وهذا أعاد ذكريات الإسلام الحبيبة في هجرة المهاجرين من مكة إلى إخوانهم الأنصار في المدينة.

وفيما يأتي إضاءات على هذه البدايات الخالدة والنادرة في تاريخ الإسلام حول اعتناق المغول لدين الإسلام:

١. **بركة خان (توفي ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)**: هو زعيم القبيلة الذهبية، وابن عم هولاكو، تحالف والملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وهو أحد ٧ أبناء لجوجي هم: "باتو، أورده، شوبان، بركة، جمتاي، بركجار، توقاتيمر"، وكان الابن الأكبر "باتو" قد ورث منصب أبيه وصبح زعيماً للقبيلة الذهبية، التي تُعدّ أولى قبائل التتار إسلاماً وأكثرها تعاطفاً وتأدباً مع المسلمين. وبركة خان هو ابن عم هولاكو، وكانت مملكته عظيمة متسعة جداً، وهي بعيدة عن بلادنا وله عساكر وافرة العدد، وكان بركة هذا يميل إلى المسلمين ميلاً زائداً، ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرّك بهم، ووقع بينه وبين ابن عمّه هولاكو العداوة، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من علماء المسلمين وعامتهم. وكان بينه وبين الملك الظاهر بيبرس مودة ويعظم رسله، وكان قد أسلم هو وكثير من جنده وبنى المساجد، وأقيمت الجمعة ببلاده وكان جواداً عادلاً شجاعاً، ومات ببلاده وهو في آخر الستين، وقام مقامه منكوتمر.

وبسبب تعاطف "باتو" مع المسلمين في بلاده، أخذ النصارى، خاصة الرهبان والقساوسة في بلاد المغول (وكان لهم فعل وتأثير كبير في الحرب المروعة على بلاد الإسلام) في تحريض الزعيم الكبير للمغول "كيوك بن أوغطاي" لمحاربة "باتو" قبل أن ينتشر الإسلام في كل ربوع الشمال. وتوفي "باتو" سنة ٦٥٠هـ وخلفه من بعده في رئاسة القبيلة الذهبية ابنه "صرتق" الذي لم يعش طويلاً حتى توفي وانتقلت الرئاسة إلى عمّه "بركة خان" عام ٦٥٢هـ.

دخل "بركة خان" الإسلام سنة ٦٥٠ هجرية، وكان من قبل مُحباً ومتأثراً بالإسلام بسبب امرأة أبيه "رسالة" وقد التقى "بركة خان" في مدينة "بخارى" وأحد علماء المسلمين واسمه (نجم الدين مختار الزاهدي)، إذ كان بركة عائداً للتوّ من زيارة عاصمة المغول "قرا قورم" وأخذ "بركة" في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم الجليل، وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة، تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام

وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألف "الزاهدي" الرسالة ودخل "بركة خان" في الإسلام إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرة هذا الدين.

أعماله: لم يكن دخول "بركة خان" في الإسلام كدخول آحاد الناس، بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا لقبيلة مغولية، والمغول وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة؛ لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على المستوى نفسه الفائق من المسؤولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفاني في نصرة الدين وأهله، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء. **وفيما يأتي طائفة من أهم أعمال "بركة خان" في نصرة الإسلام:**

أولاً: مبايعة خليفة المسلمين: بعدما أعلن "بركة خان" إسلامه، كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي المستعصم ببغداد، وهذا الإجراء على الرغم من أنه بسيط وعادي؛ لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له نفوذ فعليّ إلا على مساحة ضيقة من الأرض، لكنه يعطي صورة جلية لولاء "بركة خان" لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعة المسلمين.

ثانياً: إظهار شعائر الإسلام: بعدما اعتلى "بركة خان" رئاسة القبيلة الذهبية، أخذ في إظهار شعائر الإسلام، وقام "بركة خان" بإكمال بناء مدينة "سراي" وهي مدينة "سراتوف" الآن في روسيا على نهر الفولجا، وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى فيها المساجد والحمامات ووسعها جداً حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على الطراز الإسلامي.

ثالثاً: غيرته على المسلمين: وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح عندما فكر القائد المغولي "هولاكو بن تولي بن جنكيزخان" في الهجوم على بغداد، وكان "مونكو خان بن تولي" أخو "هولاكو" هو خان المغول، وقد نال هذا المنصب بمساعدة قوية من "باتو" الأخ الأكبر "لبركة خان".

وحاول "هولاكو" إقناع أخيه الأكبر مونكو خان بهذه الفكرة، وبالفعل وافق على الفكرة، ورحب بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ "هولاكو" في الإعداد لذلك، وما إن وصلت الأخبار إلى "بركة خان" حتى التهبت مشاعره، وأسرع إلى أخيه "باتو" وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين وقال له: (إننا نحن الذين أقمنا "مونكو" خانا أعظم، وما جازانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا، ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة، وفي هذا ما لا يخفى من القبح). وبالفعل اقتنع "باتو" تماماً بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يكفه عما ينويه من قتال المسلمين، وبالفعل أجّل "هولاكو" الهجوم على المسلمين حتى وفاة "باتو".

رابعاً: تفريقه وحدة التتار الوثنيين: فقد استغل "بركة خان" خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخوه "قوبيلاي خان"، وترك أخاه الآخر "أرتق بوكا" مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، فاستغل "بركة خان" وفاة "مونكو" في الطريق لإثارة الفتنة بين "أرتق بوكا" و"قبلاي"، إذ اتفق الجند والأمراء على تولية "قبلاي"، فأرسل "بركة خان" إلى "أرتق بوكا" بقوة عسكرية لمنازعة أخيه "قبلاي" على منصب الخان الأعظم لشق الفرقة بينهما، وحرّض أيضا أسرة أوقطاي خان على مساعدة "أرتق بوكا" ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨هـ، وذلك قبل معركة (عين جالوت) بقليل، وهذا جعل هولاكو يعود مُسرعا من الشام لفضّ النزاع.

واستمرت الحروب عدة سنوات، وكان "بركة خان" في الوقت نفسه يقنع ويحث كثيراً من جنود "هولاكو" بالشام على الدخول في الإسلام والانضمام إلى جيش "بيبرس"، وبالفعل أقنع الكثيرين منهم وتحولوا إلى حرب "هولاكو".

خامساً: محالفته للمماليك: فقد دخل "بركة خان" في حلف مع المماليك الذين بهروا العالم عندما انتصروا على التتار في موقعة (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ، وكثرت المراسلات والاتصالات بينه وبين السلطان بيبرس، وكان لها أثر كبير في توجيهه لحرب "هولاكو".

وبالفعل، اتفق "بركة خان" و"بيبرس" على محاربة "هولاكو"، وكتب بركة خان" برسالة إلى "بيبرس" يقول له فيها: (قد علمتَ محبّتي للإسلام، وعلمتَ ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية، حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى؛ حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد).

سادساً: محاربته هولاكو والتتار: لم يكتف "بركة خان" بمناصرة المسلمين، فلقد انقلب حرباً ضروساً على التتار الوثنيين عموماً، وعلى "هولاكو" خصوصاً، إذ لم ينس "بركة خان" ما فعله "هولاكو" بالخلافة العباسية أبداً، عندما اكتسح هولاكو بجحافله بغداد. فقد حاول "بركة خان" بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذي ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية، فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة "هولاكو"؛ لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار، والذي قد وافق على الهجوم على بغداد.

فأخذ "بركة خان" في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد "هولاكو"، ووجد ضالته في مسألة الغنائم، فقد كان من عرف "جنكيزخان" القديم أن أسرة "جوجي" لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها التتار جميعاً في أي معركة يخوضونها.

والواقع أنه لم تكن الغنائم هي الدافع لـ"بركة خان"، بل اختلاق عذر للحرب مع هولاكو؛ فأرسل "بركة" رسلاً من طرفه، وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على "هولاكو" في السؤال، فاستشاط "هولاكو" غضبه وقتل رسل "بركة خان" وسير جيشاً لمحاربة "بركة خان" فانهزم جيش هولاكو شرّ هزيمة عام ٦٦٠هـ (أي سنتين بعد موقعة عين جالوت في ٦٥٨هـ)، فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر، فانهزم جيش "بركة خان" وكان يقوده أحد قواده واسمه "نوغاي"، فأراد "هولاكو" أن يجهز تماماً على "بركة خان" فأرسل جيشاً جرّاراً فيه معظم جنوده، يقودهم ابنه أباقا، فخرج لهم "بركة خان" نفسه على رأس الجيش، ومزّق جيش هولاكو شر تمزيق عام ٦٦١هـ في منطقة القوقاز، ولم ينج منهم سوى القليل.

مصير هولاكو: أما "هولاكو" فوجد أن كل البلايا والهزائم التي حاقت به وبالتتار جميعاً كان سببها "بركة خان" فاشتد غيظه وحقده على "بركة خان" وحاول محاربته عدة مرات، ولكنه هزم شر هزيمة، وهذا أشعل الغيظ في قلبه، حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجلطة في المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده "أباقا" أمام "بركة خان" سنة ٦٦١ هجرية، وظل يعاني الصرع حتى هلك سنة ٦٦٢ هجرية، فانتقم "بركة خان" للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذي دمر دولة الخلافة الإسلامية، وسفك دماء الملايين من المسلمين. أهلكه الله في السنة السادسة من سلطنة الظاهر بيبرس.

ذكر الذهبي في "تاريخ الإسلام" **ترجمة هولاكو** (وأحياناً يسمى هولاوو) تحت وفيات عام ٦٦٣هـ (هولاكو بن تولي قان بن الملك جنكيزخان: ملك التتار ومقدمهم. ذكره الشيخ قطب الدين، فقال: كان من أعظم ملوك التتر، وكان شجاعاً حازماً مدبراً، ذا همة عالية، وسطوة ومهابة ونهضة تامة، وخبرة بالحروب، ومحبة في العلوم العقلية من غير أن يتعقل منها شيئاً. اجتمع له جماعة من فضلاء العالم، وجمع حكماء مملكته، وأمرهم أن يرصدوا الكواكب، وكان يطلق الكثير من الأموال والبلاد، وهو على قاعدة المغل من عدم التقيد بدين. لكن زوجته تنصرت، وكان سعيداً في حروبه وحصاراته، طوى البلاد واستولى على الممالك في أيسر مدة، ففتح بلاد

خراسان، وفارس، وأذربيجان، وعراق العجم، وعراق العرب، والشام، والجزيرة، والروم، وديار بكر. كذا قال الشيخ قطب الدين. والذي افتتح خراسان وعراق العجم غيره، وهو جنكزخان وأولاده، وهذا الطاغية فافتتح العراق، والجزيرة، والشام، وهزم الجيوش وأباد الملوك، وقتل الخليفة وأمراء العراق وصاحب الشام، وصاحب ميافارقين.

قال لي الظهير الكازروني: حكى لي النجم أحمد بن البواب النقاش نزيل مراغة، قال: عزم هولاكو على زواج بنت ملك الكرج، قالت: حتى تسلم. فقال: عرفوني ما أقول. فعرضوا عليه الشهادتين، فأقر بهما وشهد عليه بذلك الخواجة نصير الطوسي وفخر الدين المنجم. فلما بلغها ذلك أجابت. فحضر القاضي فخر الدين الخلاطي، فوكل لها النصير، وللسلطان الفخر المنجم، وعقدوا العقد باسم تامار خاتون بنت الملك داود بن إيواني على ثلاثين ألف دينار. قال ابن البواب: وأنا كتبت الكتاب في ثوب أطلس أبيض، وعجبت من إسلامه. قلت: إن صح هذا فلعله قالها بفمه لعدم تقيده بدين، ولم يدخل الإسلام إلى قلبه، والله أعلم. (وإسلامه مثل إسلام نابوليون بونابرت).

قال قطب الدين: كان هلاكُه بعلة الصرع، فإنه حصل له الصرع منذ قتل الملك الكامل صاحب ميافارقين، فكان يعتريه في اليوم المرة والمرتين. ولما عاد من كسرة بركة له أقام يجمع العساكر، وعزم على العود لقتال بركة، فزاد به الصرع، ومرض نحواً من شهرين وهلك (من الواضح أنه مرض بالسكتة الدماغية والشلل الجسمي، فيستطيع أن يرى ولكن لا يستطيع الحركة ولا الكلام، تشبه لحد ما سكتة دماغ رئيس وزراء إسرائيل أرئيل شارون عام ٢٠٠٦)، فأخفوا موته وصبّروه (أي ملحوه)، وجعلوه في تابوت، ثم أظهروا موته. وكان ابنه أبغا غائباً، فطلبوه ثم ملكوه فجلس مكانه في الملك وقيل: إنه لم يدفن وعلق بسلاسل، ومات وله ٦٠ سنة أو نحوها).

وهلك هلاوو وله ستون سنة أو نحوها. وقد أباد أمماً لا يحصيهم إلا الله. ومات في هذه السنة. قيل في سابع ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ببلد مراغة. ونقل إلى قلعة تلا، وبنوا عليه قبة. وخلف من الأولاد ١٧ ابناً سوى البنات، وهم: أبغا، وأشموط، وتمشين، وبكشي، وكان بكشي فاتكاً جباراً، وأجاي، ويستز، ومنكوتمر الذي التقى هو والملك المنصور على حمص وانهزم جريحاً، وباكودر، وأرغون، وتغايي دمر، والملك أحمد. قلت: وكان القان الكبير قد جعل أخاه هولاوو نائباً على خراسان وأذربيجان، فأخذ العراق والشام وغير ذلك، واستقل بالأمر مع الانقياد للقان والطاعة له، والبرد واصلة إليه منه في الأوقات، وتفاصيل الأمور لم تبلغنا كما ينبغي. وقد جمع صاحب الديوان كتاباً في أخبارهم في مجلدتين. ووالد هولاوو هو تولي خان الذي عمل معه السلطان جلال الدين مصافاً في سنة ثماني عشرة، فنصر جلال الدين وقتل في الوقعة تولي إلى لعنة الله. وكان القان الأعظم في أيام هولاوو أخاه مونكوقا بن تولي بن جنكزخان، فلما هلك، جلس على التخت بعده أخوهما قبلاي، فامتدت دولته وطالت أيامه، ومات سنة خمس وتسعين بخان بالق أم بلاد الخطا وكرسي مملكة التتار، وكانت دولة قبلاي نحواً من أربعين سنة. في آخر أيامه أسلم قازان على يد شيخنا بدر الدين بن حمويه الجويني. وقال الظهير الكازروني: عاش هولاكو نحو خمسين سنة، وكان عارفاً بغوامض الأمور وتدبير الملك، فاق على من تقدمه. وكان يحب العلماء ويعظمهم، ويشفق على رعيته، ويأمر بالإحسان إليهم. قلت: وهل يَسَعُ مؤرخاً في وسط بلاد سلطان عادل أو ظالم أو كافر إلا أن يثني عليه ويكذب، فالله المستعان: فلو أثنى على هولاكو بكل لسان لاعترف المثني بأنه مات على ملة آبائه، وبأنه سفك دم ألف ألف أو يزيدون، فإن كان الله تعالى مع هذا وفقه للإسلام فيا سعادته، لكن حتى يصح ذلك، والله أعلم). انتهى

رحيل بركة خان: بعدما هلك الطاغية "هولاكو" من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد "بركة خان" ورث مكانه ابنه "أباقا"، وورث عنه أيضاً حقده وحسده على "بركة خان"؛ خاصة لأن "بركة" قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١ هجرية، لذلك كانت محاربة "بركة" أولى الأولويات في تفكير "أباقا بن هولاكو".

وبالفعل، أعدّ "أباقا" جيشاً جراراً لمحاربة "بركة" وأرسل "بركة" أولاً قائده "نوغاي"، ولكنه هزم وأصيب بسهم في عينه، وكان "بركة خان" يحبّ "نوغاي"؛ لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج "بركة خان" نفسه للقاء "أباقا" وفي نيته محاربة عدو الإسلام، وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التي بدأت تتحول إلى الإسلام شيئاً فشيئاً، وأتاه اليقين في الطريق، وتوفي البطل العظيم مجاهداً مناصراً دين الله عام ٦٦٥هـ، بعدما قضى من حياته الحقيقية، ١٥ سنة، في خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام، حتى مات وبلّل بالمغفرة ثراه على نية الجهاد، ولم يكن له أولاد ولم يترك ذرية، ولكنه ترك سجلاً حافلاً في العمل للدين والفهم الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، حتى إن السلطان المملوكي الظاهر "بيبرس" قد سمى ولده الأكبر "بركة خان"؛ حباً في شخصية هذا البطل العظيم، ولشديد الأسف لا يعرفه معظم المسلمين الآن، توفي في السنة السابعة من سلطنة الظاهر بيبرس.

٢. **دخول أول دفعة من التتار في الإسلام** في ذي الحجة ٦٥٩هـ، مباشرة بعد معركة حمص الأولى (وقعة القيقان)، إذ وصل إلى دمشق من التتار نحو المئتين هاربين إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً، وهم أول من فرّ من التتار ودخل في الإسلام، وكانوا بداية الهجرة المباركة إلى دار الإسلام، وبهم قويت شوكة الإسلام ضد كفار التتار أنفسهم. لتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث سنة ٦٥٩هـ.

٣. **بيبرس الداعية في تزاوجه ومصاهراته وعلاقاته السياسية بالمغول:** وكانت مدة سلطنة بيبرس وملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً. وكان الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله) أبا الفتوح، ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه، وكان قد نذر نفسه لله تعالى في تزوجاته ومصاهراته، فكانت كلها سياسية من أجل نصرة الدين، فزوجاته أم الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان هي بنت الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، وزوجاته الأخريات: بنت الأمير سيف الدين نوكاي التتاري، وبنت الأمير سيف الدين كراي التتاري، وبنت الأمير سيف نوغاي التتاري، وشهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية قبل سلطنته فلما تسلطن طلقها. ومن أبنائه: الملك المسعود نجم الدين خضرا أمه أم ولد، والملك العادل بدر الدين سلامش. وولد له من البنات سبع.

ووفد على بيبرس من التتار زهاء ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أمّره طبل خاناه، ومنهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، ومنهم من جعله من السقاة، ثم جعل منهم سلحدارية، وجمدارية، ومنهم من أضافه إلى الأمراء (انظر ترجمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، آخر الجزء الثاني، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي).

٤. **أثر انتصارات المسلمين في إسلام المغول:** وإثر معركة حمص الثانية سنة ٦٨٠هـ، والانتصار التاريخي الساحق للسلطان قلاوون وجيوش الإسلام ضد جيوش المغول الكافرة البالغ تعدادها مئة ألف أو يزيد، والهزيمة المنكرة لقائدهم منكوتمر وجرحه في المعركة، ورد الخبر في أول سنة ٦٨١هـ أنه تسلطن في مملكة التتار مكان أبغا بن هولاكو، أخوه لأبيه أحمد بن هولاكو، وهو مسلم حسن الإسلام وعمره يومئذ ٣٠ سنة. وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى كلمة الدين وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار وضرب الجزية عليهم، ويقال: إن إسلامه كان في حياة والده هولاكو، فسرّ السلطان قلاوون بذلك سروراً عظيماً.

٥. **تربية الأسرى المغول وعتقهم بعد إسلامهم:** وفيهم من أسر وربِّي ثم تسلطن في بلاد المسلمين. فمثلاً: السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة ٦٥٩هـ، فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه، ثم أعتقه وجعله من مماليكه ورقاه حتى صار من أكابر أمرائه، واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل ابن قلاوون إلى أن قتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٣هـ وأقام الناصر في الملك وعمره ٩ سنوات، إلى سنة ٦٩٤هـ ووقع الاتفاق على خلعه وسلطنة كتبغا هذا، فتسلطن بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون الخميس ١٢ المحرم سنة ٦٩٤هـ باتفاق الأمراء، وصار السلطان العاشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وتلقب بالملك العادل وسنه يوم ذاك نحو ٤٠–٥٠ سنة. (وهو غير كتبغا نوين صهر هولاكو الذي قتل، وكان كتبغا هذا من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يؤبه له من الأصاغر)، وكسبه قلاوون في الواقعة، فكان بين المدة نحو ٣٥ سنة، حتى قدر الله تعالى سلطنة كتبغا هذا.

٦. **هجرة المغول المسلمين (المهاجرين) إلى دار الإسلام:** بدأ آلاف التتار بالتحول إلى الإسلام، فمثلاً: بينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء بمصر، ورد عليه الخبر في صفر سنة ٦٩٥هـ بأنه قد وصل إلى الرحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف ١٠٠٠٠ بيت من عسكر (بيدو) ملك التتار طالبين الدخول في الإسلام؛ خوفاً من السلطان غازان، ومقدَّمهم أمير اسمه طرغاي، وهو زوج بنت هولاكو، فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري بأن يسافر من دمشق إلى الرحبة حتى يتلقاهم فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنقر الأعسر شاد دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضاً الأمير قراسنقر المنصوري بالخروج من القاهرة، فخرج حتى وصل إلى دمشق لتلقي المذكورين، ورسم له أن يحضر معه في عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم، فوصل قراسنقر إلى دمشق وخرج لتلقيهم ثم عاد إلى دمشق في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول، ومعه من أعيانهم مئة فارس وثلاثة عشر فارساً. وفرح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان، وأما الأمير علم الدين سنجر الدواداري، فبقي مع الباقين وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وامرأة، ومعهم ماشية كثيرة ورخت عظيم، وأقام قراسنقر بهم أياماً، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية. وقدموا القاهرة في آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا ورتب لهم الرواتب.

٧. **إسلام ملك التتار غازان:** ويقال: قازان وكلاهما يصح معناه، واسمه الحقيقي محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو وهو مُظهر الإسلام وشعائر الإيمان على الرغم من فساد كبير في عقيدته وعمله، بل قيل: إنه كان يعتقد سراً بالشامانية دين التتار.

تحرير جزيرة أرواد، آخر جيب صليبيّ بحري عام ١٣٠٢م:

بعد أن حرر الأشرف خليل ساحل الشام بالكامل عام ١٢٩١م، فرّ فرسان المعبد (الداوية) وبعض الصليبيين إلى جزيرة أرواد مقابل طرطوس، فتحولت الجزيرة إلى قاعدة صليبية لشن الهجمات على سفن المسلمين، وقاعدة ترصّد وتربّص بطرطوس وساحل الشام. طلب غازان المغولي في أواخر عام ١٣٠٠م من أرمن قليقيا (مملكة أرمينيا الصغرى) والصليبيين في جزيرة قبرص بالقيام بعملية مشتركة ضد المسلمين. فقام الصليبيون في قبرص بشحن مقاتلين من فرسان المعبد والإسبتارية، وقوات يقودها الأمير أماليريك أوف لوزيان (Amalric of Lusigan) ابن ملك قبرص، إلى أرواد.

وحين وصلت الأنباء إلى القاهرة، قرر الملك الناصر محمد بن قلاوون بناء شواني لغزو الجزيرة. وأبحر الأمير كهرداش في سبتمبر ١٣٠٢م من مصر إلى الشام وحاصر أرواد، وفتك بالحامية الصليبية، وأسرَ عدداً من فرسان

المعبد، وفرّ بعضهم إلى قبرص. واستسلمت أرواد آخر جيب للصليبيين في الشام في ٢٦ أيلول ١٣٠٢، ودقت بشائر النصر في القاهرة. وكان يوم دق البشائر هو اليوم نفسه الذي عاد فيه الأمير بكتاش منتصراً على أرمن قليقيا. فالأمير بكتاش كان قد خرج، في عدة من الأمراء من بينهم كتبغا، إلى مملكة قليقيا الأرمنية بسبب تحالفها مع غازان. انتشرت قوات بكتاش في أرجاء كليكليا، وحرقت المحصولات، وأسرت أعداداً من الأرمن وحاصرت عاصمتهم سيس. وعاد إلى القاهرة غانماً في أثناء البشائر لتحرير أرواد.



أرواد آخر جيوب الصليبيين في الشام

كان طرد الصليبيين من أرواد، وتوجيه ضربة لمملكة قليقيا انتصاراً مهماً للمسلمين على التحالف الصليبي – الأرمني – المغولي التي كان الصليبيون وأرمن قليقيا يسعون دوماً جاهدين إلى تحقيقه. ذكر في تلك المدة هيثوم الأرمني (Hethum the Armenian) في كتابه، مخاطباً بابا الكاثوليك عن أهمية التعاون مع المغول قائلاً :)هذا هو الوقت المناسب لاستعادة الأرض المقدسة بمساعدة المغول، ومن الممكن احتلال مصر من دون مصاعب أو مخاطر). ويشرح في فقرة أخرى: (يجب طلب شيئين من ملك المغول: أولاً: أن لا يسمح بمرور أي شيء عبر مناطقه إلى أراضي الأعداء، وثانياً: أن يرسل رجاله ورسله لإشعال حرب في أراضي ملاطية، ويدمر ويخرب منطقة حلب. وعندما نقوم نحن الحجاج وقوات قبرص وأرمينيا بغزو أراضي الأعداء بحراً وبراً. وعلى قواتنا المسيحية أن تحصن جزيرة أرواد؛ إذ إنها تحتل موقعاً رائعاً لضرب سفن الأعداء وإحداث أضراراً جسيمة بهم).



جزيرة قبرص في شرق البحر الأبيض المتوسط

السلطان برسباي (حكم من ٨٢٥–٨٤١هـ /١٤٢٢ ١٤٣٧م) وفتح جزيرة قبرص، آخر قاعدة صليبية عام ٨٢٩هـ–١٤٢٦م:

بدأ "برسباي" حياته مملوكاً للأمير "دقماق المحمدي" نائب "ملطية " (في تركيا اليوم)، الذي اشتراه من أحد تجار العبيد، ومكث في خدمته، وإليه انتسب اسمه، فأصبح يعرف بـ برسباي الدقماقي، ثم أهداه سيده إلى السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر، فاعتقه، وجعله من جملة مماليكه وأمرائه، وبعد وفاة السلطان برقوق، تقلّب في عدة مناصب منتقلاً بين سلطان وآخر، حتى نجح في اعتلاء عرش السلطنة في ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ – ١ نيسان ١٤٢٢م، وصار يلقب بالسلطان الأشرف برسباي. ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، وهو السلطان الثامن

في ترتيب سلاطين المماليك البرجية، و٣٢ في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك. وقد حكم السلطان برسباي مدة ١٦ سنة، نجح فيها في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على التمرد والضرب على أيدي الخارجين على النظام، وقد مكّنه ذلك الاستقرار، الذي نعمت به البلاد، من القيام بغزو جزيرة قبرص.

ولقبرص تاريخ إسلامي يمتد إلى سنة ٢٧/٢٨هـ. ولقد غزا معاوية ﷺ قُبْرُس أو قبرص (سنة ٢٨هـ-٦٤٩م)، وهي من أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط في أقصى شرقيّه، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية. كتب معاوية بن أبي سفيان ﷺ والي الشام إلى الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان ﷺ يستأذنه في غزو البحر أكثر من مرة، فأجابه عثمان إلى ذلك، وكتب إليه: (لا تنتخب الناس ولاتقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنْه) ففعل معاوية، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري. واتجه الأسطول الإسلامي عام ٢٨هـ نحو قبرص، وهي الجزيرة المهمة في موقعها في البحر المتوسط؛ فهي المحطة البحرية الإستراتيجية للتجارة والملاحة، ثم إن موقعها مهم عسكرياً؛ لحماية فتوح المسلمين في بلاد الشام وإفريقيا.

اتجه الأسطول الإسلامي من سواحل بلاد الشام، بقيادة عبد الله بن قيس إلى قبرص، وسار إليها أيضاً أسطول إسلامي آخر من مصر، بقيادة عبد الله بن سعد، فانتزعها المسلمون عام ٢٨هـ من البيزنطيين، وإمبراطورهم آنذاك كونستانس الثاني. وقد صالح أهل قبرص المسلمين على:

١. ألا يقوموا بغزو المسلمين.
٢. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم.
٣. مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة.
٤. وأن يختار المسلمون بطريق قبرص.

وبذلك يكون أول فتح لجزيرة قبرص على يد معاوية سنة ٢٨هـ، وغزاها معه جماعة من الصحابة، فيهم أبو ذر، وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس (رضي الله عنهم أجمعين). قال جبير بن نفير: ولما فتحت قبرص وأخذ منها السبي، نظرت إلى أبي الدرداء يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله؟. قال: فضرب منكبي بيده، وقال: ثكلتك أمك ياجبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ماترى، فسلط الله عليهم السباء، وإذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

وتوفيت في هذه الغزوة أم حرام بنت ملحان الأنصارية تحقيقاً لنبوة رسول الله ﷺ، وهي أنه نام رسول الله ﷺ في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، وقال: **«عُرض عليَّ ناسٌ من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرَّة»**، قالت أم حرام: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: **«إنك منهم»**، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقالت أم حرام: يا رسول الله، ما يضحكك؟ فقال: **«عرض عليَّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرَّة»**، قالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: **«أنت من الأولين»**. وقد صحبها زوجها عبادة بن الصامت ﷺ في غزو قبرص، فلما جاز البحر بها، ركبت دابة فصرعتها فقتلتها، ودفنت هناك، وقبرها يزار حتى يومنا هذا.

ثم إن أهلها النصارى كانوا يثورون على تبعيتهم إلى الحكم الإسلامي بين الفينة والأخرى؛ فلهذا تكررت الغزوات على قبرص في الأعوام: ١٣٠، ١٥٨، ١٨٤، ١٩٠هجرية، وقبيل ابتداء الحملات الصليبية وجه ملك القسطنطينية (نقفور) أسطولاً إلى قبرص عام ٩٦٥ م، فاحتلها، فأصبحت سنداً بالغ الأهمية للصليبيين، وبعد

استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، اتجه ريتشارد قلب الأسد إلى قبرص وجعلها قاعدة له عام ١١٩١م، وأصبحت مملكة في عام ١١٩٨م، وأصبح ملكها موجهاً إلى المغول للقضاء على المسلمين. و صبحت عام ١٢٤٨م قاعدة للملك لويس التاسع عند غزوة مصر.

ووحّد ملك قبرص (هيو)، في عام ١٢٦٣م، قبرص وعكا التي كانت لا تزال بيد الصليبيين، فأصبح مسؤولاً عن حماية عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق. وحرر المسلمون عكا في عام ١٢٩١م، وأضحت قبرص بعدها مركز تهديد للشواطئ الإسلامية؛ لذلك كان الملك الأشرف خليل محرر عكا ينادي دوماً: (قبرص.. قبرص.. قبرص)، غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه، ووافته المنية بالاغتيال.

وكان المماليك قد اهتموا بالسيطرة على قبرص؛ لكونها تحولت قاعدة للهجوم على السواحل الإسلامية، وكان القبارصة قبل هذه المعركة قد اتخذوا جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط، وتهديد تجارة المسلمين، فقاموا بغارة على الإسكندرية في سنة ٧٦٧هـ-١٢٦٥م، وأحرقوا الحوانيت والخانات والفنادق، ودنّسوا المساجد وعلقوا عليها الصلبان، وفعلوا المنكرات، ومكثوا بالمدينة ثلاث أيام يعيثون فيها فساداً، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة ٦٩٦هـ-١٢٩٣م. وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلغت استهانة القبارصة بهيبة دولة المماليك واغترارهم بقوتهم أن اعتدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة ٨٢٦هـ-١٤٢٢م، وأسروا من فيها، ولم تفلح محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرص، تضمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

وتمادى القبارصة في غرورهم، فاستولوا على سفينتين تجاريتين، قرب ميناء دمياط، وأسروا من فيهما، وكانوا يزيدون على مئة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا، كان قد أرسلها السلطان برسباي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عند ذلك لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك. واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسؤولية، فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص، وذلك في ثلاث سنوات متتالية.

حملات السلطان الأشرف برسباي الثلاث: لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر؛ رداً على الحملات الصليبية التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط، في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الرد. فخرجت الحملة الأولى في سنة ٨٢٧هـ-١٤٢٤م حملةً استطلاعية صغيرة إلى جزيرة قبرص، وهاجمت ميناء "ليماسول"، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، شجع هذا الظفر أن يبادر برسباي بإعداد حملة أعظم قوة من سابقتها لغزو قبرص، فخرجت الحملة الثانية في (رجب ٨٢٨هـ - مايو ١٤٢٥م) مكونة من أربعين سفينة، واتجهت إلى الشام، ومنها إلى قبرص، وكانت جهتها هذه المرة مدينة فاما غوستا، وقد أحرزت النصر، ومكثت ٤ أيام، ثم اتجهت إلى مدينة ليماسول ونجحت في تدمير قلعة ليمسول، وقتل نحو خمسة آلاف قبرصي، وعادت إلى القاهرة تحمل بين يديها ألف أسير، فضلاً على الغنائم التي حُملت على الجمال والبغال.

وبعد عام خرجت الحملة الثالثة، واستهدف السلطان برسباي فتح الجزيرة وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتيها وأكثر عدداً وعُدة، فأبحرت مئة وثمانون سفينة من ميناء رشيد المصري في ٨٢٩هـ-١٤٢٦م، وسارت نحو ليماسول ففتحها في (٢٦ شعبان ٨٢٩هـ - ٢ تموز ١٤٢٦م)، ثم اتجهت نحو الداخل وتحركت الحملة

شمالاً، فالتقت بجيش كبير يقوده ملك قبرص جانوس نفسه، فجرت معركة طاحنة بين الفريقين، انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، واستولت القوات المصرية على العاصمة "نيقوسيا"، وبذا دخلت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

استولت قوات المماليك على جزيرة قبرص المرة الثانية في تاريخ الإسلام، في يوم الخميس ١٣ رمضان عام ٨٢٩هـ-١٤٢٦م، وذلك على يد السلطان المملوكي الأشرف برسباي. ولما بلغ السلطان الأشرف (برسباي) خبر فتح قبرص، بكى من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله، وقرأ الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس.

واحتفلت القاهرة برجوع الحملة الظافرة التي تحمل أكاليل النصر، وشقّت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩هـ – ١٤ آب ١٤٢٦م)، وكانت جموع الأسرى البالغة ٣٧٠٠ أسير تسير خلف الموكب، وكان من بينها ملك قبرص جانوس وأمراؤه.

استقبل برسباي بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وفود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسل من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان، فقبّل جانوس الأرض بين يدي برسباي، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائباً عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية.

وللتوثيق العربي لهذا الفتح المبين، هذه نُتَفٌ من توثيق شاهد العيان ابن تغري بردي المعاصر للسلطان في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ذكره تحت حكم السلطان الأشرف برسباي:

غزوة قبرس على حدتها. ولما كان يوم الإثنين ٢٣ شهر رمضان أعام ٨٢٩هـا ورد الخبر على السلطان بأخذ مدينة قبرس، وأسر ملكها جينوس بن جاك، فدقت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثة أيام. وكان من خبر ذلك أن الغزاة لما ساروا من الثغور المذكورة إلى جهة قبرس، وصلوا إلى مدينة اللمسون اليماسول مجتمعين ومتفرقين، فبلغهم من أهل اللمسون أن متملك قبرس جاءه نجدة كبيرة من ملوك الفرنج، وأنه استعد لقتالهم كما تقدم ذكره.

الاستيلاء على ليماسول: ولما وصلوا إلى اللمسون، نازلوا قلعتها وقاتلوا من بها حتى أخذوها عنوة في يوم الأربعاء ٢٦ شعبان، ونهبوها وسبوا أهلها وقتلوا جماعة كبيرة ممن كان بها من الفرنج، ثم هدموها عن آخرها وساروا منها في يوم الأحد أول شهر رمضان من سنة تسع وعشرين المقدم ذكرها، بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام وساروا فرقتين: فرقة في البر، وعليهم الأمير تغري بردي المحمودي، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف، ومن انضاف إليهم من أمراء الطبلخانات، والعشرات والعساكر المصرية والشامية من الخيالة والرجالة، وفرقة في البحر ومقدمهم الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير قرامراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية والشامية. وكان سببُ مسير هؤلاء في البحر مخافة أن يطرق الفرنج المراكب من البحر ويأخذوها، ويصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم وكان ذلك من أكبر المصالح.

ثم سار من في البر متفرقين، حتى صاروا بين اللمسون والملاحة وهم من غير تعبئة لقتال، بل على صفة المسافرين، غير أن على بعضهم السلاح وأكثرهم بلا سلاح لشدة الحر، وصار كل واحد من القوم يطلب قداماً من غير أن يتربص أحدهم لآخر، وفي ظنهم أن صاحب قبرس لا يلقاهم إلا خارج قبرس.

وتأخر الأمراء ساقة العسكر كما هي عادة مقدمي العساكر، والناس تجدُّ في السير إلى أن يساربوا قبرس، ثم يقفوا هناك يريدون خيلهم إلى أن تكتمل العساكر وتتهيأ الأطلاب للقتال، ثم يسيرون جملة واحدة بعد التعبئة والمصافقة.

الموقعة البريّة الكبرى: وبينما هم في السير، إذا هم بمتملك قبرس بجيوشه وعساكره، ومن انضاف إليه من ملوك الفرنج وغيرها، وقد ملأت الفضاء. وكان الذين وافاهم صاحب قبرس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جداً، وأكثرهم خيالة من أعيان المماليك السلطانية.

فعندما وقع العين على العين، لم يتمالك المسلمون أن يصبروا لمن خلفهم حتى يصيروا جملة واحدة، بل انتهزوا الفرصة وتعرضوا للشهادة، وقال بعضهم لبعض: هذه الغنيمة. ثم حركوا خيولهم وقصدوا القوم بقلب صادق، وقد احتسبوا نفوسهم في سبيل الله وحملوا على الفرنج حملة عظيمة، وصاحوا: (الله أكبر) وقاتلوهم أشد قتال وأردفهم بعض جماعة وتخلف عنهم آخر، منهم رجل من أكابر الخاصكية، أقام يستظل تحت شجرة كانت هناك.

وتقاتل المسلمون والفرنج قتالاً شديداً، قتل فيه السيفي تغري بردي المؤيدي الخازندار، وكان من محاسن الدنيا، لم ترَ عيني أكمل منه في أبناء جنسه. والسيفي قطلوبغا المؤيدي البهلوان، وكان رأساً في الصراع، ومن مقولة تغري بردي المقدم ذكره في الشجاعة والفروسية، والسيفي إينال طاز البهلوان، والسيفي نانق اليشبكي وهؤلاء الأربعة من الأعيان والأبطال المعدودة، عوض الله شبابهم الجنة بمنه وكرمه، ثم قتل من المسلمين جماعة أخر، وهم مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أنْ نصرَ الله الإسلامَ ووقع على الكفرة الخذلان، وانكسروا وأسر متملك قبرس مع كثرة جموعه وعظم عساكره التي لا تحصر وقلة عسكر المسلمين. حتى إن الذي كان قد حضر أوائل الوقعة أقل من سبعين نفساً، قبل أن يصل إليهم الأمير إينال العلائي الناصري، أحد أمراء الطبلخانات، ورأس نوبة ثالث، وهو الملك الأشرف إينال والأمير تغري برمش. ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة. كل ذلك بعد أن انكسرت الفرنج، وأسر صاحب قبرس، وقتل من قتل من المسلمين. ولما ترادفت عساكر الإسلام، ركبوا أقفية الفرنج ووضعوا في السيف وأكثروا من القتل والأسر، وانهزم من بقي من الفرنج إلى مدينة قبر الأفقسيا.

قتل الخونة: ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان المسلمين، قد أمد الفرنج بهم علي بك بن قرمن عليه من الله ما يستحقه، فقتل المسلمون كثيراً منهم. واجتمع عساكر البر والبحر من المسلمين في الملاحة، يوم الإثنين ثاني شهر رمضان، وتسلم الأمير تغري بردي المحمودي صاحب قبرس، كل ذلك، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، حتى امتلأت أيديهم، وأجهدوا في حمل الغنائم.

وأما القتلى من الفرنج، فلا تحصر ويُستحى من ذكرها كثرة. حدثني بعض مماليك الوالد ممن باشر الواقعة من أولها إلى آخرها وجماعة كبيرة من الأصحاب الثقات، قالوا: كان موضع الواقعة أزيد من ألفي قتيل من قتلى الفرنج، هذا الموضع الذي كان فيه القتال. وأما الذي قتل من الفرنج بالضياع والأماكن وبطريق قبرس، فلا حد له ولا حساب، فإنه استمر القتل فيهم أياماً. واستمر الملاحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان، فساروا منها يريدون الأفقسيا مدينة قبرس.

المعركة البحرية: ولما ساروا، وافاهم الخبر بعد أن تقدم منهم جماعة كبيرة من المطوعة والمماليك السلطانية إلى مدينة قبرس بأن أربعة عشر مركباً من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح والمقاتلة أتت المراكب لقتال المسلمين، منها سبعة أغربة وسبعة مربعة القلاع. فلاقاهم الأمير إينال الحكمي أمير مجلس، والأمير قرامرادخجا الشعباني، والأمير طوغان السيفي تغري بردي أحد مقدمي دمشق، والأمير جاني بك رأس نوبة السيفي يلبغا

الناصري، المعروف بالثور وبمن انضاف إليهم من المطوعة وغيرهم، وهؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدمي العساكر في البحر بالمراكب، واقتتلوا مع الفرنج المذكورين أشد قتال، حتى هزموهم وأخذوا منهم مركباً مربعاً من مراكب الفرنج، بعد أن قتلوا منهم عدة كبيرة تقارب ما ذكرنا ممن قتل بمكان الوقعة الأولى وولت الفرنج الأدبار.

دخول قصر ملك الجزيرة: واستمر الذي توجه من الغزاة إلى الأفقسيا من المماليك السلطانية، وغيرهم يقتلون في طريقهم ويأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة ودخلوا قصر الملك ونهبوه. ثم عادوا ولم يحرقوا بمدينة قبرس إلا مواضع يسيرة، ولم يدخل المدينة أحد من أعيان العسكر، وغالب الذي دخلها من المماليك السلطانية والمطوعة، وكان دخولهم وإقامتهم بها وعودهم منها في يومين وليلة واحدة. ثم أقام جميع الغزاة بالملاحة وأراحوا بها أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح.

ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم، الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ في سنة نيف وعشرين، ثم ركبت الغزاة المراكب عائدين إلى جهة الديار المصرية، ومعهم الأسرى بالغنائم، ومن جملتها متملك قبرس في يوم الخميس ثاني عشر رمضان، بعد أن بعث أهل الماغوصة يطلبون الأمان. هذا ما كان من أمرهم. انتهى

وجزيرة قبرس تسمى باللغة الرومية شبرا ليعني سايبروس Cyprus) والبحر يحيط بها مئتي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال و لبريد بهذا الفرسخ أربعة فراسخ، وجزيرة قبرس من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة وسلطانها يقال له: أراد شبرا: أي: سلطان الجزيرة. وقبرس مدينة بالجزيرة تسمى الأفقسيا. ومسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام، وبالجزيرة المذكورة اثنتا عشرة ألف قرية كباراً وصغاراً، وبمدنها وقراها من الكنائس والديارات (أم الأديار؟ لأن الدير جمعه أديار) والقلالي والصوامع كثير. وبها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، وبها الرياحين العطرة كالخزام والياسمين والورد والسوسن والنرجس والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وغير ذلك. وبمدن الجزيرة المذكورة الأسواق والخانات والحمامات والمباني العظيمة. انتهى.

وأما أمر السلطان الملك الأشرف برسباي، فإنه لما بلغه خبر أخذ قبرس في يوم الإثنين ثالث عشرين رمضان حسبما تقدم ذكره، كاد أن يطير فرحاً، ولقد رأيته وهو يبكي من شدة الفرح ويبكي الناس لبكائه وصار يكثر من الحمد والشكر لله. ودقت البشائر بقلعة الجبل وبسائر مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، وارتجت القاهرة وماجت الناس من كثرة السرور الذي هجم عليهم، وقرئ الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريين بالقاهرة، حتى سمعه كل من قصد سماعه وحضر.

وقالت الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التي نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية، وأنشدها بين يدي السلطان بحضرة أرباب الدولة والقصيدة ثلاثة وسبعون بيتاً أولها:

بُشـراك يـا ملـك المليـك الأشـرفِ	بفتـوح قـبرس بالحسـام المشـرفِ
فـتحٌ بشـهر الصـوم تمّ لــه	فيـا لـك أشـرف في أشـرف في أشـرف
فـتح تفتحـت السـموات العـلا	مـن أجلـه بالنصـر واللطـف الخفـي
والله حـفّ جنـوده بملائـك	عاداتهـا التأييـد وهـو بهـا حفـيّ

الأشرف السلطان أشرف مالك	لولاه أنفس ملكه لم تشرف
حامي حمى الحرمين بيت الله وال	قبر الشريف لزائر ومطوّف

انتهى.

نصر لا يُفسر إلا بتأييد الله المسلمين بملائكته:

قلت: وكل ذلك، والنصارى تكذب هذا الخبر وتستغربه من أسر متملك قبرس وهزيمته على هذا الوجه: لأن أمر هذا النصر في غاية من العجب من وجوه عديدة:

- **أولها:** قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا في غاية من القلة، بحيث إن العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه في هذه المرة.
- **وثانيهما:** أنه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقع مصاف.
- **وثالثها:** أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسلمين بعد أيام كثيرة، من وجوه عديدة يطول الشرح في ذكرها لا تخفى على من له ذوق.
- **ورابعها:** أنه كان يمكن هزيمة الفرنج، ولا يمكن مسك الملك وأسره أيضاً من وجوه عديدة.
- **وخامسها:** أن غالب العسكر، إذا حصل لهم هزيمة يتحابون ويرجعون غير مرة على من هزمهم، لا سيما كثرة عساكر الفرنج، وقلة من حضر الوقعة من عساكر المسلمين في هذه المرة فكان على هذا يمكنهم الكر على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرة.
- **وسادسها:** أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك وتشتت شمل الفرنج والاستيلاء على وما أرى إلا أن الله سبحانه وتعالى أعز الإسلام وأهله وخذل الكفر وأهله بهذا النصر العظيم، الذي لم يسمع بمثله في سالف الأعصار، ولا فرح بمثله ملك من ملوك الترك.

ولقد صار للملك الأشرف برسباي بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامة. اللهم لا مانع لما أعطيت.

احتفال تاريخي: ولما بلغ الملك عود الغزاة المذكورين إلى جهة الديار المصرية، رسم فنودي بالقاهرة ومصر بالزينة. ثم ندب السلطان جماعة كبيرة عن المماليك السلطانية بالتوجه إلى الثغور؛ لحفظ مراكب الغزاة بعد خروجهم منها؛ خوفاً من أن يطرقهم طارق من الفرنج مما يأتي صاحب قبرس من نجدات الفرنج. وكان هذا من أكبر المصالح. ثم رسم السلطان لهم أن يأخذوا جميع المراكب من ثغر دمياط ويأتوا بها إلى ثغر الإسكندرية لتحفظ بها؛ وسبب ذلك أن الغزاة المذكورين كان منهم من وصل إلى ثغر الإسكندرية، ومنهم من وصل الى ثغر دمياط، ومنهم من وصل إلى الطينة؛ لكثرة المراكب ولاختلاف الأرياح. وبينما السلطان في انتظار المجاهدين، قدم عليه السيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة منها، وقد استدير بعد موت أبيه، فأكرمه السلطان وخلع عليه بإمرة مكة، على أنه يقوم بما تأخر على أبيه من الذهب وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، فإن أباه الشريف حسن بن عجلان كان قد حمل من الثلاثين ألف دينار التي التزمها قبل موته خمسة آلاف دينار. ثم التزم بركات أيضاً حملَ عشرة آلاف دينار في كل سنة، وأن لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيره، وأن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور. انتهى.

ولما كان يوم عيد الفطر، ابتدأ دخول الغزاة إلى ساحل بولاق أرسالاً كما خرجوا منها. ووافق في هذه الأيام وفاء النيل ستة عشر ذراعاً، فتضاعف مسرات الناس من كل جهة. واستمر دخولهم في كل يوم إلى ساحل بولاق، إلى أن تكامل في يوم الأحد سابع شوال، ونزلوا بالميدان الكبير بالقرب من موردة الجبس.

وأصبحوا من الغد في يوم الإثنين ثامن شوال، وهو يوم فطر السلطان: فإنه كان يصوم الستة أيام من شوال، وطلعوا إلى القلعة على كيفية ما يذكر وهم جميع الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى والغنائم بين أيديهم ومتملك قبرس الملك جينوس بن جاك أمامهم، وهو منكس الأعلام. وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهل القرى والبلدان من الأرياف للفرجة.

وركبت الأمراء من الميدان ومعهم غالب الغزاة، وساروا من أرض اللوق حتى خرجوا من المقس، ودخلوا من باب القنطرة، وشقوا القاهرة إلى باب زويلة، وتوجهوا من الصليبة من تحت الخانقاه الشيخونية من سويقة منعم إلى الرميلة، والخلق في طول هذه المواضع تزدحم، بحيث إن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريد النساء التي صفت على حوانيت القاهرة بالشوارع، من غير أن يندبهم أحد لذلك والإعلان بالتكبير والتهليل ومن عظم التهاني. هذا مع تخليق الزعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى في الأزقة. وفي الجملة: كان هذا اليوم من الأيام التي لم نرها قبلها ولا سمعنا بمثلها.

وساروا على هذه الصفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرج، وهم مع ذلك في ترتيب في مشيهم يذهب العقل، وهو أنهم قدموا أولاً الفرسان من الغزاة أمام الجميع، ومن خلف الفرسان طوائف الرجالة من المطوعة وعشران البلاد الشامية وعربان البلاد وزعر القاهرة، ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رؤوس الحمالين وعلى ظهور الجمال والخيول والبغال والحمير، التي كانت على الرؤوس، فيها تاج الملك وأعلامه منكسة وخيله تقاد من وراء الغنائم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج، ثم من بعدهم السبي من النساء والصغار، وهم أزيد من ألف أسير تقريباً، سوى ما ذهب في البلاد والقرى مع المطوعة وغيرهم من غير إذن مقدم العساكر، وهو أيضاً يقارب ما ذكر.

ومن وراء الأسرى جينوس ملك قبرس، وهو راكب على بغل بقيد حديد، وأركب معه اثنان من خواصه، وعن يمينه الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، وأمامه قرا مراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف أيضاً، وعن يسار الأمير تغري بردي المحمودي رأس نوبة النوب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش المحمودي رأس نوبة ترب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف أيضاً، وأمامهم أمراء الطبلخانات والعشرات على مراتبهم وأمراء البلاد الشامية.

وساروا على هذه الصفة حتى طلعوا إلى القلعة، فأنزل جينوس عن البغل وكشف رأسه عند باب المدرج، وقد حاطه الحجاب وأمراء جاندار، وقد صفت العساكر الإسلامية من باب المدرج إلى داخل الحوش السلطاني.

فلما دخل جينوس من باب المدرج، قبّل الأرض ثم قام ومشى، ومعه الأمراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب وهو يرسف في قيوده على مهل لكثرة الزحام.

هذا، وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البحرة المقابل لباب الحوش السلطاني، في موكب عظيم من الأمراء والخاصكية، وعنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، وهو جالس فوق الأمراء، ورسل خوند كار مراد بن عثمان متملك بلاد الروم، ورسل صاحب تونس من بلاد المغرب، ورسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشامية، وقد طال جلوس الجميع عند السلطان إلى قريب الظهر والسلطان يرسل إلى الغزاة رسولاً بعد رسول باستعجالهم، حتى اجتازوا بتلك الأماكن المذكورة، فإنها مسافة طويلة وأيضاً لا يقدرون على سرعة المشي من كثرة ازدحام الناس بالطرقات.

ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب الحوش. فلما رأى متملك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد المذكور في موكبه، وأمره من معه بتقبيل الأرض، غُشي عليه وسقط على الأرض، ثم أفاق، وقبّل الأرض وقام على قدميه عند باب الحوش، تجاه السلطان على بعد. وسارت الغنائم بين يدي السلطان، حتى عرضت عليه بتمامها وكمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك كله. فتقدمت الأمراء الغزاة وقبلوا الأرض على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينال الجكمي مقدم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار متملك قبرس، فتقدم ومشى وهو بقيوده ورأسه مكشوف، وبعد أن مشى خطوات أمر فقبل الأرض، ثم قام ثم قبل الأرض ثانياً بعد خطوات، وأخذ يعفّر وجهه في التراب ثم قام فلم يتمالك نفسه وقد أدهشه ما رأى من هيبة الملك وعز الإسلام فسقط ثانياً مغشياً عليه. ثم أفاق من غشوته، وقبّل الأرض، وأوقف ساعة بالقرب من السلطان، بحيث إنه يتحقق شكله.

هذا، والجاويشية تصيح، والشبابة السلطانية تزعق، والأزان يضرب على آلته، ورؤوس النوب والحجاب تهوّل الناس بالعصي، من كثرة العساكر والناس بالحوش المذكور هذا مع ما الناس فيه من التهليل والتكبير بزقاقات القلعة وأطباق المماليك السلطانية وغيرها. ثم أمر السلطان بجينوس المذكور أن يتوجه إلى مكان بالحوش السلطاني، فمروا به في الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطان مقدمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصكية المقدم كل واحد منهم على مركب، وكانوا كثيراً جداً؛ لأن عدة مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت على مئة قطعة، وقيل: مائتان، وقيل: أكثر أو أقل ما بين أغربة وقراقير وزوارق وغير ذلك.

فأول من بدأ بهم السلطان وخلع عليهم أمراء الألوف بمصر والشام، وخلع على كل واحد منهم أطلسين متمراً، وقيد له فرساً بقماش ذهب، وهم: الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير تغري بردي المحمودي الناصري رأس نوبة النوب، والأمير قرامرادخجا الشعباني الظاهري برقوق أمير جاندار، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش البهسني التركماني، أحد مقدمي الألوف، والأمير طوغان السيفي تغري بردي، أحد مقدمي الألوف بدمشق، ثم أمراء الطبلخانات والعشرات من أمراء مصر والشام، على كل واحد فوقاني كمخا أحمر وأخضر وبنفسجي بطرز زركش على قدر مراتبهم، وكذلك كل مقدم مركب من الخاصكية والأجناد وغيرهم فكان هذا اليوم يوماً عظيماً جليلاً، لم يقع مثله في سالف الأعصار، أعز الله تعالى فيه دين الإسلام، وأيده وخذل فيه الكفر وبدده. ثم انفض الموكب ونزل كل واحد إلى داره.

وقد كثرت التهاني بحارات القاهرة وظواهرها لقدوم المجاهدين، حتى إن الرجل كان لا يجتاز بدرب ولا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزعفران. ثم أصبح السلطان من الغد، وهو يوم الثلاثاء تاسع شوال يجمع التجار لبيع الغنائم من القماش والأواني والأسرى. ثم أرسل السلطان يطلب من متملك قبرس المال، فقال: مالي إلا روحي، وهي بيدكم، وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم؟

وتكرر الكلام معه بسبب ذلك، وهو يجيب بمعنى ما أجاب به أولاً، حتى طلبه السلطان بالحوش، وكان به أسارى الفرنج، فلما حضر بين يدي السلطان وقبل الأرض وأوقف وشاهد الأسرى من الفرنج في تلك الحالة، صرخوا بأجمعهم صرخة واحدة، وحثوا التراب على رؤوسهم والسلطان ينظر إليهم من مجلسه بالمقعد الذي كان جلس به من أمسه.

وسبب صراخ الأسرى وعظيم بكائهم، أنه كان فيهم من لا يصدق أن ملكهم قد أسر؛ لكثرتهم وتفرقهم في المراكب والاحتفاظ بهم، وعدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم: إن ملككم معنا أسير، يضحك ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له: بهذه المركب. ويشار إلى مركب الأمير تغري بردي المحمودي يهزأ بذلك ويبتسم.

فلما عاينوه تحققوا أسره وهالهم ذلك. وقيل: إن بعض سبي الفرنج سألت من رجل من المسلمين، لما كسروا الصليب الكبير الذي يعرف به جبل الصليب ببلادهم، وكان هذا الصليب معظماً عندهم جداً وقالت: نحن إذا حلف منا رجل أو امرأة على هذا الصليب باطلاً أُوذي في الوقت، وأنتم قد كسرتموه وأحرقتموه ولم يصبكم بأس. ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم الشيطان، فصار يغويكم ويستخف بعقولكم، ونحن قد هدانا الله للإسلام، وأنزل علينا القرآن، فلا سبيل له علينا، فعندما كسرناه بعد أن ذكرنا اسم الله تعالى عليه، فر منه الشيطان وذهب إلى لعنة الله. فقالت المرأة: هو ما قلته وأسلمت هي وجماعة معها. انتهى

ولما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدي السلطان، وأوقف معه جماعة من قناصلة الفرنج ممن كان بمصر وأعمالها، وتكلم الترجمان معه فيما يفدي به نفسه من المال وإلا يقتله السلطان، صمم هو على مقالته الأولى، فالتزم القناصلة عنه المال لفدائه، من غير تعيين قدر بعينه، ولكنهم أجابوا السلطان بالسمع والطاعة فيما طلبه وعادوا بجينوس إلى مكانه من الحوش والترسيم عليه، وكان الذي رسم عليه السيفي أركماس المؤيدي الخاصكي المعروف بأركماس فرعون.

وأقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء فرسم له السلطان ببدلتين من قماشه وأمر له بعشرين رطل لحم في كل يوم وستة أطيار دجاج وخمس مئة درهم فلوساً برسم حوائج الطعام، وفسح له في الاجتماع بمن يختاره من الفرنج وغيرهم، وأدخل إليه جماعة من حواشيه لخدمته. كل ذلك، والسلطان مصمم على طلب خمس مئة ألف دينار منه يفدي بها نفسه وإلا يقتله، والرسل تتردد بينهم من التراجمين والقناصلة إلى أن تقرر الصلح بعد أيام، على أنه يحمل مائتي ألف دينار يقوم منها بمئة ألف دينار عاجلة، وإذا عاد إلى بلاده أرسل بالمئة ألف دينار الأخرى، وضمنه جماعة في ذلك، وأنه يقوم في كل سنة بعشرين ألف دينار جزية.

واشترط جينوس مع السلطان أن يكف عنه طائفة البنادقة وطائفة الكيتلان من الفرنج، فضمن له السلطان ذلك، وانعقد الصلح، ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سنذكره في يومه. هذا ما كان من أمر صاحب قبرس وغزوه. انتهى

وتوفي السلطان الاشرف برسباي فاتح قبرص في ذي الحجة ٨٤١ هـ -مايو ١٤٣٧م. واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣هـ-١٥١٧م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول". ومن ثم صار المماليك قواداً ونواباً للعثمانيين في مصر. فاستقل النصارى حينئذ بقبرص لبضعة وسبعين عاماً. ثم أعاد العثمانيون فتح قبرص عام ١٥٧٣م المرة الثالثة في التاريخ الإسلامي. ثم احتلها البريطانيون عام ١٨٧٨م. ثم أصبحت مستقلة عام ١٩٤٥م، ومن أيام استقلالها عن البريطانيين وهي مقسومة إلى شطرين شطر مسلم (وهو التركي) وشطر نصراني (وهو اليوناني).

نسأل الله تعالى أن يعيدها وجميع بلاد المسلمين السليبة إلى حوزة الإسلام، وأن ينعم على أهلها بتحكيم الشريعة الغرّاء.

المراجع

١. **تفسير القرآن للقرطبي.**

٢. **تفسير القرآن لابن كثير.**

٣. **البداية والنهاية لابن كثير.**

٤. **تاريخ الإسلام للإمام الذهبي**، تحت أحداث ووفيات العام المذكور.

٥. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.

٦. **حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، لجلال الدين السيوطي.

٧. **السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك** (١٨) للشيخ الدكتور علي محمد محمد الصَّلابيّ دار المنارة، ٢٠٠٩/٩/١٠ (الشبكة البيتية).

٨. **الفاطمية: دولة التفاريح والتباريح**، للدكتور جمال بدوي، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.

٩. **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام**، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

10. Geoffrey Hindley: **A brief history of The Crusades** (Islam and Christianity in the struggle for World Supremacy). Robinson London, 2004.

11. David W. Tschanz and Hamra Abbas: **Histor's Hinge: Ain Jalut.** <u>Saudi Aramco World</u> July/August 2007, pages 24-33.

12. Wikipedia, the free **encyclopedia, Online research according to subject.**

❧✻❧

PARADISE DICTIONARY

DICTIONARY OF ENGLISH WORDS OF ARABIC ETYMOLOGY

WITH

PARADISE INTRODUCTION

ADVENTURES OF ARABIC LANGUAGE THROUGHOUT HISTORY

(A Comprehensive Introduction of Arabic Influence on English Language)

PART I

Mohannad Al-Fallouji Al-Husaini Al-Hashimi,

PhD (London), FRCS (Ed), FRCS (Glas), FRCSI, PDLaw

Professor of Surgical Sciences and Doctor of Philosophy in Medicine



ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهاشمي، مهند عبدالرازق الفلوجي

معجم الفردوس / مهند عبدالرازق الفلوجي الهاشمي - ط١ - الرياض، ١٤٣٣هـ

٨٠٠ص، ٢٠×٢٨سم

ردمك: ٨-٧٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- اللغة الإنجليزية - معاجم - اللغة العربية   أ. العنوان

ديوي: ٤٢٣.١   ١٤٣٠/٤٥٨٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٥٨٩

ردمك: ٨-٧٨٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤، فاكس: ٢٥٤٣٣١٤

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا

تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

استغرق إنجاز معجم الفردوس ٢٠ عاماً، وسُمّيَ بالفردوس؛ لأنّ هذه الكلمة الإنجليزية ذات أصل عربيّ، ولها المعنى نفسه عربياً وإنجليزياً. ثم إن الفردوس هي أعلى وأوسط وأفضل جنّات عدن، حيث العربية هي لُغة التواصل.

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح الإفادة من هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير والنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

God (Allah) Most High says:

"This, our stock-in-trade has been returned to us"

Verse XII:65 Surah Yusuf (Prophet Joseph)

Index of Contents

PART TWO
PARADISE DICTIONARY DICTIONARY PROLOGUE

Acknowledgment

Over last few years, I have occupied my time writing what I had already drafted 20 years ago, but I could neither finish the work or ever thought that it would come to this monumental project. However, the continuous support and request of private friends, re-charged my battery on occasions, when my faculties were not functioning properly, and they re-kindled my interest whenever I lost the stamina and the motivation to continue. Furthermore, the unlimited support of my wife **Dr Najlaa Al-Quisi**, incited me to focus whenever I lost track or lacked concentration, and helped me persevere to fill my spare time (even when I was ill) in order to complete this arduous task once and for all.

I am grateful to **Mr Muhammad Al-Obeikan**, Publishing Directing Manager of Obiekan Publishers for his patience and encouragement, while writing 'Paradise Dictionary'.

I also acknowledge the valuable advice of **Dr. Muhammad Al Ahmari**, Consultant at Obeikan Publishers and for providing me with a copy of *'Linguistic Adventures'* book by Abdul Haqq Fadhil.

My special thanks also, go to:

Dr Talal Kamel Khweter, a Computer Designer for designing the illustrated plates of the Dictionary.

Colonel Dr Attiya Mohammed AlZahrani (Breast & Endocrine Consultant Surgeon) for helping me with the table of the military titles in different languages.

Mr. Saleh Abdullah Al-Ghamidi, a Computer Expert and his son ***Ahmad*** for their unlimited support in the final stages of production of 'Paradise Introduction'.

Dr Yasin Alzuhdi and ***Mr Amer Alokaidi***, the distinguished teachers and educators.

Mr. Abdurrahman H Alqurashi, a Staff Development Administrator

for his support with Arabic ***Language*** history in the 'Paradise Introduction'.

Finally, I am aware I have left unnamed a great number of friends who directly or indirectly have contributed to the ***completion*** of 'Paradise Dictionary'. To them all, I return my grateful thanks.

Professor Dr. M Al-Fallouji Al-Hashimi, PhD, FRCS
London, Friday 26 February 2010 AD / 12 Rabia-I 1431 Hijri

INTRODUCTION

THE LINGUISTIC NEED FOR THIS DICTIONARY

There is a need for linguistic communication for the increasing influx of Arabic-speaking students, workers, businessmen, and professionals (e.g. Doctors and Engineers) travelling from Arabic and Islamic world to Western Hemisphere (Europe/USA). Conversely, there is a similar need of such linguistic communication for the mounting number of English-speaking workers, businessmen, Technicians and professionals travelling from Western Hemisphere to the oil-rich and business-based Arabic Middle East and Islamic world. There is therefore a mutual need for Anglo-Arabic linguistic communication, particularly in our current age of Globalization (or Anglobalisation as called by some). The understanding of similar origins of commonly used words provides better understanding of the foreign language, and facilitates an easy communication in achieving desired targets whether in academic studies, courses and degrees, or in generating income and profit-making in commercial and business world. Indeed, since language is a characteristic of a nation, it has long been realized that communication in one nation's language means normalization and inclusion within that nation; and hence the interesting Arabic quotation: ***'the one who mastered the language of people, is saved from their evils'***.

Perhaps, the fruitful outcome of this unique Dictionary is two-fold: the linguistic cross-fertilization (Arabic/English), and the cultural dialogue. The mutual cultural understanding is vital in the narrowing of cultural differences between East and West; indeed Christians, Jews and Muslims all share the believe of Abraham and even share his blood. This was clearly expressed by the former USA President Jimmy Carter in his book **"Blood of Abraham"** (1985) and by Chris Lowney, a successful Managing Director of JP Morgan & Co. (extending on three continents) in his excellent book **"A vanished World – Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain" (2006).**

HRH Prince Charles of Wales, the Patron of the Oxford Centre for Islamic Studies had delivered an inspiring lecture entitled **'UNITY IN FAITH'** at Al-Azhar University Cairo, on 21 March 2006; he said:.

(The roots of the faith that we share in the One God, the God of Abraham, give us enduring values...

the single most important principle that unites the Abrahamic faiths: in Judaism, "Love your neighbour as yourself"; in Christianity, "All things whatsoever ye would that men should do to you, do ye so to them"; and in Islam "No-one of you is a believer until he desires for his brother that which he desires for himself")

However, the mutual cultural understanding has even more specifically researched and well documented by Professor Richard Bulliet in his excellent book ***"The Case for Islamo-Christian Civilization"*** (2004). This concept is not only representative of the factual truth, but is more conducive to the global peace and unity (irrespective of human cultural diversity) in this 'Global village' we all live in; furthermore, this concept (of cultural dialogue) is by far more consistent with the human nature than the gross misconception and the inflammatory phrase of ***"Clash of Civilisations"*** made-up and introduced by Professor Samuel Huntington (2002), and which had only led to polarization with mutual alienation; and to wars with mutual suffering and hatred.

The English words of Arabic etymology (origin) were resultant outcome of several generations and many centuries of interaction between the East and the West and in various fields of life. ***Hence***, the time needed to unearth such treasured words and to research this subject was proportionally long approaching 20 years or more.

There is therefore a wide global market for the project of the etymological Anglo-Arabic Dictionary for all students, workers, businessmen, and professionals based in U.K. and in Anglo-phone countries to serve their linguistic needs. Furthermore, the 3-5 million English-speaking Muslim British Citizens are also keen to teach their children Arabic language for religious reasons (**Arabic is the Islamic language**). Conversely and more importantly, the overseas market is even bigger both in the Middle East (300 million Arabs) and the Islamic World (1.5 billion non-Arab Muslims) who are keen to communicate in Arabic.

This Dictionary represents the definitive comprehensive (though not entirely exhaustive) text for English words of Arabic origin or potentially Arabic origin, and thus it represents a major Academic, systematic-researched, and Original Work in providing a unique reference book of its kind, for generations to come.

This Dictionary is therefore, urgently needed to fulfill the following functions:

1. An original academic textbook dedicated to English words of Arabic origin to act as a pioneering reference for all professionals, especially physicians, scientific researchers, orientalists, linguisticians and comparative philologists.
2. A practical linguistic companion for all English-speaking businessmen, technicians, and professionals working in Arabic Middle East and Islamic world.
3. A unique linguistic companion for all Arabic-speaking students, workers, businessmen and professionals living in the English-speaking west, while studying and/or communicating in English environment.
4. An ideal source of common words and phrases for the married cosmopolitan couples e.g. English-speaking wife with Arabic-speaking husband, particularly, when they intend to name their children with mutually acceptable names.
5. A moderate documented compendium midway between the extremes of excess and deficit: the excessive sources which twist English words to produce lists of Arabic words that are often obsolete words, impractical to use, and rather unrealistic, and occasionally with no proper documentation; and between the deficient sources on English words of Arabic origin, which include many classical and etymological English dictionaries.

Reading through this ***'Paradise Dictionary'***, one can easily deduce that the mankind is but one big global family inhabiting this global village. Indeed, the Dictionary by itself is an evidence of the Oneness of the human race family with One original language, indirectly testifying to the Oneness of the First Source: the Creator of mankind.

ABOUT THE AUTHOR

The author (Professor Doctor Mohannad Al-Fallouji) is a British Muslim citizen of Mediterranean origin; his family descends from Prophet Muhammad offspring. He is a bi-linguistic speaker with command of English and Arabic languages. He contributed extensively

to the literature: an author of 3 textbooks published in English language; a PhD thesis in Colorectal Surgery published in English language; his books entitled ***'Postgraduate Surgery'*** and ***'Clinical Radiology in Postgraduate Surgery'*** both published by Butterworth–Hienemann Medical Books International, and over 70 scientific papers all published in English language, with many more papers published in Arabic language. He is both a Doctor of medicine, and a Doctor of Philosophy with the highest academic degree in medicine (PhD Medicine from University of London). His ***PhD Thesis*** entitled ***"Colorectal Vascular Patterns in Health and Disease - An Applied Anatomy, Physiology, and Pharmacology at Micro-circulation Level"***, University of London; there is an extensive chapter on 'the history of Arabic surgery' in his PhD Thesis.

Dr Al-Fallouji was a surgeon by profession (MB ChB, FRCS Ed, FRCS Glas, FRCSI), trained as Registrar and PhD research Fellow at Hammersmith Hospital in London, Senior Registrar in Belfast Teaching Hospitals, became Assistant Professor in Al-Ain (United Arab Emirates), then Professor of Surgery in Bengazi, and then a visiting professor Overseas. He became a Consultant Surgeon with interest in Colorectal/Laparoscopic Surgery (UK) since the early Nineties till his recent retirement from NHS. He is interested in History of Arab Medicine, keen Bee-Keeper and vegetable gardener.

Furthermore, he possesses a unique wealth of books collected personally; they include books on the medieval history of Medicine, and history of Arab Medicine and Science as well as books on the origin of medical terms and general English words of Arabic etymology. He also hold ***Postgraduate Diploma in Law*** (PDL from University of Huddersfield) as well as the ***Certificate of National Examinations Board in Supervisory Management*** (NEBSM from Dewsbury College - School of Business & Humanities) and a ***Degree in British History*** (GCSE grade A – adult education programme) with his special constant interest continued to be in the history of Arabic medicine and surgery. Indeed, Professor Al-Fallouji's latest contributions included presentation of papers to the The British Society For The History of Medicine (BSHM) in 2007 at University of Dundee; his papers entitled:

'Arabic influences on medical terminology'; ***'abdominal trauma in Arab military history'***; and (jointly) ***'inhalational anaesthesia in Arab medical history'***.

Professor Al-Fallouji had **traveled the World**, particularly countries of cultural contacts between East and West in the Middle East (Cairo, Damascus, Tangier, and Baghdad); in Europe such as Andalusia (Spain), France, Turkey (Istanbul); and in India, China, USA, and has been extensively lecturing overseas as a visiting professor to the Middle East (e.g. Kingdom of Saudi Arabia, United Arab Emirates, Syria, Iraq, and Libya).

☙❋❧



PART ONE

PARADIS INTRODUCTION

ADVENTURES OF ARABIC LANGUAGE THROUGHOUT HISTORY

(A Comprehensive Introduction of Arabic Influence on English Language)



CHAPTER I:

Arabic: Language of Paradise And Mother Tongue of Adam on Earth

"And he (the Lord) taught **Adam all the names (of everything in Paradise)"** [Qur'an][1].

Verse 2:31 Surat Al-Baqarah (The Cow).

"The Most Gracious **(Allah). He has taught (you mankind) the Qur'an (by His Mercy). He created man. He taught him eloquent speech".**

Verse 55:1- 4 Surat Ar-Rahman (The Most Gracious).

"Mankind were but one community (i.e. on one religion – Islamic Monotheism), then they differed (later)".

Verse 10:19 Surat Yunus (Jonah).

"And among His Signs is the creation of the heavens and the earth, and the difference of your languages and colours".

Verse 30:22 Surat Ar-Rum (The Romans).

"And We sent not a Messenger except with the language of his people, in order that he might make (the message) clear for them".

Verse 14:4 Surat Ibrahim (Abraham).

"And indeed We know that they (polytheists and pagans) say: 'It is only a human being who teaches him (Muhammad)'. The tongue of the man they refer to is foreign, while this (the Qur'an) is a clear Arabic tongue".

Verse 16:103 Surat An-Nahl (The Bees).

"And truly, this (the Qur'an) is a revelation from the Lord of the 'A'lamin' (mankind, jinn and all that exists), which the trustworthy Ruh [Jibril (Gabriel)] has brought down upon your heart (O Muhammad) that you may be (one) of the warners in the plain Arabic language".

Verse 26:192-195 Surah Ash-Shu'ara (The Poets).

Position and Spread of Arabic

Before embarking on Arabic language, it is imperative to identify and rate its position among world language. Currently, English language is considered to be the most dynamic and the most commonly spoken language of the 20th and 21st centuries.

It is also considered as Britain's black gold, with £ 1 billion being earned annually from teaching English language in UK[2][3]. However, the real income must be higher than that, because numerous institutions abroad and many Embassies teach courses in English Language. It is the native tongue of some 300,000,000 – the largest speech community in the world except

for Mandarin Chinese (Cantonese Chinese in south China and Hong Kong speak English). It is the predominant language in two of the 6 inhabited continents (North America and Australia), and possesses a large block of speakers in a third (Europe) and a sizable one in a fourth (Africa). English is also by far the most important 'second language' in the world[4].

English is the mother tongue of 300 million people while another 300 million uses it as a 2nd language. Furthermore, the number of people who are learning English as a foreign language in countries where English has no official status is around 1000 millions and gets nearer to being a 'universal language'. Indeed, it is referred to as Linguistic Continent, which is not confined to the boundaries of Africa, America, or Asia. So whereas Chinese is the biggest continent as far as first language is concerned, English is the largest 2nd language continent. British Council claims that one billion people speak or are trying to speak English, that Nine-tenths of the of the world's electronically stored information is in English, and that a majority of the 50 million internet users communicate in English language[4].

Furthermore, it is the common 2nd language that nations speak to each other; in a political treaty between Paris and Bonn, Chancellor Helmut Schmidt and President Valerie Giscard d'Estaing chose to communicate in English!!!

Collins, the Publishers saw the commercial potential in early 1980 and embarked in partnership with Birmingham University, on a completely new English dictionary, designed specifically to meet the needs of foreign students. Called 'Cobuild', an acronym for Collins-Birmingham University International Language Database, the project cost £ 1.5 million and came to fruition in 1987, resulting in a phenomenal sale of more than half a million copies of dictionaries to Asians, Turkish, Spanish, and Italians!

English currently, is the official or joint official language in more than 70 countries and states around the world followed by French[3][4] and Arabic[3]. However, Spanish, Portuguese and German lag a long way behind[2][3].

Taking the above statistics on their face value, Arabic language is rated the 3rd International language (after Anglo-phonic and Franco-phonic linguistic continents). However, many consider such figures as phony with meagre academic interest, because Arabic language is, practically, spoken by at least 1.5-2 billion people of this Globe. In terms of speaking population, Arabic also comes in a 3rd place after Chinese and Indian languages.

Arabic is the native tongue of 300 million Arab inhabitants (including both Arab Muslims and non-Muslims) of the Arab World in the Middle East (Arabian Peninsula, Fertile Crescent, and North Africa). Arabic, however, is the 2nd language of 1.5 billion non-Arab Muslims of the Islamic World (Eastern Europe, South East Asia, Indian Subcontinent, Asia Minor, Persia, Inhabitants around Black Sea and Caspian Sea, Parts of China, Africa and America); Islam is the fastest growing religion in the World. One in every 5 people on earth firmly believes in Islam. There are 54 such Muslim states today, ranging from those as large as Indonesia and Bangladesh to those as tiny as the Maldives and Brunei. Even in non-Muslim countries, large Muslim populations constitute significant minorities: as much as 120 million in India and 20 million in China. Indeed, within the last half century, Islam has become the 2nd largest religion in most European countries, as also in America and Canada.

1. Such Muslims have to speak Arabic language out of Islamic necessity while performing their daily religious duties (5 prayers a day) and during other sacramental rituals such as pilgrimage.
2. Also, they have to communicate in Arabic because of booming trade and commerce with, or via, the prosperous Arab World; traditional travels and commercial links have existed for more than 14 centuries as told by the famous travellers and explorers e.g. Ibn Battuta, Ibn Majid, and Al-Idrisi. It is said: **(Knowledge of a foreign language is a competitive advantage, for languages are the lubricant of trade).**
3. There is a 3rd reason however, for such communication in Arabic, namely the huge employment by the Arab World, of the non-Arab Muslims recruited from Islamic World for various jobs (religious and non-religious) to form additional manpower in the Arab World.

Arabic language therefore, may replace the French language for the 2nd international position; it may well be competing with the English language for the 1st position. Currently, Arabic is the official and/or semi-official spoken language of the most populous and reproductive nations on Earth, constituting about one third of World population, and occupying one quarter surface area of this Universe.

Indeed, Arabic is the richest language with the widest vocabulary medium in the world. While the Arabic dictionary contains 12,302,912 word entries (documented by al-khalil ibn Ahmad in his book 'Al-Ain'), the total number of current English words lies between 400,000 and 600,000 words in the largest English dictionary; thus the Arabic vocabulary is 25 times that of English language!!! By comparison, the biggest French dictionaries have only about 150,000 entries; the biggest Russian ones, a mere 130,000[4].

Brief History of Arabic

Arabic speakers feel privileged, because Arabic is the language of people in Paradise and hence the Lord (Allah) taught Adam all the names in Arabic (see the opening verses of Qur'an)[1].

فقد روى أبو جعفر محمد بن عبد الله الحافظ الكوفي المعروف بمطين، حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي، حدثنا يحيى بن زيد الأشعري، حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**أحبَّ العرب لثلاث: لأني عربي، والقران عربي، ولسان اهل الجنة عربي**»، قال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكر الحديث، وقال: فما أدري أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح العام. وأبو الفرج ابن الجوزي ذكر هذا الحديث في الموضوعات... والله أعلم. انتهى. انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٥٨/١).

وروى الطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**».

كما روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (انا عربي، والقرآن عربي، ولسان اهل الجنة عربي). قال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٦١: موضوع. والحديث وإن كان ضعيفاً فإنه يؤخذ به في صالح الأعمال، ولكن لا يُؤخذ به في العقيدة.

After Adam's sin and his expulsion (with his wife Eve) from Paradise down to Earth, he landed in India and with Lord's guidance he met Eve in Makkah (Mecca) at the location of Arafah (literally means introduction, after Adam and Eve were re-introduced for first time after their expulsion from Paradise). It is even quoted that ***Adam*** had made Arabic poetry after the death of his son (his son ***Cain*** killed his other son ***Abel*** while on Earth)[5]:


تغيّرت البلاد ومَن عليها — فوجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قبيح
تغيّر كلُّ ذي حُسنٍ وطيب — وقلّ بشاشة الوجه المليح

The land and what's on it have changed

face of the Earth is dirty and awful

Good people with fragrance changed too

now only few faces are beautiful

Nevertheless, the offspring (of Adam and Eve) grew in number for many generations prior to the grand flood/typhoon at the time of Noah. Thereafter, following Noah Arc safe landing on mountainous area of today-Turkey, Noah offspring, with his believers re-populated the Earth once again. Thus the people were multiplied, diversified, and spread out to various geographical locations of this Globe, and accordingly each nation spoke a language, which though modified and slightly different from others, was essentially inter-related with one main root. Hence the emergence of Indo-European family of languages from around the Black Sea.

Thereafter, The Lord sent messengers, each communicating in the language spoken by his own community. However, the son of Abraham, Prophet Ishmael (the grand-father of Prophet Muhammad and indeed the grand-father of all Arabs) continued to speak pure Arabic in Makkah (as he learnt it from the local Arab tribe Jurhum). It is related by Musnad Ahmad bin Hanbal that (the number of prophets was 124,000 out of whom there were 315 messengers. They were all non-Arabs in names and persons except Muhammad, Hud, Salih, and Shu'aib; they were Arabs in names and persons, but Ismail (Ishmael) was Arabic in person despite his non-Arabic name)[6].. The greatest privilege perhaps, was that the Lord (Allah) has elected once again to speak to Prophet Muhammad, the seal of Prophethood in Arabic (as He first spoke with Adam and with Hud, Salih, Shu'aib, and Ishmael) and to reveal the last comprehensive code of life in the holy book (Qur'an) in Arabic, being the pure words of communication by the Lord (Allah). Reading through ***Verse 26:192-195*** **confirmed that Arabic language is the best and widest among all languages and the most eloquent plain language**[7].

Prophet Hud's son was also quoted as saying an Arabic poetry to uplift his father's depressed mood following his father's sadness for the catastrophe inflicted by the Lord (Allah) on his people of Ad, following their disobedience to their own prophet Hud.

Thus ***qah'tan bin Hud*** says[8]:

إنّي رأيت أبي هوداً يؤرّقه   حُزنٌ دخيلٌ وبلبالٌ وإسهادُ

لا يُحزننّك أن طاحت بداهية   عادُ بن لاوي فعادٌ بئسما عادُ

I saw my father Hud sleepless

with grief and trouble, my Dad is sad

Don't be sad for a ruin inflicted

on 'Ad bin lawi', for Ad was a terrible Ad

Finally, the greatest miracle of the **illiterate** Prophet Muhammad (peace be upon him) was, surely the holy book Qur'an, the most eloquent book ever revealed by the Lord Allah and which was then compiled as the most divine book ever written in the purest and most beautiful Arabic language. God Most High documented that in Qur'an:

"Those who follow the Messenger, the unlettered Prophet, whom they find mentioned in their own (Books), – in the Taurat and the Gospel"

Verse 7:157 Surat Al-A'raf (The Heights).

"Say, the Holy Spirit has brought the revelation from thy Lord in Truth, in order to strengthen those who believe, and as a Guide and Glad Tidings to Muslims. And indeed We know that they (polytheists and pagans) say: 'It is only a human being who teaches him (Muhammad)'. The tongue of the man they refer to is foreign, while this (the Qur'an) is a clear Arabic tongue... It is those who believe not in the Signs of Allah, that forge falsehood: it is they who lie!".

Verses 16:102-105 Surat An-Nahl (The Bees).

The Arabic language is elevated by Islam to the highest global status as a living language; Arabic is the only linguistic medium for declaring Islamic faith (There is no God but Allah and Muhammad is His Messenger), for performing the 5 daily Muslim prayers, for performing Hajj (pilgrimage) sermons, and for reciting Qur'an allover Islamic World; furthermore it was the *lingua franca* of traders and merchants, scientists and physicians, mathematicians and astrologists, and travelers and navigators during medieval ages.

Arabic core vocabulary is also safeguarded through the divine protection of Arabic Qur'an by Allah himself from any corruption or changes (whether addition, deletion, revision or edition) throughout the history to the extent that the original book revealed on Prophet Muhammad 14 centuries ago mirror-images and exactly matches any currently available copy of Qur'an. Indeed, copies of unpunctuated Qur'an on parchment paper are still available in museums such as the British museum. The purity of the Arabic text of the Qur'an throughout

these 14 centuries is a foretaste of the eternal care with which Allah has guarded the truth throughout all ages against all corruptions:

"We have, without doubt, sent down the Message (Qur'an) and We will assuredly guard it (from corruption).".

Verse 15:9 Surat Al-Hijr (The Rocky Tract).

Perhaps, Prophet Muhammad's 2nd miracle was his articulate linguistic ability in Arabic (Hadith) surpassing all Arabic linguistics throughout history. The Hadith, while complements Qur'an, it differs in composition and style. Hadith was the focal point of attention of great scholars throughout the history to record Muhammad's sayings, actions, approvals, and personal characteristics in the most authentic original (sahih) form.

Both Qur'an and Hadith provided 2 main encyclopedic sources for the Arabic language vocabulary and grammar, and were the main reason for securing and maintaining the Arabic language as most living global language over last 14 centuries. Furthermore, these 2 sources have opened Arabs' eyes and minds to the vast knowledge and sciences of past civilisations and thus expanded their knowledge and enriched their Arabic language.

Islam has converted Arab nomads and Bedouins into a preaching nation with a purpose in life. After Islam, many words attain new religious meanings, e.g. ***salah*** (prayer), ***sawm*** (fasting), ***hajj*** (pilgrimage), ***zakah*** (alms), and words like ***mumin*** (believer), ***muslim, kafir*** (unbeliever), ***fasiq*** (sinner), and ***munafiq*** (hypocrite). Islamic leadership yielded administrative words such as ***Caliphate, wilayah, wizarah, hijabah, qadha'a***, and ***hisbah***. With aid of Qur'an and Prophet Muhammad's Hadith about past civilizations, cities, and prophets, Arabic language was expanded immensely to include ***proper personal names*** and ***names of places***. Furthermore, Arabic became medium of linguistic expression of nearly 32 fields of knowledge and science practiced in Islam[11].

يقول العلامة الشيخ محمد بن الطاهر عاشور رحمه الله [عن الدور العلمي والعالمي للغة العربية]: (ومما تقدم إلى هنا: تعلم أن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ تنتهي إلى اثنين وثلاثين علماً [تُدَرَّسُ بالعربيّة] هي: التفسير، والحديث، والسيرة، واللغة، والنحو، والصرف، والتصوف، والعروض والفقه وأصوله، والتاريخ، والطب، وآداب العرب، والبلاغة، والفلك، والمنطق، والفلسفة، والهندسة، والحساب، والهيئة، والجغرافيا، والموسيقى، وعلم الحيوان، والطبيعة، والرواية والقصص، والكلام، والصيدلة، والكيمياء، والفلاحة، والمساحة، والجبر، وجرّ الأثقال والتحرك، وتتبعها علوم تتفرع عن بعضها مثل: مصطلح الحديث، والجدل، وآداب البحث، ونقد الشعر).

Arabic language was able to expand immensely with expansion of Islamic global message to contain an additional reservoir of huge number of newly adopted Arabised words from Persian, Aramaic, Hindi, and Hebrew words (e.g. ***gibra'eel, israfeel, mika'eel, izra'el, isma'il, bab'el***)

Arabic sentences were composed easily and verbalized spontaneously (initially without the need for grammar); grammar was originally meant for non-Arab foreigners and was added later

as a separate science. The Qur'an enforced and glamorized Arabic grammar and that led to a plethora of books written on Arabic Grammar by Arabic and non-Arabic writers.

The originality of Arabic language was subjected to much debate whether it is pre-determined (and taught to Adam) by the Creator Allah from the start, or it is developmental invented by people out of necessity. There are supporters to each theory but perhaps the core vocabulary was original by divine revelation to Adam (and then to Adam's progeny) **mixed with** additional vocabulary invented by people's evolving knowledge (that the Lord enables Man to comprehend) throughout history[7] [11]:

احتج أهل القول في شأن اللغة إذا كانت اللغة العربيّة توقيفيّة (من الله فهي ازليّة) أو هي مُواضعة من وضع البشر (فهي متطورة بتطورهم واحتياجاتهم)، فذلك على وجوه[11]:

الوجه الاول: قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] دلّ هذا على أن الأسماء توقيفية، وإذا ثبت ذلك في الأسماء ثبت أيضاً في الأفعال.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه ذمّ قوماً على تسميتهم بعض الأشياء دون توقيف وذلك بقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣] فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم.

الوجه الثالث: قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢] والمراد اختلاف اللغات لا اختلافات الألسن.

وأجيبَ عن الاستدلال بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ بأن المراد بالتعليم الإلهام: كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾[الأنبياء: ٨٠] أو تعليم ما سبق وضعه من خلق آخر، أو المراد بالأسماء المسمّيات: بدليل قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[البقرة: ٣١]. ويجاب عن الاستدلال بقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ بأن المراد ما اخترعوه من الأسماء للأصنام من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام. ووجه الذم مخالفة ذلك لما شرعه الله تعالى.

وأُجيبَ عن الاستدلال بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ بأن المراد التوقيف عليها بعد الوضع وإقرار الخلق على وضعها.

ومما يدفع هذا القول أن حصول اللغات لو كان بالتوقيف من الله عز وجل، لكان ذلك بإرسال رسول لتعليم الناس لغتهم؛ لأنه الطريق المعتاد في التعليم للعباد ولم يثبت ذلك، ويمكن أن يقال إن آدم عليه السلام علّمها غيره.

وأيضاً يمكن أن يقال إن التعليم لا ينحصر في الإرسال لجواز حصوله بالإلهام. وفيه أن مجرد الإلهام لا يوجب كون اللغة توقيفية؛ بل هي من وضع الناس بإلهام الله سبحانه لهم كسائر الصنائع.

واُحتجَّ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي بلغتهم: فهذا يقتضي تقدم اللغة على بعثة الرسل، فلو كانت اللغة توقيفية لم يتصور ذلك إلا بالإرسال، فيلزم الدور لأن الآية تدل على سبق اللغات للإرسال والتوقيف يدل على سبق الإرسال لها.

لذا فاللغة العربيّة هي مزيج من ألفاظ أزليّة توقيفيّة، وأخرى موضوعة مُستحدثة: جاءت لتواكب تطورات الزمان والمكان والإنسان (موضوعة من علم الإنسان بما علّمه الله من العلم المكتوب في كتبه المُنزّلة ومن وحيّه لأنبيائه عليهم السلام).

Characteristics of Arabic Language:

- **Arabic Alphabets consist of 28 letters**, while English Alphabets contain 26 letters; consequently, Arabic vocabulary is greater than that of English (see below).
- **Arabic has the richest vocabulary medium in the world**. It contains 12,302,912 word entries (documented by al-khalil ibn Ahmad in his book 'Al-Ain'), which is 25 times that of English language; 82 times that of French language; and 94 times that of Russian language (see above).
- This rich Arabic vocabulary explains why the Lord Allah chose to communicate with Adam and Muhammad (First and Last Prophets) in Arabic. While Allah has communicated with many Prophets and Messengers in their local community tongue, but the indefinite vast knowledge of Allah needs a linguistic medium with vast vocabulary to express it to the human beings as the final most definite and comprehensive message of Quran; and that can only be the Arabic language:

"To thee We sent the Book (Qur'an) in truth, confirming the Book that came before it, and guarding it in safety."

Verse 5:48 Surat Al-Ma'ida (The Table).

Also, notice the poet Hafidh Ibrahim writing on Arabic language describing itself[9]:

وسِعتُ كتاب اللّـه لفظاً وغايةً	وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ	وتنسيق أسماءٍ لمُخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ	فهل سألوا الغوّاصَ عن صدَفاتي

I contained the Book: words and intentions

never unable to give wise perceptions

How can I then be short describing a tool

and fabricating names for inventions

I am the sea inside which gems are found

Ask divers about my shells in oceans

- Unlike English (a meting pot of European and World languages, thus English is essentially a heterogeneous language due to linguistic cross-fertilization), **Arabic is an Original language from the time immemorial** (see above). Thus, as far as history of the language is concerned, Arabic has no Old, Middle and Modern English equivalents. Arabic language is a one living continuum where every word (irrespective of its history) is praised and used in writing, especially if it was used by earlier Arab generations of writers and are still used and taught in academic circles (though some words may not commonly be used in the verbal conversation). Arabic language can never be a dead language, for it is the language of Qur'an which is thoroughly protected by the Lord (Allah), thus no Arabic words are dead unlike most words of Old and Middle English (which is considered dead and unused).

- **David Crystal** says in his book **'Language Death'**, [published by Cambridge University Press 6th edition 2005] says in pages 1, 24, 45:

  (A language dies when nobody speaks it any more. To be a 'living language' a minimum community of 500 speakers is considered. By some counts, only 600 of the 6000 or so languages in the world are 'safe' from the threat of extinction – when no speakers left)

  (All the Arawakan and Cariban languages originally spoken in the islands of the Caribbean are now extinct). This was due to annihilation of indigenous population by the Spanish conquistadors.

  As opposed to Islam and Arabic language:

  (George Rizkalla, an Aramaic speaker from Malula, Syria, talks about the way in which Aramaic (currently spoken by circa 6000 in three villages near Damascus) is gradually being displaced by Arabic: 'Fifty years ago, all the students in Malula spoke Aramaic, and some of them could speak Arabic with difficulty. Now all speak Arabic, and some struggle with the Aramaic').

  (It is notable that the nations which are most monolingual in ability and attitude are those with a history of major colonial or religious expansion – their roles, in the West, reflected chiefly in the former or present-day widespread use of Arabic, Dutch, English, French, German, Italian, Portuguese, and Spanish).

- **Brevity in Letters**: Arabic is also unique for it is the only language in which a sentence can be made grammatically and correctly out of <u>One</u> letter, e.g. k (pronounced ke, a command by the speaker to the opponent to iron), r (pronounced re, a command to show), f (pronounce fe, a command to fulfill promise), 'e (pronounced 'ee, a command to listen), q (pronounce qe, a command to watch out).

- **Brevity of Arabic Words**: Arabic is known for its brevity; it can be brief and down to point while describing big things or events, for instance in Qur'an, surat Al-Mujadila (one word in Arabic), meaning 'the woman who pleads' (4 words in English); Al-Mumtahana (one word), meaning 'the Woman to be Examined' (5 words in English); Al-Muddaththir, One Wrapped Up; Al-Mursalat, Those Sent Forth; Al-Mutaffifeen, Those Dealing in Fraud; Al-A'la, The Most High; Al-Asr, Time through the Ages; Fatir, The Originator of Creation; Al-Ahqaf, Winding Sand-tracts; As-Saffat, Those Ranged in Ranks; Az-Zariyat, the winds that scatter; and Al-Anfal, the spoils of war.

- **Brevity of Arabic Sentences**[10]: Arabic language can express detailed chronological events with minimum words used.

قــــال الله تعــــالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

See *Verse 11: 44 of Surat Hud (The Prophet Hud)* of Qur'an:

"Then the word went forth: 'O earth! Swallow up thy water, and O sky! Withhold (thy rain)! and the water abated, and the matter was ended. The Ark rested on Mount Judi, and the word went forth: 'Away with those who do wrong!".

This one verse from Qur'an indicates many major natural phenomena (under the command of Allah) that a film could be produced to cover all its events. It is said the best linguist of his time ***Ibn Al-Muqaffa'a***, decided to compose a book to compete with Qur'an and he arranged it into chapters called suras, and then he heard a boy reciting the above verse of Qur'an. Ibn Al-Muqaffa'a was so taken by this incredible verse and said: 'I testify that Quran can never ever be competed and it is not the wording of human'; he then changed his mind and deleted what he wrote (in remorse).

- **إعجاز (عربيّة) القرآن: يمكن ذكر ما يأتي للدلالة على ذلك**[11]:

أحدها: إن وجه إعجاز (اللغة العربية) في القرآن هو الإعجاز والبلاغة، حتى يشتمل يسير لفظه على كثير المعاني، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ (البقرة: ١٧٩) فجمع في كلمتين، عدد حروفهما عشرة أحرف، معاني كلام كثير.

والثاني: إن وجه إعجازه هو البيان والفصاحة، التي عجز عنها الفصحاء، وقصّر فيها البلغاء، كالذي حكاه أبو عبيد (القاسم بن سلام):

أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ (الحجر: ٩٤) فسجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ﴾ (يوسف: ٨٠) فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي قال: رأيتُ بالبادية جاريةً... وهي تقول:

أستغفرُ اللّه لذنبي كله ... قتلتُ إنساناً لغيرِ حِلّه

مثل غزال ناعم في دله ... فانتصف الليل ولم أُصلّه

فقلتُ لها: قاتلك الله ما أفصحك. فقالت: أتُعدُّ فصاحةً بعد قول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وإنشاءين!

والثالث: إن وجه إعجازه هو الوصف الذي تنقضي به العادة، حتى صار خارجاً عن جنس كلام العرب: من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، والرجز، والسجع، والمزدوج، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها، مع كون ألفاظه وحروفه في كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم. وقد وردت معنا قصة ابن المقفع مع الصبي الذي يقرأ كلام الله، فلتُنظر.

والرابع: إن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وإكثار تلاوته تزيده حلاوةً في النفوس، وميلاً إلى القلوب، وغيره من الكلام وإن كان مستحسن النظم، ومستعذب النثر، إلا أنه يُملّ إذا أُعيد، ويُستثقل إذا رُدد.

- **Derivational Arabic language**: Unlike English language which is inflexional (e.g. love, loved, lovely, love-less, loveable, loving, lovingly). Arabic language is derivational[11], (General Derivation) based on 3 lettered verb from which a huge number of words are generated e.g.

عَلِمَ: عَلِمنا، أعلمُ، نَعلم، اعلمْ، اعلمي، علمْ، علموا، يُعلم، نُعلّم، تعلّم، تعلّموا، تعالمَ، تعالموا، عُلِمَ، يُعلم، علمٌ، عَلَمٌ، علامة، معالم، أعلام، علامات، عالم، عليم، علّامة، علماء، عالمون، علوم، متعلّم، متعلّم، مُعْلِم، مُعلّم، مَعلَم، معلوم، عالم، عالمون... وهلمّ جرّا.

- **Onomatopoeia (Special Derivation by imitating sounds)**: formation of a word in imitation of the sound it produced e.g. click, cuckoo [from Greek *onoma, -atos*, a name, *poieein*, to make]. Onomatopoeia is part of derivation by imitating animals sounds (see the Arabic text)[13]:

العلاقة بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها:

محاكاة الأصوات (الاشتقاق وأنواعه):

تبدو في اللغة العربية بعض روابط بين أصوات كثير من الكلمات، أساسها محاكاة الأصوات، فكثيرٌ من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء، وبعض الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره، تحاكي أصواتها في صورة ما، أصوات الظواهر التي تعبّر عنها.

(أ) فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان: القهقهة، والتمطق: حكاية صوت المتذوق إذا صوّت باللسان؛ والدندنة: كلامٌ تسمع نغمه ولا تفهمه؛ والتغمغم: الصوت بالكلام الذي لا يبين؛ والضوضاء: اختلاط الأصوات، والصراخ، والزعقة، والنحنحة، والتنحنح، والهمهمة: صوت يخرجه تردد الزفير؛

والأنين: الصوت الرقيق يخرجه المريض، والزفير، والشهيق، والتأوه، والحشرجة، والفخيخ: الصوت الضعيف للنائم: والغطيط: صوته القوي، والشخير، والاصطكاك، والفرقعة، والكرير: صوت يخرجه المجهود والمختنق: والقرقرة: صوت يخرج من الأمعاء.. ما تصرف من هذه الكلمات وما إليها مثل: قهقه ودندن وتنحنح وزفر وشهق وتأوه وغط... وهلمّ جرّا.

(ب) ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان: رغاء الناقة وبغامها، وهدير الجمل وقرقرته، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا، وحمحمته عند الجوع والاستئناس، وشحيج البغل، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وضباح الثعلب، ومواء الهرة، وصرصرة البازي، وقعقعة الصقر، وهدير وهديل الحمام، وسجع القمري، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيّات بفيها، وكشيشها بجلدها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت، ونقيق الضفدع، وطنين الذباب والبعوض.. وما تصرف من هذه الكلمات وما إليها، مثل: هدر وقرقر وصهل وحمحم ونهق وزأر وعوى وتلعلع ونبح وزقزق ونعق.. وهلمّ جرّا.

(ج) ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء: الخرير: للماء، والقرقرة: صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب: والنشيش: صوت غليان الشراب؛ والشخب: صوت اللبن عند حلبه؛ والحسيس والمعمعة: صوت النار، والأزيز: صوت المرجل عند الغليان، وهزيز الريح، وهزيم الرعد، وجعجعة الرحى، وصرير القلم والباب، وقلقلة القفل، وخفق النعل... وما تصرف من هذه الكلمات، مثل: خرّ وقرقر وجعجع وخفق... وهلمّ جرّا.

(د) ومن الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره: القطع، والقطف، والقطم، والقضم، والقط، والقد، والفري، والفرز، والكسر، والدّق، والقرع، والهد.... وما تصرف من هذه الكلمات، مثل: قطع وقطف وقضم وقطم ودّق وكسر وقرع وهدّ... وهلمّ جرّا.

- **Neology** [13]: Ability to form new words or word with new meaning out of necessity and modernization; such words come out through one of 2 linguistic ways: either by ***derivation*** اشتقاق (as we have seen above in general derivation and special derivation by onomatopoeia), but mostly by ***imitation*** قياس by judging an unknown word by its known common peer and naming it accordingly. This has tremendously expanded the Arabic language beyond its original vocabulary.

  Thus Arabic was able to contain and adapt new names of new tools, discoveries, ideologies, inventions and diseases with special word formations, e.g. car (***sayyarah***) سيّارة in imitation to the old name of moving caravan: ***sayyarah***.

Decisions of the 'Arabic linguistic society' has recommended [11]:

1. to make an artificial noun structured by adding ية to the end e.g. ***jahil'yah*** (ignorance), ***rahban'yah*** (monasticism) and also **ishtirak'yah** (socialism), ***jumhoor'yah*** (republic).
2. to make artificial noun structured as **fi'alah** فعالة for profession or handicraft e.g. ***jizarah*** (butchering), ***biradah*** (filing), ***nihatah*** (carving).
3. to make artificial noun structured as **fu'al** فُعال for diseases e.g. ***zukam*** (common cold), ***soda'a*** (headache).
4. to make artificial noun structured as **tif'al** تفعال for exaggeration of action e.g. ***tir'hal*** (traveling), ***tij'wal*** (wondering about).
5. to make artificial noun structured as **maf'alah** مفعلة for excessive quantity in a place or resembling action e.g. ***ma'asadah*** (place of lions), ***man'halah*** (bees colony).

Neology based on imitation represent a flexible mechanism in Arabic language to cope with modernization terms. Thus Arabic language was able to give names to diseases and tools in a logical way. **Furthermore, many modern invention tools, such as camera and radio although they are products of the west, but they were named using terms of Arabic etymology (see Paradise Dictionary under camera and radio).**

Direct Arabisation of foreign words (especially Persian words) represents another flexible mechanism of linguistic expansion. Thus neology may be looked at as a broad linguistic category using many flexible mechanisms, e.g.:

a. **Imitation**
b. **Arabisation**
c. **Word-crafting:** see below.

- **Word-crafting** نحت الكلمات [11]: new word formation in Arabic crafted and derived from the first letters of the words of a phrase (perhaps similar to ***acronyms*** in English), in order to summarise a long common phrase in one word, e.g.

  1. ***hai'alah*** (calling of Muezzin for prayer);
  2. ***dam'azah*** (saying may Allah strengthen you);
  3. ***ham'dalah*** (saying praise to Allah);
  4. **sab'halah** (saying glory to Allah);
  5. ***has'balah*** (saying Allah is sufficient for me);
  6. ***mash'alah*** (saying that which Allah wills);
  7. ***hai'hala*** (saying come-on, do it);
  8. ***sam'alah*** (saying peace be upon you);
  9. ***tal'baqah*** (saying may Allah prolong your life);
  10. **hailalah, hall'alah** (saying here is no God but Allah);
  11. ***wai'lamah*** (saying wailing to his mother) and

12. *sal'amah* (saying peace and prayer of Allah be upon him –usually after mentioning Prophet Muhammad).

١. حَيْعَلة: حكاية عن قول المؤذن: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

٢. دَمْعَزة: حكاية قوله: أدام الله عزك.

٣. حَمْدَله: أي من: الحمد لله.

٤. سَبْحَلة: من قول: سبحان الله.

٥. حَسْبَلة: من قول: حسبي الله.

٦. مَشْأَلة: من قول: ما شاء الله.

٧. حَيْهَلة: من قول: حيهلا بالشيء.

٨. سَمْعَلة: من قول: سمع الله لمن حمده.

٩. طَلْبَقة: من قول: أطال الله بقاءك.

١٠. هَيْلَله: من (هلّل): من قال: لا إله إلا الله.

١١. وَيْلَمه: من: وَيْلَمّ، أي قال: ويلٌ لأمه.

١٢. صَلْعَمة: من القول: صلى الله عليه وسلم، بعد ذكر اسم النبي ﷺ.

At'dad or Words with Opposite Meanings: Arabic is perhaps, the only language in the world to contain words with 2 totally opposite meanings (thus called ***ath'dad words***, i.e. words with opposite meaning to each others). It is documented that Arabic language contains a long list of nearly **357 *ath'dad* Arabic words** with 2 opposite meanings according to the context and to the word location within the sentence[11], e.g.

- Jawn (or John), means black or white.	- **جون**: يطلق على الأبيض أو الأسود.
- ja'lal means great or small.	- **جلل**: جليل عظيم أو هيّن.
- asarra, to hide or to publicise.	- **أسرّ**: للإخفاء أو الإعلان.
- mawla, means the master or the servant.	- **مولى**: السيّد والخادم.
- as'asa, means night darkness to strat or to finish.	- **عسعس الليل**: إذا أدبر أو إذا أقبل.
- basal, means allowed Halal or forbidden Haram.	- **بسل**: حلال أو حرام.
tarab, to be happy or to be sad.	- **طرب**: إذا فرح أو إذا حزن.
- ba'a, to sell or to buy.	- **باع**: باع أو اشترى.
- ishtara, to buy or to sell.	- **اشترى**: اشترى أو باع.
- nahil, means thirsty or having drunken water.	- **ناهل**: للعطشان أو الريّان.
- sareem, means the night or the day-light.	- **صريم**: يُقال لليل أو للنهار.

- da'im, means the stagnant or the moving.	- دائم: للساكن أو للمتحرك.
- hameem, means hot or cold.	- حميم: للحار أو للبارد.
- ghareem, means the money-lender or the indebtor.	- غريم: تُقال للدائن والمدين.
- afada, to get the benefit of money for himself or to benefit others with money.	- أفادَ الرجل مالاً إذا استفاده هو أو إذا كسبه غيره، فهو مفيد في المعنيين.
- bal'ha'a, means a naïve woman or a mentally sound good woman .	- بلهاء: امرأة ناقصة العقل أو كاملة العقل لا تعرف الريب.
- sareegh and sarigh, means the helper or the one crying for help.	- صريخ وصارخ: للمغيث وللمستغيث.
- zawj, means the double or single; it also means husband or wife.	- زوج: للزوج والفرد، كما تُقال: للرجل الزوج، أو للمرأة الزوجة.

Deseriptive Arabic Language: Arabic is so descriptive to the extent that we find refined words to describe the finest and most precise detailed description of human actions (see below **4 examples**: sleep, mating, cutting, and death). Indeed, it is the only language with unparalleled names for various stages e.g.

1. Sleep has 15 names reflecting 10 stages of sleep (see Arabic text)[(12)]:

أول النوم **النعاس**: وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم.

ثم **الوَسَن**: وهو ثقل النعاس.

ثم **الترنيق**: وهو مخالطة النعاس العين.

ثم **الكَرَى والغُمض**: وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان.

ثم **التغفيق**: وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم.

ثم **الإغفاء**: وهو النوم الخفيف.

ثم **التهويم والغرار والتّهجاع**: وهو النوم القليل.

ثم **الرُّقاد**: وهو النوم الطويل.

ثم **الهُجود، والهُجُوع، والهُبُوع**: وهو النوم الغَرِقُ.

ثم **التسبيخ**: وهو أشد النوم.

(وقد يُضاف لها **السُّبات**: وهو النوم العميق الطويل بلا حراك كالميّت).

2. Mating (intercourse) on the other hand has 100 names to describe various kinds of intercourse, strength of mating, and intercourse positions (see Arabic text)[(12)].

وقد كتبَ الإمام الثعالبي فصلاً فيما يختصّ به الإنسان من ضروب النكاح، فقال:

(لعل أسماء النكاح تبلغ مئة كلمة عن ثقات الأئمة، بعضها أصلي، وبعضها مُكنّى...:

المَحْتُ والمَسْخُ: النكاح الشديد.

الدَّعْظُ والزَّعْبُ: الملء والإيعاب.

الدَّعس والعَزْدُ: النكاح بشدة وعنف.

الهَكُّ والهَقُّ والإجْهَادُ: شدة النكاح.

الرِّصَاعُ: أن يحاكي العصفور في كثرة السفاد.

السَّغْمُ: أن يدخل الإدخالة ثم يخرج، ولا يُحب أن يُنزل معها.

الخَوْقُ: أن يباضعَ الجارية، فتسمع للمخالطة صوتاً، ويقال له: خاقِ باقْ.

الدَّحب والهَرجُ: كثرة النكاح.

الرَّهزُ والارتهازُ: اجتماع الحركتين في النكاح.

الفَهْرُ: أن ينكح جاريةً في بيتٍ وأخرى معه تسمع حسَّهُ، وقد جاء في الحديث النهي عن ذلك.

الإفهار: أن يُباضع جاريةً وينزل مع أخرى.

التَّدليص: النكاح خارجَ الفَرْج.

الإكسال: أن يدرك الناكح فتورٌ فلا ينزل.

الخَضْخَضَة: مطاولة الإنزال.

الغيل: أن ينكحها وهي مُرضعة أو حامل.

الشَّرح: أن يطأها وهي مستلقية على قفاها، ولا يأتيها على حَرفٍ. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرفٍ، وكان هذا الحي من قريش يَشرَحون النساء شرحاً».

الحَارِقة: النكاح على الجَنْب، ويقال: هو الإبراك. وفي حديث عليّ ﷺ: «خير النساء الحارقة».

3. Cutting: Unlike English that uses few words for cutting, Arabic language is swarmed with words to represent various types of cutting, according to the organ being cut, the nature of cut tissues, and the tool used (please see Arabic text)[12]:

قال الإمام الثعالبي في "فقه اللغة" في الباب الثاني والعشرين في القَطع والانقطاع والقَطع.

- **فصل (في قطع الأعضاء وتقسيم ذلك عليها)**:

جَدَعَ أنفَهُ. صلمَ أذنَهُ. شترَ جفنَه. شرمَ شفتَه. جذمَ يده. جَبَّ ذكَرَه.

- **فصل (في تقسيم قطع الأطراف)**:

قصَّ جناحَ الطائر. حذفَ ذنبَ الفرس. قذَّ ريشَ السهم. قلَّمَ الظُّفُرَ. قَطَّ القلمَ. عَصَفَ الزرع. خَرَمَ الأنفَ (وهو دونَ الجَدْع).

- **فصل (في تقسيم القطع على أشياء مختلفة)**:

حَزُّ اللحم. جَزُّ الصُّوف. قصُّ الشَّعر. عَضَدَ الشجر. قَضَبَ الكرْمَ. قطفَ العِنبَ. جَرَمَ النخلَ. بَرَى القلمَ. فلجَ الحديدَ. خَضَدَ النبات الرَّطب. حَصَدَ النبات اليابس. قَطَعَ الثوبَ. جَابَ الجَيْبَ. قدَّ السَّيْرَ (قطعة من الجلد مستطيلة). حذا النَّعلَ. حَذَقَ الحبلَ.

- **فصل (في القطع بآلات له مشتقة أسماؤها منه):**
  - وَشَرَ الخشبةَ بالميشار. نَشَرَها بالمنشار.
  - فَرَصَ الفضةَ بالمِفْراص.
  - قَرَضَ الثوب بالمِقـراض.
  - جَلَمَ الشَّعر بالجلَمين.
  - نَجَلَ الزرع بالمِنجَل.
  - كذلك: جزّ الضأن. حلقَ المِعزى. جَلَّدَ الإبلِ. لا تقول العـرب غير ذلك.

- **فصل (في القطع الجاري مجرى الاستعارة):**

صَرَمَ الصَّديق. هَجَرَ الحبيبَ. قَطَعَ الأمرَ. جابَ البلاد. عبرَ النهر. بلت الحديث (أو بتك). بتَّ العقدَ. فصلَ الحُكمَ.

- **فصل (في تفصيل ضروب من القطع):**

البَضْعُ، والهَبْرُ، واللَّحبُ: قطع اللحم. التشريح: تعريض القطعة من اللحم حتى ترقَّ، فتراها تشِفّ من الرِّقة. الحَسْمُ: قطعُ العرق وكَيُّه بالنار كيلا يسيل دمه. العَرْقَبَة: قطعُ العُرْقُوب. الحلْقَمَةُ: قطع الحلقوم. الذّبح: قطع الحُلقوم من داخل. القَصْبُ: قطع القصَّاب الشاة عُضواً عُضواً. الخَضرمة: قطعُ إحدى الأذنين. الخردلة (بالدال والذال): القطعُ قطعاً، وكذلك الشرشرة والخَربقة. القَرْضَبة: القطع بشدّة. الجزمُ والحذم: القطع الوحي، وكذلك الخذم. الهذُّ والهذْمُ: القطع بالسيف، وكذلك الكَعْبَرَةُ. الجدُّ: قطع التمر، وجاء في الحديث «النهي عن جِدادِ الليل فراراً من الصدقة». الجذُّ: القطعُ المستأصِلُ الوحي. الجثُّ: قطعك الشيءَ من أصله (والاجتثاث أوحى منه). الإيكاح: قطع العطية. الإزرام: قطع البول على الصبي، وفي الحديث «**لا تُزرموا ابني**». [أي: لا تقطعوا عليه بوله، والإزرام: القطع. ورواية الحديث أن النبي ﷺ بال عليه الحسن عليه السلام، فأخذ من حجره، فقال: **لا تُزرموا ابني**، ثم دعا بماء وصبّه. (غريب الحديث لابن الجوزي ١/٤٣٥)]. البَتْك: قطعُ الأذن. البتر: قطعُ الذنب. المسحُ: قطعُ الأعضاء، من قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٣]، ومنه قولهم للخصيّ ممسوحُ. القَصل: قطعُ الرِّقاب. الخَزْلُ والجَزْلُ (بالخاء والجيم): قطع اللحم. واللهزمةُ والقطلُ: من أنواع القطع.

4. Death on the other hand has many Arabic words to reflect the causes and timing of death and according to the dead body whether man or animal (unlike the use of few English words to describe death). See Arabic Text[12]:

وفي تفصيل أسباب الموت وأحواله وضروبه قال الثعالبي:

- **فصل في أحوال الموت:** إذا مات الإنسان عن علّة شديدة، قيل: أراحَ. فإذا مات بعلة، قيل: فاضت نفسه (بالضاد)، فإذا مات فجأةً، قيل: فاظت نفسه (بالظاء). فإذا مات من غير داء قيل: فطس، وفقس. وإذا مات في شبابه، قيل: مات عَبطة، واحتُضِر. فإذا مات من غير قتلٍ، قيل: مات حتفَ أنفه، وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ. فإذا مات بعد الهرَم، قيل: قضى نحبه. أو مات مسافراً، قيل: رَكِبَ رَدعَه. فإذا مات نزفاً، قيل: صَفِرَت وطابُهُ (أي خرجَ دمُه من عروقه).

- **فصل في تقسيم الموت:** مات الانسان. نَفَق الحمار. طفسَ البرذون. تَنبَّل البعير. همَدَت النار. قرِتَ الجرحُ (إذا مات الدمُ فيه).

- **فصل في تقسيم القتل:** قَتَل الإنسانَ. جَزَرَ البعير ونَحرَهُ. ذبَحَ البقرة والشاة. أصمى الصَّيدَ. فرَكَ البرغوث. قصَعَ القملةَ. صدَغ النملة (وحطم النملة أحسن وأفصح: لأن القرآن نطق بذلك في قصة سليمان عليه السلام). أطفأ السِّراجَ. أخمدَ النارَ. أجهزَ على الجريح.

- **Humanitarian Non-Racist Arabic Language:** Perhaps unlike English and most European languages (see chapter 2), Arabic is the language of humanitarian emotions, passion and equality in which you find words refined for various stages of love and beauty. Arabic language does not know racism or snobbery because the friendly warm Islamic feelings so innate of Arabic language have abolished any notion of racial denigration and unequality. Islam has rectified Arabs' behaviour and with it, their language to extent that Islamic moral human values are deeply embedded in Arabic language, being the language of Islamic message recited by Muslims in their daily prayers but also the language of Divine message embraced by Muslim nation (Ummah), the holder and spreader of the Alah's Islamic message globally.
- One can clearly see this in Prophet Muhammad's 'Final Sermon', shortly before his death, addressing his 120,000 followers, ***"O People, it is true that you have certain rights with regard to your women, but they also have rights over you [...] Do treat your women well and be kind to them for they are your partners and committed helpers [...] All mankind is from Adam and Eve; an Arab has no superiority over a nonArab, nor a nonArab has any superiority over an Arab; also a white has no superiority over black nor a black has any superiority over white except by piety and good action."*** *These words delivered in Arabic may seem to belong in the era of the Civil Rights movement, but were uttered over 1400 years ago.* This is the First International Declaration of Human Rights in the World and in History.

ويستطيع المرء رؤية ذلك بوضوح في (خطبة الوداع) للنبي محمد ﷺ قبيل وفاته وهو يخاطب ١٢٠٫٠٠٠ ألفاً من أتباعه بقوله ﷺ: «**أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقّاً، ولهنّ عليكم حقّاً... واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً... كلُّ الناس من آدم وحواء: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض: إلا بالتقوى والعمل الصالح**». هذه كلماتٌ أُلقيت بالعربية قد يُظنُّ أنها تعود لعصر حركة الحقوق المدنيّة: لكنها قيلت قبل ١٤٠٠ سنة.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذه الرجل فما بال هؤلاء؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره مقالته، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي «الصلاة جامعة»، وقال: «**أيُّها الناس، إنّ الربَّ واحد، والأب أبٌ واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلّم العربيةَ فهو عربي**» فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه قال: فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: (دعه، إلى النار) فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل. قال الألباني في «الضعيفة» (٩٢٦): ضعيف جداً.

Arabic language is singled out among all World langauages, by its humanitarian characteristics, as reflected in its practical vocabulary for honouring man, for relieving his ailments, by using opposite words to ease his sufferings, and by teaching him how to be always patient, For example:

It is a good omen to encourage a hopeful attitude towards Allah, believing in His fate and pre-destiny whether good or bad, hence Arabs called the snake-bitten (*ladigh*) as '*safe*' (*saleem*, to lift his morale); desert (*barriyah*) as 'salvaged shelter' (*mafazah*); they called 'blind' (*a'ma*) as 'abu baseer' (i.e. he who can see); the black as the 'abu al-Baidha' (i.e. the white, out of respect to their feelings); they called crow (*ghurab*) as *hatim* (meaning judge, because some Arabs were used to see crow as a bad omen – from al-Jahiz' 'Book of Animals'); they called madman (*majnoon*) as *mat'boob* (meaning the treated one); and out of their care, they called servant (*khadim*) as *mawla* (has 2 opposite meanings: a master and a servant).

Abu Huraira reported that Allah's Messenger (peace be upon him) had said:
"No one of you should say: My bondman and my slave-girl. All of you are the bondmen of Allah, and all of your women are the slave-girls of Allah; but say: My servant, my girl, and my young man and my young girl". *Narrated by Sahih Muslim Number 2249.*
The mishap or misfortune is called testing or trial (*fitnah* or *tamhees*, meaning the extraction of pure silver or gold – respectively, from its raw material by melting it on fire)**; and affliction is called blessing in disguise; a dead man during fighting is called a 'living martyr', but the honourable name of 'martyr' is even extended to include 7 more varieties of dead people in disasters.**

It is narrated on the authority of Jabir bin Otaik in Malik's Mowat'ta (this Hadith is Sahih, true correct) that Prophet Muhammad (peace be upon him) said:

"martyrdom is seven apart from being killed for Allah's sake: the one killed for Allah's sake is a martyr, whoever died of plague is a martyr, the drowned is a martyr, whoever died of lung disease (e.g. pleurisy, tuberculosis) is a martyr, whoever died of abdominal disease (e.g. appendicitis, peptic ulcer, liver disease) is a martyr, whoever died of burn is a martyr, whoever died under demolition (e.g. earthquake) is a martyr, and a woman who died in her pregnancy is a martyr".

The Characteristics of humane good omen are reflected in reversing harm into benefit, while warning the plotters of evil, and training the afflicted to be patient; they are seen in the Arabic sayings (some of which are derived from Qur'an and Hadith) for example:

There may be benefit in the harm; An affliction is Allah's Justice and Favour (in the same time); Be optimistic of good future and you will find it; knowledge is by learning and forbearance by training; Make it easy, not hard, and Be bearers of glad tidings, and Don't scare people (Last are Prophetic Hadths); **The plotting of evil will hem in only those who make it** [*Qur'an Verse 35:43*]; **Verily, along with every hardship is relief** [*Qur'an Verse 94:6*]; **He who digs a hole for his brother, will fall in it; God lets but never forgets; retribution is of the same kind of the action (committed e.g. crime); It may be that you dislike a thing which is good for you, and that you may like a thing which is bad for you, Allah knows but you do not know** [*Qur'an Verse 2:216*]; **It may be that you dislike a thing and Allah brings through it a great deal of good** [*Qur'an Verse 4:19*] (See **'Chapter Two'** under **'Racism between Two languages – A Critical Review')**

- **Arabic: Language of Beauty and Love**

  Consecutively, Arabic can also be considered as the language of love and beauty.
  Allah (the God Creator) has 100 beautiful names for believers to recite; of which the most common beautiful names are:

  the Most Gracious الرحمن

  the Most Merciful الرحيم

  the Most Compassionate الودود (أيضاً الرحمن).

  Woman's beauty for instance, was described in various Arabic words to reflect the level of her beauty (see Arabic text)(12):

ومن ذلك قول الثعالبي: فصل في ترتيب حُسن المراة:

إذا كانت بها مسحةٌ من جمال فهي: وضيئةٌ وجميلة.

فإذا أشبه بعضُها بَعضاً في الحُسن فهي: حُسَّانة.

فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: غانية.

فإذا كانت لا تبالي أن لا تلبس ثوباً حسناً، ولا تتقلد قلادةً فاخرةً فهي: معطال.

فإذا كان حسنها ثابتاً كأنه قد وُسم فهي: وسيمة.

فإذا قُسِمَ لها حظٌ وافرٌ من الحسن فهي: قسيمة.

فإذا كان النظر إليها يسرُّ الرُّوع فهي: رائعة.

فإذا غلبت النساء بحُسنها فهي: باهرة.

فإذا فاقت النساء بحسنها وجمالها فهي: فائقة.

Human Love has various Arabic names to describe the stages or levels of loving relationship (without sexual practice, since extra-marital sexual practice is prohibited in Islam); while English wording for passion consists of one word: love (to love, or to fall in love with or without sexual connotation). Arabic language on the other hand has **13 names** to reflect the depth and stage of loving relationship(12):

1. ***hawa*** (attraction, the first step in love)	١. هوى
2. ***ila'qah*** (a starting connection between 2 hearts)	٢. علاقة
3. ***saba'bah*** (inclination towards the beloved with continuous attention, derived from sabb, the moving liquid)	٣. صبابة
4. ***kalaf*** (excessive attention and remembrance of the beloved)	٤. كَلَف
5. ***ishq*** (the overwhelming love with continuous attention and following the beloved wherever she or he goes, derived from ishaiqi creeping plant that winds round the tree)	٥. عشق
6. ***sha'af, law'ah, la'ij*** (burning love)	٦. شعفٌ ولوعةٌ ولاعجٌ
7. ***shaghaf*** (love penetrating through the heart covers, shughaf)	٧. شغفٌ
8. ***jawa*** (love penetrating through the inside of whole body)	٨. جَوى
9. ***gharam*** (continuous love with pain)	٩. غرام
10. ***ta'tayum*** (worshipping love with total obedience and submission)	١٠. تتيَم
11. ***tab'l*** (sickening love) so he is mat'bool	١١. تبل فهو متبول
12. ***tad'liyah*** (maddening love) so he is mudallah	١٢. تدْليه فهو مُدلّه
13. ***hiyom, hiyam*** (walking astray with total madness because of love) so he is ha'im	١٣. هُيوم وهُيام فهو هائم

- **Unparalleled Arabic Words:** Because Arabic language is the medium of Islamic teaching, Arabic possesses a huge number of Arabic words that have no equivalent nor parallel words in any other language(12), e.g.

الزكاة، المسلم، المؤمن، الكافر، المنافق، الفاسق، الحنث، الخبيث، القرآن، الإقامة، التيمم، المتعة، الظِّهار، لإيلاء، القبلة، المحراب، المَنارة، الجبت، الطاغوت، إبليس، سجّين، غسْلين، الضريع، الزقوم، التسنيم، السلسبيل، هاروت وماروت، يأجوج ومأجوج، مُنكر ونكير.

(ويُضاف هنا أيضاً العديد من الكلمات العربيّة الشرعيّة الأخرى كالفقه، العورة، العرض، الشرف، الحياء، الطهارة (ليست النظافة)، الوضوء، حسنة، سيّئة، أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، صيام رمضان، جرح وتعديل، الحسبة، المستحب، المكروه، المندوب... والكثير من المصطلحات الشرعيّة الإسلاميّة كالحلال، والحرام (المباح ما أباحه الشارع وهو الله عز وجل، والحرام ما حرّمه سبحانه، وليس المسموح والممنوع بالنظام الوضعي، حيث يُبيح القانون الوضعي الربا والزنا وفعلة قوم لوط؛ وهي من المُحرّمات شرعاً، وكذلك القانون الوضعي يمنع الحجاب والطلاق والزواج المتعدد مثلاً، وهي أمور منصوصة شرعاً).

- **Arabic has the largest reservoir of alternative names in the world.** Such enormous reservoir of synonyms is totally unparalleled in any other language.

  For instance, honey has 80 names; the sword is said to have 1000 names; the lion has 500 names; and the dog has 60-70 names (please see the Arabic text).

  - **فمن أسماء العسل:** كما أوردها العلامة مجد الدين الفيروزآبادي (صاحب القاموس) ٨٠ اسماً للعسل، في كتابه الذي سمّاه: (ترقيق الأسل لتصفيق العسل)، ومن تلك الأسماء: العسل والضَّرب، والضَّربة، والضَّريب، والشَّوب، والذَّوب، والحميت، والتحموت، والجَلْس، والورس، والشَّهد، والشُّهد، والماذي، ولعاب النحل، والرحيق... وغيرها.
  - **ومن أسماء السيف عند العرب:** إبْريق، أبهر، أثير، إزار، إزارة، إصْليت، أصْمعي، إفْرنْد، أبَيْث، باتر، باتك، بَارقَة، بَتّار، بَتُوك، جُنْثيّ، خَذِيم، حُسَام، خدب، خشيب، خَليل، براق، بسطام، ديسق، ذو الفقار، سطام، ذدان، ذُرِّيّ، ذكر، ذو النُّون، رَهِيف، سُرَاط، سُرَيْجيّ، شَلْحاء، صَارِم، صُرَاط، صَفِيحَة، صِيلّ، صَلْت، صمصام، عطاف، غَدِير، فَارُوق، فِرِنْد، فَيْصل، فَشْفَاش، قَاطِع، قِرْضاب، قُرْضُوب، قُرْطُبى، كَهَام، كَهِيم، كَوْكَب، لُجّ، لِيَاح، مَاضِي، مِثْنَات، مِثْناثة، مُجّ، مُتُنِن، مَخْشُوب، مُصَنْفَح، مُصَنْفَح، مَضْرَب، مُنْصَلِت، مُهَنَّد، نَجْم، نُون، هَبَّار، هذّاء، هِنْدِي، وِشَاح، وِشَاحَة، وِقَام، والمخْفَق، والصَّارم، والرِّدَاء، والخليل والقَضِيب، والصَّفِيحة، والمُفَقَّر، والصَّمْصَامة، والمأثور، والمِقْضَب، والكهام، والأبيث والمِعْضَد، والجُراز، واللَّدْن، والفُطَار، وذو الكَريهة، والمَشْرفي، والقُسَاسيّ، والعَضْب والحُسَام، والمُذَكَّر، والهُذَام، والهَذُوم، والمُنْصُل، والهَذَّاذ، والهَذْهاذ، والهُذاهِذ، والمِخْصَل والمِهْذَم، والقاضِب، والمُصَمِّم، والمُطَبِّق، والضَّرِيبة، والصَّقِيل، والأبيض، والغَمْر، والعَقِيقة والمتين وهو الذي لا يقطع، والهِنْدكيّ، والماضي، والوِقَام، وكذلك المهند، والهندواني واليماني، والمشرفي، والدمشقي؛ وهي أماكن صناعتها من حديد الهند (مهند وهندواني)، أو من حديد اليمن (اليماني)، أو يصنع في مشارف الشام (قرى من أرض العرب تدنو من الريف ومنها السيوف المشرفيّة)، أما السيف الدمشقي فهو من أجود السيوف حالياً، ويصنع من حديد

الفولاذ مع بعض المعادن غير المعروفة إلا عند صُنّاعها، وقد بقيت صناعته سراً حتى قبل سنوات قريبة جداً، ويقال: إن من أسباب انتصار المسلمين على الصليبيين بعد توفيق الله استخدامهم للسيف الدمشقي، وكان من أمضى السيوف وأقواها، ويتميز السيف الدمشقي بوجود ثلاثة خطوط متوازية على طول النصل، ينتهي أحدها مع نهاية النصل، كما يتميز السيف الدمشقي بالمرونة العالية حيث بإمكانك ثني رأس السيف حتى يلتقي بالمقبض دون أن ينكسر؛ بل يعود كما كان مستقيماً. ويقال: إن صلاح الدين الأيوبي التقى يوماً بأحد فرسان الصليبيين، فما كان من الصليبي إلا أن ضرب بسيفه إحدى الأشجار فقطعها نصفين، وكان يريد أن يظهر لصلاح الدين أن سيفه ماضٍ، فما كان من صلاح الدين إلا أن قذف بمنديله في الهواء والتقاه بسيفه فقسمه إلى نصفين! وهذا يدل على شدة مضاء سيف صلاح الدين، رحمه الله.

يقول ابن سنان في مدحه للغة العربية: وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف، والأسد في لغة العرب فكانت أوراقاً عدة، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها يبين ذلك، فليس كلام ينقل إلى لغة العرب إلا ويجيء الثاني أخصر من الأول، مع سلامة المعاني، وبقائها على حالها، وهذه بلا شك فضيلة مشهورة، وميزة كبيرة؛ لأن الغرض في الكلام ووضع اللغات، بيان المعاني وكشفها، فإذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار، فهي أولى بالاستعمال، وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والإطالة.

- **ومن أسماء الأسد:** قال ابن خالويه: وهي زهاء خمسُ مئة اسم وصفة، مثلاً: الضَّرْضَمُ، والدُّبَخْسُ، يقال: رجل دُبَخْسٌ، وجملٌ دُبَخْسٌ: للضخم الشديد، شُبِّه بالأسد. والأسد يقال له: الضَّرْضَمُ، والدُّبَخْسُ، والأفضخُ، وساعدةُ، والهَصور، والمُهاصِرُ، والمُهَصِّرُ، والهاصِرَةُ، والهُصَرةُ، والقَسْوَرُ، والقَسْوَرَةُ، والبَسْوَرُ، والأَغْضَفُ، والأَغْلَبُ، والفِرْناسُ، والقَرْقُوسُ، والضَّمْضَمُ، والضُّبارِمُ، والضُّبارِمَةُ، والهِرْماسُ، والدَّلْهَمَسُ، والعَنْبَسُ، والأَسْجَرُ، والعُنابِسُ، والباسِلُ، والمُخْدِرُ، والخادِرُ، والخَدِرُ، وحبيلُ بَراحِ، والصَّلْدَمُ، والشَّتيمُ، والغضوبُ، والغَشُومُ، والعَنْشَرةُ، والغَشَمْشَمُ، والقَمُوصُ، والقَمْقامُ، والعادِيُ، والعَزّامُ، والمُزْعَفِرُ، والشَّرَنْبَثُ، والمُدْلِفُ، والقَهِمُ، والجَهِمُ، والنَّحّامُ، والبَهْوَرُ، والبَهْوَرُ، والحَطّامُ، والقَطُوبُ، والكَرِيهُ، والهَضّامُ، والشَّدْقَمُ، والقَسْقَسُ، والمُضَبِّرُ، والضَّيْطَرُ، والدِّرْواسُ، والدَّوّاسُ، والدِّرْباسُ، والضَّيْفطر، والأَشْجَعُ، والداهي، والمُتَزَنْجِرُ، والأغمُّ، والعَشَمْشَمُ، والرِّئْبالُ، بالهمز، والرِّيبالُ، بلا همز، والفَدْغَمُ، والضَّمْلُ، والهَيْصَمُ، والشَّجْعَمُ، والعَفَرْنى، والعِفْرِيَةُ، والنِّفْرِيَةُ، والعِفْرِيتُ، والنِّفْرِيتُ، ولَيْثُ عِفِرّينَ، ولَيْثُ اللُّيُوث، وضُباثٌ، والأضْبَخُ، والأَهْزَمُ، والصَّمُوتُ، والضَّمْوَرُ، والمُصْلَخِدُ، والصِّلْخادُ، والعَفَرْنَسُ، والهُزاهِزُ، والضِّرْغامُ، والضِّرْغامَةُ، والغَضَنْفَرُ، والعَوّاسُ، والهِزَبْرُ، والقُصْقُصُ، والقَصاقِصُ، والقُصاقِصَةُ، والمُقَرْفِصُ، والهُرابِرُ، والهَبّاشُ، والهَرْهارُ،

والقُرافِرُ، والمَضْغَمُ، والقَصْنُوصُ، والنَّسُورُ، والهَمُّ، والفُصْنُفاصُ، والفُصافِصَةُ، والمِكْتادُ، والنَّهَاتُ، وحَمْزَةُ، والزُّبْرُ، والزَّبُورُ، والعَنْبَسَةُ، والمُنْهِتُ، والمُكْفَهِرُّ، وفُرانِسٌ، وقُصْنْقاصٌ، والمُتَدَلِّفُ، والسِّرْحانُ (والسِّرْحانُ أيضاً: الذِّئْبُ) والعَقُورُ، والسَّيْطَرُ، والهَمْهامُ، والهُمُوءُ، والهُمْهُومُ، والنَّهّامُ، والمُزْدَلِفُ، والهَبّارُ، والمُهْتَهِتُ، والرَّصِيدُ، والدّامِرُ والذِّفِرُ، والقَسْقَسُ، والمُقْرَنْفِصُ، والشَّهْمُ، والمُقْرَنْصِفُ، والمِطْحَرُ، والشَّيحُ، والطَّيّارُ، والشُّداقِمُ، والطَّيْثارُ، والجواليقُ أيضاً، والعَثَمْثَمُ، (وهو الجَمَلُ أيضاً)، والفَهْدُ، والدَّلْهاثُ، وفي الناقةِ أيضاً. والقِرْضابُ (وهو السيفُ أيضاً)، والسِّرْطِمُ، (بفتح السين والطاء، فأمّا السِّرْطِمُ: فالخطيبُ الفصيحُ). والوَهّاسُ، والخَنِقُ والمُفَرْفِرُ، والأَشْرَسُ، والأَحْوَلُ، والأَشْدَقُ، والأَنْكَبُ، والمِرْفاشُ، والصِّمْصامةُ (وهو السيف أيضاً)، والخُنابِسُ، والوَرْدُ، والعَفَرْزُ، والعَرُوسُ، والضَّيْغَمُ، وأُسامةُ، والهَرِيتُ، (وهي المرأةُ المُفْضاةُ أيضاً)، والهَرِتُ والهَوّاسُ، (وهو اسم لصٍّ أيضاً). وذُو اللِّبْدَةِ، والمُزْبَرانِيُّ، والقانِي، (وهو الشَّديدُ الحُمْرَةِ أيضاً). والمِقْدامُ، والضُّمْضامُ، والخُبَعْثِنُ، والخُبَعْثِنَةُ، والقَلُوبُ، والقَلِيبُ، (وهو الذِّئْبُ أيضاً). وكذلك المَيْدُ، والأَهْتَرُ، والهَيْصَلُ، بالصاد، (فأمّا الهَيْضَلُ، بالضّاد: فالجَيْشُ). والعَدَبَّسُ، (وهي الكُتْلةُ من التَّمْرِ أيضاً). والهَشَمْشَمَةُ، والمُعْتَرِمُ، والحادِرُ، بالحاء غير معجمة، (وهو السَّمِينُ أيضاً). والنَّهَلُ والمُرْزِمُ، والهَدِبُ، والأَخْثَمُ، (وهو العريضُ الأنفِ أيضاً من الرِّجال). والخَثْعَمُ، (وهي أيضاً قبيلة). والجَلَنْبَطُ، والمَرْهُوبُ، والمَهِيبُ، والمَهُوبُ، والمُصْمَغِدُّ، والرّاسِبُ، والقارِحُ، والجَنُّورُ، والمُشْبِلُ، والمِنْهَسُ، والرِّئْبالُ والجُخْدَبُ، (وهو الجَرادُ أيضاً). والعَجَنَّسُ، (وهو الجَمَلُ أيضاً). والسَّبَنْدَى، والسَّبَنْتَى، (وهو النَّمِرُ أيضاً). والقَضْبُ، (وهو شِدَّةُ الحُمْرةِ أيضاً). والبَيْأَسُ، وهو الشديد من كل شيء، قال الله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[الأعراف: ١٦٥]. والمُهَيْسُ، والأَرْقَبُ، والمُغِبُّ، والخَبُوسُ، والهادي، واللَّجِمُ، والشَّرِسُ، والأَغْبَسُ، والجَهْضَمُ والدِّعْفِرُ، والكَرَوَّسُ، والبَرْبَرُ، والثّابُ، والكَهْمَسُ، والهَمُوسُ، والأَزْمُ، والقَضْمُ، والعَوْفُ، والحَيْدَرَةُ، والخَيْتَعُورُ، والكَلْبُ، والسَّبْعُ، والسَّبُعُ، والعَمَيْثَلُ والزَّأْرُ والأَشْدَخُ، والشَّدِيخُ، والشَّنْدَخُ والشَّمُوخُ، والدِّرْهاسُ، والجِرْهاسُ، والعِفْراسُ، والصِّلْقامُ، والجِرْهامُ.

ولعل أشهر أسماء الأسد هو ما ورد في الجدول الآتي:

آساد	أبو الأبطال	أبو الحارث	أبو الزعفران
أبو العباس	أبو شبل	أبو فراس	أبو لبد
أزهر	أسد	أسدة (أنثى الأسد)	أسود
أسيد	أشدخ	ابن أجلى	الحفص
الفارس	المحمى	الهيزم	باسل

برباز	بهنس	بهور	جرفاس
جرهم	جيفر	حمارس	حمزة
حيدر	حيدرة	خزرج	خطار
درباس	درغام	رئبال	راصد
رزيم	زافر	زياف	سبع
سبيع	سبيعي	سندري	شابل
شبل	شيظم	صهيب	ضرغام
ضماضم	ضيغم	عباس	عدوة
عرندس	عوف	غضافر	غضنفر
فرانق	فرناس	فرهد	فرهود
قسورة	قموص	لبوة (أنثى الأسد)	ليث
متبسل	متمهر	متهيب	مخشف
مهتصر	مياس	نجيد	هادئ
هبرزي	هترك	هرامس	هزبر
همام	هيثم	هيصم	وهاس

أمّا الكلب فله نحو ٧٠ اسماً: فائدة: ورد في معنى اسم كتاب السيوطي «التبرّي من معرّة المعرّي» أن السيوطي قال: دخل أبو العلاء المعري على الشريف المرتضى فعثر برجل الشريف، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلبُ مَن لا يعرفُ للكلب سبعينَ اسماً! وقد نظمتها في أُرجوزة «التبرّي من معرّة المعرّي». قلت: وقد تتبعتُ كتبَ اللغة، فحصّلتُها أكثرَ من ستّين اسماً ومن ذلك مثلاً: الوعوع، الشنجر، الواداً، مراقش: اسم كلبة، سلهب: كلب، جدلاء، ديوان، الدرواس، زنبور، سرحان، ضبار، عليق، مقلاء، القنيص، سرياح، الأرشم: وهو الكلب والذئب الذي يتشمّم، النهيم.

Others state that the word clever has 400 alternative names. Also there are 20-300 alternative names for each of the rain, wind, light, darkness, she-camel, rock, water, and well. Professor De Hammer counted 5644 Arabic words for the camel and its relevant affairs[13].

ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من ٤٠٠ اسم للداهية، ويوجد لكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء تبلغ نحو ٢٠ اسماً عند بعضها، وتصل إلى ٣٠٠ اسم في بعضها الآخر.

وقد جمع الأستاذ (دو هامر) المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه فوصلت إلى أكثر من ٥٦٤٤[11].

- **Global Spread of Arabic Language**[14]: Finally, It is said that Arabic language is the only language which has lend its Arabic words to every language in the world, i.e. every

language in the world must have some of the borrowed Arabic words from Arabic language.

Despite many attempts to replace the pure Arabic language of the Qur'an, the ***Fus-ha*** (or correct Arabic) with colloquial languages and/or with foreign languages, Arabic language stood the test of time and remains a solid living language for all official and semi-official communications in science, humanity, and trade; Arabic was and still is the only language of Islamic expression and performance.

- **Living Vibrant Language**: At the end, Arabic language retains its international position as a uniting tie of global brotherhood in this world (or the global village).
  It may be interesting here to quote Joel Carmichael in his book **'The Shaping of the Arabs'**[15]:

  (As the defenders of Arabic uniqueness would point out,

  - Where Greek often has only one word for several objects, Arabic has many words for one object.
  - The stunning phonetic beauty of the language is matched, they say, by its staggering wealth of synonyms.
  - The possibilities in Arabic for the use of figurative language are endless; its allusiveness, tropes, and figures of speech place it beyond the reach of any other language.
  - Arabic has numerous stylistic and grammatical peculiarities that are quite unique; hence nothing can be translated from Arabic satisfactorily.
  - The Arabic version of something foreign is always shorter than the original.
  - Arabic loses on translation but all other languages being translated into Arabic gain;
  - Thus it is quite understandable, says a well known writer, that upon being expelled from paradise Adam was naturally forbidden to speak Arabic and had to talk Syriac instead, and when he repented God let him go back to Arabic).

In Conclusion, therefore, Arabic is the language that Allah (The One God and The Only) used to teach Adam and communicate with him in Paradise; thereafter Arabic became the language of Adam on Earth (after his repentance). From Adam's original Paradise Arabic language, All other languages of the world came out. In Arabia, one Yemeni tribe (Jurhum) maintained that very Arabic language since the time of Adam (and prophet Hud); it was from Jurhum tribe that Ishmael (Ismail, son of Abraham) learned Arabic language and got married (his wife is from Jurhum). Finally, Prophet Muhammad of Islam, and his Arab followers, the carrier of global message of Islam, were all the descendants of Prophet Ishmael (Father of All Arabs).

The historian Ali bin al-Hussain al-Mas'oodi (died 346 Hijri) said in his book "The News of the Past Era" *('Akh'bar al-Zaman'* **printed by Dar al-Andalus – Bierut, 1996) page 72:**

(and [God] made Adam land on a mountain in Serendip [Ceylon island] and he was dressed in plant leaves from Paradise...and Allah [God] called Adam, Abdullah and

entitled Abu Muhammad [father of Muhammad] and he was tall...and he talks in Arabic, but he [God] changed his tongue from Arabic into Syrian [or Syriac], and [God] removed from him what He taught him [of knowledge], but Allah Most High gave him back [Arabic language and knowledge], after his [Adam's] repentance).

After this concise curriculum vitae of Arabic language, the Arabic language has a long struggle and history inseparable form that of Isalm itself; hence the great adventures of the Arabic with many rounds of contest and challenge had enforced the spread and conquests of Islam worldwide, as much as Islam had re-enforced the Arabic language (See Chapters: Three and Four).

REFERENCES

1. (a) **The Holy Qur'an (English translation of the meanings and Commentary).** The Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. **Mushaf Al-Madinah Al-Munawarah** under The Auspices of The Ministry of Hajj and Endowments. The Kingdom of Saudi Arabia. 1413 H. pages according to specified verses as mentioned.

(b) **The Glorious Qur'an - Text & Explanatory Translation.**

By Marmaduke Pickthall. Karachi: Taj company Ltd. (undated).

(c) **The Holy Qur'an – Text, Translation and Commentary. By Yusuf Ali.**

Compliments of Al Rajhi Company For Currency exchange and Commerce.

Published by Amana Corporation, Maryland USA. 1983.

(d) **المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى. دار الحديث. القاهرة. ١٩٩٦م.

(e) **اللغة العربيّة أمّ اللغات ولغة البشرية**. إسماعيل العربي. المطبعة العلمية. دمشق. ١٩٨٥م.

2. **Binyon M: Europe Takes A Tongue-Lashing**. Part 1: How Europe Fell, Spectrum Section, **The Times**, Monday October 23 1989.

3. **Greaves W: Selling English By The Pound**. Part 2: The Linguistic Continent. Spectrum Section, **The Times**, Tuesday October 24 1989.

4. (a) **مُعجم عجائب اللغة** (نوادر ودقائق ومدهشات علميّة ويتضمن الألفاظ الدخيلة على اللغة العربيّة). شوقي حمادة. الطبعة الأولى. دار صادر. بيروت. ٢٠٠٠م.

(b) **Claiborne R. The Life and Times of the English Language**. London: Bloomsbury, 1990. Pp. 1 and 3.

(c) **Susan Griffith (on behalf of British Council). Teaching English Abroad.**

Revised 8th edition (revised by Deborah Penrith). Vacation work Publication 2006.

5. **الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع**: لأحمد بن الأمين الشنقيطي. المُجلد الثاني، صفحة ٥٠٢ (٣ مُجلّدات). دار الكتب العلميّة. بيروت/ لبنان. ١٩٩٩م.

6. جاء هذا الحديث المسند في **شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية** للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي، شرح الإمام ابن دقيق العيد. دار ابن حزم بيروت، لبنان. ١٩٩٧م.

7. **الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**: أحمد بن فارس الرازي اللغوي. حققه د. عمر فاروق الطبّاع. مكتبة المعارف. بيروت. ١٩٩٣م.

8. **تاريخ العرب قبل الإسلام**: للأصمعيّ ج ٤، وقد ذكر التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه) للدكتور رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة. الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

9. **ديوان حافظ ابراهيم: اللغة العربية تنعي حظها بين اهلها**. ج ١، ص ٢٥٣. (جزءان). ضبطه: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري. دار العودة. بيروت - لبنان، ١٩٣٧م.

10. **النكت والعيون: تفسير الماوردي**، المجلد الأول (٦ مجلدات). مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت، ١٩٩٢م.

11. **فقه اللغة: مفهومه، موضوعاته، قضاياه**: لمحمد بن إبراهيم الحمد. دار ابن خزيمة. الرياض. الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

12. **فقه اللغة وسرّ العربية**: لأبي منصور الثعالبي. تحقيق: الدكتور فائز محمد. مراجعة وفهرسة: الدكتور إميل يعقوب، والدكتور محمد الإسكندراني. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

13. **فقه اللغة**: للدكتور علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر. القاهرة. الطبعة السابعة، ١٩٧٢م.

14. **معامرات لغوية (ملكة اللغات)**: للدكتور عبد الحق فاضل. دار العلم للملايين. بيروت. (غير مؤرخ، لكنه ربما نُشر ١٩٦٨م).

15. **Carmichael Joel: The Shaping of the Arabs**. New York: Macmillan, 1967.

CHAPTER II:

English: The Melting Pot of European Languages

English is Britain's black gold, with revenue in excess of £ 1 billion being earned annually from teaching English language in UK. It is the native tongue of some 300,000,000. It is the predominant language in 2 of the 6 inhabited continents (North America and Australia), and possesses a large block of speakers in a third (Europe) and a sizable one in a fourth (Africa). English is also by far the most important 'second language' in the world. English is the mother tongue of 300 million people while another 300 million uses it as a 2nd language. English currently, is the official or joint official language in more than 70 countries/states around the world followed by French and Arabic. However, Spanish, Portuguese and German lag a long way behind[*].

Though English language is inflexional, but the English people are impatient of useless detail and have an innate gift for improvisation and 'muddling through'. It is to these characteristics that we owe the almost complete disappearance from English of all the inflexional machinery which still encumbers the other European languages, the replacement of grammatical gender by natural gender, the freedom and looseness of syntax, and obstinate retention of an artificial spelling which sometimes fails completely to represent the sound of the spoken word.

From the period of the Renaissance and of the great geographical discoveries, words were borrowed from almost every language in the world, which the result that such a national work as the great Oxford English Dictionary contains a larger number of words than are registered in any other European language. The 20,000 words or so inherited from Anglo-Saxon have increased to nearly half a million, though few people ever need to use more than a twentieth part of this vast vocabulary. Currently, the vocabulary of the agricultural labourer is as great as the vocabulary used by Shakespeare in the whole of his plays and 3 times that of Milton in the whole of his poems.

Brief History of English Language[(2)(5)]

1. **Pre- or Prehistoric Old English**: the period before written records, roughly 450-700 AD. During this period English diverged from the other members of the Germanic Languages to become a distinct language.

   When Romans landed in Britain in 55 BC, the native Britons spoke a language which today still survives in Celtic tongues: the Gaelic (whose language is represented in the modern Irish), Scottish Gaelic (spoken on the Isle of Man), and Cymric (whose language is represented by Welsh, Cornish and French Breton). These Celtic languages are quite separate from English, and the only words which remain in use in England are found in ancient place-names: ***avon***, meaning a river, and ***aber***, meaning a river mouth, are 2 of these remote survivals. Romans however, began their occupation of Britain in 43 AD and

made their final departure about 410 AD. Between those dates, they built many towns, based on their original camp-sites. Latin for 'camp' is castra, and even to this day there are many towns with names ending in ***'caster'*** or ***'chester'***, as a reminder of the time of Roman occupation, for example: ***Manchester, Dorchester, Lancaster, Chichester***. But there are virtually no other Roman words coming to English from that time.

2. **Old English**: Language historians call the language used by the ***Anglo-Saxons*** 'Old English' after the Germanic tribes who used it: the period from the appearance of written records in English up to the Norman Conquest of 1066 and sometimes up to year 1150 AD; it is abbreviated as O.E. in dictionaries.

   When the last Roman ship left British shores about 410 AD this was the signal for land-hungry tribesmen of northern Europe to seek their fortunes in the British Isles. Boatload after boatload of eager immigrants came: Angles, Saxons, Jutes, Frisians, Franks. The Anglo-Saxon invasion had begun. The native Britons, or Celts, were pushed further and further into the fringes – into Cornwall, Wales, and Scotland. Meanwhile there was a kind of frantic free-for-all as the Saxon invaders seized whatever bits of land they could. The language they brought with them is known as Anglo-Saxon, or Old English. The oldest words in English language came from this period. Typically, they are short, pithy, and earthy. The names of animals, birds, trees, and the elemental things of life are Anglo-Saxon in origin. Pig, cow, sheep, sun, moon, star, mother, father, water, earth, life, death: all these are Old English words. There are countless place-names too, dating from this Anglo-Saxon invasion. Typically, a boatload of Saxons would show allegiance to their leader, whose name is still to be found incorporated in the place-name where they eventually settled. The Saxon word ingas meant 'family' or 'followers', so that when a boatload landed, the chief's name (say, Tota, Wocca, Haefer, or Padda) would be perpetuated in the name of the spot where he carved out his little kingdom, and this would be followed by '-ing' to show that Tota's family or Wocca's followers had settled there with him. Tooting, Woking, Haevering and Paddington are typical examples. A ham meant 'home' or 'homestead' and a tun was 'enclosure' and later came to mean 'village' or 'town'. So a village with a name such as Donington would suggest that it was the 'town where Dunna's people live'.

3. **Middle English** represents the period from the Norman Conquest to the arrival of printing in Britain in 1476. The Conquest saw the large-scale replacement of the old Anglo-Saxon aristocracy with a French-speaking and European-centred elite. Although English remained in widespread use in speech, it lost in national status; documentary functions were taken over by Latin, which was undergoing a revival in Western Europe, while many literary functions were taken over by varieties of French.

   Probably the most famous writer in the Middle Ages was Chaucer (1340-1400), who was writing his Canterbury Tales in the 1380s. This is written in M.E. and although it looks strange at first sight, modern readers can usually come to read and understand it without too much difficulty. 'O.E.', on the other hand, needs a specialist to make sense of it.

   By about 1500 AD English had become almost 'modern', although of course the spellings were often very different, and the vocabulary was naturally smaller than that of present-day English because it dealt with a much simpler life-style.

By that time the fusion of Saxon Norman French was beginning to form a new language: and this, spoken and written from 1150 to 1500, is known as 'Middle English' – often abbreviated as M.E. in dictionaries.

4. **Early Modern English** is the period from 1476 to the early 18th century. Caxton's introduction of printing to England at the end of the 15th century coincided with the elaboration of English as a vernacular capable of being used for all linguistic functions. The foundation of the modern British state following the Act of Union between England, Wales and Scotland (1707) may be taken as an external marker of the end of the Early Modern period [5].

5. **Later Modern English** is the period from early 18th century to the present-day.

Components of English Language [1][3]

1. Old English (Anglo-Saxon and Old Norse)

Anglo-Saxon since the coming of the "Danes", English has been steadily shedding its grammar, partly from linguistic laziness, and partly as a result of contact with Old Norse and Old French. Bernard Shaw stated that "useless grammar is a devastating plague". Particularly characteristic is the gradual substitution of natural gender for grammatical gender, a piece of practical common-sense in which English stands alone among European languages. In Anglo-Saxon, *muth*, mouth, was masculine; *nosu*, nose, feminine; and *eage*, eye, neuter; genders which the corresponding German words still keep. Anglo-Saxon was the speech of the common people. Feminine nouns had no ending in Anglo-Saxon, but gradually adopted it in Middle English: ***Thurs-day*** from the god Thor, but ***Fri-day*** from the goddess Freya. There were various plural endings, becoming Middle English ***–es*** or ***–s*** and ***–en***. The final triumph was no doubt helped by the French plural ***–s***. Of the ***–en*** plurals only ***oxen*** survives, for ***brethren*** and ***children*** are not quite simple cases.

The Christianizing of Britain Coming from Rome in 597 AD Augustine landed in Kent with his 40 missionary monks with the firm intention of converting the British to Christianity. Luckily for Augustine, king Ethelbert of Kent gave him a friendly reception; after all, Ethelbert's wife, Queen Bertha, was already a Christian. Ethelbert himself was soon baptized, and Augustine became the first Archbishop of Canterbury. By the time Augustine died, 7 years later, the whole of the kingdom of Kent had become Christian. In the course of a century the Anglo-Saxons were converted to Christianity. The importance of this on English language was that many Latin words, at first mostly connected with the church, but then more general vocabulary, came into use. Church words from this time include: ***abbot, alms, altar, candle, disciple, hymn, relic, rule, shrine, temple.*** More general Latin-derived words then added to English language include: ***cap, sock, purple, school, lily, plant, anchor, fever***

Old Norse: Scandinavian Invasions (Vikings and Danes) Waves of Scandinavian attacks upon England began in 787. Although their language (**Old Norse**) was similar to that of the Saxons, there were differences for example in pronunciation. Old English often had a soft ***'sh'*** sound, whilst the Scandinavians had a harder ***'sk'*** sound. Thus, Old English has ***ship, shall, fish***, but Scandinavian words retain the hardness of ***sky, skin, skill, scrape*** and ***scrub***.

Interestingly, Old English has given us *'shirt'*, whilst the corresponding Old Norse word has come down to us as *'skirt'*; really, versions of the same word.

It was a kindred race whom we call collectively, the "Danes", though they came from all 3 of the Scandinavian countries. The conflict between the English and these invaders, for whom the better name is "Vikings", was to some extent religious, for the Danes were still pagans. Perhaps the clearest evidence of those Viking invasions is to be found in place-names ending in '–by', a Danish word meaning a farm or town. We have more than 600 of these, e.g. ***Derby, Rugby, Grimsby, Whitby***. Other Scandinavian place-name elements are 'thorpe', meaning village; and 'toft', meaning a farmstead. Thus, place-names endings in **–by, -thorp, -dale, -thwaite**, always indicate a Danish settlement.

The completeness of the fusion of the 2 languages (Old Norse and Anglo-Saxon) is shown by the homely and everyday character of the Old Norse contribution. To it belong such familiar nouns as anger, ***egg, fellow, husband, leg, plough, root, skill, sky, trust, window, wing***, and even such an intimate word as ***sister***, such adjectives as ***ill, loose, low, meek, odd, rotten, scant, ugly, wrong***, and such verbs as ***call, cast, drown, put, take, thrive***. Also from Old Norse came the pronouns, ***they*** and ***them***, and the propositions, till and fro, the latter surviving only as an adverb in "***to and fro***". The Vikings also introduced a number of administrative words, such as ***law***, but these were mostly replaced after Conquest by French terms.

By the end of the Anglo-Saxon period, circa 1150, the spoken language of the Englishman was a blend of 2 closely related Teutonic tongues, the original vocabulary had been greatly enriched and the complicated inflexional system of Anglo-Saxon had been simplified to an extent without a parallel in other Teutonic languages.

The everyday conversation is still founded on and funded by Old English. All of the following are Old English: ***is, you, man, son, daughter, friend, house, drink, here, there, the, in, on, into, by, from, come, go, sheep, shepherd, ox, earth, home, horse, ground, plough, swine, mouse, dog, wood, field, work, eyes, ears, mouth, nose, broth, fish, fowl, herring, love, lust, like, sing, glee, mirth, laughter, night, day, sun, word***. These words are the English foundation. We can have intelligent conversations in Old English and only rarely need we swerve away from it. Almost all of the hundred most common words in English language worldwide, come from Old English. There are 3 from Old Norse, 'they', 'their' and 'them', and the first French-derived word is 'number', in at seventy-six [3].

The hundred words are: 1. the; 2. Of. 3. and; 4. a; 5. to; 6. in; 7. is; 8. you; 9. that; 10. it; 11. he; 12. was; 13. for; 14. on; 15. are; 16. as; 17. with; 18. his; 19. they; 20. I; 21. at; 22. be; 23. this; 24. have; 25. from; 26. or; 27. one; 28. had; 29. by; 30. word; 31. but; 32. not; 33. what; 34. all; 35. were; 36. we; 37. when; 38. your; 39. can; 40. said; 41. there; 42. use; 43. an. 44. each; 45. which; 46. she; 47. do; 48. how; 49. their; 50. if; 51. will; 52. up; 53. other; 54. about; 55. Out; 56; many; 57. then; 58. them; 59. these; 60. so; 61. some; 62. her; 63. would; 64. make; 65. like; 66. him; 67. into; 68. time; 69. has; 70. look; 71. two; 72. more; 73. write; 74. go; 75. see; 76. number; 77. no; 78. way; 79. could; 80. people; 81. my; 82. than; 83. first; 84. water; 85. been; 86. call; 87. who; 88. oil; 89. its; 90. now; 92, find; 92. long; 93. down; 94. day; 95. did; 96. get; 97. come; 98. made; 99. may; 100. part [3].

II. French influence: Year 1066 AD is the momentous date in English history, when Duke William of Normandy beat King Harold at the battle of Hastings and settled himself on

the throne of England as King William I. The occupation of the British Isles by the Normans had a cataclysmic effect upon the language. What happened was virtually a grafting of one whole language upon another. And, of course, Norman French itself was largely based on Latin. It took centuries for the 2 languages to fuse together completely, but the final result was that today language has an enormous vocabulary – literally twice as large as most others. Among European languages, the English has an exceptionally large choice of alternatives, usually one set of words based on the Anglo-Saxon heritage and another based on Latin/Norman French.

Even those elemental words: ***pig, cow, sheep***, have alternatives. It has wryly been observed that these animals retain their Saxon names when in the fields, looked after by the Saxon peasants, but were given Norman names when they were cooked and served up to the Norman overlords [2]:

Thus: ***pig*** turns into ***pork***

cow into ***beef***

sheep into ***mutton***

calf into ***veal***

deer into ***venison***.

Also Saxon short words are paralleled by Latin (see under **Latin Influence** below) with subtle differences [2]. Thus Old English

'sun' has the Latin-based adjective ***'solar'***

'moon' has ***'lunar'***

'star' has ***'stella'***

'motherly' is not quite the same as ***'maternal'***

'fatherly' becomes ***'paternal'***

'watery' – ***'aquatic'***

'earthy' – ***'terrestrial'***

'lively' – ***'vital'***

'deathly' – ***'mortal'***

With the Norman Conquest begins one of the most curious and interesting phenomena in linguistic history, the complete fusion of 2 languages, one purely Teutonic (blended Old Norse with Anglo-Saxon), the other of Latin origin (Norman French). Just as before 1066 and up to circa 1150, when Middle English may be said to begin, speech was a mixture of the original Anglo-Saxon and Old Norse, so, from the Conquest onward, it became gradually blended with Old French, but have been considerably altered in form and sound. On Christmas Day 1066, William was crowned in Westminster Abbey. The service was conducted in English and Latin. William spoke French throughout. French ruled. And the French language of rule, of power, of authority, of superiority, buried the English language. The saturation of Middle English with French words was not the immediate result of the Norman Conquest. The invaders were not numerous, and unless reinforced, would gradually

have adopted the language of the conquered, just as their Viking ancestors have adopted French when they converted Neustria into Normandy. For centuries after the Conquest England and France were in ceaseless contact. William and his sons were still Dukes of Normandy, the Plantagenet kings ruled vast provinces in France and much of the country was subject to the English crown during the Hundred Years War, which began in 1337.

These centuries were a rather barren period in English literature. **Because French was at that time the international language of trade, it acted as a conduit, directly or indirectly (via Latin), for words from the markets of the East.** *Arabic words* that it then gave to English include: ***'saffron' (safran), 'mattress' (materas), 'hazard' (hasard), 'camphor' (camphre), 'alchemy' (alquimie), 'lute' (lut), 'amber' (ambre), 'syrup' (sirop).*** The word ***'checkmate'*** comes through the French 'eschec mat' from Arabic 'Shah mat', meaning the king is dead[8].

French was not only, until 162, the language of the law and administration, but also that of polite society. The town crier's ***Oyez!*** is Old French for "Hear" (an interesting survival). As late as the 14th century schoolboys construed their Latin into French, all who aspired to social elegance interlarded their remarks with French words and phrases, and educated products of the schools were generally tri-lingual. A friend of Chaucer, "Moral Gower", the poet and philosopher, who died in 1408, wrote one book in English, one in French, and one in Latin.

French contributed words of the ruling race. The native king and queen survived, but borrowed their ***throne, crown*** and ***scepter*** from Old French. Titles of the chief officers of the crown are French such as, ***chancellor, marshal* and *constable***. The same applies to most words connected with the administration of justice, e.g. ***judge, jury, assize, prison, goal,*** and the formal names of crimes such as ***felony, arson, larceny***. These terms belong to Law French, a barbarous form of Anglo-French which was not formally abolished till 1731.

Also words connected with property include ***lease, tenant, heir***. ***Peace*** and ***war*** and most of the words connected with the latter are also French, e.g. ***host,*** later replaced by ***army, armour, banner, battle, fortress, siege, tower. Sir and madam, master, mistress*** and ***servant*** are evidently from the vocabulary of a dominant class and are French. Ecclesiastical words which point to the influence of the Norman churchmen are ***abbey, altar, clergy, cloister, parish, saint, sermon*** and the verbs ***pray*** and ***preach***. While names of the domestic animals are English, the meat they provide has French names, such as beef, mutton, pork and veal due to superiority of French cooking over English.

It may be remarked that the chief meal of the day, **dinner,** has a French name and that epicures like to employ a chef as the ruler of their cuisine.

Aristocratic sport gave English ***chase, park, leach, quarry, scent, falconry*** and from knightly exercises we have ***tourney, joust, lists***. The superiority of the foreign architects is seen in ***aisle, arch, column, nave, dungeon, palace, pillar, porch, vault***. Names of relationship outside the family circle, ***uncle, aunt, cousin, nephew, niece***, are all French. While humble trades remained English (e.g. baker, miller, smith, weaver), the luxury trades took French names, such as ***draper, spicer, tailor.*** It was probably during the early period, when the 2 languages existed side by side, but had not yet become one, that it became the practice to add an explanatory French word to an English word. Familiar examples are ***"goods***

and chattels", "law and order", "ways and means", "lord and master". Later this became merely a literary mannerism.

By Geoffrey Chaucer's time (1340-1400), the fusion was complete. The nation and the language were both unified, and the noble of Norman descent, whose ancestors had despised the conquered English, now gloried in the name of Englishman. The upper class is no longer French, nor the peasant class Anglo-Saxon: all are English.

So complete was the fusion of the 2 languages that we are not conscious of using an English and a foreign word in such familiar collocations as ***"wholesale and retail", "touch and go", "a happy release", "a blessing in disguise"*** in alliterative phrases like ***"without fear or favour", "slow and sure", "rack (***originally ***wrack) and ruin"***, or in compounds such as ***absent-minded, poverty-stricken***. English people can add an English suffix to a French word as in ***dukedom, artless***, or a French suffix to an English word as in ***riddance, eatable***. Many compound nouns e.g. ***arm-chair, time-table, gentle-man, grand-father, common-wealth***, are hybrid formations.

The borrowing of French words has gone on steadily through the centuries. During the long reign of Lois XIV (1643-1715) France was the dominant power in Europe and French manners, literature and fashions were everywhere imitated. From approximately this period dates the greater part of military vocabulary, words such ***colonel, lieutenant, brigade, reconnoiter, sortie*** (See **Table** below on **Title-names of the Military Ranks**).

Since the **Peace of Nymwegen (1678) French has been recognized as the diplomatic language of Europe,** hence such words and expressions as ***ballon d'essai, charge' d'affaires, de'marche, de'menti, entente***, and in recent times a great number of French words and phrases have become current English, justifiably so as English has no exact equivalent. Such are ***agent provocateur, camouflage, canard, cliché, coup d'etat, flair, laissez-faire, nonchalant, sabotage, succès d'estime.***

Norman French ruled for almost 300 years, making English the third tongue (Latin was the language of the powerful **Church) in its own country. The amazing story here is that of a subjugated and oppressed language literally taking on its conqueror (in these years English absorbed over 12,000 French words) and turning the oppressor's tongue into its own[4].**

(Table on the Title Names of the Military Ranks in Different Languages)

Notice that the French words for military ranks (the origin of Anglo-American words): Marshal, General, Colonel, Captaine, Sergeant, Caporal, and Soldat (in French) are words that are derived from Arabic origin

FRENCH	ANGALO-AMERICAN	PAKISTANI	ARABIC
MARSHAL	FIELD-MARSHAL	MARSHAL	مُشير (مهيب) (تاج وسيفان و٣ نجوم)
GENERAL D'ARMEE	GENERAL	GENERAL	فريق أول (تاج وسيفان ونجمتان)

FRENCH	ANGALO-AMERICAN	PAKISTANI	ARABIC
GENERAL DE CORPS- D'ARMEE	LIEUTENANT GENERAL	LIEUTENANT GENERAL	فريق (تاج وسيفان ونجمة)
GENERAL DE DIVISION	MAJOR GENERAL	MAJOR GENERAL	لواء (تاج وسيفان)
GENERAL DE BRIGADE	BRIGADIER GENERAL	BRIGADIER	عميد (تاج و٣ نجوم)
COLONEL	COLONEL	COLONEL	عقيد (تاج ونجمتان)
LIEUTENANT COLONEL	LIEUTENANT COLONEL	LIEUTENANT COLONEL	مقدم (تاج ونجمة)
COMMANDANT	MAJOR	MAJOR	رائد (تاج)
CAPITAINE	CAPTAIN	CAPTAIN	نقيب (٣ نجوم)
LIEUTENANT	FIRST LIEUTENANT	LIEUTENANT	ملازم أول (نجمتان)
SOUS-LIEUTENANT	SECOND LIEUTENANT	SECOND LIEUTENANT	ملازم (نجمة)
ADJUDANT CHEF	SERGEANT MAJOR Of the army	SUBEDAR MAJOR	رئيس رقباء
ADJUDANT	SERGEANT MAJOR	SUBEDER	رقيب أول
SERGENT-CHEF	MASTER SERGEANT	NAIB / SUBEDAR	رقيب
SERGENT	SERGEANT	HAVILDAR	وكيل رقيب
CAPORAL-CHEF	CORPORAL	NAIK	عريف
CAPORAL	PRIVATE FIRST CLASS	LANCE NAIK	جندي أول
SOLDAT	PRIVATE	SEPOY	جندي

In 1399, King Richard II was deposed by Henry, Duke of Lancaster. The document deposing him and his speech of abdication are in English. Parliament was summoned to the Great Hall at Westminster. The dukes and lords, spiritual and temporal, were assembled. The royal throne, draped in cloth of gold, stood empty. Then Henry stepped forward, crowned himself, and claimed the crown **(King Henry IV)**. In a great symbolic moment he made his speech not in the Latin language of state business, not in the French language of the royal household, but in what the official history, tellingly, calls 'His Mother Tongue' English:

'In the name of Fadir, Son, and Holy Gost, I, Henry of Lancaster chalenge this rewme of Yngland and the corone with all the members and the appurtenances, als I that am disendit be right Tyne of the Mode comying fro the gude lorde Kyng Henry Therde, and thorghe that ryght that God of his grace hath sent me, with the helpe of my kyn and of my frendes, to recover it - the whiche rewme was in poynt to be undone for defaut of

governance and undoing of the gode lawes.'

(In the name of the Father, Son and Holy Ghost, I, Henry of Lancaster, claim this realm of England and the crown with all its property and privileges - because I am legitimately descended from the blood of the good lord King Henry the Third - and by that right that God's grace has granted me, with the help of both my family and my friends recover it: the which realm was in danger of being ruined by the government and the undoing of good laws.)

Henry, Duke of Lancaster became King Henry IV and English, was once again a royal language. It had been touch-and-go many times. And Latin and French had not lost their grip as the languages of official business and of the Church. But English had made its boldest public gain for three centuries and it sat once more on throne. At last the tide seemed to be turning in its favour, although there would be much blood spilled before it gained status as the language in all matters to do with English life.

III. Latin influence: The other great foreign element in English language is Latin. Latin language influenced English on 4 occasions:

- following Roman occupation;
- during christening of Britain;
- during Norman French invasion; and
- perhaps from Wycliffe English Bible (translated from Latin).

The most potent influence in the civilization of Western Europe was that of the Romans. From Latin come Italian, French, Spanish and other Romance languages with only trifling contributions from other sources. The Teutonic races took from Latin only those words which might naturally be useful where the 2 races came in contact. The earliest are, apart from religious element, mostly short words of a purely material character, descriptive of the improved standard of life due to the superiority of the Romans in the useful arts. The names of fruits (except the native apple and berry) come either immediately from Latin or indirectly through French and the same applies to vegetables, among which only the homely bean is English. From Latin come also: ***wine, cook, kitchen, dish, butter*** **and** ***cheese***, and the superiority of Roman building is reflected in the words: ***tile*** and ***wall***. Commerce and administration have given: ***mile, inch, mint, pound***.

The early Church words are mostly Greco-Latin and some of them, such as ***angel, devil, minster, church***, were known to the Anglo-Saxons before they arrived in Britain, for, though they had never worshipped in Christian churches, they had often sacked or burnt them: but the great mass of Church words came in with St. Augustine and his successors. The Anglo-Saxons took over the chief ecclesiastical titles, such as ***bishop (episcopus), abbot (abbas), monk (monachus)***, etc. but they generally translated other Church words. The Greco-Latin ***evangelium***, good tidings, became ***god-spel***, now ***gospel***; but in the Wycliffite Bible most of this vocabulary was replaced by words of Latin origin, e.g. ***Trinity*** instead of the Anglo-Saxon thrines, and ***resurrection*** intead of aerie.

Indeed Latin in Anglo-Saxon and medieval times was practically the only subject of instruction in schools, and serious literature, from the time of the Venerable Bede (675-735) down to that of Francis Bacon (1561-1626), was generally written in that language. The great prestige of French literature during the Middle Ages familiarized people with a vocabulary of Latin origin and the Wycliffite translation of the Bible, made from Latin texts, brought further

reinforcement. The consequences is that English, alone of the Teutonic languages, is saturated with Latin, and a census of English vocabulary would show that the Latin element is the largest of all. Latin influence grow greatly during the 17th and 18th centuries; opinions differ regarding this great importation of Latin into English. Scientific writers, from T. H Huxley to H. G. Wells were hostile to classical studies. The latter (H. G. Wells) criticized Latin boring grammar; but in his book (Phoenix), he makes use himself of such Latin tags as ***homo sapiens, a priori, quid pro quo, ad hoc, sine qua non,*** reminiscent of the medieval theologians and philosophers for whom Latin was a kind of native tongue.

Few people realize what an immense number of Latin words and phrases we use in an unaltered form, e.g. such nouns as ***genius, index, omen, tribunal***; or such phrases, many of them from Low Latin, as ***prima facie, bona-fide, post-mortem***. Nouns were made from the adverbs ***alibi, interim, item, tandem***; and from the verb forms ***memento, memorandum, fiat, propaganda*** and ***innuendo***. We have the dative plural in ***omnibus***, a genitive plural in ***quorum***. The adverb ***quondam*** has supplied us with an adjective. We are hardly conscious of using Latin words when we say ***junior*** and ***senior, maximum and minimum***. Often people indulge of their love of abbreviation, as in ***postscript(um), infra dig(nitatem), pro tem(pore), nem(ine) con(tradicente),*** or indulge in ellipses as in ***status quo (ante).***

Another result of the wholesale adoption of Latin words is that the adjective connected with a noun is often remote from it in origin. Thus, corresponding to the nouns ***mouth, nose,*** eye, we have the adjectives ***oral, nasal, ocular,*** the ***ox*** is ***bovine,*** the ***dog*** is ***canine,*** the ***cat*** is ***feline***, whereas in a kindred language like German the adjective is constructed from the noun. Some consider this a defect in the English language.

One result of the language was that many words were reconstructed in accordance with their derivation. The parfit from Old French became ***perfect***, with a changed pronunciation, but ***victual*** for the earlier *vittle* (French vitaille) is still sounded and pronounced ***(vit'l)*** as it was by ancestors. There are also pairs of words, often with different meanings, e.g. ***frail, poison, fealty, caitiff***, from Old French, are now accompanied by ***fragile, potion, fidelity, captive*** from Latin.

In spite of the fact that English language is now a complete fusion of Old English (i.e. Anglo-Saxon and Old Norse), French and Latin, it is still, by its essential vocabulary, its grammatical structure and what may be called its machinery, a Teutonic tongue. For many ideas we now have 3 words: native, French and Latin, e.g. ***kingly, royal, regal***, each with its own special appropriateness, but it will generally be found that the native word is the richest in emotional and picturesque content.

Greek Element of English[1]

Is rather ingnificant, until recent times. The earliest words from this source, such as apostle and bishop, reached us in a Latinized form through the Roman missionaries. Few men knew Greek in the Middle Ages, but some essential words, such as ***arithmetic, astronomy, mathematics, comedy*** and ***tragedy, physic***, are recorded. These usually came through Old French with a phonetic spelling, e.g. fisicien, now restored to ***physician***. So also French fantaisie gave ***fantasy***, soon reduced to ***fancy*** and later accompanied by learned form ***phantasy***. At the Renaissance, Greek words began to be adopted freely, often in an unaltered form, e g. ***analysis*** and ***synthesis, climax, hypothesis, nemesis, pathos,*** all recorded in the 16th and 17th centuries.

The compounds of such prefixes as ***meta-, para-, hyper-, hypo-*** run into hundreds and the same applies to words beginning with ***auto-, hetero-, hydro-, phenol-***, or ending in ***–ology*** and ***–ism***. This vocabulary is rather algebraic than linguistic, but is of great value for international currency. Greek is peculiarly fitted for scientific language because of its richness in affixes and its adaptability to new formations. For instance, ***supposition*** is the exact Latin translation of the Greek ***hypothesis***, but nobody would deny that for scientific purposes hypothesis is the better word.

Arabic Element of English Language:

The Arabic influence is deeply rooted within the English language, but it is unfortunately either wittingly marginalized or unwittingly ignored ***(For details, see Chapter 3 of 'Paradise Introduction' and also see 'Paradise Dictionary' in its entirety)***. ***Soucres of Arabic words*** in English Language include:

- Arab's interaction with **Scandinavian Vikings** is well rooted in history**(6)**. The Arabic traveller Ahmad Ibn Fadlan, an Arabic chronicler, wrote the embassy to the king of the Bulgars of the middle Volga in the year A.D. 912. He described how the Vikings acted and what they looked like when they were trading in the Bulgar Capital. This embassy provided a unique source for all academic studies about the Vikings; it displayed a good overview about how the Vikings lived their lives and details of Scandinavian personal qualities, tradings, culture, as well as their death sermonies (his journey was shown in a famous movie: ***'The 13th Worrier'***). Furthermore, many Arab authors as Ibn Horradadbeh (died 912 A.D.) and Ibn Rustah (died after 923 A.D.) described Norsemen and Scandinavian traders in Russia. Conversely, Many Vikings like Orm and Ingvar visited Baghdad (centre of Islamic Caliphate) circ A.D. 1020. Great Scandinavian fur trade and iron in ingot form were probably imported into Muslim countries from the North. An archaeologist has no difficulty in identifying exotic things found in Viking graves – a coin from Baghdad for example. Indeed, that the Vikings used coins from Western Europe and the Arab world is well attested by the following table which records the approximate number of coins dated between 800 and 1100 found in Scandinavia. This of course omits the coins minted in Scandinavia in the late Viking period, of which quite a large number survive (6,600 for example from Denmark):

	Arabic coins	Anglo-Saxon coins	Frankish/German coins
Norway	400	2,600 +	2,500 +
Sweden	52,000	30,000	58,500
Denmark	3,500	5,300	9,000

Generally speaking the Muslim coins (silver dirhams) are the earlier element (first appearing in the North towards the end of the ninth century), but about A.D. 970 there seems to have been a crisis, perhaps owing to the mid-tenth-century development of silver mines in the Harz mountains, and western coins and coins from the western part of the Islamic Caliphate begin to predominate in the Scandinavian hoards **(6)**. ***This huge volume of Arab-Viking trading exchange and extensive contacts with Islamic civilisation must have been***

reflected in linguistic Arabic influence on the Norse and the Scandinavian language (which is an important source of **Old English** language).

- English borrowed from Arabic indirectly through interactions with **Portugal and Spain** i.e. **Iberian Peninsula** where the Arabic-speaking Muslims conquered, settled, and flourished for nearly 8 centuries from 711 to 1492 where they were expelled by Spanish Reconquest (See chapter 3).

- Also Arabic words entered English through **Norman French medium**. Norman French people occupied England and occupied Arabic Sicily and during the Crusade wars ccupied the Arabic Mediterranean coast as well. Such Arabic words entered Old French, and then through Normans entered English. Alternatively, Arabic words entered Latin, then entered French and, then through French Norman medium entered into English. Thus Norman French was the carrying medium for Arabic words twice.

- English borrowed from Arabic directly during the long occupation by English armies of the Arabic Mediterranean coast **during the Crusade wars**. The correspondence between king Richard Coeur de Lion (the Lionhearted) and Sultan Saladin represents a sample of contacts and Arabic influence on English language (**see chapter 3**).

- Reversed translation of Arabic textbooks into Latin **during Renaissance period**. Indeed, such Latin translated versions of Arabic Textbooks proved to be an important source of the European Renaissance. Latinized versions of Arabic words in Science and Medicine were borrowed either in the same Arabic form (e.g. Canon, law from Arabic *qanoon*) or as a Latin calque, a loan adapted word i.e. literal translation of foreign expression (e.g. pia mater, the intimate mother of the brain is from Arabic *umm hanoon*).

- Arabic words were borrowed into English during **geographical explorations and commercial communications** directly or indirectly via Spanish, French, and Italian languages.

- Arabic words entered English directly via British colonization of the Middle East particularly Egypt. Alternatively, Arabic words entered English indirectly via colonization of India (from Arabic into Hindi and then into English). Thus **British colonies** provide a carrying medium for Arabic words twice.

- **More importantly, the Arabic-related Sumero-Phoenician language has tremendous influence on the pre-Roman Britain and pre-history Europe. Dr L. Austine Waddell in a pioneering contribution and original research, documented in his book entitled:** "The Phoenician Origin of Britons Scots and Anglo Saxons *Discovered by Phoenician and Sumerian Inscriptions in Britain, by Pre-Roman Briton Coins & A Mass of New History*" **(printed by Williams & Norgate, 1924, and 2nd edition, 1925 - Kessinger Publishing Rare Reprints www.kessinger.net), he revealed a Plate showing: Phoenician inscriptions on Newton Stone of "Part-olon, king of the Scots" about 400 B.C. calling himself "Briton", "Hittite", and "Phoenician". Dr Waddell then said in the preface, page v:**

  (*That long-lost origin and early history of our ancestors, the Britons, Scots, and Anglo-Saxons, in the "Pre-historic" and Pre-Roman periods, back to about 3000 B.C., are now recovered to a great extent in the present work, by means of newly discovered historical evidence*).

Dr L Austine Waddell then wrote another book entitled: "Sumer-Aryan Dictionary – *An Etymological Lexicon of the English & Other Aryan Languages Ancient & Modern & The Sumerian Origin of Egyptian & Its Hieroglyphs*" **with plates (printed by Luzac & Co. London,** 1927 **- Kessinger Publishing Rare Reprints www.kessinger.net) said in the introduction, pages ix-x:**

(I was led by the facts to observe that the Sumerians were the Early Aryans...that "the whole family of Aryan languages with their written letters is derived from the Phoenician language and script and its parent the Sumerian, and that about fifty per cent. Of the commonest words in use in the English language to-day is discovered to be Sumerian in origin with the same word-form, sound and meaning.").

Also **Dr L Austine Waddell in his book entitled:** "The Aryan Origin of the Alphabet: *Disclosing the Sumero-Phoenician Parentage of our Letters, Ancient and Modern*" **with plates and other illustrations (printed by Luzac & Co. London,** 1927 **- Kessinger Publishing Rare Reprints www.kessinger.net) said in page 3:**

(the "Cadmean Phoenician" is the immediate parent of our modern English and European alphabet. The name "Cadmean" was applied to it by the early Greeks after its introducer, King Cadmus The Phoenician of Tyre).

But whether Sumero-Phoenician is Aryan (as Dr Waddell thinks), or Semitic or Hamitic (as others think) is a matter of speculations. Indeed, Dr Waddell himself said on the same last page of quotation. (*The earliest-known instances of reversed or "Semitic" (or rather, according to the Hebrew nomenclature, Hamitic*). **Perhaps, the proximity and the strong relationship of Sumero-Phoenician language to the Arabic language might have deterred the biased Eurocentric westerners not to attribute their language to the Arabic Asian Semite origin (relating to Sam or Sham, the son of Noah). However, such Europeans should find some consolation in the First Chapter which, revealed that the Arabic language was in fact, the mother language of Adam on Earth, right from the very beginning, and long before the coming of Noah and his sons, i.e. the Arabic was the mother-tongue the first global village.**

English Love of Abridgement & Acronyms [1]

Slack pronunciation makes an Englishman talk comfortably even with a pipe in his mouth, whereas a foreigner must first remove anything that obstructs his vocal efforts. In such a word as pardonable, only the first syllable is uttered distinctly, the others petering out in a vague murmur. Therefore, contraction of long words is common, e.g. to make halfpennyworth into ***haporth*** and God be with you into ***good-bye***, or to clip off unstressed syllables, as in ***sport*** for the older disport or ***raiment*** for the older arrayment. Also deliberate use of only the first or last syllable of a word is common, e.g. ***van***, which stands for both ***vanguard*** and ***caravan***; the quite modern ***mike*** for microphone and ***tote*** for totalizator. Where a long word does not easily contract, English often substitutes a shorter one, e.g. most people call a telegram ***a wire***, and ***hunch*** tends to supplant premonition or intuition. English people leave sentences unfinished, feeling that that was satisfactory for intelligent listener, e.g. ***for the duration, that depends, not an earthly, Well! I never!; or 'loitering with intent'.***

As for the **acronym**, an abbreviated word of first letters of the words of a long phrase. Examples are:

Loran, long range aid to navigation

Laser, light amplification by stimulated emission of radiation

Radar, radio detecting and ranging

Most of English nouns can be used as adjectives, as in gold watch, stone wall, field sports recreation ground. Almost peculiar to English are such compound **epithets** as a ***matter-of-fact man, an up-to-date idea, a never-to-be-forgotten kindness.***

Word-Making and Word-Makers

When William Caxton started printing in England in 1476, he had to deal with a language compounded of 3 elements, native, French and Latin. It was the East Midland dialect spoken in Cambridge and London and, to some extent in Oxford, which eventually became standard English. Education continued to be based almost entirely on Latin and the diffusion of books in English was slow and scanty. The scholarly still regarded Latin as the proper vehicle of literature. Sir Thomas More's ***Utopia*** was published in Latin in 1516 and not put into English till 1551. In 1620, four years after Shakespeare's death, Bacon had so little confidence in the English language that he wrote his Novum Organum in Latin and the great Sir Isaac Newton still followed his example towards the end of the century. An exception was the circulation of the Bible in English.

There must have been a certain amount of word-making in the Middle Ages, but it remains anonymous, while, beginning with the period of the Renaissance and the Reformation, we can watch the word-makers at work, from Coverdale and Tyndale's Bible onwards.

Coverdale gave us such expressive compounds as ***bloodguiltiness, kindhearted, lovingkindness, tender mercy.*** Tyndale gave us ***long-suffering, broken-hearted, stumbling-block, filthy lucre, mercy-seat*** and even such a necessary word as ***beautiful***, while his ***scapegoat***, though possibly a mistranslation, is now indispensable.

The other great contributor to English vocabulary and phraseology is Shakespeare, whose influence on English has no parallel in language history. An immense number of words were first recorded in Shakespeare's work (see below). Between **English Bible and Shakespeare** comes Spenser, "the poets' poet". His language is a rather artificial medley; he was an enthusiastic admirer of Chaucer, "well of English undefiled", but was also much influenced by the great Italian and French poets of the Renaissance. He constructed a picturesque vocabulary to which poets of the Romantic period often turned for inspiration. He invented the words: ***blatant*** and ***braggadocio***, possibly also ***elfin***, and was the first to imitate the Greeks by calling the ***dawn rosy-fingered***.

More recent coinages are Huxley's ***agnostic***, Galton's ***eugenics*** and Shaw's ***superman***. Scientific invention and discovery have necessitated much word-making, usually from Greek materials. Such words as ***photograph, dynamite, cinematograph, Neolithic***, etc. explain themselves immediately to any one has a smattering of Greek.

However, England had to wait until the dawn of the seventeenth century, 1604 to get its own dictionary. This represents the first indication of a challenge to the rest of Europe as it was 8 years ahead of the first Italian dictionary, and 35 years before the French. Although, to put it in a rather longer perspective, **it was 800 years after the first Arabic dictionary and**

nearly a 1000 years after the first Sanskrit dictionary in India. The word *'dictionary'* is first used in its Latin form, *'dictionarius'*, around 1225 In many ways a dictionary is particularly well suited to the English language, a language that has absorbed so many others.

The first English dictionary was put together in 1604 by Robert Cawdrey. He called it ***The Table Alphabeticall*** - the only surviving copy - is in the Bodleian Library in Oxford. It is a small, slim volume, about the size of the palm of an average hand. It is a list of English words, mainly though by no means wholly, of Latinate origin, with a brief explanation of the meaning of each. So the first word in this first dictionary is ***'abandon'*** - 'cast away or yeelde up, to leave or forsake'. ***Maladie'*** is 'a disease', ***'summarilie'*** is 'briefly' or 'in fewe words'. ***'Argue'*** is 'to reason' and ***'geometrie'*** is 'art of measuring the earth'. ***'Elegancie'*** is 'finesse of speech' and ***'empire'*** is 'governement or kingdome'. ***'Quadrangle'*** is 'foure-cornered' and ***'radiant'*** is 'shining or bright'. There are only 2543 words in this dictionary. It was a meagre word-hoard but a first attempt at a collection. More than anything, this little book was a recognition of the new status of the English language. Cawdrey intended his dictionary to be used by those who might not understand words 'which they shall heare or read in Scriptures, Sermons or elsewhere'. This was not a book for scholars.

1. Protestant Reformation and story of The English Bible[3]

To replace that Latin with English it would be a formidable struggle to wrench that power from the priests. This is a time of martyrdom and high risk, of daring, scholarship and above all a generous and inclusive belief that the word of God should be in the language of the people. The battle would eventually tear the Church in two, an inconceivable outcome when the first rumblings began in the second half of the 14th century. It would claim many lives. But many were ready to die for it, to make English the language of their faith. Thus, the role of English was given impetus by the Protestant Reformation, which placed a religious duty of literacy on all, and provided national texts for the purpose: the vernacular Bible and Prayer-Book [5].

The prime mover in the 14th century was a (pro-protestant) scholar, **John Wycliffe**, probably born near Richmond in Yorkshire, admitted to Merton College, Oxford, when he was 17, charismatic and a fluent Latinist. He was a major philosopher and theologian who believed passionately that his knowledge should be shared by everyone. From within the sanctioned, clerical, deeply traditionalist honeyed walls of Oxford, Wycliffe the scholar launched a furious attack on the power and wealth of the Church, an attack which prefigured that of Martin Luther more than a hundred years later.

His main argument was to distinguish the eternal, ideal Church of God from the material one of Rome. In short, he maintained that if something is not in the Bible there is no truth in it whatever the Pope says - and, incidentally, the Bible says nothing at all about having a Pope. This was inflammatory and cut away the roots of all established authority, especially as he and his followers like John Ball coupled this with a demand that the Church give away all its worldly wealth to the poor. The Church saw no option but to crush him. For Wycliffe went even further. He and his followers attacked ***transubstantiation,*** the belief that, administered by the clergy, ***the wine and bread turn miraculously into the blood and body of Christ***; he attacked clerical ***celibacy***, which he thought of as an institutional control system over the army of the clergy; he attacked ***enforced confession***, the method, Wycliffe argued, by which the clergy could trap dissidents and check errors in thought; and ***indulgences***, the purchase of

which were said to bring relief from purgatory but also brought wealth to the Church; *pilgrimages*, as a form of idolatry; and **mystery plays**, because they were not the word of God. Wycliffe took no prisoners.

His prime and revolutionary argument, one which, if accepted in any shape or form would have toppled the Church entirely, was that the Bible was the sole authority for religious faith and practice and that everyone had the right to read and interpret scripture for himself. This would have changed the world and those who ruled the world knew it. He was to become their prime enemy. It is ironic that his main arguments had to be written in Latin - the international language of scholarship and theology - though there are English sermons by him and his followers.

A full Bible in English was unauthorized by the Church and potentially heretical, even seditious, with all the savage penalties including death which such crimes against the one true Church exacted. Any translation was very high risk and had to be done in secrecy in Oxford colleges.

The Bible, through English, now called out directly to the people. This could not be tolerated. On 17th May1382 in Blackfriars in London, on a site now boasting a Victorian public house whose tiled decor remembers Wycliffe's time, a synod of the Church met to examine Wycliffe's works. There were eight bishops, various masters of theology, doctors of common and civil law and fifteen friars.

It was a show trial. Their conclusions were preordained and on the second day of their meeting they drafted a statement condemning Wycliffe's pronouncements as outright heresies. Wycliffe's followers were also condemned. The synod ordered the arrest and prosecution of itinerant preachers throughout the land. Many of those caught were tortured and killed. Perhaps most significantly of all as far as the English language is concerned, the synod led, later, to a parliamentary ban on all English-language Bibles and they had the powers to make this effective. Wycliffe's great effort was routed. He had taken on the power of the Church and he had been defeated. His Bibles were outlawed. The doors of the Church, from the greatest cathedrals to the lowliest parish churches, were still the monopoly of Latin. On 30 May, every diocese in the land was instructed to publish the verdict. Wycliffe became ill. He was paralysed by a stroke. Two years later he died on the last day of 1384.

After Wycliffe's death and despite the condemnation and harshness of the Church, copies of Wycliffe's Bible continued to be produced and circulated - even when it became a mortal crime to own any of Wycliffe's works. With astonishing courage, Catholics who spread the English language were prepared to defy the Pope and take a chance with their lives and their eternal souls in order to read the word of God to the English in their own language. But the hierarchy could not bear it. In 1412, twenty-eight years after Wycliffe's death, the Archbishop of Canterbury ordered all of Wycliffe's works to be burned and in a letter to the Pope entered a list of 267 heresies 'worthy of the fire' which he claimed to have culled from the pages of Wycliffe's Bible. He is quoted as having said, 'That wretched and pestilent fellow, son of the Serpent, herald and child of Antichrist, John Wycliffe, filled up the measure of his malice by divining the expedient of a new translation of Scripture in the mother tongue.'

For reasons sincere and cynical, Latin was held to be the language of the Holy Book and ever more must be kept inviolate. Wycliffe had threatened the very voice of the Universal Church of the One Invisible God. It is a terrible example of the power in language.

The Church was not finished with him yet. The Emperor Sigismund, King of Hungary, called together the Council of Constance in 1414. It was the most imposing council ever called by the Catholic Church. In 1415 Wycliffe was condemned as a heretic and in the spring of 1428 it was commanded that his bones be exhumed and removed from consecrated ground. The Bible remained in Latin and Wycliffe's failed attempt was an implacable and damning lesson to anyone foolish enough to attempt to mount another unholy attack on the side of English. Wycliffe's remains were burned on a little bridge that spanned the River Swift which was a tributary of the Avon.

William Tyndale's Bible

The 2 great names connected with the English Bible are William Tyndale anc Miles Coverdale, both of whom worked in exile in Germany. Tyndale translated from Greek and Hebrew texts, Coverdale from Latin and from Luther's German version. Tyndale excelled in accuracy and vigour, while Coverdale is more graceful and musical. The Authorized version is almost entirely based on Tyndale, while to Coverdale's translation English Bible owe the Prayer Book version of the Psalms.

Early in the reign of Henry VIII, the new king was still promising the Pope that he would burn any 'untrue translations'. By these he meant Wycliffe's Bible which, despite all the efforts of the court and the Church, was still relentlessly circulating in the land in hand-copied editions.

Henry VIII set his powerful and efficient Lord Chancellor, Cardinal Wolsey, to hunt down heretical books. Wolsey, aware that Martin Luther had shaken the Roman Catholic Church in 1517 with the demands he had nailed on the church door at Wittenberg, and as anxious as his master to please the Pope, instituted a nationwide search. On 12 May 1521, a bonfire of confiscated heretical works was made outside the original St Paul's Cathedral. The flames, it was said, burned for two days. The great book-burning was clearly a foretaste of what could and would happen to those who insisted on challenging the Pope's authority. This was the year in which William Tyndale began his public preaching on St Austen's Green and set out on the path which was to bring about a radical change both in the English language and in English society.

It is not always easy to fully comprehend or even imagine what was at stake. It was a great power battle. The reach of the Roman Catholic Church across many countries, states, principalities and peoples was unique. It was wealthy and a sought-after ally in war. It demanded obedience through its monopoly of the one true faith. Its parish priests covered almost every acre of ground, heard confessions, had the power to absolve sins, enforced attendance at church, the paying of Church taxes and conformity with the Church's rulings, on all matters of public and of private morality; even sex was a Church matter. Above all, and key, the Church had unique access to God and so to eternal life. Only through the Roman Catholic Church could anyone contact God and have any chance of resurrection.

Wycliffe, Luther and ***Tyndale*** challenged that. They wanted ordinary people to have direct access to God, and a Bible in the language of the people was the way to make that happen. The battle over language became outright rebellion against the Roman Catholic Church as the gatekeeper to God, the claim to be His sole representative on earth, whose earthly laws all Christians must obey every bit as much as they obeyed the laws of heaven. This had proved intolerable to different groups over the centuries and now the river of protest

was swelling. The rebellion was led by deeply religious men and women. They too believed in the virgin birth, in the divinity of Christ, above all in the Resurrection. They were light years away from atheism or even agnosticism. They wanted the souls of the people to be saved but not through orders and sermons handed down from a central Latinate control in Rome for whose authority they found no evidence in the Bible. And to the rebels, the fate of the soul was the most vital matter in life: it was worth dying for.

Centuries later there would be those who would feel much the same about liberty, but even they could not have been more zealous, even fanatical, more totally convinced of the rightness of their cause as men such as William Tyndale were of theirs. After all, Tyndale was doing no less than serve the one true God, the maker, of all things, the Creator, the Almighty, the giver and taker of life, the judge of all men and women. There could be no greater service in life than to do His work.

To Tyndale, English was, in effect, the way in which God could best reach the people of that language and the way in which they could best reach Him. The fight for the English Bible was a battle for salvation through the scriptures.

Like Wycliffe, Tyndale was an Oxford classical scholar and like Wycliffe he wholly contradicted the idea that such a scholar who was also, as Tyndale was, an ordained priest, was fated to be a mild, place-seeking conformist. Tyndale took risks and lived a life comparable to that of any twentieth-century revolutionary 'hero', and met an end worse than most of them. It is interesting that the large household in Gloucestershire in which he was tutor was owned by a wealthy family, a new breed of successful wool merchants who called themselves 'Christian Brethren', politically safer name, and they appear to have been happy secretly to fund Tyndale's plans. This quality of support so early in his life must have given Tyndale any extra encouragement he might have needed.

But like Wycliffe, he appears to have been a man totally driven by an idea. In 1524, at the age of thirty, William Tyndale left England to pursue his work outside the repressive spy-state set up by Henry VIII and Cardinal Wolsey. He would never return. He met Erasmus and later Luther the two key men in the movement towards what became Protestantism. He settled in Cologne and began single-handedly to translate the New Testament not from Latin but from the original Greek and Hebrew. It was this, no doubt, coupled with Tyndale's genius for language, which made his translations so telling and memorable.

Two years later, 6,000 copies had been printed abroad - evidence of the substantial nature of the patronage Tyndale must have received from the wool merchants of Gloucestershire, and of the speed and efficiency of print. The new Bibles were packed and sent to the coast ready to be smuggled into England. Yet again English comes to England from across the sea, this time written English, some of the most sublime ever put on paper. But Henry VIII and Wolsey's spies informed them of this invasion. It now seems quite extraordinary, but the whole country was put on alert. In order to prevent the word of God in English landing in the land of the English, naval ships patrolled the coastal waters, boats were stopped and searched, men were arrested and a great many Bibles were intercepted. The action taken was indistinguishable from being on a war footing and to Henry VIII and Wolsey it was just that. Latin was the only word of God allowed by the state and now the state came out in full armed force to defend its most loyal ally, the Church.

At first tens and then hundreds got through the lines. The Bishop of London then tried another tack: he sought to buy the entire print run through an intermediary.

'O he will burn them,' Tyndale is supposed to have said when he heard of this. 'I am the gladder,' he went on, 'for these two benefits will come thereof. I shall get money of him for these books to bring myself out of debt and the whole world shall cry out upon the burning of God's word.' And that is what happened. The bishop bought and burned the books and Tyndale used the money to rework, prepare and print a better version, as it were at the Church's expense.

Before long, England was ablaze for Tyndale's Bible, this time on fire to read it. Thousands of copies were smuggled in. In Tyndale's own happy phrase, 'the noise of the new Bible echoed throughout the country'. Produced in a small pocket-sized edition that was easily concealed. Tyndale spent his life on the run. Constantly hounded by Catholic spies he moved secretly around the Protestant-sympathising lands of northern Europe. In 1530, Old Testament was translated and printed in Antwerp. It was in Antwerp that Tyndale became friendly with 2 Englishmen. They were hired assassins. They trapped him and took him to Vilvorde Castle where he was imprisoned in the dungeon. He continued writing phrases poignantly and heart-breakingly, like: 'a porphet has no honour in his own country', 'a stranger in a strange land', and 'let my people go'. But in April 1536 Tyndale was found guilty of heresy by a court in the Netherlands. The way they chose to kill him was to strangle him, to cut him off at the voice which they did on 6 october 1536. Finally his body was burned at the stake. It is said that his last words were: 'Lord, open the King of England's eyes!'

Two years before Tyndale's execution, Henry VIII, who had earlier been given the title 'Defender of the Faith' by Pope Leo X for denouncing Luther's ideas, had left his wife Catherine and secretly married his pregnant mistress Anne Boleyn. A new Pope, Clement VII, threatened him with excommunication. In 1535, Miles Coverdale, using Tyndale's text wherever possible, published a complete Bible dedicated to the king, the first legal Bible in English. That was a year before Tyndale's execution. Needing allies, Henry entered negotiations with some Lutheran princes in Germany in 1536, the very year of Tyndale's execution, but there is no record of him giving a thought to the man whose words would now help him seal a hold on a new Protestant England. In 1537, the Matthew Bible – an amalgam of Coverdale's and Tyndale's – was allowed to be printed in England. In 1539 we have the Great Bible – the official version. Now with the split from Rome, English conquered the last and highest bastion, the Church. The English language flowed into religion. It was a principle of Protestantism that the Bible be available to everyone. By the beginning of the 17th century there were so many competing versions that 750 reformers from within the Church of England requested James VI of Scotland, who become James I of England, to authorize a new translation. So 54 translators were chosen from the church and the universities to produce an edition which took 5 years and it is said that Tyndale's words and phrases influenced between 60-80% of the King James Bible of 1611, and in that second life, his words and phrases circled the globe. This official Bible is a tremendous endeavour and makes the achievement of Tyndale appear all but superhuman.

2. Shakespeare's contribution to English Language[3]

Shakespeare was born in Stratford-upon-Avon in 1564 His father, John, was a glover; his mother, Mary Arden, came from a farming family. He was the eldest of three sons and four daughters and was educated locally until he was fifteen or sixteen. What happened to him

until he landed in London in around 1591 is unclear, save that in 1582 he married 'Anne Hathaway' (he was 18) and they had 3 children. Did he work for his father? Was his father secretly a Catholic which was extremely dangerous under Protestant Elizabeth with all the Popish plots against her? All this is unclear. Indeed, many aspects of Shakespeare's life and family are not known. What we know is that his principal teacher in the local grammar school was part of a Catholic circle which shadowed Stratford. At the beginning of the 1590s he arrived in London as an actwriter. Shakespeare was honey-tongued. Most scholars today attribute ***38 plays, 154 sonnets and other major poems to Shakespeare.*** He brought us characters who describe those we know: Falstaff, Kate, Polonius, Iago; figures from history, more memorable than their 'true' historical counterparts: Richard III, King Lear; dramas and plots still produced and as dramatic today: Macbeth, Othello, Hamlet. You can scale Shakespeare by many routes; here we concentrate on his contribution to English. ***Well over 2000 of our words today are first recorded by him, either plucked out or invented by him.***

Although he may or may not have invented them, the words ***'obscene', 'accommodation', 'barefaced', 'leap-frog', and 'lack-lustre'*** are just a few of those which make their first appearance in his work. Other words that make their first appearance include ***'courtship', 'dextrously', 'indistinguishable', 'premeditated'*** and ***reliance'***. Over 400 years ago, Shakespeare had a vocabulary of at least 21,000 different words; some have estimated that with the combination of words, this could have reached ***30,000***. Comparisons are entertaining; the King James Bible of 1611 used about ***10,000*** different words. The average educated man today, (more than 400 years on from Shakespeare) with the advantage of the hundreds of thousands of new words that have come in since his time, has a working vocabulary of less than half that of Shakespeare.

An immense number of words were first recorded in Shakespeare's work; examples are: **aerial, bump, countless, dwindle, eventful, fitful, gnarled, hurry, lonely, monumental.** He is even the earliest authority for ***blood-stained***. Among his creations are such wonderful epithets as ***fancy-free, ill-starred, proud-pied*** (used in describing April), ***cloud-capped*** (towers), ***heaven-kissing*** (hill), ***lackluster*** (eye), while Shakespearian phrases now form an integral part of our everyday vocabulary, e.g. ***"the mind's eye", "caviare to the general", "a pound of flesh", "the bubble reputation", "a tower of strength", "yeoman's service", "to the manner born", "not wisely but too well", "by flood and field", "to wear one's heart upon one's sleeve".*** From Hamlet alone it would be possible to enumerate some 50 such expressions, and many a man who has never read a line of Shakespeare quotes him unconsciously every day. Shakespeare coupled words making compound words, such as **ill-tuned**, ***baby-eyes,*** and ***smooth-faced.*** If the stature of a writer depends on his quotability then Shakespeare appears to be unmatchable. ***'To be or not to be, that is the question'*** is known around the world. It is probably the best known quotation in any language ever.

Word-Borrowing

1. Renaissance of Words[3]

England had indeed a famous victory (against the Spanish Armada), blessed by some luck, over a much superior enemy. And English had a famous escape. For Spanish too was a marauding and conquering language.

After 1588, the naval effectiveness of the comparatively small island grew even stronger and opened up the world to trade. This brought a massive injection into the language. As England imported a huge cargo of goods, English imported a huge cargo of vocabulary. Another 10,000 - 12,000 new words entered English in this Elizabethan and Jacobean period and delivered a new map of the world and new ideas.

At the time of the Spanish Armada, England was well behind other European powers in the reach of its colonial conquests and English inevitably lagged badly in the influence it exerted abroad. Portuguese had already made its mark in Brazil and was biting deeply into southern America; Spanish had been spoken in Cuba and Mexico for more than half a century and Spain was taking its trade, its religion and its culture and its language all around the New World.

Over 800 years earlier, **Arabic** had raced through the Middle East and North Africa and could still be called an ***imperial language***, while Hindi was comfortably establishing itself as a vernacular if not a literary language throughout the populous Indian region (Arabic was the literary language). On a very much smaller scale during the sixteenth century, English had begun to spread more widely to parts of Wales, Scotland and Ireland. Yet even in its more limited scope, English showed its voracity for new words and its power to enfold them almost instantly into the mother language. When English sailors encountered new foods and fruits and barrelled them up to try their luck in the riverside markets of England, they brought the names or an Anglicization of the original names with them: ***'apricots'*** and ***'anchovies'*** from or via Spain and Portugal. ***'Chocolate'*** and ***'tomato'*** from French; though, a good example of the melting pot of language, ***'tomato'*** could also be from the Spanish. About fifty other languages joined the cargo of new words brought back in this period and swiftly integrated into English. In some cases there was an intermediary language. The language of the Renaissance bristled with imported words. ***'Bamboo'*** (Malay); ***'bazaar'*** (via Italian) and ***'caravan'*** (via French) both Persian; ***'coffee'*** and ***'kiosk'*** (Turkish via French); ***'curry'*** (Tamil); ***'flannel'*** (Welsh); ***'guru'*** (Hindi); later there would be ***'harem'*** and ***'sheika'*** *and* ***'alcohol'*** (Arabic); ***'shekel'*** (Hebrew); ***'trousers'*** (Irish Gaelic). Off they went, English ships all over the world, trading in goods, looting language. But this game or addiction was not confined to men on ships. It was a time when English artists, scholars and aristocrats began to explore Europe. Their preferred destination was Italy, the dominating culture of the time. There they were awestruck by the architecture, the art, the music, and brought back words which described what they saw and once again provided a platform for new ideas, in this case ideas about a cultural explosion, which England so far had heard mostly from an islanded distance. But back they came, flashing off their purchases from abroad: ***'balcony'***, ***'fresco'***, ***'villa'*** *(from Latin)*, ***'cupola'***, ***'portico'***, ***'piazza'***, ***'miniature'*** and ***'design'*** - all from Italian - as are ***'opera'***, ***'violin'***, ***'solo'***, ***'sonata'***, ***'trill'***, ***'cameo'***, ***'rocket'*** (which could also be French) and ***'volcano'***; ***'soprano'*** and ***'concerto'*** came later.

The Renaissance was a time when scholarship, the arts and intellectual pursuits in many areas were re-energized basically by the rediscovery of the classical past, much of it transferred to western Europe by **Arabic genius scholars and their original works and textbooks including inter alia Arabic translation of Greek books**. Arabs injected English with new words in relation to Science, Medicine, Education, Trade, and to the refined aspects of life, as well as words related to food, cooking, and Arabic Cuisine. Indeed, without Arabs, the European Renaissance could never happen in the first place, and if it theoretically had

taken place without them, it would have been hollow, if not baseless. Science was once more of legitimate concern and as new worlds were discovered on the planet so new words were discovered above, inside and around the planet. Medicine too awoke in Europe from the sleep of over a thousand years. It was to Latin and Greek that the scholars often went to initiate their studies and it was to these ancient languages they went to describe what they found. From Latin, or from Greek via Latin, we borrowed ***'concept'*** and ***'invention'*** and ***'technique'***.

A closer look at the words borrowed from Latin and Greek in the developing area of medicine gives us a snapshot of the time. So successful was the classical branding of medical terms during the Renaissance that it has gone on ever since. Among the hundreds of words that arrived from Greek via Latin were ***'skeleton'***, ***'tendon'***, ***'larynx'***, ***'glottis'*** and ***'pancreas'***. From Latin. English also inherits ***'tibia'***, ***'sinuses'***, ***'temperature'*** and ***'viruses'*** as well as ***'delirium'*** and ***'epilepsy'***. Also ***'parasites'*** and ***'pneumonia'***, even our ***'thermometers'***, ***'tonics'*** and ***'capsule'*** are all words of classical origin. We talk of our bodies in ancient tongues.

2. Word-Borrowing from the World at Large (Explorations and Colonization)[1]

In addition to the 3 main sources dealt with, English language has borrowed words from all over the world, beginning with the Hebrew contribution from the Bible, e.g. ***cherub, Sabbath, shibboleth***, and the scientific terms which we owe to the Arabs, who were the great preservers of science during the Middle Ages, e.g. ***alchemy, algebra, zenith, zero.***

The hospitality of English to foreign words has often commented on; indeed, borrowing is the characteristic method whereby English expands its vocabulary, something which marks English off from its near-relatives such as German [5]. From about the period of the Renaissance, European travel became the fashion and the chief country visited in making the 'grand tour' was Italy from which English took a host of words dealing with music, art and architecture. The Spanish element in English gives a clue to English struggle with Spain and the conflict for the wealth of the New World, while from Holland English has taken, as might be expected, seafaring words and part of English vocabulary. Some European borrowings have made long journeys to reach us, e.g. ***boss*** (governor) has crossed the Atlantic twice on its way from Holland to England; and the Portuguese ***cobra*** and ***padre*** were picked up in India. Accident may give sudden popularity to a word, e.g. **bosh** (worthless), a Turkish word in common use, occurs frequently in an Oriental story 'The Adventures of Hajji Baba of Ispahan' by Morier (1834); ***mascot*** dates from Andrane's operetta, La Mascotte (1880); and the Czech ***robot*** from Karel Capek's play 'Rossum's Universal Robots (RUR)', produced in London in 1923.

The story of English from 1500 AD onwards is one of constant growth. Explorers discovered new lands, containing new plants ***(potato, tomato, tulip)***, new animals ***(hippopotamus, giraffe, kangaroo)***, new foods and drinks ***(tea, coffee, rum).*** Thinkers rediscovered Greek words and ideas ***(democracy, aristocracy, equator)***. Religious reformers needed new words for new concepts ***(transubstantiation, mystical, agnosticism).*** And finally, the great artists and scientists added word after word as their experiments led them into new dimensions of thought. It is interesting to note the first usages of words, as they record the very growth of human consciousness. ***'Evaporate'*** was first used in 1545, ***'vacuum'*** 1550, ***'parabola'*** 1579, ***'skeleton'*** 1578, ***'mosquito'*** 1583, ***'laboratory'*** 1605, ***'atmosphere'*** 1638, ***'gravity'*** 1641, ***'microscope'*** 1656, ***'stalagmite'*** 1681. The large Oxford English Dictionary

gives thousands of 'firsts' like these. There are many surprises, for example: the word ***'agnostic'*** was 'invented' one evening in 1869 by the Victorian thinker, T. H. Huxley[2].

With the exploration of the world, English has acquired an immense number of words, mostly the names of strange animals and products, and unlike the South African Dutch, who made up their own names for animals and flowers (whence such words as springbok), English has taken them ready-made from the natives. The consequence is that English dict onaries contain a very much larger number of exotic words than those of other countries. English collection of Indian words, especially, is very large and contains many terms so fami iar that English people hardly think of them as foreign, e.g. ***bungalow, cot, loot, pyjamas, toddy***. The Red Indian ***totem*** and the South Sea Island ***tabu*** have supplied useful terms to anthropologists; the Australian ***boomerang*** has given us an effective metaphor; from Chinese we have translated the expression ***'to save one's face'*** and ***nirvana***; from India expressions that expresses what cannot be expressed otherwise.

With geographical explorations, we also have ***maize, potatoes*** and ***cannibals*** from 'Indian' languages. 'Cannibals' came from the alternative version of the name for the Carib people; they were also called 'Canibales' and legendary for their ferocity and their ruthless treatment of captives. The Carib language gave English ***'cayman'***, ***'curare'*** and ***'peccary'*** amongst much else. And from the other main local people, the Arawaks, English took ***'hurricane'*** (as well as ***'maize')***, ***'guava'***, ***'hammock'***, ***'iguana'*** and ***'savannah'***. From Haiti ***'Canoe' and 'potato'***. But once out of the seas to the west, English looted every ship of tongues it encountered. From Nahautl, Aztec and Mexican came ***'chocolate'***, ***'chilli'***, ***'avocado'***, ***'cocoa'***, ***'guacamole'***, ***'tamal'***, ***'tomato'***, ***'coyote'***, ***'ocelot"***, ***'Mescal'*** and ***'peyote'***; many of these indirectly through other European languages. It was the Spanish who conquered Peru but English was soon in there, capturing ***'condor'***, ***'llama'***, ***'puma cocaine'***, ***'quinine'*** and ***'guano'***. The languages of Brazil, like Tupi and Guarani, are the original source of ***'cougar'***, ***'jaguar'***, ***'piranha'***, ***'macaw'***, ***'toucan'***, ***'cashew' and 'tapioca'***. English was a huntergatherer of vocabulary, a scavenger on land and sea. The English sea dog became a popular hero especially when he was annoying the Catholic King of Spain, who had put a price on the head of Elizabeth. Piracy was patriotic. ***'Freebooters'***, they were called, ***'filibusters'*** (sixteenth century) and ***'privateers'*** and the ***'old sea-dogs'*** (seventeenth century). ***'Cutlass'*** was a century earlier, the ***'Jolly Roger'*** a century later, but robbery with violence on the high seas had a good press back in Britain and the word -***'buccaneer'*** is another - had a chauvinistic swagger about them [3].

English settlement began in Bermuda in 1609, and reached the Caribbean in 1624 when Thomas Warner and 12 companions settled in Sandy Bay, St Kitts. In 1626 the first African slaves arrived in St Kitts, which was the first place where the British followed the example of the other European nations and systematically exploited slave labour. To begin with, ***tobacco*** was the crop. ***Sugar*** proved to be much more profitable - sugar needed more labour; the slave population grew and into the crushed but not wholly eradicated native tongues of the West Indies, soon to be spliced and mated with the European implants, came the invasion of African languages. Even by the end of the sixteenth century, the Africans outnumbered the Europeans and the African population grew massively in the next century.

Racism and Snobbery in English Language[1][3]

English was a language divided into various dialects, often showing great differences of vocabulary and pronunciation. Perhaps, the superiority of French elite (after Norman conquest) and their snobbish attitude in the dissociation from their inferior Anglo-Saxon natives and peasants had influenced a snobbish course in the English language. Laterly, the triangle between Cambridge, London and Oxford became the classical representative of English language, a King's or Queen's language. Perhaps, snobbery produced the slack pronunciation of an Englishman talk as if there is a marble in his mouth, to reflect his superior status over others. Inside Britain, English snobs used to stratify people according to their linguistic accent and thus easily marking them as being Scottish, Welsh, or Irish and regard them as somewhat inferior to themselves. Outside Britain too, with the building of British Empire, colonial mentality developed, and with English language rapid growth, racism emerged. Power play, snobbery and cherished distinctions in style, in class, in accent have played an entertaining role in the adventure of English. *'**Speak as we speak or you will show that you are inferior**'* has been a refrain of the controlling elite throughout languages.

Racism has to make other groups inferior. Racial denigration is always a demonstration of power, an attempt at total control, the use of language to stave off fears, reinforcing ignorance with prejudice. In what is often described as the first English novel - ***Robinson Crusoe***, Daniel Defoe's shipwrecked Crusoe encounters a black native who has been put on the island as a punishment and expected to die. Crusoe relates: 'I understood him in many Things, and let him know, I was very well pleas'd with him; in a little Time I began to speak to him and teach him to speak to me; and first I made him know his name should be *Friday*, which was the Day I saved his life; I call'd him so for the Memory of the Time; I likewise taught him to say *Master*, and then let him know, that was to be my Name; I likewise taught him to say, Yes and No and to know the Meaning of them.'

It is a paragraph exceptionally rich in pickings - there is the saving of life and the use not of force but of language, which is seen as the method of control; and that first word '***Master***', a word will tormented so many slaves for certain. But Master it was, in 1719, and in some ways that word alone sets the scene for the next 200 years.

Nigger is in many places now thought the most unsayable word on the planet. No matter that it has a neutral history, that it comes from the word for the colour black in Latin and then in French, adopted by English, 'nigger' carries the lash of a plantation whipping. So was '***wog***', supposedly an acronym for *'worthy' (or 'wily') oriental gentleman'*, an offensive word describing a non-white foreigner; ***'sambo'***, from Spanish 'zambo' offensive fro Mowallad, from a black father and white mother or vice versa, i.e. meaning a person of mixed Indian and African descent; ***'coolie'*** from the Tamil offensive word for 'a hired person usually Indian or Chinese emigrated under contract to a foreign country'; ***'kaffir'*** from the Arabic word for 'infidel'; ***'dago'*** from the Spanish 'Diego', offensive meaning a man of Spanish, Portuguese or Italian origin; ***'frog'***, applied first to the Dutch and then to French, as a contemptuous name for frog-eating frenchmen. '***Savage***' is indiscriminate. ***'Kaffir'*** was used to insult the British in India before English absorbed it as an insult-word in South Africa. '***Barbarian***' - commonly used, like 'savage' - can be traced back to the Greek word for stammering and used by the Greek to describe and laugh at the sound of languages other than their own.

Today and beyond [1] [2] [3] [5]

John Adams, the second President of the United States, wrote a letter in 1780: ***'English is destined to be in the next and succeeding centuries more generally the language of the world than Latin was in the last or French is in the present age. The reason of this is obvious, because the increasing population in America and their universal connection and correspondence with all nations will, aided by the influence of England in the world, whether great or small, force their language into general use, in spite of all the obstacles that may be thrown in their way, if any such there should be*** '. It may have read then, and read now, as an exuberant boast; but he was right. Adams took the English language into the destiny of America not unlike Henry IV and Elizabeth I had done in England itself. The plain speaking of English would underpin the American democratic ideal. It was no longer the King's English, it was the people's English. He even attempted to set up the first public academy for refining and improving English but it never got going. Liberated Americans were enthralled by what their new country could and would do with what they now saw as 'their' language. **Noah Webster** wrote: ***'North America will be peopled with a hundred millions of men, all speaking the same language... the people of one quarter of the world will be able to associate and converse together like children of the same family.'*** This visionary Noah Webster, was a schoolteacher who wrote a little book, known as the ***American Spelling Book***. It sold in general stores at 14 cents a copy and in its first hundred years it sold 60 million copies, more than any book in America with the exception of the Bible. It is one of the most influential books in the development of English. Webster was not an admirer of the English aristocratic clipped vowel and his classroom drill could have been especially designed to oppose it. He wanted to teach America to spell and this nationwide embrace of spelling shows that they treat their language with care and seriousness[3].

This process of assimilation continues. The English language seems to have an unquenchable thirst for new words. New methods of rapid communication, together with the ever-growing complexities of the ***computer world*** and the ***internet***, are producing virtually an extra new language. Our desks are cluttered with ***faxes, modems*** and ***mouses*** (or ***mice!***). And English has spread throughout the world, becoming what is for all practical purposes an international language. Equipped with even a smattering of English, one can be understood virtually everywhere. This voracious, vital and vibrant language has a fascinating past. The future will certainly see many further changes. It will never stay still.

It is this wealth of vocabulary, combined with the practical use made of it by the national temperament, that makes English the richest, most expressive and most flexible language among all European languages. From the mid twentieth century the English language flooded all over the world until by the year 2000 no one was in any way surprised that a Polish-speaking Pope, the head of a Latin-speaking Vatican, on his arrival in a Hebrew-speaking state, should say in English: '***May this be God's gift to the land that He chose as His own - Shalom.'*** Nor does it surprise anyone that so many of the diplomats and leaders of states at the United Nations are speaking to the world's press in English. And English is the first language among equals at the United Nations, at NATO, the World Bank, the International Monetary Fund. It is the only official language of OPEC, the Organisation of Petroleum Exporting Countries, and the only working language among European languages in the European Free Trade Association. A lateral-thinking way to look at this is to measure the economic strength of different languages. Measured in billions of pounds, Chinese is 'worth'

448 billion, Russian 801, German 1090, Japanese 1277, English 4271 billion. English is also, the buyers' and sellers' language, i.e. the stock language of the market[3].

In conclusion, English, apart from comparatively recent accretions, is a fusion of 3 main elements – Old English (i.e. Anglo-Saxon and Old Norse), Old French and Latin. Through French and Latin vehicles, English is perfused with a plethora of Arabic words and terms much more than Greek words, and perhaps can easily equate if not exceed any one of these 3 contributory elements individually. Although much of the core vocabulary of English is derived from Old English (e.g. hand, head, wife, child, stone, name, man, fish, ride, choose, bind, love, etc); the lexicon in general has been greatly augmented by borrowings from other languages. Scandinavian has affected some of the basic features of the language, such as the pronoun system (e.g. they, their and them) and grammatical system (e.g. the –s endings on some parts of the verb – paradigm in loves etc). Further, some items of core vocabulary are Scandinavian origin (e.g. take, ill, egg, skin). Arabic contribution is extensive despite ignorance (See chapters 3 and 5 of 'Paradise Introduction' and see 'Paradise Dictionary' in its entirety). French has a massive effect on the range of lexical items available in the language[5].

REFERENCES

(+) Readers are referred to the beginning of **Chapter One: Arabic, Language of Paradise And Mother Tongue of Adam on Earth**, with the relevant references.

1. Michael Balcon, WJ Blyton, Richard Church, et al. **English Language and Literature**. New Educational Library, Oldhams Press Ltd. London (Undated), Pp 7-29.
2. David Hilliam. **English Word Origins**. Pocket Reference Books. Bournemouth, 1996. Pp 129-32.
3. Melvyn Bragg. **The Adventure of English (The Biography of a Language)**. Sceptre (Hodder & Stoughton), England, 2003.
4. Melvyn Bragg. **Foreword**. In **The Chambers Dictionary** (New Ninth Edition). Editor-in-chief: Ian Brookes, Editorial Consultant: Catherine Schwarz, Editors: Christina Gleeson, Michael Munro, Megan Thompson. Chambers Publishers, Edinburgh 2005.
5. Jeremy J. Smith. **A short history of English**. In **The Chambers Dictionary** (New Ninth Edition), Editor-in-chief: Ian Brookes, Editorial Consultant: Catherine Schwarz, Editors: Christina Gleeson, Michael Munro, Megan Thompson. Chambers Publishers, Edinburgh 2005.
6. P G Foote and D M Wilson. **The Viking Achievement (The society and culture of early medieval Scandinavia)**. London, published by Book Cub Associates by arrangement with Sidgwick and Jackson Ltd. First edition 1970 and also published on 1974. Pages 107, 191, 198, 200, 201, 399, 408, 412.

☙❋❧

CHAPTER III:

Racism between Two Languages-A Critical Review

Social Darwinism (or Scientific Racism!) between Christian West and Islamic East:

The nation's history and its values are reflected in its linguistic vocabulary. The English language (like the Arabic language) is greatly influenced by its surrounding environment; its history is intimately linked to the history of western culture and its progress throughout various era of history.

Thomas Robert Malthus (1766 –1834), a British economist wrote in 1798 '*An Essay on the Principle of Population'; he saw* such ideas of endless progress towards a utopian society as vitiated because of the dangers of population growth: "The power of population is indefinitely greater than the power in the earth to produce subsistence for man: ***Population, when unchecked, increases in a geometrical ratio. Subsistence increases only in an arithmetical ratio.*** A slight acquaintance with numbers will show the immensity of the first power in comparison with the second". As an Anglican clergyman and Fellow of Jesus College, Cambridge (elected in 1793), Malthus saw that egalitarian societies were prone to over-population, Malthus wrote in dramatic terms: ***"epidemics, pestilence and plague advance in terrific array, and sweep off their thousands and ten thousands. Should success be still incomplete, gigantic famine stalks in the rear, and with one mighty blow, levels the population with the food of the world".*** Malthus criticised the Poor Laws and argued that population was held within resource limits by two types of checks: positive ones, which raised the death rate (hunger, disease and war), and preventative ones, which lowered the birth rate, such as abortion, birth control, prostitution, postponement of marriage, and celibacy (sexual abstinence).

Malthus argued that as an increasing population would normally outgrow its food supply, this would result in the starvation of the weakest – called **Malthusian Catastrophe** (or **Malthusian crisis**). European historians still describe that the Spanish and European colonisation of Americas and the killing of its native people came as a result of Malthusian crisis!!!

While others regarded fertility as an economic advantage, because it increased the number of workers available for work, however, Malthus stood against it because he thought that even though fertility might increase the gross output, it tended to reduce output *per capita.*

He further argued that as the supply of labour increases with the increased population-growth at a constant labour demand, the wages earned would decrease eventually to subsistence, where birth-rate equals death-rate, resulting in no growth in population

Malthus however, assumed a constant labour-demand in his assessment of England, and in doing so he ignored the effects of industrialization, which increased the level of technology and production, causing an increase in labour-demand.

He proposed the gradual abolition of **Poor Laws** by gradually reducing the number of persons qualifying for relief (Relief in dire distress would come from private charity). He reasoned that poor relief acted against the longer-term interests of the poor by reducing the

number of workers and thus raising the price of commodities and undermining the independence and resilience of the peasant. In other words, 'the Poor Laws' tended to "create the poor which they maintain".

He also supported the **Corn Laws**, which introduced a system of taxes on British imports of wheat. He thought these measures would encourage domestic production, and so promote long-term benefit. By encouraging domestic production, Malthus argued, the Corn Laws would guarantee British self-sufficiency in food

Defects of Malthus Theory:

Malthus predicted a population crisis in mid-19 century, but nothing came! The neo-Malthusians in ***The Limits to Growth*** in 1972 predict another crisis, also erroneously.

Furthermore, attempts to limit the human growth by family planning are interventional and can be draconian (e.g. mass sterilization, or China's one-child policy) are often rejected by people naturally. Recently, the phenomenon of ***"feminization of nature"*** (because of the widespread chemical contamination of universe), is becoming an epidemic, resulting in infertility spreading like the plague (see **Deborah Cadbury's: The Feminization of Nature,** Hamish Hamilton (Penguin), London 1997). Furthermore, **the Economist** (Oct/Nov 2009 issue, pages 35-38) published an article on falling fertility and how the population problem is solving itself, reducing the world's numbers from 9.2 billion in 2050 to 8.5 billion. The article made a link between wealthy rich families and lowered fertility, and vice versa; it states that wealth lowers fertility and lower fertility causes wealth. Colonisation of the New World by Europeans driven by Malthusian vision resulted in an **insatiable greed for food, for money, for power, and for domination of the others** (as if it is the birth right of the white superior race – see below). New World Colonization has indeed, resulted in initial annihilation of the Native American population with an acute shortage of working men population, and consequently increased demand for imported African slaves (i.e. many displaced by force from their countries) in order to solve the plantations problems to grow, on a massive scale, various crops of cotton, coffee, tobacco, sugar cane, sisal, various oil seeds, and rubber trees. Millions of slaves were also needed to accomplish colonial industrialization dreams, e.g. construction of Panama Canal alone ended in massive death of 28000 workers (because of yellow fever, malaria, and mudslides).

In fact, the Problem is not the rapid population growth (as Malthusians consider), but in the inequitable distribution among the population. More importantly, good planning results usually in food over-production; in other word, the principal problem lies in the **overproduction and mal-distribution.** The individual portion of food, and indeed the human meals had become much bigger than before; the morbid obesity is now becoming 'epidemic' in proportion. Indeed, the media are more concerned about the mountains of stored butter and cheese, melting away and/or disposed off (e.g. thrown in the sea) in order to fix the commodity prices at a high level, because of market forces: supply and demand. Similarly, there are mountains of grains (wheat, barley, oat), and lakes of milk and honey (not to mention lakes of wine); none of this surplus in food overproduction is being distributed equally at home and/or dispatched to poor countries.

Despite all these defects of Malthus theory, however Malthus had influenced politicians and decision-makers of colonisation of the New World to wage wars as a means of depopulation of the poor race for the advantage of the superior European white race settlers

(enhancing the Euro-centric view of the world). In 1805 Malthus became Professor of History and Political Economy at the East India Company College (now known as Haileybury) in Hertfordshire (His students affectionately referred to him as "Pop" or "Population" Malthus).

Malthusian theory influenced the policy of British East India Company (James Mill, the Governor-General of India - in office 1828-1835, himself was a friend and a great admirer of Malthus). Another distinguished Malthusian was the British Prime Minister William Pitt the Younger (in office: 1783–1801 and 1804–1806), after reading the work of Malthus promptly withdrew a Bill he had introduced calling for the extension of Poor Relief. But more importantly, Malthusian social theory became the canon of socioeconomic theory that influenced the idea of the survival of the fittest, a term coined by anthropologist Herbert Spencer (1820–1903), or "The Gospel of Wealth" theory written by Andrew Carnegie.

Spencer's term **'survival for the fittest'** inspired Charles Darwin, who with his co-discoverer Alfred Russel Wallace propounded their Theory of '**Natural Selection**'. However, when Wallace met Darwin, he gave him the draft of his scientific paper. Although Wallace's first letters to Darwin have been lost, Wallace carefully kept the letters he received. In the first letter, dated 1 May 1857, Darwin commented that Wallace's letter of 10 October which he had recently received, as well as Wallace's paper ***"On the Law which has regulated the Introduction of New Species"*** of 1855, showed that the ***'natural selection'*** was Wallace's idea adopted or plagiarized by Darwin, who attributed it to himself, despite that he initially praised Wallace, claiming that both were thinking alike and to some extent reaching similar conclusions, and said that he was preparing his own work for publication in two years time. Wallace's family, like many Scottish Wallaces, claimed a connection to William Wallace, a Scottish leader during the Wars of Scottish Independence in the 13th century. His advocacy of Spiritualism and his belief in a non-material origin for the higher mental faculties of humans strained his relationship with Darwin and with the scientific establishment, especially with other proponents of evolution.

Spencer's major work, ***Progress: Its Law and Cause*** (1857) was released 2 years before the publication of Darwin's *On the Origin of Species*, and ***First Principles*** was printed in 1860. Conversely, Spencer (a contemporary of Darwin) had later used Darwin's evolution theory in the 1870s, introducing the idea of 'social evolution' in attempt to scientifically formalize social thinking. Spencer applied social evolution to all areas of human endeavour, promoting an optimistic view of the future as inevitably becoming better. Spencer's **'Social Evolutionism'** was later influenced by the **'biological theory of evolution'** to propound the erroneous concept of **Social Darwinism**. Indeed, the 1798 Malthus's work ***An Essay on the Principle of Population*** was incredibly popular and widely read by social Darwinists.

Darwin and Wallace both read and acknowledged the role played by Malthus in the development of their own ideas. Darwin read Malthus' famous ***Essay on a Principle of Population*** in 1838, four years after Malthus' death. Darwin referred to Malthus as "that great philosopher", and said: "This is the doctrine of Malthus, applied with manifold force to the animal and vegetable kingdoms, for in this case there can be no artificial increase of food, and no prudential restraint from marriage". Wallace stated: "But perhaps the most important book I read was Malthus's ***Principles of Population***".

Eugenics, was proposed by Darwin's cousin, Francis Galton, in 1865 and 1869. The word **eugenics** derives from the Greek word eu (good or well) and the suffix **-genēs** (born), and was coined by Sir Francis Galton in 1883, who defined it as "the study of all agencies under human

control which can improve or impair the racial quality of future generations". Galton argued that just as physical traits were clearly inherited among generations of people, so could be said for mental qualities (genius and talent). Galton argued that social morals needed to change so that heredity was a conscious decision, in order to avoid over-breeding by "less fit" members of society and the under-breeding of the "more fit" ones.

In Galton's view, social institutions such as welfare and insane asylums were allowing "inferior" humans to survive and reproduce at levels faster than the more "superior" humans in respectable society, and if corrections were not soon taken, society would be awash with "inferiors."

The following passage from Malthus showed his influence on Galton, where Malthus suggests (in '*An essay on the principle of population*', 1798, Chapter IX, p72) that the techniques of animal husbandry could apply to humans, anticipating the idea which, in 1883, **Francis Galton** called **eugenics**:

It does not... by any means seem impossible that by an attention to breed, a certain degree of improvement, similar to that among animals, might take place among men. Whether intellect could be communicated may be a matter of doubt; but size, strength, beauty, complexion, and perhaps longevity are in a degree transmissible... As the human race, however, could not be improved in this way without condemning all the bad specimens to celibacy, it is not probable that an attention to breed should ever become general.

Such theories, which often postulated a "**master race**", usually "**Nordic**" and "**Aryan**", were along with eugenics, pioneered by Sir Francis Galton (among others) and popularized at the turn of the 20th century, a main influence of the Nazi racial policies and their program of eugenics. Galton developed the science of eugenics whose primary concept was "control" and promotion of quantification and analytical measurements of "desirable traits" so as to set a guide on how to obtain the "truly proper breeding". Apart from Arthur de Gobineau (one of the founder of "biological racism") who wrote in 1853 "***An Essay on The Inequality of Human Races***", other scientific racist works that largely influenced Nazism include Madison Grant's 1916/1924 "***The Passing of the Great Race***" and Lothrop T. Stoddard's 1920 "*The Rising Tide of Color Against White World Supremacy*". For the most part, however, scientific racism is a pejorative label sometimes given to modern theories or arguments that allege that scientific evidence shows significant evolutionary differences between races or ethnic groups.

Darwin read his cousin's work with interest, and devoted sections of Descent of Man to discussion of Galton's theories.

In Germany too, Malthus contemporary Friedrich Hegel (1770–1831) would also include a strongly evolutionist account of history in *Lectures on the Philosophy of History*, describing the development of the *Geist* (Spirit or Reasoning mind) in history through a series of incarnations in specific *Volkgeists* (Folk Spirit). Hegel's philosophy of history was explicitly biased in favour of Europe, and, in particular, of the Prussian state, conceived as the achievement of history (the "End of History"). In his chapter on the Geographical Foundings of Universal History, Hegel wrote that "each People represented a particular degree of the development of the Spirit," thus forming a "nation." This notion of *nation*, however, is not explicitly linked to physical or racial particularities, rather it is concerned and the concrete historical and geographical site where the *Spirit* unfold. Influenced, as many others, by Montesquieu's theory on the influence of climate on mores and laws, which the latter had

developed in *The Spirit of the Laws* (1748). Hegel wrote that: *"It is true that climate has influence in that sense that neither the warm zone nor the cold zone are favourable to the liberty of man and to the apparition of historical peoples."* (i.e. of peoples that "have" a history, in contrast with "savages" that allegedly have no history).

Unsurprisingly, Hegel thus favoured the *Geist* in temperate zones. Hegel finally made an account of "universal history," which started with the Oriental World, then the Greek Antiquity, then the Roman and the Christian World, and, ultimately, the Prussian World. In the same lessons, Hegel thus write that "America is the country of the future", but that "philosophy does not concerns itself with prophecies". It is surprising that Hegel's philosophy, as Kant for that manner, had reduced history dogmatically to such evolutionist statements. Eugenics however, were practised in Pre-Galtonian era; it can be found in the ancient civilizations, such as Rome, Athens. Sparta in particular, practised infanticide through exposure in the Apothetae near the Taygetus mountain. Trials for babies included bathing them in wine and exposing them to other elements. To Sparta, this would ensure only the strongest survived and procreated. Adolf Hitler considered Sparta to be the first "Völkisch State," and much like Ernst Haeckel before him, praised Sparta due to its primitive form of eugenics practice of selective infanticide policy.

It may be surprising to know that Hegel had a religious background. After he had received his theological certificate (***Konsistorialexamen***), and during the period 1793-96),he composed the text known as the "Life of Jesus" and a book-length manuscript entitled "**The Positivity of the Christian Religion**". While in Frankfurt, Hegel composed the essay "**Fragments on Religion and Love**". In 1799 he wrote another essay entitled "**The Spirit of Christianity and Its Fate**" which was not published during his lifetime.

Hegelianism Triad Influenced by his German predecessors (Kant and Fichte), Hegel's dialectic was characterized as a three-step process, "thesis, antithesis, synthesis"; namely, that a "thesis" (e.g. the French Revolution during 1789–1799) would cause the creation of its "antithesis" (e.g. the Reign of Terror that followed), and would eventually result in a "synthesis" (e.g. the Constitutional state of free citizens). What is wrong with the "thesis-antithesis-synthesis" approach is that it gives the sense that things or ideas are contradicted or opposed by things that come from outside them. For example, the French Revolution for Hegel constitutes the introduction of real individual political freedom into European societies for the first time in recorded history. But precisely because of its absolute novelty, it is also absolutely radical: on the one hand the upsurge of violence required to carry out the revolution cannot cease to be itself, while on the other, it has already consumed its opponent. The revolution therefore has nowhere to turn but onto its own result: the hard-won freedom is consumed by a brutal Reign of Terror. Hegel's writing style is difficult to read; he is described by Bertrand Russell in the ***History of Western Philosophy*** as the single most difficult philosopher to understand. Perhaps, this is partly because Hegel tried to develop a new form of thinking and logic, which he called "speculative reason" and which includes the more famous concept of "dialectic", to try to overcome what he saw as the limitations of both common sense and of traditional philosophy in the relation between thought and reality.

Friedrich Nietzsche (1844 –1900) was a 19th-century German Philosopher. In fact, he began his career as a classical philologist before turning to philosophy. At the age of 24 he was appointed to the Chair of Classical Philology at the University of Basel (the youngest individual yet to have held this position), but he resigned in 1879 on basis of ill-health.

His philosophy is based on a mishmash of social Darwinism, anti-Christian atheism and nihilism. He is best-known for his statement *"God is dead"*, occurring in several of Nietzsche's works (notably in **The Gay Science**). Thus, most regard Nietzsche as an atheist. In Nietzsche's view, recent developments in modern science and the increasing secularization of European society had effectively 'killed' the Christian God, who had served as the basis for meaning and value in the West for more than a thousand years. His concept: death of God led to nihilism, the belief that nothing has any importance and that life lacks purpose. Between 1889–1900, Nietzsche suffered a mental collapse. His mental illness was originally diagnosed as tertiary syphilis. Many argue that his breakdown may have been caused by a psychological maladjustment brought on by his own philosophy. Manic-depressive illness with periodic psychosis, followed by vascular dementia was confirmed; between 1898 and 1899 Nietzsche suffered at least 2 strokes which paralysed him leaving him unable to speak or walk. After contracting pneumonia in mid-August 1900, he sustained another stroke and died.

Ernst Heinrich Philipp August Haeckel (1834 - 1919), was an eminent German, biologist, naturalist, philosopher, physician, professor and artist who discovered, described and named thousands of new species, mapped a genealogical tree relating all life forms. As a philosopher, Ernst Haeckel wrote *Die Welträtsel* (1895–1899, in English, *The Riddle of the Universe*, 1901), and *Freedom in Science and Teaching* to support teaching evolution.

Haeckel's political beliefs were influenced by Lamarckism. Haeckel believed that racial characteristics were acquired through interactions with the environment and that **phylogeny** directly followed ontogeny. Haeckel was a zoologist, an accomplished artist and illustrator, and later a professor of comparative anatomy. Although Haeckel's ideas are important to the history of evolutionary theory, and he was a competent invertebrate anatomist most famous for his work on radiolaria, many speculative concepts that he championed are now considered incorrect. For example, Haeckel described and named hypothetical ancestral microorganisms that have never been found. He was one of the first to consider psychology as a branch of physiology. He also proposed many now ubiquitous terms including **"phylum"**, **"phylogeny"**, **"ecology" ("oekologie").** Haeckel did not support of natural selection, rather believing in a Lamarckian inheritance of acquired characteristics (*Lamarckism*). For instance, Lamarck thought that the **'antelope'** can develop a long neck by its prolonged effort to reach high trees; the long neck then becomes an acquired characteristic which will then become inherited in the animal to develop into **'giraffe'**.

He supported the theory with embryo drawings that have since been shown to be oversimplified and in part inaccurate, and the theory is now considered an **oversimplification** of quite complicated relationships. Haeckel introduced the concept of **"heterochrony"**, which is the change in timing of embryonic development over the course of evolution.

Haeckel was a flamboyant figure. He sometimes took great (and non-scientific) leaps from available evidence. For example, at the time that Darwin first published ***On the Origin of Species by Means of Natural Selection*** (1859), no remains of human ancestors had yet been found. Haeckel postulated that evidence of human evolution would be found in the ***Dutch East Indies*** (now Indonesia), and described these theoretical remains in great detail. Haeckel argued that human evolution consisted of precisely 22 phases, the 21st — the ***"missing link"*** — being a halfway step between apes and humans. He even formally named this missing link ***Pithecanthropus alalus***, translated as **"ape man without speech"**. He even

named the as-of-yet unfound species, *Pithecanthropus alalus*, and charged his students (Richard and Oskar Hertwig) to go and find it. One student did find some remains: a young Dutchman named Eugene Dubois went to the East Indies and dug up the remains of the so-called ***Java Man***, the first human ancestral remains ever found. These remains originally carried Haeckel's ***Pithecanthropus*** label, though they were later reclassified as ***Homo erectus***.

Polygenism and racism The creationist Polygenism of Samuel Morton (1799 – 1851) and Louis Agassiz (1807 - 1873), which presented human races as separately created species; despite being creationists, they were so radical in their time, because their Polygenism went against the orthodox standard reading of the Bible (which implied all human stock descended from a single couple: Adam and Eve). Polygenism was supported by Carleton Coon, (1904 – 1981). Coon wrote many books: **The Races of Europe, The White Race and the New World** (1939), and **The Origin of Races** (1962). He divided humankind into 5 separate races **(Caucasoid, Congoid, Capoid, Mongoloid, Australoid);** Coon hypothesized that modern humans, Homo sapiens, arose five separate times in five separate places from Homo erectus, " as each subspecies, living in its own territory, passed a critical threshold from a more brutal to a more *sapient* state".

The creationist Polygenism was rejected by Charles Darwin, who argued for the monogenesis of the human species and the recent African origin of modern humans. Haeckel however, put forward a doctrine of evolutionary Polygenism based on the ideas of the linguist August Schleicher, in which several different language groups had arisen separately from speechless presuming ***Urmenschen***, which themselves had evolved from simian ancestors. These separate languages had completed the transition from animals to man, and, under the influence of each main branch of languages, humans had evolved - in a kind of Lamarckian use-inheritance - as separate species, which could be subdivided into races. From this Haeckel drew the implication that languages with the most potential formed human species with the most potential, led by the Semitic and Indo-Germanic groups, with Berber, Jewish, Greco-Roman and Germanic varieties to the fore. Haeckel's view can be seen as a forerunner of the multi-regional hypothesis, which until the 1990s remained in contention with developments of Darwin's hypothesis of a recent African origin of modern humans. The multiregional view then fell from favour, and it is claimed that Darwin's view has more recently been validated by the decipherment of the human genome.

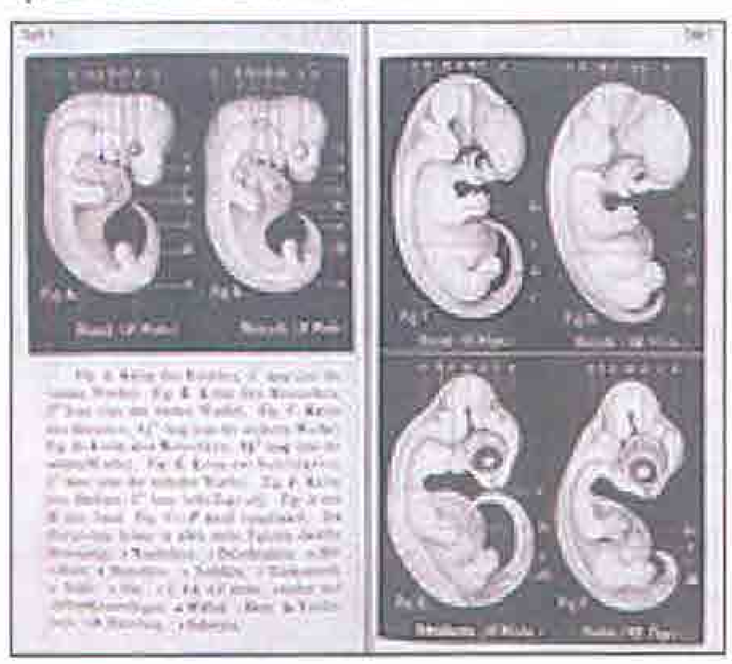
Haeckel did not hesitate to apply the hypothesis of Polygenism to the diversity of human groups in the most heavy-handed way, becoming a leading apologist of scientific racism.

Recapitulation theory and Haeckel's Embryological drawings:

When Haeckel was a student in the 1850s he showed great interest in embryology, attending the rather unpopular lectures twice and in his notes sketched the visual aids: textbooks had few illustrations, and large format plates were used to show students how to see the tiny forms under a reflecting microscope, with the translucent tissues seen against a black background. It was agreed by all European evolutionists that all vertebrates looked very similar at an early stage, in what was thought of as a common ideal, but there was a continuing debate since 1820s about the **Recapitulation Theory** that human embryos developed through stages of the forms of all major groups of adult animal. Haeckel used morphology to reconstruct the evolutionary history of life, in the absence of fossil evidence, using embryology as evidence of ancestral relationships. So he developed the controversial

"recapitulation theory" ("ontogeny recapitulates phylogeny") claiming that an individual organism's biological development, or **ontogeny**, parallels and summarizes its species' entire evolutionary development, or phylogeny. His concept of recapitulation has been refuted.

Haeckel's aim was a reformed morphology with evolution as the organising principle of a cosmic synthesis unifying science and religion. He was giving successful "popular lectures" on his ideas to students and townspeople in **Jena**, in an approach pioneered by his teacher Rudolf Virchow.



Dramatic, but forged, illustrations of dog and human embryos, looking almost Identical at 4 weeks then differing at 6 weeks, shown above a 6 week turtle embryo and 8 day hen embryo, presented by Haeckel in 1868 as convincing proof of evolution. These pictures have now been accepted as thoroughly fraudulent.

To meet his publisher's need for a popular work he used a student's transcript of his lectures as the basis of his ***Natürliche Schöpfungsgeschichte*** published in Berlin in 1868, and presenting a ***comprehensive gospel of evolution***. It was translated into English as ***"The History of Creation"*** in 1876; it was frequently reprinted until 1926.



Haeckel fake Drawings

The book sold very well. Haeckel believed privately that his figures were both exact and synthetic, and in public asserted that they were schematic like most figures used in teaching. However, some anatomical experts hostile to Haeckel's evolutionary views expressed ***some private concerns that certain figures had been drawn rather freely; furthermore, the figures showed what they already knew about similarities in embryos.*** The revised 1870 second edition of 1,500 copies attracted more attention, being quickly followed by further revised editions with larger print runs as the book became a prominent part of the optimistic, nationalist, anticlerical **"culture of progress"** in Otto von Bismarck's new German Empire. The similarity of early vertebrate embryos became common knowledge, and the illustrations were praised by experts such as Michael Foster of the University of Cambridge. In the introduction to his 1871 ***The Descent of Man,***

and Selection in Relation to Sex, Darwin gave particular praise to Haeckel, writing that if his *Natürliche Schöpfungsgeschichte* **"had appeared before my essay had been written, I should probably never have completed it"**. The fifth edition of Haeckel's book appeared in 1874, with a controversial frontispiece featuring the heads of apes and humans replaced by a heroic portrait of Haeckel himself.

Controversy Later in 1874, Haeckel's simplified embryology textbook ***Anthropogenie*** made the subject into a battleground over Darwinism aligned with Bismarck's ***Kulturkampf*** ("struggle of civilizations") against the Catholic Church. Haeckel took particular care over the illustrations, changing to the leading zoological publisher Wilhelm Engelmann of Leipzig and obtaining from them use of illustrations from their other textbooks as well as preparing his own drawings including a dramatic double page illustration showing **early, somewhat later and still later stages of 8 different vertebrates** (see **figure below**). It is said that Haeckel was charged with fraud by five professors and convicted by a university court at Jena.

Recent analyses (Richardson 1998, Richardson and Keuck 2002) have found that some of the criticisms of Haeckel's embryo drawings were legitimate, but others were unfounded. There were multiple versions of the embryo drawings, and Haeckel rejected the claims of fraud. It was later said that **"there is evidence of sleight of hand"** on both sides of the feud between Haeckel and his opponents.





1874 Haeckel Fake illustrations from Anthropogenie showing "very early", "somewhat later" and "still later" stages of embryos of fish (F), salamander (A), turtle (T), chick (H), pig (S), cow (R), rabbit (K), and human (M).

Some creationists have claimed that Darwin relied on Haeckel's embryo drawings as proof of evolution to support their anti-evolution arguments. This claim ignores the fact that Darwin published *On the Origin of Species* in 1859, and *The Descent of Man* published in 1871 predates Haeckel double page illustration of eight vertebrate embryos from 1874.

Darwin's 1859 book *On the Origin of Species* had immense popular influence, but it was a technical book rather than a work of popular science: long, difficult and with few illustrations. One of Haeckel's books did a great deal to explain his version of "Darwinism" to the world. It was a bestselling, provocatively illustrated book in German, titled *Natürliche Schöpfungsgeschichte*, 1868.

Thus, social Darwinism (the so-called Scientific Racism) was the fruitful outcome of Darwin's and Haeckel theories of Evolution. It is one of the ironies of history that ***Aryan***, a word nowadays referring to the blond-haired, blue-eyed physical ideal of Nazi Germany (of Nordic type, supposed to be part of the master race), originally referred to a people who looked vastly different. Its history starts with the ancient Indo-Iranians, Indo-European peoples who inhabited parts of what are now Iran, Afghanistan, and India; this original meaning is no longer in technical use. Their tribal self-designation was a word reconstructed as *arya-* from Sanskrit arya-, *noble, Aryan*, where it is referred to the upper crust of ancient Indian society. These words became known to European scholars in the 18th century.

As an adaptation of the Latin *Arianus*, referring to Iran, 'Aryan' has "long been in English language use". Its history as a loan word began in the late 1700s, when the word was borrowed from Sanskrit *ārya-* to refer to speaker of North Indian languages, or Iranian languages, the word *'Aryan'* came to refer to the group of languages deriving from that ancestor language, and by extension, the speakers of those languages and the (now known to be untenable) position that Irish *Éire* was etymologically related to "***Aryan***", in 1837 Adolphe Pictet popularized the idea that the term "*Aryan*" could also be applied to the entire Indo-European language family as well. The shifting of meaning that eventually led to the present-day sense started in the 1830s, when Friedrich Schlegel, a German scholar who was an important early Indo-Europeanist, came up with a theory that linked the Indo-Iranian words with the German word *Ehre*, "honour," and older Germanic names containing the element *ario-*, such as the Swiss warrior *Ariovistus* who was written about by Julius Caesar. Schlegel theorized that far from being just a designation of the Indo-Iranians, the word **arya-* had in fact been what the Indo-Europeans called themselves, meaning something like "the honourable people." (This theory has since been called into question). Thus "Aryan" came to be synonymous with "Indo-European," and in this sense entered the general scholarly consciousness of the day. Not much later, it was proposed that the original homeland of the Indo-Europeans had been in northern Europe.

Following this linguistic argument, in the 1850s Arthur de Gobineau supposed that ***"Aryen"*** corresponded to the suggested prehistoric Indo-European culture (1853-1855, *Essay on the Inequality of the Human Races*). He believed that there were 3 basic races – white, yellow and black – and that everything else was caused by race miscegenation, which de Gobineau argued was the cause of chaos. The ***"master race"***, according to de Gobineau, were the Northern European "Aryans", who had remained ***"racially pure"***. Southern Europeans (to include Spaniards and Southern Frenchmen), Eastern Europeans, North Africans, Middle Easterners, Iranians, Central Asians, Indians, he all considered racially mixed, degenerated through the miscegenation, and thus less than ideal.

Nazi Germany under Adolf Hitler was infamous for eugenics programs to maintain a "pure" German race. Timothy . W. Ryback's ***'Hitler's Private Library – The Books that Shaped his Life***, published by Bodley Head London, 2009, wrote in page 109 and page 110, respectively:

‡in the first volume of a massive, two-part study: ***'Teaching on Human Heredity and Racial Hygiene'***, J. F. Lehmann wrote: ***"To Mr. Adolf Hitler, as an important building block for deepening his understanding. Warmly dedicated J. F. Lehmann".***

A 1929 manual on sterilization by Otto Kankeliet, '***Terminating Reproductive Capacity for Racial-Hygienic and Social Reasons***'...has been inscribed to Hitler "***in great friendship***").

(Along with Grant's '***Passing of the Great Race***', the most notable books are those by Hans Gunther or as he was called Racial Gunther (Rassengunther) [i.e. *Racial Typology of the German People*, in 6 volumes, a compendium of Aryan identity], whose works Hitler included among his recommended readings for Nazi Party members).

The Nazis performed extensive experimentation on live human beings to test their genetic theories. The Nazi regime forcibly sterilized people viewed as mentally and physically unfit, an estimated 400,000 between 1934 and 1937. The Germans therefore, they set a precedent to be followed by many other countries.

In Sweden, the "Sterilization Act of 1934" provided for the voluntary sterilization of some mental patients. From about 1934 to until 1975, Sweden sterilized more than 62,000 people. Sweden sterilized more people than any other European state except Nazi Germany. Sweden's large-scale eugenics program targeted the deviant and the mentally ill. Two provinces in Canada carried out thousands of compulsory sterilizations, and these lasted into the 1970s. The large-scale eugenics program was also practised in the United States, Australia, Norway, France, Finland, Denmark, Estonia, Iceland, Switzerland, and China.

Scientific racism played a role in establishing Apartheid in South Africa. In South Africa, white scientists, like Dudly Kidd, who published ***The essential Kafir*** [from Arabic: Kafir] in 1904, sought to "understand the African mind." They believed that the cultural differences between whites and blacks in South Africa might be caused by physiological differences in the brain. Rather than suggesting that Africans were "overgrown children," as early white explorers had, Kidd believed that Africans were "misgrown with a vengeance." He described Africans as at once "hopelessly deficient," yet "very shrewd"!!!

The Carnegie Commission was concerned with the Poor White Problem in South Africa and later played a key role in establishing Apartheid in South Africa.

Gregor Mendel (1822 –1884) "father of modern genetics" was born to a German family in Austrian Empire (now Czech Republic). In 1851 he was sent to the University of Vienna, returning to his abbey in 1853 as a teacher, principally of physics. Between 1856 - 1863 Mendel cultivated and tested some 29,000 pea plants (*i.e. Pisum sativum)*. This study showed that one in four pea plants had *pure-bred recessive* alleles, two out of four were *hybrid* and one out of four were *pure-bred dominant*. His experiments brought forth 2 generalizations, the 'Law of Segregation' and the 'Law of Independent Assortment', which later became known as 'Mendel's Laws of Inheritance'. Mendel did read his paper, *Experiments on Plant Hybridization*, at two meetings of the Natural History Society of Brunn in Moravia in 1865. When Mendel's paper was published in 1866 in *Proceedings of the Natural History Society of Brunn*, it had little impact (it was cited 3 times over next 35 years).

Ironically, Darwin never found out. Furthermore, the results of Mendel were ignored until long after both he and Darwin were dead. At that time, most biologists held the idea of '***blending inheritance***' (which Darwin called ***pangenesis***): it entails that offspring were an average between the two different characteristics of their parents. Also, **transmutation of species** was a term used by Lamarck in 1809 for his theory that described the altering of one species into another through environmental influence. Darwin suggested that according to

Pangenesis, body cells shed gemmules, which collect in the reproductive organs prior to fertilization. He speculated that characteristics of the parents were blended - like mixing paint - as they passed to the offspring. But if that was true, then how a ***single fortunate mutation*** **(by chance or accident)** could be spread through a species? It would be blended out, just as a single drop of white paint would be in a gallon of black paint; Darwin was unsuccessful and his 'natural selection' was undermined. Blending inheritance could not account for the way in which variations were conserved between generations; it remains one of the many so-called **missing links** of Darwin's theory. Indeed, the period from the 1880s to the 1930s represents **"eclipse of Darwinism"**, when mechanisms of evolution were discredited.

However, ***Mendel's concepts of genes*** were rediscovered in the early 20th century, by Hugo de Vries (and separately by Carl Correns); it was Hugo de Vries (a Darwinist himself) who introduced the term '*mutation*' (as we know it), and for developing a *'mutation theory of evolution'* to find a more successful theory of discontinuous inheritance rather than blending inheritance of natural selection. The current Neo-Darwinism separates Darwin's ideas of natural selection from his hypothesis of pangenesis; the 'modern synthesis' combining Mendelian genetics with Darwin's theory of natural selection was invented over a decade (1936–1947) by **Julian Huxley** (Darwinian staunchest follower) who produced his book: **'Evolution: The Modern Synthesis'** (1942). So the original single fortunate mutation was replaced by numerous mutations, all by chance, and over millions of years!!! Today, it is widely assumed that the existence of fossil remains of numerous extinct species necessarily implies evolution, but most people are unaware that Darwin's most formidable opponents were not clergymen, but fossil experts. It seems that whenever fragments of bony fossils were found, they were assembled (though incompletely) and the shape was finally constructed with biased imagination, in order to claim the finding of a 'missing link'!!!

In fact, the Neo-Darwinism raised more questions than it could answer. Theories to be factual must be reproduced, yet no one had ever reproduced or witnessed the process of evolution in action, while transforming one species to another?

Where are the Intermediate Transitional forms?

Why the Man is at the top of evolution-ladder, if the mechanism is by multi-mutation?

What make these multi-mutations stop at Man-species?

How can the chance dictate mutations leading to a new species?

WAYNE JACKSON (23/12/2002) published on the internet an article entitled:

An Evolutionary Anomaly or "Barking Up the Wrong Tree" stating the irregularities in the evolutionary explanation of living creatures, that cast grave suspicion upon Darwin's theory of the origin of biological species, being contradicted by numerous examples of factual data.

According to Darwin's theory of evolution:

- One would expect that, at the very bottom of the fossil record, the remains of living creatures would be extremely sparse. Contrariwise, the earliest fossil stratum reflects an **"explosion of life"** that is so profuse it baffles Darwinists. They portray it as one of the "major" mysteries of the history of life. [See G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 18].

- The earliest forms of life should be characterized by a lesser complexity than that which supposedly evolved much later. But this is not the case. The so-called "simple" forms of life are "incredibly complex" [See G. Simpson (1960), **The Meaning of Evolution** (New Haven: Yale University Press), page 15]. The alleged upward swing of the evolutionary chain presents many problems. **A fern, for instance, has 500 chromosomes in the nucleus of each of its cells, a crayfish has 200, while humans have only 46.** This is a deviation from Darwin's evolution theory. Supposedly, **elephants evolved millions of years after dinosaurs already had become extinct. However, fossilized elephant and dinosaur tracks have been discovered in the same rock stratum** [See Verrill, A. Hyatt. (1954), **Strange Prehistoric Animals and Their History** (Boston: L.C. Page & Co.) page 162].

- Evolutionists allege that the tiny marine organisms known as trilobites perished from the earth 500 million years before humans arrived. Yet fossilized trilobites have been found embedded in human sandal prints near Antelope Springs, Utah, U.S.A. [Lammerts, Walter A., Ed. (1976), **Why Not Creation**? (Grand Rapids: Baker) pages 188-189].

- Vertically-standing, fossilized tree trunks, some 20 to 30 feet high (2-3 stories), have been found in the record of the rocks [Lammerts, Walter A., Ed. (1976), **Why Not Creation?** (Grand Rapids: Baker) page, 153]. Some of these protrude through several rock strata that supposedly were formed over millions of years. Obviously, though, these strata were laid down *quickly* — before the trees had time to crumble and decay. This does not fit evolutionary theory.

Nature magazine published a scientific article [Powell, Kendall (2002), "Stone Age man kept a dog," Nature, 22/11/2002) and asserted: **"Chimps are our *closest relatives* ... but they cooperate and communicate with humans *very poorly*"**. On the other hand dogs, with which we are supposed to be related only distantly "seem to have converged on some of our thought processes," according to Brian Hare, an anthropologist at Harvard University. This phenomenon simply does not harmonize with the general theory of evolution.

Hominid family (According to Evolutionists):

(Latin ***homo***, man-related, Arabic ***homam*** حُمام أو هُمام, man or brave man) comprising man and his close extinct, bipedal ancestors. Remains of old fossilised species of man are called ***Palaeo-lithic*** (Greek ***Palaeo-***, old and Arabic ***bali*** (old), and Greek ***lithos***, stone). These Palaeolithic remains include:

1. ***Australopithecus***, (from Latin ***Australis***, southern, and Greek ***pithekos***, ape).
2. ***Homo habilis***, (able man - from Latin ***habilis***, able, Arabic ***qabil***), an earlier hominid who is able to walk upright.
3. ***Homo erectus*** (formerly, ***Pithecanthropus erectus*** (Greek ***pithekos*** ape and **anthropos** man)). The erect hominid are represented by **Java man** (see under Haeckel) and **Peking man** (fossil man first found in 1929 southwest Peking, and is related to Java man).
4. ***Homo sapiens*** (wise man) and ***Neanderthal homo sapiens***, the one existing species of man.

[Neanderthal is a Palaeo-lithic species of man whose remains were first found in 1857 in a cave in Neanderthal, a valley in Western Germany].

Evolutionists call man's so-called first ape -like ancestors *Australopithecus*, which means "South African ape." These living beings are actually nothing but an old ape species that has become extinct. Extensive research done on various *Australopithecus* specimens by two world famous anatomists from England and the USA, namely, Lord Solly Zuckerman and Prof. Charles Oxnard, shows that these apes belonged to an ordinary ape species that became extinct and bore no resemblance to humans.

Evolutionists classify the next stage of human evolution as "homo," that is "man." According to their claim, the living beings in the Homo series are more developed than *Australopithecus*. Evolutionists devise imaginary evolution scheme by arranging different fossils of these creatures in a particular order. This scheme has never been proved . Ernst Mayr, one of the twentieth century's most important evolutionists, contends in his book ***One Long Argument*** that "particularly historical [puzzles] such as the origin of life or of Homo sapiens, are extremely difficult and may even resist a final, satisfying explanation."

Furthermore, by outlining the link chain as ***Australopithecus > Homo habilis > Homo erectus > Homo sapiens***, evolutionists imply that each of these species is one another's ancestor. However, recent findings of paleoanthropologists have revealed that ***Australopithecus, Homo habilis***, and ***Homo erectus*** lived at different parts of the world at the same time!!!

(See Alan Walker, *Science*, Vol. 207, 7 March 1980, p. 1103; A. J. Kelso, *Physical Anthropology*, 1st ed., J. B. Lipincott Co., New York, 1970, p. 221; M. D. Leakey, *Olduvai Gorge* Vol. 3, Cambridge University Press, Cambridge, 1971, p. 272.

Moreover, a certain segment of humans classified as ***Homo erectus*** have lived up until very modern times. ***Homo sapiens neandarthalensis*** and ***Homo sapiens sapiens*** **(modern man)** co-existed in the same region!!!

(See Jeffrey Kluger, "Not So Extinct After All: The Primitive Homo Erectus May Have Survived Long Enough To Coexist With Modern Humans," *Time*, 23 December 1996).

This situation apparently indicates the **invalidity** of the claim that they are ancestors of one another. Stephen Jay Gould explained this deadlock of the theory of evolution although he was himself one of the leading advocates of evolution in the twentieth century: (What has become of our ladder if there are three coexisting lineages of **hominids (A. africanus, the robust australopithecines,** and **H. habilis)**, none clearly derived from another? Moreover, none of the three display any evolutionary trends during their tenure on earth).

Put briefly, the scenario of human evolution, which is "upheld" with the help of various drawings of some **"half ape, half human"** creatures appearing in the media and course books, that is, frankly, by means of propaganda, **is nothing but a tale with no scientific foundation.**

Lord Solly Zuckerman, one of the most famous and respected scientists in the U.K., who carried out research on this subject for years and studied *Australopithecus* fossils for 15 years, finally concluded, despite being an evolutionist himself, that there is, in fact, **no such family tree branching out from ape-like creatures to man.**

Radiometric and Carbon dating have made it possible to identify fossils more than 3.5 billion years old and have indicated that animal species may have appeared **abruptly**, a phenomenon which Darwin himself found difficult to accept. **Animals seem to have**

remained more or less unchanged through all these years. Despite the collection of a huge number of fossils, nearly all of them being fossils of presently existing animals have created problems for the theory of evolution. If animals die a natural death, they are usually decomposed even before being fossilized.

However, sudden catastrophes can bury the animals and embed them deep in the earth. Some rocks and organisms that transformed to show fossils for years and decades were actually deposited within a short period of time. Newspapers frequently attract attention with such headlines as **"20-Milion-Year-Old Spider Fossil Discovered" or "35-Million-Year-Old Lizard Fossil Unearthed."**

Each of these reports is actually further proof that no evolutionary process had ever happened. **The crocodile is a reptile that was living 200 million years ago,** as is confirmed by the fossil record. Yet it is of course alive today. Ginkgo trees were living 125 million years ago, but living specimens were found in China in our own time. Neopilina molluscs were living 500 million years ago, the tuatara lizard 200 million years ago, and archaeobacteria as long ago as 3.5 billion years ago. These are still alive today, with all their complex systems and perfect structures. The nautilus, another mollusc, was living in the seas 300 million years ago, and these creatures are living, feeding and reproducing in exactly the same form in today's seas.

The Australian and African lungfish is another example of a living fossil that was alive 400 million years ago and still thrives in the present. Charles Darwin was astonished by the survival of these fish down to the present day, and in his *Origin of Species*, he therefore referred to them as "**anomalous forms**" that "**may almost be called living fossils**." This is by no means the end of the list of creatures that still survive today unchanged, in exactly the same form as they displayed millions of years ago. The sturgeon, mackerel, freshwater bass, herring, needlefish, lobster, crawfish and the Devonian-period shark are all examples of living fossils. Other examples include the jellyfish, sponges, frogs, bees, ants, butterflies and termites.

The 230-million-year-old dragonfly, soldier ants dating back 100 million years and the 150-million-year-old salamander are all still living today. The same applies to arachnids such as the spider and myriapods such as the millipede. **Finally, a spider fossilized in amber, and estimated as being 20 million years old, was one of the most important discoveries of the 2000s.** A statement from Manchester University announced that this spider, 4 centimeters long and 2 centimeters wide, was identical to present-day specimens. The Earth contains countless other fossil specimens from millions of years ago of organisms still living today, such as this spider, and of other creatures now extinct

One famous British paleontologist, Derek V. Ager, admits, even though he is an evolutionist:

(The point emerges that if we examine the fossil record in detail, whether at the level of orders or of species, we find - over and over again - **not gradual evolution, but the sudden explosion of one group at the expense of another).**

This means that in the fossil record, all different living species suddenly emerge independently of one another, as fully formed (with all their different structures), **without any (imaginary) evolutionary *'intermediate forms'* in between**. This is the opposite of Darwin's assumptions. Also, this is very strong evidence that all living things are created. Also, the only

explanation of a living species emerging suddenly and complete in every detail without any evolutionary ancestor is that it was created.

It is clear that fossil record evidence was manipulated (through false bone construction, with additional imagination to produce final drawings) in order to misconstrue and support a pre-conceived conclusion of Darwinist evolution.

The Newsweek Journal (3/11/1980) reported on a momentous if not historic conference, consisting of 160 of the world's most distinguished evolutionists, took place in Chicago (USA) during October, 1980. At that meeting a unanimous admission was made to the fact that the previous 120 years of fossil recovery had failed to provide one irrefutable case of an intermediate fossil. In other words, it was conceded that the long held Darwinian belief that evolution had occurred through infinitesimal small changes over immense periods of time was unlikely - to say the least!

Newsweek stated:

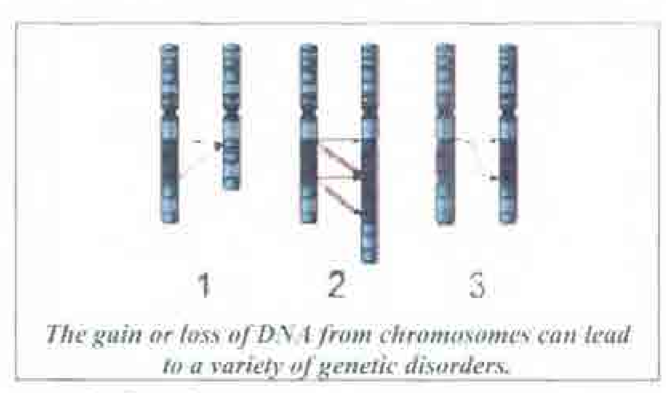
"The missing link between man and apes...is merely the most glamorous of a whole hierarchy of phantom creatures. In the fossil record missing links are the rule... The more scientists have searched for the transitional forms that lie between species, the more they have been frustrated...Evidence from the fossil record now points overwhelmingly away from the classical Darwinism which most Americans were taught in high school; that new species evolve out of existing ones by the gradual accumulation of small changes, each of which helps the organism survive and compete in the environment."

However, rather than renounce evolution, a previous theory (fancifully named **'the hopeful monster' theory**) called **'punctuated equilibrium'** was quickly evoked. This theory is now accepted by many scientists as the way in which life evolved. Conveniently, ***punctuated equilibrium*** does not require an intermediate fossil record of transitional creatures. Punctuated equilibrium is essentially a branch of evolutionary theory which proposes that - on occasion - one species will produce, or literally 'give- birth' to a completely different species. For this to happen, the infinitesimally small changes over immense periods of time would have to occur **instantaneously and collectively**, altering not just one particular gene but many (literally, thousands of genes would have to alter in complete synchronization for one species to produce a different species). But these rather peculiar, if not miraculous events, have greater mathematical improbabilities than the Darwinian theory (i.e. small changes over immense time periods). Thus, evolutionary theory without the evidence of a fossil record, moved sideways and was salvaged once again from the imposing threat of outright rejection!

It is abundantly clear that the Evolution Theory has been proposed in 3 consecutive forms: the original Darwinian theory of gradual evolution (of one species into another species, passing through intermediate forms, by means of 'natural selection' under the influence of 'Nature's forces), was pre-conceived and forced on the scientific circles from the very beginning. But, when the 'Mendelian laws of Inheritence' discredited this original Darwinism, the evolutionists substituted it with the Neo-Darwinian theory through 'modern synthesis of evolution' with genetic mutations over immense periods of time. However, when the fossil records revealed the emergence of organisms suddenly and with their complete structures, and without intermediate transitional forms, the

Neo-Darwinism was discredited once aggain, forcing evolutionists to switch it with 'Punctuated Interrupted Equilibrium' to explain the emergence of new different species 'instantaneously and collectively' (through gradual, but massive and synchronised genetic mutations over immense periods of time), without the need for transitional forms. All these lame explanations were put forward in order to avoid the more logical, and indeed the scientifically-proven fact of creation of all living organisms, by the Creator.

However, so far as the genetic mutations are concerned (whether such mutations are singular or plural), and medically speaking, the main underlying cause of stillbirth, foetal deformities and mortalities is the gross chromosomal abnormalities, incompatible with life. Congenital abnormalities, such as phocomelia (congenital amputation) can be due to the influence of drug-intake during pregnancy. Even a mutation in one gene by deletion or addition may result in major birth defects and genetic catastrophe.



The gain or loss of DNA from chromosomes can lead to a variety of genetic disorders.

The 3 major single chromosome mutations: deletion (1), duplication (2) and inversion (3).

Chromosomal aberrations are disruptions in the normal chromosomal content of a cell, and are a major cause of genetic conditions in humans, such as Down syndrome. Abnormal numbers of chromosomes or chromosome sets, aneuploidy, may be lethal or give rise to genetic disorders.

These are 5 Human examples (just to name few):

- ***Cri du chat,*** which is caused by the deletion of part of the short arm of chromosome 5. *"Cri du chat"* means "cry of the cat" in French, and the condition was so-named because affected babies make high-pitched cries that sound like those of a cat. Affected individuals have wide-set eyes, a small head and jaw, and are moderately to severely mentally retarded and very short.
- ***Wolf-Hirschhorn syndrome,*** which is caused by partial deletion of the short arm of chromosome 4. It is characterized by severe growth retardation and severe to profound mental retardation.
- ***Down syndrome,*** usually is caused by an extra copy of chromosome 21 (trisomy 21), namely, three copies of chromosome 21. Characteristics include decreased muscle tone, stockier build, asymmetrical skull, slanting eyes and mild to moderate mental retardation.
- ***Edwards syndrome,*** which is the second-most-common trisomy; Down syndrome is the most common. It is a trisomy of chromosome 18. Symptoms include mental and motor retardation and numerous congenital anomalies causing serious health problems. Ninety percent die in infancy; however, those that live past their first birthday usually are quite healthy thereafter. They have a characteristic clenched hands and overlapping fingers.
- ***Klinefelter's syndrome (XXY).*** Men with Klinefelter syndrome are usually sterile, and tend to have longer arms and legs and to be taller than their peers. Boys with the

syndrome are often shy and quiet, and have a higher incidence of speech delay and dyslexia. During puberty, without testosterone treatment, some of them may develop gynaecomastia.

Mutation is nearly always harmful and purposeless.

How can then, multiple mutations (by mere chance!) over millions of years, result in the evolution from the simple to the more complex species?

How old is the Man?

How old is the earth itself?

It is therefore not surprising that numerous authorities wrote books to defy this imposed misconception of Darwin's evolution. The followings are 7 examples (just to name few):

- Michael Denton's **Evolution: A Theory in Crisis (1986);**
- Philip Johnson's **Darwin on Trial (1991);**
- Michael Behe's **Darwin's Black Box** – The Biochemical Challenge to Evolution (1996)
- Harun Yahya's The **Evolution Deceit (1999);**
- Michael Geoffrey Simmons' **Billions of missing links (2007).**
- Eugene G Windchy's **The End of Darwinism (2009)**
- Benjamin Wiker's **The Darwin Myth (2009)**
- Maurice Bucaille's '**What is the Origin of Man?** (1990) is an excellent book. **Maurice Bucaille (1920-1998)** is a French medical doctor and a member of the French Society of Egyptology. In 1973, Bucaille was appointed family physician to King Faisal of Saudi Arabia. His other patients included members of President Sadat's family in Egypt. In 1976, while still in the service of the king, he published his book: The Bible, The Qur'an and Science: **The Holy Scriptures Examined in the Light of Modern Knowledge** (Translator: Alistair Pannell) which confirmed that the Qur'an contains no statements contradicting established scientific fact. '**What is the Origin of Man?** (1990) was another book. In 1991, Bucaille wrote: Mummies of the Pharaohs: **Modern Medical Investigations, was published in English.**

Malthus himself anticipated the social Darwinists in suggesting that charity could exacerbate social problems. The pseudo-science of social Darwinism was born. Even before Darwin's theory, the Nott's and Gliddon's '***Indigenous races of the earth***' (1857) used the misleading imagery to suggest that "Negroes" had been created to rank between "Greeks" and chimpanzees. Ludwig von Mises in his book Human Action defined social Darwinism as ***"that individuals or groups achieve advantage over others as the result of genetic or biological superiority"***. Social Darwinism (or Scientific Racism! in reality a pseudo-science) bears Charles Darwin's name, but it is also linked with others, notably Herbert Spencer, Thomas Malthus, and Francis Galton, the founder of eugenics. In the United States, writers and thinkers, such as: Edward L. Youmans, William Graham Sumner, John Fiske, John W. Burgess, and others all developed theories of social evolution as a result of their exposure to the works of Darwin and Spencer. H. G. Wells was heavily influenced by Darwinist thoughts,

and novelist 'Jack London' wrote stories of survival that incorporate his views on social Darwinism.

The first Director-General of UNESCO, evolutionist and humanist Julian Huxley, wrote of *The crowded world* in his *Evolutionary Humanism* (1964), calling for a World population policy. Huxley openly criticised Communist and Roman Catholic attitudes to birth control, population control and overpopulation.

Malthus theory and social Darwinism had therefore influenced both Nazism and Marxism, the "two" ideologies that led to greatest genocides of the 20th century. Indeed, the writings of Karl Marx (*Capital*, 1867) and Friedrich Engels (*Outlines of a Critique of Political Economy*, 1844) though opposed but modified Malthus theory. Engels and Marx argued that what Malthus saw as the problem of the pressure of population on the means of production actually represented the pressure of the means of production on population. But in reality, Marxism replaced the race with the social class (the working proletariat struggle against the capitalists bourgeoisies), and emphasised its desire to remake humanity by coercive means (eugenics or social engineering) and the belief that humanity advances through a struggle in which superior groups (race or classes) triumph over inferior ones. Furthermore, Malthus had major influence on Stalin's purges and the Russian Revolution of 1917 in terms of demographic factors that drive political economy. He also influenced both Karl Marx, Mao Zedong. In fact, the 2 intellectual figures who dominated the whole of 19th century, Malthus and Marx, were and still are systematically opposed. A "clash of prophets" claimed in 1970 the title of an American textbook, which provided what Marx wrote against Malthus.

Finally, the anthropology had a great intellectual impact on the erosion and marginalisation of Christianity, which unfortunately did not rise up to the challenge. Furthermore, Human zoos or ethnographic exhibitions or Negro villages became objects of anthropology and an important means of bolstering "popular racism"; they were so popular from the 1870s until World War II, and the concept survived into the 21st century.

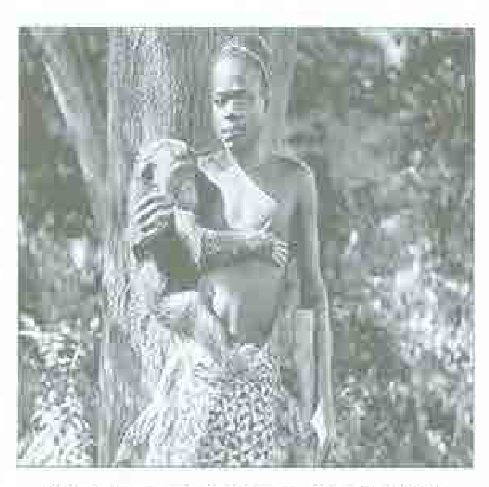
British TV Channel 4's **The Human Zoo: Science's Dirty Secret** documentary aired on Sunday 1st November 2009: in the 19th and early 20th centuries, scientists were so fascinated by race that thousands of 'exotic' and indigenous people were put on display in human zoos. They were not intended as merely entertaining freak shows but also scientific demonstrations of racial difference. Across the western world millions gawped in fascination at these 'uncivilised savages' and would depart convinced of the superiority of the white race. Some of the most spectacular were in Paris, Chicago, Hamburg and London. In 1924, King George V and Queen Mary inspected live exhibits at British Empire Exhibition at Wembley.

As the film reveals, it was only a short step from these human zoos to the horrors of Nazi Germany as pseudo-science that underpinned one, helped legitimise the other.

This documentary explores the phenomenon of human zoos and tells the poignant story of Ota Benga (c. 1883 – March 20, 1916), a Batwa pygmy from the Belgian Congo, who was brought to the United States through a missionary and businessman: Samuel Phillips Verner, who released Benga from slave traders in 1904 from his Belgian capturers who had attacked his village, killing Benga's wife and two children. Ota Benga was first put on display at the 1904 St Louis World's Fair and then the Bronx Zoo (USA) where he was put in an enclosure with a chimpanzee for a companion and labelled as the 'missing link' between apes and

Europeans to promote the concepts of human evolution and scientific racism. Many early anthropologists believed that pygmies, because so different to the white race, represented an earlier stage of man's evolution from the ape. Public outcry eventually led to Benga's removal from the zoo, and he was released into the custody of African American clergy.

Ota Benga would pass through the hands of four of America's leading scientists: the explorer Samuel Phillips Verner, the anthropologist William McGee, the zoologist William Temple Horniday and Madison Grant - one of America's greatest racists. When the outbreak of World War I made a return to the Congo impossible, Benga became depressed. In 1916, he committed suicide with a stolen revolver.



Ota Benga at the Bronx Zoo in 1906

Grant was a wealthy conservationist and amateur anthropologist who had founded the Bronx Zoo. In 1906, he arranged for Ota Benga to be exhibited at the Zoo; an event designed not as a mere a side show but as a means to educate the masses about Scientific Racism.

When Madison Grant died in 1937, it is said that his family burned all of his papers. His remaining legacy is a book - The Passing of the Great Race . A bestseller when it was first published in 1916, it promoted the idea that the survival of the white master race - 'the Nordics' as Grant called them - was threatened by the lower races. A believer in eugenics, Grant argued that evolution should not be left to chance. He lobbied for laws banning interracial marriages and limiting immigration. These laws were passed by people softened up by human zoos and now susceptible to Grant's arguments.

Grant's arguments were to find followers all over the world. In 1930, after The Passing of the Great Race was translated into German, Grant was bestowed with what he regarded as one of his greatest honours.

Jon Marks, an anthropologist at the University of North Carolina explains: **"Grant received a fan letter from an aspiring politician in Germany, which said, your book is my bible, signed Adolf Hitler. Grant's correspondence has disappeared; that letter is not with us anymore. But there is eyewitness testimony that he brandished this letter at, at people to show how great and how influential both he was and how seriously the Germans were taking his ideas, which is something he was proud of."**

Three years later, Hitler seized power in Germany and turned his hero's ideas into policy. The Nazis set about using scientific racism as the foundation of the Third Reich taking the ideas that were promoted in human zoos further than anyone else and instituting a systematic elimination of 'inferior' races, in the defence of their own superior, Aryan race.

In 1947, at the Nuremburg War Trials, Nazi doctors named Grant and his book in their defence - arguing that the Third Reich had merely been copying American ideas. In the wake of the Holocaust, mixing race and science became taboo and the ideas of Madison Grant and the early anthropologists were buried.

Anthropologists such as Madison Grant or Alexis Carrel built their pseudo-scientific racism, inspired by Gobineau's An Essay on the Inequality of the Human Races (1853-55) believing in the superiority of white European race (intellectual power over others) and that race mixing led to the collapse of civilization. In 1935, Carrel published a best-selling book titled L'Homme, cet inconnu (Man, The Unknown) which advocated, in part, that mankind could better itself by following the guidance of an elite group of intellectuals, and by implementing a regime of enforced eugenics. Carrel argued that "deviant" human types should be suppressed using techniques similar to those later employed by the Nazis (adult euthanasia). In the 1936 preface to the German edition of his book, Alexis Carrel added praise to the eugenics policies of the Third Reich, writing that: (the German government has taken energetic measures against the propagation of the defective, the mentally diseased, and the criminal).



A caricature of Saartjie Baartman, (the *Hottentot Venus*)

Another Human zoo specimen Saartjie "Sarah" Baartman (Saartjie, pronounced "Sahr-chey"): born in Eastern Cape, South Africa (1789 – 29 Dec 1815) was exhibited (for her unusual body features) as sideshow attractions in 19th century Europe under the name Hottentot Venus—"Hottentot" as the then-current name for the Khoikhoi people, (now considered offensive) and "Venus" in reference to the Roman goddess of love. Baartman waso a slave of Dutch farmers near Cape Town when the brother of her slave owner, suggested that she travel to England for exhibition, promising her that she would become wealthy. She left for London in 1810. Baartman was exhibited around Britain, forced to entertain people by gyrating her nude buttocks. Her exhibition in London, scant years after the passing of the Slave Trade Act 1807, created a scandal.

She was then sold to a Frenchman, who took her to France, and exhibited her under more pressured conditions for 15 months. French naturalists, among them Georges Cuvier, visited her and she was the subject of several scientific paintings. Once her novelty had worn off on Parisians, she began to drink heavily and was forced into prostitution to support herself. She died earlier than expected on 29 Dec 1815, aged 26, of pneumonia. An autopsy was conducted, and published in 1816 and then republished by French naturalist Georges Cuvier in the Memoires du Museum d'Histoire Naturelle in 1817. Cuvier notes in his monograph that Baartman was an intelligent woman who had an excellent memory and spoke Dutch fluently. Her skeleton, preserved genitals and brain were placed on display in Paris' Musée de l'Homme until 1974, when they were removed from public view and stored out of sight; a moulded casting was still shown for the following two years. The case became prominent after Stephen Jay Gould (an American palaeontologist) wrote *The Hottentot Venus* in the 1980s. After the victory of the African National Congress in the South African general election, 1994, President Nelson Mandela formally requested that France return the remains. After much legal wrangling and debates in the French National Assembly, France acceded to the request

on 6 March 2002. Her remains were repatriated to her homeland, on 6 May 2002 and she was finally laid to rest on 9 Aug 2002 over 200 years after her birth.

Even today, and after the election of Barak Obama, the first black President of United States of America in year 2009, racism remained as an important motivation driving many decision-makers in the united nations, heads of European States, leaders of European parties, the media, white judges in the courts, the employers in official and private establishments, the Police, the Army, and even in the scientific examinations, recruitment and decisions about who gets allowances and merit awards, driving such decision-makers (often, if not always) to stand discriminately unfairly and unjustly against the black and coloured subjects, biased secretly or publicly in favour of the white subjects. Cinemas still show movies about fantasy disasters threatening the human race with temporary annihilation and extinction (e.g. following the impact of an incoming comet with the Earth). In their disaster plan, only the white superior (and clever) race is allowed to enter the shelters to be salvaged, so that they will re-populate the earth again (leaving behind, all the coloured and black inferior people to die, unaided)!

Painful Linguistic Legacy of Racist Cast System:

The so-called Scientific Racism had deeply influenced the English and the European (especially Spanish) languages and provided their vocabulary with an array of shameful illegal words, so appalling to the extent that the present Europe tries to consider them *obsolete* and to sweep that particular history (attached to such words) under the carpet, under the legal influence of European Convention on Human Rights (drafted in 1950 and entered into force on 3 September 1953) and British Human Rights Act 1998 that provide the fundamental rights and freedoms, including: the right to life; freedom from torture and degrading treatment; freedom from slavery and forced labour; freedom of thought, conscience and religion, and freedom to express your beliefs; and the right to liberty.

The American Professor Ward Churchill in his book **"A Little Matter of Genocide – Holocaust and Denial in the Americas 1492 to the Present"** (published by City Lights Books, San Francisco, 1997) explained on pages 107-108, that colonial regimes throughout South and Central America, as well as Mexico and the south-western portion of the present-day United States, settled in to consolidating the **New Order** within their domains in accordance with rigid and often elaborate racial codes. Alexis de Tocqueville quoted: ***(This man born in degradation, this stranger brought by slavery into our midst, is hardly recognized as sharing the common features of humanity. His face appears to us hideous, his intelligence limited, and his tastes low; we almost take him to be some intermediary between man and beast).*** In a portion of one code, effective in 18th century New Spain, which is illustrative of all such lists compiled in Iberian-occupied America [illustrating the hierarchy of mixtures castes or **Casta,** starting from the 3 pure original races in America: Caucasian white European, Black African, and Amerindian]:

1. **Spaniard** (Espanol) and **Indian** [Amerindian] beget **Mestizo**
2. **Mestizo** [or Mestiza woman] and **Spanish** (Espanola or Esapanol) **beget Castizo**
3. **Castizo** woman [or man] and **Spaniard** [Espanol or **Espanola**] beget **Spaniard**
4. **Spanish** woman [or man] and **Negro** [man or woman] beget **Mulatto**
5. **Spaniard** [or woman] and **mulatto** woman [or man] beget **Morisco**

6. **Morisco** woman and **Spaniard** beget **Albino (or Chino)**
7. **Spaniard** and **albino** woman beget **Torna atras**
8. **Indian** [Amerindian] and **torna atras** woman beget **Lobo [Sambo or Zambo]**
9. **Lobo** and **Indian** [Amerindian] woman beget **Zambiago**
10. **Zambiago** and **Indian** [Amerindian] woman beget **Cambujo**
11. **Cambujo** and **Mulatto** beget **Albarazado**
12. **Albarazado** and **Mulatto** beget **barcino**
13. **Barcino** and **Mulatto** beget **Coyote** (literally, means North American ***wolf***)
14. **Coyote** woman and **Indian**[Amerindian] beget **Chamiso**
15. **Chamiso** woman and **Mestizo** beget **Coyote Mestizo**
16. **Coyote Mestizo** and **Mulatto** woman beget **Ahi te estas**

    In colonial Mexico, further complex pattern of social "racial" structure complete this shameful nomenclature (originally from the work of Nicolas Leon, 1924, Las Castas Mestizaje Del Mexico Colonial o Nueva España, quoted in M.D. Olien, 1973, **Latin Americans: Contemporary Peoples and Their Cultural Traditions**, pp. 94):

17. **Morisco** man and **Espanola** beget **Chino.**
18. **Chino** man with **Indian [Amerindian]** woman beget **Salta atras.**
19. **Salta atrás** and **Mulatto** woman beget **Lobo** (literally, means wolf from ***lupus***).
20. **Lobo** man and **Chino** woman beget **Jíbaro (or Gibaro)**
21. **Jíbaro** man and **Mulata** woman beget **Albarazado.**
22. **Albarazado** man and **Negra** woman beget **Cambujo.**
23. **Cambujo** man and **Indian** woman beget **Sambaigo (or Zambiago).**
24. **Sambaigo** man and **Loba** woman beget **Calpamulato.**
25. **Calpamulato** man and **Cambuja** woman beget **Tente en el aire**.
26. **Tente en el aire** man and **Mulata** woman beget **No te entiendo**.
27. **No te entiendo** man and **India** woman beget **Torna atras**.

Indians were placed on the very bottom rung of these hierarchies, and were in many cases defined virtually out of existence. This attitude represents an extreme European obsessive-compulsive behaviour towards the non-Europeans.

Today, the overt caste systems have been overturned by legislation, but the social prejudices and economic exploitation continue unabated. Even though overt racial oppression is no longer permissible by law, people may still hold personal opinions about members of other races based upon preconceived ideas. In 1976, the *Brazilian Institute of Geography and Statistics* (IBGE) conducted a study to stratify people on racial basis; they ask people to identify their own skin colour, resulting in 134 terms, listed in alphabetical order.



A representation of a Mestizo, in a Pintura de Castas from Mexico during the Spanish colonial period. The painting illustrates "A Spaniard and Amerindian, produce a Mestizo".



Black man and Spanish woman beget a Mulatto



Spaniard and Mulatto produce Morisca (c. 1763)

Spaniard and Mestiza produce a Castiza



The painting illustrates: Black and Amerindian produce a Lobo, here a synonym for Zambo.
A representation of an infant Zambo, in an 18th-century "Pintura de Castas" from New Spain.



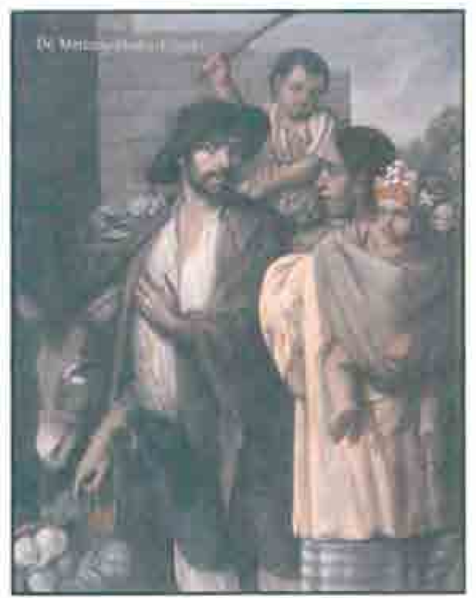
Mestizo and Amerindian produce Cholo



Amerindian and Mulatto produce Chino



Black man and mulatto woman (mulata or mulatta) also produce Sambo (zambo)
[Indian school, 1770]



Mestizo and Amerindian begot Coyote



Mestizo, Mestiza, Mestizo Sample of a Peruvian casta painting, showing intermarriage within a casta category.

[See also online: Yasmin Ramirez, **"New World Orders: Casta Painting and Colonial Latin America at the Americas Society"** artnet Magazine (December 2, 1996)].

Other *obsolete* names for those born to mixed marriages include:

Furthermore, ***Terceron, cuarteron (quadroon),*** and ***quinteron (quintroon)*** are self-explanatory. Peruvian Spanish still retains the terms ***cholo*** (mixed Mestizo and Amerindian ancestry) and ***chino***. But who nowadays remembers the significance of such names as ***castizo, morisco, lobo, jibaro, albarazado, cambujo, barcino, puchel, coyote, chamiso, galfarro, genizaro, grifo, jarocho, and sambago,*** or the more picturesque ***salta atras, tente en aire, no te entiendo, ahi estes,*** and so forth?

In summary, **Miscegenation** (Latin *miscere* "to mix" or Arabic mazj "mixing" + *genus* "race" Arabic riss) is a term used by Europeans, and become global through European colonization since the Age of Discovery. Historically, the term was used in the context of laws banning interracial marriage and sex in USA, so-called anti-miscegenation laws. It is therefore a potentially offensive word. Miscegenation refers to mixing of different racial groups through marriage, cohabitation, sexual relations, and procreation. Broadly speaking, it involves 3 groups of offspring:

1. **Spanish and Amerindians** (such as Mestizos and Castizos)
2. **Spanish and Africans** (Mulattos and Moriscos)
3. **Amerindians and Africans** (Zambos, Lobos, and Koyots)

Compare and contrast European history with Islamic history. In European colonization of the New World, converting the native Americans to Christianity had never provided them with equal status; in fact, colonial degrading caste system and European cruelty (treating non-Europeans as sub-human and occasionally calling them by animal names, e.g. *lobos* and *coyotes*, meaning wolves) had resulted in revolts led by Europeans' own offspring (from miscegenation with Amerindians and/or Africans) against the Europeans themselves! In Islamic history however, many great Muslim leaders and Caliphs were the sons of slave non-Arab mothers; non-Arabs and non-Muslim slaves were treated so well according to the strict Islamic code of moral values, that many were freed for the sake of Allah. Slaves converted to Islam were either freed to be married as lawful wives and husbands, or were set free as their equal brothers and sisters in Islam, assuming the same human positions and the same duties and rights of other Muslim Arabs.

Mestizo is a colonial Spanish and Portuguese **(Mestiço)** term used in the Spanish Empire and Portuguese Empire in Latin America to refer to people of mixed European and Amerindian ancestry.

Mestizo people comprise much of the population of Latin America.

The word *mestizo* originated from the Latin word *mixticius*, meaning mixed, and from Arabic *mazeej or mazeeju*, mixed derived from the verb *mazaja*, to mix. In the Portuguese and French languages, the words ***caboclo*** (or *caboco*, from Tupi *kaa'boc*, 'who came from forest') and ***métis*** (in French Canada) were also used in their Empires to identify individuals of mixed European and native ancestry. According to historians Michael C. Meyer and William L. Sherman, early in the 16th century Spanish colonial usage of the term mestizo ***"was almost synonymous with bastard"*** (illegitimate child). Under the Casta system of Spanish America

and Spain, the term *mestizo* originally applied to the children resulting from the union of one European and one Amerindian parent or the children of two mestizo parents. During this era, a myriad of other terms including *castizo* (three-quarters European and one-quarter Amerindian), ***cuarteron de indio,*** and ***cholo*** (one-quarter European and three-quarters Amerindian), were in use to denote other individuals of European-Amerindian ancestry in ratios smaller or greater than the 50:50 of ***mestizos***. They are used mostly with a negative connotation.

The ***mulata*** (from Arabic *moulladah*, the feminine of *mulatto* - from Arabic *moullad* or *moulood*) began as a product of Spanish imperialism and slavery on Cuba's tobacco and sugar plantations. She is the product of socioeconomic inequality and the sometimes violent exploitation of black women by white men. Mulata assumed another denigrating meaning by the Europeans: it was sexualized by white men in the 19th century, vilified as a "*loose woman,*" and then used as a tourist attraction for European and North American men (possessed by sex) in the 20th century. The mulata is treated similarly throughout the Caribbean and Latin America, including in Brazil. In Cuba, as in Brazil, mulata became a national icon and symbol of Cuba's racial, economic, and gender hierarchies.

Sambo (or **zambo**) is a racial term for a person with mixed Amerindian and African heritage in the Caribbean, and can also be used less specifically for a black person in the USA and in the UK. It is considered a racial slur. The word "***sambo***" probably came into English from Latin American Spanish word zambo, which in turn may have come from one of three African language sources. Webster's (Third International Dictionary) holds that it may have come from the Kongo word *nzambu* (*monkey*). Another source holds that it is a Foulah word meaning "*uncle*" or a Hausa word for "*second son*". Yet The Royal Spanish Academy gives the origin from a Latin word which in modern Spanish means "bow-legged". *Zambo* is a Spanish term (the Portuguese term is ***cafuzo***) used in Spanish Empire and today to identify individuals in the Americas who are of mixed African and Amerindian ancestry (the analogous English term, considered a slur, is ***sambo***). The feminine word is Zamba (not to be confused with the Afro-Brazilian Samba folk dance or Samba music, or with Argentine Zamba folk dance).

The first zambos were initially the offspring of slaves who escaped from plantations (because of cruel treatment) and from shipwrecks (during slaves trafficking in ships, where slaves were packed like tins of sardine fish), and ventured into various Central American, South American, and Caribbean jungles seeking refuge. They joined remote Amerindian communities to hide and escape capture by colonial authorities.

An example is on the **island of Hispaniola** (the present day Haiti and the Dominican Republic), where some escaped slaves encountered the few remaining ***Tainos***. Racial mixing occurred and today Afro-Amerindians make up a small percentage of the populations of both Haiti and the Dominican Republic. The Amerindians - sometimes under threat from encroaching European colonizers - were sympathetic to the plight of the fleeing slaves and welcomed them into their communities, offered them food and sanctuary and, in many cases, their daughters as wives. The African ancestry of the ***Garifuna*** is usually attributed to escaping shipwrecked slaves. The *zambos* of north-western South America, the *lobos* of Mexico, and most other *zambos* were generally believed to have been descendants of escaped plantation slaves.

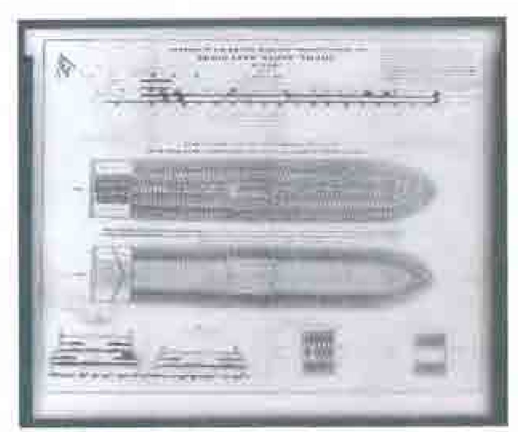


Diagram illustrating the stowage of African slaves on a British slave ship (like tins of sardine fish)





triangular Trade of slaves, sugar, and rum with Europe or New England as the third corner



As in the USA during slavery, Latin American history had instances of Africans and Amerindians' joining together and forming *free renegade* encampments to fight European colonizers and slaveholders. In Latin America, these primarily African settlements of runaways or maroons, were called ***quilombos*** (during the time of slave trafficking, natives in central Angola warriors and marauders (called Imbangala), created an institution called ***kilombe*** that united various tribes of diverse lineage into a community designed for military resistance during that time of upheaval, probably from Arabic *kilmah*, meaning one united motto). The most famous of all *quilombos* is the legendary Palmares in Brazil (Brazilian *quilombolas* women wear Muslim head covers). At its height, it was believed to have a population of over 30,000.

Officially, **zambos** represent small minorities in the north-western South American countries of Colombia, Venezuela, and Ecuador. The communities that exist in Brazil, mainly along the north-western region of the country, are known as ***Cafuzos***.

In Honduras, they are known as ***garifunas***. While zambos can also be found in other Caribbean and Central America countries, such as the Dominican Republic, Belize, and Nicaragua, their history and origins are not linked to that of the garifuna.



In Mexico, where they were known as ***lobos*** (literally meaning wolf), they formed a sizeable minority in the past. The great majority of lobos have now been absorbed into the much larger Mexican ***Mestizo*** population.

Jibaro are the mountain dwelling peasants or forest people, derived from the word ***Jibaro*** meaning "hill" (Arabic *Jibalo*, mountains) commonly used in Puerto Rico; it is related to the word ***Jivaro***.

Jarocho is a person of music from Veracruz, Mexico. One explanation of the origin of the term jarocho is that it evolved from an old Spanish word meaning ***brusque or disordered***. It represents a fusion of indigenous (primarily ***Huastecan***), Spanish, and African musical elements, reflecting the population which evolved in the region from Spanish colonial times.

Genízaros and **Pueblo:**

Genízaros and their descendants were indigenous Indian people used as slaves and house servants, sheepherders in Spanish, Mexican, and American households in the Southwest, well into the 1880s. By the late 1700s, Genízaros and their descendants, often referred to as "**Coyotes**" (literally, meaning North American ***wolf***), comprised nearly one-third of the entire population of New Mexico.

The term "genízaro" derived from the word "Janissary", which was used to describe the slaves trained to be soldiers, treated well and then incorporated as citizens within the Ottoman Empire. However, in the case of **Genízaros,** many of them were captives who complained of mistreatment by their European masters and were thus freed and allowed to settle land grants on the periphery of the Spanish Settlements. In this way they served as a buffer communities for the protection of the Spanish towns from attack by enemy tribes.



Pueblo is a term used to describe modern (and ancient) communities of Native Americans in the South-western USA. The first Spanish Explorers of the Southwest used this term to describe communities that consisted of apartment-like structures made from stone, adobe mud, and other local material. Economic and Social conditions under Mexico were so bad, that in 1837 Genizaros, along with Pueblo Indians and others revolted against the Mexican Government, cut off the head of Albino Perez (the Mexican Governor), and killed all of the Mexican troops in Santa Fe.

They formed a new government and elected José Angel **Gonzáles**, a Genizaro of Taos Pueblo and Pawnee ancestry, as governor. The revolt was often referred to as the **'Chimayoso Revolt'** after the infamous community of **Chimayó,** in Northern New Mexico, which was home to **Gonzáles**, and many other mixed-blood Indians.

This was one of many revolts against the Mexican government by indigenous peoples during this period, including the Mayan Revolt in the Yucatán

Rejection of Islam to Darwinism and Social Darwinism (Scientific Racism!):

It is the misrepresented Christianity that clashed with the true science through the Catholic Church Inquisition Tribunals that tortured and killed scientists (such as Galileo) and provoked scientists (as a result of a reaction) into rejection of Church's authority and violent practices, and to separate the Church from politics and life compartmentalising it to the personal affairs only (i.e. it was a wrong that led to another wrong; and the two wrongs doesn't make it right). Thus scientists started in fabricating false theories and dialectical philosophies for the sake of challenging Christianity as a religion and through it symbolising to any religion (mistakenly thinking that Islam – which is the only true religion and comprehensive code of life- does not principally differ from their deviated corrupted Christianity).

It is astounding that an evolutionist like Dr Richard Dawkins can describe the 'natural selection' as the omnipotent creator of all creatures in this universe (Dawkin's book: The Blind Watchmaker). According to him, Natural selection is the blind watchmaker, blind because it does not see ahead, does not plan consequences, has no purpose in view. Yet the living results of natural selection overwhelmingly impress us with the appearance of designs if by a master watchmaker, impress us with the illusion of design and planning. Dawkin defies God Intelligent Design, calling instead Good Design (replacing God with 'Good'). According to him, the nature can think, select, design, and create; all are the attributes of God (just but by name); his hypersensitivity to use the name of God, and replacing Him with that of 'nature' *can only* explained by his bitter experience with the Christian Church practices in History. Indeed, Dr Richard Dawkins' **The God Delusion** (by Bantam Press, London, 2007, page 37) says: **(For most of my purposes...unless otherwise stated, I shall have Christianity mostly in mind, but only because it is the version with which I happen to be most familiar).**

Conversely, it is the Roman Catholics and Catholicism (among all other religions) who felt the brunt of such an attack, as one can see in Scott Hahn and Benjamin Wiker's **Answering the new Atheism – Dismantling Dawkins' Case Against God** (published by Emmaus Road Publishing, Ohio, USA, 2008, page 8) who say: **(On his part, Dawkins states that his case against religion is mainly a case against Christianity, and we will assume this as well).**

As for Islam, which is beyond the reach of Dawkin and others, it is a code of modesty between the 2 extremes of Church practices and modern Science Fanaticism, because Islam is the only true religion of God that was protected from human manipulation (protected by God himself). It is the Islamic World which had adopted the full spectrum of scientists; many of the linguistics, Islamic scholars and judges were themselves physicians, architects, and scientists of sociology, zoology and botany (like Averroes, the Andalusian judge and physician; Ibn Khaldun, the judge, historian and

sociologist; and Al-Jahiz -or al-Jahidh-, the linguistic and zoologist), and all start their books by the name of Allah then praising Allah then asking Allah's pleasure with Prophet Muhammad, the Messenger of Allah, then they start quoting excerpts from Qur'an and Prophetic Sunnah (Tradition) to consolidate their scientific writings. The Islamic World never knew the dichotomy of religion and science, or that science conflicted with religion; this schism started originally in the West after Roman Catholic Inquisition Tribunals in medieval dark Europe, which Islam had enlightened, because Islam is the religion of faith and science. Islam had never ever conflicted with biological sciences, on the contrary, Qur'an itself was always the source of scientific inspirations (Read Qur'an Miracles in Chapter Three).

Islam put 5 broad principles in the lucid and beautiful Arabic language of Qur'an:

1. All mankind is from Adam (Independent Human monogenesis)

After the convoluted journey of Social Darwinism with its most dangerous path in the history of Mankind, Islam stands high and rejects Pseudo-Scientific racism in any shape or form. Man is the man wherever he is; all mankind is Allah's creation; He (Allah) created them from two parents who had procreated and populated the Earth and became different nations and tribes, after acclimatising to different environments, adapted to different life-styles, and accustomed to different languages; they became different, only to be re-introduced and know each other. They must be distinguished according to their character, ideology, and qualities of culture, (these are things that they can control themselves); they should not be classified according to their inborn characteristics, such as colour, shape, figure, look, and height (which are things that they cannot control themselves).

Allah Most High says:

"O mankind! We have created you from a male and a female, and made you into nations and tribes, that you may know one another; verily, the most honourable of you with God (Allah) is the believer who is most pious; verily, God (Allah) is All-Knowing, Well-Acquainted (with all things)".

Verse 49:13 of Surat Al-Hujurat (The Dwellings).

On the authority of Jabir that Prophet Muhammad said in the 'Final Sermon' [shortly before his death, addressing the 120,000 attendant followers]:

"O People, Your God is One, and Your Father is One; There is no superiority for an Arab over a non-Arab, or for a non-Arab over an Arab; also there is no superiority for a white (Red) over black, nor for a black over white, except by piety (and good action)".

Narrated by Imam Baihaqi (4/289), Imam Ahmad (23489), Albani's considered it Sahih (correct Hadith).

In another Hadith:

"All people are the children of Adam, and Adam is [originally] from dust".
Narrated by Imam, Abu Dawod and Tirmithi and Baihaqi.

In Muslim prayers, there is a practical application daily for the equality of all people standing before Allah, irrespective of their colour and race (black or white; Arab or non-

Arab). In the Pilgrimage too, there is a unique international application of equality between various races of Mankind, where millions of pilgrims came in their life-journey to gather in one place, wearing one white dress, in order to perform pilgrimage. Western Muslim converts who attended pilgrimage (e.g. Malcolm X, the black leader), returned home amazed by what they had witnessed of absolute equality between various races of Adam children; they then became passionate preachers for Islam, because Islam, among all religions, philosophies, and civilizations, is the only one to implement equality between the all members of Mankind in the World of Reality, and for the first time in History.

2. Undermining the basis of Racism

Also Islam undermines all the foundations and causes of the racial differences, based on Man's colour, look, shape, figure, and mood; life is colours, and variety is the spice of life as they say:

On the authority of Abu Musa, the Prophet peace upon him, said: **"Allah has created Adam from a handful He got from all components of Earth, thus children of Adam came according to that Earth component, among them came the Red, the white, the black, and the intermediate; and the good and the bad and intermediate".**

Narrated by Imam Ahmad, Abu Dawod, and Tirmithi Tirmithi said: it is Hasan Sahih (correct good Hadith).

This Hadith is closely related to the statement by Allah in the Qur'an about the role of water for life and about the relationship between the colours of mountains of the Earth, and the colours of humans, fruits, insects (and beasts), and animals:

(See you not that Allah sends down rainwater from the sky? and We produce therewith fruits of various colours, and among the mountains are tracts white and red, of varying colours and black intense in hue. And likewise of men and beasts [including moving living creatures and insects], and cattle, are of various colours. It is only those who have knowledge among His servants that truly fear Allah. Verily, Allah is Exalted in Might, Oft-Forgiving).

Verse 35:27-28 of Surat Fatir (The Originator of Creation).

Islam refers to the fact that Mankind with its various races and colours, is one Human race coming from one offspring: Adam and Eve; Allah repeatedly refers to human Mankind as ***"Adam's Children"*** (to confirm the unity of Mankind) and asked them to be the witnesses for his Lordship. Allah Most High says:

(And (remember) when your Lord brought forth from the Children of Adam, from their loins, their seeds (or descendants), and made them testify as to themselves, (saying): "Am I not your Lord (Who cherishes and sustains you)?" They said: "Yes! We testify!" (This), lest you should say on the Day of Judgement: "verily, we have been unaware of this").

Verse 7: 172 of Surat Al-A'raf (or The Heights).

Abu Huraira reported that Allah's Messenger (peace be upon him) had said: **"Verily Allah does not look to your bodies nor to your faces (appearances), and to your wealth, but He looks to your hearts and to your deeds".**

Narrated by Sahih Muslim Number 2564.

Furthermore, Islam considered a big sin to look down at the members of other different races of the human Mankind:

It is narrated on the authority of Abdullah bin Mas'ud that Allah's Messenger (Peace be upon him) said: **"Whosoever has pride in his heart equal to the weight of an atom (or a small ant) shall not enter Paradise. A person (amongst the audience) said: 'Verily, a person loves that his dress should be beautiful, and his shoes should be beautiful'. He (the Holy Prophet) remarked: "Verily, Allah is the Most Beautiful and He loves Beauty. Pride is to completely disregard the truth (out of self-conceit) and contempt for (to scorn or look down upon) the people".**

Narrated by Sahih Muslim Number 91.

Pride is the offspring of self-conceit, and this is the very negation of faith. Pride and faith cannot thus go together. It inoculates in man the spirit of humility and submission to Truth. Pride is the expression of vanity which is one of the greatest hurdles into the path of truth. The self-conceited man accepts nothing which does not satisfy his vanity and, therefore, he cannot be a true believer. He is a worshipper of his own self.

3. Honouring Children of Adam (whole Mankind) with its different races

Allah Most High said in respect of Mankind in its various spectra, races, colours, and shapes:

(We have honoured the sons of Adam; provided them with transport on land and sea; given them for sustenance things good and pure; and conferred on them special favours, above a great part of Our Creation).

Surat Al-Isra' (The Journey) 17:70.

Hence, among Prophet Muhammad's companions were: Abu Bakr, the white; Bilal, the black Abyssinian, who was a slave and became a master in Islam (he is also the Prophet's personal Muezzin); Suhaib, the red Roman who was one of the great Muhajirs (the emigrants from Makkah to Medina); and Salman, the brunet Persian (For more, read Chapter Three).

Furthermore, the respect of Islam for the humanity of the Man, whoever he is, and irrespective of his creed, culture and religion, established a milestone in unique religious tolerance for the first in the whole history; It is quoted that:

The Prophet (peace be upon him) stood one day for a (passing) funeral.

He was told: ***O' Messenger of Allah, it is Jewish funeral!***

He (the Prophet) replied: **"Is it not a human?!"**

Narrated by both Bukhari (1312) and Muslim under Funeral sections.

Also Islam prohibits its Muslim followers (within Islamic nation, formed of various colours and racial backgrounds) from derision and mockery of each others; Allah Most High says:

"O you who believe! Let not a group scoff (laugh) at another group, it may that the latter are better than the former. Nor let some women scoff at other women, it may be that the latter are better than the former. Nor defame one another, nor insult one another by (offensive) nicknames. How bad is it to insult one's brother after having

Faith [i.e. to call your Muslim brother (a faithful believer) as: 'O sinner', or 'O wicked']. And whosever does not repent, then such are indeed Zalimun (wrong-doers)".

Verse 49:11 of Surat Al-Hujurat (The Dwellings).

Abu Huraira reported that Allah's Messenger (peace be upon him) had said:

"Don't nurse malice against each other, don't nurse aversion against one another, also don't be inquisitive about one another, and don't outbid one another (by praising the good) and be fellow-brothers and servants of Allah".

Narrated by Sahih Muslim Number 256٣.

On the authority of A'mash with the same chain of transmitters (and the words are)

"Don't sever relations of kinship, don't bear enmity against one another, also bear aversion against one another, and don't feel envy against the other. Live as fellow-brothers as Allah has commanded you".

Narrated by Sahih Muslim Number 256٣.

4. Facts of Creation and Evolution in Islam

It is so regrettable that it was the theories of western clergymen (such as Robert Malthus, Friedrich Hegel, Samuel Morton, and Louis Agassiz) that provided the background and inspiration for Charles Darwin and Ernest Haeckel to put their theories of evolution, which in turn provided the background on basis of which, both the scientific racism (propounded by Herbert Spencer, Francis Galton, Madison Grant, and Adolf Hitler), and Dialectical Materialism (propounded by Karl Marx, Stalin, and Mao Zedong) who proposed that 'the religion is the opium of people' and denied the presence of God and spread the atheism. On basis of these theories, came the Nazis and Communism to convert the whole Mankind into experimental laboratory animals, and to end in millions of victims; and all this was based on human assumptions (guess) and on future unknown conjectures.

In fact, Harun Yahya's **'The Evolution Deceit'** (by Ta-Ha Publishers Ltd. London 3rd edition 2000, page 1) documented that Karl Marx made it clear that Darwin's theory provided a solid ground for materialism and thus also for communism. He also showed his sympathy to Darwin by dedicating ***Das Kapital***, his greatest work, to him. In German edition of the book, he wrote: **"From a devoted admirer to Charles Darwin".**

Thereafter, the atheists, who supported evolution and dialectical materialism, started to **hijack the terms of creation and creatures (nature), and to change the concept of evolution (emptying it from its original meaning) and finally to relate everything to themselves, and presenting them in their conjectural theories which made as False Science, with the most serious consequences on the Humanity.** Allah The Most High says:

(And pursue not that of which you have no knowledge; for surely the hearing, the sight, and the heart, All of those shall be questioned of (by Allah)).

Verse 17: 36 of Surat Al-Isra' (The Journey).

(But they have no knowledge thereof, they follow but a guess, and verily, guess is no substitute for the truth).

Verse 53: 28 of Surat An-Najm (The Star).

(And of knowledge, you (mankind) have been given only a little).

Verse 17: 85 of Surat Al-Isra' (The Journey).

Allah states that true knowledge, particularly the science of the future and the unknown, is possessed by Allah alone:

(Say (O Muhammad): "The knowledge of the time, it is with Allah alone", and I am only a plain warner).

Verse 67: 26 of Surat Al-Mulk (Dominion).

Allah also reveals the grave error of those atheists, stating that their knowledge is nothing but conjecture and false science:

(And they say: "What is there but our life in this world? we shall die and we live and nothing but time (Ad-Dahr) can destroy us", but of that they have no knowledge: they merely conjecture)...

(Say: "It is Allah Who gives you life, then gives you death; then He will gather you together for the Day of Judgement about which there is no doubt": but most men do not know).

Verse 45:24-26 of Surat Al-Jathiyah (The kneeling).

Islam is the eternal religion of Allah, and Qur'an is the word of Allah, thus it is decisively Final in knowledge and indication; In Islam one finds comfort and safe shelter, and moderation of vision, but before or after that, it is the only and absolute truth with no falsehood can approach it from before or behind it (without any corruption). The repercussions of the evolution theory does not lie in the biological evolution only, but in the notion of evolution, expanding its meaning to involve other unrelated fields, e.g. Hegel's historical evolution, Spencer's social evolution, and Hitler's racial evolution, and evolution of population struggle for resources by Malthus and Marx. so much so that 'evolution' became a common academic motto: *'Truth is Change'*.

Thus, everything is variable and nothing is constant; accordingly, there are no constant believes, values, nor morals, because everything evolve: and what was good yesterday may become bad today and vice versa. This what Islam rejects, because Islamic believes and principle values and morals are all constant major issues; only the non-essentials minor issues are variable, such as dress, architect, and technologies.

The concept of God and the Oneness of Allah is the chief principle of all principles in Islam:

(Such is Allah, your Lord in truth, So after the truth, what else can there be, save error? How then are you turned away?).

Verse 10: 32 of Surat Yunus (Jonah).

(That is because Allah, He is the Truth, and that which they invoke besides Him is Al-Batil (Falsehood), and that Allah, He is the Most High, the Most Great).

Verse 31: 30 of Surat Luqman.

And that Qur'an is the true word of Allah, the true deity:

(it is an honourable well fortified respected book(because it is Allah's Speech, and He has protected it from corruption. Falsehood cannot come to it from before it or behind it: (it is) sent down by the All-Wise, Worthy of all praise (Allah)).

Verse 41:41-42 of Surat Fussilat (They are explained in detail).

Encouragement to Reflect on the Creation:

Allah says: **(See they not how Allah originates the creation, then repeats it. Verily, that is easy for Allah. Say: "Travel in the land and see how (Allah) originated the creation, and then Allah will bring forth the creation of the Hereafter (i.e. resurrection after death). Verily, Allah is Able to do all things").**

Verse 29: 19-20 of Surat Al-Ankabut (The Spider).

(And on the earth are signs for those who have Faith with certainty. And also in your ownselves. Will you not then see?).

Verse 51:20-21 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatters).

(We will show them Our Signs in the Universe, and in their own selves, until it become manifest to them that this is the truth. Is it not sufficient in regard to your Lord that He is a Witness over all things?).

Verse 41:53 of Surat Fussilat (They are explained in detail).

This is an order to us to look into the beginnings of creation, and into the earth, and into the construction of the human being; and that there is no objection whatsoever in Islam (or in Qur'an) for research and reflection on the creation. Therefore, Islam encourages the study of cosmology and astronomy, and the study of fossils, as well as the study of Earth and its strata.

But we did not witness the beginning of creation, because it is unknown to us, and we do not know how this universe was created? **(I (Allah) made them not to witness the creation of heavens and the earth and not (even) their own creation, nor was I (Allah) to take the misleaders as helpers).**

Verse 18:51 of Surat Al-Kahf (The Cave).

But we know it from Qur'an: the word of the Creator who witnessed it.

(Say (O Muhammad): "The knowledge of the time, it is with Allah alone", and I am only a plain warner).

Verse 67: 26 of Surat Al-Mulk (Dominion).

Creation and Evolution of Universe:

Allah says: (Allah it is He Who has created the heavens and the earth, and all that is between them in six days).

Verse 32:4 of Surat As-Sajdah (The Prostration).

But six days are not like our solar days with 24 hours per day, since our days are according to earth revolution around the sun (solar day). But in the beginning of creation, there was no sun and no moon (which were created afterwards). The day here means: the day when a major event occurs such as Arab Days in pre-Islamic Jahiliyah era, when they used to call Day of Basoos, meaning the war of Basoos which lasted 40 years, and yet Arabs called it

'Day'. Hence the six days during which this universe was created, are not solar days but universal days.

(and verily, a day with your Lord is as a thousand years of what you reckon).

Verse 22:47 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

These days are therefore phases or era which may reach millions of years, Allah knows best.

Allah talks about the **Evolution of this Universe**, stating that at the very beginning to of the creation, this universe was one mass, which was then split open by explosion, separating its components from each other. In cosmology, Lemaitre's **'Big Bang' theory of the origin of the Universe** has been accepted. The Belgian Georges Lemaitre published his theory in *Nature* (Lemaitre; *The Beginning of the World from the Point of View of Quantum Theory*, Nature" 127 (1931), n. 3210, pp. 706). Lemaitre also described his theory as ***"the Cosmic Egg exploding at the moment of the creation"***; he proposed that the **Universe has expanded** from a an initial point, namely from primordial hot and dense initial condition at some finite time in the past (best available measurements in 2009 suggest that it occurred around **13.3 to 13.9 billion years ago**), and continues to expand to this day. Indeed, the distance between galaxy clusters is increasing today (everything must have been closer together in the past). This is a proof that the Universe is neither pre-eternal nor post-eternal.

However, Qur'an precedes this discovery by 14 centuries; Allah states that the universe was created then evolved by expansion, into its current status; it also states that water is the origin of all living creatures:

(With power did We construct the heaven. Verily, We are Able to expand the vastness of space (thereof)).

Verse 51:47 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatter).

(Do not the unbelievers see that the heavens and the earth were joined together (as one unit of creation), before We clove them asunder? We made from water every living thing. Will they not then believe?).

Verse 21:30 of Surat Al-Anbiyaa (The Prophets).

Indeed, about 72% of the surface of our Globe is still covered with water, the constitution of protoplasm is about 80-85% water. The original basis of living matter is liquid or semi-liquid and in a state of constant flux and instability, it is the fact that land animals, high vertebrates, including man, show, that in their embryological stage swim like fishes in the watery liquid inside the uterus.

Creation of Man:

Allah then states that Man was created as such, from the very beginning:

(He Who created all things in the best way, and He began the creation of man from clay).

Verse 32:7 of Surat As-Sajdah (The Prostration).

(Among His Signs is this, that He created you from dust; and then, behold, ye are men scattered (far and wide)!)

Verse 30:20 of Surat Ar-Rum (The Romans).

(Behold, thy Lord said to the angels: "I will create a vicegerent on earth."....And He taught Adam the names of all things....).

Verse 2:30-31 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

(It is He Who had produced you from a single soul: then there is a resting place and a repository: We detail Our signs for people who understand).

Verse 6:98 of Surat Al-An'am (The Cattle).

(Behold, thy Lord said to the angels: "I am about to create man from clay". "When I have fashioned him and breathed into him of My spirit, fall ye down in prostration unto him").

Verse 38:71-72 of Surat Sad (being one of the Abbreviated etters).

Thus the clay or the dust represents the material physical element of Man, plus another element: the spirit that Allah says: **"When I have fashioned him and breathed into him of My spirit".**

Allah thereafter, affirms the fact of Creation in Pairs:

(O mankind! Fear your Guardian Lord, who created you from a single person, created out of it, his mate, and from them twain scattered (like seeds) countless men and women).

Verse 4:1 of Surat An-Nisaa (The Women).

It appears from such verses of Qur'an that Allah has created from clay and breathed into him His spirit; He then created Eve: there two schools of interpretation here. There are scholars who thinks Eve was created from Adam's rib and that is also present in the Genesis of Torah. However, there is another school who thinks that Eve was created from Adam's -like (i.e. same species and construction) indicating that the Arabic word ***'out of it'*** does not mean: part of it, but means: of Adam's like (same species) as seen in Allah's sayings ***'from among yoursel,"*** and *'of your nature'*:

(And among His Signs is this, that He created for you mates from among yourselves, that you may dwell in tranquillity with them, and He has put love and mercy between your (hearts); verily in that are signs for those who reflect).

Verse 30:21 of Surat Ar-Rum (The Romans).

(And Allah has made for you mates of your own nature, and made for you, out of them, sons and daughters and grandchildren, and provided for you sustenance of the best: will they then believe in vain things, and be ungrateful for Allah's favours?).

Verse 16:72 of Surat An-Nahl (The Bee).

Thus Eve was created from the same nature of Adam, in order that he will love her and she will love him, since both are of the same kind.

Furthermore, Allah confirms the creation of everything in pairs, from the start: male and female, whether they are animals or plants. And this is a fascinating Qur'anic scientific discovery that plants are sexually paired (into male and female), just like animals (Qur'an reference to plant sexual pairing came 14 centuries earlier): Allah Most High says:

(And has sent down water from the sky, with it We have produced diverse pairs of plants, each separate from the other).

Verse 20:53 of Surat Ta-Ha.

(Glory to Allah, Who created in pairs all things that the earth produces, as well as their own (human) kind and (other) things of which they have no knowledge).

Verse 36:36 of Surat Ya-sin (being Abbreviated Letters).

However, this paired principle of creation extends beyond humans, animals, and plants to include absolutely all creatures: from nigh and day, light and darkness, forces of gravity and repulsion, even the atom has positive and negative particles. In the spiritual and emotional world too we see the paired principle: good and bad, love and hate, rest and work, justice and mercy; thus Allah says:

(And of everything We have created pairs: that ye may reflect).

Verse 51:49 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatters).

But Allah also states that He is The Absolute Creator of everything in this universe, and that He is the Only One Unique in characters and differs from all His creatures, He is thus excluded from this paired principle and from procreation and children; None look like Him and He does not look like any of His creatures. Hence, He is The Only One worthy of worship:

(He is the Wonderful Originator of the heavens and the earth. How can He have a son when He has no consort (wife)? He created all things and He is the All-Knower of everything. That is Allah, your Lord! There is no god but He, the Creator of all things. So worship Him (Alone), and He is the Trustee having power to dispose of all affairs).

Verse 6:101-102 of Surat Al-Anam (The Cattle).

Unique Creation of Man:

Man is unique and unparalleled by any animal in animal kingdom in the followings:

1. **Human genome is unique among all animals,** and does not support Darwin evolutionary theory of monogenesis of animals coming out of one organism; the genes are the preserving units of the species since its original creation and existence. In a 2009 review article entitled "Darwinian evolution in the light of genomics", published in Nucleic Acid Research, Eugene V Koonin concluded, "There is no consistent tendency of evolution towards increased genomic complexity" through mutation as expected with current evolutionary theories. **Mechanisms of evolution remain beyond any known natural law.** Furthermore, the claim of special similarity between the genome of Man and Chimpanzees is False, since chimp's genome has not been plotted yet, and such similarity is aminor matter not dissimilar from that of Man with other animals' genome.
2. **Man's erect position being tail-less with the freedom of upper limbs** (for movement).
3. **Thumb opposition to the rest of hand fingers** enables man to carry out fine movements with precision, such as writing, calligraphy, typing on the typing machine or on the computer key-board, drawing, musical rendition, and buttoning the shirt, etc. Hence, accidental loss of the thumb represents 50-60% of the total hand functional/physiological loss (for the purpose of medico-legal compensation), while loss of one finger of other 4 fingers represents 10% of the total hand functional loss.

4 **Geometric spatial shape of human larynx and vocal cords** enables man of pronunciation of letters and words, constructing a language that forms the basis of his social development. Add to this, Man's ability to read (see below).

5 **Brain weight and the unusual growth of cerebral cortex** enable man to control and inhibit his human behaviour according to the values and morals that man believes in. Human cerebral cortex is far more complicated than any animal; it performs many functions, such as reading, reflection, imagination, thinking and believing. These functions collectively attribute to the **human Mind**.

6 **Human Spirituality (consciousness, piety and worshipping) and emotions (Man cries and laughs)**. Spirituality was the decisive factor separating Wallace from Darwin.

Despite that Wallace believed in 'natural selection', he was a **spiritualist**. He maintained that 'natural selection' cannot account for **mathematical, artistic, or musical genius, as well as metaphysical musings, and wit and humour. Furthermore, he believed that natural selection was insufficient to explain the development of consciousness.** He eventually said that something in **"the unseen universe of Spirit"** had interceded at least three times in history.

1. The first was the creation of life from inorganic matter.
2. The second was the introduction of consciousness in the higher animals.
3. And the third was the generation of the higher mental faculties in mankind.

He also believed that the *raison d'être* (underlying principle/basis) of the universe was the development of the human spirit. These views greatly disturbed Darwin, who argued that spiritual appeals were not necessary and that 'sexual selection' could easily explain apparently non-adaptive mental phenomena. Wallace's public advocacy of spiritualism strained his relationships with previously friendly scientists who based their ideology purely on material basis, such as Henry Bates, Thomas Huxley, and even Darwin, who felt that Wallace was overly credulous!!!

Sustenance of Man and Subjection of Universe for Man:

Allah has guarteed the sustenance of all creatures including the Mankind with all races and colours; thus Allah says:

(And in heaven is your Sustenance, and that which you are promised. Then by the Lord of heaven and earth, it is the very Truth, as much as the fact that you can speak intelligently to each other).

Verse 51:22-23 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatters).

Allah Most High says: **(It is He Who created for you all things that are on earth).**

Verse 2:29 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

Thus Allah has created Man as His vicegerent, and at the same time He created in earth everything that Man needs. Furthermore, Allah created Man, while everything in Heavens and Earth were created and subjected for Man's service, therefore, Man and subjected things were all the creation of God: **(And has subjected to you, as (a kindness) from Him, all that is in the heavens and all that is in the earth; Behold in that are signs indeed for those who reflect).**

Verse 45:13 of Surat Al-Jathiyah (TheKneeling).

Also Allah (God) secures the provisions and sustenance of all creatures, including Man in his various races and colours; Allah Most High says:

(Say "Who gives you provision from the heavens and the earth?" Say: Allah.).
Verse 34:24 of Surat Saba' (Sheba).

(And so many a moving (living) creature carries not its own provision! Allah provides for it and for you. And He is the All-Hearer, the All-Knower).

Verse 29:60 of Surat Al-Ankabut (The Spider).

(And kill not your children for fear of poverty. We shall provide for them as well as for you. Surely, the killing of them is a great sin).

Verse 17: 31 of Surat Al-Isra' (The Journey)

This is the complete undermining of Malthus theory regarding the scarcity of natural (food) resources in relation to increasing human population.

The True Facts of Evolution

But Allah also states the true fact of evolution, in terms of ***'Embryological Evolution'*** in the wonderful Qur'anic description in beautiful plain Arabic language:

(And indeed We created man (Adam) out of quintessence of clay (water and earth). Then We made him (the offspring of Adam) as a *Nutfah* (mixed drops of the male sperms and female sexual ova discharge - placed) in a safe place of rest (firmly fixed to the womb of the woman). Then We made the *Nutfah* into *Alaqah* (a hanging leech-like clot), then We made *Alaqah* into a little lump of flesh (foetus), then We made out of the little lump of flesh, bones, then We clothed the bones with flesh, and then We developed out of it another creation. So blessed is Allah, the Best to create! After that, surely, you will die. Then (again) surely, on the Day of Judgment, you will be raised up).
Verse 23:12-16 of Surat Al-Muminun (The Believers).

The similarity between some embryological stages of the animals is not evidence (as Haeckel said) for the evolution of the adults of these animals from each others.

Furthermore, Islam confirms another true fact of ***'Evolution of Human Age'*** from birth to death, passing through the stages of intra-uterine **foetus**, to newly-born **baby**, to **child**, to **adult**, to **elderly:**

(O mankind! If you are in doubt about the resurrection, then verily, We have created you (Adam) from dust, then from a *Nutfah* (mixed drops of the male sperms and female sexual ova discharge i.e. the offspring of Adam), then from *Alaqah* (leech-like clot) then from *Mudghah* (morsel or a little morsel lump of flesh) – some formed and some unformed (as in the case of miscarriage) – in order that We may manifest (Our Power and Ability to do what We will) to you. And We cause whom We will to remain in the wombs for an appointed term, then We bring you out as babes, then (foster you) that you may reach your age of full strength. And some of you are called to die, and some are sent back to the feeblest old age, so that they know nothing after having known (much). And (further) you see the earth barren (lifeless), but when We pour down water (rain) on it, it is stirred (to life), and it swells and put forth every kind of beautiful growth (in pairs)).

Verse 22:5 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

Islam also, states the ***'Transition of Human Life between Four Places'***: from **foetal stage in the uterus**, to his **life in this world**, to the **life in the grave** (***burzukh***, from the time of his death till the Day of Judgement), and finally to the **eternal life hereafter** (either in Paradise or in Hell). And in this, there is a proof the *spirit* or *soul*, once created, it will never perish; thus Allah says:

(It is Allah Who has created you, then provided you with sustenance (in this worldly life), then He will cause you to die; then (again) He will give you life (on the Day of Resurrection). Is there any of your (false) partners (of Allah) who can do any single one of these things? Glory to Him! And High is He above all the partners they associate (with Him)).

Verse 30:40 of Surat Ar-Rum (The Romans).

Moreover, Islam refers to ***'Reversed Evolution'***, opposite to Darwin's theory of evolution from the small to the large; it states that Adam was very tall in stature and height when he was created. Thereafter the stature and height of children of Adam (Mankind) continued to reduce gradually until they reached our current stature and height (without change in shape or figure); On the authority of Ubai bin Ka'ab, that the Prophet (Peace be upon him) said:

"Allah had created Adam a tall man, with thick hair in the head, as if he is a *schooq* date-palm (*sahooq*, meaning tall date-palm); when he tested the (forbidden fruit of) tree, his dress fell down, and his Awra (genital area) was shown first, and when he looked down at his exposed Awra, he was moving in agony, and a tree trapped his hair, but he pulled through, then Most Gracious (God) calls him: O Adam, are you running away from Me? When he heard the voice of Most Gracious (God), he said: O Lord, No but out of shyness".

Narrated by Ibn Abi Hatam 1/129, and Ibn Kathir in his interpretation of Qur'an.

This means that with every following century, the stature and height of the human beings were shorter than the century before (the preceding century), until the stature reached the current height and stabilised at that level. Perhaps, the giant stature of earlier mankind (children of Adam) has a wisdom at that time: in order to proportionate with the height of the giant dinosaur animals of that time (which are now extinct together with the extinction of earliest giant generations of Adam).

It is narrated by Abu Huraira that the Prophet (peace be upon him):

"Allah created Adam, making him 60 cubits tall. When he created him, He said to him: 'Go and greet that group of angels, and listen to their reply, for it will be your greeting (salutation) and the greeting of your offspring. So Adam said (to the angels): 'As-Salamu Alaikum' (i.e. Peace be upon you). The angels said: 'As-Salamu Alaikum wa Rahmatu-l-lahi'. Any person who will enter Paradise will resemble Adam (in appearance and figure). People have been decreasing in stature, since Adam's creation".

Sahih Al-Bukhari, Hadith no. 543 under the Book of The Prophets.

Squaring the Circle: Adapting Evolution to comply with Islam!

Islam is the eternal Truth in the purest form. Attempts of the apologetics to make evolution theory compliant with Islam and vice versa are futile. When a theory becomes an established scientific fact, then Islam accommodate such facts without contradiction. But the Neo-Darwinists had manipulated evidence to support their biased conclusion, and had converted a theory (already in crisis) into a pseudo-science.

Those who attempted to make Islam compliant with Darwin's Theory of Evolution relied on the misinterpretation of the following Qur'anic verses:

(Seeing that He has created you in diverse stages?).

Verse 71:14 of Surat Nuh (Noah).

According to Ibn Kathir interpretation of this verse of Qur'an, he said: (it is stated: It means **from Nutfah, then Alaqah and then Mudghah,** as stated by Scholars: **Ibn Abbas, Ikrimah, Qitadah, Yahya bin Rafi', al-Saddi, and Ibn Zaid). See also** ***Verses 23:12-14 and Verse 22:5*****.**

As for Allah's saying:

(Allah has created every moving (living) creature from water. Of them there are some that creep on their bellies, and some that walk on two legs, and some that walk on four. Allah creates what He wills. Verily, Allah is Able to do all things).

Verse 24:45 of Surat An-Nur (The Light).

There is nothing in this Verse to suggest that the animals were evolving from one primordial primitive organism, far from it: it appears that animals were created directly from water, independently from each other. Furthermore, this wonderful Qur'anic verse reveals that water is the origin of life, with a beautiful simplified classification of animals. Verses like this, were always a source of inspiration for Muslim Scientists of Biology (See Below).

As for the Verse of metamorphosis as a punishment for some of the children of Israel and witnessed by others among the Children of Israel:

(And well you knew those amongst you who transgressed in the matter of the Sabbath (i.e. Saturday). We said to them: "Be you apes, despised and rejected".

Verse 2:65 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

(Say: 'Shall I point out to you something much worse than this, (as judged) By the treatment it received from Allah? Those who incurred the curse of Allah and His wrath, those of whom (some) He transformed into apes, and swine. Those who worshipped Evil (Taghut): These are (many times) worse in rank, far more astray from the even Path!).

Verse 5:60 of Surat AlMa'idah (The Table Spread with Food).

These Verses don't help evolutionists either, because Man was already present before and after the metamorphosis; in addition to the fact that there was No offspring from the metamorphosed subjects. Indeed, we were told what the Prophet (Peace be upon him) said in response to someone asking him whether the Monkeys and the swine, were the offspring of those who had suffered the metamorphosis.

Thereupon he (the Holy Prophet) said: **Verily, Allah did not cause the race of those who suffered metamorphosis, to grow or to be succeeded. Monkeys and swine had been in existence even before (the metamorphosis of the human beings).**

This is a true 'Sahih' Hadith, narrated by Abdullah bin Mas'oud, in Sahih Muslim under 'Book of Fate' section; it is also mentioned by Ibn Kathir in his interpretation of Qur'an.

Pioneering work of Muslim Scientists in Biology:

Muslim Scientists were among the first to seriously study Zoology and Botany, through the extrapolation derived from the Holy Qur'an and Prophet sayings (Hadith), then quoting the expert opinions specialised in the field, that is in addition to their personal observations and practical applications and experiments.

1. the concept of *'struggle for existence'* was mentinoned by Al-Jahiz in his 'Book of Animals' (before Darwin's 'survival for the fittest').
2. Al-Jahiz developed his theory of *'Evolution by Adaptation to Environment'*.
3. Also, **'evolution of new species by continuing hybridization'** was mentioned by Al-Jahiz, and elaborated by Ibn Qutaibah al-Dainouri.
4. Avenpace considered **'man as the talking and the perfect animal'** in his book of animals.
5. **Ibn Khaldun** propounded the concept of '**upgraded construction of creatures**' in his Introduction (long before Wallace/Darwin's *'Natural Selection'*).
6. Al-Rumi mentioned **'Spiritual Evolution'.**
7. Ibn Tufail described **'Evolution of Human Knowledge'.**

Abu Othman bin Bahr known as Al-Jahidh or Al-Jahiz (because of his goggled eyes) born in Basrah (today Iraq) in 780 AD. His father died when al-Jahiz was a few months old. Despite the family's poverty, al-Jahiz's mother was able to send her son through the local Qur'anic school. His mastery of the Arabic language and unusual intelligence made him famous before he moved to Baghdad, where he continued to work as one of the advisors to the Caliph. Al-Jahiz' ***Kitab al-Hayawan* (The Book of Animals)** is a wonderful encyclopaedia of 7 volumes written in plain and beautiful Arabic language with huge number of vocabulary, containing anecdotes, poetic descriptions and proverbs, and **describing over 350 varieties of animals**. Thus Al-Jahiz deserved to be considered the first Muslim/Arab Zoologist. Al-Jahiz returned to Basra after spending more than 50 years in Baghdad. He died in Basra in 868 AD, as a result of an accident in which he was crushed to death by a collapsing pile of books in his private library. A fitting death for a great writer!

In the footsteps of al-Jahiz, came **Abdullah bin Muslim bin Qutaibah al-Dainouri** (died 276 Hijri) who devoted part of his book **'Eyes of News'** to the animals according to his own observations and original views.

Abu Bakr bin Bajah, the great Andalusian philosopher, known in the West by his Latinized name, **Avenpace** or **Avempace** has a book entitled ***'Kitab al-Haywan'*** (The Book of Animals). He was born in Zaragoza in what is today Spain and died in Fes, Morocco in 1138 AD (529 Hijri). He worked, for some 20 years, as the vizier of Yahyâ ibn Yûsuf Ibn Tashufin, another brother of the Almoravid Sultan Yusuf Ibn Tashufin (died 1143) in Morocco.

Then came **Zakariya Al Qazwini** who wrote his book ***(wonders of things created and marvels of existing things)*** circa 1270. Then came, Kamal-uddin Al-Dumairi (1341-1405) who wrote his major book ***(Great Life of Animals).***

On the other hand, **Ibn Khaldun** (1332 – 1408 AD) is the first to refer in his Introduction to the phenomenon of "**Graduated Construction**" among the creatures; he linked it to the design of The Creator God, The Fashioner, and The Originator.

Furthermore, Muslim scholars and scientists pioneered the correct concepts of evolution (in its true meaning) long before Lamarck, Darwin and Haeckel (preceding them by 12-13 centuries), through their personal observations and experiments, and guided by their extrapolations from Qur'an and Prophetic Hadith and Arabic sayings; yet this had never led to atheism or to deny the presence of God.

To be more precise, It was **Al-Jahiz** who developed an early ***theory of evolution by adaptation*** and pioneered the concept of ***'struggle for existence'*** (the precursor or antecedent of Darwin's 'survival for the fittest') by animals fighting for resources, to avoid being eaten, and to breed. Also it was Ibn Khaldun who propounded the concept of 'upgraded construction of creatures' in his Introduction (long before Wallace/Darwin's '***Natural Selection'***).

Al-Jahiz was the first to develop an early theory of evolution; he is the first to describe the **'struggle for existence': for resources, to avoid being eaten and to breed.**

Perhaps, it was Al-Jahiz who pioneered the concept of **'symbiosis'** or cooperation in the animal world, extrapolating his concept from interpretation of Qur'an (i.e. Allah's subjection of nature for Man's use). In 'Book of Animals', first volume, page 36, Al-Jahiz says: **(God Allah had never created anyone (creature) capable of surviving independently by itself without the help of some of those subjected to it (musakh'ar by God). Thus the nearest is subjected to the farthest, and the greatest is subjected the finest).**

Current application of **'symbiosis'** principle in Man can be seen in the terms of: **'inter-dependency between people'** or **'No man is an island'**.



Al-Jahiz also stated the superiority and the advantage of Man over all animals. Perhaps, Al-Jahiz was the first to speculate on the influence of the environment on animals, and he was an early adherent of ***'environmental determinism'*** and explained how the environment can determine the physical characteristics of the inhabitants of a certain community. He used his theories on struggle for survival and environmental determinism to explain the origins of different human skin colours, particularly black skin, which he believed to be the result of the environment (i.e. heat and humidity). Also Al-Jahiz considered the effects of the environment on the likelihood of an animal to survive, and developed an early theory of ***'Evolution by Adaptation'***. Environmental factors influence organisms to develop new characteristics to ensure survival, thus transforming into new species. Animals that survive to breed can pass on their successful characteristics to offspring.

Also Al-Jahiz, detailed his priceless ideas about ***hybridisation*** of animals to produce new species; he then stated that some of the hybrid animals can procreate. Al-Jahiz spoke in detail

about ***animal psychology*** and described the effect of ***domestication of wild animals***, such as wolf which can sometimes retain its inborn wildness over-riding characters gained by its domestication. Inspired by Qur'an, he attempted to ***classify the animals*** in a linear series; arranging them in groups (with marked similarity) and subgroups. He thus sowed the seed of scientific classification of animals.

Furthermore, Al-Jahiz was the first to discuss '**food chain**', connecting it with the '**struggle for survival**' which he argued keeps a balance in the nature and maintains a proper ratio between the animals; thus in a beautiful paragraph (volume 6 page 495/496), he said:

(The mosquitoes go out to look for their food as they know instinctively that blood is the thing which makes them live. As soon as they see the elephant, hippopotamus or any other animal, they know that the skin has been fashioned to serve them as food; and falling on it, they pierce it with their proboscises, certain that their thrusts are piercing deep enough and are capable of reaching down to draw the blood. Flies in their turn, although they feed on many and various things, principally hunt the mosquito ... All animals, in short, cannot exist without food, neither can the hunting animal escape being hunted in his turn. Every animal even if is weak, would eat its weaker animal, and every strong animal must be eaten by its stronger animal. And some people are like that in their relationship with each others, despite the difference in the magnitude; and therefore, Allah has made in the death of some (creatures), a life for others).

Thus, Al-Jahiz draws balanced portraits of the nature between the positive '**symbiosis**' phenomenon, and the **negative** 'struggle for survival'.

Ibn Qutaibah al-Dainouri propounds in his book '**Eyes of News**' his views about development of new species of animals through continuous hybridization; he says:

(the hyenas in Abyssinia mate with camels giving birth to offspring similar to both: the camel and the hyena. If it happens that that offspring is a male, which mate with the addax, their breed would be a giraffe (Arabic *zarrafah*). That is why giraffe name entails a group of animals, despite being singular, because it is the offspring of camel, addax, and hyena; hence *zarrafah* in Arabic speech means a group)


Ibn Bajah

Ibn Qutaibah has sharp observations of animals; for instance, he says: **(animals with illuminating bright eyes at night include the eyes of lions, tigers, cats, and snakes).**

For the qualities of a [military] leader, Ibn Qutaibah quotes the Turkish greats' saying:

(The great leader must have some of qualities of animals: the audacity of a cock, the motherly passion of a hen, the heart (courage) of a lion, the launching attack of a pig, the cunning of a fox, and the manoeuvrability of a wolf).

In Ibn Bajah's or Avenpace's '***Kitab al-Haywan***' (The Book of Animals), is retrieved from the manuscripts of Oxford and Berlin, and presented by Jawad al-amarati, printed by al-markaz al-Thaqafi al-Arabi, 2002. Ibn Bajah or Avenpace says, page 148:

(Among animals are those without [distinct] male and female, and among them are those with males without females...and as for the animal without male or female, we should not call as a complete animal, but closely related to plants....but the complete animal as a whole had male and females).

Also Avenpace says, page 186:

(Some of these appendages do not contain body structure, because they are placed externally. All such appendages act like a tool, for instance horns, feathers, tails and canine teeth. Some of these are for protection only and some are for survival like canine teeth. Some of the fishes parts constitute saws or claws, yet some other appendages are for beauty as in the tails of peacocks and fowls, and the cocks' comb and tail, and some [appendages] like eyebrows are for both protection and beauty).

Furthermore, Avenpace says in page 189:

(and the most complete is the one provided with all best organs. Thus, the bones are far superior in its function than the thorny spine. And so are other organ powers, and thus Man is the best of all animals).

As for Ibn Khaldun, he used the term *"**Graduated Construction**"* which precedes Darwin's term of Evolution by 5 centuries. Ibn Khaldun's *'Graduated Construction'* is classification ladder of the construction of creatures according to their order of complexity, without entering into dialectical philosophy of evolution, because mere similarity between creatures does not mean an evolution in terms of actual transformation from the simple to the complex. In ***Ibn Khaldun's Introduction*** (The First volume of **Ibn Khaldun's History**, published by Dar Ihya' al-Turath al-Arabi, Beirut (undated), page 95), he said:

(Let us now mention the interpretation of the fact of Prophethood, according to what had been explained by most Scholars, and then we mention the facts of divination and dreams, and then the issue of foretellers with other issues of knowing the unknown, so we say: Know, May Allah guide you and guide us with you, that we see this world with all the created things in it has a certain order and solid construction. It shows nexuses between the causes and things they caused, combinations of some parts of creation with others, and transformations of some existent things into others, in a pattern that is both remarkable and endless.

And let us start from this physically recognised world. First the World of Elements seen how they transformed from earth to water to air to fire, and yet connected to each other. And each one of them is prepared to transform upwards and downwards to the following one, and it transforms occasionally, and the one that transformed upwards becomes more pleasant than the one before, until it reaches the cosmic world, where it becomes the most pleasant of all and arranged in layers connected with each others in an order that is not recognised except by their movement; and through which some are guided to the knowledge of their measures and positions, and much more about the presence of the subjects which had such effects on them.

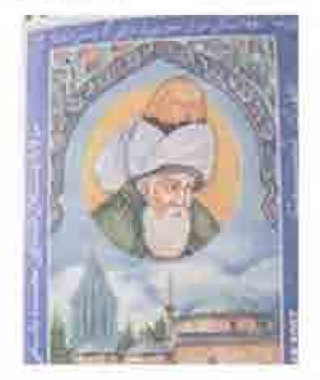
Then take a look at the world of creation, how it started out from the minerals and progressed, in an ingenious, gradnal manner, to plants, and then to animals. The last horizon of minerals is connected with the first horizon of plants, such as herbs and

seedless plants. The last horizon of plants, such as date-palms and grape-vines, is connected with the first horizon of animals, such as snails and shellfish which have only the power of touch. The word 'connection' with regard to these created things means that the last horizon of each group is strangely prepared to become the first horizon of the following group.

The animal world then widens, its species become numerous, and, in a gradual process of creation, it finally leads to man, who is able to think and reflect, to whom ascends from the world of capability, in which both sagacity and perception are found, but which has not reached the stage of actual reflection and thinking. At this point we come to the first horizon of man. This is as far as our (physical) observation extends).

Ibn Khaldun later goes on to talk about the spirit or the soul which is connected to the physical world and sensed through the effects of growth and perception; he explained that the spirit lifts the man from the world of Man upwards towards the world of angels.

Ibn Khaldun views on the ***'gradual construction'*** among the creatures: from the simplest to the most complex provides the correct understanding of evolution, better than that of Darwin.



Sufi Mawlana Jalaluddin Rumi (1207 –1273), a 13th-century Persian Turkish poet and jurist, and founder of 'Whirling Dervishes'; he was known as Rumi "the Roman" since he lived most of his life in what was once ruled by the Roman Byzantine Empire.

Spiritual Evolution: Rumi was an evolutionary thinker in the sense that he believed that the spirit goes in a circle, so after devolution from the divine Ego, undergoes an evolutionary process by which it comes nearer and nearer to the same divine Ego. All matter in the universe obeys this law and this movement is due to an inbuilt urge (which Rumi calls "love") to evolve and seek enjoinment with the divinity from which it has emerged. Evolution into a human being from an animal is only one stage in this process (see below). Rumi believes that there is a specific *goal* to the process: the attainment of God. For Rumi, God is the ground as well as the goal of all existence.

Rumi need not be considered a biological evolutionary creationist. Rumi lived 6 centuries before Darwin, and was least interested in scientific theories, it is probable to conclude that he does not deal with biological evolution at all. Rather he is concerned with the spiritual evolution of a human being: Man not conscious of God is akin to an animal and true consciousness makes him divine.

Nicholson has seen this as a Neo-Platonic doctrine: the universal soul working through the various spheres of being, a doctrine introduced into Islam by Muslim philosophers like Al-Farabi and Ibn Sina's idea of love as the magnetically working power, through which, life is driven upwards.

(I died as a mineral and became a plant, I died as plant and rose to animal, I died as animal and I was Man. Why should I fear? When was I less by dying? Yet once more I shall die as Man, to soar With angels blessed; but even from angelhood I must pass on: all except God doth perish.

When I have sacrificed my angel-soul, I shall become what no mind ever conceived. Oh, let me not exist! for Non-existence Proclaims in organ tones, To Him we shall return).

Rumi insisted on the importance of religious observance, the primacy of the Qur'an and what he believed to be superiority of Islam:

(Flee to God's Koran, take refuge in it there with the spirits of the prophets merge. The Book conveys the prophets' circumstances those fish of the pure sea of Majesty).

Al-Jahiz, Ibn Khaldun, and Sufi Mawlana Rumi while referring to changes in the nature, they always maintained their belief in certain constant concepts, such as the concept of The Creator God, The Designer of this Universe, and The Fashioner of different worlds of plants, animals, and humans. More importantly, none of the natural concepts adopted by Al-Jahiz or by Ibn Khaldun had ever led to atheism, or to the denial of God. On the contrary, their concepts reinforced and consolidated the belief in God, The Maker and The Inventor of nature

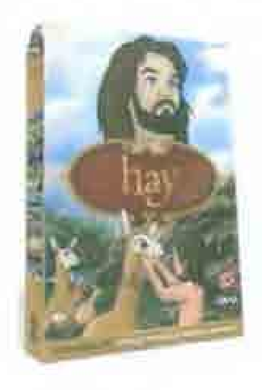
Indeed, it became customary for famous Arabic linguists, such as al-Fairuzabadi' Dictionary: **Al-bahr Al-Muheet**, *(The Surrounding Sea)* to define the word: **nature** (***Tabi'ah***) as the creation (***khaleeqah***). Thus the "nature" in the Arabic Islamic philosophy is a synonym with 'Allah's creations'.

Al-Jahiz's theory of evolution was something very new in the history of science, and there was nothing written previous to it. Although Greek philosophers, such as Empedocles and Aristotle spoke of the change in Nature, in plants and animals, they never made the first steps on the field of the future theory of evolution as Muslims did. Their concept of change was only simple and never designed explicitly or implicitly a concept of evolution.

Thus, approximately 1,000 years before the British naturalist (Darwin) published his theory of evolution in the Christian West (many concepts of his theory were erroneous), a scientist working in Muslim Baghdad (Al-Jahiz) was thinking along similar lines, but he got right.

The pioneering work of Al-Jahiz has been confirmed by many evidences:

- Eighty-seven folios (87) of the *Book of Animals* (about one-tenth of the original text by al-Jahiz) are preserved in the Ambrosiana Library in Milan. This collection (a copy of the orginal) dates from the 14th century and bears the name of the last owner, 'Abd al-Rahman al-Maghribi, and the year 1615. These folios of the *Book of Animals* contain more than 30 illustrations in miniature.
- Al-Damiri's book 'Hayat al-Hayawan' was partially translated into Latin by a Jewish translator, called Abraham Echellensis (d. Italy 1664) and published in Paris in 1617. This book contains many passages taken from al-Jahiz's Kitab al-Hayawan.
- **Ibn Tufayl's 'Hayy Ibn yaqzan'**, which contains the philosophy of proper evolution of human knowledge, was first published by Edward Pocockes, Sr. (1604-1690), together with a Latin translation published by Edward Pococke, Jr. (1648-1727) in Oxford in 1671 (2nd edition, Oxford, 1700). **Ibn Tufail (or Tufayl)** or **Abu Bakr Muhammad ibn Tufail al-Andalusi** (1105– 1185); (Latinised: **Abubacer Aben Tofail**; Anglicised: **Abubekar Ebn Tophail).**

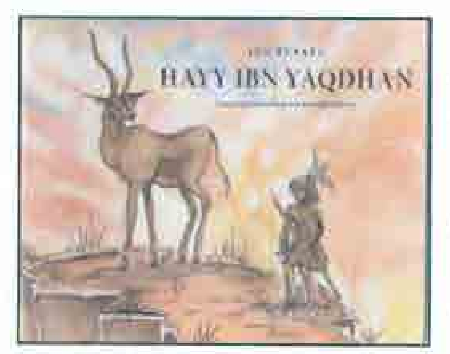


He was in his sixties when he met Ibn Rushd in 564 Hijri/ 1169 AD. Born in Wadi Ash (Guadix), a small town in Spain northeast of Granada, he died 87 years of age in Morocco in 581 Hijri/ 1185 AD. Ibn Tufail was the second most important Muslim philosopher in the West, the first being Ibn Bajah (Avenpace or Avempace). He served as a secretary for the ruler of Granada, and later as vizier and physician for Abu Yaqub Yusuf, the Almohad ruler of Al-Andalus (Andalusia), to whom he recommended Ibn Rushd (Averroes) as his own future successor in 1169 (see below).

Ibn Tufail was the author of ***Ḥayy ibn Yaqẓān*** or ***Hayy ibn Yaqdhan*** (***Alive, son of Awake, or The Living Son of the Vigilant***), also known as ***Philosophus Autodidactus*** in the West, a philosophical allegorical novel inspired by Avicenna and Sufism and as a response to al-Ghazali's *'The Incoherence of the Philosophers'*. Ibn Tufail tells the story of an **autodidactic feral child**, raised by a gazelle and living alone on a desert island in the Indian Ocean. After his gazelle mother passes away when he is still a child, he dissected her body and performs an autopsy in order to find out what happened to her. The discovery that her death was due to a loss of innate heat (its soul) sets him **'on a road of scientific inquiry'** and **self-discovery**, and without contact with other human beings, he discovers ultimate truth through a systematic process of ***reasoned inquiry***. Hayy ultimately comes into contact with civilization and religion when he meets a castaway named ***Absal***. He determines that certain trappings of religion, namely imagery and dependence on material goods, are necessary for the multitude in order that they might have decent lives. However, imagery and material goods are distractions from the truth and ought to be abandoned by those whose reason recognizes that they are distractions. Ibn Tufail drew the name of the tale and most of its characters from an earlier work by Ibn Sina (Avicenna). Ibn Tufail's book was neither a commentary on, nor a mere retelling of Ibn Sina's work, but a new and innovative work in its own right.

It reflects one of the main concerns of Muslim philosophers (later also of Christian thinkers), that of **reconciling philosophy with divine revelation**.

The narrative anticipates in some ways both: Daniel Dofoe's "Robinson Crusoe" and Rousseau's "*Emile or On Education*". It tells of a child who is nurtured by a gazelle and grows up in total isolation from humans. **In 7 phases of seven years each, solely by the exercise of his faculties, Hayy goes through all the gradations of knowledge.** The story of *Hayy Ibn Yaqzan* was also copied by **Edgar Rice Burroughs' "Tarzan"**, a baby abandoned in a deserted tropical island where he was taken care of and fed by a mother 'wolf', and later became a man of great strength and agility, brought up in the jungle and lives with apes (notice the name '**Tarzan**' is corrupted from '**Yaqzan**'). It was also corrupted and modified by the later story of Mowgli in Rudyard Kipling's "**The Jungle Book**" in that a baby is abandoned on a tropical island where he is taken care of and fed by a mother wolf.



Latin translation of the work, entitled ***Philosophus Autodidactus***, first appeared by **Mirandola** (1494 A.D.) and later translation appeared in 1671, prepared by Edward Pococke, the Younger.

The first English translation of the novel was published by George Ashwell in 1686, based on Pococke's Latin translation. The first English translation of the Arabic original text, entitled ***The Improvement of Human Reason: Exhibited***

in the Life of Hai Ebn Yokdhan, was published shortly after by Simon Ockley in 1708, followed by two more English translations. It later, appeared in many other languages. ***Philosophus Autodidactus*** also inspired Robert Boyle, another acquaintance of Pococke, to write his own philosophical novel set on an island, *The Aspiring Naturalist*. In Paris, Pococke's agent also wrote to him stating that he ***"delivered a copy to the Sorbonne, for which they were very thankful, being much delighted with it."*** An accurate French translation was also published that same year by Prof. L. Gauthier at Algiers.

Baruch Spinoza also read the work and soon encouraged a Dutch translation, which was published by his friend Johannes Bouwmeester in 1672. Another Dutch translation, ***De natuurlijke wijsgeer***, was published by Adriaan Reland in 1701. There were also two German translations of the novel, the first based on the Latin translation and the second based on the Arabic original. One of these translations was read by Gottfried Leibniz, who praised it as an excellent example of classical Arabic philosophy.

In 1761, an anonymous Crusoe story was printed in London, entitled ***The Life and Surprising Adventures of Don Antonio de Trezannio***, much of which was conveyed or paraphrased from Ockley's translation of ***Hayy ibn Yaqdhan***. The Ockley's translation was re-published in 1804 by Paul Bronnie in London. Despite ***Hayy ibn Yaqdhan*** **originally** being written in Islamic Spain, the first Spanish translation of the novel was not published until 1900, by F. Pons Boigues in Zaragoza. The novel also inspired the concept of "tabula rasa" developed in 'An Essay Concerning Human Understanding' (1690) by John Locke, who was a student of Pococke. ***Tabula rasa*** **(Latin: *blank slate*)** refers to the 'epistemological thesis' that individuals are born without built-in mental content and that their knowledge comes from experience and perception. Generally proponents of the ***tabula rasa*** thesis favour the "nurture" side of the nature versus nurture debate, when it comes to aspects of one's personality, social and emotional behaviour and intelligence. His ***Essay*** went on to become one of the principal sources of Empiricism in modern Western philosophy, and influenced many enlightenment philosophers, such as David Hume and George Berkeley. Hayy's ideas on materialism in the novel were also copied and modified by Karl Marx's historical materialism. ***Tabula Rasa*** is also featured in Sigmund Freud's psychoanalysis. Freud depicted personality traits as being formed by family dynamics (e.g. Oedipus complex, etc.). Freud's theories show that one can downplay genetic and congenital influences on human personality without advocating free will. In psychoanalysis, one is largely determined by one's upbringing.

It also foreshadowed '**Molyneux's Problem**', proposed by William Molyneux to Locke, who included it in the second book of ***An Essay Concerning Human Understanding***. This problem as described by Ibn Tufail lies in the difference of perception of a blind man aware of his surrounding environment by heart and senses (with exception of colours, which he knew only by names), and between the perception of the same man when he opened his eyes and see things as he had imagined with 2 new important things for him, one the consequence of the other: a clarity, i.e. a greater brightness, and a great voluptuousness."

Hayy ibn Yaqzan had a significant influence on both Arabic and European literature, and it went on to become an influential best-seller throughout Western Europe in the 17th and 18th centuries. The work also had a "profound influence" on both classical Islamic philosophy and modern Western philosophy. It became one of the most important books that heralded the "**Scientific Revolution**" and European Enlightenment, and the thoughts expressed in the

novel can be found "**in different variations and to different degrees in the books of Thomas Hobbes, John Locke, Isaac Newton, and Immanuel Kant**". George Sarton considered the novel ***"one of the most original books of the Middle Ages."*** Other European writers influenced by *Philosophus Autodidactus* included John Wallis, Christiaan Huygens, George Keith, Robert Barclay, the Quakers, Samuel Hartlib, Karl Marx, and Voltaire.

In North America, **Cotton Mather's *The Christian Philosopher*** was published in 1721, he cited *Hayy ibn Yaqdhan* as an influence. Despite condemning '***Mahometans***' as infidels, Mather viewed the protagonist of the novel, Hayy, as a model for his ideal 'Christian Philosopher' and 'monotheist scientist'. Mather also viewed Hayy as a 'noble savage' and applied this in the context of attempting to understand **the *Native American 'Indians'*** in order to convert them to Puritan Christianity.

It is clear, that the European renaissance and the modern Western philosophy had in fact, emerged and thrived in the shadow of the Islamic philosophy, despite the fact that most of translated Arabic works were plagiarised, paraphrased, and had never been acknowledged. Unlike Arabic philosophy, the borrowing Western philosophy was unfortunately 'unbalanced' and lame standing on the ground with one leg, and viewing life with one eye only, owing to the fact it was disjointed and disconnected from the Islamic moral/spiritual component (this is due to the development of an anti-Church atheist trend evident in the rising Science and Secularism; **it is also due to the long past history of Crusades against the Islamic World). (Also see below).**

- **Zakariyya' al-Qazwini's cosmography**. ***'Aja'ib al-Makhluqat*** was published by **F. Wustenfeld** in 2 volumes in Gottingen in 1848-49; and ***Kitab Talkhis al-Athar of Bakuwi*****, a summary of al-Qazwini's book** was translated into French and published by **De Guignes** in Paris, in 1789. (the book contains many ideas from al-Jahiz). And **A. L. de Chezy** translated al-Qazwini's *Aja'ib*, and his translation was published in 1806 (first publication) by **S. de Sacy**, in his **Chresiomathie Arabe.**
- The spiritual evolutionist **sufi Mawlana Rumi**, had already influenced Goethe who called him **"a Darwinian before Darwin"**, his spiritual evolution was occasionally misunderstood as a theory of metamorphosis and claimed by some to have profoundly affected the development of biological theories.
- In any case, Islamic zoology penetrated the West as early as the 17th century. Some Europeans knew Arabic and they could read directly from the Muslim scientists' books; for example, **Darwin was himself initiated into Islamic culture in Cambridge under a Jewish Orientalist called Samuel Lee.** This illustrates Muslim influence upon Europeans, and the transmission of their ideas to the West.

(The pioneering work of Al-Jahiz has also been confirmed by many studies, including:

1. Conway Zirkle **(1941). Natural Selection before the "Origin of Species"**, *Proceedings of the American Philosophical Society* 84 (1), p. 71-123
2. Mehmet Bayrakdar **(Third Quarter, 1983). "Al-Jahiz And the Rise of** Biological Evolutionism", *The Islamic Quarterly*. London)

5. Dislike of Islam to Dialectical Polemics Guesses in the face of Qur'anic Decisive Facts: (Useless and Harmful knowledge)

This is the 5th principle. Despite that Islam encourages on the necessity of reflecting and thinking about the creation of universe, creation (in Arabic: nature), and man (as we have seen), but it orders Muslims to invite others to Islam with wisdom, beautiful preaching, and kind argument; Allah, Most High says:

(Invite (all) to the Way of your Lord with wisdom and beautiful preaching; and argue with them in the ways that are best and most gracious, truly, your Lord knows best who have strayed from His Path and who are guided).

Verse 16:125 of Surat An-Nahl (The Bees).

But in view of extensive Islamic explanation of the fine details of facts of creation and evolution, thus, Islam (being the only true uncorrupted religion of Allah) is **decisive in its evidence** regarding the matters of creation and the unity of Mankind (see above); and it disapproves human philosophers argumentation which is no more than **a theoretical guess**. Islam detests the incoherence of schools of Kalam or polemics, their Byzantine argumentation, and theorization opposite to the facts mentioned in Qur'an and Hadith (Prophet's sayings), making Mankind a fertile field for ominous laboratory experimentation. The philosophers of scientific racism and those of European anthropology have already downgraded Man to the lowest level; they founded false theories and laid harmful sciences, converting Man into an experimental animal; and when such theories were implemented and translated into practical terms, they led to human genocides under various titles both in the past and in modern times, from Nazism, to Communism, to Materialism, to modern Ethnic cleansing.

Allah, Most High says:

(None dispute in the Evidences of Allah but those who disbelieve; let not, then their strutting about through the land deceive you!).

Verse 40:4 of Surat Ghafir or Al-Mu'min (The Forgiver or The Believer).

And also says:

(Verily, those who dispute about the Evidences of Allah without authority bestowed on them –there is nothing in their breasts except pride, which they shall never attain to: Seek refuge then, in Allah: it is He Who is the All-Hearer, the All-Seer. The creation of the Heavens and earth is indeed greater than the creation of mankind; yet most of mankind know not).

Verse 40:56-57 of Surat Ghafir or Al-Mu'min (The Forgiver or The Believer).

Allah Most High says:

(and among mankind is he who disputes concerning Allah, without knowledge, and follows every rebellious (disobedient to Allah) Shaitan (devil) (devoid of every kind of good). For him, it is decreed that whosoever follows him, he will mislead him, and will drive him to the torment of the Fire).

Verse 22:3-4 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

He also says:

(and among men is he who disputes about Allah, without knowledge or guidance or a Book of enlightenment. (Disdainfully) Bending his side, in order to lead (others) astray

from the Path of Allah. For him there is disgrace in this worldly life, and on the Day of Judgment We shall make him taste the torment of burning (Fire)).

Verse 22:8-9 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

On the authority of Abu Umamah, that Allah's Messenger (peace be upon him) said:

"No people can go astray after being provided with guidance, without becoming argumentative (as punishment); he then recited **"They quoted not the above example except for argument. Nay! But they are a quarrelsome people).**

Verse 43:58 of Surat Az-Zukhruf (The Gold Adornments)".

Narrated by al-Ajurri and Imam Ahmad and Tirmithi, and al-Albani said True Hadith.

This indicates: that people who become misguided are punished by *becoming argumentative.*

Imam al-Ajurri said: (when the scholars amongst ***Tabi'een*** (those who saw and met with companions of Prophet Muhammad) and amongst those who followed them, hear this Hadith, they did not argue in religion, and never squabbled; and they warned Muslims not to argue nor to squabble; they ordered them to follow the traditions of the Prophet and his Sahabah (Prophet's companions). Verily, this is the path of truth-loving people, amongst those who are guided by Allah, The Most High).

Anas bin Malik transmitted it from the Messenger of Allah (peace be upon him) that **the Great and Glorious Allah said: (Verily your people would constantly question about this and that till they would say: Well, it is Allah Who created the creation, but who created Allah?).**

Narrated by Sahih Muslim Number 136.

The very words of this Hadith and the style of expression indicate the fact that persistent questioning is not desirable because sometimes such illogical argumentation leads to mental confusion.

When Allah stated Man's origin, He detested the argumentative guesses in the face of decisive Qur'anic facts; Allah Most High say: **(He has created man from a sperm-drop, and behold this same (man) becomes an open disputer!).**

Surat An-Nahl (The Bee) 16:4.

On many occasions, Prophet Muhammad (peace be upon him) asks for Allah's protection from useless and harmful knowledge, by saying:

"O' Allah, I take refuge by you from useless knowledge".

Arabic language had a major role in correcting human thinking when the great Muslim Scholar/Imam of his time stood up and delivered a fatal blow to the philosophers' faulty thinking and unsound reasoning. Although Abu Hamid Muhammad al-Ghazali lived a relatively short life (1058-1111), he established himself as one of the most important thinkers in the history of Islam. In his book: ***'The Incoherence of the Philosophers'***, written after more than a decade of travel and ascetic contemplation, al-Ghazali contends that Greek predecessors and contemporary Arab philosophers, such as Avicenna and al-Farabi (and their followers among *Ikhwan al-Safa* – or Brethren of Purity) have erred in 17 matters when they

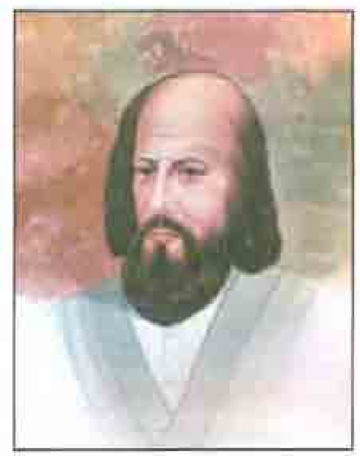
worked their mind and logic boasting of unassailable arguments on matters of the unknown metaphysics; he considered many of their assertions to represent disguised heresy and unbelief. Each matter, he addressed in detail in a chapter, for a total of 17 chapters. Al-Ghazali thought that such an undertaking was of an inherently contradictory nature, and that the work of his peers was ultimately fruitless. But in 3 other chapters, he accuses them of being utterly irreligious clashing with the messages of Prophets. Among the charges, he levelled against the philosophers:

- Refuting the doctrine of the world's pre-eternity.
- Refuting the doctrine of the world's post-eternity.
- Showing their equivocation of the following two statements: God is the creator of the world versus the world is God's creation.
- The inability of philosophers to prove the existence of the Creator.
- Their inability to prove the impossibility of existence of two gods
- Their inability to prove the Day of resurrection.
- Refuting their denial of bodily resurrection and the accompanying pleasures of Paradise or the pains of Hellfire.

Al-Ghazali did not find other branches of philosophy including physics, medicine, astronomy or mathematics problematic. His only axe to grind was with metaphysics, in which he stated that the philosophers cannot use the same tools, namely logic, which they used for other sciences.

He sets an example on the causal relationship of fire and burning, citing philosophers' view that the former is the necessary cause of the latter. Al-Ghazali, however, posits that fire is not the agent by which burning occurs, but it is God, through direct action of himself or *his* agents (i.e. Angels), that causes the burning to occur. Interestingly, his approach is wholly logical (though using convoluted logic), reflecting his desire to offer his refutation by means of the very system his opponents would purport to use, in order that they might prove their point:

"The connection between what is customarily believed to be a cause and what is believed to be an effect is not necessary...but each of the two is independent of the other."



Al-Ghazali

Al-Ghazali also criticised Galen who claimed that the sun is eternal and can never wither or reduce in size, based on the observatory evidence for thousands of years; al-Ghazali refuted observatory evidence as a relative one, because such reduction is invisible in view of the massive size of the sun (he thought sun size equal 1700 times that of the Earth at that time), to such extent that even if mountains disappear from the surface of the sun, this will not be sensed from Earth observatory.

Al-Ghazali's view stems from his belief in Islam and Qur'an:

"Everything will perish except His Face. His is the Decision, and to Him you (all) shall be returned."

Verse 28:88 of Surat Al-Qasas (The Narretion).

Averroes in his book: '**The Incoherence of the Incoherence**' (*Tahāfut al-Tahāfut*) (2 centuries later – see below) sided by Galen against al-Ghazali regarding the constant size of the sun. However, the modern science came to support al-Ghazali's view, confirming that the sun is a massive globular body (one million, three hundred thousand times larger than the Earth); and that the sun had daily huge explosions (equivalent to thousands of hydrogen bombs explosions every second), during which the sun loses 3600 tons of its mass every second. Astrologist estimated that the age of the sun is 5 billion years so far, and will continue to emit light and heat for another 5 billion years when it comes to an end (God willing).



Ibn Rushd (Averroes) (1126-1198) Abu al-Waleed Muhammad Ibn Rushd Al-Andalusi wrote a refutation of Al-Ghazali's work entitled **'The Incoherence of the Incoherence'** (*Tahāfut al-Tahāfut*) in which he defends the doctrines of 'philosophers'; it is written as a sort of dialogue: Averroes quotes passages by al-Ghazali and then responds to them. This text was not as well received by the wider Islamic audience. Ibn Rushd (Averroes) began his career with the help of his teacher **"Ibn Tufail"**, (author of *Hayy bin Yaqzan*), who introduced him to the court and to **Ibn Zuhr** (Avenzoar), the great Muslim physician who became Ibn Rushd's teacher and friend. Ibn Rushd was also a student of **Ibn Bajjah (Avenpace or Avempace)**, another famous Islamic philosopher, who greatly influenced Averroes.

In 1160, Ibn Rushd was made *Qadhi* (judge) of Seville and he served in many court appointments in Seville, Cordoba, and Morocco during his career. At the end of the 12th century, following the **Almohads conquest of Al-Andalus**, his political career was ended. Ibn Rushd's strictly rationalist views which collided with the more orthodox views of Caliph **Abu Yusuf Ya'qub al-Mansur** led to him banishing Averroes, though he had previously appointed him as his personal physician. Averroes was not reinstated until shortly before his death and before the death of the Caliph too. He devoted the rest of his life to his philosophical writings.

The Incoherence of the Incoherence was subsequently translated into many other languages. The book is considered Averroes' landmark; **in it, he tries to create harmony between Islamic faith and philosophy** (being an epitome of human wisdom that should not clash with religion). ***Jacob Anatoli*** translated several of the works of Averroes from Arabic into Hebrew in the 1200s. Many of them were later translated from Hebrew into Latin by *Jacob Mantino* and *Abraham de Balmes*. Al-Ghazali's 'Incoherence of the Philosophers' was translated along with translation of Averros work. However, Al-Ghazali's 'Incoherence of the Philosophers' was translated into English by ***Michael E Marmura.*** Despite its attempted refutation by the 12th -century philosopher Ibn Rushd, al-Ghazali's work remains widely read and more influential.

Another less critical response to al-Ghazali's *'The Incoherence of the Philosophers'* was first written by Ibn Rushd's predecessor and teacher: Ibn Tufail **(Abubacer)** as part of his Arabic philosophical novel ***Hayy Ibn Yaqzan*** (translated into Latin and English as ***Philosophus Autodidactus***). Ibn Tufail cites al-Ghazali as an influence on his novel, especially his views on Sufism, but was critical of his views against Avicennism.

In the 13th century, Ibn al-Nafis later wrote the ***Al-Risalah al-Kamiliyyah fil Siera al-Nabawiyyah*** (translated in the West, into Latin and English as ***Theologus Autodidactus***) as a response to Ibn Tufail's *Philosophus Autodidactus*, defending some of al-Ghazali's views.

The *Tahāfut* and Averroes' refutation *Tahāfut al-Tahāfut* continued to be studied in the Muslim world. Indeed, in the 15th century, the Ottoman sultan Mehmed II (a.k.a. ***el-Fatih***) commissioned 2 of the realm's scholars to write a book summarizing the ideas of the two great philosophers as to who won the debate across the time. A refutation of Ibn Rushd's arguments in ***Tahāfut al-Tahāfut*** was written by a Turkish scholar ***Mustafā Ibn Yūsuf al-Bursawī***, also known as ***Khwājah Zādā*** (died 1487), who defended al-Ghazali's views. This once again indicated to the Islamic scholars, the weakness of human philosophy, when compared with the strength of divine faith of Islam.

Nevertheless, *'Tahāfut of Philosophers'* had provided Muslims with immunity against the grave errors of the philosophers. Far from stifling philosophy in the Muslim world, the *tahafut* has piqued Muslim interest in philosophy, (while taking the necessary precautions against the philosophical errors): jurists are no longer afraid to study the works of Avicenna and al-Farabi, as is clearly evident in the works of Ibn Tufail and Averroes.

ᪧ❋ᪧ

CHAPTER IV:

Arabic: Lingua Franca of Islamic World and Medieval Ages

Lingua franca literally "Frankish tongue" from Arabic *lughat al-Firanga*; it was an Arabic custom, dating back to the Crusades, of calling all Europeans *'Franks'*. Originally a form of communication used in the Levant, a stripped-down Italian peppered with Spanish, French, Greek, Arabic and Turkish words. Then the term became used internationally as the common language of communication e.g. in business and commerce.

Arabic language is the ***lingua franca*** of Islamic communication; the progress of Arabic language to an international status is closely related to the progress of Islam. Islam is a global message, and the history and spread of Arabic language is corollary to the history and spread of Islam. Before embarking on the Routes of Arabic Influence on English language. It is imperative to know relevant facts about Arab-Islamic history in order to highlight this Arabic-English linguistic cross-fertilization.

Arabs Before and After Islam[1][2]:

The Arabs were tribes of desert nomads and Bedouins; they were sometimes referred to as locusts of the deserts. They did not have any role to play on the face of the earth; they did not have an identity of their own before Islam. Arabic language too, was marginalized and submerged under the dominant Persian and Roman languages, being representatives of Persian and Roman empires. Similarly, Arabs did not even possess currency of their own; for the currency they used in commerce and trade were the Persian silver Dirhams and the Roman gold Dinars. In the Yemen they were subjugated by either the Persians or the Abyssinians. If they had any government of their own it was under the protection of the Persians. In the north, Syria was subject to the Byzantine rule which was either direct or in the shape of an Arab government under the protection of the Byzantines. Only the heartland of the Arabian Peninsula escaped foreign rule. But this also was in a state of tribalism and division which deprived it of any weight in world power politics. Tribal war could drag on for 40 years or more! but neither individually nor as a group did these tribes count as a power in the eyes of the neighbouring mighty empires. What happened with regard to the "Elephant" aggression by Abyssinian King 570 AD was a correct assessment of the real force of these tribes when faced with a foreign aggressor.

Under Islam the Arabs had, for the first time in history, an international role to play. They also had a powerful state to be reckoned with by the world powers. They possessed a sweeping force that destroyed thrones, conquered empires, and brought down the false, deviating and ignorant leaderships in order to take over the leadership of mankind. But what facilitated these achievements for the Arabs for the first time in their history was that they forgot their Arabism. They forgot their racial urges, fanatic tribalism and their national ties and boundaries. They remembered that they were Muslims, and Muslims only; they felt they are the responsible carriers of Islamic global message. They carried the message of a forceful

and a l-comprehensive faith, which they delivered to humanity with mercy and compassion. They did not uphold any sort of nationalism or factionalism. They were the exponents of a Divine idea which gives mankind a Divine, not earthly, doctrine to be applied as a way of life. They left their homes and families to struggle for the cause of Allah alone. They were not after the establishment of an Arab-empire under which they may live in luxury and conceit. Their aim was not to subjugate other nations to their own rule after freeing them from the rule of the Byzantines or the Persians. It was an aim clearly defined by Rabaie ibn Amir, the Muslims' messenger to the Persian commander, when he said in the latter's headquarters: ***"Allah ordered us to set out in order to save humanity from the worship of creatures and bring it to the worship of Allah alone, to save it from the narrowness of this life so that it may look forward to the broadness of the life hereafter, and from the oppression of other religions so that it may enjoy the justice of Islam"*** [1][2].

Then and only then, did the Arabs have an identity, a power and a leadership. But all of these were devoted to Allah alone. They possessed their power and leadership as long as they followed the right path of Islam. But whenever they deviated and followed their narrow nationalistic ideas, and when they substituted for the banner of Islam that of factional bonds, they came under subjugation by other nations. For Allah deserted them whenever they deserted Him; He neglected them as they neglected Him. In the concise words of Umar Ibn Al Khattab (the 2nd Caliph in Islam) coming from Medina to officially open Jerusalem: ***"We Arabs are humiliated, but Allah has empowered us by Islam, so whenever we try to gain power without Islam, Allah puts us down"*** [1][2].

Thereafter, Arabic language attains an international status: official Persian filing systems in the East and Roman filing systems in the West were all translated to Arabic (called *dawa'ween, plural of di'wan* or divan). The currency too underwent major changes; all silver and gold currency metallic coins were melted down and new Islamic currency coins were manufactured with Arabic inscriptions of *'La Ilaha Illa Allah, Muhammad Rasul Allah' (There is no God but Allah, Muhammad is Messenger of Allah)* (see below).

Arabs, Carriers of the Global Message of Islam[3]:

Hugh Kennedy in his masterly book ***'The Great Arab Conquests – How The Spread of Islam Changed The World We Live In'*** wrote: (Islam had a major impact on human history; the Arab conquests following the death of the Prophet Muhammad in AD 632 changed the face of the world for ever; and shaped the world we all live in today. In the year 600 there were no Muslims. On death of Prophet Muhammad (AD 632), Islam was confined to Arabic-speaking tribesmen living in Arabian Peninsula and the desert margins of Syria and Iraq. No Arabs lived in Egypt or North Africa; Syria and Egypt formed part of the Greek-speaking Christian Byzantine Empire; and Iraq and Iran were ruled by a fire-worshipping Zoroastrian, the Sasanian king of kings. Yet in just a few decades this old world order came to an end: by 641 Arab Muslim armies conquered Syria, Palestine, Egypt and Iraq: by 700 all of North Africa; and by 720 Spain, Pakistan and much of Central Asia. Indeed, most of the population of Syria spoke Greek or Aramaic; most of those in Iraq: Persian or Aramaic; in Egypt they spoke Greek or Coptic; in Iran they spoke Pahlavi; in North Africa they spoke Latin, Greek or Berber. None of them were Muslims. In Egypt and North Africa, lands we think of as clearly Islamic, there were no Muslims and effectively no Arabic speakers, and the same was true of Iran and Afghanistan. The scale and the speed of the transformation are astonishing; within a

century of the Prophet's death, all these lands, along with Spain, Portugal, Uzbekistan, Turkmenistan and southern Pakistan (Sind), were ruled by an Arabic-speaking Muslim elite, and in all of them the local population was beginning to convert to the new religion. The speed of the Muslim conquests is amazing, but there have been other rapid conquests of vast areas in the course of human history which are in a sense comparable. The conquests of Alexander the Great or Genghis Khan immediately come to mind. What makes the Arab Muslim conquests so remarkable is the permanence of the effect they had on the language and religion of the conquered lands. Syria, Iraq, Egypt and North Africa all became Arabic-speaking Muslim countries, and in Iran, although Arabic never replaced the ancient Persian language, Islam became the dominant religion)[3].

Despite Professor Kennedy's excellent analysis of Islam ***from outside***, focusing on the objective material explanation to the question of Islamic spread and influence, yet I sincerely wished Dr Kennedy to be a Muslim in order to look at Islam ***from inside***, so that he can take Qur'an and Hadith more seriously as the first-hand credible sources of History in order to analyse the frame of mind (that Islam has caused) among the Arab Muslims, leading ultimately to victory. The following chapter therefore, will hopefully throw some light on the intellectual and spiritual background (from a Muslim Arabic perspective) to answer the questions:

- Why Islam swept the world at an unprecedented speed? and
- Why its influence was permanent? and in particular
- Why Islam effect was rather an indelible and unconvertible one – in terms of religion, and in term of its Arabic manifestation that left a linguistic legacy lingering on to the present date?

Why Islam is Needed [4 a, b, c, d] [5 a, b]

Islam came to tell Man about the purpose of his existence: Where did he come from? Why was he created? and Where is he going to (his final destiny)?

Allah (the Arabic name of God) states **the origin of Man**: that it is He Who brought Man from the earth and then settled that Man on the earth in order to live and to construct the earth for a while:

"It is He Who brought you forth from the earth and settled you therein, then ask forgiveness of Him and turn to Him in repentance, certainly, my Lord is (always) Near, Responsive (Ready to answer).".

Verse 11:61 of Surat Hud (The Prophet Hud).

Allah, The Almighty states **the position and function of Man as His Caliph** (vicegerent) on earth: **"And (remember) when your Lord said to the angels: 'I will create a vicegerent (*khalifa*) on earth.'".**

Verse 2:30 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

Arabic ***khalifa*** is the origin of English '*Caliph*', meaning the deputy of God on earth, thus Man should lead this life on earth and function according to instructions of His maker the God. The word Caliph then became the title by which the rulers of Islamic state are normally known (Abu Bakr, the first Caliph preferred to be called *khalifat rasul Allah*, successor of the

Messenger of Allah). The caliphs also had the more formal title of ***Amir al-mu'minin***, Commander of the Faithful (or Prince of Believers).

God the Most High explains that **Man was not created without a purpose**:

"Did you think that We had created you in play (without any purpose), and that you would not be brought back to Us?".

Verse 23:115 of Surat Al-Mu'minun.

(The Believers) Thus in this Universe, everything is created and planned by the Maker Almighty; the chance theory of nature is not only alien to Islam, but totally dumb to call the nature (itself a creation of God) as a creator! He (Allah) further says: **"And they say: 'What is there but our life in this world? We shall die and we live, and nothing but Time (Ad-Dahr) can destroy us'. But of that they have no knowledge: they merely conjecture.".**

Verse 45:24 of Surat Al-Jathiya (Bowing the Knee).

This is the basis of Materialistic theory, but this is not knowledge but conjecture. Why not accept light from Him Who knows all. Indeed, time is in Allah's Hand. The Prophet hadith compliments that Qura'anic verse: **"Allah Most High says: 'The son of Adam annoys Me for he abuses Ad-Dahr (Time) though I am Ad-Dahr (Time); in My Hands are all things, and I cause the revolution of day and night'."** [Sahih Al-Bukhari, Hadith 1776] ***'I am ad-Dahr'*** here means 'I am the Creator of Time, and I manage the affairs of all creation including Time.' Thus, one should not attribute anything whether cheerful or disastrous to Time, for everything is in the Hands of Allah and only He is the Disposer of everything.

Allah explains that **the reason for creation of life and death is for testing and trial of Man**. **"He Who created death and life that He may test which of you is best in deeds, and He is the All-Mighty, the Oft-Forgiving.".**

Verse 67:2 Of Surat Al-Mulk (Dominion).

But, The Almighty clearly explains the **real purpose of life**: to worship Him: **"And I (Allah) created not the jinn and mankind except that they should worship Me (Alone)."** Verse 51:56 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatter)

Indeed in Islam, the term **worship** represents the broad-spectrum of life. So far as the life activities are carried out for the sake of God, such activities are considered kinds of worship; thus eating/drinking to enable one to perform his religious duties and parayers, exercising to be fit for pilgrimage, a kind word spoken to help others, a smile to ease tension, removing harm from foot-path, feeding a spouse, and even having sex with his legitimate wife are all different forms of worshipping God. ***'Work is a worship'*** is famous saying among Muslims and is one of important Islamic values. The believers who worship Allah, will be rewarded the paradise, while the unbelievers will be punished in Hell-fire.

And God the Most High sums **Man's life journey** by saying: **"Verily, it is We Who give life and cause death; and to Us is the final return.".**

Verse 50:43 of Surat Qaf.

Indeed, the opening surah of the Qur'an (***Fatihah***, composed of 7 verses)[6] provides the **clarity of vision for the Mankind**. It sums up the relationship between Man and God; it inspires Man to study the Qur'an, to worship the Lord of the Universe, to seek for guidance from Him alone. Submission to Allah as the One and the Only God is the very foundation of

Islam. Indeed, the primary meaning of the word Islam is ***'submission to Allah' Will***. Muslims recite *Fatihah* no less than 17 times in their 5 daily prayers:

"1. In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful.

2. All Praise to Allah, Lord of the Alamin (the Universe including mankind, jinn and all that exists).

3. The Most Gracious, the Most Merciful.

4. The Only Owner (and the Only Ruling Judge and Master) **of the Day of Judgement.**

5. You alone do we worship, and You alone do we ask for help.

6. Guide us to the Straight Way.

7. The Way of those on whom You have bestowed Your Grace, not (the way) of those who earned Your Anger, nor of those who went astray.".

Verse 1:1-7 of Surat Al-Fatihah (The Opening.)

Al-Qurtubi mentioned in his interpretation of Quran: **71 important issues** in the jurisdiction and in principles of Islam, derived from "Surat Al-Fatiha" (The opening chapter of 7 verses), together with lessons on privileges and meanings of this great Sura, which is rightly called ***'the Essence of the Book'***. Furthermore, the scholar Ibn Qayyim Al-Jawzi'yah wrote a book in 3 volumes entitled **"Madarij al-Salikeen fi Iyyak Na'budu wa Iyyak Nast'een"** (***Paths of Walkers into 'Thee do we worship and Thine aid we seek'***), indicating the greatness of this chapter of Qur'an

Then The Lord justified the revelation of Qur'an as the final and most protected Scripture (Book), explaining that He had revealed earlier Scriptures (Books) to many of His messengers, but these Books were unfortunately corrupted, and were thus rendered distorted or falsified: **"O people of the Book (Jews and Christians)! There has come to you Our Messenger (Muhammad) revealing to you much that you used to hide in the Book, and passing over much (that is now unnecessary): Indeed, there has come to you from Allah a light (Prophet Muhammad) and a Perspicuous Book (this Qur'an).".**

Verse 5:15 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

The Lord described various methods adopted by <u>some</u> of the people of the Book in preventing the access of people to the truth. One is to temper with it, or trick it out in colours of falsehood (mixing or clothing truth with falsehood e.g. editing); half-truths are often more dangerous than obvious falsehood. Another is hiding (covering up without revealing a crucial verse), or alternatively to conceal it altogether; such concealment may mean permanent erasure of important verses. Other methods include: distorting verses through distorted reading (thus changing the substance or the text); writing their own chapters (claiming they were revealed by God, when they were not); and/or rejecting part of the book completely. They do all this purely for political and commercial reasons. Those who are jealous of the Prophet of Allah, whom they actually see before them, do not allow his credentials or virtues to be known, or vilify him, or conceal facts which would attract people to him. When people do this of set purpose, against their own light **("of which you are yourselves witnesses")** (see below), they are descending to the lowest depths of degradation, and they are doing more harm to themselves than to anyone else:

"O people of the Book! Why do you reject the Signs of Allah, of which you are (yourselves) witnesses? O people of the Book! Why do you clothe truth with falsehood and conceal the truth while you know?.......And verily, among them is a party who distort the Book with their tongues (as they read), so that you may think it is from the Book, but it is not from the Book, and they say: 'This is from Allah', but it is not from Allah; and they speak a lie against Allah while they know it."

Verse 3:70-71 and 78 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

It is narrated by Anas: There was a Christian who embraced Islam and read Surat Al-Baqara (The Cow) and Al-Imran (The Family of Imran), and he used to write (the revelations) for the Prophet. Later on he reverted to Christianity again, and he used to say: 'Muhammad knows nothing but what I have written for him'. Then Allah caused him to die, and the people him, but in the morning they saw that the earth had thrown his body out. They said: 'This is an act of Muhammad and his companions; they dug the grave of our companion and took his body outside it, for he had run away from them.' They dug the grave for him as deep as they could, but in the morning they again saw that the earth had thrown his body out. So they believed that what had befallen him was not done by human beings and had to leave him thrown (on the ground).

[Sahih Al-Bukhari, Vol 4, Hadith 814].

"They (some of Children of Israel) change the words from their (right) places and have abandoned a good part of the message that was sent to them, and you (Muhammad) will not cease to discover deceit in them, except a few of them; but forgive them and overlook (their misdeeds), verily Allah loves good-doers".

Verse 5:13 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

"Then do you believe in a part of the Book and reject the rest? But what is the reward for those among you who behave like this but disgrace in this life?- And on the Day of Judgement they shall be consigned to the most grievous torment, for Allah is not unaware of what you do.".

Verse 2:85 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"Then woe to those who write the Book with their own hands and then say, 'This is from Allah', to purchase with it a little price!Woe to them for what their hands have written and woe to them for that they earn (thereby).".

Verse 2:79 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

As for Muhammad, The Almighty clearly states that Muhammad is the expected Prophet and Messenger **after** Jesus, whom Jesus himself gave the glad-tiding of his coming:

"Those to whom We gave the Book (Jews and Christians) recognise him (Muhammad) as they recognise their sons, but verily, a party of them conceal the truth while they know it (i.e. the qualities of Muhammad which are written in the Torah and Gospel). This is the truth from your Lord, so be you not one of those who doubt.".

Verse 2:146-147 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"And (remember) Jesus, son of Mary said: 'O Children of Israel! I am the Messenger of Allah (sent) to you, confirming the Torah which came before me, and giving glad-tidings of a Messenger to come after me, whose name shall be Ahmad, but

when he (Ahmad i.e. Muhammad) came to them with clear proofs, they said: 'This is plain magic'.".

Verse 61:6 of Surat As-Saff (Battle Array).

Indeed, Prophet Muhammad showed clear proofs, for his whole life from beginning to end was one vast miracle. He fought and won against all odds. Without learning from men, he taught the highest wisdom. He melted hearts that were hard, and he strengthened hearts that were tender and required support. In all his sayings and doings, men of discernment could see the working of Allah's hand: yet the ignorant Unbelievers called it all magic! — called that unreal which later became the most solid fact of human history!

The mutual praise between the 2 Prophets: Jesus and Muhammad (peace be upon them), is further illustrated by Prophet Muhammad's saying: **"Both in this world and in the Hereafter, I am the nearest of all the people to Isa (Jesus), the son of Maryam (Mary). The Prophets are paternal brothers: their mothers are different, but their religion is one (i.e. Islamic Monotheism)".**

[Hadith 652, Vol 4, Sahih Al-Bukhari].

Narrated by Abu Hurairah: Allah's Messenger (peace be upon him) said:

"By Him (Allah) in Whose Hand my soul is, surely, the son of Mary (Jesus) will shortly descend amongst you people (Muslims), and will judge mankind justly by the Law of the Qur'an (as a just ruler), and will break the Cross and kill the pigs and abolish the Jizyah [a tax taken from the people of the Books (Jews and Christians), who are under the protection of a Muslim government. This Jizyah tax will not be accepted by Jesus and all mankind will be required to embrace Islam with no other alternative]. Then there will be abundance of money and nobody will accept charitable gifts".

[Hadith 425, Vol 3, Sahih Al-Bukhari].

Truly Jesus, son of Mary will descend as a leader of the Muslims and it is a severe warning to the Christians who claim to be the followers of Jesus and he will break the cross and kill the pigs, and he will abolish the Jizyah (tax); and all mankind will be required to embrace Islam with no other alternative.

As for the prophesy of Jesus about the coming of Prophet Muhammad, indeed, Ahmad or Muhammad, the Praised One, is almost a translation of the Greek word Periclytos. In the new Testament as it now exist even after the original text has been distorted, clear prophecies indicating the coming of Prophet Muhammad. Muhammad is foretold in the Gospel of John xiv 16, xv 26, xvi 7: the future Comforter cannot be the Holy Spirit as understood by Christians, because the Holy Spirit already was present, helping and guiding Jesus. The word 'Comforter' in the English version is for the Greek word 'Paracletos', which means 'Advocate', 'one called to the help of another, a kind friend', rather than 'Comforter'. However Paracletos is a corrupt reading for Periclytos, and that in their original saying of Jesus there was a prophecy of Prophet Ahmad by name. Even if we read Paraclete, it would apply to the holy Prophet, who is 'a Mercy for all creatures – *Verse 21:107*' and 'most kind and merciful to the Believers – *Verse 9:128*'.

Also, in the Old Testament as it now exists, Muhammad is foretold in Deut xviii 18; Psalm 118:22-23, and the rise of Arab nation in Isaiah 42: 1-13 (esp. 11) for Kedar was a son of Isma'il and the name is used for the Arab nation. Further, there were other Gospels that

have perished, but of which traces still remain, which were even more specific in their reference to Muhammad: e.g. the Gospel of St. Barnabas, of which an Italian translation is extent in the State Library at Vienna (It was edited in 1907 with an English translation by Mr. Lonsdale and Laura Ragg).

It may be interesting here to quote Yahiya Emerick saying in page 19 of his book **(What Islam is All about?)** published January 2000 by International Book of Islamic Literature:

(The bible is the book the Christians and Jews wrote for themselves. The Protestant Bible has a total of 66 books inside, the Catholic Bible has a total of 73 books inside. One Bible will have chapters and verses another one won't have. Some have words that do not appear in older versions, and when you even compare ancient Bibles, they all have different contents, even in the Greek and Hebrew copies!

The Buddhists have many different holy books and no one is certain who wrote them. The Hindus have numerous books filled with stories of fantastic gods, monsters, war stories and philosophy which is difficult to accept as true.

Only the Qur'an has survived through the centuries unchanged and what's also important is that today people have not lost the ability to read it in its original language.

The language of the Hindu books, Sanskrit, is a dead language. The ancient Greek, Aramaic and Hebrew of the Jews and ancient Christians is no longer spoken the same way today. The Buddhist writings are written in any number of languages and have no connection to any original source documents.

Arabic, however, has been preserved and is studied by Muslims all over the world. Not the slang style Arabic that is spoken by some people in the Middle East, but the pure Arabic of the Qur'an, the ***Fus-ha***, or correct Arabic. **So we have the original book and the original language to read it in. No one else can say that. The entire Qur'an was written down in the lifetime of the Prophet Muhammad. It was personally arranged by him, and the Muslims all memorized it in the same order**).

For a brief comparative study between the Bible and Qur'an, the reader may look into:

Jesus and Muhammad (peace be upon them) in the Bible and the Qur'an.

Appendix II, pages 907-917, in **Translation of the meanings The Noble Qur'an in the English Language.** By Dr Muhammad Taqi-ud-Din al-Hilali and Dr Muhammad Muhsin Khan King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an, Medina, The Kingdom of Saudi Arabia, 1404 H.

Interestingly, the God (Allah) confirms 3 important facts about the people of the Book in His final revealed Scripture, the Qur'an:

- that the people of the Book know well that Muhammad is the awaited Prophet (despite that some of them are stubborn enough not to show it):

  "Those to whom We gave the Book (Jews and Christians) recognize him (Muhammad) as they recognize their sons, but verily, a party of them conceal the truth while they know it [i.e. the qualities of Muhammad which are written in the Torah and the Gospel].".

  Verse 2:146 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

- that the people of the Book know well that the Qur'an is certainly a divine revelation like Torah and Gospel:

  "[Say (O Muhammad)] Shall I seek a judge other than Allah while it is He Who has sent down to you the Book (the Qur'an) explained in detail, Those to whom We have given the Book (Torah for Jews and Gospel for Christians) know well that it has been sent down from your Lord in truth, Never be then of those who doubt.".

  Verse 6:114 of Surat Al-An'am (The Cattle).

- that the people of the Book know well that Islam is the continuation of the old Religion in its renewed final form:

  "Certainly, the people who were given the Book (Jews and Christians) know well that, that (Islam symbolized by Qibla in Makkah) is the truth from their Lord, and Allah is not unaware of what they do.".

  Verse 2:144 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

Hence, The Lord Creator of Mankind gently reminds the people of the Book that they were Muslims by submitting to Him earlier and before the revelation of this Quran:

"Those to whom (Jews and Christians) We gave the Book (Torah and Gospel) before it, - they believe in it (the Qur'an). And when it is recited to them, they say: 'We believe therein in it, verily, it is the truth from our Lord; Indeed even before it we have been from those who submit themselves to Allah in Islam as Muslims [like Abdullah bin Salam (was a Jew then converted to Islam) and Salman Al-Farisi (was a Christian then converted to Islam]. These will be given their reward <u>twice</u> over, because they were patient and repel evil with good and spend (in charity) out of what We have provided them.".

Verses 28:52-54 of Surat Al-Qasas (The Narration).

Accordingly, The Lord (Allah) invites the people of the Book to believe in the renewed message of Islam, being the eternal and the only religion of The One and The Only God; He then states that the Prophethood of Muhammad to come out among the Arabs was entirely His Independent Choice and through His Grace:

"O you who believe [in Moses – Jews, and in Jesus – Christians]! Fear Allah, and believe in His Messenger (Muhammad), He will bestow on you a <u>double</u> portion of His Mercy, and He will provide for you a light by which shall walk (straight), and He will forgive you, and Allah is Oft-Forgiving, Most Merciful. That the people of the Book may know that they have no power whatever over the Grace of Allah, that (His) Grace is (entirely) in His Hand, to bestow it on whomsoever He wills, for Allah is the Lord of Grace abounding.".

Verses 57:28-29 of Surat Al-Hadid (Iron).

Furthermore, these 2 glorious Qur'anic verses are most beautifully complemented by the Prophet's Hadith (saying), that Allah's Messenger said:

'Three will get double rewards: (1) any man of the people of the Book (Jews and Christians) believes in his own Prophet and then believes in me (Muhammad), he will (also) get a double reward; And (2) any slave (servant) who fulfils his duty to his Lord (Allah) and to his master will get a double reward; And (3) any man who has a slave-girl

whom he educates properly [teaching her good manners], then manumits her and marries her will (also) get a double reward.

[Sahihs of Al-Bukhari and Muslim].

Indeed, if Muhammad is a Prophet (and he is certainly the last Prophet), and if Muhammad is the Prophet that followed Jesus (and he really had followed Jesus as foretold by Jesus himself); it is then obligatory to have belief in the Messengership of the Prophet Muhammad: Narrated Abu Hurairah: Allah's Messenger said,

"By Him (Allah) in Whose Hand Muhammad's soul is, there is none from amongst this present nation [Arabs], the Jews, and the Christians who hears about me and then dies without believing in the Message with which I have been sent (i.e. Islamic Monotheism), but he will be from the dwellers of the (Hell) Fire.".

[Sahih Muslim, Sahihah by Albani no. 1129].

In fact, the similarity between Islam and Christianity led a Christian Professor *Richard W Bulliet* to write his excellent book *"**The Case for Islamo-Christian Civilization**, published by Columbia University Press, New York, 2004"*.

Prophet Muhammad's Letters inviting Kings of the World for Islam:

Indeed, if the God is One, then the Truth or Light must be One, coming from The One God *and* the Only (Allah). Hence, the God addresses the common terms between Islam and Christianity:

"Say (O Muhammad): 'O people of the Book (Jews and Christians)! Come to a word that is just (and common) between us and you, that we worship none but Allah (Alone), and that we associate no partners with Him, and that none of us shall take others as lords besides Allah, then if they turn away, say: 'Bear witness that we are Muslims.".

Verse 3:64 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Indeed, the last verse was the core of the message of **Prophet Muhammad's letter to Heraclius (Caesar of Roman Byzantine Empire)** (see below).

It is not surprising to note that **ALL Christian Rulers responded favourably to Prophet Muhammad's messages carried by his envoys [8]:**

1. **The Negus of Abyssinia** (or the Emperor of Abyssinia), a very knowledgeable, pious Christian, and just ruler. In fact, the persecuted Muslims in Makkah were advised by Prophet Muhammad to flee and make their first emigration to Abyssinia where they could worship Allah freely without persecution, because of its just religious ruler. The Negus also agreed to represent the Prophet in his wedding with Um Habibah (Abu Sufyan's daughter) who became a widow (or as claimed by other sources to be abandoned by her husband while in Abyssinia). Shortly after Muhammad concluded a peace treaty of Huday'biya around AD 628 with Makkah, he send his messages to all world rulers, and the Negus of Abyssinia immediately converted to Islam on the receipt of Muhammad's letter.

2. **Muqawqis**, the Roman governor of Egypt showed great respect, but with no wish to either fight or convert; he sent the Prophet many gifts including Coptic slave girls, Mariyah (with her sister) together with a donkey, a mule, a horse, and Egyptian clothes and gold.

3. **Heraclius (the Byzantine Emperor)**. According to the most authentic historical records, the Roman Empire was defeated in Palestine and much of Asiatic territory was lost in 615 by the Persian Empire; Jerusalem was burnt and pillaged, the Christians were massacred, the churches were burnt, and the Cross on which the Christian believed that Christ had been crucified, was carried away to Persia. The Pagans of Makkah rejoiced at the overthrow of Romans by Persians, while Muslims in Makkah were sad (they were weak at the time) as they considered Romans as people of the book and they (Muslims) grouped themselves with people of the book. The Qur'an miraculously and beautifully foretells that the Romans will soon defeat Persians in ***bidhi sinin*** (few years, ranging from 7-9): **"The Romans have been defeated. In a land close by (Syria, Iraq, Jordan, and Palestine), and they, after their defeat, will be victorious. Within few (bidhi) years, with Allah is the Command in the Past and in the Future (before the defeat of the Romans by the Persians, and after the defeat of the Persians by the Romans); and on that Day, the Believers (i.e. Muslims) will rejoice (at the victory by Allah to the Romans against the Persians). With the help of Allah, He gives victory to whom He will, and He is Exalted in Might, Most Merciful. (It is) the promise of Allah, never does Allah fail from His promise; but most men know not."**.

   Verse 30:2-6 of Surat Ar-Rum (The Romans).

   Indeed, the news of Byzantines' victory over Persians came after 7 years in the battle of ***Issus*** in 622 (the year Hijrah) and in 624, when Heraclius carried his military campaign into the heart of Persia (the year when Makkan Quraish were beaten off by Muslims at the battle of Badr). Heraclius regained all lost territories, and he celebrated his triumph in Constantinople in March 628. Peace then was made between the 2 Empires on the basis of the *status quo ante*. Heraclius, in pursuance of a vow he had made, went south in the autumn to Emessa (Himis), which was his headquarters and from there he marched on foot to Jerusalem in order to pray in the Holy City and to celebrate his victories, and restore to its place the holy Cross which had been carried away by the Persians and was returned to the Emperor as a condition of peace. Heraclius route was strewn with costly carpets and aromatic herbs were thrown on the carpets, and **in Jerusalem (in late AD 628) he got the message from the Holy Prophet Muhammad inviting him to the True Faith as renewed in the living Messenger of the age.** Heraclius was perplexed, but took the matter seriously; he met with Arab delegation (happened to visit Jerusalem on a trading mission, led by Abu Sufyan, an Arab Chief and Makkan Aristocrat who was not yet converted to Islam at the time following the peace treaty of Huday'biya around AD 628 undertaken between Muslims and Makkah Polytheists). Heraclius then initiated a very interesting intellectual inquiry and highly intelligent interview with Abu Sufyan (using mostly closed questionnaire and precise questions, ending with 'Yes' or 'No' answers), Heraclius asked 11 questions and he confirmed that Muhammad is the awaited Prophet.

   Narrated by Ibn Abbas: Abu Sufyan narrated to me personally, saying:

"I set out during the truce that had been concluded between me and Allah's Messenger (peace be upon him). While I was in Sham, a letter sent by the Prophet (peace be upon him) was brought to Heraclius. Dihya Al-Kalbi had brought and given it to the governor of Busra, and the latter forwarded it to Heraclius. Heraclius said, 'Is there anyone from the people of this man who claims to be a Prophet?' the people replied, 'Yes,' so, along with some other Quraishi men, I was called and we entered upon Heraclius, and we were seated in front of him. Then he said, 'Who amongst you is the nearest relative to the man who claims to be a Prophet?' I (Abu Sufyan) replied: I am the nearest relative to him from amongst the group.' So they made me sit in front of him and made my companions sit behind me. Then he called upon his translator and said (to him). 'Tell them (i.e. Abu Sufyan's companions) that I am going to ask him (i.e. Abu Sufyan) regarding that man who claims to be a Prophet. So, if he tells me a lie, they should contradict him (instantly).' By Allah, had I not been afraid that my companions would consider me a liar, I would have told lies. Heraclius then said to his translator,

1. 'Ask him: What is his (i.e. the Prophet's) family status amongst you?'

    I said, 'He belongs to a noble family amongst us'.

2. Heraclius said, 'Did anybody else (amongst you) ever claim the same (i.e. to be Allah's Prophet) before him?'

    I said, 'No'.

2. Heraclius said, 'Was any of his ancestors a king?'

    I said, 'No'.

3. He said, 'Do the nobles follow him or the poor people?'

    I said, 'It is the poor who follow him.'

4. He said, 'Is the number of his followers increasing or decreasing?'

    I said, 'They are increasing.'

5. He said, 'Does anyone renounce his religion (i.e. Islam) after embracing it, being displeased with it?'

    I said, 'No'.

6. He said, 'Did you ever accuse him of telling lies, before his saying what he has said?'

    I said, 'No'.

8. He said, 'Did he ever betray?'

    I said, No, but now we are away from him in this truce and we do not know what he will do in it.' Abu Sufyan added, "By Allah, I was not able to insert in my speech a word (against him) except that.

9. He said, 'Did you fight with him?'

    I replied, 'Yes.'

10. He said, 'How was your fighting with him?'

I said, 'The fighting between us was undecided and victory was shared by him and us in turns. He inflicted casualties upon us and we inflict casualties upon him.'

11. Heraclius then asked me, 'What does he order you to do?'

I said, 'He orders us (to offer) prayers and (to pay) Zakat, and to keep good relationship with the kith and kin, and to be chaste.'

Then Heraclius told his translator to tell me (i.e. Abu Sufyan),

- 'I asked you about his family status amongst you, and you told me that he comes from a noble family amongst you. Verily, all Messengers come from the noblest family among their people.
- Then I asked you whether anyone had said this statement before him; and you denied that. Thereupon I thought if somebody had said that statement before him, then I would have said that he was a man copying some sayings said before him.'
- Then I asked you whether any of his ancestors was a king, and you denied that. Thereupon I thought that had one of his forefathers been a king, I would have said that he (i.e. Muhammad peace be upon him) was seeking to rule the kingdom of his forefathers.
- Then I asked you whether you have ever accused him of telling lies before he said what he said, and your reply was in the negative. Thereafter, I took for granted that a man who did not tell a lie about others, could never tell a lie about Allah.
- Then I asked you regarding his followers, whether they were the noble or the poor among the people, and you said that they were only poor (who follow him). In fact, such are the followers of the Messengers.
- Then I asked you whether his followers were increasing or decreasing. You claimed that they were increasing, that is the way of true faith till it is complete.
- Then I asked you whether anyone of his followers had renounced his religion (i.e. Islam) after embracing it, being displeased with it, and you denied that. And such is faith when its delight enters the heart and mixes with it completely.
- Then I asked you whether he has ever betrayed anyone; you claimed that he had never betrayed. Indeed, Messengers never betray.
- [Then I asked you whether you had ever fought with him, and you claimed that you had fought with him and the battle between you and him was undecided and the victory was shared by you and him in turns; he inflicted casualties upon you and you inflicted casualties upon him. Such is the case with the Messengers, they are put to trials and the final victory is for them.]
- Then I asked you what does he order you to do, and you claimed that he orders you to worship Allah without associating anything with Him and forbids you to worship idols, and to offer prayers, to be true-teller, and to be chaste'.

[Conclusion] Then Heraclius said, 'if whatever you have said is true, then he is really a Prophet and his kingdom will expand (surely) to what is under my feet. I knew that he (i.e. the Prophet peace be upon him) was going to appear, but I never thought that he would be from amongst you. If I were certain that I can reach him, I would like to meet him and if I were with him, I would wash his feet [for blessing].'

Then Heraclius asked for the letter of Allah's Messenger peace be upon him and read it, wherein was written:

[In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful.

(This letter is) from Muhammad, the Messenger of Allah, to Heraclius, the sovereign of Byzantine:

Peace be upon him who follows the Right Path. Now then, I call you to embrace Islam. Embrace Islam and you will be saved (from Allah's punishment); embrace Islam, and Allah will give you a double reward, but if you reject this, you will be responsible for the sins of all the people of your kingdom. (Allah's Statement):

"O people of the Book (Jews and Christians)! Come to a word that is just between us and you, **that** ***we worship none but Allah (Alone), and that we associate no partners with Him, and that none of us shall take others as lords besides Allah, then if they turn away, say: 'Bear witness that we are Muslims.***" (3:64)]

Then Abu Sufyan said, "When he finished reading the letter, voices grew louder near him and there was great hue and cry, and we were ordered to go out." Abu Sufyan added, " while coming out, I said to my companions, 'The matter of Ibn Abu Kabshah (i.e. Muhammad peace be upon him) has become so prominent that even the king of Banu Al-Asfar (i.e. the Romans) is afraid of him.' So I continued to believe that Allah's Messenger peace be upon him would be victorious, till Allah made me embrace Islam."

Az-Zuhri said, **"Heraclius then invited all the chiefs of the Byzantine and had them assembled in his house and said, 'O group of Byzantine! Do you wish to have a permanent success and guidance and that your kingdom should remain with you?' (immediately after hearing that), they rushed towards the gate like onagers, but they found them closed. Heraclius then said, 'Bring them back to me.' So he called them and said, 'I just wanted to test the strength of your adherence to your religion. Now I have observed of you that which I like.' Then the people fell in prostration before him and became pleased with him.".**

[Sahih Al-Bukhari, Vol. 6, Hadith No. 75].

It is said that Heraclius was keen astrologist and he saw the emergence of a circumcised king; when he inquires about it, he was told that only Jews were circumcised, and hence advised to kill them all. But, Heraclius then receives the message of Prophet Muhammad, so Heraclius asked to check whether this Arabic envoy is circumcised; he was also told that Arab do circumcise. Heraclius said ominously that the king of this nation has appeared. Heraclius also sent a letter to Rome inquiring from his friend (his peer in knowledge), who later confirmed that the time of the awaited Prophet has indeed come.

Indeed, Heraclius put Prophet Muhammad's letter in a golden cylinder for blessing and that letter was inherited ever since by the Roman emperors and kings (yet without telling their Christian subjects!). The mutual respect between Prophet Muhammad and Heraclius was a

special one indeed when contrasted with Chorsoes, the Emperor of Persia (who tore the Prophet Muhammad's letter). After receiving their replies of both Roman and Persian Emperors, Prophet Muhammad said:

"Allah will keep his (Heraclius) kingdom (for a while)" in case of Heraclius, but in the case of Chorsoes: **"Allah will tear up his (Chorsoes) kingdom".** Subsequent historical events confirmed Muhammad's prophesies when Roman Empire was defeated, indented and downsized to Byzantium (Constantinople) but survived; while Persian Empire was defeated and completely removed from the face of the earth during Umar's Caliphate.

Heraclius, through his 3rd party highly intelligent inquiry, confirmed that Muhammad is the awaited Prophet. Heraclius then entertained the idea of conversion to Islam, and discussed it with his commanders, but they all became agitated and refused; Heraclius was then forced to reject Islam publicly. The apparent grandeur of his empire and the pride of his people prevented him from openly accepting the renewed Message of Allah. Heraclius preferred his worldly Imperial status and accordingly, he remained Christian. And yet he sent a very diplomatic reply letter to Prophet Muhammad saying: (***I am Muslim***) [!!!] with a gift of golden Dinars.

When the Messenger of Allah (Muhammad) received Heraclius' reply, he said: ***"(He, Heraclius) lied, he is not a Muslim; and he is on Christianity"***, and the Prophet distributed the golden Dinars (between his companions). [narrated by Ahmad Ibn Hanbal and by Ibn Habban, as quoted in **Zad al-Ma'ad** by Ibn Qayyim Al-Jawzi'yah, page 45-46. Also see:

Fat'h Al-Bari Sahr'h Sahih Al-Bukhari by Ibn Hajar Al-As'qalani Vol. One, Pages 31-45].

History confirmed Prophet Muhammad's conviction:

- Later **events in northern front of Arabian Peninsula** involved the murder of 14 out of 15 peaceful Muslim envoys; at the same time another Muslim envoy was murdered by the governor of Busra (Syria), a leader of Ghassan tribe and a Romans' ally. The threat from Roman Syria was clearly intensifying; indeed, the murder of an envoy, who come peacefully bearing a letter, has always been regarded as a gross affront and need to be redressed[8]. Muslims therefore were forced to respond to this challenge; and so it was the first clash between Muslims and outside world at the ***battle of Mu'ta*** (near Ma'an in Jordan) in September 629, which ended in withdrawal of both Muslim army and Roman army despite the great mismatch between them: 3000 Muslim fighters in the face of 200,000 Roman fighters and allied Arab tribes under the leadership of Heraclius. Despite differences of opinion about the outcome of this battle, reliable sources record that dead Muslims were not more than 12 (but including the 3 brave distinguished consecutive emirs (leaders) of this expedition) until the most experienced general Khalid bin al-Walid took the leadership and after his outstanding fight during which he was said to have killed no less than 500 Romans and 9 swords were broken in his hand. Thereafter and in the military judgement of Khalid, a master of strategy, he exchanged the right wing with the left wing of his army, and swapped the back with the front and arranged a group of fighters in the back pulling date-palm leaves in the desert to raise dust in the horizon giving the impression of coming enforcement, Romans after seeing new faces and mobilization exercises withdrew, and general Khalid too withdrew his Muslim army intact (minus 12 dead). Indeed, one month prior to their arrival at Medina (marching distance

between Medina and Mu'ta takes a minimum of one month), the Messenger of Allah (Muhammad) had miraculously described to the Muslims in his Medina mosque, the precise eye-witness account of this battle instantaneously and as it happened:

'It is narrated by Anas (may Allah be pleased with him) that the Prophet (Peace be upon him) had condoled the death of zayd, Ja'afar, and Ibn Rawwaha before the news arrived and said: zayd took the banner and fell, then Ja'afar took it and fell, then Ibn Rawwaha took it and fell – and his (Prophet's) eyes were weeping – until the banner was carried by one of the swords of Allah then Allah gave them victory'

[Sahih Al-Bukhari Hadith number 4262].

The companions' army returning from Mu'tah under Khalid's leadership, confirmed the Prophet's vision: things had happened precisely as he had told them, and the 3 companions had been killed while fiercely fighting; that was additional signs of Muhammad's prophethood. Also, when Medina boys shouted at the returning army: *'you are the fleers'*, the Prophet corrected them by saying instead: **'but the great fighters In sha' Allah** (by Allah's will)'. Prophet Muhammad then prepared Khalid to be one of the leaders of Muslims army in their great conquest of Makkah.

- Muhammad received intelligence that some Northern tribes were preparing a full-scale expedition against Medina. He decided to mobilize 300 men under the general command of Amr ibn al-As, who had family ties with some northern tribes; the Prophet asked him to study the situation and let him know about how things stood, and he ordered him to draw up alliances with as many clans as possible. The Prophet then sent him Abu Obaida leading an extra 200 companions (including Abu Bakr and Umar bin al-Khattab) because opposition seemed to be stronger than had anticipated; however, it was not, and the Muslim force (500 fighters) was able to proceed into the Syrian territory, consolidate existing alliances, and establish new ones, which made it possible to secure that hitherto unsafe front. This successful exploratory expedition is named **'That al-Salasil'** after the name of a water pond in land of Jutham.
- Also, when the Romans' governor at Ma'an (an Arab named ***Farwah bin Amr al-Juthami***) converted to Islam, the Romans imprisoned him, crucified him and then killed him.
- Furthermore, Heraclius kept close contacts with hypocrite Muslims in Medina through Abu Amir (surnamed Al-Rahib, the monk, but re-named by Prophet as **Abu Amir Al-Fasiq**, the rebellious, the disobedient) who fought against the Muslims in battle of Uhud and later fled from Muslims and took Heraclius' shelter. Heraclius incited hypocrites to build an opposition mosque as an outpost for spying, and that he (Heraclius) is coming with huge Roman army to invade Medina. The hypocrites invited Prophet Muhammad to pray in their mosque, but Gabriel told him not to pray in it. Prophet Muhammad later ordered his followers (Sahaba) to burn it. God Most High records this mosque of harm in Qur'an:

"and there are those who put up a mosque by way of harm and disbelief to disunite the Believers and as an outpost for those who warred against Allah and His Messenger (Muhammad) aforetime, they will indeed swear that their intention is nothing but good; but Allah bears witness that they are certainly liars.".

Verse 9:107 of Surat At-Tawba (Repentance).

- In response to alarming news that the Roman army is preparing to invade Medina; Prophet Muhammad in late August or September 631 mobilized the largest Arab army of 30,000 Muslim fighters on the ***expedition of Tabuk*** (prepared publicly in a hot season) and marched towards the Byzantine frontier. The Roman army under Heraclius withdrew without fighting, while the Muslim army stayed in Tabuk for 20 days, and after making alliances with Christian tribes (that agreed to pay tribute, in exchange of Muslims' protection from Romans), they left back to Medina.

However, in less than 5 years later (and after death of Prophet Muhammad in AD 632), Heraclius and his huge Roman Byzantine Empire armies witnessed the coming of Islam to their *very* doorsteps; indeed, they were visited, crushed and defeated decisively by a much smaller Muslim army at the battle of Yarmuk in AD 636; after which they lost all of their occupied East Mediterranean wing of Roman Byzantine Empire to Muslims for ever; thereafter, the Roman Empire became a mere shadow with a small bit of territory round its capital Constantinople (see below).

Qur'an Unique Characteristics[4 a, b, c, d] [5 a, b, c]

Qur'an therefore, became the only beacon of light (the pure truth unadulterated by any falsehood); hence The Almighty's continuous emphasis on the importance of Qur'an:

"No falsehood can approach it from **before or behind it; (it is) sent down by the All-Wise, Worthy of all praise (Allah).".**

Verse 41:42 of Surat Fussilat.

"An Arabic Qur'an, without any crookedness (therein) in order that they may guard against Evil.".

Verse 39:28 of Surat Az-Zumar (The Groups).

"Had We sent down this Qur'an on a mountain, you would surely have seen it humbling itself and rent asunder by the fear of Allah, such are the parables which We put forward to mankind that they may reflect".

Verse 59:21 of Surat Al-Hashr (The Gathering).

Prophet Muhammad said: **"The best among you is he who learned the Qur'an and then taught it".**

[Narrated by the 6 ones except Muslim].

The Qur'an as a Book, enjoys a number of characteristics unique to it **alone**, some of which are as follows:

1. Truly, it is the actual Word of Allah: not created but revealed for the benefit of all mankind:

   "And this Qur'an is not such as could ever be produced by other than Allah (Lord of the heavens and the earth), but it is a confirmation of (the revelation) which was before it [i.e. the Taurat (Torah), and the Injeel (Gospel)], and a full explanation of the Book (i.e. laws, decreed for mankind) – wherein there is no doubt – from the Lord of the Worlds (Alamin: mankind, jinn, and all that exists)".

   Verse 10:37 of Surat Yunus (Jonah).

"Do they not ponder on the Qur'an? Had it been from other than Allah, they would surely have found therein much discrepency.".

Verse 4:82 of Surat An-Nisa' (The Women)

The Almighty confirmed Arabic as the language chosen by Him for revelation:

"And truly, this (the Qur'an) is a revelation from the Lord of the 'A'lamin' (mankind, jinn and all that exists), which the trustworthy Ruh [Jibril (Gabriel)] has brought down upon your heart (O Muhammad) that you may be (one) of the warners in the plain Arabic language".

Verse 26:192-195 Surah Ash-Shu'ara (The Poets).

His revelation is brought down through His Archangel Gabriel to Muhammad: **"Say (O Muhammad): Ruh-ul-Qudus (Gabriel) has brought it (the Qur'an) down from your Lord with truth, that it may make firm and strengthen those who believe, and as a guidance and glad-tidings to those who have submitted (to Allah as Muslims). And indeed, We know that they (polytheists and pagans) say: 'It is only a human being who teaches him (Muhammad)'. The tongue of the man they refer to is foreign, while this (the Qur'an) is a clear Arabic tongue." .**

Verse 16:102-103 of Surat An-Nahl (The Bees).

And that Muhammad was chosen and he was known illiterate: **"Neither did you (O Muhammad) read any book before it (this Qur'an), nor did you write any book (whatsoever) with your right hand. In that case, indeed, the followers of falsehood might have doubted".**

Verse 29:48 of Surat Al-Ankabut (The Spider).

"Say (O Muhammad): 'If Allah had so willed, I should not have recited it (the Qur'an) to you, nor would He have made it known to you. Verily, I have stayed amongst you a lifetime before this. Have you then no sense?' ".

Verse 10:16 of Surat Yunus (Jonah).

"Those who follow the Messenger, the unlettered Prophet (who can neither read nor write i.e. Muhammad) whom they find written with them in Torah and Gospel – for he commands them what is just and forbids them what is evil; he allows them as lawful what is good (and pure) and prohibits them from what is bad (and impure): he releases them from their heavy burdens and from the yokes that are upon them.

so it is those who believe in him, honour him, help him, and follow the Light which is sent down with him, it is they who will prosper.

Say: 'O men! I am sent unto you all, as the Messenger of Allah, to whom belong the dominion of heavens and the earth: there is no god but He: it is He that gives both life and death, so believe in Allah and His Messenger, the unlettered Prophet, who believe in Allah and His Words: follow him that (so) you may be guided.".

Verse 7:157-158 of Surat Al-A'raf (The Heights).

Qur'an was indeed the greatest eternal miracle of Prophet Muhammad, that unlike all other prophets, continued after his death to be a magnet of attraction and inspiration to Mankind leading to Islamic conversion of great numbers of people generation after generation, long

after the death of Prophet Muhammad. It is narrated by Abu Huraira that the Prophet Muhammad said:

"There was no Prophet among the Prophets but was given miracles, because of which people had belief, but what I have been given is the Divine Revelation which Allah has revealed to me. So I hope that my followers will be more than those of any other Prophet on the Day of Resurrection.".

[Hadith 379 Vol 9, Sahih Al-Bukhari].

Most of Prophet's Companions (Sahaba) eye-witnessed the revelation when the Prophet became motionless and silent (but with his lips moving), and they could all hear a sound like bees' buzzing. Further, many (including Umar ibn Al-Khattab, the 2nd Caliph) saw Gabriel in the form of a man they never saw before. Prophet's miracles are many and they were all eye-witnessed by Companions, for example the water flowing between his hand and/or fingers on many occasions, in the summer season of the hot Arabian deserts; this was once witnessed by 80 companions, and once by all people attending Asr prayer, and once by 300 companions, who all drank and washed themselves for prayer. In Huday'biya, there was only one well and was dry, so the Prophet sat by the well's edge and started to gargle and then spat in it, and consequently the well was flowing with water (this incident was witnessed by 1400 companions). Also, in a Friday prayer, and after a long hot summer season, a man came begging the Prophet to ask Allah for rain water; the Prophet responded immediately by making Du'a (prayer to Allah) and in few moments rain water was flowing excessively for one week to the extent that next Friday a man came crying out: O Prophet help! we are drawning! Now the Prophet start praying again: (***Alla'huma, Hawalaina wala Alaina***) i.e. begging Allah to keep the rain-water flowing on the surroundings, but not directly on them, consequently, all companions in the Medina mosque (amounting to many thousands in number) eye-witnessed the raining clouds opening up like a huge ring, raining only around the periphery of Medina city.

Furthermore, in Prophet's Tabuk expedition (the largest expedition in Arabian Peninsula), the 30,000 soldiers were starved (to near-famine) due to the little food they carry with them in this long marching of the desert in the hot summer season, so they asked Prophet permission to slaughter some of their horses and camels, but Umar bin Al-Khattab intervened wondering: how can we face the enemy tomorrow hungry and on feet? He asked the Prophet to collect what remains of their food and to pray to Allah to bless it, the Messenger said: Yes! And he asked for a mat to be laid on the ground and for the remnants of their food to be put on it; he then prayed to Allah asking for blessing and then said: 'take your needs in your containers', the 30,000 Muslim soldiers kept taking and filling up their containers; then they all ate and were filled up, and there was still more food left on the mat. The Prophet laughed and said: 'I testify There is no God but Allah, and I testify that I am the Messenger of Allah, No servant believe in it sincerely and meet Allah, will ever be forbidden from entry into the Gardens (of Allah)' [Related by (Sahih) Muslim and Imam Ahmad]. This incident was indeed eye-witnessed by 30,000 Muslim soldiers of that expedition. Furthermore, The Prophet prophesized (as told by Allah through Gabriel) the future fall and the end of both Persian and Roman Empires at the hands of Muslims! And it was in AD 641, as he prophesized after less than a decade of his death (in AD 632). Furthermore, he specifically foretold that the fall of Constantinople would be exclusively at the hands of an excellent Muslim army led by an excellent Emir;

and it was in AD 1453 as he prophesized after more than 8 centuries by Sultan Muhammad the Conqueror, and his Othman army, the most formidable military machine in history (as considered by many historians, such as Gibbon).

2. Qur'an brings a global message to **all creatures**: mankind, jinn, and all that exists in the universe, the heavens, and the earth:

"Blessed is He Who sent down the Criterion (of right and wrong, i.e. this Qur'an) to His servant (Muhammad) that it may be an admonition to the Alamin (all worlds: mankind, jinn, and all that exists".

Verse 25:1 of Surat Al-Furqan (The Criterion).

Indeed, Moses and Jesus were sent exclusively to Children of Israel:

"And We gave Moses the Book and made it a guidance for Children of Israel".
Verse 17:2 of Surat Al-Isra' (The Journey by Night).

"And (remember) Jesus, son of Mary said: 'O Children of Israel! I am the Messenger of Allah (sent) to you.".

Verse 61:6 of Surat As-Saff (Battle Array).

But on the other hand, Prophet Muhammad was sent to all mankind:

"And We have not sent you (O Muhammad) but as a (Messenger) to all mankind, giving them glad tidings, and warning them (against sin), but most men know not.".

Verse 34:28 of Surat Saba' (Sheba).

Indeed, the global message of Islam extend to all worlds, because the Prophet Muhammad is the seal of the Prophethood:

"And We have sent you (O Muhammad) not but as a mercy for the all worlds (Alamin or all creatures i.e. mankind, jinn, and all that exists).".
Verse 21:107 of Surat Al-Anbiya (The Prophets).

Islam therefore, connects Muslims with their surrounding environment; as creatures of God they have to cooperate with Nature being a creature of God. Thus, the concept of ***'Struggle Against Nature'*** is alien to Islam. Instead, Allah clearly states *'the subjection of Nature for Man's use'*, thus the concept of 'struggle' must be replaced with ***'Utilization of Nature'***. The Man being entrusted by God as the Caliph or vicegerent on Earth, is delegated to be in charge of Nature and/or Environment to harness it, to oganise it, to manage it, and indeed, to control the Environment in the best possible way. Thus, The Almighty says:

"And He has subjected to you the night and the day, and the sun and the moon; and the stars are subjected by His Command. Surely, in this are proofs for a people who understand.

And whatsoever He has created for you on the earth of varying colours [and qualities from vegetation and fruits (botanical life) and from animals (zoological life)], Verily, in this is a sign for a people who remember.

And He it is Who has subjected the sea (to you), that you eat thereof fresh tender meat (i.e. fish), and that you bring forth out of it ornaments to wear, and you see the

ships ploughing through it, that you may seek (thus) of His Bounty (by transporting the goods from place to place) and that you may be grateful.

And He has affixed into the earth mountains standing firm, lest it should shake with you; and rivers and roads, that you may guide yourselves. And landmarks (signposts during the day) and by the stars (during the night), they (mankind) guide themselves."

Verse 16:12-16 of Surat Al-Nahl (The Bees).

Similarly, the concepts of ***'Mamma Nature' or 'Act of Nature'*** are both alien to Islam. How can nature (in itself a collective term for creatures of God; in the Arabic Dictionary by Fairozabadi, the nature is defined as God creations) become upgraded to a creator god! Furthermore, when the nature gets out of Man's control, this is interpreted Islamically, as an ***'Act of God'*** or a ***'Divine Retribution'*** as a partial punishment, inflicted because of the appearance of the 'Evil' in form of sins and disobedience to Allah. The Almighty explains:

"Mischief (Evil) has appeared on land and sea, because of what the hands of men have earned (by oppression and evil deeds e.g. arrogance, selfish desires, false teaching), that He (Allah) may make them taste a part of that which they have done, in order that they may return (by repenting to Allah, and begging His Pardon".

Verse 30:41 of Surat Ar-Rum (The Romans).

Prophet Hadiths also, consolidate this Islamic concept, that the spread of sins is the root cause of the so-called 'natural disasters' and the cause of reduction in the sustenance (i.e. in the blessing of sustenance, not in the origin of sustenance itself, which is unaltered by obedience or disobedience to Allah - according to other Hadiths); whether such sins are committed on the personal level, or on the community level.

On the authority of Thouban, that the Messenger of Allah (peace be upon him) said:
"A man is deprived of sustenance, because of a sin (he has committed); Allah's verdict (decree) **may be reversed by Du'a** (invocation of the supplicant calling on Allah)**; and nothing prolong longevity like piety** (obedience to Allah).**".**

(Narrated by Imam Ahmed).

Ibn Umar said: I heard the Messenger of Allah (peace be upon him) saying:

'If people refrain from paying a Dinar or even a Dirham (become stingy)**, deal with Riba** (usury)**, follow the cows' tails** (busy themselves with worldly materialistic matters only)**, Allah will afflict them with a tribulation (a trial) that will not be redeemed until they return to their religion** (Islam)**.**

(Narrated by Imam Ahmed).

The same Hadith was narrated by Abu Dawod as such:
'If you deal with Riba (usury), follow the cows' tails and contented with agriculture (become busy with worldly materialistic matters only), and abandon Jihad, Allah will make you suffer of humiliation (disgrace) that will not be relieved until you return to your religion (Islam).

(Narrated also by Al-Tabarani, and Ibn Al-Qattan who said it is Sahih -True).

In fact, the spread of sins and mischief is one of main reasons for the fall of civilizations:

Allah, Most High said: **(If they (the pagans, non-muslims) had (only) believed in Allah and went on the Right Way (Islam), We should surely have bestowed on them water (rain) in abundance).**

Verse 72:16 of Surat Al-Jinn (The Jinn).

Water is the foundation of all civilization in the World for example, The Civilization in Mesopotamia (valley of two rivers: Tigris and Euphrates), Civilization of Nile Valley, and other civilizations in India and China were all founded on banks of rivers.

Abdullah ibn Umar said, "The Prophet (peace be upon him) came to us, and said:

"O' Muhajirun, (emigrants from Makkah to al-Madinah) you may be afflicted by five things; God forbid that you should live to see them:

1. **If fornication should become widespread, you should realise that this has never happened without plague and new diseases befalling the people which their predecessors never suffered.**
2. **If people should begin to cheat in weighing out goods (mutaffifin), you should realise that this has never happened without drought and famine befalling the people, and their rulers oppressing them.**
3. **If people should withhold zakat, you should realise that this has never happened without the rain being stopped from falling; and were it not for the animals' sake, it would never rain again.**
4. **If people should break their covenant with Allah and His Messenger, you should realise that his has never happened without Allah sending an enemy against them to take some of their possessions by force.**
5. **If the leaders do not govern according to the Book of Allah, you should realise that this has never happened without Allah making them into groups and making them fight one another.'**

(narrated by: Ibn Majah, Al-Bazzar, and Al-Baihaqi and mentioned by Al-Munthiri.

3. Qur'an is **complete and comprehensive code of life**. Thus the schism between life-affairs and religion, or the secularism that separates the Government from the Church of Christianity is totally unknown in Islam. The Almighty says:

"Nothing have We omitted from the Book (i.e. the Qur'an).".

Verse 4:38 of Surat Al-An'am (The Cattle).

"And We have sent down to you the Book (the Qur'an) explaining all things, a Guide, a Mercy, and Glad Tidings to Muslims.".

Verse 16:89 of Surat Al-Nahl (The Bees).

In another place we read:

"The command (or the judgement) is for none but Allah, He has commanded that you worship none but Him; that is the right religion (i.e. Islamic Monotheism), but most men know not.".

Verse 12:40 of Surat Yusuf (Prophet Joseph).

And also:

" If any do fail to judge by that Allah has revealed, they are unbelievers...

If any do fail to judge by that Allah has revealed, they are wrong-doers...

If any do fail to judge by that Allah has revealed, they are rebellious...".

Verse 5:44, 45, 47 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

4. It is a theoretical and a practical Book, not only moralising but also defining specifically the permissible and the forbidden, i.e. Book of actions (Prophet's Companions used to memories each verse of Qur'an, act upon it, then proceed to memories the next verses). The importance of understanding the message of the Qur'an is undeniable, but simply reciting it with the intention of seeking Allah's pleasure and reward is also an act of worship and meritorious in itself. Allah Almighty says:

"So take what the Prophet gives you and refrain from what he prohibits you".
Verse 59:7 of Surat Al-Hashr (The Gathering).

5. **Allah has perfected His religion for all mankind with the revelation of this Book.** He says:

"This day have I perfected your religion for you, completed my favour upon you and have chosen for you Islam as your religion.".

Verse 5:3 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

Thus Prophet Muhammad was the seal of Prophethood and his miracle, i.e. Qur'an encompassed all other Monotheistic Divine messages before. Almighty says:

"Do they seek other than the religion of Allah (the true Islamic Monotheism – worshipping none but Allah alone), while to Him submitted all creatures in the heavens and the earth, willingly or unwillingly, and to Him shall they all be returned. Say (O Muhammad) 'We believe in Allah, and in what has been revealed to us and what was revealed to Abraham, Isma'il, Isaac, Jacob, and the Tribes (Asbat, the offspring of the 12 sons of Jacob) and in (the books) given to Moses, Jesus, and the Prophets, from their Lord: We make no distinction between one and another among them, and to Him (Allah) we have submitted (in Islam). If anyone desires a religion other than Islam (Submission to Allah) never will it be accepted of him; and in the Hereafter he will be in the ranks of those who have lost.".

Verse 3:83-85 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Thus Qur'an guards all the Books revealed before (before any corruption):

"And We have sent down to you (O Muhammad) the Book (this Qur'an) in truth, confirming the Books that came before it and guarding it in safety: so judge between them by what Allah has revealed, and follow not their vain desires, diverging from the Truth that has come to you.".

Verse 5:48 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

6. Qur'an is **Allah's eternal miracle** and message revealed to the Prophet Muhammad for all succeeding generations till the day of Judgement. In response to those who doubt the

authorship of this Qur'an. Allah Almighty has challenged the most articulate Arabs to produce a whole book, ten chapters or even one solitary chapter which can be remotely comparable to the Qur'an. But to this day, no one has succeeded in meeting the challenge of the Almighty. The critics of the Qur'an have been struck dumb by its ineffable eloquence and surpassing beauty. God Most High says:

"Say, if the whole of mankind and jinns were to gather together to produce the like of this Qur'an, they could not produce the like thereof; even if they backed up each other with help and support.".

Verse 17:88 of Surat Al-Israa (The Journey by Night).

The Almighty also says:

"Or they may say: he forged it. Say: Bring ye then ten chapters forged, like unto it and call (to your aid)"whomsoever ye can other than Allah, if ye speak the truth.".

Verse 11:13 of Surat Hud (Prophet Hud).

And again:

"Or do they say: he forged it? Say: Bring then a chapter like unto it and call (to your aid) anyone ye can besides Allah, if it be ye speak the truth.".

Verse 10:38 of Surat Yunus (Jonah).

When Musailama al-Kath'ab (Musailama, the liar) produced his version of fake Koran, it was easily recognize d by Arabs as a man-made joke that can not come from a divine source. He was considered an apostate and was defeated decisively by the Muslim army under leadership of Khalid bin al-Walid; and Musailama, the liar was later killed and beheaded.

Similarly, with the American invasion of Iraq March 2003 and as part of claimed 'democracy' imported to Islamic world, the Americans brought a new Koran labelled 'The True Furqan' released by Al-Mahdy, a member of Project Omega 2000 (written in Arabic and translated into English by an Arab Christian missionary Anis Shorrosh) as a replacement of the Holy Qur'an and as a tool of evangelism, because of Christian missionaries failure and the lack of a breakthrough way to reach the Muslim world through medicine, schools, books, movies and many other methods (as admitted by the publisher). This new Koran was first distributed in Kuwait. It is being described as the ayats of the Shaytan...after being distributed to children of Kuwait in the private English schools!

This fake Koran is 368-page book with 77 suras, e.g. Peace, The Messiah, The Triune God, The Crucifixion, Women, Fasting, and Prayer. Each begins, "In the Name of the Father, the Word, the Holy Spirit, the One and Only True God". It states that Jihad is Haram (forbidden); it goes as far as attacking Allah, The Most High. The purpose of this book is to present the Christian Gospel to Arabs in the prose and poetic style of the classical language of the Arabic Quran (as they claim). The True Furqan was claimed to be written in seven days allegedly inspired by Al-Safee whereas Muhammad (PBUH) received his revelations over 23 years. This must include a lot of computerized copying and pasting; matching and mixing of selected texts from a mishmash of human (not divine) sources.

However, anyone who has read the real thing, the original or the English translation will soon see that this thing does not have the arrangement, the style, the confidence, nor the unique content found in the original. It is a desperate measure to find some way to convert Muslims since a few hundred years of concerted effort have brought so little success. Indeed, this hoax Koran was a man-made joke destined for trash waste-paper basket of history. The related website has soon been attacked by Muslims and non-Muslims alike and the site was taken offline. All Muslim countries reject it: even the government of India has banned the book from entering the country. No: 78/ NT (07-Sep-05): (The Central Government, for the maintenance of security of India, absolutely prohibits import of the book entitled "The True Furqan", subtitled "The 21st Century Quran" published in the United States of America by Omega, 2000 and Wine Press, including any extrac there from, any reprint or translation thereof or any document reproducing any matter cortained therein).

7. It has been revealed to re-establish the sincere worship of Allah alone (***Taw'hid***), without association of any partner with Him:

   "This is a Book with verses whereof are perfected (in every sphere of knowledge), and then explained in detail from One (Allah), Who is All-Wise, Well- Acquainted (with all things). (It teaches) that you should worship none but Allah".

   Verse 11:1-2 of Surat Hud (Prophet Hud).

   "And they have been commanded no more than this: to worship Allah, offering Him sincere devotion, being true in faith; to establish regular prayer; and to give Zakat; and that is the religion Right and Straight.".

   Verse 98:5 of Surat Al-Bayyina (The Clear Evidence).

   Implications of Tawhid are crucial. One of the implications of Oneness of God is the equality of all mankind before the One and the Only Creator. They are all accountable before Him. Thus, there is no superiority of one race, or inferiority of another [except by piety]; no human superpower is lawfully allowed or empowered to exploit, enslave, or abuse the weaker or the weakest nations, acting as a God, believing their 'Might is Right'. No matter how much power and might Man can amass and wield, there is always God, The Greatest and The Omnipotent; He is the The All-Mighty, The Humiliator and The Empoweror. A further consequence of this equality is the Brotherhood and the oneness of this Muslim Ummah, the one big global family.

   Another implication of Oneness of God (Taw'hid) is that God (Allah) is The Absolute Governor of this Universe, The Ruler of the Kingdom, and The King of all kings; hence, He is the only legitimate Law-Giver for the Mankind: **"The command (or the judgement) is for none but Allah, He has commanded that you worship none but Him; that is the right religion (i.e. Islamic Monotheism), but most men know not.".**

   Verse 12:40 of Surat Yusuf (Prophet Joseph).

   Thus, all kings, governments, nations and individuals are accountable to His Majesty in this life and in the life hereafter.

   Another implication of Taw'hid is the belief that Allah Alone is The Guarantor of Muslims' Victory **(see below).** The belief in Divine Destiny (Qadar) whether good or bad is a crucial principle in Islamic Faith. Both of these last 2 believes (Allah' victory and

Allah's pre-destiny) are indeed responsible for the swift spread of Islam by Muslims keen to fight and die for the spread of Allah's global message, and to be extremely happy to do so and to die, in pursuit of this high goal.

8. Because Qur'an contains a complete code which provides for all areas of life (whether Spiritual, intellectual, political, social or economic), therefore, it is **a code which has no boundaries of time, place, or nation.**

"Verily this Qur'an do guide to that which is most right.".

Verse 17:9 of Surat Al-Israa (The Journey by Night).

9. Allah Almighty has taken upon Himself the duty of preserving and protecting the Qur'an for ever in its entirety from any change or corruption, as He says:

"We have without doubt, sent down the Message (the Dhikr i.e. the Qur'an); and We will assuredly guard it (from corruption).".

Verse 15:9 of Surat Al-Hijr (The Rocky Tract).

So well has Qur'an been preserved, both in memory and in writing, that the Arabic text we have today is identical to the text as it was revealed to the Prophet. Not even a single letter has yielded to corruption during the passage of the centuries. And so it will remain for ever, by the consent of Allah.

10. Being the true eternal Message of Allah, **the Qur'an reveals many scientific miracles, and thus merges science with religion**. In the Islamic world therefore, the famous scientists and doctors were pious Muslims too; their books always start with praise to Allah (Lord of the heavens and the earth, and all that exists) and prayer on the Prophet Muhammad. The European bad dichotomy between scientists and clergymen is alien to Muslims; and the schism between the Science and the Church is totally unknown in the Islamic world. God Most High says:

"Those truly fear Allah, among His Servants are scientists (or **those who have knowledge).".**

Verse 35:28 of Surat Fatir (The Originator of Creation).

"We will show them Our Signs in the universe, and in their own selves, until it becomes manifest to them that this (Qur'an) is the truth.".

Verse 41:53 of Surat Fussilat.

"Say:'Are those who know equal to those who know not? It is only men of understanding who will remember (i.e. get a lesson from Allah's Signs and Verses.".

Verse 39:9 of Surat Az-Zumur (The Groups).

Indeed, the very first verses revealed on the Prophet Muhammad, orders him (and Muslim) to read and write with pen: **"Read! In the Name of Your Lord Who has created (all that exists). Created man, out of a leech-like clot. Read! And your Lord is the Most Bountiful. He Who taught (writing with) the pen. Taught man that which he knew not.".**

Verse 96:1-5 of Surat Al-Alaq (The Leech-like Clot).

Indeed, Prophet Muhammad's miracles were innumerable, but being the seal of Prophethood, they must be long lasting after his death (in contrast to other Prophets miracles witnessed by their followers of that **period**) i.e. the Qur'an, Muhammad's biggest and lasing miracle by itself contains many scientific miracles as additional supportive evidence of Muhammad's Prophethood **after** his death and that Qur'an is truly the word of Allah. Thus the God, The Most High confirms that polytheists believed in Muhammad and in Qur'an, but they were stubborn enough not to declare it:

"But when Our Signs came to them, visibly they said: 'This is a sorcery manifest!' And they denied them, though their souls acknowledged them wrongfully and out of pride: So see what was the end of those who acted corruptly!".

Verse 27:13-14 of Surat An-Naml (The Ants).

Take for instance the most debatable sign:

The splitting of the moon, this a major universal sign, which many Westerners did not accept in the past; indeed, even some Muslims thought it was a legend.

It was narrated by Anas bin Malik: **"The people of Mecca asked Messenger of Allah (PBUH) to show them a sign (miracle). So he showed them the moon split in two halves between which they saw the Hira' mountain".**

[Sahih Al-Bukhari].

But people of Makkah then said: Muhammad influenced us with magic! Splitting of the moon was then documented in the Holy Qur'an:

"The Hour [of Judgment] **is nigh, and the moon was cleft asunder. And if they see a sign, they turn away and say: 'This is continuous magic'. They denied (the Truth) and followed their own lusts. And every matter will be settled** [according to the kind of deeds: good deeds will take their doers to Paradise, and similarly evil deeds will take their doers to Hell]**".**

Verses 54:1-3 of Surat Al-Qamar (The Moon).

A. Arabic Evidence: Eye-Witnesses (Locally)

Narrated Abdullah bin Mas'ood: **"The moon was split (into two pieces) while we were with the Messenger of Allah. He said, "Be witnesses.".**

[Sahih Al-Bukhari].

According to Maududi, the traditionists and commentators have agreed that this incident took place at Mina in Makkah about five years before the Holy Prophet's Hijra (migration) to Medina. The Moon had split into two distinct parts in front of their very eyes. The two parts had separated and receded so much apart from each other that to the on-lookers (in Makkah) one part had appeared on one side of the mountain and the other on the other side of it. Then, in an instant the two had rejoined (the moon reformed as before).

This was a manifest proof of the truth that the system of the universe was neither eternal nor immortal, it could be disrupted. This incident indicated that huge stars and planets could split asunder, disintegrate, collide with each other, and everything that had been described in the Qur'an on the Resurrection could happen.

The Holy Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) invited the people's attention to this event only with this object in view and asked them to mark it and be a witness to it. But the disbelievers described it as a magical illusion and persisted in their denial. They were reproached in Surah Al-Qamar (The Moon) for their stubbornness.



Artistic Islamic impression of Moon Splitting as one of Muhammad's Miracles

B. British Evidence: Eye-Witnesses (Globally)

The incident relating to King Chakrawati Farmas is documented in an old manuscript in the ***'India Office Library', London***, which has reference number: **Arabic, 2807, 152-173.** It is quoted in the book "Muhammad Rasulullah," by M. Hamidullah: (There is a very old tradition in Malabar, South-West Coast of India, that **Chakrawati Farmas, one of their kings, had observed the splitting of the moon**, the celebrated miracle of the Holy Prophet (pbuh) at Mecca, and learning on inquiry that there was a prediction of the coming of a Messenger of God from Arabia, he appointed his son as regent and set out to meet him. He embraced Islam at the hand of the Prophet, and when returning home, at the direction of the Prophet, died at the port of Zafar, Yemen, where the tomb of the "Indian king" was piously visited for many centuries.)

It is due to this incident about their king, the people of Malabar became the first community in India to accept Islam. Subsequently, they increased their trade with Arabs, as the Arab ships used to pass by their shores on the way to China before the advent of Prophet Muhammad (pbuh).

Before Prophet Muhammad (pbuh), Malabar also had a Christian community dating back from the earliest followers of Prophet Jesus ('Isa), pbuh. St. Thomas is believed to have migrated to India and died there. This community remained untouched by later theological developments in Christianity until the arrival of Portuguese traveler Vasco da Gama. When the British were consolidating their stronghold in India, they deployed the largest naval operation (on the shores of India) against the Muslims of Malabar.

C. American NASA Evidence: The fault line and cracking of the moon

Moon split by NASA (National Aeronautics and Space Administration, headquartered in Washington, DC with field centers across the country) revealed that "the crust under the

surface easily deforms causing the surface to crack and sink, producing a fault that looks like a straight rill.....It's actually a fault line formed from a *moonquake* in the ancient past...." **NASA: The fault line and cracking of the moon (see below)**



Science has confirmed that the moon did indeed crack as Allah Almighty mentioned in the Noble Quran 1500 years ago. There are also ample eye witnesses that saw the moon split in half, which was a Sign of Prophethood proving Prophet Muhammad's Truthfulness from Allah Almighty. Such major event was in fact eye-witnessed by Makkan people and by many others like the king of Malabar, and was recently supported by NASA crack faulty line of the moon.

Given the depth as well as the sublimity of the Qur'anic text, a faithful translation of it into another language is virtually impossible. The various translations that exist today, however accurate they may be, cannot be designated as the Qur'an, since they can never hope to imitate the diction or the style of the Book of Allah. But as translation is one of the few ways to export the message of the Qur'an to allow those lacking in knowledge of Arabic to share this priceless gift, it becomes a duty for those in a position to fulfil this task. It was by the virtue of this Qur'an supported by the Prophetic Hadith that the Arabic language became *Lingua Franca* from mid 7th - mid 18th centuries, since most (if not all) people at the time, whether converted to Islam or not, were keen to learn Arabic out of necessity in order to perform religious duties; to expand knowledge in various fields; or simply to communicate in business and money dealings.

Description of Allah (God): Oneness of God (Tawhid), Essence of Islamic Monotheism[4 a, b, c, d] [5 a, b, c]

Indeed, Islam came to return man to his Creator, Sustainer (Allah, The God) and to make His guidance the only source from which values and standards are to be obtained, as He is the Provider and Originator. The Oneness of God as the only law-giver and ruler, is the most fundamental doctrine in Islam, and hence *'La Ilaha Illa Allah, Muhammad Rasul Allah' (There is no God but Allah, Muhammad is Messenger of Allah)* is the declaration of submission to God and conversion to Islam. Indeed, the Oneness of Allah (Tawhid), the essence of Islam and the most serious matter of knowledge, is summarized in Surat Al-Ikhlas which by itself equates to one third of Qur'an (Qur'an contains 3 thirds: one third for *Tawhid*,

one third for religious worshipping duties -*Ibadat*, and one third for the dealings in life – *Mu'amalat*):

"Say: He is Allah, the One (and the Only)**. Allah the Self-Sufficient Absolute Master** (Whom all creatures need)**. He begets not, nor was He begotten. And there is none co-equal or comparable to Him".**

Verse 112:1-4 of Surat Al-Ikhlas or Al-Tawhid (The Purity of Faith).

"There is nothing like Him, and He is the All-Hearer, the All-Seer".

Verse 42:11 of Surat Ash-Shura (The Consultation).

Allah further described Himself:

"He is the Originator of the heavens and the earth. How can have children when He has no wife? He created all things and He is the All-knower of everything.".

Verse 6:101 of Surat Al-An'am (The Cattle).

Perhaps, Allah describes Himself best in Ayat-ul-Kursi, the best Verse of Qur'an:

"Allah! La ilaha illa Huwa (none has the right to be worshipped but He), the Ever Living, the Self-subsisting and Supporter of all, no slumber can seize Him nor sleep, to Him belongs all things in the heavens and on earth, Who is he that can intercede with Him except with His Permission? He know what happens before or after or behind them (His creatures), and they will never compass anything of His knowledge except as He wills, His Kursi [i.e. footstool or chair, which should be distinguished from the 'Arch' (throne)] do extend over the heavens and the earth, and He feel no fatigue in guarding and preserving them for He is the Most High, the Most Great (Supreme)".

Verse 2:255 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

It is said that the *Kursi* compared to the *Arch* is nothing but like a ring thrown out upon open space of the desert. If the *Kursi* extends over the entire universe, then how much greater is the *Arch*; indeed, Allah creator of both the *Kursi* and the *Arch*, is the Most Great.

In Islam, the Qualities (*Sifat*) mentioned in Qur'an of Allah, the Most High, like His Face, Eyes, Hands, Shins (Legs), His Coming, His (*Istawa'*) rising over His Throne and others, or all that Allah's Messenger qualified Him in the true authentic Prophet's Ahadith (narrations) as regards His Qualities like (*Nuzul*) His Descent or His laughing and others, the religious scholars of the Qur'an and the Sunnah believe in these Qualities of Allah and they confirm that these are really His Qualities, without *Ta'wil* (interpreting their meanings into different things) or *Tashbih* (giving resemblance or similarity to any of the creatures) or *Ta'til* (completely ignoring or denying them i.e. there is no Face, or Eyes, or Hands, or Shins for Allah). These Qualities befit only for Allah Alone, and He does not resemble any of (His) creatures. As Allah's Statement (in the Qur'an):

(1) **"There is nothing like Him, and He is the All-Hearer, the All-Seer.".** ***(V.42:11).***

(2) **"There is none co-equal or comparable to Him.".** ***(V.112:4).***

The Almighty glorified and distinguishes Himself from His creatures (and Man) attributes:

"And they say: 'The Most Gracious (Allah) has begotten a son [or offspring or children (as the Jews say: Uzair (Ezra) is the son of Allah, and the Christians say that He has

begotten a son (Jesus) and the pagan Arabs say that He has begotten daughters (angels and others)]. Indeed you have put forth a thing most monstrous. Whereby the heavens are almost torn, and the earth is split asunder, and the mountains fall down in utter ruins. That they attributed a son to The Most Gracious. There is none in the heavens and the earth but comes to the Most Gracious (Allah) as a slave.",

Verse 19:88-93 of Surat Maryam (Mary).

The Almighty clarifies the mystery surrounding Jesus by saying:

"Surely, they have disbelieved who say: 'Allah is the Messiah, son of Maryam (Mary), but the Messiah said: 'O Children of Israel! Worship Allah, my Lord and your Lord' verily, whosoever sets up partners (in worship) with Allah, then Allah has forbidden Paradise to him, and the Fire will be his abode, and for the Zalimun (polytheists and wrong-doers) there are no helpers. Surely, disbelievers are those who said: Allah is the third of the three (in Trinity), but there is no Illah (god) (none who has the right to be worshiped) but One Ilah (God – Allah), and if they cease not from what they say, verily, a painful torment will befall on the disbelievers among them.....The Messiah, son of Maryam (Mary), was no more than a Messenger; many were the Messengers that passed away before him, his mother (Mary) was a Siddiqah (a woman of truth); they both used to eat food (as any other human being, while Allah does not eat); look how We make the Ayat (proofs, signs, lesson) clear to them; yet look how they are deluded away (from the truth)".

Verse 5:72-73 and 75 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

"And (behold) when Allah will say: O' Jesus, son of Mary! Did you say to men: 'Worship me and my mother as two gods besides Allah?' he said: 'Glory to You! Never could I say what I had no right (to say), had I said such a thing, You would surely have known it. You know what is in myself though I do not know what is in yours: truly, You, only You, are the All-Knower of all that is hidden (and unseen)".

Verse 5:116 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread).

It is unfortunate that the Christians overpraised Jesus till they took him as a god besides Allah. It is narrated by Umar (the 2nd Caliph of Islam): I heard the Messenger of Allah (peace be upon him) saying: **"Do not overpraise me the way the Christians overpraised the son of Mary, for I am only a slave, so call me the slave of Allah and His Messenger.".**

[Sahih Al-Bukhari, Vol 4, Hadith 654].

The Almighty then addressed the people of the Book by saying:

"O people of the Book (Christians)! Do not exceed the limits in your religion, nor say of Allah aught but the truth. The Messiah Jesus, son of Mary, was (no more than) a Messenger of Allah and His Word, ('Be!' – and he was) which He bestowed on Mary and a spirit (Ruh) created by Him; so believe in Allah and His Messenger. Say not: 'Three' (trinity)! Cease! (it is) better for you. For Allah is (the only) One Ilah (God), glorified is He (Far Exalted is He) above having a son. To Him belongs all that is in the heavens and all that is in the earth, and Allah is All-Sufficient as a Disposer of affairs. The Messiah disdain not to be a slave of Allah, nor the angels

who are the near (to Allah), and whosoever disdain His worship and is arrogant, He will gather them all together to Himself (to answer).".

Verse 4:171-172 of Surat An-Nisa' (The Women).

Indeed, in the year of Deputations, 10th of the Hijra (AD 631), a Christian embassy (a 60-member-delegation) from Najran (towards Yemen, about 150 miles north of Sana'a) came into to the Prophet's Mosque in Medina. They were much impressed on hearing this passage of the Qur'an explaining the true position of Christ:

"Verily, the likeness of Isa (Jesus) before Allah is the likeness of Adam. He created him from dust, then (He) said to him: 'Be!' – and he was.".

[Verse 3:59 of Surat Al- Imran].

Indeed, if Jesus is born without a human father, Adam was born without either a human father or mother. But ingrained habits and customs prevented them accepting Islam as a body. Hence, Qur'an compliments the above verse by challenging their belief: **"(This is) the truth from your Lord, so be not of those who doubt. Then whoever disputes with you concerning him (Jesus) now after (all this) knowledge that has come to you (Jesus being a slave of Allah, and having no share in Divinity), say: (O Muhammad) 'Come, let us call our sons and your sons, our women and your women, ourselves and yourselves – then let us earnestly pray and invoke the curse of Allah upon those who lie.".**

Verse 3:60-61 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Thus, the Holy Prophet, firm in his faith, proposed a ***Mubahala***, i.e. a solemn meeting (in a form of contest), in which both sides should summon not only their men, but their women and children, earnestly pray to Allah, and invoke sincerely the curse of Allah on those who should lie. Those who had a pure and sincere faith would not hesitate. The Christians declined, and they entered into tributary relations with the new Muslim State and were dismissed in a spirit of tolerance with a promise of protection from the State in return for tribute. After they declined this challenge (which Qur'an recorded for history), God, The Most High states decisively the situation about Jesus:

"This is the true account [about Jesus]: There is no god except Allah [the One and the Only True God, Who has neither a wife nor a son]; and Allah is indeed The Exalted in Power, The Wise.".

Verse 3:62 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Nevertheless, one member of this delegation converted to Islam (named ***Kawz bin Al'qamah***) because when the mule carrying his brother (Abu Harithah bin Alqamah, one of the 3 main leaders of Najran's delegation) tripped on the way from Najran to Medina, an interesting conversation took place between these 2 brothers:

Kawz said: 'May the distant [person] get lost [referring to Prophet Muhammad]'.

His brother leader Abu Haritha replied: '[No] you get lost!'

Kawz asked surprisingly: 'but why brother?'

Abu Harithah replied: **'By Allah, he is the Prophet we have been waiting for'.**

Kawz said: 'then what prevent you from [believing] him and you know that [he is a Prophet]?

Abu Haritha replied: **'because of what those people [the Byzantine Romans] did to us; they honoured us, they provided us [with money, gifts, and services]; and were generous to us; but they were bent on his [Muhammad's] opposition, thus if I do it [convert to Islam], they [the Romans] will take all that you have seen from us'.**

Kawz kept that in mind, and soon converted to Islam and he then started telling that converstaion. [Ibn Hisham, Life of Prophet Muhammad, 2nd volume, page 510].

Indeed, God, The Most High questions the illogic of having more than One God for this Universe:

"We created not the heavens and the earth and all that is between them for a (mere) play. Had We intended to take a pastime (i.e. a wife or a son), We could surely have taken it from Us, if We were going to do (that).....Had there been therein (in the heavens and the earth) alihah (gods) beside Allah, then verily both would have been ruined, glorified is Allah, the Lord of the Throne, (High be He) above all that (evil) they associate with Him!....And We did not send any Messenger before you (O Muhammad) but We revealed to him (saying): La ilaha illa Ana [none has the right to be worshipped but I (Allah)], so worship Me (Alone and none else)......And if any of them should say: 'Verily, I am an ilah (a god) beside Him (Allah)' such a one We should recompense with Hell. Thus We recompense the wrong-doers (Zalimun).".

Verse 21:16-17, 22, 25 and 29 Surat Al-Anbiyaa (The Prophets).

That is why Allah continuously stressed the fact that Jesus is a **human** being:

"Verily, the likeness of Isa (Jesus) before Allah is the likeness of Adam. He created him from dust, then (He) said to him: 'Be!' – and he was.".

Verse 3:59 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Furthermore, the end of the life of Jesus on earth is as much involved in mystery as his birth. But The Almighty God explains what exactly happened to Jesus:

"That they said: 'we killed the Messiah Jesus, the son of Mary, the Messenger of Allah'; but they killed him not, nor crucified him, only a likeness of that was shown to them [the resemblance of Jesus was put over another man (and they killed that man)], and those who differ therein are full of doubts, with no (certain) knowledge; but follow nothing but conjecture, for a surety they killed him not: – Nay, Allah raised him up (with his body and soul) unto Himself; and Allah is Exalted in Power, All-Wise. And there is none of the people of the Book (Jews and Christians) but must believe in him (Jesus as only a Messenger of Allah and a human being)

before his death, and on the Day of Judgement he will be a witness against them ".

Verse 4:157-159 of Surat An-Nisa' (The Women).

"***before his death***" has 2 interpretations: 1) before Jesus' death after his descent from the heavens, which means Jesus is still living in body and that he will appear just before the Final Day, after coming of the Mahdi (Imam or the leader of Muslims), when the world will be purified of sin and unbelief. Then there will be his final death before the Day of Judgement, but all will have believed before that final death. 2) Others think that 'his death' is referred to

'one of the people of the Book' i.e. a Jew's or a Christian's death, at the time of the appearance of the Angel of Death when he will realize that Jesus was only a Messenger of Allah and had no share in Divinity. The emphatic form 'must believe' denotes more a question of duty than of fact. The Orthodox Christian Churches make it a cardinal point of their doctrine that his life was taken on the Cross, that he died and was buried, that on the 3rd day he rose in the body with his wounds intact, and walked about and conversed, and ate with his disciples, and was afterwards taken up bodily to heaven. This is necessary for the theological doctrine of '***blood sacrifice and vicarious atonement for sins***', which is rejected by Islam.

But some of the early Christian sects did not believe that Christ was killed on the Cross:

- The Basilidans believed that some one else was substituted for him.
- The Docetae held that Christ never had a real physical or natural body, but only an apparent or phantom body, and that his Crucifixion was only apparent, not real.
- The Marcionite Gospel (about A.D. 138) denied that Jesus was born, and merely said that he appeared in human form.
- The Gospel of St. Barnaba supported the theory of substitution on the Cross.
- The Qur'anic teaching is that Christ was not crucified nor killed by the Jews, notwithstanding certain apparent circumstances which produced that illusion in the minds of some of his enemies; that disputations, doubts, and conjectures on such matters are vain; and that he was taken up to Allah.

It was the Roman emperor Constantine who believed in Christianity to provide him a means of greater political and military stability; it is claimed that on the eve of an important battle, he saw a cross in the sky with the words: '*In this sign thou shalt conquer*'. Constantine had placed Christianity on an equal footing with paganism, pagan people of the Roman world began to accept this now-popular Christianity by the hundreds of thousands, bringing with them their pagan customs. He helped Romans to accommodate Christianity, but not in the unique pure message of Christianity. The new Christianity resembled certain elements of Roman belief, particularly the worship of Mithra, protector of the Empire and closely tied to the sun gods: Helios and Apollo. In fact, Mithra or Mithras was the ancient Persian god of light, protector of truth, and enemy of darkness (according to Old Persians), whose worship then became popular in the Roman Empire; Mithraeum (plural Mithrae'a) is grotto (cave) or temple sacred to Mithras, and Mithra'icism or Mith'raism is the belief in or worship of Mithras. Mithra's birthday on December 25, close to winter solstice, became Jesus' birthday [in fact he was born end of Summer – see under **Christ** in the Dictionary]. Mithra's ascension, correlating to the sun's return to prominence around the spring equinox, became the Christian holiday of Easter. Christians took over a cave-temple dedicated to Mithra in Rome on the Vatican Hill, making it the seat of the Catholic Church. The Mithraic high priest's title, Pater Patrum, soon became the title for the bishop of Rome, *Papa* or *Pope*. Later conferences started to debate the identity of Jesus; their prolonged discussions ended in rather confused and somewhat divided conclusions [beyond the scope of this book].

The Almighty stressed the 2nd coming of Jesus in the Last Days before the Resurrection, when he will destroy the false doctrines that pass under his name, and prepare for the universal acceptance of Islam:

"And (Jesus) shall be a Sign for (the coming of) the Hour (of Judgement): therefore have no doubt about the (Hour), but follow Me (Allah): this is a Straight Path (of Islamic Monotheism).".

Verse 43:61 of Surat Az-Zukhruf (The Gold Adornments).

Islam, the Old New Belief and a Comprehensive Code of life (4 a, b, c, d) (5 a, b, c)

Islam is not a religion in the narrow sense of a spiritual doctrine. It is a way of life, thought, word and deed; Faith without action is meaningless. In Islam the term worshipping means the full broad-spectrum of life activities. Faith motivates action, and action brings Faith out into the world, where it can grow and strengthen. Thus Prophet Muhammad said: '**Islam has been built on 5** (pillars): **testifying that there is no God but Allah and that Muhammad is the Messenger of Allah; performing the prayers; paying the zakat** ['alms-tax' or 'poor due', it is a tax levied on a man's wealth and distributed among the poor]; **making the Pilgrimage to the** (Sacred) **House; fasting in Ramadhan'.**

[Hadith related by Sahih Al-Bukhari and Sahih Muslim].

Islam is the external expression (by saying Shahadah and performing actions), but more importantly is the internal faith (Iman) by heart. Thus Prophet Muhammad says: **"None of [truly] believes until his inclination is in accordance with what I have brought".**

[An-Nawawi's Forty Hadith].

On the authority of Umar (ibn Al-Khattab, the 2nd Caliph, May Allah be pleased with him)[1d], who said: One day while we were sitting with the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) there appeared before us a man whose clothes were exceedingly white and whose hair was exceedingly black; no signs of journeying were to be seen on him and none of us knew him. He walked up and sat down by the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him). Resting his knees against his and placing the palms of his hands on his thighs, he said: **O Muhammad, tell me about *Islam*.** The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: **Islam is to testify that there is no god but Allah and Muhammad is the Messenger of Allah, to perform the prayers, to pay zakat, to fast Ramadhan, and to make the pilgrimage to the House if you are able to do so.** He said: You have spoken rightly, and we were amazed at him asking him and saying that he had spoken rightly. He said: **Then tell me about *iman*** ['religious belief' or 'faith']. He said: **it is to believe in Allah, His angels, His books, His messenger, and the Last Day, and to believe in divine destiny, both the good and the evil thereof.** He said: You have spoken rightly. He said: **then tell me about *ihsan*** [has a special religious significance, and any single rendering of it would be inadequate. Dictionary meanings for ihsan include: right action, goodness, charity, sincerity, and the like. The word root also means 'to master or to be proficient at']. He said: **it is to worship Allah as though you are seeing Him, and while you see Him not, yet truly He sees you.** He said: **Then tell me about the Hour** [i.e. of the Day of Judgement]. He said: **The one questioned about it**

knows no better than the questioner. He said: **Then tell me about its signs.** He said: **That the slave-girl will give birth to he mistress and that you will see the barefooted, naked, destitute herdsmen competing in constructing lofty buildings.** Then he took himself off and I stayed for a time. Then he said: O' Umar, do you know who the questioner was? I said: Allah and His Messenger know best. He said: it was Gabriel, who came to you to teach you your religion.

[Hadith related by Sahih Muslim].

Thus, in a nutshell, Islam is the total submission to God and His guidance; accordingly, ***All Prophets were Muslims*** from the time of Adam, Abraham, Jacob, Jesus right through to Muhammad, the seal of Prophethood (peace be upon them all).

God Most High documented this important fact: **"The Religion before Allah is Islam (submission to His Will).".**

Verse 3:19 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

"And Abraham enjoined upon his sons and so did Jacob; 'Oh my sons! Allah had chosen the Faith for you; then die not except being Muslims (in the state of submission to Allah).'.

Verse 2:132 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"When Jesus found unbelief on their part, He said: 'Who will be my helpers to (the work of) Allah? Said the disciples: 'We are Allah's helpers, We believe in Allah, and do thou bear witness that we are Muslims.".

Verse 3:52 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

"If anyone desires a religion other than Islam (Submission to Allah) never will it be accepted of him; and in the Hereafter he will be in the ranks of those who have lost"

Verse 3:85 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Indeed, this submission to One God is deeply rooted in the human nature, right from the moment of birth; this is deemed the natural true relationship of Man with God. Thus Allah says: **"So set you (O Muhammad) your face towards the religion being upright (hanif), the nature (fitrah) in which Allah has made mankind; no change (there is) in the work (wrought) by Allah: that is the true Religion: but most among mankind know not."** Verse 30:30 of Surat Ar-Rum (The Romans) The ***Hanif*** doctrine of Abraham is to live and die in faith in the One True God; as opposed to Jews who despite teaching Unity, went after false gods, and Christians who invented the Trinity or borrowed it from Paganism; **"They say: 'Become Jews or Christians if you would be guided'. Say you: 'Nay! (I would rather) the Religion of Abraham, the true (hanif), and he joined not gods with Allah.".**

Verse 2:135 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

Hanif means 'true belief or believer' as we say: 'the magnetic needle is true to the north'. Those who have been privileged to receive the Truth should never hesitate or swerve, but remain constant, as men who know. Man is therefore, born innocent, pure, true, free, inclined to right and virtue, and endued with true understanding about his own position in Universe and about Allah's goddness, wisdom, and power. That is his true nature (Fitrah), just as the nature of a lamb is to be gentle and of a horse to be swift. But man is caught in the mesh of

customs, superstitions, false teachings and selfish desires, which then divert him from the true path. Prophet Muhammad complements this Qur'anic Verse: Narrated Abu Hurairah: The Prophet said: **'Every child is born on Al-Fitrah [true faith of Islamic Monotheism [i.e. to worship none but Allah Alone)], but his parents convert him to Judaism or Christianity or Magianism, as an animal gives birth to a perfect baby animal. Do you find it mutilated?'.**

[Sahih Al-Bukhari, vol 2 Hadith 467].

Prophet Muhammad further explains and reiterates this meaning in his Hadith: **'Allah says: "I created my servants hunafa' [i.e. true belivers (plural of hanif)], then satans distracted them from their (true) religion.".**

[Sahih Muslim, book 4, Hadith 2197].

The ***Oneness of God*** is thus manifested by the ***oneness of the message***, the eternal Islamic message from the One God and the Only, through His many Prophets from Adam to Muhammad to the successive generations throughout the history of Mankind. Those who believed in this Islamic message (submission to One God) are brothers bonded by their belief and belong to one global family: the ***one Islamic Ummah*** that extends deep in the history, whether they are the followers of the Prophets: Noah, Abraham, Jacob (and his 12 sons), Moses, Jesus, ending finally in Muhammad, and eventually in the return of Jesus before the Day of Judgement. God Most High says: **"The Messenger (Muhammad) believes in what has been sent down to him from his Lord, and (so do) the believers. Each one believes in Allah, His Angels, His Books, and His Messengers. (They say),'We make no distinction between any of His Messengers' – and they say: 'We hear, and we obey', (We seek) Your Forgiveness, our Lord, and to you is the return (of all)".** ***Verse 2:285 of Surat Al-Baqarah (The Cow).*** Furthermore, God threatens warning from any differentiation between the Messengers, for they are all the Messengers of One God (Allah); to believe in some and to reject others is a clear evidence of disbelief. Hence Allah's saying: **"Verily, those who disbelieve in Allah and His Messengers and wish to make distinction between Allah and His Messengers (by believing in Allah and disbelieving in His Messengers) saying, 'We believe in some but reject others', and wish to adopt a way in between. They are in truth disbelievers, and We have prepared for the disbelievers a humiliating torment.".**

Verse 4:150-151 of Surat An-Nisa' (The Women).

Thus, Islam has re-connected the past with the present, as much as it has re-connected this life with the life-hereafter.

Islam gave a new concept of values and standards to mankind and showed the way to learn and live these values and standards, it also provided it with a new concept of human relationships. In the world there is only one party of God; all others are parties of Satan and rebellion. **"Those who believe fight in the cause of God, and those who disbelieve fight in the cause of rebellion. Then fight the allies of Satan; indeed, Satan's strategy is weak.".**

Verse 4:76 of Surat An-Nisa' (The Women).

For human life, there is only one true system, and that is Islam; all other systems are ***Jahiliyyah.*** Allah says: **"Do they want a judgment of the Days of Ignorance? Yet who is better in judgment than God, for a people having sure faith?".**

Verse 5:50 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread with Food).

There is only one law which ought to be followed, and that is the Shari'ah from God; what is other than this is mere caprice. **"We have set thee on a way ordained (by God); then follow it, and do not follow the desires of those who have no knowledge.".**

Verse 45:18 of Surat Al-Jathiyah (The Kneeling).

The truth is one and indivisible; anything different from it is error: **"Is anything left besides error, beyond the truth? Then whither do you go?".**

Verse 10:32 of Surat Yunus (Jonah).

"So, by they Sustainer, they have not believed until they make you the arbiter of their disputes, and then do not find any grievance against your decision, but submit with full submission.".

Verse 4:65 of Surat An-Nisa' (The Women).

Islam also provides a code of life, a comprehensive set of Divine regulations to regulate the life of Man on this earth according to Islamic teachings. This Islamic code regulates not only the personal and spiritual affairs but also the social, economic, and political aspects of the community and the world. Hence moral values and commercial dealings are inseparable from the Islamic belief and daily practice: **"Say (O Muhammad): Verily, my Salat (prayer), my sacrifice, my living, and my dying are for Allah, the Lord of the 'Alamin' (mankind, jinn and all that exists)".**

Verse 6:162 of Surat Al-An'am (The Cattle).

"O you who believe! Enter perfectly in Islam (by obeying all the rules and regulations of Islamic religion) and follow not the footsteps of Satan. Verily, he is to you a plain enemy.".

Verse 2:208 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

Further, Islam came with this total guidance and decisive teachings. It came to elevate man above, and release him from, the bonds of the earth and soil. All creatures are Allah's creation and all land is Allah's land; thus Islam is a global message and Muslims are not bound by their birth-place nor limited by their national territories. All relationships therefore ought to be based through God, as we came into being through His will and shall return to Him. A blood relation is approved in Islam only through their relationship with the Creator. **"O mankind, remain conscious of your Sustainer, Who created you from one soul and created from it its mate, and from the two of them scattered a great many men and women. Remain conscious of God, from Whose authority you make demands, and reverence the wombs which bore.".**

Verse 4:1 of Surat An-Nisa' (The Women).

When the relationship of the belief is established, whether there be any relationship of blood or not, the Believers become like brothers. God Most high says: "Indeed, the Believers are brothers" **(Verse 49:10 of Surat Al-Hujurat or The Dwellings), which is a definition as well as a prescription. The Prophet complements this by his saying:** "None of you [truly] believes until he wishes for his brother what he wishes for himself"

[related by Al-Bukhari and Muslim].

Furthermore, the marriage/family in Islam is a highly revered institution. The monasticism practised in Christianity is not only forbidden but totally unknown in Islam; The

Almighty says: **"and We sent Jesus, son of Mary, and gave him the Gospel, and We ordained in the hearts of those who followed him compassion and mercy, but the monasticism which they invented for themselves, We did not prescribe for them".**

Verse 57:27 of Surat Al-Hadid (Iron).

Thus the Prophet considered the moral attitude with the wife and family as a manifestation of complete faith in Allah; he said:**"Believers with complete faith are those with perfect morals, and the best of you are the best for their women (wives).".**

[related by At-Tirmidhi].

Indeed after Prophet Muhammad death, his most beloved wife *Aysha*, was asked about the character (and behaviour) of Prophet Muhammad, she replied: **"his character was the Quran"** indicating that he was a mobile Qur'an translating all Qur'anic moral values into practice i.e. the prophet was the embodiment of Qur'anic moral code. Thus, Prophet Muhammad sets the highest moral standard that can be followed and imitated by all his follower Muslims. Hence, The Almighty praises Muhammad and asks Muslims to follow his example: **"And Verily, you (O Muhammad) are on an exalted (standard of) character".**

Verse 68:4 of Surat Al-Qalam (The Pen).

"You have indeed, in the Messenger of Allah, an excellent example for him who hopes in (meeting with) Allah and the Final Day, and who remember Allah much".

Verse 33: 21 of Surat Al-Ahzab (The Confederates).

In Prophet Muhammad's ***'Final Sermon'***, shortly before his death, he addressed his followers, **"O' People, it is true that you have certain rights with regard to your women, but they also have rights over you [...] Do treat your women well and be kind to them for they are your partners and committed helpers [...] All mankind is from Adam and Eve, an Arab has no superiority over a nonArab nor a nonArab has any superiority over an Arab; also a white has no superiority over black nor a black has any superiority over white except by piety and good action."** These words delivered in Arabic may seem to belong in the era of the Civil Rights movement, but were uttered over 1400 years ago. They represent **the first known Charter of Human Rights.**

Despite the tribal mentality of Arabs, Islamic practice was protected by the institution of 'Law of Justice' to protect all subjects of Islamic State; the Islamic law aimed at protection of the 5 elements: faith, life, fortune, sanity, and honour. The following Prophet saying constitutes the legal basis of civil life in Islam: **"Were people to be given in accordance with their claim, men would claim the fortunes and lives of [other] people, but the onus of proof is on the claimant and the taking of an oath is incumbent upon him who denies.".**

[Hadith related by Al-Baihaqi, and part of it is in the two Sahihs].

And also his saying (Peace be upon him): **"There should be neither harming nor reciprocating harm".**

[Related by Ibn Majah, ad-Daraqutni and Malik].

All people (Muslims or non-Muslims) in Islamic World were equal in human rights before Allah and before the Islamic law, where **people are judged not on basis of faith, but on the basis of deeds**. Despite the Institution of this Islamic law, Islam encouraged all

believers to suppress anger, to forgive people, and even to face the bad deeds with good ones, aiming for the great reward of Allah and the greatest reward is specifically kept for the patient Muslims. Allah Most High says:

"Those who spend (in Allah's Cause) in prosperity and in adversity, who repress anger and who pardon men; verily, Allah loves Al-Muhsinun (the good-doers).".

Verse 3:134 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

"The good deed and the evil deed cannot be equal. Repel (the evil) with one which is better (i.e. Allah orders the faithful believers to be patient at the time of anger, or to excuse those who treat them badly) then verily he, between whom and you there was enmity, (will become) as though he was a close friend.".

Verse 41:34 of Surat Fussilat (They are explained in detail).

"Only those who are patient shall receive their reward in full, without reckoning.".
Verse 39:10 of Surat Az-Zumar (The Groups).

Islam knows no soil, no race, no lineage, no tribe, and no family. It only accepts Islam as a submission to God (Allah) and all relations based on that submission and the land where laws of Shari'ah of God are operational. Thus Islam freed all humanity from the ties of the earth, so that they might soar toward the skies and freed them from the chains of blood relationships (the biological chains) so that they might rise above. While Islam accepts the human nature in committing sins, God's door is always open for all mankind to repent directly to Him without any intermediate; Islam also encouraged all Muslims to forgive their brothers in humanity and in Islam.

It is on the basis of Islam that all blood relations, lineage bonds, and marital relations should be established, but without Islamic belief, all such relations were broken. God Most High says in praise of the Believers: **"You will not find any people who believe in God and the Last Day loving those who fight god and His Messenger, even though they were their fathers or their sons, or their brothers, or their kindred. These are the people on whose hearts God has imprinted faith and strengthened them with a spirit from Himself. And He will admit them to Gardens beneath which rivers flow, to dwell therein. God will be well-pleased with them and they with Him. They are the party of God; truly the party of God will prosper.".**

Verse 58:22 of Surat Al-Mujadilah (The Woman Who Pleads).

We see that the blood relationships between Muhammad (peace be on him) and his uncle 'Abu Lahab' and his cousin 'Amr bin Hisham' (Abu Jahl) were broken and that the Muslim Emigrants from Mecca were fighting against their families and relatives and were in the front lines of Badr's battle, while on the other hand, their relations with the Helpers of Medina became strengthened on the basis of a common faith. They became like brothers, even more than blood relatives. This relationship established a new brotherhood of Muslims in which were included Arabs and non-Arabs. Suhaib from Rome and Bilal from Abyssinia and Salman from Persia were all brothers. There was no tribal partisanship among them. The pride of lineage was ended, the voice of nationalism was silenced, and the Messenger of God addressed them:

"Get rid of these partisanships; these are foul things" and *"He is not one of us who calls toward partisanship, who fights for partisanship, and who dies for partisanship."*.

Thus this partisanship (the partisanship of lineage) ended; and this slogan (the slogan of race) died; and this pride (the pride of nationality) vanished; and man's spirit soared to higher horizons, freed from the bondage of flesh and blood and the pride of soil and country. From that day, the Muslim's country has not been a piece of land, but the homeland or abode of Islam (Dar-ul-Islam or "Abode of Islam") - the homeland where faith rules and the Shar'ah of God holds sway, the homeland in which he took refuge and which he defended, and in trying to extend it, he became martyred. Indeed, within this Muslim Umma, it became the dream of many non-Arab speaking Muslims to get married an Arab speaking Muslim, an achievable dream in the abode of Islam, since all share this love of Islam and the love of Arabic language [Also see below under ***Ummah***].

Truly, the Prophet Muhammad was not only a mercy to the Mankind, but a mercy to all creatures. He taught that animals rights to be respected: to be spared suffering, to receive the food it needed, and to be treated well. It is narrated by Abu Ya'la Shaddad bin Aus (may Allah be pleased with him that the Messenger of Allah (peace be upon him) said:

"Verily Allah has prescribed Proficiency (Ihsan) in all things. Thus, if you kill, kill well; and if you slaughter, slaughter well. Let each one of you sharpen his blade and let him spare suffering to the animal he slaughters.".

[Sahih Muslim].

The Messenger stressed that respect for animals was part of the most essential Islamic teaching; in the sacrifice of animals for food, the Prophet did not merely order Muslims to respect the ritual and say the formula *'BismiLLah, Allahu Akhbar'* (in the name of Allah [I begin], God is the Most Great), which made it possible to kill the animal to eat it. He required that the animal be treated in the best manner and spared any needless suffering. One day an individual had immobilized his beast and was sharpening his knife in front of it, the Prophet intervened to say:

"Do you want to make it die twice? Why did not you sharpen your knife before you laid it down?".

Furthermore, the Prophet made the respect of animal rights a part of duties of human beings and should be understood as one of the conditions of their spiritual elevation[8]; Narrated by Ibn Umar (may Allah be pleased with them), that the Messenger of Allah (peace be upon him) said:

"A woman was punished for a cat she had imprissioned until it died. Because of this cat, she went to hell; she did not give it food or drink while she confined it, nor did she set it free to eat its prey.".

[Shahihs Al-Bukhari and Muslim].

Conversely, it was narrated by Abu Huraira (may Allah be pleased with him) said: the Messenger of Allah (peace be upon him) said: **"A woman prostitute was forgiven (by Allah), she passed by a dog at a site of half-covered well, panting and almost dying of thirst, so she took off her leather shoe and tied it to her necktie, and got for it (the dog) from the water, thus she was forgiven for that.".**

[Shahih Al-Bukhari].

The Prophet considers 'any good done to living creature gets a reward (from Allah)'; but he severely condemns anyone involved in torturing animals, or for instance using birds suffering for play, or killing birds for mere pleasure: Narrated by Ibn Umar (who passed by boys from Quraysh putting a bird (a hen) as a target for throwing arrows) and he said: 'Who did that? Allah condemns whoever did that, **the Messenger of Allah condemned whoever used a living creature (suffering) for pleasure".**

[Shahih Al-Bukhari & Muslim].

He also forbade marking animals on the face: Narrated by Ibn Abbas (may Allah be pleased with them), that a donkey marked on its face, passed by the Prophet who said:

" Allah condemned whoever marked it" and in another hadith version:

The Messenger of Allah (peace be upon him) prohibits the beating of the face and marking on the face.

[Both related by Sahih Muslim].

Indeed, in respect of animals, there are no less than 8 Suras (chapters) of the Qur'an carrying the names of animals and social insects:

1. **Al-Baqarah (The Cow, Surah number 2),**
2. **Al-An'am (The Cattle, Surah number 6),**
3. **An-Nahl (The Bees, Surah number 16),**
4. **An-Naml (The Ants, Surah number 27),**
5. **Al-Ankabut (The Spider Surah number 29),**
6. **Al-Alaq (The Leech-like clot, Surah number 96),**
7. **Al-Adiyat (Those that run i.e. mares or swift camels, Surah number 100) and**
8. **Al-Fil (The Elephant, Surah number 105).**

However, the verses of Qur'an had also mentioned:

Sheep, Goats, Ewes, Oxen, Calf, Monkeys, Pigs, Birds, Hoopoe, Quail (sal'wa), Crow, She-camel, Camel, Ishar (pregnant Camel), Wild Beasts, Canines, Dogs, Wolf, Lions, Locusts, Lice, Frogs, Flies, Mosquitoes, Termites, Da'bbah (moving living creature), Worms, Snakes (Hayyah, female snake; Thu'ban, male snakes), Moth/Butterflies, Steeds, Mules, Donkeys, A'diat (fast-running Horses), Mouriat (Horses lightening the rocky solid earth with its hoofs at night), Mu'ghirat (Horses used for the attack on the enemy), Safinat (standing Horses), Jiyad (good-quality Horses), Water-game, Land-game(trained hunting beasts e.g. hounds, and the birds of prey), Bahirah, Sa'ibah, Wasilah, Hamm (Bahirah is the daughter of Sa'ibah, which is the She-Camel, Wasila is She-Camel or Sheep, Hamm is the He-Camel), Whale (like the one that swallowed 'Jonah'), Whale as a big Fish (like the one mentioned in the story of 'Moses'), the tender meat of the Sea (Fishes), Coral, and **Pearls** (a natural gem formed by a living organism: mussel or oyster, which coats the irritating foreign object with a substance called nacre, the same material with which it builds its shell; layers of nacre build up to make a pearl).

Moreover, the Prophet's companion who narrated Hadith more than others is called (*Abdul Rahman bin Sakh'r*); the Prophet saw a small cat (in Arabic *Hirrah* is a cat, *Hurairah*, a small cat) in his pocket, so the Prophet called him ***'Abu Hurairah'*** (the one with the small

cat) and he became known by this name (to the extent that many companions forgot his real name

Thus, it was Prophet Muhammad (peace be upon him) circa AD 610 (early 7th century) who taught that the respect of **animals' rights** was an essential part of Islamic teaching and practice for the first time and **long before the animal rights' movements of 20th century.**

The Arabic language has recruited its huge vocabulary reservoir of beautiful Arabic words in the service of Islam to help laying down the Islamic foundation *inter alia* of human rights and animal rights. In addition to animal rights, Islam is the First International System to care about The Environment, making such care a duty of piety closely related to the worship of Allah, The Most High. Hence, Allah says:

(And do not do mischief on the earth, after it has been set in order, and invoke Him with fear and hope. Surely, Allah's Mercy is (ever) near to the good-doers).

Verse 7:56 of Surat Al'Araf (The Heights).

(And do good as Allah has been good to you, and seek not mischief in the land. Verily Allah likes not the mischief-makers (Mufsidun)).

Verse 28:77 of Surat Al-Qasas (The Narration).

Furthermore, The Prophet (peace be upon him) encouraged **'Green Tree-rich Environment'**:

"Any trees a Muslim may plant, and any seeds he may cultivate from which man or animal, or any other creature, eats, count as an act of benefaction (Sadaqah)".

(Narrated by Al-Bukhari and Muslim).

"Whoever cultivates land that has been dead, that land becomes his own".

(Narrated by Al-Tirmithi on the authority of Jabir).

Islam even directed Man to the importance of **'Environmental Balance'**, making Muslim an **eco-friendly** through his care about the balance of earth-plants in nature, as created by Allah, because such balance or equilibrium is a scientific necessity, executed precisely and purposefully by Allah's wisdom:

(And the earth We have spread out, and have placed therein firm mountains, and caused to grow therein all kinds of things in due proportion).

Verse 15:19 of Surat Al-Hijr (The Rocky Tract).

(Verily, We have created all things in proportion and measure).

Verse 54:49 of Surat Al-Qamar (The Moon).

Furthermore, Islam advocated **'Environmental Cleanliness'**:

Allah says: **(Truly, Allah loves those who turn to Him constantly in repentance and loves those who keep themselves pure and clean).**

Verse 2:222 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

(In it are men who love to clean and purified. And Allah loves those who make themselves clean and pure).

Verse 9:108 of Surat Al-Raubah (The Repentance).

Also, The Prophet (peace be upon him) says: **"Cleanliness is equal to half the faith".** *(Narrated by Muslim).*

The Prophet (peace be upon him) prohibited and severely warned against **'Environmental Contamination'**, and he said:

"Beware of the three curses: defecation in the [water] supplies, and on the side of the road, and by the shadow [of a tree]".

(Narrated by Abu Dawod, Ibn Majah, Al-Hakim, and Al-Baihaqi).

This above-Hadith is an Islamic statement about **'Environmental Protection'** from the risks to the public health, in addition to the care about beautiful environmental appearance. But this Hadith has also many benefits in **'medical prophylaxis'** against the contamination of water supplies used for drinking, cooking, and washing, in order to prevent transmission of germs through water; and against the contamination of the roads of transport in order to allow for free movement of people and caravans, and to prevent spread of infectious diseases; and against the contamination of the places shadowed by trees, which are stations for rest, eating and to have naps (short sleep) before resuming their long journey.

"You should never pass urine in the stagnant water that doesn't flow, and then take bath (or wash) in it".

(Narrated by Al-Bukhari and Muslim).

"You should never pass urine in the stagnant water, and then make ablution from it".

(Narrated by Ahmad, Tirmithi, and Nisa'ee).

"Faith is more than sixty – or more than seventy – parts, the lowest is the removal of harm from the road, and the highest is the declaration of 'La Ilaha Illa Allah' –There is No God But Allah".

(Narrated by Al-Bukhari and Muslim).

"Whoever harm Muslims on their roads, their curse on him is accepted (by Allah)". *(Narrated by Al-Tabarani).*

Islam was even the First to call for **'Preservation of living creatures from Extinction'**, hence Allah tells us about Noah story:

(There came Our Command, and the fountains of the earth gushed forth! We said: 'Embark therein, of each kind Two (male and female), and your family – except those against whom the Word has already gone forth, - and the believers' But only a few believed with him).

Verse 11:40 of Surat Hud (The Prophet Hud).

When the people were hurt and complained about the dogs in Medina (because of barking at night, and dog-bites which may be fatal in rabies), The Prophet (peace be upon him) refused to eradicate them, because they constitute an ummah (community) of animals, and said:

"If the dogs were not a community (ummah, plural umam) among the communities, I would have ordered killing them, so (only) kill the unknown black ones among them".

(Narrated by Abu Dawod, Al-Nisa'ee, Ibn Majah, and Tirmithi).

This is because all other living creatures have their own special social community and identity e.g. ants, bees, dogs, and cats; and hence Allah Most High says:

(There is not a moving living creature on earth, nor a bird that flies with its two wings, but are communities like you. We have neglected nothing in the Book, then to their Lord they (all) shall be gathered).

Verse 6:38 of Surat Al-An'am (The Cattle).

Islam Did Not spread by the Sword [1][2][4 a, b, c, d][5 a, b, c]:

Islam means submission to God, and also means the religion of peace (from the verb *sallama*, to submit, derived ***Islam, Istislam*** meaning submission; but from the same Arabic root, *salama, salima*, to be safe and sound, the word ***Salam*** is derived meaning peace); ***Salam*** is the saluting in Islam; further, ***Salam*** is one of the beautiful names of Allah, because He is the source of all peace and security. It was during peace rather than war that Islam spreads and flourishes; for instance, the number of Muslims multiplied many many times after Hudaibiya peace negotiation (Allah called it *Fat'h*, victory) than after any battle. Indeed Muhammad's influence and the attractive religion of Islam, rather than the sword is what make people from as far away as Yemen and Oman to swear allegiance to Muhammad and to be converted to Islam. Muslims are **ordered** to peacefully convey and spread the message of Allah to all mankind (being Allah's creatures) allover the world's known land (being Allah's land). Indeed, most of South East Asia including Indonesia and Malaysia, Brunei, Philippines, and even the Americas (See Chapter 4) as well as all sub-Saharan countries of Africa were all converted to Islam peacefully through Muslim and/or Arab merchants and preachers (mainly Muslims from Yemen-Hadhramout, Morocco and from West Africa mainly from Mali) who practiced Islam with total honesty and apply its principles in their moral and commercial dealings alike. However, Muslims must remain committed to protect Islamic message (da'wah or preaching) to reach people of this globe, or it will be incumbent upon Muslims to defend Islamic faith and to fight the aggressors who prevent this Islamic message from reaching people. Muslims never spread by sword or had ever forced non-Muslim enemies into Islam; during fighting none of the churches or synagogues, and none of priests or rabbis had ever been attacked or killed in the land conquered by Islam; similarly none of women, children and elderly were ever attacked.

Thus Islam advocates conversion by conviction. The Holy Qur'an says: **"Invite (mankind, O Muhammad) to the way of your Lord (i.e. Islam) with wisdom and fair exhortation, and reason with them in the better way".**

Verse 16:125 of Surat An-Nahl (The Bees).

War was never desirable, but when Muslims were compelled to it because they were attacked or because their survival was threatened, they had to keep strictly to what was needed to fight enemy forces that were armed and/or determined to fight. If the latter wished peace or surrendered, the war must be stopped, according to the Quranic injunction [8]: **"But if they incline toward peace, do you (also, in the same way) incline toward peace, and trust in Allah, for He is the One that hears and knows (all things)".**

Verse 8:61 of Surat Al-Anfal (The Spoils of War).

Furthermore, Islam being the religion of Allah, The Creator of all mankind, made Muslims always hope for the conversion (into Islam) of their very enemies, and even to treat them kindly: **"Perhaps Allah will make friendship between you and those whom you hold as enemies, and Allah has power (over all things), and Allah is Oft-Forgiving, Most Merciful. Allah does not forbid you to deal justly and kindly with those who fought not against you on account of religion nor drove you out of your homes. Verily, Allah loves those who deal with equity.".**

Verse 60:7-8 of Surat Al-Mumtahanah (The Woman to be examined).

But Muslims' hopes extend even further to the aggressive enemies who fought them. Indeed, in the battle of Uhud in AD 626, Muslim army was retreated for the first time (some historians considered them defeated) before the army of unbelievers under their 3 genius leaders: Abu Sufyan (an arch-enemy of the Prophet); Khalid bin al-Walid (son of Al-Walid bin al-Mugherah, an arch-enemy of the Prophet; Allah had already condemned al-Walid to hell-fire and documented that in Qur'an); and Ikrimah bin Abu Jahl (son of Abu Jahl, an arch-enemy of the Prophet, Abu Jahl was killed by Muslims in the earlier battle of Badr in AD 625; he too was condemned by Allah to hell-fire and that was documented in Qur'an). The Prophet suffered in the battle of Uhud and he thus supplicated The Almighty to punish them, but Allah denied the Prophet his request, by saying: **"Not for you (O Muhammad, but for Allah) is the decision; whether He turns in mercy to (pardon) them or punishes them; verily, they are wrong-doers."** . Verse 3:128 of Surat Al-Imran (The Family of Imran) One decade later in AD 636 (after Prophet Muhammad's death) in the decisive battle of Yarmuk, the very same leaders were converted to Islam and are now the leaders of Muslim army against the hugely numbered (240,000 Roman soldiers) and militarily superior Byzantine Roman army (that had occupied Eastern Mediterranean Arab land, and kept on invading Arabian Peninsular borders); Khalid bin al-Walid (after his conversion to Islam) became the military General whom the Prophet called (***the unsheathed sword of Allah***); Khalid (Commander-in-Chief) divided his 40,000 Muslim army into 40 *kurdosah* i.e. corps (*plural karadees*) with 1000 fighters for each corps, led by a tough experienced fighter; General Khalid then addressed the Muslim army by saying: ***"(after praising Allah) This is a day of Allah's days… Be honest in your Jihad and make your deeds to Allah exclusively; it is a day that has late (crucial) consequences, if we push them today towards their trench, we shall be able to push them (and win), and if defeat us we will never succeed afterward"***. Ikrimah bin Abu Jahl was another military leader who said: ***'I fought the Messenger of Allah in many battles? How can I run away from you (Romans) today***? He then shouted: **'who can pledge with me to fight till death?'** The first to respond was his very uncle Al-Harith bin Hisham [the brother of his father Abu Jahl (Amr bin Hisham), and who also fought against Muslims in Uhud, but now an elite Muslim]; Ikrimah thus formed a '***Death Division***' from 400 Muslims pledging to fight with him till death. As for Abu Sufyan, an 80-years-old Arab elite and Master, acting now as the leader of spiritual direction (similar to the role of the Prophet in battles), who suggested dividing Muslim army into 3 major parts, one in front, followed by the logistics of food and munitions, followed by Khalid mobile division (his excellent plan was adopted); he also formed women division at the back of the army to deter and rebuke any retreating soldiers. Abu Sufyan shouted: ***"O Muslims, it comes what you are waiting for and seeing now, and here is the Messenger of Allah and Paradise before you, and the Satan and Hell-fire behind you'***; he then rotates between corps, addressing each corps: ***"O'Allah, O'Allah, you are the sanctuary of Arabs and helpers of Islam, they are the sanctuary of Romans [Byzantines] and helpers of shirk (i.e. Polytheism, literally 'association gods with Allah');***

O'Allah, this is a day of your Days; O'Allah, descend your victory on your servants." Latterly, amid the silence following the fierce fighting on that day, Abu Sufyan (fighting under the banner of his son Yazid) again shouted audibly in the battle field: ***O'Allah, accelerate your victory, O'Muslims stay firm, stay firm'***. Also, Abu Sufyan had earlier advised his son Yazid, another military general in command of a major division of Muslim army: ***'O my son, be fearful only of Allah, and be patient, you are a distinguished leader to be followed by others, so be the best of all in endurance and in fighting enemy, aiming always for Allah' best reward'.***

Indeed Allah's victory was granted at a high cost; Ikrimah was killed as a martyr together with his uncle Al-Harith and the rest of his 400 'Death Division'; Abu Sufyan (in his 80s) fought with one eye, had now lost his 2nd eye and became a blind man for the rest of his life; Khalid however, despite his extensive wounds, has survived.

This vivid example reveals how Allah teaches His Prophet and Muslims to persevere and be patient and never to lose hope even in their hostile pagan enemies; it also reveals the complete transformation and the radical change that Islam and the Prophet have caused among such unbelievers, who later all converted to Islam, to become not only as good Muslims but dedicated and devout Muslim martyrs[1][2].

Interestingly, and during the battle of Yarmuk, the Roman general **Jurjah** came out (on his horse) and requested general **Khalid** (who in turn came out riding his horse); **they then entered in an intellectual dialogue** in which Jurjah enquired why was Khalid called 'the sword of Allah', Khalid replied: **"God sent us his Prophet, who summoned us, but we avoided him and kept well away from him. Then some of us believed him and followed him, whereas others distanced themselves from him and called him a liar. I was among those who called him a liar, shunned him and fought him. Then God gripped our hearts and our forelocks, guiding us to him so that we followed him. The Prophet said to me 'You are a sword among the swords of God which God has drawn against the polytheists', and he prayed for victory for me. Thus I was named the Sword of Allah, because I am now the most hostile of Muslims to the polytheists"**. [Pages 76-77 great Arab conquests] General Jurjah then asked Khalid: What do you preach (invite people to)? Khalid replied: **"to Shahadah, testifying that *'there is no God but Allah, and that Muhammad is His servant and Messenger'*, and to accept what had been revealed to him by Allah, the Most High".** Jurjah asked: and what if someone didn't accept (your invitation)? Khalid said: **"then tribute and we will protect them"**. 'and what if he didn't give it (the tribute)' asked Jurjah, Khalid said: **"we then warn him about war and we fight him".** Jurjah then enquired: what is position of the one who accepts (your invitation to Islam) and enters into this affair (Islam), Khalid replied: **"his position will be equal to ours, according to what Allah has ordered us, our nobles and commons, our first and lasts (are equal before Allah)".** Jurjah then questioned: 'and whoever enters today will be rewarded just like you?' Khalid replied: **"Yes and better".** Jurjah asked: 'how come, when you have preceded him', Khlid replied: **"we accepted this affair (Islam) by force; and we gave him the pledge while he was alive between us; news of heaven come to him and he tell us about the book (Qur'an) and reveal to us the signs (miracles of Prophethood); the one who saw what we have seen, and heard what we have heard is obliged to submit (become a Muslim) and to give the pledge. But you didn't see what we saw, and didn't hear what we heard of the wonders (miracles) and evidences, so whoever of you enter this affair (becomes a Muslim) truthfully and with intention is (surely) better**

than us". Jurjah asked: by Allah did you tell me the truth and didn't cheat me? Khalid said: **"(I swear) by Allah I told the truth and Allah is the supervising patron of what you have enquired about".** Jurjah then turned his shield and went with Khalid and asked: teach me Islam! So Khalid took him to his camp and poured a bag of water and prayed with him two *Rak'ahs* (i.e. two units of prayer, singular *Rak'ah,* consist of one standing, one bowing and 2 prostrations). The Romans were furious at Jurjah's conversion to Islam. Thereafter, Jurjah fought as a Muslim with Khalid against the Byzantines for many hours until the sun-set, when he was injured fatally and died as a Muslim and he didn't pray to God except these 2 Rak'ahs with Khalid[2].

Arabs were indeed the substance and the exemplary leaders of Islam. The waging of war in Islam is an exceptional situation, and is enjoined (out of necessity) against certain categories, such as[5,6]: (1) those who attack a Muslim country; (2) those who prevent the global message of Islam to be preached and to be reached by peaceful means; and (3) the apostates (renegades).

Almighty says: **"Permission to fight (against disbelievers) is given to those (believers) who are fought against, because they have been wronged; and surely, Allah is Able to give them (believers) victory. Those who have been expelled from their homes unjustly only because they said: 'Our Lord is Allah.' For had it not been that Allah checks one set of people by means of another, monasteries, churches, synagogues, and mosques, wherein the Name of Allah is mentioned much would surely have been pulled down; verily, Allah will help those who help His (Cause), truly, Allah is All-Strong, All-Mighty.".**

Verse 22:39-40 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

Muslims' demands during war were simple. All **fighting** non-muslim enemies were given one of 3 consecutive options: an honest invitation to become Muslims, (if not, then) to pay a tribute in exchange of protection (jiz'ya), (if not, then) Muslims are forced to fight them in a decisive battle. **If this 3-options principle is violated, then the tribute is revoked and/or the land conquered must be withdrawn from[1][2]:**

- Indeed prior to the decisive battle of Yarmuk on 636 AD (15 Hijri) between Muslims and Romans, Muslim armies took tributes from Christian inhabitants of cities and then decided to retreat tactically from these cities in preparation for the decisive battle (of Yarmuk) with the news of massively incoming and re-grouping Roman armies, so the military general leader Abu Obaidah (before Khalid's arrival) ordered *'Hubaib bin Mas'lamah'* to re-pay them back their tribute as they could not protect them (in case they lose the coming final battle). This was totally unprecedented; and all Christian inhabitants wished Muslims a return after a victory over the Roman armies of the Byzantine Empire, who used to tax them heavily and to treat them badly and would never ever repaid them their taxes.
- Conversely, when Samarqand was conquered suddenly by *Qutaibah bin Muslim al-Bahili* by the sheer Muslim military force on 87 Hijri, the defeated (and displaced) people of Samarqand later complained to Caliph Umar bin AbdulAzziz (through his governer/wali Sulaiman bin Abi al-Surri) in 99 Hijri, that they were never given the 3 choices before they were over-run and their city was taken, i.e. they were not invited to Islam before fighting, the Caliph set a court which judged their case. The Judge (*Jumai' bin Hadhir*) gave his verdict in favour of Samarqand's people. Therefore all Muslim Armies were

ordered by the Judge to dismantle their camps and to leave the city of Samarqand, and to re-engage in fresh negotiation with such people on the 3 options principle. Samarqand's people (who never witnessed such a great Justice), decided unanimously to accept Islam as their own choice, with an agreement that negated the need for a new war.

- Furthermore, in 100 Hijri, Caliph Umar bin AbdulAzziz removed his governor on Khorasan (*Al-Jarrah bin Abdullah Al-Hakami*, after one year and 5 months of governship), because he took a tribute from the converts to Islam, claiming they only became Muslims in order to avoid paying tributes (in protest, those converts reverted back to their first religion and paid the tribute); Umar replaced him and said: ***'Allah sent Muhammad (peace be upon him) as a preacher and not a tax-collector'!***

Thus in fact, the defence of Islam is what led to Global spread of Islam (or Jihad in the cause of Allah) and later led to the expansion of Islamic world. As Montgomery Watt put it in page 7 of his book 'The Influence of Islam on Medieval Europe': (This last assertion does not mean that the religion of Islam spread by the sword. In Arabia, indeed, pagan idol - worshipping tribes who became the object of Jihad were given a choice between Islam and the sword. There was a different treatment, however, for Jews, Christians, Zoroastrians and others reckoned to be monotheists. Their religions were held to be sister religions to Islam, though it was alleged that the contemporary adherents of each had departed from its original purity. Nevertheless, they were still monotheists, and could be accepted by Muslims as allies of a sort. In the countries outside Arabia first invaded by Arabs most of the inhabitants were taken to be monotheists. The aim of the Jihad then became not the conversion of these populations but their submission to Muslim rule with the status of protected persons; collectively they were *ahl adh-dhimma*, and the individual was a *dhimmi*...they had internal autonomy under their religious head, such as patriarch or rabbi. A poll-tax (*jiz'ya*) had to be paid to the Muslim governor for each individual in the group...sometimes they were less severely taxed than under the previous rulers [Romans and Persians], and it was a matter of honour for the Islamic state to protect them effectively. In general the situation of the protected groups was not unpleasant, but there were some disadvantages. They were not allowed to bear arms or marry Muslim women, and they were usually excluded from the highest offices of the state).

However *dhimmi* literally means relating to conscience, or the really cared for. Furthermore, each Muslim must pay Zakat to the governor too; payment of Zakat is obligatory as it is one of the 5 pillars of Islam, and is a certain fixed proportion of the wealth (2.5%) and of every kind of property liable to Zakat. The Muslim's Zakat contribution may well exceed the Jiz'ya (poll-tax) contribution of a dhimmi. Nevertheless, the dhimmi might feel he was a second-class citizen; this explains the mass conversions from Christianity to Islam. In fact, some contemporary Muslim scholars believe that if a Christian or a Jew feel about his dhimmi status (in a Muslim State), then the title 'dhimmi' may be replaced by 'citizen' in exchange of sharing his Muslim co-citizens in the protection of the Muslim State (See below Prophet Muhammad 'Covenant of Citizenship' in Medina).

Once the military barriers are broken down and the psychological fear/threat barrier is lifted, and the Islamic message (Da'wah, or preaching) is allowed to reach the people, then the people are entirely **Free to believe**. God Most High says:

"Let there be no compulsion in religion: Truth stands outs clear from Error".
Verse 2:256 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"If they charge you with falsehood, say: 'For me are my deeds and for you are your deeds! You are free from responsibility for what I do, and I for what you do' " .

Verse 10:41 of Surat Yunus (Jonah).

"Say, 'The Truth is from your Lord' Let him who will, believe, and let him who will, reject (it)' ".

Verse 18:29 of Surat Al-Kahf (The Cave).

"To you (kafirs or non-believers) be your Way (Religion), and to me mine".

Verse 109:6 of Surat Al-Kafirun (Those who reject Faith).

Indeed, the concept of **'Religious Tolerance'** is a purely Original Islamic invention and was practiced by Muslims allover Islamic World (Caliphate) and throughout Islamic history; many of the Caliphs took non-Muslim doctors as their private Court Physicians, without forcing or coercing them into Islam.

Such concept of 'Religious Tolerance' is historically connected with Muhammad himself. When the resistance of the Makkan pagans becomes more intense, the people of Medina (or Yathrib) sent an embassy to Muhammad, offering to make him their leader. Muhammad (after taking the pledge from them) accepted and left with his followers on the emigration, or hijra, in AD 622; this crucial event marks the beginning of the Muslim calendar.

Thus the Medinese pagans converted to Islam and the first Islamic State was born; Muhammad was now a political leader as well as a religious leader. The Qur'an like the Torah is among other things a code of conduct and a code of laws; in neither there is a distinction between 'religious' and 'secular' laws. Muhammad guaranteed religious freedom to Medina's Jews in his **'Covenant of Citizenship'** which represents a foundation stone in State citizenship (irrespective of creed, ethnicity, and racial diversity) and the First milestone of religious tolerance in the world history as embodied in this embryonic Islamic State in the Arabian Peninsula. The covenant also states that Medina citizens should they wish to protect this Islamic State militarily against (the invasion by) Makkan polytheist pagans (of Quraysh), they will then be allowed a share of the war booties' distribution accordingly; but the covenant made it an *'obligatory duty'* on all Medina citizens to defend Medina against external invasion and *Not* to aid or shelter the enemy (or enemies) of this Islamic State. **[See Ibn Hisham, Life of Prophet Muhammad, 2nd volume, 452-454 for details of Covenant of Citizenship]**

The Qur'an affirmed that the Torah and Gospels were divinely inspired scriptures that had been revealed by God through his prophets. While pagans were to be forced to convert, Jews and Christians, as People of the Book (*ahl al-kitab*), were assured the right to worship. The Qur'an expresses reverence for the main figures of the Jewish and Christian traditions: Moses, David, the Virgin Mary, Jesus, and others. It enjoins respect for some of the main elements in Old Testament law: to refrain from pork, practice circumcision, and so on.

Many passages in the Qur'an emphasize the common heritage of these faiths, all related to that of the original *hanif*, Abraham (i.e. the monotheist belief of Abraham). The Qur'an lambastes Christians and Jews who claim that only members of their sect will be admitted to Heavens. The Qur'an makes no such exclusivist claims for Muslims: good Christians and Jews will have their place in Heavens as well:

"Be courteous when you argue with the People of the Book, except with those among them who do evil. Say: 'We believe in that which is revealed to us and which was revealed to you. Our God and your God is one. To Him we surrender ourselves."

Verse 29:46 of Surat Al-Ankabut (The Spider).

Following the military conquest of Syria, Muslim armies conquered Palestine peacefully; the man in charge of Jerusalem was patriarch Sophranius (a Greek churchman who considered the appearance of the Arabs a sign of God's anger at the sins of the Christian people. Sophranius insisted that he would surrender the city only to the caliph Umar himself; accordingly caliph Umar bin al-Khattab came in 637 or 638. Umar's agreement that follows represents a major landmark in the history of mankind, and the first cornerstone of religious tolerance in the outside world of Arabian Peninsula, and indeed a great beginning of sound Islamic-Christian relations (inspired by Prophet Muhammad's Covenant of Citizenship). The text of Umar's agreement is as follows:

"In the name of God, the Merciful, the Compassionate. This is the assurance of safety [aman] **which the servant of Allah Umar, the Commander of the Faithful, has given to the people of Jerusalem. He has given them an assurance of safety for themselves, for their property, their churches, their crosses, the sick and healthy of the city and for all the rituals which belong to their religion. Their churches will not be inhabited by Muslims and will not be destroyed. Neither they, nor the land, on which they stand, nor their cross, nor their property will be damaged. They will not be forcibly converted. No Jew will live with them in Jerusalem** [this prohibition had been a feature of Roman law; and suggests that the Christian negotiators had played a strong hand in excluding Jews as a precondition to the peaceful surrender of the city]. **The people of Jerusalem must pay the taxes (jiz'ya) like the people of other cities and must expel the Romans** [Byzantines] **and the robbers. Those of the people of Jerusalem, who want to leave with the Romans** [Byzantines], **take their property and abandon their churches and crosses will be safe until they reach their place of refuge. The villagers** [*ahl al-ardh*, who had taken refuge in the city at the time of the conquest] **may remain in the city if they wish but must pay taxes like the citizens. Those who wish may go with the Romans** [Byzantines] **and those who wish may return to their families. Nothing is to be taken from them before their harvest is reaped. If they pay their taxes according to their obligations, then the conditions laid out in this letter are under the covenant of God, are *dhimmat*** [the responsibility] **of His Prophet, of the caliphs and of the faithful.**

The following witnessed this [agreement]**: Khalid bin al-Walid, Amr bin al-As and Mu'awiya bin Abi Sufyan** [the future caliph]. **Written and presented 15 Hijri".**

After Umar's agreement in Jerusalem and after Islamic conquests of Syria and Egypt, the relationship between Muslims and Christians in the Middle East was said to be superior to the relationship between Christians and fellow Christians in Europe. Indeed, despite mass conversions to Islam, the remaining Christians and Jews of the Islamic World used to distinguish themselves from the European Christians and Jews as the Oriental people of the Book; thus both oriental Christians and Jews along with Muslims were the target of massacres committed by the European Crusaders in medieval ages (see chapter 4).

Indeed, when Muslims ruled Iberian Peninsula (now Spain and Portugal) for nearly 8 centuries, Jews, Christians and Muslims all lived together in total harmony, something so

unique in Europe that compelled authors such as Maria Rosa Menocal (2002 by Back Bay Books- Time Warner Book Group) to write a book entitled ***'the Ornament of the World – How Muslims, Jews, and Christians created a Culture of Tolerance in Medieval Spain'.*** Muslim rule in Islamic World and particularly in Spain did not only allow for tolerating and accommodating others, but for Jews and Christians proliferation and excellence in poetry, art, architecture, medicine and science in general; the coexistence between Muslims, Jews, and Christian inhabitants (termed convivencia by Spanish historians) led The Jewish Museum in New York in 1992 to produce a volume about this peaceful and productive co-existence (under Muslim rule from AD 711 to AD 1492), entitled ***'Convivencia – Jews, Muslims, and Christians in Medieval Spain'*** [Editors Vivian B Mann, Thomas F Glick, and Jerrilynn D Dodds, published by George Braziller]. It was the so-called Spanish Reconquest and the Roman Catholic Papacy that were responsible for introducing the darkest and the most savage and intolerable Inquisition Tribunals (based on religious discrimination), totally unparalleled and unknown in the history of Mankind (see below).

Indeed, the Jewish holocaust had only been committed in Europe; the Muslim World was as always, the only sanctuary in the world for Jews fleeing along with others, from the European persecution.

Despite Spanish Royal promises (under Oath) to apply the terms attached to the surrender treaty of Granada (25 November 1491) and despite the 67 terms of capitulation (1492) guaranteeing the rights of the ***Moors*** (Muslims, or Muslims and Jews), King Ferdinand and Queen Isabella were secretly bent on breaking their covenant agreement. Granada kingdom was put under the Castilian authority rule of a Castilian governor, and the inhabitants according to the Treaty were initially allowed to retain their Muslim religion, their laws and judges, language and dress, the enjoyment of their property, and were given a guarantee that taxes would not exceed those they had paid to their Moorish sovereigns.

These terms, were observed as long as Hernando de Talavera was the archbishop of Granada (1493-1507); he communicated with Muslims and Jews using Arabic translators while attempting to learn the language himself, and founded a school to train Christian preachers to serve what he hoped would be growing Arabic speaking flock. But Isabella appointed Franciso Jimenez de Cisneros of Toledo to be sent to join the archbishop and accelerate Christian conversion in Granada. Cisneros toured Granada in 1499 (who then became the future inquisitor general), and he then eschewed Talavera's patient dialogue-based ministry, preferring a confrontational approach of pressured mass conversions. Lest any of Granada's Moors misunderstand the message, Cisneros had copies of the Qur'an immolated in great public bonfires.

As their holy books smoldered, so did Muslim resentment. Under pressure, mass conversions then took place. This pressure, and the public burning of Islamic religious books, finally made the Moors revolt. Goaded by Cisneros and others, Ferdinand and Isabella summarily voided Muslim rights under the decade-old surrender treaty, issuing a new edict requiring Muslims and Jews in Granada and Castile to convert or be exiled.

The expulsion from the kingdom of Granada, of all Muslims over the age of 14 who did not accept baptism (12 February 1502) amounts to nearly 3 millions. They were not allowed to go to North Africa; they could only go to Egypt or leave Castile by her frontier with Biscay. The new converts, known as the ***Moriscos,*** came automatically under the loving care of the Inquisition. By a later decree of Charles V (1525) they were forbidden to use ***Arab names, or to***

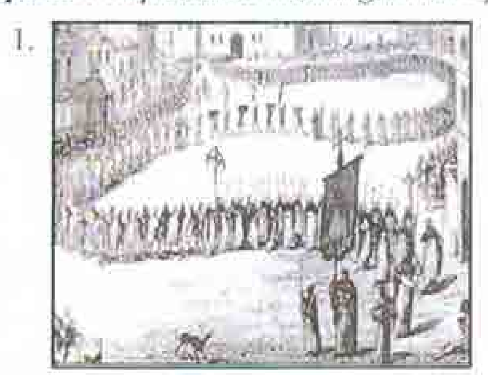
wear jewellery with Arabic designs; only crosses and Christian images were allowed. They were forbidden to make marriage contacts in accordance with their ancient laws. In 1556 the enforced use of Castilian was decreed, ***the Arab language being banned under very severe penalties***. This and other.



Spanish Inquisition burning of prohibited books according to lists of indexes published in Spain and updated in 1551, 1559, 1583, 1612, 1632, and 1640. The Indexes included a wide range of books with special attention to books written in Arabic language e.g. copies of Qur'an, Muslim and Jewish books written in Arabic, as well as the vernacular translations of the Bible. *"One country, one ruler, one faith"* became the mandate of Tomas de Torquemada, an advisor to Isabel who became the first General Inquisitor.

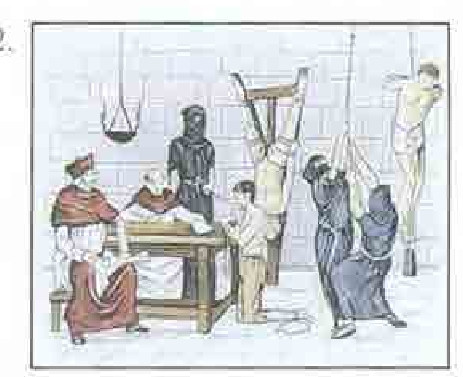
Spanish Inquisition: *showing 16 rare pictures:*

1.



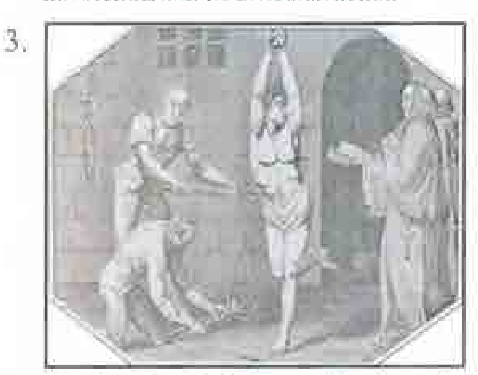
Auto da Fe *- Inquisition victims being led to their doom in procession. After the "act of faith," the victims were burned to death.*

2.



The *Holy Inquisition -* ***Torture Chamber.***

3.



Ripping the flesh: *Two old priests delighted on the tearing and ripping of the flesh. Catholic Church learned that a Man could live while skinned alive until the skin is peeled down to the waist. Often, the rippers were heated to red hot and used on women's breasts and in the genitalia of both sexes.*

4.



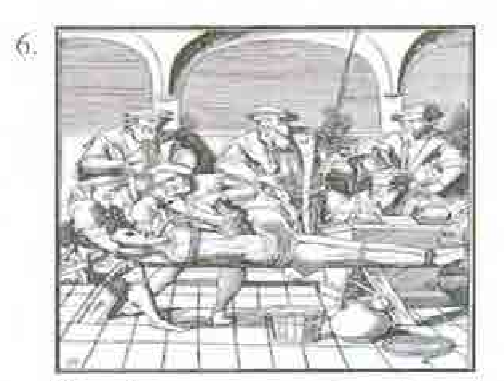
Hanging ***victims upside down*** *while being tortured during a tribunal (Dominicans and Jesuits staffed the cruel and bloody inquisitions).*

5.



The Wheel, *a nude victim, was stretched out, lying face downward, with arms and legs spread, and tied to stakes or iron rings. The victim would be tied to the wheel, and then swung across fire or metal spike below to burn or rip victim's flesh.*

6.



Drowning: *a gurney (stretcher) "specially designed" to tilt backwards at an angle to maximize the water entering the prisoner's nose and mouth, intensifying the sense of choking – and to be lifted upright quickly in the event that a prisoner stopped breathing.*

7.



*Hanging/ **Backsliding "nude converts"** during Inquisition to elicit "confessions" from "heretics".*

8.



*Sexual assault **of a woman** brought before the Inquisition*

9.

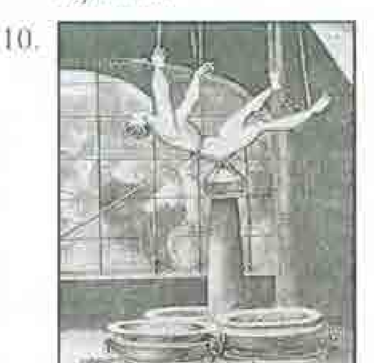






***The Iron Torture Chair** was studded with spikes; the victim was strapped in nude and a fire was lit beneath the chair. Heavy objects were also be used. They were placed upon the victim to increase the pain of the spikes. Blows with mallets were also inflicted. Often, flesh rippers or breast ripping pincers, could be used jointly (See **Breast Rippers** on the right).*

10.



***Judas Cradle:** The victim was pulled up by a rope or chain and then lowered to the sharp object. Wealthy people sitting and watching as if watching an opera! Viewing this poor man slowly die as he rotated on this very sharp point. The man is suspended with these many ropes so he can be rotated on that exceedingly sharp point sticking into his anus or sticking into female organ!*

11.



***The Rack:** the victim is placed horizontally, nude on the ladder or rack. Ropes were used to bind the arms and legs like a tourniquet, while some mechanical device, usually a crank or turning wheel, tightens the ropes, stretching the victim's body until the joints are dislocated. Such torture was known as being "broken on the rack," "racked," or "stretched on the rack." This was considered by the Church to be "one of the milder forms of torture".*

12.



***The Brodequin** or Crushing Boots (English Brodekin) were used to crush the legs by tightening the device by hand, or using a mallet for knocking in the wedges to smash the bones until the bone marrow spurted out.*

13.



***The Iron Maiden:** is a fiendish device. It's an upright sarcophagus with spikes on the inner surfaces. Double doors open on the front (with 8 spikes protruded from one door, and 13 from the other). Once the victim was inside, the doors were closed. There, the strategically placed spikes would pierce several vital organs. However, they were relatively short spikes, so the wounds wouldn't be instantly fatal. Instead, the victim would linger and bleed to death over several hours. Two additional spikes could be positioned specifically to penetrate the eye.*

14.



***Skull** crusher is self-explanatory.*

15



***Burning the feet:** by applying oil, lard and grease to the feet before roasting them over a fire. A screen was used to control or increase the pain as exposure to the fire was applied on and off for maximum suffering. Some victims were forced to wear large leather or metal boots into which boiling water or molten lead was poured.*

16.





***Burning at the stake** was the last step of fatal torture by fire. **Heretic's Fork:** was often used to silence the victim on the way to the burning stake, so they could not reveal what had occurred in the torture chamber or defend themselves in any way.*

harsh later measures precipitated the new revolt of 1571, the dispersal of the Moors over the Castilian countries (before their final expulsion from Spain in 1609/1610). Although Spanish historians and the Papacy do not admit more than few thousands killed in their Inquisitional tribunals, however, many believe that Millions were killed in the course of religious intolerance represented by the brutal Spanish Inquisition Tribunals.

The descendents of those Granadan and Castilian Muslims forcibly converted to Christianity in the early 1500s remained as stubbornly (though clandestinely) committed to their former faith and customs as the poet had predicted: **"it was the fear of death and of burning that caused us to convert...we accept neither our change of religion nor what they say on the subject of the Trinity".** Arabic language remained a living language in Granada a century after its Muslim inhabitants were forcibly converted. **By 1609**, Spain's monarchs expelled recalcitrant Moriscos from Spain starting that same year. It became unacceptable not only to be a converted Muslim or Jew, but it also forbidden to be a descendant of a Muslim or Jewish family.

In the aftermath of catastrophic events of World Trade Centres (at Twin Towers – New York) (11/9/2001) and that of Madrid commuter (March 2004), Chris Lowney, a successful Managing Director of JP Morgan & Co. (extending on three continents) wrote in his excellent book entitled: **"A vanished World – Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain"** [published by Oxford University Press in 2006] [(7)]**:** (Though Muslims, Christians, and Jews all worship the same God revealed to Abraham, that common bond paled in their eyes before the differences dividing the three faiths. These 3 monotheistic religions share not only a lineage back to Abraham [Jews, Christians, and Muslims share the blood of Abraham through their leading prophets: Moses, Jesus (are both from the progeny of Abraham's wife Sarah), and Muhammad (a direct descendent of Ishmael from Abraham's wife Hagar)] but also the ritual practice of pilgrimage. Long before ninth-century Christians first journeyed to *Santiago de Compostela* [see below], devout Muslims were traveling to *Mecca* for the Hajj and devout Jews to *Jerusalem* for Pilgrimage… In all 3 faiths, the pilgrim's journey metaphorically embodies deeper human yearnings. Only a tiny handful will be privileged to know in an earthly lifetime whether our irreconcilable dogmatic differences, once illuminated under the pure light of perfect Truth, will somehow be reconciled by some logic we Muslims, Christians, and Jews cannot humanly comprehend. Until then, we apparently suffer the tyranny of those brutally incompatible facts: either Jesus is the Messiah or Jesus is not; either Muhammad is the Prophet, or Muhammad is not)[(7)]**.** (The opening scene of the New Testament Acts of the Apostles relates a startling occurrence. The risen Jesus gathers his disciples, and "as they were looking on, he was lifted up, and a cloud took him out of their sight". Before ascending, Jesus imparts this final instruction: ***"You shall be my witness … to the end of the earth".***

The apostle James, Santiago in Spanish, took the instruction literally. His purported remains are today venerated in the small Spanish town bearing his name, ***Santiago de Compostela*** [***Compostela*** means 'field of stars' in reference to burial site].



Santiago de Compostela in Spain (burial site of St James, one of Jesus' disciples)

It lies a few dozen miles from the end of the earth; the burial place is said to be discovered between 818-842 and his shrine immediately became a pilgrimage attraction.

[However] the tensions that tore medieval Spain were mirrored in the schizophrenic image of her chosen patron, ***Santiago*** **(St. James). James was –and is– never far off in the Spanish imagination**.

A thousand-year-old route of pilgrimage snakes across northern Spain to Santiago de Compostela, by tradition the resting place of James's earthly remains and, after Rome, Europe's most important pilgrimage site. Spain's churches everywhere enshrine James's image in altar pieces, paintings, and sculptures.

One discomfiting depiction occasionally appears in churches along the pilgrim route:

James bestride a horse, his muscular right arm swinging a sword down upon a turbaned, darker-skinned figure cowering beneath the rearing steed's hooves. The iconography is a clear today as it must have been to 13th century pilgrim: this is

Santiago Matamoros**, St. James the Killer of Moors (i.e. Muslims), patron of crusading Reconquest.**

James the Muslim Killer embodies one strand of this story:

religiously grounded hatred that shredded medieval Spain and still haunts humanity. Yet, instead of this violent killer-apostle, a statue of a more serene St. James stands sentinel at the great cathedral in Santiago de Compostela. ***Santiago Peregrino*** (St. James the Pilgrim) wields no sword, bearing only by the great law of charity:

love neighbours as self, a command revered by Muslims, Christians, and Jews alike. [Thus] James the Muslim Killer finds alter ego in James the Pilgrim; while the former inspires the hateful frenzy of war, the latter engenders the reconciliation and concord that proceed from love of neighbor.

But] with the 1492 extermination of Muslim rule in Spain, St. James the Moor Killer had seemingly outlived his militant usefulness and could have been retired in favour of St. James the Pilgrim.





Three pictures depicting:'Santiago Matamoros' i.e. St. James, the Killer of Moors (i.e. Muslims), he is considered the patron of crusading Reconquest of Spain.





St. James the Pilgrim (wields no sword)

But Santiago the militant was drafted to combat a new enemy [the New World Americans]; its reminders still resonate in South American atlases, from the benignly named Santiago, Chile, to the more sinister-sounding Mexican town of Matamoros (Muslim Killer). Thanks in part to Inca gold, Spain entered what historian typically call her Golden Age. The age was golden in one obvious respect, as precious metals lifted from New World colonies gilded Spain's altars and financed her European conflicts. Yet, in other respects, the Golden Age label is at a minimum incomplete. For this was at least the ***third*** Golden Age Spain had enjoyed. ***Spain's Islamic Golden Age*** had blessed Europe with new models of architecture, mathematics, ceramics, agriculture, philosophy, medicine, and astronomy, to name a few disciplines among many. Spain's Jewish Golden Age [not independently, but during Islamic Spain] had nurtured Europe's most prosperous, accomplished, and largest Jewish population, and through Maimonides and Moses de Leon bequeathed masterworks that still fundamentally influence Jewish thought and worship. The enduring contributions of medieval Spain's Muslims and Jews reveal an unfortunate gap in Spain's third Golden Age. Cleansed of non-Christians and striving for homogeneity, Spain's encounter with alien cultures now occurred

almost exclusively beyond Iberia's borders, most notably in her New World colonies. And what she extracted from that Golden Age encounter with other civilizations was for the most part only, well, gold. Tourists to Spain are everywhere reminded how profoundly Spain once benefited from her encounter with Islamic civilization, from Cordoba's cathedral rising from the roots of her dizzyingly arcaded great mosque, to the Almohad minaret that dominates Seville's skyline as its cathedral bell tower, even to Moorish churches in northern provinces never ruled by Muslim Spain. Visitors to the Inca remains at Machu Piccha can't help but note that Inca architects might have made an equally profound contribution to Spanish masonry and construction technology. But the Spain of this (***third***) Golden Age was no longer forced to encounter and absorb the gifts of foreign civilizations on her own home soil and perhaps had lost the knack of doing so elsewhere. **Still, if the foreign cultures no longer blessed Spain, those exiled from Spain blessed their adopted homelands)[7].**

As for Islam, whenever a non-Muslim converts to Islam, Islam demolishes all the previous evil deeds, and so do migration (for Allah's sake), and Hajj (pilgrimage to Makkah). Even the criminal record will immediately be pardoned on the moment of declaration of *Shahadah* i.e. *'La Ilaha Illa Allah, Muhammad Rasul Allah' (There is no God but Allah, Muhammad is Messenger of Allah)*, on the basis of Prophet Muhammad's statement: ***'Islam casts out the (pre-Islamic) past'***. i.e. he or she will be new-born or re-born as a sinless Muslim. Furthermore, those who, after their Islamic belief, translate their belief into good deeds will be rewarded a double reward from Allah (God): **"Except those who repent and believe (in Islamic Monotheism), and do righteous deeds; for those, Allah will change their sins into good deeds, and Allah is Ever Oft-Forgiving, Most Merciful.".**

Verse 25:70 of Surat Al-Furqan (The Criterion).

For instance, ***Ikrimah bin Abu Jahl***, the Muslim hero at the Battle of Yarmuk, was the son of Abu Jahl, an arch-enemy of the Prophet (Abu Jahl was killed in the battle of Badr between Muslims and Makkan polytheist pagans -see above); Ikrimah was like his father, a great enemy of Islam and Muslims. Following the conquest of Makkah in AD 630, the Prophet allowed the death of only 6 Makkan pagans even if they took refuge by Ka'bah itself, because of their fierce animosity to Islam (one of them was Ikrimah). Ikrimah then **rode** the (Red) Sea fleeing to cross over to Ethiopia, but (as they proceeded), a heavy stormy wind overtake on their boat, and huge waves came to them from all sides, and they thought that they are encircled therein. The people of the boat said to one another: ***'None can save you except Allah (the Only True God of the heavens and earth). So invoke (call upon) Him (Allah) (by making your Faith pure for Him Alone and none else) to deliver you safe (from drowning)'***. Ikrimah said to himself: **'By Allah, if none can benefit in the sea except Allah (Alone), then no doubt, none can benefit over the land except Allah (Alone). O Allah! I promise You that should You deliver me safe from this, I will go and put my hands in the hands of (Prophet) Muhammad and surely I will find him full of pity, kindness and mercy'.** So they were delivered safe (by Allah), and returned to their sea-shore and came out of the sea. Ikrimah then proceeded to Allah's Messenger, Muhammad, (narrated his story), embraced Islam (just as he promised Allah), and became a perfect Muslim. In a Hadith narrated by Umm Salamah (one of Prophet's wives) that the Messenger of Allah (peace be upon him) said: **"I saw an offshoot of Abu Jahl [who is in Hell in Paradise"** and when Ikrimah embraced Islam, the Prophet said: **"O Umm Salamah, that is it [Prophet's vision]".**

As for the Muslims committing sins, the repentance is equally simple. The Lord Allah says:

"O you who believe! Turn to Allah with sincere repentance! It may be that your Lord will expiate from you your sins, and admit you into Gardens under which rivers flow (Paradise).".

Verse 66:8 of Surat At-Tahrim (The Prohibition).

For *Tawba* or **repentance** to be accepted and if the sin is between the slave and Allah (unrelated to human being), then Islamic repentance requires 3 combined conditions:

1. **to stop doing that sin** (immediately – in the present time)
2. **to be remorseful about doing that sin** (in the past)
3. **to decide never to do it again** (future promise)

   If one of these conditions is missing then the repentance is incomplete.

   However if the sin committed is in relation to a human being, then the conditions for repentance include the above 3 plus:

4. **to free himself from that person's obligation**, e.g. stolen property to be returned; allegation of slander to be withdrawn or to be forgiven by the other party.

Indeed, the real religious tolerance has never been practiced before or after Islam anywhere in the world. Thus people (under no compulsion or duress) loved Islamic simplicity and its easily applied principles; and lively expression in Freedom of belief, Justice, Equality and Islamic Brotherhood implemented in real practice and not mere theory; consecutively they were converted into Islam. They then loved Arabs and Arabic language as the medium of Islamic spread and Islamic communication. Arabic language became an important necessity for performing religious duties (such as the 5 daily prayers and du'a, asking God Allah for blessing and progress), and a 'lingua franca' in all spheres of life, for Islam itself is a comprehensive code of life. Indeed, the term 'Jihad' must never be taken out of context or misunderstood in the view of this clear noble Islamic concept; Jihad is the maximum effort exerted against prohibited desires of the Self struggling always to please God (***Major Jihad***) (See word **Jihad** in the Dictionary); further, Jihad is not a struggle on basis of national pride, material gain, or territorial expansion.

Also, God has defined victory as guiding people into submission to God, i.e. converting them to the true religion of Islam. In other word victory is for God Allah and not for the benefit of one of the fighting parties. God Most High says: **"When God's help and victory comes, and you see people entering into God's religion in multitudes, then celebrate the praises of your Lord and ask His forgiveness. Indeed, He is the Acceptor of Repentance.".**

Verse 110:1-3 of Surat An-Nasr (The Help).

The victory is achieved under the banner of faith, and under no other banners; the striving (or Jihad) is purely for the sake of God, for the success of His religion and His law, for the protection of Dar-ul-Islam, the particulars of which we have described above, and for no other purpose. It is not for earthly material gains, nor for the spoils or for fame, nor for the honor of the country or nation, nor for the mere protection of one's family except when supporting

them against religious persecution. Abu Musa relates: ***"The Prophet (peace be upon him) was asked about one, who fights for material gains, another for bravery (and fame), and another for distinction, which one of these is in the cause of God? The Prophet replied, "Only he is for the cause of God who fights so that the word of God may remain supreme.". (Narrated by Al-Bukhari).***

The honor of martyrdom is achieved only when one is fighting in the cause of God (as the only noble cause worth fighting for), and if one is killed for any other purpose, this honor will not be attained. Since all lands are Allah's land, and since all the humans, all this Universe, and all that exist are Allah's creation, that is why Muslims do not like to refer to the Islamic territorial expansion as Empire like the earthly Persian and Roman Empires; instead it refers to it as Caliphate for it is the land where the Caliph is the servant of God and where the (Divine) rules of Islamic Shari'ah is dominant and operational, and the ruler is governing with laws stipulated by God Allah. Similarly, Muslims refers to their winning in battle fighting as nas'r Arabic for victory or triumph) or fat'h (has no English equivalent, but 'conquering in terms of opening the land for Allah's message to reach its people' is the nearest in English) and not as conquering in terms of defeating others, or occupying other people's land, for their victory was in the cause of Allah and the land is His and hence, there is no winner-loser equation here, but it is winner-winner equation (all are winners because it is victory for Allah and His cause).

Therefore, the ***fatherland*** or ***motherland*** is that place where the Islamic faith, the Islamic way of life and the Shari'ah of God is dominant; only this meaning of 'motherland' is worth of the human being. Similarly, 'nationality' meaning should be based on the belief and a way of life, and only this belonging is worth of man's dignity. Classification according to family and tribe and nation, and race and color and country are residues of the primitive state of man; these ***jahili*** groupings belong to a period when man's spiritual values were at a low stage. The Prophet (peace be on him) has called them "foul things" against which man's spirit should revolt.

Thus Islam is God's comprehensive and complete religion and the definitive code of life since eternity; hence Islam is for all mankind and not for any particular nation, race, or culture. God Most High confirmed this fact, stating the purpose of human ethnic diversity as a pleasure of peaceful introduction to each other, and emphasizing that God-fearing is the best of all people: **"O mankind! We have created you from a male and a female, and made you into nations and tribes, that you may know one another; verily, the most honourable of you with God (Allah) is the believer who is most pious; verily, God (Allah) is All-Knowing, Well-Acquainted (with all things)".**

Verse 49:13 of Surat Al-Hujurat (The Dwellings).

When the Jews claimed to be the chosen people of God, on the basis of their race and nationality, and their lineage to Abraham, The God Most High rectified their claim and declared that in every period, in every race and in every nation, there is only one criterion: that of faith. **"And they say: 'Be Jews, or Christians; then you will be guided'. Say: 'Not so: the way (the religion) of Abraham, the true in faith; and he was not among the polytheists.' Say: 'We believe in Allah, and what has come down to us, and what has come down to Abraham, Ismail and Isaac and Jacob and the Tribes (of Israelites), and what was given to Moses and Jesus and to other Prophets by their Sustainer. We do not make any distinction among them, and we have submitted to Him. If then they believe as**

you have believed, they are guided; but if they turn away, then indeed they are stubborn. Then God suffices for you, and He is All-Hearing, All-Knowing. The baptism of God and who can baptize better than God? And we worship Him alone.".

Verse 2: 135-138 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

The Lord declares that the people who are really chosen by Him are the Submitting (Muslim) Ummah or community (i.e. His obedient servants) which has gathered under God's banner without regard to differences of races, nations, colors and countries. **"You are the best of people raised for the good of mankind, enjoining what is right (good) and forbidding what is wrong (evil) and believing in Allah.".**

Verse 3:110 of Surat Al-Imran, The Family of Imran).

"Thus We have made you (true Muslims), a just (and best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad) be witness over you.".

Verse 2:143 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"Abraham was neither a Jew nor a Christian, but he was a true Muslim (Islamic Monotheist – to worship none but Allah alone) and he joined not gods with Allah. Verily, among mankind who have the best claim to Abraham are those who followed him, and this Prophet (Muhammad, and those who have believed (Muslims), and Allah is the Protector of the believers.".

Verse 3:67-68 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

During the global spread of Islam (whether by peace and/or by force imposed on Muslims), the concept of One ***Umma, Ummah, Ummat*** was born, strengthened, and indeed was first introduced by Islam into this world as the **One big global family inhabiting One global village (or country).** Thus the Almighty says:

"Truly, this Ummah of yours is one Ummah, and I am your Lord (and Cherisher); therefore worship Me (Alone).

Verse 21:92 of Surat Al-Anbiya' (The Prophets).

Ummah is best translated here as Brotherhood; since 'community', 'race', 'nation', and 'people' are words which import other ideas but do not quite correspond to 'Ummah'. 'Religion' and 'Way of Life' are derived meanings, which could be used in other passages, but are less appropriate here. Thus it denotes people of very different temperaments and virtues, widely different in time, race, language, surroundings, history, and work to be performed, but forming the closest brotherhood as being men and women united in the highest service of Allah; they pre-figure the final and perfected Brotherhood of Islam. This one Ummah befits the One God; indeed a single Ummah is a manifestation of a single God. Muslims: Arabs and non-Arabs, men and women, old and young, whether from East or West, became one Ummah bonded by Islam or submission to One God. Further this Ummah extends deep in the history since creation of Adam, till the day of Judgement. The economy of the Ummah is based on an entirely self-sufficient system inspired by Qur'anic and Prophet Muhammad's teachings (this is beyond the scope of this book focused on 'Adventures of Arabic Language'). Muslims therefore, felt they were entrusted and predestined by Allah to carry his global message and to be an active part of the history of Mankind which needs to be re-directed and guided back to its true path and course. Indeed, Islam equipped its believers with Allah's comprehensive

interpretation of history, life, mankind, and universe; it expanded their horizons and understanding on a global level.

Within the first generation of such Muslim Brotherhood, there were Abu Bakr from Arabia, Bilal from Abyssinia, Suhaib from Roman Syria, Salman from Persia, and they were all brothers in faith. The generations which followed them were similar. Nationalism here is the belief, homeland here is the "Abode of Islam" (Dar-ul-Islam), the ruler here is God, and the constitution here is the Qur'an. Indeed, there is no Islamic culture as such, but diversity of cultures of Muslim nations because **Islam is the filter of cultures**, maintaining what is good and leaving what is bad from each culture; thus Islam is unifying nations with Islamic brotherhood bonds that revolve around the One law-giving God. This noble concept of homeland, of nationality, and of relationship was imprinted in the hearts of Muslim Preachers and Fighters in the true cause of God. They fought to remove all influences of ***Jahiliyyah*** (pre-Islamic era of ignorance). All these facts have been documented by God Most High in one verse, in which He has placed them in one side of the balance and the Islamic belief and its responsibilities in the other side, and invites people to choose: **"Say: if your fathers and your sons and your brothers and your spouses and your relatives, and the wealth which you have acquired, and the commerce in which you fear decline, and the homes in which you take delight are dearer to you than God and His Messenger and striving in His cause then wait until God brings His judgment; and God does not guide the rebellious people.".**

Verse 9:24 of Surat At-Tawba (Repentance).

Allah, The Guarantor of Believers' Victory (4 a, b, c, d) (5 a, b, c):

It is a human nature to follow the strongest; Muslims' deep belief that Allah is the Absolute All-Mighty, Omnipotent, and Most Powerful than any creature or human superpower makes them put their full trust in Allah (God),The Most High, The One and The Only:

" And put your trust in the All-Mighty, the Most Merciful." .

Verse 26:217 of Surat Ash-Shu'ara' (The Poets).

" And put your trust (O Muhammad) in the Ever Living One Who dies not."
Verse 25:58 of Surat Al-Furqan (The Criterion).

" Say: 'O Allah! Possessor of the kingdom, You give the kingdom to whom You will, and take the Kingdom from whom You will, and You endue with honour whom You will, and You humiliate whom You will. In Your Hand is the good, Verily, You are Able to do all things."

Verse 3:26 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Indeed, they knew if they were empowered by the Lord, they must abide by His Laws. They learn to be humble obedient servants of God; and that was reflected in their very names, such as Abdullah, AbdulRahman (servant of Allah). [In Islamic history as in recent history too, ominous names had ended in disasters: e.g. the ship *'Titanic'* (called invincible and unsinkable) sank on its first sea voyage! The space-shuttle *'Challenger'* (challenging God!) had exploded seconds after its launch!]

God Most High explains His way (law) on the fate of civilizations when ruled by unbelieving tyrants: **"How many of gardens and springs that they (Pharaoh's people) left behind. And green crops (fields) and goodly places. And comforts of life wherein they used to take delight! Thus (it was)! And We made other people inherit them (i.e. We made the Children of Israel to inherit the kingdom of Egypt). And the heavens and the earth wept not for them, nor were they given a respite.".**

Verse 44:25-29 of Surat Ad-Dukhan (The Smoke).

Thus Prophet Muhammad and his 2nd Caliph Umar used to reiterate this very verse 44:25-29 after each victory, after dislodging the enemies of Allah, and re-instating Allah-abiding Muslims as the new inheritors of the land (the land of Allah), being entrusted to implement His Laws on His land.

Furthermore, Muslim's greatest belief in Allah led to the belief in His destiny (***Qadar*** i.e. Decree of ordainments). If man proposes, then God disposes (duties are our, but consequences are God's). Thus they understood that they must work hard to exert their maximum effort and prepare themselves the best way they can, but then they have to leave the results (whether apparently good or bad) entirely in the hands of Allah, for He is the All-Knowing:

"Say:'Nothing shall ever happen to us except what Allah has ordained for us. He is our Maula (Lord, Helper and Protector), and in Allah let the believers put their trust. Say: 'Do you wait for us (anything) except one of the two best things (martyrdom or victory)? While we wait for you either that Allah will afflict you with a punishment from Himself, or at our hands, so wait, we too are waiting with you' ".

Verse 9:51-52 of Surat At-Tawba (Repentance).

"You killed them not, but Allah killed them, and you (Muhammad) threw not when you did throw, but Allah threw.".

Verse 8:17 of Surat Al-Anfal (The Spoils of War).

"No calamity befalls on the earth or in yourselves but it is inscribed in the Book of Decrees (Al-Lauh Al-Mahfuz) before We bring it into existence. Verily that is easy for Allah. In order that you may not grieve at the things that you fail to get, nor rejoice over that which has been given to you, and Allah likes not every prideful boaster.".

Verse 57:22-23 of Surat Al-Hadid (Iron).

This belief brought psychological happiness, even when the Muslims were killed while defending their religion.

Furthermore, Allah states that He had already written the death for each soul on a specific date and time, and if that time has not come, then that soul will live on, even if it is faced with the gravest dangers it may ever encounter:

"Nor can a soul die except by Allah's leave, the term being fixed as by writing; if any do desire a reward in this life, We shall give it to him; and if any do desire a reward in the Hereafter, We shall give it to him, and swiftly shall We reward those that (serve us with) gratitude.".

Verse 3:145 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

This fact gave Muslims with the psychological relief during the death of the dearest and nearest relatives, and provided them with utmost courage during their encounter with the enemy at battles and wars.

It is narrated by Ibn Abbas[1d]: Once I was behind the Prophet (peace be upon him) [riding behind him on the same mount] and he said to me: **" O boy, I will teach you few words:**

- **Be mindful of Allah [worship Him (Alone), remember Him always, obey His Orders], He will protect you [from every evil and take care of you in all the spheres of life].**
- **Be mindful of Allah, you will find Him in front of you [He will respond to your requests].**
- **If you ask, ask Allah;**
- **If you seek help, seek help from Allah.**
- **Know that if all the people (the Nation) get together in order to benefit you with something, they will not be able to benefit you in anything except what Allah has decreed (prescribed) for you. And if they all get together in order to harm you with something, they will not be able to harm you in anything except what Allah has decreed (prescribed) for you. The pens have been lifted [i.e. stopped writings Divine (Allah's) Preordainments and destiny]. And (the ink over) papers (Book of Decrees) have dried.".**

related by Sahih At-Tirmidhi, who said it was a good and sound Hadith]

[However, in a version other than that of At-Tirmidhi, it reads:]

- **"Be mindful of Allah, you will find Him before you.**
- **Get to know Allah in prosperity and He will know you in adversity.**
- **Know that what has passed you by was not going to befall you, and that what has befallen you was not going to pass you by.**
- **And know that victory comes with patience, relief with affliction, and ease with hardship.".**

However, Islam was and is the eternal message of God Allah, and so far as the Muslims obey Allah and his Prophet, they were assured by God of the final victory and spread of Islamic global message. Indeed, the unprecedented speed of Islamic spread was totally unorthodox phenomenon and in no way classical in terms of their unexplained power and their inferior number that could never match their enemy's power and number. Muslim conquests were far from being the outpouring of an unruly horde of nomads; the campaigns were directed by a small group of able and determined men[3]. Emperor Ching (who united China), Alexander the Great (who conquered Europe and Asia), Gengiz Khan (who conquered China and Asia), Hanibaal, Napoleon Bonabert, Adolf Hitler have all sweeping victories, but on their death, the system they put was dismantled and their empire was demised and broken down into fragments. Islam is singled out in its unique permanent spread; wherever it moves, quite often it is the native people of the very enemy who pave the way for the coming of Muslims as the ***liberators*** of mankind and ***carriers*** of the highest moral/human values, in particular ***Islamic Justice***. Thus the Almighty confirms:

"It is He Who had sent His Messenger with Guidance and the Religion of Truth, to cause it to prevail over all religion, even though the Pagans may detest (it)".

Verse 9:33 of Surat At-Tawba (Repentance).

"Before this We wrote in the Psalms (Zabur: all revealed Holy Books, or the Book of Psalms of David) after the Message (Al-Lauh Al-Mahfuz – the book that is in heavens with Allah): 'My servants the righteous, shall inherit the earth.".

Verse 21:105 of Surat Al-Anbiyaa (The Prophets).

"Truly, Allah defends those who believe".

Verse 22:38 of Surat Al-Hajj (The Pilgrimage).

"Already has Our Word been passed before (this) to Our Servants, the Messengers (sent by us). That they verily would be made triumphant. And that Our forces! They verily would be the victors.".

Verse 37:171-173 of Surat Al-Saffat (Those Ranged in Ranks).

"Verily, We will indeed make victorious Our Messengers and those who believe (in the Oneness of Allah – Islamic Monotheism) in this world's life and on the Day when the witness will stand forth, (i.e. Day of Resurrection).".

Verse 40:51 of Surat Ghafir (The Forgiver).

"Allah has decreed: 'Verily, it is I and My Messengers who shall be victorious'. Verily, Allah is All-Powerful, All-Mighty.".

Verse 58:21 of Surat Al-Mujadilah (The Woman Who Pleads).

The laws of Jihad in the war are exactly similar to those enforced by military discipline. Meet the enemy after due preparation and planning. Once in combat, carry it through: there is no room for second thoughts: Death or Victory should be the motto of every soldier, but with 2 exceptions:

- *reculer pour mieux sauter*, to go back in order to jump forward, or to deceive the enemy by a feint;
- if an individual or group of soldiers, by the course of the battle, isolated from own force, he or they can fall back in order to fight the battle. Thus Allah says:

"if any do turn his back to them on such a day – unless it be in a stratagem of war, or to retreat to a troop (of his own)- he draws on himself the wrath of Allah, and his abode is Hell, an evil refuge (indeed)!".

Verse 8:16 of Surat Al-Anfal (the Spoils of War).

Obedient dedicated Muslims then will be granted victory through Allah's Help. Badr and Uhud are the two sign-posts in Islam. In the battle of Badr, no more than 300 Muslims, ill-armed fought and won a decisive victory against 1000 unbelievers coming from Makkah; while in battle of Uhud was a great testing time for the young Muslim community, when 700 Muslims fought 3000 unbelievers coming from Makkah; **Thus, the number of angels, a 1000 at Badr and 3000 (up to 5000) at Uhud, is equal to the strength of the enemy.**

"(Remember) when you sought help of your Lord and He answered you 'I will help you with a thousand of the angels, ranks on ranks'."

Verse 8:9 of Surat Al-Anfal (the Spoils of War).

"(Remember) when you (Muhammad) said to the believers, 'Is it not enough for you that your Lord (Allah) should help you with three thousand angels sent down? Yes, if you hold on to patience and piety, and the enemy comes rushing at you; your Lord will help you with five thousands angels, clearly marked.".

Verse 3:124-125 of Surat Al-Imran, The Family of Imran).

Indeed, the battle of Uhud was an initial victory but the 50 Muslim archers, in disobedience of their orders, left their posts at the strategic mountain to join in the pursuit and share in the booty (There was also treachery on part of 300 'Hypocrites' led by Abdullah bin Ubai, who deserted, leaving 700 out of initial 1000 Muslim Fighters). Allah documented the disobedience and impatience on part of the 50 Muslim Archers (out of their greed) and which ended in double loss: 1) they were baulked of the booty they had run after, 2) their own lives and the lives of the whole Muslim army were in danger and many lives were actually lost from their ranks; thus Allah The Most High says:

"Allah did indeed fulfil His promise to you when we with His permission were about to annihilate your enemy –until you flinched and fell to disputing about the order, and disobeyed it after He brought you in sight (of the Victory) which you covet, among you are some that hanker after this world and some that desire the Hereafter, then did He divert you from your foes in order to test you, but He forgave you: for Allah is full of grace to those who believe".

Verse 3:152 of Surat Al-Imran (The Family of Imran).

Also Allah's help with the five thousands angels was conditional on Muslims' patience which they did not hold on to; thus such batch of angels did not come down; nevertheless, it was with help of Allah that Medina was saved, but an important lesson in faith, constancy, firmness, perseverance, and steadfastness was learnt by the Muslims.

However, during later conquests of Prophet Muhammad, Muslims were very observant of their obedience to the Messenger of Allah, and they had won each and every subsequent encounter. Indeed, the Prophet says:

'I was triumphed (with help of Allah against my enemies) by a preceding terror at a one-month marching distance'.

[Sahih Al-Bukhari].

During Islamic (defensive) wars against the unbelievers, Islamic highest moral values and attitudes were translated into practice. The order of Abu Bakr (the Caliph of Messenger of Allah) to Osama's expedition in AD 632 constitutes the First International Law on Conducts of War Ethics, long before Geneva Convention. Abu Bakr addressed the army of Osama bin Zayd (reminding them of Prophet's teachings concerning war ethics when dealing with their enemies)[1]:

"O, people, stand (and listen) I instruct you with 10 (important teachings), so memorize them:

- **Do not betray (what you are entrusted to do),**
- **Do not steal [from the booty of the war before distribution (ghulul)].**
- **Do not break your covenants,**

- **Do not mutilate (or dismember enemy's dead bodies after they have been killed),**
- **Do not kill a young child, nor an old man, nor a woman [unless she fights],**
- **Do not cut down a date-palm tree nor set it on fire, and Do not cut down a fruitful tree,**
- **Do not kill livestock except when you are compelled to eat them (no slaughter of a sheep, or a cow, or a camel except for a meal),**
- **You will pass by people who dedicated themselves in the temples, then leave them alone and what they dedicated themselves for (their faith) (i.e. hermits living in monasteries serving God in seclusion – so do not kill them and don not destroy their monasteries),**
- **You will come to people who will present you with various kinds of dishes, and if you eat some of these dishes, then mention the name of Allah on them,**
- **You will meet people who tied the middle of their heads with bands, then hit them with swords.**

Marsh in the name of Allah...

[Tarikh al-Tabari, Vol 2 (1-35 Hijri)].

Similarly, the 2nd Caliph Umar bin Al-Khattab's secret formula for victory was embodied in his address to Sa'd bin Abi Waqqas sent to Iraq in AD 636 [prior to their victory at Qadisiya, the decisive battle that undermined the Persian Empire][1]:

"I order you and your accompanying soldiers:

- **to be fearful of Allah at all times, for the fear of Allah is the best ammunition against the enemy and the strongest armaments in the war;**
- **and I order you and those with you to be cautious from disobedience (of Allah) more than you are from your enemy, since the (Muslim) army's sins are more frightening than their enemy. The Muslims are (helped by Allah to be) victorious only because of their enemy's disobedience of Allah. And without that (enemy's sins), we could not have strength, since neither our number is like theirs nor our ammunition is like theirs. If we were equal in committing sins, they will have the advantage over us with their (numerical and material) power, and if we are not victorious by our (spiritual/moral) superiority, we could never defeat them with our power.**
- **You must know that during your marsh, your behaviour are closely monitored by Allah's angels who know what you do, so (observe your behaviour and) be ashamed of them.**
- **Don't disobey Allah, while you are marching in Allah's cause.**
- **Never say 'our enemy is worse than us, so we will not overrun by them even if we did wrong', perhaps (good) people were overrun by bad people, just like unbelieving Magus who overrun Children of Israel when they committed bad deeds that Allah had forbidden, so Magus swiftly overrun their land and it was a fulfilled promise.**

- **Ask Allah's help over yourselves, the same way you ask Him for victory over your enemy.**

  I ask Allah the same for us and for you...

" [Tarikh al-Tabari, Vol 2 (1-35 Hijri)].

It was well-known to historians that no army of unbelievers could stand long before the Muslim army that contains **Prophet's Companions** (in Arabic ***Sahaba*** or ***Ashab*** with singular ***Sahabi***, a person who met the Prophet, believed in him, and died a Muslim, while ***tabi'i*** plural ***tabi'iun***, is a Muslim who met a Companion). After the Prophet Muhammad, no one was blessed and privileged in status as his companions, the most fearful of Allah, and the best reminder of the Messenger of Allah (after his death). That is why the Prophet says: **"There comes a time, a group of people go on an expedition, and there will be the question:**

- **Is there among you anyone who accompanies the Prophet? and comes the reply:**

  Yes, and so, the victory is granted (by Allah);

- **then comes a time and there will be the question: Is there among you anyone who accompanies the companions of the Prophet? and comes the reply: Yes, and so, the victory is granted (by Allah);**

- **then comes a time and there will be the question: Is there among you anyone who accompanies the companions of the companions of the Prophet? And comes the reply: Yes, and so, the victory is granted (by Allah).".**

[Sahih Al-Bukhari].

In Yarmuk battle, there were 1000 Prophet's Companions, 100 of whom had attended battle of Badr (who are considered the top best of all Companions, a treasure of blessed people and a reminder of the Prophet Muhammad). That is why, when Caliph Abu Bakr had formerly ordered his general Khalid bin al-Walid (prior to Yarmuk) to divide his army into 2 halves: one half to continue under Khalid leadership himself, and to let Muthanna bin Harithah lead the other half of the army in a military expedition to Iraq. General Khalid kept most of the Prophet's Companions to himself; Muthana refused to go on without having half of his ration of the Prophet's companions, he said: **'by Allah, I will only accept Abu Bakr whole order by accompanying half of the companion or part of the half, by Allah I only hope victory by them, so how can you take them from me!** Then Khalid (was forced) to give him the near-half of Prophet's companions to keep Muthana happy.

Indeed after the Yarmuk crushing defeat of the Roman Empire armies, they retreated to Antioch, where they met with **Heraclius** who was totally astonished and asked why his army was defeated in spite that they were not matched in number nor in material superiority, a Roman elder replied: ***'because they (Muslims) pray at night and fast during the day; and they respect their covenants, they enjoin what is right, and forbid what is wrong, and rule by Justice; and because we drink wine, commit adultery, do the wrong, break the covenant, become angry and do each other injustice, and enjoin the bad and forbid what is right by God and we corrupt the earth'.*** Indeed, the Arab Christian spying for the Roman army, used to gather information secretly about the Muslim camp, came back with this message: ***'I found them worshippers by the night, and knights by the day, I swear that if their king's son steals they will cut his hand, or if he commits adultery they will***

stone him'. Here is where Heraclius made farewell to Syria as widely reported: he was quoted to say: ***'Peace be upon you, O Syria. This is the farewell after which there will be no return.'***.

Allah guaranteed His help and victory to the obedient Muslims. Indeed, when the Muslims admired 2 Arab leaders: the legendary military General Khalid bin al-Walid, and General Muthanna bin Harithah, thinking that Islamic victories were exclusively due to the genius leadership, the 2nd Caliph Umar Ibn Al-Khattab was so assured of Allah's victory (irrespective of who is the leader), that he decided to change them both (replacing Muthanna with Sa'd bin Abi Waqqas, and Khalid with Abu Obaidah) and when he did, the Islamic military victories continued as before but under different leaders. The Caliph Umar had thus made his point to all Muslims; he then wrote to all Muslim military posts: ***'I did not remove Khalid out of hatred or a betrayal (on his part), but the people were infatuated (and obsessed) by him so I wanted them to know that Allah is the maker (of victories)'***[2]. Indeed, when the Caliph Umar visited Jerusalem, his military commander general Khalid came to welcome him, and here Caliph Umar told Khalid a poetic saying:

you did, none could do your doing

but what people do, is Allah's doing[2]

Interestingly, Muslim commanders were appointed and dismissed on the Caliphs' order and there is no example in the literature of a commander rebelling against his authority or defying his orders; this is in marked contrast with both the Roman and Sasanian empires, which were at different times effectively disabled by the rebellions of generals and governors against their rulers[3]. This fact testifies that Muslims were honestly fighting for Allah's sake (and his Paradise), not for any personal gain, nor for name and fame.

(Caliph Umar II (717-20) is said[10] to have sent., a letter to Byzantine Emperor Leo III. The letter attribute to Umar (in the version that has come down to us) seems in fact to have been written by a Muslim writer of the 9th century. It provides a good example of Muslim polemical views of Christianity as they had by then developed. The author argues that the Christians have falsified their scriptures; that Jesus had never claimed to be God, but rather a messenger sent by God who had foretold the coming of Muhammad; that Jesus taught monotheism and not Trinitarianism. For all these arguments, he cites biblical proof texts (with varying levels of accuracy). He attacks the cult of relics and the cult of the cross and images. He gives a brief defense of Muslim doctrine against Christian arguments and then concludes by invoking the **miraculous spread of Islam**:

> ***In this way, with him in whom we trust, and in whom we believe, we went off, barefoot, naked, without equipment, strength, weapons or provisions, to fight against the largest empires, the most evidently powerful nations whose rule over other people was the most ruthless, that is to say: Persia and Byzantium.***
>
> ***We marched against them with our small number, and our weak resources. And God enables us to triumph over them and to take possession of their territories. He allowed us to settle down in their lands and houses, gave us their riches, when we had no other might or power than the Religion of Truth, thanks to God's power, mercy and help. From then on, He never ceased to grant us His favours, overwhelming us night and day again and again until we reached our present state which we receive from His generosity, His overwhelming grace and His power…..***

As for us, we find in God's Revelation to our Prophet that He Himself said: "He it is who has sent His messenger with Guidance and the Religion of Truth to make it prevail over all religion.". (Koran 9:33).

Islam's meteoric rise indeed seemed miraculous: a handful of warriors from the desert subduing the richest and most populous parts of the world's most powerful empires. Surely God favoured Islam and wished new subjects to convert. Most of them will (gradually, over several generations) conclude that this is so; most will convert to Islam. Those who refuse to convert, who choose to remain Christian, must answer the formidable question: Why has God permitted the stunning successes of Islam?)[10] **The Justice in Islamic World was legendary** and unparalleled anywhere in the world and in fact unheard of in the history of Mankind[2]. The following incidents represent 3 interesting examples (just to name few out of many):

- After the conquest of Makkah and when a Makhzumi woman (Banu Makhzum perhaps the 2nd famous tribe after Banu Hashim in Makkah) admitted theft (she used to repeatedly borrow goods from people and then denied it), and the evidence was conclusive, her case was brought to Prophet Muhammad who ruled by Allah's judgement that her right hand to be cut off (from the wrist joint). Quraysh felt its tribal name and fame would be tarnished and undermined; they therefore asked Osama ibn Zayd (the beloved adopted son of the Prophet) to talk on their behalf and request the Prophet to reduce the punishment. The Messenger of Allah replied angrily **"Do you intercede in one of Allah's punishments (or orders or limits)?"** The Prophet then stood (in the mosque) and addressed the people by saying:

"What had verily destroyed the nations before you, was that when their noble had stolen, they left him, and when their weak had stolen they punished him; [but] I swear by Allah that if Fatima [the beloved] daughter of Muhammad had stolen, I would have cut her hand.".

[Sahihs Al-Bukhari and Muslim].

After cutting her right hand, she asked the Prophet whether she can repent, the Prophet replied: **"Yes, you are today without a sin, like the day you were born".** Indeed, this lady repented well and then got married. Allah, The Most High documented that in Qur'an:

" As to the thief, male or female, cut off his or her hands: a retribution for their deed and exemplary punishment from Allah, and Allah is Exalted in Power, Full of Wisdom. But if the thief repent after his crime, and amend his conduct, Allah will pardon him; for Allah is Oft-forgiving, Most Merciful.".

Verses 5:38-39 of Surat Al-Ma'idah (The Table Spread with Food).

Apparently in the age of Jesus, thieves were crucified (Matt. Xxvii. 38); the pre-Islamic Arabs were too used to cutting off the hand of the thief. In Islam, however, theft cannot be punished by cutting off the hand **unless (1) the stolen property is well protected** e.g. in a safe; **(2) the thief is not in need.** thus theft during starvation, or by needy servants, no penalty is implemented; and **(3)The value of stolen property** should be equal to the price of a shield in those days (equivalent to quarter of a golden); Canon Law jurists are not unanimous as to the today value of the property stolen leading to penalty of the cutting off the hand. The majority holds that petty thefts are exempt from this punishment; there are many more exemptions too. Islamic punishment therefore is used as deterrent to others. It is said that during many centuries

of Islamic Rule, the recorded number of cut hands can be finger-counted (i.e. the number is few)!

This incident truly, illustrates that the unified standard of law applicable to all people without differentiation and irrespective of status, nobility, wealth, race, or relationship was indeed the greatest and the newest value of the Islamic Justice brought to the Mankind. The Prophet here also, gives the interpretation of history by clearly explaining that One of the most important causes of the decline and fall of civilizations is **the adoption of double legal standard**, when the law is applicable to one set of people and not applicable to others because of their riches, name, fame, race, and governmental position. In Islamic world there was no one above the law; and the law was applicable to all (the Heads of State were subjected to trials – like others – in courts of Justice, where the Judges and the Jurisdiction were entirely independent of the State).

- When Ta'ima ibn Ubairaq (a nominally Ansar Muslim, but really a hypocrite, given to all sorts of wicked deeds) was suspected of having stolen a set of armour kept inside a perforated sac of flour, because of a track of flour through the sac hole, leading to his house. When the trial became hot, he took the oath by Allah that he did not do it; he then planted the stolen property (with a leading track of flour) into the house of a Jew (named Zayd ibn al-Samin), where it was found (to use the Jew as a scapegoat to frame him up in a theft he didn't commit). Zayd, the Jew denied the charge and claimed it was Ta'ima who pushed that property to him. Ta'ima's Muslim tribe and Muslims sympathise with Ta'ima on account of his nominal profession of Islam. The case was brought to the Prophet Muhammad, who later acquitted the Jew according to the strict principle of Justice, as 'guided by Allah'. Attempts were made to manipulate the Prophet, to prejudice him, and deceive him into using his authority to favour Ta'ima, the Muslim against the Jew. When Ta'ima realised that his punishment was imminent he fled Medina and turned apostate (in Makkah, Ta'ima also tried to steel and was expelled from Makkah to Sham, where he had stolen property and was chased and killed). The Qur'an recorded this event beautifully as it happened, and documented how Allah, The Most High established the Justice through His revelation to the Prophet in order to defend the innocence of a Jew against the wickedness of Ta'ima (the nominal Muslim):

  "We have sent down to you (Muhammad) the Book (Qur'an) in truth that you might judge between people by that which Allah has shown you (taught you through Divine Revelation), so be not an advocate for the treacherous (those who betray trust). And seek the Forgiveness of Allah; certainly, Allah is Ever Oft-Forgiving, Most Merciful. And argue not on behalf of those who deceive themselves. Verily, Allah does not like anyone who is a betrayer, sinner. They may hide (their crimes) from the people, but they cannot hide (them) from Allah; for He is with them (by his knowledge), when they plot by night, in words that He does not approve, and Allah ever encompasses all that they do.".

  Verse 4:105-108 of Surat An-Nisa' (The Women).

- When the son of Amr ibn Al-'As (the Egypt *Wali* or Governor) whip lashed an Egyptian Coptic citizen (because he won and succeeded him in a horse race); that Coptic (knowing of Islamic Justice) traveled all the way from Egypt to Medina to complain in person to the Caliph, Umar Ibn Al-Khattab against the son of Amr ibn Al-'As. The Caliph Umar ordered his *Wali* of Egypt to come immediately to Medina with his son. When Amr ibn

Al-'As attended Medina with his son, Umar (the Caliph) ordered the Egyptian Coptic citizen to whiplash back the son of Amr ibn Al-'As, and he then said: should you wish to hit his father too, we will not prevent you (acknowledging that if it was not for his father, the son will never behave like that; the Coptic was satisfied with hitting the son only); then the just Caliph Umar Ibn Al-Khattab said his famous saying (which became a doctrine or canon in the Islamic government, in administration, and running of peoples affairs in general):

'Since when you have enslaved people, when they were born by their mothers Free?'.

Indeed, with the rare exception of Iberian Peninsula (i.e. Portugal and Spain), wherever Muslims reached and settled, the people converted **permanently** to Islam, and the Arabic language was to follow Islam as its lingua franca in that new part of Islamic world. Truly, the civilization is like a human being, always standing on 2 legs: The *Material power* (the Hi-Tec - Science) and the *Moral power* (humanitarian values - Religion); Islamic civilization, while did not have the best Hi-Tec to start with, it endeavoured very hard to possess it (inspired by Islamic teachings) to match its opponents (the unbelievers), but the Islamic Humanitarian and Moral values as inspired by God and materialized in practice by the human Prophet Muhammad and his follower Muslims, gave the world and mankind what they have always required (but failed to acquire or missed to attain) of vital values like justice, equality, and brotherhood. Islam changed the old World Order for ever, converting the World into a global village (united by their faith in One God; and living in peace with God, with themselves, and with the others) for the first time in the history of mankind. It is said that 'True implementation of Islam always guarantees 2 things: happiness of Man (even during ailments and suffering) **plus** Allah's blessings in Man's life (prosperity in this life and reward in the life Hereafter)'.

Reciprocal Link between Islam and Arabic Language[6]

To illustrate the reciprocal impact between Islam and Arabic language, one can focus at the concept of Tawhid, that Allah is the One and The Only God (worthy of worship and obedience as the Law-Giver), the Arabic Qur'an and Hadith attributed 99 beautiful glorious names for Allah. The Almighty Allah says: **"The most beautiful names belong to Allah: So call on Him by them."**.

Verse 7:180 of Surat Al-A'raf (The Heights).

It is also narrated by Abu Huraira that Allah's Messenger (peace be upon him) said: **'Allah has ninety-nine Names, i.e. one-hundred minus one; and whoever believes in their meanings and acts accordingly, will enter Paradise; and Allah is Witr (One) and loves 'the 'Witr' (odd numbers).**

(Sahih Al-Bukhari, Vol 8, Hadith 419).

The 99 Beautiful Glorious Names of Allah (Allah is the original name of God) in Qur'an and Hadith are: **Allah,** *la ilaha illa Huwa* (no god has the right to be worshipped but He):

1. **The Compassionate, The Most Gracious** (al-**Rahman)**
2. **The Merciful** (al-**Rahim)**
3. **The King/Sovereign** (al-**Malik)**
4. **The Holy** (al-**Quddus)**

5. **The Source of Peace and security, The One Free from all defects** (al-**Salam**)
6. **The Giver of Faith** (al-**Mu'min**)
7. **The Watcher over His creatures** (al-**Muhaiman**)
8. **The All-Mighty** (al-**'Aziz**)
9. **The Compeller** (al-**Jabbar**)
10. **The Supreme, The Majestic** (al-**Mutakabbir**)
11. **The Creator, The Maker** (al-**khaliq**)
12. **The Originator, The Inventor** (of all things) (al-**Bari'**)
13. **The Fashioner** (al-**Musawwir**)
14. **The Great Forgiver** (al-**Ghaffar**)
15. **The Irresistibly Supreme, The Dominant** (al-**Qahhar**)
16. **The Bestower** (al-**Wahhab** or al-**Mu'ti**)
17. **The Provider** (al-**Razzaq**)
18. **The Opener, the Reliever** (al- **Fattah**)
19. **The All-Knowing** (al-**'Alim**)
20. **The Restrainer, The Withholder** (al-**Qabidh**)
21. **The Extender** (al-**Basit**)
22. **The Humbler** (al-**Khafidh**)
23. **The Exalter** (al-**Rafi'**)
24. **The Empowerer** (al-**Mu'izz**)
25. **The Humiliator** (al-**Muthill**)
26. **The All-Hearing, The Hearer** (al-**Sami'**)
27. **The All-Seeing** (al-**Basir**)
28. **The Judge** (al-**Hakam**)
29. **The Just** (al-**'Adl**)
30. **The Kindly One** (al-**Latif**)
31. **The Well-Acquainted** (with all things) (al-**Khabir**)
32. **The Clement, The Forbearing** (al-**Halim**)
33. **The Mighty, The Most Great, the Supreme** (al-**'Adhim**, al-**'Azim**)
34. **The Forgiving** (al-**Ghafur**)
35. **The Grateful, The Appreciative** (al-**Shakur**)
36. **The High, The Sublime** (al-**'Aliyy**)
37. **The Great** (al-**Kabir**)

38. **The Preserver** (al-**Hafidh**)
39. **The Protector, The Guardian, The Feeder, The Sustainer** (al- **Muqit**)
40. **The Reckoner** (al-**Hasib**)
41. **The Sublime One** (al-**Jalil**)
42. **The Most Generous, The Bountiful** (al-**Karim**)**; or The Kind and Generous despite creatures' sins, and without asking them anything in return** (al-**Muhsin**)
43. **The Watcher, The Watchful** (al-**Raqib**)
44. **The Responsive, The Hearkener** (al-**Mujib**)
45. **The Infinite, The All-Embracing** (al-**Wasi'**)
46. **The All-Wise** (al-**Hakim**)
47. **The Loving One** (al-**Wadud**)
48. **The Glorious** (al-**Majid**)
49. **The Resurrector** (al-**Ba'ith**)
50. **The Witness** (al-**Shahid**)
51. **The True** (al-**Haqq**)
52. **The Advocate** (al-**Wakil**)
53. **The Most Strong** (al-**Qawiyy**)
54. **The Firm** (al-**Matin**)
55. **The Patron** (al-**Waliyy**)
56. **The Praiseworthy** (al-**Hamid**)
57. **The Numberer, The Counter** (al-**Muhsi**)
58. **The Commencer** (al-**Mubdi**)
59. **The Restorer** (al-**Mu'id**)
60. **The Giver of Life** (al- **Muhyi**)
61. **The One Who Gives Death** (al-**Mumit**)
62. **The Ever-Living One, The Eternal** (al-**Hayy**)
63. **The Self-Subsisting, The Supporter of all** (al-**Qayyum**)
64. **The Perceiver** (al-**Wajid**)
65. **The Honourable** (al-**Majid**)
66. **The One** (al-**Wahid**)
67. **The Unique One, The One and The Only** (al-**Ahad**)
68. **The Self-Sufficient Master** (He neither eats nor drinks) **whom all creatures need, The Absolute** (al-**Samad**)

69. The Powerful (al-Qadir)

70. The All-Capable, The Omnipotent (al-Muqtadir)

71. The Giver (al-Muqaddim)

72. The Retarder (al-Mu'akhkhir)

73. The First (al-Awwal)

74. The Last (al-Akhir)

75. The Manifest (al-Dhahir)

76. The Hidden (al-Batin)

77. The Governor (al-Wali)

78. The High Exalted (al-Muta'ali)

79. The Righteous (al-Barr)

80. The Relenting (al-Tawwab)

81. The Avenger (al-Muntaqim)

82. The Forgiver (al-'Afuww)

83. The Compassionate (al-Ra'uf)

84. The Ruler of the Kingdom (Malik al-Mulk)

85. The Lord of Majesty and Bounty (Dhu'l-Jalal wa'l-Ikran)

86. The Equitable (al-Muqsit)

87. The Gatherer, The Collector (al-Jami')

88. The Self-Sufficient (al-Ghani)

89. The Enricher (al-Mughni)

90. The Withholder (al-Mani')

91. The Propitious (al-Nafi')

92. The Distresser (al-Dharr)

93. The Light (al-Nur)

94. The Guide (al-Hadi)

95. The Originator of the heavens and the earth, The Perfectionist (al-Badi', or Badi'al-samawat wa al-ardh)

96. The Everlasting, The Eternal (al-Baqi)

97. The Heir, The inheritor (al-Warith)

98. The Guide to the Right Path (al-Rashid)

99. The Patient (al-Sabur)

Such 99 Arabic descriptive names for Allah, The One, are not only an enrichment of Arabic language (by the Qur'an and by the Prophet's Hadith), but a confirmation that No other language medium is rich enough (like Arabic) to correctly contain and reflect the exact meaning to describe God The Most High with this precise descriptive rich vocabulary. **Accordingly, the Arabic language attains the most sacrosanct position in the eyes of all believers, and hence Islam and Arabic language became totally inseparable. Hence, Arabic is oftenly termed as 'the Islamic language' or 'the language of Islam'. It can also be called 'the language of peace and unity'**

Arabic: The Language of New Culture of Islamic World[9]:

Arabic language was the medium and ***lingua franca*** of Islamic World out of religious necessity as well as business, trade, and scientific activities.

The Great Arab/Muslim Conquests in the 7th and 8th centuries produced 2 momentous and enduring effects. The more immediate and dramatic was the creation of a new world state in the Mediterranean Basin and the Near East (later referred to as the Islamic World). The second effect, less rapid and tumultuous but no less important, was the development of a new world culture within this state. Islam as a filter of cultures, that filtered the cultures of the subjugated people, and merged them with the Islamic comprehensive interpretation of God, history, life, mankind, and universe; since Islam envisioned itself as an all-embracing framework of human life, no activity of the individual or community was alien to it, hence Muslims utilized (within the framework of Islamically filtered culture) the classical literature, Hellenistic way of thinking, Byzantine institutions, Roman administrative law, Syriac scholarship, and Persian art. Within this new Islamic State or World (the Caliphate) the diverse cultures and societies of the ancient world were shaken out of their regionalism and forced into new constructive and fruitful interaction. This results in a new world culture, with major components already at hand from the varied life and traditions of the people in the lands they overran, thus this distinctive rich culture was formed 'in situ', unlike the imposition of a foreign culture by invasion, not the same process that carried Western civilization to the East during the period of European Colonialism.

Furthermore, the Arab conquerors themselves quickly responded to contact with the civilizations they overrun; once the initial absorption in conquest was relaxed, they "sat as pupils at the feet of the people they subdued – and what acquisitive pupils they proved to be," as Phillip K. Hitti has observed. Before the end of the first Arab dynasty, that of the Umayyads, classical works were being translated into Arabic, impressive buildings inspired by classical designs were being built, and Arab scholarship in literature and science began to flourish. By the time the Arabs lost their preeminence in rule, non-Arab materials had been established in the life and thought of the Islamic community. This development of a distinctly Islamic culture reached full stride about the time that the Arab leadership of the Islamic World State (wrongly called Empire) began to wane (with the rise of Abbaside dynasty in AD 750). The impact of both the conquest and the culture has deeply influenced the shape of modern time. In particular, this new Islamically filtered global culture within the Islamic State or World has soon resulted in an equally distinctive and richly hued civilization that characterized the Muslim World, giving identity and character to the new world order that resulted from the conquests of Islam as it spreads among alien people.

Closely related to the influence of an inclusive Caliphate (Empire) and an exclusive faith was a further contribution of Arabs to the rise of a new culture – their language. How inextricably Arabic permeated the development of Muslim culture is shown by the fact that the system that finally evolved is still referred to as 'Arab civilization' and 'Arabic thought' despite the fact that many of its great cultural achievements did not take place under Arab auspices. Non-Arabs and even non-Muslims made important contributions, but they made them in the Arabic language, whatever their ethnic community.

As it had been emphasized earlier, Islam as a vehicle for Arabic was preponderant. The Qur'an, source of all belief and piety, was Arabic and could not be translated literally into any other tongue (but the meanings of Qur'an can be translated). Ritual prayers and public worship were in Arabic. Exegesis of the Qur'an called forth some of the first Arab scholarship, and the fact that God had chosen Arabic as the language of revelation made the study of its grammar and usage a religious duty. In short, no one could become a Muslim without some understanding of the Arabic language.

As for Arabic language, Professor John S. Badeau explained in **(The Genius of Arab Civilization – Source of Renaissance)**[9]:

(Yet it was more than conquest and religion that raised Arabic to its preeminent place in Muslim culture. Despite its original character as a desert tongue, Arabic displayed a remarkable potential as a medium of sophisticated and complex communication. It had the strongly marked structure of Semitic languages, in which the parts of speech are closely and clearly related. It could create new words out of existing verbal forms, and its ability to compress shades of meaning into a single dramatic expression made it a vivid and exact language. Elaborated by its grammarians and stimulated by the challenge of new horizons, it became a superb tool for thought and scholarship. Had it lacked an inherent quality of greatness, even the pressure of conquest and the benediction of religion would not have given Arabic its commanding position in the far-flung, multilingual Muslim World. The effects on culture of the dominance of Arabic were profound and enduring. Arabic provided the inclusive medium of communication that translated the political intermixture of diverse peoples into a commonly shared culture. As Latin did in medieval Europe and as English did in British India, Arabic in the new state over-arched local languages and literature to create a new and universal intellectual realm where Persian philosophers, Arab theologians [*Fuqa'ha'* plural of *Faqih*], Jewish and Christian physicians, and Indian mathematicians could only speak a common language but also have a sense of sharing in common intellectual order. Moreover, the use of Arabic and adoption of its alphabet by non-Arab Muslim languages formed a kind of cultural frontier that demarked the Muslim World from other civilizations. The same linguistic frontier turned the Muslim people themselves away from their own past culture and gave them a sense of identity and an awareness of their difference from other people. Arabic language was an inter-relatedness of 'medium and message'. The highly distinctive qualities of Arabic, the richness and content of its vocabulary, its particular mode of expressing an idea, and its propensity for meter and rhyme – all placed an imprint on scholarly productions and scholarly minds and hence on the 'flavour' of Islamic intellectual World. Thus the unique character of medieval Muslim culture is partly due to the fact that it did its work in Arabic. Like the contribution of Islam, the penetrating influence of language ensured the Arabness of the medieval world far beyond the period of Arab political rule)[9].

REFERENCES

1. **Al-Tabari, Tarikh: The History of Nations and Kings (2nd Volume).**
تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ. الجزء الثاني (١–٣٥). دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

2. **Ibn Kathir: Al-Bidayah wal Nihaya (The Beginning and The End) – 2nd and 3rd Volumes.**
البداية والنهاية: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير. المجلد الثالث والرابع (الأجزاء ٥–٨). دار الفكر، بيروت – لبنان. ١٣٩٨هـ–١٩٧٨م.

3. **Hugh Kennedy. The Great Arab Conquests – How The Spread of Islam Changed The World We Live In.** Published by Weidenfeld & Nicolson, London, 2007, extracts from book cover, preface, and conclusion.

4. a. **The Holy Qur'an (English translation of the meanings and Commentary).** The Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. **Mus'haf Al-Madinah Al-Munawarah** under The Auspices of The Ministry of Hajj and Endowments. The Kingdom of Saudi Arabia. 1413 H. pages according to specified verses as cited in the text.
   b. **Translation of the meanings The Noble Qur'an in the English Language.** By Dr Muhammad Taqi-ud-Din al-Hilali AND Dr Muhammad Muhsin Khan. King Fahd Complex For The Printing of The Holy Qur'an. Medina. The Kingdom of Saudi Arabia. 1404 H.
   c. **The Glorious Qur'an - Text & Explanatory Translation.** By **Marmaduke Pickthall**. Karachi: Taj company Ltd, (undated).
   d. **The Holy Qur'an – Text, Translation and Commentary. By Yusuf Ali**. Compliments of Al Rajhi Company For Currency exchange and Commerce. Published by Amana **Corporation**, Maryland USA. 1983.

5. a. **Sahihs of Hadiths** related by the six: [Sahih] Al-Bukhari, [Shaih] Muslim, At-Tirmidhi, Abu **Dawood**, Ibn Majah, and Al-Nisa'i.
   b. **An-Nawawis Forty Hadith** (An Anthology of the Sayings of the Prophet Muhammad). Translated by **Ezzedin Ibrahim and Denys Johnson-Davies**. The Holy Koran Publishing House, Beirut and Damascus. 4th Edition. 1979.
   c. **Ibn Qayyim Al-Jawzi'yah. Zad Al-Ma'ad fi Hadi Khair Al-Ibad**. Page 45
   زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيّم الجوزيّة، ص ٤٥. دار ابن حزم، بيروت.

6. **Kerry Brown** and **Martin Palmer** (Editors). **The Essential Teachings of Islam – Daily readings from the sacred texts**. Rider. London. 1987. Pages 9-11.

7. **Chris Lowney. A Vanished World (Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5, 10-13, 255-260.

8. **Tariq Ramadan. The Messenger – The Meanings of the Life of Muhammad**. Oxford University Press in USA and Allen Lane (an imprint of Penguin Books) in UK. 2007. Pages: 161,171-174,187, 200-204.

9. **John R Hayes (Editor). The Genius of Arab Civilization - Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976, pages 2, 12-13, 201-205.

10. **John V. Tolan. Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York, 2002. Page 37.

CHAPTER V:

HOW DID THE MUSLIMS and ARABS INFLUENCE THE ENGLISH LANGUAGE

(Arabic-English Linguistic Cross- Fertilization)

THE ROUTES OF ARABIC INFLUENCE can now be traced to the following:

1. Translation (Greek to Arabic) and Reversed Translation (Arabic to Latin) [1][2][3]:

Islam ordered its followers to gain knowledge and science. The Messenger of Allah (Muhammad) said: **"The seeking of knowledge is obligatory upon every Muslim."**

[Hadith Ibn Majah 224].

And also said: **"The word of wisdom is the lost property of the believer, so wherever he finds it he has a better right to it."**

[Hadith Tirmithi 39:19].

Indeed, Arabs and Muslims were fascinated by the Greek philosophers and scientists to the extent that they were persuaded in 830 AD by Romans to halt their military campaigns against Constantinople in return of acquisition of Greek books kept in Byzantium underground tunnels. Furthermore, the Abbasid Caliphs were patrons, supporters and promoters of the arts and intellectual activities. The famous Doctors of time: Jurjis Ibn Jibrail, Yuhannah Ibn Masawayh, and Hunayn Ibn Is'haq Al-Ibadi (Baghdad) at the special request of the successive Caliphs: Abu Ja'afar Al-Mansoor (754-775 AD), Haroun Al-Rashid (786-809 AD) and Al-Mamoon (813-833 AD) respectively, undertook the heavy commitment of translating Greek medical books (obtained from Byzantium) into Arabic language. Each of the translators was offered the equivalent weight of the book in Gold.

Latterly, Caliph Al-Mamoon ordered a School of Translation to be attached to the Academy of Baghdad, called "The House of Wisdom" and appointed Hunayn Ibn Is'haq Al-Ibadi (808-873 AD) as its Head. The latter translated Galen's books: "On Anatomical Procedures" (Fi Aamal Al-Tashrih) of which the original Greek books IX and XV inclusive were totally lost (thus Arabic translation was the only preserving medium of the lost Greek boks), "On Examinations By Which The Best Physicians Are Recognized" (Fi'l-Mihna Allati Yurafa'u Biha Afadil Al-Atibba) and "The Best Physician Is A Philosopher" (Fi Anna Al-Tabib Al-Fadil Faylasuf). George Sarton from Harvard University in his book: **'A Guide to the History of Science**; Mass. USA 1952; pages 27-28' traces the roots of Western intellectual development to the Arab tradition, which was **'the outstanding stream, and remained until 14th century one of the largest streams of medieval thought'**. Further, **'The Arabs were standing on the shoulders of their Greek forerunners, just as the Americans**

are standing on the shoulders of their European ones. There is nothing wrong in that'. Then Sarton strongly criticizes those who **'will glibly say 'The Arabs simply translated Greek writings, they were industrious imitators...' This is not absolutely untrue, but is such a small part of the truth, that when it is allowed to stand alone, it is worse than a lie'.**

Indeed, the history is the cumulative human endeavours, treasured experience, and wisdom of the ancestors; it is the compass that benefits from the past experience in order to direct and guide people to the best way of the future. If civilizational history begins at Sumer, as Professor Samuel Noah Kramer from the University of Pennsylvania ***documented the 39 Firsts in Man's recorded history based on the tablets of Sumer (Mesopotamia).*** [**History Begins at Sumer**, first appeared 1956, 3rd revised edition, 1994, University of Pennsylvania Press], then both Egyptian and Phoenician civilizations were based on the Sumerian civilizational experiences. Similarly, Greeks based their civilization on Egyptians' shoulders; Arabs/Muslims build-up on Greek experience, the same way Europe build-up their civilization on the experience of Arabs/Muslims. In the academic world, when a University student undertakes a PhD study, he/she will be required to review the literature from the time immemorial to the present time of his/her PhD thesis in order to benefit and build on the experience of others before he/she can expound own creative and original work. Furthermore, the students of yesterday are the masters of tomorrow; also, many studious persevering students can sometimes outsmart their teachers.

Arab scientists reached the zenith of their creative golden era during 8th - 12th AD centuries (inclusive), dominating Europe during its dark medieval ages; in fact European medieval ages correspond to the golden era of Islamic world. Arabic language was the *lingua franca* of the world at that time. Indeed, most of Arabian books in Medicine and Philosophy such as **Haly Abbas' "*Liber Regius*", Avicenna's *"Al Qanon"*, Albucasis' "*Al-Tasrif*", Averroes' "*Collegiate"*** were then translated from Arabic into Latin language by Constantinus Africanus (1020-1087 AD), Gerard of Cremona (1114-1187 AD) and Faraj Ibn Salim. The latter was a Sicilian translator who at the order of King Charles of Anjou, took the arduous assignment of translating 23 volumes of Rhazes' "Liber Continens" during the translator's lifetime. The Latinised versions of Arabic books were used in the Medical Schools of Europe as the only available textbooks in medicine from the late 11th century to the early 18th century(2) (3). In fact, these Latinised versions of Arabic Books were one of the sources (if not the main source) for European Renaissance.

Therefore, Latinized versions of many Arabic words, names, and terms passed, wittingly or unwittingly, into the Latin, particularly in Medicine, Agriculture, Law, and Ecclesiastical Circles, and were used by Europeans, because the Latin language was so revered as to be used with great religious and historical zeal as the official language of Europe in order to revive the glory of Romans and Roman Empire. **Also, following Norman invasion of England, French became an integral component of the English language and Because Norman French at that time (whether in Britain or in Arabic Sicily) was the international language of trade, it acted as a conduit, directly (via Old French) or indirectly (via Latin), for Arabic words borrowed from the markets of the East and implanted onto English Language.** Through the usage of Latin words and through commercial communications with Arabic civilization in Spain, Arabs influenced indirectly, the old English of the Anglo-Saxons. Thus, Arabic contribution to the English language was a

peaceful intruder adopted by the Anglo-Saxons and Normans themselves, out of scientific necessities and human linguistic demands. In contrast, Romans and French (Norman) contributions in English were brought about, after their military invasion and occupation of British Island by Julius Caesar in 55 B.C. and William The Conqueror in 1066 A.D., respectively.

It may be interesting to quote here the comparative analysis of a western botanist and gardening expert ***Ann Pavord***[4]:

(Compared, though, to the stagnation in Europe, the burst of intellectual activity in Western Islam [Andalusia] between the tenth and the thirteenth centuries is a miracle. Christianity had not had a liberating effect on the medieval mind in Europe. St Augustine taught that knowledge (which included, of course, all the sciences) was the reflection of the divine mind in human intelligence. It encouraged a kind of passivity. Illumination, clarification, could only be brought about by divine authority; either direct or interpreted by the intermediary of the church. Nature was 'an empty vessel' as Charles Raven calls it," a vacuum which the church filled with its own ideas. It did not foster or encourage individual observation and experiment. In the Middle Ages in Europe, interpreting the natural world was not so much a matter of teasing out the truth, as littering it with superstition, signs and portents. When the Arabs had completely assimilated all the knowledge that Western texts had to teach them, they re-exported that knowledge back into Europe. Through Arab infiltration, European scholars became acquainted again with the roots of their own culture. And learned a great deal else which had a profound effect on the way they subsequently viewed the world around them.

As slowly as Islam itself had assimilated the knowledge of the ancient Greeks, **the fruits of Arab scholarship percolated to the West, often through Jewish intermediaries**. They were scholarly; able to communicate in Greek and Arabic as well as Hebrew, multicultural before the word was even invented [i.e. multicultural is originally the characteristic of scientists in the Islamic World, and many Jews lived there and acquired this character], men such as Sabbatai ben Abraham ben Joel *(913-82)*, better known as Donnolo. He was a Jew of Otranto; when he was only twelve, he and his family were captured by Saracen raiders and taken to Palermo (in Sicily). By the time the family was ransomed by relatives in Italy, ben Joel was fluent in Arabic, which he had learned from his Saracen captors. He studied medicine and practised at Rossano in southern Italy. Like Constantine the African, who came after him, he claimed in his *Book of Creation (c.946)* to have studied 'the sciences of the Greeks, Arabs, Babylonians and Indians'. He travelled all over Italy in search of fresh knowledge, spreading Arabic erudition as he went. ***Constantine the African (c.1020-1087) was a native of Carthage [in Tunis], an Arabic-speaking Muslim [Benedictine monk of Monte Cassino]*** who had travelled for many years in India and Persia. About *1065*, he came via Sicily to Salerno, on the south-wrest coast of Italy. There, he learned both Latin and Greek, entered the monastery at Montecassino and spent the rest of his life translating Greek and Arabic works on medicine and plants into Latin. Single-handedly; he drew attention to this Greek/Arab body of knowledge a hundred years before translations began en masse. For the most part, European scholars had to depend on these intermediaries to bring them the fruits of Arab scholarship. Arabic was too impenetrable a language [partly true; it reflects the Church deliberate alienation of Arabic language from the Europeans], even for the great polymath Roger Bacon to decipher. He had no problems in teaching himself Greek and

Hebrew *but the only way to learn Arabic was to live in a country where the language was spoken*. A few outstanding scholars such as Adelard of Bath (c.1080-1145) and Gerard of Cremona (1114-87) went to Spain and prepared their own translations of Arabic treatises [people went on scholarship to Spain to learn Arab sciences] - when Western science first began to draw from Islam, Spain was an important point of contact. After 1085, when El Cid stormed Toledo with Alphonso VI of Leon, the city became an important meeting point for East and West....[thus] the body of knowledge [was] swirling across continents, as if on a vast map of the world displayed in a Second World War operations room. First, the action is in Byzantium (Constantinople – today Istanbul), then Edessa, then Djundishapur, then Baghdad. When the first medical school of medieval Europe is established in 985 at Salerno (Italian City) by four doctors - a Greek, a Jew, a Saracen (i.e. Arab) and a local Salerno man - that becomes the focus of intellectual activity)[4]

Following English words of Arabic etymology are only few examples of this period:

alchemy, albatross, alcohol, Alcoran, alcove, alembic, alfalfa, algebra, algorithm, alkali, Allah, almanac, amalgam, amber, ameer, amir, anchor, anil, aniline, apricot, arab, arabesque, arrack, arsenal, arsenic, artichoke, assassin, assegai, astrolabe, atlas, attar, azimuth, azure, benzoin, borax, burnoose, cable, calibre, caliph, camel, camphor, candy, cane, carafe, carat, caraway, carmine, cat, check, cinnabar, cipher, coffee, coffle, cotton, crimson, cumin, damask, dinar, dirham, elixir, emir, garble, gauze, gazelle, Gibraltar, gypsum, hajj, hakim, halvah, harem, hashish, hazard, henna, jar, jasmine, julep, kebab (kabob), kaffir, khamsin, kohl, lemon, lilac, magazine, mohair, monsoon, mosque, Muslim, myrrh, nadir, natron, nizam, nucha, orange, Qur'an, safari, saffron, salep, saphena, senna, sesame, sheriff, sofa, spinach, sugar, sultan, syrup, tabby, talc, tariff, typhoon, vizier, wade, xebec, zenith, and zero.

2. Islamic presence in Europe[5a] [5b]

Islamic cultural civilizational influence on Europe mostly followed on the Islamic conquest of Spain, Constantinople, and Sicily. Indeed Arabic language was the *lingua franca* in Andalusia (Spain and Portugal), in Sicily, and in the whole of Islamic world (Islamic Caliphate or in current western-terminology the Islamic Empire or Arabic Empire) and thus Arabic language vocabulary seeped through and later became enmeshed within the European language; in particular, Arabic language became embedded within the social fabric of English language (being a representative and a melting pot of European languages).

Andalusia: Muslims crossed from North Africa to the southernmost tip of Spain in July 710 AD; they then defeated the Visigothic king Roderick and the central administration of his kingdom in Iberian Peninsula. Muslims conquered Narbonne and Pamplona in the south-west of France and in 732, a raiding expedition penetrated to between Poitiers and Tours, but was defeated by Charles Martel in a battle that convinced the Muslims that they had come to the limit of profitable raiding expeditions. They spared their manpower and directed their efforts to unifying and pacifying the country; they organized Spain as a province of the Arab/Islamic empire with a governor responsible to the governor of North Africa based in Cairouan (in Tunisia) who was responsible directly to the Caliph in Damascus till 756 AD when the control of the Islamic empire (Caliphate) passed from Umayyad dynasty with their capital at

Damascus to Abbasids who moved their capital to Baghdad. A young Umayyad prince "Abdul Rahman I" had escaped and became the first of the Umayyad dynasty of Cordova making Islamic Spain an independent state, retaining only economic and cultural ties with the rest of the Islamic world. Muslims ruled Spain for 8 centuries until 1492 when the kingdom of Granada fell to Christian kingdoms.

Constantinople (formerely Byzantium, latterly Istanbul): Furthermore, the Byzantine Roman Empire was exposed to the same expansionist pressure from the Muslims. When the Arabs/Muslims first burst out of Arabia, they gained several victories over Byzantine armies and rapidly conquered the provinces of Syria and Egypt. Constantinople itself was attacked in 669, and further threatened by land and sea for several years up to 680. Just before the conquest of Spain, Constantinople was closely besieged for a whole year (716-717). This pressure on the Byzantine Empire continued indefinitely until Constantinople fell in 1453 to Ottoman Empire under the leadership of Mohammad II (The Conqueror). Suleiman The Magnificent, and subsequent Ottoman caliphs were able to penetrate even deeper in the eastern part of Europe, besieging and threatening Vienna (Austria) on 2 occasions with Ottoman's most formidable military machine in history. **Turks were Muslims and were fascinated by Arabic language; they commanded the most strategic bottle-neck position between cold waters of the Black sea and warm waters of the Mediterranean White sea, and thus they provided a unique link between Arabo-Islamic culture and language with the Christian west and such influence was expressed in the English language at various levels, such as the military ranks, architectural designs, and in the food and cookery as well as in the textiles** (carried through and traded along the ***'silk road'*** endpoints).

Saracen (Islamic) Sicily: The Byzantines were eager to use Sicily as a launching pad for the retaking of Saracen (Muslim) lands to build a Christianized empire under the rule of Rome and the Papacy. In defence of North African coast, Muslims counter-attacked with combined armies of Arabs, Berbers, and Spanish Muslims (collectively termed Saracens, *sharqi'yen* or easterners in Arabic) landed at Mazara del Vallo at the invitation of a Byzantine general rebelling against the emperor. Latin Christendom felt the military impact of Muslims through Sicily when the city of Syracuse was first raided in 652; Palermo, Messina, and Syracuse fell to Muslims in 831, 843, and 878 respectively.

Contributions of Arabs and Muslims: Arabs and Muslims implemented Arabic as the common language, and introduced much-needed land reforms and fostered the development of trade, agriculture and mining. New crops were introduced, including citrus trees, date palms and sugar cane; more importantly, Saracens developed and perfected a system of water supply and irrigation. Muslims ruled for more than 4 centuries until the Island fell to the Normans in 1091 following an alliance between Papacy and Normans (notice that England fell to Normans in 1066). Policy of reconciliation was adopted with the indigenous people; Arabic continued to be spoken along with French, and Arab engineers, bureaucrats and architects continued to be employed by the court. The externals of the life of some of the later rulers seemed to contemporaries more Muslim than Christian; in particular, Roger II (1130-1154) and the latter's grandson Frederick II of Hohenstaufen (1215-1250) have been called **"the 2 baptized Sultans of Sicily"** (notice the Arabic word 'Sultan', the governor)!!! Indeed, both wear Arab robes, and Roger II kept a substantial harem.

The main motivation underlying these gigantic waves of Islamic conquests and expansion (as perceived by Arabs) was the spread of Islam to the non-Muslims. Islam itself is based on 2

main foundations: Qur'an, the holy book, and Hadiths, the traditions of prophet Muhammad sayings and deeds (both of which are expressed in Arabic language). Many Westerners, such as W Montgomery Watt refused to think of Muslims as making yet another alien intrusion into Europe, but rather as representatives of a civilization with great achievements to its credit over a large part of the earth's surface, whose benefits overflow into the neighbouring Western Europe or Latin Christendom. W Montgomery Watt states in his excellent book ***'The Influence of Islam on Medieval Europe'*** pages 1 and 84 respectively: **(Medieval Christian writers created an image of Islam that was in many respects denigratory, but through the efforts of scholars over the last century or so a more objective picture is now taking shape in the minds of occidentals. For our cultural indebtedness to Islam, however, we Europeans have a blind spot. We sometimes belittle the extent and importance of Islamic influence in our heritage, and sometimes overlook it altogether. For the sake of good relations with Arabs and Muslims we must acknowledge our indebtedness to the full. To try to cover it over and deny it is a mark of false pride). (Because Europe was reacting against Islam, it belittled the influence of Saracens (Muslims) and exaggerated its dependence on its Greek and Roman heritage. So today an important task for us is to correct this false emphasis and to acknowledge fully our debt to the Arab and Islamic world)[(5)]".**

The invasions of Spain, Byzantine Asia Minor, and Sicily meant that for a time there was an Islamic presence on the fringes of Latin Christendom, a presence that had repercussions in the rest of Europe manifested specifically by direct mercantile contacts and exchange of technology between France and Spain. Charlemagne, King of France was in diplomatic relations with the caliph of Baghdad, Harun Al-Rashid, as well as with the latter's rival, the Umayyad emir of Spain; and by this channel some knowledge of the vastness and power of the Islamic world have reached Europe. Furthermore, **Hispano-Arabic influence on the French language was transferred into the English indirectly through the Norman invasion of England under William, the Conqueror. Also, the school of Palermo together with the school of Salerno (south of Italy) played a great role in transmitting Arabic sciences to Europe.**

Arab cultural/civilizational contributions to Western Europe are many. With its hundred thousand residents, the Emir's capital of Cordoba dwarfed every other city in Europe. **His 400,000-volume library may well have sheltered as many books as all Christian Europe combined**, shelving among its treasures long-lost Western wisdom and exotic new ideas from the East. Arabs invented the Arabic numerals **and used them in the western part of Caliphate (North African Coast and Andalusia); they also** modified Indian numbering system **and used it the eastern part of Caliphate (Arab Peninsula, Fertile Crescent, Persia and India). They thus replaced the cumbersome Roman numbering system. Arabic numerals are based on the number of angles for each number it represents. So 1 was written more like:**

(or the way it's still written in much of Europe and Latin America with 1 angle), and the 2 was written like z with Z angles,

3 with ζ angles,

4 with 4 angles,

5 with sharp corners and 5 angles,

6 with 6 angles,

7 with a cross in the middle and dash in the base make 7 angles,

8 the two squares in 8 make 8 angles,

9 with sharp corners folded from below make 9 angles.

They also introduced the concept of zero **written a s 0 without an angle.**

Indeed, the invention of Zero did not only result into the advanced Mathematics and related sciences, but it boosted peoples' daily life communications and calculation processes; it eventually led to the invention of Computers based on the concept of <u>B</u>inary Dig<u>it</u> [zero (0) and one (1), symbolized as <u>Bit</u>, the smallest unit of computer memory storage, when 8 Bits = 1 Byte, which is equivalent to One character, like letter A or B]. Computes that eventually led to revolution in the Information Technology (IT), could never be imagined without the Arabic invention of Zero.

Arabs were expert in cultivation of crops **like oranges, sugar, and rice; and they taught Europeans better** irrigation techniques. **They also introduced** paper-making, the compass and the new lateen-sail for ships which let them tack upwind. **Arab scholars contributed much in areas of human knowledge like astronomy (we still use some of the names they named stars with, like Altair, Deneb, and Aldebaran),** mathematics, medicine **(Ibn Sina's writings became the most authoritative texts on the healing arts in medieval Europe) and** philosophy **(Ibn Rushd's rationalist philosophy). Arabs were the** carriers of old Greek textbooks **(translated to Arabic) thus preserving Greek knowledge after the original Greek texts were lost.** Arabs excelled in improving upon Greek, Indian, and Persian science and they themselves contributed their own original new and creative works. **Arabic texts translated into latin provided an important source for European Renaissance. Arab contributions also included** aspects concerned with the refinement of life and the improvement of its material basis. **Public baths and private bathrooms were common in Muslim world, and while Top Capi (Ottoman Sultans' Palace in Istanbul- now museum) contains extensive quarter for Bathing and Massaging**, by contrast Versailles Palace in Paris doesn't contain a single bathroom!!! While Spaniards under Muslim rule luxuriated in hot water soaks at local bathhouses, one chronicler sniffed at the primitive hygiene of Europeans elsewhere, "[who] do not keep themselves clean and only wash once or twice a year in cold water. They do not wash their clothes once they have put them on until they fall to pieces on them" [5 c]. The early Christian church (in response to the debauchery of Roman baths), frequently discouraged cleanliness. "To those that are well, and especially to the young," Saint Benedict in the sixth century commanded, "bathing shall seldom be permitted." Saint Francis of Assisi considered an unwashed body a stinking badge of piety. Thus after the collapse of the Roman Empire and descent into the Dark Ages, sanitation virtually disappeared. Europe during the Middle Ages, it's often been said, went a thousand years without a bath!!! **Bathing was replaced by the use of perfume**. Queen Isabella of Castile boasted that she had had only two baths in her life—at birth and before her marriage. Queen Elizabeth of England took 2 baths every year and used to have a fan in cold weather used to expel her bad smell. King Lois XIV of France took one bath per year; that is why alcohol-based perfumes were primarily invented and used in Paris and London to cover up the bad

smell (physiologically, the sense of human smell can only distinguish the strongest smell of the two).

While Muslims have elaborate system of irrigations, underground toilet tunnels, and excellent standards of hygiene, by contrast Europe's waste was thrown out into streets or emptied directly into rivers that also served as the drinking water supply. In fact, the slang term for toilet, loo, is reported to have derived from the practice of the French yelling out the warning, "*Gardez l'eau!*" (pronounced ***gardy loo*** – meaning "*mind the water*"), before emptying the chamber pot from an upper level onto the street below. Following the devastation of the Bubonic Plague, some areas of Europe attempted to improve sanitation by outlawing the practice of discarding waste on public streets. However, widespread installation of underground sewerage systems in European cities did not occur until the early 19th century.

Most Europeans had little awareness of the Arabic and Islamic character of what they were adopting. The **"gracious living" of the Arabs and the literature that accompanied it, stimulated the imagination of Europe and not least the poetic genius of the Romance people**. Also, it is said that Andalusia was the first in Europe to enlighten streets at night using oil-lit lamps (prolonged burning candles, instead of short lived wax candles). Also when the water clock in Cordova or Granada in the mid 20th century stopped working the Spanish engineers could not repair back until they officially asked the help of Moroccan Engineers, they then together and after a corroborated efforts and time were able to make water clock work again.

Also, **William Shakespeare** (1564-1616) was aware of Arabic culture in Spain as he illustrated in his famous play on ***"Othello"***, the Moorish dark-coloured Nobleman. Furthermore, Shakespeare' romance story of ***"Romeo and Juliet"*** (such romance without extra-marital sex is rare in British practice) and ***"Merchant of Venice"*** (in-depth knowledge of Jewish practices) may even support the suggestion that William Shakespeare had descended from a 'La Moriscos' (Spanish Muslim Arabs converted by force to Christian Catholicism after the fall of Granada and Andalusia) with Arabic Muslim ancestors! This is the most likely explanation for Shakespeare's wide knowledge; his knowledge and identity were the focus of lengthy debate. The theory that Shakespeare was not the writer of the works attributed to him, based on the assumption that he did not possess the knowledge and culture revealed in those works, was first put forward by Herbert Lawrence in 1769. In 1857 William Henry Smith suggested that the only writer of that age competent to produce such writings was Francis Bacon[6]!

3. Crusaders and European presence in the Levant (1099-1291)[5a][5c][5e][5h]

Christianity as a state's religion started with the Roman Emperor Constantine, a man who had his own son executed and his wife boiled alive, saw in Christianity a pragmatic means of bolstering his own military power and uniting the vast and troubled Roman Empire; he accepted Christianity based on his dream in which he saw a cross in the sky inscribed with the words 'In this sign thou shalt conquer'. However, he accepted Christians on equal bar with pagans and allowed both religion and pagan traditions to merge together. However, the crusacing movement of the later 11th century did not start as a vigorous response to Islam; its centre was in northern France, far from direct contact with the Muslim states. Papacy became

concerned that the states of Catholic Christendom should cease fighting one another and rather direct their energies against the infidels outside [meaning Muslims] against the heretics and opponents within (Jews), declaring that the duty of the Christian warrior is to fight against all the enemies of the Church and the Papacy[5].

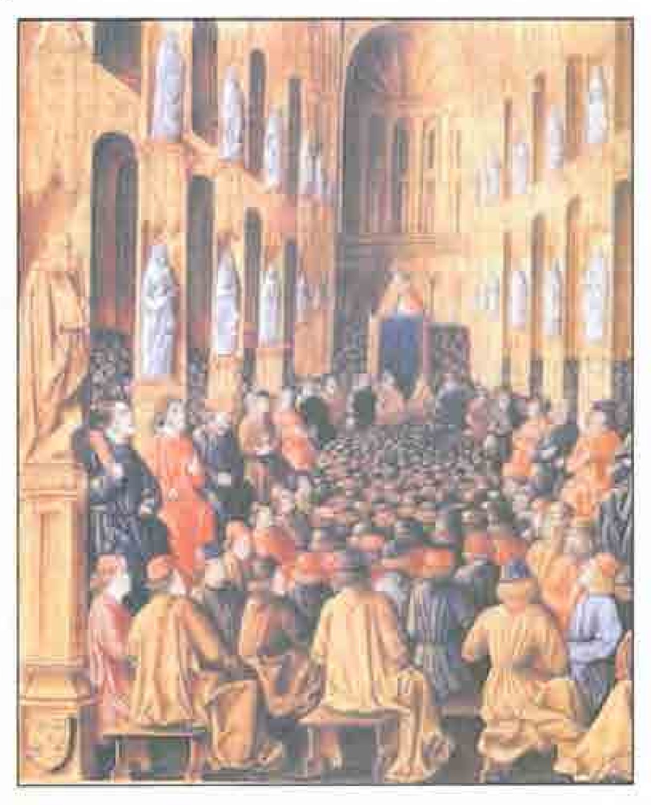
The Papacy, therefore, supported numerous political efforts against enemies of Christendom, and not exclusively against Muslims. For the invasion of England in 1066, William the Conqueror had the papal blessing and a papal banner. In 1054, the Papacy in the Vatican underwent the Great Schism, resulting in the complete break between the Byzantine Orthodox Churches and the Latin Churches, forcing the Papacy into alliance with the Normans. Thus in 1059, the Pope had made a treaty with the Norman knights in southern Italy who were fighting the Byzantines, (i.e. against Orthodox Christians). The Crusade was even used against heretics within Christendom, notably in 1209 against the Cathars or Albigensians in southern France.

However, the Crusading movement against Muslims started when the Pope supported the efforts of the Normans of southern Italy in order to re-conquer Sicily. The battle of Cerami in Sicily in 1063 by Gaufredus Malaterra and the joint naval expedition organized by Pisa, Genoa, Rome and Amalfi against Tunisia can both be considered as Crusades.

When the Byzantine empire at Constantinople, suffered a great historical defeat by the Muslim Seljuk Turks at **Manzikert** in 1071 (463 Hijri) (when 200,000 Christian Romans under the leadership of Emperor Armanus were defeated by 20,000 Muslim cavalry under the leadership of Sultan Alb Arsalan); the Emperor was captured and later freed, but Romans deposed him and appointed another Emperor instead in Constantinople. With the continued Islamic Seljuk threat to Constantinople, the new Byzantine emperor requested a military help claiming that if Constantinople fell, the back door to Europe would be open and soon central Europe would be the battleground. In the 11th century there were occasional incidents of tourists (visiting the Holy Land) getting mugged, having their mules hijacked and falling victim to foul play; such reports were filtered back into Europe, the telling and re-telling greatly magnifying the indignities, though one cannot help to wonder how a boatload of Muslim tourists would have been treated if they had landed in 11th century Paris or London?[5b] Pope Urban II who was keen to improve the Ecclesiastical schism between western (Rome) and eastern Christendom (Constantinople), recognized Byzantine argument: that their city was in fact the frontline for defence of Europe. Also there were frequent violence and carnage committed by armed terrorist gangs within Europe: the Pope considered killing of non-Christians in the name of God was not a sin, thus aggressive energies would be vented outside Europe.

It was Urban II speech in 1095 at Clermont who called for the knights of Europe to unite and march to Jerusalem to save and liberate the Holy Land from the Islamic infidel (!), his speech marked the launching of the 1st Crusade **(of 8 campaigns in the subsequent 200 years)**: he captured the imaginations of the ordinary men by the idea of recovering Jerusalem and making the pilgrimage to the holy places in Palestine. There was a phenomenal response to the appeal made at Clermont, instead of expected 20,000 - 30,000 professional soldiers, nearly 100,000 peasants came under Peter the Hermit [from Arabic *Hirmat, Muh'rim*, the Holy] set off on their own "People's Crusade", by the time this mob entered Hungary, it was starving and pillaged as it advanced. When they arrived in Constantinople, the emperor

immediately ferried the peasants over to Anatolia where they were promptly massacred by the waiting Muslim Turks.



Pope Urban II in 1095 at the Council of Clermont, where he preached an impassioned sermon to take back the Holy Land.

It is said that when this First crusade arrived in Constantinople in 1097, the Byzantine emperor Alexius (hoping for a small professional force to fight for his primary cause: to take back Anatolia), he was alarmed at the size of the western armies which converged on Constantinople (they were numbered in excess of 100,000, a number simply far too big to manage and supply). Needless to say, he closed the gates of the city, rightfully fearing that if given a chance this mob might actually try to seize his throne. The following spring (1098) the campaign kicked off under the nominal command of the Byzantines. The following 2 years (1099-1100) were a bloody, grueling advance through terrain and climate totally alien to the knights of France, Germany, and England; at least two-thirds of the men died along the way from punishing heat and combat. The Crusading idea gained momentum as these armies pushed on southwards towards the Holy City of Jerusalem. The capture of the city with bloody massacres of its civil peaceful inhabitants in 1099 and the establishment of the kingdom of Jerusalem (with subordinate statelets at Edessa, Antioch and Tripoli) crowned the achievement of the aims of the Crusading movement.

The chronicler Raymond of Aguilers, described the scene when a band of crusaders massacred both Muslim and Jews (civil peaceful inhabitants) in Jerusalem in 1099: ***"Wonderful things were to be seen. Numbers of the Saracens were beheaded....Others were shot with arrows, or forced to jump from the towers; others were tortured for several days, and then burned with flames. In the street were seen piles of heads and hands and feet. One rode about everywhere amid the corpses of men and horses. In the temple of Solomon, the***

horses waded in the blood up to their knees, nay, up to the bridle. It was a just and marvelous judgement of God, that this place should be filled with the blood of unbelievers"!!! Pope Gregory VII had declared: ***'Cursed be the man who holds back his sword from shedding blood'.*** For the next 80 years after the First Crusade, the Holy Land was divided up into Crusader States (though the skirmishing continued between them as well).

Historians like to clump events into groupings of First Crusade, Second Crusade, Third Crusade, but it was almost a continual process. Waves of Crusaders flooded into the region for well over 200 years; some were motivated by genuine piety, others were sent as penance for remission of a sin, but majority came as part of general land and loot grab unleashed by the wars. Behind the idealism, there were more pragmatic and commercial reasons: tour sts by the thousands flocked there every year out of Europe, generating brisk and flourishing business.

This success however, was due to the disunity of Muslims throughout the region, with several leaders struggling against one another. When Atabeg of Mosul overcame various rivals and increased his strength, he was able to recover Edessa in 1144. Then Saladin came on the scene in 1169, united Egypt and Syria under his rule, and inflicted a number of defeats on the Christians, culminating in recapture of Jerusalem from the Christians in 1187 following his victory in Hittin [(5)]. Circa 1192 AD (after defeat of Crusaders in battle of Hittin 1187), it is said that Saladin and/or his Doctor, Abdul Latif Al-Baghdadi were personally involved in applying their practical knowledge of Arab Medicine in the secret treatment of serious wound injury of king Richard, Coeur de Lion (the Lionhearted), the leader of the Third Crusade and the King of England. Perhaps, such gentlemanly relationship rather than defeat is what instigated Richard into peace treaty and led to departure of Crusaders; making the best of a bad deal, a truce was struck, granting tourists rights to the Holy City to the westerners. Indeed, this Anglo-Arabic communication between the English King and the Arabic Sultan extend well beyond the military combat, for instance King Richard appealed to Sultan Saladin through his personal messenger: a Crusader Knight who lost his beloved sister (captured by Muslims, named 'Mary' then changed her name to 'Thura'ya') so that the sister will **return** with her brother or to take her brother as prisoner with her. King Richard quoted Umar ibn Al-Khattab saying: ***'since when you have enslaved people when they were born to their mothers Free?'*** Saladin responded by first saluting King Richard and immediately releasing both the sister and her brother, securing their safe return, and he said: 'if I have to follow Umar Ibn Al-Khattab's saying, it is so that King Richard can reciprocate that by following the Messiah's saying: 'leave what Caesar's to Caesar, and what God's to God' and act accordingly to **return** the occupied land to its owners!'.

Interestingly, as Richard headed for home, he was waylaid by a rival, locked up, and held for ransom. The Historian William Forstchen in the book (***It Seemed like a Good Idea – A Compendium of Great Historical Fiascoes***) wrote: 'One would think that the English would have thanked the kidnapper, for the forgotten side of the legend of Richard is that since his ascension to the throne, he had barely set foot in England, viewing it as nothing more than a bottomless money pouch and supplier of bodies for his noble efforts! He had bankrupted the country as a result, and his ransom sent it into even deeper financial trouble. The irony is that his brother, John got hung with all the blame for squeezing the country in order to get his brother out of jail. Richard came back home, ran the country into even deeper debt organizing a new army, then went off to attack his former ally, France, where he was promptly killed.

John spent the rest of his reign trying to repair the damage, and received even more negative press[5 h].

Thus, the 3rd Crusade (1186-1192) was initially partially successful in recovering Acre in 1191 after a two-year siege but made no further progress, after the recapture of Jerusalem by Muslims from the Crusaders.

After this frustration, the aim of the 4th Crusade was diverted to capture Constantinople instead in 1204 (!) In fact, it was Pope Innocent III who sent crusaders to Constantinople to force Eastern Greek Byzantine Church into submission to the Western Roman (Latin) Catholic Church supremacy in order to bolster his (Pope's) authority in Rome. The original public cause of the Crusaders, to help protect Constantinople against the Muslim Turks was completely ignored; instead under the pretext of restoring a deposed relative of the Byzantine emperor, the Crusaders now stormed Constantinople, set the city afire, massacred a fair part of the population and looted the place clean, and in passing put their own puppet on the throne. Thus soldiers of Christ fell upon Constantinople with a vengeance, raping, pillaging, and burning the city; according to the chronicler Geoffrey Villehardouin, never since the creation of the world had so much booty taken from a city. The Pope's response to the Constantinople (Greek) Emperor: '... we believe that the Greeks have been punished through (the crusaders) by the just judgement of God; these Greeks who have striven to rend the seamless Robe of Jesus Christ…Those who would not join Noah in his ark perished justly in the deluge; and these have justly suffered famine and hunger who would not receive as their shepherd the blessed Peter, Prince of the Apostles...'. Nicetas Choniates, a Byzantine chronicler wrote: 'Even the Saracens (the Muslims) are merciful and kind compared to these men who bear the cross of Christ on their shoulders'. Eventually the old Byzantine line re-established itself on the throne as a pale shadow of their former power and glory. The eventual decline of an empire that could trace its lineage back to the Caesars can be marked from this moment[5 h].

Political interest, however, continued to be centred in Jerusalem, and quarrels among the successors of Saladin enabled the Franks to occupy it once again from 1229 to 1244, this time **by treaty**.

About 1250, power in Egypt and Syria passed from the Ayyubids (the dynasty of Saladin) to the Mamelukes (Mamluks), and the pressure there were soon able to exercise on the Crusaders led to a gradual reduction of the latter's territory.

While the Muslims remained divided, the Europeans were comparatively safe, playing one side against another. But the rise in power of Mamluk Egypt placed the Latin state (Crusaders' Christian Palestine) within the jaws of a huge pincer, all but surrounded by hostile neighbours, and with the sea at its back. The prospects for Christian Palestine looked bleak, but the appearance in 1260 of the Mongol army of Hulagu, Ilkhan of Persia, gave some respite. The Muslims agreed to truces with the Christians, in order to fight off the invading Mongols, who had already destroyed Baghdad, the central capital of Islamic world Caliphate and killed the Caliph. But in many respects this simply replaced one threat by another (for Crusaders), because innumerable forces of Mongols (known also as Tartars) occupied, devastated parts of Holy Land, and killed many Templars and Hospitalliers there; Mongols were no friends of the Christians and in time threatened the Latin kingdom (quite as much as had the Mamluks. Despite this terrible threat to Christendom very little was done, and it was left to the Muslim armies to stem the Mongol advance[9].

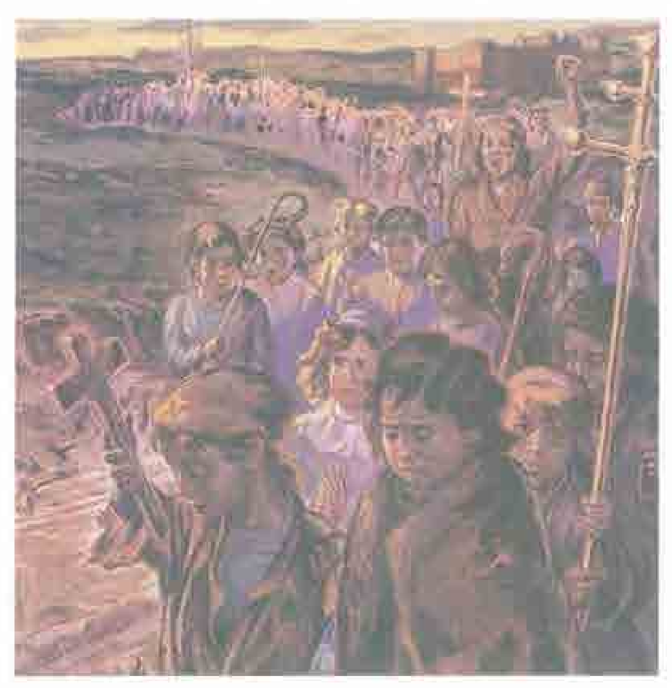
In July 1260, the Mamluk leader Kutuz asked the rulers of the Latin Kingdom for safe passage for himself and his army through their lands, and for an alliance in order to defeat this common threat. While granting the first request, the Christians refused the second. On 3 September 1260, at **'Ain Jalut'** just to the south of Nazareth, the Muslim armies crushed the Mongol forces. It was a great victory, and enormously increased Mamluk morale and confidence. Within a generation, it was this same power that would oversee the collapse of the entire Latin kingdom. The decline was gradual, with castles and territories furthest from the coast falling one after another to Muslim forces. There were times of respite, such as Prince Edward of England's truce of 1271, and those of 1281 and 1282, but this last agreement, in which Templar Master William of Beaujeu and the Mamluk commander Kavalun agreed to a peace of ten years and ten months, was broken in 1285. Shortly thereafter, one by one, the coastal castles went the way of the inland fortifications: Latakia fell in that same year, as did al-Marqab, a castle of the knights Hospitallier. Four years later (1289) Kavalun sent his army against Tripoli, which fell in April 1289. It was obvious that Acre, the nerve centre of crusader power, would be next to feel the might of the victorious Mamluk forces[9].

Western Christendom bestirred itself at this time of crisis, and in 1290 a score of ships with reinforcements and supplies arrived at Acre. But the inexperienced newcomers, initially hailed as saviours, proved to be the undoing of great city. They instigated a riot, and murdered many Muslims. According to the anonymous chronicler 'the Templar of Tyre': (those killed were not fighting men but simple peasants who were accustomed to bring their produce to the city for sale). It was all the pretext Kavalun needed. He sent messengers demanding expiation of the crime and threatened the destruction of the city if his demands were not met. Kavalun's demands were rejected and despite death of Kavalun, his son was as zealous and courageous as his father; in April 1291 the Mamluk army marched on the city. With Acre lost, the remaining castles of Sidon, Tortosa and 'Atlit fell one after another: Sidon abandoned in July, Tortosa and 'Atlit a month later. The Templars tried to mastermind an invasion of one small corner of the Levant, the tiny waterless island of Ruad, from which they hoped to launch a counter-attack against the Mamluks. However, Ruad finally fell in 1303. The survivors of the garrison were taken in shackles to Cairo, where they met their deaths before a festive multitude, riddled with arrows of Mamluk bowmen. With them died the dream of a Christian Holy Land, and raison d'etre of the Templar Order[9].

After the Mamelukes (Mamluks) took Acre by storm in 1291, the remaining coastal towns fell within a month or two. Crusaders attempt to recover Jerusalem for the Christendom had failed utterly[5]. Thus Crusades' occupation was not destined to last, for Islam got its act together and eventually threw these Christians out of their feudal holdings in the Holy Lands. In about 200 years of crusades, thousands, if not millions, were killed, they destroyed in much the same as the Church had at the onset of the Dark Ages. They burned any book they found; thousands of volumes of sacred religious texts, and the works of many scholars were burnt. Far from gaining converts to the Roman Catholic Church, the crusades spread a bitter animosity that lingers today. When the crusades against the Muslim, Orthodox Greek Christian (Constantinople), and Jewish infidels (as they called their enemies) failed to bring about lasting European unity under the banner of Christianity, the Church struck closer to home, attacking anyone who threatened its power or disobeyed its commands.

One of the most horrid crusades was the ***Children's Crusade***. The medieval cities of Europe were aswarm with orphaned and abandoned children, and several of them became

convinced that where adults had failed, children would surely succeed, for God would protect them in their march to the Holy City. By the thousands the children of Europe poured out and headed to the coast, begging and stealing along the way to stay alive. The Church did make an effort to try to dissuade them, but nothing could turn them aside in their innocent fervor. Reaching ports along the coast of Italy, the leaders negotiated with a consortium of ship owners who, in exchange for God's blessings, would provide transport to the Holy Land. The deal was struck the children were loaded aboard, and in a fiendish display of capitalism and social engineering, and the entire lot of poor children was sent to North Africa and sold into slavery for a profit.



Children's Crusade

End of Crusades and Fate of Papacy[54][55]:

The bloody crusades outside and inside Europe and the contact with peaceful Islamic Eastern culture during crusades and during peaceful visits and trade was counter-productive against the Papacy. Popes were extremely powerful; a notable example was **Innocent III (pope: 1198-1216)**. Innocent wielded power greater than even the emperors themselves and used his power to marshal crusades to reshape the political landscape not only of Western Europe but also Christian Byzantium in the East. However the simultaneous strengthening of secular and religious authority produced some of its own new tensions. The Crusades had an enormous influence on the European Middle Ages. At times, much of the continent was united under a powerful Papacy, but by the 14th century the old concept of Christendom was fragmented, and the development of centralized bureaucracies (the foundation of the modern nation-state) was well on its way in France, England, Burgundy, Portugal, Castile, and Aragon partly because of the dominance of the church at the beginning of the crusading era. Powerful popes found themselves in contention with powerful princes, in particular with the Holy Roman Emperor. Princes felt that it was their privilege to make appointments of bishops to the church within their lands, a source of major political influence for them. The popes however felt that this power belonged only to Rome. A fierce "investiture" controversy thus broke out between

church and state throughout Western Europe. But the all-important church did not survive. In 1309 the French king more or less forcibly brought the pope to live in **Avignon** in Southern France under his **"protection".** (Otherwise known as the **"Babylonian Captivity"!**) This so compromised and enfeebled the papacy that soon other powers were supporting their own candidates to the papacy. Thus as the 1300s rolled along the popes gave more the appearance of being mere pawns in the political struggles of Europe than they did of grand leaders of Europe's huge religious community. Then when in 1377 the pope was finally returned to Rome, several "popes" competed for recognition. This continued to worsen the spiritual dignity of the papacy, whose image dropped decidedly in the eyes of the faithful, and remained at a low for quite some time. Perhaps, what perceived as a Divine Retribution of **Black Death (1348-1350)** struck Europe to close the Crusades chapter, by wiping out 25 million people. In England alone, in a 3-year period it wiped out half of the population of 4 million people. After this a wave of other epidemics swept a much weakened Europe. In England, efforts by landowners (including the church) to hold scarce labor captive, produced a massive uprising in East-Central England known as the Peasants' Revolt (1351), which though suppressed, left among the commeners a legacy of discontent with the wealth of the landowners and the church.

The ruthless Papacy and its hostile Crusades inside Europe with its inspired and approved Inquisition Tribunals had influenced Europe negatively by breeding 3 main phenomena:

1. Secularism by dissociating the Church and Christian religion from the State legal system and laws.
2. The new trend of Darwinism evolutionist opposition to the Creationist Christian belief (with hostility towards religion in general) with the serious consequence of separation of science from religion.
3. The Marxism materialistic dialectic interpretation of history based on the motivation of human by his economic need and material greed, on the assumption that religion is the opium of the nations; thus negating motivation of Man by Divine inspiration nor by spiritual religious aspiration.

Western Distorted Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe (10)(11)

Islam in condemning Makkan polytheist pagans and idolaters documented in Qur'an their allegations and the Islamic replies to such allegations for the future reference. Before embarking on such allegations, the God (Allah), The Most High reveals that the real intention of such false allegations is to be used as part of propaganda war against Islam:

"And they will never cease fighting you until they turn you back from your religion (Islamic Monotheism) if they can, and whosoever of you turns back from his religion and dies as a disbeliever, then his deeds will be lost in this life and in the hereafter, and they will be the dwellers of the Fire, they will abide therein forever".

Verse 2:217 of Surat Al-Baqarah (The Cow).

"They intend to put out the Light of Allah (i.e. the Religion of Islam, this Qur'an, and the Prophet Muhammad) with their mouths, but Allah will bring His Light to perfection even though the disbelievers hate (it).".

Verse 61:8 of Surat As-Saff (The Row or the Rank).

While it is the Muslims' right to repel evil with an evil, yet Allah The Most High advises Muslims that it is far better to forgive their enemies and make reconciliation:

"And those who, when an oppressive wrong is done to them, take revenge. The recompense for an evil is an evil like thereof; but whoever forgives and makes reconciliation, his reward is with Allah, verily, He likes not the Zalimun (polytheists and wrong-doers).".

Verse 42:39-40 of Surat Ash-Shura (The Consultations).

Most polytheists' allegations were either directed at the Qur'an authenticity, and/or involved the character assassination and defamation of Prophet Muhammad himself.

As for the Qur'an, the claim that Muhammad forged it, is answered by Allah Himself:

"Or do they say: 'He (Muhammad) has forged it?' Say: "Bring then a Surah (chapter) like it, and call upon whomsoever you can besides Allah, if you are truthful". Nay, they have denied the knowledge whereof they could not comprehend and has not yet been fulfilled (i.e. their punishment), thus those before them did deny, then see what was the end of the Zalimun (polytheists and wrong-doers)!".

Verse 10:38-39 of Surat Yunus (Jonah).

The notion that Muhammad was **taught by a teacher** was repudiated easily by Allah declaring that such teachers (or priests) were foreign in their language, while Qur'an is revealed in pure Arabic language (a language that no teacher uses at the time):

"and indeed, We know that they (polytheists and pagans) say: 'It is only a human being who teaches him (Muhammad)' The Tongue of the man they refer to is foreign, while this (Qur'an) is a clear Arabic tongue.

Verse 16:103 of Surat An-Nahl (The Bees).

Indeed, Allah strongly reprimanded Makkans for raising such a lame allegation, knowing that they were well-versed in Arabic language and **the book revealed to Muhammad while he was physically among them: "Say (O Muhammad): 'If Allah had so willed, I should not have recited it (the Qur'an) to you, nor would He have made it known to you. Verily, I have stayed amongst you a lifetime before this, Have you then no sense?' ".**

Verse 10:16 of Surat Yunus (Jonah).

Furthermore, Muhammad was well-known illiterate:

" Neither did you (O Muhammad) read any book before it (this Qur'an), nor did you write any book (whatsoever) with your right hand. In that case, indeed, the followers of falsehood might have doubted".

Verse 29:48 of Surat Al-Ankabut (The Spider).

As for the character assassination and Defamation of Muhammad, the polytheists and pagans described him as **bewitched**; but Allah The Most High replies:

"And they say: 'Tales of the ancients, which he has written down: and they are dictated to him morning and afternoon. Say: "It (Qur'an) has been sent down by Him (Allah) Who knows the secret of the heavens and the earth, Truly, He is Ever Oft-Forgiving, Most Merciful.....And the Zalimun (polytheists and wrong-doers) say: 'You follow none but a man bewitched' ".

Verse 25:5,6,8 of Surat Al-Furqan (The Criterion).

They then described Muhammad as **sorcerer (magician) or a madman**; the Lord replies:

"Likewise, no Messenger came to those before them but they said: 'A sorcerer or a madman!'.

" Verse 24:52 of Surat Adh-Dhariyat (The Winds that Scatter).

They said that Muhammad was **divisive and trouble-maker**, dividing the people and splitting the members of one family; but the Lord Allah replied that Muhammad is a mercy to Mankind and indeed to all creatures:

"And We have sent you (O Muhammad) not but as a mercy for the all worlds (Alamin or all creatures i.e. mankind, jinn, and all that exists).".

Verse 21:107 of Surat Al-Anbiya (The Prophets).

"and We send down of the Qur'an that which is a healing and a mercy to those who believe (in Islamic Monotheism and act on it), and it increases the Zalimun (polytheists and wrong-doers) nothing but loss.".

Verse 17:82 of Surat Al-Isra' (The Journey by Night).

They claimed that Muhammad was a **dreamer**, but Allah responded with warning:

" Nay, they say: 'These (revelations of Qur'an which are revealed to Muhammad) are mixed up false dreams! Nay, he has invented them! – Nay, he is a poet! Let him then bring us an Ayah (sign as a proof) like the ones that the former (Prophets) were sent (with)! Not one of the towns (populations) of those which We destroyed, believed before them (though We sent them signs): will they then believe?".

Verse 21:5-6 of Surat Al-Anbiya' (The Prophets).

When they claimed that Muhammad is **a poet or a soothsayer** (foreteller), The God, The One and The Only states here clearly and decisively that this Qur'an is from Him exactly as it was revealed to His Messenger Muhammad (through His Messenger Gabriel):

"That is verily, the word of an honoured Messenger [Gabriel or Muhammad which he has brought from Allah].

– It is not the word of a poet: little is that you believe!

– Nor is it the word of a soothsayer (or a foreteller): little is that you remember!

– (This is the) Revelation sent down from the Lord of the Alamin (mankind, jinn and all that exist).

– And if he (Muhammad) had forged a false saying concerning Us (Allah),

– We surely would have seized him by his right hand (or with power and might),

– And then We certainly would have cut off his life artery (aorta),

– And none of you could have withheld Us from (punishing) him.".

Verse 69:40-47 of Surat Al-Haqqah (The Inevitable).

The wisdom of documenting these allegations with Allah's response to them become manifest; they provide Muslims with a future reference on accusations and thus confer a kind

of immunity that becomes innate with time, so much so that exposure to the later stereotyped allegations by Europeans and Westerners can only result in additional acquired immunity **(As for spread of Islam by sword, see chapter 3).**

Perhaps there was one allegation that Arab polytheists had never used, but Europeans used frequently against Prophet Muhammad: that he was a **womanizer** violating the status of Muslim woman and family!!!

But, Allah defends his Prophet, who used to spend his nights worshipping and praying to Allah (not in sex with his wives); so Allah documents that in Qur'an:

(O' you folded in garments (i.e. Prophet Muhammad)! Stand (to prayer) by night, but not all night. Half of it,- or a little less. Or a little more; and recite the Qur'an in slow measured rhythmic tones. Verily, We shall send down **to you a weighty Word. Verily, the rising by night (for Tahajjud prayer) is very hard and the speech (communication with Allah) is most potent).**

Verse 73:1-6 of Surat Al-Muzzammil (The One Folded in Garments).

This may be better commented on by ***John Tolan*** in his excellent book **Saracens (Islam in the Medieval European Imagination)** Pages 28-29:

(The Koranic legislation ...[directs that] married women are to maintain their own personal property [and her own surname before marriage]; the dowry that their husbands give them is to be considered the wives' property; in case of divorce, the husband must restore his wife's property. In order to convict a woman of a charge of fornication, four witnesses are needed. Divorce must be followed by a waiting period of at least three months (until the end of her pregnancy, if she is pregnant) before expelling the divorced wife from one's home; a man must provide for his former wife, particularly if she is nursing his child. Because of this concern for maternal well-being of all parties (and in particular, of the woman and children), polygamy is discouraged: "if you fear you cannot maintain equality among [multiple wives], marry one only." (Koran 4:3), later adding: "Try as you may, you cannot treat all your wives impartially" (4:129). Monogamy is apparently the ideal. Traditional Arab polygamy, however, is not abolished, but merely restricted to a maximum of four wives. This is a maximum by which Muhammad himself did not abide; the Koran (33:50) gives the Prophet special exemption from the restrictions on marriage; he had as many as nine wives at one time. This, to ascetically minded Christian authors, will be scandalous; they will use it portray the Prophet as driven by lust. Yet Muhammad did not marry until the age of twenty-five and then remained monogamous for another twenty-four years, until Khadija's death in 619. Perhaps more significant is that his polygamy begins in Medina, where he has become an important political and military leader: like many Arab potentate before him, Muhammad used marriage to forge important political alliances and to reflect his political and economic prestige [many of his wives were old; all are widows; A'isha was his only virgin wife]. It is in this context that the Koran orders Muslims to obey their Prophet as political leader and judge. At this point, too, the Koran verifies his right to more than four wives and specifies in particular his right to marry Zaynab, divorced wife of his disciple and adopted son Zayd (33:37-38). This story, too, will be twisted by the hostile pens of Christian polemicists, will be used to supplement their image of Muhammad as lustful; the prophet's polygamy corresponded to their preconceived image of Antichrist. Whereas Saint Paul discouraged marriage, conceding only that is better to marry than to burn in hell (1 Cor. 7:8), the Koran encouraged single

Muslims to marry (24:32); there was nothing wrong with marriage and sex, as long as it stayed within the bounds of propriety and mutual respect)[10].

In fact, polygamy is a fallback measure to be used in case of eventualities, when the number of women outnumbers that of men:

- most wars are fought by men who may die, resulting in women overpopulation
- prison inmates are mostly males whose number can reach 98% of all prisoners
- In Inherited sex-linked diseases e.g. Christmas disease of blood clotting disorder, only men are affected and die young; the mothers and females are carriers of the disease without being affected and usually have apparently healthy life
- Feminization of nature due to chemicals had led to oligospermia and more than 20% of human males are sterile world-wide.
- Higher predisposition of stillbirth and premature deaths among newly born males
- In USA it is said that males having homosexual tendencies may reach 25% leaving female population largely unattended.

Furthermore, the woman position in Islam is so highly regarded that paradise is stated to be under Mothers' feet. Also, the ***Hajj*** (pilgrimage) rituals are based on the activities of a woman: *Hagar* (the mother of Ishmael, son of Abraham) ranging from the drinking of zamia, the holy water; and walking/running to and fro between Safa and Marwa.

As the demand for [Middle Eastern] oil increased in the 1950s and 1960s so too did interest in the Muslim world. Missionaries and academics alike encountered Islam with increasing frequency as the superpowers played out their agendas in the postcolonial world. And it is to these years that those interested in Western views of Islam owe the product on of 2 works which in their comprehensiveness have yet to be surpassed:

- **Norman Daniel's** ***Islam and the West: The Making of an Image***

(Edinburgh, 1960) and

- **Richard Southern's** ***Western Views of Islam in the Middle Ages***

(Cambridge, Mass., and London, 1962).

John Tolan in his excellent book **Saracens (Islam in the Medieval European Imagination)** Pages 30-39 considered **Islam's successes at the life of Muhammad (after he immigrated to Medina) being very different from Christianity failures at the life of Jesus:**

(The Medina period was also marked with continued –and indeed increased– hostility of the Meccans [Makkans]. War broke out between Mecca (led by Quraysh) and Medina, piecemeal ay first: Meccans attacked and persecuted Muslims, and the Muslims retaliated by attacking Meccan caravans. In 624 Muslims defeated the Meccans in a full-fledged battle at Badr. The following year [625], the Meccans defeated the Muslims in battle of Uhud [it was a Muslim victory initially but followed by set-back due to disobedience of Prophet Muhammad's orders]; the Prophet himself was wounded and the situation looked bleak for the Muslims. In the wake of Uhud, the carefully constructed alliance in Medina began to crumble at the edges;

in particular, some of the surrounding Bedouines, as well as the Jewish tribes of Medina, went over to the Meccan side; against them, Muhammad staged a series of punitive expeditions.

In the midst of this struggle, sura 2 of the Koran [Qur'an, anglicized as Koran] orders the Muslims to change the qibla, the direction of prayer, from Jerusalem to the Ka'ba in Mecca. Some scholars have suggested that this represents a break with Judaism following the collapse of the Muslim-Jewish alliance in Medina. The Koran explains that the Ka'ba was built by Abraham and his son Ishmael [in Arabic Isma'il]. Abraham had been a monotheist (hanif), and Islam was a continuation of his religion, hanifiyya. Ishmael, far from being the rejected illegitimate son portrayed in Genesis, is, for the Koran, the first and favoured son of Abraham, and the Ka'ba is the oldest and most holy shrine to the One God, predating Solomon's temple at Jerusalem [this marks the shift of leadership from children of Israel to children of Ishmael, and hence, Muslims are referred to by Medieval Christian writers as '**Ishmaelites**' and '**Hagarenes**'!]. This highlights the urgency of victory over the Meccans; the Ka'ba must be cleansed of idolatrous filth, returned to the pristine cult of the God of Abraham....

Despite the defeat [preferably called setback] at Uhud, the Medinese were able to impose a blockade preventing Meccan caravans from trading to the north. The Quraysh, hoping to deliver a deathblow to Islam, enlisted the aid of many Bedouins and organized a major offensive [with 10,000 fighters] against Medina in 627. The outnumbered Muslims responded by constructing a large defensive ditch around Medina that prevented the Meccan horse and cavalry from approaching the city walls. A combination of defensive fighting, occasional sorties, and negotiation with groups of Bedouins weakened the Meccan alliance, which gradually disbanded; the Meccans were unable to break the Medinese blockade. The following year [628], Muhammad and his Muslims marched toward Mecca with the intention of making the Hajj [pilgrimage]. They were met outside the city by a group of Quraysh who negotiated to let them make the pilgrimage the following year, in exchange for a ten-year truce [of Huday'biya]. Islam's star was rising, and many of the Meccans' allies went over to the Muslims. In 630, allies of the Quraysh attacked some Muslims; this became the pretext for Muhammad to lead an army of ten thousand into Mecca, which surrendered without bloodshed. The Muslims marched into Ka'ba and destroyed the idols and statues of the polytheists; Abraham's shrine was purified. The remaining pagan Bedouin tribes soon became Muslim; the entire Arab peninsula was unified through Islam, under the political and military leadership of Muhammad. "When God's help and victory come, and you see men embrace His faith in multitudes, give glory to your Lord and seek His pardon. He is ever disposed to mercy" (Koran 110).

This is all a very different story, of course, from the early struggle of Christianity: Jesus put to death by Rome as a criminal; his followers, a Christian minority in a pagan empire, persecuted for centuries. No wonder early Christians looked upon political and military power as evil, Rome as a reincarnation of the whore of Babylon...., but there is really no positive image of political power in the New Testament. Medieval Christian kings will look back to the Old Testament for role models: the ancient Jewish kings, especially David. The Torah offers a mitigated view of earthly power: it glories in the victories that God gives his kings, yet describes the shame and humiliation of Israel's defeat at the hands of Babylon.

Things look different from the perspective of early Islam. God crowned Muslims with success from the beginning, it seems: there was no need to vilify earthly power or to explain away political and military success. Christian writers from the seventh century to the

twentieth reproach the Prophet for his political and military success, arguing that prophets do not spread the Word through the sword. While Muslim texts portray Muhammad as passive in his role of messenger, humbly transmitting the word of God, he is aggressive in pursuing the interests of Islam, in forging the Muslim state. There is no contradiction here: one must humbly submit to God's will but firmly and unhestitantly serve his law. Muslim tradition affirms that Muhammad sent letters to the king of Ethiopia, the Roman governor of Egypt, and the Roman and Persian emperors, inviting them to convert to Islam. Muhammad himself had organized expeditions into Syria in 626 and 629 [in fact 629 and 631]. Muhammad would not live to see the conquest of Syria. In 632 he made the pilgrimage to Mecca and returned to Medina, where he became ill. He died later the same year, his head in the lap of his beloved wife A'isha. The Koran says nothing about the political order that was meant to follow the prophet's death. Many of the Bedouins decided that their treaties had been made with Muhammad personally and that they no longer owed either allegiance or the zakat [*alms*] to anyone. Muhammad's associates [Sahaba], however, declared that Abu Bakr was to be Muhammad's khalifa (caliph), or successor. Meccans and Medinese rallied around him and fought to resubmit the Bedouins to the Islamic state. When Abu Bakr died in 634, he was succeeded by Umar (634-644), who led the reunited Muslims north into Roman territory).

***John Tolan* continues:**

(The Muslim invasions were not an irruption of a new and foreign people into the Fertile Crescent. Arabs had long been confederate members of the Roman (or Byzantine) military forces; they had founded and settled many of the cities of Syria: Petra, Hims, Harran, and Edessa. Trade between Roman Syria and the Bedouins of the Arabian Peninsula had been constant, punctuated by sporadic military clashes. What was unprecedented in 634 was that the tribes of the peninsula were no longer feuding rivals but united allies.

The Muslims' strength and unity coincided with Byzantine weakness [this is partly true; many westerners attribute Islamic victories not to the help of the Almighty (Allah), but because of the claim that Roman and Persian empires were weakened by recent war!!! Wars usually strengthen the victorious army, enriching it with more skills and expertise], and in the years between 634 and 638 the Muslims captured all of Byzantine Syria. The Muslims won two key pitched battles that marked definitive defeat for the Byzantine forces in Syria: at *Ajnadayn* (634) and *Yarmuk* (636).....By the death of Umar [ibn al-Khattab, the 2nd Caliph] in 644, the Muslims controlled all the Fertile Crescent and Egypt and much of Iran; they poised to push their conquests further over the coming decades: west across the Maghreb and (in 711) into Visgothic Spain. At the same time Muslim troops pushed through Iran and across the Oxus and Indus. Umayyad Caliph Walid I (705-715) ruled an empire that stretched from what is now Pakistan and Afghanistan to Morocco and Portugal.

All this confirmed the Muslims' belief that God was on their side; as a seventh-century patriarch of Jerusalem [Sopharnius] complained, (they boast that they are subduing the whole world). This self-assured sense of divine mission certainly was the key factor in the success and rapidity of the conquests. At least as important was the freedom of religion guaranteed to most of its non-Muslim subjects....

Jews (and Christians), it seems, misinterpret their scripture so as to deny the antiquity of Islam and prophethood of Muhammad. Later Muslim authors will accuse Jews (and Christians) of falsification of scripture (*tahrif*): deliberately expunging prophecies relating to Muhammad from the Torah and Gospel. Judaism in its present form is a corrupted, imperfect version of the

true religion revealed to Abraham and Moses. It is to be tolerated but never to be granted equal footing with Islam.

Christians, like Jews, have strayed from the pristine purity of their faith, have corrupted the teachings of the Gospel. For Ibn Ishaq [the author of Muhammad's life], Muhammad was the Paraclete (the Comforter) promised by John (15:26); the Christians stubbornly refuse to acknowledge him. Followers of both religions are to be left free either to stay in their religious traditions or to embrace Islam; there shall be no compulsion for them.

The Christian doctrines of the Trinity and Incarnation offended Muslims (and Jews); it was blasphemous to worship Jesus, a human being created by God, as if he were God. It was scandalous to introduce Trinitarian divisions into God's indivisible unity. These two central doctrines are attacked in the Koran, and Muslim polemicists vigorously refuted them, paying less attention to more minor doctrinal differences with Christianity. The Christians were "associators": instead of worshipping the One True God, they gave him a bevy of associates as minor deities: Jesus, the saints, the monks and priests.

If a resident of, say, Damascus in the 630s could think he was merely exchanging a Byzantine overlord for an Arab one, a century later it was clear that more fundamental changes were afoot: Damascus was the capital of an emerging Islamic civilization. More and more Jews Christians were converting to Islam; Arabic was being increasingly used. No hard demographic evidence exists to tell us when Muslims passed from being a minority to a majority, but educated guesses are around 825 for Iran, 900 for Egypt, Syria, and Iraq. While we have stories of prominent individuals who actively sought out conversion to Islam, in many cases the "conversion" was probably passive: by not seeking the liminal Christian sacraments of baptism and the Eucharist, many ceased to be Christian without choosing to "convert" to Islam. The number of dhimmi gradually, steadily diminished, and the number of Muslims grew in proportion.

For the Muslims, this was the rational, normal order of things. God had rewarded his faithful with dominion over the richest lands of the earth. He had shown Islam's superiority to Christianity (and Judaism) twice: first through the Koran, then by making Jews and Christians submit, as dhimmi to the Muslim yoke.

Islam's meteoric rise indeed seemed miraculous: a handful of warriors from the desert subduing the richest and most populous parts of the world's most powerful empires. Surely God favoured Islam and wished new subjects to convert. Most of them will (gradually, over several generations) conclude that this is so; most will convert to Islam. Those who refuse to convert, who choose to remain Christian, must answer the formidable question: Why has God permitted the stunning successes of Islam?)

John Tolan concludes that the most powerful Islamic symbol was:

(Carved into the Dome of the Rock mosque, in the holy city of Jerusalem. An inscription says the Umayyad Caliph Abd al-Malik built it in 692... It is the first monument of Muslim architecture, built on the site of the second Jerusalem temple, which had been destroyed by Roman armies in 70 CE. In rebuilding on the site of the temple associated with the ancient kings Solomon and David, the Umayyad caliphs laid claim to their heritage, source of legitimacy in the eyes of their subjects –Jewish, Christian, and Muslim. The choice of site made a powerful statement: Islam is here to stay; it continues and supersedes its predecessors, Judaism and Christianity. The inscriptions running along the exterior proclaim, in Koranic

verses, the unity of God and the mission of his prophet Muhammad; the inscription on the interior, in contrast, contains all the Christological verses of Koran, emphasizing Jesus' role as a human prophet, asserting that God cannot have a son. On the temple mount of Jerusalem, short walk from the Church of the Holy Sepulcher, the inscriptions on the Dome of the Rock clearly proclaim that Muslims are the true heirs to Jesus, not the Christians who set him as a God alongside the one true God….It was not so easy for a Christian. A triumphant vision of the history was excluded… and that Arab conquests were [Divine] punishment for Church Sins).

Thus, John Tolan explains the underlying reasons for Christian European distorted and falsified image of Islam since the 7[th] century. The causes of Western distorted view of Islam stem from their ignorance (lack of knowledge about Islam); Islam-phobia (the fear of Islam reminiscent of the medieval phobia of Islamic territorial expansion); stubbornness (because of hatred to the culture of change of traditions even if they were wrong); and/or hostile media (keen to create false news or to dramatize minor events in order to incite community hatred that will lead to reportable events and more news in a vicious cycle –for the purpose of the Media own pecuniary benefits). In Medieval history, the struggle over Spain, the collapse of the crusader states, piracy in the Mediterranean, the fall of Constantinople, the precarious position of Vienna: all saved to kindle hostility and fear.

However **David Blanks**, the co-author with Michael Frassetto in their excellent book **(Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe – Perception of Other)** considered ***European cultural inferiority*** as a cause of their falsified image of Islam: (During the Middle Ages, Islamic civilisation was far ahead of its Christian rival, offering enticing advances in architecture, law, literature, philosophy, and indeed, in most of cultural activity. It was therefore from a position of military and, perhaps more importantly, cultural weakness that Christian Europe developed negative images, some of which survive to the present day. In part, this hostility was the result of continued political and military conflict, but it likewise ensued from a Western sense of cultural inferiority. Thus the Western need to construct an image of the Muslim, of the "other" was a twofold process that came to dominate the premodern discourse concerning Islam. On the one hand, it created an image of Saracen, Moor, or Turk that was wholly alien and wholly evil. In both popular and learned literature Muslims were portrayed as cowardly, duplicitous, lustful, self-indulgent pagans who worshipped idols and s trinity of false gods. On the other hand, the creation of such a blatantly false stereotype enabled Western Christians to define themselves. Indeed, the Muslim became, in a sense, a photographic negative of the self-perception of an Ideal Christian self-image, one that portrayed Europeans as brave, virtuous believers in the one true God and the one true faith).

David Blanks continues:

(Whether or not one agrees with ***Richard*** Southern's conviction that ***Islam was Christendom's greatest problem*** (see his book **Western Views of Islam in the Middle Ages**, 1978), the West was engaged with the Muslim world in countless ways. The crusades and the Reconquista were only part of the story; and while these episodes and others like them were the source of much of the hostility towards Islam, there was nearly always an undercurrent of conflicting viewpoints that flowed back into Europe to ameliorate the dominant tradition. Diplomats, merchants, theologians, artists, poets, women and children, people from every class, pilgrims, slaves, criminals, camp followers – all had East-West connections, and those

who returned brought home tales of wonder and disgust. These varied impressions, mixed with a set of preconceived ideas, were spread through stories, poems, folktales, and sermons, but mostly through word-of-mouth, and eventually a set of notions was formed from which all Europeans drew their collective perceptions of the "other" and from which every European would have to choose those elements that informed his or her personal opinion. During the Renaissance, which saw the world through new eyes, well worn stereotypes of Muhammad and Islam were overlaid with fresh impressions. In the 15th, 16th, and 17th centuries more informed and, on occasion, more tolerant attitude began to appear. The Saracens became Moors and Turks, Islam became somewhat better understood, there was increased commercial and military activity in the Mediterranean, and the level of European cultural sophistication rose to the point where more nuanced views were made possible, at least in elite circles.

The emergence of Islam posed another problem as well, one that ***Southern*** did not consider. Despite the hostilities, the peoples of the Mediterranean share deep cultural traditions that predate the rise of monotheism, but were reinforced with the spread of Judaism, Christianity, and Islam from the Middle East into Europe and North Africa...there are profound ties that attract and bind two civilisations that encounter one another with a startling sense of déjà vu. In fact, the "*great problem*" may have been one of accommodation rather than confrontation. Sicily, Spain, and the crusader states were battlefields but they were also places of important cultural exchange. It is often noted, for example, that crusaders who remained in the Holy Lands were better assimilated to local Arabo-Islamic culture than were the new arrivals. Cervantes's "*Captive Tale*" gives the same impression. So too does the history of Salah al-Din, who came to be regarded as a respected and worthy opponent. Gradually the stories about him that filtered back to Europe were nurtured into legends. And of course there were significant scholarly exchanges as well. Perhaps the clearest instance of this can be found in the activities of Peter the Venerable and his associates, most notably Robert of Ketton, who consulted Muslim scholars for his Latin translation of the Qur'an. Christian thought owed a great debt to Muslim theologians and philosophers, especially Avicenna (Ibn Sina) who was respected as the translator of Aristotle. In literature, too, Islam exercised a positive influence on the development of European culture. Consequently, whether our premodern ancestors were conscious of it or not, there was much positive exchange across a very hostile frontier).

David Blanks in his analysis of Western views of Islam in the premodern period wrote: (Norman Daniel concluded his authoritative survey **(Islam and the West – The Making of an Image**,1960), with a chapter entitled "The Survival of Medieval Concepts", wherein he argues that Western views of Islam were 'canonized' in the Middle Ages.

From the 11th through the mid-17th century derisive attacks by Western authors were born of a nagging inferiority complex vis-à-vis Arab civilization. In the course of the 17th century, however, the Muslim states ceased to be a threat politically, and the West began to develop new secular views that demystified religion and diminished the threat of Islam as a rival ideology. So in the modern period, derisive attitudes arise not from an inferiority complex, but from a Eurocentric sense of cultural superiority. The 17th century saw the end of the wars of religion, the ultimate recognition of Protestantism by the Catholic Church, the decline of the Ottoman Empire [Caliphate], the emergence of the European state system, the gradual secularization of governments, important technological developments in shipping and weaponry, the early colonization of the New World, the establishment of capitalism, the

triumph of heliocentric system, and a new spirit of individualism and rationality. Thus the late 17th and early 18th centuries will serve as the period of transition from the "premodern" to the "modern". The 17th century was also a linguistic turning point: the word "Islam" appeared for the first time in English in 1613 and in French in 1687. The use of the proper Arabic term denotes a new consciousness on the part of Europeans, although the older, inaccurate, and disrespectful designation "Mohammedanism" was replaced only very slowly [Muslims reject calling them Mohammedans or calling Islam Mohammedanism, because they worship Allah alone, not Prophet Muhammad]. The Oxford English Dictionary still defines "Allah" as the name of the Deity among "Mohammedans," an error that may well be the most politically incorrect in the history of modern lexicography. [But even today, a recent book title by *Timothy George*: (***Is the Father of Jesus, the God of Muhammad?***), is a view so reminiscent of the falsified and distorted European medieval image of Islam].

Yet something changed. Today in the General Current Catalogue of Printed Books at the British Library (post- 1975), there are 6,448 works with the word "Islam" in the title. Maxime Rodinson was also right: we do have a fascination with Islam.

It was not until after World War I that scholars began to take a noticeable interest in Western views of Islam, and not until after World War II that the field really came into its own, but already in the 19th century studies began to appear that reflected a nascent curiosity about the impact of Islam on the culture of premodern Europe. Spanish, French, and Italian scholars were the first to show an interest, especially in the realm of literary studies).

[pages 13-15 of 'Western Views of Islam'].

Hence, Prophet Name Muhammad was itself a target for Medieval Christian writers who twisted it into:

- Machmit,
- Machometus,
- Machomis,
- Mahmet,
- Mahon,
- Mahomes,
- Mahomet,
- Mahons,
- Mahoumet,
- Mahound. Some of these medieval representations were crude caricatures, such as the figure of Mahound, a pagan tyrant or idol that appears in popular medieval drama.
- Mahoun,
- Mahummet,
- Malphumet,
- Mathomus,

- Mahumette.
- Mahomed

Prophet Muhammad was portrayed by Christian writers as:

- Antichrist or precursor of Antichrist;
- false prophet or heresiarch; and as
- idol worshipped by Saracens (Muslims)

John of Damascus (died 749 – his name Yuhanna bin Mansur bin Sarjun) claimed that 'a false prophet named Mamed, who, having casually been exposed to the Old and the New Testament and supposedly encountered an Arian monk, formed a heresy of his own' This Arian monk is no doubt meant to be Bahira, who, rather than merely recognizing the prophet's divine mission, seems to play a role in the formation of the prophet's "heresy". John makes him an Arian heretic in order the better to discredit Islam by associating it with familiar errors [of Arian heresy and other heresies]. [page 52 of Saracens by John Tolan].

Through a process of misrepresentation and demonization, iconoclasm becomes idolatry, civilization becomes barbarity, monotheism becomes pagan polytheism, and so on. And yet, these twisted stereotypes are, in a sense, "real". They are real because, for the vast majority of medieval and early modern Europeans, they served as the only readily available means for understanding (or perhaps we should say, misunderstanding) Islam.

Even the learned descriptions of Islamic religion are often distortions or fabrications, depicting Islam as heresy or fraud and Muhammad as an imposter. These medieval accounts of Islam form an important foundation, comprising an entire tradition of polemical misrepresentation, for the attitudes taken later by early modern theologians, both Protestant and Catholic.

Why the persistent misrepresentation of Islam, in spite of the availability of more accurate information about Muslim society and theology? The answer is simple: it was the perceived threat of Islam to Christianity that produced the denial or the radical distortion of what Islam really was. The demonization of the Islamic East is a long and deeply rooted tradition in the West – spanning the centuries, from the early medieval period to the end of the twentieth century. It was not until the second half of the 17th century that voices in favour of toleration and openness toward Islam were widely heard.

Moreover, as Kaulbach demonstrates in his investigation of Islam in the Glossa Ordinaria (i.e. the presence of Islamic doctrine in medieval Christian commentary on the Bible circa 1220-1240), Christian scholars consciously borrowed from the Muslim intellectuals. Throughout the 12th century Christian theologians **studied the Qur'an and Arabic translations of ancient texts, a practice that was followed by 13th century masters like Phillip the Chancellor, Jean de la Rochelle, and Alexander of Hales. Their work would continue to be influenced by the traditions of Arabic-Aristotelian science.**

[page 6 of Western Views of Islam].

Dante's Divine Comedy is traced to the theme of Muhammad's **Mi'raj** (miraculous ascension into Heaven) mentioned in the Qur'an and elaborated by Muslim mystics, such as

Ibn Arabi. It is significant that Dante places Avicenna, Averroes, and Salah al-Din in Limbo, unlike Muhammad and Ali who inhabit the ninth chasm among the schismatics.

On 5th Crusade, the 2 authors: Jacques de Vitry, Bishop of Acre, and Oliver of Paderborn, canon of Kolan, described high hope that the crusaders would conquer Egypt and Islamic world; the 2 authors wrote: **The capture of Mecca and the scattering of Muhammad's bones (erroneously believed to lie in Mecca!!!) will mark, it is hoped, the decisive victory of Christianity over Islam.** Their hopes were confirmed by the capture of Damietta, but later dashed when the crusaders…fell into an Egyptian ambuscade, and in subsequent negotiations for their freedom, lost all that had gained.

[page 200 of Saracens].

Furthermore, Alexandre du Pont, in his Roman de Mahomet, maintains that the Prophet permitted every Muslim man to marry 10 wives, and every Muslim woman to marry 10 times as well. In popular fiction and drama, pagan Saracens and idol-worshipping Moors alike pay homage to a deity called Mahoun or Mahound, who is often part of a heathen pantheon that includes Apollin (Apollyon), Termagant, and other devilish idols.

"White" European interpreted the blackness of the Moors as a sign of inborn evil. The Christian myth that explains the origins of the dark-skinned races, including the Moorish Muslims of Africa, is derived from the Old Testament story of Ham (or Cham), son of Noah, who was cursed for beholding the nakedness of his father. When a 'Moor' like Shakespeare's Othello appeared on the London stage in the 16th or 17th centuries, he was essentially an emblematic figure, not a 'naturalistic' portrayal of a particular ethnic type. Othello is not to be identified with a specific, historically accurate racial category; rather, he is a dramatic symbol of a dark, threatening power at the edge of Christendom. As such, Othello the Moor is associated with a whole set of related terms – 'Moor', 'Turk', 'Ottomite', 'Saracen', 'Mahometan', 'Egyptian', 'Judean', 'Indian' – all constructed in opposition to Christian faith and virtue. Looking particularly at the significance of Othello's epithet, 'the Moor', G. K. Hunter describes how this term was understood:

"The word 'Moor' had no clear racial status" to begin with; "its first meaning in the O.E.D. (Old English Dictionary) is 'Mahmoden'" which itself meant merely "infidel", "non-Christian," "barbarian." "Moors were, as foreign infidels, virtually equivalent to Turks: 'the word "Moor" was very vague ethnographically, and very often seems to have meant little more than 'black-skinned outsider', but it was not vague in its antithetical relationship to the European norm of the civilized white Christian."

As we have seen, Islam's purported evil is sometimes radically demonized and made into a monster. On other occasions, it is associated with the evil of black magic, occult power, and the worship of devils or idols, but such representations usually occur in popular culture, or in societies that had little direct contact with Islamic culture. As Jack D'Amico has observed:

> **The problem of containing Islam, politically and intellectually, was made more difficult by those respects in which Islamic culture was actually superior….A more potent and seductive foe, Islam had to be represented as a dangerous distortion of the true Church, a parody of civilization, its Mohammed a false prophet, its Jihad a perversion of the Crusade, its book, the Koran, a collection of errors and lies that mocked the Bible.**

[pages 224-225 of Western Views of Islam].

The orientalist discourse described by Edward Said was not 'born' with Napoleon's invasion of Egypt in 1798; it began to emerge in an era when the European relationship to the Orient was not yet one of colonial dominance – when, in fact, that relationship was one of anxiety and awe on the part of the Europeans. In fact, as one of scholar has pointed out, "....the creation of distorted image of Islam was largely a response to the cultural superiority of the Muslims, especially those of al-Andalus." The Christian West's inferiority complex, which originated in the trauma of the early Caliphate's conquests, was renewed and reinforced by the emergence of a new Islamic power, the Ottoman Turks, who achieved in 1453 what the Umayyad armies had failed to accomplish in 669 and 674 – the capture of Constantinople. A series of Ottoman invasions and victories followed, including Athens in 1459, Otranto in 1480, Rhodes in 1522, Budapest in 1526, and in 1529 when the Turks pushed on and almost took Vienna, Cyprus in 1571, and Crete in 1669. This is what led to Turkish scare.

An interesting example of the Western image of oriental rule can be seen in John Milton's epic poem, Paradise Lost (first published in 1667), where the West is angelic; the East is demonic. Milton's depiction of Satan is based upon a predominantly (but not entirely) negative and hostile attitude towards Islamic culture, a deeply imbedded way of thinking about the Orient that was (and still is) prevalent in the West. For example, Milton's presentation of Satan's power and fortitude in Books I and II depicts Satan as a heroic leader who remains firm in his epic resistance in spite of his defeat and fall. Like the Ottoman regime, which maintained its power despite major defeats such as the battle of Ankara (the defeat of Bayazid by Timurlane) in 1402 and the naval battle at Lepanto in 1570, Satan rallies his army of devils and unites them in a continued effort to defy the forces of Good. Like Satan, the Ottoman sultan was seen as a figure of tyranny, pride, and pomp leading an evil empire in a violent effort to conquer Christendom and extinguish the true faith.

[pages 218-219 of 'Western Views of Islam'].

The Medieval image of Islam was drawn into a cartoon depicting Prophet Muhammad standing on a podium, being worshipped by Muslims under the influence of Satan; indeed that very cartoon formed the front cover of a good book 'Saracens – Islam in the Medieval European imagination'. Again, in our modern era and under the (false) guise of press freedom, a 73-year-old Kurt Westergaard, the cartoonist at Jyllands-Posten, the Danish newspaper in 30 September 2005, caused an international storm over his 12 cartoons drawings of the Prophet Mohammad published in European media. Following the publication in France Soir in Paris, the publisher of France Soir, Raymond Lakah, wisely fired the editorial director of the newspaper, Jacques Lefranc, stating his decision to fire Lefranc as president and director of the newspaper in "a strong sign of respect to the intimate convictions and beliefs of each individual." In continuing protests, Syria and Saudi Arabia have recalled their envoys from Denmark and anti-Danish protests have erupted. All Danish goods and food products were boycotted by the Muslims across the Islamic World. **Cartoon drawings were reminiscent of Medieval European falsified image about Islam.**

Even in the 20th century, the writer Salman Rushdie repeated this medieval distorted image of Islam based on his ignorance and his deliberate distortion of Qur'anic verses. His publication of 'The Satanic Verses' in September 1988 was printed with irreverent depiction of the prophet Muhammad. According to Rushdie, Muhammad (named Mahound in the book)

added verses to the Qur'an accepting three goddesses that used to be worshipped in Mecca as divine beings; Muhammad later revoked the verses, saying the devil tempted him to utter these lines to appease the Meccans (hence the "Satanic" verses). But Rushdie claimed that these disputed verses were actually from the mouth of the Archangel Gibreel. The book was banned in many countries with large Muslim communities. **In fact, Rushdie founded his whole book on a false narrated story of al-Gharaniq al-Ula (the high-flying birds in reference to idols) which was rejected by Muslim scholars as False; hence his whole book came symbolizing nothing but ignorance and deliberate distortion of Islam.**

Even in the 21st century, Kilroy-Silk derisory comments about Arabs and Muslims were very reminiscent of this medieval distorted view of Islam and the false image of Muslims. Robert Kilroy-Silk, a young MP left Labour politics in the mid-1980s for a highly paid career in the media (Kilroy show, BBC1 Television). His show Kilroy started on November 1986 as Day To Day. It ran until 2004, when the programme was cancelled by the BBC and Kilroy-Silk was suspended pending disciplinary investigation after an article entitled 'We owe Arabs nothing' published in the Sunday Express on 4 January 2004. In a BBC Hard Talk interview, Kilroy has mistaken Iranians for Arabs in the article and erroneously associated Arabs with Afghans, demonstrating - according to critics - a general ignorance about Arabs. One passage in the article reads:

> **"We're told that the Arabs loathe us. Really? For liberating the Iraqis? For subsidizing the lifestyles of people in Egypt and Jordan, to name but two, for giving them vast amounts of aid? For providing them with science, medicine, technology and all the other benefits of the West? They should go down on their knees and thank God for the munificence of the United States. What do they think we feel about them? That we adore them for the way they murdered more than 3,000 civilians on September 11 and then danced in the hot, dusty streets to celebrate the murders? That we admire them for the cold-blooded killings in Mombasa, Yemen and elsewhere? That we admire them for being suicide bombers, limb-amputators, women repressors?"**

The article was strongly condemned by the Muslim Council of Britain and the Commission for Racial Equality. A columnist for The Guardian wanted Kilroy-Silk prosecuted for "incitement to racial hatred". The chairman of the MCB, in a letter to the controller of BBC1, branded the presenter an Islamaphobe and asked the corporation to take disciplinary action. "Silk appears unable (or unwilling) to distinguish between the terrorists who perpetrated the September 11 atrocities and the ordinary Arab peoples who constitute a population of over 200 million." A Middle Eastern expert at York University said the article displayed a dangerous "ethnocentricity". And added: "He does not have a history that goes beyond September 11. The world begins on September 11 for him but I would like to tell him that the world actually began 3000 years before Christ." The BBC decision to suspend Kilroy-Silk's daily show and to sack him afterward deserved respect and praise by all British Muslims and non-Muslims alike, especially the British of Arab origin, because Kilroy-Silk not only insulted Arabs and Muslims with his racist attack, he also insulted the organization he worked for (BBC), which is renowned for its objectivity and professionality and has gained a world-wide reputation because of this.

Interestingly and surprisingly, Pope Benedict XVI of the Vatican reiterated the Medieval distorted image of Islam by his thinly veiled attack on Islam that came during a theological

lecture on 12 September 2006 to the staff and students at the University of Regensburg, where he taught theology in the 1970s.

Using the words, "jihad" and "holy war", the Pope quoted criticisms of the prophet Mohammed by a 14th century Byzantine Christian emperor, Manuel II, during a debate with a learned Persian. "Show me just what Mohammed brought that was new, and there you will find things only evil and inhuman, such as his command to spread by the sword the faith he preached," Benedict quoted the emperor as saying. "The emperor goes on to explain in detail the reasons why spreading the faith through violence is something unreasonable," the Pope said and added: "Violence is incompatible with the nature of God and the nature of the soul." After all, it was one of Benedict's predecessors, Urban II, who first summoned a Christian jihad against Islam. And it is born-again Christians who have been at the forefront of support for the invasion of Iraq, the occupation of Palestinian lands by Israel, and the whole "reorganization" of the Middle East - a catastrophe in which many thousands of Muslims have lost their lives. By the way, Manuel II (1350-1425) was the second-to-last emperor of the East-Roman (Byzantine) Empire. As a boy, he had been held prisoner by the Turks, and his dialogues took place as his inheritance lay in jeopardy to the Ottoman empire, and his capital under siege. Only 28 years after his death, Constantinople, the capital of Byzantine Empire fell to the Ottomans under Sultan Muhammad II (Muhammad, the Conqueror). Benedict has spoken publicly of Christianity as the cornerstone of Europe and against the admission of Turkey into the European Council. He said Turkey should seek its future in an association of Islamic nations, not with the EU, which has Christian roots. Another report in the Guardian gives some insight into the thinking of Vatican about Islam. John Hooper of Guardian reports from Rome that Pope believes his church should take tougher line on Islam. But what makes his comments from Bavaria doubly insensitive is that Munich and its surrounding towns are home to thousands of Turkish, who are often badly treated by local Germans and frequently subjected to racism. Unlike late Pope John Paul, Cardinal Ratzinger, who took the name of Benedict XVI after his election as Pope, does not approve of joint prayers with Muslims. He is also skeptical of the value of inter-religious dialogue. Marco Politi, the Vatican expert for the Italian daily La Republica, said: "Certainly he closes the door to an idea which was very dear to John Paul II - the idea that Christians, Jews and Muslims have the same God and have to pray together to the same God." Not surprisingly, Pope Benedict's attack on Islam drew sharp reaction from the Muslim world. The 57-member-state Organization of Islamic Conference (OIC) while condemning the pope's statement expressed hope" that such surprising comments are not part of a new campaign against Islam by the Vatican, especially after decades of dialogue that brought scholars from the Muslims world together with scholars from the Vatican."

Following the World Trade Centre catastrophe (on 11/9/2001), Alexander Cockburn on 7 September 2002 wrote that **Bush Crusade** on terrorism became known as **The Tenth Crusade** that led to the invasion and occupation of Afghanistan and Iraq. Indeed, on 9th June 2007 President Bush visited Pope Benedict XVI of the Vatican (both men are Roman Catholic!) perhaps to consolidate what is known today as the 10th Crusade.



Thus, it seems that Europe had taken more than 12 centuries to call Muslims by their proper name Muslims and to consider them monotheists (not pagans, infidels, polytheists, or calling them by their ethnic origin, as Arab, Turk, and Saracens). The West is now able to

recognize Muhammad as the Prophet of Islam (he is neither a God to be worshipped, nor a heretic) and to pronounce his name properly as Muhammad (not mahound or Mahon for example); and that his followers are the Muslims (Muslims reject calling them Mohammedans or calling Islam Mohammedanism, because they worship Allah alone, not Prophet Muhammad). Calling things and people by their proper (Arabic) names is by itself a major historical advancement.

Indeed, Prophet Muhammad and the Foundation of Islam had been figured in academic and classical books listing Great Influential Men or Great Events that shaped the History of Mankind, for example:

1. **The Founding of Islam**, page 134- 140 in:
   John Canning' **'100 Great Events that Changed the World from Babylonia to the Space Age'** published by Odhams Books Ltd, London, 1965.
   Mohammed (570 - 632), page 185 – 191 in:
   John Canning' **'100 Great Kings, Queens and Rulers of the World'** published by Odhams Books Ltd, London, 1967.

2. **Number 1: Muhammad** 570 – 632, page 33 – 40 in:
   Michael H Hart' **'The 100 – A Ranking of The Most Influential Persons in** History' Hart Publishing Company, New York City, 1978.
   Prophet Muhammad was the focus of many useful recent studies, for example:
   In the Footsteps of the Prophet: Lessons from the Life of Muhammad by Tariq Ramada (2009)
   Muhammad: A Prophet for Our Time by Karen Armstrong (2007)
   Muhammad, Prophet of God by Daniel Peterson (2007)
   Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources by Martin Lings (2006)
   Muhammad by Demi (2003)
   The Life and Work of Muhammad (Critical Lives) by Yahiya Emerick (2002)
   Muhammad: Prophet and Statesman by W. Montgomery Watt (1974)
   Muhammad in the Bible by Professor Abdu'l-Ahad Dawud (1994)

Recycling the negative dark past into our present 21st century can prove extremely dangerous path. History is a circle; and it is always better to recycle the positive bright aspects of the past history into our present and implement into our future. Also, the fear of Islam should cease, and the term 'Islamophobia' should become one of the obsolete words in English language. The Western hemisphere is a fertile field for a better understanding of Islam, for Islam is the religion of Allah, since creation of Adam. Islam is the One true faith from The One True God; a code of life instituted by the Maker Himself for His creation.

Terrorism must be differentiated and excluded from Islam and other faiths (indeed, there are more radical Christians, Jews, and Hindus in the world much more than Radical Muslims). Furthermore, those who converted to embrace Islam felt the difference immediately and became more peaceful with themselves and with others; they also became much better believers by becoming closer to Moses and nearer to Jesus than ever before, and by knowing that the God Allah is the One and the Only One, and that everything else are His creations.

When the Tartar invaders converted to Islam, they became much more productive and useful: their savagery and destruction of civilizations was replaced by building of civilization and unifying culture as in the Mughal dynasty in the Indian subcontinent.

Since Islam is the only true religion of God (Allah); therefore no one owns Islam. Even though the message of Islam was conveyed to the world, by Arabs, Memluks, Moors, and Turks, but the fact remains: Islam is not a property of anyone. Islam came for all human mankind, and everyone is obliged and concerned with the spread of Allah's Message to the World.

There are still historical reports about conversion of Napoleon Bonaparte to Islam after the French campaign on Egypt in 1798, when he became closer to Muslim Scholars and in direct contact with Muslim community.

Napoleon Bonaparte was quoted in Christian Cherfils, 'Bonaparte et Islam,' Pedone Ed., Paris, France, 1914, pp. 105, 125. Original References: "Correspondence de Napoléon Ier Tome V pièce n° 4287 du 17/07/1799...".

"I hope the time is not far off when I shall be able to unite all the wise and educated men of all the countries and establish a uniform regime based on the principles of Qur'an which alone are true and which alone can lead men to happiness." [12].

However, he left Egypt rather early (leaving his army behind) before his faith had gelled and solidified, and his Islamic belief had materialized.

The recent immigration history, or the exodus of Muslims from their own countries to the Western hemisphere and in particular to UK and USA had led to a and to a better dialogue and to a better understanding of Islam. Indeed one of the London weekly magazines 'Time Out' on 6-12 June 2007 published a balanced article entitled: ***Is London's future Islamic?*** And based on interview of many cross-sections of Londoners documented the many benefits Islam can bring to the city, for instance, forbid alcohol and you'd avoid 22,000 deaths and a £ 7.3 billion bill for alcohol-related crime each year.

HRH Prince Charles of Wales, the Patron of the Oxford Centre for Islamic Studies had strongly criticised the Islamophobia in the west, and had delivered 3 most inspiring lectures on Islam entitled:

1. **'ISLAM AND THE WEST'** at the Oxford Centre for Islamic Studies, 27th October 1993
2. **'A SENSE OF THE SACRED: BUILDING BRIDGES BETWEEN ISLAM AND THE WEST'** at Wilton Park, a respected institute in England for the study of international issues, on 13 December 1996.
3. **'UNITY IN FAITH'** at Al-Azhar University Cairo, on 21 March 2006.

In his lecture: **'ISLAM AND THE WEST'** was whole-heartedly speech and he recalled an Arab proverb: **'What comes from the lips reaches the ears. What comes from the heart reaches the heart.'** HRH then said:

there is also much ignorance about the debt our own culture and civilisation owe to the Islamic world. It is a failure which stems, I think, from the straitjacket of history which we have inherited. The medieval Islamic world, from Central Asia to the shores of the Atlantic, was a world where scholars and men of learning flourished.

The contribution of Muslim Spain to the preservation of classical learning during the Dark Ages, and to the first flowerings of the Renaissance, has long been recognised.

Islam nurtured and preserved the quest for learning. In the words of the tradition, 'the ink of the scholar is more sacred than the blood of the martyr'. Cordoba in the 10th century was by far the most civilised city of Europe. It is said that the 400,000 volumes in its ruler's library amounted to more books than all the libraries of the rest of Europe put together. That was made possible because the Muslim world acquired from China the skill of making paper more than 400 years before the rest of non-Muslim Europe. Many of the traits on which modern Europe prides itself came to it from Muslim Spain. Diplomacy, free trade, open borders, the techniques of academic research, of anthropology, etiquette, fashion, various types of medicine, hospitals, all came from this great city of cities.

Medieval Islam was a religion of remarkable tolerance for its time, allowing Jews and Christians the right to practise their inherited beliefs, and setting an example which was not, unfortunately, copied for many centuries in the West.

Islam is part of our past and our present, in all fields of human endeavour. It has helped to create modern Europe. It is part of our own inheritance, not a thing apart.

More than this, Islam can teach us today a way of understanding and living in the world which Christianity itself is the poorer for having lost. At the heart of Islam is its preservation of an integral view of the Universe.

But the West gradually lost this integrated vision of the world with Copernicus and Descartes and the coming of the scientific revolution. A comprehensive philosophy of nature is no longer part of our everyday beliefs.

This crucial sense of oneness and trusteeship of the vital sacramental and spiritual character of the world about us is surely something important we can re-learn from Islam. Each of us needs to understand the importance of conciliation, of reflection - TADABBUR is the word, I believe - to open our minds and unlock our hearts to each other. I am utterly convinced that the Islamic and the Western worlds have much to learn from each other. Just as the oil engineer in the Gulf may be European, so the heart transplant surgeon in Britain may be Egyptian).

HRH Prince Charles of Wales delivered another lecture entitled: **'A SENSE OF THE SACRED: BUILDING BRIDGES BETWEEN ISLAM AND THE WEST'** at Wilton Park, at which he said: (**Modern materialism in my humble opinion is unbalanced and increasingly damaging in its long-term consequences.**

Religion and science have become separated, with the result, as William Wordsworth said, "Little we see in nature that is ours". Science has attempted to take over the natural world from God, with the result that it has fragmented the cosmos and relegated the sacred to a separate, and secondary, compartment of our understanding, divorced from the practical day to day existence.

In my view, a more holistic approach is needed in our contemporary world. Science has done the inestimable service of showing us a world much more complex than we ever imagined. But in its modern, materialist, one-dimensional form, it cannot explain everything. God is not merely the ultimate Newtonian mathematician or the mechanistic

clockmaker. ..As science and technology have become increasingly separated from ethical, moral and sacred considerations, so have the implications of such a separation become more somber and horrifying— as we see, for example, in genetic manipulation..

Some scientists are slowly coming to realize the awe-inspiring complexity and mystery of the universe. But there remains a need to rediscover the bridge between what the great faiths of the world have recognized as our inner and our outer worlds, our physical and our spiritual nature. That bridge is the expression of our humanity.

The view is so contrary, for example, to the outlook of the Muslim craftsman or artist, who was never concerned with display for its own sake, nor with progressing ever forward in his own ingenuity, but was content to submit a man's craft to God. That outlook reflects, I believe, the memorable passage in the Qur'an, "withersoever you turn there is the face of God and God is all embracing, all knowing".

This rediscovery of an integrated view of the sacred could also help us in areas of important practical activity.

1. In Medicine, whatever some scientists might say, the rupture between religion and science, between the material world and a sense of the sacred, has too often led to a bunkered approach to healthcare, and to a failure to understand the wholeness and manifest mystery of the healing process. Hospitals need to be conceived and, above all, designed to reflect the wholeness of healing if they are to help the process of recovery in a more complete way...
2. Our Environment has suffered beyond our worst nightmares, in part because of a one-sided approach to economic development which, until very recently, failed to take account of the inter-relatedness of creation. Little thought was given to the importance of finding that sustainable balance which worked within the grain of nature and understood the vital necessity of setting and respecting limits. This, for example, is why protection of our environment is a relatively recent concern; and why organic and sustainable farming are so important if we are to use the land in a way which will safeguard its ability to nourish future generations.
3. A third area in which this separation of the material and spiritual has had dramatic consequences is Architecture. I believe this separation lies at the heart of the failure of so much modern architecture to understand the essential spiritual quality and the traditional principles that reflect a cosmic harmony, from which come buildings with which people feel comfortable and in which they want to live. That is why I started my own Institute of Architecture. Titus Buckhardt wrote: "It is the nature of art to rejoice the soul, but not every art possesses a spiritual dimension". We see this spirituality in traditional Christian architecture. It also infuses the intricate geometric and arabesque patterns of Islamic art and architecture, which are ultimately a manifestation of Divine Unity, which in turn is the central message of the Qur'an. The Prophet Mohammed himself is believed to have said "God is beautiful and He loves beauty." Look at urban planning. The great historian, Ibn Khaldun, understood that the intimate relationship between city life and spiritual tranquillity was an essential basis for civilization. Can we ever again return to such harmony in our cities? As civilizations decay, so do the crafts, as Ibn Khaldun again wrote.

There is the potential for establishing new and valuable links between Islamic civilization and the West. Perhaps, for instance, we could begin by having more Muslim teachers in British schools, or by encouraging exchanges of teachers. Everywhere in the world people are seemingly wanting to learn English. But in the West, in turn, we need to be taught by Islamic teachers how to learn once again with out hearts, as well as our heads).

[on-line: http://www.fco.gov.uk ; **Prince Charles Speech;**

www.princeofwales.gov.uk/speechesandarticles/a_speech_by_hrh_the_prince_of_wales_titled_islam_and_the_wes_425873846.html]

Many Muslims think that if Britain and/or USA keen to enjoy the leadership of Middle East and the whole of Islamic World with all its resources, let them adopt Islam sincerely and apply it in their life, and all the Islamic World will welcome their leadership and the World future will prosper for all through sharing and caring, not through fake democracies, double standard, anglobilisation and colonization of Iraq, Afghanistan, and Palestine that brought nothing but destruction and human loss to all parties. **As if the old colonial principle of *"Divide and Rule"* is bening replaced by the new policy of *"Creative Chaos"*.** Indeed, if Britain in particular and Europe in general or even if USA adopt Islam now sincerely, they can lead this world with the original Islamic moderation, preempting violent radicalism, to lead the world into greater global peace, unity, and prosperity.

Perhaps, it is the time to thoroughly study Qur'an in its authentic English language with original Arabic language (i.e. King Fahd Complex version) as well as Sahih Al-Bukhari and Muslim (the 2 volumes of correct Hadiths – sayings and life – of Prophet Muhammad) as official textbooks in Law, Philosophy, and Theology sections of the Universities of London, Oxford, and Cambridge, in order to understand Islam First-Hand straight from its origin.

An Egyptian scholar (**Muhammad Abdu**) is quoted saying in the beginning of the 20th century: 'Europe (meaning west) is Islam without Muslims, but the East is Muslims without Islam' referring to the justice, equality, and other great human values currently prevailing in the West (similar to Islam in its original form), while condemning injustice and corruption prevailing in the East.

After all, it may be interesting here to quote 3 sayings for **Sir George Bernard Shaw** [(12)] in 'The Genuine Islam,' Vol. 1, No. 8, 1936:

- "I have always held the religion of Muhammad in high estimation because of its wonderful vitality. It is the only religion which appears to me to possess that assimilating capacity to the changing phase of existence which can make it appeal to every age. I have studied him - the wonderful man and in my opinion far from being an anti-Christ, he must be called the Savior of Humanity."....
- "I believe that if a man like him were to assume the dictatorship of the modern world he would succeed in solving its problems in a way that would bring it the much needed peace and happiness: I have prophesied about the faith of Muhammad that it would be acceptable to the Europe of tomorrow as it is beginning to be acceptable to the Europe of today."....
- **"If any religion had the chance of ruling over England, nay Europe within the next hundred years, it could be Islam."**

Islamic Legacy and Influence on Europe: [1][2][5a][5b]

while crusades had profound but localized effects upon Islamic world, where the equivalents of 'Franks' and 'Crusades' remained expressions of disdain. Muslims saw European Christians as rapacious invaders who had to be pushed back at all costs; the Pope's idea of a war of liberation had turned into what all wars turn into, a nasty brutish and long affair, made worse by religious hatred, greed, and the madness of idealism. The Arabic and Islamic world to this date, continue to call Western involvement in the Middle East a 'crusade'; the Crusades were regarded by the Islamic world as (unnecessary) cruel and savage onslaughts by European Christians. Conversely however, the Muslims did not at the very time of Crusades, shut out the Christians from the Holy Lands, but invited them to come **peacefully, as pilgrims**. They did come, but not just to Palestine in the East but also Spain in the South, where the Muslims opened up to them a new world of scientific knowledge and material culture. Here the best of Greco-Roman material culture had been preserved by the Muslims, who had noticed no particular contradiction between their religious faith and the material legacy of Greece and Rome in fact Islam urges its followers to seek knowledge (Prophet Muhammad said: 'Seeking Knowledge is a Duty for each Muslim –man or woman'. Thus, this contact was an eye-opening experience for the Westerners (See below).

European contact with the Muslim East brought not only a new wealth in goods, but also a new wealth in ideas. This East-West contact lasted long enough to bring the West out of its cultural isolation and back into contact with the ancient culture that had in one form or another continued on in the East. In the course of those two centuries, plunder began to be replaced by trade and military campaigns by visits of Westerners to centers of learning in the Islamic "East" (which importantly included Spain). It is here among Muslims, that the Westerners re-discovered their lost European heritage (especially the classic or "pagan" heritage of Greece and Rome).

Contrary to the negative influence of Papacy on Europe, the Islamic East had influenced Europe positively, resulting into 3 main phenomena:

A. Free Academic Thinking and Intellectual movement of Scholasticism

B. Protestant Reformations

C. Renaissance

A. Free Academic Thinking and Intellectual movement of Scholasticism:

By the middle of 12th century, a new spirit of energy seemed to be flowing through European culture. This was a period of rapid growth of European learning (and, somewhat to the distress of the church), a new spirit of "free-thinking". Soon this hunger for learning was pushing some of the teachers into ever deeper intellectual inquiry. As ancient works of Aristotle were reintroduced to the West from the Muslim East, scholars began to gather at the new "universities" which were growing up out of the cathedral schools. Here language, logic and science came under rigorous study. Scholars such as ***Thomas Aquinas*** were gathering at these universities to rediscover the full array of Aristotle's and Plato's writings--and other "pagan" or pre-Christian writers. Slowly their insights into life were not only broadening, but being refined by the tough intellectual disciplines of logic, mathematics, law, medicine, and astronomy. This all eventually became disciplined into the intellectual movement known as "scholasticism."

(The Medieval European Scholars influenced directly and/or indirectly by the writings of Islamic Scholars are so many that the list is almost endless, but here are a few prominent names;

1. **Adelard of Bath**
2. **Peter Abelard**
3. **Robert Grossetteste**
4. **Alexander of Hales**
5. **Albertus Magnus**
6. **St Thomas Aquinas**
7. **St Bonaventura**
8. **Duns Scotus**
9. **Roger Bacon**
10. **Marsilius of Padua**
11. **Richard of Middleton**
12. **Nicholas Oresme**
13. **Joannes Buridanus**
14. **Siger of Brabant**
15. **John Peckham**
16. **Henry of Gant**
17. **William of Occham**
18. **Walter Burley**
19. **William of Auvergne**
20. **Dante Algheri**
21. **Blaise Pascal**

And numerous others. The well-known early 12th century Englishman *Adelard of Bath*, often proudly acknowledged his debt to the Arabs:

"Trained (as he says) by Arab scientists.... I was taught by my Arab masters to be led only by reason, whereas you were taught to follow the halter of the captured image of ancient authority (i.e. authority of the Church)".

[Tina Stiefel, The Intellectual Revolution in Twelfth Century Europe; St. Martin's Press, New York; pages 71, 80]

It is said that the autonomy of knights Templar (see below) brought with it another commodity in very short supply in medieval Europe – ***freedom of thought***; indeed, they were instrumental in bringing to the West advanced Arab techniques in surveying, medicine, architecture and masonary. The Templars' open-mindedness was effectively unique in European society for another 150 years, until the beginning of the Renaissance in the mid-1300s. In Outremer, as they called Palestine, they adopted many habits from their erstwhile ebenies. Some leading Templars spoke fluent Arabic (often learned during periods of captivity) and many employed Arab secretaries. As a result, they were exposed to the learning of this alien culture, where knowledge in many fields was far in advance of their Christian opponents. Arab centres of learning were at that time the repository of much wisdom, and their libraries contained many ancient Greek and Egyptian manuscripts that had been lost to the West: medical authorities such as the Corpus of Galen, the Aphorisms of Hippocrates and books dealing with astronomy, physics and mathematics. These treasures had perished in Christendom during the Church's fanatical destruction of 'heretical' books. The Templars' growing power and de facto autonomy allowed them to investigate these new sources of learning without the ever-constant fear of ecclesiastical interference and the threat of the state. Such willingness to accept new ideas and new concepts brought great advantages (to the West)[9].

E. Protestant Reformations[5d] (in 14 and 15 century, brandished as heresies by Papacy)

Contact with Muslims revealed to westerners the simplicity and sincerity of Islamic message. Adherence to Allah's word of Qur'an, Believe in the Oneness of God without association in form of personal idolatry (Protestants advocate stricter adherence to scripture, and viewed the worship of saints and Mary as a form of idolatry), Equality of all men before God; Islam forbids usury and heavy taxation that enslave humans, and made liberation of slaves a form of worship highly rewarded by Allah (God). Every Muslim is directly connected to God Allah for repentance without intermediary (or the need for indulgences – as Catholic Church did). Every Muslim has direct access to the Holy Qur'an (word of Allah) in his own Arabic. Also, there is no celibacy. Thus the 12th century years were accompanied by an evangelical "awakening" among the people, often which had as its object the reform of the corrupt institutional church. This in turn brought Papal condemnation for the mere disobedience and the embarrassment it caused Rome, as much as for doctrinal errors. The Papacy labelled all reform movements and reformers as **heresies** or **heretics**. Some of the Reformers (e.g. Calvin and also Luther) were each brandished as **Muhammad of Europe**!!! With the defeat of Spanish armada in 1588, the Spanish (Catholic) empire was waning and another British (Protestant) empire was rising.

One of the principal movements influenced by Islam (brought back from the East during the crusades), was the **Cathars** (from Catharos, a Greek word meaning "Pure One.") also known as **Albigensians** from Albi, a town in southern France where they were numerous (also, northern Italy and Germany). Catharism incorporated diverse religious elements; there is evidence of a strong connection between Catharism, Muslim Sufi communities and the Jewish Kabbalist tradition. The Sufi word comes from the Arabic safa, meaning clear like blue sky; it is true that 13th century Cathars did wear blue robes while the modern neo-cathars favour this colour as well. Cathars were closely associated with the Troubadours (from Arabic *tarab*, songs, and *dour*, move around; thus meaning the moving singers), the writers of romantic poetry, and were thought to believe that God was manifest in nature's colours and sounds. The Cathars were considered by rivals as dualist – they believed that there were 2 Gods: a pure God that created the heaven and things spiritual, and an Evil god that created (or associated with) all physical and temporal. They believed that while Jesus is an exalted being, he is not of the same status as the Father (God). Cathars were exemplary people in their personal lives of piety and charity, in obvious contrast to the average Christian priests, and well loved in their communities. Indeed, they were liked and protected both by the upper classes and by their Catholic neighbours to such an extent that, when the Roman Catholic Church later attacked (under the guise that they desecrate the cross and the sacraments, committed cannibalism, sexual orgies, and renouncing Christ), many Catholics chose to die rather than turn their Catharan neighbours over to the Church. In the south of France they may have even become a majority of the population, though most of these Cathar followers would have remained good Christians and would have continued their observance of regular Christian worship. The savagery of the 30-year-long attack decimated Lahgedoc city with 60,000 – 100,000 killed. The commanding legate, Arnaud, was asked how to distinguish Catholic from Cathars, he replied: "Kill them all, for God knows His own"! Not a child was spared[5g]. The 30-year-long Albigensian crusade ushered in a 500-year-long period of brutal repression, the legend and scope of which has no parallel in the Western history[5g].

Another heresy of the times was the **Waldensians**, named after their founder Valdes, a wealthy merchant of Lyons who, around 1175 gave up his wealth and took up the way of an itinerant preacher of the gospel. He taught that only scripture should be the ground of faith and anything that has no scriptural warrant should be rejected, thus he promoted true poverty, public preaching and the literal interpretation of the scriptures, and rejected indulgencies, purgatory, and transubstantiation (conversion of bread and wine into Christ's body and blood). Though he gathered supporters (called **'Poor Men of Lyons'**), he drew the opposition of the local bishop for preaching (which was restricted to clergy); an appeal to Rome in 1179 resulted in refusal and their excommunication in 1184 (along with the Cathars). But early in the 13th century, Pope Innocent III began in earnest the stamping out of these heresies, Waldensians as well as Cathars. In France, ***Albigensian crusade*** against the Cathars was announced in 1209 by Innocent III, and northern barons took this opportunity to invade the south of France in the quest of new lands; as a result, over the next 20 years southern France's cities and countryside were laid waste and her culture shattered. In 1243 the last bastion of Catharism in southern France was destroyed. Cathars and Waldensians were victims of a merciless crusade and a relentless Inquisition.

The Knights Templar were ironically the most famous victims of the **Papal Inquisition**, and an excellent example of how the Inquisition could be manipulated for personal and political gain. The Knights Templar were founded in 1119 AD, supposedly to

protect pilgrim routes to the Holy Lands. Over time, these warrior monks became key figures in the Crusades (one source estimates that over 20,000 Knights Templar were killed in the Crusades). The Templars were notable for the fact that they answered only to the Pope, and not to any local ecclesiastical authority. In time, the Templars established local offices (called Temples) throughout Western Christendom. Always innovative, they started what is considered by many to be the first European banking system, and it was their involvement as bankers that eventually led to their downfall.

By the early 14th century, King Philip IV of France was deeply in debt to the Paris Temple. Indeed, the Templars were the medieval equivalent of today's international bankers. Louis VII borrowed from Templars to help finance the 2nd Crusade, and during the 13th century the Templars regularly provided loans for the kings of Aragon. Their rates of 10% per year was lower than the European 20% charged by Jewish moneylenders; the trade was brisk and the profits huge. When the Saracens (Muslims) captured King Louis IX of France (in Mansorah of Egypt after French Crusades invasion) and demanded 800,000 bezants for his release it was the Templars who forwarded almost the entire amount to ransom the sovereign from the hands of Muslims. Thus, by the 13th century, France was financially indebted to all major European moneylenders, particularly to the Templars. Thereafter, King Philip of France known as **Philip le Bel ('the fair')** had initially targeted 2 groups: the Jewish moneylenders and the Lombards, usurious merchants of northern Italy who also ran a number of banking establishments. Despite lending Philip enormous sums of money, from 1291 (the year the Outremer or Palestine as it was called was lost finally to the Mamluk Muslim armies under the commanders of Kavalun and his son) the Lombards were subjected to arbitrary arrests, fines, seizure of property and expulsion. The Jews fared no better. In midsummer of 1306, a little more than a year before the Templars were suppressed, every Jew in the country was arrested and their goods and property made forfeit to the state. Left penniless, they were unceremoniously expelled from the realm. Furthermore, France's taxation was not enough; in June 1306, Philip tried another, altogether riskier ploy: he devalued the French currency by a massive two-thirds of its current value. The kingdom erupted in anger and there were riots in Paris. At the time, Knight Templars shared with the Jews and Lombards one important disadvantage – they were actively disliked and mistrusted by the general population. In many regions there was good reason for such suspicion: almost 200 years of unfettered autonomy had undoubtedly taken their toll on Templar morals; unbridled power had certainly corrupted many of the local commanderies, and their reputation for pride and avarice was well founded. The original occupation of Jerusalem by the infidel 'Turk' had been seen by most Christians in strictly feudal terms: the Saracens (Muslims) had usurped God's sacred kingdom and it was up to all Christians to redress this wrong. Thus, it had come as a supreme shock when Christendom was finally and definitively defeated by the Mamluke sultans, and the 'infidel' (Muslims) took possession of the entire Holy Land. God had failed Christendom, and its fighting men had proved inadequate to the task of defending the Holy Land. The shock felt by the whole of Christendom at this defeat resulted in a colossal collapse of morale. To compensate for this colossal spiritual and material disaster, there had been a desperate attempt to apportion blame, a search for someone responsible for the debacle, a scapegoat. With the loss of the Holy Land, the criticism changed to one of outright treason, of selling out to the Arabs. Unlike the common run of men, the Templars were exempt from **tithes** (**Saladin Tenth**, a tax consisting of the tenth of a man's income, first imposed in 1188 on England and France for the support of the crusade against Saladin) and taxes, and from both church and secular law[9].

King Philip knew that the Templars would be a tougher nut to crack than either the Jews or the Lombards, to arrest the Templars would be illegal, as they were under the sole authority of the pope. However the Inquisition had been instituted in 1231 by Pope Gregory IX for the express purpose of seeking out and suppressing heresies of all kinds. For Philip, the Inquisition was the key. It was ostensibly an arm of the papacy, to whom the Templars owed allegiance and whose authority they were duty bound to acknowledge. King Philip ordered the arrests of the Templars under a cloak of legal respectability by claiming that the request for the arrests had come originally from Guilliame de Paris, the Chief Inquisitor of France, and an acknowledged deputy of the pope. At dawn, on Friday the 13th (a day forever since regarded as unlucky) of October 1307 the king's men broke into the Templar houses and preceptories and arrested every Templar they could find [9].

In 1307, King Philip charged the order with heresy. Charges eventually brought against the Templars included that postulants were required to deny Christ and spit on the cross, and that **the Templars worshiped** a mysterious head named **"Baphomet"**(perhaps a mangling of **Mohammed**, or even *bufatima*, a corruption of Arabic *abufatima*, literally ***'Father of Fatima'***)? Although the name was a matter of some dispute, but it now seems clear that it is derived from the argot of the Spanish Moors, *bufihimat*, which is itself a corruption of an Arabic word *abufihamet*, literally ***'father of Wisdom'*** [9].

These charges were never proved, except in confessions received under torture at the hands of the Inquisition. The Inquisition of France brought the formal charges against the Templars. This was necessary because, as previously noted, the Templars were immune from local ecclesiastical jurisdiction. The Council of Vienna in 1312 officially dissolved the order, giving most of their property to a similar order, named the ***Hospitallers***. The final part of the saga of the Knights Templar occurred in 1314, when Templar Grand Master Jacques de Molay was burned alive, after recanting of his earlier confession. After the Templars were dissolved, the French crown received cancellation of all debts owed to the Templars, as well as much of their monetary wealth.

The contact with Islamic East also re-kindled interest in translating the bible from Latin to local language, and *inter alia* detesting Church's monopoly of Latin Bible and its selling of indulgences for repentance and its policy of celibacy. The **Protestant Reformation**, also referred to as the **Protestant Revolution**, or the "Lutheran Reformation", was a movement in the 16th century to reform the Catholic Church in Western Europe.

The Roots and precursors for Reformation were:

Anti-hierarchical movements: Catharism, Waldensianism, and Guelphs and Ghibellines

- Avignon Papacy ("Babylonian Captivity of the Church, ") and Great Schism.
- John Wycliffe, William Tyndale and John Huss
- Lutheran Reformation
- Ottoman Islamic Caliphate's presence and pressure in the Eastern Europe

The Reformation was formally started by Martin Luther with his 95 Theses on the practice of indulgences. On October 31, 1517 he is said to have posted these theses to the door of the Castle Church in Wittenberg (Germany), commonly used to post notices to the

University community. In November he sent them to various religious authorities of the day. The reformation ended in division and the establishment of new institutions.

The four most important traditions to emerge directly from the reformation were

- the Lutheran tradition,
- the Reformed/Calvinist/Presbyterian tradition,
- the Anabaptist (adult baptism) tradition, and
- the Anglican tradition.

Subsequent protestant traditions generally trace their roots back to these initial four schools of the reformation. More thorough historians place the beginning of the Protestant Reformation further back in time and see Wycliffe as the beginning, Jan Hus as the middle and Luther as the end of the Reformation **(see chapter 2).** The Reformation in Bohemia a hundred years earlier had a strong influence on neighboring states and on Luther himself who called himself a hussite. Unrest in the Western Church and Empire culminating in the Avignon Papacy (1308–1378), and the papal schism (1378–1416), excited wars between princes, uprisings among the peasants, and widespread concern over corruption in the monastic system. A new nationalism also challenged the relatively internationalist medieval world. The first of a series of disruptive and new perspectives came from John Wycliffe at Oxford University, then from John Huss at the University of Prague. The Roman Catholic Church officially concluded this debate at the Council of Constance (1414–1418). The conclave condemned John Huss, who was executed (he had come under a promise of safe-conduct) and posthumously burned Wycliffe as a heretic. The Catholic counter-reformation in response to Protestant reformation led to series of civil wars in France and England as well as the bloody 30 years War involving Germany, Sweden, France Denmark, the Netherlands, and the Holy Roman Empire represented by the Hapsburgs. On August 24, 1572, for instance, in what is known as 'the massacre of St. Bartholomew's Day', 10,000 Protestants were slaughtered in France. Pope Gregory XIII wrote to France's Charles IX: 'We rejoice with you that with the help of God, you have relieved the world of these wretched heretics' [5g]!!!

As for the Ottoman Turkish Islamic contribution to the Protestant Reformation[10][11], Kenneth Setton argues in (**Lutherism and the Turkish Peril, 1962**) that most Germans did not give much thought to the Turks at all until after they defeated the Hungarians at Mohacs in 1526. Even then public attitudes had shifted somewhat from those of the Middle Ages. Whereas Luther, like many medieval writers, tended to see the Turks and Islam in general as a punishment from God, Setton shows that public opinion was changing in the sense that instead of calling for a new crusade, most Germans felt that the war against the Turks should be fought by the state. Furthermore, on a cultural/religious level, he makes the point that there was more disdain for the Christian Turks –who should have known better and become Protestant – than there was for the Muslim Turks, who really did not know any better. He notes, that while the Turkish defeats at Malta and Lepanto were welcomed in England, they were a far greater relief in Spain, Italy, and Asustria; simultaneously, there was a subsequent rise of anti-Catholic feeling in Istanbul "which played into the hands of the Protestants and, as time passed, proved of no small commercial advantage to England and Holland, where the upper bourgeois could easily moderate their hostility to Islam". **Several generations of scholars have more or less agreed that the Ottomans "saved"**

Protestantism –which is yet another way of saying that the West would not have 'risen' if it were not for Islam.

Some historians have called the **Turks "allies of the Reformation"** because the Ottoman campaigns in central Europe helped to divert the military energies and economic resources of the Papal-Hapsburg powers who wished to root out the Lutherans and other 'heretics'. In fact, the Turkish authorities were more tolerant of Protestantism than were many of the Roman Catholic princes, and Ottoman rule in Balkans was generally less exploitive than that of the Roman Catholic nobles who had held power there before the Ottoman invasions. Thus it was that Balkan peasants in the 16th century used the saying, **"Better the turban of the Turk than the tiara of the Pope."** It was the Ottoman threat that forced Charles V and his German allies to concede freedom of religious practice to Lutheran sectarians during the crucial period of the 1520s and 1530s. Luther, like many other preachers, both Protestant and Catholic, believed that ***"The Turks are the people of the wrath of God"*** come to scourge Christians for their sins. In his response to the Pope, however, Luther defended the principles that **"to fight the Turks is to resist the judgment of God upon men's sins.** Although Luther's position may well have been an objection "less to fighting against the Turk than to fighting under papal leadership".

In Protestant England, Elizabeth I was to pursue a policy of commercial and military alliance with the Ottoman sultanate [Caliphate], especially during the period of open hostility to Spain. In 1585 her powerful councilor Walshingham instructed William Harborne, the English ambassador to the Sultan, to urge a military alliance between England and the Turks. Walshingham hoped for a Turkish attack on Spain that would "divert the dangerous attempt and designs of [the Spanish] King from these parts of Christendom. But more than that, Walshingham expressed the hope that Spain and Turkey, the two 'limbs of the Devil', might weaken each other and allow for 'the suppression of them both' [pages 35-36 and 211-214 of 'Western Views of Islam'].

C. Renaissance(1)(2)(5a-5b):

(See also above under *'Islamic Presence in Europe'*) Renaissance is the historical age in Europe that followed the Middle Ages and preceded the Reformation, spanning roughly the 14th through the 16th century. However, the tentative beginning started from the second half of the 12th century when the rediscovery of Aristotle strongly reshaped the intellectual development of Europe. Aristotle was brought to the West through the works of the Muslims, Avicenna (early 1000s) and Averroes (mid-1100s).

"The Arab has left his intellectual impress on Europe as before long, Christendom will have to confess; he has indelibly written it on the heavens, as anyone may see who reads the names of the stars on a common celestial globe."

[John W Draper, History of the Intellectual Development of Europe; , Harper & Row; vol 2, 1876 and 1904; page 42].

"One of the hallmarks of civilized man is knowledge of the past – whether the past of an individual's own family, tribe, nation, or culture; the past of others with whom one's own culture has had repeated and fruitful contact; or the past of any group that has contributed to the ascent of man. The Arabs fit profoundly into both of the latter two categories. But in the West the Arabs are not well known. Victims of ignorance as well as misinformation, they and their culture have often been stigmatized from afar."

[The Genius of Arab Civilization - Source of Renaissance Editor John R Hayes. Phaidon Press Ltd. Oxford 1976, page 2].

This intellectual import owned nothing to Christianity but relied purely on secular reason. For instance:

Avicenna (ibn Sina) (980-1037) the Muslim Chief Physician, the father of Islamic Medicine and the author of the textbook of Medicine 'Canon' which became the reference in European Medical colleges for many centuries. The word medicine is derived from Latin *medicina*. Arabic *madat Sina*, the material/subject/lectures of Sina (Avicenna or Ibn Sina)

Averroës (ibn Rushd) (1126-1198) Andalusia (Spanish) Muslim Philosopher and physician dominating European philosophy and intellectual activities; the word college is derived from Latin *collegium*, from *col-*, together, and *legere*, to gather, or to read. Arabic *coll'eyah*, college or collective course of related studies, *–plural coll'eyat*. The word is derived from the original book *'collegiate of Medicine'* by Ibn Rush'd or Averroes.

Although Europe had been exposed to Islamic culture for centuries through contacts in Iberian Peninsula and Sicily, much Islamic thought, such as science, medicine, and architecture, was transferred to the west during the crusades. The military experiences of the Muslims also had their effects in Europe; for example, European castles became massive stone structures, as they were in the east, rather than smaller wooden buildings as they had typically been in the past. The need to raise, transport and supply large armies led to a flourishing of trade throughout Europe. Roads largely unused since the days of Rome saw significant increases in traffic as local merchants began to expand their horizons. This was not only because the Crusades *prepared* Europe for travel, but rather that many *wanted* to travel after being reacquainted with the products of the Middle East. This also aided in the beginning of the Renaissance in Italy, as various Italian city-states from the very beginning had important and profitable trading colonies in the crusader states, both in the Holy Land and later in captured Byzantine territory.

Despite the ultimate defeat in the Middle East, the Crusaders **(from the Western Europe)** regained the Iberian Peninsula permanently and slowed down the military expansion of Islam. But again such last bloody crusades on Andalusia bounced back against Europe with Islamic counter-attack **(from the Eastern Europe)** and in particular on Constantinople with its fall at the end of the Middle Ages (1453) which was only the beginning of further Islamic advances. Islam swept all over the Balkans; it took all the Eastern Mediterranean islands, Crete and Rhodes and the rest; it completely occupied Greece; it began pushing up the Danube valley and northwards into the great plains; it destroyed the ancient kingdom of Hungary in the fatal battle of Mohacs and at last, in the first third of the sixteenth century, just at the moment when the storm of the Christian Reformation had broken out, Islam threatened Europe close at hand, bringing pressure upon the heart of the Empire, at **Vienna twice in 1529 and 1683**. It is not generally appreciated how the success of Luther's religious

revolution against Catholicism in Germany was due to the way in which Islamic pressure from the East was paralysing the central authority of the German Emperors.

Thus such direct contact with Arabs in their homeland constituted an important channel for linguistic influence; many Crusaders on their return home to Europe brought with them many stories of their (living and social) experience in the Arab World as well as many items such as carpets, chess, and varieties of food stuff. Such Crusaders had themselves, introduced many Arabic words into French and English. The French in particular acted as a medium of direct linguistic borrowing and linguistic transfer of Arabic words into French; at the same time the immense French (Norman) linguistic influence on English acted as an indirect medium for transfer of Arabic into English Language (See Chapter Two – English: The Melting Pot of European Languages). Despite the religious zeal and fanaticism culminated by Human and scientific catastrophe of burning Muslims and Jews with thousands of their Escurial books publicly, by Spanish Inquisition Tribunals established, following the so-called Spanish Reconquest in 1492, and latterly by the Humanist Anti-Scholastic movement could not wipe out Arabic memories of 8 centuries in Spain, or delete their impact on Europe.

It was the Arab/Muslim Doctors and scientists who propounded their scientific facts and solid theories based (not only on trials and errors, but) on experimental animal works, interventional human procedures (e.g. anatomical dissection, pharmacological manipulation, and comparative works) and observational studies; Arab Medicine and Sciences had prolonged, deep, and indelible influence on European Medicine and Sciences. Most of Arabian Scientific books in Medicine, Surgery, Optics, Apothecary, Chemistry, Physics, Geology, Arithmetics, Algebra, trigonometry, and in Philosophy were then translated into Latin by many translators, notably by Gerard of Cremona (1114-1187 AD) as well as Constantinus Africanus (1020-1087 AD) and Faraj Ibn Salim (Moses Farachi). The latter was a Sicilian Jew who at the order of King Charles of Anjou (of Sicily 1226 – 1285), undertook the arduous assignment of translating Rhazes "Liber Continens" (medical encyclopedia) 23 volumes from Arabic into Latin during the translator's lifetime, finishing circa 1279 in Sicily; the "Liber Continens" for instance, became the textbook of Medicine for all European doctors for many centuries. At Toledo, Gerard translated into Latin the Arabic books: Canon of Avicenna, the surgery of Albucasis, the Mansuri of Rhazes, as well as Arabic books of Alkindi (died 873) and of Thabit ibn Qurra (died 901). Constantine the African in South Italy translated into Latin, part of Liber Regalis (medical encyclopedia) of Haly Abbas then died in 1087 and Liber Regalis was subsequently completed by John the Saracen and then by Stephen of Antioch in 1127. Adelard of Bath translated into Latin the Arabic books of Al-Khwarizmi (9th century): Liber Alchorismi (in arithmetics), and Astronomical tables (trigonometry) in 1126.

Furthermore, many Arabic philosophical stories found their way to Europe albeit, in corrupted versions, for instance: Tarzan, the hero of the stories by Edgar Rice Burroughs about a man brought up by apes. Tarzan stories are adopted and corrupted from 'Yaczan' or 'Hai bin Yaczan' story by the Andalusian doctor and philosopher Ibn Tufail (written before 1185 A.D.); it was about a baby left in a cot that took him to an island shore, where he (Hai Ibn Yakthan) was adopted by a dear mother who had lost its baby. The boy grew up and then his adopting mother died; he was shocked and started dissecting the dear body and its heart looking for her soul, and he then started his spiritual journey about the secrets of life and

death leading him ultimately to the Creator God (Allah), the Creator of life and everything. The anatomical description of dissected dear indicated the author's (Ibn Tufail) immense knowledge in animal dissection. His book was hailed in Europe as a masterpiece and most creative work, blending medicine and philosophy. It was translated into Latin as "Philosophus Autodidactus" by Mirandola (1494 A.D.) and Pocock (1671 A.D.) and appeared in many other languages. Furthermore, "Robinson Crusoe" by Daniel Dofoe; "Tarzan" by Edgar Rice Burroughs; and "Jungle Book" by Rudyard Kipling were all corruptions of the original story of "Hai Ibn Yakthan" or "Philosophus Autodidactus".

More interestingly, Arab and Muslim doctors rectified many false theories of Greek doctors. For instance, Galen's authority forced generations of Doctors in Europe to apply his knowledge of animal anatomy to human beings. When the seats of learning fell into hands of the Church, his writing became like Gospels and bore the stamp of the Church's authority and infallibility (until the Arabs corrected Galen's misconcepts in Anatomy). While scientists and physicians were venerated and supported by the Caliph himself in the Islamic world, there was a different story in Europe, where Doctors and Scientists had uphill struggle against the Church's teachings, despite European Renaissance.

In the 14th century, professor of Anatomy Mondino de Luzzi at Bologna of Italy (1275 - 1326, also known as the restorer of Anatomy) risked excommunication by the Church for suggesting that a better knowledge could be obtained from dissecting a human corpse than reading the writings of Galen! Mondino was the first to dissect human bodies during the Middle Ages. In 1326 he published his 'Anatomica or Anathomia' a handbook of anatomy which remained as dissecting manual for nearly 2 centuries. He used many Arabic terms and despite later purification of medical terminology, some Arabic terms have remained.

Andreas Vesalius (1514-1564 AD) of Brussels, the so-called 'the father of modern human anatomy' refused to accept slavishly anatomical teachings of Galen, the Greco-Roman physician and authority but rather to seek corroboration and to note discrepancies by the observational method of dissected human cadavers. He was known by his enemies as the body-snatcher! The Flemish Vesalius began to learn Arabic, Greek and Latin languages through able Spanish Jewish Doctors. Initially, he wrote ***"A Commentary on the fourth Fen of Avicenna"*** and latterly in 1537 AD, he published his baccalaureate thesis, ***"Paraphrase on the Ninth Book of Rhazes"*** at Louvain. His masterpiece, ***"De Humani Corporis Fabrica Libr. Septem"*** (Seven Books On The Structure Of The Human Body) and its companion volume the ***"Epitome"*** issued at Basel in 1543 AD established a milestone in the history of modern surgical science and medical art. It was a fruitful outcome of his studious learning of the sciences and arts of Arab Medicine.

The Spaniard Michael Servetus, a classmate of Vesalius attacked Galen and wittingly or unwittingly, confirmed ***Ibn Al-Nafis' concept of pulmonary circulation (300 years earlier).*** He stated that the vital spirit was generated by the mixture in the lungs, of the air breathed in and the blood of the right ventricle of the heart, which after purification, is delivered to the left side of the heart. He was executed (burnt on the stake) by the church on 26th October 1553 for his sins!!!

While the fact of the earth revolving around itself and moving along an orbit around the sun, was long known in the Islamic world and to Muslim Astronomists (especially to al-Bairuni and others, and also referred to in Qur'an) and Arab Scientists had also devised the compass, astrolabe, and watches (ranging from sun-dials, mechanical devices, and water watches) out of

religious necessity for timing of daily prayers and for knowing the direction of Qibla for building mosques in that direction (towards Ka'aba, the sacred and the oldest house of Allah in Makkah), but that was in Islamic world; in Europe there was an entirely different story. When Galileo attempted to re-introduce and promote the heliocentric theory in the 17th century's Europe, he challenged the Church's theory that the sun revolved around the earth. He was therefore tried by the Inquisition in Rome and was subjected to prolonged ordeal; only in 1965 did the Roman Catholic Church revoke its condemnation of Galileo!!!

Also, the Catholic Church opposed much of Newton's work (laws of motion and of gravity) based on experimental evidence as a testimony to the belief devoid of supernatural influence on the physical world (since he thought that universe is operated upon a thoroughly impartial, mechanical and deterministic basis)! By the way Newton believed that "Trinitarianism was a fraud and that Arianism was true form of primitive Christianity" (Arianism: doctrine of Arius that Christ was not consubstantial with God).

The Church's impact on education was devastating; in 391 Christians burned down one of the world's greatest libraries in Alexandria, said to have housed 700,000 rolls, all the books of the Gnostic Basilides, Porphyry's 36 volumes, papyrus rolls of 27 schools of the Mysteries, and 270,000 ancient documents gathered by Ptolemy Philadelphus were burned. Ancient academies of learning were closed. Education for anyone outside of the Church came to an end.[5 g]

It is interesting here to notice a comparison between the civilized Islamic East and medieval Christian West: that when Islam inter-acted with nomad Arabs, Islam converted them into most civilized nation on Earth, but when the Church inter-acted with Europeans, The Church pushed Europe into Dark and Bloody Medieval Ages which continued until Renaissance which was only possible after contact with Islamic East, when massive efforts were made on mega scales to translate and study in details the Arabic Textbooks (in Latinized versions).

4. Commerce and Technology [1][5a]

The Islamo-Arabic presence in Spain and Sicily from the 8th century onwards and the European presence in the Levant during the Crusading period would in themselves have led to a certain sharing of culture, or -to be more precise- to the adoption by western Europeans of many features of Islamic culture, and that include linguistic sampling and adoption of many Arabic words (Also see under ***'Arabic Element of English Language'*** in **Chapter two**).

Arabs had contributed techniques of sea-faring, mariner's compass, nautical charts used by navigator with many associated Arabic words such as: ***admiral, cable, shallop or sloop, barque, monsoon.*** They manufactured the ***gun-powder*** too. In china, the Arabs found, not only silk and porcelain, but also gunpowder, saltpeter (Chinese snow), and paper. Europe had depended on papyrus, but its availability had decreased following the conquest of Egypt by the Arabs. It had never been a freely manufactured item; its production had been a state-controlled monopoly in Pharaonic, early Roman, and Christian Roman times. Invented about AD 105 in China, **papermaking** was brought to Samarqand by Chinese prisoners of war in 751. There the manufacture and export of this product were initiated. The vizier of Harun ar-Rashid, Yahya the Barmakid, built the first paper mill in Baghdad about 800. The use of paper spread through Syria, North Africa, and Spain; by 1190, Roger II of Sicily could issue a paper document. By contrast, it was not until the 12th century that the first European paper mills

were established. Silk production also moved westward with the Arabs, who introduced the cultivation of mulberry trees [which silkworms feed on] at Gabes, south of Tunis. Similarly, the cultivation of cotton no longer remained an Indian specialty but was brought to North Africa and even to Spain. Other Indian and East Asian crops were transplanted to the regions of the Arab empire [Islamic World]: sugarcane to Egypt, Cyprus and Spain, and Indigo to North Africa.

Arabs also contributed techniques of agriculture, agricultural products, and minerals through their Spanish civilization. The development of irrigation systems had led to growth of new products in Europe such as: ***sugar-cane, rice, oranges, lemon, aubergines, artichokes, apricots*** and ***cotton***. For all these even the English words came originally from Arabic. Arabs also cultivated many other plants such as: ***cereals, grapes, olives, figs, cherries, apples, pears, pomegranates*** and ***almonds*** together with many flavouring plants such as: ***saffron, carthamus or bastard saffron, cumin, coriander, henna, woad*** and ***madder***. Where there were sufficient mulberry trees, a silk industry flourished. **Flax** was cultivated too and linen was exported. Arabs also established Paper industry to spread education.

The mineral wealth of Spain was more fully exploited than in earlier times. Spanish iron, copper, gold, silver, tin and lead were all produced; mercury was extracted from the cinnabar. Precious stones were sought and collected.

The Arabs also contributed the arts of "**gracious luxurious living**" as seen in the fascinating building design of Alcazar of Seville and in the style of Alhambra and its beautiful fountains at generalef in Granada. They produced Luxury goods both for home market and for export, such as: gorgeous textiles in woolens, linens and silks; furs of many kinds; ceramic industry; painting of tiles. In Cordova, they evolved the secrets of **manufacturing crystals and mastered the handicrafts of metal work** producing elaborate vessels and inanimated shapes in brass and bronze and inlaid with silver and gold; by the 10th century, the jewelry produced in Cordoba was equal in quality to that of Byzantium. Also, the Arabs in Spain manufactured the artificial ice.

Professor Ragaei El Mallakh and Doctor Dorothea El Mallakh in (**The Genius of Arab Civilization - Source of Renaissance**) wrote: (But it was in textiles that the Islamic world excelled, and it is through the Arabs merchants that Europe came to know a wide range of fabrics. Of the words derived from Arabic in European languages, especially in English, a significant number refer to cloth – for example: **'gauze'** [from Gazza in Palestine], **'buckram'**, **'chiffon'**, **'satin'**, **'tabby'** (a cloth from 'Attabiyyah', a section of Baghdad), **'mohair'**, **'muslin'** (from Mosul), **'damask'** (from Damascus), and **'cotton'**. **Aniline**, a critical ingredient in textile dyes, was also introduced by the Arabs. Although industry developed far earlier in the Islamic world than in Europe, the very peculiarities of its development in Arab-dominated lands eventually made it noncompetitive with European industry. In the Arab world, industry was, for example, wholly under the control of the ruler; it was characterized by the lack of capital and failure of craftsmen to organize guilds.

In Islamic Spain the Arabs introduced concepts of municipal administration and measures for control of commerce. Words that reflect the lasting Arab influence on these economic activities: **'traffic'** (Arabic, tafriq, meaning 'distribution'), **'tariff'** (ta'rifah), **'check'** (sakk), **'magazine'** (makhazin, as in French magazine, meaning 'store'), **'mancus'** (a term used for 'coin' in the Middle Ages, from 'manqush'), **'almanac'**, **'average'**, **'caliber'**, **'coffer'**, **'cipher'**, **'gabelle'** (meaning a 'tax' from the Latin cabala through the Arabic qabala), **'nadir'**, **'zenith'**,

'zero', and **'risk'**. Although some of these words can be traced to a Latin, Greek, or Persian source, they passed into European tongues through Arabic. The word **'sterling'**, for example, has an ancient Greek base, but it was transmitted into English through Arabic. In advancing the concept of the bill of exchange –*sakk*, or check – The Arabs made the financing of commerce more flexible. The second important contribution in this line was the development of joint stock companies, arrived at through the partnership of Muslim and Christian Italian merchants. Another significant Arabic contribution to European commercial development was expounded perhaps as early as the end of the 9th century in Damascus by Abu al-Fadl Ja'far bin Ali ad-Dimashqi in his work ***'A Guide to the Merits of Commerce and to Recognition of Both Fine and Defective Merchandise and the Swindles of Those who Deal Dishonestly'***:

> "There are three kinds of merchants: he who travels, he who stocks, and he who exports. Their trade is carried out in three ways: cash sale with a time limit for delivery, purchase on credit with payment by installment, and *muqaradah*".

The *muqaradah* in Islamic Law is a contract in which one individual entrusts capital to a merchant for investment in trade in order to receive a share in the profits. The investor bears all the financial risks; the managing party risks his labour. The concept of *muqaradah* was certainly a precedent for the *commenda*, a legal, commercial device largely responsible for the expansion of medieval trade. It served as a crucial instrument by which capital could be pooled and investor (i.e. *munfiq* derived from *infaq*) and manager could be brought together in an enterprise.

Concerned with the movement of goods to markets, the merchants of the Arab empire (Islamic World), *ipso facto*, made advances in the fields of geography and navigation. The commercial supremacy of the Arabs in the **Indian Ocean** and **Red Sea** was unchallenged for years before the rise of the Islamic empire, and that supremacy continued during the Middle Ages and renaissance, both at sea and on land. As these merchant-adventures moved about, their experiences bore fruit in the form of geographical writings and descriptions of distant lands and people, information which seeped into Europe through Spain, Sicily, and Byzantium. The best-known author among them is probably the noted geographer **al-Idrisi** (1100-1166), resident at the court of the Christian Norman King Roger II of Sicily (1130-1154). Far better known, however, are the glorious adventure tales of **Sindbad the Sailor**, and for these, too, we are indebted to the maritime merchants of the Arab empire (Islamic World).

Among the Arab contributions to **navigation** and **shipbuilding**, one should probably include the **compass**. The Arabs were most likely the first to use it, though refinements were added almost at once by European seafarers. A more critical innovation was the **lateen sail**, which the Arabs introduced first in the Indian Ocean and then, via the lateen caravel, in the Mediterranean. Using this sail, the Arab vessels could beat against the wind, unlike the square-rigged galleons of the Mediterranean, which could sail only before the wind. The principle of the lateen sail was taken over and developed by European shipbuilders, especially by the Spanish and Portuguese between 1140-1490. During this period they adopted a design using mixed lateen and square-rigged sails that was applicable to much larger vessels than before. The English word **'carrack'**, meaning 'galleon', can be traced from the Spanish and Portuguese carraca to the Arabic qaraqir, meaning 'merchant vessel'. Other maritime words of Arabic origin dot the English language: **'admiral'**, **'bark'**, **'cable**, **'sloop'**, **'monsoon'**, **'caliber'**, and **'average'**.

Scholarship in this century (the 20th century) has done much to place the crusades in perspective by showing that trade, commerce, and intellectual contracts were significant and healthy between Europe and the Arab empire (Islamic World) long before the Christian religious zeal brought about the drive 45to recover the Holy Land (Palestine). The knowledge in the West of the riches, the standard of living, and the commodities produced or available with in the Islamic empire helped to spur the religious impulse. In about the year 1184 Abu al-Hasan Muhammad bin Jubayr, an inhabitant of Spain who traveled to all the Islamic countries on the Mediterranean as well as to the Christian communities of Sicily, Sardinia, and the Holy Land, noted somewhat cynically that Muslims and Christians in Palestine continued to trade despite the war between their forces: (The military men are busy in their wars, the peoples trade in peace, and the world belongs to whoever takes it) he said.

From the 8th to the early 12th century, the trade between Europe and Islam consisted chiefly of the exchange of raw materials from Europe (wood, iron, furs, and slaves) for manufactured products and luxury agricultural items, such as spices, from the Arab empire (Islamic World). The lasting Islamic impact on Europe did not result from the military confrontations of the Crusades but rather from the long years of Arab/Muslim rule in Spain and Sicily. Through the innovations brought to these areas, new goods, processes, technology, and concepts were introduced into a Europe that was far less developed at that time than the world of Islam. That the debt of Europe and Western culture to Islam has been largely forgotten is evidence of how fully assimilated the Arab influence has been in the Western world. The Islamic contribution has become part and parcel of its heritage)[1].

5. British Empire and Muslim Colonies (particularly Middle East and India) [7)(8]

India was the largest jewel in the crown of the British Empire. Indeed, the English decision to defeat Napoleon in 1801 (after his occupation of Egypt in 1798) and to secure for themselves a military base in Egypt was to prevent the French from cutting their logistics and commercial routes to India. Similarly, the British decision to cultivate relations with Persia (1814 Treaty) and to push into Afghanistan sustaining heavy casualties in
1839-1842, was to prevent Russians from fulfilling their dream of capturing India via Persia and/or Afghanistan (Russian dream had never been materialized).

During these British adventures, the English language had been deeply influenced by the inhabitants of Muslim colonies who spoke mixture of Arabic, Turkish, and Persian and who had been ruled for more than 6 centuries by Arab Muslims during Umayyad and Abbasid Caliphate. Such reciprocal linguistic influence came out of the British necessity of communicating with the citizens they ruled, and out of profitable relations in commerce.

The British experience in India began some 400 years ago, during the reign of Queen Elizabeth I, when a few merchants applied for trading concessions from the all-powerful Mogul emperors.

By the end of the 15th century two European explorers claimed to have found other sea routes to the Indies. Christopher Columbus, who had crossed the Atlantic Ocean in 1492, went to his death but was still convinced that he had discovered the Indies (wrongly). Vasco da Gama, sailing for Portugal in 1497, actually did go round the southern tip of Africa (The Cape of Good Hope), and went on to reach the spice port of Calicut on the Malabar coast of

the south-western India; he also discovered the sea routes of Arab sailors to India. Da Gama's epic voyage fired the imagination, and the commercial hopes of Europe.

In 1583, a group of London merchants organized an expedition to India: Ralph Fitch, William Leeds and James Story set sail in the "Tyger". After landing at Tripoli in North Africa, they followed the overland route to India. Later, Fitch sang the praises of what he had seen: "Here is great traffic for all sorts of spices and drugs, silk and cloth of silk, elephants teeth and much China work, and much sugar which is made of the nut called 'Gajara'; the tree is called the palmer; which is the profitablest tree in the world".

Under pressure from the English merchants -and hoping for vast customs dues from direct trade with the East- Queen Elizabeth I granted in December, 1600, a charter to the "Governor and Company of Merchants of London trading into the East Indies". This company was soon to rise to paramount power in the Indian sub-continent. The chief commercial hopes of the company, however, were not based on India. Rather it hoped to break into the rich trade of the East Indian Spice Islands. Spices were clearly the commodity to aim for. Since much of Europe's livestock had to be slaughtered before each winter, spices were needed to **preserve meat during the cold season. Spices also flavoured food and hid the taste of bad meat.** But the Spice Islands (small islands like Amboyna, Ternate and Tidore, as well as the large East Indian islands Java, Sumatra, and the Celebes) already traded busily with the Dutch.

Expelled from the East Indies, the English concentrated on India as a 2nd best; the East India Company had made a landing on Indian soil in **1608**. William Hawkins arrived at Surat, a booming port on the west coast of India. The English had firstly to compete with the Portuguese and latterly with the French. Hawkins set off (as a British ambassador) with a hired retinue for Agra, the capital of the Mogul Emperor Jahangir (1605-1628), a Muslim of Turkish origin who spoke a mixture of Persian and Arabic, and ruled over a vast number of subject territories teemed with millions of people with conflicting religion and culture. From these simple beginnings and with the decline of the last Mogul King Shah Alam in **1803**, and by the end of the Napoleonic War in 1815, the **British in India became undisputed masters of a vast sub-continent until Indian independence in 1948**[7].

During the 300 years of British presence and colonization of Indian subcontinent and during British contacts with near-by Persia and Ottoman Turks, many apparently Indian, Persian, or Turkish words (originally of Arabic etymology, or adopted and conveyed by Arabs) were introduced into the English language by the British rulers and merchants themselves. The following words are only few examples of borrowed words in the English:

From the Hindi (Indian) came[8]:

"ayah, from Arabic sign of beauty and mercy" (nurse or maid), "kismet from Arabic qismah and Turkish qismet" (fate or destiny), "koran" (holy book of Muslims), "mogul" (name of a great Indian imperial dynasty), "mohammedan" (a follower of prohphet Mohammed, a Muslim), "muslims" (followers of Islam), "nabob, nawab from Arabic nawwab, plural of na'ib, deputy" (a Muslim prince in India), "pyjama from Arabic manama, loose trousers tied round the waist worn by Muslims to cover their 'awra' or private parts (a sleeping-suit in European use), "sahib" (respectable friend or Sir), "salaam" (greeting), "sepoy from persian sipahi" (Indian soldier in European service), "shah" (king) and "thugee or thugs from Arabic shagee" (thugs).

From the Persian came:

"barbican, babul khan" (watch-tower over the gate of a fortress), "baksheesh or

bakshish" (a tip), "bazaar or bazar" (market), "checkmate or shah mat" (king is dead), "chess" (a game played by shah), "khaki" (dust-coloured cloth used in military uniforms), "purdah" (the veil worn by Muslim woman, or a curtain for seclusion of women), and "shah" (king).

From the Turkish came:

"angora" (a goat with long white hair found in Ankara), "bey or beg" (governor), "begum" (Muslim princess, feminine of bey), "bosh" (nonsense), "kebab" (kabab), "khan" (prince), "khedive " (viceroy), and "yogurt" (yoghurt).

6. Muslims in the Americas before Columbus

This subject of influence of Arabic on American Language is becoming a fertile field of extensive contemporary research that it deserves an independent book on its own.

REFERENCES

1. **John R Hayes** (Editor). **The Genius of Arab Civilization - Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976, pages 2, 12-13, 201-205.

2. **Al-Fallouji M A R, Publications (The Author):**

   a. Al-Fallouji M: **Notes on the early history of Medicine** (Arabic Medicine, Arabic Surgery, The Arabic Legacy, The Greek Medical Legacy). In **'POSTGRADUATE SRUGERY – The Candidate's Guide'.** By MAR Al-Fallouji, Butterworth Heinemann Medical Books. Oxford. Second Edition (March 1998). Pp 616 – 620

   b. Al-Fallouji M: **Review of Literature** – Milestones, Pebbles and Grains of Sand (Chapter Two). In **'COLORECTAL VASCULAR PATTERNS IN HEALTH AND DISEASE** – An applied Anatomy, Physiology and Pharmacology at the Microcirculation Level **'. PhD Thesis.** By Dr MAR Al-Fallouji. December 1988. Royal Postgraduate Medical School/Hammersmith Hospital (UNIVERSITY OF LONDON). Pages 32 – 70

   c. Al-Fallouji: **History of Surgery of the Abdominal Cavity: Arabic Contributions.** (The First Large Bowel Anastomosis in the Literature) **International Surgery** September 1993; 78:3;236-8

   d. Al-Fallouji: **Arabic Caesarian Section: Islamic History and Current Practice** **Scottish Medical Journal** February 1993; 38:3-4

   e. Al-Fallouji: **Arabs were skilled in anesthesia.** **British Medical Journal** April 1997;:314:1128

   f. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery. Part I: General Considerations** **Emirates Medical Journal** August 1992; 10:174-7

   g. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery Part II: Arab-Islamic influence on Europe** **Emirates Medical Journal** December 1992;10:250-4

   h. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery Part III: Basic Applied Sciences in Surgery.** **Emirates Medical Journal** August 1993; 11:132-6

   i. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery Parts IV and V: Clinical Methods and Operative Innovations.** **Emirates Medical Journal** August 1998; 16:129-34

   j. Al-Fallouji: Surgery (general) Item no. 537 **Current Work in the History of Medicine** April-June 1997, 174 An international Bibliographical Journal of references The Wellcome Institute for the History of Medicine.

   k. Al-Fallouji: **History of Laparotomy for Military Trauma according to the Original Arabic Manuscripts.** In "Proceedings of 34th International Congress of the History of Medicine" held at Glasgow, Scotland 4-8 September 1994 (published in September 1995). British Society of the History of Medicine

   l. Al-Fallouji: **Arabic Influence on English Language in Medicine and Routes of such Linguistic Transfer.** In "Proceedings of 36th International Congress of the History of Medicine" held at Tunis - Carthage, 6-11 September 1998.

   m. Al-Fallouji: **Arabic Influence on European Medicine** (Invited Lecture delivered on 7th July 2004) **Thackray Museum Lectures 2004** Yorkshire Medical & Dental History Society Leeds (Great Britain)

1. Al-Fallouji: **History of Surgery in the Arab World** (Invited Lecture delivered on 11 Nov 1992) (Won the Prize for the best lecture)
3rd CONGRESS OF ARAB SURGEONS 10-13 Nov 1992 Tripoli, LIBYA

3. Ullmann M. **Islamic Medicine. Islamic Surveys 11**. Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1978.

4. Anna Pavord: **The Naming of Names** (The Search for Order in the World of Plants). Bloomsbury, London. 2005, pages 105-107.

5. 5. (a) Montgomery Watt W. **The Influence Of Islam On Medieval Europe.** Islamic Surveys 9 Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1972. Reprinted 1987.

   (b) Henry Coppee. **History of the conquest of Spain by the Arab Moors with a sketch of the civilization which they achieved, and imparted to Europe** (volume II). Gorgias press. 2002.

   (c) Chris Lowney. **A Vanished World (Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5, 10-13, 255-260.

   (d) Miles Hodges. **The High Middle Ages (1050 to 1400).**
   Retrieved from internet on 8/28/2006. Internet search through google.

   (e) Wikipedia, the free encyclopedia. **Crusade.**
   Retrieved from internet on 8/29/2006. Internet search through google.

   f) Robert Jones. **A Brief History of the Inquisition.** Retrieved from internet on 8/28/2006. http://G:\The%Inquisition.htm

   (g) Helen Ellerbe. **The Dark Side of Christian History**. Morningstar Books, 1995.

   (h) William Forstchen and Bill Fawcett. **It Seemed like a Good Idea – A Compendium of Great Historical Fiascoes.** published by Harper 2000, under 'There is Nothing Worse Than an Idealistic War' pages 25-32.

6. Brewer E C. **The Dictionary of Phrase and Fable**. Cassell. Millennium edition revised by A Room, 2002.

7. Judd D. **The British Raj (The Documented History Series).** England: Wayland (publishers) Ltd, 1987.

8. **Hobson – Jobson The Anglo-Indian Dictionary**. By Henry Yule and A. C. Burnell.
First published 1886 reprinted 1996. Wordsworth Reference (Wordsworth Editions).

9. Keith Laidler. **The Head of God – The Lost Treasure of The Templars**. Weidenfeld & Nicolson. London. 1998. Pages 169-221.

10. **John V. Tolan**. **Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York, 2002.

11. **Michael Frassetto and David Blanks**. Western Views of Islam in **Medieval and Early Modern Europe** – Perception of Other. St. Martin's Press. New York. 1999.

12. **QUOTATIONS ON ISLAMIC CIVILIZATION**. By Dr. A. Zahoor 1992, 1997, 1999. Website: Quotations on Islamic Civilization. mht.

❧❊❧